الهلال

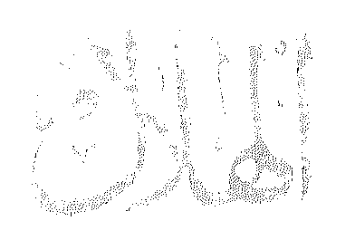
يناير ١٩٩٣ ـ الثمن ١٠٠ قرش

القرن المقبل قرن الصين

يحيى حقي
الثورة
الباطنة







مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال

أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط). المكاتبات: ص.ب: ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع. مجلة الهلال ت: ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس: 92703 Hilal un فاكس: FAX : 3625469

ثمن النسخة سوريا ٥٠ ليرة، لبنان ٢٠٠٠ ليرة، الاردن ١٠٠٠ فلس، الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ٨ ريالات، الجمهورية اليمنية ٢٥ ريالا، تونس ١٫٥ دينار، المغرب ١٥ درهما، البحرين ٨٠٠ فلس، قطر ٨ ريالات مسقط ٨٠٠ بيسة، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا، إيطاليا ٢٧٠٠ ليرة، لندن ١٢٥ بنسا، نيويورك ٤ دولارات، الامارات العربية المتحدة ٨ دراهم، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار، السودان ٤٥ ج.س.

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى ١٧ جنيها فى ج.م.ع. تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٥٠ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٧٥ دولارا - باقى دول العالم ٩٠ دولارا.

والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

فكر وثقافة

ندوة الهلال

فنون



أنشودة البساطة : يحيى حقى
* جزء خاص *

رسائل صحفية

علوم

يناير ١٩٩٣

أمير المقالة القصصية

رحل الأديب الكبير يحيى حقى فى هدوء ، وبنفس بساطته التى عاشها ، وبنفس الهدوء والسكينة اللتين تمتع بهما فى حياته التى امتدت لقرابة ثمانية وثمانين عاما ، ولكن تبقى لنا من أديبنا الكبير فنه وأدبه المتميز أسلوبا ولغة ومعالجة .

توثقت العلاقة بين يحيى حقى و « الهلال » فى السنوات الأخيرة ، حيث كتب « قنديلياته » الشهيرة فى الهلال ، وشارك بكتابة مقال فريد عن صديقه الأثير إلى نفسه محمود محمد شاكر ، وشارك فى ندوة تحدث فيها عن رؤيته للأدب ، واللغة التى ينبغى أن يكتبها ، كما نشر له كتاب الهلال عملين هما « خليها على الله » و« كناسة الدكان » .

لقد كنا نسعد به فى الهلال ، ونعتبره أبا روحيا لنا . نستمع إلى تاريخه الطويل فى الكتابة ، وعمله الدءوب حينما تولى رئاسة تحرير « المجلة » وفى هذا العدد تشارك نخبة من أصدقائه وتلاميذه فى إلقاء الضوء على أدبه وفاء وحبا وإخلاصا .

فى المتاحف العالمية

لوحة للفنان البريطانى جورج رومنى (١٧٣٤ – ١٨٠٢) تحمل اسم « الآنسة ديلوجبى » . وينتمى رومنى إلى ما يسمى بالسادة القدامى للمستقبليين . وتعتبر هذه اللوحة من كنوز الفن التشكيلى العالمى . وقد تخصص رومنى فى رسم مشاهير نساء عصره مثل لوحته المعروفة عن الليدى هاملتون .

اللوحة مرسومة على الكانفاه (٩١×٧١ سم) وقد رسمها الفنان عام ١٧٨٣ .

تعرض هذه اللوحة فى المتحف الوطنى فى نيويورك . (أنظر الغلاف الداخلى الأول للهلال) .

قصة وشعر

الأبواب الثابتة

عزيزى القارىء

معاً .. فى سنة ١٩٩٣

سلكت الرياح والعواصف والأمطار والأعاصير فى بداية شهر ديسمبر من عام ١٩٩٢ مسلكا هادئا ، ثم خلعت ثياب الهدوء فى نهاية ديسمبر وأخذت تعوى وتزمجر وتنهمر وتقصف ، كأنها تستكمل ما عجز الزلزال عن بلوغه من تذكير الناس بالتناقض بين الإنسان وبين مفاجآت الطبيعة ، وتحاول أن تقول للإنسان إن شعار « قهر الطبيعة » الذى رفعته المجتمعات الاشتراكية طوال سبعين عاما كان شعارا ساذجا ، وكان « طفولة يسارية » على حد التعبير الذى كان شائعا فى تلك المجتمعات ! ..

كان الزلزال هو « بصمة » عام ١٩٩٢ على صفحة الحياة المصرية ، بل والعربية ، لأن الزلزال فى مصر يهز القاهرة ويهز معها العواصم الناطقة بالضاد ، وقد فوجىء العالم العربى كله بأن عاصمته على ضفاف النيل قد زلزلها تشقق صغير فى القشرة الأرضية ، ثم استرد العالم العربى أنفاسه حين علم أن القاهرة صمدت للزلزال وخرجت منه بأقل الخسائر ..

لقد انتهى شعار « قهر الطبيعة » والشعار المرفوع الآن هو « حماية البيئة » .. أى حماية الطبيعة من عدوان الإنسان وعبثه وجهله ومشروعاته العاجلة التى تدمر حياته الآجلة ، ولكن هذا الشعار الجديد لن يحمى البيئة لأن النظام العالمى الجديد يملك الآن أن يقهر كل شىء : الإنسان والطبيعة معا ..

والعالم محتاج الآن ، وبينه وبين القرن الواحد والعشرين سبع سنوات فقط ، أن يتحرر من اللافتات الأيديولوجية الشرقية والغربية ، فإن « قهر الطبيعة » تحت راية الاشتراكية ، هو نفسه « تدمير البيئة » تحت راية الرأسمالية العالمية ! ..

ولم يشأ عام ١٩٩٢ أن يودعنا قبل أن يلقى بالمتفجرات الإرهابية علينا ! .. إن الإرهابيين الجهلاء المأفونين يتصورون أن السماء قد أسندت إليهم مهمة تبليغ رسالتها إلى الشعب المصرى ، فقاموا بتبليغها بأعلى الأصوات التى يملكونها : أصوات الرشاشات والقنابل وزجاجات المولوتوف ! .. ولكن الإرهابيين الذين أعادوا إلى الوجود ألقاب « الأمير » و « الإمارة » و « الخليفة » و « الخلافة » سقطوا أميراً بعد أمير ، واستسلموا خليفة بعد خليفة ، وأثبتوا بكل برهان من أعمالهم وأقوالهم أنهم أعداء الشعب المصرى ، وأن الشعب

المصرى لن يقبلهم أمراء ولا خلفاء ، وهم المشعوذون الدجالون ، والأفاكون الأفاقون ، وعبيد المال والسلطان ولذائذ الجنس والمخدرات ! ..

عزيزى القارىء : فى سنة ١٩٩٢ ، سنة الزلزال والإرهاب ، شهدت مصر خطوات إلى الأمام فى مجالات كثيرة .. الاقتصاد والتعليم والصحافة والعلاقات العربية والدولية ، والنشاط المتواصل فى سد الثغرات التى كشفها الزلزال هنا وهناك ، والحفاظ على حرية التعبير فى عواصف اختلاف الاتجاهات والآراء ، حتى باتت مصر - بلا مبالغة - أشبه بنقطة ضوء وسط ظلمات كثيرة تغشى أقطار العالم ، وبخاصة أقطار عربية عصفت بها الأنظمة الاستبدادية والمذابح القبائلية فى شرق الوطن العربى ، كالعراق ، وفى جنوبه ، كالصومال . وفى كل هذه الأوطان العربية تدبّ مع الاستبداد والمذابح دسائس الاستعمار الغربى والأهداف القريبة والبعيدة للنظام العالمى الجديد ، وليس ما يجرى فى البوسنة والهرسك غريبا ولا عجيبا فى ضوء ما يجرى فى أقطار العروبة والإسلام فى آسيا وافريقيا ..

عزيزى القارىء : تبدو الأحداث الجسام التى تجتاح المشرق والمغرب كغمامة سوداء تمنع رؤية ما عداها من أحداث فردية ، ولكن موت عظماء الرجال يخترق دائما غيوم الأحداث السوداء ، وقد شاءت الأقدار ألا تطوى صفحات سنة ١٩٩٢ إلا ومعها حياة أديب مصرى من أكبر الأدباء وأخلصهم للشعب والأدب ، وأبعدهم عن الزهو والخيلاء ، هو المرحوم يحيى حقى الذى لم يكن باقيا بينه وبين عيد ميلاده الثامن والثمانين إلا بضعة وعشرون يوما فقط ..

وفى هذا العدد من « الهلال » نلتقى بالطيف الجميل الباقى من يحيى حقى ، فى مجموعة من المقالات والبحوث تتحدث عنه ، ولا توفيه حقه من المحبة ، لأن هذا الرجل الذى أحب جميع الناس ، لا يمكن أن يجد ما يوفيه حقه من المحبة والتقدير ..

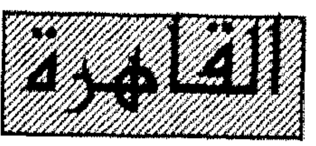
عزيزى القارىء : كنا معك طوال العام الماضى فى احتفالات العيد المئوى للهلال ، وكنت معنا حاضرا وغائبا ، وفتح العيد المئوى بيننا صفحة جديدة نكتبها معا وتقرؤها أجيال من القراء الجدد والقراء القدماء ..

وفى سنة ١٩٩٣ نمضى معا ، ونلتقى مع تجديد متواصل للهلال شهرا بعد شهر ..

وكل سنة وأنت طيب ..

« **المحرر** »

العالم في سطور



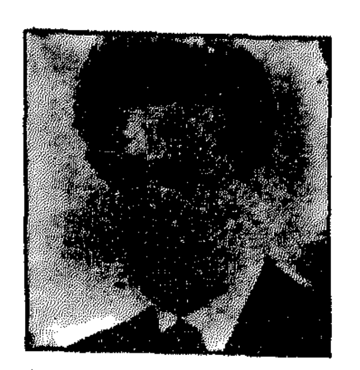
مؤتمر الموسيقى العربية

شهدت دار الأوبرا في القاهرة مؤتمرا جديدا للموسيقى العربية في أواخر نوفمبر ١٩٩٢ لمناسبة مرور خمسة وعشرين عاما على إنشاء فرقة الموسيقى العربية ، وكان الجانب العملي من هذا المؤتمر حافلا ، فقد قدمت فرق الموسيقى والغناء التابعة لوزارة الثقافة ألوانا جميلة من الغناء العربي المتقن كالموشحات والأدوار والقصائد ، وشهدت ليالي المهرجان مظاهرة فنية أثبتت أن محاولات تشويه الغناء العربي أو هدمه ، هي محاولات عقيمة ، مآلها الفشل ..

وكانت هذه الحفلات فرصة لتكريم عدد من رواد الموسيقى العربية ، والتنويه بأكبر رعاة وقادة فرقة الموسيقى العربية وهو المايسترو المرحوم عبد الحليم نويرة الذي بذل غاية الجهد في وضع الأسس الفنية الصحيحة لإحياء تراث الغناء العربي من خلال ما قدمته فرقة الموسيقى العربية منذ أنشئت سنة ١٩٦٧ وإلى اليوم ..

وقد بذل وزير الثقافة فاروق حسني ومدير الأوبرا الدكتور ناصر الأنصاري جهدا موفقا لانجاح المؤتمر وحفلاته ، وكانت السوبرانو الكبيرة رتيبة الحفني هي الدينامو الذي لايتوقف طوال تلك الأيام والليالي.

ويمكن أن يقال إن هذا المؤتمر الذي انعقد في الأوبرا كان أشبه باجتماعات موسعة حافلة، ولم يكن مؤتمرا على


سيد درويش

شاكلة أول مؤتمر تاريخي عقد في القاهرة سنة ١٩٣٢ لبحث مسائل الغناء العربي والموسيقى العربية . . كما أن مؤتمر الأوبرا اختلف عن المؤتمر الثاني الذي انعقد في بغداد سنة ١٩٦٨ والمؤتمر الثالث الذي انعقد سنة ١٩٦٩ في مدينة فاس بالمغرب ، والمؤتمر الرابع الذي انعقد بعد ذلك في القاهرة تحت رعاية وزارة الثقافة .

إن الذي تميز به مؤتمر الأوبرا في نوفمبر الماضي كان النشاط العملي في الغناء والموسيقى البحتة ، فقد



عبد الحليم نويرة

كان المؤتمر أشبه بمهرجان لهما ونال تقدير كل من أتيح له أن يشهده .

وتميز المؤتمر أيضا بابتعاده عن التوصيات الكثيرة التي كانت طابع المؤتمرات السابقة ولم ينفذ منها إلا القليل ، وقد نظر المؤتمر في بحوث قليلة العدد نسبيا لكنها ذات جدوى وفاعلية ، ومنها البحث المقدم من الدكتورة إيزيس فتح الله والدكتور فتحي حسن صالح والمهندس السيد على النجار عن كيفية تثبيت السلم للموسيقى العربية ، والبحث المقدم من الدكتور عباس سليمان السباعي عن جدولة السلم الخماسي في الموسيقى السودانية والبحث المقدم من فكرى حسن سليم عن الإيقاعات والسلالم المستخدمة في الموسيقى الشعبية النوبية ، والبحث المقدم من الملحن اللبناني توفيق الباشا عن دور فرق الموسيقى العربية في نشر التراث العربي ، والأسلوب الأمثل في تقديم الموسيقى العربية . والبحث المقدم من كمال النجمي محددا فيه البرنامج الحقيقي الذي ينبغي أن يبحثه المؤتمر الجديد بعد أن توالت برامج المؤتمرات السابقة .. والبحث المقدم من حسن درويش نجل الموسيقار سيد درويش ، يتحدث فيه عن المراجع الموسيقية ووجوب تنظيمها وتسهيل الاطلاع عليها ..

ومن أهم البحوث التي قدمت للمؤتمر ، بحث لعازف الناي محمود عفت ومعه الدكتور فتحي صالح والبروفسور روبرت كربس عن آلات الناي الفرعونية بالمتحف المصري ودلالتها على السلم الموسيقى الفرعوني ، وقدم عبد العزيز عناني بحثا حول الاستعانة بتسجيلات التراث العربي القديم في بناء فرق الموسيقى العربية ، وقد اشترت وزارة الثقافة منه المكتبة الكبيرة التي جمعها طوال حياته من الأسطوانات والتسجيلات لتكون مرجعا للباحثين .. وكان من بحوث المؤتمر ما قدمه عبد المنعم خليل ابراهيم من تحقيق حول بعض المقامات والمؤلفات الآلية العربية غير المطروقة ..

ويمكن أن يقال إن مؤتمر الموسيقى العربية الجديد قد أثار قضايا الغناء العربي والموسيقى العربية في عصرنا وبخاصة في العقدين التاسع والعاشر من القرن العشرين اللذين أوشك الإنقطاع التام أن يصيب

العالم في سطور

فيهما فن الغناء والموسيقى بأفدح الأضرار ..

وكان المؤتر فرصة طيبة ناجحة تدعو للإعجاب بمن قاموا على تنظيمه من المشرفين عليه من فنانى دار الأوبرا ووزارة الثقافة المصرية .



نيويورك

كاتبة زنجية تصدم المشاعر

فى شهر نوفمبر الماضى أقيم احتفال ضخم للكاتبة الأمريكية الزنجية تونى موريسون والتى فازت بجائزة بوليتزر فى الأدب عام ١٩٨٩ عن رواية «خائن» . وقد عرض بهذه الناسبة فيلم عن حياة الكاتبة وإبداعها . وفى الشهر الماضى صدرت للكاتبة روايتها الجديدة تحت عنوان « جاز » .

منذ أن خرجت روايتها « جاز » من المطابع الى الأسواق ، وهذه الرواية تحقق أعلى المبيعات ، وقد كشف هذا عن ظاهرة أدبية جديدة متميزة ، أضافت إلى أسماء الكتاب الزنوج فى أمريكا ، إسما آخر لامعا .



تونى موريسون

الغريب أن الشهرة لم تصب تونى موريسون إلا وهى تقترب من الستين ، فقد ولدت فى مدينة صغيرة فى أوهيو ، وتتحدث عن نفسها قائلة « كان أبواى فقيرين وكنت أقضى أغلب أوقاتى فى المكتبة ، ووجدت نفسى أقرأ كل ماكان موجودا فوق الأرفف ، لم أكن أفكر كثيرا فى الأدب فقد كنت أود أن أصبح

راقصة . وتدربت على ذلك .. ولكن كان على أن أتوقف فنحن لا نختار مصائرنا » .

وعندما اتجهت موريسون إلى نيويورك عملت فى التدريس . ثم درست الأدب فى الجامعة . ومن أساتذتها جاءتها الرغبة فى أن تصير كاتبة . ونشرت روايتها الأولى عام ١٩٧٠ تحت عنوان « العين الأكثر زرقة » حول صبى زنجى يود يصبح أشقر الشعر . وينتهى به الأمر أن يصاب بالجنون .

ثم جاءت روايتها التالية « أغنية سليمان » . وتتابعت أعمالها القليلة . ومنها « الطفل تار » . ولكن روايتها « خائن » أثارت مشاعر الناس عند نشرها . وهى عن امرأة تقوم بقتل إبنها الأسود حتى تخلصه من عالم العبودية الذى ينتظره .

وتجىء أهمية أدب تونى موريسون أنه صدامى . يصدم المشاعر بعنف واضح . وهى ترى أن أسباب الصدام ونتائجه دائما أشد عنفا مما يفعله أبطال رواياتها الذين عليهم أن يحرروا مشاعرهم .

وقد اتضح هذا فى روايتها الأخيرة « جاز » فهى تدور حول علاقة صداقة تربط بين امرأتين تتصوران أن الحياة لن تفرق بينهما أبدا .. ولكن الأحداث تأتى على هذه العلاقة بكل عنف وشراسة وقد يقودنا هذا الى تساؤل : هل نحن أمام شخصية شديدة التشاؤم .. ومن أجل الإجابة على هذا التساؤل فإن القارىء عليه أن يقارن بين إبداع تونى موريسون ، والكاتب الزنجى الراحل جيمس بولدوين الذى كان غارقا فى مثل هذه العوالم فى رواياته وأقاصيصه .

●



اسماعيل قدرى يبنى هرم الجيزة على مزاجه

فعلا .. لقد قام أجدادنا القدامى ببناء الأهرام .. وقمنا نحن بترك بناء هذه الأهرام فى الروايات للأدب العالمى ..

فقد قام الكاتب الألبانى المعروف اسماعيل قدرى أخيرا بإعادة بناء أهرامات الجيزة فى روايته الأخيرة التي تحمل عنوان « الهرم » وهى الرواية الأولى التى كتبها باللغة الفرنسية بعد أن اختار باريس للإقامة المؤقتة هناك ، عقب هروبه من ألبانيا قبل عامين . والتى عاد اليها مؤخرا بعد أن نشر روايته الأخيرة .

يرى اسماعيل قدرى أن بناء الهرم لم يكن بهدف أن يكون مقبرة للملك خوفو ، ولا ليكون لغزا للأجيال المتلاحقة بعد وفاته ، ولكن الهدف

العالم في سطور

كما صرح به فرعون لمستشاريه : « فكرة الهرم هي أن يتمكن المرء من رؤية النهار كاملا في لحظة الغروب » . وهي كما يبدو فكرة غريبة وتخص اسماعيل قدرى وحده ، فحسب منظوره أن خوفو قد أراد أن يحطم التقاليد الجامدة ، بأن يبني بناء شامخا يتجاوز كافة مابناه الأسبقون ، ولا يستطيع أحد بالتالي أن يتجاوزه .

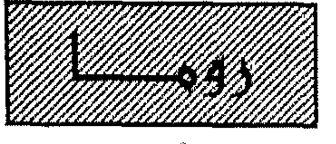
ويرى الكاتب أن خوفو أراد أن يوازن المعاني في عصره ، وأن يعلن الحرية . فعكف على صناعة مملكته الخاصة التي يحكمها بهذا المنطلق . فعلى الناس أن تعمل ، وأن يكون لهم هدف . لقد رأى خوفو أنه سيفقد قوته لو مات ، وبالتالي ، فإن هذا الأمر سيكون شاهدا على مافعله .



اسماعيل قدرى

وهرم الجيزة الأكبر ، في منظور إسماعيل قدرى هو مسخ لكل الطوبويات المبنية في العالم . وهو مثال حي على ما يتمتع به البشر من عزيمة قوية . فمن الخارج يبدو الهرم بناء معماريا ضخما مليئا بمليارات الألغاز . ولكنه من الداخل ليس سوى رمز للموت الأبدي .. وفي ظله يبدو ظل البشرية النائم ..

سبق لإسماعيل قدرى أن نشر مجموعة من الروايات ، قامت أحداثها في حضن التاريخ الأوربي المعاصر مثل أعماله : « الحصن » و « جنازة الجنرال الميت » .. وهذه هي المرة الأولى التي يذهب فيها الى التاريخ البعيد ..



روما

فضيحة زيت البترول .. على طريقة بازوليني

بعث الشاعر والمخرج والممثل الإيطالي المعروف باولو بازوليني من مقبرته هذا الشهر ، بعد مصرعه بسبعة عشر عاما ، من خلال روايته الجديدة « زيت البترول » التي لم تنشر من قبل . والتي لم يتمكن بازوليني من الانتهاء منها . ولذا ، فإن الناشر الإيطالي قد راح يجمع مجموعة من الكتابات المتناثرة لبازوليني في نفس الكتاب الذي يضم قصائد لم تنشر ، وأجزاء من سيناريوهات . ونصوصا نثرية . فمن ضمن هذه الأعمال على



بازولينى

سبيل المثال ، قصيدة قرضها الشاعر حول أم ستالين .

وزيت البترول أو بتروليو هو اسم شخص يتسم بعبثية واضحة . ويشير بازولينى إلى أن اسمه الحقيقى هو كارلو . وهو أقرب فى صفاته وتصرفاته إلى باولو بازولينى . فهو يعشق الشعر . ويرى أن القرض يحدد هوية البشر . وعندما يكبر هذا الشخص يعمل مهندسا فى مجال البترول . ولذا فهو دائم الرحيل . وهو رجل ، حسب منظور بازولينى ، منقسم على نفسه .

وكارلو هذا هو ألعوبة بين يدى الشيطان . لذا فهو فريسة بين الخير والشر وبين الاضداد . وغالبا ما يجىء إبليس كى يحاوره . ويعرض عليه أن يكون صديقا له مقابل الصحة والسلطة . ويوافق كارلو . على أن يكون الشرط ، هو أن يتغير إلى شخصيات عديدة ، وجنسيات كثيرة . بل ينتقل بين الجنسين . فهو تارة رجل . ثم يتحول إلى امرأة .

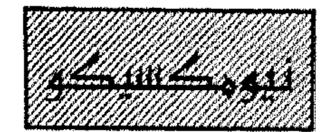
وقد شغف بازولينى بوصف علاقات الحب الحسية لدرجة أفزعت القراء الايطاليين وبدا مهووسا بالعلاقات المحرمة . فهناك علاقة بين كارلو ومن يتصورها أمه وذلك على طريق العلاقة بين اوديب وامه الملكة .

وكارلو يتحول فى الرواية أحيانا إلى حشرة .. ثم إلى طائر .. ولاشك أن مثل هذه التحولات الكثيرة ، والسريعة تعطى للكاتب رؤية شاملة عن العالم . وعن الحياة . ولكن مهما كان . ، ومهما تغيرت الكائنات والأشكال فإن كل هذه الاشياء هى كارلو . بكل ما به من تناقض .

وكما سبقت الاشارة فإننا أمام نص روائى غير كامل . ورغم هذا

العالم في سطور

فان هذا الكتاب يعتبر بمثابة فضيحة أدبية جديدة لكاتب موهوب على المستوى الابداعي . لكنه كان يحمل الكثير من السمات اللاخلقية في أدبه .



٥٠٠ عام .. من الفن .. والفكر

بمناسبة مرور خمسة قرون على اكتشاف القارة الامريكية ، أقيم في عواصم أوربية عديدة معرض ضخم يضم كافة الفنون والآداب التي برع فيها أبناء امريكا اللاتينية. وقد أقيم عرض خاص لهذه الابداعات الفنية ، على سبيل المثال، في مركز بومبيدو . وقد جاء الهدف من المعرض التعريف بثراء وتميز ثقافة القارة .

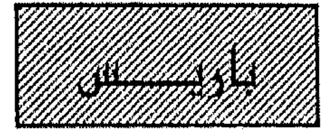


لوحة للفنان ديجو ريفيرا ١٩٤١

فعلى سبيل المثال اكتشف الاوربيون من خلال عروض لبانوراما السينما المكسيكية أن هناك طعما ورائحة مميزين لهذه السينما . وقد تضمن البرنامج مجموعة من أفلام الميلودراما التي ظهرت في الثلاثينات . وحتى أحدث إنتاج في عام ١٩٩٢ .

أما أهم ماجذب الانظار في هذا المعرض فهو مجموعة لوحات الفنان المكسيكي المعروف ديجو ريفيرا . والذي شغف دوما برسم البدناء والبدينات من البشر ، ربما لتكريم أمثاله من ذوي الوزن الزائد . كما تضمن المعرض لوحات أخرى لفنانين تشكيليين من المكسيك منهم اورزكو .

وتحت عنوان « الرجل الكتاب » تم اختيار مجموعة من النماذج الادبية للعديد من أدباء امريكا اللاتينية مثل خورخه لويس بورخيس ، وخورخه آمادو . الذي أقيم المعرض على شرفه بمناسبة بلوغه الثمانين من العمر في منتصف يناير الحالي .



حال مرجريت .. و جان كوكتو

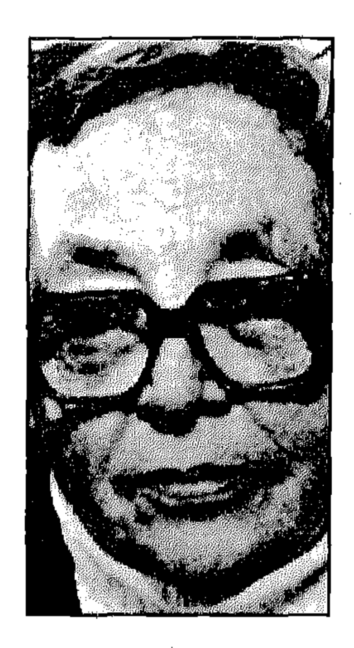
إنها لا تتوقف .. إنها لاتكف عن العمل ..

هذا هو حال الكاتبة الفرنسية مرجريت دوراس . وهي الوحيدة في العالم من بين

الكاتبات والتي استطاعت أن تخرج كما كبيرا من الافلام السينمائية .

وقد عرض في الفترة بين ١٩ و ٢٩ نوفمبر الماضي في المركز السينمائي الفرنسي بباريس ستة عشر فيلما أخرجتها مرجريت دوراس وكتبت قصتها . فمن المعروف أن مرجريت قد مارست مجالات متعددة من الابداع . فبالاضافة إلى كتابة الرواية والمسرحية ، فإنها أخرجت وكتبت العديد من الافلام والمسرحيات .. وفي الفترة بين عامي ١٩٦٦ و١٩٨٤ قدمت مرجريت مجموعة هامة من الافلام كمخرجة من بينها « الموسيقى » و« أغنية هندية » . و«الأطفال» وهو آخر أفلامها كمخرجة سينمائية ..

وقد تضمن الاحتفال أيضا مجموعة من الافلام



دوراس

التليفزيونية التي أخرجتها دوراس مثل «أيام داخلية في الاشجار» عام ١٩٧٦ . و«حوار روما» عام ١٩٨٢ . كما تم عرض فيلمين شهيرين كتبت لهما السيناريو وهما «هيروشيما حبي» و«غياب طويل» . وتضمن الاحتفال أيضا الافلام المأخوذة عن رواياتها والتي لم تشترك في كتابة نصوصها السينمائية ، أو اخراجها مثل «كوبري على المحيط الهادي » من اخراج رينيه كليمان . و«موريراتو كانتيبل» الذي أخرجه للسينما المسرحي بيتر بروك . و «بحار جبل طارق» الذي صور المخرج توني ريتشاردسون أجزاء منه في مدينة الاسكندرية عام ١٩٧٦ . ثم «مرضى الحب» الذي أخرجه الاديب الالماني بيتر هندكه . وأخيراً «العاشق» الذي أثار ضجة ضخمة عند عرضه في أوائل العام الماضي ..

كان السؤال الذي طرحه الناقد ميشيل كورنو في جريدة «لوموند» هو : هل مرجريت دوراس مخرجة ؟ وفي رده على هذا السؤال يقول إن دوراس في المقام الأول مؤلفة . وأنها قد سعت لتأليف أعمالها بأشكال مختلفة مما شكل ظاهرة تسمى «حالة دوراس» . وهي ليست جديدة في عالم الثقافة الفرنسية المعاصرة . فقبل ثلاثين عاما .. كان هناك أيضا جان كوكتو بنفس المواصفات .

مصـــر

والقرن الحادي والعشرون



كان السؤال المطروح فى الندوة الثقافية التى عقدت فى احتفال الهلال بمرور مائة عام على صدورها ، هو كيف نواجه تحديات القرن الحادى والعشرين لنحلق فى آفاق المستقبل ، وتداعت بقية الأسئلة من المتحدثين والمشاركين فى الندوة ، هل نحن إزاء بدايات عالم جديد ، وهل نحن مستعدون كعرب للدخول فيه ، والتعامل معه ، وهل يمكن أن نغير من سلوكياتنا وأنظمتنا الاقتصادية ، ونتحلل من كل عقائدنا السياسية السابقة ، ونتراكب مع التغيرات التى عاشها العالم . وحتى تستطيع أفكارنا استيعاب التغيرات السريعة المتلاحقة فى الواقع الذى نعيش فيه .

الأخذ بالمنهج العلمي

تحدث د . محمد القصاص ـ عالم البيئة ـ متوقفا أمام الأدوات والمناهج التي نحتاجها للمستقبل وهي بالتأكيد غير أدوات القرن العشرين في الادارة والسياسة خاصة . وتوقف أمام الصورة الحالية في مصر قائلاً يصل إنتاج الفرد في الولايات المتحدة ٢٣ ألف دولار ويرتفع في اليابان إلى ٢٥ ألفا بينما في مصر أقل من « ٦٧٠ » دولاراً فقط ، بينما الانفاق السنوي للفرد ١٥٠٠ دولار .. في حين أن انفاق الياباني ٥ آلاف فقط أي أن كل فرد هناك يضيف إلى الثروة القومية ٢٠ ألف دولار عندنا يستهلك منها قرابة الألف ..!!

ويضيف د . القصاص لا يمكن أن ندخل القرن القادم بهذه الكيفية ، وعلينا أن نتجاوز ذلك بسأن نـأخذ بـالـعلم أقصد « المنهج العلمي » وليس فقط الكيمياء والفيزياء وغيرهما من العلوم ، ولـقد تطور « المنهج العلمي » والعلم في تاريخ الحضارات ، فقد بدأ « حلية » من حلي الحضارات وزينتها ، كان العلماء يوجدون في قصور الملوك والأباطرة فقط ، وكان الانسان يقبل على العلم أيضا ليتحلى به ويصبح « صاحب الفضيلة » ثم تطور في تاريخ الأمم والمجتمعات ليصبح مصدر القوة ، ولما تحول العلم إلى تكنولوجيا وساعد الانسان في السيطرة على قوة أعظم من عضلاته وعضلات الحيوانات المستأنسة ، وصار قوة عسكرية وصناعية واقتصادية .. واستدرك د . القصاص قائلاً : يحدث هذا في بلاد العالم المتقدم ولكنه لدينا لايـزال حـلية مـن حلي الحضارة ، فنحن ننشيء المؤسسات العلمية ومراكز البحوث حتى نتزين بـــها ونــوهم أنفسنا أننا صـرنا عالميين ، والحقيقة غير ذلك فليس هناك تفاعل حقيقي وديناميكي بين تلك المؤسسات العلمية وعمليات الانتاج والتقدم وما زالت المسافة بعيدة بيننا وبين تطبيق العلم في الادارة وتسيير شئون الأمة والمجتمع ، وعلينا أن نتجاوزها لندخل إلى القرن الحادي والعشرين حتى نورث أولادنا ظروفاً وأوضاعاً تهييء لهم البقاء والكينونة في التاريخ .

تغيير المفاهيم

وتحدث د . أسامة الخولي مؤكدا أن الحديث عن تصـور للمستقبل حتى القريب . أمر محفوف بالغموض والصعوبة لأن هذا يقتضي أن نتابع بدقة ما يحدث في العالم من تغيرات وأن نكون على استعداد للتكيف مع هذه المتغيرات .. وعلى سبيل المثال هناك قضايا عالمية لم تفهم حتى الآن بوضوح ، فالانكماش الاقتصادي الحادث الآن لا نعرفه بالضبط ما إذا كان ظاهرة عربية أم أنه يمثل نهاية مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية .

ويضيف د . الخولي نحن بحاجة إلى تنشيط الحوار حول قضايا وأمور ألفناها

لمدة طويلة .. هناك مفاهيم بحاجة إلى إعـادة النظـر « الاعـتماد عـلى الذات » « الاعتماد المتبادل على الذات » ، « العلاقة بين المراكز والتخوم » ، هناك أيضا ضرورة تحديد مفهومنا للتحولات التى حدثت فى العقدين الماضيين فنحن نتحـدث الآن عن « عالمية الانتاج » المنتج الواحد يصنع فى مناطق متفرقة بينها مئات الأميال ثم يظهر فى النهاية شيئا واحداً .. وكل هذه التغيرات فى النهاية تضرب فى الصميم مفهوم « السيادة الوطنية » ، فالعالمية ليست فى الانتاج ولا فى السلع أو جنسية رأس المال فقط وإنما امتدت إلى الثقافة والعادات وأنماط الحياة ، وقد نشأت أيضا جماعات ضغط لها القدرة على الحد من مفهوم السيادة الوطنية كما ألفناه جماعات المصارف الدولية. الأوبك وحتى شبكة B.B.C, C.N.N ؛ ومع نشأة قضايا البيئة العالمية أصبح من المستحيل معالجتها دون أن يكون هناك قدر من التعدى على السيادة الوطنية مثل تآكل طبقة الأوزون أو تغير المناخ . فى تقديرى أن هذه التحولات فى جوهرها ليست ديمقراطية ؛ وهناك الآن انفجار التغيرات الوطنية والطائفية والدينية والعرقية وهذا التوجه أيضا - حتى الآن على أقل - ليس ديمقراطيا ولكن رد فعل للتوجهات العالمية لتوحيد أنماط السلوك والفكر .

ثم التقط د . حازم الببلاوى خيط الحديث مركزاً على المستقبل من وجهة نظر الاقتصادى يقول .. ألمح الآن تضاؤل الجوانب المادية وسيادة الاتجاهات الأخرى غير الملموسة وغير المادية ؛ فلم يعد مهما أن تكون لدى دولة ما موارد طبيعية وأخرى ليس بها إذ الأهمية للأجزاء والمـوارد المصنعة بينما تقل أهمية ودور « الموارد الطبيعية » ؛ فاليابان مثلا عارية تماماً من الموارد الطبيعية ومع ذلك الأعلى إنتاجاً

فالأهمية للجوانب غير الملموسة مثل التنظيم والسياسات والقواعد التى تربها العلاقات والتعاملات ؛ ولذا فإن بلاد الاتحاد السوفييتى على حافة أزمة حقيقية بينما هذا الاتحاد منذ عشر سنوات كان فى وضع معقول وبنفس الموارد التى لديه الآن . وهنا يكون التساؤل هو كيف يمكن الاستفادة الحقيقية من البشر وتطويرهم باعتبارهم الثروة الحقيقية وليست الجوانب المادية .

المستقبل للعروبيين

ويقسم « منح الصلح » النخبة العربية إلى تيارات ثلاثة : سلفيين .. ماركسيين عروبيين ؛ ويلتقى السلفيون والماركسيون فى أن لديهم من الإجابات أكثر من الأسئلة أما العروبيون فلديهم دور هام للمستقبل من الناحية الانسانية والحضارية وهذا ما يجعل لنا دورا ومكانا فى المستقبل .

ويضيف . الفكرة العروبية منذ نشأتها تتكون من الاسلام وروح العصر وبدون ذلك لن تدخل إلى عالم الغد .. فالاسلام يمتلك « نفحة تاريخية » وبذلك يكون اكثر اقناعا من الليبرالية الضيقة أو الانعزالية المحلية ' وحين يكون هناك مناخ قومي عربى صحيح سيرى الناس فى العروبة الدفء ويسعون إليها باحثين عن الحل بدلاً من الاسلام السياسى .

ويجب أيضا أن ننظر إلى الآخرين ونتأمل الطريقة التى يتوحدون ويتقاربون بها .. أوروبا الموحدة مثلاً . والهروب من العصر ليس بديلا عن أي وضع غير مرض لنا كما أن الخصومة العاجزة ليست بديلاً عن الاستسلام وليس أمامنا غير خيار واحـد . مجتمع ودولة وفرد قادرون عـلى المنافسة فى هـذا المجتمع المعاصر وبأسلحته في دوائر الدين والوطن والعلم .

وكان آخر المتحدثين د . عدنان شهاب الدين وتوقف أمام محاور ثلاثة .

الأول . استحالة امتلاك العقل البشرى للحقيقة المطلقة ، المعرفة بكل شيء وبكل زمان ومكان وهذه البديهية يمكن استنتاجها في جميع المجالات التى تتعامل معها سواء العـلـوم الطبيعية أو السيـاسيـة أو الاجتمـاعية .

الثانى : وقد يبدو متناقضا مع الأول وهو خاص بالمنهج العلمى فى تعامل الانسان مع جميع الأمور ، فهذا المنهج والعقلانية هو القاسم المشترك بين جميع الحضارات المزدهرة على مر التاريخ وما أقصده هو أننا عن طريق المنهج العلمى يمكننا أن نوسع من معرفتنا التقريبية للحقيقة .

الثالث : استحالة التنبؤ بالمستقبل إلا باخضاع الظواهر والمشاهدات للمنهج العلمى .. ثم تتابع القياس والمشاهدة وتتبين الأخطاء فى تنبؤاتنا ونعدل من مفهـومنا حتـى نسـتطيع مـجابهة أمـور الحياة .

ثم دار حوار حول الأفكار التى طرحها المتحدثون ..

طبقة امبراطورية

عقب أولا د . مصطفي صفوان قائلاً أريد التوقف أمام فكرة العالمية وتجاوز السيادة الوطنية ؛ فمتي وجدت امبراطورية على مر التاريخ توجد معها طبقة دولية فى حدود المعمورة التى تمتد إليها تلك الامبراطورية تكون أخون لوطنها من المستعمر الحقيقى ، هذا شيء يؤكده التاريخ فعندما أقام الفينيقيون والأثينيون امبراطورية فى مصر كانت هناك عناصر مصرية أكثر هيلينية من القادمين من جزر بحر إيجة سواء فى تعاملهم أو أسلوب معيشتهم .. وعندما سيطر الرومان على فلسطين كان بعض الفلسطينيين مثل العرب

الآن إلى حد أن بعضهم شارك فى شنق المسيح لأنه كان ضد الرومان .

ولذا ففى هذه الظروف لم يعد أمام الانسان إلا العودة إلى الدين باعتباره يمثل الذاتية المتبقية وكما قال « مورنو » ان القرن القادم سيكون دينياً أو لا يكون وقطعا نحن نتجه نحو ازدياد العصبيات لأنه لا يمكن أن تمحو من كل إنسان البحث عن ذاته وكل خواصه ولا نبقى له إلا العقيدة . فذاته فى النهاية مرتبطة بالعقيدة وإذا انفك منهـا فسـوف ينفـك من انسانيته .

ثم عقب الأستاذ غسان توينى متوقفا أمام أفكار ثلاث ..

الأولى . لسنا بحاجة لأن نحارب العلم تمسكا بالدين ؛ فالذى صعد إلى القمر يمكن أن يصل هناك ؛ والعلم لا يحول بينه وبين التعبد وممارسة الدين فى حين أنه لو ظل يصلى فقط طوال عمره لما صعد القمر وما تطور .

الثانية - الرأسمالية والحرية ، فقد مكنت الرأسمالية الغرب من الاعتداء على حريتنا ، ولـكـن إذا كـانت حـريتنا لا ترتفـع بـنا إلـى درجـة الـعلم ، فهل نظن أنه ـ العلم ـ عدو لحريتنا .

الثالثة . عن الاستعمار والاستقلال ؛ لم يحدث الاستعمار مصادفة ولكنهم تفوقوا فى الصناعة وفى العلم وهذا جعلهم يستثمرون أموالنا ويسيطرون على عقولنا فهل نتظاهر ضد الاستعمار على الرصيف أم نتوسل بالعلم والمعرفة .

الانهيار للجميع

ثم تحدث د . سمير أمين .. قائلاً لدى بعض الملاحظات حول التحديات الجديدة التى ستظهر فى المستقبل المنظور فالمرحلة التى مر بها العالم بعد الحرب العالمية الثانية وحتى الآن انتهت تماماً ؛ ذلك أنها قامت على عمد ثلاثة : الدولة الوطنية البرجوازية المتمركزة على الذات ودولة الرفاهية فى الغرب المتقدم .. الدولة السوفييتية كنموذج وممين للاشتـراكية ؛ ثم هـنـاك الـطموحات التـى اسـميهـا « الطموحات البرجوازية » فى العالم الثالث ، مؤتمر باندونج سنة ٥٥إلى ١٩٥٧ هذه الاعمدة جميعها سقطت وليس النموذج السوفييتى فقط . ونحن على أبواب مرحلة تاريخية تختلف عن المرحلة السابقة من حيث الكيف وأمامنا مرحلة جديدة من التحديات .. ولكن لابد أن نتوقف أمام عوامل انهيار المرحلة السابقة .. فقد ظهر تناقض كبير بين الدولة الوطنية المعتمدة على الذات والنموذج العالمى الرأسمالى فقد ظهر مستوى أعلى من المستوى الوطنى أو القومى خاصة فى مجال السوق العالمية ؛ وظهر أيضا مستوى « تحت الوطنى » مرتبط بهذا التناقض . أيضا



نشأ خلال المرحلة الأخيرة مزيد من التمييز داخل مجموعة هوامش أو أطراف النظام العالمى الرأسمالى . فقد كنا نعتمد حتى منتصف هذا القرن على أن التناقض بين المركز والأطراف يكون مرادفاً لوجود التصنيع أو غيابه ولكن هذا أخذ يتلاشى إذ أن الاستقطاب سيمتد أشكالاً أخرى غير غياب التصنيع .. فهناك مناطق من أمريكا اللاتينية وشرق اسيا دخلت المرحلة الجديدة من النظام الرأسمالى بينما نحن لا نزال فى اتجاه العالم الرابع أى الذى لم يواجه بنجاح حتى تحديات المرحلة السابقة .

وردت د . فريدة العلاقى - ليبيا - مطالبة بأن يكون للمرأة دور فى صنع المستقبل العربى ؛ منددة بالمفكرين العرب والحكام الذين يستبعدون المرأة ؛ وطالبت المثقفين بأن يتعاملوا مع الجمهور ويتحاوروا معه .

وركز محمود أمين العالم على حالة السيولة فى الوضع العالمى الآن وحذر من أن نفقد كياننا القومى والوطنى فى إطار هذه السيولة واستدرك قائلا إن هذا لا يعنى أن نعيش فى حالة قطيعة أو عزلة عن العالم وما يجرى فيه .



القرن المقبل
قرن الصين

● شعب الصين يبعث من جديد ...
● هل الغرب مستعد لهذه القبيلة العالمية القوية

تصور الأمريكيون مراراً أن العالم يدخل القرن الأمريكى ، وها هى الواشنطن بوست تعتبر القرن القادم هو القرن الصينى . يقوم على القبيلة الصينية التى تنتشر فى أنحاء العالم ، وتوقع بول كنيدى صاحب كتاب « قيام وانهيار القوى العظمى » ، إتحاد اليابان والصين وقيام أقوى دولة فى التاريخ .

في غمرة استحواذ فكرة الصراعات التجارية مع المتشبوهين الأوروبين واليابانيين المعتادين علينا ، تجاهل القادة الأمريكيون من رجال الأعمال والسياسيين الصينيين بصفتهم القوة الاقتصادية العالمية العظمى البازغة فلما كانت تقع على الأرض الرئيسية شأنها شأن العديد من البلدان الأخرى في شرق آسيا ، فقد قاوم اقتصادها القائم على كل ما هو صيني التراجع العالمي الذي يزعج بالفعل كل بلد صناعي متقدم ، وهو يبرز بسرعة بصفته القائد العالمي في النمو الاقتصادي والصناعي وفي مجال التصدير .

فهل يحمل هذا أخبارا أكثر سوءا بالنسبة للاقتصاد الأمريكي المنسحق فعلا ؟

ليس بالضرورة . فالقوة الاقتصادية الصينية يمكنها أن تتيح فرصا جديدة هائلة للشركات الأمريكية في الداخل والخارج - حيث إنها أكثر قابلية لنفاذ الاستثمار الأمريكي اليها وأقل تركيزا واقتحاما من القوة الاقتصادية اليابانية غير أن استغلال هذه الفرصة سوف يتطلب أن يعطي صانعو السياسة الأمريكية الأولوية للعوامل الاقتصادية في علاقاتنا مع الصينيين التي كانوا متحفظين بشأنها حتى الآن لأسباب سياسية واستراتيجية .

ونحن نعاني بالفعل من صراع تجاري يزداد سوءا مع الصين التي ارتفع فائضها التجاري مع الولايات المتحدة في العام الماضي إلى ما يربو على ثلاثة عشر بليون دولار . وفي نفس الوقت فإن تحول إدارة بوش إلى مبيعات طائرات ف - ١٦ إلى تايوان التي تقدر بستة بلايين دولار تجذب الانتباه إلى فرص التصدير الواعدة بين الصينيين الرأسماليين في شرق آسيا .

وربما لم يقدر بروز الصين حق قدره لأن القصة لا تتعلق بدولة «أمة تقليدية» ولكن بشعب يبعث من جديد ، قبيلة عالمية تنتشر على العديد من البلدان والمناطق ودول المدينة ؟ وتضم أنظمة سياسية شديدة الاختلاف ولكن سواء كانوا يدينون بالولاء الرسمي للشيوعيين في بكين أو كبار موظفي الكومنتانج في تايبيه ، أو الحكام الكونفوشيوسيين الجدد المطلقين في سنغافورة أو المسئولين المنتخبين ديموقراطيا في أوتاوا وواشنطن ، إلا أنهم يظلون صينيين يضمهم اتحاد فيدرالي واقعي يتمثل في استثمارات هائلة متبادلة وتشدهم أواصر عائلية وثقافية ولغوية منذ أمد بعيد .

منطقة عظمى اقتصاديا

وقد قام أخصائيون اقتصاديون من الصين وتايوان والمراكز الرئيسية المتفرقة بالفعل بمناقشة خطط من أجل اقامة « منطقة اقتصادية صينية عظمى » تأخذ شكلا رسميا أكبر في أوائل هذا العام في هونج كونج . ومهما كانت نتائج مثل هذه المشاورات ، فقد أبدى النائب العام ، بول

هسو في تايبيه ملحوظة قال فيها إن اقتصادا قبليا يقوم الآن بالفعل من خلال مبادرات خاصة .

ويقول هسو ، الذى ينتمى إلى عائلة ذات جذور عميقة فى النظام الحاكم الكومنتانجي فى تايوان ، « إن هذا شيء جديد ، محاولة رائدة ، ولسوف تصبح عقائدية الحكومة القديمة التى تقوم على الدول - الأمم بالية .... فحتى أواخر السبعينات كانت الحكومة هى التى تدير دفة الأمور ، أما الآن فإن القطاع الخاص هو الذى يقود هذا الشيء الجديد ويخلقه ، هذا الاقتصاد الذى يقوم على قاعدة صينية . »

وبمرور التسعينات ، والبنوك الأمريكية والأوروبية واليابانية تعانى معاناة قاسية، فإن هذه الكتلة الثرية بأموالها - التى تمثل تقريبا ثلاثة أمثال المستهلكين فى أوروبا وأمريكا الشمالية - تجد نفسها فى وضع منفرد بحيث يمكنها استغلال الفرص النامية خاصة فى شرق آسيا .

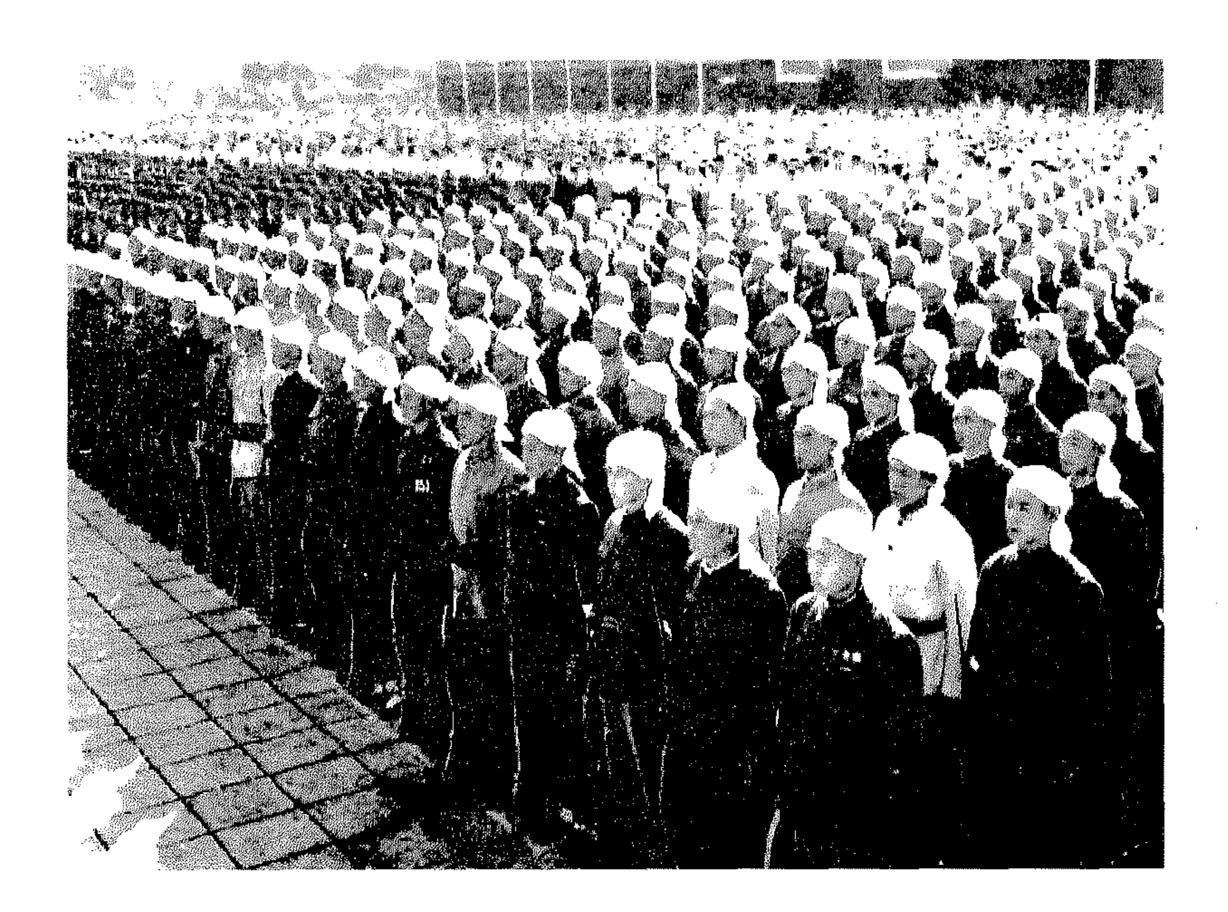
فبدلا من أن تعمل ببساطة مخلب قط لليابان ، شنت الشركات التى يملكها صينيون هجوما اقتصاديا ضد الشركات اليابانية فى مجالات مثل الخدمات المالية ، المنتجات الغذائية ، لعب الأطفال ، أجهزة التليفزيون والآلات الحاسبة الشخصية وليس من المستبعد أن تصبح أجهزة التليفزيون البروتونية *

والآلات الحاسبة من ماركة إيسر شائعة فى البيوت الأمريكية شأنها شأن أجهزة سونى السمعية التى تعتمد على أسطوانات مضغوطة .

ويبدى فيليكس شن ، رئيس مجلس إدارة شركة سامبو ، إحدى شركات السلع الاستهلاكية الرئيسية فى تايوان ، ملاحظة قائلا ، « الأمر بهذه البساطة : سوف تسود اليابان آسيا لمدة تتراوح بين ٣٠ و٥٠ سنة ، ما لم تستيقظ الصين . فبإمكاننا ، إذا كانت لنا سياسات فى سنغافورة ، فى ماليزيا ، فى هونج كونج ، وتايوان لنعمل معا ، أن تكون القوة التالية . »

ويقود هذا الاقتصاد الجديد ما يقدر بخمسين مليونا من الصينين الذين يعيشون خارج الأرض الرئيسية وبفضل أسرع نمو اقتصادى ومعدلات ادخار فى العالم - تصل تقريبا إلى ضعف معدلات اليابان - فإن احتياطيات الصرف الأجنبى فى تايوان تجاوزت فى العام الماضى احتياطيات اليابان لتصبح أكبر احتياطيات فى العالم . وتفاخر المراكز الرئيسية الثلاثة التى تمثل الرأسمالية الصينية - تايوان ، هونج كونج، سنغافورة

(*) البروتون هو جسيم يحمل وحدة من الكهرباء الموجبة ويشكل جزءا من الذرة .



العملاق الأصفر .. يزحف من جديد

- باحتياطيات بلغت مثلين ونصفا من احتياطيات اليابانيين .

وتأخذ السيطرة الاقتصادية الصينية مجراها فى الشرق . فلقد بدأت الاستثمارات المشتركة لهونج كونج وسنغافورة وتايوان تتجاوز استثمارات اليابان فى بلدان أساسية مثل ماليزيا وتايلاند واندونيسيا والصينيون أيضا هم أكبر المستثمرين فى فيتنام . لكن لعل أعظم مجالات التوسع تقع فى وطن الأسلاف الصينى على الأرض الرئيسية . وفى حين كان الصينيون فيما وراء البحار ينظر اليهم باحتقار شديد من جانب الشيوعيين باعتبارهم فاشيين إلا أنهم يجدون أنفسهم الآن مرحبا بهم بصفتهم صينيين أخوة لديهم المال والتكنولوچيا وفطنة رجال الأعمال التى تمكنهم من دفع اقتصاد الأرض الرئيسية . وبصفتهم ، على عكس اليابانيين والغربيين ، لن يهددوا بعودة الأجانب العرقيين إلى التحكم الاستعمارى الجديد .

استثمارات هائلة

وبالنسبة للشركات فى تايوان وهونج كونج وسنغافورة ، تمثل الأرض الرئيسية الآن فرصة لم يسبق لها مثيل لتجاوز محدوديات المصادر الطبيعية والأسواق

والعمالة ومما يساوى هذا فى الأهمية أن القادة السياسيين ورجال الأعمال فى الدول الصينية الرئيسية يرون فى مثل هذا التحالف القبلى وسيلة رئيسية لتجنب النزول إلى مرتبة أدنى فى « كتلة الين » التى تسيطر عليها اليابان .

وتمثل هونج كونج وتايوان ومراكز متفرقة أخرى عشر مرات تقريبا من استثمار الصين بالعملات الأجنبية بالنسبة للاستثمارات اليابانية وتوسع القوة الاقتصادية للمراكز المتفرقة واضح كل الوضوح فى اقليم جواندونج ، حيث خلق أصحاب الأعمال من هونج كونج فى الثمانينات مايزيد على مليونى فرصة عمل، مما زاد من الصادرات أكثر من ثلاث مرات .

ومن المتوقع أن تتجاوز التجارة والاستثمار التايوانيين مع الأرض الرئيسية، وهى التى كانت غير قانونية فى بداية الثمانينات، ٧ بلايين دولار هذا العام، وهو ما يوازى ثلث فائض تجارة تايوان مع العالم . وتبدو أجزاء كبيرة من الصين الجنوبية – وعلى الأخص إقليما جواندونج وفوچيان – أكثر تناغما مع الرأسماليين الصينيين فيما وراء البحار عنهم مع الماركسيين الذين يفترض أنهم أسيادهم فى بكين البعيدة .

ويقول س . س . هو ، رئيس مجلس إدارة شركة يو ين فونج لصناعة الورق ، وهى واحدة من أكبر الشركات المدمجة فى تايوان ، « إن بكين لا تقلقنى . فالناس فى جواندونج ، إن بكين تصدر اللوائح ، لكننا نقوم بتفسيرها . »

ويسمح الاتصال بالأرض الرئيسية لرجال الأعمال التايوانيين والصينيين أن يحتفظوا لسيطرتهم على انتاج السلع التى تحتاج إلى كثافة عمالية – من الملابس والأقمشة إلى الأحذية ولعب الأطفال – إلى درجة أن اليابانيين الأكثر انعزالا فى جزرهم اضطروا اما إلى التخلى عن أو تقليص حجم تجارتهم ويأمل رجال الأعمال الصينيون فيما وراء البحار – أن يستغلوا مخزون الأرض الرئيسية من المواهب العلمية والتقنية . ففى حين أن التسجيل فى الجامعات الصينية كان مقيدا بسبب افراط ماو فى وضع القيود عليه ، إلا أنه قد ارتفع ليبلغ خمسة أمثاله فيما بين ١٩٨٠ و ١٩٨٦ . واليوم تخرج الصين من العلماء والمهندسين أكثر من ألمانيا وفرنسا مجتمعين .

والرأسماليون من أمثال هو يأملون صراحة أن تغلغلهم المتزايد فى اقتصاد الصين سوف يؤدى إلى تآكل الأسس الاقتصادية والخلقية بين الصفوة الشيوعية التى تحكم الأرض الرئيسية . ومن المهم أيضا أن الاتصال الشخصى بين سكان الأرض الرئيسية والمراكز المتفرقة – حيث يقوم ما يقدر بـ ٣٠٠,٠٠٠ من تايوان وحدها الأرض الرئيسية كل عام – قد جعل أعدادا متزايدة من سكان الأرض

الرئيسية يدركون الخطوات الهائلة التى يخطوها الصينيون فى أماكن مثل تايوان وأمريكا الشمالية . يقول ستيف لو ، وهو مهندس تايوانى فى مجموعة شركات بكاليفورنيا ، « إنها عملية طويلة ، لكننا نقوم بشق القنوات إلى أرض الصين الرئيسية هنا . وعندما يحين الوقت سوف يكون الاتصال بيننا مباشرا . والاتصال المباشر هو كعب أخيل عند الشيوعيين . »

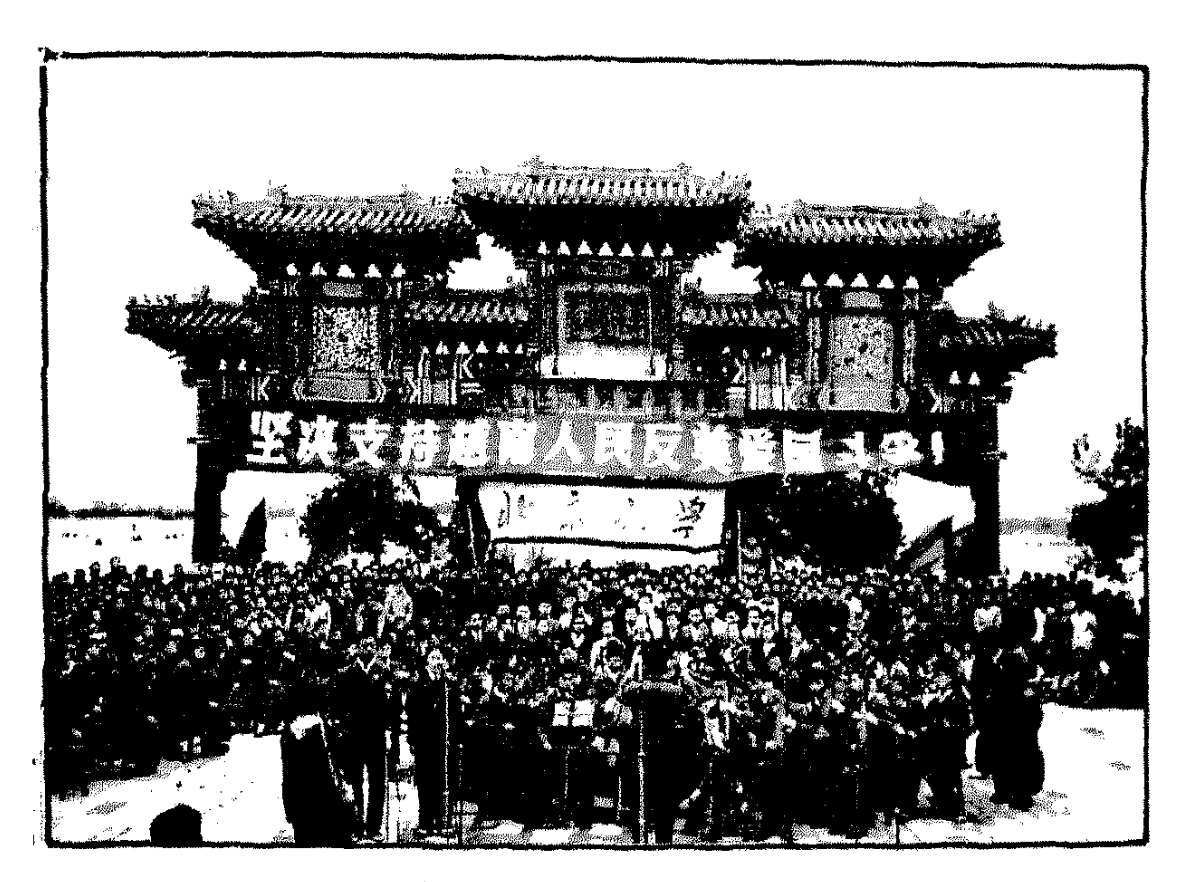
تهديد واضح

وقد يبدو بروز هذا الاقتصاد المؤسس صينيا بالنسبة لبعض الأمريكيين كما لو كان يشكل تهديدا أكبر من واقع نظام شيوعى عدائى لكنه متخلف اقتصاديا . غير أن هناك فروقا هامة بين التحدى الذى مثلته اليابان فى العقود الثلاثة الأخيرة وبين التحدى الذى يمثله الصينيون . فعلى النقيض من النموذج التجارى اليابانى ، رحبت المراكز الصينية الرئيسية مثل سنغافورة وهونج كونج من زمن طويل بالاستثمارات من الأجانب ، من الأمريكيين والبريطانيين ومستثمرين آخرين يؤدون أدوارا اقتصادية رئيسية لا يمكن تخيلها فى اليابان .

وعلاوة على هذا ، فعلى النقيض من النموذج اليابانى فيما وراء البحار ، تدار الشركات الصينية ، سواء فى آسيا أو أمريكا الشمالية بشكل نمطى ، لا من خلال موظفين تنفيذيين دوريين ، ولكن من خلال أفراد عائلة هم اما مواطنون أو مقيمون لفترات طويلة من هذه البلاد . فمجموعة تشنج شيونج التى تمتلكها إحدى العائلات، على سبيل المثال ، تعمل من خلال شبكة من الأقارب هم مواطنون أو مقيمون لفترات طويلة فى بلاد تمتد من سنغافورة وهونج كونج إلى تايلاند . سويسرا ، كندا أو الولايات المتحدة . وفى تايلاند تزاوج الصينيون الذين يشكلون الآن ما يقرب من عشر السكان من أهالى تايلاند واتخذوا أسماء تايلاندية وبدأوا يؤدون دورا نشيطا فى حياة البلد السياسية والاجتماعية . وهم يتحكمون أيضا فى الأصول المالية المشتركة وفى تسع من أكبر عشر مجموعات تجارية تايلاندية .

وقد اجتذبت الأعمال التجارية الصينية الحنق ، على الأخص فى بلدان مثل اندونيسيا وماليزيا . لكن معظم القادة السياسيين ورؤساء الشركات المشتركة فى جنوب شرق آسيا يعترفون بأن الصينيين كانوا بالغى الأهمية بالنسبة لتطورهم . وهذا صحيح أيضا فى أمريكا الشمالية ، التى أصبحت فى السنوات الأخيرة الملاذ المفضل لما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ صينى من المهاجرين سنويا

ورجال الأعمال الذين يعملون عبر المحيط الهادى - ويعرفون باسم « رجال الفضاء » - تتزايد حيويتهم فى المناطق المتضررة مثل كاليفورنيا ونيويورك حيث تقلص الكثير من الشركات الأمريكية



الفنون أيضا صناعة اقتصادية فى الصين

والشركات متعددة الجنسيات من نشاطها . ففى نيويورك ، على سبيل المثال ، تنمو المناطق التى تقطنها الجالية الصينية الضخمة التى يبلغ تعدداها ٣٠٠,٠٠٠ نموا كبير بسبب استثمارهم ومشروعاتهم ؛ ورجال الأعمال الصينييون يسيطرون بشكل متزايد على صناعات رئيسية فى نيويورك مثل صناعة الثياب . وقد عبر عن هذا چورچ ستيرنلايب خبير التنمية بجامعة رتجرز بقوله ، « ليس هناك خطأ فى نيويورك لا يستطيع مليون صينى أن يصلحوه . »

وهذا النمط أكثر وضوحا فى كاليفورنيا التى تمثل أكبر مستوطنة من مستوطنات الشتات خارج آسيا ، وتضم ما يقرب من مليون صينى وقد استثمرت شركات التكنولوچيا المتقدمة بالفعل بليون دولار تقريبا فى وادى سيليكون . وثلث المهندسين فى الوادى الذين يقدر عددهم بـ ٧٠,٠٠٠ ينحدرون من أصول صينية ، فى حين أسس المهندسون والعلماء الصينيون أكثر من مائة من شركات التكنولوچيا المتقدمة فى كاليفورنيا .

وفى جامعة الصفوة فى كاليفورنيا خمس الخريجين الأجانب فى الهندسة والعلوم . وفى نفس الجامعة يمثل الوجود الأسيوى ، الصينى فى أغلبه ، حجما هائلا لدرجة أن بعض طلاب الرياضيات

والعلوم يشيرون إلى جامعتهم بصفتها «جامعة القوقازيين الضائعين وسط الأسيويين . »

وفى طول البلاد وعرضها يحصل الطلبة الذين ينحدرون من أصول صينية على ثلث درجات الدكتوراه العلمية الأمريكية فى العلوم والهندسة التى تمنح للأجانب وعلى الرغم من أن بعض الخريجين يعودون فى النهاية إلى بلادهم ، فقد اختار اثنان من بين كل ثلاثة من الطلبة والدارسين الصينيون الذين يقدر عددهم بـ ٨٠٠٠٠ أن يقيموا هنا .

منافسات حادة

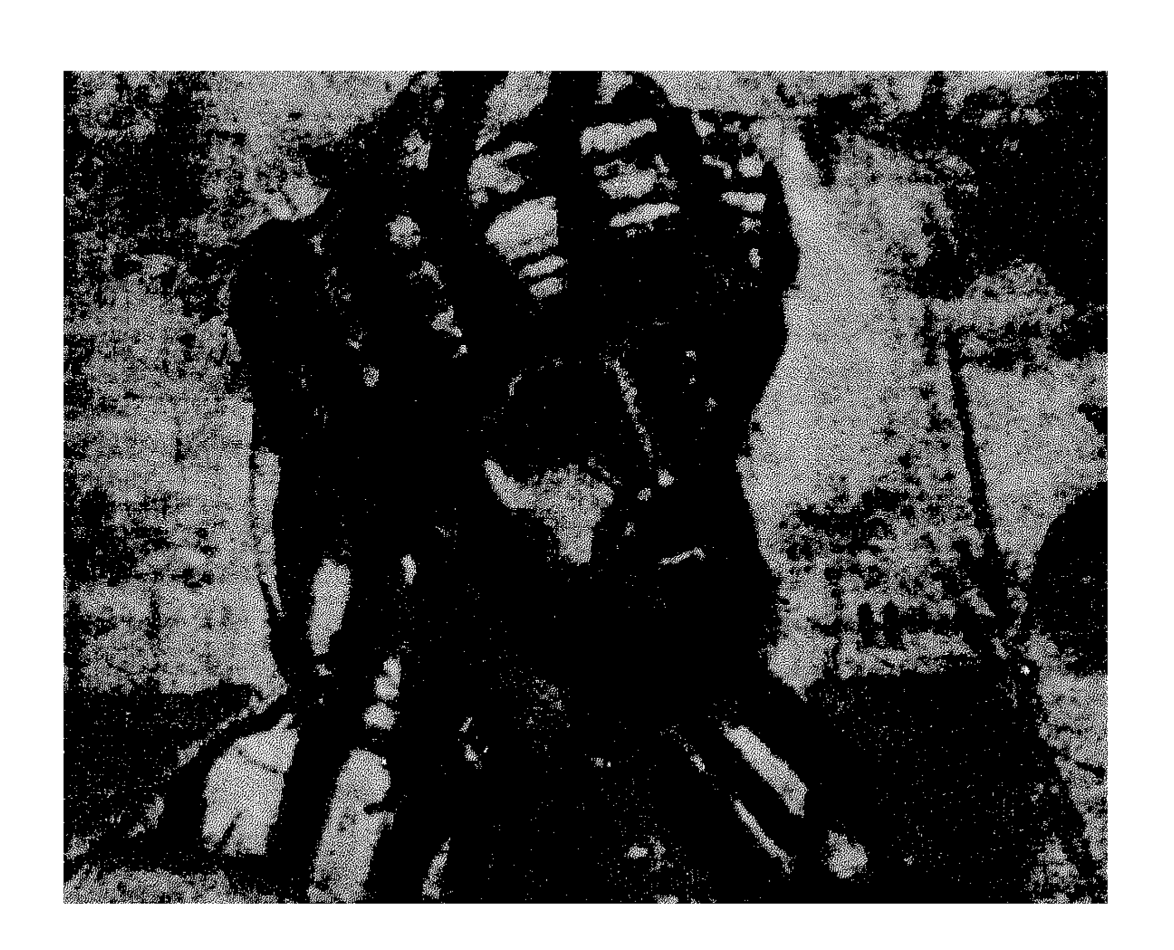
بل ان أولئك الذين يعودون يعقدون صلات جديدة بين هذا البلد وبين اقتصاد حافة المحيط الهادى المتنامى . وهذا التحالف الطبيعى ينبع لا من الروابط التى يصنعها التعليم والهجرة فحسب ، ولكن من تفضيل كثير من الشركات الصينية للشركات الأمريكية على منافسيهم اليابانيين . ويعكس هذا الحد تجربة ضئيلة نوعا ما مع النظام الاقتصادى التجارى . وشأنهم شأن الأمريكيين شهد الصينيون تصاعد الصادرات اليابانية إلى شرق آسيا ، فى حين أن صادراتهم هم إلى اليابان قد زادت بشكل هامشى فقط .

لكن الشركات اليابانية ينظر اليها إلى حد بعيد بصفتها مترددة فى تقاسيم التكنولوجيا أو الأبحاث مع اناس خارج شبكاتهم المعزولة . وقد أوضح مسح قامت به إحدى شركات التكنولوجيا المتقدمة التايوانية فى ١٩٩٠ أنهم يفضلون بنسبة ٢ : ١ العمل مع الشركات الأمريكية لادراكهم أنها أكثر قدرة على الابتكار وأكثر انفتاحا على شراء المنتجات التايوانية من منافسيهم اليابانيين .

وقد خلقت هذه الظروف تقبلا حقيقيا للمنتجات الأمريكية - بدءا من التكنولوجيا المتقدمة وتكنولوجيا الفضاء إلى الزراعة والتسلية . وقد ارتفعت الصادرات إلى سنغافورة وهونج كونج وتايوان إلى ١٦٠ ٪ فيما بين ١٩٨٠ وزادت فى السنة الأخيرة وحدها حوالى ١٥ ٪ .. وتمثل هذه الكيانات الاقتصادية الصغيرة سوقا أوسع للتصدير من أى بلد أوروبى واحد .

وعلى الرغم من أن الاستيرادات فى أرض الصين الرئيسية تظل مقيدة من جانب السلطات الصينية ، فإن امكانيات السوق على المدى البعيد بها - إذا أمكن فتحها - لا يمكن تجاهلها أيضا . فحتى مع هذه الكوابح ، تزايدت استيرادات الصين ثلاثة أمثال ما كانت عليه منذ ١٩٨٠ فمع الحلفاء الصحيحين من بين الصينيين فيما وراء البحار واتباع سياسة تستخدم سوقنا مثل عتلة لفتح سوق الصين ، يمكن للشركات الأمريكية أن تجنى أرباحا طائلة فى العقود المقبلة .

عن واشنطن بوست :
چويل كوكتين



عمر الخيام

بقلم : د . عبد العظيم أنيس

لابد أن يكون عمر الخيام هو الرياضي البارز الوحيد الذى اقترن اسمه فى هذا العالم بالأندية الليلية والفنادق ومحال بيع الفطائر . ومن الغريب أنه لم ينشأ ناد واحد فى العالم العربى لمناقشة إنجازاته الفذة فى الرياضيات والفلك ، ولا حتى ناد واحد لمناقشة الرباعيات المنسوبة إليه والتى اشتهر بها فى الغرب ، وإنما ارتبط اسمه للأسف الشديد بأندية اللهو والمجون فى الشرق والغرب على السواء .

وكما أن الرأى العام فى الغرب لم ينصفه إلا بالتركيز على تلك الرباعيات التى ترجمها فيتزجيرالد لأول مرة فأثارت شجونا عن الشرق وروحانياته، دون الانتباه إلى أن نسبة الرباعيات إليه ليست مؤكدة تماما ، وإلى حقيقة أن عمر الخيام واحد من أربعة أو خمسة علماء أفذاذ أنتجتهم الحضارة العربية الاسلامية ، وكما لم ينصفه الادباء فى الغرب ، لم ينصفه أيضا إلى عهد قريب المشتغلون بتاريخ العلوم فى الغرب أيضا ، باستثناء قلة صغيرة .

فالنظرة التقليدية للعلماء المشتغلين بتاريخ العلوم فى الغرب هى التهوين من إنجازات الحضارة العربية الاسلامية فى العلم ، وأبسط مثال على ذلك ما قاله تانيرى منذ نحو قرن عندما ادعى أن الجبر العربى لا يتجاوز بشكل من الأشكال المستوى الذى بلغته مدرسة الاسكندرية على يد ديوفانتيس (٢٥٠ بعد الميلاد) ، وإلى نفس الفكرة يذهب كتّاب مثل بورباكى وإن كان بشكل أقل وضوحا ، بل إن العالم البريطانى برونفسكى يذهب فى كتابه «ارتقاء الانسان» إلى أن ابن الهيثم هو العقل العربى الأصيل الذى أنجبته الثقافة العربية الاسلامية ، وذلك لأنه – على عكس اليونانيين – أدرك لأول مرة أننا نرى أى جسم لأن كل نقطة عليه ترسل شعاعا إلى العين وتعكسه ، وهكذا نشأت فكرة المنظور فى العلم وفى فن الرسم فى أوربا فى عصر النهضة بسبب هذه الفكرة المثيرة التى يدين فيها العالم الحديث لابن الهيثم .

ولكن العالم فى الغرب مدين بأشياء كثيرة أصيلة لعمر الخيام أيضا وربما يلتمس المرء العذر لبعض العلماء القدامى فى الغرب لأن بعض الوثائق والبحوث الخاصة بعمر الخيام لم تكن قد اكتشفت بعد . ولكن ما عذر العلماء فى الغرب الذين كتبوا فى النصف الثانى من القرن العشرين بعد أن أوضحت أعمال «وبيك» حول الكرجى والخيام وأعمال لوكى عن الكاشى أن الصورة السابقة التى عبر عنها برونفسكى فى كتاب «ارتقاء الانسان» مغلوطة وغير دقيقة .

لقد ولد الخيام فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى فى نيسابور من ولاية خراسان ، قبل وفاة البيرونى بوقت قصير عندما كان الاتراك السلاجقة هم حكام خراسان ومع أن الحضارة العربية الاسلامية كانت فى فى طور التدهور باستيلاء العسكريين الأتراك فعليا على الحكم فى بغداد ، وتفتت الخلافة إلى أمصار وأقاليم ، إلا أن هذا الوضع لم يؤد بالضرورة إلى تدهور البحث العلمى فى الثقافة العربية الاسلامية فوجود أمراء جدد على رأس الحكم فى الولايات

المختلفة والتنافس بينهم ساعد على أن يحتضن كل منهم بعض العلماء ويرعاهم ماليا ، وهكذا ذهب الخيام إلى أصفهان عام ١٠٧٠ م - بعد أن انتهى من أعظم أعماله وهو كتابه فى الجبر - ووضع نفسه تحت رعاية حاكمها «ملكشاه» ووزيره «نظام الملك» ، وفى خراسان اضطلع الخيام ببرنامج بحوث فلكية من خلال المرصد المقام هناك . وبسبب هذه البحوث وضع الخيام عام ١٠٧٩ ميلاديا إصلاحا للتقويم السنوى يعتبر من وجهة نظر العالم الكندى بيرجرن [أنظر كتابه «وقائع فى رياضيات الاسلام الوسيط»] أفضل من التقويم الجريجورى الحالى ، فقد جعل من كل ٣٣ سنة ثمانى سنوات كبيسة (أى طولها ٣٦٦ يوماً) وبذلك حصل الخيام على طول للسنة أقرب إلى الدقة من التقويم الجريجورى الحالى .

○ البحث فى النسب

لكن عبقرية الخيام لا تتمثل فى إنجازاته فى الفلك فحسب ، وإنما تتمثل في الرياضيات بالدرجة الأولى ، لقد انشغل الخيام - قبل الانتهاء من تقويمه - بإعادة قراءة كتاب إقليدس فى الهندسة «الأصول» وهو كتاب يقوم على أساس خمس مصادرات أساسية هى عماد هذه الهندسة والخرسانة التى تبنى عليها ، ولقد حاول الخيام الاستغناء عن المصادرة الخامسة واستنتاجها من المصادرات الأربع الأولى ، ومع أن ابن الهيثم الذى برز قبل الخيام (حوالى ١٠١٠ م) قد سبقه فى معالجة هذه المسألة فإن الخيام اعترض على منهجيته وأيده فى ذلك نصير الدين الطوسى فى القرن الثالث عندما كتب دراسته عن المصادرة الخامسة ، وهى دراسة معترف اليوم أن الأوروبيين المشتغلين بالهندسة فى القرن السابع عشر تأثروا بها كثيرا ، وأن هذا التأثر كان البداية فى اكتشاف الهندسة اللاإقليدية فى القرن الثامن عشر .

أما المسألة الأخرى فى بحث الخيام عن صعوبات كتاب إقليدس «الأصول» فهى بحثه فى مسألة النسب ، وهنا قدم الخيام إنجازا شديد الأهمية عندما اقترح لأول مرة فكرة توسيع تعريف العدد حتى يتضمن نوعا جديدا من الأعداد ، وهو النسبة بين المقادير كالنسبة بين قطر المربع وطول ضلعه ($\sqrt{2}$.) أو النسبة بين طول محيط الدائرة وقطرها (ط) . وهذه الفكرة الهامة جدا انتقلت أيضا إلى الرياضيين الأوربيين فى عصر النهضة من خلال الكتابات المترجمة إلى اللاتينية لنصير الدين الطوسى ، وتلك كانت البداية فى تعريف الأعداد الحقيقية .

على أن أعظم ما قدمه الخيام من إبداع علمى هو كتابه «الجبر» الذى أهداه إلى قاضى قضاة سمرقند «أبو طاهر»

وفيه يقدم لأول مرة معالجة منهجية لحل معادلات الدرجة الثالثة . ومن المؤكد أن هناك من سبقوا الخيام فى تناول تلك المشكلة مثل الماهانى وأبى جعفر الخازن ، لكن الفضل يعود إلى الخيام وحده فى إعداد نظرية عامة لمعالجة هذا النوع من المعادلات ، ولعل السبب فى الاهتمام بهذا النوع من المعادلات أنها النوع الذى يأتى منطقيا إلى الذهن لكل من يقرأ كتاب الخوارزمى «الجبر والمقابلة» عن معادلات الدرجة الثانية ، فضلا عن قضايا فلكية عملية كثيرة طرحت مسألة حل معادلات الدرجة الثالثة .

إن الناظر فى كتاب الخيام عن الجبر سوف يجد أنه يؤكد على مسألتين : أولاهما أنه لم يصل من اليونانيين أى شئ يتعلق بحل معادلات الدرجة الثالثة ، وإذا كان أرشميدس قد طرح مسألة هندسية يمكن ردها إلى معادلة من الدرجة الثالثة فإنه لم يستطع – لا هو ولا شراحه – صياغة هذه المسألة بطريقة جبرية ، والذى قام بهذه المهمة هو الماهانى ، كما أن الحل باستخدام تقاطع القطاعات المخروطية إنما يعود إلى أبى جعفر الخازن ، أما الثانية فهى أن علينا أن نميز بين معالجة مسألة معينة من الدرجة الثالثة وبين إعداد نظرية عامة فى معالجة معادلات الدرجة الثالثة ، وهذا بالدقة ما أنجزه الخيام .

• إنجاز عظيم

ومن أسف أن تاريخ الجبر الكلاسيكى لدى الأوربيين ينسب فى العادة هذا الانجاز العلمى الكبير إلى رياضيى المدرسة الايطالية فى القرن السادس عشر وبصورة خاصة تارتاجليا وكاردان ، وصحيح أن هذين الأخيرين قد استطاعا أن يعبرا عن الحلول جبريا لأول مرة بينما استخدم الخيام الهندسة فى إيجاد هذه الحلول ، لكن ليس هذا مبررا لتجاهل إنجاز عظيم مثل إنجاز الخيام .

كتب الخيام فى كتابه (الجبر) يقول : « لقد حاولت أن أجد صيغا جبرية لهذه الجذور ، ولم أنجح . وربما ينجح فى هذه المهمة من يأتون بعدنا » ، وقد أنصفه العالم الكندى بيرجرن فى كتابه السالف الذكر عندما عقّب على هذه الفقرة فى كتاب الخيام فقال : «إنها تعبر عن تواضع الخيام وتحضره» .

وربما نختم هذا المقال بالتنويه إلى أن الخيام ليس هو العالم الوحيد الذى أنتجته الحضارة العربية الاسلامية ولم تنصفه معظم الكتابات الأوربية هناك مثلا منهجية «الاستقراء الرياضى» التى تستخدم بكثرة اليوم فى البحوث الرياضية والتى تنسب فى معظم الكتابات الأوربية إلي باسكال فى القرن السابع العشر أو إلى موردليكو فى القرن السادس عشر، مع أن الكرجى فى القرن الحادى عشر ومن بعده السموأل فى القرن الثانى عشر قد سبقا الأوربيين فى استخدام هذا المنهج والاستفادة منه بشكل حاسم .

المصريون في الغربة

بقلم : د . شكرى محمد عياد

أخرج الروائى عدسته القديمة - عدة الفنان الواقعى - وأقبل على ارتياد المنطقة التى آثر الكتاب - لأمر ما - أن يبتعدوا عنها ، مكتفين بالدوران حولها ، مع أن المصريين لم يعرفوا بين التجارب الكثيرة التى قلبت حياتهم رأساً على عقب ، خلال ربع القرن الأخير ، ما هو أكثر شيوعا ، أو أبعد أثراً منها . ملايين المصريين ، من أساتذة الجامعات إلى الفعلة ، ذهبوا إلى دول الخليج للعمل ، وأقاموا فيها مدداً طويلة أو قصيرة .

معظمهم ذهبوا وهم فى مقتبل العمر ، وعادوا وقد تغيرت فى حياتهم ، وفى شخصياتهم ايضا ، أشياء كثيرة ، وكثير من هؤلاء الراحلين كانوا أدباء وكتابا ، ولكنهم فضلوا أن يبنوا سوراً حول هذه الحقبة العزيزة من حياتهم ، أن ينسوا ما رأوه وما عانوه ، وكأنهم عاشوا هناك ما عاشوا مغمضى العيون ، مغلقى العقول ، أو آلوا على أنفسهم أن ينسوا ما رأوه وما عانوه . معظمهم يتذكرون فقط الظروف التى دعتهم إلى هذه الهجرة المؤقتة : الأزمة المستعصية فى تقديم مهر ، أو تجهيز بنت ، أو تعليم ولد ، أو العثور على مسكن ، ويواجهون بعد عودتهم علاقات أسرية مقطعة ، ومشكلات جديدة متفاقمة ، فقد تغير المجتمع ، وتبدلت القيم ، وما كان كماليا أصبح ضروريا ، وما كان واجبا أصبح من الممكن التغاضى عنه ، ويشعرون

بقلم : د . شكرى محمد عياد


إبراهيم عبد المجيد



أنهم أرادوا أن يقفزوا فوق الزمن ، فصرعهم الزمن ، أن ما ذهبوا من أجله - إن كان قد تحقق أو لم يتحقق - لم تعد له قيمة ، وأنهم أصبحوا بلا هدف ، بلا وطن.

هل كان الخروج انتصاراً على المشكلة، أو هروباً منها ، أو - على أحسن الفروض - تأجيلاً لها ؟

هل كانت المشكلة هى - حقا - الحصول على مهر ، أو العثور على مسكن ، أو تجهيز بنت ، أو تعليم ولد ؟

أم أن حقيقة المشكلة كانت - وما زالت - تكمن فى الاستسلام لها وقبول شروطها ؟

. هل كان « الخروج » فعلاً إرادياً حرا، أم كان حلقة أخرى فى السلسلة الجهنمية التى كبلت إرادة الإنسان المصرى ، والتى يتحتم عليه أن يحطمها إن أراد الحياة ؟

كان الإنسان المصرى ، الذى اغترب عن نفسه فى بلاده ، يحاول أن يلتئم معها فى الخارج حيث يمكنه أن يتخلص من جميع الارتباطات :

الارتباطات العائلية التى تشده إلى الماضى وتحمله مسئولية جيل أو أجيال لم تترك له إلا ميراث الفقراء من جهل وعجز ، الارتباطات الجديدة التى حاول من خلالها أن يحقق ذاته : فى حب لم يلبث أن قتله الحرمان واليأس ، أو زواج أغرى به الطموح الاجتماعى ثم تكشف عن محيط فاسد ونفوس خربة ، أو عمل تراءت فيه أحلام النجاح والتقدم فإذا به ينحط يوماً بعد يوم إلى عراك رخيص حول مغانم حقيرة ، الارتباط الأزلى والحقيقى رغم أنه أصبح مبهماً يحار المرء فى فهم معناه : الارتباط بالوطن - الوطن بمعناه المجرد بعيداً حتى عن الأهل والبلد والعمل ، الوطن الذى بدت مشكلاته مستعصية على الحل ، ومستقبله غارقاً فى الظلام يحاول المغترب أن ينفض عنه هذه الارتباطات كلها ولكنها تظل عالقة به ، تمنعه حتى من رؤية عالمه الجديد، فيزداد انحصاراً داخل ذاته .

○ مردود ضئيل

وهكذا بقيت تجربة الحياة فى دول النفط ذات مردود فنى ضئيل لدى الكتاب القصصيين المصريين ، لأن واقع هذه التجربة ظل مختفيا وراء الهموم النفسية التى حملها المغترب فى ذهابه ورجع بها وقد تيبست ، كالنسيج الميت ، فى جانب من قلبه ، بينما كان يحمل فى حقائبه أجهزة إلكترونية وأدوات زينة وملابس لاتسد حاجة أحد إلا التظاهر الكاذب، وفى جيبه رصيد صغير يحار كيف يستغله فيسلمه إلى النصابين الذين يرصدون عودته . تكاد التجربة القصصية تنحصر فيما قبل الرحيل وبعده، ويختلط فيها الواقع بالأحلام والكوابيس، على نحو ما فعل علاء الديب فى روايته القصيرة « أطفال بلا دموع » . وتتسع القصة القصيرة لهذا النوع من المعالجة أكثر من الرواية ، وهو ما يظهر بوضوح فى مجموعتين قصصيتين لمحمد عبد السلام العمرى : « شمس بيضاء » و « إكليل من الزهور » . وقد كاد العمرى يتخصص فى هذا الموضوع ، واستطاع فى بعض قصصه أن يخرج من حدود التأمل الباطنى والأزمة الذاتية إلى رؤية موضوعية لمجتمع لا يزال صحراويا فى جوهره رغم قشور الحضارة الصناعية التى تزحف عليه . ويبدو فى إحدى هذه القصص بالذات (« رياح السموم » فى إكليل من الزهور) وكأنه يمهد لعمل أشد طموحا . فهذه الصورة البالغة التحديد والاتقان والمكتنزة بالتفاصيل الدقيقة تبدو كما لو كانت لوحة منتزعة من رواية يقوم فيها الطبيب المصرى الشاب والشيخ البدوى الذى يهوى صيد الصقور و أكل عيونها بعد قليها. نموذجين مشحونين بكهرباء التناقض فى دراما ذات إمكانيات خصبة، قد يكون محورها زوجة الشيخ الصغيرة السن .

○ الاغتراب النفطى

ويبدو لى أن « استكشاف عالم النفط بعيون مصرية » دليل على أن النفس المصرية بدأت تخرج من انطوائها المرضى وتسترد قدرتها على النظر إلى الواقع والسيطرة عليه معرفيا وخياليا ، حتى تصبح التجربة جزءا من رصيدها لا حملاً على كاهلها . وهذه ملاحظة لا تقتصر على موضوع « الاغتراب النفطى » دون غيره من المجالات التى يعالجها القصاصون المصريون . وأرجو ألا تفهم إشارتى إلى « الانطواء المرضى » على أنها حكم فنى . فعندما تكون النفس مريضة فغاية ما يستطيعه الفنى أن يصور مرضها ، ولا أظن أن أحداً يجهل أو يجادل فى أن تصوير القبح والمرض يمكن أن يبلغ قمة الجمال الفنى ، والكلام عن « التطهير » الذى يحدثه الفن كلام قديم معروف .

الفن منحة عظيمة أعطيت للإنسان فى أوقات الصحة وأوقات المرض على السواء . وربما كان النقاد ، فى عصرنا المريض هذا ، أكثر تحيزاً لجانب المرض ، وأكثر تقديرا - من ثمة - للفن السيريالى الذى يسور حالات مرضية . ولكن العودة إلى الفن الواقعى إذا كانت تعبيراً عن عودة العافية إلى النفس المريضة ، فإنها ليست - بالضرورة - انحداراً عن أفق الفن الرفيع .

واذا كان إبراهيم عبد المجيد الذى أظهر فى أعماله الروائية ، السابقة - من منظوره الذى اشتمل على الظاهر والباطن، واليومى والشاذ، وتنوع أساليبه التى يستطيع أن يوظفها دائماً فى خدمة ذلك المنظور - إذا كان إبراهيم عبد المجيد قد آثر فى روايته الجديدة " البلدة الأخرى " أن يلجأ إلى الأسلوب الواقعى - حتى ليستخدم بعض الحيل الكلاسيكية فى الكتابة الروائية - فإن هذا يجب ألا يعد تخليا أو تراجعاً، بل انتصاراً جديداً لفنه .

● شخصية ما بعد الواقعية

إسماعيل خضر موسى - لماذا هذا الاسم المكون من أسماء ثلاثة أنبياء ؟ - لا يذهب إلى السعودية ، كما نتوقع ، لجمع المال . ربما كانت أمه التى زينت له هذا الانتقال تريد ذلك ، وستظفر به فعلاً .

«ربما كرهى الدفين لحالة الرضا الزائد التى أعيشها هو الذى جعلنى أوافق على السفر، هكذا يقول لنفسه عندما يستيقظ من كابوس ركبه فى الليلة الأولى لوصوله . ولكن هل هو راضٍ حقا ؟ إنه يقول لنفسه أيضا : - لو لم أفز بأى شىء فلا بد أنى سأهز الركود عن روحى ولو مرة . لا يمكن أن أعود كما جئت . إن لم أفز بشىء سيصيبنى ولو جرح صغير . إن لم أنجح سيكون لدى أسباب للفشل . ، وراءه إذن فشل بلا سبب ، مثل هذا الكابوس الذى ركبه « مع أنه لم يرتكب خطيئة ولم يتناول طعاماً ثقيلا فى العشاء » .

لدينا إذن شخصية مختلفة ، شخصية لا تنتمى إلى عصر الواقعية بل إلى ما بعد الواقعية . بركان خامد ، يتململ وتعلم أنه لا يلبث أن ينفجر . بعيداً عن الأم ، والأبوة غير الحقيقية التى تربطه باخوته بعد موت أبيه ، ربما أصبح إنساناً آخر . لا يهم أن البلدة التى نزلها بلدة صغيرة ، تبدو مقفلة على أهلها وسط صحراء لا يرى بها كائناً حيا غير كلب شارد . بلدة صنعها البترول، واجتمع فيها أشتات الناس من كل جنس ولون ، لا أحد فيها يألف أحداً ، أو يطمئن إلى أحد ، فكلهم عائد إلى بلده يوما ، وسينسى هذه السنين بما فيها ، مثلما قدم

إلى هذه البلاد لينسى ما كان فيه .. ولكن الحياة لا يمكن أن تحاصر فى قمقم أو فى صحراء . ستنفجر البلدة مثل إسماعيل نفسه . ستنفجر فى يديه مثل قنبلة موقوتة. سيجرح أكثر من جرح واحد ، وستهاجمه الكوابيس إلى أن يخرج من قوقعته ويعود إلى مصر إنساناً آخر ، إنساناً قطع كل ارتباطاته بالبلدة الأولى والبلدة الأخرى .

ولكنه حين استقبله الصمت فى البلدة الأخرى لم يكن يفكر فى نفسه كثيراً . يقول لنفسه : «أنا ما جئت هنا إلا لوقت عابر، فلأكن مرآة لامعة تنزلق عليها الوقائع». وسيظل طوال تلك الفترة ، التى لم تتجاوز بضعة أشهر، مرآة لامعة حقا، ولكنها مرآة تنطبع عليها الوقائع قبل أن تنزلق عنها. يقول لنفسه فى أواخر أيامه فى البلدة الأخرى «عائد إلى حيث جئت لا محالة، وكل شئ اقتربت منه ابتعد. كيف نسيت أن أكون مرآة لامعة تنزلق فوقها حبات المطر؟».

ومن هذه التجربة الذاتية العميقة والرؤية المرآوية للواقع يتألف نسيج الرواية: فتتقاطع خطوط الرؤى والكوابيس والتأمل فى أعماق الذات (هذا شئ مختلف عن «تيار الوعى ») وأيضاً تيار الوعى إلى حد ما ، تتقاطع مع الشخصيات الواقعية الشديدة التباين فى ذلك المجتمع الذى سوى على عجل من مختلف الأجناس والملل: شخصيات تجمع بين النموذج والسمات الفردية المميزة فتشعر أنك لابد قد عرفتها من قبل: المصريون: عابد زميل إسماعيل و«شبه رئيسه» فى العمل .. وفى هذه الرئاسة غير المصرح بها وغير المعقولة أيضا، وفى اسم « عابد » الذى يقل بين المصريين ويكثر بين السعوديين يكمن سر العلاقة المتوترة بينهما. فاسماعيل جاء لفترة يعلم سلفا أنها لن تطول، وعابد جاء وكأنه ينوى أن يقيم أبدا، هو أشبه بخادم شخصى لمدير الشركة السعودى. وجيه، الطبيب، زميل إسماعيل فى السكن، متوسط العمر ويبدو أنه أقام مدة طويلة فى السعودية وفى هذه البلدة بالذات ، فله فيها علاقات مهمة . له زوجتان فى القاهرة، يقول زميلهما الثالث فى السكن ، سعيد معلم الألعاب الرياضية، إنهما آيتان فى الجمال، ولكن لأنهما اثنتان لايمكنه أن يصحب إحداهما إلى مقر عمله فتغضب الأخرى، سيتزوج الثالثة عندما ينقل إلى المدينة، لبنانية تفوقهما حسنا، وأهلها مستقرون بالمدينة منذ زمن ولهم مكانة وثراء طائل. نبيل عامل البوفيه: خليط وتنافر من الملامح والصفات : أنف كبير وشفتان غليظتان وعينان صغيرتان وذراع قوية وخوف دائم من مجهول يتربص به هو بالذات وسذاجة بادية ومكر

دفين. هنـاك من العـرب أيضـا منـذر الفلسطينى الفدائى الذى يحتمى بجنسيته الأردنية ويخفى آثار الجروح فى جسمه حتى لا يرحل ، ولكنه سوف يرحل لأن جارته السعودية الشابة التى فشلت فى أن تنشئ معه علاقة محرمة دبرت له كمينا مع زوجها الشيخ .

● شخصيات مثيرة

ولكن الشخصيات الأخرى القادمة من جنوب آسيا ليست أقل إثارة: فليب العامل السيريلنكى الذى تجاوز الخمسين ولديه زوجة وأولاد خمسة ولكنه لايريد العودة إلى بلاده، وربما لهذا السبب يعتنق الإسلام فيموت على أثر الجراحة التى تجرى له لختانه، ولأن عامل المعمل كان سعوديا والجراح سعوديا لا يطول التحقيق فى المسألة وتدفع مكافأة نهاية الخدمة لزوجته مع شئ من الإكرام، وربما لأن إسلامه لم يتم بالختان يرحل جثمانه أيضا ليدفن فى موطنه. أرشد العامل الباكستانى المسئول عن الورشة والذى يعلم إسماعيل قيادة السيارة وحين يطمئن إليه يطلعه على سره: إنه فنان تشكيلى وله نشاط سياسى فى بلاده فى صفوف المعارضة ولكنه يخفى ذلك أيضا حتى لا يرحل . آرون بونكرد التايلندى ذو العينين اللوزتين والشارب المغولى . تبدو تصرفاته غريبة لإسماعيل، ينظر إليه طويلا كلما جاء ليوقع فى دفتر الحضور والانصراف، ويبتسم ابتسامة واسعة ، ويمضى على مهل « بدا لى مثل شخص يعرفنى منذ زمن بعيد، ويريد أن يذكرنى بنفسه » . وأخيرا يظهر السر حين جاء يطلب سلفة ثلاثة أشهر لأنه يريد أن يبنى بيتا فى بانكوك، وقبل أن ينصرف همس فى أذن إسماعيل «دويو لابك فاين؟» فهو يصنع الخمر فى الكامب سرا، ولكن رفاقه الباكستانيين يرشـدون عنه بعد عودتهم من الحج فيـرحل خـلال أربع وعشرين ساعة، وقبل أن يذهب يقول لإسماعيل إن الجميع كانوا يعرفون، وإن المدير نفسه (عم عبدالله) كان يتذوق خمره.

عن طريق وجيه يعرف إسماعيل ثلاثة أطباء آخرين: الدكتور الغريب (ومن أجدر منه بهذا الاسم؟) الذى يعيش منذ عام تقريبا موقوفا فى ڤيلا لا يسكنها غيره، قطع عنه مرتبه فهو يعيش مما يجمعه له زملاؤه، تهمته أنه أجرى عملية إجهاض لامرأة جاء بها رجل زعم أنه زوجها، وماتت المرأة، ووقف الطبيب إلى أن يبت فى أمره، ونسيه المسئولون ولم يجرؤ أحد على تذكيرهم بقضيته. سيبقى على هذه الحال إلى أن يزور المستشفى وكيل جديد لوزارة الصحة ، كان زميلا له فى الدراسة فيأمر بترحيله. الدكتور رأفت طبيب المسالك البولية الذى قرر أن خمس سنوات فى السعودية يجب أن تكون كافية وسافر إلى

الولايات المتحدة لشراء أجهزة حديثة للعيادة التي قرر فتحها ولكنه مات قبل أن يجلس فيها لأنه كان مريضاً بالسكر. الدكتور أحمد الشاب الصغير الذى صُدِمَ فى أول شهر من قدومه صدمتين . صدمة حين كلف بأن يصحب فتاة لبنانية غرر بها أحد أهالي البلدة وأولدها طفلا فسجنت عاما وأصبح من الواجب ترحيلها بدون طفلها، ثم أن يشهد إعدام جندى كان قد أطلق النار على ضابطه، فعاد والجندى فى سيارة إسعاف واحدة ، هذا إلى ثلاجة المستشفى وهذا مغشيا عليه إلى غرفة الأطباء.

وبفضل عمل إسماعيل فى ترجمة تقارير الخبراء الأمريكان ـ ولأسباب أخرى لم تكن تخطر بباله ـ يطلع على عالمهم المرفه. يسكنون فى «كامب» خاص بهم، مكون من «ڤيلات» صغيرة، تحيط بكل ڤيلا حديقة، لاحظ إسماعيل وهو يدخل مسكن مضيفيه لارى وروزمارى لأول مرة أن تربتها طينية . من أين جاءوا بهذا الطين فى الصحراء ؟ إن لارى يعامله بخشونة ويبادله العداء، على عكس روزمارى. سيعرف إسماعيل بعد فوات الأوان أن روزمارى تريد حماية زوجها الذى زور وثيقة شحن ليختلس ثلاثمائة ألف دولار من أموال الشركة. إنها تذهب فى توددها لإسماعيل إلى حد الإغراء الجنسى، وتلمح إلى أنها اختارته هو بالذات لأنها يمكن أن تستطيب هذا الأمر معه.

تحت السطح الساكن لهذه المدينة الصغيرة التى ترقد مبهمة فى الصحراء ـ يروى أهلها أن لعنة سماوية ترنق فوقها ـ هناك ألوف الرغبات التى تدوم باحثة بجنون عن منفذ غفل عنه الحراس.. ربما كان هذا الوصف أكثر انطباقا على الأجانب. أما أهل البلد فهم يعرفون كيف يدبرون أمورهم تحت هذا السطح الساكن. يعرف «عم عبد الله» أن لارى لص، ولكنه يسهل له السفر إلى أمريكا ومعه زوجته، التى أمضى معها «عم عبد الله» وقتاً طيباً.

يحاول صالح ـ تلميذ إسماعيل السابق ـ أن يقتله إذ يحاصره بسيارته فيضطره إلى الاصطدام بسيارة شرطة، أمام الضابط الكبير «أبى حكيم» يقرر وجيه نيابة عن إسماعيل أن علاقتهم بصالح لا تشوبها شائبة، والقصد الإجرامى واضح، وأبو حكيم يوجه السؤال إلى إسماعيل زاعما أنه يستطيع أن يقول ما عنده، فهو فى حماية الشرطة، ولكن إسماعيل يعرف معنى ضغطة وجيه على قدمه فيؤمن على ما قاله ويقفل المحضر.

سعيد قال لإسماعيل: ما كان عليك أن ترفض التدريس لصالح. وقال إسماعيل إنه لم يرفض، ولكنه رفض أن يتقاضى أجراً نظير الفرجة على أفلام جنسية.

فيقول سعيد: أنت لا تعرف هذه البلاد، صالح يستخدم الرشوة مع كل المدرسين من كل الجنسيات، لا يرفض أحد رشوته ولا هديته، رفضت أنت أن تكون له اليد العليا... هنا لو أعطاك أحد شيئا خذه بلا تردد، ولو طلب منك أحد شيئا افعله أو أعطه أملاً حتى ينسى فأنت لا تعرف كيف تسير الريح.

أن يكون هناك شئ لا يمكنهم شراؤه بالمال ـ هذا هو ما يزلزل نفوسهم ويبعث كوامن الشر فيها، يقول سعيد إن نفوسهم كبار وإن كانوا صغار السن، ويقول إسماعيل هذه نفوس مريضة فيقول سعيد ربما هى بريئة براءة الأطفال تتألم لأقل أذى ولا تعرف كيف تدافع عن نفسها، ولا يقول أحدهما ولكن الرواية تقول بشتى أساليب القص إن الثروة فاجأت مجتمعاً شديد السذاجة فى علاقاته الإنسانية فأصابت الجميع بما يشبه المس، فى كل منهم شئ من منصور: الشاب الذى لا يراه إسماعيل إلا وعلى كتفه قرده الصغير المدلل، ليس له صديق غيره، حتى أسرته يظل على خلاف معهم، لا يستطيع منصور أن يفهم لماذا ترفض المدرسة المصرية وداد الزواج منه، السعوديون يتزوجون بالمصريات بكل سهولة فلماذا ترفضه هى؟ يقسو على القرد مرة فيهرب منه إلى الصحراء، وكذلك تهرب منه نفسه فيجن حين تنتقل وداد إلى الكويت وتتزوج قريباً لها هناك.

● جــزع وحســرة!

مجتمع غريب لا يمكن أن يتواءم معه إلا مثل عابد، حتى نبيل لا يمكنه أن يتواءم معه، إنه يقول لإسماعيل فى أول لقاء بينهما : « غرفة مثل هذه مهجورة، وبلد مثل هذه مهجورة، وخازنة مثل هذه عامرة ماذا تفعل بها ؟ » .

أما الطبيب رأفت فيقــول : القــرار الصعب هنا أن تحدد متى تعود، الوقت هنا ممل، يبدو كذلك حقا، لكنك تكتشف فجأة أنه مر بسرعة وأخذ معه خمس سنوات من عمرك، كم خمس سنوات وكم عشر سنوات فى عمر الواحد منا؟ لا أحد يفكر فى ذلك .

يشعر القارئ بالجزع لأن الكاتب جعل رأفت يموت قبل أن يبدأ حياة جديدة على أرض الوطن، إذن لم تكن لديه سوى هذه السنوات الخمس التى قضاها فى الغربة، ينسج الآمال حول ما يستطيع أن يفعله بعد أن يعود، قد لا يملك المرء من عمره إلا يوماً واحداً فكيف يقضيه؟ والحقائق التى لا يكتشفها المرء إلا متأخراً لا تورثه سوى الحسرة، وهذا إسماعيل ذاهب إلى مصر على أثر وفاة أمه . فى نيته ألا يرجع إلى السعودية؟ وفى نيته أيضا ألا يبقى فى مصر، يتساءل القارئ أى حقيقة يريد أن يستبقيها هـذه المرة ؟ أى نوع من البشر هو ؟ أى نوع من المصريين ؟

أزمة الفكر الإسلامى

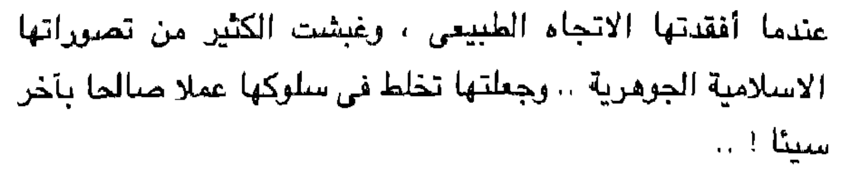
بادىء ذى بدء . فاننا نطرح بين يدى أهل الفكر والباحثين والقراء السبب الأول الذى استدعى هذا الجهد الفكرى ، الذى تسهم به كلمات هذا المقال فى «مشروع فكرى» ارتاد ميدانه كثير من المفكرين ..

هذا السبب هو الاحساس المكثف والملح، لدى كثير من العلماء والمفكرين ، بوجود «أزمة» يعانى منها الفكر الاسلامى، الأمر الذى أفقد الأمة الاسلامية الرائد الذى لا يكذب أهله ، ودليل العمل الذى لاغنى لها عنه وهى تحاول النهوض، فوقعت الأمة هى الأخرى فى « الأزمة » ! ..

واذا كان الاحساس المكثف بوجود « الأزمة » دليل الاتفاق على قيامها ووجودها .. فان الاختلاف قائم ، على نحو ما ، حول تاريخها ... وقائم كذلك حول مظاهرها .. وقائم بدرجة أكبر حول أسبابها وحول سبل الخلاص منها .. وتلك ميادين تتطلب الاجتهاد من كل قادر عليه ، فى أى ميدان من الميادين ..

● فكر غريب

ان أحدا لاينكر أن الفكر الاسلامى قد خلع عن عرشه ، وانحسر ظله عن أغلب مملكته ـ ان ضعفا أو قسرا ـ وبخاصة فى المساحة الأغلب من دوائر الحكم والدولة وتنظيم وقيادة الواقع الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والمعرفى للمجتمع الاسلامى .. وأيضا فى مساحة كبيرة من تصورات الجمهور وممارساتهم .. ولقد حل محله فى هذه المساحات فكر غريب عن الصبغة والمعايير والضوابط الاسلامية .. وهذا الفكر الغريب منه « الوافد الضار » من فكر الحضارة الغربية ومنه « الموروث المتخلف » من فكر عصر التراجع والجمود .. وهذه الأزمة فى الفكر قد أحدثت أزمة لأمة هذا الفكر ،





عندما أفقدتها الاتجاه الطبيعى ، وغبشت الكثير من تصوراتها الاسلامية الجوهرية .. وجعلتها تخلط فى سلوكها عملا صالحا بآخر سيئا ! ..

واذا كان الخلاف قائما حول تاريخ بدء هذه الأزمة الفكرية ، فلا أعتقد أن هناك خلافا حول قدمها .. فلقد حدثت وفعلت فعلها منذ قرون عدة ، وذلك عبر تطورات وتراكمات بطيئة ، كطبيعة النشأة والفعل لعوامل وظواهر الفكر فى حياة الأمم والحضارات ..

أما عن أسباب هذه « الأزمة » ، التى أفضت الى هذا «المأزق» ، فان بعض الباحثين يراها ثمرة طبيعية لبنية الفكرية الاسلامية .. فهذه البنية ـ فى نظر هذا الفريق ـ تحمل ، فى داخلها أسباب قصورها الذاتى ، ولقد أفضى هذا القصور ، عندما اشتد عوده ، إلى هذه « الأزمة » فهى ـ عندهم ـ أشبه ما تكون بـ « الافلاس ـ الطبيعى » ! ..

وعلى النقيض من هذا التصور ، يراها فريق آخر أثراً لعوامل دخيلة وعارضة على الفكرية الاسلامية ، أقحمت عليها اقحاما وفرضت عليها فرضا من خارج الذات ومن وراء الحدود ..

وإذا كنا نرفض التصور الأول ، ونتحفظ على التصور الثانى ، فاننا نميل الى ارجاعها لعوامل عدة .. منها الخارجى المفروض بالقسر ـ ترغيباً وترهيبا ـ ومنها الداخلى النابع ، لا من القصور الطبيعى ، انما من القصور الناشىء عن الافتقار الى إعمال قانون التجديد وسنته .. ومنها ماهو فكرى . وما هو مادى : اقتصادى واجتماعى .. الخ .. الخ ... طوارىء كثيرة طرأت على المنابع الجوهرية والنقية للفكرية الاسلامية .. وعوامل عديدة اعترضت مسيرتها ، منها ما هو وافد ، ومنها ما هو افراز داخلى .. ولقد تضافرت كل هذه الطوارىء والعوامل فأثمرت هذه « الأزمة » الفكرية للعقل المسلم ولأمة الاسلام ..

● خلافات محتدمة

وجدير بالذكر أن الاحساس بهذه الأزمة ، وطرح الأسئلة حول أسبابها ، والاختلاف فى الاجابة على هذه الأسئلة ليس بالأمر الحديث .. فمنذ يقظة الاجتهاد الاسلامى الفردي ،الذى تمثل فى كوكبة من الأعلام منهم : الإمام الغزالى (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١ م) ، والعز وابن عبد السلام (٥٧٧ ـ ٦٦٠ هـ ١١٨١ ـ ١٢٦٢ م) القرافى أحمد بن أدريس (٦٨٤ هـ ـ ١٢٨٥ م) ، وولى الله الدهلوى (١١١٠ – ١١٧٦ هـ ١٦٩٩ – ١٧٦٢ م) ، والشوكانى محمد ابن على (١١٧٣ ـ ١٢٥٠ هـ ١٧٦٠ ـ ١٨٣٤ م) ـ ومنذ الدعوات والحركات التى قادها أعلام مجددون من مثل : محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ ١٧٠٣ ـ ١٧٩٢ م) والسنوسى ، محمد بن علـى (١٢٠٢ ـ ١٢٧٦ هـ ١٧٨٧ ـ ١٨٥٩ م) والمهدى ، محمد أحمد (١٢٦٠ ـ ١٣٠٢ هـ ١٨٤٤ ـ ١٨٨٥) وجمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م) .. إلخ .. إلخ والتساؤل قائم حول هذه الأزمة ، والخلافات محتدمة حول أسبابها .. ومن ثم حول سبل تجاوزها ، والخلاص ـ بالنهضة ـ من عللها وأعراضها .. وذلك مع الاتفاق على إنها سبب رئيسى من أسباب أزمة الأمة ومأزقها ، ومعلم من معالم جمودها وتخلفها .

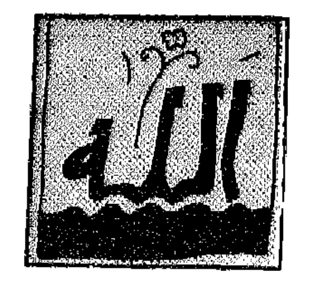
واذا كان هذا هو تاريخ وموقف اليقظة الاسلامية والاجتهاد الاسلامى ازاء أزمة الفكر الاسلامى ومأزق الأمة الاسلامية ، فلا نعتقد أن هناك مجالا للخلاف على ضرورة وأهمية ، بل ووجوب أن ينفر قوم من مفكرى الأمة ، فى عصرنا الراهن ، فيعكفون على صياغة الاسلام كبديل حضارى للنموذج الغربى ، الوافد والمهيمن على القطاع الأكبر والمؤثر من واقعنا وفكرنا .. وكبديل .. أيضا لفكرية التخلف الموروث، التى تفل قدرات الأمة وتقيد خطاها وتفقدها القدرة على الابداع ... وعلى أهمية وضرورة تحديد معالم هذا البديل الحضارى الاسلامى ، كدليل عمل لكل العاملين فى اطار النهضة الاسلامية ، بمختلف الميادين .. سواء منهم الذين يرون أن الأزمة فكرية ، أساسا وبالدرجة الأولى ، فيؤمنون بأن هذا الميدان هو الوحيد الجدير بالجهاد والاجتهاد .. أو أولئك الذين يعطون الأهمية والأولوية لميادين أخرى ـ سياسية كانت أو أخلاقية ـ ... فلا غناء عن

« دليل العمل » هذا بالنسبة لكل الفرقاء .

وغنى عن البيان أن هناك فوائد كثيرة محققة ، لكل العاملين فى الحقل الاسلامى ، من وراء الوحدة أو التقارب فى الرؤية الفكرية لطبيعة هذه الأزمة - المفصحة عن أسبابها - .. ولسبل تجاوزها .. ولمعالم النهضة الاسلامية المنشودة - أى للمشروع الحضارى الاسلامى .. وفى مقدمة هذه الفوائد اجتماع الجهود ووحدة الطاقات الفكرية القائدة لحركة النهضة الاسلامية .. ذلك أن الانقسامات التى نشهدها الان لطاقات الفكر وفعالياته ، إنما تعجز طاقات الأمة عن الفعل المناسب عندما تقسمها بين المتنازعين الذين يتجاذبون حبال الطاقات والفعاليات محـولين إياها الى : « الثبات عند نقطة الصـفر » ؟ ..

● الافتقار لوضوح الرؤية

كذلك فان دراسة الأزمة ، اذا هى استخلصت الدروس والعبر من الفشل والإحباط اللذين أصابا دعوات وحركات وأجيال ، مرت على درب محـاولات النهـضـة الاسـلامية الحـديثة .. لم ينقصـها « الحماس » للتغيير .. لكنها افتقرت الى « الاجتهاد والتجديد فى الفكر » ، المتفقة فى « الواقع » والقادرة على اعادة صياغته صياغة اسلامية . وضبط حركته بالمعايير الاسلامية .. أى أنها افتقرت الى وضوح الرؤية .. ان دراسة تاريخنا فـي محاولات النهضة الحـديثة - مـن « الوهابية » الى « السنوسية » الى « المهدية » الى دعوة الافغانى وحركته - الجامعة الاسلامية - الى « الاخوان المسلمين » ، وافرازاتهم المعاصرة .. وما فى هذا التاريخ - رغم انجازاته الايجابية الكبرى - من عثرات واخفاقات واحباطات .. تقطع - مثل هذه الدراسة - بان بلورة الاسلام كبديل حضارى ، ووضوح معالمه كدليل عمل - باعتباره « الرائد الذى لا يكذب أهله » - هو السبيل الى انقاذ الانعطافة الجماهيرية المعاصرة نحو الاسلام من اخفاق جديد واحباط أكيد !



ان هذه الأمة قد من الله عليها اذ عصمها من الاجتماع على الضلال .. فلم يطبق على جميعها عموم البلوى المتمثلة فى الانحراف عن منهج النبوة ، حتى فى أقسى ظروف الجمود والتراجع والانحطاط .. نعم خفتت المصابيح - فضل الأكثرون السبيل - لكن

المصابيح لم تنطفىء .. ولقد حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الخصوصية التى ميز الله بها هذه الأمة ، عندما قال : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك » ..

ونحن نؤمن أن لهذه الخصوصية علاقة بكون شريعتنا ورسالة نبينا ، عليه الصلاة والسلام ، هما الشريعة والرسالة الخاتمة .. فلا نبى بعد محمد ، ولا رسالة بعد رسالة الاسلام وشريعته ، ومن ثم انتفى من تاريخ هذه الأمة عموم الانحراف عن منهاج النبوة وسبيل الله ، لأن حدوث ذلك انما يقتضى - وفق لطف الله - ارسال رسول جديد ..

لكن وجود الجماعة القائمة على الحق ، والتى لا يضرها من خذلها ، انما يمثل الاستثناء من قاعدة عموم البلوى ! .. وهو أمر لايعنى سيادة منهاج الاسلام ولا أداء الأمة لرسالة الخلافة عن الله، والقيام بمهمة الشهداء على الناس التى أرادها لها الله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ..) .

وهنا تبرز أهمية تلمس السبل التى تحول الجماعة القائمة على الحق من وضع « الاستثناء » الذى يؤكد قاعدة التخلى عن منهاج الاسلام ، الى « القاعدة » التى تجعل هذا المنهاج دليل عمل الأمة وسراجها الوهاج على صراط الله المستقيم ..

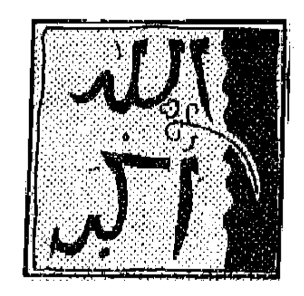
وتلك هى الفرصة التاريخية المواتية التى تقدمها الصحوة الاسلامية المعاصرة لأهل الفكر من الطائفة الظاهرين على الحق لتسليح هذه الصحوة بـ « الخيار الاسلامى » الحق ، وذلك حتى لا تدفع جماهيرها - كما قلنا - الى إخفاق جديد وإحباط أكيد ! ..

● الاهتمام بالمنهج

واذا كانت الأسباب التى أشرنا اليها كافية لتحقيق اتفاقنا على أهمية وضرورة معالجة « أزمة الفكر الاسلامى » .. فلابد أن يقضى هذا الاتفاق الى الاتفاق على ضرورة الاهتمام « بالمنهج » .. فالمنهج هو الطريق .. بل انه - فى اصطلاح العربية - : « الطريق المستقيم » وليس مطلق الطريق ، ولا أى طريق ! .. انه - فى موضوعنا - :

الطريق والنظام ـ والاطار الحاكم والجامع والرابط والناظم للمعالم التى تحدد مكان ومكانة الانسان فى هذا الكون .. ورسالته فى هذا الوجود .. وعلاقته بالأغيار .. ومصيره بعد هذه الحياة الدنيا .. ومن هنا تأتى أهمية تحديد معالمه ، كمدخل لاغنى عنه لصياغة الاسلام كنموذج حضارى للانسان المسلم والأمة الاسلامية .. أى لحل الأزمة الفكرية ، ببلورة معالم المشروع الحضارى الذى تستطيع الأمة ، اذا هى انتمت اليه ، ورفعت لواءه ، ومنحته ولاءها ، ووضعته فى الممارسة والتطبيق ، أن تنعتق من إسار التخلف الموروث والاستلاب الوافد المفروض عليها من خارج الحدود .. وعندئذ يصلح وينصلح لها أمر معاشها ـ دنياها ـ وأمر معادها ـ فى الآخرة ـ معا ، وبدونما خلل أو اختلال ! .

وغنى عن البيان كذلك أن هذه المهمة – مهمة تحديد معالم المنهج الاسلامى – انما تغاير تماما مهمة الذين يتحـــدثون عن « البرنامج الاسلامى » ، ويطلبونه من الداعين الى اسلامية الحياة فى المحيط الاسلامى ، كما أنها تغاير مهمة تحديد مناهج البحث فى فروع المعرفة ومختلف العلوم ..فتشخيص أزمة الفكر الاسلامى، وتلمس معالم المنهج الاسلامى – بالقيـــاس إلى «البرامج الاسلاميـــة» – و«مناهج البحث» المتخصـصة والخـاصة – هو أشـبه مـــا يكـــون بـ «الصناعة الثقيلة» – الصناعة التحويلية – « صناعة أدوات الانتاج» – بالقـــياس الى «حرَف الصناعة الخفيفة» – «صناعة أدوات الحياة اليومية» – .. وذلك اذا تصورنا – وهذا جائز تماما – الفكر صناعة من الصناعات .. فما نحاوله – فى تلمس معالم المنهج الاسلامى – هو المدخل الحاكم ، الذى يفضى الى امكانية صياغة الاسلام ، كمشروع حضارى بديل ، وهو الذى يهيئ – بدوره – للعاملين بالحقل الاسلامى أسباب وضع البرامج الاسلامية ، فى الميادين المختلفة ، وصياغة « مناهج البحث » الجزئية والمتخصصة ، عندما يتهيأ لها ولهم الضرورى من الشروط والامكانات .. فما نحن بصدد محاولته هو صياغة منهج الحياة الاسلامى .. « المنهج الأم » – اذا جاز التعبير– الذى هو السبيل الى صياغة الاسلام ، كمشروع حضارى ، بما يتضمنه هذا المشروع من « برامج مرحلية » لتغيير الواقع ، ومن « مناهج بحث » فى المعارف والعلوم ..



أقــوال معاصرة

● « الحس النقدى ضعيف الحضور فى ثقافتنا »

المخرج اللبنانى « مارون بغدادى »

● « طبعا أخاف من الموت ، ولكنى أخاف أكثر على اطفال الصومال »

النجمة « اودرى هيبورن » التى تعانى من داء السرطان

● « جميع وعود الحضارة على لسان فلاسفة الانوار تحولت اليوم الى وعيد »

المفكر الجزائرى « العفيف الأخضر »

● « صدعنا رأس العالم بالأسطوانة التراثية »

الشاعر المغربى « محمد خير الدين »

● « قضـية المـرأة لا تخـتلف عـن قضية الرجل فى عالمنا الثالث »

المفكر الفلسطينى « د . احسان عباس »

● « شعوب الشرق الاوسط اليوم ، وللمرة الاولى منذ اكثر من قرنين ، تملك القدرة على الخيار »

الكاتب الامريكى برنارد لويس

● « الشرعية فى ايران تتآكل ، والنظام يفقد قدرته على اتخاذ مبادرات سياسية »

الباحث الانجليزى « فريد هاليدى »

● فرض العقائد والفضائل لا يأتى بأناس مؤمنين ، وانما يأتى بأناس منافقين

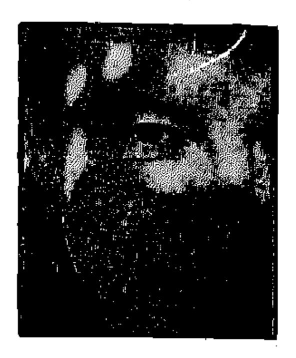
« د . محمد سيد طنطاوى » مفتى الجمهورية

● العرب لا يعرفون ماضى العرب

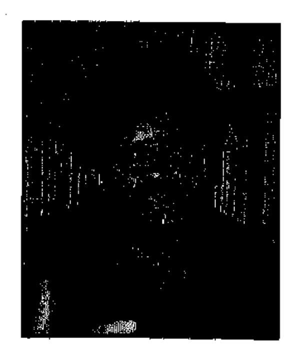
الشاعر التونسى « عبد الوهاب المؤدب »



د . احسان عباس



العفيف الاخضر



عبد الوهاب المؤدب



سعد زغلول وصفية زغلول ووالدهما في بيت الأمة

سعد زغلول يزور صاحب السمو الأمير سعود

قراءة فى مذكرات سعد زغلول

(مارس ١٩١٥ - اكتوبر ١٩١٦)

بقلم : د . عاصم الدسوقى

يتناول الجزء الخامس من مذكرات سعد زغلول الذى نشر فى مطلع هذا العام يومياته من ٨ مارس ١٩١٥ إلى ١١ اكتوبر ١٩١٦ ، ويومياته عن رحلة لأوربا فى صيف ١٩٠٨ كتبها بالفرنسية ، ويومياته عن الديون التى وقع فيها بسبب لعب القمار .

وهذا الجزء (٣٠٠ صفحة) حلقة من مذكرات الزعيم سعد زغلول سبقته أربعة أجزاء ويقوم على نشرها مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر باشراف الدكتور عبد العظيم رمضان المؤرخ المعروف . ولا يستطيع أحد ادراك الجهد الذى بذل فى اعداد هذه المذكرات للنشر إلا إذا كانت له تجربة فى قراءة خط سعد زغلول غير الواضح أو «الردىء» على حد قول المحقق ، فضلا عن اختلاط الموضوعات ببعضها وتداخلها أحيانا مما يستلزم جهدا كبيرا لمتابعة ما يثيره من مسائل . ومن هنا عظمة هذا العمل الذى كرس الدكتور عبد العظيم نفسه لنشره منذ اصدر الجزء الأول قبل سنوات .

ولم يقتصر الجهد على طبع المذكرات كما كتبها صاحبها ، وانما عمل الناشر على تحقيقها تحقيقا علميا خاصة انها تتناول وقائع واسماء شخصيات واماكن لا يعرفها الا معاصروها وبعض الدارسين المتخصصين . ومن هنا ايضا قيمة الخدمة الثقافية والعلمية لهذا العمل فى مجمله لمساعدة المتابع على القراءة الصحيحة .

أما موضوع المذكرات فهو وقائع من حياة سعد زغلول على مدى عام ونصف فى السياسة على وجه الخصوص وفى دائرة علاقاته الأسرية وعلاقاته بالاصدقاء فى القاهرة وفى بلدته وفى مقدمة موضوعات المذكرات : مقابلاته مع السلطان حسين كامل وما دار فيها من احاديث وتعليقات تتناول كثيرا من الامور السياسية والقانونية والتشريعية والدينية والتعليمية ، وسياسات السلطات البريطانية ، وما حدث من سوء تفاهم بينه وبين السلطان وكيفية تصفية الخلاف ، وأحاديثه مع النخبة السياسية فى مصر ومع رموز السلطات البريطانية ، وتطلعات سعد زغلول للوزارة والاحلام التى راودته فى هذا الشأن ، وقلقه من تأخر الاستوزار ، وبعض الاعترافات الخاصة ، وما كان يدور فى نفسه إزاء مواقف معينة ، وما كان ينوى أن يقوله ولم يقله ، وما كان ينوى أن يفعله ولم يفعله ، ولكنه كتب وسجل كل ما كان يدور فى خاطره . وهذه عظمة سعد زغلول حقيقة .. اذ قام بتعرية نفسه وكشف دخائلها دون خجل ، والظهور امام نفسه وجها لوجه بكل صراحة ووضوح حتى انه يدخل فى مونولوج طويل عن الحياة واليأس .. والقوة والضعف .. والطمع والزهد .. والطموح والتردد .. والحرص والاندفاع .. إلى آخر هذه المقابلات . ولعل هذا ما دفع سعد زغلول إلى أن يقول « ويل لى من الذين يطالعون من بعدى هذه المذكرات » . وهذا اعتراف من سعد زغلول بخطورة الوقائع التى ارسلها فى مذكراته .

ولأن المذكرات أصبحت ملكا للتاريخ بعد رحيل صاحبها ، فإن التعامل معها يصبح تعاملا تاريخيا أيضا فى إطار منهج تفسير النص واستجلائه فى إطار الظروف الموضوعية وليس بخلعها من هذا الإطار . ولا يكون الأمر بإجهاد النص وتحميله فوق ما يحتمل ، والدخول فى مجال الوعى والإرادة لصاحب المذكرات ما لم يذكر ما يثبت بوضوح أن ما أقدم عليه كان بإرادة واضحة .

ولا شك أن الرجوع للنصوص لاستخلاص وجهات النظر منها سينتهى حتما إلى اختلافات كبيرة بين القراء والباحثين باختلاف مواقع الانتماء السياسى والعقيدى لكل منهم . ولا يبقى إلا التأكيد على ضرورة استقلال التاريخ عن السياسة والعقيدة .

● عظمة سعد زغلول

إن عظمة سعد زغلول ومكانته فى تاريخ مصر تعود أساسا إلى قيادته لثورة ١٩١٩ وما ترتب عليها . ورئاسته لأول وزارة بمقتضى دستور ١٩٢٣ والتى عرفت بوزارة الشعب (١٩٢٤) وما تلا ذلك من مواقف حادة تجاه القصر الملكى وتجاه السلطات البريطانية .

ولا تعود هذه العظمة إلى توليه وزارة المعارف فى عام ١٩٠٦ ثم وزارة الحقانية فى ١٩١٠ أو وكالته للجمعية التشريعية فى ديسمبر ١٩١٣ قبل الحرب العالمية الأولى .

ولما كانت قيادته لثورة ١٩١٩ قد وضعت فى سياق العمل الجماهيرى وليس فى مصاف النخبة ، فهذا يجعلنا نفترض وجود مواقف ووقائع تبشر بهذه الزعامة يتعين البحث عنها قبل مقابلة نوفمبر ١٩١٨ على الأقل ، وهى المقابلة التى تعد الشرارة الأولى فى إشعال الثورة فى مارس ١٩١٩ لأن الزعامة عادة لا تنشأ من فراغ .

والحقيقة أن وقائع هذا الجزء من المذكرات حدثت ومصر تمر بإحدى الفترات الاستثنائية فى تاريخها ، خضعت فيها للأحكام العرفية بسبب ظروف الحرب ، وتعرض فيها النشاط الوطنى المباشر للقمع ، وتعرضت عناصره للاضطهاد والاعتقال والنفى . ورغم أن سعد زغلول كان بعيدا عن هذا النشاط الوطنى المباشر ، فإن مسئوليته كوكيل منتخب للجمعية التشريعية فرضت عليه أن يبدى للمسئولين من أولى الأمر رأيه فى سياسات المواجهة مع العناصر الوطنية ، ويناقش معهم بعض أمور الحكم فى ضوء الوجود البريطانى .

غير أن ما أبداه سعد زغلول فى هذا الخصوص وإن كان قويا ، إلا أنه كان غير معلن لعناصر الحركة الوطنية ، إذ لم تتعد آراؤه حدود نطاق المقابلات التى كانت تتم فى ضيافة السلطان (حسين كامل) وفى صالونات المنازل والكلوب مع أصدقائه من السياسيين ، ولم تكن معروفة لدى عناصر الحركة الوطنية التى كانت تحسبه على القوى الحاكمة .. وما كنا نحن لنعرفها لولا أنه سجلها فى مذكراته .. وإن كان واجب التحقيق العلمى يفرض متابعة هذه المواقف فى مذكرات الأطراف الأخرى التى تحاور معها سعد زغلول وهى مهمة أحسبها من الصعوبة بمكان .

من هذه المواقف غير المعلنة والتى سجلها زغلول فى مذكراته ، تدخله لدى رشدى باشا للعفو عن طلاب الحقوق ، واستعطافه السلطان حسين كامل من أجلهم ، ودفاعه عن الحريات ، واعتراضه على نفى المواطنين المعارضين للحلفاء ، وتدخله للإفراج عن الأبرياء ، وسخطه على الإرهاب الذى تمارسه الحكومة ، واعتقاده أن السلطان أصبح عاجزا عن فعل الخير لأمته منذ توليه السلطة ، وأنه ووزارته أصبحوا يستمدون سلطتهم من الحماية .

ومن المواقف أيضا اعتراضات سعد زغلول على التعديلات التى وضعها رشدى باشا على القانون النظامى الخاص بالجمعية التشريعية ومهاجمته الوزارة ، واعتراضه على سياسة وزارة المعارف فى إلغاء البعثات وعدم تعيين الوطنيين فى مدرسة الحقوق .

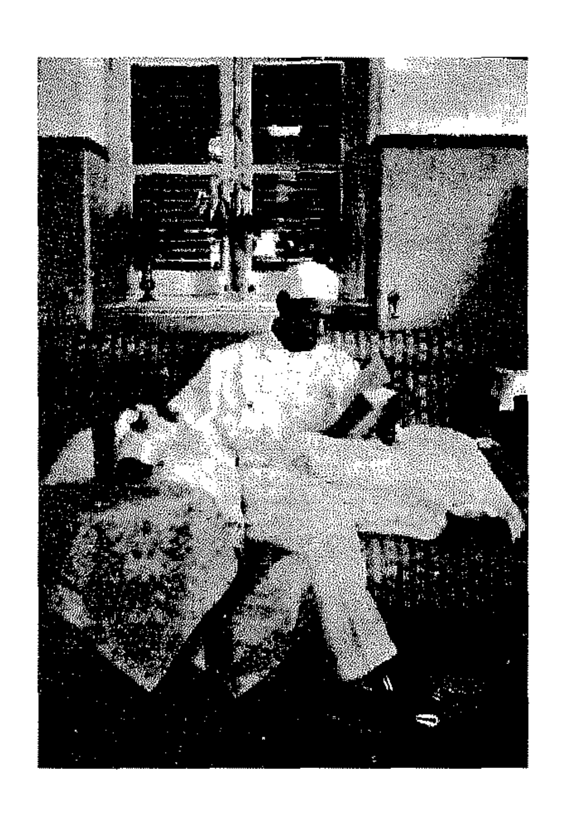
والحق أن هذه المواقف التى ورد ذكرها فى هذا الجزء لم ينفرد بها سعد زغلول عن سواه من الوطنيين ، بل إن عناصر الحركة الوطنية فى ساحة العمل الوطنى آنذاك كانت أكثر صراحة وغضبا منه ، حتى لقد تعرضت للاعتقال والنفى والملاحقة . ومن الواضح أن سعد زغلول فى هذه المواقف غير المعلنة كان متحفظا حريصا على ألا يظهر منه ما يثير أولى الأمر وربما يعود تحفظه لوجوده فى دائرة النخبة السياسية الحاكمة .. إذ كان وزيرا للمعارف والحقانية من قبل ، وصهرا لمصطفى فهمى باشا ، ووكيلا للجمعية التشريعية ، وهو متطلع دائم لمقعد الوزارة . وقد فرضت عليه هذه الخصوصيات عدم التأييد العلنى لعناصر الحركة الوطنية وعلى رأسها الحزب الوطنى الذى نفى فكرة انضمامه له ، واستنكر مواقفهم.. إذ كان يرى أن تحقيق الحلم الوطنى لا يكون بالأسلوب الذى تنتهجه عناصر الحزب الوطنى ومن هم على شاكلتهم .. ففى تعليقه على المظاهرة التى خرجت لتأييد الشيخ عبد العزيز جاويش أثناء محاكمته قال : « إن هذه المظاهرة لابد وأن تكون مدبرة وأنها مضرة بقضية الحزب الوطنى ولا نافعة له ، والذين يتفكرون فيها مثلنا لا يسعهم إلا أن يسخروا منها » (ص ٣٨) .

● سعد وحزب الأمة

وسعد زغلول يعلن أنه لا يميل لدخول الأحزاب ، ولو كان يميل إلى ذلك لدخل حزب الأمة الذى يضم كثيرا من أصدقائه ، أو البحث عن رئاسة الحزب الوطنى « قبل أن يفشل وتذهب ريحه وتنقطع برجاله الأوصال » ثم يعقب قائلا : « وما الذى يشوقنى لمركز فريد (أى محمد فريد) أغربته أم حاجته » (ص ٢٣٩) .

هل كان الخوف إذن من المصير الذى يلقاه المناضل وغضب الحاكم هو الذى يفسر امتناع سعد زغلول عن الدخول فى الحياة الحزبية المعارضة ! ! إن صراحته فى مذكراته شأن الأمور العامة تفسر الخوف من المواجهة . إذ كان بإمكانه أن يكتب كثيرا من ملحوظات السياسية العامة بالجرائد إلا إذا كان رأى أن منصبه الوزارى ووكالته للجمعية التشريعية يمنعانه من الكتابة فى الصحف .

وعندما إلتقى بالسلطان حسين كامل (٦ مارس ١٩١٥) وتكلم السلطان معه فى شأن طلاب مدرسة الحقوق والمعلمين الخديوية الذين تجاوزوا الحدود (ص ٦٩) نجده يخفف من وقع الموقف على السلطان حتى لا يستولى اليأس على نفسه لأن حياة السلطان ملكا للأمة (ص ٧١) .



سعد زغلول فى المستشفى عقب الاعتداء عليه



وفى تعليقه على محاولة اغتيال السلطان حسين كامل يقول : « إن وقع هذا الحادث عند الناس يختلف باختلاف عقولهم » فالعقلاء من خاصة الناس استقبحوه » أما الجهلاء من العامة الذين لا يدركون حقائق الأمـور فقـد استحسنوه (ص ١٠١) .. وهذه أفكار النخبة السياسية الحاكمة القريبة من دائرة الحكم المتطلعة دوما إليه ممن يمثلون أصحاب القول الحكيم العاقل .

ويصف سعد زغلول كل محاولات الاغتيال التى وقعت على أيامه بأنها من «داء الفوضوية» ، ويرجع سببها إلى سوء تصرفات الإنجليز وعدم حكمتهم وتعقلهم .. وكان يرى أن هذه الفوضوية ما كانت لتنتشر لو أن الإنجليز ساعدوا المصريين على نوال استقلالهم ولو أنهم فعلوا ذلك لوجدوا من الطبقة الراقية من المصريين ميلا حقيقيا لمعونتهم ولكنهم استخفوا بآراء العقلاء وأدخلوا مصر تحت حمايتهم (ص ١٩٥) .

وهذا الموقف من سعد زغلول تجاه السلطان وتجاه الحياة الحزبية يتفق مع تطلعه للعودة للوزارة . وهذا التطلع للوزارة رغم أنه وكيل منتخب للجمعية التشريعية يعنى أنه لم يكن يرى فى السلطة التشريعية فائدة أو مكانة بارزة ويفضل عليها الوزارة ذات السلطة التنفيذية التى تضفى على صاحبها مكانة اجتماعية معينة بين الناس .

ومن اللافت للنظر أن سعد زغلول جعل الوزارة شغله الشاغل حتى لقد كان يفسر أحلامه بقرب الاستوزار فلما لا تأتى الإشارة بتوليه الوزارة وتحقيق الحلم يعزى نفسه بالمبادئ أو بما هو فيه من رغد العيش ، وما ينعم به من حرية (ص ١٢٥ - ١٣٠) ويأخذ فى الائتناس بأقوال الحكماء التى يرى فيها راحة لنفسه وتعزية لفشله فى الحصول على الوزارة من ذلك قوله . « إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع .. إياك والأسف على ما فاتك من مرغوب فإنه لا يعيده إليك ويشمت بك الأعداء . وقوله . لا يسوغ للإنسان أن يخاطر بنفسه إذا كان رب عائلة لأنه يسئ إلى أقرب الناس إليه إساءة لا يمكن تعويضها « ولذلك فإننى أول من يعذر أصحاب الحذر من ارباب العائلات حتى اذا بالغوا فى حذرهم وتجاوزا الحد فى احتياطهم (ص ١٥٥ - ١٥٦) هل يمكن ان يكون هذا منطق الثوار وتفكيرهم .. إن هذا المنطق يؤكد صحة رأى افلاطون فى جمهوريته عندما حرم على طبقة الحكام الزواج والملكية ليتفرغوا لشئون الحكم دون روابط تعوقهم وعندما كان يخلو منصب وزارى نرى سعد يتوقع ان يشغله ويظل قلقا وتضطرب احواله اليوميه كالنوم عند القيلولة ، وعندما تمر الازمة يعترف بان ماكان يخيل إليه من زهد فى المناصب « ليس بزهد ولا ترفع ولكنه شعور النفس بعجزها عن الشئ » (ص ١٣٦)

عداء اللورد

لقد أصبح سعد زغلول دائم الانتظار لموافقة السلطات البريطانية على تعيينه وزيرا . غير أنه كان مقتنعا باستحالة موافقة السلطات البريطانية عليه مادام للورد كتشنر نفوذ فى مصر من قريب أو بعيد .. إذ سبق لكتشنر أن رفض أن يعين سعد زغلول فى مجلس إدارة شركة قناة السويس « ولم يسمع لشفاعة صديق كتب إليه ولا لضراعة قدمها بين يديه على أسلوب يستميل الكريم » . وما أثار حيرة سعد زغلول فى أمر عدم توليه الوزارة وعدم رضاء الإنجليز عنه ، أنه لم يجد سببا لغضب الإنجليز عليه ، بل كان مقتنعا تماما بأنه لم يفعل ما يغضب كتشنر ولا أتى ما يسيئه شخصيا سوى توهم كتشنر أن سعدا « عارض فى تعيين حسين محرم تعنتا منه وافتئاتا وصدعا لغرض شخصى لا لمصلحة عامة » وعلى هذا أقنع سعد زغلول نفسه بأنه ليس أمامه سوى انتظار « فرج الله بقطع علاقة كتشنر بمصر على أى وجه كان » (ص ١٥٤ - ١٥٥) .

إن هذا الجزء من المذكرات يوضح المأزق الذى وجد سعد زغول نفسه فيه من حيث التوفيق بين نقيضين اكتساب رضا السلطات الحاكمة ، وتمثيله الأمة من خلال وكالته للجمعية التشريعية ، والحرص على ألا يكتشف أحد أنه يميل أكثر إلى السلطات الحاكمة

فعندما أنعم عليه السلطان برتبة الامتياز (٢١ يونيه ١٩١٥) ارتاح لهذه

الرتبة وتألم فى الوقت نفسه . فقد ارتاح لأن الرتبة تدل على أنه غير مبغوض من الهيئة الحاكمة ولهذا كما يقول تأثير فى بلدنا على كثير من الناس الذين نعيش وسطهم ومصالحنا معهم » .

وأما وجه التألم فلأنها تعرضه لسخط فريق من الناس الذين بهم سخط على الهيئة الحاضرة واتهامه بأنه خرج من الوطنية ودخل فى دين الخائنين » (ص ١٦٦) .

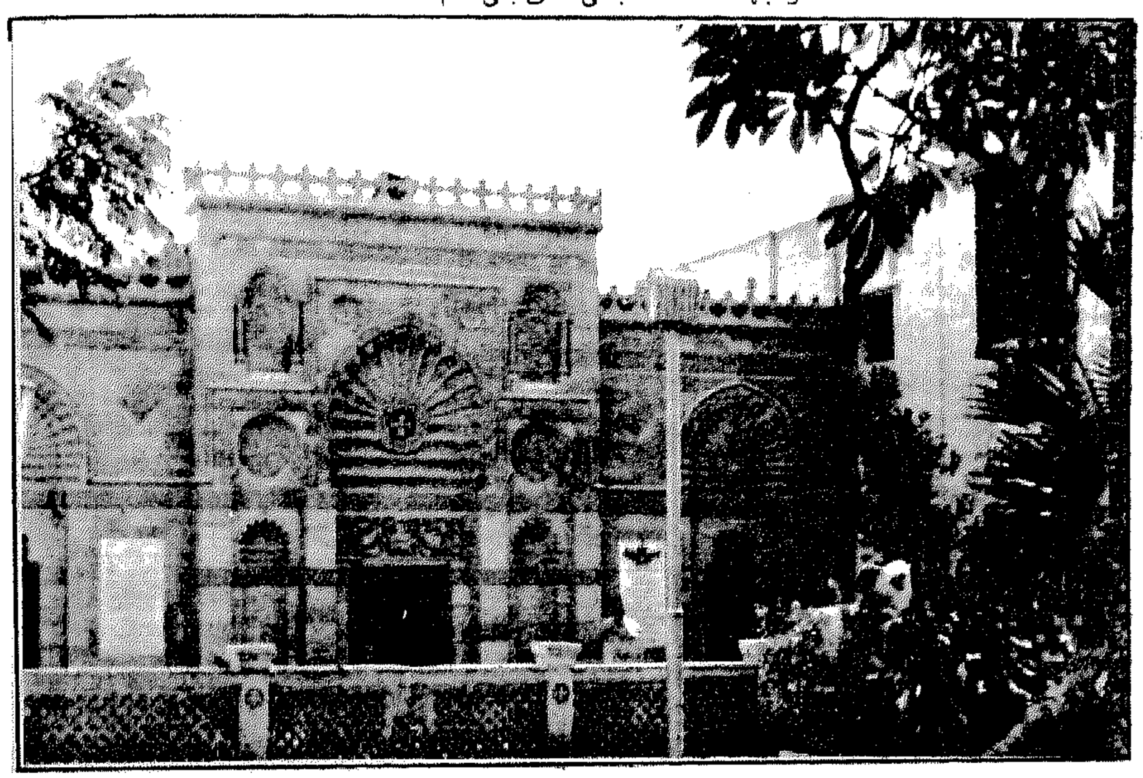
وعندما ندد السلطان حسين كامل أمامه (٢٨ أبريل ١٩١٥) بالمدرسة الحربية ونظامها .. رجاه سعد زغلول بألا يجاهر بمثل هذه الملاحظات حتى لا «يقرزز الحماية الانكليزية وأن يبديها لهم بينه وبينهم» .. لأن سعد زغلول « يعلم من حال الانجليز أنهم لا يحبون الجهر بنقد أعمالهم » (ص ١١٨) .

على أن أبرز ما فى صفحات هذا الجزء من آراء غير معلنة ما يؤكد التربية المدنية عند سعد زغلول إذ نلاحظ أنه لم يوافق السلطان على ان يكون للجمعية التشريعة رأى قطعى فى التعليم الدينى وقال للسلطان إن التعليم الدينى فى مأمن بذاته من تداخل السلطة الانجليزية ولأن اطلاق يد المصلح الحر الأمين فيه خير من تقيدها باراء الجمعية التشريعية التى تتألف الغالبية فيها من قوم تمكنت الاوهام الدينية من نفوسهم تمكنا لا يستطيعون معه أن يميزوا بينها وبين الحقائق الشرعية ويتعذر أن تتفق كلمتهم على الاصلاح فيها (ص ٩١) .

والخلاصة . إن هذا الجزء من المذكرات لا يكشف عن بوادر لمواقف ثورية لدى سعد زغلول مقارنة بعناصر الحزب الوطنى ، وان اتصاله بأمور السياسة ومنها اتصاله بالسلطان حسين كامل جاء نتيجة وكالته للجمعية التشريعية . لكن افكاره الحقيقية وتصوراته التى نثرها فى مذكراته كانت أقرب إلى افكار النخبة الحاكمة التى كان قريبا منها وكان حريصا على اكتساب رضاها . بل ان تطلعه للوزارة فى اطار طبيعة النخبة الحاكمة كان يعد أمرا عاديا لمثله ومشروعا ويملك شروطه .. فهو من كبار ملاك الأراضى الزراعية ، وصهر للارستقراطية ، ويتميز بالاعتدال فى الرأى ، ويحظى بتقدير عناصر الطبقة الحاكمة بل ان كثيرا من عناصر هذه الطبقة وعقلاء الامة وفضلائها من اصدقائه (ص ١٣٨) . لهذا لم يكن غريبا ان يتطلع للوزارة مرة أخرى وكان قد تولاها من قبل .. لكن الغريب ألا يتحقق هذا الطلب الذى لم يجد تفسيرا لتأخره سوى غضب الانجليز عليه .

ولهذا يتعين علينا الانتظار للاجزاء التالية من المذكرات لكى نكشف اسباب التحولات وخروج سعد زغلول من دائرة الاعتدال الى قيادة الثورة .

واجهة المتحف القبطى الذى بنى عام ١٩٠٨



المتحف القبطى

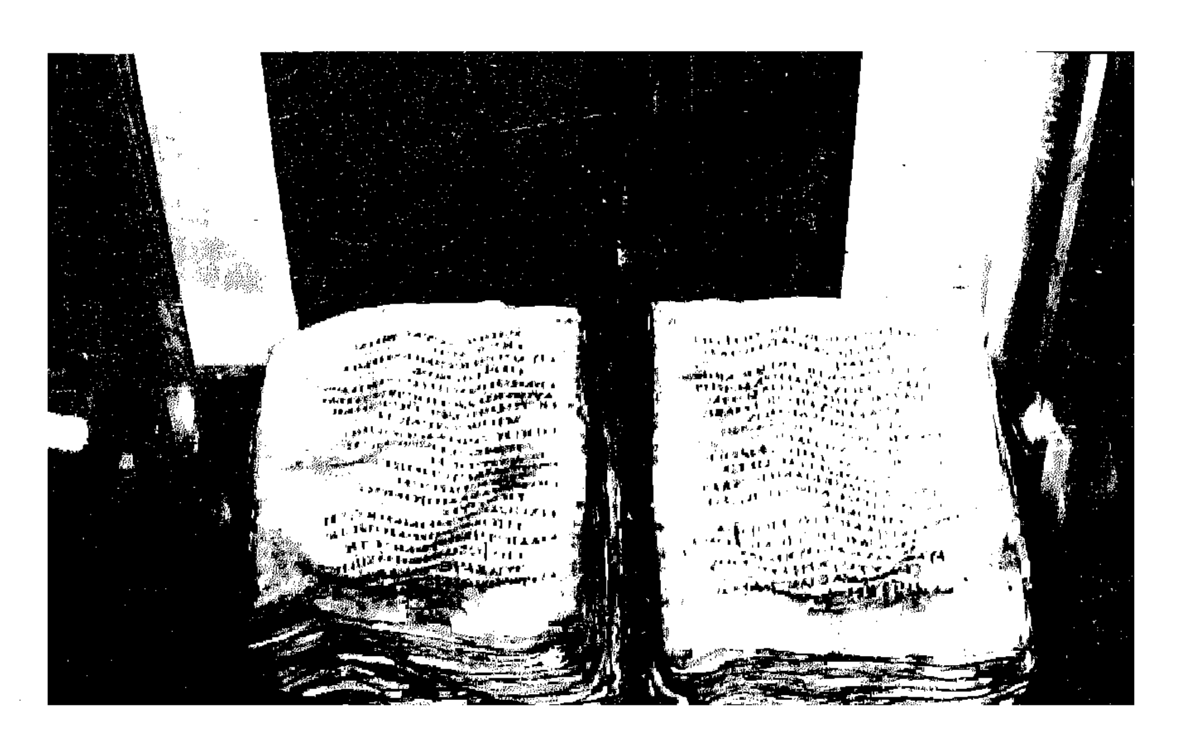
عبقرية الإبداع وأصالة الفنان

عادل عبد الصمد

المتحف منشأة علمية وثقافية هدفها عرض التراث الإنسانى ومجموعات التاريخ الطبيعى والصور والتقدم العلمى والصناعى والفنى بأساليب عرض جذابة ...

ولكل متحف خصوصيته وسماته التى ينفرد بها وأثره المميز الذى يتركه فى النفوس بعد أن تجوب فى رحابه وهذا الأثر لا يتكون دفعة واحدة ، وإنما يتبلور جزئية فأخرى شأن عطر نادر تقطره يد صانع ماهر يجيد ما يعكف على إعداده .

أقدم مزامير سيدنا داود فى العالم (١٥١ مزموراً) من حفائر هيئة الآثار فى بنى سويف وهى من القرن السابع



والمتحف القبطى من المتاحف التى لها تميز خاص حيث يعكس فنونا مختلفة من خلال الفن القبطى علاوة على عرض تاريخى لحضارات عديدة يضمها المتحف الذى يعد تحفة معمارية فريدة مشيدة فى مكان له جذور تاريخية لها أهمية عند الشعب المصرى منذ القدم .

أنشىء المتحف القبطى كمتحف تابع للكنيسة القبطية عام ١٩٠٨ فى مبنى كان يتبع الكنيسة المعلقة ، كما أنه شيد داخل حصن « بابليون » أشهر ما خلفه الحكم الرومانى فى مصر .

واكتسب هذا الحصن شهرة عالمية ، حيث شيده الإمبراطور « تراجان » عـام ٩٨ م على نهر النيـل ، وقـام بتوسيعه الإمبراطور « أركاديوس » عام ٣٩٥ م .

ومما لاشك فيه أن الرومان اختاروا هذا الموقع لإقامة الحصن لأنه يتوسط مصر من الوجه البحرى والقبلى ، وبذلك يسهل عليهم السيطرة على أية ثورات تقوم ضد حكمهم فى الشمال أو الجنوب .

وشغل الحصن بالكنائس والمبانى السكنية ، والجبانات الحديثة ، ويقال إنه كان يغطى ٦٠ فدانا ..

ومدخل المتحف الخارجى يقع على الباب الغربى للحصن الذى كان بين برجين أحدهما يمكن رؤيته حاليا (على يمين الداخل) والآخر أقيمت عليه كنيسة « مار

جرجس » للروم الأرثوذكس وكان نهر النيل يجرى تحت أسوار هذا الجزء ومازالت آثار المياه موجودة أسفل هذه الأجزاء ، الباقية من هذا الحصن .

وقد بينت الحفائر الحديثة للموقع ، أنه كان يوجد بالموقع ميناء نهرى ترسو إليه السفن .

ويوجـد برجان بالجـزء الجنـوبى للحصن ، بينهما الباب القديم ، ومقام فى أحدهما طاحونة بجوارها فرن للخبز ومخزن للغلال . وعلى أحد هذين البرجين أقيمت الكنيسة المعلقة على عامود كبير مبنى بالطوب الأحمر ، أما الجزء الآخر من الكنيسة وجزء من الجناح القديم المميز معماريا فقد أقيما على صالة الأعمدة .

ويقال إن حصن بابليون استمد اسمه من اسم المدينة المصرية المجاورة التى كانت تسمى « بابليون » التى يرجع اسمها على الأرجح من الاسم المصرى القديم (برحابى أن أون) أو مكان « الإله حابى فى مدينة هليوبوليس » وبعد الفتح العربى لمصر الذى وضع نهاية للحكم الرومانى وجلا الرومان عن الحصن ، شغلها الأقباط الذين يقيمون فى المدينة المجاورة .

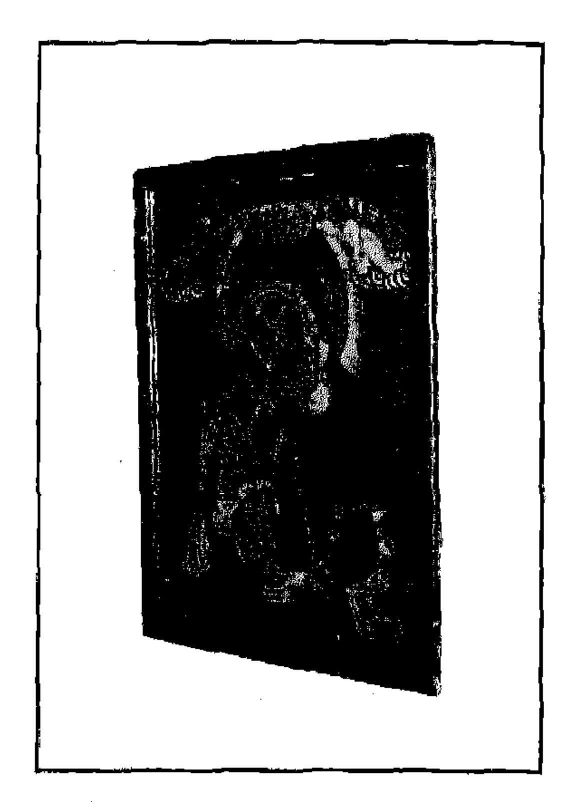
والآن تشغلها كنائس الأقباط ، بالإضافة إلى وجود بعض الكنائس القديمة مثل كنيسة أبو سرجة - الست بربارة - مار جرجس - دير السيدة العذراء - ومن هنا كانت الفسطاط هى أنسب مكان لإقامة المتحف القبطى حيث إن هذا المكان ينم عن فهم للحقب التاريخية المصرية ، وفهم لأهمية التراث الموجود بالمنطقة .

الفن القبطى

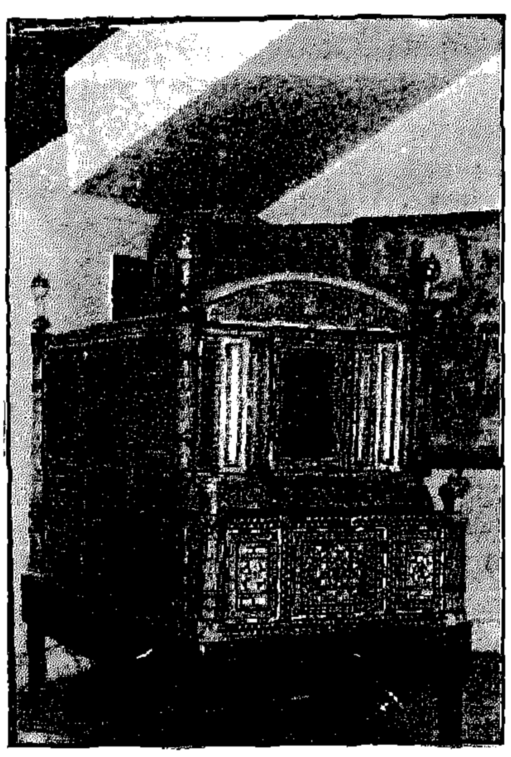
يعتبر الفن القبطى مزيجا من التقاليد المصرية القديمة والهللينستية والبيزنطية والاسلامية ، ولكنه أعطى شخصية وشكلا محددا من المصريين المقيمين

وكلمة قبط مأخوذة من الاسم الدينى للعاصمة القديمة ممفيس (حوكابتاح) وهو الخالق الأعظم لهذا الكون وكانت تلفظ هاجب بتاح ، ولفظها العرب بلاد الجبط أو القبط . ولقد كان المصريون جميعا تحت الحكم الرومانى مسيحيين وكلمة قبط كانت تشير إلى السكان جميعهم فى ذلك الوقت ، ثم أصبحت الاسم الذى يطلق على من استمر مسيحيا من المصريين والفن القبطى المجسد من خلال القطع الموجودة بالمتحف فن شعبى عبر عن الفنون القبطية على اختلاف أنواعها فى رسوم ونقوش عديدة ومتنوعة لتوضح قصصا دينية سامية وخالدة ، ورد ذكر البعض منها فى التوراة والبعض فى الأناجيل المقدسة واستطاع الفنان الشعبى أن يستغل الخامات الموجودة فى بيئته من أحجار وأخشاب وجص ومعادن وعاج ونسيج وجلود وفخار ومخطوطات ليعبر بها عن أفكاره وعقائده

ووضع كل إمكانته فى إبراز أشكال العقيدة ، فظهرت فى صورة الفنون فى تشكيل رائع وتوازن فلسفى فى انسجام



أيقونة السيدة العذراء والسيد المسيح وحول رأس كل منهما الهالة المقدسة ويحف فوقهما جبريل وميخائيل



صندوق خشبي كبير مطعم بالعاج والصدف كان يستخدم كهودج لزواج الأثرياء قديما من طراز هندي من القرن ١٧

تام فظهر الفن القبطي ، نابعاً من أصول ممتدة في عمق الزمن .

وهذه الأصالة في الفن ورثها الفنان القبطي من أجداده الفراعنة ، حيث إن فن أجداده هو قمة الفنون في العالم كما أن فنهم أصيل ومميز بين تاريخ الفنون .. ظهر منذ فجر التاريخ .. وهو الأساس الذي قامت عليه الفنون ، والفن القبطي هو حلقة بالغة الاهمية من تلك الفنون القديمة التي فطن اليها علماء الآثار في السنوات الأخيرة ، فاهتموا بها كثيرا ، وسلطوا الاضواء عليها لدراستها فقد أبدع فنانو القبط من مناظر النقوش والصور الدينية ، وما ترمز إليه من قصص لها معناها ومغزاها من تلك الصور البديعة فنيا ، لقطة دينية شهيرة حدثت في مدينة بابل وهي في أوج قوتها في عهد امبراطورية « نبوخذ نصر » .

تتلخص في أن الملك المذكور نسي ربه وعكف على عبادة الأوثان ، وصنع تمثالا من الذهب الخالص ، وأمر جميع الرعية بالسجود إلى ذلك الصنم وعبادته ، ومن خالف أمره عرض نفسه لأشنع أنواع العذاب ، فظهر في عهده « الفتية الثلاثة



نيشة « شرقية » عبارة عن فريسكا وهى حائط من الجبس مرسوم عليه بألوان مائية عادية

الأتقياء » الذين رفضوا السجود إلاّ لخالقهم السماوى ، فأمر الملك بإلقائهم فى أتون يزاد لهيبه إلى سبعة أضعاف فى شدته إمعانا فى القسوة ، ورُوى أن العبيد الدين ألقوا بهم فى الأتون والواقفين بعيدا عنهم قد آكلتهم النيران ، وأما الفتية الثلاثة لم يصابوا بأذى وأرسل اليهم ملاك من السماء و حوَّل الأتون الى جنة رطبة ، فكانوا يتمشون داخل المكان الرهيب ، وكان يظللهم لمعانا نورانياً مما جعل الملك وحاشيته فى دهشة

وهذا المشهد الفريد وجد مرسوما على أحد جدران وادى سرجه الواقع جنوب مدينة أسيوط ، وأصل اللوحة المرسومة محفوظة فى المتحف البريطانى بلندن ..

الأيقونات

والأيقونات تعنى صورة دينية وهى تؤدى وظيفتها ليراها الملايين من البشر، وتصبح جزءا من التراث البشرى الحضارى ، ولذلك لابد ان تحمل من القيم التشكيلية ما يضمن لها البقاء .. وهذا ما يجعل الفن الأصيل يصل دائما للعالمية المطلقة .

ومن أغرب الأيقونات التى تستلفت الأنظار وتدعو إلى الدهشة والتساؤل صورة لاثنين من القديسين مقنعين فى وجهى حيوانين أشبه بأوجه الكلاب أو ابن آوى .

وهذا المنظر يوضح قصة دينية فى تاريخ الكنيسة القبطية وردت فى أخبار قديسى المسيحية العظام ، ويروى عن هذين القديسين أنهمـــا قابلا والد القـــديس « مورقوريوس » المعروف بابن السيفينى ، وكان من الوثنيين الاشرار العتاة فقتلاه ثم أراد الفتك بابنه أيضا لولا ان ملاكا ظهر لهما فجأة ، ومنعهما من قتله ، وأبلغهما ان هذا الابن سيكون له شأن عظيم ، وسيعمل على رفع المسيحية ، ونشر تعاليمها ، وسيصبح فى عداد القديسين كما حدث فعلا ...

وهذه القصـــة الغريبـــه ما اشتملت عليه من تــفاصيـــل تمثل ا ـيقونـــات المصريـــــة بطابعها الخاص والوداعـــة والـتقوى والجمال ..

الخـــزف

وعلى قطعة من الخزف رسَم فنان بمهارة منظرا فريدا يوضح فيما تبقى منه صورة فقدت بعض اجزائها للسيدة العذراء فى رداء أسود وهى تحتضن السيد المسيح بين ذراعيها ، بعد ما أسلم الروح ، وبعد انزاله من على الصليب ، وقد أظهر الرسام مقدرة وبراعة تامة بفضل ما أبرزه من ملامح الوجه الفذة فى تجسيد أمومة السيدة العذراء ومدى ما ينبعث منها من حنان فائق وهى تضم ابنها المصلوب ، كما ابدع فى اظهار علامات الشحوب والأسى الوديـــع الصامت على سحنـــة السيـد المسيـــح ، رغم ما عانى من عذاب الصلب مع وحشية معاملة اليهود له وهو فى شـــدة محنته .. وقـد عثـر على القطعة المذكورة فى حفائر مدينة الفسطاط مـن القرن

الثانى عشر الميلادى .

إبداع على الخشب

كان النجارون الاقباط مثل احدادهم الذين عاشوا فى العصر الفرعونى ينجزون اعمالهم بدرجة مرموقة من التذوق والمهارة، كما كانت لديهم معرفة تامة بالأنواع المختلفة من الخشب .

ومن أجمل الأشكال التى انتجها المصرى تلك الشبابيك التى تسمى « مشربيات » والتي استعملها الاقباط والمسلمون ، وهى تتكون من قطع صغيرة مخروطة ومثبتة بعضها فى بعض لتكون اشكالا هندسية وصلبانا أو لكتابة قبطية وعربية .

وقد صنعت الأبواب والاسقف بنفس الطريقة وبدون استعمال المسامير أو الغراء ، ويلاحظ ان هناك مسافات تركت بين الأرابيسك حتى لا يلتوى الخشب عند التمدد بالحرارة ، ويمكن القول ان هذا الفن من الارابيسك قد نشأ من فن الحفر على الخشب الذى كان يستعمل كحشوات والذى يرجع الى القرن الثالث أو الرابع الميلاديين .

الفخار

لقد اكتشف العلماء مؤخرا أهمية الفخار لدراسة التاريخ والآثار ، فقسموا الفخار طبقا للطراز والموقع اذ ان كل موقع بل وكل عصر له أشكاله وانواعه واصبح العلماء حاليا يعرفون العصر الذى تنتمى اليه مجموعة الفخار ...

ولقد نجحت هذه الطريقة ، وتبين ان الفخار القبطى يتميز بصفات ورموز وعلامات خاصة تميزه عن غيره من العصور الأخرى ، ويمكن القول إن طرز الفخار فى العصر القبطى تشبه تلك التى ترجع للعصر الرومانى أو تلك التى كانت فى مصر القديمة .

ومن الثابت ان الاديرة والكنائس كان تستعمل الاوانى الفخارية الكبيرة خصوصا فى حفظ النبيذ الخاص بالقداس ، وكانت معظم هذه الاوانى مزخرفة بأشكال تمثل الحيوانات الأليفة أو المتوحشة والطيور والبجع والحمام والأسماك النيلية والصلبان ونبات الكروم وغيرها من الأشكال الرمزية أو الخرافية ، بينما يحمل البعض الآخر صور قديسين أو رهبان .. ، ومن بين المعروضات مجموعة من القارورات التي تسمى « قارورات القديس مينا » نقش على وجهها القديس مينا بين جملين .. فقد كان الجمل رمزا للقديس مينا حيث انه الحيوان الوحيد الذى كان يستعمل للسفر فى الصحارى .

المنسوجات

لقد عرف المصريون صناعة الكتان منذ أقدم العصور ربما من عصر الأسرة الأولى عام ٣١٠٠ قبل الميلاد ولقد كانت المغازل تغزل الخيوط ، أما الأنوال فكانت للنسيج .. والكتان كان يستعمل بكميات كبيرة خصوصا فى الأغراض الجنزية ... فقد كانت الأكفان تصنع منه إلى جانب الملابس .

والمنسوجات القطنية لم تنتج فى مصر حتى قرون عدة بعد الفتح العربى بالرغم

من أن القطن كنبات كان معروفا باسم شجرة الصوف .. والحرير ايضا لم يعرف فى مصر حتى عصر البطالمة واستمرت مصر مركزا لصناعة النسيج والصوف طوال العصر المسيحى وكان « القباطى » ذلك النوع من المنسوجات المعروف فى العصر القبطى ينتج بكثرة ومنتشرا فى أرجاء العالم القديم .

المخطوطات

منذ زمن بعيد انفردت مصر بين دول العالم القديم فى فن صناعة البردى فقد ذكر المؤرخ الرومانى « بلينى » ان صناعة البردى اختصت بها مصر حتى العصر الرومانى ، ولم يكن البردى يصنع لسد حاجة البلاد بل كان ايضا من بين البضائع الرئيسية للتصدير وقد استمرت صناعة البردى حتى القرن العاشر الميلادى حيث قد استبدل بها بالكتان أو « الرق » وهو جلد الغزال الذى كان يقطع شرائح رقيقة تملح وتجفف حتى تصبح صالحة لاستخدامها فى الكتابة ..

وأقدم مخطوط من الرق محفوظ بدير وادى النطرون يرجع تاريخه الى عام ١١٨١م .

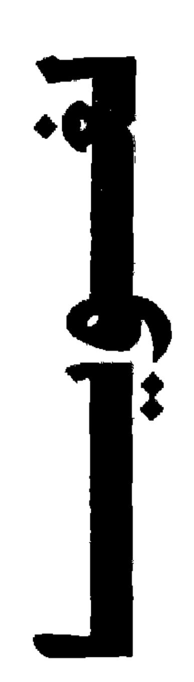
اما المداد الذى كان يستعمل فى الكتابة فقد كان من مواد يضاف اليها الصمغ ، والاقلام كانت من البوص .. ويوجد بالمتحف مجموعة عديدة من هذه الاقلام

الجناح القديم

ينقسم الجناح القديم الى قسمين ، وكلاهما يتكون من أربع عشرة قاعة أسقفها من الارابيسك المأخوذ من القصور القديمة للأقباط .

ويتضمن هذا الجناح مجموعة من شواهد قبور معظمها من الحجر الجيرى ، عليها نصوص باللغة القبطية تشمل فى مضمونها صلوات فيها طلب الرحمة من الله للمتوفى .ويمكن تأريخ هذه المجموعة المعروضة الى القرن الرابع الميلادى حتى القرن الثالث عشر .. ومن بين هذه الشواهد توجد مجموعة تحمل نصوصا قبطية الى جانب زخارف مختلفة .. ومعظمها مرسوم عليه من أعلى شكل مثلث وعلى الجانبين عمودان ، واحيانا يرسم الصليب مع الحروف القبطية (ألفا / اوميجا) وتعنى البداية والنهاية . وفى البعض الآخر من الشواهد نجد نقوشا نباتية على شكل كروم أو افرع الزيتون وهى الرموز المسيحية. ونادرا ما نجد ثقبا نافذا فى شاهد القبر ليسمح للبخور المحروق أمام قبر الميت ان يدخل إليه ، وهذا يشبه ما كان يفعله المصريون القدماء فى مقابرهم حتى تتمتع الروح بعبق رائحة البخور .

وهناك لوحات جصية « فريسكات » وكان الأقباط يغطون قباب وجدران الكنائس والهياكل بطبقة من الطمى ثم يزينونها برسوم جميلة بالالوان تمثل السيد المسيح والسيدة العذراء والحواريين والقديسين والشهداء وغير ذلك من موضوعات اخرى دينية من الكتاب المقدس ، وقد كانت الطريقة هى الرسم على الطين أو الجص قبل ان يجف .



● يكثر فى هذه الأيام قولهم . « الغث والثمين » وإنما قالت العرب : « الغث والسمين » .. لأن السمين ضد الغث .. وقالت العرب · « الرخيص والثمين » لأن الرخيص ضد الثمين ، أى الشىء الغالى الثمين ..

● ويقال فى هذه الأيام « الزعماء يتسامون عن الدنايا .. وتساموا عن الصغائر » وهو استعمال صحيح ، وأصله أن العرب كانوا يتداعون بأسمائهم ، فكان ذلك فى اللغة هو التسامى ..

● شَرَى الشىء ابتاعه بنفسه عن قومه ، ومنه شرى الموتَ ، أى تقدم بين أيدى قبيلته فقاتل دونهم ، ومن هنا انتحلت فرقة من الخوارج قديما اسم « الشُّرَاة » أى الذين يقاتلون بين أيدى زعمائهم ، ويشرون أو يشترون الجنة ! ..

● والخوارج الجدد فى عصرنا – المسمون بالمتطرفين – يزعمون لأنفسهم أسماء ، ومنها اسم « الضاربون » .. وله معنيان ، أحدهما ضَرْبُ الصلاة ، أى إقامتها ، ولا أظن الخوارج الجدد يعرفونه ، وإنما قصدوا ضرب الناس بعد تكفيرهم ! ..

● الملحنون والمغنون يسمون نهاية الجملة اللحنية : « القفلة » ويرى بعض اللغويين أنها تسمية غير صحيحة ، ولكن بعضهم يراها صحيحة توسعاً فى استعمال كلمة «القفلة » وأصل معناها : « القفا » .. فيكون أول الجملة اللحنية هو وجهها ، ويكون آخرها .. قفاها ! ..



عازف العود للفنان أحمد صبرى

مع بدايــة العام جولة فى متحف الفن المصرى الحديث

بقلم : د . صبرى منصور

وأخيراً أصبح لمصر متحف مشرف لفنها الحديث يحتل موقعاً فريداً فى تلك البقعة الحضارية من أرض جزيرة الزمالك . حيث يشكل جزءاً من مجموعة مؤسسات ثقافية رفيعة المستوى ، فمن أمامه يقوم المركز الثقافى التعليمى (دار الأوبرا) وعلى يساره توجد قاعة النيل لعرض الفنون التشكيلية ، وعلى يمينه أنشىء مؤخراً مركز الهناجر للفنون . إن كل تلك المؤسسات بما تقدمه من أنشطة ، وبما تحتويه من ألوان الفنون هى أبلغ دليل على أن المصريين يولون الفنون الحديثة قدرها ، ويدركون عظيم أثرها فى تثقيف وتنمية أفراد الشعب .

وقد كانت بداية تكوين متحف للفن المصرى المعاصر فى قصر هدى شعراوى بميدان التحرير ، وكان يضم نخبة من انتاج جيل الرواد والجيل التالى وبعض الانتاج المتميز للأجيال الجديدة ، وحين تم هدم القصر توارى المتحف فى إحدى (فيلات) حى الدقى ، حيث كانت الأعمال الفنية معروضة بطريقة هى أقرب إلى التخزين منها إلى العرض المتحفى ، إلى أن استقر رأى المسئولين - فى أواخر الثمانينات - على تحويل مبنى المتحف الحـــالى الذى كان جناحاً من أجنحة هيئة المعارض إلى مبنى صالح لوظيفة المتحف ، وقد تم إدخال تعديلات معمارية على المبنى ليتلاءم مع متطلبات عرض أنواع الفنون التشكيلية وجـــاءت تلك التعديلات ، وقد استغرقت عدة سنوات ، موفقة إلى حد كبير

مدرسة مفتوحة للجميع

إن إقامة متحف لا يعنى مجرد عرض لأعمال فنية أو تاريخية دون هدف ، فالمتحف مدرسة مفتوحة لكل من يرغب فى التعرف على جانب من روح هذا الشعب ووجدانه العام ، والمتاحف فى الدول المتقدمة هى مراكز إشعاع حضارى ولها دورها الخطير فى تنمية ذوق المواطن وصقل معرفته وشحن إدراكه ، ونحن بعد فى مصر مازلنا فى حاجة إلى التنبيه إلى أهمية زيارة المتاحف ، ليس فقط متحف الفن المصرى الحديث ، وإنما متاحف مصر حميعاً ، ونحن واثقون من أن الغالبية من الناس - حتى المثقفون منهم - لا يدركون مدى تقصيرهم فى حق تكوينهم الثقافى ، حين لا يسعون إلى ارتياد المتاحف المختلفة . وإذا ذهبت مثلاً إلى المتحف الفرعونى بالتحرير أو المتحف الإسلامى بباب الخلق أو المتحف القبطى بمصر القديمة ، فأرجو أن تتلفت حواليك لتحصى كم عدد المواطنين المصريين بين جموع المرتادين . وسوف تصاب بالدهشة والأسى حين لا تجد إلاَّ أفراداً قلائل ، بينما جموع الأجانب يمعنون النظر ويتفحصون بكل اهتمام وشغف محتويات هذه المتاحف ومعروضاتها ، وحتى لو تصادف ووجدت مجموعة من المصريين فى المتحف الفرعونى قد ذهبت إليه بمحض المصادفة أو فى زيارة إجبارية تابعة لمدرسة أو هيئة فلن تسعدك التعليقات على ما يرونه ، مما ينم عن جهل مطبق وفقدان الحماس والرغبة فى المعرفة .

وهكذا فإننا نأمل أن تولى الجامعات والمؤسسة التربوية المختلفة اهتماماً زائداً ولائقاً بزيارة متاحف مصر . وفى نفس الوقت نرجو أن تكون إقامة متحف للفن المصرى الحديث بما يحتويه من إبداع الفنان المصرى المعاصر حافزاً لكتابنا

وأدبائنا وشعرائنا على استكمال جانب مهم من جوانب ثقافتهم ، والذى نعتقد أنهم يفتقدون إليه أشد الافتقاد .

أعمال فنية مهمة

إن أول ما يستقبلك من أعمال فنية أمام مدخل المتحف مجموعة من الأعمال النحتية المعروضة فى الهواء الطلق من بينها أعمال الفنان الراحل صلاح عبد الكريم والتى استخدم فيها بقايا الحديد (الخردة) وقد وظفها فى تشكيلات فنية تنم عن ذكاء ورهافة حسّ شديدين ، وقد أحسنت الدولة صنعاً إذ ضمت إلى مقتنياتها تلك التماثيل الفريدة للجرادة والمسيح المصلوب والتمساح والنسر وفرس النبى وصيحة الوحش وكلها أعمال لا تعوض . وندعو لبحث أثر وجودها معروضة فى الفضاء المفتوح ومدى تأثير العوامل الجوية على إتلاف خامة الحديد بمرور الزمن كما يبرز بين تماثيل المدخل تمثال عبد الهادى الوشاحى (استشراف) تلك الكتلة المجنحة التى تكاد تعلو فى الهواء رغم ثقلها المادى وإن كانت خلفية المبانى تشوش على تفاصيله الجميلة .

وحين تلج داخل المتحف الأنيق ـ ورغم صيحات العاملين والصوت المزعج الصادر من نعالهم ـ فإن المكان يبهرك ، وتقفز فى قلبك فرحة قل أن تشعر بمثلها من أثر ما ترسب فى نفوسنا من قذارة المبانى العامة فى بلدنا ـ فالمكان غاية فى النظافة ، وتضفى عليه الأعمال الفنية مهابة ورونقاً .

وفى الصالة الدائرية بالدور الأرضى يقام حالياً معرض (الفن والعبور) مما أحدث خلطاً كان يجب تجنبه ، فالمتاحف حين تريد إقامة نشاط لمعارض متغيرة فإنها يجب أن تخصص قاعة مستقلة لهذا الغرض ، حتى لا يختلط الحابل بالنابل خاصة أن المعرض المذكور يضم أعمالاً عديدة ليست فى مستوى العرض بصدارة المتحف .

أما مجموعة النحت المعروضة بالصالة الأرضية فهى موضوعة بأسلوب عرض جميل ساعد عليه المنسوب المنخفض مما أتاح الفرصة لرؤية الأعمال من زوايا متعددة . ويتوسط المجموعة تمثال محمود مختار (الفلاحة الراكعة) ويبدو كدرة فريدة وسط المجموعة ، أما تمثاله (الخماسين) وهو من أجمل أعماله واكثرها تعبيراً فيحتاج إلى إعادة عرضه بطريقة أفضل حيث إن لونه الذى يضاهى لون الرخام الموضوع عليه لا يمكن العين من رؤيته وتمييزه .

ويضم الدور الأول مجموعة قاعات صغيرة احتوت على أعمال مهمة لجيل الرواد ، ففى القاعة ٣ توجد لوحتان رائعتان للمصور السكندرى محمود سعيد ، إحداهما تمثل (آدم وحواء) والأخرى



منظر من القرنة للفنان صلاح طاهر



العمل فى الحقل للفنان حسن سليمان

تمثال من أعمال الفنان صلاح عبد الكريم

(فتاة على رأسها منديل ١٩٤٣) ورغم صغر حجم اللوحتين فإنهما تمثلان أصدق تمثيل أسلوب محمود سعيد ، الأب الروحى للتصوير المصرى المعاصر ، وفيهما يلعب الضوء والظل دوراً أساسياً فى إضفاء أجواء ميتافيزيقية على الأشكال .

كما توجد مجموعة لوحات للأستاذ الأكاديمى البارع أحمد صبرى من جيل الرواد ، ومن بين اللوحات لوحة صور فيها الفنان حسين بيكار فى صباه عام ١٩٣٤ منحنياً عازفاً على عوده ، وتتضح فيها شفافية اللــون ورقة الأســلوب ودقة اللمسات .

أما لوحات راغب عياد المعروضة بنفس القاعة ففيها لوحتان لهما أهمية خاصة للدارسين والباحثين فى تطور حركة الفن المصـــرى الحــديث ، وكيفية استفادة الأجيال من بعضها ، إذ تبدو فى لوحتى الرائد (رقصة الرار ١٩٣٧) و (منظر من القهوة الشـــعبية ١٩٣٣) إرهاصـــــات التجــديد ، والاتجاه نحو ينابيع جديدة للتعبير الفنى من خلال مظاهر الحياة الشعبية المصرية ، وتستطيع أن تلمح خيوطاً مستمدة من اتجاه عياد فى أعمال كل من عبد الهادى الجزار وحامد ندا التى أنجزاها فيما بعد خلال الأربعينات والخمسينات .

وللفنان صلاح طاهر منظر يمثل قرية القرية بالأقصر ، وربما أنتجه أيام كان مديراً لمرسم الأقصر ـ وتميز الأداء الفنى فيه بمهارة عالية ، ولمسات الفرشاة تبدو قوية واثقة ، وإذا تأملت المنظر قليلاً فإنه يمكن أن تدرك بدايات التغيير فى أسلوب الفنان بعد ذلك بسنوات ، حيث سادت أعماله حركة ديناميكية متفجرة من خلال استخدام ألوان قوية صريحة .

وللمصور مصطفى أحمد لوحتان يعود تاريخهما إلى عامى ١٩٦٥ و ١٩٦٦ وكانتا ضمن المجموعة الممتازة التى أبدعها الفنان أثناء فترة تفرغه ، وذلك حين كان التفرغ الفنى فى عصره الذهبى ، وفى اللوحتين يبدو ذلك الاتجاه القوى نحو تخليق أشـــكال مميزة للفن المصـــرى المعاصر ، الذى كان يحاول أن يشق طرقاً جديدة فى الصياغة الفنية تختلف عما هو مطروق ومعروف فى المدارس والاتجاهات الأوربية . ويعرض للفنان عز الدين حمودة منظر مستوحى من كيائن البحر وقد اختلط فيه أســـلوبه بأسلوب قرينته المصـــورة زينب عبد الحميد ، فتكوين العمل يقوم على الخطوط المتشابكة التى تمنح اللوحة إحساساً متدفقاً بالحركة والحيوية .

وفى ممرّ الدور الأول تبرز أعمال الفنان والكاتب رمسيس يونان صاحب الاتجاه التجـــريدى المشـــحون بالرؤى الغامضة ، وهو قد حاول بثقافته العميقة

أن يختط لنفسه داخل هذا المذهب الغربى الخالص أسلوبا شديد التميز والخصوصية .

وفى صالة ٧ نجد لوحة عبد الهادى الجزار الشهيرة (الجوع) وقد أنتجها عام ١٩٥١ وتسببت فى سجنه ، وهى مع لوحته (عربة السيرك) - الموضوعة فى نفس المكان - تعدان من قمم إبداعه . أما زميله حامد ندا فمعروض له عدة لوحات أهمها لوحة (المرأة والطائر ١٩٦٦) وقد أنتجها فى فترة تألقه وكامل نضجه الفنى . أما سمير رافع عضو جماعة الفن المعاصر مع الجزار وندا ، فلوحته المعروضة (أدم وحواء ١٩٤٨) تعد من أهم أعماله واكثرها تجسيداً لأسلوبه الفنى ، ونلمح فيها تشابهاً شديداً مع أسلوب الجزار ، كما نستطيع أن نرى تأثيرات لمحمود سعيد خاصة فى استعمال اللون البنى الداكن وفى استخدام عنصر الضوء . وفى قاعة ٩ تعرض للفنان حسن سليمان لوحته الشهيرة (العمل فى الحقل ١٩٦٢) وهى نموذج على أسلوبه الفنى المميز والذى يؤكد على إجراء حوار تشكيلى بين درجات الضوء واختصار اللون ، وكان الفنان قد نال عليها الجائزة الأولى فى مسابقة أقامتها الدولة حينذاك . ثم نعود لنرى عملاً شهيراً آخر لعبد الهادى الجزار وهو لوحة (الرجل والقط) وهى صورة شخصية للناقد الأدبى والفنى إيميه آرار ، ثم نرى صورة أخرى لحامد ندا رسمها عام ١٩٥٦ وتمثل مرحلة مهمة فى تطور الفنان حين كان يسعى إلى استخراج واستحداث قيم فنية جديدة من الفن المصرى القديم مع إضفاء الروح العصرية ، وخاصة فى مجال ايقاع الحركة وتسطيح الشكل واللون .

ملاحظات واجبة

لا شك فى أنه مما يسعد أى مثقف مصرى وجود هذا المتحف الرائع ، والذى يعكس جهداً مشكوراً فى تنسيق واختيار هذا الكم الهائل من الأعمال الفنية فى مجالات التصوير والنحت والجرافيك والرسم والخزف ، ولا تعنى الانتقادات أىّ انتقاص من قدر هذا الجهد الكبير .

ولكن مما يدعو للدهشة أن يمر عام كامل دون أن يجد رائر المتحف أى معلومة مكتوبة أو أى مطبوعة عن محتويات المتحف ، فالمتحف ليس مجرد أعمال فنية مرصوصة ولكنه كما ذكرنا مدرسة للتعليم والتوجيه والتثقيف ، ولن نبالغ ونطالب بأن يكون بمتحفنا الجديد ركن - كما فى أى متحف فى العالم - للكتب الفنية والمستنسخات بشتى أشكالها (بطاقة بريد - شرائح ملونة - صور للأعمال) وأنما نطالب بأن يكون هناك على الأقل دليل وصور للأعمال وبيانات عنها وعن صاحبها لمن يرغب فى اقتنائها . وتلك أمور بسيطة

المرأة ذات المنديل للفنان محمود سعيد

الرجل والقط للفنان عبد الهادى الجزار

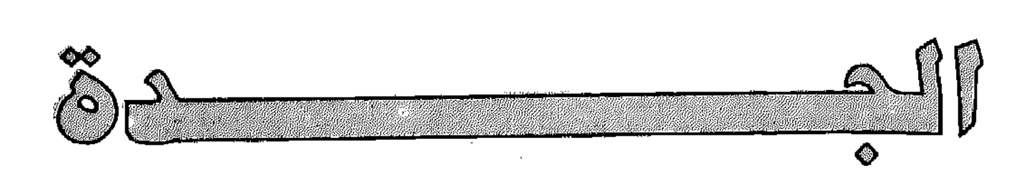


رقصة الزار للفنان راغب عياد

لا تســتدعى جهداً كبيــراً أو ميزانية ضخمة . ويقودنا ذلك للإشارة إلى ما نفتقد إليه نحن المصريين ، وهو القدرة على استكمال ما بدأناه بنفس القوة والحماس حتى نصل به إلى ما يجب أن يكون عليه من صورة مثلى ، فنحن إذ نبدأ وتنجز شيئاً بعض الانجاز أو معظمه فإنه سرعان ما يحل علينا التعب ويدركنا الاجهاد فلا نستمر فى عملية الاستكمال وما بعدها من عمليات تطوير دائم نحو الأفضل ، وهكذا تبدأ مرحلة النكوص والتردى ، ونحن لا نريد لمتحفنا الجميل هذا المآل . بل نرجو أن يكون افتتاحه مجرد بداية لعمل جاد مستمر نحو استكمال نواقصه حتى يصل إلى مستوى لا يقل عن نظــرائه فى دول العــــالم المتحضر .



كما نرى أن هناك أعمالاً هى أقل من مستوى العرض فى متحف الدولة ، وهى أعمال المبتدئين الذين لم تنضج شخصياتهم الفنية بعد ، منهم مازالوا فى بداية طريقهم ، ويمكن أن تخصص قاعة لأعمالهم كما أن هناك أعمالاً يجب أن يتم استبعادها تماماً لافتقارها إلى قيمة فنية جادة ، وكانت الدولة قد اقتنتها بغرض التشجيع وليس للعرض المتحفى فى متحفها القومى ، كما يجب أن تستبعد تلك الأعمال التى تشبه إلى حد كبير أعمال الفنانين الأجانب لأن فى ذلك شبهة النسخ والتقليد ولن نقول السرقة الفنية مما يسىء إلى فننا الحديث .


الجدة



قصة قصيرة

بقلم : نادر السباعى

بريشة الفنانة سميحة حسنين

صوت (١)

الطريق يمتد ويطول . صعوداً وهبوطاً . يقيناً إنها ليست فى الفراش . تستفيق بين الحين والحين من غيبوبة تلازمها منذ زمن ! كلما تصحو ، تستعيد قواها .تتأمل جدران الغرفة المتطاولة ، والصمت العنيد القاسي ، يحيطها بهالته الأبدية ، لتدخل فى معركة جديدة مع الحياة .

.. آه ياحبوب .. هل آن الأوان كي ألحق بك . هل جاء دورى ؟ ..

اهتزاز مباغت ، يرافقه هدير متقطع .

.. أأكون محمولة على نعش ، وأنا فى طريقى الى المقبرة ! أكيد .. أكيد سيقولون كفاها هذه العجوز الخرفة. نعم .. الموت راحة لبنى آدم . أخيرا سأرتاح .

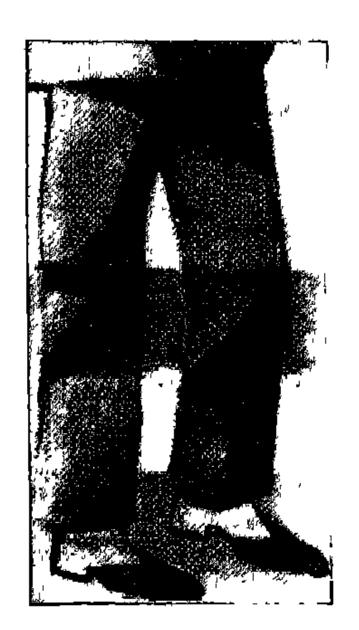
لقد أمضيت حياة عريضة ، حافلة بالأفراح والأتراح .ولكن هل تحققت أقوال فتّاحة

الجـــدة — قصة قصيرة

الفأل النورية ؟ جلست فى الليـــوان ذات يوم . رمت الودع أمام النسوة وقالت « أبشروا . سيكون المولود بنتـــا ، ولكن قـــدومـــهـــا سيكون خيرا . امتعض بعضهم عند سماع النبأ ولكن الجد استـبـشـر بمولـــدهـــا فسمـــاها (مجيدة) ، وقال صلوا على النبى .

وانطلقت رغـــاريد النســـاء في جـــو من الوجوم.

شهدت الغرفة القبلية أيامـاً مـزدهـرة ، حـافلة بأحداث شائعة يتداولها الناس فيما بينهم . كما حـــفظت عند الجـــدة ، أخـبـار وأسـرار الرجل وأمـواله الذى يجـوب كل عـــام بلاد العــراق ، وبر مـصـر ، وشـعـاب فلسطين .. كان زوجـهـا (حـبوب شيخ صغير) عندما يعود من سفره ، يداعبها على غيـر عـادته بكلمـات من عـسـر : « وجـــهك رزق يامـحـــود .. يرحـم البطن التى حــملتك . » يخلع حرامه الجلدى العريض ، المملوء بالليرات الذهبية والفضيـــة ، ويمـد يـده « حـذى ياحبـة عينى ، أودعـيـهم فى الصندوق » وصدى التجارة الرابحة ، يمتد الحديث عنها الى الأحـيـــاء المجـــاورة ، وتـصـطـخب الحـــــارة بـالحـــركـــة وتتسـع الابتـسـامـة على وجـوه المكدودين الذين يلهـجـون بـالدعـاء على العــودة بالسلامة .



أهـكـذا تـكـون النـهـاية يامـجـيـدة ؟ مـا أعجب الزمن . أهو يجرى و هكذا دائما ؟ إيه .. أين أيام زمان رجال زمان . نساء زمان. ما أجمل تلك الأيام . رغم قسـوتهـا ، ومرارتها ، فقد كتبت بماء الذهب . أى والله ! كتبها الرجـــال الذين كـــانوا يجتـمـعون فى الليـوان . أيام الصـــــيف . وفى الشـتـــاء ، تحـتـدم المناقشات والمداولات فى الغرفة القبلية . لن أنسى رائحة الأماكن التى وطئها رجالات الأحياء وزعماء الكتلة الوطنيـــة ، أيام مقاومة الفرنساوى

فى الليل . أســمـع ايقاع خطوات فيل بشرى

دج . دج . دج . الصوت يخترق الآذان . إنه يلف ويدور . أعـرف خطواته المميزة . إنه هو . منذ أن كان صـبـيـاً وهو يتلصص ويحـوّم حـول الغـرفـة القـبليـة المحـرم دخولهـا . الآن دب الوهن فى الجـسـم . دج . دج .

دج . يقترب الصوت أكثر. يدور حولى وأنا غير قادرة على الكلام . سألته فى صحوى مرة عن أساورى ، فأجابنى متردداً بوجه ممطوط ، وعينين جاحظتين من شدة السُكر ، أن أمه قد حفظتها فى الخزانة .

إيه ياحبوب .. تعال انظر حفيدك . الولد العاق يريد تغيير لقب الأسرة . صرنا حكاية فى الحارة . الأفندى لم يعجبه لقبنا . لقد توارثناه أبا عن جد . تعال انظر اسم الأسرة أصبح غير ملائم لطموحاته .

ياربى .. ماذا أفعل ؟ هذه هى الآخرة . كنا نخاف الموت . ها هو الموت قد جاء. ما أصغرك يا بنى آدم . (تحسست أطرافها . وجدت جسدها الصغير ، متكورا ، مثل أضحية العيد عندما توضع فى كيس الخام !)

ما هذا الكفن ؟ إنه غير لائق أبدا بمكانة الجدة مجيدة ! وهل يستكثرون على قيمة الكفن ؟ أتكون جبارة الجدة مجود هكذا ؟

أهتزاز مباغت . صوت الهدير يتعاظم تارة، ويخفت تارة أخرى .

فى الاضراب الستينى .. انصهرت آراء الناس وتوحدت . قضية واحدة كانت على الألسن هى الجلاء . النساء يعملن ليل نهار . والجدة مجيدة كانت سيدة بين النساء . تدير أكبر مطبخ فى حياتها . شمّرت عن ساعدين لا يعرفان التعب. صاحت فى النساء حولها هيا يا بنات فتحت القبو لاخراج البرغل ، والسمن، والطحين ، من العنابر وأخرجت الحلل الكبيرة التى لا تظهر إلا فى المناسبات الهامة . وقالت بحماسة « يا الله يا بنات .. الناسَ جياع . اليوم دور حارة السويقة » .

كانت المرأة المحمولة فى الكيس تتساءل . « هل هذا يعنى انها المقبرة ؟ ولكن هذه الأصوات لا توحى بذلك ! لا علاقة لها بطقوس الموت والجنازات . والظلام لا يزال مخيماً . يناوشها دبيب الحياة . تسمع وقع أقدام السائرين فى الخارج . غريبة هذه اللزوجة . انها تشم هواء مثقلا برائحة حادة . هل هذه رائحة الحياة ؟ »

توقف الهدير . انحسر الاهتزاز . أيدٍ تحمل الجسد الذى تحول الى هيكل عظمى . ذاب اللحم . تبدو دمية مضغوطة قد عركها الزمن. عصرها حتى الرمق الأخير . مازالت تشعر انها مودعة فى ذلك الشئ . هى تعرف مراسيم الدفن . ولكن هذه ليست جنازة ! لم ينس الناس جنازة زوجها حبوب . وكيف وصل صيتها الى سابع حارة . لم يبق فقير فى الأحياء المجاورة الاّ وأشبع بطنه ،

وقرأ الفاتحة على روحه .

يشتد صوت الخطوات . دج . دج . دج . القامة المشدودة تحمل الكيس . ترتقى الدرجات . سخونة الأنفاس تفوح من الكيس المحمول على الظهر . تعبق رائحة ، الأعضاء المتكدسة فوق بعضها . يصيبها الأعياء ، وقد فقدت الإحساس بالاتجاهات . شعرت الجدة الآن ، انها خارج جدران غرفتها .

ودارت بها الدنيا تلك اللحظة ، وتمنّت الموت .

يطرح الكيس أرضاً .

تستكين الخطوات . أحست الأعضاء الواهنة بالبرودة . البلاط مشبع بالرطوبة . جرس يُقرع . خطوات الحفيد تبتعد . باب يفتح . تهرب الخطوات بسرعة البرق ، ثم تتلاشى .

صوت (٢)

تنشط الأم هذا الصباح تدو اليوم حركتها فائضة بسحر عذب . أثناء انشغالها ، كانت تهاجمها مشاعر أمومة مرهفة . ابنها المنسى ، لم يطل اليوم بموسيقاه .. غريب منذ سنوات تتدفق ألحان كمانه من خلف الباب ، وتفيض مرارة ، وقهرا ، ووحدة . هل هو مريض ؟ ذابت النغمات التى تُشعرها بوجوده . وتقول فى نفسها أما كفاك عزلة يا همام ؟

وتنهمك فى تنظيف الغرفة . انها لحظة تنتظرها منذ سنوات . الشبابيك مشرعة . تحاول تنظيم كل الأشياء كما تريد . كنست الغبار المتراكم فى زوايا الغرفة المنسية . جمعت أغراض العجوز المتبقية ، بتأفف بالغ ، ورمتها فى أحد الأركان . تفو . ماهذه الروائح ؟ سدت أنفها ، وتوقفت عن العمل . رفعت رأسها بكبرياء ، ثم تمتمت « خلصنا من العجوز الخرفة ! »

وعادت تراودها المشاعر المرهفة تجاه الابن الآخر .

.. ماذا أفعل ياهمام؟ أعرف أنك رجل حقيقى. لقد ظلمت ياروح أمك . معك حق . والله أنا حائرة ياربى .. واحد فى الغرفة زعلان من انكسارنا فى الحرب ، والثانى يسعى للحصول على الاعفاء من أداء الخدمة العسكرية ! ..

وعاودت الأم نشاطها وهى تدندن أغنية حزينة .

صوت (٣)

التقط أنفاسه . ازدهى بعد العناء . شعر بالغبطة ، وأسلم نفسه لشعور من الراحة . واصل سيره عائدا الى البيت ، وهو يفكر ...

.. أخير ، آلت الغرفة القبلية إليك يا ممدوح ..

انتهيت من العجوز التى نسيت أن تموت ! .

انسابت الخطوات ، وقد غدت أكثر خفة ، وليونة ، ومرحا .

.. الآن ، أصبحت سيد الأسرة . غرفة الجدة فى انتظارك . إنها واسعة، ولكن تحتاج الى طلاء وتهوية لكى تزول عنها سائر الروائح ، والذكريات اللعينة !! والعجوز أم سبع أرواح ، تخلصت منها ، وأودعتها هناك . عند أبنها الآخر . أما همّام الذى خسر حربه فقد أغلقنا عليه الباب ، وانتهى الى الأبد ! ليس ثمة أحد سينازعنى سلطة الأسرة بعد الآن . أين أنت يا أبى ؟ لقد ظلمت أمى فى انحيازك لأمك . أخ لو تخرج من تحت التراب لترى مصير أمك الظالمة !

تقترب الخطوات من الدار . وتتعاظم الآمال .

.. علينا أن نعيش اليوم الفرح العظيم ياأمى. اضحكى . إنه نصرنا المشترك . أصبحت اليوم سيدة الدار . مفتاح المونة بين يديك . انتهى عهد الجد والجدة . والغرفة القبلية غدت غرفتى . وثروة الأسرة بين أيدينا . آن الأوان لكى نرتب الأشياء على هوانا . سوف أقتحم الغرفة المقيتة ، الرهيبة ، التى كانت فى يوم من الأيام موصدة بوجهى .. أما اليوم . فسوف تفتح أمامى كل الأبواب .

تباهت الوجه أثناء اختلاجه سحب سيجارة



بعصبية . أخذت ترسم خطواته ايقاعاً غاضباً .

. سأريهم .. سنرى من هو الأهم فى تاريخ الأسرة لا . لن أسمح لأحد أن يقف أمامى سوف أدوسه ، ولو كان عمى « أسعد » الذى حاول معى مرة ، وهددنى إنه لم يوافق على تغيير اسم الأسرة . قلت له مفاخرا « إن اسم ممدوح آل الشيخ الكبير ، وليس شيخ صغير ، سيحتل صدر صفحات الجرائد ، والمجلات ، وسيكون الأكثر شأناً فى تاريخ الأسرة .. »

نفث الدخان بحرقة . أخذ يفكر ، وهو يستعيد شريط حياته المتعاقب . لم تغب عن ذاكرته العقوبة القاسية التى نالها من الجدة ! يوم ضبطته وهو ينبش فى أشيائها الخاصة . إنه يحس بمتعة لا مثيل لها فى اكتشاف الأسرار ، خلف الجدران ،

الجـــدة قصـة قصيرة

والأبواب ، وينقلها الى أمه بـزهـو بـالـغ . لا يـزال يعيش ألق هذه المتعة فى نفسه

تمهلت الخطوات . ها هو يقـتـرب من الدار . يدلف بخطوات متوجسة الزقاق الهادئ الخالى من المارة لا يعـرف سـبب الرعشـة التى تسـرى فى أوصـــاله تلك اللحظة . راوده شـعـور أن أمـوراً شـائكـة سـوف تواجـهـه الآن !

فـجـأة ، صـرخ صرخـة اهتز لها كيانه . لقد رأى الجدة قابعة فى الكيس أمـام باب الدار ، ومـلامـحـهـا تفـيض بالحيوية !

هامش (١)

توالت الأحـــداث الغريبة ، والمفاجئة ، على أسـرة شـيخ صـغـيـر . ابتـدأت بعـودة ممدوح المخفقة الذى دخل الدار وهو ينوء بحمله . شاهدت الأم الوجه الغاضب الذى يزخ بالعرق . لم تستطع أن تخفى دهشـتـهـا ، بل ضـربت صـدرها بشـدة ، وهى تصـيح كيف عـدت بمقصوفة العمر ؟

أخذ يلتقط أنفاسه بعـد أن رمى حـمله على الأرض . رشق كلمـــات تعـبّر عن غيظ مكظوم ، الكلب قد أعادها ، وتابع بلهجة مسعورة وهو ينط ، كالمجنون ، سأريه ! ولكن



الأم ظلت تتـسـاءل عن المكان الذى ستوضع فيه الجـدة بعــد أن طهّرت الغرفة .

أجـابـهـا بنبـرة تدل على التحدى ، ولا يهمّك ! سوف أعيدها إليه بطريقة أخـرى . أخذت تعلن الأم أساها ، عمك هذا لا يريد أن يمنح أمـــه الراحـــة الأبدية بأمان .

أُرسلت الجدة ثانية، بحقيبةِ سفر عتيقة . وعندمـا مـددها ممدوح بيدين مرتجفتين ، فاحت رائحـة حـادة غـيّرت من تعابير وجهه . وألقت الأم عليها نظرة أخيرة . سدت أنفها وهى تقول ، أراها صغيرة .. ألم تمت بعد ؟ كـادت أن تتـقـصـف أعضاؤها بعد أن حشرت حـشـراً فى الحـقـيـبـة المهترئة !

هامش (٢)

لم يغـمـض للكاتب الكبـير جفن ، أو يهدأ له بال ، وهو يفكر ليل نهار فى الوصول الى حل لتلك

المشكلة الجدة .. الجدة .. الجدة .. الى متى ستظل تؤرقه في يقظته ومنامه ، وهو يسمع صوتها ، ويرى خيالها كل برهة ؟

كانت الطامة الكبرى عندما أعيدت الجدة للمرة العاشرة . عصفت فى الدار رياح الغضب ، وقد تحول ممدوح فى لحظة الى ثور هائج . يتجه همه الوحيد فى ابتكار الأفكار بشأن ابعاد الجدة . أعلن بأصرار ، لن أتركها تنام هنا أبداً !

نقل الجدة الى علبة كرتون . زعق باستغراب شديد ، انظرى ... لم يعد لها وزن ! انها تتلاشى . وتنفث الأم حقدها قائلة ، هالعجوز لا تريد مفارقتنا .. أغلق العلبة بعناية وقد ألصق الأطراف ، والزوايا . ثم كتب عنوان عمه أسعد بخط منمق . وقال لأمه بهدوء . إنها المرة الأخيرة .. سوف ترسل بالبريد المسجل !

هامش (٣)

مع بزوغ هذا



الصباح ، تناغمت فى أرجاء الدار موسيقى قوية . استعادت الأم حنيتها المقطوع . واستغرب ممدوح من هذه الألحان . إنها مقدمة السيمفونية الخامسة لبيتهوفن .. موسيقى قوية ذات ايقاع سريع ، وتختلف كثيرا عن الموسيقى الهادئة الحزينة التى كان يعزفها همام فى عزلته !

شرب قهوة الصباح ، ونفسه المكروبة تصطخب بفأل سيئ . وترافق هذا الاحساس مع رنين جرس الباب . فوجئ ممدوح بساعى البريد ، يطلب منه التوقيع على وصل استلام الطرد ! استغرب من عمه أسعد كيف أعاد الجدة ضمن علبة صغيرة لا تتجاوز حجم الكف !! انسل الى غرفة الجلوس مخضوضاً ، يلعن فى سره هذا النهار .. رمى الطرد الصغير على الطاولة ، ثم انهمك فى التفكير ، ليبتكر طريقة للخلاص من الجدة نهائياً .

دخلت الأم خلال هذه اللحظة . أدركت ما يدور فى ذهن ابنها . لم ترتح من الأحداث الغريبة التى تهزُّ الدار كل يوم . انحسرت الموسيقى . حركة مريبة خلف الباب المغلق . استثيرت الأم . وفجأة ، أطلَّ همام بقامة مهيبة ، وابتسامة عجيبة ، مرتسمة على وجهه . تراءى لهما تلك اللحظة عملاقاً !

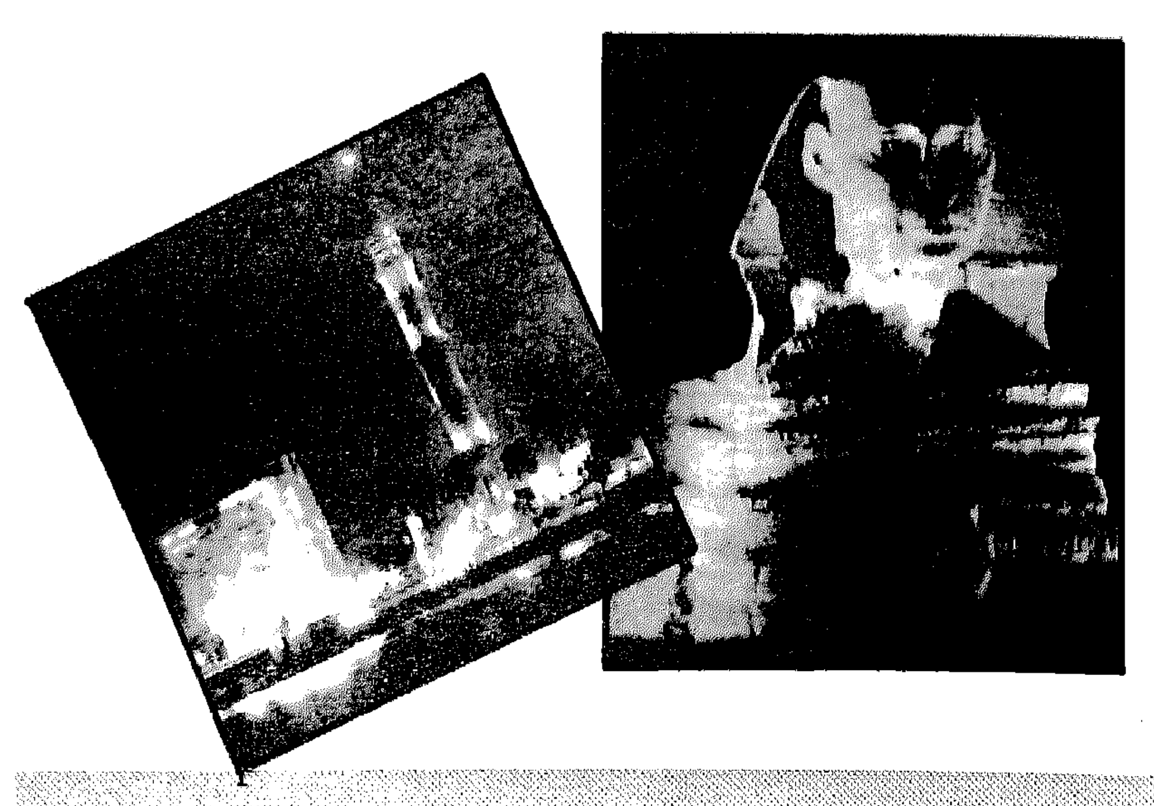
جَمُدَ ممدوح فى مكانه كالملسوع ، وهو يحدق بعينين جاحظتين .

عندما تنام القاهرة



شعر : جليلة رضا

منذ وقت مضى بعيدا بعيدا غابت الشمس فى الدروب الدجيه
هبطتْ سلّم الفضاء عروساً تتهادى فى حلةٍ ذهبيه
وتوارت فخلفت فى سمائى حُزْن أمّ على فراق صبيه
منذ وقت مضى ومازلت وحدى والخيالاتُ فى عيونىَ حيه
أرقب الأرض والفضاء وليلاً من ربيع المدينة القاهريه
إيه يا أنت يامدينة شعبى ومهاد الحضارة الأزليه
كل شىء عليك يبعث سحراً وغموضاً ونشوة وحميّه
فأهى «القلعة» الرهيبة تبدو من خلال المآذن الروحيه
جثمتْ خلفها الجبال سجوداً لتواريخ أمة عربيه
والعمارات تستطيل وتكبو كعفاريت قصة وهميه
والقوانيس تستوى واقفاتٍ كتماثيل غابة وثنيه
والدروب التى تضج حياة قد تراءت فى وحشة قفريه
وبقايا الأشباح تمضى سراعا مثل طيف الرجاء والأمنيه
والملاهى التى تفيض ضلالاً أفرغت جوفها ونامت تقيه
والبساتين من بعيد تراخت واستراحت من الرؤى الأدميه
بحّ صوت العملاقة الآن .. كلتْ قدماها .. ونامت الجنّيه .. !



كل شـــيء ينام غير غـــلام يذرع الدرب فى خـــطى ملكـــيه
حـــاملا ســـهمه الرشيقَ ، جميلا وعلى الثغـر وردة قرمزيه
إنه الحـــب ! ياكيوبيد رفقـــا ياربيب المشـــاعر القلبية
أيهذا المليك حَسْبك فخـــرا أن حـكمت الوجـود والبشـريه
كل قـلب حـــللْت فيه عَميدُ .. كل روح لمسْتـها ســـرمدية
ولك الله ! كـــم تخطيت ياحـــب حـــدود الأمـــاكن الزمنيّه
فغدا الكـــهل فى يديك غُلاما وغـــدتْ جدّة الصبيّ صبيه
وغدا الثلج والصـــقيع على القطب الشمالىّ نارَ إفريقيّه .. !
لهف نفـسى لكم أسائل نفسى وأنا أرقب البيوت حييه .. !
ما الذى خـــلف هذه الجدر الصمّ ؟ وراء النـوافذ الخشبيه
كـــلها . كـــلها تخبيء أحـــــلاما ونجـوى وصـورة فَنّيه
كم حـــياة بها كـــموت وموت كحـــياة .. وكم رؤى عكســـيه
فامض ياحبّ نحـــو كل بناء وابعث النـور تحت كل حنيّه
أنت .. أنت الربيع فى كل قـــلب ومثار الإلهـــام والشـاعريه
ها أنا أسكب التـــأمل لحنا تحـــت أقـدام ظـلعة قدســـيه
إن روحى تنســـاب بين شفاهى وهى ســـكرى بالوحدة الأبديه

مهرجان السينما فى القاهرة

انتصار للجديد

بقلم : مصطفى درويش

بدأ مهرجان القاهرة السينمائى السادس عشر بفيلم «اللاعب» ، رائعة المخرج الأمريكى «روبرت اكتمان» ، وانتهى بالفيلم المصرى «الغرقانة» لصاحبه «محمد خان» .

وفيما بين البداية والنهاية ، وقعت أحداث لن يمكث منها على شاشة الذاكرة إلا القليل .

ومن بين هذا القليل « اللاعب » فيلم الافتتاح و« اربطنى فوق .. اربطنى تحت» للمخرج الاسبانى « بدرو المودوفار » و« كلاب المستودع » أول فيلم للمخرج الامريكى «كوينتين تارانتينو » .

فضلا عن مشاركة السينما المصرية فى الأفلام المتسابقة على جوائز المهرجان بـ« ليه يا بنفسج » و« الحب فى الثلاجة » وكلاهما العمل الأول للمخرجين الواعدين « رضوان الكاشف » و« سعيد حامد » السودانى الجنسية والمقيم على أرض مصر حاليا .

● قانون الغابة

وأعود إلى لاعب « اكتمان » لأقول انه توّج ، قبل بضعة شهور ، فى مهرجان كان بجائزتى الإخراج والتمثيل للرجال « تيم روبنز .

وهو ، والحق يقال ، اعجوبة بين الافلام التى عرضت لهوليوود ، وما يدور فى كواليس استديوهاتها من مكائد ومؤامرات ، بدءا من « مولد نجمة » (فيلما سنتى ١٩٣٧ و ١٩٥٤) . مرورا « بشارع الغروب » (١٩٥٠) وانتهاء « ببارتون فينك » الفائز قبل سنتين بالسعفة الذهبية فى مهرجان كان .

وفوق هذا فـ « اللاعب » أكثر نضجا وفضحا لعاصمة السينما التى يجرى اسمها على كل لسان .

والأكيد ان صاحبه استطاع أن يجمع فيه بين الذكاء الحاد والسخرية اللاذعة والروح المرحة والدراما المشوقة ، كل ذلك من خلال عرض قوامه الإبهار الذى

يخطف الأبصار ويكفى هنا للتدليل على إعجاز «اللاعب» أن اشير إلى اللقطة الأولى التى يبدأ بها .

إنها تدوم حوالى تسع دقائق دون انقطاع وبفضلها تنتقل بنا عين الكاميرا بين مكاتب أصحاب الأمر والنهى فى الاستوديو ، حيث نتعرف على شخصيات الفيلم الرئيسية ، ونسترق السمع إلى نتف مما يدور بينها من حوارات .

وبدءا من هذه اللقطة التى أراها أقرب إلى الكمال الفنى ، تتصاعد أحداث الفيلم لاهثة حول « جريفين ميل » (تيم روبنز) ، وهو مدير تنفيذى فى حيرة من أمره ، يتلقى من كاتب سيناريو مجهول خطابات تهديد بالقتل .

وفى أثناء عمله بالاستوديو ، يواجه متاعب المنافسة المميتة من جيل صاعد أكثر وحشية وافتراسا .

وفيما بين بداية « اللاعب » المذهلة ، ونهايته الغريبة غير المتوقعة ، استغرق جريان الفيلم ١٢٣ دقيقة ، مرت كالحلم ، وكأنها ثوان .

وخلال هذه المدة القصيرة من عمر الزمان ، استطاع « اكتمان » ان يكشف خبايا صنع الأفلام ، وكم من الجرائم ترتكب باسم الفن السابع فى مصنع الاحلام .

● عودة الحرية

و«اربطنى فوق .. اربطنى تحت» أول فيلم لـ « المودوڤار » يعرض فى مصر .

ومعروف عن هذا المخرج الاسبانى أنه ينحدر من أصل اندلسى ، ويقيم حاليا فى العاصمة مدريد .

ولو ترجمنا اسمه إلى لغتنا العربية ، لكان « المدوّر »

وأغلب الظن ، أنه اشهر مخرجى اسبانيا ، فلا اسم غير اسمه يتردد خارج وطنه الآن .

وبدون حرية التعبير التى عادت إلى فنانى وطنه ، بعد زوال نظام الجنرال فرانكو البغيض ، لما اتيحت له فرصة ابداع افلامه على أرض اسبانيا .

ولربما اضطرته قوى الظلام إلى ترك ارض الآباء مهاجرا فى الشتات ، مثل المخرج الراحل « لويس بونويل » والفنان التشكيلى « بابلو بيكاسو » ، وغيرهما كثير

واعمال « المودوڤار » التى ادهشت العالم قليلة لاتزيد على سبعة أفلام ، آخرها « اربطنى فوق واربطنى تحت » و«كعوب عالية» .

والفيلمان الاخيران هما فقط اللذان وقع عليهما الاختيار للعرض فى ايام المهرجان .

ومما هو جدير بالذكر هنا ان كعوب عالية قد جاء به ، قبل اسابيع ، أحد



فيكتوريا ابريل ... مختطفة فى « تيبنى »

الموزعين الكبار لعرضه فى مصر عرضا عاما غير ان الرقابة على المصنفات الفنية، جنحت إلى منع عرضه ، حفاظا على النظام العام وحسن الآداب .

وعند اعادة عرض أمره عليها ، التماسا لاجازته ضمن أفلام المهرجان ، أبقته محجوزا عندها ، حتى لا يراه أحد من المصريين ، بما فى ذلك النقاد والصحفيون .

وحكاية الفيلم الوحيد الذى اجازت الرقابة عرضه ، بطلها شاب « ريكى » (انطونيو باندراس) نشأ يتيما .

والاحداث تبدأ به ، وهو يغادر مركزا للعلاج النفسى .

ونعرف من سياقها أنه ليس أمامه سوى مدة زمنية ، لا تزيد على يوم وليلة ، يحقق فيها ثلاث أمنيات .

العثور على امرأة ، تكوين أسرة والتسكين فى وظيفة تساعده على مواجهة أعباء الحياة .

وسرعان ما يجد ضالته المنشودة فى ممثلة مشهورة « مارينا » (فيكتوريا ابريل) ، دفعه هيامه بها إلى حبسها فى مكان مغلق ، أسوة بالقاتل الضائع فى « هاوى المجموعات » فيلم « ويليم ويلر » المخرج الشهير .



لوسى ويحيى الفخرانى فى «الحب فى الثلاجة»

● انتصار الحب

وفى حوار مع اسيرته ، يعرض نفسه عليها هكذا « سنى ٢٣ . معى ١٥ الف بيزيتا (اسم العملة الاسبانية) أحب أن أكون زوجا صالحا لك ، وأبا صالحا لأولادنا »

ولكن لاشئ فى البدء ، الا وكان يفرق بينهما

« فريكى » وحيد فى حين انها أى « مارينا » تعيش فى قلوب الجماهير .

وهو منبوذ ، بينما هى محبوبة ، مرغوبة من الجميع .

وشيئا فشيئا يتحاوران ، يتقاربان وفى الختام يتحابان .

اما حكاية آخر افلامه « كعوب عالية » الذى حالت الرقابة بينه وبين جمهور المهرجان ، على عكس الحال فى مهرجان قرطاج بتونس الخضراء ، حيث رأيته مع جمهور المشاهدين كاملا غير منقوص .

فهى حكاية اكثر تعقيدا ، اذ تدور حول ام «بيكى» (ماريسا باريدس) وابنتها «ربيكا» (ڤيكتوريا ابريل مرة أخرى) .

والام هذه كانت مغنية شهيرة فى اثناء عقد الستينات ، مفرطة فى حب الذات .

وبعد غياب عن مدريد ، وعن ابنتها الوحيدة دام خمس عشرة سنة ، هاهى ذى تعود .

وما أن تلتقى الاثنتان ، الأم والإبنة ، حتى يبدأ مسلسل المفاجآت

فبعد قليل تكتشف أن « ربيكا » متزوجة من مدير احدى محطات التلفزة اسمه « مانويل » وانها تعمل فى تلك المحطة مذيعة للاخبار .

كما نكتشف أن الام كانت على علاقة بهذا المدير ، قبل ان تغادر مدريد .

وأنه أى « مانويل » يريد وصل ما انقطع من حبه القديم ، غير أنه يموت فى فراشه مقتولا .

وقبل أن يقضى عليه ، نفاجأ بأن الابنة « ربيكا » زوجته ، تهيم بشاب وسيم، يعمل فى وضح النهار قاضيا ، وفى ظلام الليل يذهب متخفيا فى ثياب أنثى إلى احد الملاهى حيث يعمل مغنيا ، أو بمعنى أصح مغنية لا يشق لها غبار .

وتتتابع الاحداث مابين رقص وغناء وحب وسفك دماء ، حتى ختام ميلودرامى غير متوقع من ذلك النوع الذى لابدّ ان يستنفر عداء الرقباء .

خلاصة الخلاصة ان « المودوفار » دائم الابهار فى افلامه بحواديت مثيرة ، لا يستطيع حكايتها احد سواه ، وهو يحكيها بأسلوب متميز ، ليس له فى لغة السينما مثيل

● رجال وكلاب

والكلام عن سفك الدماء يسحبنا إلى « كلاب المستودع » للمخرج « تارانتينو » ، وهو فيلم يشع عنفا ، لا ينتهى إلا وكل ابطاله قد فارقوا الحياة مقتولين ، غارقين فى بحار من الدماء .

وعندى أنه يعبر بعنفه غير المعتاد عن حالة الخوف من الآخر المسيطرة على الرجل الابيض فى الولايات المتحدة ، والتى تكاد تنحدر به إلى هاوية البارانويا

ولعلى لست مغاليا اذا ما خلصت إلى اعتباره فيلما يعد علامة على طريق التعبير عن العنف السائد ، بمزيد من العنف المتصاعد سينمائيا على مرّ الايام

● البنفسج والثلاجة

ولم يكن اختيار فيلمى « ليه يا بنفسج» و«الحب فى الثلاجة» للمسابقة من باب المجاملة للجيل الجديد .

فهما وان اختلفا تماما فى كل شىء ، إلا انهما يتفقان فى الاتقان .

فكلاهما وصلت فيه حرفة السينما إلى ذروة عالية من المهارة .

فشهدنا فيهما أمثلة على براعة التصوير .

ولا غرابة فى هذا ، فمديرا التصوير فى الفيلمين ليسا الا « رمسيس مرزوق » و « محسن أحمد » .. وكفى !!

وأمثلة على براعات أخرى ، لعل اهمها نجاح « الكاشف » و « حامد » في التعبير عما يعتمل داخليهما بلغة سينمائية غير مباشرة ، ومع ذلك تقول بالصورة الكثير .

و «حامد» يطرح في ثلاجته قضية مواطن عادي «مهدي» (يحيى الفخراني) ، يعيش حياة رتيبة ، خاوية خالية من أي أمل في ان يتحقق الحلم في مستقبل قريب هو باختصار « معفّن » كما كانت تناديه جارته الزوجة الخائنة « لوسي »

وتحت تأثير دعاية التليفزيون لطريقة الحياة الامريكية وعجائب مخترعاتها الاقرب الى المعجزات ، ومن بينها ان يعيش الانسان مجمدا الوقت الذي يشاء ، واملا في الخروج من سجن حياته العفنة ، لا يرى « مهدى » طريقا الخلاص الا في تجميد نفسه داخل ثلاجة ، حتى مطلع فجر القرن الواحد والعشرين !!

● قبل السقوط

اما « الكاشف » ، فيعرض بحرارة لعالم الهامشيين في حارته حيث تدور وقائع « ليه يا بنفسج » ، وحيث لا تخرج الكاميرا من الحارة الا نادرا .

وهو في عرضه لهذا العالم ، اختار نماذج ضائعة من قاع المدينة البدينة ، لا يجمع بينها الا حلم الخروج من اسر الحارة الى دنيا الثراء والأضواء .

ومن بين هذه النماذج « أحمد » (فاروق الفيشاوى) ، وصديقاه «عباس» (نجاح الموجي) و « سيد » (اشرف عبد الباقى) والثلاثة يعيشون على باب الله ، كأن يشكلون بين الحين والحين فرقة تزف العرسان .

وحول فلكهم تدور نماذج اخرى اكثر ضياعا مثل الشيخ « عيد » (حسن حسنى) المطرب الهاوى الضرير ، العاشق لصوت العندليب الاسمر ، وبه يعيش في شوق وحنين .

و «فواز الجبل» سارق الحمير الولهان « بنادية » (لوسي مرة اخرى) التي تهيم هي وعذراء الحارة « سعاد » (بثينة رشوان) باحمد الضائع الوسيم .

و «مسعود» العربجي (سيد عبد الكريم) الذى يفقد صغاره تباعا ، ولا يعرف لذلك سببا .

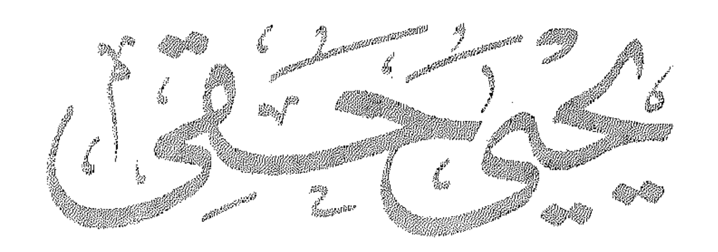
و « على بوبى » (شوقى شامخ) الناجح الوحيد من أبناء الحارة ، والذى يعود اليها في الختام جثة غارقة في الدماء .

وسر سحر عطر بنفسج « الكاشف » انما يرجع الى انه انشودة لحب الحارة بنماذجها التي تعيش على حافة الهاوية ، تقاوم السقوط ، ولا تستسلم ابدا

أنشودة البساطة

جزء خاص





يجد سعادته مع الحمير !

بقلم : د . على الراعى

قرأت كتاب «خليها على الله» فى أوائل الستينيات ، ووقعت على الفور فى غرامه ! أنا أعشق سائر كتب يحيى حقى ، غير أن عشقى يتحول إلى وَلَه حين يصادفنى كتاب يرضينى بكل ما فِىّ من رغبات ونزعات وتطلعات ، وأبرز هذه جميعا الطزاجة ، البساطة فى التناول ، الإلتفات إلى دقائق فى الموضوع لايلتفت إليها عادة إلا فنان حق وإنسان كبير القلب .

اعْتَبَر يحيى حقى كتاب «خليها على الله» مذكرات ، وقال فى وصفها إنه يسير فى كتابتها كما يسير فى حياته . يفرد الشراع ويقول لزورقه والهجر المَخُوف أمامه · «خليها على الله» .

الكتاب لوحات إنسانية نابضة بالحب والأسى والأمل والألم . ولكن فن يحيى حقى يحيل هذا كله إلى لوحات فنية تشكيلية ، فاتنة ، تكاد تغريك بأن تقتطعها من سائر الكتاب وتضع لها أرقاما وعناوين وتعلقها إن شئت على جدران منزلك ، فإنها فن تام الإحاطة بفن الحكى وفن التصوير معا .

من أبرع مايحويه الكتاب وأشده أثرا فى النفس الفصل الذى يحمل هذا العنوان.

« وجدت سعادتى مع الحمير ! » لايسخر الفنان هنا بشىء أو بأحد ، ولايريد أن يتظرف أو يتندر ، أو يبدو مجددا ، قادرا على الخروج على المألوف . بل هو يعنى ما يقول . أجل ، وجد يحيى حقى سعادته مع الحمير - وجدها حقاً وصدقاً .

● وصف فاتن !

الجزء الأكبر من هذا الفصل مخصص للحمير فعلا ، ولكن وصف الحمير ، وتصنيفها وملاحظتها وركوبها والتعذب بهذا الركوب يُسْلم لا محالة إلى البشر . فالبشر هم الذين يملكون الحمير ويستخدمونها ويرعونها ويعذبونها ، ومن ثم يصبح الفصل وصفا فاتنا لعلاقة الانسان بالحمار ، ويتحول إلى سجل مؤثر لعواطف إنسان كبير وفنان فائق الحس إزاء هذا الحيوان المغلوب على أمره ، المتهم بالغباء، المكلف بأن يحمل البشر والمتاع والسباخ ، لاينال من هذا كله سوى الايذاء - الوحشى أحيانا - والنذر اليسير من الطعام والراحة .

يقول يحيى حقى فى وصف الحمار . «لم أر كالحمار حيوانا تحس أنه أدرك أنه أُسقط فى يده ، إنه لم يقبل قدره عن عمى وغفلة أو تدليس عليه ، بل عن بصيرة وفهم، بعد أن وازن بين حيلته وقدرة ظالمه . وقاده ذكاؤه العملى إلى الاقتناع بأن كل أمل قد مات ، وأن لافائدة ترجى من الثورة أو اللجاجة أو العناد ، فوضع ارادته وغرامه وبهجته ومرحه وحبه للعب والمعابثة فى حرز مكتوم فى قلبه ، وأحنى رأسه وأذنيه وسبَّل ظهره واستسلم بلا قيد ولاشرط . » ثم يمضى الفنان الفائق الحس فيسجل بعضاً من أحوال الحيوانات الأخرى ويقارنها بأحوال الحمار. يقول . «للبقرة عين عارقة فى أحلام لذيذة ، وللجمل عين ترقب الدنيا من علٍ بتوجس وغضب مكتوم، كأنما يخشى أن تلحق بكبريائه إهانة على يد حقراء . وللحصان عين تنم عن الخُيَلاء والنبل والذكاء . تعكس الضوء بالليل فتتقد كالياقوتة الحرة . وللتيس عين فيها العناد كله واضمار الخبث والمؤامرات. وللجاموسة عين منطفئة لا تنبعث منها حياة أو إرادة إلا وهى ترضع طفلها فينعقد سباتها على الحنان . لم أر جاموسة تنطق بمعنى إلا مرة واحدة لا أزال أذكرها . كانت تسير تبرطش فى الطريق وتخلَّف عنها وليدها ، فوقفت وأدارت رأسها إلى الخلف ونادته إليها بخوار غليظ .

«أما الحمار فإن عينه ذليلة حزينة ، تكاد تترقرق فيها الدموع بل يُخَيَّل إلىَّ فى بعض الأحيان أنها «معمصة» كعيون الأطفال بعد بكاء . أهذا هو سر نهيقه ؟ ليس فى صوت حيوان آخر مثل هذه الحُرْقة والتفجع والمرارة إنها صرخة عذاب واستغاثة وإشهاد للناس فى نوبة متفجرة من بكاء بلا دموع تمزق الهواء ثم تذوب . »

هل صادفك من قبل مثل هذا النظر الثاقب فى أحوال الحيوان ؟ هل خطر لك أن

تفرق بين عين البقرة وعين الجمل وعين الحصان وعين التيس وعين الجاموسة ؟

إن كنت فعلت ، أكنت تشعر بهذا الحنو الدافيء الثاقب الذى يتقبل أحوال كل حيوان على حده ويردها إلى طبعه ؟ أكنت تعطف على تمسك الجمل بكبريائه وعناد التيس واضماره للخبث والمؤامرات ؟ أكان يستوقفك نداء الجاموسة لوليدها ؟ أكان يعتصر قلبك مشهد يرويه يحيى حقى في غير هذا السياق مشهد جاموسة فى النزع الأخير . ترقد على الأرض أمام صاحبها ، بين عينيها ويد الرجل سكين كبير . كلاهما ينظر إليه الجاموسة كأنما ترجوه أن يحزم أمره وينقذها من عذابها . استسلمت . ادركت أنها تموت ورضيت بالذبح من يد صاحبها ، وصاحبها لايريد أن يذبحها . لم يفقد الأمل فى أن تعيش . لايقدم على الذبح إلا قبل ثوان قليلة من طلوع الروح .

۞ أحوال الحمار

ثم تمضى عين يحيى حقى الثاقبة المحيطة ، فتسجل المزيد من أحوال الحمار . وهو وحده الذى يعلن عن شبقه بلا حياء ، ويلاحق الأنثى علنا بإرادته ، لا ينتظر حتى يساق ذلولا إلى موعد غرام مرتب له من قبل . وهو وحده الذى إذا مر به جمل مُحَمّل بالبرسيم لاتثنيه قوة عن أن يطعنه بخطمه ، وقد كشرٌ عن أسنانه الغلاظ ونهش منه نهشة يتمثل فيها الغيظ والفوز بعد لأى باستخلاص حق مهضوم من يد غاشم سافل شحيح .

ويلتقط يحيى حقى للحمار صورة بالغة الرقة فيتحدث عن خرابة لها سور خشبى غير مرتفع يطلق فيها أحد جيرانه حماره عند الغروب . لاحظ الفنان العطوف حمارا ثانيا يأتى كل ليلة من بيت فى الطرف الآخر ، يسير الهوينى كأنه يتنزه ، ثم يقف جنب زميله وبعد معابثة خفيفة بالأسنان ، يمد الاثنان رأسيهما خارج الحاجز كما يفعل المُطّل من النوافذ ويلبثان هكذا برهة ينظران للطريق والمارة ، ثم يمضى كل منهما إلى حاصله .

☆☆☆

وإذا هو يتحدث عن الحمير وأحوالها ، يذكر أحوال البشر . يصنف أصحاب الحمير حيواناتهم درجات . حمار السبخ أدناها منزلةً . يجند للسبخ حمير أشلها الضعف أو الكبر أو السقم . لاينطق فيها حمار بمعنى واحد يدل على أنه هى . لايجد الفا أو شفاء من الوحدة إلا من الصبى الذى يصاحبه ويضع ذراعه على كَفَله . هذه هى صلته الوحيدة بعالم الشعور.

ويلى حمار السبخ حمير الأجرة بالمحطة تعتصر قواه إلى آخر قطرة . يقاس طعامه بالدرهم بمقدار ما يبذله من جهد . تكتنف أجساده جراح لاشفاء منها . يعرف

معلمه ويرهبه ويكرهه ويذل بين يديه ويفهم كلامه . يتملص من قبضة صبى الحمار إذا ما انفرد به ، وكثيرا ما ينتصر عليه . يعرف معالم الطريق حق المعرفة ، ويحس منذ البداية إن كان المشوار طويلاً أو قصيراً .

ثم يأتى حمار الفلاح – ركوبته الخاصة – يكون أحيانا ضخم الجثة ولكنه طيب وديع فيه كثير من عبط السذج لأنه يعيش – وإن فى شظف – بين أحضان أسرة كواحد منها إن فارقها برهة انتابته الحيرة. وهو بعد هذا لايحتاج إلى زجر لأنه يبذل – طواعيةً – ماهو مطلوب منه من جهد .

وعلى رأس قائمة الحمير ، الحمار الذى يملكه الأعيان وأصحاب الأطيان من أجل التفاخر واشباع الزهو والاعلان عن مكانة صاحبه . وهو حمار فاره قوى ، منتصب الرقبة ، مرفوع الرأس ، راقص الخطوة ، أكحل العينين ، له بردعة من جلد ثمين أو من قطيفة لها زينة كثيرة ، ولجام وركايب ، لايبذله صاحبه إلا لكبار الحكام . ورغم جمال هذا الحمار وزينته لا يلتفت إليه يحيى حقى كثيرا ، فهو حمار سعيد والسعادة قضية واضحة ليس لها ظاهر وباطن إن نكشت فيها لم تخرج بسر أو عجيبة . إنها لاتباع إلا بثمن واحد هو . التفاهة !

(-) مدرسة الحمير

ويمضى يحيى حقى فى حديثه هذا الطريف ، الطازج النظرة ، الفائض الحب فيحدثنا عن مدرسة الحمير التى كان يديرها الشيخ شعبان . وكان بها قسمان «لتلاميذ» الخارجية وتلاميذ الدراسة الداخلية . والشيخ رجل متئد الحركة وقور، خفيض الصوت ، لكلامه غنة لذيذة ، متعطر متكحل متأنق ، يلبس العمامة والجبة والقفطان . يزين خنصره الأيمن بخاتم من فضة له فص كبير من العقيق فى لون الدم، موصوف له فى طالعه فى يده سوط لايستعمله إلا نادرا . والغريب فى أمر هذا الشيخ أنه ذلل مشية الصفوة من خيول المركز وحميره وعلمها الادب وأبرأها من العناد ، ثم عجز عن أن يروض زوجته ! قابله يحيى حقى بعد سنوات فسأله أين هو ذاهب . قال الشيخ . إنى رافع قضية إسقاط نفقة ضد زوجتى ، فقد نَفَّذت عليها حكم الطاعة ثلاث مرات ، وفى كل مرة تهرب ناشزة إلى بيت أهلها !

***

نمضى فى قراءة هذا الفصل الممتع من كتاب : «خليها على الله» فسرعان ما نتبين أن يحيى حقى قد خدعنا بحديثه العذب عن حقيقة ما فعل فى هذا الفصل . ليس هذا حديثا عن الحمير ، بل هو صورة بانورامية لقاهرة أول القرن حتى منتصف العشرينات . هو يحدثنا عن حمير القاهرة التى كانت لها مواقف محددة مكتوب عليها

موقف لثلاثة حمير . أو موقف لحمارين .. وهو يصور لنا حمير القاهرة الارستقراطية حين كان الفنان يذهب إلى مسجد السيدة نفيسة أو السيدة سكينة ليلة الحضرة ، فيتوافد على المكان رجال من أولاد البلد يَخبُوِّن فى الشاهانى وشيلان الكشمير ، على حمير فارهة قوية تمشى مشية الرهوان ، تزيد عن حمير الريف الارستقراطية بأن شعرها مقصوص فى رسوم زخرفية ، وعلاوة على البردعة الفخمة ، يتحلى الحمار برشمة فضية براقة تهتز فوق صدره ، لبعضها أحجبة تقيه شر العين . ثم يتخذ كل من أولاد البلد مكانه فى المقهى وحماره أمامه . ويدخن الجوزة وينفخ الدخان من فمه وطاقتا أنفه إلى خشم الحمار ، فيجد الكاتب أن الحمار ينشق الدخان بلذة كبرى كالعتاة من أصحاب الكيف . ويضيف أنه كان وهو صبى يحسد الحمار على هذه المتعة المحرمة عليه ، فحين كَبُر ، أصبح من غلاة المدخنين . ثم يعلق .. عشنا ورأينا أولاد البلد يركبون الموتوسيكل والحُرْمة فى السيد كار

★★★

لاسبيل لاستقطار كل ما فى هذا الفصل الفريد من جمال وحس رفيع ، وقدرة ذكية فائقة على التصوير . نمر سريعا على ما جاء تحت عنوان «لصوص الحمير» الذى يسجل مفارقة لذيذة هى أن الحمار قد أصبح شاهد الاثبات الوحيد فى جريمة سرقته هو - أى الحمار ! مفارقة ساخرة هذه تفضح قصور القانون وعجزه عن ملاحقة المجرمين فى بعض الاحـيان ثم نصـل إلى الجزء المعنون . « السرك وحماره» . يحيى حقى يبدؤه جادا غير هازل بالقول . «لم يبق فى جعبتى من أصدقائى الحمير ، إلا حمار واحد ، هو أشدها ذكاء وأخفه دما وأكثرها إلفا بالانسان . حمار السيرك . يصف الكاتب النمر التى كانت تقدم فى سيركات الارياف : مغن يقلد الشيخ سلامة حجازى، وتمثيلية ساذجة عن بغداد هارون الرشيد ويحيى البرمكى ثم نمرة مصارعة بين حمار وأحد اللاعبين ، كل منهما يحاول أن يوقع صاحبه على الأرض . وتنتهى اللعبة بانتصار الحمار !

★★★

إذا أضفت بقية ما جاء فى كتاب « خليها على الله » من مادة ، ادركت عظم ذلك الذى أنجزه الفنان العظيم من استحضار روح الماضى الجميل واستقطار ما كان يملأ ذلك الماضى من جمال وقبح ، يقف يحيى حقى عند الأول محبيا ومعجبا ، ويدين بشدة ما كان فيه من سوء الفعال ، وعلى رأسها تعذيب البشر وتعذيب الحيوان ، بالقول والفعل والاشارة والعصا وباقى أدوات التعذيب .

هـذا حقا وصدقا - كتاب فريد ، فريد ! ومكانه الحق بين أمهات الكتب التى عنيت بتتبع الحياة جميعا فى كافة أشكالها تتبع المحب ، المأخوذ المؤمن بعظمة الكون .

أنشودة البساطة

جزء خاص

خليها على الله

سيرة موضوعية .. أكثر منها ذاتية

بقلم : فؤاد دواره

بصدور كتاب «ذكريات مطوية ليحيى حقى » تكتمل حلقات سيرته الذاتية فى ثلاثة كتب ، بالإضافة إلى هذا الكتاب الأخير الذى أملاه فى أخريات أيامه على وحيدته «نهى» والكاتب الصحافى النشط إبراهيم عبد العزيز ، وتناول فيه ذكريات نحو ثلاثين عاما قضاها فى العمل فى السلك الدبلوماسى ، ابتداء بجدة ، فاسطانبول ، وروما ، وباريس ، ثم أنقرة ، وطرابلس ليبيا .. قبل أن ينقل سنة ١٩٥٤ إلى وزارة التجارة والصناعة ، مديرا لمصلحة التجارة الخارجية ، بسبب زواجه من أجنبية .

وفى سنة ١٩٥٥ دعاه المناضل الكبير فتحى رضوان لمعاونته فى وزارة الارشاد القومى ، مديرا لمصلحة الفنون ، فكان أول وآخر مدير لتلك المصلحة ، وهو ما يحدثنا عنه بشىء من التفصيل فى كتابه «ياليل ياعين» الكتاب الرابع عشر من مؤلفات يحيى حقى التى أصدرته الهيئة المصرية العامة للكتاب .

فى الكتاب الأول من تلك الطبعة ، وهو «قنديل أم هاشم» أضيفت سيرة ذاتية ليحيى حقى بعنوان «أشجان عضو منتسب» ، وهى سيرة مركزة فيما يقرب من خمسين صفحة ، أعدت بناء على طلب د. محمود الشنيطى رئيس هيئة الكتاب فى أوائل السبعينات ، وهو صاحب الفضل الأول فى التعاقد على إعادة طبع «مؤلفات يحيى حقى» .

ولما كان يحيى حقى قد توقف عن الكتابة عام ١٩٧٢ ، فقد عاونته فى إعداد تلك السيرة الذاتية ، من أحاديثه الصحفية وبعض كتاباته الأخرى ، فراجعها ، وأضاف إليها مقدمة ومؤخرة ، ولم يفته أن يبوح بسر صنعتها فقال فى مقدماتها :

«..التجأت إلى مقص قطع لى فقرات من أحاديث عديدة ظهرت لى فى الصحف والمجلات (يملأون فراغها على قفانا بالمجان !) وألصقت بعضها إلى بعض ، مضيفا هنا ، منقحا هناك ..» .

وبالرغم من ذلك ، فقد شملت تلك السيرة – على صغر حجمها – حياته كلها بمختلف مراحلها ، مع ذكر كل المناصب الحكومية التى شغلها ، والتعريف بأهم مؤلفاته، وأهم إضافاته فى كل منها ، وتسجيل الكثير من آرائه فى الفن والحياة . (أعاد «كتاب الهلال» طبعها مع كتابه «كناسة الدكان» .) .

وصدرت الطبعة الأولى من كتاب «خليها على الله» سنة ١٩٥٩ فى سلسلة «كتب للجميع» ، بعد نشره فصولا فى جريدة «الجمهورية» ، وأعادت «هيئة الكتاب» طبعه سنة ١٩٦٨ ، بعد إضافة فصل بعنوان «تسكع على الصبح» ، ثم صدر أخيرا ضمن «مؤلفات يحيى حقى» (الكتاب السادس عشر) .

يضم «خليها على الله» ذكريات المؤلف وتجاربه خلال السنوات الأربع التى أعقبت تخرجه فى مدرسة الحقوق العليا سنة ١٩٢٥ ، وهو ما سنفصل الحديث عنه بعد قليل .. وقد أعاد «كتاب الهلال» طبعه مع مقدمة جيدة للأديب الراحل محمد روميش .

● الزهرة والإعصار

وينقسم كتاب «كناسة الدكان» إلى ثلاثة أقسام ، القسم الأول يعرض مجموعة من المنمنمات الأخاذة عن ذكرياته «فى عالم الطفولة» بأسراره وأحاجيه ، ويكشف لنا عن تفتح وعيه البكر على عوالم الطبيعة ومظاهرها المتمثلة فى الإنسان والحيوان والنبات والجماد ، وكثير من العادات والتقاليد التى كانت سائدة فى حياتنا الشعبية فى مستهل هذا القرن ، كما يطلعنا على مواجهاته الأولى للمعانى الكبرى فى الحياة ، وهى الموت والحب والجنس والصداقة ..

وفى القسم الثانى من كتاب «كناسة الدكان» يصحبنا يحى حقى إلى الحجاز خلال العامين اللذين قضاهما هناك ، وهما ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ ، أمينا للمحفوظات فى قنصليتنا بجدة ، ويرسم صورا حية حافلة بالحقائق والطرائف لتلك المرحلة المبكرة من حياته الدبلوماسية ، نتعرف عن طريقها على كثير من حقائق السياسة والاقتصاد وطبيعة العلاقات الإنسانية التى كانت سائدة وقتذاك فى المملكة العربية السعودية .

أما القسم الثالث من الكتاب . «فى دروب الحياة» – فيعرض لبعض المواقف والذكريات التى مر بها فى مراحل مختلفة من حياته ، كوصفه للقائه الأول بالحضارة الغربية فى الفصل المعنون «مذكرات فنان غشيم فى الكار» وكحديثه فى «اعترافات ..

ومضايقات» عن محاولاته الفاشلة فى البحث عن صدى كتاباته لدى قرائه .. وكتلك اللوحة الرائعة التى أبدعها فى «الزهرة والإصيص» لأجمل فتيات الحى التى أحبها كل فتيانه ، ولكنهم أحجموا عن الزواج بها .. كيف وقروها وجعلوها زينة ألعابهم ، وظلوا على وفائهم لها حتى بعد زواجها .. وهو فى تلك اللوحة يصفها فى زيارته الأخيرة لها بعد أن تقدمت بها السن وهدها المرض .. ولكن عبق الذكريات القديمة حمل الكاتب بعيدا حتى خيل إليه وهو خارج من دارها أنه سيسمع صوت بوق بائع الجيلاتى التركى القزم الذى كانوا يشترون منه أقماعه وهم أطفال صغار يلعبون فى الحارة !

لذلك يعتبر «كناسة الدكان» مكملا لسيرة يحيى حقى الذاتية .

ويبقى بعد ذلك أن المدقق فى بقية كتبه سيعثر على أطراف أخرى من سيرته الذاتية ، كذكرياته الدينية ، وتنبهه إلى معنى الله الخالق والقادر ، وللكثير من عاداتنا وتقاليدنا الدينية فى كتابه «من فيض الكريم» (الكتاب الثامن عشر من مؤلفاته) ، وكقوله عن والدته فى أحد فصول «من باب العشم» (الكتاب الرابع والعشرون) «..هذا الأصبع من اللبن الذى كنت أشتريه فى طفولتى بمليم . نصف «النكلة» مصروف يدى أقبضه كل صباح من يد طاهرة فالثمها .» ، وما أكثر الإشارات المشابهة لذكرياته وأهله وأحداث حياته فى مقالاته التى تضمها الآن تسعة كتب كاملة .

بل إنى أذهب إلى أن إبداعاته الفنية فى القصة والرواية (سبعة كتب) تحوى الكثير من أطراف سيرته الذاتية بصورة غير مباشرة . دليلى على ذلك قوله فى سيرته الذاتية :

« . رغم أننا غادرنا حى السيدة وأنا لا أزال طفلا صغيرا ، فهيهات أن أنسى تأثيره على حياتى وتكوينى النفسى والفنى ، فمازلت إلى اليوم أعيش مع الست «ما شاء الله» بائعة الطعمية ، والأسطى حسن حلاق الحى ، وبائع الدقة .. ومع جموع الشحاذين والدراويش الملتفين حول مقام «الست» وهى نفس الشخصيات التى وصفها بشىء من التفصيل فى رائعته «قنديل أم هاشم» .

● حارة السكر والليمون

يبدأ يحيى حقى «خليها على الله» بيوم حاسم فى حياته .. فى شهر يوليو سنة ١٩٢٥ ، يوم انتهى من امتحان آخر مادة فى ليسانس الحقوق . ها هوذا يصل إلى بيتهم ، ولكنه يعجز من الحر والإرهاق عن صعود السلم ، ولا يذكر كيف حمل إلى مسكنهم . كل ما يذكره أنه ارتمى على «الكنبة» ساندا رأسه على ركبة أمه .. ويقول :

«..كان ينبغى أن أنجح لدافع واحد فحسب · هو ألا أغضب أمى ، أو أن أجرعها خيبة الأمل .. هى عماد الأسرة . ربتنا بيديها ، تخيط ثيابنا - ونحن ستة .. تطبخ وتطعمنا متكلفة فى ذلك أشد العناء ، متحايلة للوصول بنا مستورين لآخر الشهر ..» .

صفحتان من أرق وأصدق ما خطه قلم ، فى تحية تلك الأم الصابرة المجاهدة ، وكأنه يهدى الكتاب إليها ، كما أهداها قبل ذلك كل نجاح حققه .. ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن نظم الدراسة فى مدرسة الحقوق على أيامه ، وينقدها نقدا مفصلا لعله مازال صادقا على نظمها المطبقة حتى اليوم ، بل على كثير من نظم جامعاتنا بشكل عام بالرغم من بعد المسافة وتغير الأحوال .

فإذا كان قد خلص من نقد تلك النظم بقوله .

«تعليم كسلق البيض ، وتدافع كالقطيع إلى المجزر ، وحشو للدماغ ، حتى تكاد تنفجر ، بالتفاصيل والقشور . إن أردت أن تظفر بالجوهر فعلت ما تفعله فقيرات شعبنا الباحثات فى صفائح القمامة ، أو فى أكوام الرماد بمخازن السكك الحديدية عن شظايا فحم لم تحترق » .

إذا كان هذا وصفه للتعليم فى مدرسة الحقوق سنة ١٩٢٥ وما قبلها ، فماذا يمكن أن يقول عن جامعات الأعداد الغفيرة التى انفردنا بها مؤخرا ؟!

من أهم مآخذه على مدرسة الحقوق القديمة أنها لم تحاول تدريب طلابها على الخطابة والمرافعة مما يحتاجه عملهم فى المحاماة وفى النيابة . ولما كان للمؤلف شغف قديم بالخطابة والخطباء ، فإنه يروى لنا بعض ذكرياته حول هذا الشغف ، وكيف اندس وهو تلميذ صغير وسط زحام المتظاهرين حتى بلغ بيت الأمة ليسمع سعد زغلول ، ثم ينتقل إلى الحديث عن أشهر خطباء العصر .. محمد توفيق دياب .. إبراهيم الهلباوى .. جلاد دنشواى .. وبعد عدد غير قليل من الاستطرادات والنوادر يعود إلى الحديث عن نظم الدراسة فى مدرسة الحقوق .. فيروى كيف صحبهم أستاذ القانون الجنائى ليشهدوا إحدى القضايا فى المحكمة .. ويتوقف ليروى تفصيلات الجريمة كما تعرف عليها من المحاكمة ، ويستطرد ليندد بفقدان صحفنا للإحساس والذوق بنشرها لصور جثث القتلى مكبرة .. ثم ليروى بعض النوادر حول تسميات الشوارع والحارات ، فقد وقعت الجريمة فى «حارة السكر والليمون» . على هذا النحو ينقضى الباب الأول من الكتاب ، ويشغل ما يقرب من خمسه ، وعنوانه «مدرسة الحقوق ومضاعفاتها» .

وبنفس هذا الأسلوب تمضى بقية الكتاب ، فلا يكاد يبدأ موضوعا حتى يستطرد منه إلى موضوع آخر ، فثالث . قبل أن يعود لاستكمال موضوعه الأول .. وفى ثنايا كل موضوع يتوقف عدة مرات ليروى نكتة أو نادرة ، أو لينقد وضعا اجتماعيا أو إداريا ويقترح علاجا له .

أما الإطار العام الذى يجمع بين كل هذه الموضوعات فهو أربع سنوات من حياته، وهى التالية لتخرجه فى مدرسة الحقوق .. اشتغل فى السنتين الأوليين منها محاميا تحت التمرين بالإسكندرية ، ثم بدمنهور .. ومن هذه المدينة الأخيرة طوف بالعديد من مدن البحيرة الصغيرة ، كرشيد ، وأبى حمص ، والدلنجات .. ولكنه لم يعش فى أى منها فترة تكفى للتعرف عليها أو معاشرة أهلها ، بل ظلت مخالطته للريف المصرى خلال هاتين السنتين تعتمد على ملفات القضايا ومحاضر الشرطة وساحات المحاكم أكثر من المعايشة الواقعية الحميمة . وهو ما نلمسه فى الباب الثانى من الكتاب «خبط عشواء» - يشغل خمسه الثانى .

قضى يحيى حقى السنتين الأخريين فى «منفلوط» حيث عين معاونا للإدارة ، فأتيح له أن يدرس الصعيد دراسة عميقة متأنية .. نلمس آثارها واضحة فى الباب الرابع والأخير من الكتاب ، ويشغل أكثر من نصف صفحاته ، وعنوانه «الصعيد» .. فى حين خص «الحمير» بالباب الثالث من الكتاب . فحدثنا بخبرة نادرة عن أنواعها وعاداتها ونوادرها فى أكثر من ثلاثين صفحة جعل عنوانه «وجدت سعادتى مع الحمير» !

كانت الأعباء والمسئوليات الملقاة على كاهل «معاون الإدارة» وقتذاك من الكثرة والتنوع بصورة جعلته يقول :

«إننى إذا لم أتعلم من هذا العمل كل شيء عن بلادى وأهلها فإنى إذن حمار .. مع الاعتذار لأصدقائى الحمير ! »

يذكرنا أسلوب يحيى حقى فى هذا الكتاب بأسلوب «ألف ليلة وليلة» حيث يستطرد القاص الشعبى من حكاية لأخرى فثالثة وهكذا .. قبل أن يعود لاستكمال حكايته الأولى ، مع حرصه على إيراد النوادر والمواعظ والأقوال المأثورة فى كل مناسبة . وهو ما يجعل من الصعب تصنيف «خليها على الله» داخل إطار فنى أدبى واحد ..

فهو ليس سيرة ذاتية بالمعنى الدقيق ، لأن السيرة الذاتية تصوير مترابط لحياة مؤلفها، اهتمامه الأول فيها موجه إلى تحليل ذاته ، ورسم صورة واضحة لمراحل حياته والعوامل المختلفة التى تداخلت فى تكوين شخصيته .

● آلام الفلاح

وكذلك فالكتاب ليس «مذكرات» كما وصفه المؤلف فى مقدمته ، لأن شرط المذكرات أن تكتب وقت وقوع الأحداث التى تصورها ، أو فى وقت قريب من وقوعها ، وأن تكتب بأسلوب قريب من أسلوب اليوميات ، فتقدم انطباعات الكاتب الشخصية بعفوية ، وفى غير تعمق فى الأغلب ، ومن النادر أن تتميز بأسلوب جميل موح كأسلوب «خليها على الله»

لعل أقرب وصف للكتاب أنه «ذكريات» ، فهى التى تهتم عادة بإبراز شخصيات وأحداث غير شخصية المؤلف وأحداث حياته ، وهو ما فعله يحيى حقى ، فذكرنا بما فعله استيفان زفايج فى سيرته الذاتية التى أسماها «عالم الأمس» ، وحرص فيها على تسجيل أحداث التاريخ والتطورات الاجتماعية التى عاصرها أكثر مما صور أحداث حياته الشخصية ، وقال فى مقدمته .

«إنى لن أجعل من نفسى الشخصية الرئيسية فى هذا الكتاب اللهم إلا إذا كان ذلك فى دور الراوى أثناء محاضرة مصحوبة بعرض الصور . الزمن هو الذى يعرض الصور وأنا أنطق الكلمات المصاحبة لها لا أكثر ..»

بل من المؤكد أن «زفايج» كان أكثر إفاضة فى الحديث عن ذات نفسه ومشاعره الخاصة من يحيى حقى الذى كان شحيحا فى مثل هذه الأحاديث الخاصة ، فلم يكد يفعل ذلك إلا حينما وصف بإيجاز شديد خيبة أمله فى السفر فى بعثة للخارج لاتمام دراسته ، وحينما اعترف باضطراره فى ظروف قليلة إلى استخدام السباب والضرب أحيانا مع بعض المتهمين ، ليختم اعترافه بقوله

«إننى أعترف بجرائمى لأنها سقطت بمضى المدة» .

غير أن «خليها على الله» إذا كان لم يشبع فضولنا فيما يتعلق بحياة مؤلفه الشخصية فقد قام بدور أهم من ذلك بكثير ، وهو تصوير متاعب الفلاح المصرى وآلامه ومشكلاته .. فاقترب بذلك من النفاذ إلى روح مصر وتفهم أبعاد شخصيتها .. ولذلك اعتبرته سيرة موضوعية أكثر منها ذاتية .

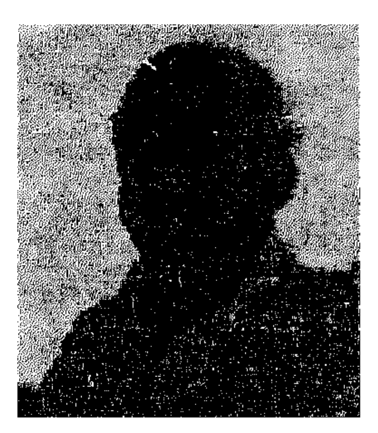
أنشودة البساطة

جزء خاص

الأصالة والمعاصرة

بين يحيى حقى، والطيب صالح

بقلم : د. جلال أمين



يحيى حقى



الطيب صالح

لا يعادل نجاح وشهرة قصة « قنديل أم هاشم » لفقيدنا العظيم يحيي حقي ، إلا نجاح وشهرة رواية « موسم الهجرة الي الشمال » للكاتب السوداني العظيم الطيب صالح ، مدّ الله في عمره . والقصتان علي ما بينهما من أوجه اختلاف كثيرة ومهمة ، تعالجان نفس القضية التي لم نجد لها حلاً حتي الآن ، لا في الفكر ولا في الواقع ، وهي قضية « الأصالة والمعاصرة » : ما الموقف الأسلم من الحضارة الغربية ؟

هل نأخذها بخيرها وشرها كما اقترح علينا طه حسين فى كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » ، ولو أدى ذلك الى التضحية بالكثير من تراثنا وبشخصيتنا ، أم نتمسك بهذا التراث برمته وهذه الشخصية ، ونصد الباب فى وجه الحضارة الغربية كلها ، ولو حرمنا ذلك من ثمار العلم والتقدم ، كما تدعونا بعض الحركات الأصولية والسلفية ؟ أم أن هناك حلاً أسلم من هذا وذاك ، ولا يصل فى تطرفه الى القبول الكامل أو الرفض الكامل ؟ ولكن هل هذا الحل الأخير ممكن أصلا ؟ أم أنه مجرد كلام نظرى لا يمكن تطبيقه ، وأنك متى تأملت الواقع وجدت أنه ليس أمامك من حل إلا الحلاّن المتطرفان ، علينا أن نقبل أحدهما راضين أو رغماً عنا ؟ أم أنه حتى هذا الاختيار غير متاح أصلا ، وأن مصيرنا هو قبول الحضارة الغربية ، آجلا أو عاجلا ، برضانا أو بدونه ؟

المشكلة تؤرق مفكرينا وأدبائنا منذ رفاعة رافع الطهطاوى ، واشترك فى محاولة الحل أكبر كتابنا ومصلحينا : من جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، الى لطفى السيد وطه حسين ورشيد رضا ، الى العقاد وتوفيق الحكيم وأحمد أمين ، الى يحيى حقى والطيب صالح ... الخ .

وقد أعدت قراءة قصة يحيى حقى « قنديل أم هاشم » بعد وفاته ، فأخذت بجمالها وقوتها ، ووجدت أن تقديرى لها لم يضعف مع الأيام بل زاد قوة ، وأنها مع رواية الطيب صالح ، « موسم الهجرة الى الشمال » ، يمثلان دُرّتين ثمينتين من درر الأدب العربى الحديث ، وإن كان لكل منهما مصدر جمالها الخاص ، ومذاقها المتميّز . وأستأذن القارئ فى تذكيره بكلا القصتين بايجاز شديد ، رغبة فى المقارنة بين موقفهما من هذه القضية العتيدة : قضية الأصالة والمعاصرة .

■ ■ ■

الراوى فى قصة « قنديل أم هاشم » يقصّ علينا قصة عمّه إسماعيل ، وهو الأبن الأثير لدى والديه ، وأحد أخوته ذكاء وأكثرهم نجاحا وتفوقا فى دراسته . وضعت الأسرة فيه أملها فى التفوق حتى يتخرج طبيبا ، وهو لا يخيب ظنهم حتى يصل الى امتحان البكالوريا فينجح ولكنه لا يحصل من الدرجات على ما يؤهله لدخول كلية الطب . فيشير البعض على الأب بأن يرسله للدراسة فى أوربا ، يتردد الأب ويصاب بالحيرة ، اشفاقا من آلام الفراق ، وما لابد أن تتحمله الأسرة من عناء وتضحية اذا اقتطعوا من دخلهم المتواضع ما يرسلونه الى الولد فى أوربا ، وما سيعنيه السفر من تأجيل زواج اسماعيل من ابنة عمه « فاطمة النبوية » ، الفتاة الطيبة واليتيمة أبًا وأمًا ، والخالية فى الحقيقة من أى جمال ، والتى تعانى من مرض



فى عينيها . ولكن الأب يتوكّل على الله ويقرر أن يرسل ابنه للدراسة فى انجلترا ، أيا كانت التضحية المطلوبة ، وتجلس الأسرة فى ليلة السفر ، ليقرأوا فاتحة اسماعيل وفاطمة « هى بنت عمك وليس لها غيرك » ، ولا يسع إسماعيل إلا القبول « فوضع يده فى يد أبيه ، وقرأ الفاتحة ، بينهما أم تبكى وفتاة حيرى بين الأسى والفرح » .

ويحدث لأسماعيل فى انجلترا ما يمكن أن نتوقعه : نجاح باهر فى الدراسة من ناحية ، وافتتان شديد بالحضارة الغربية من ناحية أخرى ، وعلاقة قوية بفتاة انجليزية شديدة الذكاء ، مملوءة بالحيوية ، (وكأنها هى الحضارة الغربية نفسها) تخرجه من خجله وتردده وتعلّمه ما لم يتعلمه فى مصر من حب الحياة وتقدير لجمال الطبيعة ، وعدم الاستسلام للتفكير فيما قد يأتى به المستقبل ، والتركيز على ما يمنحه الحاضر من متع وفرص . فتتفتح عين اسماعيل بعد أن كانت مغلقة ، ويخلق خلقا جديدا ، ويتحول الى رجل سوى الشخصية ، مفعم بالآمال ، مستبشر بالمستقبل ، وعزمه منعقد على الاصلاح .

ويعود اسماعيل الى مصر ظافرا وسعيدا بعودته ، وقد أصبح طبيبا قديرا فى أمراض العيون ، واذا به يصدم صدمة قاسية إذ يجد أمه تعالج فاطمة النبوية بأن تضع فى عينى الفتاة زيتا جاءوا به من قنديل أم هاشم ، المعلق فوق مقام السيدة زينب ، اعتقادا منهما بما فيه من بركة وأنه يشفى أمراض العيون . ويثور اسماعيل ثورة عنيفة ويذهب محاولا تحطيم قنديل أم هاشم ، فيهجم عليه الناس الذين أتوا للتبرك بالمقام الغالى ، ويخلصون القنديل المبارك من ثورته وجموحه .

بركة أم هاشم تحل

بعد أن يهدأ اسماعيل يحاول أن يعالج عينى نبوية بما تعلّمه من أحدث أنواع العلاج ، فإذا به لتعاسته وشقائه ، يجد أن المرض يستفحل ، والعين تميل الى الإظلام يوما بعد يوم ، وإذا بالعلاج الذى يقدمه فاشل تماما ، وأن زيت قنديل أم هاشم لم يضر بالعين قدر ما أضر بها العلاج الذى أتى به من انجلترا ، ويستشير اسماعيل زملاءه من الأطباء فيؤيدون ما يفعله ، وأن هذا هو العلاج الصحيح ، ولكن العين تزداد إظلاما حتى تفقد الفتاة بصرها .

يمر اسماعيل بفترة عصيبة يكاد فيها أن يجن جنونه ، ولكنه يسترد نفسه وهدوءه ، ويعيد التفكير فى الأمر ، ويهديه تفكيره الى أن يسعى بنفسه الى مسجد أم هاشم ، ويحصل على بعض زيت القنديل فى ليلة القدر ويذهب الى فاطمة ويناديها قائلا :

- « تعالى يا فاطمة ، لا تيأسى من الشفاء ، لقد جئتك ببركة أم هاشم ، ستجلى عنك الداء وتزيح الأذى وترد اليك بصرك فإذا هو حديد .. وفوق ذلك سأعلمك كيف تأكلين وتشربين ، وكيف تجلسين وتلبسين ، سأجعلك من بنى آدم »

ولكن يحيى حقى لا يقول إن اسماعيل وضع زيت القنديل فى عينيها ، وانما يقول إنه أتى بالزيت ، ونادى فاطمة قائلا لها ما ذكرته حالا ، ثم يضيف الراوى عن اسماعيل أنه « عاد من حديد الى علمه وطبّه يسنده الايمان » .

وتسترد الفتاة بصرها بالتدريج ويتزوجها اسماعيل وتلد له خمسة بنين وست بنات ، ويقول عنه الراوى أنه كان فى آخر أيامه : « ضخم الجثة ، أكرش ، أكولا نهمًا ، كثير الضحك والمزاح والمرح » .

وتنتهى القصة بالفقرة الآتية

« الى الآن يذكره أهل حى السيدة بالجميل والخير ، ثم يسألون الله له المغفرة ممّ ؟ لم يفض الى أحد بشئ ، وذلك من فرط اعزازهم له ، غير أننى فهمت من اللحظات والابتسامات أن عمّى ظل عمره يحب النساء ، كأن حبه لهن مظهر من تفانيه وحبه للناس جميعا . رحمه الله » .

■ ■ ■

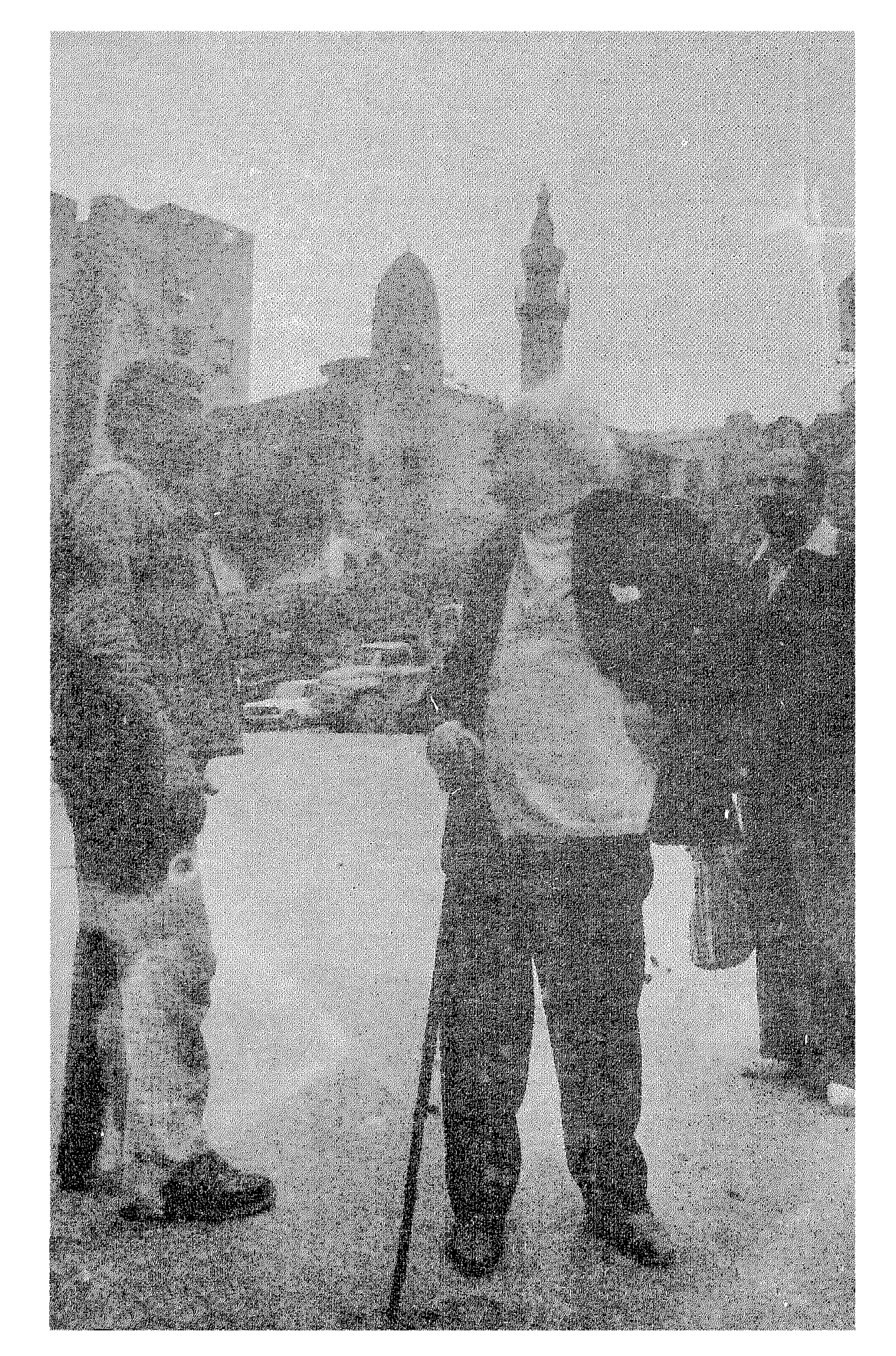
أما قصة الطيب صالح فهى أكثر تعقيدا ، ولا تنتهى بمثل هذه النهاية الحاسمة ، ولا الحل المقترح فيها واضح وضوحه فى قنديل أم هاشم .

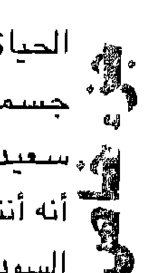
هى قصة ولد قروى صغير (مصطفى سعيد) شديد الذكاء هو الآخر ، مات أبوه قبل ولادته ، ويعيش مع أمه فى قرية صغيرة من القرى الواقعة على النيل فى شمال السودان . يراه موظف حكومى وهو يلعب مع أقرانه فى الطريق فيستوقفه ويسأله عما إذا كان يرغب فى الذهاب الى المدرسة ، فيتطلع الولد الى الموظف الحكومى الذى يعتلى حصانا كبيرا ، ويرتدى قبعة ضخمة ، ويسأله : هل اذا ذهبت الى المدرسة يمكننى أن ألبس قبعة كهذه التى تلبسها ، فيقول له الرجل : « نعم ، إذا كان أداؤك جيدا » . وهكذا يذهب الولد الى المدرسة القريبة ، ويحمله ذكاؤه الى مدرسة أخرى فى الخرطوم ، ثم الى المدرسة الثانوية فى القاهرة ، وفى كل منها يظهر تفوقا ملحوظا ، يؤدى به فى النهاية الى جامعة أكسفورد ، حيث يتم دراسته ، ويصبح مدرسا للاقتصاد فى جامعة لندن ، ويكتب كتبا ناجحة عن الاقتصاد والاستعمار . وهو فى حياته الخاصة فى انجلترا ليس بأقل نجاحا . فالنساء تتهافت عليه وتهيم به حبا ، وهو يصادق الواحدة منهن بعد الأخرى ، ويستمتع بهن دون أن يقع فى حب أى منهن ، فهو لا يسلم لأى منهن قلبه ، وكأنه يريد أن يرد اليهن بعض الإهانة التى



تلقاها فى بلاده من الاستعمار البريطانى . وبالفعل ، تنتحر أكثر من امرأة من عشيقاته عندما تكتشف أنه يخونها أو أنه لن يتزوجها . وموقف مصطفى سعيد من النساء البريطانيات مهم جدا فى القصة ، اذ أنه يبدو لى وكأنه يمثل موقفا من الحضارة الغربية كلها : مزيج من الرغبة الشديدة فى النهل منها بأكبر قدر ممكن ، ومن النفور والرفض فى نفس الوقت ، علاقة حب وكراهية ، رغبة فى اثبات الذات والسيطرة ، مشوبة بشعور دفين ولكنه قوى جدا من قلة الثقة بالنفس وبالضآلة ازاء هذا الكائن المتحضر الغريب عنا . علاقة واحدة مأساوية تفضح مصطفى سعيد ، كما تفضح الغرب نفسه فى نفس الوقت . فعندما يتعرف مصطفى سعيد على « جين مورس » آخر صديقاته ، تعذبه عذابا شديدا برفضها أن تسلم له نفسها ، ولا تكف عن إثارة غيرته بتصرفاتها الماجنة أمام عينيه مع غيره من الرجال ، كما أنها تبين له بوضوح تام أنها تفهمه تماما ، وأنها عرفت نقطة ضعفه التى كان يحاول دائما إخفاءها . إنها تعرف كم هو قليل الثقة بنفسه ، وأنه يحاول أن يبدو متحضرا وأوربيا دون طائل . تقول له انها تكرهه وتحتقره ، ولكنها فى الواقع ترغبه أيضا ، وقد سئمت الحياة وتكره نفسها هى الأخرى ، وتنتهى هذه العلاقة بأن يقتل مصطفى سعيد « جين موريس » ، ولكنها جريمة غريبة ، أو لعلها ليست بالجريمة على الإطلاق : إنه يطعنها بالسكين ، ويدخل السكين فى أحشائها استجابة لإلحاحها بأن ينهى حياتها ، واستجابة فى نفس الوقت لما أثارته فى نفسه من حقد هائل عليها لاكتشافها حقيقة ضعفه .

بعد أن يقضى مصطفى سعيد بضع سنوات فى السجن ، يعود الى السودان ويستقر فى قرية صغيرة مثل القرية التى خرج منها ، ولكن لا أحد فى هذه القرية الجديدة يعرف سره ، ولا أحد يعرف ماضيه ، ويتزوج من امرأة سودانية نبيلة هى « حسنة بنت محمود » ، وينجب منها ، ويدخل فى علاقات سوية مع أسرته ومع أهل القرية ، يحبونه ويحبهم ، ويبادلونه احتراما باحترام ، دون أن يعرف أحد شيئا عما يغلى به صدره . فالحقيقة أن مصطفى سعيد جعل فى بيته حجرة لا يدخلها سواه ، وعندما رآها الراوى بعد موت مصطفى سعيد ، وجدها صورة مصغرة لحياة مصطفى سعيد الماضية فى انجلترا : الكتب والمجلات وقصاصات الصحف والصور والغليون والمدفأة البريطانية ... الخ . وكان مصطفى سعيد اذا نسى نفسه بعد أن يحتسى كأسا من الخمر ، يسمع وهو يردد بعض أشعار الشاعر البريطانى إليوت ، التى يحفظها عن ظهر قلب . إنه إذن لم يستطع ، مع كل مابذله من جهد للاندماج فى





الحياة السودانية من جديد ، أن يتخلص من «جرثومة» الحضارة الغربية التى دخلت جسمه . وفى أحد الأيام حينما اكتسحت مياه السيول الفرية ، اختفى مصطفى سعيد، ولا أحد يعرف ما إذا كان قد مات غرقاً بمياه السيول أم انتحاراً والأرجح أنه أنتحر لأنه لم يستطع أن يحل المشكلة . إنه لم يستطع الحياة لا فى أوربا ولا فى السودان ، وفشلت محاولته للتوفيق بين الأصالة والمعاصرة .

مثال آخر للفشل هو ما حدث لحسنة بت محمود بعد وفاة زوجها إذ حاول أهل القرية إجبارها على الزواج من رجل فى سن جدّها ، ومتزوج من غيرها ، وسبق له الزواج عدة مرات ، فإذا بها تعلن للجميع أنها لن تسمح لأحد أن يلمسها بعد مصطفى سعيد ، وأنهم لو أجبروها على الرواج من « ودّ الريس » فسوف تقتله وتقتل نفسها . ولكنهم يجبرونها بالفعل على الزواج ، إذ أن القرية لا تقبل أن تكون الكلمة لغير كلمة أبيها الشيخ محمود وأبوها وعد «ودّ الريس » بأن يزوجها له . فإذا بحسنة تقتله ثم تقتل نفسها .

لقد انتقلت « جرثومة » الحضارة الغربية من مصطفى سعيد إلى زوجته ، التى رأت زوجها يعاملها معاملة الآدميين ، ويحفظ كرامتها ، ويمنحها احتراما لا يمكن أن تنساه ، وهى متمسكة بهذا الحق ومستعدة للموت فى سبيل الدفاع عنه . فإذا فرض عليها « تراث » القرية شيئا غير هذا ، فإنها تفضل الموت . هنا أيضا فشل آخر لمحاولة التوفيق بين الأصالة والمعاصرة . النموذج الوحيد الذى يبدو وكأن الطيب صالح يتعاطف معه ويجد فيه شبهة « حل » هو نموذج « محجوب » . رجل سوىّ من رجال القرية ، غير معقّد ، واثق من نفسه ، ويثق أيضا بتراث قريته وبأنه لابد من احترامه والذود عنه من هؤلاء الدخلاء « المستغربين » الذين لا يدرون ، مايصنعون ، ولكنه فى نفس الوقت يرغب فى التقدم ويصرّ عليه . إنه يرى كان الأولى بهؤلاء المستغربين ، بدلا من أن يضيّعوا وقتهم فى قراءة الكتب والكلام الذى لا نفع منه ، أن يستخدموا نفوذهم عند حكومة الخرطوم ، لتبنى لهم المدارس ، أو تعطيهم قروضا وماكينات للرى، أو تصلح لهم نظام الصرف .. الخ فمحجوب يستهجن بشدة قتل حسنة لزوجها ، ويعتبره تمرّدا لا يمكن قبوله ، على الرغم من أنه كان أيضا يستهجن إصرار « ودّ الريس » على الزواج منها رغما عنها كان لابد أن يكون هناك حلٌّ آخر غير تزويج المرأة من شيخ فى سن جدّها (الاحترام الأعمى للتراث) وغير قتل الزوجة لزوجها الذى لا تحبّه (التمرد الأعمى على الترث) التغيير واجب ولابد منه ، والتقدم لابد من السعى من أجله ، على أن يتم بالأناة والروّية ودون تشنج .

مضمون الرسالتين

هذا هو فيما يبدو لى مضمون الرسالة التى أراد أن يوصّلها لنا الطيب صالح ، أما مضمون الرسالة التى أراد أن يوصّلها لنا يحيى حقى ، فهى فيما يبدو أنه بالإيمان والحب يتم الإصلاح ، ولا إصلاح إذا خلا من الحب والتعاطف مع التراث .

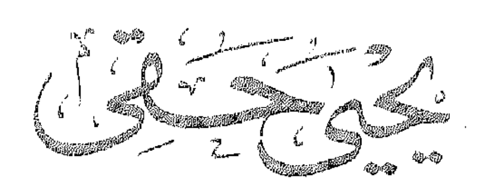
والإصلاح المفروض فرضاً والخالى من التعاطف مع من يراد إصلاحهم لابد أن ينتهى بالفشل ويؤدى إلى كارثة ، كفقد فاطمة لبصرها . فهل الرسالتان متضادتان ؟ لا أظن ، بل لعلّهما ، إذا أمعنّا التأمل ، رسالة واحدة فى الحقيقة . فمحجوب إيضا ، فى قصة الطيب صالح ، يقدم هذا النموذج المطلوب للمزيج من التعاطف والرغبة فى التقدم ، كما أن إسماعيل ، فى قصة يحيى حقى ، قد أنتهى ، فيما يظهر ، إلى نفس النتيجة .

* * *

إن القصتين يفصلهما نحو ربع قرن ، فقد كتب يحيى حقى قصته فيما بين عامى ١٩٣٩ و ١٩٤٠ ، ونشرت لأول مرة فى سلسلة اقرأ فى ١٩٤٤ ، ونشر الطيب صالح قصته في منتصف الستينات . ومرور ربع قرن يفسر لنا كيف أن القصة الثانية أقل بساطة وأكثر تعقيدا والرمز فيها أكثر غموضاً ويتسع لاحتمالات فى التفسير أغنى وأكثر تنوعاً . **وطريقة السرد عند الطيب صالح أشد إثارة وأكثر تشويقا . واستخدام التقدم والرجوع فى الزمن أكثر مهارة . والقصة فى مجملها أكثر إحكاما فى الصناعة وأكثر غنىً من قصة يحيى حقى . ولكنى أعود فاتذكر جمال قصة قنديل أم هاشم وشدة حساسيتها ، وبراعة يحيى حقى الفائقة فى وصف أهل حّى السيدة وميدانه ثلاث مرات ، من ثلاث زوايا ، يعكس بها ماطرأ من تغيّر على مشاعر إسماعيل وعلى موقفه من « التراث » . وهو فى كل المرات الثلاث مقنع تماما ، ساحر بدقة وصفه وجمال ودقة عبارته ، وظرفه وخفة دمه ، وإنسانيته التى تظهر فى تعاطفه مع الجميع ، حتى مع المرأة التى تبيع جسدها وتأتى إلى مقام أم هاشم طالبة مستجدية من الله أن يتوب عليها ، وحساسيته البالغة لجمال اللغة الشعبية وتعبيراتها . فلا أجد أمامى إلا أن أدعو لفقيدنا العظيم يحيى حقى بالرحمة لما قدمت يداه ، ولكاتبنا العظيم الطيب صالح ، بموفور الصحة وطول العمر ليستمر فى عطائه .**

أنشودة البساطة

جزء خاص



أكثر الرواد إرساء للقيم الأدبية والثقافية

بقلم د. صبرى حافظ

لاشك أن خسارة الحياة الأدبية العربية بفقدان الكاتب المصرى الكبير يحيى حقى خسارة فادحة لا تعوض ، يستشعرها كل من قرأ له واستمتع بأعماله الأدبية المترعة بالجمال والصدق والحيوية والخصوية. ولحسن حظنا ، وحظ الحياة الثقافية العربية ، أنه لم يرحل عن عالمنا إلا بعد أن اكتمل صدور مؤلفاته فى ثمانية وعشرين جزءا عكف على تحريرها بأناة وإخلاص كبيرين الناقد الكبير فؤاد دوارة. صحيح أن مؤلفاته الكاملة لم تضم مترجماته الرائعة التى لا تقل أهمية فى اختياراتها ولغة ترجمتها بالنسبة لقضايا النص الكلى له ، ولما يطرحه علينا عالمه من إضافات ورؤى ودروس ، عن كثير من المؤلفات ، إلا أنه من الممكن أن تتدارك الهيئة الآن هذا الأمر وتكمل نشر بقية المؤلفات لتضم المترجمات كلها وهى غير قليلة.

ولاشك عندي أن هذه الذخيرة الأدبية الكبيرة بمؤلفاتها ومترجماتها ستظل موضوع دراسة لأجيال كثيرة قادمة، وستظل كشوفها النصية المبهرة، ورؤاها الإبداعية الناصعة، ولغتها الجميلة المشرقة فاعلة في الحياة الأدبية لعقود كثيرة مقبلة. لأن أعمال يحيى حقي الإبداعية والنقدية على السواء من الأعمال السابقة لعصرها وللحساسية الأدبية السائدة إبان كتابتها وصدورها ، والتي نكتشف أهميتها كلما تقدم وعى الحياة الأدبية العربية بذاتها وتطور مراحلها ، وكلما تغيرت الحساسية الأدبية

واقتربت من تخوم انجازات أعماله المدهشة التي اعتادت استشراف المستقبل واكتشاف الأصقاع المجهولة. ويقيني بأن هذه الأعمال ستظل فاعلة في الحياة الأدبية العربية ، وسيعكف الدارسون في مصر وغير مصر عليها بالدرس والتحليل. لذلك فليس هنا بأي حال من الأحوال مجال الحديث عن هذه الأعمال التي كانت موضع درس واهتمام كبيرين في حياة يحيى حقي وستظل كذلك بعد رحيله بزمن طويل مبرهنة على أنه سيظل معنا طالما كان في هذه الأمة قدر من الوعي بذاتها والاعتزاز بانجازاتها العقلية الكبيرة.

كل ما نستطيع الحديث عنه هنا عقب صدمة الرحيل القاسية هو ما تركه الرجل فينا نحن الدين أسعدتنا المقادير بمعرفته عن قرب ، لأن رزءنا في يحيى حقي يتجاوز خسارتنا فى أى أديب كبير افتقدنا برحيله صوته وحضوره ، وحرمنا من إبداعه ودوره . ففد فقدت فيه أبا وصديقا ومعلما وإنسانا كبيرا قلما تجود الحياة بمثله. فهو من هذه النماذج النادرة التى يثرى حضورها الحياة كلها بالمعانى والقيم، ولذلك تصبح الحياة بعده أكثر وحشة وأقل إنسانية. فيحيى حقى بالنسبة للذين أسعدهم الحظ بمعرفته وأغدق عليهم من فيضه وفضله ليس أديبا كبيرا، وكاتبا فريدا، ومبدعا متميزا فحسب، ولكنه إنسان عظيم لم أعرف له مثيلا فى حياتنا الأدبية والثقافية على كثرة من عرفت فيها من الكتاب والأدباء. ونموذج أخلاقى لا تنفصل الكلمة لديه عن الأداء والسلوك، وتختفى عنده المسافة بين القيمة وتجسدها الواقعى. وأب فعلى للكثيرين من أبناء الأجيال التى وفدت إلى الساحة الثقافية بعده. مد لهم يد العون ما استطاع، وراد خطواتهم الأولى على طريق الأدب الصعب، وقدمهم إلى الحياة الأدبية، ووقى مسيرتهم من عثرات الطريق أو شراك القيم الزائفة، وانتقى من بينهم حفنة من الأصدقاء، أخلص لهم الود وأخلصوا له المحبة فازدادت حياتهم به ثراء وخصوبة، وأصبحوا بعضا من مريدى هذا القطب الكبير ومحبيه .

شرف الكلمة وقدسية الإبداع

كان يحيى حقى، وما أصعب أن أبدأ الحديث عنه بلفظة كان، كاتبا من طراز نادر فريد لا مثيل له. أدار ظهره لسيرك الكتابة والشهرة والألاعيب السياسية والإعلامية، وتعفف عن صغائر الصراع على النفوذ والمكاسب والسطوة، ولكنه استطاع مع ذلك أن يفرض على الواقع الأدبى نموذجاً مغايرا للنمط الشائع الذى يعتمد على الكمّ أو على اللعبة السياسية أو عليهما معاً، ومثالاً للكاتب الملتزم بشرف الكلمة وقدسية الإبداع وهموم مجتمعه وصبواته. وهو لذلك أكثر كتاب جيله تأثيرا على الأجيال اللاحقة من الكتاب، وأشدهم اهتماما بتواصل الأجيال الإبداعية، فليس ثمة كاتب مصرى اليوم له



قيمة أدبية أو فكرية لم يؤثر عليه يحيى حقى الكاتب والإنسان. لأن يحيى حقى كان أكثر الكتاب الرواد ممارسة لدور الكاتب فى توجيه الشبان الذين يطرقون أبواب الفن على استحياء ماداموا يتمتعون بالثقافة والموهبة. وقد حاول أن يرسى من خلال كمّ أنتاجه وكيفه معاً، ومن خلال الأدوار التى لعبها، أو التى تعفف عن لعبها، مجموعة من القيم الأدبية والفكرية والجمالية الرائدة التى جلبت عليه أحيانا الكثير من المتاعب والمنغصات، وإن لم تذهب معاناته فى سبيلها بدداً.

فيحيى حقى من الكتاب الذى يكرسون حياتهم لإرساء القيم الأدبية والفكرية والأخلاقية معا، وما أن تترسخ قيمة من القيم التى يرسيها حتى يتركها، ويصرف كل همه لإرساء قيمة جديدة تكتمل بها منظومة القيم التى كرس لها حياته الأدبية، ونشاطه الثقافى الكبير. ومن أهم هده القيم احترام الكلمة وعدم ابتذالها بالتردى أو التكرار، والحرص على ألا يميع الكاتب كشوفه وإنجازاته ناهيك عن السطو على كشوف الآخرين أو استعارة أقنعتهم. والإيمان بأن أمانة الكاتب واخلاصه لفنه وللغته ولثقافته هى مهمته الأولى وهى الشرط الأساسى الذى لا يستطيع بدونه تحقيق مهامه الأخرى سواء أكانت اجتماعية أو أيديولوجية أو حتى جمالية محضة. ومنها أيضا أن على الكاتب أن يترفع عن الدعاية لنفسه، وعن استخدام المنصب العام للتربح المادى أو المعنوى، وعن الجرى وراء سفاسف المظاهر من منصب أو جاه. كنت ومازلت قريبا منه، فقد ترك فىّ مجموعة من القيم الأدبية والأخلاقية التى لن تتركنى برحيله. عرفته فى مطالع الستينات أثناء عمله فى مجلة (المجلة) رئيسا لتحريرها. وأسعدنى الحظ بأن عملت معه، وأوكل لى بعض مهام التحرير فيها. وكانت من تعليماته لكل الذين عملوا معه فى (المجلة) أن يحذف اسمه من أى مقال يرد فيه، حتى ولو ورد الإسم فى معرض السرد التاريخى كأن يعدد باحث أسماء أعضاء جماعة المدرسة الحديثة فيذكر اسمه، ناهيك عن أن يذكر الإسم فى معرض المدح أو الإشادة أو أن يكون المقال عنه. لن تجد فى (المجلة) مقالا واحدا عنه بالرغم من أن رئاسته لتحريرها امتدت لعشر سنوات تقريبا. كان الرجل خير من يعرف أن ذكر اسمه فى مجلة يرأس تحريرها لن يفيده شيئا ولن يضيف إليه صيتا. فهو غنىّ غنى من الروح والنفس والفكر عن مثل تلك الإشارات. وكان على درجة فائقة من الرهافة والحساسية تمنعه عن أن يسيئ لمن ينشر له فى مجلته، حتى ولو قبل هذا الأخير الإساءة لنفسه. فمن يكتب عن كاتب فى مجلة يرأس المكتوب عنه تحريرها لا يسيئ إلى المكتوب عنه فحسب وإنما إلى نفسه كذلك. وآخر ما كان يريده يحيى حقى هو الإساءة إلى من يكتبون فى مجلته، حتى ولو رضوا هم بالإساءة لأنفسهم.

كان تصور يحيى حقى للعمل الثقافى العام جزءا من عملية إرساء القيم تلك. لأن عمل الكاتب في هذا الحقل هو أوثق الأعمال بأدواره الأدبية والإبداعية الأخرى، وهو التجسيد الحقيقى لتصوراته الثقافية ولأفكاره . فقد يعمل الكاتب معاونا للنيابة أو دبلوماسيا كما عمل هو بالفعل، وقد يستفيد من هذه الأعمال كما استفاد من عمله معاونا للنيابة في الصعيد فاستلهم من تجارب هذه الفترة «صعيدياته» التى غيرت وجه الكتابة القصصية عن الصعيد، وكما استفاد من عمله الدبلوماسى في توسيع أفق ثقافته وتزويدها ببعد نقدى مقارن، ولكنه ما أن يعمل فى الحقل الثقافى حتى يصبح عمله مرآة لفكره ولمشروعه الثقافي برمته. ويقين يحيى حقي هذا، هو الذى جعل دوره الثقافى العام مؤثرا فى حياتنا الثقافية إلى أقصى حد. فلم يترك أى كاتب تولى العمل الثقافى أثرا يعادل ذلك الذى تركه يحيى حقي إلا طه حسين على كثرة الكتاب والمثقفين الذين تولوا العمل الثقافى العام. فإذا كان طه حسين هو الذى وضع اللبنات المؤسسية الأولى للثقافة الجادة والدرس المنهجى، فإن يحيى حقى هو الذى بلور الأجنة الأولى لوزارة الثقافة، وصاغ أولويات العمل الثقافى العام، وأرسى دعائم اضطلاع المثقف بالدور الأساسى فيه. فما أن أسندت له إدارة مصلحة الفنون عام ١٩٥٥، وهى المصلحة التى أصبحت النواة الحقيقية لوزارة الثقافة فيما بعد، حتى جلب إليها نجيب محفوظ من وزارة الأوقاف، وعلى أحمد باكثير من وزارة المعارف للعمل فيها. تأكيدا منه لضرورة أن يتولى المثقفون قيادة العمل الثقافى. ولم تكن هذه هى القيمة الوحيدة التى أرساها من خلال عمله بمصلحة الفنون، وإنما أرسى معها مجموعة مهمة من القيم الثقافية من تأسيس «ندوة الفيلم المختار» التى وضعت اللبنات الأولى لنادى السينما ومعهد السينما معا بدرسها الجاد لهذا الفن الخطير، وتمييزها بين الغث والثمين فيه، إلى تأسيس فرقة «ياليل ياعين» التى تحول إنشاؤها إلى علامة فارقة فى تاريخ التعامل مع الفن الشعبى فى مصر وفى المنطقة العربية برمتها .

تواصل الأجيال

وما أن أسندت له رئاسة تحرير (المجلة) حتى تحولت تلك الدورية الجافة التى كان شعار «سجل الثقافة الرفيعة» على بابها يدُعّ عنها أصحاب التجارب الجديدة ويعزلها عن هموم الحياة الثقافية إلى أكثر المجلات انشغالا بتلك الهموم دون أن تتخلى عن كونها «سجلا للثقافة الرفيعة». لم يكن على (المجلة) عندما تسلم أمورها إلا اسم رئيس التحرير، وفي بعض الأحيان اسم محرر آخر معه يكتب فى عدد ثم يسقط فى آخر. فجعل لها هيئة للتحرير ومشرفا فنيا اختاره من كبار الفنانين (عبدالسلام

الشريف ثم حسن سليمان) لأن جمال إخراج المجلة لا ينفصل عن بقية جوانب التحرير الأدبية والفكرية فيها · وكان اختياره لأعضاء هيئة التحرير ناطقا بوعيه بضرورة تواصل أجيال العمل الثقافى · كان فؤاد دواره هو المحرر الذى عمل مع على الراعى قبل توليه رئاسة التحرير فأبقاه فى هيئة التحرير حرصا منه على تواصل العمل فى (المجلة) واستمراره · وضم إلى هيئة التحرير معه أنور المعداوى الذى جاء به من معتزله الذى اعتصم به منذ توقف مجلة (الرسالة) ليؤكد أن التواصل عنده ليس تواصلا للمجلة الواحدة ، وإنما هو تواصل لمسيرة العمل الثقافى الجاد فى المجلات الجادة كلها · لأن أنور المعداوى كان أكثر نجوم النقد الأدبى فى مجلة (الرسالة) حساسية وثقافة وتألق أسلوب · كما ضم إليها حسن كامل الصيرفى وهو أبرز الوجوه الباقية من «مدرسة أبوللو» وأكثرها موهبة ومعرفة بالتراث العربى، وكأنه يرسى بذلك قواعد الحوار بين (المجلة) الأدبية وواقع الحركة الثقافية من جهة، ويوثق عرى علاقتها مع حركات التجديد والتغيير فى الواقع الثقافى من جهة أخرى · ثم ضم إليها بعد ذلك يوسف الشارونى وكأنه أراد أن يكون للقصة مكانا فى هيئة التحرير (وهو القصاص الفذ) إلى جوار الشعر (الصيرفى) والنقد (المعداوى ودوارة) ، وإذا كانت هذه الأسماء هى التى تصدرت هيئة التحرير فقد أحاط يحيى حقى نفسه فى (المجلة) بكوكبة من شباب الكتاب الواعدين، وفتح صفحات (المجلة) لكتاباتهم الإبداعية والنقدية · وكانت هذه هى إحدى القيم المهمة التى حرص على تأسيسها · فواجب الكاتب الذى يتولى العمل العام أن ينقب عن المواهب الجديدة ويشجعها، وييسر انتاجها جنبا لجنب مع انتاج الراسخين من الكتاب والمبدعين · فبدون هذا الدور لا تتواصل الحياة الثقافية ولا تتراسل القيم المهمة فيها · فالكاتب عند يحيى حقى موقف متكامل لا مناص من أن تتفاعل أدواره كلها، وإلا فقدت كلماته دورها ومصداقيتها · ومن عوامل مصداقية الكاتب عنده أن يسفر سلوكه الثقافى العام عن تكامل وتناغم مع موقفه الأدبى ومع القيم الفكرية والجمالية التى تنطوى عليها أعماله · فلا معنى عنده لأن يدعو كاتب إلى الحرية ثم يمارس القهر والتسلط والبطش إذا ما تولى سلطة ثقافية ما، أو أن يدعو إلى الجسارة والجرأة ثم يكون سلوكه مثالا للتخاذل والانصياع · كان هذا حال جل الكتاب الذين يتشقشقون كثيرا بألفاظ النضال فى الستينات، أما يحيى حقى الدمث الحيى المتواضع فما أكثر عزوفه عن تلك الادعاءات، وعن التلفظ بكلمة «أنا» التى لم يكن يحبها، ألم يجعلها علامة على لحظة سقوط اسماعيل الدامية فى «قنديل أم هاشم» عندما حطم القنديل! · ولكنه مع ذلك كان فى هدوئه الحيى أكثر جسارة من كثيرين من أدعياء النضال .

وسأسوق هنا مثالا واحدا من أمثلة كثيرة عديدة أرسى بها الرجل قيمة استقلال الكاتب عن المؤسسة وحسارته فى وجه ممارساتها القمعية. كنا فى عام ١٩٦٦، وكان يحيى حقى قد خطط لعدد خاص، هو أول أعداد المجلة الخاصة، عن القصة القصيرة. وكلفنى بكتابة دراسة عن اتجاهات القصة القصيرة فى مصر ومستقبلها. وطالت الدراسة وتقرر نشرها على ثلاث حلقات، ظهرت أولاها فى عدد القصة (أغسطس ٦٦)، ولما كنت قد قدمت قصة جديدة فى عدد سبتمبر (هى «نزف صمت صوت نصف طائر» التى أصبحت علما على كاتبها محمد إبراهيم مبروك) رأى يحيى حقى أن جدتها تستدعى كتابة مقدمة نقدية لها تساعد القارئ على تلقيها بشكل صحيح ، تقرر نشر الحلقتين الباقيتين من دراستى عن مستقبل الأقصوصة المصرية فى عددى أكتوبر ونوفمبر ١٩٦٦ على التوالى . وفى بداية أكتوبر والمجلة لاتزال فى المطبعة أعتقلت مع مجموعة من الكتاب والمثقفين، وكان باستطاعة يحيى حقى حذف المقال قبل صدور العدد لو أراد درءا لشر نظام كان يأخذ الكثيرين بالشبهات . ولكن صدر عدد أكتوبر من (المجلة) بعد اعتقالى الذى عرف به يحيى حقى فى حينه ودراستى فيه. بل وصدر العدد التالى من (المجلة) فى نوفمبر ١٩٦٦ وبعد أكثر من شهر من اعتقالى وبه القسم الثالث والأخير من الدراسة. وما أن أفرج عنى بعد عدة شهور وذهبت فور خروجى لأشكره، حتى كلفنى بالكتابة فى (المجلة) فى الشهر نفسه، ولما أن أبديت شيئا من التمنع مخافة إحراجه أو التسبب له فى أى أذى دون أن أشير لذلك فهم وغضب، وما أقل ما كان يغضب، وأصر على أن أقدم له مقالا للنشر فى الشهر نفسه، ففعلت ونشر المقال وتواصلت بعده كتابتى للمجلة وكأن شيئا لم يكن.لم يكن موقف يحيى حقى هذا بالبسيط أو العادى فى تلك المرحلة من تاريخ مصر. أيام أن كان للدولة سطوة وهيلمان، وكان من اليسير عليها أن تأخذ الناس بالشبهات. فقد فعل يحيى حقى ما فعل ليس بنشر مقال شهر اكتوبر الذى يمكن التعلل بأنه لم يكن من اليسير حذفه من المطبعة فى آخر لحظة، أو بدفعه للطبع قبل اعتقال كاتبه، أو بأنه لم يعرف بأمر اعتقال كاتبه إلا بعد ظهور العدد وغير ذلك من التعلات، ولكن بنشر الحلقة الأخيرة من الدراسة فى شهر نوفمبر التى لم يكن ثمة شك فى أنها دفعت للمطبعة بعد معرفة الجميع بنبأ الاعتقال. فعل كاتبنا الكبير ما فعل، وهو الذى نأى بنفسه عن مخاضة العمل السياسى، وعن شقشقات النضال والتمرد على السلطة، بينما كان لى مقال آخر فى شهر أكتوبر فى مجلة يرأس تحريرها أحد الدين ملأوا الدنيا ضجيجا وعجيجا وشقشقة بألفاظ النضال والصراع بين اليمين واليسار فبادر بحذفه فور علمه بالنبأ. وكان هذا السلوك الجسور المؤسس لاستقلال قرار الكاتب عن المؤسسة الحاكمة من القيم الأساسية التى أرساها يحيى حقى بدماثة وتواضع بالغين. فإسناد المؤسسة أى دور فيها للكاتب لايعنى بأى حال من الأحوال عنده أن



يتحول هذا الكاتب إلى أداة فى يدها، أو أن يفقد استقلاله النقدى إزاءها، وإنما عليه وقد آل إليه المنصب الثقافى العام عن جدارة به وليس تفضلا منها عليه، أن يمارسه بحسه الثقافى والتاريخى وليس وفقا لإرادة المؤسسة وتحقيقا لمراميها.

شجاعة أديب كبير

وقد أرسى يحيى حقى قيمة استقلال الكاتب تلك عن المؤسسة الحاكمة فى جل ممارساته، لأن هذه القيمة لا تنفصل عنده عن قيمة استقلالية العمل الأدبى التى تشيع فى كل أعماله الإبداعية والنقدية. لا فى طريقة تعامله مع الكتاب والكتابة أثناء إدارته لمجلة (المجلة) فحسب، وإنما كذلك من خلال عزوفه عن كل ما يشتم منه التوحد بين الكاتب والمؤسسة. كان يحيى حقى ملء السمع والبصر فى الستينات كما ذكرت، ولكنه كان يكتب مقاله الأسبوعى فى أضعف صحف القاهرة نفوذا وأقلها انتشارا فى هذا الوقت، وهى صحيفة (المساء). بينما كانت الصحف الكبرى مفتوحة له لو أراد. وأعرف أن (الأهرام) وما أدراك ما (الأهرام) فى هذا الوقت، عرضت عليه أن يكتب فيها فرفض بلباقة وحياء. كانت (الأهرام) أكبر صحف مصر والشرق فى هذا الزمن الذى يبدو الآن غابرا وبعيدا، وكانت الكتابة فيها ليست مجرد كتابة فى منبر صحفى عادى، وإنما تسنما لسلطة واستئنافا لنفوذ وتحقيقا لنجاح وقبول من أعلى رموز المؤسسة وأقواها. وكان دخول الكاتب إلى (الأهرام) وقتها كدخول مجمع الخالدين أو المحظوظين، لهذا كله رفض يحيى حقى الكتابة فى (الأهرام) وقد عرضت عليه فى الوقت الذى سعى فيه الكثيرون بكل جهد للكتابة فيها، وساقوا للمتنفذين بها الوساطات. وكان محمد حقى ابن شقيق أستاذنا الكبير من كبار الصحفيين المؤثرين فى (الأهرام) فى هذا الوقت، بل ورشح ذات يوم لرئاسة تحريره، ومع ذلك لم يسع يحيى حقى أبدا للكتابة فيه، ولما طلب منه أن يكتب به رفض.

كان يحيى حقى إنسانا كبيرا لا يهتم بسفاسف الأمور ولا يحمل ضغينة لأحد مهما كانت طبيعة إساءتهم له ومهما كان صغارهم. كان ما يهمه هو إرساء القيمة، قيمة استقلال (المجلة) الأدبية والدفاع عن كرامة العاملين بها، حتى لو أهدر أحدهم كرامته بنفسه. وقيمة الحرب من أجل هذا الاستقلال واتخاذ الموقف الحازم حينما تبلغ المعركة حد الخطر. فقد يساوم على الأشياء الصغيرة ويتحمل، ولكن إذا ما تعلق الأمر بالمبدأ والقيمة فإنه على استعداد للتضحية بكل شيئ من أجلهما. وما أن يرسى القيمة التى يريدها حتى ينصرف إلى غيرها من الأمور. وقد ظل حتى آخر أيام حياته حريصا على هذا الدور، فقبل عامين ارادت إحدى دور النشر الفرنسية أن تنشر ترجمة فرنسية لرائعتيه «قنديل أم هاشم» و«البوسطجى»، فكان شرطه الوحيد أن يكتب مقدمة الطبعة الفرنسية ناقد مصرى. وعرضت عليه دار النشر أن يقدم كتابه إن كان يصر على المقدمة ناقد أو كاتب فرنسى، واقترحت عليه عددا من ألمع نقاد

الأدب الفرنسى وكتابه، لكنه أصر على أن يقدم العمل ناقد مصرى. وقال لى، وقد شرفنى بأن اختارنى لهذا الدور، لا يكفى بأن نقدم لهم أدبنا ولكن علينا أن نقدم لهم معه نقدنا، كى يستطيعوا رؤية هذا الأدب فى عيوننا وعبر مرشح ثقافتنا نحن. وكان إصراره على أن يختار ناقدا من جيل أبنائه، وربما من حفدته النقديين، تأسيسا لقيمة جديدة أخرى من بين القيم الكثيرة التى حرص على تأسيسها، وهى أن عليهم أن يدخلوا إلى أدبنا بشروطنا، وليس بشروطهم، وأن يتلقوه فى سياقه الثقافى الصحيح وكما ينعكس على صفحات وعى الأجيال التالية لكاتبه، وأن يكون إعجابهم بكاتب كبير فرصة للتعرف على أبنائه وحفدته من الكتاب والنقاد. فيحيى حقى ليس قصاصا كبيرا فحسب، ولكنه ناقد فذ كذلك. رافقت خطواته فى النقد كل خطى مسيرته الإبداعية والأدبية .

بعيداً عن موالد السرادقات

وقد ظل يحيى حقى يرسى القيم الجديدة حتى آخر لحظة فى حياته. فان نعيه الذى أوصى بنشره بعد إتمام إجراءات الدفن وأملى نصه على ابنته «شيعت أمس جنازة الكاتب الأديب يحيى حقى، من يقرأ هذا النعى يقرأ له الفاتحة» يرسى هو الآخر قيمة العزوف عن موالد السرادقات التى تنصب عقب الرحيل، سواء أكانت سرادقات فعلية أو سرادقات من ورق تمتد على رقعة الصحف لأيام ثم تنفض. وكلمات النعى القصيرة المركزة، ككلمات يحيى حقى فى كل كتاباته تنطوى على الكثير من الدروس والعبر. فيها حرص الكاتب على كرامته والسيطرة على مقدرات حياته حتى بعد الموت. وفيها اعتزازه بدوره وبصفة «الكاتب الأديب» التى أراد أن تتصدر اسمه. ألم يكرس حياته لتأسيس القيم التى تجعل لهذه الصفة قيمتها واحترامها؟ وفيها عزوفه عن كل أشكال النفاق الاجتماعى وحياؤه الجم الذى يأبى أن يكبد حتى محبيه ومريديه أى مشقة، وفيها رغبته فى أن يحرم المؤسسة الثقافية التى تجنبت فى مسارها الكثير من القيم التى أرساها من المتاجرة بمناسبة رحيله أو الاستفادة منها فى تبرير نفسها. لأن الذين يريدون الاهتمام بالكاتب عنده لابد عليهم من الاهتمام به فى حياته، واحترام عمله والقيم الثقافية والفكرية التى ينطوى عليها وإبقائها حية بالعمل على هديها بدلا من الحرص على العزاء فيه بعد رحيله. وهى قيم تنأى عند يحيى حقى عن أى عمل من أعمال المباهاة والأبهة الاجتماعية الزائفة التى أصبح النعى نفسه هو أول أبجديات طقس الموت الاجتماعى فيها. وأحسب أنه قد أطل على سرادق العزاء الذى أقيم رغم وصيته ولم يزره إلا الرسميون وابتسم، وكأنه يقول لنا ألم أقل لكم .

ومع أننى آثرت هنا أن أعدد القيم التى أرساها أثناء ممارساته للعمل الثقافى بالدرجة الأولى، فإن القيم التى وضعها من خلال ممارسته للكتابة أكثر من أن تعد فى



مقال من هذا النوع. ومن اليسير على الدارس لأعماله والمتفحص لنصوصه المتاحة بين أيدى القراء والنقاد أن يستخلص معظمها . لكننى أود هنا أن أشير إلى قيمة كبيرة أخرى تتعلق بالممارسة الثقافية وبالكتابة النقدية معا وهى أن على الكاتب أن يكون شاهدا أمينا على عصره، وأن يكون ذاكرة واقعه الحية وضميره الأدبى الواعى. هذه القيمة هى وراء شهادة يحيى حقى الباهرة على الحركة الأدبية التى عاش فى شبابه بداياتها فى كتابه المؤسس والمغير (فجر القصة المصرية)، وفى كثير من كتاباته التى ضمها (خطوات فى النقد) و(عطر الأحباب) و(مدرسة المسرح) و(هذا الشعر) و(صفحات من تاريخ مصر) . وقد استطاع (فجر القصة المصرية) أن يغير مسار الدرس النقدى لهذه المرحلة الباكرة من تاريخنا الأدبى تغييرا جذريا برغم حجمه الصغير. لأن كشوف هذا الكتاب المبهرة زاوجت بين شهادة الكاتب على عصره وعلى جيله الأدبى وبين بصيرة الناقد المرهفة وقدرته المبدعة على التحليل والنفاذ إلى جوهر الأعمال الباكرة التى تناولها بالنقد والتحليل . وشهادة يحيى حقى على عصره هى التى أرهفت وعى الواقع الأدبى وذاكرته بدور جماعة المدرسة الحديثة، وبريادة الأخوين عيسى وشحاته عبيد، وبأهمية محمود طاهر لاشين، وبدور عباس علام ونجيب الريحانى وصلاح كامل وبالجانب القصصى المغمور فى مصطفى عبدالرازق وغير ذلك من الجوانب المغمورة والمنسية فى تاريخنا الأدبى .

الإبداع قيمة فنية

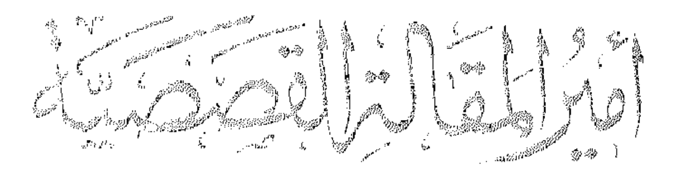
وهناك قيمة أخرى أسسها من خلال كتابته الإبداعية خاصة وهى أن صمت الكاتب لا يقل عنده إفصاحا عن قدرته على البوح والإفضاء، لأن على الكاتب عنده ألاّ يكتب لمجرد الكتابة وتسويد الصفحات، بل يكتب فقط إذا ما كان لديه بحق ما يضيفه إلى ضمير أمته ووجدانها، أو إلى وعيها الأدبى فنيا أو مضمونيا. لذلك كف يحيى حقى عن كتابة القصة منذ عام ١٩٦٨ وكان بوسعه أن يواصل الكتابة كما فعل كثيرون غيره. لأنه يرفض أن يكرر الكاتب كشوفه وإضافاته الفنية أو النقدية، وهيهات لمثل كشوفه أن تتكرر، بل تركها حتى ولو لم يستوعبها الواقع الثقافى فى حينها، ومضى يضرب فى أرض بكر ويكتشف أصقاعا جديدة. فالإبداع لدى يحيى حقى قيمة فنية وفكرية وجمالية معاً. وعلى الكاتب معها أن يكون سابقا لحساسية عصره الفنية السائدة، قادرا على إختراق حجب المستقبل الأدبى والتعايش معه بل والوجود فيه، مخلصا للغته الفنية وللعالم المتميز الذى يبدعه، عارفا بتراث امته وتاريخها وقيمها وأعرافها ورؤاها وتيارات ثقافتها التحتية، غارقا فى زخم الواقع ومادته دون الذوبان فيهما كلية ، مستشرفا لنبضه مبلورا لصبواته وهمومه، داخلا فى حوار جدلى نقدى خلاق معه ومع القارىء الذى يتوجه إليه فيه ويخلقه ويرتقى بقدرته على التذوق، ومبدعا من خلال هذا كله لعالمه الفريد الذى قد يكون مرافقا للعالم الواقعى ومرتبطا به

وضاربه بجدوره فيه، ولكنه دائما مفارق له ومستقل عنه فى الوقت نفسه وقد استطاع يحيى حقى أن يفعل هذا كله، وأن يقوم معه وبه بتنقية لغة التعبير الأدبى عامة ولغة القصة خاصة من ميراث طويل ثقيل من النهنهات العاطفية والشطحات الرومانسية والزخارف الأسلوبية السقيمة، بصورة تخلقت معها على يديه لغة قصصية فريدة فى ايقاعها وقاموسها وتراكيبها وقدراتها الدلالية ، لغة متوهجة بالحركة، متسمة بالاقتصاد والتركيز، متدفقة بالحياة، نابضة بالرموز والإيحاءات قادرة على التجسيد ، وقد تمكن من خلق هذه اللغة المتميزة برغم ــ أو ربما بسبب ــ قلة إنتاجه القصصى وشحته .

لكن تأثير أعماله على تطور القصة العربية ــ فى مصر خاصة ــ ودورها فى إنضاح ملامح هذا الجنس الأدبى وبلورة معالمه، تأثير هام ودور كبير بأى معيار من المعايير. ليس هذا فقط بسبب القيمة الفنية والجمالية المتميزة لقصص يحيى حقى ، ولكن أيضا لدوره الجوهرى فى تطوير مواضعات هذا الشكل الأدبى وإرساء تقاليده الهامة فضلاً عن التأثير على عدد كبير من كتابه المرموقين. ولا تعنى قلة أعمال يحيى حقى بأى حال من الأحوال ضيق عالمه أو محدوديته . فعلى العكس من معظم معاصريه لم يحصر حقى نفسه فى عالم الطبقة الوسطى فى المدينة أو يقتصر على رؤية العالم عبر منظورها الاجتماعى . ولكنه حاول أن يقدم إلى جانب شرائحها المتعددة ابناء القاع الإجتماعى فى المدينة والقرية على السواء . فزخر عالمه بالعديد من النماذج البشرية المقهورة والثرية فى إنسانيتها أو تجربتها برغم هامشيتها الإجتماعية بصورة يعد معها عالمه من أوسع العوالم القصصية رقعة. إذ نجد فيه العديد من شرائح الطبقة الوسطى المصرية ونماذجها الدالة والمأساوية معا . كما نعثر فيه على العديد من الخدم والباعة الجائلين والحرفيين والشحاذين والمبخرين والدراويش والعاهرات وبائعى الروبابيكيا والخاطبات والرعاة والفلاحين وقاطعى الأحجار والمجرمين وغيرهم كثيرين من أبناء القاع الاجتماعى فى المدينة والقرية. وحتى يستطيع يحيى حقى تصوير هذه التنويعات الخصيبة على الشخصية المصرية فإنه يركز عالمه جغرافيا حول محورين أساسيين أولهما حىّ السيدة زينب الشعبى ، وثانيهما القرية المصرية فى الصعيد . ومن خلال هذين المحورين «الشعبيات» و«الصعيديات» إستطاع أن يقطر بالفن روح مصر وأن يسبر تيارات حياتها التحتية إجتماعيا وروحيا وفلسفيا فى المدينة والقرية على السواء. وأن يتجاوز السمات السطحية للمنطقة التى يتعامل معها والصبغة المحلية للأحداث أو الشخصيات التى يجسدها ليصل إلى الإنسانى والعام دون التضحية بتوهج التجربة أو خصوصيتها . فوداعا أيها الكاتب الكبير الذى ستبقى أعماله معنا تقدم لنا زادا مشبعا فى رحلة الحياة والمعرفة.

أنشودة البساطة

جزء خاص

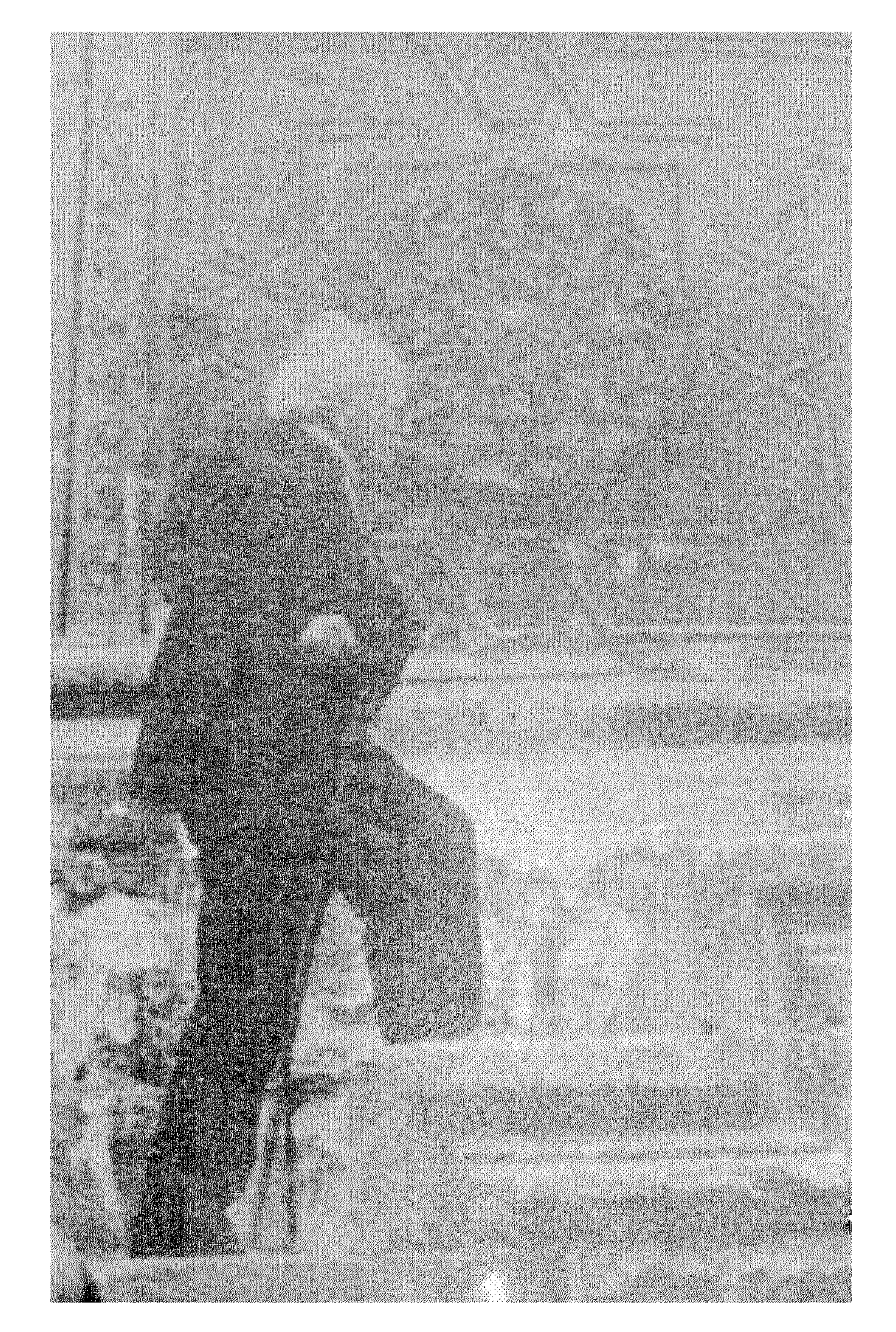


بقلم : د. حمدى السكوت

من القصاصين والروائيين من يفضل أدبهم القصصى دائما كتاباتهم الأخرى ، ومن هؤلاء الأستاذ نجيب محفوظ . ومنهم من تتفوق قصصه لفترات ثم تتفوق مقالاته لفترات ، ومن هؤلاء الدكتور يوسف إدريس ، الذى تفوقت قصصه ومسرحياته على كتاباته الأخرى فى الخمسينيات والستينيات ، ثم تفوقت مقالاته على كتاباته الإبداعية فى السبعينيات والثمانينيات .

وهناك فريق ثالث تتفوق معظم مقالاتهم على معظم قصصهم ، ومن هؤلاء - فيما أزعم - الأديبان الكبيران إبراهيم عبد القادر المازنى ويحيى حقى (١) . وقد يدهش القارىء لهذا الحكم الذى يبدو جائرا على قصص أديب كبير ارتبط أسمه دائما بقنديل أم هاشم ، وهى عمل قصصى وليست مقالا ، ولكن دهشته ستزول حين يتبين أولا أن رصيد يحيى حقّى من القصص الجيدة حقا قد لايتجاوز أصابع اليدين .

ومثل هذا العدد الضئيل نسبيا لا يفسر المكانة الكبيرة التى يمثلها يحيى حقى فى قلوبنا ككاتب ، وحين يتبين ثانيا أنه حتى هذه القصص الجيدة - وعلى رأسها قنديل أم هاشم والبوسطجى - لاتخلو من هنات وسلبيات . أشار كاتب هذه السطور إلى بعضها فى دراسة سابقة (٢) . وأشار عدد من النقاد إلى بعضها الآخر (٣) . لقد كتب يحيى حقى عددا محدودا من القصص وعددا كبيرا من المقالات ، وهو ما يوضح





تفضيله لكتابة المقال على كتابة القصص ، وما يؤكده هو ، حين يقول : «أحسست منذ البداية أن نفسى غير طويل وأننى أريد التقاط (بعض) الجزئيات والتركيز عليها ، وميلى الشديد إلى التأمل والوصف ، كما أننى أضيق ذرعا بالحدوتة والسرد» . «أنا متيم بالوصف والتأمل وقليل الصبر على الحادثة فأى القوالب يخدمنى ؟ لقد قدمت قالبا أعتبره من أهم القوالب الأدبية . وهو ما أسميه باللوحة القصصية ، بمعنى رسم صورة بالقلم لموقف أو لشخصية أو لحدث ، دون ارتباط والتزام بقواعد القصة القصيرة ، هذه اللوحة أقرب إلى القصة من المقال ، وفيها تحررت من الحدث» . «من خلال الوصف فقط أريد الوصول إلى الأشياء» (٤) .

ويحيى حقى هنا أمين - كالعهد به فى كل ما ينطق عنه - وهو يضع أصبعنا على نقاط الضعف فى قصصه ، أن «قنديل أم هاشم» ، مع التسليم بكل عناصر القوة فيها ، تفتقد هذا «النفس الطويل» ، الذى كان من شأنه أن يملأ هذا البناء الروائى الضخم ، سواء من حيث زمانه أو مكانه أو شخوصه بالتفاصيل الغزيرة المطلوبة . وأن قصصا من مثل «أبو فودة» و «قصة فى سجن» و «البوسطجى» تقدم لنا الوصف الحى والتأملات الذكية ، لكنها حين تنتقل من موقف وصفى لموقف آخر يحدث الخلل فى البناء القصصى ، وتتدخل «المصادفات» عادة للربط بين المواقف ، بدلا من الترابط السببى الذى تحتمه «قواعد القصة القصيرة» .

الموهبة والذكاء

وواضح أن الأديب الكبير قد تنبه منذ البداية إلى موهبته الحقيقية ، واستغلها بذكاء ونجاح كبيرين المقالات - بأسلوبه هو - والمقصود طبعا هو المقالات غير النقدية ، تحوى خير ما فى القصص ، وتتجنب سلبياتها . التقاط موضوع جزئى والتركيز عليه ، والتأملات النافذة ، والوصف الذى يضج بالحيوية عناصر موجودة فى كل مقال ، وحين ينتهى عرضها ينتهى المقال ، دون حاجة إلى «النفس الطويل» أو إلى ربط المقال بمواقف أخرى ، مع ما يستلزمه الربط من قيود «السرد والحدوته» التى «يضيق بها» يحيى حقى «ذرعا» .

لاعجب إذن ألا يكتب الأديب الكبير فى كل حياته إلا رواية واحدة هى «صح النوم»، وثلاث مجموعات قصصية حجم كل منها هو حجم عدد من سلسلة «اقرأ» ، هى على التوالى : «دماء وطين» و «قنديل أم هاشم» و «أم العواجز» ثم مجموعة «عنتر وجولييت» التى انقسمت - مناصفة تقريبا - بين المقالات ، أو ما يسميه المؤلف باللوحات ، وبين القصص ، على حين قربت مقالاته على الألف مقال .

ومكسب آخر هام حققته المقالات وهو إسهامها الكبير فى اتساع نطاق شعبية يحيى حقى . وذلك لأنها تخلق جوا من الألفة الحميمة ، والتعارف المباشر بين القارىء

وبينه ، إذ هى لاتقوم على أشخاص أو مواقف «متخيلة» كما هو الحال فى القصص ، وإنما المتحدث دائما هو يحيى حقى ، وهى ، بأسلوبها «المتميز» ، الذى سنتناول خصائصه بعد قليل ، تنجح فى تقديم الوصف الجثمانى والملامح المميزة لشخصية الأديب الكبير . ولما كانت هذه الشخصية ذكية مرحة ، ودودا ، رقيقة ، بسيطة ، شديدة التواضع ، ممتلئة بحب مصر إلى درجة التشبع غارقة فى عادات وتقاليد وحياة الطبقات الشعبية بصفة عامة ، فقد ملأت صدور الناس اعجابا بها وحبا وتقديرا لها ، وأنا أرى أنها هى المسئولة - وليس القصص - عن الشعبية العارمة التى يتمتع بها يحيى حقى بين صفوف القراء ممن عرفوه عن قرب ، وممن لم يسعدهم الحظ بلقائه .

ويتميز أسلوب المقالات بالوصف الدقيق حسيا ونفسيا ، وبالتأمل النافذ الذى يمكن الكاتب من رؤية الأشياء المألوفة بعين جديدة وبشيوع الكلمات والتراكيب البليغة، من اللغة الدارجة ، بما تثير من مشاعر وأجواء نفسية وظلال معان مطلوبة بالتقاط اللمسات الإنسانية والتفاصيل الشاعرية ، وفوق كل ذلك بشيوع السخرية وما تبعثه من المفارقة وروح المرح فى جو المقال . وسخرية يحيى حقى عادة من ذلك النوع الناعم غير الغليظ ، وهى لا تؤلم ولا تحتقر ولا تقصد إلى الايذاء ، لسبب بسيط ، هو أن معظمها موجه ليحيى حقى نفسه ، ولأنها موجهة لصاحبها فهى تحقق هدفا آخر هو سرعة اقتناع القارىء بصدقه ومنحه ثقته وشيوع الألفة بينهما ، لأن المتكلم فى هذه الحالة يكشف عن سذاجة سلوكه ، أو عن غفلته وغياب ذكائه ، وهذا الكشف ، أو البوح يقرب بين القارىء والمؤلف

ولنستعرض الآن بعض النماذج الموجزة التى قد توضح ما ذكرناه فى «خليها على الله» يقول يحيى حقى

«يوم أديت الامتحان الشفوى لآخر مادة فى شهادة الليسانس .. عدت من الجيزة إلى شارع السيوفية تحت شمس محرقة - وإن كادت تغيب فنحن فى عز الصيف ، يوليو سنة ١٩٢٥ - فإذا بى حين وصلت الدار أعجز عن صعود السلم .

أذكر كيف حملت إلى مسكننا ، ولكنى أذكر بوضوح أننى ارتميت بملبسى وحذائى راقدا على الكنبة ، مسندا رأسى إلى ركبة أمى (تأمل هذا المجاز العقلى المتحسر) .. فى حلقى جفاف ، كأنما هرب ريقى كله إلى عينى فهما مغرورقتان بالدموع . والتعب يبكى كالحزن .. كان ينبغى أن أنجح ولو جاء اسمى فى الذيل ، اعتزازا بشهادة الليسانس وبلقب «متر» - وهو طولى إن زاد المتر لكمية» ! .. (وإنما لكى) أغضب أمى (٥) يهون كل شىء أن أقف أمامها وقفة الخائب» .

وفى مقاله الممتع «وجدت سعادتى مع الحمير» يقول يحيى حقى

«والحمار .. على درجات ، أدناها حمار السبخ ، يطلب منه أن يجرى ، بل له أن يمشى كما يشاء فيمشى يربط عظامه بعضها إلى بعض خيط واه يجند لهذه

السخرة حمير أشلها الضعف أو الكبر أو السقم ، ودعت الدنيا أنها تعيش على هامشها . منهوكة القوى عاجزة حتى عن انين .. فى بعض احيان يضع الصبى الفح ، وهو يسير بجانب الحمار ذراعه على كفله . أظن أن هذه اللمسة – رغم ثقلها – هى صلته الوحيدة بعالم الشعور ، يجد فى غيرها الفا أو شفاء من الوحدة والضياع» .

صور دقيقة

وذات يوم يوقف بواب العمارة يحيى حقى على السلم ليطلب منه بعض ملابسه المستعملة ، فيظل فاغرا فاه من الدهشة لأن البواب «عملاق» نوبى بينما هو .. «يحسب بين الطوال مجاملة» .

ومرة يفكر يحيى حقى فى تناول الغداء فى مطعم فيستعرض الموقف :

«السانداوتش» يوفر فى الظاهر لرخص سعره ، لكن يلزم عدد كبير منها لكى يشبع ، ويشتاق إلى الفول المحوج فى مطعم شعبى لكن هذا المطعم غير مناسب . لازدحامه وقذارته ، وعيب المحلات «الوسط» أنها تقدم كمية ضئيلة فضلا عن قلة الأصناف المعروضة . أما المحلات «المبجلة» فماذا يجد فيها سوى «الأسماء الفخمة» مطبوعة على قائمة المأكولات ، والنتيجة أن الأبهة والفخامة والموظفين الكثيرين المزوقين بملابسهم المزركشة تكلف كثيرا . «انتقامى الوحيد من هذه المطاعم أننى أدس خلسة فى جيبى كل ما أجده أمامى من أعواد تسليك أسنان» !

ويحيى حقى مدمن تدخين وهو كغيره لا يستريح لأولئك الذين يحاولون التدخين على حسابه . «أظرف هؤلاء الناس جميعا صديق صريح كل الصراحة يكره اللف والدوران، لذلك عقد معى اتفاق جنتلمان تعهد فيه بألا يأخذ منى فى اليوم إلا سيجارة واحدة .. فأراحنى مسلكه .. وخلص لقاؤنا وحديثنا من كل حرج أو مؤامرة .. (وقد) عقد اتفاقات مماثلة مع عدد من بقية أصدقائه ، إنه يذكرنى بمحمد على حين نزع من لحية الدفتردار وهو يجالسه شعرة واحدة ، ثم أتبعها بعد هنيهة بشعرة أخرى ، تعجب الرجل المنتوف اللحية فى سره من مسلك الباشا ، وظنه نوعا جديدا من نزواته فى الممازحة ورفع الكلفة ، نوع سخيف ولكن لا ضرر فيه ، وليس من ورائه عذاب .. وإذا بالباشا يقبض على لحية الدفتردار فجأة ويشدها بعنف ، وصرخ الرجل صراخا عاليا من شدة الألم ، فابتسم محمد على وقال له «هكذا يكون تحصيل الضرائب : واحدة .. واحدة» !

اننى أدعوك أيها القارىء لكى تقرأ مجموعات مقالات يحيى حقى (إن لم تكن قد فعلت) وأنا واثق من أنك ستحصل من المتعة و «الفائدة» على أضعاف ما تحصل عليه من قراءة كثير من قصص يحيى حقى نفسه ومن قصص غيره أيضا .



يحيى حقى وزوجته الفرنسية .. التى غادرت مصر عقب رحيله

الهوامش

* هذا المقال جزء من دراسة لم تكتمل ولم تتبلور بعد ، يبحث فيها كاتب . هذه السطور عن الأسس الحقيقية التى ترتكز عليها مكانة الأديب الكبير ، وعن سر شعبيته العارمة بين الطبقات الشعبية .

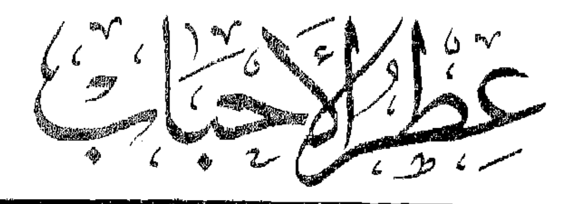
١ - (آمل أن أقدم فى مقال لاحق دراسة مقارنة لأسلوب الرجلين فى مقالاتهما) .

٢ - انظر مقال : يحيى حقى بين كوم النحل ومصر الجديدة ، مجلة الثقافة عدد يناير سنة ١٩٦٥ . وقد أعيد نشر المقال فى كتاب : «دراسات فى الأدب والنقد» مكتبة الأنجلو ١٩٩١ .

٣ - انظر - على سبيل المثال : رشاد رشدى : مقالات فى النقد الأدبى ، مكتبة الأنجلو ص ١٠٢ .

٤ - عبد الفتاح عثمان ، الأسلوب القصصى عند يحيى حقى ، القاهرة ١٩٩٠ ، ص ٦٩ - ٧٠ (نقلا عن مجلة فصول مجلد ٢ عدد ٤ «ندوة العدد») .

٥ - باح لى الأديب الكبير بسر إشادته المتكررة فى كتاباته بدور الأم فى رعايته هو وأخوته ، وطلب ألا أذيع السر إلاّ بعد وفاته لكنى لا أرى الوقت ملائما الآن . وقد أفعل فى المستقبل .



عطر الأحباب

بقلم : د. الطاهر أحمد مكى

قلة من الأدباء كنا نعرفهم ونحن تلاميذ شادون فى دنيا الأدب فى أعلى صعيد مصر قبل أربعين عاما ، فقد كانوا يقدمون إلينا الكتاب الأسلوبيين فحسب ، أمثال مصطفى صادق الرافعى ، وأحمد حسن الزيات ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، وكانت مجلة الرسالة الأسبوعية طريقنا إلى الالتقاء بالأدباء الذين يشغلون ساحة الأدب على أيامنا ، وكانت بحكم تكوين صاحبها ورئيس تحريرها أميل إلى المحافظة المجددة ، وأشد اهتماما باللغة والأسلوب فيما تنشر ، فأولعنا عن طريقها إلى جانب من ذكرنا ، بمحمد سعيد العريان ، وعلى الطنطاوى ، ومحمود محمد شاكر ، وأما عباس العقاد فكان يعسر علينا فهمه فكنا نتجاوزه عجلين ، وكانت الفصول التى يكتبها طه حسين عن «على هامش السيرة» تشدنا بقوة ، فنلتف حلقا ، ونقرأها جمعا ، ونستعيدها أحيانا ، حتى نحفظ الكثير من مقاطعها .

ولم تجد مجلة الثقافة لها طريقا بيننا ، وكنا نرى ألاّ داعى إلى صدورها إلى جانب الرسالة ، ولم ندرك فى سننا الطرية يومها أنها تعكس منهج أحمد أمين رئيس تحريرها فى البحث والدرس ، وتلتقى على صفحاتها شلة من شباب الجامعيين العائدين من البعثات فى جملتهم ، يحملون أفكارا جديدة ، ويبشرون بأدب جـديد ويدعون إلى لغة تواكب العصر ، وأسلوب يستجيب لمتطلبات اللحظة التى يعيشونها .

إلى أن هبط مدينة قنا ذات يوم من عام ١٩٤٣ أزهرى متطور ، الشيخ كامل محمد عجلان ، يهوى الأدب ، ويحترف الكتابة ، وموصول الأسباب بالصحافة والتيارات النقدية الجديدة ، فأخذ يحثنا على قراءة المازنى ، وشعراء المهجر ، والقاهرة الجديدة لنجيب محفوظ ، وكل ذلك كان علينا جديدا ، ودعانا إلى أن نفيد من سلسلة جديدة تصدرها دار المعارف ، باسم «اقرأ» ، زهيدة الثمن ، وتقدم نتاج خيرة الكتاب والمفكرين ، ولايزيد ثمنها على ثلاثة قروش .

واستجبت له فورا .

اشتريت العدد الأول منها ، وكان عن «أحلام شهر زاد» لطه حسين ، وصدمنى بقوة لأنى لم أفهم منه شيئا ، وفهمت شيئا قليلا من «شاعر الغزل عمر بن أبى ربيعة» للعقاد ، وشدنى بقوة «شاعر ملك» لعلى الجارم ، وحين جاء الدور على «قنديل أم هاشم» ليحيى حقى ترددت طويلا قبل شرائها ، لأن اسمه كان جديدا على تماما ، لم أسمع عنه من قبل شيئا ، ولا أدرى من تكون «أم هاشم» هذه ، ولكنى استخرت الله ودفعت فيها ثلاثة قروش ، وأذكر أن الوقت كان مطلع الصيف ، والجو فى قنا شديد الحرارة ، فأويت بها إلى أقرب مقهى فى الحدائق الجميلة التى كانت تتوسط المدينة ، وقد اعتنى بها زهورا وخضرة ، سقيا وتنسيقا ، وبدأت القراءة ، ولا أدرى كم من الزمن استغرقت قراءتها ، ولكن الذى أذكره تماما أننى لم أفارق المقهى إلاّ بعد أن انتهيت منها تماما .

العزف على الكلمات

ما الذى شدنى إليها فى هذه الفترة الباكرة من حياتى ؟ لاأستطيع الجزم بذلك تماما ، وإنى لأذكر أن أشياء كثيرة مرت علىّ لم أفهمها ، وأننى توقفت أمام الطبيب العائد من أوربا يريد أن يحارب الخرافة ، وأن يشيع العلم ، ولكنه سقط فى النهاية أسير التقاليد والعادات . وأذكر أيضا أن اللغة في كثافتها وبساطتها ودقتها ورقتها كانت جديدة علىّ تماما وأسرتنى بعنف ، وجدت نفسى أمام موسيقى ماهر يعزف على الكلمات ، ويضع كل لفظ فى موضعه ، فلا حشو ولا إطناب ، ولا خلل ولا نقص ، وأن الجمل والكلمات تجىء مترابطة من غير حاجة إلى حروف العطف ، ويمسك بعضها بعضا فى تآزر جميل ، لتحمل الشحنة التى يود الكاتب أن يودعها أعماق المتلقى فى هوادة ويسر ، دون أن تقف دونها عوائق من وحشى الكلم أو جهامة التعبير .

وكان هذا هو لقائى الأول مع يحيى حقى ! .



وقد انتظرت طويلا قبل أن يجيء اللقاء الثاني ، رغم أنني جئت القاهرة بعد قراءة الرواية وفتنتي بها بشهور ، لأن السياسة وكتبها وجماعاتها ، ما كان منها معلنا أو تحت الأرض شغلني أعواما طوالا ! ، إلى أن كان يوم من ربيع عام ١٩٦٥ حين جاءنا بشخصه في دار العلوم زائرا ومدعوا ، ليتحدث إلى أساتذتها يطلب عونهم في دعم مجلة «المجلة» ، وكانت رياسة تحريرها قد أسندت إليه ، وتتهيأ لأن تصدر عددا خاصا باللغة العربية .

منجم من الفن المتميز

وفي الحال عادت بي الذاكرة إلى قنديل أم هاشم ، فها أنذا أمام مؤلفها بلحمه ودمه ، هامس الصوت ، هادىء الحوار ، أنيق العبارة ، رقيق الملمح ، يعرض فكرته في ثقة من غير استعلاء ، ويبدى ملاحظته متواضعا في غير ضياع ، لا تستقر نظرته عند أحد بعينه ، كأنما يستقرىء أعماق الذين حوله جميعا .

وبعدها توالت قراءاتي له ، واكتشفت فيما يكتب منجما من الفن المتميز ، ترضى عنه كلية أو تكون لك عليه بعض الملاحظات ، تراه في نطاق قواعد الفن المقررة أو خارجا عليها ، فهو جذاب دائما متميز أبدا ، تدرك أسلوبه وطابعه فيما يكتب حتى لو كان غفلا من غير توقيع .

وخلال اهتمامي به بين هموم وضواغط عامة تحاصرنا من كل جانب حرصت على أن أتقصى جوانب حياته المختلفة ، قارئا ودارسا ومبدعا ، لتكون قدوة للشادين في دنيا الأدب بعامة ، وفي عالم القصة بخاصة ، تاركا ورائي مقولات مكرورة من مثل «الانطلاق من النص» ، و «العودة إلى النص» و «الالتزام بالنص» ، وكلام كثير قديم ومعروف ، وكان الخروج عليها يوما تجديدا ، ويعدون اليوم العودة إليه قمة التجديد ، ذلك أن النص مولود له أب ، والابن يأخذ الكثير من أبيه ، وحتى من أسلاف أبيه ، وممن حوله ، ويدعون بصماتهم واضحة في شخصه مزاجا وذوقا وميولا .

سأدع جانبا أنه وجيله ثمرة يقظة الشعب المصري مع دعوة مصطفى كامل ، بعد أن أجهض الاحتلال العسكري البريطاني الطموح والأمل في أعماق الشعب التي بدأت تزدهر أيام إسماعيل ، فقد التقط أنفاسه واسترد عافيته ، وبدأ رحلته نحو النهضة من جديد ، وبلغت اليقظة قمتها في مجال السياسة بثورة ١٩١٩ ، ومع سيد درويش في عالم الموسيقى ، وبمختار في النحت ، وبشوقي في الشعر ، وبتكوين «المدرسة

الحديثة» فى مجال القصة ، وجاءت فى صورتها العصرية نوعا أدبيا جديدا وافدا ، وكان يحيى حقى ولم يزل فتى لم يبلغ العشرين من عمره بين أعضائها .

فإذا تركنا المناخ العام إلى البيئة اللصيقة التى أحاطت به ، تفيأ ظلالها وتنسم أريجها ، وتغذى من أجوائها ، وارتوى من صخب الحياة حولها وجدنا البيت يمثل الرافد الأول لثقافته كما هو طبيعي . ولن أقف طويلا عند والديه ، إذ لا أخاله فى هذه الحالة إلا كآلاف مثله ، لأن التباين فى معاملة الأبناء بين أبناء الطبقة الواحدة كان معدوما ، «فكلهم فى التعامل شرق» ، ولكننا نعرف أن والده الموظف بوزارة الأوقاف كان قارئا نهما ، يشترك فى عدد من المجلات الأدبية على أيامه مثل : الهلال والمقتطف واللواء والزهور والسفور والجريدة الأسبوعية ، وكان يحرر الأخيرة محمود طاهر حقى ، عم يحيى . وأن والدته متدينة ، تجيد القراءة والكتابة ، على قلة القارئات من النساء فى تلك الأيام ، وتهتم كثيرا بتلاوة القرآن الكريم ، ومطالعة الكتب الدينية ، وأعطت أبناءها السبعة أسماء دينية : إبراهيم وإسماعيل ويحيى وزكريا وموسى وفاطمة ومريم .

فى مثل هذا البيت العبق بأريج الثقافة يتحاور الأخوة ويتجادلون ، ويقرأ يحيى كثيرا من الأدب قديمه وحديثه ، شرقيه وغربيه ، فقرأ للجاحظ وأعجب به ، وأخذ بتاريخ الجبرتى ولم يكن يتوقف عن النظر فيه ، وتعلق بأناتول فرانس وأغرم بكتابه «حديقة أبيقور» ، وشارك أعضاء المدرسة الحديثة فيما كانوا يقرأون من روائع الأدب الروسى مترجما إلى الفرنسية بخاصة .

يحيى حقى وحى السيدة

فإذا تركنا البيت إلى البيئة المجاورة ، أعنى حى السيدة زينب ، حيث ولد يحيى ، لم نكن فى حاجة إلى وصفه ، فقد رسم له لوحة دقيقة أخاذة ، أحاطت بالجانب الأكبر من خصائصه المادية والروحية ، يقول :

« .. يمتلىء الميدان من جديد شيئا فشيئا ، أشباح صفر الوجوه ، منهوكة القوى ، ذابلة الأعين يلبس كل منهم ما قدر عليه ، أو إن شئت ما وقعت عليه يده من شىء فهو لابسه .. ونداءات الباعة كلها نغم حزين .

«ما هذا الظلم الخفى الذى يشكون منه ، وما هذا العبء الذى يجثم على الصدور جميعها ؟ ، ومع ذلك فعلى الوجوه كلها نوع من الرضا والقناعة ، وما أسهل ما ينسون ! ..

«ليس هنا قانون ومعيار وسعر ، بل عرف وخاطر وفصال وزيادة فى الكيل أو طبة فى الميزان ، وقد يكون الكيل مدلسا ، والميزان مغشوشا ، كله بالبركة ..

«صفوف تستند إلى جدار الجامع جالسة على الأرض، وبعضهم يتوسد الرصيف، خليط من رجال ونساء وأطفال ، لاتدرى من أين جاءوا ولاكيف سيختفون ، ثمار سقطت من شجرة الحياة فتعفنت فى كنفها .. هنا مدرسة الشحاذين .

«ينقضى النهار فيودع الطرشجى براميله ، وتترك أقدام الخراط عملها اليوم وأدواتها لتعود بصاحبها إلى الدار .

«لايزال الترام هنا وحشا مفترسا له فى كل يوم ضحية عزيزة ..

«يتقدم المساء ينعشه نسيم ذو دلال ، تسمع من القهاوى ضحكات غضة وأخرى غليظة حشاشى . وإذا دلفت من الميدان إلى مدخل شارع مراسينه سمعت ضجيج السكارى فى خمارة أنسطاسى التى يلقبها أهل الحى بفكاهتهم «خمارة أنست» ..

«أشباح الميدان الحزينة المتعبة يحركها الآن نوع من البهجة والمرح ، ليس فى الدنيا هم ، والمستقبل بيد الله ، تتقارب الوجوه بود ، وينسى الوجيع شكايته ، ويبذر الرجل آخر نقوده فى الجوزة أو الكتشينة ، وليكن ما يكون ..»

ويصف لنا بائع الدقة الأعمى الذى «لا يبيعك إلا إذا بدأته بالسلام وقرأت وراءه الصيغة الشرعية للبيع والشراء» .

وعندما انتقلت عائلته إلى حى الخليفة لم يكن ثمة فرق يذكر بين ما خلّف وراءه ولقى أمامه سوى أن الحى الجديد لا تشمله الست ببركاتها .

الريف .. صاحب الفضل

ويترك يحيى القاهرة إلى الصعيد معاونا للإدارة ، فى يناير من عام ١٩٢٧ ، ولما يزل فى الثانية والعشرين من عمره ، ليواجه مجتمعا وحياة جديدين ، وكان من مهمته أن يقوم بتنفيذ طلبات السلطة المركزية فى المديرية ، وهذه بدورها تتلقاها من القاهرة : تنفيذ المخالفات ، جمع أنفار القرعة العسكرية ، المعاونة فى تحصيل الضرائب ، وفض المشكلات المعقدة بين الأهالى ، ولمس عن قرب الهوة العميقة التى تفصل بين عامة الناس من الفلاحين وبين الحكومة ، وكيف أنهم يقفون فى مواجهتها صفا واحدا .

وأضاف البعد عن بيت الأسرة فى القاهرة والعيش وحيداً فى منفلوط تجربة جديدة فى حياته ، فكان عليه أن يواجه متطلبات الحياة اليومية بنفسه ، وأن ينعم بمناخ أكثر حرية مما كان عليه بين أبويه وأخوته ، وتعرف في غربته إلى زملاء من العاملين في المجالات المختلفة ، أطباء ومهندسين وبغايا ، وجاء صدى إقامته فى هذه المنطقة واضحا فى مجموعته «خليها على الله» ، ويعترف بأن إقامته فى الريف كان لها الفضل فى «أن أعرف بلادى وأهلها وأخالط الفلاحين عن قرب ، وأعيش فى الحقول بين نباتها وحيوانها ، وآكل بصلها وسريسها ، بل إنى وجدت سعادتى فى أن يزاملنى الحمار طول النهار ..»

وما أكثر ما رافق الحمار صاحبه يحيى فى رحلاته ، وما أكثر ما تحدث عنه يحيى فى ظرف وعرفان !

وقد أطل يحيى على العالم الأجنبى مبكرا من خلال اللغات الأجنبية ، فقد أجاد هو وجيله اللغة الإنجليزية ، يدرسون بها كل المواد فى المرحلتين الإبتدائية والثانوية ، ويدرسون الفرنسية إلى جوارها ، أو قبلها أحيانا ، ويقوم على تدريسهما معلمون من أهلها ، يجيدونها أولا ، ويتعصبون لها ثانيا ، ويرون فى حمل الناس عليها وتجويدها مهمة قومية قبل أن تكون مهنة يتلقون عليها أجرا .

ومن هنا تعددت الروافد الثقافية الأجنبية عند يحيى حقى ، وكان باب النهل منها مفتوحا له على مصراعيه ، فإذا عرفنا أن الإنجليزية والفرنسية سادتا العالم القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، وسيطرتا على ثقافته ، عرفنا أنه ما من شيء ذى قيمة يكتب فى لغة أخرى ، إلا ترجم إليهما فى عام صدوره في كثير من الحالات .

والاتصال بالآداب الأخرى والارتواء منها عامل جوهرى فى الارتقاء بالثقافة الوطنية من جانب ، وصقل أفكار المبدع وتطوير أسلوبه من جانب آخر ، وإنما يجيء العقم قويا واضحا حين يقف الكاتب أو الأديب بثقافته عند لغته وحدها ، والترجمة تغنى قليلاً ، ولكنها لا تسد كثيرا عن القراءة فى اللغة الأم نفسها ، وازدهار أى أدب على مستوى الفرد أو الجماعة يبلغ أوجه حين يلتقى مع أدب ، أو آداب أخرى ، عن طريق الترجمة أو الغزو أو التجارة وغيرها ، وإجادة اللغة الأجنبية أقواها ، وهى ظاهرة تجد تأكيدها فى دنيا الواقع ، فأعظم الكتاب عندنا ، وعند غيرنا ، هم الذين يملكون أن يسبحوا بأنفسهم فى آداب الآخرين ، ويؤكدها العلم من جانب آخر ، حين

يطعمون الشجرة بأخرى مختلفة عنها ، أو ينقلونها من تربتها إلى غيرها ، ليحصلوا من هذا المزج أو النقل على ثمرة أفضل ، أو حين يخلطون نوعين من المعادن ليحصلوا على آخر مختلف عنهما وأقوى من أى منهما .

عشق وإجادة للغات الأجنبية

وإجادة يحيى حقى للإنجليزية والفرنسية حقيقة واقعة لاتثبتها مناهج الدراسة فى تلك الأيام ، ولا حتى عمله فى وزارة الخارجية ، أو اقترانه بسيدة فرنسية ، فقد يحسن المرء الحديث باللغة فى حديث صالونى ، ولكنه لا يعرف من أدبها ودقائقها ووسائل تعبيرها غير قشور ، وقد سجل لنا فى كتابه الموجز الجميل «فجر القصة» دور اللغات الأجنبية فى وصله ، هو وجيله بعامة وكتاب القصة بخاصة ، فى تكوينهم الثقافى وإبداعهم ، وتجىء ترجماته منها فى مجالات المسرح والرواية والأدب الوصفى شاهدا على ما أفاد .

ولكن الثقافة لاتقف عند الكتاب المطبوع وحده ، فهناك الحياة ، وهى أرحب وأوسع وأعمق وأغنى لمن يعرف كيف يفيد منها ، فحيث الناس يكون التلاقى والصراع وتتجلى الحياة فى ألف وجه ووجه ، من الألوان والأزياء والمواقف والسلوكيات ، وحيث الطبيعة يتجلى بديع صنع الله فى اختلافه وتلونه ، يكون التأمل والتفكير والاندماج فى صوفية ، أراها وراء الكثير مما اتسم به يحيى حقى من طباع وصفات .

ولقد كان حظ يحيى من مطالعة هذا الكتاب واسعا ، فتنقل فى كثير من البلاد الأجنبية ، لامجرد سائح عابر يرى الأشياء من الخارج عجلا ، ويقنع منها بالظواهر ، وإنما موظفا فى السلك الدبلوماسى مما يتيح له الإقامة والاستقرار والزمن الكافى لكى يشاهد ويعرف ويتمثل ، ويمضى مع الأشياء إلى نهايتها فيقف على سرها ويدرك كنه جوهرها ، ورغم ما تفرضه الدبلوماسية على العاملين فيها من مظاهر براقة وألوان من السلوك الأجوف ، والوقوف بأصحابها عند الحد الأدنى من المعرفة ، فقد بذل جهده لكى يفلت من إسارها إنسانا فنانا ، وساعده على ذلك أن الفترة التى عمل فيها لم يكن لمصر فى المشكلات السياسية أو المكانة الدولية ، ما يفرض على تمثيلها فى الخارج عملا يقظا ومتواصلا ، وإنما كانت سفارتنا فى الواقع لاستكمال الشكل السيادى ليس إلاّ ، ويذكر يحيى حقى بأنه طول خدمته فى الخارج لم يسمع قط من

رئيس له أية تعليمات باتباع سلوك معين أو سياسة مرسومة ، وكل ما كان يحمل معه من مصر عند سفره تحيات يحملها له الآخرون إلى أصدقائهم فى الخارج .

عاش يحيى حقى فى بيئات أجنبية مختلفة ، فى جدة واسطنبول وباريس وروما وأنقرة وبنغازى وزار بلادا أخرى سائحا أو عابرا ، وأفاد من ذلك كله فيما زار من متاحف ، وشهد من بدائع الفنون ، وسمع من روائع الموسيقى ، ويعترف « . أما عملى فى السلك الدبلوماسى فقد أتاح لى الاتصال المباشر بالثقافة الغربية ، وإليه يرجع الفضل فى تكوين جعبتى المتواضعة من الفنون . كالموسيقى والمسرح والباليه . ولكن يجب أن أعترف أننى على كثرة زياراتى للمتاحف ، وقراءاتى عن التصوير والمصورين حتى أصبحت أعرف مشاهيرهم معرفة وثيقة ، لم أستطع أن أنفذ إلى أسرار فن التصوير ، وقنعت آخر الأمر بالمدرسة التأثرية إذا وجدتها أكثر قربا لنفسى ، وعشت زمنا وأنا عاشق للمصور ديجا وصوره ، وكنت أرقب نفسى حين أجدها ترتاح أيضا للنحت أكثر من التصوير ، وأطيل الوقوف أمام أعمال ميخائيل أنجلو أكثر من صور روفائيل مثلا ..»

أهمية الروافد الثقافية

تعمدت أن أؤكد على الروافد الثقافية عند يحيى حقى لأعطى الشاهد جليا واضحا لكثيرين الآن ، حظهم من المعرفة قليل ، ومن التجربة محدود ، ونصيبهم من الادعاء والغرور وفير ، وأن الإعلام الواسع لا يصنع وحده أدبا خالدا ، وقبلى عانى كاتبنا الكبير من هؤلاء ، وبسط القضية واضحة صريحة بلا مجاملة ولا التواء ، ويقول عن قصة كتبها أحد هؤلاء الأدباء .

«قرأت أخيرا قصة من إنتاجنا الحديث فأحسست منذ السطر الأول أننى محكوم علىّ بالأشغال الشاقة المؤبدة فى سجن طره ... لا أقطع الزلط فحسب ، بل أمضغه أيضا . » .

ويشكو مما أشكو منه فى شأن هؤلاء القصاصين

«لاتصدقوا أن الفقر الذهنى والروحى حشمة .. فنحن ننتظر أن يكون الفنان فاحش الثراء فى ذكائه ، وفاحش الثراء فى حسه ولغته ، وطلاقته .. وقبل أن تشغلوا أنفسكم بتأليف قصصكم اشغلوها بتحريك قدرة الذهن على الفهم ، والروح على الإحساس ، فإنى أرى هذه وتلك تدوران فى حلقة ضيقة مفرغة» .

ويتحسر لأن «أغلب هؤلاء الشبان لايقرأون الكتب الأم ، وإنما ينقلون آراءهم فيها عن آراء غيرهم .. وأولئك يروونها عن آخرين» ، وهكذا . ويأخذ عليهم فقرهم اللغوى : «أراهن نفسى قبل أن أقرأ قصة ناشئة على أنها لابد أن تتضمن ألفاظا معينة أشهرها عندى قوله دلف .. مارس .. أفرز .. تقوقع .. مصلوب .. عفوية ... وفى أحيان كثيرة أكسب الرهان وأنا حزين» .

ويرفع صوته ناصحا بما هو الأساس لمن يريد أن يكون أديبا : «أريد لهم أن يحسوا بأن لاشعر بلا عشق للشعر .. لا قصة بلا عشق للقصة .. وأن لاعشق للقصة والشعر إلا بعشق أهم هو عشق اللغة .. وهو عشق مؤرق معذب لاتخمد له نار ، فاللغة هى مادتهم كاللون للرسام والحجر للنحات ، ولابد لهم أن يكونوا خبراء بمعدن هذه المادة التى يعملون بها» .

كلام عظيم قاله يحيى ، وقال ما هو أشد منه فى كتابه «أنشودة البساطة» ، ونحن بحاجة لأن نقول ما هو أقسى منه للنقاد أيضا ، فهناك الآن من يتخصص فى نقد الشعر ، ولايحسن قراءة بيت منه مضبوطا ، ولايقيمه إذا أنكسر وزنه ، ويرى معرفة العروض عملا رجعيا ! .

الصدق .. تجربة وتعبير

كتب يحيى حقى الرواية القصيرة ، وبلغ فيها الذروة منذ البداية ، وحين أعاود تفسيرى بإعجابى الذى لم يمسسه وهن رغم السنين بقنديل أم هاشم ، أجد أنها كبقية أدب يحيى قامت على دعائم من الصدق تجربة وتعبيرا ، ومن الالتزام بالقالب الفنى للرواية ، وقبل ذلك كله من اللغة المتميزة لكاتبها .

وأبدع أيضا كثيرا من القصص الجميلة ، وتميز فيها بقالبه الخاص ، وهى تفتقد فى الجانب الأكبر منها تقنيات القصة القصيرة وقالبها ، دون أن يقلل ذلك من روعتها ، وإنما هى أقرب ما تكون إلى ما يسمى فى اللغات الأجنبية بلوحات العادات ، أو إلى ما يدعوه يحيى نفسه «لوحة قلمية» ، لأنه لايمكن تسميتها بالمقال فحسب ، لأنه ليس من شأن هذا الفن صنع أداة من منطق سليم يخاطب العقل وحده ويزيده علما ، وإنما غايته أن يحدث فى روح القارىء هذه الهزة اللذيذة التى هى فيض ربات الفنون وحدها مهما تعددت أسماؤها ، وهذه اللوحات القلمية أو الصور القصصية ، أو المقالات القصصية كما أدعوها أنا ، تكاد تستقل بأغلب الإنتاج المبكر لأعضاء

المدرسة الحديثة ، وسيطرت على أدب يحيى ، فهو أدخل فى باب اللوحة القلمية ، أو المقال القصصى منه فى باب القصة القصيرة بمفهومها الفنى الدقيق .

وإلى جانب هذين النوعين كتب يحيى حقى أيضا ، اليوميات والمقالة ، وفى النقد تأريخا وتطبيقا ، وترجم من اللغات الأجنبية مسرحيتين وثلاث روايات ، وتاريخا وصفيا لمدينة القاهرة ، ولم يزل الكثير من مقالاته فى الصحف المختلفة ، وجانب من القصص ، لم يجمع .

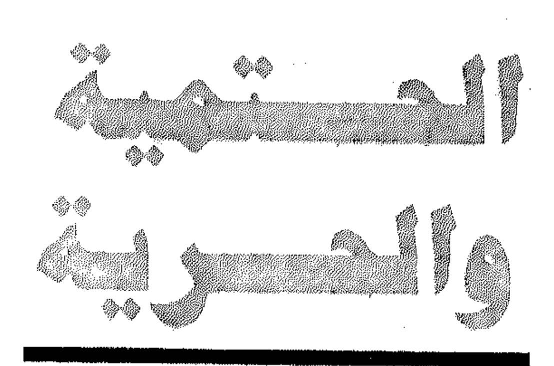
الأسلوب .. الصورة

هناك مقولة فرنسية شائعة تؤكد أن الأسلوب هو الرجل ، بمعنى أن أسلوب الكاتب صورة له ، ويمكن القول مع يحيى حقى إنه صورة من أسلوبه ، فكتاباته ترافق رحلة حياته ، وتعطى مؤشرا صادقا وموحيا بما حدث له ومنه ، وهو فى أسلوبه نسيج وحده حقا ، يتسم هذا الأسلوب بالدقة والبساطة والعضوية ، ينضح بسخرية مصرية حلوة ، وتلتقى فيه بصور حية نابضة لكل العوالم التى عاصرها على امتداد عمره الطويل ، وفى أى مكان ذهب إليه ، واستخدم لغة خاصة به ، تتسم بالتركيز والكثافة ، لايتوه فى غمار التفصيلات ، ويصطاد الجوهر فى لمحة سريعة ، لايحب «اللت والعجن» ، حتى أنه كثيرا ما يستغنى عن حروف العطف ، وأدوات الوصل ، وتتناثر فى كتاباته الجمل الاعتراضية والاستفهامية ، ويكثر من التشبيهات يلتقط مادتها من الحياة حوله ، وهو فى فكاهاته يحاول خلق أدب تتجلى فيه الروح المصرية ، فكان فى النثر ما كانه البهاء زهير فى الشعر ، ولكن فكاهاته ليست فجة ولا سطحية ، وإنما تجىء وليدة السخرية الهادفة إلى النقد ، وممزوجة بشىء من الألم والحزن أحيانا .

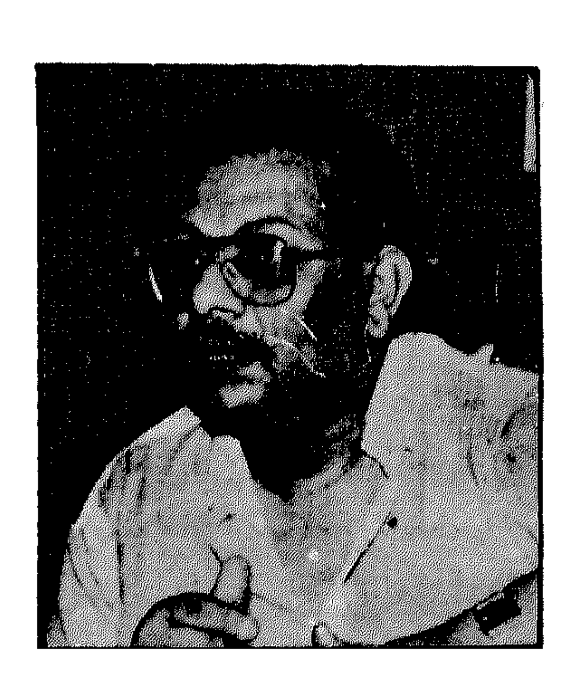
ومع غيرته على اللغة العربية ، وتحمسه لها ، ودفاعه عنها بوصفها الرابطة الأقوى بين العرب ، لم يكن يتردد فى التقاط اللفظ العامى واستخدامه ، إذا كان غيره لايقوم بوظيفته ، ولكنها عامية حقية متميزة ، فقد كان يرى أن الأدب «لايكون أدبا إلا بخروج الكلمات عن دلالاتها اللغوية وشحنها بفيض من الصور والأخيلة» .

لقد عبر يحيى حقى عن زمنه بإخلاص صادق ، واتسم طوال حياته بالتواضع والصوت الخفيض ، وبقى دائما طالب علم ، يقرأ قبل أن يكتب ، ويسأل قبل أن يقرر، ويحمر وجهه خجلا إذا قلت له نطقا أو إيماء : إنك فنان عظيم !

تجربتى مع الابداع



بقلم : أسامة أنور عكاشة



بدون الدخول فى تفاصيل تتعلق بالتعريفات العلمية لعملية الإبداع الفنى .. وآلياتها .. ومناقشة أسسها وأصولها .. سواء من جهة الدراسة النفسية .. أو الدراسة النقدية حيث يجب أن نخلى الساحة فيهما للفرسان من علماء النفس وأساتذة النقد ...

أرى أن خصوصية التجربة الذاتية لكل مبدع قد تلقى الضوء على إشكالية الموضوع وتعطيه الأمثلة أو النماذج التطبيقية المطلوبة .. بل أزعم أنها قد تزيح الستار عن جوانب جديدة لم تكن فى بؤرة الاهتمام ...

وأعتقد أن هذه الخصوصية – فيما يتعلق بى – تتمثل فى تفرد التجربة أو عدم تواترها على الأقل . إذ أتيح لى بحكم ظروف كثيرة أن أبدأ رحلتى مع الإبداع على أرض الأدب بمفهومه الكلاسيكى .. أى الأدب المكتوب للقراءة .. كاتباً للقصة .. وظللت طوال خمسة عشر عاما أعد نفسى راهباً من رهبان الأدب المقروء حتى حدث الانقلاب أو التحول الذى وجهنى لكتابة الدراما التليفزيونية .. ولعلى قد سردت حكاية هذا التحول وأسبابه فى أحاديث سابقة أو لعلى أذكره تفصيلا فى فرصة قادمة أتعرض فيها لتأصيل تجربتى الفنية وبيان خطواتها ومراحلها . أما ما يهمنى حقيقة فهو التوقف طويلاً أمام إشكالية الفروق الملموسة بين تجربتين ابداعيتين تختلفان فى وسيلة التعبير وآلية التلقى ...

وبداية فإنى أتصور أن الفن بمفهومه الشامل وبما يضمه من أجناس إبداعية كثيرة من بينها الآداب المختلفة المكتوب منها للقـــراءة أو المكتـــوب للمشـــاهدة أو « الفرجة » .. يعتمد عنصـــر الابـــداع فيه على خـــاصية فريدة هى « حتمية التعبير » ..

بمعنى أن المبدع – الموهوب طبعا – يحس أولاً بحاجة ملحة للتعبير تكاد فى إلحاحها تشبه الحاجات الطبيعية الفسيولوجية والنفسية .. تماماً كحاجة الانسان العادى للنوم أو الأكل أو الاشباع الجنسى .. وبعد الإحساس بإلحاح الحاجة للتعبير .. يـــجد المبـــدع نفسه « مجبرا » أو « مساقا » لتلبية تلك الحاجة ! وهو حين يلبى أو « يحقق » حاجته للتعبير .. يشعر بالمتعة .. أو بنفس « اللذة » التى تصاحب إشباع الحاجات الطبيعية الأخرى .

تعبير من خلال المبدع

فالفنـــــان الحقيقى إذن يشبـــع أولاً حاجته إلى التعبير حين يبدع .. ولا يمكن أن نحصر المسألة أو نحجمها بالزعم بأن الفن هو مجرد مهارة خاصة .. فى قرض الشعر أو كتابة قصة أو رواية أو دراما جيدة الصنع ..

وليست المسألة إجادة استخدام اللغة أو نحتاً للألفاظ والقوالب الانشائية ولا هى البراعة فى استنباط الغريب والطريف فى « صوبة » نباتات لغوية !

ببساطة .. الابداع ليس استخداماً لمهارة خاصة .. بل هو تعبير عن حاجة ملحة نفترض أنها راكمت فى داخل المبدع كل ما استطاعت ادواته أن تلتقطه من تجارب ذاتية وتعامل جدلى مع حياة الناس وقضايا الإنسان حوله ! ..

والتزاوج أو التلازم بين أدوات المبـدع

تجربتى مع الابداع

و « حتمية التعبير » هو ما ينتج فى النهاية فناً له قيمة يستطيع أن يثرى ويمتع ويفيد

ولنتوقف هنا قليلاً أمام ما نسميه أدوات المبدع ! ولنقرر ابتداء أن « الموهبة » ليست « أداة » بل هى شرط أساسى إذا لم يتحقق انتفت القضية من جذرها ! ومن قبيل تحصيل الحاصل والثرثرة أن نؤكد أن حديثنا هنا يتناول المبدع الموهوب .. فلا إبداع بلا موهبة !

والأدوات التى أعنيها تنقسم إلى قسمين : أدوات طَبعْية أو خلقية .. وأدوات متعلمة أو مكتسبة ..

أما عن الأولى فهى ثلاث .. دقة الملاحظة .. والقدرة على الاختزان والاسترجاع .. ثم القدرة على التركيز والاستخلاص ! .. ولنستطرد بشئ من التفصيل .. فبالنسبة للأداة الأولى .. دقة الملاحظة .. نرى أن الفنان المبدع يتميز طبْعيّاً وخلقياً بملكة شديدة الخصوصية .. وهى دقة الملاحظة .. ولنبادر على الفور لنقول أن الملاحظة هنا ليست فعلاً مقصوداً أو متعمداً .. فالكاتب لايرتب ولا يـنوى أن « يلاحـظ » ، وانما « يرى » تلقائيا .. وتتوقف عيناه أمام تفاصيل أو أشياء لا تلفت نظر الإنسان العادى .. إنه « يبصر » ويندهش و « يلمح» المفارقة والتناقض ويشعر بالخلل وعدم الإتساق .. ويرصد فى عملية مشتركة بين الوعى واللاوعى ما يميز حدثاً ما أو شخصاً بعينه أو سلوكاً بالـذات ! إنـه باختصـار يفطن « لغير العادى » فى مفردات الحياة العادية !

ثم نأتى للأداة الثانية وهى القدرة على الاختزان والاسترجاع .. وهى نتيجة أو خطوة تتبع آليا الأداة الأولى .. فكل ما يلاحظه الفنان ويتوقف عنده يتم فوراً إحالته إلى مخزن الذاكرة ليحفظ .. والحفظ هنا لا يبقى على المخزون بحـالته « الخام » بل يجرى خلطه ومزجه وتفاعله وتمثله بكل ما سبق تخزينه وبما رسخ فى الوعى من إدراك ومن ثقافة ومن قدرة على التحليل .. وأيضا بكل ما رسب فى العقل الباطن من مخاوف وأحلام وخبرات نفسية متعددة ليتبلور هذا المزيج أخيراً فى رصيد استراتيجى هو بمثابة المادة الحقيقية التى يستخدمها « الفنان » .. وهذا الرصيد يظل دائما « تحت الطلب » .. بمعنى أن يكون جاهزاً لعملية الاسترجاع أو الاجترار أو الطفو على سطح الذاكرة حين تبدأ آلية الابداع .. وهى الخطوة التى تقودنا حتماً إلى الأداة الثالثة وهى القدرة على التركيز والاستخلاص .. إن المبدع هنا لابد أن يتمتع بمقدرة فائقة على اختيار ما يلزمه

من مخزونه الاستراتيجي .. وهو اختيار يرتبط دائما « بخصوصية » الموضوع الذى يلح على الفنان .. وتتوقف قيمة العمل الفنى وأهميته على هذا الاختيار .. بمعنى الحساسية الشديدة فى استرجاع ما « يلزم » دون إفاضة غير مطلوبة أو اختزال مخلّ .. وليسمح لى القارئ أن أضرب له مثلاً تطبيقيا من واقع تجربتى الفنية ..

دور أساسى للخبرات المختزنة

ففى رباعية ليالى الحلمية كان من الأهمية البالغة أن تخرج خبراتى المختزنة لتستدعى ما يلزم للموضوع .. من شخوص .. ونماذج سلوكية .. واختيار لمكان بعينه .. بمعنى أن استدعى لشخصية « سليم البدرى » ملامحها التى سبق اختزانها بين ملامح كثيرة لشخصيات عديدة رأيتها ورصدتها واختزنتها .. يجب أن يتصرف هذا الرجل بشكل معين .. وأن تكون مفرداته اللغوية متسقة مع ملامحه النفسية وشريحته الاجتماعية .. فإذا نجحت فى تحديد هذه الملامح .. فسوف تكون الشخصية متفردة ومختلفة عن شخصيات أخرى مثل « سليمان غانم » أو « زينهم السماحى » وهذا التفرد والتميز يصدران أساساً من عملية التركيز والاستخلاص التى تؤدى إذا تمت بنجاح إلى ما نسميه بواقعية الشخصية الدرامية ومصداقيتها ! ..

أما عن القسم الثانى وهو الأدوات المتعلمة والمكتسبة .. فنستطيع أن نحددها فيما يمكن تسميته بالمهارة الفنية .. التى يستطيع الفنان الحصول عليها إما بالدراسة أو الخبرة أو حتى باجادة التقليد .. وهى بداية أدوات يسهل على المبدع اكتسابها بقليل من الجهد .. فإذا توافرت لدى القاص أو الروائى أو كاتب الدراما أدواته الطبعية أو الخلقية التى سبقت الإشارة اليها .. كان من أسهل الأمور عليه أن يكتسب مهاراته « التكنيكية» فيعرف الأصول الفنية ككتابة القصة القصيرة .. أو الأسس النظرية لبناء معمار الرواية .. أو القواعد الأرسطية للدراما .. ثم هو قادر بعد ذلك على استيعاب وإجادة المهارات التابعة كفنية كتابة « السيناريو » مثلاً ولعله من الواضح أننى استهدفت بهذا الاستطراد في الحديث عن أدوات الابداع أن أخلص لحقيقة معينة وهى أن التجربة الإبداعية قد تختلف من جنس فنى إلى جنس آخر ولكن فى الشكل فقط .. أما فى الجوهر فهى تنبع من قاعدة واحدة .. وقد يقودنى هذا بالضرورة إلى الحديث عن «معركة » أدبية أثيرت ولا تزال مثارة حول إطلاق صفة الأدب على الدراما التليفزيونية وهى المعركة التى بدأت بمقال قيم وشديد الأهمية للروائى الأستاذ عبد الله الطوخى تحت عنوان « غروب الأدب » لفت فيه الانظار إلى جنس أدبى جديد

تجربتى مع الابداع

يوشك أن يسحب البساط من تحت أقدام الأدب المكتوب للقراءة .. وهو الدراما التليفزيونية .. ورغم لهجة « الحزن » والتحذير التى شاعت فى مقال الأستاذ الطوخى فإن القضية أثارت غضب الصديق الأستاذ جمال الغيطانى فانبرى فى تجلياته بالصفحة الأدبية للأخبار يرد على مقال الاستاذ الطوخى بلهجة حادة وعنيفة منكراً ومجرداً الدراما التليفزيونية من أي صفة تلحقها بالأدب .. وقد كتبت حينها رداً على تجليات الغيطانى وتكرم بنشره .. وقد حفزنى للرد أن اسمى قد ذكر فى كلا المقالين مما جعلنى رغماً عنى فى صدارة المعركة .. ولست هنا بصدد الخوض فى المعركة أو إثارتها مجدداً . خاصة وهى لا تزال مطروحة على الساحة وتحتاج إلى اجتهادات وآراء كل النقاد والكتاب .. لأن غبار هذه المعركة لابد وأن ينجلى فى النهاية عن تأصيل وتقعيد - إذا صح الاشتقاق اللغوى - هذا الجنس الأدبى الجديد .. أما ما يهمنى الآن فهو تأكيد حقيقة لا أعتقد أنه من الممكن الاختلاف حولها .. ومؤداها أننا اذا اختلفنا حول انتساب الدراما إلى الأدب .. وحول ما إذا كانت تعد جنساً أدبياً مستحدثاً أم لا .. فإننا لا يمكن أن نختلف حول نسبتها إلى الفن المبدع وهو الوعاء الأكبر الذى يضمها كما يضم الفنون الأخرى .. وهى بالتالى تخضع للنسق العام لآلية الابداع .. تماما كما حدث بالنسبة لدراما المسرح ! ولعلى من خلال تجربتى الخاصة أصلح أن أكون شاهد عدل لأننى مارست الابداع فى كلتا الساحتين : ساحة الفن القصصى وساحة الفن الدرامى .. وبالتالى فإن شهادتى غير مجروحة ولا يمكن أن تتهم بالتحيز أو التعصب !

حرية منقوصة

وإذا سلمنا بأن قضية الإبداع لها هوامشها التى يمكن الاختلاف فيها أو عليها .. فإن هناك إشكالية أخرى تتصل بجوهر القضية .. وهى إشكالية الحرية وصلتها بالابداع ولابد أن نسلم جميعاً بأن حرية المبدع على امتداد الأرض العربية (التى تسودها ثقافة واحدة وتتشابه فيها فنون الابداع المنتجة) .. هى حرية مقيدة منقوصة .. ولا أخص بهذا عوامل السياسة فقط .. فلعلها مسئولة عن أضعف القيود التى يمكن مع التطور أن



مسلسل ليالى الحلمية

نتخلص منها فى المدى القريب ! أما ما يكثف أزمة الحرية الابداعية حقيقة فهو مجموعة « التابوهات » الاجتماعية والميثولوچية التى مازالت تجرم الفكر وتخنق الابداع .. فعلى امتداد الوطن العربى مـــازالت المؤسســـات « القـــرن أوسطية » التى تنتهج وسائل محاكم التفتيش رغم أن القرن الواحد والعشرين يقف على أعقاب الغد .. وتلوّح بسياط منظومة من اتهامات الهرطقة والزندقة والتجديف أمام أى إرهاصات للتنوير وتحرير العقل .. وهل هناك ما يثير السخرية ويدفع بالمرارة إلى حلوق كل المبدعين أكثر من ذلك المثال الفضيحة الذى يخترق عيوننا جميعا .. وهو مصادرة إحدى روائع كاتبنا العظيم نجيب محفوظ ومنعها من التداول حتى أصبحت توزع تهـــريباً كأكيـــاس البودرة وأقـــراص المخدرات ؟ !

أما عن الرقابة على فنون الإبداع المرئية .. فى المسرح والسينما والتليفزيون فهو حديث طويل مفعم بالشجون وأعتقد أنه يستحق أن يفرد له مقال خاص .. وهو ما أرجو أن يتاح لى فى القريب ..

مكتبة الهلال



المسرح المصرى ٨٩
فؤاد دوارة
الهيئة المصرية العامة للكتاب

هذا هو الكتاب السنوى الخامس نتاج الجهد المتواصل الذى يقوم به الناقد الكبير فؤاد دوارة، خدمة للمسرح والمسرحيين خاصة، وخدمة للثقافة بشكل عام، وذلك بتأريخه للمسرح المصرى المعاصر سنة بسنة (٨٥ - ١٩٨٩) بمتابعاته للعروض المسرحية على مسارح الدولة، ومسارح القطاع الخاص، مع تسجيل لأهم الأخبار التى تخص المسرح والعاملين فى حقله.

والكتاب ينقسم إلى قسمين:

الأول ويتناول العروض التى قدمت على المسرح القومى، والمسرح القومى للأطفال، مسرح الطليعة، المسرح الحديث، المسرح الكوميدى، مسرح الشباب، مسرح القطاع الخاص، مسرح الهواه: (الورشة) وما قدم فى مهرجان القاهرة الدولى الثانى للمسرح التجريبى، وما قدم فى احتفالات أكتوبر، وما يقدمه الآخرون فى مثل هذه الاحتفالات، وجاء ذلك فى ١٣٤ صفحة من الكتاب

أما القسم الثانى من الكتاب (٢٨٧ صفحة) فضم ثمانية ملاحق:

الأول: جاء به آراء ووجهات نظر أخرى - غير المؤلف - من خلال ما نشر فى مجلة الإذاعة والتليفزيون، ومجلة آخر ساعة ومجلة صباح الخير والصناعة والاقتصاد، والأهرام، الأخبار، الجمهورية، المساء - الشعب - الأهالى، ومن خلال هذه الصحف والمجلات جاءت متابعات النقاد والكتاب والصحفيين عن المهرجان السنوى الثانى للمسرح المدرسى والمسرح الجامعى، ومهرجان المسرح العربى السابع بمعهد الفنون المسرحية والمسرح العمالى، والورشة، والمسرح التجارى، وأهم عروض دار الأوبرا.

الثانى: جاء بعنوان مفكرة المسرح، أى

متابعة أخبار المسرح من خلال ما نشر في الصحف والمجلات .

الثالث : مسرحيون فقدناهم ، وهنا لم يقف عند رصد أسماء الراحلين ، بل قدم لكل منهم بطاقة فنية ، اسمه وتاريخ ميلاده ، من واقع شهادة الميلاد ، دوره ونشاطه ثم تاريخ وفاته .

وبلغ عدد الراحلين من المسرحيين ٣٢ مسرحيا - عام ١٩٨٩ - من بينهم ثلاثة من أقطار عربية ، وهم : جورج شحادة - الكاتب المسرحي اللبناني، الذي أخرج له عبد الغفار عودة مسرحية « مهاجر بريسبان » للمسرح القومي باسم « المهاجر » سنة ١٩٨١ ، كما أخرجها صلاح مرعي لفرقة الشرقية المسرحية .

والثاني كاتب ياسين (الاسم في شهادة الميلاد: محمد خلوطي) وهو شاعر جزائري وروائي وكاتب مسرحي ، كتب أعماله المسرحية باللغة الفرنسية وترجمت بعض أعماله والتي منها مسرحيتا : الأسلاف يتميزون غضبا ، ومسحوق الذكاء ، اللتان أخرجهما كرم مطاوع في الستينات .

أما الثالث فهو الممثل والمخرج الجزائري مصطفى كاتب .

وكان من المفهوم الإشارة لرحيل جورج شحادة ، وكاتب ياسين ، حيث عرفهما المشاهد في مصر من خلال أعمالهم أما مصطفى كاتب فلم أفهم الإشارة إلى رحيله ، إلا إذا كان هذا رصدا شاملا للراحلين من المسرحيين العرب .

الرابع : جاء بهذا الملحق قائمة بكتب المسرح ، والمسرحيات .

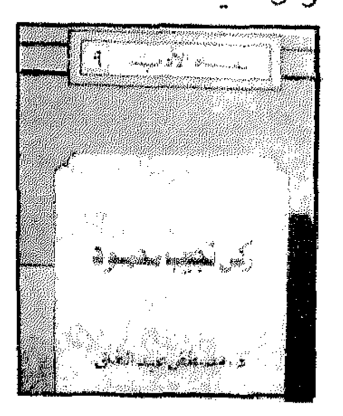
الخامس : إحصاء بنشاط البيت الفني للمسرح ، ويتناول دار العرض ، المسرحية ، زمن عرضها ، عدد الحفلات الإيرادات ، الرواد في كل من : المسرح القومي - الكوميدي - الطليعة - الحديث - العرائس - الشباب - المسرح القومي للطفل - فرق أخرى غير فرق قطاع المسرح .

السادس : عروض دار الأوبرا : الفرقة - تاريخ العروض - عددها - الإيرادات - المشاهدون

السابع : عروض فرق الثقافة الجماهيرية .

الثامن : عروض مهرجان القاهرة الدولي الثاني للمسرح التجريبي والندوات والمحاضرات التي صاحبته . والكتاب سجل وثائقي هام عن عالم المسرح عام ١٩٨٩ إلى جانب المقالات والدراسات النقدية الجادة التي تهدف إلى خلق مسرح حقيقي وتكشف الزيف والفساد والعبث الذي يحول دون تطور

حقيقى فى عالم المسرح، وتبقى الإشـــادة بهذا الجهد الكبير الذى قام به الناقد - الفرد - نيابة عن هيئة أو مؤسسة . فقد قام الناقد الكبير فؤاد دوارة بعمل موسوعى ضخم يستحق كل تقدير وكل تحية .



زكى نجيب محمـــود
د . مصطفى عبد الغنى
سلسلة نقاد الأدب

عرف الدكتور زكى نجيب محمود بين أساتذة الفلسفة كأستاذ لامع ، له مساهماته ونشاطه فى هذا المجال ، وكانت معاركه الشهيرة حول الوضعية المنطقية التى يتبناها كفلسفة ، واختلف معه الكثيرون حولها ، كما عرف فى مجال الفكر والثقافة ، لكن البعض - ربما - لم يقف عند دوره فى مجال الأدب والنقد ، حيث طغى الفيلسوف على الناقد الأدبى ، من هنا جاءت أهمية هذا الكتاب الذى تابع نشاط الدكتـــور زكـــى نجيب محمود فى مجال النقد الأدبى ، بجهـــد ومثابرة وموضوعية ، وهى سمات تميز بها المؤلف الدكتور مصطفى عبد الغنى ، وإن كان لم يخف حماسه للدكتـــور زكى نجـــيب الفيلسوف والمفكر والناقد الأدبى ، وكى يصل إلى الناقد الأدبى ، كان لابد له إلى جانب المقدمة أن يقدم فصلين من الكتاب عن المؤثـــرات والتكوين وعن ناقد الفكر ، أما الفصل الثالث فجاء عن ناقد الأدب - موضـــوع الكتاب - والفصل الرابع تناول فيه معارك الناقد الأدبية وتضمن الكتـــاب ملحقين أحـــدهما جاء بعنوان : الفلسفة والنقد الأدبى - نشـــر بمجلة فصول ديسمبر ١٩٨٣ - والآخر : شـــيوخ الأدب وشبابه ، نشـــر بكتاب «قشور ولباب» وإضافتهما تساعد الباحث فى فهم منهج الدكتور زكى نجيب محمود للنقد الأدبى من خلال دراساته ، وفى دراسة المـــؤلف للدكتور زكى نجيب محمود - ناقد الأدب - أشـــار إلى ملاحظة ، تحدد أن ناقد الأدب عند زكى نجيب ينصرف إلى الشعر دون الأجناس الأدبية الأخرى ويكاد ينصـــرف إليه ، وبمراجعة جهوده فى ذلك يتنبه أنه ماعدا بعض المقالات النقدية - الأدبية - التى تعد على أصابع اليد الواحدة طيلة حياته فإنه لم يجاوز الشعر بأية حال ، ويرى المؤلف أن هذا الميل لنقد الشعر يعود إلى ما يمثله هذا الجنس الأدبى فى الفكر

العربى والفلسفى بالتبعية ، نجد ذلك فى اهتمام العرب بالشعر حتى أصبح ديوان العرب. وتصدر فلاسفتهم له على أنه فرع من فروع المنطقة وبذلك يحدد بداية مهمة الشعر المعرفية التى يؤديها معبرا عن الطبيعة الذاتية لصاحبه ، وقد سعى كثير من الفلاسفة إلى محاولة استخلاص القوانين للشعر بوجه خاص ، وهذا ما نجده عند ابن سينا ، وابن رشد والكندى والفارابى.

لذلك نجد أن التعامل مع نقد الشعر لدى زكى نجيب لا يخلو من مسحة فلسفية .

وعن جهد الدكتور زكى نجيب محمود فى مجال النقد الأدبى والذى يسميه « نظرية » ، يتساءل المؤلف عن الذى يتميز به زكى نجيب محمود عن غيره من النقاد؟ فيرى أنه يختار أن ينصب الحس النقدى لديه على جزئيات فى البناء الأدبى أو الفنى ، ثم النظر إلى العلاقات التى ربطت لفظا بلفظ وصورة بصورة حتى يصل إلى الشكل ، وهذا التميز يتخذ شكل العقل الخالص فى التعامل مع المادة الأدبية التى بين يديه ، وإلى جانب ذلك يتميز ناقد الأدب بالفطرة التى عبر عنها الدكتور زكى نجيب محمود بقوله : « ولقد حبانى الله ميولا فطرية تعددت حتى وسعت منطقة التفكير الفلسفى ، وقابلية التذوق للأدب والفن معا ، وهو تذوق قد يعقبه آنا بعد آن محاولات النقد القائم على التحليل والتعليل ، ومن هنا ترابطت فى مخيلتى الفلسفة والأدب والفن فى رقعة واحدة .. »



الديموقراطية والثورة .. مأزق العالم الثالث
صلاح الدين حافظ
دار الشعب

يتناول الكتاب بالتحليل مأزق الديموقراطية وتناقضها أحيانا مع الثورة ، وهو مأزق وقعت فيه بلدان العالم الثالث ، وقد اعتمد الكاتب فى معالجته لهذا المأزق على دراسة تجارب عدد من البلدان العربية والإفريقية والأسيوية التى زارها وتابع ثوراتها التحررية ومحاولاتها لتطبيق أنماط منقوصة من الديموقراطية ، ثم تعرضها للانتكاسات والإخفاقات الكثيرة مقابل بعض الإنجازات القليلة .

ويقدم الكاتب اجتهاده

وتصعده لما يعتقد أنه السبيل الوحيد للخروج من المأزق الشديد السائد فى دول العالم الثالث هو ضرورة ترابط نمطين متلازمين من الديموقراطية الاجتماعية والتنمية البشرية المتكاملة .

يتألف الكتاب من مقدمة ومدخل وثمانية أبواب هى : نهاية ملذات الديكتاتورية ، اللهب فى الأوجادين ، ثورة إريتريا الاستقلالية ، البوليزاريو ثوار أم متمردون ، حروب وصراعات فى الشرق الأسيوى ، دماء العنف تصبغ ديموقراطية الهند، ثورة على الثورة فى الصين ، تردد رياح الديموقراطية فى السودان .



شوقى ضيف — سيرة وتحية
إشراف وتقديم
د . طه وادى
دار المعارف

هذا كتاب يحمل معنى الوفاء والتقدير لأستاذ جليل ، أحد أعلام الدراسات الأدبية والنقدية والنحوية فى الوطن العربى — الدكتور شوقى ضيف — أحد تلاميذ الدكتور طه حسين وأحمد أمين ، حيث أشرفا على رسالتيه : الماجستير والدكتوراه ، وأصبح أستاذا بقسم اللغة العربية — جامعة القاهرة عام ١٩٥٦ ثم رئيسا للقسم عام ١٩٦٨ ، وحصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٧٩ ، وجائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٣ ، عضو مجمع اللغة العربية — عضو المجمع العلمى المصرى — عضو المجالس القومية المتخصصة ، أما مؤلفاته فبلغت سبعة وأربعين كتابا بين مؤلف ومحقق فى مجال الدراسات الأدبية ، الدراسة البلاغية والنقدية والدراسة النحوية ، والدراسة الإسلامية وتحقيق التراث . والكتاب ينقسم إلى قسمين : الأول دراسات وذكريات عن الدكتور شوقى ضيف لمجموعة من الأساتذة — تلاميذه الأوفياء — من معظم الأقطار العربية ، والقسم الثانى يتضمن دراسات أدبية ولغوية مهداة إلى أستاذهم ، ومنها : العالم القصصى ودلالته — لبشير عباس — السودان — ورفاعة الطهطاوى الناقد الأدبى — لعطية عامر — السويد ، ونظرة فى التعليم الإسلامى فى الجامعات لناصر الدين الأسد — الأردن .



مختارات – قصص يوسف الشارونى رياض الريس للكتب والنشر لندن – قبرص

هذه القصص – كما يقول المؤلف – « ولدت خلال أكثر من أربعة قرون ، كان لكل فترة همومها الخاصة والعامة ، مخاوفها وطموحاتها وولادة الفنان تبدأ عندما يصبح الهم العام همه الخاص وتذوب فى داخله الحدود بين الهمين لينصهرا معا فى بوتقة الإبداع بحيث لا يمكن التعرف أين ينتهى أحدهما ليبدأ الآخر . »

من هذه المختارات ، قصص نشرت عام ١٩٥١ ، يوم أن كان الفنان الكبير يوسف الشارونى ينشر فى مجلة الأديب البيروتية .

وفى عام ١٩٥٤ سطع نجمان فى عالم القصة القصيرة ، هما يوسف إدريس ويوسف الشارونى ، ففى نفس العام صدرت أول مجموعة ليوسف إدريس « أرخص ليالى » كما صدرت أول مجموعة ليوسف شارونى « العشاق الخمسة » والمجموعتان علامتان متميزتان فى تطور القصة القصيرة فى مصر والعالم العربى ، كان لكل منهما طريقه وأسلوبه وتزعم كل منهما تيارا فى عالم القصة ، قدم يوسف إدريس القصة الواقعية بمضمونها الاجتماعى ، والشارونى قاد التيار التعبيرى ، وكان تأثيرهما ملحوظا فى الأجيال اللاحقة .



مؤلفات فتحى الإبيارى الهيئة المصرية العامة للكتاب

يضم هذا الجزء من مؤلفات الأديب فتحى الإبيارى ثلاث مجموعات قصصية صدرت جميعها بالإسكندرية ، بلا نهاية – عام ١٩٦٦ – ، قصص قصيرة جدا – ١٩٧٢ ، ترنيمة حب – ١٩٧٣ .

كما تضمن هذا الجزء ما كتب عن هذه المجموعات القصصية من مقالات ودراسات للأدباء والكتاب : محمود تيمور – ثروت أباظة – كمال النجمى – عبد الفتاح البارودى – صبحى شكرى – إبراهيم

الصيرفى - محمود عوض عبد العال - نبيل فرج - محمد صفوت - يوسف الشارونى - د. السعيد الوراقى - د. حلمى القاعود - د. عبد العزيز شرف.



أشهر من قرأ القرآن فى العصر الحديث
أحمد البلك
سلسلة إقرأ

يضم هذا الكتاب «أشهر من قرأ القرآن» منذ بداية هذا القرن حتى الآن، بداية من الشيخ محمد رفعت (١٨٨٠ - ١٩٥٠) والذى قيل عنه إن الناس كانوا يذهبون إلى مسجد فاضل باشا بدرب الجماميز لسماع الشيخ رفعت حتى إذا فرغ من تلاوته خرجوا للصلاة فى مسجد آخر، حتى الشيخ أحمد الرزيقى (١٩٣٠ - أطال الله عمره) وبينهما الشيوخ القراء: عبد الفتاح الشعشاعى - صديق المنشاوى - عامر السيد عثمان - عبد الرحمن الدروى - عبد العظيم زاهر - مصطفى إسماعيل - محمود خليل الحصرى - رزق خليل حبة - سيد النقشبندى - أبو العينين شعيشع - محمود البنا - عبد الباسط عبد الصمد، تابع المؤلف حياتهم ومسيرتهم وتمايز أصواتهم وما واجهوه من مشاكل مع تطور الآلات وافتتاح الإذاعة المصرية عام ١٩٣٤، وقد اعتبر بعض القراء فى ذلك الوقت أن قراءة القرآن بالإذاعة بدعة مضلة وكذلك القراءة أمام الميكروفون حتى حسم الأمر الشيخ أحمد الظواهرى شيخ الأزهر وقتها بإصدار فتوى شرعية تفيد بأن قراءة القرآن بالإذاعة ليست محرمة أو مكروهة، فانضم إلى الشيخ رفعت - أول المتعاقدين للقراءة - الشيخ الشعشاعى ثم اتسعت الدائرة ولا أظن أن هناك من يناقش هذا الأمر فى هذه الأيام، وإن فرضت أمور أخرى تتناول تحريمات جديدة ممن جعلوا أنفسهم قضاة للمجتمع - بلا علم - ولن ننتظر حتى تنتهى مثل هذه التحريمات بالزمن، بل يجب التصدى لها بالفتوى والموضوعية والنقاش والاحتكام للعقل.



ألوان من الطاقة

د . عبد اللطيف أبو السعود

سلسلة العلم والحياة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

طرحت قضية الطاقة بشكل قوى منذ أزمة البترول العالمية التى عرفها العالم أثناء حرب أكتوبر المجيدة وفى أعقابها يوم عانت دول العالم الصناعية من نقص البترول وارتفاع أسعاره وكان البحث عن طاقة بديلة للبترول ، وبدأ الحديث عن طاقة الاندماج النووى والطاقة الحرارية الأرضية والأيدروجين ، والكهرباء من الشمس والبحث عن مفاعل نووى آمن ، والمراكز العلمية تبحث منذ سنوات عن مصادر جديدة للطاقة ، رخيصة التكاليف ، خالية من التلوث ، وهى معركة ستستمر طويلا بين الدول الصناعية وتعانى منها دول العالم الثالث .



الكتاب : حماس : حركة المقاومة الإسلامية فى فلسطين

المؤلف : عبد القادرر ياسين

الناشر : سينا للنشر - ٨١ صفحة فى المتن - ١١٣ صفحة مع الوثائق

ربما كان هذا هو الكتاب الأول عن حركة « حماس » ، التى التحقت بصفوف الانتفاضة الفلسطينية بعد أسابيع قليلة من انطلاقها .

ولقد أثارت هذه الحركة منذ أن ظهرت كثيرا من الجدل فى الأوساط الفلسطينية أولا ، وفى الأوساط العربية عموما ، ثم فى دوائر المعنيين بالقضية الفلسطينية والصراع العربى - الإسرائيلى عموما .

وكان من بواعث هذا الجدل أن حماس حاولت أن تتميز عن « القيادة الوطنية للانتفاضة » إلى حد اتهامها بالسعى إلى شق الصفوف ، كما كان من بواعثه ما بدا فيما ترفعه من دعاوى وشعارات من تشدد ملحوظ .

غير أن أهم بواعث الجدل ، والذى شكل نقطة الخلاف الجوهرية بينها وبين الحركة الوطنية الفلسطينية عموماً ، ومع قيادة الانتفاضة بالذات ، ذلك هو إقامة الدعوى بالحق الفلسطينى فى استعادة الوطن على أساس من الدين ، وهو ما ترى فيه غالبية القوى الوطنية الفلسطينية ، انحرافا يبرر للصهيونية دعاواها المبنية على الدين .

حكاية ولد عبقرى


ت . س اليوت


دستويفسكى

● هل قرأت اللامنتمى ؟

- لا

● إذن ، أنت غير مثقف !

إلى هذا الحد كنا نتنابذ فى شبابنا حول كتاب « اللامنتمى » المثير فى زمانه . وكنا مفتونين به وبمؤلفه الإنجليزى الشاب كولين ويلسون ، حتى كدنا أن ننقسم إلى حزبين متعارضين : حزب اللامنتمى وحزب المنتمى . ولا أذكر أننى تحمست لهذا الكتاب عندما قرأته بعد ترجمته إلى العربية فى أواخر الخمسينيات ، ولكنى كنت من المعجبين بمؤلفه ، لأنه - أولا - شاب فالح من جيلنا ، ولأنه - ثانيا - مثقف عصامى، علم نفسه مالم تعلمه إياه المدارس . بل ترك الدراسة قبل أن يصل إلى ما يعادل الثانوية العامة ، تماما مثلما فعل رئيس وزرائه الحالى جون ميجور . ولكن ويلسون لم يولد فى طبقة وسطى ، أو وسطى صغيرة كما هى حال ميجور ، وإنما ولد فى طبقة الكادحين . وكان أبوه من عمال صناعة الأحذية ، لا يزيد أجره يوم رزق به عام ١٩٣١ على ثلاثة جنيهات فى الأسبوع. ومع أن الابن كان ذكيا وناجحا فى دراسته الابتدائية والثانوية فلم يكن من الممكن إكمال تعليمه . ولذلك اضطر إلى ترك الدراسة فى سن ١٦ ، وراح يتصعلك فى أعمال هامشية كثيرة ، فاشتغل مساعد معمل تحليل طبى ، وغاسل أطباق فى مطعم ، إلخ . ثم ضاعف محنته حين تزوج فى سن ١٩ ، وحين أنجب ولدا .

بقلم : د . على شلش

ولكنه لم يكف طوال هذا كله عن القراءة والكتابة منذ سن ١٢ ، وحتى اليوم .

● ما بعد اللامنتمى

ما مناسبة هذا الكلام ؟

لقد تتبعت كولين ويلسون بعد « اللامنتمى » . وقرأت له كتابين آخرين أو ثلاثة ، ثم انصرفت عنه ، مثلما انصرف عنه كثيرون . بل ظننت أحيانا أنه طلق الكتابة . ثم نسيته تماما حتى ذكرنى به أخيرا سؤال جاءنى من مستمع عربى يريد أن يعرف شيئا عنه . وعندئذ تحركت ذاكرتى فأمدتنى بالكثير عنه . ثم تحركت أنا نفسى إلى مكتبة الحى طلبا للمزيد .

هناك رأيت مالم أتوقعه . فقد زاد عدد الكتب التى ألفها ويلسون على ٥٠ كتابا . ومعنى هذا أنه لم يختف أو تدركه حرفة أخرى . ولكن ، عندما بدأت أقلب فى الكتب التى أمامى على رف طويل ازدادت دهشتى . فهى من التنوع فى الموضوعات بحيث لايربط بينها سوى المؤلف الواحد . وهذه الموضوعات معظمها غريب وطريف ، ولكن أكثرها تكرارا هو موضوع السحر والتنجيم . ومن عناوينها : دنيا العنف ، التنجيم ، ما بعد التنجيم ، أصول الدافع الجنسى ، التاريخ الإجرامى للبشر ، موسوعة الألغاز غير المحلولة ، موسوعة الفضائح . وأخذتنى الحيرة أمام هذا الخليط المتنافر من العناوين والاهتمامات ، فلا أنا أفهم فى السحر والتنجيم ، ولا أنا من هواة الفضائح .

وبعد جولة لابد منها داخل عالم ويلسون العجيب استقر رأيى على استعارة بعض كتبه ، ومنها ذلك الذى كان سر إعجابى به : اللامنتمى .

هل هو نوع من الاحتماء بالماضى ؟ هل هى رغبة خفية فى إثارة الشجون والذكريات ؟ هل هو امتحان للزمن والتغير فى الأفكار والبشر ؟ هل هو بحث عن سر الإعجاب القديم ؟ ربما صحّ هذا كله مجتمعا . فقد سبق أن قرأت لويلسون رواية بعنوان « شعيرة فى الظلام » ، وكتابه المكمل للأول بعنوان « ما بعد اللامنتمى » . ولكنى لم أجد فى هذين الكتابين ما يضيف إلى تلك الدفعة الأولى التى خرجت من فرن الذهن البشرى ساخنة مثل الخبز الطازج .

ولنعد إلى « اللامنتمى » ، ومقدمة ويلسون لطبعته الأخيرة التى روى فيها حكايته مع الكتاب والشهرة .

إذا كانت حكايات الشهرة مسلية جدا فحكاية ويلسون محزنة أيضا . وقد بدأت عام ١٩٥٤ حين كان ويلسون ، فى الثالثة

والعشرين ، يعيش فى لندن وحيدا ، بعيدا عن أهله المقيمين بمدينة ليستر . وقد أمضى على تلك الحال نحو عام وهو يحاول أن ينتهى - دون جدوى - من كتابة روايته « شعيرة فى الظلام » . ولكى يدخر بعض المال استغل فترة الصيف فى النوم فى العراء . فاشترى كيسا للنوم مضادا للماء كان يفرشه ليلا على مروج حى هامستد هيث الأرستقراطى بشمال لندن، ويدخل جسمه فيه ، ثم ينام قرير العين دون إيجار أو رسوم بلدية ، حتى إذا طلع الصباح طوى الكيس ، ووضعه فى حقيبة خفيفة ، واستقل دراجته ، واتجه نحو المكتبة القوميـــة فى مبنى المتحف البريطانى . وفى قاعة المطالعة المشهورة التى تردد عليها كارل ماركس وبرنارد شو وعشرات آخرون من المشاهير كان ويلسون يقضى نهاره فى كتابة الرواية .

وفى تلك القاعة أيضا عرف أديبا مغمورا وقتها ومشهورا بعدها ، يحمل اسمه دون قرابة ، هو الروائي أنجوس ويلسون .

سرعان ما تسرب صيف ذلك العام ، ولحقه الخريف ، فالشتاء ، وعاد نؤوم العراء إلى غرفة صغيرة مفروشة . وفى عطلة أعياد الميلاد خطر له فجأة أنه مثل كثير من أبطال الروائيين الذين أحبهم ، ولاسيما راسكولينيكوف بطل دستويفسكى وبريمه بطل ريلكه . فها هو ملقى فى غرفته كالمقطوع من شجرة ، بلا أهل ولا خلان . ولم يجد أمامه سوى تسجيل هذا الخاطر فى يومياته التى رافقته منذ صباه . وفجأة أيضا ومضت فى ذهنه فكرة كتاب سماه مبدئيا « اللامنتمى فى الأدب » ، وسجل فى يومياته خطة تفصيلية له . وبعد انتهاء العطلة ذهب إلى المكتبة كعادته ، وقد استقر عزمه على تنفيذ مشروع الكتاب ، وتأجيل مشروع الرواية . ثم طلب رواية فرنسية لهنرى باربيس ، وبطلها يقضى أيامه محدقا فى ثقب بجدار غرفته بأحد الفنادق ومتأملاً فى الحياة الدائرة ليلا ونهاراً بالغرفة المجاورة . وشرع فى قراءة هذه الرواية الغريبة على الفور ، فلما فرغ منها قضى الساعات الباقية من نهاره فى كتابة الصفحات الأربع الأولى من كتابه الجديد .

وبعد عام ونصف العام من الكتابة كان كمن وجد ضالته . ولما اطمأن على حاله أرسل جزءاً من المخطوطة مع الخطة التفصيلية إلى أحد الناشرين ، فتلقى منه ردا مشجعا متحمسا دون إبطاء . وكان وقتها يعمل فى المساء بأحد المقاهى ، فراح يضاعف سرعته فى الكتابة خلال النهار حتى انتهى من المخطوطة ثم بعث بها الى الناشر . وسرعان ما تلقى الموافقة على التعاقد مشفوعة بمبلغ ٧٥ جنيها كعربون .

ولأول مرة - كما يقول ويلسون - قرر

أن يترك عمله الهامشى فى المقهى ، وأن يعيش على العربون ، دون أن يشك فى أهمية الكتاب الذى صدره بإهداء لسميه أمين المكتبة وخريج أوكسفورد . ولكن الناشر لم يكن بمثل هذا التفاؤل . فقد اكتفى بطبع خمسة آلاف نسخة ، وحدد ٢٦ مايو ١٩٥٦ يوما للصدور . وقبل أن يحل اليوم الموعود أهلت بشائر الشهرة على ويلسون . فقد سمع من الناشر أن الشاعرة إديث سيتول قرأت « بروفات » الكتاب وتنبأت لمؤلفه بأنه سيكون أديبا كبيراً . وبدأ الصحفيون يخطبون وده ، ويلاحقونه بطلب إجراء مقابلات معه . ولأن غرفته الصغيرة كانت فى «بدروم » أحد المنازل ، وبلا تليفون ، وكان على من يريده أن ينتظر ساعات قبل أن يراه .

ولم تمض أيام على صدور الكتاب ، بعد الاكتفاء بكلمة « اللامنتمى» The Outsider كعنوان له ، حتى انهمرت التعليقات والمقابلات على صاحبنا ويلسون .

« أديب كبير – عمره ٢٤ سنة فقط »

هكذا كان عنوان تحقيق عنه باحدى الصحف المرموقة ، فى حين وصفت الشاعرة سيتول الكتاب بأنه « مدهش » ، ووصفه الناقد سيريل كونوللى بأنه « غير عادى » ، ووصفه زميله فيليب توينبى بأنه « متعب وذكى وأخاذ حقا » ، ووصفته مجلة تايم الأمريكية بأنه « تحليل ذكى وغير عادى لتقاليد الفكر المتحضر ذات الطابع التشاؤمى» وعلق ناقد إنجليزى آخر بقوله : « لم يلق أى أديب انجليزى مثل هذا التقدير التلقائى الشامل منذ استيقظ اللورد بايرون ذات صباح فوجد نفسه مشهوراً » .

وفى ذات اليوم الذى ظهرت فيه معظم هذه التعليقات حقق شاب انجليزى آخر ، هو جون أوسبورن ، نجاحا ساحقا ، لكن على خشبة المسرح ، عندما عرضت له مسرحية « اغضب على الماضى » ، لدرجة أن الأديب الناقد ج . ب . بريستلى نشر مقالاً بعنوان « الشاب الغاضب » ، ووضع فيه الشابين فى سلة واحدة . وعلق ويلسون على هذا بقوله : « الحق أننى لا أشترك مع أوسبورن إلا فى شىء واحد – هو أن كلينا تحول إلى « اللامنتمى » بسبب خلفيته العمالية .

جواز السفر الأدبى

وهكذا صار ويلسون – بين ليلة وضحاها – علما فى رأسه نار كما قال أجدادنا . فقد قارنه البعض بسارتر وكامي ، وقالوا إنه نسخة بريطانية من الوجودية ، وأخذت الصحف تنشر عن نومه فى العراء ، وتسميه « الولد العبقرى » . ومع ذلك لم ينله من حملة الشهرة هذه سوى أنه أكل وشرب كل ما عجز عن أكله وشربه من قبل . ولأن الطعام والشراب لا يهمانه كثيرا – كما يقول – فلم يستفد شيئا فى النهاية ، ولم تعد عليه الشهرة بحرية

خطيرة ، ولا كان هو نفسه يحب السفر حتى يقبل دعوة الى الخارج . بل لم تكن الصحافة تريد من هذا كله سوى الفضيحة !

وقعت الفضيحة - على أى حال - بعد أقل من عام !

كان يأوى فى شقته الصغيرة صديقة له وذات يوم فوجىء بأبويها على الباب يريدانها ، لأنهما لا يحبان لها أن تعيش فى الحرام . ولو كان الموضوع اقتصر على هذا لما أقلقه ، ولكن المزعج فيه أن أحد أصدقائه كان فى زيارته وقتها ، ورأى مشهد الأبوين فأبلغ بعض معارفه من الصحفيين تليفونيا أثناء انشغال ويلسون . ولم تمض دقائق حتى صارت الشقة الصغيرة مسرح عمليات وموقع تصوير . ونالت الصحافة ما تريد . وظلت أخبار الفضيحة تتوالى بغير توقف لمدة أسبوعين، على الصفحات الأولى وفى أعمدة الأسرار الشخصية . ولم يجد ويلسون سوى العمل بنصيحة ناشره فرحل عن لندن ، وعاد إلى مدينته الصغيرة ليستر . وكان ناشره يرى أن سمعته ككاتب جاد تحطمت ، فإذا لم يترك لندن فورا فلن يؤلف كتابا آخر ، لأن الدعاية المضادة السخيفة جعلت من المستحيل على المؤسسة الثقافية البريطانية أن تأخذه مأخذ الجد !

ولكن البعد عن لندن لم يأته بالنتيجة المرجوة . فعندما ظهر كتابه التالى « الدين والمتمرد » لم ينل عليه أى تقدير . ثم توالى عدم التقدير عند ظهور كتابيه الآخرين : عصر الهزيمة ، قوة الحلم . فلما ظهرت روايته « شعيرة فى الظلام » عام ١٩٦٠ عاد إليه بعض التقدير القديم . وبينما كسب نحو ٢٠ ألف جنيه من كتابه الأول عام ١٩٥٦ لم يتجاوز ما كسبه من أى كتاب تال ألف جنيه !

من الغريب - كما يقول ويلسون أيضا - أن كونوللى وتوينبى اللذين امتدحا كتابه الأول هما اللذان استقبحا كتبه التالية ، باستثناء كتاب « السحر والتنجيم » . وهذا الكتاب ألفه ناشر أمريكى عام ١٩٦٧ . ولما ظهر فى الأسواق حقق نجاحا ماليا كبيرا، وأعال مؤلفه نحو ست سنوات ، وجعله يؤلف جزءا ثانيا له بعنوان « الأسرار والألغاز » .

ويذكر ويلسون أن الشاعر الناقد ت . س . اليوت حدثه عن الشهرة ذات مرة فقال إن معرفة عدد من الناس أكبر من اللازم مرة واحدة مسألة غير مأمونة . أما المأمون فهو الاكتساب التدريجي لجمهور من القراء المنتظمين ثم توسيع دائرتهم شيئا فشيئا ومعنى هذا أن ويلسون اشتهر بطريقة خاطئة . فقد احتل « اللامنتمى » بسرعة ناصية قائمة أروج الكتب غير القصصية وظل يحتلها لمدة طويلة فى أمريكا ، ثم ترجم إلى ١٤ لغة فى ١٨ شهرا . ويبدو أن ويلسون احتار

فى تفسير هذا النجاح وقتها . فقد ابتعد عن لندن عقب صدور « اللامنتمى » بستة أشهر ، وغطس - على حد تعبيره - فى عالم التصوف الدينى ، ثم طفا ومعه كتاب عن هذا العالم بعنوان « الدين والمتمرد » . ولكن الكتاب قوبل عند ظهوره بالامتعاض ، وفشل فى جذب نقاد الصحف الجادة . بل شرع هؤلاء فى الرجوع عن ثنائهم على كتابه الأول . ولم يعد أمام مؤلفه سوى الثبات ، والتعامل المباشر مع السوق .هل كانت فضيحته فى لندن هى سر تراجع النقاد الجادين عنه كما يوحى لنا ؟

ها هو يحدثنا عن شعوره إزاء تجاهل النقاد لكتابه الثانى بقوله : « خالجنى شعور بأنى أغادر الميناء . فحين حاول النقاد أن يستردوا ما قالوه عن الكتاب (الأول) كان الأمر قد تساوى عندى ولكنهم لم يستطيعوا استرداد جواز السفر الذى منحوه لى » .

لا أعتقد أن الفضيحة التى ذكرها ويلسون هى السبب . فالنقاد الذين أشار إليهم ليسوا من أصحاب النزعة الأخلاقية ، فضلاً عن أن المجتمعات الغربية اعتادت التعامل مع أمثال تلك الفضيحة بحس غير أخلاقى . وأقرب مثل على هذا هو ما نشرته الصحف الأمريكية والبريطانية فى الشهر الماضى عن معاكسات الفائز الأخير بجائزة نوبل لطالباته فى الجامعة وشكاواهن منه ، فهذه الفضائح وأمثالها لا تقدم ولا تؤخر ، ولا تمس جواز السفر الذى ذكره ويلسون . ولكن الذى يمس هذا الجواز هو التلاعب فى أوراقه ومستندات إصداره ، فاذا ثبت تزييفها سحب الجواز. وفى حالة ويلسون ثبت أن كتابه « اللامنتمى » جهد أصيل ، غير مزيف .

لقد كتب - حتى اليوم - نحو عشر روايات ، ولكنها فى مجموعها من الدرجة الثانية ، وربما الثالثة . وكتب أيضا أكثر من عشرين كتابا فى موضوعات جماهيرية - تجارية إذا صح التعبير - ولكنها فى مجموعها لا تصنع مفكرا بالمعنى الصحيح حتى لو كان هو نفسه يرفع شعار ما يسميه « الوجودية الجديدة » . وإذا كان « اللامنتمى » عنده هو العبقرى الذى يدرى أنه غريب ، متفرد بصبابته إذا استعرنا تعبيرا من شعر خليل مطران ، فليس معنى هذا أنه على حق دائما . وأما التنقل من موضوع إلى موضوع ، كما تفعل النحلة مع الزهور ، فهو خسارة لجمهور الأدب ، وإذا كان هذا « الولد العبقرى » لم يعد مشهورا عند هذا الجمهور فهو مشهور عند جمهور آخر أعرض وأوسع . وليست العبرة فى النهاية بجواز السفر كما قال ، وإنما العبرة أولاً وأخيرا بصحة الأوراق المقدمة للحصول على جواز السفر !

جائزة جونكور ١٩٩٢

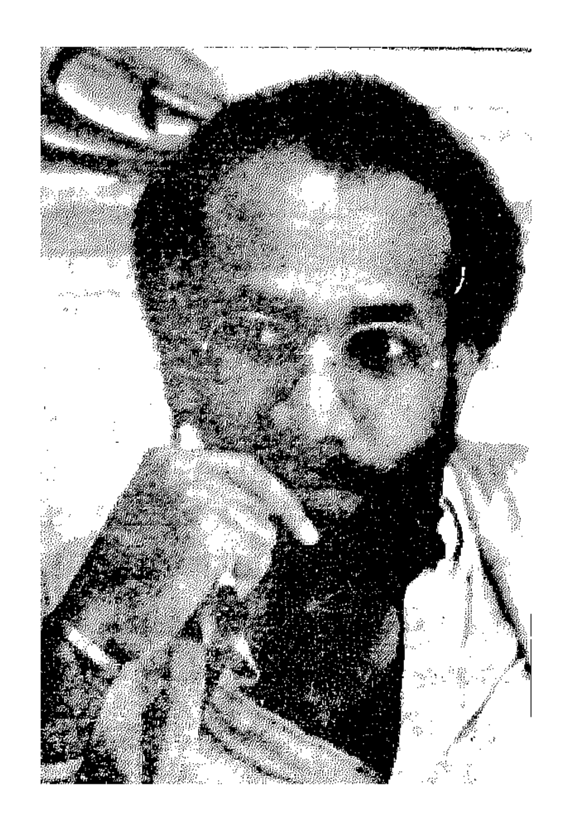
للأقليات أيضا .. ثقافاتهم

بقلم :
محمود قاسم

عندما حصل الكاتب الترنيدادى ديريك والكوت على جائزة نوبل فى الأدب لهذا العام ، تردد فى الأوساط الأدبية والثقافية أن الجائزة ذهبت إلى جزر الهند الغربية للمشاركة فى الاحتفال بمرور خمسة قرون على اكتشاف القارة الأمريكية . باعتبار أن هذه الجزر كانت النقطة الأولى التى رسا عندها كريستوفر كولومبس قبل خمسة قرون .

وقد أكد هذه الأقاويل فوز المناضلة السياسية زيجو برتا منشو بجائزة نوبل للسلام وهى التى نادت دوما بالسلام من أجل أبناء وطنها من الهنود الحمر - أبناء الوطن الأصليين - وفى تلك الأسابيع ، كانت الأضواء تلقى بتركيز شديد على كاتب من تلك المنطقة يعيش فى فرنسا منذ سنوات قليلة نشر رواية بالغة الأهمية تحمل اسم « تكساكو » . وسرعان ما أحس المتنبئون بما يحدث فى موسم الجوائز الأدبية أن باتريك شموازو سيكون فارس إحدى الجوائز الأدبية الهامة فى فرنسا خاصة جائزة جونكور .

ولذا لم يكن فوز شموازو بجائزة جونكور بمثابة مفاجأة مثلما يحدث فى كل



باتريك شموازو



زيجو برتا منشو

عام . حيث انه من المعروف أن هـذه الجائزة ، التى تعتبر أهم الجوائز قاطبة فى أوروبا ، تمنح عادة لرواية ظهـرت فى نفس السنة التى تمنح فيها . وكانت رواية « تكساكو » قد ظهرت في الأسواق مع موسم انتهاء الاجازات . وهو موسم معروف عالميـا بأن النـاشرين ينزلون بكل ثقلهم للدخول فى سباق الجوائز الأدبية من ناحية . ولأنه موسم الخصوبة فى عالم القراءة من ناحية أخرى .

وهكذا تأكدت أهمية المثلث الذى حصل على أهم الجوائز العـالمية خـلال هـذا الشهر . وتجئ هذه الأهمية من أن الثلاثة يمثلون ثقافة ما يسمى بالأقلية . فلا شك أن والكوت قد انتزع جائزة نوبل من بين فرسان الإبداع . ومنهم مواطنه ف. س نايبول الذى يعيش فى بريطانيا منذ عام ١٩٥٤ . أما شموازو فقد انتزع الجائزة من فرسان الرواية الفرنسية المعاصرة الذين تهافتوا لنيل شرف أكبر جائزة أدبية ناطقة بلغتهم .

ورغم أن ظاهرة الاحتفالية واضحة فى منـح الثلاثة جائزتى نوبل وجونكر ، فإن هذا المنح ليس مرتبطًا بالمرة بالمجاملات .

فالطريف أن رواية « تكساكو » قد تصدرت أرقام المبيعات منذ صدورها فى أول سبتمبر الماضى .. ولم تكن فى حاجة إلى أن تتبوأ هذا المركز بعد حصولها على الجائزة . فمن المعروف أن الروايات التى تحصل دائما على الجائزة سرعان ما تقفز إلى أعلى سلم المبيعات حتى ولو لم يبع منها سوى نسخة واحدة قبل حصولها على الجائزة ، مثلما حدث قبل عامين عندما نشر جان رووه روايته « ساحات الشرف ».

●●●

ولعل الربح الأول الذى يحصل عليه الكاتب ، وأيضا الناشر ، هو أنه سرعان ما يقفز إلى أعلى سلم المبيعات حيث ان القيمة المادية لجائزة جونكور لا تتعدى الخمسين فرنكا . وعادة ما يقال إن الفرنسيين لا يقرأون سوى كتاب واحد كل عام ، وهو الكتاب الفائز بجائزة جونكور . باعتبار أن لجنة مكونة من أهم المبدعين قد اختارته كأحسن كتاب فى العام . إذن فالفرنسى يترك لهذه اللجنة أن تختار له أحسن كتاب من وجهة نظرها . دون أن يفكر طويلا . ودون أن يرهق جيبه كثيرا .

وفى هذا العام اختار أدباء فرنسا لقرائهم رواية « تكساكو » ، لكاتب يمثل ثقافة أقليات ويكتب بلغة غريبة وصعبة وجامدة ، كما أنه ليس له باع طويل فى الإبداع . فقد نشر روايته الأولى « سوليبو الرائع » عام ١٩٨٨ . ولم تحقق نجاحا يذكر . والآن بعد أربع سنوات يقدم روايته الثانية .

والطريف أنه فى نفس العام ١٩٨٨ ، كان روائى آخر من نفس الثقافة يسمى رافاييل كونفيان قد نشر روايته الأولى ، فلفت إليه الأنظار . واستطاع أن ينبه العالم إلى أنه فى جزر الهند الغربية . وجزر المارتينيك هاك من هم يبدعون بشكل جديد ومتميز .

● لغة جديدة

وقد جاء هذا التميز ، ليس فقط من البيئة الجديدة ، أو البعيدة التى يتحدث عنها الكاتب فى روايته ، وليس لأنها عن أشخاص يحملون ثقافات عديدة فى دواخلهم . بل أيضا من اللغة الأدبية الجديدة التى يكتب بها الأديب فقد اصطلح على تسمية هذه اللغة بـ « الكريول » Creol وهى لغة تمزج بين اللغة اللاتينية الأصلية التى جاءت إلى جزر الهند الغربية ، وجزر المارتينيك . وبين اللهجات المحلية التى يتكلمها الناس هناك . فإذا كانت اللغة السائدة فى ترينداد هى الإنجليزية . فإن السكان يتكلمون اللغة الإنجليزية القديمة التى جاءت مع طلائع المستعمرين قبل قرون . وهى لغة كلاسيكية جامدة وبين اللغات الأخرى التى سكن أبناؤها المنطقة كالأسبانية والفرنسية والبرتغالية بالإضافة إلى اللهجات المحلية التى انبثقت مع مرور

السنين .

وحدث نفس الأمر فى جزر المارتينيك . فاختلطت اللغة الفرنسية الكلاسيكية بلغات أخرى وكونت لغة ليست فرنسية وليست انجليزية .. ومع ذلك فهى كتابتها أقرب إلى الفرنسية .. وهى مكتوبة بشكل يبهر القارئ .. فهو يراها لغة مرصعة بكلمات جديدة . وتتشكل الكلمات المألوفة تشكيلات مختلفة .

يقول باتريك شموازو فى الحديث الذى نشرته مجلة « حدث الخميس » فى ٨ أكتوبر الماضى إن صاحب فكرة هذه الرواية هو الناشر (جاليمار) الذى عرض عليه أن يسافر إلى وطنه فى جزر المارتينيك ، ويعيش هناك بين الناس . ثم يعود ليكتب رواية .كان الناشر هنا حصيفا وصاحب رؤية مستقبلية . فقد أحس أن الناس يريدون بالفعل كل ما هو جديد . وأدرك أن أدب رفائيل كونفيان وجان بارنابه سيكون هو أدب المستقبل . وراح يراهن على شموازو . وبالفعل فقد ذهب الكاتب إلى هناك . وعاد حاملا مسودة روايته عن حى يدعى « تكساكو » فى مدينة صغيرة عند نهاية العالم تسمى « فورد وفرانس » أو « الحصن الفرنسى » . وكانت بطلة الرواية امرأة تنتمى بالكامل إلى هذه المنطقة النائية ، لذا شغف الناس بمعرفة المزيد عنها .. وما أن قرأ الناشر الرواية حتى صاح : « لقد كتبت كتابا رائعا . سوف يتابع الناس أحداثه » .

وقبل أن نتحدث عن هذه الرواية الظاهرة يهمنا أن نشير إلى أن باتريك شموازو قد ولد فى نفس المنطقة عام ١٩٥٣ . وهى منطقة غنية بزراعات قصب السكر . وفى المدارس أتقن لغة الكريول : « لم أكن أفكر إلا بها . ولم أكتب إلا بها . وقد حاولت أن أمزجها بما تعلمته من لغة فيكتور هيجو ، وآرثر رامبو ، وبلزاك » .

وشموازو ينتمى إلى أسرة أنجبت خمسة أبناء . ولم يمكث طويلا بالمدارس وكان عليه أن يعلم نفسه : « اقتربت من صناديق الكتب . وكان ممنوعا علىّ أن أفعل ذلك . لكن كان أول كتاب وقع بين يدى هو « أليس فى بلاد العجائب » . وقد وجدته ساحرا . وتصورت أن كل الكتب تشبهه . فبدأت أقرأ رواية « جرمينال » لاميل زولا . ثم قرأت مسرح مارسيل بانيول . كان المذاق رائعا . انه عالمى الصغير الملئ بالخصوبة » .

وقد عمل شموازو فى حقول القصب . ثم حصل على شهادة فى علوم الاقتصاد . وفكر أن يرحل إلى فرنسا . وهناك أقام بين المهاجرين . وكانت عيناه دوما على وطنه الذى جاء منه حتى إذا عاد إليه يوما التقى بامرأة عجوز لعبت دورا كبيرا فى طرد المستعمرين الفرنسيين عن الجزيرة .. ومن عالم هذه المرأة صنع نموذجا لبطلة

روايته التى أطلق عليها اسم « مارى صوفى » .

●●●

مارى صوفى امرأة برية ، تعيش فى عالم بكر ، لم تأت إليه مقومات الحضارة الحديثة . ومثل هذه المرأة تعيش فى فلك مجموعة أخرى من الشخصيات مثل الحائكة أوزيليا . التى تتولى تربية النمل الأحمر فى دارها . أما أبوها استرنوم فهو رجل عجوز لكنه يعيش مع معشوقته المسماة نينون . وهناك الصياد الذى يخرج بين الفينة والأخرى إلى البحر كى يصطاد « القروش » . وأيضا دارتينيان حارس الحقول . وفى الرواية تموت نينون التى ألهبت مشاعر الرجال طوال سنوات حياتها فى انفجار قنبلة داخل الجبل .

ويقول الناقد « جاك بيراميت » فى مجلة لويوان - ١٧ سبتمبر ٩٢ - إن براعة الكاتب قد تجلت فى تصويره لبورتريهات الأشخاص . فالرواية مليئة بالشخصيات المتباينة . منهم البحارة الذين يأتون إلى الجزيرة كى يعاودوا الرحيل بسرعة تاركين بعض الذكريات العابرة . وقصص حب سريعة النسيان .. لكنها فى بعض الأحيان ، تترك ثمارها فى بطون النساء .

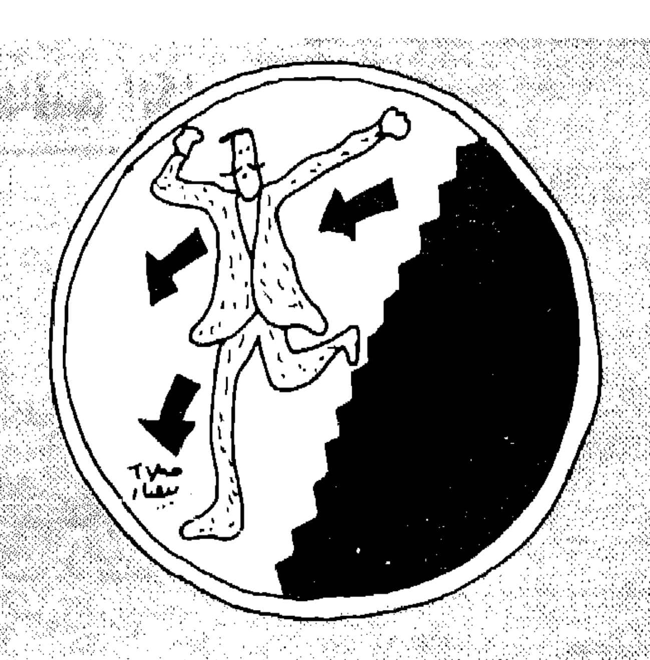
ويصف الكاتب الجزيرة البكر حين غزتها الأبنية الخرسانية . كان هذا وحده كفيلا بأن يفض بكارتها . ثم عندما اكتشف المستعمرون أن الأرض محشوة بالبترول . لقد رأى العمدة « ايميه سيزار » أن هذا وحده كفيل بأن يحول الجزيرة إلى فردوس .

تعتبر رواية « تكساكو » بمثابة سيرة حياة لكل من مارى صوفى ، وللجزيرة معا . فهى جزيرة تفتقد المياه الوفيرة . وفى هذه السيرة يبدو « شام » شاهدا على وقائعها . وليس هذا الشخص سوى الكاتب نفسه . ويسمى نفسه بـ « صانع الكلمات » .

ومارى صوفى شاركت فى تاريخ الجزيرة بالكثير ، فقد ناهضت رجال الاستعمار . وعملت على طردهم من البلاد بلا رجعة . وكرست حياتها لهذه القضية . ويصور الكاتب بطلته كامرأة مليئة بالخصوبة رغم أنها لم تتزوج . فقد دفعت الكثير من أجل مبادئها ، وفقدت الكثير من أبناء أسرتها .

وكما سبق أن أشرنا ، فإن أهمية هذه الرواية تجئ من الجو الذى صنعه الكاتب . بالإضافة إلى اللغة التي استخدمها في الكتابة . ثم في براعته في الحديث عن الأشخاص . وقد تمكن باتريك شموازو بهذه الرواية أن يثبت أن للأقليات أدبهم . وأنهم يكتبون إبداعا متميزا . يستحق أن ينال أكبر الجوائز العالمية في أسابيع قليلة.

●●●



الإنسان وطاقته الكامنة

بقلم : د . محمد بهائى السكرى

قال محدثى : « لا أدرى من أين أتتنى هذه القوة لحظة الزلزال الذى أصاب مصر مؤخرا ، فلم أدر بنفسى إلا وأنا أقفز درجات السلم بخطوات شاب فى العشرين ، أنا الذى جاوزت سن الأربعين ، وهبطت الدرج فى لحظات من الدور السابع إلى الدور الأرضى ، وكنت عادة أهبطه فى عدة دقائق ! » .

قلت له : « لا عجب فى ذلك ، فكم أخرجت المحن من طاقات خفية فى جسم ونفس الإنسان . ألم تر كيف بدّل الزلزال حال الناس فى لحظات وأظهر البعض من الشهامة ، وأظهر آخرون من القوة والبذل مافاق الحسبان؟ ياصاحبى كم فى الإنسان من طاقات جسمانية ومعنوية هائلة لا تتبدى إلا فى أوقات خاصة عند الابتلاء، وهذا مصداق لقول الحق سبحانه وتعالى « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء

الانسان وطاقته الكامنة

قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور » صدق الله العظيم .

وهناك قوى كثيرة كامنة فى جهاز الإنسان العصبى .

ترابط عجيب

ويسترعى انتباه الناظر فى وظائف الجهاز العصبى انقسامها إلى قسمين أساسيين : وظائف إرادية مثل الحركة والكلام ، ووظائف لا إرادية كالتنفس ، والهضم ، ودورة الدم فى الجسم . وتصدر الأعمال الإرادية طبقا لرغبة الانسان ، بينما لا يكاد يملك الكثير من المشيئة فى تصريف الوظائف اللاإرادية . ولكن وظائف أعضاء الجسم جميعا تترابط فيما بينها ترابط تروس الساعة ، ولا غنى لواحد منها عن الآخر .

وتقوم الوظائف اللاإرادية مثل هضم الغذاء ، وتنفس الهواء بمساندة الجسم أثناء أداء الأعمال الارادية كالعمال والسعى فى الحياة .

ولا يلقى الإنسان كثير بال لوظائف الأحشاء حيث تتفرغ كل طاقاته وملكاته للوظائف العليا كالتفكير والعمل والكلام .

وينقسم الجزء من الجهاز العصبى الخاص بالتحكم فى الوظائف الحشوية وهو المعروف بالجهاز العصبى التلقائى أو الأوتونومى

Autonomic Nervous System

إلى قسمين أساسيين :

قسم يختص باختزان الطاقة وبناء الأنسجة وتجديد مخزوناتها فى حالات الراحة ويعرف هذا بالجهاز العصبى الباراسيمبتاوى Parasympathetic . Nervou System

والقسم الآخر يطلق الطاقة المختزنة ويساعد على هدم الأنسجة واحتراق الغذاء من أجل زيادة القدرة الجسمانية فى حالات الطوارىء والخطر ، ويعرف هذا بالجهاز العصبى السيمبتاوى Nervons System Sympathetic

وينشط الجهاز الباراسيمبتاوى أثناء النوم والاسترخاء ليساعد على هضم الغذاء وامتصاصه ، ويقلل سرعة نبض القلب ، ويخفض ضغط الدم .

وينشط الجهاز السيمبتاوى أثناء اليقظة والعمل والمجهود فيزيد سرعة دقات القلب ، ويعلو الضغط ، ويزداد تدفق الدم للمخ والقلب والعضلات ، ويتحلل نشا الكبد «الجليكوجين» إلى سكر يصب فى الدم، وتزداد سرعة احتراق الغذاء فى الأنسجة .

ولكى يعرف الإنسان أقصى قدرة له على المجهود البدنى لابد أن يتعرض لضغط معين يتطلب منه أن يبذل أقصى طاقاته . وفى كثير من الأحيان لا تتطلب الحياة المدنية من إنسان العصر أن يبذل مجهودا كبيرا مثل ما كان يفعل الانسان

فى سالف الأزمان حيث كان يتصارع مع الطبيعة فى الغاب أو الصحراء .

بل إن قلة مجهوده ساعدت على ضعف عضلاته وضمور جزء من أنسجة جسمه مالم يكن يمارس نوعا من الرياضة . وقليل من أهل المدن يمارس الرياضة بصفة منتظمة .

ولكن بقى لنا لكى نعرف طاقاتنا الكامنة التى وهبها الله إيَّانا فأهملناها أن نشاهد أبطال الرياضة فى صراعاتهم المشرفة من أجل الميداليات الذهبية فى الدورات الأوليمبية . فى ذلك الوقت تطفو على السطح قدرة الإنسان البدنية الكامنة عندما تخضع للتدريب المنتظم ، والاشراف العلمى الدقيق ، والتوجيه السليم . عندئذ يستطيع المرء أن يعرف أقصى سرعة يمكن أن يبلغها الانسان فى العدو ، وأقصى ارتفاع يمكن أن يثبه ، وأثقل وزن يمكن أن يحمله ، وأسرع استجابات مختلفة لردود الفعل أثناء المبارزة والمصارعة ، وأقصر وقت يستطيع خلاله أن يشق أجواز الماء .

فإذا انتقلنا إلى مجال القدرات الذهنية والعقلية نجد الأمر أعجب بكثير .

فكثير من الناس لا يعلم أقصى قدراته وإمكاناته . بل هناك من يعيش ويموت وهو لا يدرى أن الله قد حباه مواهب دفينة ، وذلك لأنه لم يضع نفسه فى مجال اختبار لطاقاته ، ولم يعمل عملا يؤدى به إلى اكتشاف ذاته ومعرفة قدراته « اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور » صدق الله العظيم .

فكم من امرىء حباه الله موهبة الشعر أو النثر ولكنه لم يعرف ذلك لأنه لم يتعلم القراءة والكتابة . وكم من الناس عنده قدرة خارقة على الجمع والطرح والتعامل مع الأرقام ولكنه لم يدر ذلك لأنه لم يتعلم الحساب . وكم من الناس له قدرة على الرسم والتصوير وهو لا يعرف ذلك لأنه لم يمسك ريشةً أو قلما !

تنمية المواهب

ومن الجدير بالذكر أن حسن استغلال طاقات الانسان الكامنة يبدأ من الصغر . وأن الأمر يحتاج إلى نظرة خبير محنك يتفحص النشء الجديد ، ويسبر أغواره العميقة ، ويكتشف مواهبه الدفينة العقلية والجسمانية . ثم يبدأ فى تنميتها فى صبر وأناة مثل ما يفعل صائغ الجوهر ينتقى الأحجار الكريمة بعناية ، ويبدأ صقلها فى علم ودراية ، فيجلو بريقها الخبىء فتصبح فتنة للناظرين .

فمما لا شك فيه أن الله سبحانه قد حبا الكثير من الناس بقدرات فائقة تنتظر من يكتشفها ويجلو الصدأ عنها وإنه لمن المذهل حقا ذلك التنوع الفريد فى قدرات الناس الجسمانية والذهنية . فهناك من يتمتع بقوة عضلية خارقة ، أو ليونة جسمانية غير عادية ، أو توافق عصبى عضلى مذهل ، أو قدرة عالية على الاستجابة السريعة . وهناك من يتمتع

بذاكرة فوتوغرافية تلتقط تفاصيل الأشياء بدقة أو بقدرة غير عادية على انتقاء الكلمات وصياغة الجمل والتراكيب اللفظية، أو بمهارة يدوية غير عادية أو قدرة خارقة على الابداع والتصور والابتكار ، أو الربط بين الأسباب والنتائج ، أو اكتشاف العلاقات بين الأشياء .

ويتفاوت الناس فى قدراتهم على التركيز والانتباه ، وفى تمتعهم بفضيلة الصبر والمثابرة ، وفى قوة الإرادة والتصميم ، وفى مدى توازنهم الانفعالى ، وقدرتهم على السيطرة على النفس ويتفاوت الناس أيضا فى قدرتهم على تنمية هذه الخصائص والفضائل والحفاظ عليها .

ويبقى دائما دور المعلم أو الموجه أو الأب والأم فى اكتشاف قدرات البراعم الجديدة ، وصقلها وتطويعها من أجل بناء مجتمع أفضل فى غد أكثر ازدهارا من الأمس .

والتعرف على قدرات الانسان الكامنة وتنميتها له دور فى مجال الصحة والعلاج .

فبالرغم من أن الوظائف اللاإرادية مثل نبض القلب ، وضغط الدم ، وايقاع التنفس لا تخضع كثيرا لإرادة الانسان فإنه يمكن السيطرة عليها إلى حد ما عن طريق التدريب من أجل التخلص من بعض الأعراض المرضية ، أو الارتفاع بمستوى الصحة بوجه عام .

ويعرف إخضاع الوظائف الحشوية لإرادة الإنسان إلى حد ما بالارتجاع البيولوجى Biofeedbacack حيث يمكن عن طريق التدريب إبطاء نبض القلب ، أو احداث انخفاض فى ضغط الدم المرتفع ، أو زيادة اتساع الشعب الهوائية ، أو السيطرة على عمليات هضم الطعام وافراز العصارات الهاضمة ، وحركات المعدة والأمعاء . وكل ذلك قد يفيد فى علاج بعض الاضطرابات النفس جسمانية Psychosomatic حيث تؤدى الصراعات النفسية إلى حدوث خلل فى الوظائف الحشوية يتسبب فى أمراض مثل ضغط الدم المرتفع أو الربو أو الأزمات القلبية ، أو قرحة المعدة . ويأتى التدريب بفائدة حيث تؤدى السيطرة على وظائف الأحشاء إلى تحسن الأعراض .

ويبقى المجال مفتوحا للكثير من الدراسات والاكتشافات . فموضوع الدراسة – هو الجهاز العصبى فى الإنسان والقدرات الكامنة فيه وفى الجسم ككل – موضوع خصب خصوبة الحياة التى تتدفق فى الإنسان منذ بدء الخليقة وتنمو وتزدهر وتتناقلها الأجيال على مر العصور .

الإنسان والقدرات الخارقة

فإذا خطونا بالحديث من مجال قدرات الانسان الكامنة المجهولة إلى مجال القدرات الخارقة التى يدعيها بعض البشر نجد أنفسنا أمام هوة سحيقة فيها محاذر

كثيرة !

فعندما نتحدث عن قدرة البعض على التنبؤ بأحداث تقع فى مكان بعيد أو زمان مستقبل ، أو قراءة أفكار أشخاص آخرين من على بعد ، أو القدرة على تحريك أشياء دون لمسها عن طريق تركيز الذهن ، أو خاصية اللمسة الشافية التى تذهب العلل والأسقام ، أو القدرة على تحمل ألم السير على النيران أو وخز الأبر ، عندما نتطرق إلى كل ذلك لابد لنا من أن نميز بين أنماط عديدة من البشر ألصقت بهم صفة التمتع بهذه القدرات الخارقة .

– النمط الأول : من الأدعياء الباحثين عن الشهرة وهؤلاء محتالون لا يصعب اكتشاف حقيقة كذبهم على الباحث المدقق .

– والنمط الثانى : من الحواة الذين يسميهم البعض خطأ سحرة وماهم من السحر فى شىء . وهم أنفسهم يسمون نفسهم ذوى القدرة على خداع البصر illusionists وهم يستخدمون حيلا فيزيائية أو أجهزة مختفية خاصة أو براعة يدوية غير عادية – تلك التى يطلق عليها بعض الناس « خفة يد » – أو يحدثون فى المشاهد نوعا من الايحاء أو التنويم المغناطيسى وقد وصف الله سبحانه بعضهم الذين عاصروا موسى عليه السلام وفرعون فقال « سحروا أعين الناس واسترهبوهم » صدق الله العظيم .

– النمط الثالث : مرضى نفسيون تعتريهم حالات ذهان معينة تجعلهم يتصورون رؤية أشياء لا وجود لها (حالة ضلالة بصرية Visual illuion) أو يسمعون أصواتا لا وجود لها (حالة ضلالة سمعية Auditorg illusion) . وهؤلاء لا يدركون فى حقيقة الأمر أنهم مرضى بحاجة إلى علاج خاص. والكثير منهم لا تخفى حالته على مخالطيه ، وعلى أطباء النفس ، حيث يصاحب ذلك أعراض أخرى من تشوش الفكر ، وشذوذ التصرفات ، وغرابة الأطوار .

– النمط الرابع : أشخاص حباهم الله سبحانه وتعالى بقدرات غير عادية مثل ذكاء خارق أو قدرة عالية على التفكير المنطقى واستقراء النتائج من المسببات والملاحظة الدقيقة ، والربط بين الأشياء ، وصفاء الذهن .

وهؤلاء عندما تجتمع لهم الدراسة العلمية بالإضافة إلى موهبتهم الفطرية يصلون إلى شأو عظيم ويصبحون أعلاما فى مجالات مختلفة .

– والنمط الأخير : لا يمكن تفسيره إلا على أساس دينى حين تتبدى موهبة خارقة يقف أمامها العقل مشدوها . وعندما يعجز العقل عن التفسير يبدأ القلب فى الخشوع والايمان . فعقل الإنسان محدود الملكات ومخه القابع فى تجويف علبة عظيمة صغيرة محدودة وهى الجمجمة لا يستطيع أن يهيمن على أسرار كون مترامى الأطراف .

روايات الهلال

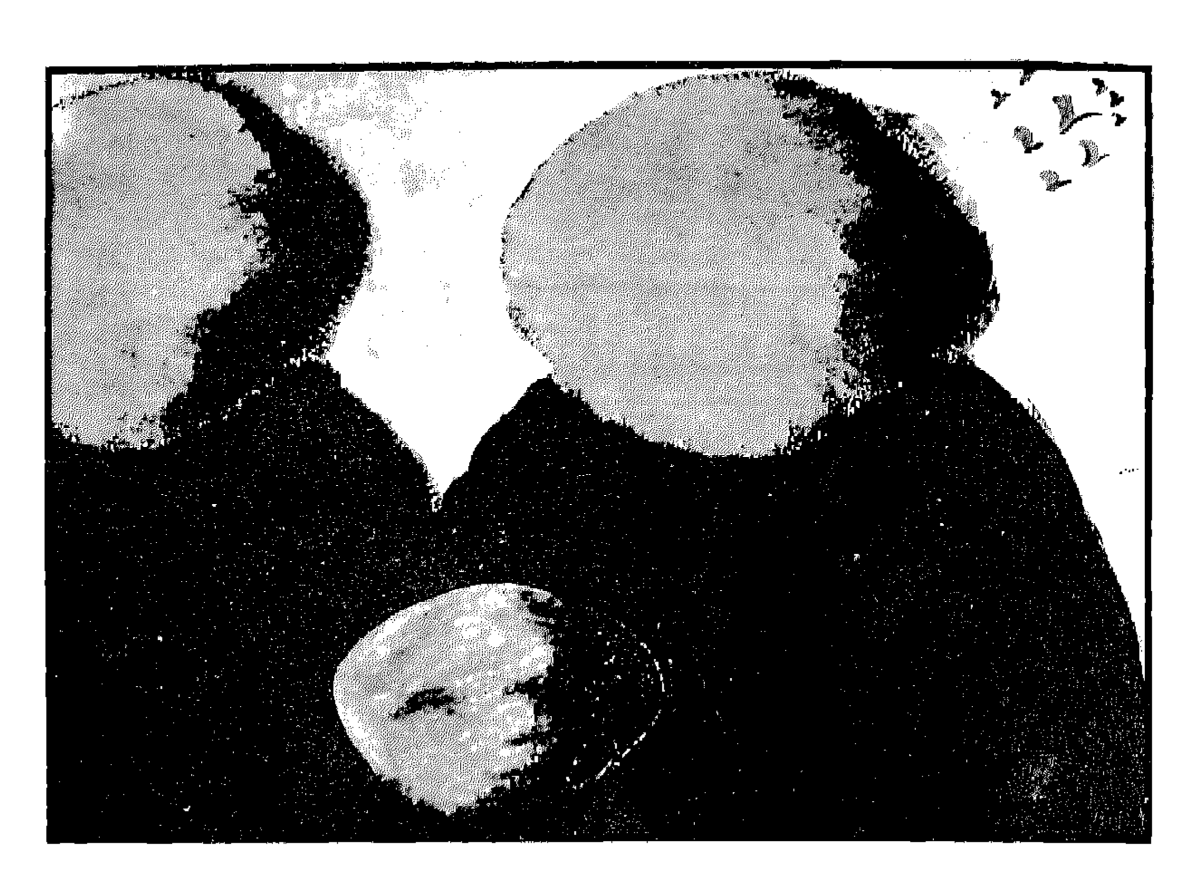
تقدم

وثانينا الكومي

بقلم

خيري شلبي

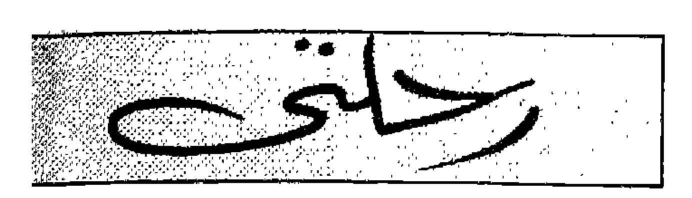
تصدر ١٥ يناير ١٩٩٣



بنت و ولد .. وعصفورة

شعر : عزت الطيرى

كانت البنتُ ترسمُ عصفورةً
فى فضاء عذوبتها
وتنادى عليها
ثم تطعمها سكر القلبِ ،
بسمة دهشتها ،
ومواجيد حنطتها
وندى مقلتيها
وتلوّن أطراف ريش الجناحين،
بالأبيض المتناثر ،
بالفضة ، البرق ،
فى خافقيها .
تغنى ،
«سماوات قلبى لديها » !!
....
....
فى هجير الظهيرةٍ ،
كان الفتى القروىُ ،
يتابعُ لوحتَها
ويطالعُ أحزانَهُ ،
فى كتاب الحقول ، يغنى ،
ويرنو إلَيها :
ليتنى محض
عصفورة
فى فضاء يديها !!



التكويـن

بقلـم : فـاروق خـورشيد

التكوين مرحلة لم ينج من تأثيرها كاتب أبدا .. شاعرا كان أم كاتبا أم روائيا أم قصاصا .

كـمـا كـانت الأسطورة هى المنبع الملهم لكل عـمـل فنى من الحكاية الشعبية إلى الحكاية الخرافية ، فإن الاسطورة كانت التكوين للوجود الفنى البشرى ، على مدى ابداعه عبر التاريخ ، وعبر الصور الفنية المختلفة التى مر بهاالتعبير الانسانى عن نفسه ، منذ الحكاية الشعبية إلى الحكاية الخرافية ، إلى الملحمة إلى المسرحية إلى الرواية ، إلى القصة القصيرة ، كل واحدة من هذه الابداعات بصورها المختلفة ، وتنويعاتها المتعددة عبر العصور الأدبية ، وعبر التعبيرات التى أحدثتها الثورات الفكرية والمجتمعية والأدبية المختلفة على مر العصور .

وقد شاء قدرى أن أعيش فى عدة مدن مصرية من أواخر العشرينات وحتى أوائل التسعينات ، حتى الآن .. حقا لم يبدأ إدراكى للأشـيـاء يتكون ، ويرسب فى الذاكرة إلا من حوالى منتصف الثلاثينات .. إلا أننى لاشك عشت عصر فؤاد وفاروق ومجلس الوصاية مرتين ، ثم عصر نجيب وعبد الناصر والسادات وحسنى مبارك .. أى اننى عشت عصر مقاومة الاحتلال ، وعصر مقاومة الاستقلال ، وعصر مقاومة الاشتراكية ، وعصر تهذيب الانفتاح .. الدعـوة إلى الوطنيـة ، ثم الدعوة إلى القومية ، ثم الدعوة إلى الذاتية ، ثم الدعوة إلى التلاؤم مع ما هو قائم ..

هذا هو الزمان مضروبا فى الأحداث .. أما المكان فكان فى البداية دمياط فى الشمال الشرقى لمصر ، ثم أبو تيج فى الجنوب أو فى أواسط الصعيد المصرى ، ثم فى دمنهور فى الشمال الغربى لمصر .. والاولى مدينة صناعية ، والثانية مدينة

بين الزمان والمكان



فاروق خورشيد

زراعية والثالثة مدينة تجارية ، ومنذ البدء كنت أعيش فى هذه المدن أشهر الشتاء والدراسة ، بينما أنتقل إلى القاهرة كل صيف حيث بيت جدى القديم لأبى فى الدراسة وقايتباى ، وبيت جدى القديم لأمى فى باب الشعرية . إلى أن بدأت دراستى الجامعية فاستقر بى الحال فى القاهرة شتاء وصيفا على الدوام . فى الدراسة وقايتباى حينا ، وفى باب الشعرية معظم الأحيان . وكنت أعرف طريقى منذ الطفولة من بيتنا فى باب الشعرية إلى بيتنا فى الدراسة ، وذاك الآخر فى قايتباى ، أقطعه على قدمى وحدى ، بعد أن قطعته مئات المرات مع الأقارب فى الزيارات التى لا تنقطع بين البيتين . ومن هنا حفظت شوارع الجمالية التى كانت تفصل بين البيتين شارعا شارعا ، وحارة حارة ، بل وزقاقا زقاقا ، وعرفت أمير الجيوش وسوق النحاسين ، وسوق الليمون ، وباب الفتوح وباب النصر ، وبين القصرين ، وبيت القاضى ، وشارع الموازين ، والكلوب المصرى ، ثم الباب الشرقى للحرم الحسينى ، حين تملؤنى روائح العطور والبخور المنبعثة من الدكاكين الصغيرة أمامه ، ممزوجة بروائح التوابل الحريفة ، والعطارة المميزة ، وهنا كنت اجدنى مندفعا وحدى ، إلى خلع نعلى ، ودخول الحسين ، فهكذا كان يفعل كل الكبار الذين كانوا يصحبوننى فى هذا الطريق ، إلى الميضة والوضوء ، وأصوات الأكواز الصفيح والنحاس تضرب القواعد الرخامية ، وأصوات الماء المتدفق ، ممتزجة ببسملات ودعوات المتوضئين ، ثم إلى جانب بعيد إلى جوار الحائط فى الجامع الكبير أصلى ركعتى التحية للمسجد ولصاحبه .. فقد كنت أقلد فى هذا أخوالى زكى ومحمد انس ومحمد عبد الفتاح ، حين يصحبنى

أحـدهـم فى رحلة الذهاب إلى بيت جـدى لأبى – ولم يكن أحدهم ينسى أن يشـترى لى صـحن الكشـرى من جـوار مـسـجـد الشـعـرانى ثم كـوب السـوبيـا فى بين القصـرين ، وكان يزيد عليهم خـالى زكى صـحن الخشاف من عند الأيتى فى سـوق الليمون ، والغريب انهم جميعا لم يكونوا أخوالى حقيقة ، فأمى كانت وحيدة أبويها وأنما كـانوا أبناء أخـوالها وأبناء عمّاتها وأعمامها ، ولكنها كانت تعاملهم كأخوة حقيقيين ، وكانوا هم يعاملوننى كأخوال حقيقيين .. والوضع متشابه فى الناحية الأخرى ، فقد كان أبى أيضا وحيد أبويه ، ولكن أبناء أعـمـامـه وأبناء أخـواله كـانوا يشكلون وجوداً أسريا حافلا فى حياتى أيضا ، فقد كنت أقول لوالد أعمامه ياجدى وأقول لأمهم ياجدتى ، وكان جدى خورشيد يحتفى بى فى كل عيد ، ويعطينى العيدية التى تساوى ما يعطيه لأبنائه تماما ، وكانت جدتى نفيسة وهى تركية (مخلطة) تحتفى بقدومى إلى بيتها فى قايتباى ، بطبق الإفطار الغريب ، عشرات البيضات المقلية فى شبر من السمن البلدى ، والقبلات والأحضان ، والاصرار الحانى أن آكل كل ما فى الطبق والا فلن أكبر أبدا عن «عقلة الصباع» ، ثم تجلس إلىّ وأنا التهم الطبق الساخن لتحكى لى عن « عقلة الصباع » ، وما كان يواجهه من أخطار ، لأنه لم يأكل صحن البيض الذى صنعته له جدته ، فلم ينم جسده أبدا عن حجم « عقلة الصباع » وهاجمته الفئران والصراصير والخفافيش وحتى الناموس هاجمه هو والذباب ، ولكنه كان شجاعا صنديدا ، ونجا بفضل اصراره على النجاة . وفتحت أمامى دنيا من الخيال الغريب ، المليء بمعنى المخاوف ، ولكنه أيضا ملىء بمعنى الاصرار والشجاعة والنهاية المؤكدة من انتصار البطل الصغير لأنه مؤمن ويصلى ، ولا يكذب ، ويحب أباه وأمه وجدته فاطمة وجدته نفيسة (صاحبة طبق البيض) ، وصاحبة البيت الواسع العريض فى قايتباى . ولست أدرى كيف عرفت حكاية عقلة الصباع فى هذا الزمن المبكر ، ولكنها كانت تعرف حكايات أخرى غريبة ، عن الأميرة المسحورة ، والمارد الذى يحبها ويعطف عليها ، والعفريت الذى انقذها من السحر ، وليس كل العفاريت يا أولاد أشرارا . بل هم خيرون ، والولد الذى تقع منه لقمة على الأرض ، يبسمل عليها ويتركها لعابر المكان ، فهى رزقه ، وسيحبه العابر ولن يؤذيه أبدا ، وان ظهر له يقول له : السلام عليكم ، ويرد عليه العابر السلام، وساعتها سيصبح صديقه ولن يؤذيه .

فإذا عرفت أن هذا البيت الكبير كان فى وسط منطقة تحيط بها المقابر المملوكية القديمة ، وتعزله عن القاهرة صحراء لابد من قطعها سيرا ، وسط مخاوف مجهولة ،

وأن البيت نفسه كانت يكثر فيه ظهور الحشرات المؤذية من العقارب وحتى الثعابين ، عرفنا سر حرص السيدة الكبيرة على وجود أجهزة دفاع طبيعية فى وجدان أطفالها ، أى أطفال أبنائها ، وأنا منهم .

إلى هذا الحد من التواصل الأسرى كان الأطفال يحسون بوجودهم الآمن داخل زخم كامل من الحب والرعاية ، فليس مهما أن تكون ابنا من العائلة ، المهم أن تكون ابن هذه العائلة التى تحبك وتحنو عليك ، وترعاك ، وقد لاحظت أننا ، أنا وجدتى فاطمة نشغل غرفة واحدة فى الطابق العلوى من البيت الكبير ، الذى لم يكن يتكون إلا من مناور والطابق العلوى ، والسطح - أما السطح فقد كان مشاعا لنا كلنا ، أما الدور العلوى ، فقد كانت لنا فيه حجرة ، كما كانت لكل ولد من أولاد جدى خورشيد عدة غرف ، وله هو الصدارة فى هذا الطابق ، أما الطابق السفلى ذو المناور فقد كان مقسما على أبناء وبنات أعمامه ، لهم ارتباط بخورشيد نفسه ؛ فواحدة لعمى عباس ، وواحدة لعمة لها ثلاث بنات ، وأخرى لعمة لها بنت واحدة ، ورابعة لعم لا يظهر أبدا إلا كالشبح بالنسبة لى ولطفولتى الباكرة هذه ، ورغم هذه التفرقة الغريبة فقد كانت تجمعنا ليالى القمر فى السطح الواسع العريض ، وغناء وألعاب وأكل تقدمه كل مندرة وغرفة لكل من فى السطح الواسع العريض .

ولم أكن وجدتى فاطمة نمكث فى البيت الكبير إلا فى الأعياد والمناسبات ، أما ما غير هذا فقد كنا نقيم فى البيت الصغير فى الدراسة مع جدى اسماعيل وأبى ، الذى كان يمكث فى الاجازة كلها فى هذا البيت الصغير القديم المترب ، الملىء بروائح العفن والتآكل والفقر الحقيقى ، وجدى اسماعيل هذا - كما فهمت - كان الأخ الأصغر لجدى خورشيد هذا الذى استحوذ باللقب دونه . رغم أنه لم يكن هو خورشيد الأب وانما كان اسمه رأفت ، أو عفت أو شيئا من هذا القبيل ، ولكنه كان ضابطا فى الجيش السلطانى ، وهذا يعنى قبل الملك فؤاد ، وأنه كوفىء آخر الأمر بأن عين شيخا للقسم ، والقسم هذا هو حى قايتباى بمقابره وقصور المماليك المهملة فيه ، وبعض المنازل العشوائية ، والفقر المخيم في أرجاء الحى أو القسم أو أى شىء أحب . ولا أذكر منه إلا وجهه الأحمر وشاربه الأبيض وعينيه اللامعتين أبدا ، والصوت العالى دائما الذى يتفجر من بين شفتيه ، فيدفعنا نحن الأطفال إلى الابتعاد والاختباء بعيدا عنه ، لقد عاش ضابطا تركيا إلى آخر أيام عمره ، ولا أذكر عن موته أى شىء .

إلا أن هذا البيت الكبير كان ينضح بالجمال فى كل من فيه من نساء وشباب ، كلهن جميلات إلى حد الفتنة ، وكلهم شباب ملىء بالحيوية والسحر إلى حد أن أذكرهم إلى الآن وجها وجها ، وخصوصة

خصوصية ، ولكننا حين ننتقل إلى بيت الدراسة يختفى كل الجمال، ولا يبقى إلا القبح .. واعرف فيه كم كنا فقراء ، فقد كان جدى اسماعيل أفقر أخواته جميعا .. ورغم المكان الذى يحفظونه له ولزوجته وابنه فى البيت الكبير، فإنه محروم من كل ما يتمتعون به من ثروة ومال وفى هذا البيت كان يعيش أبى وحده مع أمه وابيه وحدهما، إلى أن يتذكرهم الأهل والأصدقاء بالزيارة بين حين وحين .. وهم حين يأتى هؤلاء الأهل والأصدقاء فى حرج مقيم فليس لديهم ما يقدمونه تحية للزوار ، إلا إن استعاروا من سكان الدور الذى يليهم بعض الشاى أو البن أو السكر ، ان كان هؤلاء أنفسهم يملكون منه فضلة يشترون بها وجوههم أمام الضيوف . وكان من يسكنون تحتنا هم عمتى أم صالح ، وعمى صالح ، هكذا تعودت أن أناديه ، فقد كان ابن خالة ما لأبى ، وكان نقاشا ، أو (مبيضا) تعلو ابتسامته الرقيقة مسحة حزن ، وتملأ شعره ووجهه وملابسه بقايا جير وزيوت ، مما كان يدهن به الجدران والبيوت ، إلا أنه كان صديقا حميما لأبى ، ولعل الهواية والصنعة كانت واحدة ، إلا أن واحدا متعلم، والثانى احترف .. وقد ظلت الصداقة تجمعهما باستمرار ، وتعودت أن أرى عمى صالح فى بيتنا كلما عدنا من دمياط أو غير دمياط بعد هذا ، يتحدث حديثا حميما لأبى ، حتى توفاه الله قبل أبى بسنوات ، وسرت أنا وهو – أعنى أبى – فى جنازته البسيطة والفقيرة إلا من دفء اصدقاء لم أعرفهم يتكالبون على حمل النعش ، وولولت عمتى أم صالح تتعقب النعش حتى المقابر .. ولا أحد يجرؤ أن ينهرها لتعود إلى المنزل ، أو لتسبق النعش إلى المقبرة . فكلهم أولادها ، وكلهم يعرفون حزنها وتعاستها بفقد عائلها الأوحد وابنها الوحيد « عمى صالح » .

عباس السقا

من الفقر المدقع خلقنا ، وهذا الفقر المدقع كان أستاذنا الحقيقى ، فلا مواجهة له إلا بالحب والتعاطف ، والتساند ، حتى فى البكاء على الموتى ، الذين سيتسبب موتهم فى مزيد من الفقر والعوز ، ولكننا نصلى ، ونرضى ، ونؤمن بقضاء الله وقدره، ونؤمن أكثر برحمته وعطفه ، وأخيرا بغفرانه .

هذا البيت الفقير كان يطل على شارع الدراسة ، وكان يتكون من طابقين والمناور، وكنا فى الطابق الثانى ، وهذا الطابق يتكون من حجرتين ، وصالة مكشوفة ، ثم حمام ضيق صغير ، وتعبيرى هنا مهذب ، فلم يكن هذا الحمام إلا (كنيفا) بائسا مصدر المياه الوحيد فيه ، قلة مكسورة ، تمتلىء حينا بالماء ، وأحيانا لا تمتلىء فقد كان البيت كله لا يعرف صنابير الماء . وانما يأتى عم عباس السقا فى الأسبوع مرتين ، حاملا قربته على ظهره ، يرتقى السلم المتهاوى فى صعوبة وهو يصيح :

ياساتر ، ياعوض الله ، وخلقنا من الماء كل شيء حي - ياساتر - ياساتر .

وتغطي جدتي (السيدة فاطمة) وجهها بخمارها وهي تقول له : سترك معاك ياسي عباس ، ادخل وعليك امان الله .

ويقول : باسم الله الرحمن الرحيم ، ياساتر ، سبحان من له الدوام ، ياعوض الله .

وأقعي بين أقدامها ، أرقبه وهو يميل بجسده إلى اليسار حيث عين (بوز) القربة إلى الزير وسط الصالة المكشوفة ، ويرفع أصابعه بخفة عن حافة البوز فيتدفق الماء إلى الزير العطشان .

يمتلىء ، وكنت أسمع لصوت الماء ملتقيا بداخل فخار الزير العطشان صوتا غريبا لا أنساه . كأن شيئا يتشقق في شوق ليتلقى حياة ووجودا جديدين ، ويمتلىء الزير ، فيعتدل عم عباس السقا وهو يبسمل ويحوقل ويقول كلمته التي لم أفهمها إلى الآن : ياعوض الله ، ياساتر . ثم تقوده جدتي إلى الحجرة الثانية ، وهي تسدل الشال على وجهها ليملأ الحلل الكبيرة وصفيحتين ، وهو في كل مرة ينحني حتى يمتلىء الإناء ثم يعتدل ، ليعود لينحني أمام الإناء الثاني ، ثم تقوده إلى مجموعة القلل على المشربيات حيث ماء شربنا ، وتدخل به إلى (الكنيف) ليملأ القلة المكسورة ، ويرمي باقي ماء القربة في المرحاض نفسه ، وتعود جدتي (الست فاطمة) تغطي وجهها وهي تمد يدها بالمليمين تضعهما في كفي لأعطيهما لعم عباس السقا وهي تقول : ربنا يفتحها عليك ياسي عباس « الرزق من الله » .

ويمسك الرجل المليمين من يدي وهو يقبلهما وجها وظهرا ، ويضعهما في جيب سترته الجلدية التي تغطي صدره ، وهو يلملم القربة الخاوية ليريحها فوق ظهرها ويقول : الستر ياصاحب الستر ، ياعوض الله ، رزقنا ورزقكم على الله ، ياساتر ، ويمضي يتسند وهو ينزل الدرج الخشبي المتهاوي الذي أقيم بلا حاجز ، وأنا اشفق عليه في كل خطوة ، لأنني كنت أخاف دائما مغامرة طلوع هذا السلم ، ومغامرة النزول من فوقه . والحجرة الثانية التي يملأ السقا الأوعية التي فيها بالماء ، كانت حجرة جدتي وجدي ، وهي دائما مغلقة ومتربة ، وفيها سرير حديدي عتيق في زاوية من الحجرة وفي الزاوية الأخرى صندوقان خشبيان أسودان تحيطهما اسوار حديدية رمزية كتلك الصناديق التي تشاهدها في أفراح الفلاحين ، أو التي كانت جدتي لأمي تملؤها بالفطائر والشريك حين تحملها على العربة الكارو التي تذهب بها إلى الحوش في القرافة .

كان هذان الصندوقان هما كل أثاث الغرفة ، في واحد الملابس المغسولة والمكوية ، وفي الآخر الخبز والجبن والبيض والأطعمة التي تريد جدتي فاطمة أن تحفظها بعيدا عن الصراصير والفئران .. بل والخنافس أيضا . وفي هذه الغرفة

كانت مواقد الغاز للطبيخ والغسيل ، بل والاستحمام أيضا .. أما الغرفة الأخرى فقد كانت (شرحة) أكثر ، فيها كنبتان (استامبولى) ، واحدة تحت النوافذ ، والثانية إلى جوار الحائط ، والأرض يكسوها الحصير ، وعلى الجانب الثالث (تسريحة) فيها مرآة ، وإلى جوارها كرسى ومنضدة .. وعلى الناحية المقابلة عدة كراسى ومناضد صغيرة وواطئة ، وكنت أنام فيها أنا وأبى طوال وجودنا فى الدراسة .. وكان كل ما يهمنى من هذه الغرفة هو شبابيكها ذات المشربيات المتربة ، فقد كنت أقعى فوق الكنبة لأنظر من خلالها إلى شارع الدراسة أمامى . أراقب السائرين ، وعربات الكارو تحمل الذاهبين إلى المقابر ، يحملون العربة بالخوص والورد والصناديق الملونة المغلقة التى كنت أعرف أنها تحتوى الرحمة التى ستوزع على المقابر من فطائر (وشريك) وبلح وبرتقال ، وكانت جدتى (فاطمة) كثيرا ما تعفينى من تراب المشربية ، فترفع (الشيش) على حمائل خشبية لأرى الشارع أكثر وضوحا وتشير لى على (سوارس) ، وهى تسير بتثاقل شديد يجرها بغلان مجهدان ، فقد قطعا المسافة من باب الخلق إلى الحسين ، ثم يكملان المشوار إلى أعلى الدراسة حيث الجبل ، أو جبال الاتربة المتراكمة فى نهاية الشارع وتزداد كل يوم ارتفاعا بأكوام الزبالة التى تحمل اليها من جميع انحاء القاهرة ، لترمى فى هذا المكان ، وكنت أصعد إلى هذا المكان مع جدى اسماعيل عند الغروب، فقد كان الجو يصبح لطيفا ورائقا ، ويخفى حر القاهرة حتى لا يكاد يبين ، ويشير إلىّ بأصابعه المعروقة الطويلة والجافة الى شريط صغير فوقه عربات صغيرة ، كان يمثل خطا حديديا انشأته الحكومة ليحمل مجموع هذه المخلفات والأتربة ، ويحاول أن يزيح المقطم قليلا عن صدر القاهرة ، ويقول : ، يوما ما ستتحول هذه المنطقة كلها إلى حدائق ونبات ، فهم يزيحون التراب والزبالة ، وغدا يزرعون .

ولم أكن أفهم فأسأله فى سذاجة :

لماذا ياجدى ؟

يفتل شاربيه الكثين ، بياضهما يشوبه صفار عند الحواف فقد كان كثا عريقا ويقول :

لابد لهذا الكابوس أن يزول ذات يوم، ولابد أن تزرع الجناين بدلا من هذه الكيمانات ، ولابد أن يوجد مكان لمثلك ليلعب فيه .

أنا .. وهموم الآخرين

كان حالما عظيما ، ولم يكن يفعل شيئا سوى أن يحلم ، وقد عرفت أن هذا هو سر غضبة أخيه الأكبر (خورشيد) عليه .. وكان سر غضبة زوجته ، جدتى (السيدة فاطمة) عليه .. فقد رفض بعد خروجه من الجيش أى عمل شاق ومضن ، فكفاه

ماعاناه من لفح الصحراء ووحشة غابات أفريقيا ، وضنك الشتاء فى طريق الحجاز، هو قد انتهى من كل هذا بلا رجعة ، أكثر من وظيفة متواضعة عرضت عليه وهو يرفض ولماذا يريد الوظيفة ، الولد الوحيد تخرج من المدرسة ، وأصبح هو نفسه موظفا ، وتزوج وأنجب ، وهذا ولده يصحبه معه إلى كيمان الدراسة ليحكى له ما فى قلبه من هموم وتعاسات ، وتعلمت من هذه الساعة الباكرة أن أفتح قلبى لهموم الآخرين ، وأن أشعر بها ، وإن لم أفهمها . كان اهتزاز شاربه يوحى إلى بأن شيئا يؤلمه ، ويوجعنى قلبى كما كان يوجعه ، ويحس بى الشيخ العجوز ، فيمد يده إلى يدى ، ويصحبنى عائدين ، وهو يدعو لى بصوت عال ، أن ينور الله قلبى ، فأنت ياطفلى تملك قلبا كبيرا ، وقاك الله شره .

كان أخوالى ، حين يخرجون من الحسين بعد الصلاة يصحبوننى إلى (المالكى) فى الميدان ويأكلون ، وآكل معهم الأرز باللبن ، والمهلبية ، والقشدة بالعسل ، فقد كانت ألبان المالكى شيئا مقررا بالنسبة لهم فى هذه الرحلة ، ثم يصحبوننى إلى الدكان الذى يعمل فيه جدى فى أول شارع الدراسة ، حيث يقف فى الدكان الواسع الذى تفصله عنا به رخامة عريضة يقطع عليها (التمباك) أو يقصه بمقص عريض ، وهو يبتسم ابتسامته العريضة التى تلمع عند عينيه .. وتنتهى رحلة أخوالى ؛ أو أولاد خالات وعمات أمى – هنا – فقد كانت جدتى (فاطمة) لا تحبهم ، وترى أنهم طبقة (دون) من الفلاحين ، وأولاد البلد ، وكانوا هم ومعهم جدتى لأمى يبادلونها نفس الاحساس ، فهى وأهلها بقايا (أولاد الناس) يعيشون على أوقاف المماليك ، كسالى لا يصلحون لشىء ، وكنت منذ طفولتى الباكرة أحس بهذا التيار الغريب الذى يتحرك غاديا رائحا بين البيتين ، بيتى فى باب الشعرية ، وبيتى فى الدراسة .. وكنت لا أفهم ، فكنت أحزن وأصمت . ولكن كانت لى أسرارى أيضا ، فما أن يتركنى (أخوالى) لدى جدى ، حتى يتهلل وجهى فرحا وبشرا ، وسرعان ما يغلق الدكان ، ويصحبنى ضاحكا ، ووجهه يطفح بشرا وسعادة ، وشواربه تتراقص بهجة وحبا ، إلى دكان (محمد) وسط شارع الدراسة ليشترى لى ملبنا وفنضاما .. وكفى ، وعيناه الثاقبتان الضاحكتان تتطلعان فى حذر إلى (الكيس) الذى أحمله فى يدى الأخرى .. وتحتوينا الحجرة الصغيرة ذات المشربيات ونجلس على (الحصيرة) وسط الغرفة ، وأنا أخرج له مافى الكيس ، ما ادخرته طوال الأسبوع. وكانت أمى – وهى تحبه حبا جما – تساعدنى فى ملء هذا الكيس ، بالفطير المشلتت القادم من (المنايل) بلدة أخوالها وأعمامها ، أو من الجبن الرومى ، والشيكولاته ، وهى عملة نادرة لم تكن تشتريها لنا إلا جدتى لأمى ، وكنت أحمل

ما استطيعه ، وما تعاوننى أمى على حمله ، منها اليه ، وبعض الطعام الذى لا يحرج ، كورك فرخة أو قطعة ريش ، أو حمامة محشية ، أشياء تبدو عفوية كأن الذى جمعها هو هذا الطفل الذى يحب جده ، بينما كانت أمى هى التى توهمنى بأننى أحملها من أجل جدى ، الذى يحبنى وتحبه ولم يكن الكيس يخلو آخر الأمر من لعبة جديدة أحضرتها جدتى لأمى وانزلقت دون أن يحس أحد إلى هذا الكيس الاسبوعى . ويتحول جدى اسماعيل بشواربه البيضاء الكثة المشبعة بالصفرة ، وعينيه الضاحكتين العجوزتين ، إلى طفل صغير ، يضحك معى ، ويصفق معى ، ويأكل معى ، ثم ينشغل معى تماما باللعبة الجديدة التى دستها أمى فى كيسى الاسبوعى . وكانت جدتى (فاطمة) تغض الطرف عن لهونا ، فهى تعرف مسبقا ماذا تحمله رحلتى الاسبوعية لجدى من متعة وسعادة ، وبعد أن تفرغ من كل المتع التى يحملها الكيس، واللعبة الجديدة ، يصحبنى جدى سعيدا وضاحكا إلى جبل الدراسة ليجلسنى امام صندوق الدنيا ، مرة ومرات ، اسمع وأشاهد حكاية السفيرة عزيزة ، وأبو زيد الهلالى ، وعنتر شايل سيفه ، وملاعيب شيحه ياوله .. مرة ومرة حتى فرغ المليمات الخمسة التى خصصها جدى لهذه المتعة الخاصة بى ، فيقول كفى .. ولم أكن أراجعه ، ففى عينيه شىء آمر ولكنه حزين أسيان ، كنت أطيعه وأحبه ولم أكن أخاف منه أبدا ، وكنت اسمعه ، واحس بالدموع تبلل عينيه ، وكان يحكى حكايات غريبة ، عن بلاد غريبة ، وعن غربة ، وعن ضياع العمر وعن النصيب ، ويترحم على أناس لا أعرفهم ، ثم يتشهد ، ويطلب منى أن أقرأ الفاتحة .. وكنت أحفظها وأجد راحة فى تلاوتها معه ، ونحن نفرد كفينا أمام وجهينا ثم نمر بأكفنا المفتوحة على وجهينا ، ونروح فى صمت ، يقودنى خلاله فى رحلة العودة إلى منزل الدراسة وهو يتحدث ، حديثا كله أحلام لا أفهم منها شيئا ، إلا أننى أود أن أضمه وأحضنه وأسمع حديثه إلى الأبد ، وهذا الأبد لم يدم طويلا ، فذات يوم رقد جدى رقدة مخيفة ، ولم يسمح لى أن أراه ، فحين رأيته آخر مرة كان يصرخ لأن أحدهم قد وضع فيه (أستره) تسحب البول ، وكان مكشوفا أمامى حين رأيته ، فلملمتنى جدتى فاطمة فى سرعة ، وأسرعت بى بنفسها إلى منزلنا فى باب الشعرية ، رغم كراهيتها للمنزل ومن فيه ، ولكنها كانت تحاول أن تجنبنى رؤية عذاب من أحببت ، ولكنى إلى الآن لا أنسى اليد المتصلبة الممدودة فى تشنج ، ولا أنسى الصوت المشروخ الذى يصدر عن صدره ، ولا منظر شواربه المفتولة وهى متهدلة فوق ذقنه .. وبعد حين عرفت أنه رحل .. ولم أذهب إلى بيت الدراسة لفترة طويلة فقد آن أوان سفرنا إلى دمياط ، فقد انتهت الاجازة الصيفية ، وعشت فى دوامة الوداعات

والقبلات والهدايا إلى أن وجدت نفسى فى القطار يحملنى إلى دمياط ، وكنت تائها بين حقائبنا وأبى وأمى وأختى الصغيرة التى ولدت فى هذا العام ، وحظيت بكل اهتمام جدتى وأمى وابى ايضا .. أصوات القطار ، وباعة السميط ، والقازوزة ، وضجة عجيبة تملأ عربة الدرجة الثالثة التى كنا نستقلها ، كانت تختفى وراء ضجة أخرى كانت تملأ وجدانى وسمعى وبصرى كله .. وتردد بنفس ترداد حركة القطار الرتيبة .. كان جدى اسماعيل يحملنى على كتفيه ونحن نقف فى ميدان الحسين ، والطبول تدق ، والدفوف تضرب، والصنج وقعها رتيب ، تتردد بنفس رتابة عجلات القطار ، والموكب يمر أمامنا وجدى يهتز كله ارتعاشا وخوفا ، ويدا جدى فوق فخذى ويداى فوق منكبيه تساعدنى على التماسك والصلابة ، عشرات وعشرات ، يمرون أمامنا ، كل أربعة فى صف ، صفا وراء صف رؤوس حليقة ، والأقدام مقيدة بالسلاسل ، وفى الايدى سلاسل تضرب الاجساد ، أو سيوف تضرب الرؤوس الحليقة ، فى انتظام ، وصيحة واحدة ترددها كل الأفواه معا : ياحسين ، والدماء تسيل من الرؤوس والاجساد ، والموكب يمضى فى بطء شديد ، ودفوف وطبوب وصنج ، ودوى الجنازير فى الأرجل، وصدى السيوف فى الايدى تضرب والرؤوس ولم أشهد الباقى فقد أغمى علىّ، ووجدت جدى يحملنى إلى محل المالكى ، يرش فوق وجهى الماء المعطر بالورد ويهمس : أفق ، مر الموكب ومضى ، وكنت انتفض من الخوف ومن الماء الذى رشه على ، وقال فى نفس الصوت الهامس ، ورائحة الدخان ، وماء الورد الذى يتعطر به ، وأنفاسه الثقيلة تملأ وجودى : لقد مر الموكب وعبر .

وقال جدى :

هؤلاء الشيعة من أبناء النجف وكربلاء، يعذبون أنفسهم لتتطهر من مقتل الحسين ، فهم قد أسلموه لمصرعه .

ولم أفهم .. وحملنى إلى بيتنا وأنا بين الموت والحياة ، وأقامت جدتى (فاطمة) الدنيا وأقعدتها ، وكان هو الذى يتحمل اللوم كله ، وأسرعت تذبح لى فرخة ، وتسقينى شربتها ، وترغمنى على أكل صدرها ، حتى استرد أنفاسى ، وبخرت الحجرة كلها ، وأخذت تحوم حولى مبسملة محوقلة .. وصوتها ، يمتزج مع صوت عجلات القطار ، ودفوف الموكب الغريب الذى حفر لوجوده جزءا فى وجودى لا يمحى أبدا ، والقطار يسرع بنا إلى دمياط .

ذكرياتى فى دمياط

وذكرياتى عن دمياط تبدو لى الآن كالكارت بوستال ، ثابتة ، وإن كانت مليئة بشيء من الحركة ، فأنا أذكر بيتنا فى ضواحى دمياط والحديقة التى كانت تحيطه ، وأشجار البلح والجوافة .. وتكاثر

هذه الثمار حتى كرهتها تماما ، ونستخرج من باطن الطمى فى الحديقة ، اسماكا صغيرة ولكنها بالنسبة لنا تمثل صيدا ثمينا .

فى دمياط لم أحس أبدا بالفقر الذى كنت أحسه فى بيت الدراسة وقايتباى ، لا هنا كل شىء موجود ومتوافر ، وأمى تصنع من الأرز كل شىء ؛ الأرز مع السمك ، والأرز مع الخضار كله ، والأرز حتى مع الفول الأخضر ، الأرز فى كل شىء ، ولم أكن أعرف أنه فى دمياط أرخص من الخبز بكثير ، ولكنى كنت أحب الخبز (الخرادق) ملىء بالحبة السوداء والسمسم ، ولذيذ فى طعمه ، وحده ، أو مع أى طعام آخر ، وهو خبز دمياطى خالص ، لم أجده بعد هذا فى غير دمياط ، ومع هذا فقد كان هذا الخبز كالفاكهة فى بيتنا لا أراه إلا نادرا ، وإلا حين يأتى عمى فريد عفيفى بقبعته البيضاء المقواة ليزورنا ، وليمر على الكبارى والاهوسة فى دمياط كلها ، فقد كان مفتشا مهما على هذه الكبارى ، وواضح أنه كان ابن خالة أبى ، فأمه ترتبط بعائلة عفيفى بالنسب القوى ، وسرعان ما أدركت أن بيت الدراسة كان ملكا لآل عفيفى الأغنياء بمفهوم العصر آنذاك ، وإن كانوا فى الحقيقة مستورين كراما . فى طابق ، وابن عمهم صالح وأمه فى طابق ، والطابق الثالث بفرع ثالث أشد فقرا .. ولكن آل عفيفى أدوا واجبهم حين أسكنوا كل هذه الفروع الفقيرة فى هذا البيت فى الدراسة .. كما كانوا يعانون ماديا كلما تيسر ، وربما فى الأعياد والمناسبات أيضا .. وكان مجىء فريد عفيفى بالنسبة لبيتنا فى دمياط مناسبا لها احتفالها وبهجتها . فقد كنا فى شوق دائم لأخبار (مصر) وأهل مصر .. وكان فريد انسانا بشوشا مرحا يحب أن يصحبنى معه إلى الكبارى والاهوسة التى يزورها ، فأعيش فى عالم آخر من دنيا مصر ، عالم النيل كشىء حى يحتاج دائما إلى رعاية وإلى اهتمام .. فهناك فى الجزء الأسفل من الكبارى ينبض النيل بحب ، ويشكو لرعائه مما يحدث له على أيدى الإهمال والجهل ، وتمتد هذه الايادى بكل الحب لتخفف من آلامه قدر الامكان . أو هكذا كنت أحس وأنا أسمع الحوار بين المهندس والمفتش والعمال .. وكان أبى يضحك حين أحكى له عن هذا الحب بين الرجال والنهر ، وكان يقول :

ليس لنا إلا هذا النهر فهو كل حياتنا ، ولولا ذراعه تمتد هنا حتى دمياط لماتت الدلتا عطشا وغرقا وكلاهما فى النهاية سيان ، وهذه مهمة عمك فريد وأمثاله من رجال الرى ، أن تظل جسور النيل واهوسته وكباريه محافظة عليه وعلى عطائه ومجراه .

وكانت مكافأتى لعمى فريد كل صباح طبق الفول من التابعى .. وكانت البلدة آمنة لطفل صغير أن يحمل النقود والطبق ويذهب إلى المحل الكبير ، وكان الرجل يعرف زبائنه واحدا واحدا وخاصة الأطفال، وكان يبتسم لى ابتسامة عريضة وهو يأخذ النقود والطبق ليملأه من الفول الذى تفوح رائحته الشهية ممزوجة برائحة (الدقة) ثم يترجرج الطبق فى يده وقد علته طبقه من الزيت الذهبى ممزوجة بسلطة الزبادى اللينة ، وتحت ابطى ارغفة الخبز (الجرادق) الدمياطية ، على سطحها الوردى حبة البركة السوداء والسمسم الأصفر فى مزج لونى مرح ومبهج .. وكان عمى فريد يفرح لهذا الطبق ويصفق له ويعلن أنه لا يأكل مثله إلا عندنا فى دمياط .. وكنت أسعد لسعادته كل السعادة وأقول : انتظر حتى تأكل الفول بالأرز .

وحين يبدى دهشته ، تضحك أمى وهى تقول :

إنه يقصد الفول الأخضر ، فهم يصنعونه هنا بالأرز وهو رائع .

وأصفق وأنا أقول :

كل شىء هنا بالأرز .. نحن نأكل الأرز وحده ، والأرز بالخضار ، والأرز بالطيور ، والأرز بالسمك ، والأرز بالفول ، والأرز بالعدس ، والأرز بالبصل .

ويوضح أبى :

نحن هنا فى بحيرة من فدادين الأرز ، وهو هنا بديل دائم للخبز ..

وأمر مع عمى فريد على محلات الأخشاب ، ومصانع الأثاث ، وأنا فخور بأن لدى شيئا مميزا يحب أن يراه .

وتمر كل صور دمياط أمامى كصور ثابتة ، لا تتحرك بالحياة إلا بعد هذا بسنوات ، حيث كان أبى يصحبنى اليها فى كل صيف حين نعود من الصعيد ليزور الأصدقاء ، ويصحبنى إلى رأس البر .. فقد ظل متعلقا بدمياط سنوات طويلة بعد أن تركناها كمدينة معاشنا وحياتنا كل شتاء .

فذات صباح أعلن أبى اننا نقلنا إلى أقصى الصعيد ، وناحت أمى ، وزارتها الصديقات وحزن أبى وزاره الأصدقاء .. ولكن أمر النقل نافذ ولابد من تنفيذه .. ولأيام عديدة ساعدنا الجميع على حزم أثاثنا فى (كياب) وربطت بحبال الليف ، وسبقتنا إلى قطار البضاعة . أما نحن فذات مساء تجمعنا مع كل من أحبونا من أهل دمياط على محطتها الصغيرة .. ووسط الدموع وعبرات التحية ، وهدايا السمك المشوى والسمان والقر زادا لرحلة القطار .. غادرنا المدينة .. لتطوى صفحة من صفحات التكوين .. لتعقبها صفحات وصفحات . لعل العمر يتيح لنا عودة اليها..

• طاهر الطناحى •

بمناسبة الاحتفال بالعيد المئوى لمجلة الهلال الغراء قرأت استعراضا لأسماء الأفذاذ الذين تولوا رئاسة تحريرها ، وأحسست بأسف شديد ، لأنى لم أعثر بينهم على إسم المرحوم طاهر الطناحى خريج دار العلوم ، والأديب الكبير الفنان ، والشاعر المشار إليه بالبنان ، وعزوت ذلك إلى السهو غير المقصود . وقد كنت أجد فيما يكتبه الأستاذ طاهر نكهة طيبة ، ومذاقا خاصا وأتذوق مما تفيضه يراعته من خصب وعطاء ، يقدمهما لقراء الهلال وحينما انتقل إلى جوار ربه – طيب الله ثراه – بعثت برثاء فيه إلى عمود «نحو النور» بجريدة الأخبار ، حينما كان يحرره المرحوم محمد زكى عبدالقادر ، فتفضل وأخلى لى العمود بأكمله ، متعاطفا معى فى كل كلمة كتبتها فى ذلك الرثاء ، تقديرا ووفاء وأشدت فيه بطول باعه فى العلم والأدب ، وكفاءته فى التحرير ، ووقوع الاختيار عليه لرئاسة تحرير مجلة الهلال ، تلك الحديقة الغناء الدانية القطوف، والوارفة الظلال ، والمنارة العملاقة للثقافة والفكر فى العالم العربى والإسلامى .

مصطفى محمود مصطفى - كفر رَبيع - منوفية

• تعليق الهلال :

– أشاد الأستاذ مكرم محمد أحمد رئيس مجلس إدارة دار الهلال فى كلمته التى ألقاها بحفل دار الأوبرا بالمرحوم الطناحى كما أشاد ببقية من عملوا فى الهلال ومجلات دار الهلال . أما التنويه بالأستاذ الطناحى بوصفه رئيسا لتحرير الهلال فلم يتم لأن المرحوم الطناحى لم يكن فى أى مرحلة من مراحل الهلال رئيسا لتحريره ، وإنما كان مديرا للتحرير ، وقد تولى – رحمة الله – فى أخريات حياته رياسة تحرير مجلة «روايات الهلال» وهى مجلة

شقيقة للهلال .. ونذكر فى هذه المناسبة للمرحوم الطناحى أنه أبلى بلاء حسنا فى خدمة الهلال ومجلات دار الهلال ، وعاش عمره الصحفى كله يعمل فى دار الهلال فقط .

• يحيى حقى والفنون الشعبية •

تحدث الأدباء بعد وفاة يحيى حقى عن أعماله القصصية والنقدية ورواياته التى قدمها التليفزيون والسينما والإذاعة ، ولكنهم مروا مرور الكرام على عمل فنى ضخم له ، استغرق من حياته عشر سنوات كانت خاتمة سنوات خدمته الحكومية ، وأعنى به انشاءه فرق الفنون الشعبية للغناء والرقص والتمثيل ، وكانت باكورة عمله فى سنة ١٩٥٦ حيث أنشأ فرقة « يا ليل يا عين » التى كانت أول فرقة فنون شعبية رسمية ..

على عامر عبد الواحد
أسيوط - البدارى

• خليها على الله •

لفت نظرى ، وأثار حزنى ، أن يحيى حقى قد توفى بعد عام واحد تقريبا من رحيل صديقه الكاتب القصصى محمد روميش .. وكان من المصادفات العجيبة أن المرحوم محمد روميش هو كاتب مقدمة كتاب «خليها على الله» الذى أصدره كتاب الهلال فى يناير سنة ١٩٩١ ليحيى حقى ، ولم يمض عام واحد ، حتى كان يحيى حقى قد لحق بصديقه الأثير لديه ، والذى اختاره ليكتب مقدمة كتابه هذا .. رحم الله الصديقين الأديبين وعوضنا عنهما خيرا .

عبد الصمد أحمد عبد الشكور
جامعة الأزهر - القاهرة

• أعداد خاصة أخرى •

بعد الأعداد الخاصة التى صدرت من الهلال منذ الستينات حتى الآن ، أقترح إصدار أعداد خاصة عن الشيخ أمين الخولى والدكتور مصطفى

مشرفة وغيرهما من أصحاب المدارس فى الأدب والعلم ..

أما عن موسوعة عصر التنوير ، فأعتقد أن من كتبوا حول النقاد لم يستطيعوا أن يستوفوا جوانب أبرز إنتاجهم النقدى ، فمحمد مندور - تلميذ طه حسين - كان يحتاج إلى دراسات أكثر تعميقا (وهو صاحب ثمانية وعشرين كتابا نقديا) ممن تتلمذوا حقا على يديه ولن أشير هنا إلى اسماء، ثم إنى لا أعرف على أى أساس تنتقون من يكتبون حول هؤلاء الأوائل الرواد؟!

ربما كانت هذه خواطر لقارئ منذ أواخر الأربعينيات ومازال يحس قصورا إذ الكمال لرب الكون وحده .

وإنى لأرجو للثقافة فى مصر أن تنعم بالمخلصين لها ، مع موفورالشكر على جهدكم ، والله من وراء خطواتكم خير هاد موفق والسلام ..

د . سامى منير عامر

أستاذ مساعد الأداب والنقد

كلية التربية - جامعة الاسكندرية

● تعليق الهلال :

- كما تعلمون ، ليست مهمة الموسوعات النقد ، وللموسوعات لغة خاصة شديدة التركيز ، وهذا ما يراه القارئ فى موسوعة «أهم مائة كتاب» التى تفضلتم بالكتابة إلينا عنها ، وقد اختير من كتبوا أبحاث هذه الموسوعة من أهل الاختصاص العميق ، كل فى موضوعه ، بغض النظر عن الأسماء والألقاب .. ونشكر لكم كلماتكم الطيبة ..

● إلى أمل ●

وجهك الحالم لى نُعمىً وروح وهناء

ورجاء لفؤادى كلما عز الرجاء

وشفاء لجراحاتى وسلوى وعزاء

وجهك الحالم أتلو فى بهاه كل شئ

كـل حسن قد طواه وجهك الحالم طـيْ
كـل معنى من معانى الخلد فى عينيك حيّ

محمود عبد العزيز عبد المجيد
كفر الشيخ - مساكن السكة الحديد

● إلى ضاربى حركة السياحة ●

بهذا .. أنت تقتلنى ، وعن عمد .. أنا الانسان ، تدمرنى .. تبعثرنى ، وتلقى بى إلى النسيان ، ولا تبقى على أحد .. من الأجداد .. للولدان ، وما فى ذلك المعنى .. تكلم ، وسوس الشيطان ! وهذا الرتل .. بعد الرتل .. تلقاهم ، لدى (التاريخ) فى أعماق أعماقه ، وأيديهم .. محملة .. بإرهاصات أعراقه ، ورغم سفورهم .. هذا .. الذى يبدو .. تراهم .. فى تعلقهم .. أَجدّ .. ، وإن تصاحبْهم توقرْهم ؛ لما وقروا عن الأزمان !

ألم تر أنها جازت ، (ببحر شمالها) الدنيا ، و(بحر المانش) يا هذا لتلمس صفحة الصوان ! وما كانت ترى خطرا ؛ يحولها إلى جثمان ! وهذى أختها الأخرى ، سليلة (أسرة الجرمان) ! عليك .. على من ارتصدوك ؛ لعناتى ، بلا حسبان ! .

أيا من بات فى عمه ، وفى غى ، وتيه ضلال ، أفق ؛ (مافيك من حى) ؛ بهذا قال كل الآل ! ، وقد صدقوا « وهم من أهلها شهدوا » ؟ فليست (مصر) معوزة إلى التفصيل والإجمال !! تحارب أمك الكبرى ؟! تعق أباك ، أمك ؛ إذ تجوعهم تعريهم ، تصيرهم إلى حيرى !! من التعساء ، يلتمسون - ما افتقروا ولم يجدوا - بكل وسائل الدنيا - بلا حل ولا حرمة - مطالب عيشة صغرى ، ترتق فيهم البنيان !!

* * *

ويوم يجئ هذا اليوم ، ماذا تبتغى منا ؟! بحمقك تطلب القربان ؟! وقبل مجئ هذا اليوم ، خذ منا .. بحور السخط - لامنجى - بلا شطآن !!

رمضان أبو غـالـيـة
قويسنا - منوفـيـة

● تعليق الهلال :

– تبدو الكلمات المنشورة أعلاه كأنها نثر بحت ، والحقيقة أن صاحبها كتبها تفعيلات متشابكة متتابعة بلا انقطاع كأمواج البحر ، ونحن ننشر هذه التفعيلات كلون من التصرف فى الأوزان يدل على مرونة بحور الشعر العربى واتساعها لكل التجارب ، وليس معنى ذلك أن هذه القصيدة تجربة جديدة فى الأوزان ..

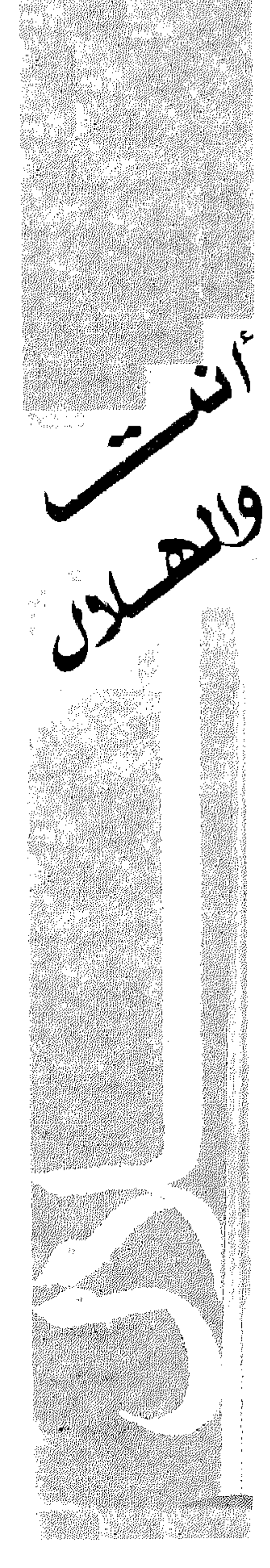
● التسيب اللغوى ●

فى عدد يوليو الماضى نشر «الهلال» مقالا للدكتور محمود الطناحى يعترض فيه على تخطئة كلمة «متوف» التى استعملتها إحدى الصحف اليومية فى صفحتها الأولى بدلا من كلمة «متوفى» بفتح الفاء وتشديدها ، وأورد الدكتور رأيا ضعيفا لبعض اللغويين القدماء يصحح كلمة «متوف» .. وقال الدكتور إن هذا الرأى يشفع للجريدة المذكورة مانشرته من خطأ .. ونحن نرى أن التماس الآراء النادرة أو الشاذة لتصحيح الأخطاء الهائلة التى تعج بها الصحف والكتب الآن ، هو الطريق إلى التسيب اللغوى الذى يؤدى إلى ضياع اللغة ! ..

عبد الواحد أحمد هيكل
كلية الآداب - أسيوط

● تعليق الهلال :

– الدكتور محمود الطناحى أحد علماء اللغة العربية فى أيامنا الحاضرة ، وهو أغير من سواه عليها ، ولا نظنه أراد فتح الباب للجهلاء الذين يملأون الصحف والكتب والإذاعة والتليفزيون الآن بأغلاطهم الفاحشة ، ولكنه أراد «تسهيل الأمور» فقط ! .. ولن تجد مثله إذا جد الجد مدافعاً عن لغة الضاد ...



● مواجد الشاعر ●

متفرداً بالأمسيات

يلوك مَوْجدةً

ويمضى

لا الأمسيات سكبن أدمعه

ولا سكن الفؤاد سوى المواجِدِ

مؤمن المحمدى
أسيوط

● الماضى ●

مر الزمان بحسنه وشذاه ∴ ومفاتن للشعر فى نجواه

مر الزمان فهل يعود لسالف ∴ من عزه ، من مجده وهداه

فنعيش ننعم بالحياة وسحرها ∴ ونعيش نرفل فى جميل سناه

أمل بعيد كم يطوف بخاطرى ∴ أرجوه أن يمضى يجر عصاه

سبحانك اللهم يا من صفتنى ∴ أرفق بفكرى رده لهداه

وأعد هدوء القلب يملأ ساحتى ∴ ويعطر الأيام نفح شذاه

أمانى فريد

● ماذا نقموا من ليلى ؟ ●

ليلى .. طفلة مسلمة من سراييڤو - لم تسلم من الهجوم الوحشى للصرب على مدينتها .

تناقلت الصحف صورتها وهى جريحة .

أنات والهلال

لم تسلم ليلى ..
بوداعتها ببراءتها
بطفولتها الخجلى
لم تسلم ليلى من جندى مزهو بقساوته
يشنق حلما فى العينين
ويحرق وردا فى الخدين
ويملأ فجر طفولتها هولاً
ماذا نقموا من ليلى ؟
هل قالت شيئا أغضبهم
أم حملت ايمانا كالشهداء
ولم تركع ذلاً
ماذا صنعت ليلى ؟
كى تبصر كل صباح
جثث القتلى
كى يجرح مسمعها كل مساء
أنات الثكلى
شيئا من صبر يا ليلى
فالصبح القادم سيبدد
عن وجه مدينتك الليلا
وسيعلو فوق مآذنها
تكبير لله الأعلى ..

مصطفى غنيم
مدرس أول لغة انجليزية
شبرا خيت الثانوية

• فيلم البوسطجى •

- رجعت إلى قصص المرحوم يحيى حقى لأقرأ النص المكتوب فى أصله الأدبى لفيلم «البوسطجى» الذى كتب يحيى حقى قصته ، فلم أجد أية قصة بهذا الإسم لهذا الأديب الكبير فى مجموعاته القصصية المطبوعة حتى الآن ، فأين أجد هذه القصة ؟ ..

صبرى حسنين عيسى
كلية الآداب - القاهرة

• تعليق الهلال :

- فيلم «البوسطجى» الذى عرض منذ بضعة عشر عاما مأخوذ من قصة «دماء وطين» تأليف يحيى حقى ، وقد رأى منتجو الفيلم تغيير عنوان القصة لأسباب تجارية ..

• رسالة •

ورد من د . عبد العظيم أنيس رسالة يذكر فيها :

«إطلعت على مقال د . محمد رجب البيومى الذى يعلق فيه على مقالى «مستقبل الثقافة فى مصر» تفاؤل أم تحد .. ؟!

وأشكر له إهتمامه ، ولكنى أود أن أؤكد له أن جميع الوقائع المتعلقة بالشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر آنذاك ، وأيضا المتعلقة بموقف الإخوان من الملك ومن الدستور ومن الصحافة .. وردت تفصيلا فى كتاب المستشار طارق البشرى « المسلمون والأقباط فى الجماعة الوطنية » ، والمعروف عن طارق البشرى أنه باحث مدقق ، إعتمد تفصيلا على ما ورد فى الصحف والدوريات خلال هذه الفترة .

وإنى أدعو د . البيومى إلى قراءة هذا الكتاب والتمعن فيما ورد فيه ، حتى لا يتهمنى ظلما بما ورد فى مقاله .. » .



كانت مجلة الهلال أول من نبه إلى ظاهرة ثقافية اسمها الدكتور نبيل سليم ، فى مارس ١٩٩٢ ، والطريف أن هذا الشخص قد لجأ إلى القضاء مستنداً إلى أوراق مزورة ، وأكدت محكمة الاستئناف بالاسكندرية براءة الهلال فى مارس الماضى .. وفى ٢٧ نوفمبر الماضى نشرت جريدة الأخبار قصة مثيرة عن دكتور مزيف تم القبض عليه بعد أن خدع زوجته والكثير من المؤسسات الثقافية فى العالم العربى .

شاب مغمور ينشر مقالات قديمة فى معظم المجلات الثقافية !!

بقلم : محمود قاسم

كان لابد من ظهور العديد من السلبيات نتيجة لانتشار الصحف والمجلات العربية بهذا الكم الهائل فى العشرين عاما الأخيرة .. فقد استدعى ذلك ظهور عدد كبير من الكتاب لم تكن ساحة الكتابة فى حاجة اليها بالمرة .. ودخل الى عالم الصحافة جمع غفير من الذين لا علاقة لهم بالكتابة سوى عملية فك الخط ..

أنت والهلال

صرخت الزوجة امام النيابة بعد ٥ سنوات زواجا

زوجي استاذ كلية الطب .. نصاب محتال ومزور وليس معه إلا الثانوية العامة فقط

الاسكندرية ـ مكتب الاخبار

استطاع ان يخدعها ٥ سنوات كاملة بعد الزواج وانجاب طفلة . كانت تتوهم انه طبيب كبير واستاذ بكلية طب الاسكندرية وحاصل على الدكتوراة في الطب من جامعة بوسطن بامريكا لكن الوهم الكبير انهار فجأة عندما فتحت درج مكتبه الذي يصر على اغلاقه . وقرأت . ودهشت . وراحت تروي قصتها امام النيابة . بينما كان الزوج يدرك انه في موقف شديد الحرج !

فبرغم شخصيته الفذة ومكانته في المجتمع الا انه كان يواجه حكما بالحبس في السجن لمدة عشر سنوات . أول مرة . لم يسعفه ذكاؤه للخروج [illegible] الفارق وهو يواجه العقيد محمد [illegible] مباحث تنفيذ الاحكام [illegible] ويداه مكبلتان بالحديد !

[illegible] نبيل [illegible] سليم شخصية [illegible] المجتمع

اعجاب وتقدير الكثيرين فهو استاذ جامعي بكلية الطب الشهادات العلمية التي يحملها تقول انه حاصل على بكالوريوس الطب والماجستير من جامعة الاسكندرية ثم دكتوراة من جامعة بوسطن بامريكا . وهو ايضا كاتب موهوب له عديد من المقالات العلمية والتكنولوجية المثيرة ببعض المجلات . ثم هو ايضا فنان موهوب يرعى الفنون وعضو هام في اتيليه الفنانين والكتاب بالاسكندرية .. نظم كثيرا من المعارض الفنية لفنانين من الخارج بالاشتراك مع بعض القنصليات واشترك في تحكيم بعض المهرجانات ويحاضر في كثير من المؤتمرات الفنية والعلمية . من عائلة كبيرة ويعيش في ارقى احياء الاسكندرية !

ورغم كل ذلك لم يكن الدكتور نبيل سليم . سوى اكذوبة كبيرة اطلقها بنفسه ثم صدقها بعد ذلك . كان اشبه بمهرج كبير على مسرح الحياة [illegible] محتال [illegible]



د . نبيل سليم
استاذ الطب المزور

الى هذا الموقف الخطير !

اما القصة من بدايتها فكانت عندما تعرف نبيل او الدكتور نبيل على فتاة حسناء تعمل موظفة باحدى القنصليات . وكان تحوله منها [illegible] بحكم تردده على [illegible] وتنظيم [illegible]

بنت عيلة وعلى خلق . وتعلق بها قلب نبيل .. بدأ يكثر من تردده عليها .. سحرها باحاديثه العلمية وشخصيته الخارقة واتصالاته الكبيرة بعديد من الشخصيات الهامة . ولم يكن امامها الا ان تصدقه وهو يطلعها على صوره الفوتوغرافية في لقاءات مع هذه الشخصيات الهامة جدا ! . وعندما صارحها بحبه ورغبته في الزواج منها . لم تتردد لحظة في قبول مثل هذا العريس « اللقطة » !

وهكذا بدأ نبيل وفتاته رحلة [illegible] العسل ورحلة الحياة معا [illegible] الايام . ولم يكن هناك [illegible] حتى بدأت [illegible] بعض تصرفات [illegible] تليفونيا مع [illegible] تكتشف [illegible]

• مع أصدقائنا •

السيد التحفة – دار العلوم – القاهرة :

– قصيدتك المسماة «دموع» تكثر فيها الأخطاء اللغوية والنحوية ، وأوزانها غير صحيحة فى أكثر الأبيات ، نرجو أن تهتم ببناء معرفتك باللغة بناء وثيقا حتى لا يقال إن أبناء دار العلوم – أو بعضهم – أصبحوا غرباء عن اللغة العربية والشعر العربى !

علاء الدين عايش – جدة :

– إذا كنت تقصد الشعر الموزون ، فإن قصائدك التى أرسلتها إلينا خالية من الأوزان إلا فى النادر ، وأكثرها نثر بحت .. فهل أنت كاتب قصيدة نثرية أم كاتب قصيدة شعرية ؟! ..

ونشكر أصدقاءنا الأساتذة : سعيد عبد الموجود محمود .. وجيه عشم .. صلاح الشهاوى .. أشرف البولاقى .. خلف أحمد محمود .. عدلى فرج مصطفى .. عاصم فريد البرقوقى .. أبو عبيدة عبد الجليل الحجازى .. طه مصطفى عبد العزيز .. فارس عبد الشافى عبده .. حسن رجب محمد ابراهيم .. أحمد محمد أحمد سلامة .. وحيد لوندى .. رشا عبد الراضى .. نجيب أبو سلامة الخير .. طه فريد الزينى ..



أنشودة البساطة

بقلم : مصطفى نبيل

« لا تمشوا فى جنازتى ، بل اقرأوا علىَّ الفاتحة .. »

هذه هى وصية يحيى حقى ، الذى لن يغيب عنا ، وستبقى أعماله تتناقلها الأجيال ، لكاتب عشق الانسان وهزه الجمال ، وجمع معرفة بغير حدود بالشعر والقصة والموسيقى والفنون التشكيلية والعمارة والأوبرا والسينما والمسرح ، لذا جاءت أعماله عذبة مقطرة تصل مباشرة الى القلب .

خرجت أجيال وراء أجيال من عباءته ، فهو القدوة والمثل الأعلى .

وليد ثورتين ، ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ ، وأحد أفراد المدرسة الحديثة فى الأدب التى كانت جزءا من مشروع يتطلع الى شق طريقه الخاص ، مثلما فعل طلعت حرب فى الاقتصاد ومختار فى الفن التشكيلى .

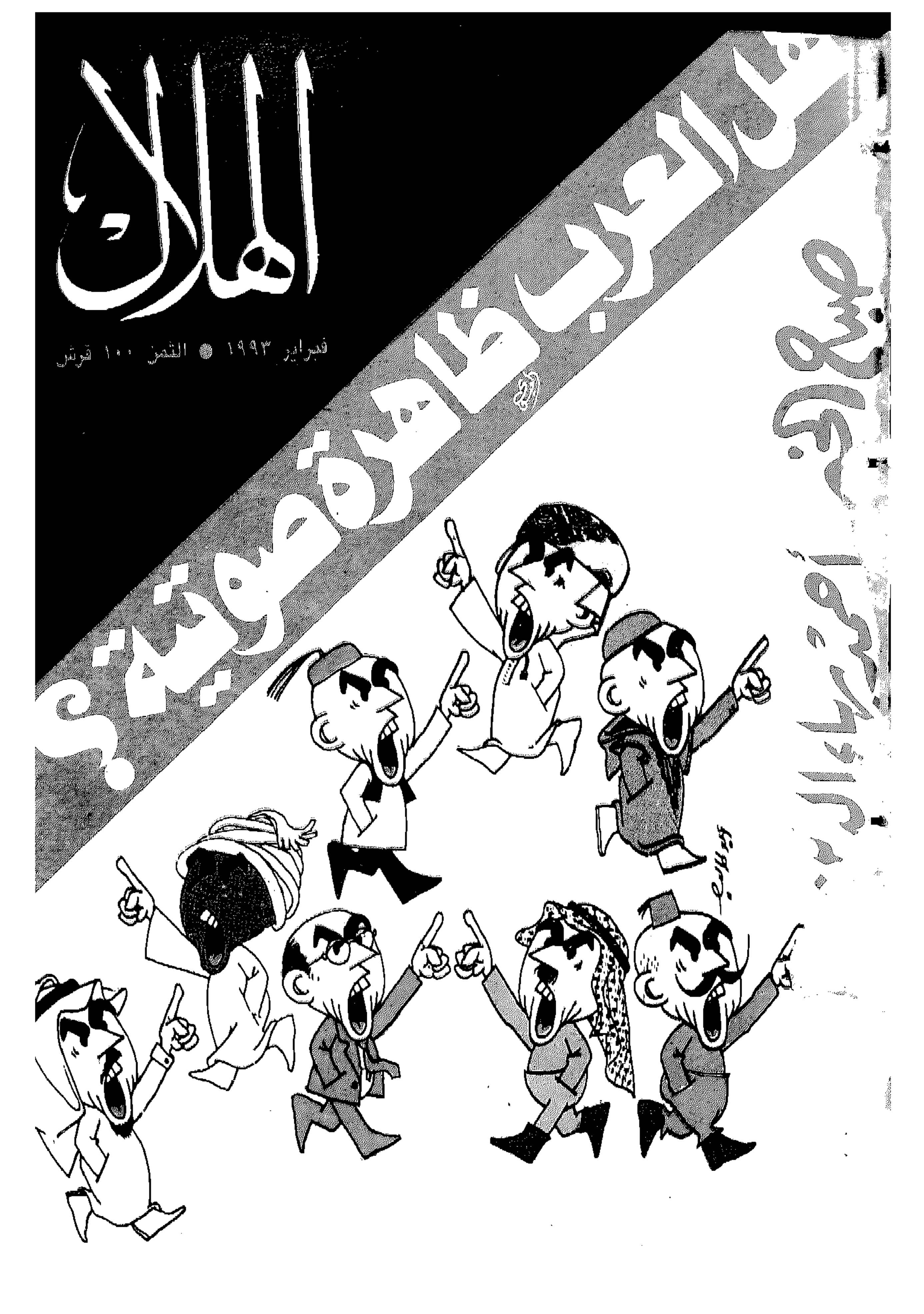
وهو أول من وضع القواعد الأولى لوزارة الثقافة عام ١٩٥٥ ، عندما تولى مسئولية « مصلحة الفنون » بعد أن ترك العمل الدبلوماسى ، وعمل مع وزير الإعلام والثقافة فتحى رضوان ، فشكلا معًا نغمًا عذبًا ، ووضعا معا بذرة العمل الثقافى .

مست كتاباته الوجدان العام ، كلمات صادقة تعبر عن احترام عميق للكلمة ، كتبها متصوف فى محراب الفكر والفن ، متواضع ينفر من الأضواء ، قدم على استحياء سيرته الذاتية الموزعة على الكثير من أعماله ، سجل تجربته عندما عاش سنتين فى الصعيد معاونا للإدارة فى كتابه « خليها على الله » ، والذى لا يقل أهمية عن « يوميات نائب فى الأرياف » التى كتبها توفيق الحكيم ، وفيه يتمتع بروح فكهة ، تتطلع للحياة وتسخر منها ..

بذل جهدا كبيرا فى تقديم لغة جديدة عصرية ، الكلمة تتناغم فى الجملة ، والجملة جزء من الفقرة ، والفقرة جزء من العمل الفنى ، يتعامل مع موسيقى الألفاظ ، والطاقة الموحية فى الكلمات ، فجاء أسلوبه جميلا ، صافيا ، رائقا ..

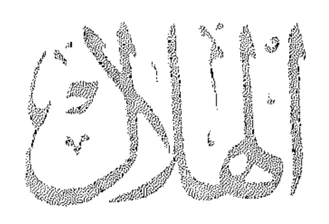
ومن كلماته الأخيرة .. « إننى أقبل أن تنسى قصصى ، ولا ينسى ما جاهدت من أجله لكى تكون البلاغة نابعة من النص ، وأن تحدد ألفاظك وتضعها فى مكانها .. فالبلاغة عكس اللغو والتخلص من اللت والعجن ، وأخيرا يقول .. « على الكاتب أن يتمثل فيما يكتب إمتاع ومؤانسة .. القارئ ! » .




الهلال
فبراير ١٩٩٣ ● الثمن ١٠٠ قرش
هل العرب ظاهرة صوتية؟



لوحة للفنان الفرنسي أوجين ديلاكروا



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : 3625469

ثمن النسخة سوريا ٥٠ ليرة ، لبنان ٢٠٠٠ ليرة ، الاردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٣٠ ريالا ، تونس ١.٥ دينار ، المغرب ١٥ درهما ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، إيطاليا ٣٠٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الامارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار ، السودان ٤٥ ج . س .

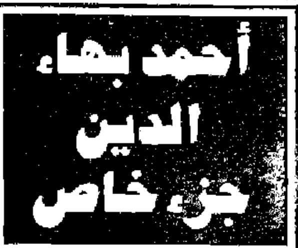
الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها فى ج. م. ع. تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٥ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وإفريقيا ٢٥ دولارا - باقى دول العالم ٣٥ دولارا .

والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد .

فى هذا العدد

فكر وثقافة





قصة وشعر

رسائل صحفية

معرض الكتاب

معرض الكتاب الذى يواصل دوره الثقافى على مدى خمسة وعشرين عاما ، يحقق فائدة كبرى لطلاب الثقافة من خلال الحوار الذى نشهده لصفوة مفكرينا العرب ، من خلال الندوات الثقافية الساخنة ، التى تعد وحدها مهرجانا ثقافيا ، ينهل منه الشباب ، الذى يبحث عن نقطة ضوء فى ظل الحياة القاسية التى يحياها الآن! ..

وجاءت الحلقة الدراسية « مسيرة الثقافة المصرية عبر خمسة وعشرين عاما » لتركز على أهم الكتب التى ظهرت خلال هذه الفترة ، وهى عمر المعرض منذ بدايته حتى الآن ، ولتناقش الدور الثقافى خلال ربع قرن بطريقة نقدية ، تبرز فيها آراء كبار المثقفين ، فضلا عن إبراز دور رؤساء الهيئة الذين كرموا فى العيد الفضى للمعرض .

وبالرغم من الأعداد الهائلة للكتب (٤٥ مليون كتاب) إلا أن ارتفاع أسعارها ، يحول دون الحصول على المهم منها ، وهى قضية تحتاج إلى حل سريع وحاسم لها .

من المتاحف العالمية

لوحة للفنان الفرنسى أوجين ديلاكروا ، تصور وقائع الحياة فى الجزائر ، أثناء حربها فى أوائل القرن التاسع عشر .. أنظر الغلاف الداخلى الأول للهلال .

فنون

الأبواب الثابتة

السنة بسيطة .. والمشكلات معقدة

شهر فبراير عند قدماء الرومان كان شهر التطهر من الذنوب والآثام وإحياء ذكرى الأعزاء الراحلين، وما أحرى الحضارة الغربية المهيمنة على العالم الآن، بأن تجعل من فبراير فى هذا العام بالذات ـ عام ١٩٩٣ ـ عاما للتطهر من الذنوب والآثام التى اقترفها ممثلو هذه الحضارة من كبار الحكام والقادة فى حق الشعوب المستضعفة فى الشرق والغرب..!

لقد كانت سنة ١٩٩٢ سنة كبيسة، أما سنة ١٩٩٣ فسنة بسيطة لا تقبل القسمة على أربعة كما يقول الحسابيون، ولكن هذه السنة البسيطة تقبل أن تكون سنة للتطهر من الآثام، وبخاصة بعد أن طوى التاريخ صفحة ونشر صفحة أخرى.. انطوت صفحة التاتشرية والريجانية وخرج آخر ممثلى الإرهاب النووى من البيت الأبيض، ودخله رجل آخر كان فى شبابه ضد الحرب الأمريكية القذرة فى فيتنام، وهو الآن ضد التسلط النووى للنظام الجديد الذى أعقب انهيار الدولة الشيوعية الأولى وتوابعها فى أوربا .. فماذا يمكن أن يحمل هذا الرجل الجديد للعالم وقد جلس فى المكتب البيضاوى منذ أسبوع واحد؟!..

إن شهر فبراير هو أيضا شهر النوم عند الأمم الشرقية، واسمه «شباط» طبقا للتقويم السريانى الذى تأخذ به بعض البلاد العربية، ومعنى «شباط» فى اللغة السريانية: السبات، أى النعاس.. فهل تجعل شعوب الشرق من هذا الشهر موسما للنوم؟!.. إن المبعدين الفلسطينيين على حدود الشريط الذى تحتله اسرائيل من لبنان يقولون إن الصقيع والجوع والألم واليأس، تمنع النوم عن أجفانهم، وهم يناشدون العرب والعجم وآلهة النظام الجديد أن يلقوا نظرة على حالهم، فلو نام العالم ونسيهم هلكوا!.. فليحمل فبراير إليهم معناه الرومانى: إحياء الذكرى، وليكن إحياء ذكراهم.. وهم مازالوا على قيد الحياة!..

إن اسرائيل لم تبعدهم بتهمة كونهم مسلمين، وإنما أبعدتهم بتهمة هويتهم الفلسطينية، وقد أبعدت اسرائيل وشردت وقتلت وهتكت خلال خمسة وأربعين عاما من وجودها أكثر من مليونى فلسطينى، نصفهم أو ثلثهم من المسيحيين.. إن الصهيونية تريد فلسطين خالية من المسلمين

والمسيحيين!..

عزيزى القارئ...

يستمر معرض الكتاب الدولى فى تقديم معروضاته إلى مئات الألوف من زواره كل يوم، ولكن الزوار يتحسرون على الأيام الخوالى ويقولون: لقد صار الكتاب سلعة ترفيه، وأوشك أن يكون سلعة استفزازية.. فما هذه الأسعار الجائحة التى تشتعل فى الكتب كبيرها وصغيرها مع أن الناشرين يخصمون للمشترين فى المعرض شيئا غير قليل من أثمان الكتب؟!..

إذا كان سعر الكتاب يرتفع كما يرتفع سعر الرغيف وإيجار المسكن وثمن الملابس وأجور المواصلات، فكيف يوفق المواطن بين محبته للكتاب وحاجته إلى الرغيف وبقية حاجات الحياة؟!..

الحقيقة أن الكتاب المصرى متهاود السعر إذا قيس بالكتاب الانجليزى ـ مثلا ـ حسبك أن تستمع إلى أسعار الكتب فى إذاعة لندن.. إن الكتاب العادى هناك يساوى ما قيمته خمسون جنيها مصريا، والكتاب الغالى لا يقل ثمنه عن مائة وخمسين جنيها أو مائتين...

لكن هذا قياس مع الفارق كما يقال، فالأجور هناك أضعاف الأجور هنا.. نقصد أجور المؤلفين، وأجور القراء الذين يشترون الكتاب...

عزيزى القارئ

فى أواخر هذا الشهر يجئ شهر رمضان المبارك، فتضئ ليالى فبراير أو ليالى طوبة الباردة ويغمرها دفء شهر الصيام والقيام، وتنزوى مرارة الحياة، فلا يبدو منها إلا الجانب المعسول الطيب، وتهتبل جماهير المسلمين ليالى الشهر الكريم وأيامه لترفع الدعاء إلى السماء، فقد تكسرت النصال على النصال، وأظلمت المسالك، وأبرزت الدنيا أنيابها وأظفارها فى هذه السنة البسيطة ذات المشكلات المعقدة الرهيبة...

عزيزى القارئ

نلتقى إن شاء الله فى الشهر القادم على مشارف عيد الفطر، ويقول كل منا للآخر: كل سنة وأنت طيب!..



أطلس قومي لمصر بتكلفة ٥٠ مليون جنيه

عقدت الندوة القومية الجغرافية العربية ندوة للإعداد لأول أطلس قومي للخرائط الطبيعية والاقتصادية والسكانية في مصر ، وشارك فيها الجغرافيون ورؤساء أقسام الجغرافيا والخرائط بالجامعات المصرية والهيئة العامة للمساحة وأكاديمية البحث العلمي .

وقال الدكتور محمد السيد غلاب رئيس الندوة بأن مصر ليس لها أطلس منذ عام ١٩٢٨ ، وقام بعمله عدد من المتخصصين الإنجليز في ذلك الوقت ، ولم تكن الجامعة المصرية قد خرجت أولى دفعاتها وتم عمل هذا الأطلس بمناسبة انقضاء المؤتمر الجغرافي الدولي الرابع بالقاهرة ، وبدافع شخصي من الملك فؤاد الذي كان يبدي اهتماماً خاصا بالجغرافيا ، كما أنه هو الذي أمر ببناء مبنى الجمعية الجغرافية عام ١٩٢٨ .

وتجيء أهمية عمل أطلس قومي جديد لمصر في ظل التغيرات الكثيرة التي طرأت على مصر خلال ما يزيد على نصف قرن من الزمان ، حيث حدثت تغيرات من بينها : بناء السد العالي وتغير العمران ، وزيادة عدد المناجم ، وتطور الحياة الاقتصادية وزيادة السكان في مصر ، فضلا عن أن الدول حديثة الاستقلال بدأت تخرج أطالس قومية لها .

وقال د . غلاب : على مدى سنة كاملة ناقشنا محتويات الأطلس الجديد ، والخرائط التي يجب أن يتضمنها ، فالأطلس هو صورة مصر ، على حد قول الجغرافيين المسلمين ، الذين كانوا يسمون الأطلس «صورة الأرض» .

وتقوم وزارة الثقافة بالانفاق على هذا الاطلس ، ومن المتوقع أن تصل تكلفته إلى ٥٠ مليون جنيه . وسيقوم بالعمل العلمي أساتذة الجغرافيا في مصر ، وأساتذة العلوم المعنيون ، المتخصصون في مجالات (الجيولوجيا - التربة - الأرصاد الجوية - الإحصاء - الاقتصاد) .

يضم الأطلس خرائط عامة ، وخرائط طبيعية ، وخرائط السكان ، وخرائط العمران وخرائط اقتصادية .

وسيكون مقر هذا العمل العلمي الهام الجمعية

الجغرافية ، التى تضم أكبر حجرة للخرائط فى مصر ، وهى مجهزة بشكل يستوعب هذا العمل العلمى الهام .

ومن المتوقع أن يتم إنجاز الأطلس خلال خمس سنوات ، حيث تتوافر لمصر فى هذا المجال الخبرة من أساتذة الجغرافيا وعشرات العلماء والفنيين .

مؤتمر مصر عام ٢٠٠٠

شهدت القاهرة بين ٢٨ و٣٠ ديسمبر سنة ١٩٩٢ المؤتمر العاشر فى سلسلة مؤتمرات مصر عام ٢٠٠٠ والتى تنظمها جمعية أصدقاء العلميين فى الخارج وتستقبل الجمعية علماء مصر الذين يعملون فى الخارج لمناقشة أحد الموضوعات التى تهم الوطن. وموضوع مؤتمر هذا العام هو تنمية الموارد المائية ، وناقش المشتغلون بالعلوم المائية من أبناء مصر فى الداخل والخارج أوراق بحث زادت على الستين تعلقت بموضوعات تقييم موارد المياه فى مصر وفى دول حوض النيل وطرق تنميتها وترشيد استخدامها والحفاظ على نظافتها ومنع تلوثها ـ وقد عقد المؤتمر جلستين متزامنتين ناقش فيهما أعضاء المؤتمر هذه الموضوعات بالإضافة إلى موضوعى تعذيب المياه المالحة والاستفادة من نهر النيل فى توليد الطاقة الكهربائية وفى تنشيط النقل النهرى ـ وأصدر المؤتمر توصيات ضمت إلى توصياته السابقة والتى تضمنها كتاب خاص ساعد صانع القرار فى مصر على الاستفادة المثلى من مصادر ثروتها المادية والبشرية ..

وكان المؤتمر قد انعقد تحت رعاية السيد رئيس الجمهورية ورأسه الدكتور محمود محفوظ ـ وقد استضاف الدكتور ماهر مهران رئيس المجلس القومى للسكان أعضاء المؤتمر ليلة انعقاده لابلاغهم بنشاط المجلس الذى قال إنه لولا جهوده لزاد سكان مصر أحد عشر مليون نسمة خلال الأعوام الخمسة الماضية.



ماذا عن دور الكاتب فى العالم الثالث

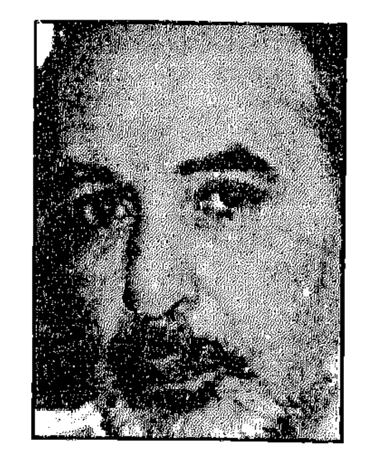
فى الثالث من نوفمبر الماضى أجرت جريدة لوموند حديثا مع الكاتب الامريكى فيليب روث أكد فيه أن الكاتب الامريكى

العالم في سطور

يعيش الآن في عزلة، وردد أنه لا يعرف ماذا عن الكتاب في بقية انحاء العالم .

وسرعان ما جاء الرد العربي على روث حين كتب الطاهر بن جلون في نفس الجريدة ان الكاتب في العالم العربي لا يشعر أبدا انه معزول .

ففي العالم الثالث ، ومنه العالم العربي ، يحس الكاتب انه شخص محترم ، ونموذجي لان الناس يعتبرونه بمثابة متحدث رسمي عن مشاعرهم وافكارهم ، وحياتهم فهو الذي يحكي التاريخ . وهو بمثابة المدافع عن القيم الانسانية . وهو القاضي في الكثير من الامور .


الطاهر بن جلون

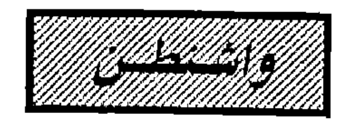
وقد استشهد بن جلون بما حكاه كاتب ياسين عام ١٩٦٧ قائلا : ان الناس كثيرا ما تعترض الكاتب في الشارع، وتقول له أنت أيها الكاتب ماذا كتبت عن قضيتنا ؟ أي أن الناس ينتظرون من الكاتب في العالم العربي ان يعبر عنهم . ولذا فإن الكاتب الأقرب إلى مشاكل الناس ، هو أيضا الأقرب إلى قلوبهم. وهو المقروء دائما منهم. وقد قال كاتب ياسين ايضا : في بلادنا ، ليس المفكر منزوعا عن شعبه. وهذه الظاهرة أقل بروزا لدى الكاتب الاوربي الذي كثيرا ما يتكلم عن نفسه أكثر مما يتكلم عن الناس.

ويقول بن جلون انه في العالم العربي فإن الشخص القارئ ليس معزولا . والكتاب الواحد غالبا ما يقرؤه أكثر من عشرة اشخاص. فهو يدور بين ايدي الناس الذين تقل قدرتهم الشرائية .

وقد استشهد بن جلون بالادباء الذين عاشوا في المغرب العربي . مثل جان جينيه الذي أكد يوما ما ان الناس هناك يعرفون اساطين الكتابة . والفن التشكيلي من خلال القراءة . فهم لم يشاهدوا قط أعمال فان جوخ وماتيس ولكنهم يتكلمون عنهم كأنهم يعرفونهم جيدا .

ويقول بن جلون موجها كلامه إلى فيليب روث ان عليه أن يسأل الكتاب الفرنسيين واساتذة

الجامعـات الـذين زاروا المغرب، فقد شهدوا دائما ان النـاس مـتـعطشـة للقراءة ، ولديهم رغبة في المعـرفة بدرجـة أثارت دهشة الجميع ..



جاسوس أمريكي .. يكتب مذكراته في موسكو

« هارولت وشبحه » .

عنـوان أحـدث رواية للكتاب الامريكي المعروف نورمان مايلر . والذي يثير الأقاويل حوله كلما أصدر رواية جديدة . فهاهو هنا يتتبع الحياة الشخصية لأحـد أفـراد وكـالة الاستخبارات الأمريكية .

وهـارولت بطل الرواية هـو الاسـم المسـتعار والروائي لشخص حقيقي غامض ، مات عام ١٩٨٧ يدعى جيمس انجلتون. وقد نشرت سيرته الذاتية



نورمان مايلر

في عام ١٩٩١ . وعمـل في قسـم مكافـحـة التجسس .. وقـد كان له منظـوره الخـاص حول العالم . فهو نظام مصـنوع كي يجـعلنـا نؤمن بالتطـور وبقـدرة الله » .

وقـد اختـار مايلر أن تبدأ أحداث روايته بعد انتهائهـا بعشرين عاما . وذلك من خـلال ثلاثـة أشخاص رئيسيين عملوا في جهـاز الاستخبارات. فهاروات أو الوعاء متزوج من امرأة جميلة .. وتكون الصـدمة عليـه شـديدة عندما يموت ابنه فيعتزل العمل السـري ، ويختار أن يـعـيش على هـامش المجتمع ..

ويـروي هـاروات عن صديقيه اللذين عملا معه من أجل محاربة الشيوعية في الاتحـاد السوفيـيتي وكـوبا وأوروجـواي . والغـريب ان هـاروات قـد اختـار ان يدون مذكراته في مـدينة مـوسكو ، بعـد أن انحـسـرت عنهـا الشـيـوعـيـة . ويبـدو بذلك كأنه يحتفل بما حققه جهازه السري من انجاز في تدمير الشيوعية في عقر دارها ..

ولا شك أن مثل هذه الروايات مملوءة بأشخاص عديدين ، تتباين علاقاتهم بالرواية حسب أهميتهم ، وقرابتهم الشخصية والمهنية منه . هؤلاء الأشخاص أصبحوا الآن بعد مرور تلك السنوات بمثابة أشباح لا يمكنه أن يمسك بها في الحاضر مثلما استطاع ان يحسها في الماضي قريبة منه .

وعلى طريقة الروايات المسلسلة ، كتب نورمان مايلر في الصفحة الأخيرة من روايته البقية في العدد القادم رغم ان أحداث الرواية تؤكد أن هارولت قد حكى كل شئ وانه لم يعد يوجد لديه مايقوله . فقد عمل في خدمة وكالة الاستخبارات سبع سنوات كاملة .

نورمان مايلر (٧٤ سنة) سبق أن قدم روايات ساخنة عن المجتمع الامريكي . كما قدم رواية متميزة عن حياة رمسيس الثاني تحمل عنوان « الحدث القديم » منشورة عام ١٩٨٠ .

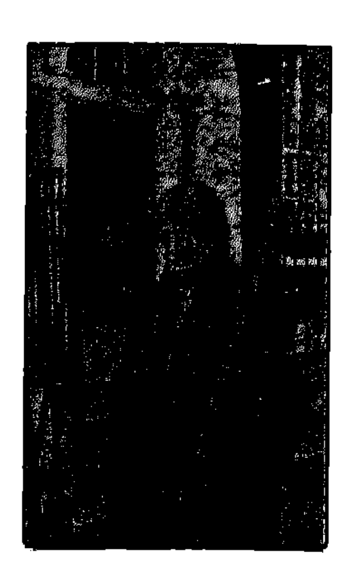


أسئلة امرأة.. بلا إجابات

« رسالة إلى كوكب الأرض » ..

عنوان أحدث رواية للكاتبة البريطانية ايريس مردوخ التي تنتمي إلى جيل الكبار في الرواية الحديثة . فقد بدأت حياتها الادبية برواية عام ١٩٥٤ عنوانها «تحت الخيط » وهو نفس العام الذي نشر فيه ويليام جولدنج روايته الشهيرة « آلهة الذباب »ونشرت حتى الآن أكثر من عشرين رواية .. وكتابا ضخما عن جان بول سارتر ترجم الى اللغة العربية .

وتجئ أهمية ايريس مردوخ ـ ٧٣ سنة ـ انها تعتبر وريثة الكلاسيكيين الكبار في بريطانيا . كما انها تنتمي إلى الحركة النسائية الحديثة . وفي أعمالها ، تهتم بتحليل الشخصية . وتتوغل في الأعماق الانسانية . ويبدو ذلك واضحا في روايتها الأخيرة ، التي تزدحم بالعديد من الأنماط الانسانية القريبة . فهم أناس يعيشون في ظروف معقدة ، مما يجعلهم يعانون نفسيا . فهناك على سبيل المثال شاعر ايرلندي . مدمن للخمور ، يموت بمرض غريب.



ايريس مردوخ

وراهب يحب الحياة . ومدرس شاب يحس انه غير عادل في حياته، ومحلل نفسي يعاني هو نفسه من اضطرابات نفسية عديدة .

وهؤلاء الاشخاص ينتمون إلى نفس الصحبة . ويجتمعون من وقت لآخر في بيت أحدهم . يتناقشون ، ويتحدثون عن بعضهم البعض ... والكاتبة تركز على شخصية مرقص فالار . وهو شاب عبقري ... ماهر في لعبة الشطرنج . كما انه بارع في الرياضيات والرسم. ومع ذلك فهو لا يعيش سعيدا . فابنته الوحيدة تتعامل معه على انه شخص مجنون . ولذا فهو يحن الى الصحبة القديمة التي كانت تجمعه مع هذا الرهط الغريب من الاصدقاء . ومنهم الشاعر الذي مات . ولا يجد امامه سوى أن يكتب رسالته الى سكان كوكب الأرض في أواخر القرن العشرين يحدثهم فيها عن أزمة القيم التي تندثر .



الروائيون .. يقفون وراء الكاميرا

في منتصف الستينات ، برزت في فرنسا ظاهرة الروائي المخرج . وذلك من خلال مجموعة الكتاب الذين ينتمون إلى مدرسة الرواية الجديدة الذين وجدوا أن أحدا غيرهم لا يمكن أن يقدم ابداعهم بنفس المفهوم والصورة . وكان من ابرز هؤلاء الادباء الآن روب جرييه . ومرجريت دوراس ..

الآن.. تشهد فرنسا ظاهرة مشابهة ، حيث أنهى ثلاثة من الروائيين الشباب تصوير أول أفلامهم الروائية . الثلاثة هم : باسكال جاروان. وفيلمه « المهرج » ثم ديديه فان كوالريه وفيلمه : « صديقات زوجتي » .. ويعرض حاليا أول فيلم للروائي سيريل كولار تحت عنوان : « ليال متوحشة » ..

وكولار هو الأكثر ارتباطا بفن السينما من زميليه الآخرين ، فقد بدأ حياته ممثلا ومساعد مخرج ، بل إنه اختار ان يكون الممثل الرئيسي لفيلمه الأول . كما اختار

العالم في سطور

أن يقوم بتصويره بنفسه ويؤلف الموسيقى وبذلك صنع ظاهرة خاصة لم تحدث من قبل في تاريخ السينما منذ أن قام بها شارلي شابلن عام ١٩٥٢ في فيلم « أضواء المدينة » ..

وبمناسبة نجاح هذا الفيلم ، الذي قد يفتح الباب للكثير من الادباء ، وخاصة الشباب ، ان يجربوا حظهم ، نشر الملحق الأدبي لجريدة لوفيجارو تحقيقا عن الادباء الذين عملوا في ميدان الاخراج ، جاء فيه ان اسماء بارزة في الادب قد جربوا هذا الميدان مثل جان كوكتو الذي أخرج أفلاما عديدة منها « وصية أورفيه » . ثم



سيريل كولار

اندريه مالرو الذي اخرج روايته «الأمل» وفرانسواز ساجان.وكويستوفر فرانك وقد بدت الصحيفة كأنها تتابع هذه الظاهرة في فرنسا وحدها ... لكن من المهم أن نشير أن في ألمانيا أخرج كل من هاينريش بل وبيتر هاندكه أفلاما مأخوذة عن رواياتهم وجرب نورمان مايلر حظه في فيلم اقل أهمية عام ١٩٨٦ . وفي مصر كان عبد الرحمن الخميسي أبرز الروائيين الذين عملوا طويلا في الاخراج .

●●

دبلن

القرن العشرون .. عصر دراكيولا

أغلب الظن أن ابراهام ستوكر سيكون شخصية عام ١٩٩٣ . مثلما كان ابنه دراكيولا رجل القرن العشرين ..

ابراهام ستوكر هو اسم كاتب ايرلندي ، ولد في مدينة دبلن عام ١٨٤٧ ومات في عام ١٩١٢ . وقد تخصص في كتابة روايات الرعب . ومنها روايته المشهورة « دراكيولا » التي نشرت عام ١٨٩٧ ..

جاءت أهمية هذه الرواية بمثابة رؤية للقرن العشرين . فهي منشورة على عتبة هذا القرن الذي تمكنت فيه خفافيش الليل من امتصاص دم البشر في بقع عديدة من العالم. ولذا فان شخصية دراكيولا ، مصاص الدماء،

قد استهوت الناس، في جميع أنحاء العالم. فالرواية نفسها قد طبعت حتى الان عشرين مليون نسخة. وطبعت ٩١ طبعة في ٣٧ لغة منها اللغة العربية .. وتحولت الى ١٥٤ فيلما ، آخرها ذلك الفيلم الضخم الذى اخرجه فرنسيس فورد كوبولا ، والذى جعلنا نختار ستوكر شخصية ١٩٩٣ .. كما تحولت الرواية إلى تسعة أفلام فاضحة وإلى ١٩ مسلسلا تليفزيونياً واستوحى منها الروائيون قصص أكثر من ٣٠ كتابا ، و١٢٠ قصة قصيرة و ٦٠٠ من القصص المرسومة...

والكونت دراكيولا ، الرجل الخفاش الذى ينام في تابوت في قلعته العالية نهارا ، كي يخرج ليلا على الناس ، يبهرهم بمهابته، فيتركون انفسهم فريسة لقبلاته النهمة .. فيبرز انيابه ليمتص الدماء، ويحول ضحاياه الى خفافيش ليل.. هذا الكونت قد ارتدى ثوبه الداكن في العديد من المسرحيات والاستعراضات الضخمة وبدا ماثلا للناس في ليالي الحروب الطويلة، وما أكثرها في القرن العشرين . فقد تصور الناس ان دراكيولا موجود في أسنان كل من يحيطونهم .

والطريف أن الكونت دراكيولا قد خلع ثوبه المحلى ، ليصبح نمطا عالميا في افلام كثيرة، منها فيلم "نوسفراتو" الذى اخرجه مورناو في ألمانيا عام ١٩٢٢ . ثم في الفيلم البريطاني « عفوا إن أنيابك في عنقى » عام ١٩٦٧ من اخراج رومان بولانسكى. كما ارتدى الهوية العربية في فيلم « أنياب » لمحمد شبل عام ١٩٨٢ .



دراكيولا .. جاك بلانس

الكتاب وسياسة النشر

بقلم : د . عبد العظيم أنيس

بدأ معرض الكتاب منذ أيـــام ، وقـــد طلـــب منى رئيس تحرير « الهلال » أن أكتب مقالا عن تجربتى بمناسبة اليوبيل الفضى للمعرض باعتبار أننى كنت رئيسا لمجلس إدارة شركة الكاتب العربى للطباعة والنشر (وهى الشركة التابعة للدولة آنذاك والمسئولة عن الطباعة والنشر) منذ خمسة وعشرين عاما. ولقد أشار الاستاذ سعد الدين وهبة فى مقال نشر فى الأهرام منذ حوالى شهر إلى ظروف نشأة فكرة المعرض المصرى والجهود التى أدت إلى أول معرض كتاب فى مصر فى يناير ١٩٦٩ ، ولا بأس من إعادة بعض ماورد فى هذا المقال .

لقد جرى تعيينى رئيسا لمجلس إدارة الكاتب العربى للطباعة والنشر فى نوفمبر ١٩٦٧ ، أى بعد وقوع النكسة بخمسة شهور ، وكنت آنذاك أشغل كرسى الرياضة البحتة فى كلية العلوم جامعة عين شمس ، وكان وزير الثقافة د . ثروت عكاشة الذى تربطنى به معرفة قديمة هو الذى استدعانى فى أحد أيام نوفمبر لإبلاغى بقرار تعيينى فى هذا المنصب ، فتمسكت بأن يكون هذا على سبيل الاعارة من الجامعة لمدة عام فقط ، ومن حسن الحظ أننى علمت منه أن هذا كان أيضا شرط موافقة وزير التعليم العالى آنذاك الدكتور لبيب شقير .

وهكذا بدأت عملى الجديد ، وكان الاستاذ سعد الدين وهبة رئيسا لمجلس إدارة شركة التوزيع ، كما كانت الدكتورة سهير القلماوى رئيسا لمؤسسة الكتاب التـى كـانت تتبعها شركتا النشر والتوزيع . وبعد أيام من بدء العمل اتصلت بى د . سهير القلماوى لتبلغنى أن معرض بيروت للكتاب سوف يبدأ بعد أيام وأننا



د . سهير القلماوى



سعد الدين وهبة

مدعوون لزيارة المعرض . وهكذا ذهبنا نحن الثلاثة د . سهير والاستاذ وهبة وكاتب هذه السطور ومعنا المسئول عن التوزيع الخارجي للكتاب الاستاذ إسلام شلبى ، وقابلنا فى بيروت وزير الاقتصاد اللبنانى آنذاك الاستاذ رشيد كرامى ، الذى كانت تربطنى به معرفة قديمة منذ كنت أستاذا زائرا لمعرض الاحصاء الدولى (فرع بيروت) فى الفترة نوفمبر ١٩٥٤ - فبراير ١٩٥٥ ، وكان هو وزيرا للمالية وتتبعه مصلحة الاحصاء اللبنانية التى كنت أتردد عليها كثيرا لاستشارات فنية .

ولقد شغلنا نحن الثلاثة همان .. الهم الأول كان يتعلق بأعمال تزوير بعض الكتب التى كنا نصدرها فى القاهرة من جانب بعض الناشرين فى بيروت ، خصوصا كتب التراث ، وكانت أعمال السرقات هذه قد تحولت إلى ظاهرة مخيفة بلا وازع أو ضمير . أما الأمر الآخر فهو العوامل والحوافز التى تساعد على توزيع الكتاب المصرى فى الخارج ، ولهذا كان من الطبيعى أن نتساءل - ونحن فى بيروت - لماذا لا يكون للقاهرة معرض كتاب سنوى مثل بيروت ؟

أول معرض للكتاب

وعدنا من بيروت بتصميم على أن يبدأ معرض القاهرة فى يناير ١٩٦٩ ، وبدأنا العمل من أجل هذا الهدف ، وسعدت أيما سعادة عندما تحقق هذا فى الموعد المضروب ، وكان هذا أول معرض كتاب فى القاهرة . وصحيح أننى تركت عملى فى وزارة الثقافة فى أواخر نوفمبر ١٩٦٨ ، بعد انتهاء إعارتى من الجامعة ، وسافرت إثرها إلى ألمانيا فى مهمة علمية وبالتالى لم أحضر افتتاح هذا المعرض الأول ، ولكن هذا لم يمنع شعورى بالسرور من أننى كنت واحدا من المساهمين فى عمل ثقافى هام من هذا النوع ، وظل هذا الشعور ينتابنى عند زيارتى لكل معرض كتاب بالقاهرة فى يناير من كل عام .

واليوم عندما أتأمل ذكريات هذا العام الذى قضيته بين جدران دار الكاتب العربى للطباعة والنشر من نوفمبر ١٩٦٧ إلى نوفمبر ١٩٦٨ تبرز فى مقدمة الذكريات قضيتان كانتا محل اهتمامى وفى مقدمة أولوياتى آنذاك .. الأولى تتعلق بالسؤال التقليدى الذى مازال مطروحا حتى اليوم : هل نشر الكتاب من وزارة الثقافة هو

بمثابة خدمة تقدم بها الدولة ولا تبحث بها عن ربح، أم أنه عمل من أعمال الاستثمار؟ إن هــذا السؤال كان مطروحا ، بشدة آنذاك خصوصا بعد النكسة واتجاه الدولة إلى اجراء تخفيضات كبيرة فى الانفاق الخدمى ولذا كان من الضرورى أن تكفى المؤسسات نفسها بنفسها ولا تعتمد على الدولة . وكان من المفارقات الغريبة والمفزعة لى أننى اكتشفت عندما دخلت مكتبى لأول مرة فى الشركة أنه لا توجد لدى الشركة أموال سائلة تكفى لدفع مرتبات العاملين - وهم بالألوف - فى أول الشهر التالى ، وأن علىّ أن أتدبر الموقف !

وبالطبع سارعت بالاتصال بوزير الخزانة آنذاك د . نزيه ضيف ، وكانت تربطنى به صداقة قديمة منذ أن كنا معا فى مــــدرسة اســـماعيل القبانى الثانوية (فاروق الاول سابقا) فى أواخر الثلاثينيات ، كما أننى عملت معه فى وزارة الخزانة من يوليو ١٩٦٤ إلى ديسمبر ١٩٦٥ . واستطعنا أن نحصل مـنه عـلى قرض مؤقت بنحو ٣٦٠ ألف جنيه . ومع أننى من المقتنعين بأن نشر الدولة للكتاب هو فى الاساس خدمة لا ينبغى أن تكون لاعتبارات الربح الاولوية الأولى فيها وإلا أننى اضطررت تحت ضغط الظروف إلى الاهتمام بالطباعة التجارية لتحقيق موارد للشركة ، وهكذا أبرمت صفقة مع وزارة التربية والتعليم المصرية لطبع العديد من الكتب المدرسية ، كما فعلت نفس الشئ مع وزارة التربية والتعليم الليبية ، وكانت هاتان الصفقتان كافيتين لدفع العمل واستقراره ولو مؤقتا .

أما الأمر الثانى الذى شغلنى فهو سياسة النشر . والحقيقة أننى كنت إلى حد كبير محظوظا فى تلك المسألة ، فقد سبقنى فى رئاسة الشركة الصديق العزيز الاستاذ محمود أمين العالم ، الذى كان تعيينه رئيسا لمؤسسة المسرح هو الذى أدى إلى تعيينى رئيسا لشركة الطباعة والنشر . وكان الاستاذ العالم قد وضع لبنات أساسية فى مشروع السنوات الخمس للنشر ، ثم كان صاحب الفضل فى مشروع الأعمال الكاملة لعدد من الكتاب والذى تم بمقتضاه التعاقد مع يوسف إدريس ولويس عوض وسامى الدروبى وآخرين لا أذكرهم الآن ، وفى مشروع النشر للأدباء الشبان الذين لا يجدون أمامهم رغم إنتاجهم الجيد فى الشعر والقصة أبوابا مفتوحة فى قطاع النشر التابع للقطاع الخاص ، كما كان الاستاذ العالم صاحب فكرة ترجمة عيون الادب الأجنبى ومثال ذلك ترجمة الشاعر المصرى فؤاد حداد لأعمال أراجون .

ومعنى هذا أننى لم أبدأ من فراغ فى سياسة النشر ، وإن كان هذا لم يمنع من أن تكون لى اهتماماتى الخاصة . أتذكر مثلا اهتمامى بقطاع العلم والتكنولوجيا فى ميدان النشر ، وكان خير عون لنا فى هذا العمل د . أسامة الخولى الذى كان على صلة وثيقة بالعلم والتكنولوجيا معا ، وكان من أولويات اهتماماتنا الكتب العلمية

والتكنولوجية المبسطة التى تكتب للصغار .

والحقيقة أن مسألة الاهتمام بهذا الجانب لا تزال مطروحة حتى اليوم ، ويزداد الإلحاح على هذا الموضوع فى ضوء نجاح الجماعات المتطرفة فى تجنيد الشبان الصغار فى اتجاهات غيبية ليس للعقل فيها أى مكان . والعلم وطريقة التفكير العلمى هى إحدى الوسائل الاساسية لتنمية التفكير العقلانى الذى بدونه يستحيل أن نحقق ثورة فى مجال التنمية أو نواجه تحديات القرن الواحد والعشرين وبصراحة فإنه يبدو لى أن من أتوا من بعدنا إما أنهم أهملوا هذا الجانب أو أنهم لم يعطوه العناية الكافية .

ولست أود أن أقلل من مصاعب النشر فى هذا الميدان ، فاحدى المشاكل الأساسية التى لا تزال قائمة حتى اليوم تتعلق بحركة ترجمة المصطلحات والمفاهيم من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، والجهد الذى بذل فى هذا الميدان - سواء من جانب المجمع اللغوى أو الجامعة المصرية - غير كاف بدليل أننا حتى اليوم لا يزال التدريس فى الكليات العلمية والعملية - والكتب الرئيسية - باللغة الانجليزية وفى قناعتى أنه ما لم تكن هناك حركة ترجمة واسعة للكتب العلمية والتكنولوجية الأجنبية ، وما لم نتحول إلى التعليم باللغة العربية فى جامعاتنا - فى الطب والهندسة والعلوم - أى ما لم نتعود على التفكير باللغة العربية فى القضايا العلمية والتكنولوجية فسوف تظل صلتنا بالحياة العالمية المعاصرة قاصرة . وليس هذا غريبا فى شئ فالمجتمعات المتقدمة جميعها تدرس العلم والتكنولوجيا وتنتج فى ميدانهما بلغاتها القومية يستوى فى هذا المجتمع البريطانى أو الروسى أو اليابانى أو الصينى ، والتدريس بلغات غير قومية قد أصبح علامة من علامات التخلف .

أما الأمر الثانى الذى كان لى به اهتمام خاص فهو سياسة النشر فى التراث وغير خاف أن القطاع الخاص ينشر بشكل واسع كتب التراث لاعتبارات من بينها الربح طبعا . ولذا فإن سياسة النشر لوزارة الثقافة فى هذا الميدان ينبغى أن تركز على ما لا يستطيع أو ما لا يريد القطاع الخاص الاهتمام به . أشير على وجه الخصوص إلى كتب التراث التى تمثل انتصارا للفكر العقلانى فى التراث وفى الإصلاح الدينى . ولذا كان من رأيى الاهتمام بأمثال ابن خلدون وابن رشد فى القديم وبأمثال محمد عبده فى الحديث بدلا من تركيز الاهتمام على أمثال الغزالى وابن عربى وابن تيمية الذين يلقون اهتماما كبيراً من جانب النشر فى القطاع الخاص، وبالطبع قد تكون هذه قضية خلافية بين العاملين فى ميدان النشر ، لكننى كنت فيها أعبر عن طموح لنشر أوسع للاتجاهات التنويرية فى تراثنا .

والحقيقة أن الكثير من الذكريات عن عملى هذا فى ميدان النشر تتداعى فى ذهنى وأنا أكتب هذا المقال ، لكنى سوف أقتصر على الجانبين اللذين أثرتهما هنا راجيا أن أعود فى مناسبة أخرى لبعض القضايا الأخرى المتعلقة بسياسة نشر الكتاب فى مصر .

معنى التخلف الاجتماعي

من الأقوال المأثورة لما تنضح به من الحكمة قول القدماء . « صديقك من صدَقَك لا من صدَّقك » . ويخيل إلينا أنه ليس أنسب من هذا الزمان مدعاة لبعث هذا القول ، والتذكرة به ، وإذاعته حتى يفوز بأكبر قدر من العقول يؤمنون به ويعملون بوحي منه ، وربما كان الكتاب والمفكرون هم أجدر الفئات عملا به في تشكيل علاقاتهم بمجتمعاتهم ؛ فالصدق مطلوب في تكوين هذه العلاقة ، وفي تشكيلها ، وفي توجيهها إذا كان أحدنا يريد الخير فعلا لمجتمعه ، وكان على استعداد لأن يضحي ببعض مصلحته في سبيل مصلحة الجماعة ، إن هما تعارضا . صحيح أننا لا نستطيع عادة أن نقول الصدق كله ، وقلما تسمح مواقف الحياة الاجتماعية بذلك (بغض النظر عن دعاوى المزايدين والمثاليين) ، ولكن أن نقصد إلى قول الصدق ، وأن نعمل على تقديم أكبر قدر منه حسبما تتيح ظروف الحياة بكل تشابكاتها فهذا هو المطلوب ، وفيه الكفاية . ومن المؤكد أن الصدق يؤلم البعض ممن يتناولهم موضوعا له ، ولكن لا حيلة لنا في ذلك . ثم إننا ، وفي هذا الموضوع بالضبط نبدأ طريقنا إلى التضحية ، لأن إغضاب البعض معناه أن نتوقع منهم العدوان على بعض مصالحنا ، بالإهمال إن لم يكن بالإفشال ، فإذا ارتضينا ذلك فقد بدأنا طريق السالكين إلى الصدق .

نقول هذا لأن إحدى المهام الرئيسية للكاتب والمفكر ، فيما نرى ، أن تقوم كتابته (وخاصة ما تناول منها الأمور الاجتماعية) بمهمة المرآة التي تنعكس عليها بعض ملامح المجتمع ليشهدها هذا المجتمع نفسه ، فإما أن تسعده الصورة فيتمسك بها

بقلم : د . مصطفى سويف

ويحاول أن ينميها ويكثفها ، وإما أن تسوءه فيعمل على تصحيحها أو تعديلها إلى ما هو أفضل . وقد يختار البعض ما يتصور أنه الملامح الجميلة فيعكسها فى مرآته ، والغالب أن يكون هؤلاء أهل حظوة عند من بيدهم العطاء والحرمان ؛ بينما يختار البعض الآخر ما يرى أنه ملامح سيئة فيعكسها فى مرآته اقتناعا منه بأن الأصل فى مهمته أن يسعى بالمجتمع إلى ما هو أفضل ، والراجح ألا يفوز هؤلاء بغير الازورار من أولي الأمر ، ولا بأس بهذا كله فهذه سنة الحياة . وقد اخترنا فى حديثنا هذا أن نتجه وجهة ناقدة ، لأننا نريد أن نصدُق مجتمعنا لا أن نصدّقه . وما ندّعيه فى هذا الحديث هو أن مجتمعنا هذا يعانى من كثير من مظاهر التخلف ، وأن هذه المظاهر آخذة فى الزيادة بدلا من أن تتناقص مع الأيام . وأن أعباء هذا التخلف تزداد خطراً على مستقبل الأمة . وربما كان من أهم الأسباب التى دعتنا إلى أن نطرق هذا الموضوع ما نراه من أن معظم الإصلاح المنشود فى هذا المجال لا يحتاج إلى نفقة مالية ، ومن ثم فالإعتذار باضطراب أمور الاقتصاد غير وارد فى شأنه ، كما أنه لا يحتاج إلى استيراد تكنولوچيا متقدمة ، وبالتالى فلا عذر لنا أن نتقاعس عنه بحجة أن الغرب بما يملكه من تكنولوچيا متقدمة يبخل علينا بالمساعدة . كل ما يحتاج إليه الإصلاح المنشود هو أن تتكاتف الإرادات الاجتماعية ، وتتبلور الإرادة السياسية ، فيصح العزم وينطلق العمل فى الاتجاه الذى نرجو . والمقال الراهن ليس سوى مقدمة فى التحديد العلمى لمعنى التخلف الاجتماعى ، وكيف ومتى نتحدث عن قيام حالة تخلف اجتماعى . وفى مقال تال نرجو أن نبسط الحديث فى وصف مظاهر التخلف كما يعانى منها مجتمعنا .

ما معنى التخلف الاجتماعى ؟ :

هناك تعريفات ذائعة لمفهوم التخلف كما يستخدمه علماء الاقتصاد ، وهى تقوم فى مجموعها على تقدير متوسط نصيب الفرد فى المجتمع من استخدام الطاقة . غير أن ما نرتضيه فى هذا المقال لا ينتمى إلى هذه الفئة من التعريفات ، لأننا لا نتوقف عند الجذر الاقتصادى (للتخلف أو التقدم) رغم اعترافنا بأهميته ، إنما نحن نقصد

إلى الحياة الاجتماعية بمعناها العريض . وربما لاحظ القارىء أن هذه النقطة لا تفتأ تثير كثيرا من الجدل ، فهناك من يلحون على نغمة التنمية الاقتصادية كأنها مفتاح كل شيء ، وهناك في المقابل من ينتصرون للحديث عن التنمية الاجتماعية الشاملة لأنها هي بيت القصيد . ونحن في حديثنا الراهن نجدنا أقرب إلى الفريق الأخير ، لأننا نتكلم عن التخلف الاجتماعي العريض والشامل .

وما نقصده هنا بالتخلف الاجتماعي هو : ما يبدو أنه تباطؤ شديد من جانب المجتمع ، مؤسساته وما يرتبط بها من وظائف وسلوكيات ، عند مرحلة معينة من مراحل تغيره ، سواء أكان ذلك فيما يتعلق بتنظيم المؤسسات أم فيما يخص ما يرتبط بها من وظائف وسلوكيات . أما لماذا يعتبر هذا التوقف تخلفا فلسبب رئيسي مؤداه أن المؤسسات الاجتماعية وما تقتضيه من وظائف وسلوكيات إنما تنشأ أصلا للتعامل مع أبطال الحياة الإنسانية المختلفة ، ولما كانت هذه المطالب لا تثبت أبداً على حال واحدة بل تتعرض لوابل من المستجدات يمثل تيارا لا ينقطع أبداً فقد أصبح لزاما أن تكون بنية المؤسسات الاجتماعية وما تستتبعه من وظائف وسلوكيات في حالة تغير دائم لملاحقة تيار مستجدات الحياة ، وذلك باستحداث ما يمليه هذا التيار من تعديلات صغيرة أو كبيرة في بنيتها (أي في بنية هذه المؤسسات) وفيما تقتضيه من وظائف ، فإذا توقفت هذه المؤسسات أو تباطأت في استحداث التغيرات أو التعديلات المطلوبة في جوانبها المختلفة بدأت على الفور تتخلق حالة التخلف ، فتبرز مظاهر التفاوت بين أحوال المؤسسات ووظائفها من ناحية ومستجدات الحياة من ناحية أخرى . وهنا بالضبط نتكلم عن التخلف . هذا التحديد أو الوصف هو المحور الرئيسي لمفهوم التخلف كما نقصده في هذا المقال ، وهو تحديد موضوعي خالص (لجوانب من ضرورات الحياة الاجتماعية) لا يجوز معه أن ننزلق إلى مناقشات عقيمة حول التخريجات اللغوية لمعاني التخلف والتقدم .

سوف نضرب لما نقول مثلا واحدا طلبا لمزيد من وضوح القول بيننا وبين القارىء. فالقانون (بكيانه العام) واحد من المؤسسات الاجتماعية الهامة ، له بنيته أو هيكله الذي يتمثل في مكوناته الرئيسية وفي نصوصه ، وله مجموعة من الوظائف والسلوكيات التي يمليها علينا (وذلك من خلال معايشتنا إياه) . ومع أن القانون كمؤسسة اجتماعية يبدو على درجة عالية من الاستقرار في هيكله العام وفي نصوصه فإن هذا الاستقرار لا يمكن أن يصل إلى حالة التجمد ؛ وآية ذلك أن المجتمعات تلجأ

إلى إحداث بعض التغيير والتعديل فيه من حين لآخر أمام الضغوط التى تقع عليها بفعل أنواع معينة من مستجدات الحياة . ويكفى أن نتذكر هنا ، على سبيل المثال ماحدث لأحد جوانب المؤسسة القانونية لدينا ، أعنى قانون المخدرات ، على امتداد بضعة العقود الأخيرة . ففى سنوات الخمسينات تبين أن القانون رقم ٣٥١ لسنة ١٩٥٠ يزداد عجزا أمام مستجدات الحياة فى المجتمع المصرى فيما يتعلق بعالم المخدرات (عالم التهريب والاتجار والتعاطى والتداول غير المشروع) ، فأعيد النظر فيه حتى يستعيد كفاءته ، وظهر فى هذا الصدد بوجه جديد هو القانون رقم ١٨٢ لسنة ١٩٦٠ . واستمرت مستجدات عالم المخدرات تتوالى على حياة المجتمع (فالحياة بخيرها وشرها فى صيرورة دوما ، ولا شىء فى هذه الحياة يتوقف أبداً) ، وعاد القانون بوجهه الجديد يكشف عن أشكال ودرجات من الضعف استدعت إدخال العديد من التعديلات الجزئية عليه (مثال ذلك ما حدث سنة ١٩٦٦) ، إلى أن تبين أن التفاوت ازداد كما وكيفا بينه وبين متغيرات دنيا المخدرات ، فأعيد النظر فيه مرة أخرى بطريقة جذرية وذلك حتى يرتفع مستوى كفاءته بما يناسب وابل الأحداث الجديدة ، أحداث السبعينات والثمانينات ، فكانت حصيلة المراجعة صدور القانون رقم ١٢٢ لسنة ١٩٨٩ ، وهو حتى الآن أحدث وجه نعرفه لقانون المخدرات . ومع ذلك ففى مستقبل قريب سوف يبلى هذا الوجه أيضا ، وسيحتاج المجتمع مرة أخرى إلى مراجعته واستحداث تعديلات جديدة فيه . هذا ما حدث (وما سيحدث) لقانون المخدرات . وفى هذا السياق أيضا ، سياق التغيير بما يناسب مستجدات الحياة ، نفهم أشياء أخرى كثيرة ؛ فنفهم كيف أن قانون الإجراءات الجنائية يعاد النظر فيه الآن لاستحداث عدد من التعديلات التى تقتضيها تغيرات طرأت وتطرأ على حياتنا الاجتماعية لا مفر من التعامل معها . ونفهم كذلك ما حدث فيما يتعلق بقانون الأحوال الشخصية منذ بضع سنوات . وما نقوله عن هذه القوانين الثلاثة يصدق على سائر القوانين الخاص منها والعام ، وهى فى جملتها ليست سوى أوجه متعددة للقانون كمؤسسة اجتماعية .

وهناك نقطة أخرى ينبغى لنا أن نذكرها قبل أن ننصرف عن هذه الفقرة إلى ما يليها ؛ فلعل القارىء يذكر ما حدث فى النصف الثانى من الثمانينيات عندما علت الأصوات متكاثرة يوما بعد يوم تستحث من بيدهم الأمر أن يستحدثوا التعديلات المناسبة فى قانون المخدرات حماية للشباب والقيم والثروة القومية فقد كانت هذه الأصوات (شكلا ومضمونا) هى صورة التحرك المجتمعى الذى يضغط فى سبيل التعبئة اللازمة لاستنهاض إرادة القرار وإرادة الفعل . وقد حدث مثل هذا ولا يزال

يحدث (ولكن بأشكال مغايرة) بالنسبة لما يجرى من تعديل فى قانون الإجراءات الجنائية ، وفى غيره من القوانين .

وخلاصة القول فى هذه الفقرة أننا اتخذنا من القانون مثلا نضربه لمؤسسة اجتماعية ، يُجمع المجتمع أمره من حين لآخر على إحداث التغيير فيها بما يجعلها من حيث كفاءة الأداء قادرة على ملاحقة مستجدات الحياة فى المجال الذى تتكفل به وهو مجال مشروعية السلوك فى مقابل النشوز والانحراف والجريمة . وما قلناه عن القانون إنما قلناه من حيث إن القانون مؤسسة اجتماعية . ومعنى ذلك أن الخطوط العامة لوصف ما يحدث بينه من ناحية وبين مستجدات الحياة الاجتماعية من ناحية أخرى يصدق على مؤسسات المجتمع جميعاً ؛ فالمجتمع يتعرض من حين لآخر لاكتشاف أن بعض مؤسساته تزداد عجزا مع الأيام عن التعامل مع الجديد فى الحياة فى هذا المجال أو ذاك ، فتبدأ المعاناة ، وتتراكم آثار الشعور بها ، ثم لا تلبث بعض الأصوات أن تبث الشكوى ، ثم تتكاثر الأصوات وترتفع شيئا فشيئا حتى تستنهض الإرادة الاجتماعية لاستحداث التغيير المناسب لملاقاة الجديد .

ثم إن هذا الذى نقول إنما يصف بصدق ما يحدث بين مؤسسات المجتمع جميعا ومتغيرات الحياة التى تدفعنا إلى استحداث أشكال وأقدار من التغيير والتعديل فى هذه المؤسسات وما تستتبعه من وظائف وسلوكيات . ومع ذلك فمن المهم التنبه إلى أن هذا الوصف ينطوى على قدر كبير من التبسيط ، إذ تحاشينا أن نتحدث عن أمور شديدة التعقد قبل أن نعرض الخطوط الأساسية للتصور الذى ينبغى التركيز عليه . أما عن التعقيدات التى يلزمنا أن نحسب حسابها فيأتى فى مقدمتها أن للمؤسسات المختلفة أنماطا متباينة من التفاعل الذى يجرى بينها وبين مستجدات الحياة ؛ فتفاعل مؤسسة القانون مع المستجدات المنوطة بها يختلف عما يجرى من تفاعل بين الأسرة كمؤسسة إجتماعية والمستجدات التى تعنيها ، هذا نمط وذاك نمط آخر . غير أن هذا الاستدراك لا يلغى حقيقة الشكل العام لهذه الحركة بالنسبة لجميع المؤسسات ، وهو الشكل الذى يمضى بين استقرار يكاد يصل إلى مستوى التجمد يعقبه تحرك أو تغيير فى البنية والوظيفة لاستعادة مستوى الكفاءة الذى توشك اختلالاته الجزئية أن تصبح انهياراً فى الكيفية التى تحدث بها ملاقاة الجديد واستيعابه .

متى نتحدث عن قيام حالة تخلف إجتماعى ؟

لا نحيد عن الصواب إذا تصورنا أن المجتمع هو مجموع مؤسساته ، وأن الحياة الاجتماعية هى ما يدور بين هذه المؤسسات من تفاعلات . فإذا جمعنا إلى هذا

التصور ما فرغنا للتو من وصفه تكونت أمام عيوننا صورة بارزة القسمات للمجتمع في حركته من خلال مؤسساته لملاحقة المقتضيات التي يفرضها الجديد في متغيرات الحياة . وفي الوقت نفسه توحي هذه الصورة إلينا بالمعنى المقصود من التخلف الاجتماعي ، فهو مجموع مقادير التخلف وأشكاله مما تكشف عنه المؤسسات في ملاحقتها مطالب التغير التي تفرضها مستجدات الحياة .

ويبقى أمالنا في النهاية سؤال هام ، مؤداه : كيف ، ومتى نتحدث عن وجود تخلف اجتماعي فعلا ؟ كثيرون منا يتحدثون عن أننا محاطون بالعديد من مظاهر التخلف في حياتنا الاجتماعية ؛ فإذا تحملنا مشقة النظر في هذا الحديث عن كثب وحاولنا تنقيته من شوائبه الانفعالية والعقلية فإن الحقيقة لا تلبث أن تتكشف لنا عن أن معظمنا يندفعون إلى هذا الحديث تعبيراً عن تألمهم بصورة أو بأخرى مما يصيبهم من متاعب ناتجة (في نهاية تحليل المواقف) عن أشكال وأقدار من التفاوت بين مؤسسات المجتمع من ناحية ومستجدات الحياة التي لم تكن تخطر على بال أحد من ناحية أخرى . وسواء اتجهت الأحاديث إلى لوم المستجدات أم إلى لوم الاستقرار الذي يبلغ درجة التجمد في المؤسسات المعنية فالمهم أن مجموع اللوم والشكوى يدور حول حقيقة أساسية هي التفاوت بين الطرفين كما يلمسه الجميع . وغني عن البيان أن لوم مستجدات الحياة ليس سوى كلام أو عمل انفعالي لا معنى له في معظم الأحيان ما لم ينصرف به أصحابه إلى معالجة الموقف الناتج عن هذه المستجدات بإحداث ما يلزم من تعديل جزئي أو تغيير جذري في المؤسسة المعنية أو في بعض وظائفها . وغني عن البيان أيضا أننا لا نتحدث عن تخلف اجتماعي هكذا على إطلاقة إلا إذا عانينا من هذا التفاوت في عدد من المؤسسات لا في مؤسسة واحدة أو اثنتين . وللإنصاف فإن ما يصدر من أقوال أو تعبيرات أيًا كان نوعها في هذا الصدد إنما يحدث نتيجة للمعاناة من أشكال ودرجات من التفاوت تكاد لا تقع تحت حصر ، يعاني منها الجميع ويرون أنها قائمة في العلاقة بين معظم المؤسسات الاجتماعية وما يناط بها من مستجدات تعترى أوجه الحياة المختلفة . ثم إنه غني عن البيان كذلك أننا لا نتحدث عن التخلف الاجتماعي باعتباره ظاهرة تبدأ في لحظة تاريخية معينة ، كان كل ماسبقها خلواً من التخلف بينما يزخر كل مايليها بالتخلف . هذا لا يحدث عادة . لأن مفهوم التخلف كما يقوم وراء أحاديثنا لا يسمح بذلك (رغم ضبابية الرؤية عند معظمنا) ، ولكنه يملي علينا أن نتناوله بنظرة تدرجية ، وهي نظرة إذا عنينا بالتزامها، واجتهدنا في توضيحها بقدر كاف أعانتنا على أن يقترب فهمنا إياها من الفهم العلمي السليم لما يقع حولنا في هذا الشأن . فالنظرة العلمية تقضى

بأن نمثل للتخلف بامتداد متدرج ، فيكون المعنى هو أننا نشكو من توقف المجتمع (ممثلا فى مؤسساته) عند موضع معين على هذا الامتداد ، وبحيث نتصور أن هذا الموضع إنما يمثل نقطة وسطا لالتقاء أقدار التخلف الماثلة فى أحوال كل مؤسسة اجتماعية من حيث مدى تخلفها عن ملاحقة التغيرات المتجددة أبدا ، وبحيث نتصور أن هذا كله يمكن لنا أن نتناوله بالحديث العلمى الموضوعى الذى يتيح للعقول الزكية أن تنشط فى سبيل مزيد من الدرس العلمى الصادق مما يعين المجتمع على توجيه خطاه نحو مستقبل أقل تخلفا .

خاتمة وتلخيص :

بدأنا هذا المقال بالتنبيه إلى الفرق بين التخلف بمعناه الاقتصادى الضيق والتخلف بمعناه الاجتماعى الشامل ، وأوضحنا أن المعنى الأخير هو الذى نقصده . ثم قدمنا التعريف الذى نرتضيه لمفهوم التخلف الاجتماعي ومؤداه قصور العديد من مؤسسات المجتمع عن ملاحقة التغيرات التى تفرضها مستجدات الحياة الاجتماعية ، وذلك باستحداث التغيرات والتعديلات المناسبة فى بنية هذه المؤسسات وما يرتبط بها من وظائف وسلوكيات . وأوضحنا أن التصور العلمى المناسب لمفهوم التخلف يقتضى أن نمثل له بامتداد متدرج . وبالتالى فعندما نتحدث عن قيام حالة تخلف اجتماعى فى مجتمعنا يكون المقصود بذلك الإشارة إلى توقف المجتمع عند موضع معين على هذا الامتداد وبحيث نتصور أن هذا الموضوع إنما يمثل نقطة وسطا لالتقاء مؤشرات التخلف الماثلة فى أحوال مؤسسات المجتمع (كلها أو بعضها) عن ملاحقة التغيرات التى تقتضيها مستجدات الحياة .

أما بعد – فجدير بالذكر أن هذا المنظور لموضوع التخلف له عدة مزايا ؛ منها أنه يمكننا من النظر المفصل فى جزئيات هذا التخلف بدلا من الاقتصار على الأوصاف والأحكام العامة التى غالبا ما تكون غامضة أو مهوشة ؛ ثم إنه يمكننا كذلك من المقارنة بين أحوال مجتمعنا فى مراحل الحياة المختلفة . بحيث نقرر إنه كان فى مرحلة ما أكثر أو أقل تخلفا منه فى مرحلة أخرى ؛ وأخيراً فإنه يجعل باستطاعتنا أن نقارن بين مجتمعنا وسائر المجتمعات من حيث درجة التخلف عندنا ودرجته عند الغير مع إدخال الضبط اللازم على ما تعقده من مقارنات ، وبسبب هذه المزايا المختلفة يمكننا أن نصف المنظور الذى نقدمه بأنه يتحلى بالروح العلمية ، وهو ما نرجو أن يخفف من وطأة الحديث عن مظاهر تخلفنا الاجتماعى كما سنعرضه فى مقال تالٍ .

أقـوال معاصرة

● «الانسان ليس جزيرة معزولة عن المجتمع»

الأديبة الفلسطينية سحر خليفة

● «أنا عميلة علنية للحقيقة»

الأديبة اللبنانية غادة السمان

● «إذا كـان هنـاك تناسخ للأرواح ، فلا أريـد أن أعود امرأة !»

الممثل الأمريكي سلفستر ستالوني

● «لايوجد فشل أكثر مما هو قائم»

الأديب المصرى إبراهيم عبد المجيد

● «الجمال حق للناس ، وليس ترفا»

المهندس المعمارى المصرى

د . عبد الحليم إبراهيم

● إعادة النظر فى الحدود العربية مسألة واردة وممكنة فى ظل النظام العالمى الجديد»

المفكر اللبنانى جورج قرم

● «يلزمنـا ثورة فى الوعى الفكرى تسمى الأشيـاء بأسمائها»

المفكر البحرينى

الدكتور محمد جابر الانصارى

● «الاقتراب من مجتمع غير معروف ، يفقد الانسان الروح»

المخرج البوسنى أمير كوستاريكا



جورج قرم



د . محمد جابر الانصارى



سلفستر ستالونى

القفز على الأشواك

قراءة سياسية فى « البلدة الأخرى »

« إسماعيل » بطل « البلدة الأخرى » ليس شخصية سياسية . ومع ذلك فإن قارئ « البلدة الأخرى » لإبراهيم عبد المجيد لا يمكنه أن يخطئ البعد السياسى فيها ، أو بلغة النقد ، وحتى لا يُظن أن الرواية تنطوى على « مدلول » سياسى أو « دعوة » سياسية معينة - أن « المستوى » السياسى هو أحد المستويات التى تدخل فى تركيب معناها . دعنا نحاول أن نستوضح هذا المستوى ، لننظر من بعد فى علاقته ببنية الرواية .

يذهب إسماعيل إلى السعودية « بعقد عمل » فى خريف ١٩٧٨ ويرجع فى ربيع ١٩٧٩ ، أى أنه يكون هناك فى الفترة بين التوقيع على اتفاقية كامب دافيد فى ١٧ سبتمبر والتوقيع على معاهدة الصلح فى ٢٦ مارس ١٩٧٩ . الصحافة العربية كلها مشغولة بالهجوم على السادات . الدكتور وجيه زميل إسماعيل فى السكن يشترى صحفا كثيرة لا يقرؤها ، وإسماعيل يطالعها دون اهتمام ، وليس حولهما من يبدى اهتماماً بالسياسة ، فيما عدا منذر ، العامل الغنى الأردنى الذى يطمئن إلى إسماعيل ويصارحه بأنه فلسطينى وفدائى وقد جرح عدة مرات ، وأنه يحب المصريين - جده مصرى هرب إلى الشام لأنه رفض أن يشتغل فى حفر القناة - ولكنه يكره السادات . هناك أيضا الباكستانى أرشد ، المشرف على ورشة السيارات ، والذى يبغض ضياء الحق بغضاً عميقا ويشغله كثيراً مصير بوتو . ولكن اسماعيل يقول له : « أرشد ، أنت صديقى ، أظن ذلك . هذه المسائل الكبرى لا يجب أن تعطلنا . بوتو يقتل ضياء الحق ، ضياء الحق يقتل بوتو ، إلى الجحيم بالجميع » .

بقلم : د . شكرى محمد عياد

وفى صباح يوم ٢٦ مارس يسجل إسماعيل هذا التاريخ فى كراسة الخطابات ... لأنه مشغول بكتابة عدد قتلاه من الفئران التى تغزو مسكنه وقد أصبح وحيداً فيه بعد انتقال وجيه إلى المدينة . وفى المساء يشهد مراسم توقيع المعاهدة على التليفزيون « فتنسيه كل شئ » كما يقول ، ولكنها تنزلق أيضاً على صفحة الذاكرة كما ينزلق كل شئ .

مشروع كاتب روائى

وإسماعيل « مثقف » مثل كثير من أبطال الروايات المثقفين قارئ جيد ، ومستمع متذوق للأغانى وللموسيقى الكلاسيكية ، وقد كانت له فى يوم من الأيام طموحات أدبية ، كان – كما يسمى نفسه – مشروع كاتب روائى ، وفى يوم من الأيام بدأ يترجم رواية « دافيد كوبرفيلد » لديكنز . وهو الآن يتحدث مرة بعد مرة ، عن كتابة مذكراته (الكاتب الحقيقى ، إبراهيم عبد المجيد ، لا يقدم روايته على أنها « مذكرات » ، وإن كانت فى الواقع شبيهة برواية المذكرات ، لأنه فيما يبدو يشعر بأن هذه الحيلة القديمة لا تناسب القارئ الحديث) . هو إذن ليس مثل نبيل الذى يقرأ الصحف دون أن يهتم بالسياسة لأن أباه الذى كان حقا « له فى السياسة » قد عاد من فلسطين بذراع مقطوعة وساق مقطوعة . ولكن إسماعيل أيضا يقول : « لا أقف كثيرا عند السياسة . أتجاوزها وأبحث فى الاعلانات عن نساء . صور عارية لنساء . لا أجد ذلك حتى الآن رغم كثرة الإعلانات عن ساعات سويسرا واليابان وعطور فرنسا وأثاث إيطاليا وقصور بريطانيا وشركات طيران سنغافورة . النساء شئ لم أفكر فيه من قبل . لكن لابد أنى ما جئت إلا من أجل ذلك . لماذا أتيت هنا حقا ؟ لجمع المال ؟ لإخوتى ؟ للأكذوبة التى وضع أبى حبلها فى عنقى ؟ أنا لابد خائض بحر النساء يوما . ذلك البحر الذى لم أشأ أن ألقى فيه يوماً بحجر ، والذى بسبب ذلك الحرص اللعين على الأكذوبة ، والاستمرار اللعين لتعذيب النفس الذى لا أعرف من أين أصابنى ، ضيعت أكثر من قلب ، وضيعت قلبا كبيراً ، أى رجل تعيس أنا !! »

هو إذن ليس أكثر اهتماما بالسياسة من نبيل عامل البوفيه شبه الأمى ، ومع أنه التقى فى الخليط البشرى الذى أصبح يراه كل يوم بفدائى فلسطينى و « ناشط » باكستانى فإنه بقى منشغلا بحياته

القفــز على الأشــواك

الخاصة ومشاعره الخاصة . إذا كان بعض الناس قد جاءوا إلى هذه البلاد هربا من الملاحقة أو طلبا للمال فإنه جاء هارباً من نفسه وباحثاً عن نفسه .

ولكن المصادفة وحدها تلقى فى طريقه بشخصية أخرى ، شخصية تبدو مناقضة له فى كل شئ ، فيما عدا أن كليهما يحب القراءة ، أو كان يحبها فى وقت من الأوقات ، وكلاهما كادت حياته ترتبط برواية معينة : « ليس فى رصيف الأزهار من يجيب » لمالك حداد ، وكلاهما شعر حين قرأها لأول مرة أنه هو الذى يقفز تحت عجلات القطار . اسمـاعيل وجدها مع هذا الصاحب الغريب فقـرأها ثانية . و«سرقته كما سرقته أول مرة» ، واعترف لصاحبه بذلك الشعور العجيب الذى تملكه لدى قراءتها ، فاعترف له صاحبه بأنه يقرؤها كثيراً « ربما لا أقرؤها إلا من أجل ذلك » .

كان لقاؤهما غير المنتظر حين هبط إسماعيل فى مطار المدينة التى ذهب إليها فى مهمة تتعلق بعمله ، فرأى شخصاً جالساً فى تاكسى بجوار مقعد السائق ، يشير إليه أن يركب . كان الخارجون من المطار يتوجهون إلى السيارات ، فلم يجد فى الأمر ما يريب ، إلا أنه دهش حين سمع ذلك الشخص - الذى تبين أنه مصرى - يزعم للسائق أن إسماعيل أخوه، وأنه سبقه إلى السيارة تبين له حين هبطا من التاكسى أنها فكرة ابتكرها الرجل حتى يقتسما الأجرة مناصفة . ولاحظ من حديثه أثناء الطريق أنه - رغم بذاءة منظره - إنسان مثقف . فلم يجد مانعا من أن يزامله مدة اليوم الذى كان عليه أن يقضيه فى المدينة ، وأن يشاطره الغرفة الحقيرة التى نزل بها ، كما شاطره أجـرة التـاكسى .

حين تعارفا أخبره « كامل البلتاجى » بقصته : « أنا رجل وقف عند فكرة فوقفت الدنيا أمامى . كان ذلك منـذ زمن بعيد جـدا ، قبل ثورة يوليو ، حركة الجيش ، وكنت لم أنته بعد من دراسـة القـانون بالجامعة قامت الثورة وأنا فى السجن فأخرجونى كما أخرجوا كل الوطنيين ، ولكنهم عادوا وأخذونى عام ١٩٥٤ ، وكنت انتهيت من دراستى وتزوجت وقالوا إننى من الإخوان، وأخرجونى بسـرعة وعـادوا إلى ملفى عندهم . ملف الملكية الذى تسلمته الجمهورية الفتية . وعادوا وأخذونى عام ١٩٥٦ لأشهر قليلة وقالوا «شيوعى» ، وأخرجونى قبل العدوان بأيام، فذهبت أقاتل فى القنال ، وعدت بعد الحرب وسلمت سلاحى . أتعرف ؟ قليلون هم من سلموا سلاحهم . الكثيرون باعوه أو

هربوه وعادوا وأخذونى عام ١٩٥٧ ولم أخرج بعد ذلك إلا عام ١٩٦٤ . رأيت ابنى الذى صار عمره تسع سنوات ، وابنتى التى صار عمرها سبعا ، وأخذونى عام ١٩٦٦ وأخرجونى بعد النكسة بشهور وأخذونى عام ١٩٧٠ وانتهى دور جمال عبد الناصر معى وتسلمنى السادات الذى أفرج عنى وعن غيرى وتركنى فى الشوارع أربعة أعوام ثم أخذنى عام ١٩٧٥ فى أول أيام السنة وأخرجنى بعد ثلاثة أشهر ليأخذنى عام ١٩٧٧ ليخرجنى وأخرج أنا من مصر كلها . هل كنت أحتاج حقا إلى كل هذا الوقت لأكره الوطن ؟ » .

ولكن هذا الذى يزعم بطريقة ملتوية أنه أصبح يكره الوطن يعيش فى السعودية بدون عقد عمل ، مع أنه كان فى مقدوره أن يحصل على عقد عمل إذا أراد ، فهو متعدد الكفاءات ، أقل ماعنده أنه يتقن الكتابة على الآلة ، ولكنه يفضل أن يعمل ويعيش بطريقة غير منتظمة ، هاربا من الشرطة التى تقبض على أمثاله وترحلهم :

« مازوشى غبى يستمرئ العذاب . رفضت أن أتعاقد مع أحد لأظل معرضا للترحيل . مريض أنا ، متفوق فى مرضى يستحيل علاجى .. أم ترانى أود فعلا أن يعيدونى إلى بلدى أحد ، أن يجبرنى أحد على حب البلاد ؟ »

مرض حب الوطن

لعله « متفوق فى مرضه » حقا . ولكن كم فى مصر من المرضى بالمرض نفسه ، حب الوطن ، وإن كانوا لا يذكرون هذه الكلمة ، ولا يعرفون فى الحقيقة إن كانوا يحبون وطنهم أو يكرهونه ، فقد فعلت الحكومات المتعاقبة باسم الدفاع عن الوطن ! – كل ما تستطيع لتجعلهم يكرهون هذا الوطن ! شباب تخرجوا أو أخرجوا من جامعاتهم ، ليقضوا زهرة عمرهم فى السجون والمعتقلات ، وحين ردت إليهم حريتهم لم يجدوا فى أيديهم ما يحرصون عليه ، ولا فى مستقبلهم ما يرجون تحقيقه .

هذه الأعمار الضائعة – من المسئول عن ضياعها ؟ وهذه التضحيات الغالية – هل كانت نوعا من المرض كما يقول البلتاجى ، أو نوعا من البلاهة كما يمكن أن يقول رجل مثل نبيل ؟ هل كانت أخطاء الحكومات التى عصفت بحياة هؤلاء مختلفة فى جوهرها عن أخطائهم هم الذين باعوا حياتهم بلا ثمن ؟

يقول البلتاجى عن نفسه : « مازوشى غبى يستمرئ العذاب » . ويقول إسماعيل فى وصف حاله : « الاستمرار اللعين فى تعذيب النفس » أيكون بين مسلكى الرجلين شبه عميق ، رغم أن أحدهما لا يهتم بالسياسة والآخر أكلت السياسة عمره ، شبه ما وراء السياسة (ميتا سياسة بلغة بعض النقاد ؟) ألا يشعر كلاهما أن

القفز على الأشواك

مسلكه يكاد يكون انتحاريا ، ولذلك تخيل كلاهما أنه يلقى بنفسه تحت عجلات قطار لمجرد أنه قرأ المنظر فى رواية ؟ ولماذا يدمن البلتاجى قراءة هذه الرواية ليتملكه الشعور نفسه عند كل قراءة مع أن اسماعيل لم يشعر به إلا فى القــراءة الأولى ، ولكنه فى القراءة الثانية خفق قلبه فحسب ؟ هل هناك فرق فى درجة المرض ، أو فى مدى الاستعداد للإبلال منه ؟

يصف إسماعيل وضع الأبوة غير الحقيقية ، التى فرضها عليه أبوه حين مات وهو يوصيه برعاية إخوته الصغار ، بأنه « أكذوبة » فهو الذى جعله يئد حبه لزميلة الدراسة ، إنه شاب شريف ، لا يفهم للعلاقة بينهما هدفا سوى الزواج - لعله أصبح يعد هذه أكذوبة أيضا - وهو لا يمكنه أن يتزوج من أجل أكذوبة أضاع هذا القلب الكبير ، أضاعه ضياعاً قلما يحدث مثله فى أشد الروايات رومنتيكية - لقد جُنت ثم ماتت ، ومع ذلك ألم يحدث الشئ نفسه فى الواقع لمىّ زيادة ؟

لماذا يصف إسماعيل هذا المسلك بأنه أكذوبة ، مع أنه فى نظر معظم الناس ، تضحية تستحق الإعجاب ، هل يريد إسماعيل كبطل وجودى ، أن يعيد النظر فى قانونه الاخلاقى ، حتى تكون أخلاقه مستمدة من ضميره ، من ذاته ، لا مما يقوله الناس ؟ طبيعى أن الرواية لا تضع أمامنا أى واحد من هذه الأسئلة ، ولكنها - ببراعة تامة - تضطرنا إلى التفكير فيها .

ولقاء إسماعيل بالبلتاجى لم يكن عبثا ، فتلك « الميتا سياسية » تربط بينهما برباط عميق . الم يقل البلتاجى فى مستهل اعترافه : « أنا رجل وقف عند فكرة فوقفت الدنيا أمامى ؟ » أية فكرة تلك التى يمكن أن تجعل الدنيا كلها تعــادينا ؟ إنها « أية فكرة » ! أية فكرة كانت يمكن أن تستولى علينا ، أن تحيط عيوننا بحواجز كتلك التى كانوا يضعونها حول رءوس الخيل فلا نرى ما حولنا . وأن تمتلكنا فكرة ما - هذا أكثر من أكذوبة ، هذا هو الجنون بعينه ، هذا هو المرض المتوطن الكامن فى حياتنا العامة والخاصة ، هذه هى « الميتا سياسة » التى تجعل السياسة عندنا تقتل السياسة ، كما تجعل حياتنا الخاصة ، حياة كل فرد منا ، تبتلعها أكذوبة ما !

تجسيم مرعب

إن الانتحار الذى يتخيله إسماعيل كما يتخيله البلتاجى تجسيم مرعب لما يمكن أن تصنعه الأكذوبة . والنموذج الذى يبدعه مالك حداد فى « ليس فى رصيف الأزهار من يجيب » يعيش أكذوبته بعمق ، بل إنه يصنع من حياته كلها أكذوبة . هو كاتب

معروف ، وليس مجرد مشروع كاتب . وهو « مجاهد » أيضاً ، أو هكذا يظن نفسه ، وهو يعيش بعيدا عن وطنه ، قد أقنع نفسه بأنه حين يكون فى فرنسا ، يكتب وتنشر كتاباته ، فإنه يخدم وطنه الجزائر بأفضل مما يستطيع أن يفعل وهو معتقل أو مهدد بالاعتقال ، وأقنع نفسه بأن زوجته التى تركها مع أطفاله مازالت تحسن رعايتهم وتعاون المجاهدين فى الوقت نفسه ، وأقنع نفسه بأنه رجل فاضل ، شهم ، شريف ، لأنه لا يستجيب لغوايات زوجة صديقه الفرنسى .

ولكن الأكذوبة المركبة تفتضح فى لحظة حين يقرأ خبراً صغيراً فى صحيفة فرنسية يتصفحها بدون اهتمام وهو فى مقصورة القطار فى طريقه إلى مدينة ريفية ، حيث يأمل أن يعكف على الكتابة فى جو هادئ :

إن زوجته الوفية المجاهدة قتلها المجاهدون وهى فى صحبة عشيقها الضابط الفرنسى .

إسماعيل والبلتاجى ، تلتهم الأكاذيب حياتهما الضائعة الفاترة كما التهمت حياة خالد بن طوبال لأنهما كليهما فضلا العيش فى خيال البطولة على معاناة الحياة التى لا بطولة فيها . إن إبراهيم عبد المجيد يفرض علينا أن نقيم هذا الرباط بإشارته المتكررة إلى رواية مالك حداد . ولكننا إذا نرى الشبه لا يفوتنا الاختلاف أيضا : الاختلاف بين المأساة الرهيبة والسقوط المروع هناك ، ودراما الحياة اليومية المحبطة الكئيبة ، تأكل وجود الإنسان وهو لا يشعر ، كالأرض فى الثوب القديم .

حياة المصريين !

يحاول إسماعيل أن يعالج مرضه الخاص ، أكذوبته بالطريقة المناسبة ، إنه ، كأى مراهق متـأخر النمـو ، يبحث عن المرأة ! ولا تبحث عن المرأة إلا فى السعودية يا إسماعيل ؟ ! ولكن العجيب أنه يجدها ، ويجدها فى ثلاثة نماذج لا يمكن أن تجتمع إلا فى السعودية !

الأولى : واضحة بنت سبيل ، تلميذته الصغيرة ، لا تزال فى المدرسة الإعدادية ، أى أنها تناهز السادسة عشرة . كلما اقترب منها تخيل القصاص والرجم . ولكنها لا ترحمه . فهى أيضا تقترب وتريده أن يقترب ، تريده بإرادة أنثى مكبوتة المشاعر مشتعلة الخيال ، لا بإرادة فتاة صغيرة ، وبعد أن يعانقها ويقبلها آخر الأمر لا يشعر بشئ من الندم أو الخوف ، بل يحدث نفسه : « جسدى حى وليس شيئا أعيش فيه . حى . حى . حى وفتحت نافذة السيارة رغم شدة البرد وهفت نفسى إلى حدائق من الورد لقد استيقظت كل حواسى تريد الإشباع . ليس من العدل فى هذه الدنيا إغلاق الحواس » .

إنه إذن يبحث عن أخلاقية جديدة . أخلاقية إنسانية غير جامدة ، فيها أيضا شئ من الشعر . ولكن لا تخف أيها الأخلاقى المترفت ، فالنفس الانسانية ليست شريرة كما تبدو لك . والمرأة النموذج الثانية التى يلتقى بها إسماعيل تصدم نقاءه بقدر ما تستثير غرائزه .

نموذج أمريكى مغامر ، برجماتى يمكنه أن يسخر المتعة لتحقيق المكسب . ويحتفظ بمظهـــره المغــرى رغم قذارة الداخـــل ، لا تتورع روز مارى عن شئ حتى تشرك اسماعيل معها هى وزوجها - ولو بالسكوت - فى جريمة اختلاس . وحين تأخذه إلى غرفة نومها يبتسم :

« هذه روز التى بهرتنى أول مرة . وهى نفسها التى شاركتنى النوم فى الأحلام ، وهزأت منى فى الكوابيس . راقت لى مرة اشتقت إليها مرة . اعترف لكنى الآن أراها مثل قطعة لحم فاسدة »

ومع ذلك فالأخلاق ليست مواعظ ، وإن النفس لأمارة بالسوء ، وقد يلتهم المنهوم قطعة لحم فاســـدة ، أو يشتهيهـــا على الأقل . هذا إسماعيل حين يوبخه مدير الشركة توبيخا شديداً ، متهما إياه بأنه نام مع روز ، يخرج من عنده غير مستاء :

« ضايقنى فقط أنى لم أنم حقا مع روز » .

النموذج الثالث هى المرضة المصرية عايدة . صورة أنثوية من إسماعيل . ولنفس الأنثى كيمياء بسيطة لا تشبه كيمياء الرجل . فعايدة عطاء خالص بلا تردد ولا إشفاق على الذات . لقد آلت على نفسها أن تبقى فى السعودية ، وألا تفكر فى حياتها الخاصة ، ولا فى الزواج بطبيعة الحال ، إلى أن يشفى شقيقها هاشم ، الذى كان هو الآخر مبتلى بالسياسة مثل البلتاجى ، وأصيب بالشلل فى حادث يوم استقبال نكسون . يريدها إسماعيل زوجة هو فارسها المنقذ ، هكذا يتخيل نفسه . ولكنها لا تريد إنقاذاً ، رغم أنها تتألم وتبكى أحيانا ، ويبدو أنها تحب إسماعيل أيضا ، أو تمنع نفسها من أن تحبه . وليس لها مخرج إلا أن تنتقل من بلد إلى بلد فى السعودية حتى يعجز عن الحصول على عنوانها .

حين يسافر إسماعيل من السعودية فى إجازة طارئة بسبب موت أمه ، وقد أضمر فى نفسه أنه لن يعود ، يقول أيضا إنه لن يبقى فى مصر .

هل تغير دون أن يخالجه الأمل فى أن مصر يمكن أن تتغير أيضا ؟ إسماعيل البلتاجى ، عايدة - أليس هؤلاء هم مصر ؟

أُصَدِّقُ

شعـــر :

د . أنس داود



أُصدِّق سيدتى
فاستريحى على ساعدىَّ ..
ظمئت .. ارتويتُ ..
فأنت الجراحُ ، وأنت الشِّفاءْ
أصدق أنك مخلصة
للرفيق الذى يصطفيك ،
لضوء الشموس ،
وضوء النجوم
وعطر الزهور ،
ولونِ الشجر ،
أصدُق أنك مخلصة
لظلال الخميل ،
ولطف النسيم ،
وصحو السماء ،
ورَذَخٍ المطر .
أصدُق أن الصداقة خالصةٌ
بين هذا الجسد وبين الطيور
وبين النمور وبين البشر
وأنك تعطين دفء الشتاء
وعذبَ الرُّطوبة فى الصيْف
– عند احتدام الهجير –
ونضرة زهر الربيع
وغربة لونِ الخريف
وسحر الصور
وأن الوداعة ساكنة فى عيونك
عند الإقامة فى البيت
عبر الطريق وحين السفر
أصدق أنك .. عاشقة للمساء ،
ورائعة فى السحَر
وأنك – ياطفلتى – وبكل نقاءْ
تعيشين أجمل حُب ،
ومخلصة للهواءْ ،

النظام الإقليمي العربي إلى أين ؟

هـــل العـــرب ظاهـــرة صـوتيـــة ؟

بقلم : د. ناصيف حتى

يمكن تعريف النظام الاقليمى بشكل عام ، أنه يقوم فى منطقة تتسم بالتواصل الجغرافى وبوجود درجة عالية نسبيا من التماثل فى البنى الاجتماعية والثقافية والسياسية ، بين الدول المكونة لهذا النظام وكذلك شبكة من التفاعلات المتنوعة والكثيفة تربط بين هذه الدول ، ويؤدى متغيرا التماثل والتفاعلات وبالأخص هذا الأخير إلى تمييز النظام عن محيطه المباشر ، أو رسم حدوده الجغرافية السياسية . والملاحظ بالطبع أن كلا من التواصل الجغرافى بالرغم من ثورة المواصلات والاتصالات، وكذلك درجة التماثل فى البنى المجتمعية يساعدان فى زيادة التفاعلات على تنوعها وعلى بلورة هوية النظام المميزة .

● خبير فى الشئون الدولية

وفى هذا الإطار يتميز النظام الإقليمى العربى عن غيره من النظم الإقليمية فى العالم ، مثل النظام الأوربى الغربى ، والنظام الأمريكى اللاتينى ، والنظام الافريقى بجملة من الامور اهمها أنه نظام يتكون من نظامين فى الواقع ، واحد دولتى (State) ، وآخر مجتمعى (Societal) وهذا الأخير يعكس وجود هوية سوسيولوجية للنظام هى العربية تشكل الوعاء القيمى والتراثى والثقافى الذى تجرى فى إطاره التفاعلات: ورب قائل ان هناك انتماء أوربيا أو افريقيا ولكن يبقى هذا الانتماء بالمعنى الحضارى الواسع ولا يقارن بما هى عليه عملية الانتماء الى هوية أصيلة (PRIMORDIAL) مثل العربية لها مكوناتها اللغوية ولها رموزها ولها مرجعياتها الثقافية والفكرية والتاريخية وحتى الفولكلورية بالرغم من وجود تضاريس فى التنوع على الخريطة ، تغنى ولاتلغى هذه الهوية . من الخصائص أيضا التى تنسحب من ذلك وجود قنوات تفاعلية فى النوع الذى هو عبر الدولة ، وهى قنوات على المستوى الدولى من النوع الذى يستعمل كأدوات لبسط النفوذ ، أو لممارسة التأثير فى مجتمعات دول عربية من قبل دول عربية أخرى ، حين تستطيع هذه الأخيرة ان تقدم ذاتها كتجسيد سياسى وحركى للهوية العربية وخاصة فى مرحلة تصاعد القومية العربية التى هى التغيير الأيديولوچى ، عن تلك الهوية .

والتاريخ العربى الحديث والمعاصر غنى جدا بالعبر والأمثلة على تلك التفاعلات عبر الدولة ، وقدرتها على تحدى القواعد التقليدية فى إدارة العلاقات بين الدول .

ومن خصائص النظام العربى أيضاً أنه يحتوى على إشكالية تقوم على ثنائية



منطق الأمة ومنطق الدولة ، ويعبر الأول عن شرعيات عربية منبثقة أو مستندة إلى تلك الهوية . ومن الخصوصيات أيضاً أن النظام العربى مقارنة مع النظم الإقليمية الأخرى ليس نظاما مصطنعا أو مركبا من تحالف استراتيچى سياسى على المستوى الدولتى ، فهو إذن لم يسقط على منطقة جغرافية ، انما انبثق فى منطقة واضحة المعالم . فهنالك تظهر اقليمية أنشأتها منظمات أنشئت هى أساسا من منطلق تحالف سياسى معين، وجاءت هذه المنظمات لتعطى هوية وظيفية لهذا النظام وذاك إن كانت من النوع التعاونى الاقتصادى أو السياسى والعسكرى اما النظام العربى فلقد شهد حدوث عكس ذلك اذ انبثقت جامعته من النظام ـ الوعاء الذى كان فى مرحلة تبلوره التى جاءت لتشكل تسوية بين منطق الأمة الذى كان متصاعدا ومنطق الدولة الذى كان قائما وبالطبع لمصلحة منطق الدولة .

وتنبثق عن ذلك المفارقة المثيرة التالية : فبقدر ما ان النظام العربى قائم على هوية أصيلة وحدوده واضحة فى الداخل ، داخل النظام تجاه محيطه المباشر اكثر من أى نظام آخر بقدر ما كان التعامل معه دوليا يتخطى هذا الواقع السوسيولوچى لمصلحة مفهوم چيوسياسى، يعكس المصالح الاستراتيچية بالطبع للقوى الكبرى فى فترات مختلفة فى القرن العشرين . ونسارع الى القول إن هذا التعامل لم يشمل النظام العربى ككل ، إنما أجزاء كبيرة منه أو تلك الداخلة فى اهتمام معين لهذه القوى ففرنسا مثلا كانت تنظر إلى الجزء المتوسطى الأسيوى فى النظام العربى باعتباره المشرف (LEVANT)

وبريطانيا كان عندها بعض النظام العربى جزءا من الشرق الأدنى ثم مع الولايات المتحدة وتجديدا مع اكتشاف الكاتب الجيوسياسى الفرد ماهان للشرق الاوسط صار هو التعبير التى رست عليه لاحقا التسمية عند القوى الرئيسية . وعندما كان يراد ضم دول المغرب العربى لأسباب دراسية مع دول المشرق العربى كان يشار الى ذلك دائما بالشرق الاوسط وشمال افريقيا للدلالة على كم هو مصطنع هذا المفهوم فان مراجعة لكتابات الباحثين الدارسين فى شئون الشرق الاوسط تشير الى ان كل واحد منهم كان له «شرف اوسطه» الخاص يضم او يحذف منه مغيبا، يشاء من دول ولا يستطيع احد بالطبع ان يعترض مادام المعيار السوسيولوچى مغيب أى الهوية العربية وكذلك المعيار التنظيمى أو المؤسسى غير قائم .

أزمة الخليج

بعد ذلك كله نجد أن النظام العربى يقف حاليا على مفترق طرق لعدد من الاسباب تندرج تحت عنوانين رئيسيين : هما أولا المفاهيم والاتجاهات التى نشأت بعد الحرب الباردة والتى لها تداعياتها على كافة النظم الإقليمية بالطبع .

ثانيا أزمة الخليج الثانية التى كان مركزها النظام العربى والتى كانت أول زلزال عالمى من حيث قواعد ادارته بعد انتهاء الحرب الباردة ففى حين ساهمت أزمة الخليج الاولى أو الحرب العراقية الايرانية فى إنعاش نوع من العروبة المحافظة التعاونية وساهمت فى توثيق اللحمة بين وحدات النظام العربى ، جاءت أزمة الخليج الثانية لتقضى على تلك اللحمة المتجددة ومن الملاحظ أن النظام العربى وصل عشية الغزو العراقى للكويت الى أعلى درجات الاندماج من حيث حجم وكثافة التفاعلات السياسية بين وحداته ، فمنذ الثورة النفطية فى السبعينيات دخلت دول الخليج بقوة الى هذه التفاعلات ، وزادت هذه مع الحرب العراقية الايرانية وكذلك منذ أوائل الثمانينيات دخل المغرب العربى بقوة أيضا فى تفاعلات النظام العربى وساهم بذلك عدد كبير من العوامل الذاتية والإقليمية ليس هنا مجال مناقشتها، كما ان مصر عادت الى الجامعة العربية ايضا عشية ازمة الخليج . إلا ان كثافة التفاعلات هذه لم تكن تخفى وجود ازمة يعيشها النظام من ابرز مسبباتها غياب غير قصير لقيادة جماعية للنظام ومع هذا غياب لمشروع سياسى بالمعنى الشامل يعطى توجها لهذا النظام الى جانب وجود عقيدة النظام العربية فى موقع دفاعى امام تيار السلام الاحتجاجى الذى ، ولسنا هنا فى موضع توزيع المسئولية ، وجد ذاته فى صدام مع العروبة متأثرا اساسا ببعض روافد مرجعيته الفكرية المنبثقة عن تجارب الاسلام الاسيوى فى الهند بالخصوص وفى الوقت ذاته كان لهذا الاسلام الاحتجاجى مرجعيته أو على الأقل النموذج الذى يقيس بمقياسه يقع خارج النظام العربى وفى ايران بالتحديد كما كان له أيضا مرجعيته النضالية التى يعبىء حولها أيضا خارج النظام العربى وفى افغانستان بالتحديد ، إذن على صعيد المستوى المجتمعى للنظام العربى كان هنالك غياب لمشروع فى إطار هذا النظام وانجذاب للأسباب التى ذكرناها بسرعة لخارج هذا النظام .

وترافق عودة الحديث وبقوة عن

«الشرق الاوسط» أو مشروع شرق أوسطى بالتحـــديد مع تراجع العقيدة العربية كما (أشرنا) ولجملة من الاسباب تساهم بقوة فى هذا التوجه الشرق الاوسطى وتشير فى هذا الخصوص الى أن جولة سريعة على العالم الأكاديمى فى الغرب تدل على وجود عدد هائل من البرامج والمؤسسات فى الجامعات أو خارجها الجديدة ، والمتجددة التى تعنى بالشرق الاوسط وبالأخص بالبحث فى سبيل تحقيق تعاون شرق اوسطى وقد نشط هذا التوجه بالخصوص مع عملية السلام العربية الإسرائيلية إذ تأتى المفاوضات المتعددة الأطراف فى هذه العملية تحت عنوان تحقيق تعاون اقليمى شرق أوسطى واسع .

مفهوم جديد للشرق الأوسط

ونعود الى هذه الأسباب التى يمكن ادراجها كمايلى :

إن العالم يعيش ثورة اعادة هيكله على كافة الأصعدة وبالخصوص الاقليمى فى هذا المجال وان النظام العربى لن يبقى بمعزل عن ذلك نظرا لموقعه الجيو اقتصادى (الجغرافى الاقتصادى) مع تصاعد الجغرافيا الاقتصادية على حساب الجغرافيا السياسية فاوربا ودول التركة السوفييتية ومعها الشرق الأوسط الذى بينما كلها مناطق تعيش عملية اعادة تنظيم وفى هذا الصدد يطرح برنارد لويس مفهوما جديدا للشرق الأوسط يضم الجمهوريات الاسلامية الجديدة فى آسيا الوسطى بعد سقوط العازل السوفييتى فى حين تركز الأفكار الاوربية على انشاء نظام شرق اوسطـى متوسـطى التوجه والثقل من حين التفاعلات مع اوربا وتندرج فى هذا الإطار افكار اقامة مؤتمر الأمن والتعاون فى المتوسط كهيكل جديد للتفاعل عبر المتوسط .

مما يسهل هذا المغترب الشرق الاوسطى الجديد أنه مقارنة مع محاولات اقامة شرق اوسط فى الماضى التى كانت تتأسس على خدمة استراتيجية المواجهة الأمريكية السوفييتية وبالاخص فى الخمسينيات ثم اواخر السبعينيات فإن المحاولة الجديدة تهدف الى اعطائه مشروعية منبثقة من داخل المنطقة تقوم على بلورة هوية تعاونية اقتصادية وامنية والجديد ايضا ان الأطراف الاقليمية الرئيسية بعضها يرحب بهذا الاتجاه وبعض الآخر لا يعارضه من حيث المبدأ .

الإقليمية وبروزها فى الحاضر

ويدعم هذا الاتجاه ايضا بروز الاقليمية الجديدة عند عدد من القوى فى

العالم . فتركيا مثلا اخذت تستدير شرقا للاندماج فى نظام شرق أوسطى وآسيوى تحاول ان تقدم ذاتها مدعومة من الولايات المتحدة كنموذج للدولة الاسلامية التحديثية من يتابع الخطاب السياسى التركى فى السنتين الأخيرتين يلمس انتعاش نوع من العثمانية الجديدة التى يمكن توصيفها بالعثمانية العلمانية من حيث ابتعادها عن مرجعية الشرعية الدينية التى كانت للامبراطورية الاولى وتركيزها على الحافز الاقتصادى الذى تقدمه تركيا .

وفى اطار الاقليمية ذاته تبحث اسرائيل كما تفعل تركيا بعد تراجع اهميتها فى الاستراتيجية الغربية غداة انتهاء الحرب الباردة عن دور اقليمى وتستعد اسرائيل فى حالة نجاح المفاوضات المتعددة الاطراف الى الدخول فى النسيج الشرق اوسطى الجديد ، كما تنشط ايران من جهة اخرى من خلال تقديم نموذج آخر مختلف بالطبع عن النموذج التركى لتشكيل مرجعية قيادته فى شرق اوسط جديد . أمام ذلك كله تبرز ثلاثة اتجاهات عربية فى التعامل مع هذا الوضع الجديد، الاتجاه الاول يمكن توصيفه باستباق الامور والانطلاق من مسلمة ان الشرق الاوسط قائم وان النظام العربى جزء من الماضى وان القضية مسألة وقت حتى يتم التحول من نظام عربى الى هذا النظام الاوسع .

والاتجاه الثانى وهو النقيض للأول يقفز فوق الحقائق الجديدة التى افرزها نظام ما بعد الحرب الباردة وكذلك أزمة الخليج الثانية ويتعامل مع هذه المعطيات وكأنها احداث عابرة بحيث يبقى النظام العربى خارج اى امكانية لدمجه فى نظام اوسع ايا كانت مستويات أو نوعيات هذا الدمج .

وبين الاتجاه المنقضى واتجاه السلفية القومية يبرز الاتجاه الثالث الذى يحاول احداث تكييف بين نظام عربى متجدد وهو مايتطلب تحقيقه جملة من العوامل واطارا شرق أوسطيا اوسع فيما لو قام أو عندما يقوم هذا الأخير

النظام العربي الحديث

ومع هذه الاتجاهات يقف النظام العربى امام ثلاثة مشاهد رئيسية أولها التواصل الذى يعنى مزيدا من الانهيار فى الامكانات والقدرات وغياب أى بلورة لسياسة حد أدنى لهذا النظام كأن يصبح طرفا متلقيا فقط وليس طرفا فاعلا فى النظام العالمى الذى يتكون . والمشهد الثانى انتهاء النظام فى شكله الحالى

وتفككه على المستوى الدولتى الى انظمة فرعية مندمجة فى أنظمة أشمل تحوى دولا فى المحيط العربى مع اقامة نظام شرق أوسطى كإطار عام وشامل لهذه الأنظمة الفرعية ، والمشهد الثالث اعادة احياء للنظام العربى عبر بلورة قيادة لهذا النظام تتأسس على بعض الأطراف الرئيسية الفاعلة فيه وتشكل هذه القيادة قوة دفع للنظام وتشكل فى نفس الوقت مشروعا سياسيا لهذا النظام أو نسقا من القواعد والافكار العامة التى تحدد أولويات لهذا النظام على الصعيد التعاونى الداخلى أو على الصعيد التعاونى الدولى بحيث يستطيع هذا النظام فى حالة قيام نظام شرق أوسطى المشروط بنجاح عملية السلام الشامل ، يستطيع ان يكون قطبا فاعلا فى النظام الجديد وان يقيم علاقات من التفاعلات المتوازنة مع هذا النظام الجديد فالحفاظ على النظام العربى من منظور واقعى لا يعنى التمسك بأسوار وهمية تجاه محيطه بل تقوم على محاولة توضيح معالم حدوده حتى لا تنهار هذه امام أى ضغوطات قادمة من الخارج. وفى جهة أخرى فإن أصحاب التفاؤل غير المشروط بالنظام الشرق أوسطى يتناسون أن هذا النظام حتى فى حالة نجاحه سيقدم هوية منفعية اقتصادية ، وليست أصلية يمكن أن تشكل بديلا عن العربية وبالتالى لا يمكن ان يلغى المستوى المجتمعى فى النظام العربى مهما ضعف أو هرم هذا النظام علما بأن النظام الشرق أوسطى اذا قام فسيضم هويات ناشطة منبثقة عن الدول غير العربية فى هذا النظام ونعود مرة أخرى الى تحديات احياء النظام العربى حتى لا يبقى مستقبل هذا النظام يتراوح بين أحلام الماضى عند بعض المفكرين وأوهام المستقبل عند الذين أسقطوه بسرعة . وقد أشرنا الى غياب القيادة وغياب المشروع السياسى العام كما نشير ايضا الى اهمية تفعيل التعبير التنظيمى لهذا النظام اى جامعة الدول العربية بواسطة تطوير ميثاقها ودعمها واعادة النظر فى عدد من المسلمات التى طبعت النظام العربى فى الماضى منها اشكالية العلاقة بين منطق الدولة ومنطق الامة واشكالية العلاقة بين مفهوم الوحدة والتميز والسؤال المطروح بإلحاح هل نكون على مستوى هذه التحديات لنصبح قطبا عربيا فى أى نظام جغرافى اقليمى تعاونى اوسع ندخل فيه أو ندفع الى الدخول من نظام فى هذا النوع كاطراف منفردة وضعيفة تبقى طرفا متلقيا فى عالم القوى الصاعدة والتكتلات الكبرى .

لغويات

يجئ شهر رمضان فى أواخر فبراير الحالى .. ورمضان موسم الحلاوة فى الطعام والشراب عند بعض الناس .. و « الحلاوة » مصدر للفعل « حلا .. يحلو » .. أما القطعة من الشئ الحلو فهى حلواء ، ويقال لها : « حَلْوى » بالألف المقصورة التى تكتب ياء ، أما « الحُلْوى » – بضم الحاء – فضد « المُرَّى » بضم الميم أيضا ، وقل إذا شئت : حُلوة ، ومُرة .. بضم أول الكلمتين .. وما أكثر السكك فى كلمات العرب ، وكلها يؤدى إلى كلها أحيانا ..

وفى رمضان يخرجـون ليـلا للفُرجة فى الأحيـاء الشعبيـة ، ويقول الناس : « رأينا أو حضرنا فُرجة فى مكان كذا » .. وكلمة « فرجة » يجوز فى حرفها الأول – الفاء – الضم والفتح والكسر .. وأصل معناها : الخلوص من الشدة والهم ، ثم اتسعوا فى استعمالها حين اتسعوا فى التفرج ..

من قراء ليالى رمضان فى القرن التاسع عشر شيخ اسمه حسن اللَّواتى ، وقيل تفكُّهاً إنَّ اسمه صغيراً كان : « التى » فلما كبر قيل له : « اللتان » ثم « اللواتى » أى أن الاسم الموصول المؤنث : « التى » .. تطور مع الزمن فانقلب من مفرد إلى مثنى إلى جمع ! ..

والحقيقة أنه كان ينتمى إلى قبيلة « لواتة » المغربية البربرية انتماءً قديما أورثه لقب « اللواتى » نسبة إلى تلك القبيلة .. ومن أقاربه فى أوائل القرن العشرين شيخ وجيه ذكره الشاعر البدوى محمد عبد المطلب – رحمه الله – فى مرثية مطلعها :

أَعَيْنَىِ أينَ أدْمُعك اللَّواتى
جَرَيْنَ دماً غداةَ قَضَى اللَّواتِى ؟

واللواتى فى الشطرة الأولى جمع الاسم الموصول ، وفى الشطرة الثانية لقب الشيخ الذى يرثيه الشاعر البدوى منسوباً إلى قبيلة لَوَاتَه البربرية ، وفى الكلمتين جِناسٌ كاملٌ هو الذى أراده الشاعر واحتشد له ! ..

هموم العرب والترك

بقلم: عبدالرحمن شاكر

وقــد يجمــع اللــه الشـتيتين بعـد مـا
يظنــان كـــل الظـــن أن لا تــلاقيــا

قد يكون هذا البيت من الشعر قد قالته العرب فى وصف العشاق، ولكننا هنا بصدد أمتين، من الصعب وصف ما بينهما بأنه العشق، أو شئ شبيه به، ولكنه ترابط عجيب غريب، صنعته أحداث التاريخ دونما إرادة منهما ـ تكاد تكون ـ فى ذلك. هاتان الأمتان هما أمة العرب وأمة الترك، أيا ما كان مدلول كلمة أمة عند من يسمعها أو يقرؤها، وسواء أحال المعنى إلى تعريفات وضعها المعاصرون من علماء ومؤرخين وساسة.. إلخ، أو اكتفى بما يدل عليه اللفظ فى أصله اللغوى، من أنها جماعة من الناس لديها مايوحد بينها ويميزها عن سواها.

ودونما حاجة إلى الخوض فى تفاصيل التاريخ ولججه المتلاطمة، يمكن القول بأن هاتين الأمتين قد ارتبط وجود كل منهما على النحو المشهود بتاريخ الاسلام، على نحو جعل منهما أهم أمتين فى هذا التاريخ، حتى ولو لم تكن إحداهما فى مرحلة ما من مراحل هذا التاريخ، أكبر أمة فى الاسلام من حيث العدد، فقد يكون مسلمو شبه القارة الهندية، الموزعون على ثلاث دول تضمها هذه القارة أو شبه القارة، هم الأكثر عددا، وبالتالى الأكبر من هذه الزاوية، ولكن ـ على عظم شأن مسلمى الهند بالمدلول القديم التاريخى لها قبل انقسامها ـ فإن دور العرب ثم الترك فى تاريخ الاسلام كان أخطر، وعلى الأقل أوضح وأبرز.



لقاء مبارك ورئيس تركيا أثناء زيارته للقاهرة مؤخرا

● الإسلام والعروبة

فالعرب هم حملة هذا الدين، هم الذين خرجوا به من جزيرتهم وحملوه إلى أصقاع الأرض، بلسانهم الذى نزل به الكتاب على قلب رجل منهم. وقبل الترك كان الدخول فى الاسلام يعنى الدخول فى العروبة، على نحو لا يدفع ولا يرد ولا يجادل فيه، فالعروبة كما أثر عن نبى الإسلام، ليست بأب لأحدكم ولا أم، وإنما هى لسان، اللسان الذى لابد من تعلمه لكى يقيم المسلم من أى جنس أو مكان فى الأرض صلاته وآذانه ويتلو الكتاب المنزل على نبيه ويتفقه فى دينه. وحيث ما كان مجتمع إسلامي كانت العربية تنزلق من على ألسنة أبنائه من تعبدهم إلى علومهم ومعاملاتهم وسائر شئون معيشتهم، وخاصة حين كانت الغلبة السياسية للعرب على المجتمعات التى فتحوها ودخلت فى الإسلام. حتى بدأت دول الترك تقوم فى المنطقة الإسلامية العربية مع تداعى

الخلافة العباسية من أول السلاجقة إلى قيام الدولة العثمانية، مرورا بالغزو التترى لبغداد، والتتر والترك جنس واحد أو بطون وقبائل من هذا الجنس. أما الدولة العثمانية فقد شمل ملكها كافة الأقطار العربية تقريبا بما فى ذلك معظم جزيرة العرب، بما فيها أرض الحجاز موطن الرسالة المحمدية ومهبط الوحى، والتى تضم الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة. وبهذه الغلبة السياسية على أرض العرب ذاتها كفت العربية عن أن تكون اللسان الغالب على المجتمع الاسلامى إلا فى التعبد والتفقه فى علوم الدين. أما السياسة وشئون الحكم فظلت تدار باللغة التركية، وفشلت محاولة من جانب سليمان القانونى أحد أبرز سلاطين بنى عثمان فى فرض اللغة العربية على الدواوين العثمانية، أى اعتبارها اللغة الرسمية، لأن الطبقة الحاكمة والعسكرية كانت كلها أو معظمها ممن يتكلمون التركية.

واستكمالا لحديث اللغة هذا فإنه باستثناء منطقة السند التى فتحها العرب فى شبه القارة الهندية، فإن الحكم الاسلامى الذى قام فيها قبل الغزو البريطانى كان على أيدى سلالة من المغول الذى دخلوا فى الاسلام وهم من أقارب تيمورلنك صاحب دولة سمرقند التترية، فلم يتح لعامة مسلمى الهند أن يتعربوا، الا بمقدار الجهود الذاتية لعلمائهم دون مشاركة من السلطة السياسية فى ذلك.

● محاولة فاشلة

وبالرغم من هذا الوضع المتناقض الذى قام فى المنطقة الاسلامية بما فيها بلاد العرب، فقد قبل العرب وسائر المسلمين بالخلافة العثمانية ذات اللسان التركى وساندوها وآزروها فى مواجهة أوربا، وخاصة بعد فتح القسطنطينية، واستقر الصراع بينها وبين جارتيها القويتين، الامبراطورية الروسية فى الشمال، وامبراطورية النمسا والمجر فى الغرب منها، أى فى البلقان.

ومع التآكل التاريخى فى كيان الدولة العثمانية، وبدء أفول سطوتها العسكرية، إزاء النهضة الأوربية العارمة، بدأ إدخال النظم الأوربية فى جيوشها ثم فى سائر إداراتها، حتى كانت هزيمتها فى الحرب

العالمية الأولى، وبعد أن تجح الأوروبيون فى طردها من كثير من ممتلكاتها، بما فى ذلك الولايات العربية الاسلامية منها، فكانت الحركة الكمالية التى ألغت الخلافة، وأعلنت الجمهورية "العلمانية"، وفرضت الزى الأوربى على أبنائها، وطرحت استخدام الحروف العربية التى كانت تكتب بها التركية واتخذت بدلا منها الحروف اللاتينية. وذلك فى أعقاب محاولة فاشلة، مع انتشار فكرة "القومية" فى فرض اللسان التركى على أجزاء من الوطن العربى فى منطقة الشام، وهى التى عرفت باسم سياسة "التتريك" على غرار ما اتبعه القياصرة الروس فى فرض سياسة "الترويس" على الأجناس غير الروسية من اتباع امبراطوريتهم الشاسعة، بما فيها المناطق الاسلامية فى آسيا الوسطى، وكان الاسلام قد دخلها مع الفتح العربى لأجزاء منها وخاصة بلاد "ما وراء النهر"، وانتشر فيها بعد تحول التتر والترك إلى الإسلام، وقيام أكثر من دولة إسلامية حتى فى روسيا ذاتها مثل دولة "قازان" التترية الإسلامية على ضفاف الفولجا، ودولة تيمورلنك فى سمرقند، التى خاضت بدورها حروبا مع جاراتها بما فيها الدولة العثمانية، حيث أسر تيمورلنك السلطان العثمانى بايزيد وطاف به فعلا فى قفص أرجاء عاصمته! ولقد قال لى أحد أسلاف هؤلاء من علماء التتر المسلمين فى طشقند عاصمة أوزباكستان ـ والحسرة تتدفق على لسانه: إنه لولا الصراع الذى نشب بين تلك الدول الاسلامية الثلاث فى تلك المنطقة، ولو توحدت كلمتهم لأخضعوا العالم القديم كله، بما فيه أوربا وأدخلوه فى الاسلام!

ومع سقوط الخلافة العثمانية وانكفاء تركيا الحديثة على ذاتها فى عزلة عن العالم العربى والاسلامى، فقدت فكرة الجامعة الاسلامية بريقها، بما فى ذلك المحاولات اليائسة لاقامة خلافة عربية بدلا من تلك العثمانية المتهالكة، وأصبح التحرر على أساس اقليمى قومى هو الهم الغالب على معظم المجتمعات العربية التى كانت تعانى من النير الاستعمارى، وباستثناء بعض النظم التقليدية التى تقوم على أساس قبلى، فقد حالت معظم البلدان العربية إلى قيام أنظمة فيها، علمانية أو

شبه علمانية، سواء فى صورة جمهوريات، أو ملكيات دستورية، بغض النظر عن مدى استقرار فكرة الديمقراطية فيها، أو تطبيقها بشكل جدي. وذات الشئ ينطبق على الجمهورية التركية ذاتها التى شرعت فى المنطقة هذا الطريق!

• الهموم المعاصرة

مرة أخرى يعود العرب والترك ليكتشفوا أنهم بحاجة إلى الالتقاء، فى ظروف دولية جديدة، وبعد أن مرت مياه كثيرة تحت الجسر كما يقال.

من أهم تلك الظروف سقوط ما كان يعرف باسم المعسكر الاشتراكى بقيادة ما كان يسمى بالاتحاد السوفييتى، الذى انحل هو بدوره إلى جمهوريات مستقلة تقوم بينها رابطة واهية تسمى "الكومنولث الجديد".

لقد انتهى الاستقطاب القديم، الذى كان مصاحبا لانقسام العالم إلى معسكرين دوليين، تسود بينهما الحرب الباردة، التى قد تسخن أحيانا فى بعض مناطق الصراع الاقليمى مثل أفغانستان، وقبلها فيتنام وما إلى ذلك. ذلك الوضع الذى كان من شأنه أن تصبح تركيا على سبيل المثال إحدى دول التحالف الغربى ضد السوفييت، وبلدان عربية مثل مصر وسوريا والعراق، حلفاء أو شبه حلفاء للاتحاد السوفييتى فى بعض مراحل الصراع ضد العدو الصهيونى باعتبار كونه - أى الاتحاد السوفيتيي - كان المصدر الوحيد لتسليح تلك الدول إزاء التحالف الاسرائيلى الأمريكى وتدفق السلاح الامريكى على الدولة الصهيونية، وأيضا ميل بعض الأنظمة "الثورية" التي قامت فى الدول العربية الثلاث المذكورة إلى بعض ملامح النظام السوفييتى واعتمادها عليه فى أمور أخرى خلاف السلاح، مثل التصنيع والتعليم الفنى والتقنى وما إلى ذلك.

انتهى هذا الوضع، لتجد تركيا نفسها، إزاء مسئولية واضحة، نحو شقيقات جدد، سبق لها التباعد عنهن منذ أجيال، وهى الجمهوريات الاسلامية فى التركستان، التى كانت إلى ما قبل انحلال الاتحاد السوفييتى، بعض جمهورياته، وقبل ذلك جزءا من الممتلكات الروسية، وبينها - أى تركيا - وهذه الجمهوريات وشائج قديمة فى

العرق واللغة والديانة. فضلا عن الجوار. مضافا إلى ذلك شعور آخر بالمسئولية إزاء بقايا الوجود الاسلامى العثمانى المباشر فى البلقان، بدأت بوادره فى المعاملة السيئة التى كان يلقاها المسلمون البلغار، من أصل تركى أو حتى من أصل بلغارى، فى السنوات الأخيرة للحكم الديكتاتورى المنتسب للشيوعية فيها! من حيث إجبار هؤلاء المسلمين على تغيير أسمائهم، وطرد كثير منهم خارج البلاد لرفضهم الخضوع لذلك التعسف فى معاملتهم!

وكشف سقوط الشيوعية عن ألوان غريبة من التعصب القومى والدينى ضد المسلمين بما فى ذلك انحلال الاتحاد السوفييتى ذاته، حيث تخلت روسيا مختارة عن "توابعها"، بدعوى انهم متخلفون لا تستطيع الاستمرار فى تحمل أعبائهم الاقتصادية، وفى تفسير آخر ان العنصر السلافى فيما كان يعرف باسم الاتحاد السوفييتى، خشى أن تصبح الأغلبية "اسلامية" فى تلك الدولة الكبرى، لأن النساء الأسيويات المسلمات لايعرفن الخمر ولا التدخين ولا السهر فى المطاعم والمراقص مثل زميلاتهن الأوربيات، وبالتالى يقرن فى بيوتهن وينجبن الأطفال، الذين بلغ معدلهم عند الأسرة المسلمة ثمانية أطفال، بينما هو عند نظيرتها الأوربية واحد لكل أسرة!!

وبدأت مصادمات عرقية ودينية من كل نوع شملت كثيرا من أرجاء الاتحاد السوفييتى السابق، بما فى ذلك داخل الاتحاد الروسى ذاته، حيث أعلنت جمهورية شيشن والأنجوش الصغيرة ذات الحكم الذاتى استقلالها، وتتحرك بعدهما تترستان وداغستان وغيرهما تطلع إلى مزيد من الاستقلال.

غير أن انحلالا آخر فى دولة اتحادية "اشتراكية" سابقة، وهى يوغسلافيا، قد انطوى على مأساة حقيقية، بل واحدة من أكبر مآسى العصر، وهو ما حدث ويحدث فى جمهورية "البوسنة والهرسك ، أو بلاد "البوشناق كما كانت تعرف فى العهد العثمانى، حيث تدور أعمال وحشية، الهدف منها بكل وضوح، هو عدم قيام دولة أو دويلة فى تلك الجمهورية يكون العنصر الغالب فيما هم المسلمون. ويتولى الصرب من أبناء تلك الجمهورية، ـ وهم الأقلية ـ عملية التطهير العرقى داخلها من المسلمين

رغم كونهم أصلا من الصرب واعتنقوا الاسلام فى العهد العثمانى، ويقف المجتمع الدولى مشلول الارادة، أو متظاهرا بذلك ازاء تلك الجريمة المستمرة، وتحت دعوى حظر توريد السلاح إلى "يوغسلافيا" يمنع وصوله عن المسلمين فقط، أما الصرب فلديهم كل مخزون السلاح اليوغسلافى، ومصانع السلاح اليوغسلافية، ويأتيهم المدد من الروس وسواهم عبر رومانيا واليونان. أما الكروات فيحالفون المسلمين أحيانا ثم ينقلبون عليهم ويتعاقدون مع الصرب على اقتسام البوسنة والهرسك ما بين صربيا وكرواتيا، والدور كما تلوح البوادر بعد الفراغ من البوسنة والهرسك هو على إقليم كوزمو الصربى ذى الأغلبية من المسلمين الألبان، وبعدهم ربما تجرى تصفية ألبانيا ذاتها!

يتم ذلك والموجة العنصرية تتصاعد فى ألمانيا وسائر أوربا، ولسقوط الشيوعية أيضا دور فى ذلك، حيث يقال إن الألمان الشرقيين بعد خيبة أملهم فى الرخاء الاقتصادى الذى عقدوه على الاتحاد مع الشطر الغربى من ألمانيا، قد أصبح شبابهم اليائس المتعطل هو البيئة التى تفرخ النازية الجديدة التى تطالب بطرد الأجانب من كل ألمانيا، ومن أهم هؤلاء الملايين الستة من الأتراك الذين ساهموا فى صنع رخاء ألمانيا الغربية فى السابق!

كأن سقوط الشيوعية، كان إيذانا بسقوط "العلمانية" والمساواة بين الاجناس، التى توصف بأنهم كانت رسالة أوربا الى العالم! والشرق الاسلامى بالذات كان من تلامذتها فى ذلك، وخاصة فى تركيا الحديثة، التى كانت تتطلع الى قبولها عضوا كامل العضوية فى المجموعة الأوربية!

إزاء هذا الوضع كان لا مفر أمام تركيا من الالتفات من جديد إلى إخوتها" السابقين من مسلمى العالم، وفى مقدمتهم العرب، الذين تؤذيهم مأساة اضطهاد المسلمين فى أوربا كما تؤذى الترك سواء بسواء.

وكان لابد أن يشمل هذا الالتفات الجديد أول ما يشمل مصر ، أكبر دولة عربية، والتى تشغل من العالم العربى موقعا شبيها بالذى تشغله تركيا من التركستان، الذى يضم إلى جانبها مجموعة الجمهوريات الاسلامية السوفييتية السابقة، وامتداد هذا "التركستان" فى البلقان!

وفى إطار المؤتمر الاسلامى، يعود



معركة من البوسنة والهرسك

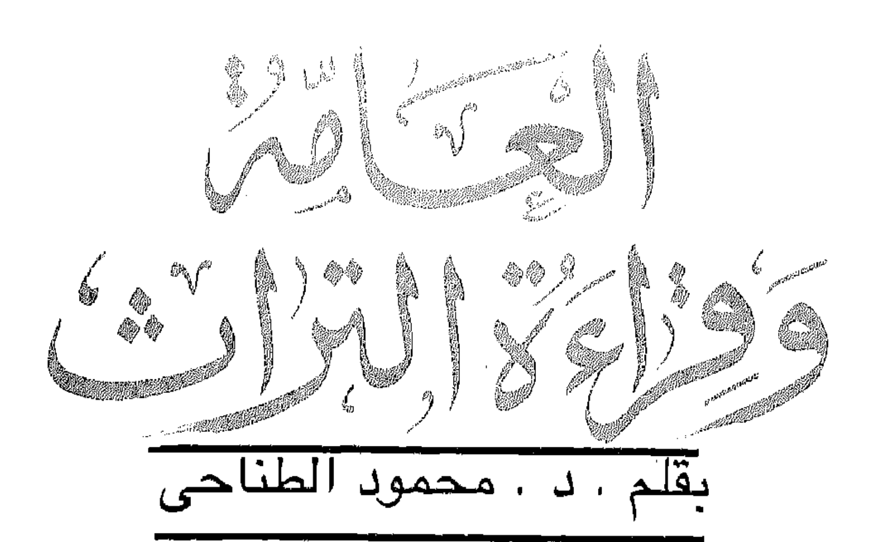
الالتقاء ما بين العرب والترك حول همومهم المشتركة، وكذلك فى الاتصالات الثنائية بين الدول وخاصة مصر وتركيا، ولكن الاتصالات الرسمية ـ على أهميتها الفائقة ـ ليست كل شئ بل لابد من أن يكون هناك من جديد لقاء على مستوى الشعوب، وفى مقدمتها المثقفون والمفكرون من أبنائها حيث يتم طرح كل شئ وإعادة النظر فيه من جديد.

هل فاتنى أن أقول إنه قبل البوسنة والهرسك، قد ضاعت فلسطين، ومازلنا نناضل من أجل استنقاذ البقية الباقية منها، وأن ذلك أيضا قد تم فى ظل علمانية أوربا ـ وابنتها أمريكا ـ وازدهارها فى كلا المعسكرين السابقين ويتعاون شاذ منهما ؟!

ألم أقل إن إعادة النظر فى كل شئ... لا مفر منها؟!

★ ★ ★

وسلام فى الخالدين على يحيى حقى، الذى كان بذرة تركية، ثم [illegible] مصرية عربية وارفة الظلال....



بقلم . د . محمود الطناحى

عمر الخيام

بقلم : د . عبد العظيم أنيس

لابد أن يكون عمر الخيام هو الرياضى البارز الوحيد الذى اقترن
ه فى هذا العالم بالأندية الليلية والفنادق ومحال بيع القطائ
أ ناد واحد فى العالم العربى لمناقشة

كتب الأستاذ الدكتور عبد العظيم أنيس ، فى العدد السابق من الهلال ، مقالة عن العالم الريا ضى الشاعر عمر بن إبراهيم الخيامى الفارسى النيسابورى ، المعروف عند جمهرة الناس باسم : عمر الخيام ، المتوفى سنة ٥١٥ هـ ١١٢١ م . وكان الخيام عالما بالرياضيات والفلك واللغة والفقه والتاريخ ، وهو صاحب «الرباعيات» التى أذاعت اسمه وأكسبته الشهرة فى الشرق والغرب .

وقد افتتح الدكتور أنيس مقالته بكلمات جياد ، قال فيها : لابد أن يكون عمر الخيام هو الرياضي البارز الوحيد الذى اقترن اسمه فى هذا العالم بالأندية الليلية والفنادق ومحال بيع الفطائر . ومن الغريب أنه لم ينشأ ناد واحد فى العالم العربى لمناقشة إنجازاته الفذة في الرياضيات والفلك ، ولا حتى ناد واحد لمناقشة الرباعيات المنسوبة إليه والتى اشتهر بها فى الغرب ، وإنما ارتبط اسمه للأسف الشديد بأندية اللهو والمجون فى الشرق والغرب على السواء .

وقد أثارت هذه الكلمات أشجاناً قديمة حول بعض رموزنا التراثية العظيمة التى ارتبطت عند عامة الناس بمفاهيم خاطئة وتصورات غير صحيحة .

ولا سبيل إلى ذكر كل ما تمتلئ به الجعبة من هذه الرموز التى خلط الناس فى أمرها تخليطاً منكراً ، فلنكتف بذكر مثالين يشتركان مع عمر الخيام ، فى هذا الارتباط الخاطئ بين اسميهما وبين اللهو والمجون . وهما : الخليفة العباسى أبو جعفر هارون بن محمد بن المنصور ، المعروف بهارون الرشيد ، المتوفى سنة ١٩٣ هـ ، ومعاصره وجليسه الشاعر أبو نواس ، الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكمى بالولاء ، المتوفى سنة ١٩٨ هـ .

فأنت قلما تدخل فندقاً إلا وجدت فيه قاعة أفراح باسم هارون الرشيد أو أبى نواس ، إلى ما تراه من أسماء الملاهى الليلية والمطاعم ومحلات الحلوى التى اختارت هذين الاسمين عنواناً وشعاراً ، بحيث صار ذكر اسمهما جالبا للأفراح والليالى الملاح والمباهج والمسرات . أما ما وراء ذلك من التاريخ العريض لهذين العلمين ، وأثرهما فى الحضارة العربية الإسلامية : فهو مما لا معرفة لعامة الناس به ، بل إن الأمر قد تعدى العامة إلى بعض الخاصة ، وإن كنا لا نستطيع فى هذا الزمان أن نجد فرقاً حاسماً بين العامة والخاصة ، فقد اختلط المرعي بالهمل . واسأل عن شئت من طلبة الجامعة ، أو من المتخرجين فيها ، عن هذين العلمين ، ولن تخرج إلا بما يدور حول اللهو والمجون ، وما يفضى إليهما وما ينتج عنهما .

على أننا لا نستطيع - حقاً وصدقاً - أن نحمل العامة وحدهم تبعة هذا الفهم الخاطئ لتاريخ الرجلين . فمن أين جاءهم هذا الفهم ، وكيف تتابعوا عليه ؟

إن الأمر متصل بقضية كبرى : هى قضية الجرأة على التاريخ ، والاستخفاف بأيام الناس ، ثم عدم إعطاء العقل حظه من الأناة والتتبع والتحرى والصبر على تكاليف الحق والإنصاف ، وقهر الهوى الجامح .

ولا تقل إن الأمر فى هارون الرشيد وأبى نواس متصل بالأدب الشعبى الذى يستنزل من الشخصيات بعض صفاتها المثيرة فيضخمها ويتخذ منها مادة للتسلية

والترويح ، كما نرى فى « ألف ليلة وليلة » وما إليها . لا تقل هذا ؛ لأن التخليط فى أمر الرجلين قد امتد إلى تلك الدراسات التى يفترض أن تكون قائمة على البحث الجاد ، والنظر الصحيح ؛ لأنها تحمل أسماء وعنوانات توحى بالجد والصرامة العلمية .

هارون الرشيد وصور شائهة

ولن يتسع المقام هنا لذكر ما كان من هذا التخليط فى كتابات الدارسين المحدثين ، لكنى أكتفى بذكر مثال واحد ، من كتاب ، له عند الناس مكانة كبيرة ، ذلكم هو كتاب « قصة الحضارة » لول ديورانت . يقول عن هارون الرشيد : « وتصور لنا القصص - وخاصة قصص ألف ليلة وليلة - هارون الرشيد ، فى صورة الملك المرح المثقف المستنير ، العنيف فى بعض الأوقات ، الكريم الرحيم فى أغلب الأحيان، المولع بالقصص الجميلة ولعاً يحمله على أن يسجلها ويحتفظ بها فى ديوان محفوظات الدولة . وتبدو هذه الصفات كلها فيما كتبه عنه المؤرخون ، إذا استثنينا منها مرحه ، ولعل السبب فى ذلك أن هذا المرح قد أغضب المؤرخين ، فهم يصورونه أولاً وقبل كل شئ فى صورة الرجل الورع المتمسك أشد التمسك بأوامر الدين ، ويقولون إنه فرض أشد القيود على حرية غير المسلمين ، وإنه كان يحج إلى مكة مرة كل عامين ، وإنه كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة نافلة مع الصلوات المفروضة . ويقال : إنه كان يشرب الخمر ، ولكن هكذا لم يكن إلا سرا مع عدد قليل من خاصة أصدقائه . ويقال : إنه تزوج من سبع نساء ... » قصة الحضارة . الجزء الثانى من المجلد الرابع ص ٩٠ ، ٩١ - ترجمة الأستاذ محمد بدران . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٦٤م . فهذه صورة شائهة مهزوزة لهارون الرشيد ، تتأرجح بين المدح والذم ، وقد استخدم فيها المؤلف « منهج العكس » حيث يقدم صورة الرشيد كما جاءت فى ألف ليلة وليلة ، وهى صورة « الملك المرح » ولكن هذا المرح أغضب المؤرخين ، - وهو يقصد المؤرخين العرب المسلمين ، بلا شك - فصوروه فى صورة الورع المتمسك بالدين . فهؤلاء المؤرخون فى نظر « ديورانت » كاذبون مزيفون ، ساءهم مرح الرشيد ، فاخترعوا له صورة معكوسة ، عكس الواقع .

وفضلاً عن ذلك كله ففى كلام « ديورانت » خبط كثير ، وجهل بتاريخ الأمة وشرعها . وتأمل قوله : « وتزوج من سبع نساء » وقد علق على هذه العبارة مترجم الكتاب ، رحمه الله ، فقال فى الحاشية : « لعل المؤلف يضيف الجوارى إلى الأزواج ؛ لأن الإسلام يحرم الزواج بأكثر من أربع » وأقول : الصواب حذف « لعل » هذه .

ومن دقيق الفطنة هنا ما لاحظه الدكتور عبد العظيم الديب ، قال : « إن ديورانت غير عبارة المؤرخين ، فهم يقولون : « كان الرشيد يحج عاماً ويغزو عاماً » فغيرها إلى « يحج كل عامين » وأسقط الغزو ، وفي هذا ما فيه .(المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، للدكتور عبد العظيم الديب ص ١٠٨ ـ كتاب الأمة ـ قطر ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠ م) .

ونعم كان الرشيد رجلاً لا ينسى نصيبه من الدنيا ، مقبلاً عليها ، آخذاً حظه منها ، قال الأصمعي : « كان الرشيد يحب السمر ويشتهي أحاديث الناس » . لكن وراء ذلك دنيا حافلة بالغرائب والعجائب . قالوا : لم يكن أحد أحظى بالشعر منه ، كما ذكر الجاحظ في الحيوان ٣٨٣/٤ ـ أي أكثر احتفالاً بالشعر، وقد اجتمع على مدحه من الشعراء ما لم يجتمع على أحد : أبو العتاهية ، ومروان بن أبي حفصة ، وسلْم الخاسر ، وابن مناذر ، وأشجع السلمي ، وكلثوم بن عمرو العتابي ، ومنصور النمري ، والعماني الراجز . وفوق هؤلاء جميعاً صديقه الأثير أبو نواس .

ومن وراء الشعر والشعراء كانت عناية الرشيد بالفقه والحديث واللغة والأدب ، وما ظنك بملك يجتمع عنده الشافعي ، وأبو يوسف ، ومحمد بن الحسن الشيباني ، وسفيان بن عيينة ، والفضيل بن عياض ؟ وقد ألف له أبو يوسف « كتاب الخراج » واقرأ مقدمة هذا الكتاب ، وتأمل وصية أبي يوسف للرشيد ، ففيها من الإخلاص في النصح ، والصراحة في التوجيه ما لم يقدم عليه أبو يوسف إلا لأنه يعلم أنه سيجد من الرشيد صدراً واسعاً وأذناً واعية .

وما ظنك أيضاً بملك يجتمع عنده سيبويه والكسائي ، ويتناظران بحضرته في المسألة النحوية الشهيرة ، المعروفة بالمسألة الزنبورية ؟ وبحضرته أيضاً تناظر الكسائي مع المفضل الضبي والأصمعي ، وأبي محمد اليزيدي ، وأبي يوسف (وانظر مجالس العلماء للزجاجي) .

وقال الذهبي في وصفه : « وكان شهماً شجاعاً حازماً جواداً ممدحاً ، فيه دين وسنة ، مع انهماكه على اللذات والقيان ، وكان أبيض طويلا ، سميناً مليحاً ، وقد وخَطَه الشيب . وكان يصلي في اليوم مائة ركعة إلى أن مات ، ويتصدق كل يوم من صلب ماله بألف درهم ، وكان يخضع للكبار ويتأدب معهم » العبر في خبر من غبر ٣١٢/١ ـ وقال في سير أعلام النبلاء ٢٩٠/٩ « ومحاسنه كثيرة ، وله أخبار شائعة في اللهو واللذات والغناء، والله يسمح له » .

فهذا الذهبي مؤرخ الإسلام يذكر كل جوانب هارون الرشيد ، فلا ينشر الحسنات ويطوي السيئات ، وهكذا جمهور مؤرخي العرب المسلمين ، لا ما يذهب إليه ول ديورانت ومن لف لفه .

ويقول السيوطى عن الرشيد فى تاريخ الخلفاء ٢٨٤ : « وكان يحب العلم وأهله، ويعظم حرمات الإسلام ، ويبغض المراء فى الدين ، والكلام فى معارضة النص ، وبلغه عن بشر المريسى القول بخلق القرآن ، فقال : لئن ظفرت به لأضربن عنقه . وروى أن أبا معاوية الضرير حدثه بحديث : « احتج آدم وموسى » (انظر تمام الحديث فى صحيح البخارى . كتاب الأنبياء ١٩٢/٤) فقال رجل شريف من الحضور : فأين لقيه ؟ فغضب الرشيد ، وقال : النطع والسيف ، زنديق يطعن فى الحديث ! فما زال أبو معاوية يسكنه ويقول: بادرة منه يا أمير المؤمنين ، حتى سكن .

وقد سبق أنه كان يحج عاماً ويغزو عاماً . وكان يلبس قلنسوةً مكتوباً عليها : غاز حاج . قال أبو المعالى الكلابى :

فمن يطلب لقاءك أو يرده

فبالحرمين أو أقصى الثغور

وقد حكم الرشيد ثلاثاً وعشرين سنة ، بلغت فيها الدولة الإسلامية شأواً عظيما من الرقى والحضارة . يقول ابن دحية : « وفى أيامه كملت الخلافة بكرمه وعدله وتواضعه وزيارته العلماء فى ديارهم » .

وقد غزا الروم فى القسطنطينية فصالحته الملكة إيرينى ، وافتدت منه مملكتها بسبعين ألف دينار ، تبعث بها إلى خزانة الخليفة فى كل عام . ووثق علاقة الدولة ببعض ملوك الفرنجة ، فكانت له صلات ومودة مع ملك فرنسا كارلوس الكبير الملقب بشارلمان ، وكانا يتهاديان التحف ، على ما هو معروف .

وبعد ... فهل نطمع أن نرى اسم هارون الرشيد يتلألأ ويتضوأ على صدر جامعة عربية ، أو يتزين به مركز بحث علمى ، بدلاً من قاعة هارون الرشيد ، وحلوانى هارون الرشيد ؟

أبو نواس ..
صفحة مضيئة

أما رفيقه أبو نواس فهو شاعر العربية فى المائة الثانية بعد بشار بن برد ، وهو يمثل صفحة مضيئة فى كتاب الشعر العربى ، جاء فملأ الأسماع وبهر الأنظار ، واستوى فى الإعجاب بشعره الجادون والهازلون ؛ لأنه دار بين الجد والهزل . وقد خلط الناس فى أمره قديماً وحديثا . لكن المحنة فى زماننا أن كثيراً من شباب هذه الأيام ممن نلقاهم أو نقعد منهم مقعد الدرس فى الجامعة ، لا يعرفون عنه إلا هذا الجانب الهازل الماجن؛ لأن بعض الدارسين يستهويهم هذا الجانب الماجن من حياة أبى نواس ، فيطيلون الوقوف عنده ، ويغدون ويروحون فرحين بما آتاهم علم التحليل النفسى . والإغراق فى معطيات هذا العلم يحجب كثيراً من الحقائق ، ويصد عن أبواب كثيرة من العلم ، وقد يدخل الدارس فى مضايق يعسر عليه التخلص منها إلا بخداع من القول

وضروب من الاحتيال .

وشبابنا معذور أيضاً لأن ما يأتيه عن أبى نواس إنما يأتى كثير منه من تصورات العامة حول شخصية أبى نواس، وما تنسجه حوله من أخبار وحكايات يمتزج فيها الحق بالباطل ، ويداخل الخير فيها الشر . ولست بحاجة إلى التذكير بما يسمونه «المعالجة الدرامية» فى أفلامنا ومسلسلاتنا ، وما يحدث فى هذه المعالجة من اضطراب وتشويه للأحداث وتاريخ الرجال ، ليسلم لهم ما يريدون من الإثارة والإمتاع .

وليس من غايتى هنا الحديث عن شاعرية أبى نواس . فهذا مما يعرفه الناس ، ويلتمس من مظانّه . لكنى الذى يعنينى هنا هو الكشف عن الوجه الآخر لهذا الشاعر العظيم ، وأن وراء هذه الشاعرية الجادة أو الماجنة عالماً كبيراً ، هو من معالم هذه الأمة ومن رموزها العظيمة . وحسبك بشاعر يقف على بابه ، ويخوض لججه أئمة كبار ، كابن السكيت وابن جنى وأبى بكر الصولي وحمزة الأصفهانى ، ومهلهل بن يموت بن المزرع ، وأبى هفان المهزمى !

قرأ أبو نواس القرآن الكريم على يعقوب بن إسحاق الحضرمى ، أحد القراء العشرة . ولما حذق القراءة عليه رمى إليه يعقوب بخاتمه ، وقال : اذهب فأنت أقرأ أهل البصرة . وكتب الحديث عن أئمته : عبد الواحد بن زياد ، ويحيى القطان وأزهر السمان . ثم أخذ اللغة والغريب عن أبى زيد الأنصارى شيخ سيبويه ، ونظر فى كتاب سيبويه ، وأخذ عن خلف الأحمر معانى الشعر ، وعن أبى عبيدة معمر بن المثنى أخبار العرب وأيام الناس . وحفظ وحصّل كثيراً ، حتى روى عنه أنه قال : ما ظنكم برجل لم يقل الشعر حتى روى دواوين ستين امرأة من العرب ، فما ظنكم بالرجال ؟ وروى عنه أيضاً أنه قال : أحفظ سبعمائة أرجوزة ، وهى عزيزة فى أيدى الناس ، سوى المشهورة عندهم .

والجاحظ يصفه بالعالم الراوية . الحيوان ٢٧/٢ . وحكى ابن المعتز فى طبقات الشعراء ص ٢٠١ ، قال : « كان أبو نواس عالماً فقيهاً ، عارفاً بالأحكام والفتيا ، بصيراً بالاختلاف (أى اختلاف الفقهاء فى الأحكام) صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث ، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه . وقد تأدب بالبصرة ، وهى يومئذ أكثر بلاد الله علماً وفقهاً وأدباً ، وكان أحفظ لأشعار القدماء والمخضرمين وأوائل الإسلاميين والمحدثين » .

وقال ابن منظور فى مختار الأغانى ١٧/٣ : « كان أبو نواس متكلماً جدلاً ، راوية فحلا ، رقيق الطبع ، ثابت الفهم فى الكلام اللطيف » .

★ ★ ★

وبعد ... فهذه كلمات قلائل عن هارون الرشيد وأبى نواس ، سقتها على سبيل

الوجازة والاختصار، وهى كلمات يعرفها أهل العلم من أساتذتنا وزملائنا، ولكنى أردت بها شباب هذا الجيل الذى غيب عن تاريخه وتراثه بأسباب كثيرة من المسخ والتشويه والتضليل، وأردت بها أيضاً التنبيه إلى خطورة إخضاع رموزنا التراثية وقضايانا الفكرية لتوجيه العامة وسلطانها الغالب. ومما ينبغى التنبه له أيضاً أن هذه العاميات قد مدت سلطانها الآن إلى تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر، وسائر كلام العرب. ولست أعنى بالعاميات: الألفاظ والأبنية والتراكيب، ولكنى أعنى عاميات الفكر والتصور. وما أريد أن أشق عليك أيها القارئ الكريم بذكر الشواهد والمثل، فهو أمر متعالم مشهور، لكنى أذكر لك ما أراه الآن أمامى كتاب (الأدب العربى) المقرر على تلاميذ الصف الأول الثانوى. طبعة وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٩٢م/١٩٩٣م، وقد كتب على غلافه: «الكتاب الفائز فى مسابقة الوزارة سنة ١٩٩٠م». وفى أول الكتاب قصيدتان لعنترة بن شداد العبسى، صدرتا بهذه العبارة «نماذج من الشعر الجاهلى» ومطلع القصيدة الأولى:

سكتُّ فغَرَّ أعدائى السكوتُ
وظنُّونى لأهلى قد نسيتُ

ومطلع الثانية:

يا طائر البان قد هَيَّجْت أحزانى
وزدتنى طَرَباً يا طائر البان

وهذا شعر بارد خفيف سخيف، يبعد أن يكون من نمط الشعر الجاهلى، ويستحيل من كل الوجوه أن يكون من مذهب عنترة الشعرى. وفى القصيدة الأولى نقرأ هذا البيت:

خلقت من الحديد أشدَّ قلباً
وقد بلىَ الحديد وما بليتُ

وعجز البيت من العامية بمكان. وكنت فى طفولتى بحى الدرب الأحمر أسمع بعض فتوات المغربلين يقولون: «الحديد بلى واحنا لم بلينا» (وهذا من المواضع القليلة التى يستعمل فيها العامة الفعل مبنيا للمجهول) على أن الحديد أكثر ما يوصف بالصدأ، لا بالبلى.

أما التكرير فى مطلع القصيدة الثانية فهو إلى التفاهة والسخافة ما هو!

وقد ذكر الأساتذة المؤلفون فى حواشى الكتاب أن القصيدتين من ديوان عنترة بن شداد. نعم يا سادة، هما فى الديوان، ولكن أى ديوان؟ لقد طبع ديوان عنترة عدة طبعات، أولاها - فيما أعلم - طبعة بيروت سنة ١٨٦٤م، بعنوان «منية النفس فى أشعار عنترة عبس» وقام على هذه الطبعة اسكندر أغا أبكاريوس، ثم تناسلت من هذه الطبعة بعد ذلك طبعات كثيرة، فى بيروت ومصر، كان آخرها بمصر بالمكتبة التجارية، بتحقيق وشرح عبد المنعم عبد الرءوف شلبى، وتقديم إبراهيم الإبيارى. وتشترك هذه الطبعات كلها، فى أنها جمعت شعر عنترة

كله ، سواء ما كان منه صحيح النسبة إليه، أم ما جاء من طريق السيرة الشعبية لعنترة وهى التى يختلط فيها الغث بالسمين ، والعالى بالنازل . ثم يأتينا ديوان عنترة فى دراسة علمية محققة على ست نسخ مخطوطة . من عمل الأستاذ محمد سعيد مولوى ، وهو طالب علم سورى ، حصل بهذا العمل المحقق الجيد على درجة الماجستير من كلية الآداب بجامعة القاهرة، بإشراف الدكتور شوقى ضيف ، ومناقشة الدكتور عبد الحميد يونس ، والدكتور يوسف خليف . وقد طبع هذا الديوان بالمكتب الإسلامى لصاحبه الأستاذ العلامة زهير الشاويش . دمشق ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م وقد نشر الأستاذ المحقق ديوان عنترة بشرح أبى الحجاج يوسف بن سليمان المعروف بالأعلم الشنتمرى ، مع زيادات الوزير أبى بكر عاصم بن أيوب البطليوسى ، وغيره من قدامى العلماء . ثم خلصه مما علق به من أخبار ومرويات السيرة الشعبية ، فصار بهذا الديوان الذى لا ديوان لعنترة غيره . وتقرأ هذا الديوان الموثق المحقق من أوله إلى آخره ، فلا تجد فيه أثراً لهاتين القصيدتين المقررتين على تلاميذ السنة الأولى الثانوية ، وقد يكون من هؤلاء شاعر أو أديب ..

وهكذا نقدم لأبنائنا فى مراحل تعليمهم علماً غير موثق ولا مضبوط ، ثم نصفهم بعد ذلك بالجهل والتسرع ، وما هم إلا غرس الغارس ، وبناء البانى :

ولو أن قومى أنطقتْنى رماحُهم
نطقْتُ ولكنّ الرِّماح أجرَّت

(يقال : أجْررْتُ الفصيل : إذا شَقَقتَ لسانه لئلاّ يرضعَ) .

وروى الجاحظ فى الحيوان ٥/١٨٠ « قيل لرجل : أبوك ذاك الذى مات جوعاً ؟ قال : فوجد شيئاً فلم يأكله ؟ » .

★ ★ ★

والشكر بعد ذلك كل الشكر للأستاذ الدكتور عبد العظيم أنيس ، فهو الذى استخرج هذا الكلام من مجثمه ، أحسن الله إليه ، وأطال فى عمره . لكن لى إليه رجاء :

أن يعتمد التاريخ الهجرى ، فى ذكر الأحداث والأعلام العربية ؛ لأن مراجعنا التاريخية كلها (التاريخ العام والطبقات والحوليات) ثم أصول علمنا كلها منزلة على ذلك التاريخ الذى لا تاريخ لنا غيره . وكنا إلى عهد قريب نلتزم بذكر التاريخ الهجرى وبعده الميلادى : على سبورة الفصل ، وفى رأس الجريدة ، وعلى غلاف الكتاب المطبوع ، وفى الشهادات الرسمية، وبراءة الأوسمة . بل إننا كنا نلتزم بذكر التاريخ الهجرى فقط . وإذا دخلت جامعة القاهرة ، ووقفت أمام المبنى الرئيسى ، قرأت هذه العبارة :

«وضع الحجر الأساسى للجامعة فى حفل من وجوه الدولة وأعلام الأمة فى يوم الثلاثاء لخمس عشرة خلت من شعبان سنة ست وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة».

تاريخ مصطلح (التغريب)

بقلم : أنور الجندى

يتجدد اليوم البحث حول «التغريب» و «الغزو الفكرى» بعد أن أعلن بعض الكتاب وقيادات الفكر الاستخفاف بالدعوة إلى الحذر من خطر عملية الغزو فى محاولة لكسر هذا الحاجز نهائيا ، بل لقد وصل بعضهم إلى الاعجاب بهذا الغزو بحجة أنه عامل من عوامل النهضة والتقدم ، فى تجاهل تام وإنكار كامل لمحاذيره فى القضاء على الذاتية والخصوصية والانتماء بكل مقوماته من عقيدة وقيم وأخلاق يختلف فيها المسلمون والعرب عن الغرب .

والعجيب أن ينشر هذا الكلام فى جرأة بالغة تتنكر لكل عوامل القوى المعنوية التى تقاوم محاولات احتواء الامة الاسلامية ومحاصرتها بعد أن اتسع نطاق هذا الحصار فى مجالات كثيرة أخطرها المجال الاجتماعى فيما يتصل بالفن والاعلام ووسائل التسلية والترفيه ، وقد غدت كلها وسائل تابعة تبعية كاملة لمصادر مستمدة من ثقافات وأدبيات منحلة ومنحرفة لها فلسفاتها ومفاهيمها فى العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة والأب والأبناء والزوج والزوجة .

وأعجب العجب أن تذاع هذه التصريحات الخطيرة بتقبل التغريب والغزو الثقافى فى الوقت الذى تنشر فيه وثائق ودراسات تشير إلى مخططات خطيرة



سلامه موسى

الشيخ على عبد الرازق

شبلى شميل

د. مصطفى محمود

تتحدث عن تغريب العالم الاسلامى بالذات واحتوائه لصرفه تماما عن عقيدته وقيمه وصهره تماما فى هذه الحضارة المادية .

خطة للتغريب

ولقد كشف خطة التغريب منذ أكثر من ستين عاما مستشرق كبير هو هاملتون جب حين ألف مع مجموعة من المستشرقين كتابا تناول دراسة معظم مواقع الاسلام فى افريقيا وآسيا وكشف فى جرأة واضحة ولأول مرة أن الغرب قد أعد خطة لتغريب العالم الاسلامى واخراجه من مفهومه الأصيل بوصف الاسلام : دينا ودولة ومنهج حياة ونظام مجتمع وأنهم وصلوا فى هذه الخطة إلى نقاط أساسية أهمها : أن الاسلام قد أزيح تماما من معاملات المجتمعات ، وأنه أصبح مقصورا

على عبادات المساجد فحسب وتتابعت الدراسات وظهرت آثارها فى ثلاث دعوات :

١ - الشعر الجاهلى - طه حسين

٢ - الاسلام وأصول الحكم (على عبد الرازق)

٣ - اليوم والغد - سلامة موسى هذا الكتاب الذى يحوى أسوأ عبارات المهانة للعروبة والاسلام (والذى حرص التابعون على حجبه وعدم إعادة طبعه) ولكن أجمعت كل كتابات تلاميذ سلامة موسى على أنه كان داعية الاشتراكية بوصفها الدين الذى تترقبه البشرية بعد أن عجزت الاديان التقليدية عن إسعاد البشرية ، هكذا أوحى إلى تلاميذه فكتب ذلك نجيب محفوظ فى المجلة الجديدة ١٩٣٤ وشهد بدور سلامة موسى فى جمعية الشبان المسيحيين لويس عوض ونعمان عاشور وأحد أبناء حمروش فى نصوص صريحة مسجلة بأسمائهم فى الصحف ، ولقد كتب لويس عوض فى ترجمته الذاتية (أوراق العمر) عن أساتذته طه حسين والعقاد ولكن الحقيقة الواضحة أن هذا كان من قبيل التغطية على الخلافة الحقيقية التى تولاها لويس عوض لمهمة سلامة موسى سواء فى مجال الهجوم على اللغة العربية أو الدفاع عن الداروينية والفرويدية والماركسية قال محمد عمارة فى بحث له تحت عنوان تيارات التقليد والمحاكاة نشر فى صحف الامارات :

(إن ما كان يحرك سلامة موسى وبعض المفكرين الشوام فى دعواهم هو الحقد على الاسلام وأن الرواد الأوائل يعقوب صنوع وفارس نمر وشاهين مكاريوس وشبلى شميل ونقولا حداد وجرجى زيدان وفرح انطون وبشارة تقلا وسليم تقلا وأخيرا سلامة موسى هو الدعوة للعلمانية أو لتطوير الفكر العربى واللغة العربية للأخذ بالعلوم وقد فعلوا ذلك تعصبا منهم ضد الاسلام .

وقد كان سلامة موسى يدعو إلى (التطور - دارون) + (الاشتراكية - ماركس) (الجنس - فرويد) وقد أورد اللواء أحمد عبد الوهاب فى كتابه عن (التغريب) وفى مقاله فى الأهرام عن الغزو الثقافى نصوصا من تغريبات سلامة موسى أوردها فى كتاب اليوم والغد (أريد من التعليم أن يكون أوروبيا لا سلطان للدين عليه ، وأن يتولى تعليم اللغة العربية رجال متمدينون يفهمون نظرية التطور ولايعتقدون أن اللغة العربية هى أوسع اللغات .

ويقول : أريد أن أرى العائلة المصرية مثل العائلة الاوروبية زوج وزوجة وأولادهما بلا ضرار بحيث يعاقب بالسجن كل من يتزوج بأكثر من إمرأة ، هذا مذهبى الذى أعمل له طوال حياتى سراً وجهراً فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب .

خلافة واضحة !

أما خلافة لويس عوض لسلامة موسى فواضحة فى نصوص كتاب لويس .

قال : «قاد سلامة موسى خطاى نحو الاشتراكية وكان سلامة موسى من أسبق من فتحوا عينى على الأدب الروسى ووجدت سلامة موسى صريحا فى اشتراكيته صريحا فى زندقته ولا أعتقد أن سلامة موسى كان مسيحياً إلا بالميلاد.

وليس معنى هذا أنه كانت له اختيارات أخرى فقد كان يضع جميع أديان التوحيد فى سلة واحدة ، وكان يتكلم عن الثالوث الاوزيرى كما يتكلم عن الثالوث المسيحى وكان عاجزا عجزاً تاما عن الميتافيزيقا بسبب تكوينه العلمى فكان ينظر إلى كافة الأديان من وثنية وتوحيدية نظرته إلى ظواهر أنثربولوجية أى تجرد فللكور راق» أ.هـ

ويقول سلامة موسى فى كتابه (هؤلاء علمونى) أو (تربية سلامة موسى) داروين وماركس كلاهما قد غرس فى رأسى مركبات ذهنية ويأتى فرويد بعد داروين وماركس ، ومن الشخصيات الذهبية التى تبرز فى وجدانى وأفتأ اذكرها كلما تحدثت عن الأدب أو الحكم أو الشرق أو الحضارة شخصية (شبلى شميل) عرفته ١٩١٢ حينما كان يدعو إلى الحرية وفى وقاحة جريئة كما كان يدعو إلى نظرية النشوء والارتقاء أى التطور وكان يسخر من الغيبيات فى كلمات لايجرؤ غيره على استعمالها ، هذا مجمل الصورة التى رسمها التغريب .

ولكن يجيء اليوم من يدافع عن طه حسين أو على عبد الرازق فيقول البعض إن طه حسين تراجع عن بعض آرائه المعروفة . والحقيقة أن طه حسين حتى آخر أيامه يعلن أنه لم يغير شيئا مما قاله على مدى حياته كل ما فى الأمر أنه كان يخدع البعض بمقولة «اكتم عنى» إننى سوف أغير كذا وكذا .

ولكنه فى الحقيقة كان مصمما على كل ماقاله .

ويحاول إخواننا أيضا الاعتذار عن الشيخ على عبد الرازق فيقولون إنه كتب فى أواخر حياته مقالا فى إحدى المجلات الشهرية التى تمثل إحدى الفرق الاسلامية رجع فيه عن ما قال فى كتابه الشهير وحتى لو كان ذلك صحيحا فهل يمكن الرجوع عن عمل ضخم هز العالم الاسلامى كله مثل كتاب (الاسلام وأصول الحكم) بمقال فى مجلة ما ، لابد لكل موقف خطير من رد فى نفس مستوى العمل وأمامنا تجربة الامام الأشعرى الذى حين غير وجهته وخرج على جماعة المعتزلة أن وقف فى المسجد وهو ملىء بالناس وصعد على كرسى ، وأعلن خروجه على مذهبه وقال (أخرج منه كما أخرج من ثيابى هذه) .

وقدم للناس مفاهيمه الجديدة . هو الاسلوب فى الخروج من رأى إلى رأى ، لابد أن يكون صريحا وواضحا وأن يشمل كل من عرف الموقف الأول أما الاعتذار عن موقف خطير قال فيه الشيخ على عبد الرازق إن الاسلام ليس دين حكم وإنه دين

عبادة ، وهي مقولة لم يقلها عالم مسلم على مدى تاريخ أربعة عشر قرنا وقد هزت العالم واستطاع المستشرقون أن يعلنوا بعدها أن فى الاسلام رأيين ، وقد وافق هذا الرأى رغبتهم ومطمحهم فى معارضة حقيقة الاسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع .

★★★

خرجت موجة التغريب الأولى كما عبر عنها المستشرقون الخمسة الذين جمعهم هاملتون جب فى كتابه (وجهة الاسلام) الذى ترجم ملخصا له الدكتور محمد حسين هيكل [١] ففتح بذلك صفحة أمام تاريخ الغزو الفكرى والتبشير كانت نبراسا للعاملين فى حقل الدعوة الاسلامية الذين واجهوا هذا الخطر وقدموا مفهوم الاسلام الجامع الذى وصل إلى كل الافاق ودحر الخطر الذى كان يريد أن يستشرى فكانت تلك الصحوة الواعدة التى أعادت مفهوم الاسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع على طول الطريق خلال ستين عاما مرت بمراحل النكسة واليقظة وتصحيح المفاهيم واسلمة المناهج وايجاد البدائل بعد مرحلة طويلة من الدفاع وضحض الشبهات ، ولكن النفوذ الاجنبى المتجمع اليوم ازاء الاسلام من فكر ليبرالى إلى ماركسي إلى صهيوني يريد أن يقاوم هذه الصحوة ويحول بينها وبين طريقها الصحيح لبناء المجتمع الاسلامى على أصوله الأصيلة ملتمسا منابعه الاولى فاذا نحن أمام دعوة جديدة إلى مايسمونه : (تغريب العالم) تأليف سيرج لاتوش على النحو الذى ترجمه وقدمه الينا اللواء أحمد عبد الوهاب فى محاولة جديدة أوسع وأعمق وأقوى من سابقها بعد ستين عاما مذكراً بالحروب الصليبية وحرب الكلمة من بعد فى خطتها التبشيرية والاستشراقية معا لهدم أصالة مفهوم الاسلام الجامع واحتواء منهج الاسلام بالتشكيك فى القرآن والسنة والتاريخ الإسلامى وسيرة النبى .

وقد أشار إلى أن حركة تغريب العالم هذه التى هى امتداد لحركة تغريب الاسلام إنما هى فى المقام الأول حرب صليبية ترمى إلى السيطرة الكاملة على المواد الاولية وفتح الاسواق ونهب الثروات على نفس الخطة التى لا يزال النفوذ الاجنبى يمارسها منذ أكثر من ثلاثمائة عام فى أول الامر تحت اسم الاستعمار والآن تحت اسم الاستعمار الجديد وإذا كان النظام الليبرالى الذى طبقته البلاد العربية والاسلامية قد كشف عن فساد النظام الغربى جملة ولم يحقق للمجتمع الاسلامى إلا الاضطراب والتمزق حين حجبت الشريعة الاسلامية وفتح باب النظام الربوى فى الاقتصاد والعلمانى فى التعليم والقانون الوضعى فى المعاملات فإن

(١) وقد ترجم الكتاب بعد ذلك الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة

النظام الماركسى الذى حاول أن يخلفه قد حطم الاقتصاد فى البلاد العربية التى مارسته تحطيما شديداً وقد أشار إلى ذلك الدكتور مصطفى محمود (الايديولوجية الاشتراكية التى هوت بمصر إلى الحضيض) على حد تعبيره (فقد كان غزوا فكريا ماركسيا قامت به عصابة من اليسار وتبناه نظام قومى وقامت على نشره وفرضه أجهزة إعلام وأبواق دعاية محترفة وعشرات من الكتاب الذين وهبوا اقلامهم لفلسفة الكرملين وفكره) .

ويقول د. مصطفى محمود إنه يذكر كيف كان الدكتور لويس عوض يجمعهم فى جريدة الاهرام ليعلمهم كيف يفكرون ماركسيا وكيف كانت شروحه فى الصراع الطبقى والمادية الجدلية والاشتراكية العلمية هى أمل العالم فى التقدم والرخاء والعدالة.

وقال : إنه تيار واحد من الغزو الفكرى ظل يعمل فى تغريب العقل المصرى وتشكيكه فى مقوماته واديانه ومقدساته منذ أجيال .

(الاهرام ٢٠/٧/٩١)

★★★

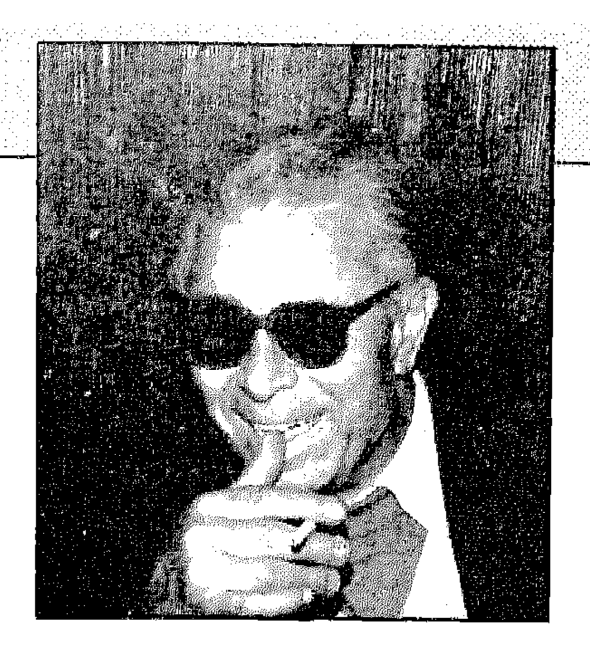
إن التغريب فى صورته الجديدة اليوم هو محاولة لتجديد دعوة قديمة كشفها المسلمون والعرب وعرفت الصحوة الاسلامية أبعاد مؤامرتها وأهدافها فهى ترمى أساسا إلى :

أولا هدم الوحدة الاسلامية الجامعة بين المسلمين والقائمة أساسا على الشريعة الاسلامية والنظام الاسلامى المحجوب الآن عن التطبيق الكامل .

ثانياً : هدم المجتمع الاسلامى والأسرة المسلمة بدفع المرأة المسلمة إلى ميادين التحرر والعرى والاباحية حتى تنهار الاسرة المسلمة وتجرح الاجيال المتحللة المدمرة التى تستسلم أمام الغزوة الفكرية الغربية التى تهدف إلى إقامة (امبراطورية الربا) ولقد أعلنت اليقظة الاسلامية منذ اليوم الأول أنها تعارض منهج الليبرالية الغربية ومنهج الماركسية معا فهما وجهان لعملة واحدة وهما عدوان أساسيان لمنهج التوحيد الخالص الذى يستمد مفاهيمه من القرآن الكريم بينما يستمدان منهجهما من الفكر اليونانى الاباحى المادى الذى انهارت به الحضارة الرومانية قديما وبه ستنهار الحضارة الغربية القائمة .

وإذا كانت الشيوعية قد سقطت اليوم فإن الفكر الغربى سوف يسقط لأنه أثبت عجزه وعدم قدرته على العطاء الحقيقى للبشرية وليس سوى الاسلام منقذا ومخرجا مهما حاول التغريبيون هنا والمستشرقون هناك ترميم دعاواهم التى انهارت ودمرت.

حاشية : لو رجع اللواء أحمد عبد الوهاب إلى ما كتبه الاستاذ محمود محمد شاكر فى كتابه (على طريق ثقافتنا العربية) عن رفاعة الطهطاوى يغير رأيه فيه وفى منطلقاته .



تجربتى مع الإبداع

بقلم : سليمان فياض

حين تذكر كلمة الإبداع ، تدرك فى الحال أنه الخلق على غير مثال ، فى كل ألوان الفن ، وأشكال الأدب على السواء ، بل وفى مواجهة المشكلات الاجتماعية والعلمية ، بأن نبتكر لها الحلول . فالإبداع قرين الخلق غير المسبوق ، وقرين الابتكار للجديد ، ولعل ذلك ما قصد إليه ارنست هيمنجواى فى رسالة إلى المحتفلين بمنحه جائزة نوبل حين قال : « على الكاتب أن يغامر بعيداً حيث لم يذهب أحد سواه » ، ذلك إذا أراد المبدع أن يكون فى إبداعه ملكا ، وسيدا ، وصاحب رسالة ، ورؤية ، وتجربة فريدة، وطريقة خاصة ، ومتميزة فى الإبداع ، يُعرف بها ، وتُعرف به ، فالإبداع بصْمة ، وتفرد ، لكى ينال التقدير ، ويقدر له البقاء .

ذلك ما أعرفه الآن عن الابداع ، لكن في بداية رحلتي مع الإبداع لم يكن الأمر بهذا الوضوح ، كان ثمة الميل والنزوع لكي أبدع قصا ، يُقَدّر ، ويبقى ، وكان ثمة لغة عامة أملك بها مهارات الكتابة بالعربية ، دوال ومدلولات ، وأبنية للمفردات ، وجملا وأساليب . لكن طريق القص الذى آثرته كشكل للإبداع ، كان صعب المنال ، فثمة لغة قص ينبغى أن تكون خاصة بى ، ووسائل قص يتحتم علىّ أن أكون على خبرة بها ، ورؤية على أن أبحث عنها للعالم وللنفس معـــا ، لأفعال الأفراد وردود أفعالهم ، وصراع الطبقات ، والمجتمعات ، وعَصْر علىّ أن أتساوق بقصّى معه ، ورفاق دروب فى القص علىّ أن أتمايز عنهم ، وتجارب قصّ تحيا وتبقى ، ولا تذبل مع المتغيرات .

رحلة المحاولة

حتى إدراك ذلك كله لم يكن بهذا الوضوح ، فى بداية رحلتى مع القصّ . كنت ادركه تدريجيا شيئا فشيئا ، وشيئا بعد شىء عبر الثقافة العامة ، والثقافة الخاصة ، بالقراءة ، والتمثل ، وبخاصة للقص ، وتحليل القص ومهاراته فى القراءات التالية للعمل الجيد ، وفى النقد الأكاديمى والمبدع على السواء ، وعبر رحلة المحاولة بين عامى ١٩٥٠ و ١٩٥٦ ؛ والممارسات الفاشلة لكتابة القصة ، والرفض الصامت والمعلن لنشر هذه الممارسات الأولى .

وكانت الرحلة عسيرة ، ومقلقة ، ومثيرة للتوتر ، إلى حدّ الغضب حينا من النفس واليأس أحيانا من الفشل المتكرر ، فكيف السبيل إلى الخروج من رومانسية المراهقة، والنظر إلى الواقع فى عينيه ، ومعرفة الناس فى أحوالهم وتقلباتهم واحباطهم ونموهم ، وبداياتهم ونهاياتهم ، وأين الطريق للوصول إلى لغة القص ، وإلى لغة خاصة بى ، تكون هى بصمتى ؟ وما هى وسائل القص ، ومدى تساوقها مع الرؤية الكامنة وراء كل قص ، ومع التجربة الخاصة فى كل قصة ؟

التجربة ، والمحاولة ، والممارسة ، والقراءة ، يسرت لى ذات يوم أن أكتب قصتى « يهوذا والجزار والضحية » (امرأة وحيدة) ، وكانت هى ، فيما أحسب ، قصتى المفتاح لعملى القصصى كله ، لغة قص ، ورؤية ، وحقل تجربة ، ووسائل قص وبناء دراما مثلما فى المسرحية ، قد أبتعد عنها قليلا أو كثيرا ، وقد أقترب منها قليلا أو كثيرا ، بل وقد أتجاوزها إلى ما هو أفضل قصاً ، وقد أنحدر عن درجتها إلى

ما هو أدنى ، لكن الخبرة ، كانت قد تجمعت ، والنمو صار متصاعدا فى خطه العام ، خلال ما نشرته من قصص ، بذلك يوحى إلى نقاد وقراء ، ولعلهم لم يغرروا بى مجاملة لى ، أو خطأ منهم .

عشر مجموعات ، ورواية قصيرة ، وكل قصصى لا تزيد كثيرا عن ستين قصة ، منذ قصص أواخر البدايات بين عامى ١٩٥٤ و ١٩٥٦ إلى اليوم ، وبينها ما هو قصير ، وما هو قصير طويل ، الخبرة والصبر والدأب هى سلاح المبدع فى رحلته، وأن نكتب قصة جيدة ، فهذه ضربة حظ ، وأن نقع فى كتابة قصة أدنى ، فهذه سوء حظ، ذلك ما يعرف فى كل مبدع ، ذى خبرة وتمرس . فقد نعطى تجربة أكثر مما تستحق من الحجم ، وقد نتوهم غنى فى تجربة ثمرة لانفعال وهى فقيرة عن هذا الغنى ، وقد نخطىء الطريق فى وسائل قصنا لهذه التجربة ، وفى كيفية بدئها والتوقف عند ختام بعينه ، وقد يزحمنا الانفعال الشعرى ، بروح غنائى وخطابى ، يبعدنا كثيرا عن طبيعة القص ، وقد يسيطر علينا الحياد ، والتجرد ، مثلما عالم فى معمل ، فتقتل التجربة بين أيدينا ، ويموت قصنا لها ، وقد .. وقد ..

واختيار اللحظة للقص ، لكتابة القص، أمر يعرف حينه المبدع من أهل القص ، ويحدده كل قاص لنفسه : متى ، بل وأين المكان الأثير للكتابة ، وفى أى حالة نفسية يكون القاص المبدع لحظة كتابته لقصته ، وبأى روح يكتب فى لحظة الكتابة ، ومدى تداخل الوعى واللاوعى ، فى حلم يقظة مبدع وخلاق ، لحظة القص ، لحظة الكتابة لقصة ، ولقصة بعينها دون أخرى . ألا يبدو ذلك كله هُلاما ، وفى السديم ؟ !

وأن يكون القاص هاويا للقص ، أيا كانت خبرته واقتداره ، أفضل له ألف مرة من أن يكون محترفا ، ورتيبا . فذلك يمنحه الحرية الخاصة ، والحرية الشخصية ، والحرية المطلقة فى اختيار التجربة ، وترك هذه التجربة تختار لحظة ميلادها ، والويل له ، مع ذلك ، إن كان الحمل كاذبا ، أو كان الوضع قبل الأوان ، أو كان عسيرا يحتاج إلى عمليات قيصرية، فالقصة القصة طلقة، سريعة التدفق ، والانطلاق ، فى لحظة فجر، حتى فى ظلام ، أو فى عز النهار.

وخبرتى التى خرجت بها من تجربتى ، ولا أفرض على سواى طرحت على مقولاتى الخاصة عن القص : كل تجربة تحمل معها رؤيتها فى ذات اللحظة ، وتفرض وسائل قصها ، طرح الزوائد والحشو فى القص «تشفية » محتومة ، فى اللغة ، وفى

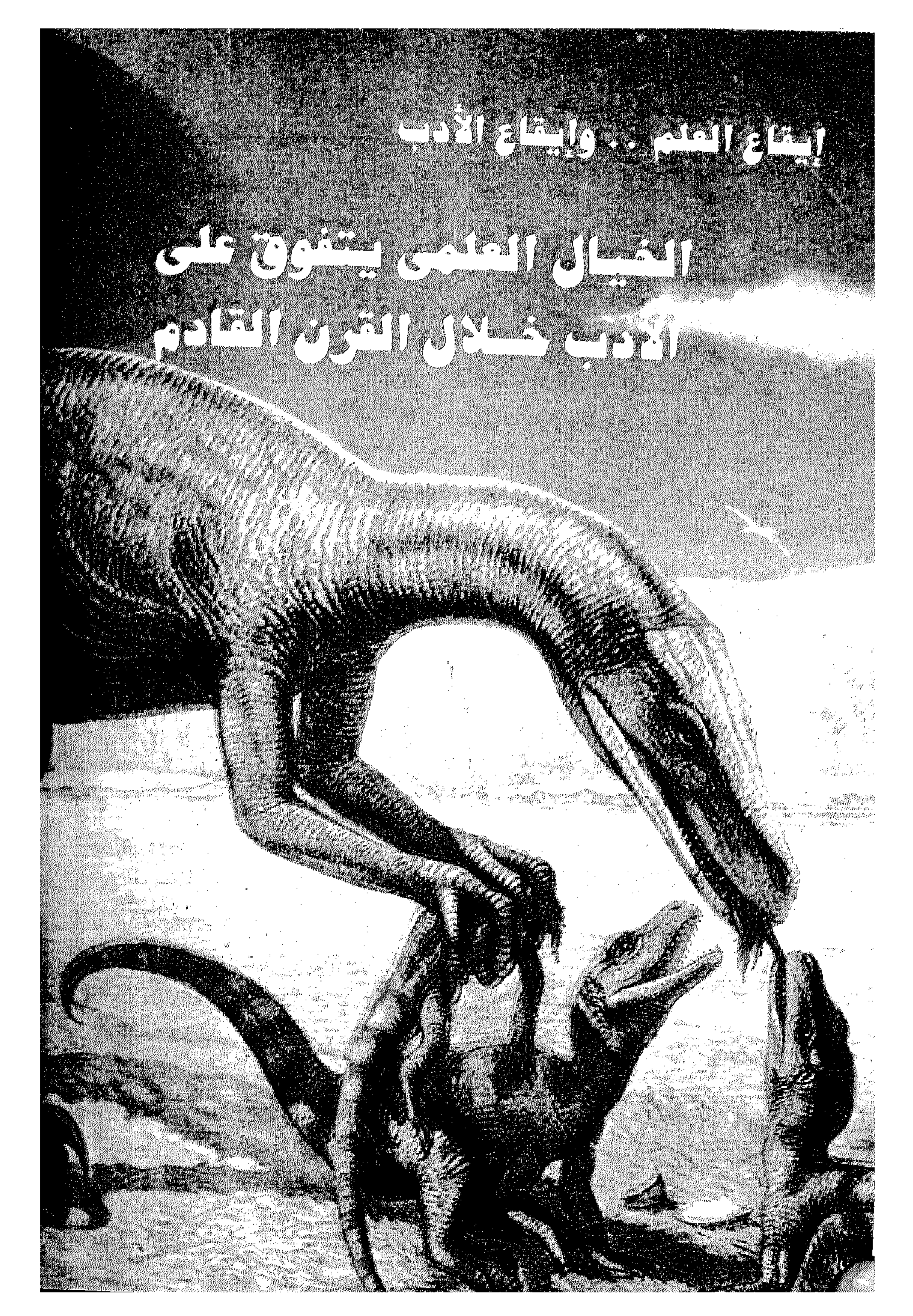
الموقف، وفى الحدث ، وفى الصورة ، فالاقتصاد فى القص مؤثر للغاية ، ودرجة نحو الاكتمال ، بدء القصة يحدد مصيرها، فى طريق السلامة ، أو طريق الندامة ، والدخول فى الموضوع هو أسلم بداية ، توزيع أية معلومات عن الأشخاص ، والأحداث ، والمواقف فى ثنايا القصة بأسرها ، وبطريقة ذكية وغير مباشرة ، ينجى القص من أسوأ وسائله : السرد ، والإسراف فى الوصف ، والتلخيص ، الحدة العاطفية كالبرود العقلى ، أمران يقتلان القص ، والتشويق القصصى . عرى القص من تمايز الشخصيات وتباين المواقف ، يحرم القص من عنصر الصراع الدرامى فيه ، عرى القص من الإحساس لدى القارىء بالزمان والمكان ، يحرم القص من الشعور بالحضور ، وبالتجسد ، وبالحركة ، الاقتراب مما هو حسى ، مفردات وصورا ، يتيح للقص مساحة أوسع من القراء ، ومستويات متعددة للقراءة ، والتفسير .

أتلك دروس فى القص ؛ لم أقصد إلى ذلك ، وعفا الله عنى، فلكل شيخ طريقة، ولكل مبدع خبرة ، وابتكار خاص ، لأن له روحا متميزا لا يشاركه فيه أحد ، منذ لحظة الميلاد ، وربما بعد الموت أيضا ، ولا أنصح بمقولاتى أحدا ، فالإنسان ، كل إنسان ، كائن فريد ، فى الحياة ، مثلما فى الإبداع .

أمر واحد يشغلنى حين أقص ، ألا أقول كل شىء وأن أدع للقارىء مساحة للخلق والإبتكار ، والإبداع فى الإبداع بخبرته الشخصية والخاصة . فكل إنسان هو بالضرورة فنـــان ، فى قسم من مخه البشرى ، منتجا كان للإبداع أو متلقيا له ، فالإبداع بدون متلق له ، يفقد أحد طرفى معادلة الإبداع : المبدع .. والقارىء ، وذلك المبدع الذى يكتب للصفوة المبدعة وحدها ، هو فى رأيى كمن يحتكر المعرفة ، ويقتصر طقوس الكهانة ، ومعارف الكهانة على الكهان .

الإبداع عندى ، نشاط اجتماعى ، فى حقل الثقافة ، وطريقى مع الإبداع ، هو طريق القص ، أفلحت فيه ، أو قصر بى الجهد دونه ، ولا أحد يستطيع أن يفعل أفضل مما فعله ولم يفعله ، ولا أحد إلا ويعطى ما عنده ، وما يقدر عليه ، وفى الحالين ، فلم أحرم حظ المحاولة ، ولم أحرم متعة التجربة ، ولعل هذه المتعة ، هى ما تدفع بالآلاف بعد الآلاف ليقصّوا بدورهم ، والناجون ، فى غربال الزمن ، والناس ، والأجيال ، قليلون ، وعسى أن أكون واحدا منهم .

●



إيقاع العلم .. وإيقاع الأدب

الخيال العلمي يتفوق على الأدب خلال القرن القادم

بقلم : محمود قاسم

لم تهدأ المنافسة قط طوال قرن ونصف من الزمان بين الأدباء ، والعلماء ..

وقبل عام ١٨٥٠ ، لم يكن أحد من القراء يتصور أن الأدباء الذين عليهم أن يكتبوا القصص الرومانسية الملتهبة . وحكايات العاشقين ، والبائسين ، والمغامرين ، يمكنهم أن يدخلوا المعامل ، وينافسوا العلماء . ويصنعوا المستقبل ..

هذه المنافسة التى وصلت إلى حد الصراع فى بعض الأحيان ، كانت سمة من سمات القرن العشرين . قرن الطفرات العلمية . وأوجدت ظاهرة أدبية سيطرت على عقلية هذا القرن . وعلى أذهان القراء عرفت تحت اسم الخيال العلمى ..

والخيال العلمى هو ابن السنوات الأخيرة من القرن الماضى ، والقرن الحالى الذى ينصرم الآن .. واغلب الظن أنه سوف يظل سيداً للأنواع الأدبية فى القرون القادمة لأنه ليس فى المتصور أبداً أنه سوف تقل أهميته ، أو حتى تمشى وتيرته على نفس النغمة ..

ومن هنا تجيء أهمية الحديث عن الخيال العلمى الذى شهد طفرات وقفزات لم يشهدها أى نوع أدبى آخر ، ففى الوقت الذى اندثرت واختفت مذاهب ومدارس أدبية عديدة فى القرن العشرين . فإن أدباء الخيال العلمى يتطورون يوما وراء يوم ، ويجدون آفاقا واسعة ، جعلتهم يبدعون فى آداب أخرى منبثقة عن هذا النوع مثل الخيال السياسى وأدب الفانتازيا العلمية ، وأدب الظواهر الخفية .. وغيرها من التى سوف تنبثق عن أدب النوع فى العقود القادمة ..

ونتيجة لجاذبية هذا النوع من الأدب ، فإن الحديث عنه لا يعتبر مكرراً لأنه يجد نفسه ، وأفكاره ، وكتابه دائما فى حالة صيرورة وتطور .. وهناك أسماء جديدة بارزة كل يوم تضاف إلى قائمة أدباء هذا النوع ..

كما تجيء أهمية الخيال العلمى فى أنه لم يكن يوما أدبا اقليميا ، يناسب منطقة بذاتها عن منطقة أخرى . فقد برع فيه أدباء يكتبون فى فرنسا ، والولايات المتحدة ، والاتحاد السوفييتى ، واليابان ، ومصر ، وايطاليا ، والهند وايضا فى أفريقيا واستراليا ..

وفى كل يوم ، تصدر عشرات الكتب فى جميع انحاء العالم مليئة بأفكار جديدة تبدو مجنونة ، ومهووسة وغير واقعية ، ولا يصدقها أحد ، ويعتبرها الناس خيالات . ولكن الطريف أنه قبل أن ينتهى القارىء من التهام سطور احدى هذه الروايات يمكنه أن يطالع خبراً طيرته وكالات الأنباء عن اكتشاف مثل هذا الاختراع الذى تخيله أديب الخيال العلمى .. فتتحول التسمية من الخيال العلمى إلى الواقع العلمى ..

متواليتا السلحفاة .. والهندسة

ذلك لأن على أدب الخيال العلمى أن ينطلق بسرعة المتوالية الهندسية . وكان الأدب فيما سبق يتحرك بسرعة المتوالية السلحفية .. فعندما قدم جول ڤيرن رواياته التى تخيل فيها كل منجزات القرن العشرين كان على القراء أن ينظروا إلى هذه الأمور بمثابة حكايات شاطحة الخيال (فانتازيا) لا يمكن أن تتحقق ولذا كان على ڤيرن أن يصوغ رواياته فى اطار جذاب . تبدو للوهلة الأولى روايات مغامرات، وعلى القارىء أن يصدق وقائع المغامرة ، أولا .. كل حسب كمية العبقرية التى يتسم بها ..

ورغم أن قائمة أدباء الخيال العلمى تضم آلاف الأسماء . وملايين العناوين فإن الحديث عن جول ڤيرن يعتبر دوما ذا نكهة خاصة . فرغم أن نقاد الخيال العلمى يضعونه الآن فى متحف تاريخ الخيال العلمى ، مع زميله البريطانى هـ . ج ويلز . إلا أن الحديث عنه فى اطار هذا الأدب أشبه بالحديث عن حلاوة أول قبلة . فهى ذات مذاق خاص .

ولذا ، فإن المجلات المتخصصة ، وغير المتخصصة تختلق المناسبات للحديث مجدداً عن عبقرية جول ڤيرن . وقد حدث هذا أخيراً من خلال الصفحات التى خصصتها مجلة ستوريا عن ڤيرن .. وتجىء أهمية هذه الصفحات من أن عدد شهر ديسمبر ١٩٩٢ من نفس المجلة كان مخصصا لموضوعات شيقة . لكن المحور الأساسى فى هذه المجلة المتخصصة فى التاريخ كان عن أديب .. هو جول ڤيرن باعتباره رجلا عجيبا ..

وجول ڤيرن رجل عاش عصره . ولم يتجاوزه . بمعنى أن أغلب الروايات التى كتبها عبارة عن مغامرات معاصرة للزمن الذى عاش فيه . ولم يكتب سوى رواية واحدة تدور أحداثها فى الزمن البعيد هى «يوميات صحفى أمريكى فى عام ٢٨٩٠».

وقد تصور ڤيرن أبطال رواياته يعيشون من خلال انجازات علم المستقبل . بمعنى أنه لم يشأ أن يحرم أبناء عصره مما سيحققه لهم المستقبل . وتلك عبقرية فى حد ذاتها . ونوع من اكساب الواقعية

لأدبه ولعـالمه .. واعطى تبـريراً لكل شيء فـعله مما جعل النقاد يعتبرونه من كبار كـتـاب الرومـانسيـة رغم أن النسـاء تكاد تختفي تماما من رواياته العلمية . وتلعب دوراً هامشياً في روايات من طراز « ٨٠ يوما حول العالم » فهناك عشق خاص بين أبطال رواياته والمغامرة ، والمكان ..

رحلات متنوعة حول العالم

بل إن ڤيرن راح يستجمع لعصره كل التواريخ القديمة . والمعاصرة والمستقبلة . ففي روايته « رحلة إلى منتصف الأرض » سنرى أن في جوف الأرض تعيش كافة الحيـوانات المنقرضـة كالماموث والديناصورات وغيرهما .

ومفتاح فهم عالم جول ڤيرن ، وسباقه الواضح مع العلماء الذين سيجيئون بعده هو قراءة متأنية لروايته « ٨٠ يوما حول العالم » . فرغم أنها لا تنتمي إلى الخيال العلمي . ولا تعدو أن تكون رواية مغامرات . إلا أنها مفتاح لفهم كافة رواياته الأخرى فلأن ڤيرن كان يعشق الرحيل فقد شاء لأبطاله أن يرحلوا حـول العـالم بشـتى الطرق . وفي رواية « ٨٠ يوما حول العالم» قام الشاب البريطاني فيلياس فوج برحلة حول العالم في ثمانين يوما (الحقيقة كانت تسعة وسبعين يوما) وذلك لأنه اتجه نحو الشرق مارا بقناة السويس . والهند ، ثم المحيط الهادىء والولايات المتحدة ، حتى عاد ثانية إلى بريطانيا .

وفي رواياته العلمية أراد ڤيرن لأبطاله أن يقوموا بجولة حول العالم من خلال أماكن أخرى مرة في الجو . وأخرى تحت الماء . وثالثة في أعماق الكرة الأرضية . فعندما أراد هؤلاء الأشخاص أن يطيروا فوق العلم حدث ذلك من خلال « خمسة أسابيع في بالون » وعندما أرادوا أن يحدث ذلك في أعماق البحار والمحيطات تم ذلك من خلال غواصة في « ٢٠ ألف فرسخ تحت البحار » . ثم كانت الرحلة حول العالم تحت أعماق الأرض في « رحلة إلى منتصف الأرض » .

والطريف أن أشخاص هذه الروايات قد سلكوا نفس الطريق الذي سلكه فيلياس فوج . ففي « ٢٠ ألف فرسخ » كان على الكابتن نيمو أن يتجه بغواصة نيوتيليس نحو البحر الأحمر . ثم نحو الشاطيء الهندي . والمحيط المتجمد . واتجه بعد ذلك إلى المحيط الهندي .. وحدث ذلك أيضا في بقية الروايات .. حتى في رحلاته الفضائية إلى القمر .

الأدباء .. قبل العلماء

نحن اذن أمام روايات رحلات .. وطالما أن رحلة هناك يقوم بها اشخاص . فيجب على المغامرين أن يوفروا أسباب الرحلة لأنه لا يمكن الإبحار حول العالم تحت الماء إلا من خلال غواصة .. وهنا ظهرت عبقرية ڤيرن ، في أنه فتح للعلماء كيف يكون شكل السفينة التي تعوم تحت المياه .. مثلما



سبق للرسام دافنشى أن تصور مخترعات القرن العشرين ..

وهكذا أمكن لفيرن أن يرسم كيف تكون المركبات التى تناسب هذه الأماكن أعماق البحر ، الجو ، الفضاء ، واعماق الأرض .

فحين كتب فيرن روايته « من الأرض إلى القمر » كان أبناء القرن التاسع عشر لا يفكرون قط فى إمكانية الذهاب هناك عن طريق العلم . ولكن الصاروخ القذيفة الذى ابتدعه فيرن كان فاتحة للعلماء الذين أطلقوا صواريخهم حول الأرض ، ثم لتهبط فوق القمر ، أن يضعوا فى اعتبارهم الشكل الانسيابى للصاروخ ثم عامل الجاذبية الأرضية .

الجدير بالذكر أن فيرن لم يكن ظاهرة أدبية وحيدة تهتم بهذا النوع من التنبؤ العلمى . بل قيل إنه استوحى الفكرة من قصة قصيرة كتبها ادجار الن بو ، وفى نفس السنة التى نشرت فيها هذه الرواية كان للكاتب الكسندر ديماس ، الذى اشتهر بأن ابطاله لم يستخدموا سوى الجياد لانجاز مغامراتهم ، قد انجز رواية عن رحلة مشابهة نحو القمر .. أما هـ . ج ويلز فقد اخترع أبطاله رواية « أول إنسان فوق سطح القمر » مادة الكاثوريت التى تتغلب على الجاذبية .

ونحن لا ننكر أن العلماء فى تلك الفترة كانوا يفكرون ويستعدون لكن لا شك إن ابطال هذه الروايات قد نزلوا هناك قبل ارمسترونج وزملائه بعقود عديدة . ولا شك أيضا أن ابطال هذه الروايات قد فعلوا ما سيفعله احفادنا من أجيال بعيدة من خلال اكتشاف الوجه الحقيقى للحياة فوق سطح القمر ..

والعلماء أيضا .. أدباء

أما عن رواية « ٢٠ ألف فرسخ تحت البحار » فإن البحار أروناكس لم يكن له أن يقوم برحلة حول العالم تحت البحار سوى من خلال المنجزات العلمية للكابتن نيمو . وهو رجل لم يخترع هذه الغواصة عبثا . بل راح يسخر مخلوقات البحر كافة ، من خلال العلم ، لخدمة أهدافه ، فهو يضع الأطعمة ، ووسائل منع الحياة المختلفة من أعماق البحر . وكأنه بذلك يشير إلى أن اكتشاف كنوز البحار لا يقل أهمية عن الحياة فوق سطح القمر .. كما اثبت فيما بعد أن التوغل فى أعماق الأرض يكشف أيضا كنوز الحياة منذ بدء الخليقة حتى الآن ..

وتجىء أهمية هذه العلاقة بين ما كتبه فيرن وما أنجزه العلماء من تصوراته ان الكاتب الفرنسى ، وكل اقرانه فيما بعد من أدباء الخيال العلمى ، لم يلجأوا إلى الفانتازيا ، وهى نوع من الخيال من الصعب تصديقه أو التنبؤ أنه ممكن الحدوث فى الواقع .

ولذا فالمواجهة ، أو فلنقل المنافسة بين الطرفين قد بدأت عند هذه الكتابات .. لكنها لم تنته خاصة أن الخيال العلمى قد وجد فرسانه من العلماء الذين درسوا العلم، وحققوا الكثير فى المختبرات والمعامل .

فأرثر كلارك مؤلف رواية « ٢٠٠١ اوديسا الفضاء » لم يكتب رواية واحدة ، إلا بعد أن حقق الكثير فى مجال علم الاتصالات اللاسلكية . وذاع صيته كعالم بارز ، أنجز الكثير .. ولم تكن كتاباته سوى تنبؤ لما يمكن أن يتحقق فعلا مع مطلع القرن الواحد والعشرين . وقد اكتسبت رواياته أهمية خاصة لما بها من تحذير . فقد تصور أن الصراع الجدلى سيكون بين البشر وبين منجزاتهم العلمية . مثل المواجهة بين الكمبيوتر العملاق « هال » وركاب سفينة الفضاء نو سترومو الذى انتهى لمصلحة الكمبيوتر فى المقام الأول.

أما اسحاق أزيموف فهو من أبرز العلماء التطبيقيين . وتخصص فى الكيمياء الحيوية . ووضع القوانين الثلاثة التى تحكم سلوك الانسان الآلى .. وله كتب هامة فى علم الحياة . والعديد من الروايات البارزة فى أدب الخيال العلمى . وإذا كان ڤيرن قد رحل مع أبطاله فى غواصة فى أعماق البحار فإن ويلز قد رحل مع أبطاله عبر الزمن فى « آلة الزمن » . أما أبطال أزيموف فقد توغلوا داخل جسم الكائن البشرى فى روايته « الرحلة العجيبة » . وهى رحلات تحققت واحدة منها . أما الثانية فسوف تكون ممكنة يوما ، وإن كان هناك تساؤل دائم عن امكانية العلم فى أن يتيح للبشر أن يسافروا عبر الزمن .

ثقافة التطور الهندسى

ولم تقتصر ظاهرة العلماء الذين اتجهوا للإبداع الأدبى فى نوع الخيال العلمى على الأسماء السابقة وحدها . فهناك أيضا الأديب مايكل كرايتون ، وهو أيضا مخرج سينمائى ، قدم فيلم الغيبوبة، فقد ألف كرايتون كتابا هاما عام ١٩٨٣ عن برمجة الحاسب الآلى يعتبر الآن مرجعا هاما فى هذا العلم ، فى نفس الوقت الذى اهتم بالرحيل عبر الزمن . والتحذير من أن رحلات الفضاء قد تأتى إلى البشر بأمراض تفتك بالبشرية . ولعل منها مرض فقدان المناعة الطبيعية « الإيدز » .

ولم يتجه العلماء برمتهم إلى الإبداع الأدبى . ولكن لا شك أن المنافسة قائمة . خاصة مع وجود أدباء يؤمنون بدور العلم على تشكيل صورة الحياة فى المستقبل . وكما سبقت الاشارة فإن العلم وأدب الخيال العلمى يتحركان معا بإيقاع المتواليات الهندسية . ولا شك أن هذا سوف يساعد على تغير إيقاع الحياة بشكل يمكن للناس العاديين أن يستوعبوه. وآنذاك سوف تزداد حدة التخلف ، وتتساقط إلى الوراء ، وتنطلق عجلة التقدم نحو الأمام .. ولن تكون هناك مسافة بين الطرفين .. لأنه لن يكون هناك سوى العالم المتطور .

حول بينالى القاهرة الرابع للفنون التشكيلية

بقلم : د . صبرى منصور

تحولت مصر خلال السنوات القليلة الماضية إلى مركز تقام فيه أنشطة فنية متنوعة ، ويدعى إلى المشاركة فيها دول العالم المختلفة ، فمن مهرجان الكتاب إلى مهرجانات السينما بالقاهرة والأسكندرية ومهرجان المسرح التجريبى ، وترينالى الخزف وبينالى القاهرة وبينالى الأسكندرية ، ويظل هذا الجهد الثقافى فى تنظيم هذه المهرجانات مدعاة للتقدير والإعجاب ، بما يمكن أن يثيره من أفكار للتطوير ومواكبة التقدم العالمى ، وخاصة أنه يأتى فى وقت تتراجع فيه اهتمامات المجتمع المصرى الثقافية ، ويهبط فيه مستوى الذوق العام ، بل وينادى البعض منا بتطبيق مبدأ الحلال والحرام على أنواع راقية من الفنون .

ولكننا فى نفس الوقت ندعو إلى إعادة تقييم هذه المهرجانات تقييما علمياً وموضوعياً دقيقاً ، مستهدفين فى ذلك ما يمكن أن تعود به من فائدة حقيقية ، وليست مظهرية - على نمو الحركة الثقافية وازدهارها فى بلادنا .

ونترك الرأى فى المهرجانات التى تعقد للكتاب والسينما والمسرح لأهل الاختصاص ، ولنر ما يمكن أن يقدمه معرض بينالى القاهرة للثقافة المصرية

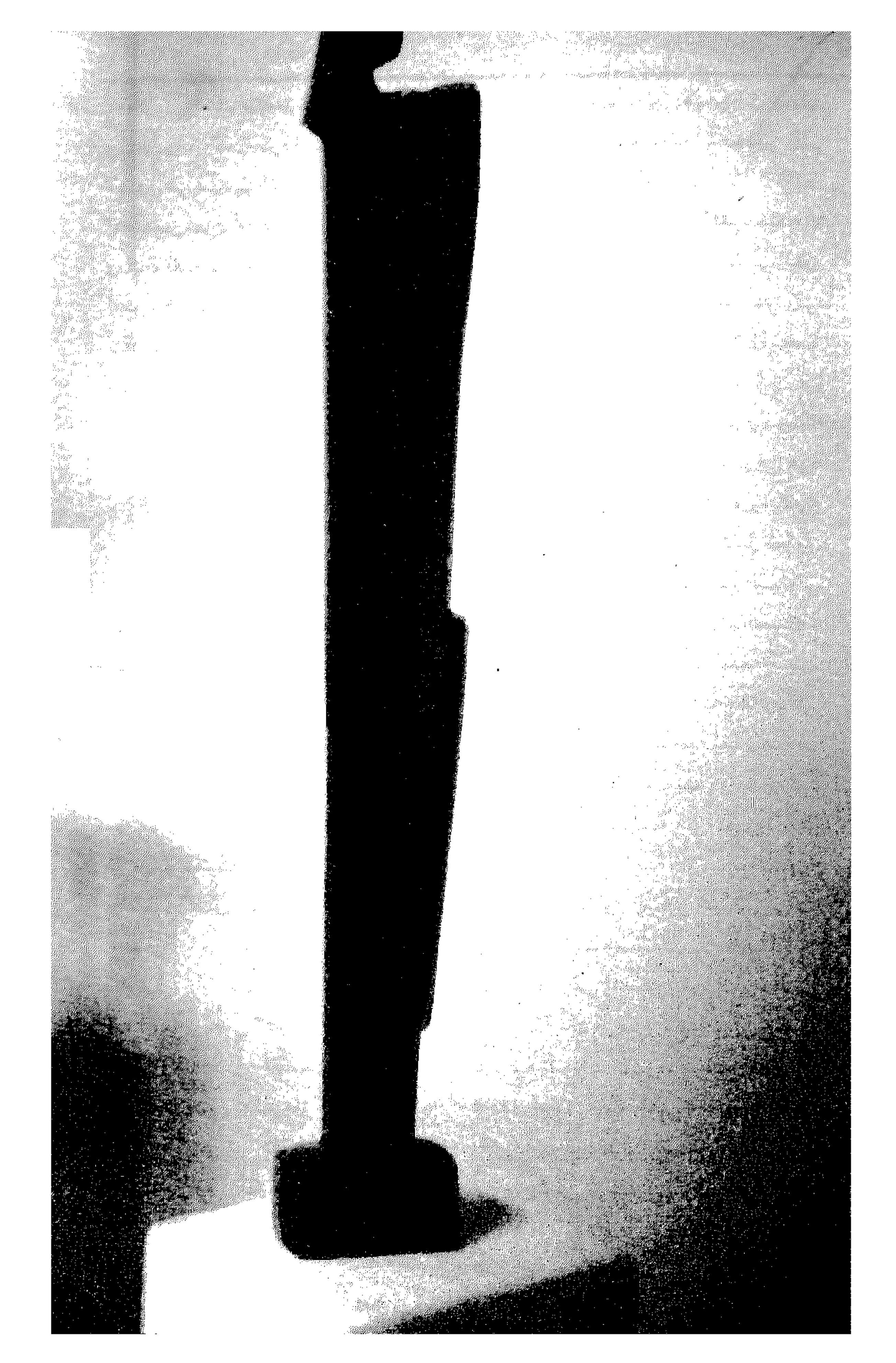


الجائزة الأولى فى الرسم للفنان الكوبى زايدادل ديو

عامة ، والتشكيلية منها على وجه الخصوص . فبعد ثلاث دورات تأتى الدورة الرابعة للبينالى مخيبة لآمال المتخصصين ومتذوقى الفنون التشكيلية ، وفى تقديرنا فإن ما أنفق على إقامته وتنظيمه والاحتفاء به لايتفق مع هذا المستوى الهزيل للأعمال المعروضة من جميع الدول باستثناء الجناح المصرى ، وإذا ما عقدنا مقارنة سريعة بين المستوى الفنى للأعمال الفنية التى تشترك فى بينالى الاسكندرية وما هو معروض حالياً فى بينالى القاهرة لوجدنا فرقاً واضحاً ملموساً لا تخطئه العين . ويذكر المتابعون لمشاركات الدول فى بينالى الاسكندرية كيف أن الأعمال المختارة والممثلة لدول مثل أسبانيا وفرنسا وايطاليا ويوغسلافيا كانت على مستوى رفيع يمنح الجمهور متعة الالتقاء بنماذج راقية ورؤى مبدعة من الفنون .

بداية الفكرة

منذ سنوات طوال - ربما من الخمسينات - ومصر تقيم فى مدينة الاسكندرية معرضا كل عامين تحت إسم بينالى الاسكندرية ، وتشترك فيه كل الدول المطلة على البحر الأبيض المتوسط ، وعلى



اعتبار أن هناك عناصر ثقافية تجمع فيما بينها ، وقد ظلت فكرة إقامة بينالي آخر للفنون في مدينة القاهرة تراود أذهان العديدين ممن رأوا أن لعاصمة مصر قدراً ومكانة ثقافية ودوراً ريادياً في مجال الفنون التشكيلية ، وهي بالفعل كذلك حين بدأت منذ أوائل هذا القرن حياة فنية وثقافية نشطة مالبثت أن انعكست آثارها على ثقافة البلاد العربية المجاورة .

وفي عام ١٩٨٣ اجتمعت لجنة موسعة من الفنانين التشكيليين والمسئولين بوزارة الثقافة ، وناقشت إمكانية تحويل هذه الفكرة إلى واقع ، واستقر الرأى حينذاك على إقامة بينالي في القاهرة وذلك في العام الذي يلي إقامة بينالي الأسكندرية ، كما رأت اللجنة أن يخصص لفناني الدول العربية لكي يكون تجمعاً لفنون المنطقة العربية وما يمكن أن يسفر عنه هذا اللقاء من حوار ثقافي بين دول تجمعها عناصر ثقافية مشتركة . وتلك كانت فكرة ممتازة يدعمها المنطق السليم ، إذ أنه في ظروف حضارية واجتماعية واقتصادية محدودة للغاية - والعالم كله يدرك ذلك - لن تستطيع أن تعطى لنفسك حجماً أكبر مما هو في واقع الأمر ، فتتصدى لتنظيم أقوى من طاقتك وفوق امكانياتك المادية والادارية بالإضافة إلى أن الاقتصار على تجميع الدول العربية يخلق نوعاً من الاختلاف والتمايز بين مهرجانين تقيمهما الدولة ، فكل منهما يقدم لحياتنا الثقافية زاداً مختلفاً عما يقدمه الآخر .

وفي أول دورة لبينالي القاهرة جمعت الفنانين العرب تحت اسم بينالي الفن العربي وأقيمت عام ١٩٨٤ ، ثم تحول في الدورات التالية (٨٦/ ٨٨/ ٩٢) ليضم مجموعة من الدول الأوربية وممثلين عن قارات آسيا وامريكا اللاتينية وأمريكا الشمالية وكندا ، ولقد تم التفكير في هذه الإضافات التي تتغير في كل دورة كنوع من التطعيم الثقافي ، ولكي يكتمل تمثيل العالم في البينالي ، وهكذا بدأ البينالي يفقد معالم أساسية من معالم شخصيته ، فهذا المعرض الدوري يكتسب صفة الثبات دائما من ثبات المشاركين فيه ، فالبينالي عادة ما يكون تجمعاً ثقافياً إما لمجموعة محددة من الدول تربط بينها روابط ثقافية بعينها كالدول العربية ، أو الأوروبية ، أو دول أمريكا اللاتينية ، أو مجموعة الكومنولث ، أو دول البحر الأبيض . وإما أن يكون مفتوحاً لكل بلاد العالم بلا استثناء . وفي الحالتين فإن دعوة الدول المشاركة لابد أن تكون ثابتة ، وأن تتم في جميع الدورات ، وهو ما يمنح المعرض قيمته واستمراريته وأهميته كتجمع ثقافي وفني دوري ذي تقاليد راسخة .

ولايكفي أن تشارك بعض الدول

الأجنبية لكى نطلق على هذا البينالى أنه معرض عالمى أو دولى ، فالعالمية فى معناها الحقيقي ليست إطلاق الأسماء التى نرغبها لكى نحس أننا أصبحنا ملء السمع والبصر ، وانما معنى العالمية فى الاعتراف الذى تبديه دوائر الثقافة والفن العالمى بالقيمة التى تتحقق من خلال هذا المعرض ، وأهمية ما يعرض فيه من إبداع أصيل وجديد ، وأن يرتاده المهتمون بأمور الفن التشكيلى فى أنحاء العالم للاطلاع على ما يحتويه من رؤى فنية جديدة كما يحدث فى بينالى فينسيا مثلاً .

مشاركة الدول

ولقد تعود المتابعون لمعرض بينالى الأسكندرية على المساهمات الجادة للدول المشاركة فيه ، فكانت إقامته مناسبة طيبة للعديدين من متذوقى الفن التشكيلى ومحبيه، ممن لا تتاح لهم فرصة السفر للخارج للالتقاء بتجارب فنية على درجة عالية من القيمة ، فكانت أجنحة دول أوربا الغربية وبعض دول أوربا الشرقية تقدم وجبة ثقافية ذات مستوى رفيع ، ولقد لوحظ فى بينالى القاهرة قلة اكتراث هذه الدول بالمشاركة الجادة ، وربما كان ذلك لأسباب عديدة من بينها ضآلة قيمة الجوائز المخصصة للمعرض ، فالجائزة الكبرى وقدرها عشرة آلاف جنيه أى حوالى ثلاثة آلاف دولار ، وهو مبلغ ضعيف وهزيل إذا ما قورن بما تمنحه المعارض العالمية ، كما يوحي بعدم أهمية المعرض نفسه ، فإذا أضفنا أن البينالى مخصص أساسا للدول العربية مما يقلل من حمى المنافسة بين الدول الأوربية المدعوة للمشاركة بصفة غير أساسية ، وكذلك ما لا يمكن أن يتوقع من فائدة تعود على الفنانين المشاركين لعدم وجود سوق رائج للفنون التشكيلية فى مدينة مثل القاهرة ، وانعدام وزنها العالمى فى هذا المجال ، وعدم وجود حركة نشر ونقد فنى واهتمام جماهيرى واسع النطاق . كل تلك عوامل محبطة لاتدفع دولة ما إلى العمل على أن تأتى مشاركتها على أعلى مستوى فنى ممكن ، وهذا يؤدى بالطبع إلى أن يفقد هذا التجمع قيمته كمجال لحوار فنى رفيع بين الاتجاهات والرؤى الفنية لشعوب وثقافات مختلفة .

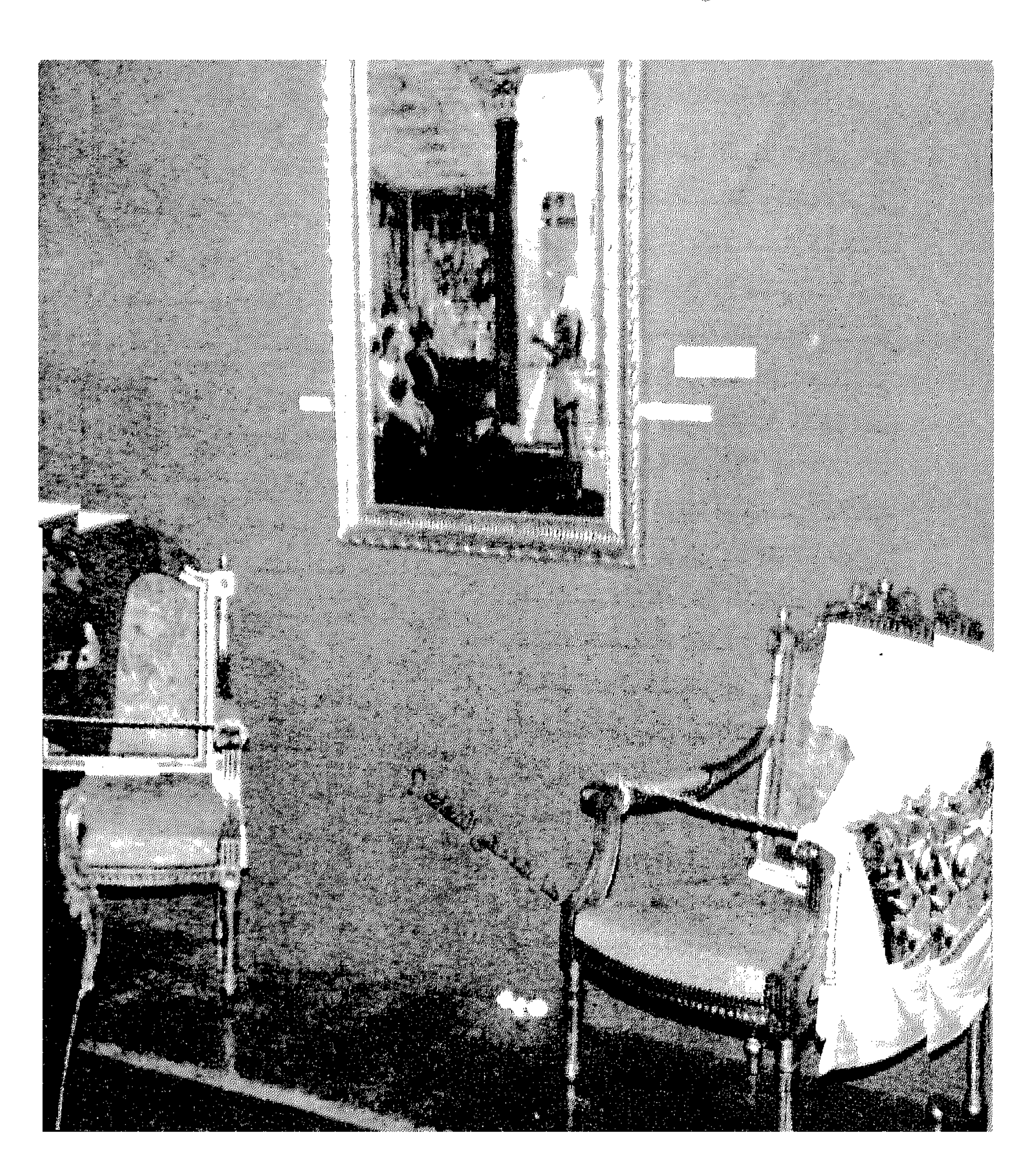
تجربة أمريكية

ولعل من أكثر أجنحة الدول إثارة هو الجناح الأمريكي الذى قدمه الفنان فريد ويلسون تحت عنوان (اعادة اكتشاف مصر) ، وهو عمل مركب وخليط من الصور الفوتوغرافية والتماثيل وقطع الأثاث والملابس ، وهذا العمل الذى تملأ مفرداته حجرة بأكملها يثير تساؤلات صاغها الفنان على النحو التالى :

هل الماضى بالنسبة للغرب أكثر حقيقة من الحاضر ؟

محمد عمر خليل (من السودان) جائزة الجرافيك

عمل مركب للفنان الامريكي فريد ويلسون



وهل الثقافة القديمة أقل تهديداً للغرب من الثقافة المعاصرة ؟

وهل الموتى أكثر أهمية للغرب من الأحياء؟

ويذكر الفنان فى تقديمه لعمله الفنى الغريب أن ما يريد تقديمه هو مناقشة المعتقدات المنتشرة فى أنحاء العالم حتى اليوم عن مصر ، وهى معتقدات خاطئة من وجهة نظره وان كانت حسنة النية ، وهو يرى أن بعض الأفارقة الأمريكيين قد عانوا طويلاً من حرمانهم من تاريخهم ، ومنعوا من ممارسة تقاليدهم الثقافية بسبب العنصرية وهؤلاء يرون فى مصر وتاريخها القديم ملجأ وملاذاً . ويعرض شريط الفيديو استعراضاً غنائيا للمغنى الشهير مايكل جاكسون وحوله باقى أفراد الاستعراض يرتدون الأزياء الفرعونية وهم يؤدون الرقصات الحديثة مما يخلع عن الحضارة المصرية القديمة رداء القداسة ويحولها إلى عنصر استهزاء واستخفاف !

وتجربة الفنان الامريكى تحتوى على فكرة جديرة بالاحترام والتقدير ففيها حسن تقدير وإجلال لحضارة قدمت للإنسانية ذخائر فنية خالدة ، ولكن كان يجدر بهذه التجربة أن تصاحب معرضاً إعلامياً يلقى الضوء على مصر وحضارتها وينبه الأذهان إلى أهميتها ويدعو إلى اكتشافها من جديد ، ولكن هكذا تأتى المشاركة الأمريكية بنشاط هو خليط ثقافى وإعلامى غير مناسب لموضعه فى بينالى القاهرة للفنون .

ملاحظات تنظيمية

من الملحوظات الجديرة بالتنويه تلك الندوات التى صاحبت فترة إقامة المعرض، وإن كنا نرجو أن يكون مادار فيها من حوار وما يطرح من أفكار وما تم من نقاش قد تم تسجيله وتوثيقه ليطبع فى كتيب يكون فى متناول الجميع ، خاصة أنه لا توجد مجلات متخصصة للفنون التشكيلية حتى الآن .

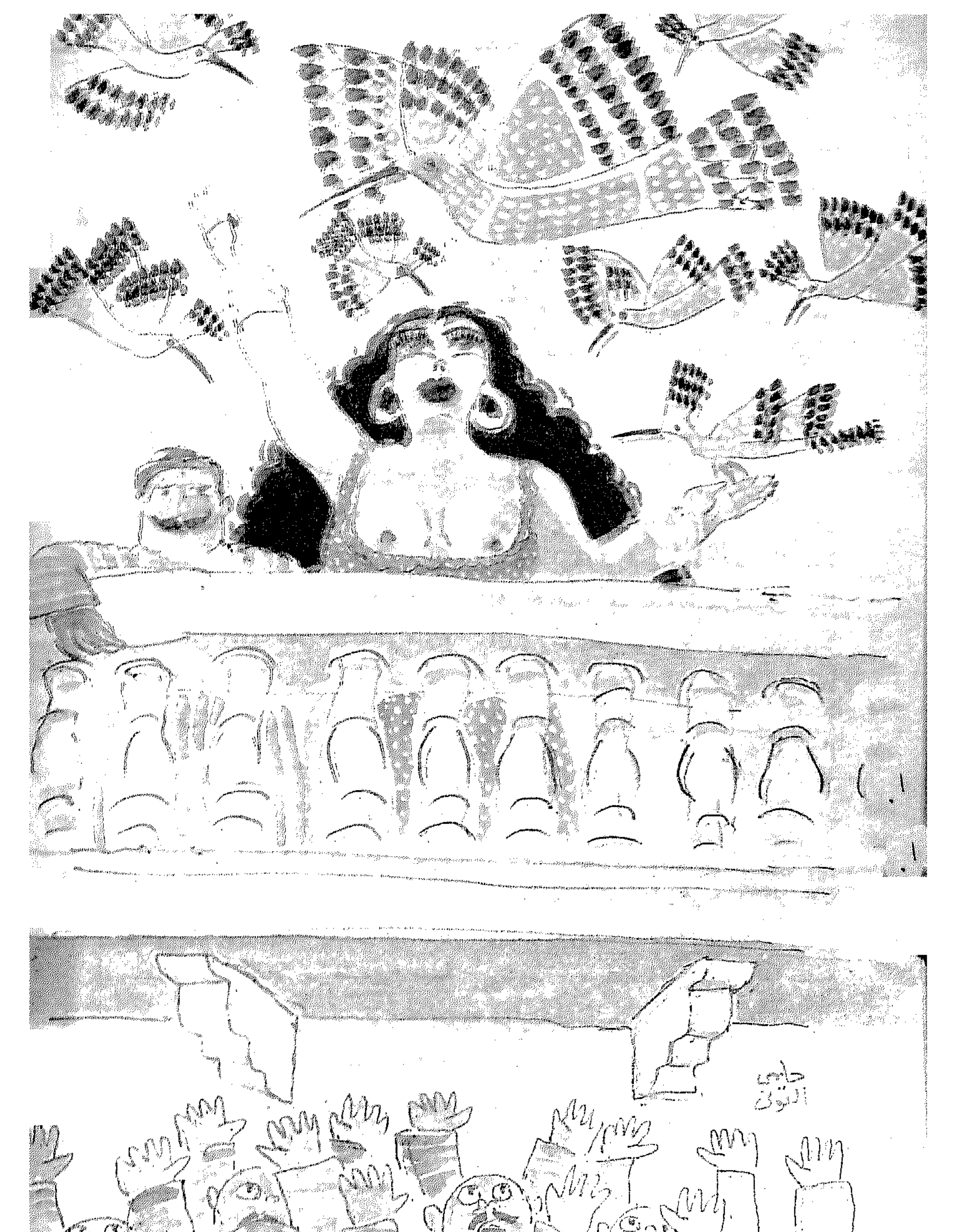
ولقد كان غريباً أن يختفى الكتالوج الخاص بالبينالى بعد افتتاح المعرض مباشرة ، وكان من الواجب أن تطبع نسخ وفيرة تكفى على الأقل المدة المخصصة للمعرض وهى ثلاثة شهور كما كان يمكن بيع الكتالوج بثمن معقول للراغبين .. ولكن أن تدخل بينالى عالمى وتسأل عن أى مطبوعة عنه فلا تجد حتى ورقة واحدة تعطى أى بيانات أو معلومات عن المعرض الكبير ..

ولم تكن موفقة فكرة إضافة جناح للشباب فى هذا البينالى ، ولم يظهر شباب الدول المشاركة أىّ وجود حقيقى أو مؤثر ، وفيما عدا مصر فلن تجد عملاً يسترعى الاهتمام ، وحتى الشباب المصرى المشارك

تسنح له فرصة التقدير والرعاية فى المعرض السنوى للشباب الذى يقام بالقاهرة وتخصص له جوائز قيمة . وكل ما أدت إليه هذه الإضافة هو مزيد من التشويش على شخصية بينالى القاهرة والأهداف المرجوة من إقامته .

أما العمل الفنى المركب والذى أحياناً ما يطلقون عليه اسم المجسمات فقد خصصت له جائزة فى البينالى بالإضافة إلى الجوائز المتعارف عليها فى مجالات التصوير والنحت والرسم ، وتلك في رأينا بدعة يجب التخلى عنها فى المعارض ، ففروع الفنون ومنها الفن التشكيلى فروع ثابتة ، ولا نعتقد أن هناك معرضا فى العالم قد اختلق شيئاً بهذا المعنى فالعمل الفنى مهما زادت عناصر الحداثة فيه ومهما خرج عن المفهوم التقليدى فأنه لايمكن أن نبتدع من أجله فرعاً جديداً أو تسمية خاصة ، فهل إذا خرج شاعر عن الشكل التقليدى المألوف للقصيدة ، أو استعار من فروع أدبية أخرى كالرواية والمسرح بعض عناصرها فإن معنى ذلك أن شعره قد خرج عن نطاق الشعر إلى مجال آخر ، إن مجالات الفنون محددة مهما كانت مع الجة الفنان وأسلوبه فى الاستعارة ومزج الفروع ببعضها .

ولعل إقامة بينالى القاهرة الذى افتتح فى ديسمبر الماضى وسيظل معروضاً طيلة ثلاثة أشهر تكون مناسبة تنتهزها وزارة الثقافة لإجراء مراجعة شاملة للهدف من إقامته وتحديد هويته والفائدة المرجوة من ورائه بما يحقق المصلحة الحقيقية والجادة لحياتنا الثقافية . فنحن بلد فقير يعانى أفراد شعبه من قلة الموارد ، وضآلة الميزانيات المتاحة لتدعيم الفنون ونشرها فى ربوع مصر ، وتلك مهمة مطلوبة فى هذه الفترة التى استحوذت فيها القاهرة على كل شئ ، وتركت الأقاليم تعيش حياة القرون الوسطى ، وتفرخ لنا من يطالبوننا بالرجوع إلى عصور سالفة . وربما لا يعرف الكثيرون أن هناك قصور ثقافة بالأقاليم تفتقر أشد الافتقار إلى أية أمكانيات مادية أو خامات فنية تجذب من خلال توفيرها الشباب الموهوب والباحث عن مأوى ثقافى ، وهو فى حاجة إلى عون وتشجيع وزارته للثقافة لكى تنمو موهبته وتزدهر ، وهو غالباً حين لا يجد ما يشبع هوايته فإنه يصاب باليأس والاحباط ، وسرعان ما تتلقفه التيارات الأخرى التى يجد لديها العون والمساعدة فى مثل هذا الوضع لا نملك رفاهية إنفاق الأموال وتبديد الجهود دون فائدة محققة وهدف واضح أكيد .


حلمي
التوني

قصـــة قصيرة



بقلـــم : محمد مستجاب

بريشة : حلمى التــونى

ويبقى وجه ربك ذى الجلال ، وزهرة وفرن وبقايا زيت خروع وهدهد وظـلال ، وعكّـازة تهش الطيف والنمل والذنوب وأصداء ليلٍ مقبل وطويل، قل هو الثـالث من آل مستجاب ، القابض على الصبر والجمـر والثـريا والماء وتماثيل الرخام ، الثالث من آل مستجاب ، الملقب بالنمس ، والعادل ، والفاجــر: لاسـتيقاظه الدائم فجراً ، دخل مرة على زوجة أبيه فرأى منها ماظل يبكيه ستة وسبعين عاماً ، الشامخ ، الضاحك الجاثم الأمير الحامى - لولعه بالخبز الخارج تواً من الفرن ، دخل مرة على أرملة أبيه فرأى منها ماظل يضحكـه سـبعة وستين عاماً ، الثالث من آل مسـتجاب ، له رسـالة فى قول الحق والبؤس المبكر، ومقدمـــة فى تشــريح ضفدعة على كف عفريت ودراســة فى البــوم والخفافيش ورســوم فــى تســريح

المصابيح والخيول والنساء ، ونصيحة فى ما يستطاب التهامه أولا من الصدور ، وله ديوان من الشعر المطبوع ، وكتاب فى ماتراه عين المحب الكفيف ، ومنظومة من بحر الوافر فى الحكم والأقوال المأثورة وأغنيات المهد وما يجب أن يقال على رأس الراحل ، وعنه أخذ آل مستجاب أنشودتهم الشهيرة التى يرددونها عندما تحل الأهوال : النار والخيانة والصقيع وآفة البهتان .

— ١ —

لم يكن أحد فى قامة الثالث إلا أباه مستجاب الخامس ، ولا فى قدرته على القفز إلا غزالا مطارداً ، ولا فى جبروته إلا العاصفة ، ولعل ذلك مرجعه أن الثالث كان رءوما بالريح عطوفا على الملائكة والثعابين وأبناء آوى ، يكره الجهل ويستحل دم من يهرس الورد أو السحالى أو الفَرَاش أو الناكر للمعروف ، ولذا فقد كان أول من عاش القوم ثلاثمائة عام تحت صولجانه هانئين ، حتى كان صباح ، جاءه عفريت من الجن وقالها له صريحة وهو يضطرب : امرأة جميلة شامخة تعيش فى الجنوب ، تفخر بأن مخلوقاً من إنسٍ أو جنٍّ ما تمكن من إشباعها هى ملكة النمل أو النحل ؟ بل هى من الإنس لها أفخاذ وسرة وأثداء وعنق وأجمل رأس فى الوجود ، هل أتيك بها نائمة على فرشها المعطّر الفوّاح بالأريج ؟ أم تسافر إليها ريحاً صرصراً عاتية فتداهم قصورها ورياشها وبساتينها وحورياتها ومداخل لذاتها ؟ فظل الثالث من آل مستجاب يفكر ويعرق ويتفكر ويصلى ويستصرخ كامن الجوارح ، اتركوا هذه المرأة إلى حين ، ودخل إلى عرشه الشامخ الممتد بين السماء والأرض حيث نام طويلا .

عندما استيقظ الثالث كان رائق الجوانح مفتوح العيون واسع القلب ، فلم يكن يليق به أن يرسل فى طلبها غرابا أو عفريتاً أو صقراً أو حماراً مخططاً قالت له الكلاب : لقد أعطاك الله هيمنة على كل هذا الكون الواسع فاجتهد ، فالله يحب من عباده المجتهدين ، قال

للنمـــور : وإننـــى خـير المجتهدين ، وأمر قومه فى النجـــوع والزرايبى والخيــام والكفــور أن يرسلوا له كل الفنانين ، هــؤلاء الذين شـــذبوا النخيل واعتصروا العنب واســـتخمروا القصـــب واستنســـجوا الحـــرير الهندى والموسولين والفراء وقمصــان الاستشــــهاء ، فجاءه جميع الفنانين : أكلوا وشربوا وتطارحوا وتناقشـــوا وتناهشـــوا وتنابذوا ، نحن تحت أمرك أيهـــا الثــــالث من آل مستجاب ، فأغلق الثالث كل الأسوار والحصون والمداخـــل وســـراديب الأرض وكوّات السماء ، واعتقـــل الريـح والرعـــد والعقارب والروائح ، هاهو يومكم ياآل مستجاب : لقد سمعتم بالقطع حكاية امرأة فى الجنوب لاتشبع يمكنها - كما سمعتم - أن تحتضـــن الفحـــل فيستحيل فى صــــدرها قصيدة مهشمة القوافى ، ويمكنها - كما سمعتم - أن تتمـــرغ فى نـــور الشمس شبقاً فتنزوى الأشعة إرهاقاً ، ويمكنها - كما سمعتم - أن تعلن أن واحداً فى الكون لايملأ عينها ، وصـمت الثالث قليـــلا وخبـط الأرض بعكازته غاضباً فسقطت الريـــح فـــى مخـــابىء الزواحف ، وإنى الآن - ياقوم - أريدها ، لست جبارا فأداهمها ، ولست غراً فأستعطفها ، ووالله لو أضحـــت شعرة فى البحر لاقتنصتها ، لكنى - أنا الراحـــم الرحيـــم الرفيق الشفوق - أرى أن أرسل إليها رسولاً هو من صناعتكـــم ، يرمـــز لكم ويدل على براعتكم ، ولـــذا فـــقد وضـــعت الأمـــــر بين أصـــــابع قومـــى ، فأنتم عزتى وفخـــرى ومجدى الأكبر .

— ٢ —

وشمّر آل مستجاب عن سواعدهم وسيقانهم وعقولهم ، وانطلقت قدراتهـــم المشـــهود بها تصنع للثالث رســـولا ، رســـولا يعبّر عنهـــم وعن براعتهم ويخترق الحجب الى جميلة الجنوب ذات المضجع الدافىء ، وكان الأمر صعبا - لا فى تنفيذه فقط - بل فى تصوّره ، اعتادوا منذ الأزل أن يقيموا المعابد والتماثيل والقباب والمذابح والصـــوامع والمحـــاكم وســـاحات التـــرويض وشواهد المشانق وديار الحـــرب ، ودور الســـلم ومرابط الخيل ومنصّات الاغتيال ، وأن يقلّموا النخيل الشاهق والنجيل المنبسط ، وأن يذروا القمح والذرة والشعير ،

وأن يفتحوا المسارب ويشقوا الجداول ويقلبوا بواطن الترع ، وأن ينشئوا القناطر والأهْوسة والبرابخ وأرصفة الشحن وسفن اللهو والعتاد والجنود ، وأن يستأنسوا الأسد والفهد والشاهين والفيل والتنين ، لكنهم أبدا ماقاموا بإنشاء ماهو حيٍّ من دم ولحم وعظام ، إنها واحدة من قدرات الرب - جل وعلا - الخالق المصور الجبّار ، لكنهم - أيضاً - ماعهدوا أن يكون الثالث من آل مستجاب عاجزاً أو مضطرباً أو مأفوناً أو مأبونا ، إنما هو العابد الزاهد المتبتل الناسك الورع الذى إذا ماركع رمّلت دموعه الحجر - أى أحالت الحجر رملا - وقد منحه الله أقصى مايمنح الله لعبيده ، فأصبح ذا سطوة على الإنس والجن وهوام الأرض وغيوم السماء ، فالأمر - إذن - سيظل بين الله والثالث ، والله خبير بما يعملون .

وماكادت قريحتهم تتعرّض للنور الأبدى الأخاذ ، وقلبهم يتفاعل مع الأمنيات العذبة الحارة وضميرهم يتوحد بالاحساس الغامر لكبيرهم ، حتى بدأوا يتفننون ويخططون ويصممون : نماذج بط وأوز ونسور وببغاوات ، رسوماً لزرازير وعصافير وبلابل وسمان ووطاويط ، وتضوّع النجع كله بالحركة والنشاط ، والإمعان والتفكير والتصميم والرسم والتدبير واختلط الليل بالنهار ، والفجر بالعصر ، والنوم باليقظة ، والنجوم بالطمى القادر والعاجز والمستكين والأحمق والحابل والمشتعل والصامت والثرثار والنابل حتى النساء - نساء آل مستجاب الشهيرات بالبدانة والمرح والخمول والدهانات والنّتف والهذر - تحولن الى حوريات سامقات رشيقات يجهزن الورق ويطبعن الخطوط ويعجنّ الطمى فى المعاجن ، ويبحثن عن الكلمات الجديدة فى المعاجم ، ويعددن الأفران لحرق النماذج وإنضاجها قبل أن تعرض على الثالث ، وحتى الأطفال والصبيان انطلقوا وراء الحمير يجلبون الطين من بطون الترع وأحمال التبن والقش من أعماق الحقول مابقى واحد فى النجوع كلها دون أن ينجرف فى هذا الحماس الطاغى الموّار الهادر ، والذى جعل حتى العميان من آل مستجاب يساهمون

بأشعارهم وأراجيزهم وأناشيدهم وأغانيهم ، رافضين الانصياع بعيدا مهما كلفهم الأمر من مخاطر أو إرهاق .

وكان الثالث يجتمع كل أسبوع بمجلس آل مستجاب الموقر ، ليستعرض الرسوم والتصميمات والنماذج ، وليصدر توجيهاته السامية النفاذة ، فما كان الثالث يبغى سوى الوصول الى النموذج المأمول ليصبح الرسول المأمول لفاتنة الجنوب المأمولة ، وهو لايريد لرسوله ألواناً فاقعة زاهية مثل الببغاء ، ولامنقارا وحشيا كالنسر أو الصقر ، ولا أجنحة مارقة كالحدأة ، ولا تثاقلا وخيماً كالبجعة ، ولا نحافة عجفاء كأبى قردان ، ولا حمقاً طائشاً كالأطيش ، ولا وهجاً مزمجراً كالشيطان ، ولا رمرمة عفنة كالباز ، ولا لزوجة شبقة كالعنكبوت وكانت النماذج المرفوضة تلقى فى حفرة ويردم عليها حتى لاتعود الى أيدى آل مستجاب مرة أخرى ، والقوم لايكلون ولايملّون ، ظلوا يعملون فى دأب عشرين أو خمسين أو ألف عام ، حتى نجح القوم فى الوصول الى النموذج الأقرب : حجم صغير لكنه ليس ضئيلاً ، جناحان جميلان واسعان مزركشان بدرجات من اللون البنى الرصين الواثق مع نقاط بيضاء على أطرافهما ، منقار طويل أنيق يلازمه تقوس ممزوج بكبرياء ، ذيل رشيق يختصر ألوان الأجنحة بنوع من التداخل اللطيف ، زغب من ريش سروالى يغطى بطن الفخذين حتى الركبة ، أصابع مفرودة فيها من الرقة مايحول بينها وبين الاقتناص العنيف ، ثم : تاج صغير واسع وواضح بريشات متناغمة مع ألوان الجناحين والذيل ، وهذا التاج الصغير الجميل متحرك يمكن نشره حتى يصبح شراعاً، ويمكن طيه حتى يصبح ريشة واحدة ، ولاتستطيع أن تتبين فى نشر التاج وطيّه إلا الإحساس بالوداعة والرقة والقوة والسلام .

وعندما تهللت ملامح الثالث راضية ، وانتهت أنامله من التحسس الذكى لتكوينات النموذج ، أمر بأن تقام فى النجع صلوات الشكر – مع منح القوم أجرة عشرة أيام هبة لاترد من الثالث العطوف ، وأمر أن يطلق النموذج فى الجو ليتنسّم الحياة ، وأن يسجل فى سجل المعجزات باسم الهدهد .

مستجاب الثالث

قصة قصيرة

— ٣ —

وفى أقل من غمضة عينى – بأمر ربى – كان الهدهد قد أحضر فاتنة الجنوب على سريرها الى مجلس الثالث من آل مستجاب ، قيل إنه – وماكاد يراها – حتى أصابه زيغ قد يودى به فى الضلال أو الفتنة . لم تكن فتنتها من هذا النوع الذى ألفناه أو حلمنا به أو حكى لنا عنه ، ولا من ذاك المنتشى ألوانا على أغلفة المجلات ، أو المتحرك شبقاً مصطنعاً على شاشات السينما والتليفزيون ، إنما – فاتنة الجنوب – تكوين فاخر يتضوع سحراً وعطراً وجاذبية ووهجاً ، حتى أن الثالث – من وقع الانجذاب الأول – هرع الى الصلاة يفتت بها فزعاً واضطرابا ، وأغرق فيها حتى استقرت جوانحه وهدأت خواطره ، ليخرج بضيفته الفاتنة الى شرفة القصر، فانفجرت فى الجماهير المندهشة زمجرة صارخة زلزلت أوكار الشياطين وقلاع النحل وقصور الشعراء وعرائن الأسود ، أحس آل مستجاب لحظتها – والفاتنة تشير بذراعها المتألق – أن كفاحهم فى المليون عاماً الماضية لم يذهب هدراً ، وأن الله – جل وعلا – بارك فى جهدهم وعرقهم ، وانحنت الفاتنة مراراً شاكرة للنجع هذا الاستقبال الفخيم الحميم ، فبكى الثالث امتناناً حتى سالت دموعه من بين فواصل الشرفة ، وكان الوقت مناسباً لأن يخطب الثالث فى أهله معترفاً بصنيعهم الجميل الذى لايوازنه صنيع ، ومعتذراً – ومقدراً – لتلك السنوات الطويلة المرهقة التى أهلكوها فى صنع هذا الهدهد اللطيف الرشيق ، حينئذ تطايرت الهداهد فى سماء النجع صانعة تشكيلات رائعة ومدهشة ، وظلت عيون الجماهير مشدوهة مشدودة مابين تشكيلات هداهد السماء واشراقات الجمال فى الشرفة ، حتى حطت الهداهد على السطوح والباحات والساريات وأفنان الشجر ، ليظل آل مستجاب يمورون غناء وصياحا ولهواً حتى الصباح .

كان الثالث قد استعد لذاك اليوم الموعود ، تطيّب بعد أن شذب شعره وأزال الزائد منه ، واغتسل بقارورة مسك مجلوب من الصين ، واغتذى بقطعتين من صدور الأيائل وشريحة

من بيت كلاوى فهد أمريكى ، ودخن نرجيلته الذهبية المتسامية ببودرة الحشيش الفاخر ، ثم شرب كأسين : واحدة من عتيق نبيذ كاهن رجيم ، وأخرى من مشروب الجن الأحمر ، بعدها أصدر أمره المتوقع بمنع الدخول عليه من الكافّة والخاصة ، تاركاً شعبه المنتشى يلهو ويمرح ماستطاع اللهو والمرح .

وظل الثالث فى خلوته يوماً أو يومين ، ثلاثة أو خمسة ، وآل مستجاب قد نفذوا بعيونهم المترصدة الى كل مايحدث - أو يتصورونه يحدث - فى القصر الكبير ، وكلما طالت مدة الغياب ازدادوا اعجاباً بفحولة الثالث التى تحدثت عنها الأساطير ، لكنهم - وبعد اليوم العشرين - بدءوا يقلقون ، خشية أن يكون أمر قد حدث للثالث العزيز ، فاضطروا أن يلتفوا حول التعليمات والأوامر وأن يحاولوا التسلل الى مخدع مستجاب ، هذا المخدع الذى يضم عزيزهم مع الفاتنة الجميلة - التى هى غريبة بالتأكيد - ولم يهدىء من روعهم رؤيتهم لأفراد قلائل يتسللون خفية الى القصر ، وأفراد ينسلّون خفية من القصر ، ثم : وهم يحسون بوجل ناعم كالثعابين يندس فى جوانحهم ، وهم يرون الهداهد - كلها تتحلق فى الجو ، تتجمع وتلف وتدور فى السماء ملطخة بالأسود الغرابى ناحبة ناعبة ، ثم وهم يرون الهداهد تلتاث وتتداخل وتتفاعل وتمتزج لتصبح هدهداً ، هدهداً واحداً فقط ، هدهدهم الجميل الحزين الذى حط على أعلى ساريات النجع متنبئاً عن أمر يجرى ، أمر خطير يجرى داخل القصر .

وبعد أن استقرت عيونهم فى محاجرها أيقنوا أن مايجرى داخل القصر أخطر من المرض، ومن الاغتيال ، ومن الموت إنما هو هذا الذى لايمكن أن يحدث دون أن يدركوه ويفهموه مهما حاول الذين حول الثالث أن يخفوه أو يطمروه ، فآل مستجاب يعشقون أن يبدوا غير قادرين على تحليل الظواهر أو استشفاف البواطن ، يحبون أن يبدوا غير فاهمين ، أو غير متورطين فى الفهم ، وفى الإدراك ، مع أنهم يعرفون أى شىء ويدركون كل شىء ، ولقد حدث مراراً أن استهان مستجابهم بهم وروى ماقد يناقض ماهم فاهمون حقيقته ، خطب فيهم مستجاب ذات مرة بأن الأفاعى قد بخّت فى طبخهم الذى أودى السم فيه بالعشرات ، فى حين

مستجاب الثالث

قصة قصيرة

أنهم كانوا يعرفون أن الطبيخ تم توزيعه عليهم فاسداً من بقايا حفلة قديمة ، وصارحهم ذات واقعة عن ابنه الذي دمره عفريت أثناء تجربته العلمية في تحويل التبن الى تبر والرمل الى قمح ، في حين أن ابن مستجاب قد شجّت رأسه يد الهون التي استعملتها فقيرة دفاعاً عن مداهمته لها ، وحكى لهم - في اجتماع معروف - مستجاب الثاني واقعة تفسر غياب الأبقار بسبب هجوم الذئاب ، وكانت الأبقار تباع في أسواق النجوع المجاورة بأيدي أناس كسبوها في ليلة قمار من مستجاب الثاني نفسه ، ولذا فقد أصبح في يقين آل مستجاب ألا يقيموا وزنا كبيرا للتفسيرات التي تقدم لهم من مستجابهم - أو الذين حول مستجابهم ، وعليهم أن يفهموا الأمور كما يحبون لا كما يحب مستجاب لهم ، بالتالي فإن القوم لم يتورعوا أن يقتحموا ببصيرتهم وقلوبهم وأفهامهم وعيونهم البيت الكبير ، وأن يفتشوا كل أركان البيت الكبير ، وأن يروا الثالث من آل مستجاب وهو مع الفاتنة في المخدع ، يثابر ويهابر ويستعد ويتنفس ويداعب ويتضاحك ، ورأوه وهو يلهج ويتراقص ويتشمم ويقلّب ويقبّل في فاتنة الجنوب ، ورأوه وهو ينزعج ويضطرب ويحوقل ويبسمل ثم يعود للمحاولة، ورأوه وهو يستحلب وينفث ويدلّك وينشط ويتقافز ثم يعود للمحاولة ، ثم رأوه وهو يحاول ويحاول ويعود للمحاولة ، وكاد آل مستجاب يقعون فزعاً واعياء من فهم هذا الذى يجرى ، فلقد عرفوا مستجاباً أعرج ومستجاباً أعمى وخامساً ملتاثا وثانياً أخنف وتاسعاً أخنف ، لكنهم - أبدا لن يستطيعوا التصوّر - مجرد التصور - مستجاباً فاقداً رجولته ، ماكان هذا - أبداً - يليق بهم أو يليقون به ، وتطابق ماقهموه مع حركة تلك السيارات السوداء التى تتسلل الى فناء القصر ، تحمل بعضها علامات هلال الأطباء ، وبعضها علامات ثعابين السحرة ، وبعضها علامات سحالف المشعوذين ، وبعضها علامات صقور العسكريين ، ومع ذلك ظل القصر ساكناً مظلماً لايود أن يعترف بما يجرى فيه ، حتى كان بعد ظهر يوم حارق عندما صدر بيان مستجابى مقتضب ينبههم أن ينبذوا

الخلافات جانباً وألا يسمعوا الوشاة والأعداء والحاقدين وذوى الضمير الميت ، وأن المرحلة الآن التى يعيشونها أصبحت حساسة ومؤلمة وخطيرة ، وأنه سوف يضع النقط فوق الحروف ، لكنه الآن مشغول بتلبية دعوة عاجلة جاءته من مؤسسة عالمية مؤثرة ، وأنه يثق - بعد الله - فيهم ، والله أكبر والعزّة للنجع .

— ٤ —

وفى يوم سفره ظهر الثالث قوياً كما عهدوه، رائع النظرة ومبتسماً ، وقف قليلاً أمام الباب الكبير حيث شمل النجع بنظرة دقيقة حنون ونافذة وتحرك فى جلال نحو هدهده الرابض فى صمت ، لكن الصمت لم يلبث أن تحطم تحت وقع انجذاب آل مستجاب الغامر ، وانهمر الهتاف والتصفيق والدعاء الصادق حتى اغرورقت عيون السماء راشعة لافتات الولاء ، وزغردت الشمس مستثيرة أرواح البراكين والمعابد وخبز الرحمة ، وجاذبةً حميّ الفداء انصهاراً شعبياً عذبا وساخناً وأصيلا ، وتطايرت صحف اليوم ناشرة أجنحة المبايعة وتجديد المبايعة والإصرار على المبايعة أبد الدهر ، وحتى عندما انطلق الهدهد إلى عنان السماء ظلت الآفاق المتحمسة ممتدة لاتود أن تتقلص ، وظلت الملائكة تقود الشمامسة فى ترتيل حار مفعم بالشجن ، واستمرت العناكب تدق الطبول مخترقة تلال الليل بمشاعل الصباح ، إذ لم يستطع الناس أن يعودوا إلى منازلهم ، وإلى عيالهم، وإلى مخادعهم ، إلا بعد أن أقسمت نجمة الصباح أن الثالث بخير ويستحق أن يزغردوا له .

وانطلق الهدهد بمستجاب إلى أصقاع بعيدة ، ذهب إلى آخر الغرب فاخترق دهاليز المستشفيات لينفرش الجسد العملاق على موائد الاستشاريين والمحللين مخترقاً بأنابيب الاستقطار ، وذهب الى آخر الشرق ليخترق أحراش الاختمالات وبرك المصحات ومستنقعات الاستشفاء بالوحل والفوسفور ، ثم عرج الى أعالى السحب ليرقد فى قاعات زيت الخروع وأبهاء حليل التماسيح ، وغاص فى عمق الأرض ليتقلب فى طبقات بصل الخنزير وروائح ثوم تخليق الجينات ومدلكات البروستاتا ، بعدها عاد الثالث مضمخا بأريج ربات اللذة وآلهة القدرة الطافحة ، عاد الى شعبه مهللا ناصعاً ومتورداً ، يتوكأ على عكازته والوهن

مستجاب الثالث

يتضوع – من وجهه – جلالا ، ومباشرة دخل الى مخدعه ليندفع الى فاتنة الجنوب : يثابر ويهابر ويصلى ، ويحكى عن التعليمات ويتضاحك بالذكريات ، ثم يثابر ويهابر ويصلى ويستصرخ ويتوسل ويدهن ويتمتم ، لا إله إلاّ الله ، ثم ينزوى مستكيناً فى ركن قصره الكبير .

وظل الشعب ينتظر ويأمل ويصفق ، لايريد أن يفصح عما يجيش فى صدره من أمور ، فقد كان غياب الثالث فرصة لأن يقلّب آل مستجاب فى جسده ، وأن يفترشوه – غائبا – بينهم ، وأن يكتشفوا أن علاجه قد يكون فى نجعه وفى وطنه وبين قومه ، وبالتحديد من الناس الذين يحبونه حباً لامنازع فيه ، ذلك أن

قصة قصيرة

دهوراً مضت وآل مستجاب كارهون لجوء مستجاب إلى غير آل مستجاب ، ألف مرة همسوا وقالوا ونصحوا لكن الدماغ ظلت – كالعادة – ناشفة ، وهاهى الدائرة تستدير لتضع على أكتافهم حلّ المعضلة، وأن يخرجوا عن دورهم المرسوم المعهود كى يضعوا بين يدىّ الثالث وسائل وقف الكارثة ، فاجتمعوا وتكلموا وسهروا وكتبوا فى الجرائد والميكروفونات والشاشات والحوائط أن واجبهم عليهم أن يصارحوا مستجابهم بكل شىء ، هى المرة الأولى التى يشارك فيها آل مستجاب فى مناقشة أمر يخص مستجاباً ، ليسقط هذا الاتفاق الراسخ غير

المكتوب الذى يجعلهم دائماً بمنأى عن كل مايخص مستجاب وبيت مستجاب ، وعرش مستجاب ذلك لأن الأمر فى هذه المرة اختلف ، فلم تكن المعضلة متعلقة بحرب – يعلنها المستجاب فيستشهد فيها النجع ، ولا مرتبطة بتموين يلقيه اليهم فيقفون طوابير فى الشوارع ، ولا بمنحة دخول المدارس يتشممون وصول أمرها الى المدير المالى فيتتبعونها الى الصراف ، ولا فى رئاسة تحرير جريدة يستملحون المحرر الحالى على حساب محررها المنشال ، إنما – هذه المرة – تخص الجهاز الذى ينتج عيالاً يصبحون بعد ذلك أصحاب الأمر والنهى فيهم ، وبعد أخذ وشدّ وجذب ، تقدم عقلاء النجع بالدواء الناجع الى حبيبهم الثالث .

— ٥ —

كان العلاج بسيطا كاستحلاب الأفيون ، صادقاً كنباح الكلاب ، لائقاً كارتداء جلابيب الأعياد ، مفهوماً كحساب الملائكة ، عذباً كالنميمة ، صافياً كرغبات الأطفال والمحبين والآلهة ، مرهقاً كطلبات العجائز والأولياء الصالحين ، ناشفاً كفلق النخل ، شاعرياً كالمواثيق والمعاهدات وأوراق الورد ، ناجعاً كالأحجبة والتمائم منساباً كاللبن السرسوب كان العلاج بسيطا ، أن يتوكل الثـالث من آل مستجاب ويذبح الهدهد الجميل الجذاب وأن يحمصَ الجسد النحيل الرقيق على بلاطة فرن لطيف النـار ، وبعد التحميص بعشرين ساعة يصحنه ، نعم : يصحنه فى هون مطهر بزيت حبة البركة والخروع مع قليل من الجليسرين ، وأن يلف الجسد فى أبيات من الشعر القوى القديم ، ثم بعد ذلك ، ينتظرون ليلة تكون جبريل أو أحد عتاة الملائكة . قد جمع مريديه بعد صلاة العشاء ، حينئذ يكون للثـالث أن يـذرو مسحوق الهدهد المطحون المصحـون فى فـراش الجميلة ، وسوف ينفخ الله فى صورة الثالث بإذنه الواحد الأحد ، ويعيد اليه قدرته الضامرة ، ويغدق عليه بالفضـل واللـذة المشتهاة ...

وقد نجح العلاج العبقـرى المستجـابى الأصيل نجاحاً هائلاً ، فاغدق الثالث على القوم – فى حبور وسعادة – أيما إغداق ، ومن يومها وكل نصف يوم – يتشمم المستجاب ماتثمره قرائح وقدرات أهله من هداهد ، يصحنونهـا ويـذرون بعضها باسمه ومعظمها يقدمونها اليه ، فيركن الى جناحـه الفخيـم المضمخ بروائح احتراق اجساد الهداهد ، يمارس حقه ورغبته وأمنيته ، وتتورم صفحات الكتب والمجلات بالمجـسد الذى حققه القوم فى شئون الهداهد ، لتعود اليهم حياة الحبور والسعادة ، وتتضـوع جمـوعهم بالأمنيات العذبة ، يبزّون باقى الأقوام فى الهمة والنشاط والصيد والذبح والتحميـص والطحـن ، منجذبين الى أعنة المجد وآفاق ملكوت الرضا ، حيث لايبقى إلا وجه ربك ذى الجلال ، وزهرة وفرن وبقايا زيت خروع وهدهد وظلال ، وعكازة تهش أطباق التاريخ والنحل والذنوب ، وأصداء ليل مقبل وطويل .

●●

صباح الخير

أحمد بهاء الدين

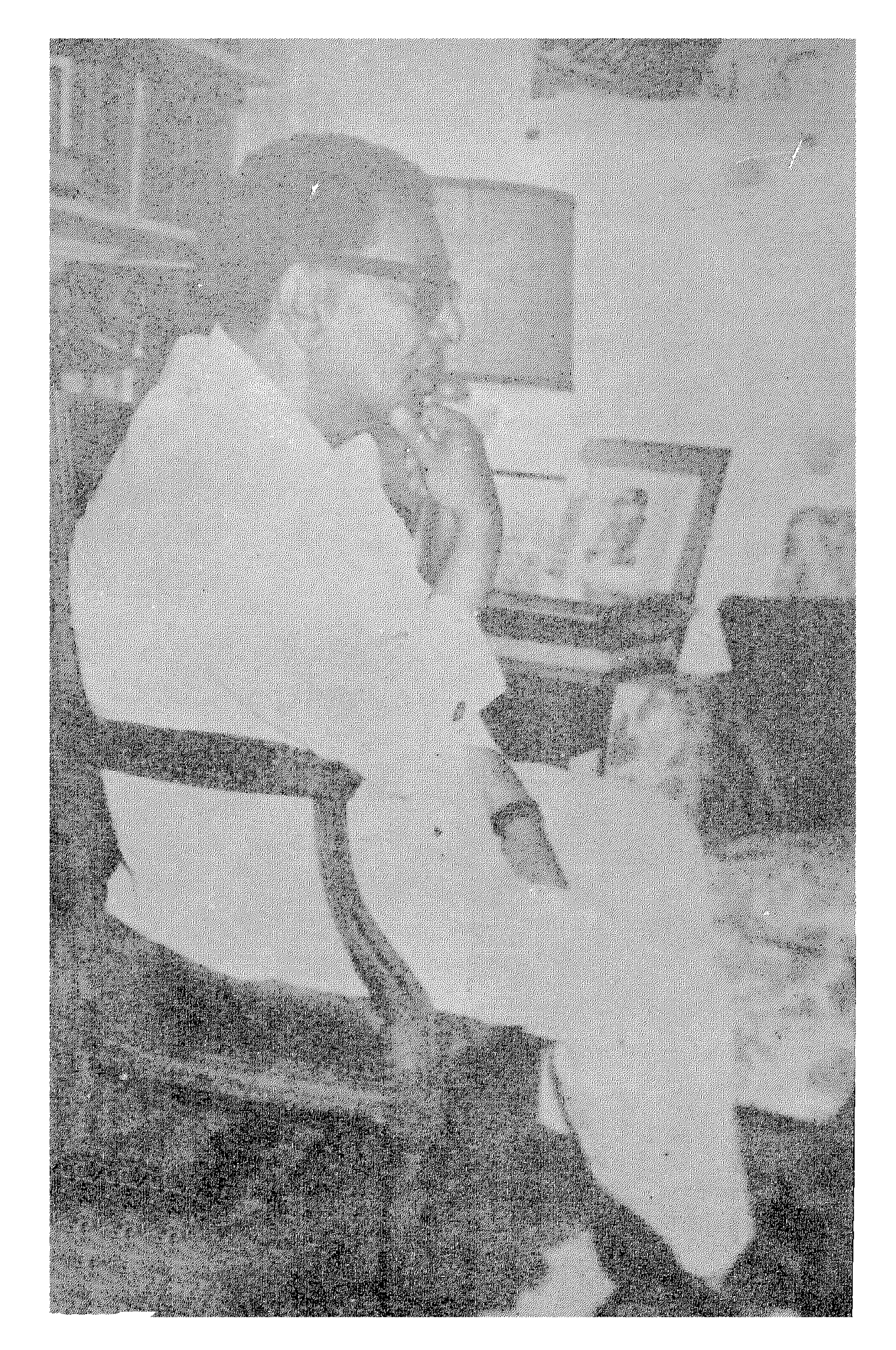
يكمل – خلال هذا الشهر – الكاتب أحمد بهاء الدين السادسة والستين من عمره ، فقد ولد يوم ١١ فبراير سنة ١٩٢٧ ..

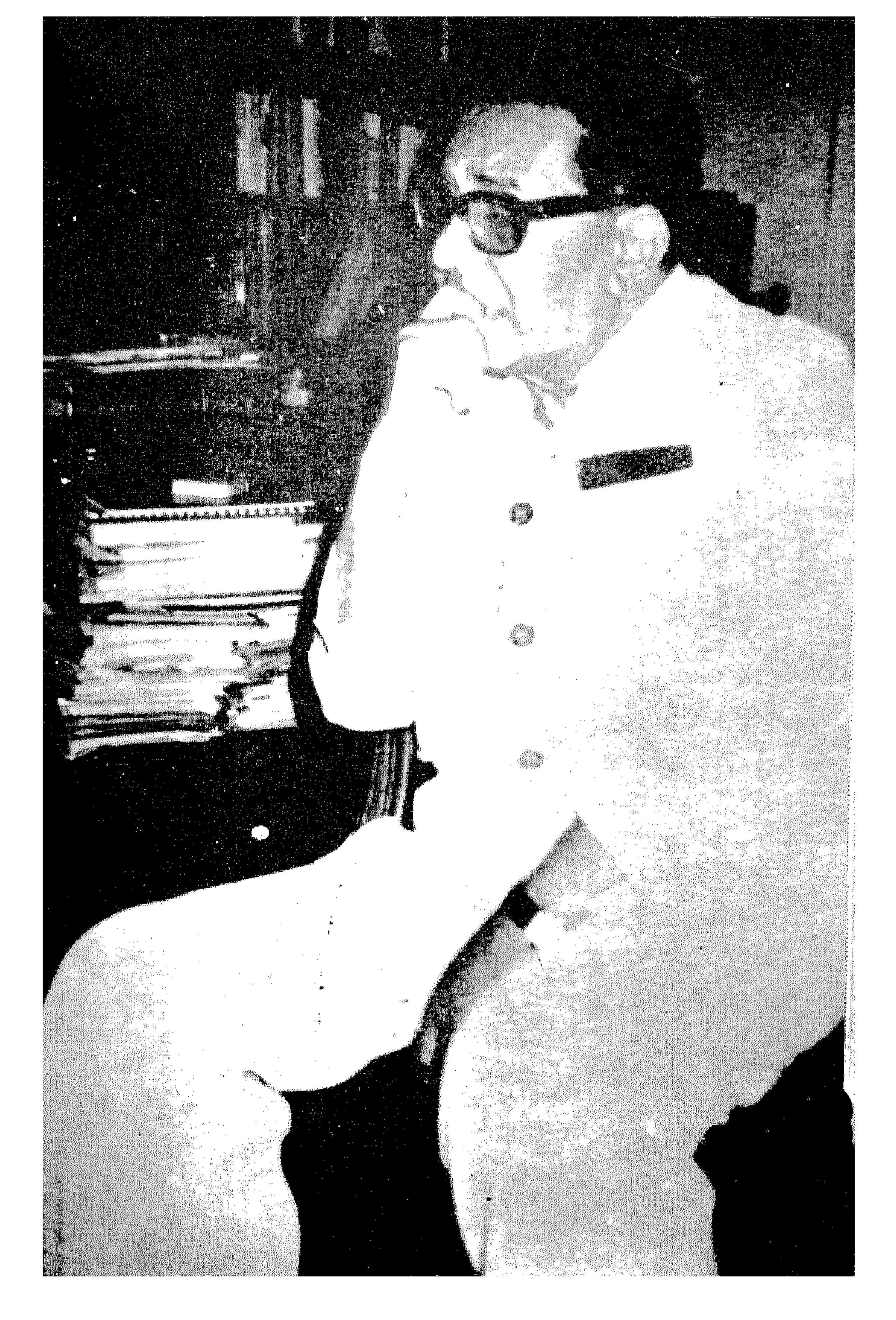
وهذا الجزء الخاص ، تحية للأستاذ بهاء ، الذى ابتعد عن قرائه لظروف صحية ، وهو دعاء أن يعود لقرائه سليماً معافى ، فعندما اختفى عموده اليومى فى الأهرام وتعرض أحمد بهاء الدين لمحنة المرض ، واضطر إلى الرقاد فى فراشه ، افتقد القارئ عقلا رائعا وتفكيراً عميقاً وضميراً حيا ورؤية شاملة لحياتنا ومستقبلنا ، فيها يكتب عادة ، بقلم فنان ، وعاطفة شاعر، وعقلانية عالم ، وقد جمع فى عموده القصير الرؤية الكلية مع التفاصيل الدقيقة ، وجمع بين الفكر والفن والثقافة .

وهو صاحب المدرسة الصحفية المتميزة التى تبعد عن الإثارة ولا ينقصها التشويق ، أصبحت لساته وأفكاره جزءًا من الصحافة العربية المعاصرة ، ويكاد يكون الكاتب الوحيد الذى عمل فى أغلب المؤسسات الصحفية القائمة ، فقد عمل فى مؤسسات روز اليوسف ودار الهلال وأخبار اليوم والأهرام ، وتولى كافة المسئوليات من رئاسة تحرير صحف يومية ، الشعب – التى انضمت إلى صحيفة الجمهورية والأخبار والأهرام ، ومجلات ، صباح الخير وآخر ساعة والمصور .

وتولى رئاسة تحرير صباح الخير قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره ، وعرف خلال هذه المسئوليات بحبه للمهنة وهو الكاتب الذى لايحركه الهوى ، ويمثل الضمير العام بكل النقاء والاخلاص ، يكتب بحرارة مع استقامة فكرية ملحوظة ، وقلم نظيف لايحكمه سوى عقل حر وقلب أمين . وجمله متتابعة مختصرة مشحونة ، وحيوية بلا ضعف ، وقوة بلا عنف .

حقا .. إنه من القلائل الذين يملكون شجاعة فكرية كبيرة ، وهو من الذين لا تزحزحهم تقلبات الدنيا ، ولا يتنكر لرؤيته وفكره .







يناضل أيضا من يقعد ينتظر..!

بقلم : د. على الراعى

حين أخذ بصر الشاعر الانجليزى العظيم چون ميلتون يتناقص رويدا رويدا حتى انتهى الى العمى التام ، جعل ذلك الرجل المناضل يتأمل حاله ويأسى لما آل اليه . لم يكن مجرد شاعر فخيم اللفظ جليل الخيال ، بل كان أيضا مقاتلا فى صفوف ثورة كرومويل ، وكان يدعو الى سيادة حكم الشعب ، وحقه فى مساءلة الحكام ملوكا كانوا أم أفرادا كبارا فى السلطة .

جعل هذا المقاتل العظيم هدف حياته أن يبذر بذور الفضيلة وحب الخدمة العامة بين صفوف شعبه ، وأن يكفكف من شطحات العقل واندفاعاته ، وأن يضبط عواطف البشر على النغمة الصحيحة . كان يريد أن يرفع أناشيد سامية ومجيدة الى مقام صاحب العرش : الله في علاه ، وأن يُظْهر للناس قدرته التى وسعت كل شئ .

وقد حقق ميلتون من هذا الشئ الكثير: كتب ملحمته الخالدة : « الفردوس المفقود » وفيها يُعلى حق البشر فى مساءلة الكبار . ومزج بين حسه الأخلاقى الكبير وبين تطلعات النظرة الانسانية الى تحرير العقل والروح من ربقة الاستغلال . ودعا الى إلغاء الرقابة على الأعمال الفنية والذهنية، وتحميل الكاتب – لا الرقيب – تبعة الدفاع عن القيم الجادة . كما دعا الى تخفيف القيود على الطلاق ، وطالب – قبل كل هذا وبعده – بالنظر الثاقب فى أمور الكنيسة ، وتحريرها من أثر المفسدين والمتزمتين .

ولما انتهت ثورة كرومويل بالفشل ، وعادت الملكية الى بريطانيا ، كتب ميلتون مسرحية عن شمشون تخيل فيها نفسه فى شخصية ذلك الأخير الذى لم يقعد به عماه عن تقويض المعبد على رءوس أعدائه ، وهتف : علىّ وعلى أعدائى يا رب . كان ميلتون – رغم عجزه وفشل ثورته – لايزال يهفو الى أن يخدم هذه الثورة التى تحطمت ، وأن يحرم أعداءها من الأعمدة التى استندت اليها ، حتى ولو أدى هذا الى أن يقتل نفسه .

على أنه فى لحظات أكثر هدوءا ، كتب قصيدة عزّى فيها نفسه لعجزها عن العمل والنضال ، وختمها بقوله « يناضل أيضا من يقعد ينتظر » !

***

لست أدرى ما الذى ذكرنى بهذا كله وأنا أتهيأ لكتابة تحية لصديقى ورفيق شبابى وزميل فكرى ، ومشاركى ميولى فى كثير من الأحيان : الإنسان العظيم أحمد بهاء الدين . بيننا كثير من نقاط التشابه ، برزت فيه هو بوضوح : النظرة الهادئة ، الثاقبة الحكم العقلانى غير المندفع ، ووضوح الرؤية ... الخ . غير أن بهاء الدين يمتاز عنى فى نقاط أخرى كثيرة . لعل أولاها هو أنه كان من رواد فكرة القومية العربية ، حتى قبل أن تطرحها ثورة ٢٣ يوليو طرحا علنيا . وكان بعض أصدقائه – وأنا بينهم – يتشككون فى جدوى التمسك بالقومية العربية ، مادامت القوة الرئيسية موجودة فى مصر . غير أن بهاء كان يرى ما لم نكن نرى اذ ذاك ، كان يرى فى اجتماع العرب ، القوى منهم والضعيف، نواة لقوة كبرى يمكن أن تعيد تشكيل منطقتنا العربية من جديد . وقد ظللت أنا على تشككى فى جدوى القومية العربية حتى أتيح لى أن أسافر على نطاق واسع فى أرض العرب من الخليج الى المحيط ، فعلمنى الواقع الحى أن

القومية العربية قائمة بالإمكان وبالفعل أيضا ، لا تنتظر إلا من يتبناها ويعمل فى سبيلها حتى يتحقق الحلم الكبير : حلم الوطن العربى . إذ ذاك أدركت كم أن بهاء كان بعيد النظر ، سابقا الكثير من معاصريه من الشباب .

شجاعة فكرية

وقد أظهر بهاء فى كثير من المناسبات شجاعة فكرية واضحة . من ذلك أنه سافر فى الخمسينات الى الاتحاد السوفييتى ، وأمضى شهرا هناك ، ثم عاد ليكتب كتابا سرعان ما لفت النظر وهو كتاب : « شهر فى روسيا » لم يتردد بهاء فى أن يثبت فى الكتاب بعض النقاط السالبة التى وجدها فى الاتحاد السوفييتى . فأثار هذا امتعاض اليساريين الذين كانوا يؤيدون الاتحاد السوفييتى لأسباب مختلفة : منها الايمان المطلق ، غير المدقق فى صحة كل ما يقوله أو يفعله القائمون على السلطة هناك . ومنها شعور البعض – وأنا منهم – بأن أى نقد للاتحاد السوفييتى فى الظروف التى كانت سائدة إذ ذاك ، انما يصب فى طاحونة الأعداء الرأسماليين ، ويضر بالتالى بموقف التقدميين فى بلادنا .

ولقد غضب بهاء غضبا واضحا على سخط الساخطين على كتابه ، وأظنه كتب مقالا صغيرا مازلت أذكره ، ونشره فى صباح الخير بعنوان : « الارهاب » ، هاجم فيه – إن لم تخنى الذاكرة – ظاهرة تقديس كل ما يجرى فى الاتحاد السوفييتى ، واعتبر الهجوم على اتجاهه فى الكتاب نوعا من الارهاب الغرض منه اسكات أصوات الغير .

على كل حال ، فقد واصل أحمد بهاء الدين اتجاهه هذا ، بدعوة الشاعر السوفييتى ايفتوشينكو الى زيارة مصر ، وكان هذا الشاعر يتخذ لنفسه موقفا مميزا من الخط الرسمى . وأذكر أنه عقب جولة له فى مصر ، انتهى به المكان الى القاهرة فقام فى حفل أقامه له بهاء فى دار الأوبرا يقول : اسمعوا : اذا كنتم تظنون أننى جئت الى هنا لأحدثكم عن منجزات الاشتراكية من اقامة السدود وتصنيع وما الى ذلك، فأنتم واهمون . أنا سأحدثكم عن الحب وعواطف البشر !

●●●

ويمتاز أحمد بهاء الدين عن كثير من معاصريه من الكتاب بروح مواطن فائق الحس . يتمتع بما يسمى بالحس المدنى Civic Conscience ، أو الضمير المدنى اذا شئنا . وهذا الحس هو الذى دفع به الى تقديس البيئة والدفاع عنها ، والدخول فى معارك متصلة فى سبيل الدفاع عنها . وكلنا نذكر النضال العنيف الذى بذله ، كى

ينقذ مزرعة كلية الزراعة بالقاهرة من العدوان عليها وتحويلها الى مساكن لأعضاء هيئة التدريس . وكلنا يذكر أيضا النضال الآخر الذى قام به بهاء فى سبيل تحويل أرض كلية دار العلوم القديمة الى حديقة تخدم الحى ، بعد أن كان زبانية أقفاص الأسمنت المسلح يتلمظون كى يحولوها الى عمارات سكنية قميئة يسجنون فيها البشر وأرواحهم . وقد نجحت جهود بهاء ، وفى كل مرة أمر بالحديقة التى قامت بفضل استخدامه لضميره المدنى ، أوجه له التحية وأشعر نحوه بالامتنان العميق نيابة عن سكان حى المنيرة !

ودعوة بهاء الى تعميم استخدام الكمبيوتر ، وتنبيهه الى أن نهاية القرن سوف تحمل معها معنى آخر للأمية غير ذلك الذى نعرفه الآن : لن يكون أميا من لا يقرأ ولا يكتب بل سيكون من لا يستخدم الكمبيوتر فى مجالات استخداماته المختلفة من صناعة وتجارة ، وتعليم – التعليم خاصة . وقد أثمرت دعوة بهاء الدين فى هذا المجال ثمرات كثيرة وأصبح الوعى بالكمبيوتر عميقا ، وأصبح استخدامه من قبل تلاميذ المدارس وطلبة الجامعات أمرا شائعا ، وباعثا على البهجة.

جريمة العصر !

على أن أهم ما فعله أحمد بهاء الدين فى سبيل خدمة وطنه الأكبر : الوطن العربى هو الصفحة التى اشتراها من حر ماله وخصصها للاحتجاج على ما سماه : « جريمة العصر » . ظهرت هذه الصفحة عقب سماح الاتحاد السوفييتى لأعداد كبيرة جدا من اليهود السوفييت بالهجرة الى اسرائيل ، بزعم أن هذا السماح هو اعمال لحق أساسى من حقوق الانسان ، هو حق السفر من بلده الى أين شاء . وقد رأى أحمد بهاء الدين فى هذا كله جريمة كبرى ترتكب فى حق عرب فلسطين وحق العرب جميعا ، فليس هذا تمسكا بحقوق الانسان وانما هو مساعدة على الإجهاز على ما تبقى من فلسطين من أرض وبشر . خاصة أن حقوق الانسان تنتهك فى بلاد كثيرة من العالم ولا من يغضب أو يحتج من بين الدول الكبرى ، بل ان الاتحاد السوفييتى ذاته كان الى تلك اللحظة يسهم فى انتهاك حق الشعب الأفغانى فى الظفر بحريته وحكومة لا تسندها دبابات الأجنبى .

من ثم ثار بهاء الدين ثورة عارمة ، واشترى الصفحة التى سلفت الاشارة اليها ، وأخذ يجمع التوقيعات تأييدا لما جاء بها من احتجاج ، وأذكر أنه قابلنى من بعد فقال معتذرا : عفوا ، وضعت اسمك بين المحتجين دون أن أشاورك . فأجبت : لم تكن فى حاجة الى مشاورتى أو الحصول على موافقتى فأنت تعلم تماما أننى أؤيد الاحتجاج من كل سبيل .



●●●

غير أنى لم أذكر السبب الذى من أجله بدأت هذه التحية بذكر ميلتون . السبب واضح اذا ذكرنا اخلاص الرجلين للمبادئ الأساسية للديمقراطية ، وعلى رأسها حق الشعب فى مساءلة حكامه . ودعوتهما الشعب الى حب الخدمة العامة والعمل من أجلها ، وتحريضهما الناس على استخدام العقل - واعيا ومنضبطا - فى خدمة المجتمع . ويجمع بينهما أيضا أن الثورة قد نالت كلا منهما فى بدنه ، وانهما - مع هذا - لم يكفا عن النضال . قال ميلتون : « يناضل أيضا من يقعد ينتظر » ، وطبع بهاء صفحته ، التى كانت آخر صيحة احتجاج على الظلم قبل أن يدهمه المرض. على أنه واصل احتجاجه رغم اشتداد المرض وصرخ فى أسى ، بعد أن انجابت عنه سحابة العتمة ذات مرة - صاح « ليه ، ليه ؟ » ، وذلك حين علم بالغزو العراقى للكويت .

أخى الحبيب بهاء : مازلت تناضل الظلم وتدعو الى الاستنارة رغم مرضك الشديد. مازالت كتاباتك تتحدث نيابة عنك. مازالت سيرتك العطرة على كل لسان . مازال شوقنا اليك لم تخمد له نار . مازلت تهتف ونهتف معك : يناضل أيضا من يقعد ينتظر . رعاك الله ، وأعظم قدرك !..



أحمد بهاء الدين... صديقا

بقلم : فتحى غانم

صداقتى مع أحمد بهاء الدين لها ذكريات تفيض حيوية تلازمنى منذ حوالى نصف قرن ولا تغيب عن خاطرى أبدا . فمنذ رأيته وتحدثنا معا أيقنت أنى عرفت هذا الانسان النادر . الصديق . كان اللقاء فى نهاية الاربعينات - قبل الثورة - شابين تخرجا حديثا فى كلية الحقوق ، وجمع بينهما العمل فى إدارة تحقيقات وزارة المعارف .. كنت أقرأ التاريخ وأتابع السياسة باهتمام وأتمنى أن أعبر عن نفسى بكتابة القصة وربما يوما ما أكتب الرواية . وكان بهاء يقرأ الأدب ويحفظ أبياتا لاحصر لها من الشعر ويتمنى أن يعبر عن نفسه بكتابة الرأى السياسى وربما يوما ما كانت له كلمته فى الحياة السياسية

وعندما ذهبت فى تحقيق إلى قرية «القرنة» بالشاطىء الغربى لمدينة الأقصر . عدت وكتبت رواية «الجبل» . كان التحقيق عام ١٩٤٧ . وكتبت الرواية عام ١٩٥٨ . أما

بهاء فسافر فى نفس الوقت فى تحقيق بشبين الكوم . وأرسل لى من هناك قصة قصيرة . وهاهى ذى بعض فقرات من خطابه .

شبين الكوم فى ٩ مايو ١٩٤٧

عزيزى فتحى

ثعبان كسيح ، لم تكد تقرع له الأجراس ، حتى أخذ يزحف متلويا بين المروج الخضراء ، ذات المنظر الثابت الذى لايتغير ... إنه قطار الركاب الذى كان علىّ أن أركبه إلى شبين الكوم ! ..

ومع ذلك فالمروج الواسعة ليست كلها - فى هذه المرة - خضراء فإن مساحات كبيرة منها تزدحم بالأعواد الصفراء المثقلة بحبوب القمح الذهبية . ووقفت - كعادتى - فى النافذة ، أتأمل تلك السنابل الناضجة وهى تراقص الأنسام تحت ضوء الشمس الغادية . وكنت ألمح بين الحين والحين فلاحة تملأ جرة ، أو فلاحا يقود بقرة .. وسألت نفسى : ألا تصلح هذه البقاع الجميلة مسرحا لقصة ما ؟ .. وهل يستطيع هؤلاء الفلاحون السذج القيام بأدوار البطولة فيها ؟ .. لنحاول ! وكانت نتيجة هذه المحاولة تلك القصة القصيرة التى أنقلها إليك بصورتها الأولى المهوشة . كما أتممتها منذ دقائق، وبعد وصولى إلى الاستراحة بساعتين .

كتب بهاء القصة . وهى عن فلاحة وشاب فلاح يريد أن يتزوجها ولايجد المهر الذى يطلبه أبو الفتاة . خمسة جنيهات . ثم يتعرض الشاب لحادث من شاب يركب سيارته ، فيكون الحادث سببا فى حصول الفتى الفقير على تعويض خمسة جنيهات من الشاب صاحب السيارة . فينفتح باب الأمل أمام الفتى والفتاة فى الزواج ويتوقف ابن عم الفتاة عن مطاردة العريس الفقير الذى أوشك أن يتعرض للقتل بسبب غيرة ابن عم الفتاة .

وبعد أن انتهى بهاء من قصته كتب يختتم خطابه .

عزيزى فتحى :

تلك هى المحاولة ، ولكنها ليست المحاولة الكاملة ، إنها الخطوط الأولى لها . ولكننى آمل أن أجد عندك حين أعود ، نقدا قاسيا لها .

كان بهاء منذ البداية يحاول كتابة القصة ، والشعر ، وكان يكتب كل صباح تقريبا خطابا غراميا لفتاة مجهولة لايعرفها ولكنه يتخيلها . كان لم يقابل بعد ويحب ويتزوج تلك السيدة الرائعة شريكة حياته .

هذا هو مافى أعماقه . أما إذا أراد أن يواجه الناس ، القراء فيما بعد ، فهو يكتب فى السياسة ويرى أنها الأولى بالاهتمام فى بلادنا التى تعانى من مآسٍ عديدة. كان على رأسها احتلال الانجليز لمصر ، والفقر الذى يسحق الفلاحين والجهل يضرب حصاره على الجميع . وكانت حكايات بهاء عن «دراو» حيث أهله فى أقاصى الصعيد،

فيها مرارة وحدة ، ووصف وحشى لجرائم قتل ، ورجال يتراقصون مذبوحين وسكاكين وخناجر تقطر دما ، تطعنهم ، والدماء تنفجر نافورات ترش الارض والجدران.

إنه ينتمى إلى تلك المنطقة من صعيد مصر ، التى يتعامل فيها الرجال بقانونهم الخاص بعيدا عن الحكومة . ووسيلتهم فى التعامل مع المشاكل هى فى الغالب السلاح. حياة قاسية خشنة لايهدأ فيها الصراع ، ولايبقى على البشر سوى تلك الرقة أو الواحة العاطفية الناعمة التى تختبىء فى أعماقهم . قسوة الحياة فى صعيد مصر فرضت على بهاء أن يتجه إلى السياسة . الرغبة فى البقاء والاحتفاظ بالأمل فى الحياة فرضت على بهاء حب الشعر والأدب وأجمله هو ما كان غزلا رقيقا عاطفيا .

كاتب من نوع فريد

عندما كتب بهاء كتابه «شهر فى روسيا» كتبت عنه أن من أهم ميزات الكاتب السياسى «أحمد بهاء الدين» قدرته البارعة على توضيح وتبسيط أعقد المسائل السياسية لقرائه . وهو كاتب من نوع فريد ، فهو يكتب فى السياسة ، ولايشتغل بها ، لم ينضم فيما مضى – قبل الثورة – إلى حزب من الأحزاب ، ولم يربط نفسه بأى تيار سياسى ، واكتفى بأن يشغل نفسه بشرح المبادىء العامة ، والتيارات السياسية السائدة فى الجو السياسى الداخلى أو العالمى على السواء . وإذا كان أحمد بهاء الدين لم يربط نفسه باتجاه سياسى عملى معين ، إلا أنه يعتبر من كتاب اليسار ، أى من الكتاب الذين يستخدمون العقل والمنطق والدراسات الاقتصادية فى تفسير الظواهر السياسية ... ولكن لماذا لم ينضم أحمد بهاء الدين إلى أية جماعة سياسية يسارية .. إن المسألة عنده ليست مجرد خوف من خرق القانون والاعتداء على نظام الدولة العام فهو ليس مثل برنارد شو المفكر السياسى الذى قال إنه يتطرف إلى الحد الذى يقول له فيه القانون «قف عند حدك» ويناوش خارج مرمى نيران القانون ... إن أحمد بهاء الدين ليس من هذا الرأى . فهو على الرغم من استعانته بالعلم والمنطق والتفسير الاقتصادى للتاريخ .. مازال يحتفظ فى قلبه بعاطفة مكبوتة وفى رأسه خيال بعيد عن إمكان الاحتفاظ بحرية الفرد كاملة مطلقة ، جنبا إلى جنب مع الاحتفاظ بمصلحة المجموع . لقد اكتشف أن التفسير العلمى للتاريخ السياسى هو أقرب شىء إليه وإلى الناس ، فاستخدمه ببراعة ، ولكنه لم يؤمن ، إيمانا مطلقا . إنه يرحب بالمقدمات التى تعلن الظروف الاقتصادية عاملا مهما فى تحريك السياسة والسياسيين، ولكنه يكره النتائج التى قد تؤدى إلى ديكتاتورية الجماعة وطغيانها على حرية الفرد. إنه يخشى أن يفقد حريته الشخصية ، وحريته فى التعبير عن رأيه مهما

كان ، ويخشى أن يرسم له أحد طريقة للتفكير ومنهجا للتعبير عن الرأى ، مهما كان ذلك فى مصلحة الجماعة .

وفى كتاب «شهر فى روسيا» الذى صدر عام ١٩٥٤ تقرأ المناقشة الهامة التى أثارها عالم الاقتصاد «يوجين فارجا» الذى قال «إن الحكومات فى الدول الرأسمالية لم تعد تترك الشركات حرة تنتج كما تشاء ، بل أصبحت الحكومات الرأسمالية تتدخل فى الحياة الاقتصادية ، بحيث تستطيع أن تتلافى الأزمات الدورية التى تقع فى النظام الدورى . فالحرية الاقتصادية فى البلاد الرأسمالية لم تعد حرية مطلقة» وخلص فارجا من هذا الرأى ، إلى أن الدول الرأسمالية مادامت تتدخل فى إنتاج شركاتها ، فستمنع حدوث تضارب بين هذه الشركات مما قد يؤدى إلى وقوع حرب بينها أى أن الدول الرأسمالية ستظل متحدة لايحدث بينها خلاف لمواجهة الدول الشيوعية ، وقد عارض ستالين هذا الرأى وقال إن احتمال وقوع الحرب بين الدول الرأسمالية أكبر من احتمال وقوعه بين الرأسمالية والشيوعية .

رؤية المستقبل

إن هذه الرؤية المبكرة الواضحة لمستقبل الشيوعية والرأسمالية كانت لدى أحمد بهاء الدين ، لأنه احتفظ بحريته الفكرية بعيدا عن التورط فى التزام سياسى حزبى يسارى . لذلك كان قادرا على رؤية المستقبل واستشرافه ، أكثر وضوحا من المثقفين المعاصرين له . وأذكر أنى كتبت عدة مقالات فى روز اليوسف عن الاشتراكية وتدخل الدولة . فكتب ينتقد بشدة ماكتبته ، ويقول إنى أدافع عن رأسمالية الدولة لأن الإشتراكية تعنى عدالة توزيع الدخل ، وليست مجرد تدخل الدولة أو رقابتها على النشاط الاقتصادى . وعندما قرأت مقاله فى «أخبار اليوم» سألته إذا كان يريد أن يحدد نوعا معينا من الاشتراكية قرر أن يلتزم به . والاشتراكية لها حوالى مائتى مدرسة . فكان رده السريع الساخر . إنه انتقد مقالى ، لأنه شجع الحكومة على التدخل وأنه يعلم كما أعلم أنا نوع تدخل رجال السلطة ، فهو لاصلة له بأى مذهب سياسى سواء كان يمينا أو يسارا . كانت إجابته حاسمة ومقنعة . وعلمت منها أنه مع الوقت ، لم يعد يقتصر على شرح السياسة وتوعية الناس بأسرارها نظريا . بل أصبح يهتم بالسلطة ورجالها ومواقفهم واتجاهاتهم . أصبحت يده فى النار يواجه شللا سياسية ، وتيارات ومناورات بين أصحاب المناصب العليا . ويرى تأثير ذلك على مصالح الجماهير ، بينما الحديث النظرى فى السياسة لم تعد له قيمة وسط الحيوانات السياسية في غابة بالسلطة . كان قد اقتحم الغاب يحارب وسط أدغاله وأحراشه . ومازالت كلماته ومواقفه تكشف اليوم خبايا كثيرة فى الغاب .



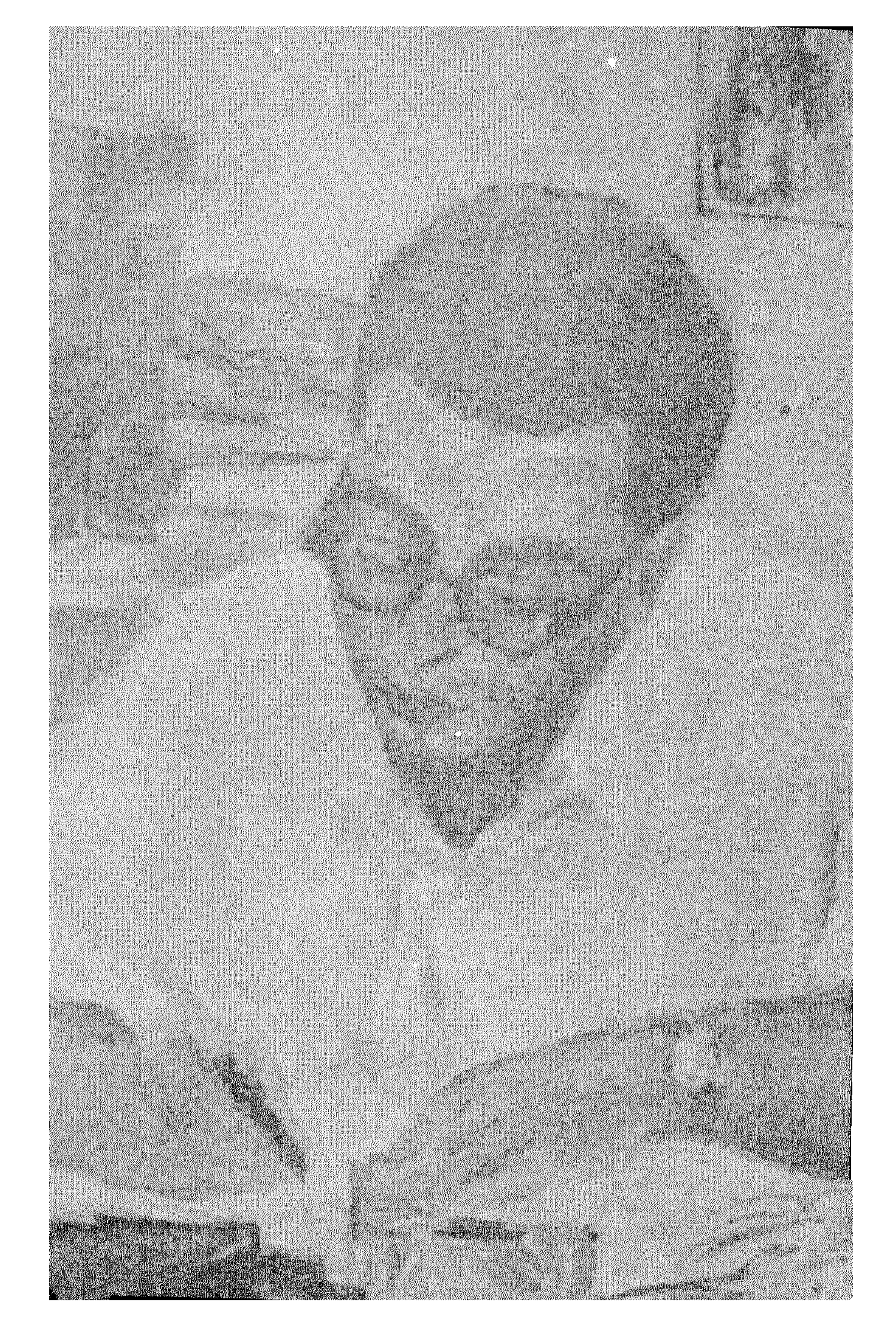
أحمد بهاء الدين

أربعون عاماً من الكتابة الراقية

بقلم : د. جلال امين

فى السيرة الذاتية للفيلسوف البريطانى الشهير ، ألفرد إيَرْ (A.J.Ayer) وردت إشارة جميلة إلى الكاتب البريطانى ، الشهير چورج أورويل (G.Orwell) ، اذ يقول إن أورويل « هو واحد من هؤلاء الناس الذين إذا شعرت بأنهم يحسنون الظن بك ، أحسنت الظن بنفسك » . وقد كان هذا دائما هو شعورى نحو أحمد بهاء الدين ، منذ تعرفت عليه فى منتصف السبعينات ، أى منذ ما يقرب من عشرين عاما . ولهذا يطيب لى أن أتكلم عنه فى عيد ميلاده أو فى الواقع ، فى أى وقت آخر .

كان اسم أحمد بهاء الدين بالنسبة لجيلى ، ونحن نخطو خطواتنا الأولى فى تثقيف أنفسنا فى أوائل الخمسينات، إسما لامعاً ومثيراً للاحترام على الفور . اذ أن اسمه قد بدأ يلمع وهو لم يكن يتعدى العشرين من عمره ، وتولى رئاسة تحرير مجلة صباح الخير قبل أن يبلغ الثلاثين . وكانت صباح الخير بالنسبة لنا ، فى أول عهدها، فتحا كبيرا وقفزة رائعة إلى الأمام فى تطور الصحافة المصرية ، دشن بها بهاء مدرسته الراقية فى الصحافة : ملتزمة دون أن تكون متزمتة ، هادفة وممتعة فى نفس



الوقت ، راقية دون تعال على الناس ، وشديدة الحساسية بمشاكل الناس دون أن تتملقهم . وقد ظلّ بهاء على هذه الحال فى كل ماتولاه من أعمال . والمدهش إنه بكل هذا الهدوء الذى يتسم به ، كان وكأنه يمسك بعصا سحرية ما أن يمس بها المجلة أو الجريدة التى يتولى مسئوليتها حتى تتحول الى شىء راق وجديد تماماً ، أيّا كان حالها قبل قدومه . حدث هذا بعد أن ترك صباح الخير وفى أخبار اليوم ، وفى مجلة المصور ودار الهلال ثم فى جريدة الأهرام ، ثم فى مجلة العربى الكويتية . وقد كان هذا دائماً باعثا لدهشتى الشديدة ، اذ بدا لى مدهشا أن يكون هذا الرئيس البالغ النجاح فى إدارته رجلا ، يمثل هذا الهدوء والسكينة ،، أنه يقابلك فتظن أن لا شىء يشغل باله ، ولا شىء يقلقه ، وكأنه لا يحمل على عاتقه أى مسئولية على الاطلاق . والأرجح أنه يتمتع بتلك القدرة الضرورية لأى مدير ناجح ، على أن يركز فى كل لحظة على أمر واحد دون غيره ، فلا يسمح لذهنه بالتشتت بين عدة مشاغل فى نفس الوقت.

سرعان إذن ما استقر رأى جيلى على أن أحمد بهاء الدين اذا كتب ، فلابد أن يقرأ . وسرعان ما أصبح اسمه كافيا لتزيين أى صحيفة وللاغراء باقتناء أى مجلة ، واذا به إذا تعقدت الأمور وتضاربت الآراء يكتب فيقول فى كلمتين أو ثلاثة ما يضع حدا للخلاف، ويصبح الموضوع واضحا كوضوح الشمس ولايحتاج بعد ذلك إلى مزيد.

مواهب متعددة

كان هذا رأينا جميعا ، ويكاد يكون رأينا فى كل ما يكتب ولكن هناك مقالات معينة تبقى فى ذهن كل منا ولاتنسى ، لأنها أثرت تأثيرا خاصا فى هذا الشخص أو ذاك . من هذه المقالات ، فيما يتعلق بى أنا ، مقالا كتبه بهاء فى صباح الخير أو روزا اليوسف فى منتصف الخمسينات عن أول مجلدات ثلاثية نجيب محفوظ : بين القصرين . وكانت هذه فيما أذكر ، هى المرة الأولى التى أكتشف فيها تعدد مواهب أحمد بهاء الدين وتشعب اهتماماته . كان يكتب فى هذا المقال كناقداً أدبى ، فبزّ غيره من النقاد وتفوق عليهم ، ثم تعددت الأمثلة بعد ذلك بالطبع فلم يعد فى الأمر جديد ، يكتب عن معرض فنان تشكيلى ، أو فيلم لفاتن حمامة ، أو أغنية جديدة لعبد الوهاب ، بل لقد قرأت له مقالا بديعا فى مجلة العربى عن « الحصان العربى » ،، فإذا به ، فى أى موضوع يتناوله ، يكتب ليقرأ ويفيد ومتع .

من أجمل ماقرأت له ايضاً مقال نشر فى جريدة كويتية (لعلها جريدة الوطن) عن عبد الحليم حافظ ، بعد وفاته مباشرة . أتذكر أثر هذا المقال فى نفسى ، ليس فقط لعذوبته ورقته ، بل لأنه ربط بين ظهور عبد الحليم حافظ وشهرته وبين تطور الحياة السياسية فى مصر ، فوضع عبد الحليم حافظ فى مكانه من تطور الثقافة فى مصر ووضح ما لعبد الحليم من دين لثورة ١٩٥٢ . وقد كان بهاء نفسه مدينا لقيام الثورة مثلما كان عبد الحليم وكمال الطويل والموجى ويوسف إدريس وصلاح چاهين وأحمد عبد المعطى حجازى وصلاح عبد الصبور .. الخ فقد فتحت هذه الثورة الباب لطرق جديدة فى التعبير فى الصحافة ، كما فتحته فى الغناء والتلحين والشعر والأدب . وكان حزن بهاء لوفاة عبد الحليم مرتبطا بهذا الشعور لديه بأنهما ينتميان لجيل واحد لمعا معاً واشتهرا معاً وعبّرا معاً عن نهضة جديدة للشعب المصرى ، وعن مرحلة جديدة متألقة من مراحل تطور الثقافة المصرية .

من أين تأتى لبهاء هذا النجاح الذى يصعب أن نعثر على مثيل له فى تاريخ الصحافة المصرية ؟ أعتقد أن السبب هو أن بهاء جمع بين مجموعة من الصفات يندر جدا اجتماعها فى شخص واحد : ذكاء فطرى حادّ ، وقدرة فائقة على الربط بين النظرية والواقع ، فلا تبقى النظرية فى واد والمشكلات الواقعية فى واد آخر ، وشجاعة عقلية لا تقبل الاحتفاظ فى الذهن بما يثبت له خطأه ، وحسّ أخلاقى رفيع ، وأسلوب صافٍ خالٍ من الشوائب ، يذهب إلى الهدف مباشرة ، وقدرة عالية على التمييز بين المهم وغير المهم ، وعلى ترتيب الأولويات ترتيبا صحيحا ، وواقعية تجعله يرفض الاسترسال فيما لا يرجى منه خير ، وتعاطف قوى مع صغار الناس والمغلوبين عن أمرهم . وهو بالاضافة إلى هذا كله لا يبالغ فى تقدير نفسه ، يسره الثناء ولكنه لا يخرجه عن طوره ، وسرعان ما يملّه ، يحب النجاح ولكنه لا ينسى الهدف الذى كان يريد النجاح من أجل تحقيقه . وهو محب للحياة مقبل عليها ، يقدر كل ماهو جميل ويستمتع به ويطرب له : منظرا طبيعيا كان أو غناء أو طعاما أو شعراً أو أدبا أو نكتة ، أو وجها جميلا . قد يبدو أن اجتماع كل هذه الصفات فى شخص واحد من قبيل المستحيل ولكنى أعتقد أنها كلها انعكاس لموهبة واحدة أو موهبتين : حس أخلاقى رفيع مع احساس فنى راقٍ . فمن السهل مثلا أن نرى أن أسلوب بهاء فى الكتابة البسيط والخالى من التكلّف ، انعكاس لصدقه بوجه عام ، ولواقعيته وكراهيته لأى صنف من أصناف الخداع ، إذ أن الأسلوب المتكلف هو نوع من أنواع الكذب كما أن

من السهل أن نرى أن تعاطفه مع الفقراء انعكاس بدوره لحسّه الأخلاقى القوى.. وهكذا.

عندما بدأ اسم أحمد بهاء الدين يلفت الانظار فى أوائل الخمسينات ، بدأنا نتكلم عنه ونتساءل عمن يكون ؟ فقيل لنا إنه عدا ما يمكن لنا أن نكتشفه من كتاباته ، رجل حيىّ خجول لدرجة مدهشة . وقد كان من الصعب علينا أن نصدق هذا إذ أن كتاباته كانت تعطيك انطباعا عن رجل جرىء جسور لا يهاب شيئا ولكنى رأيته مرة فى ملتقى عزاء فى منتصف الستينات . فوجدته فعلا كما سمعت رجلا بالغ الحياء شديد الخجل، أو هكذا تصورت وقتها. على أنى عندما بدأت التقى به على فترات متقاربة بعد هذا بعشر سنوات، ابتداء من منتصف السبعينيات، كان هذا الخجل قد زال ولم يبق منه إلا وداعة وتواضع محببان ووجدته رجلا يحسن الاستماع كما يجيد الكلام، ويجد متعة كبيرة فى أن يشرك معه غيره فيما يعرفه من أقاصيص مدهشة ولا نهاية لها، تتعلق بالحياة السياسية والثقافية فى مصر أو البلاد العربية، ولكنك تلاحظ أن كل قصة منها، مع شدة طرافتها، لا تخلو من مغزى، وأن الذى لفت نظره إليها وحبب إليه روايتها، ليس محض الطرافة بل هذا المغزى الذى تحمله.

الموهبة والأعداء

ليس من الصعب أن نفهم لماذا يجب أن يكون لرجل كهذا أعداء كثيرون فهناك أولا نجاحه الباهر مع جماهير القراء، ولكن هناك أيضا قربه من السلطة السياسية، ولعل أعداءه يكرهون هذا القرب من السلطة ولا يبالون كثيرا بنجاحه مع جماهير القراء. والذى لابد أن أثار غيظ أعدائه بوجه خاص أن قرب أحمد بهاء الدين من السلطة كان لسبب واحد لا سبب غيره، وهو موهبته. وهو شئ يعرفون جيدا أن لا حيلة لهم فيه، ولا سبيل إلى سلبه منه، أو إلى مجاراته وتقليده. إن بعض هؤلاء يشى به لدى جمال عبدالناصر وينقلون إليه نقدا صدر عن بهاء الدين وينصحون باعتقاله، فينهاهم عبدالناصر عن ذلك قائلا: «سيبوه، هوّ دماغه كده!» وهم يرون السادات يتصل به للاستماع إلى رأيه باحترام شديد فى أمور من أهم أمور الدولة، بل ويأخذ برأيه وينزل على حكمه، ويسمعون أن الرئيس مبارك اتصل به فى الصباح الباكر بعد أن قرأ عمود بهاء فى الأهرام، ليتبادلا أطراف الحديث بشأنه. وهم يعرفون أنهم لايستطيعون

أن يصيبوه في مقتل، لا بحرمانه من منصب، إذ أنه لايريد منصبا، ولا بمنع المزايا المالية عنه، لأنه لا يطيل التفكير في المال، فيزدادون غيظا ويستشيطون غضبا.

ولكننا نلاحظ أن أحمد بهاء الدين قد أثار في بعض المناسبات على الأقل، حفيظة بعض اليساريين أيضا، المعارضين للسلطة، فأخذوا عليه أنه في بعض الأحيان قد اقترب من السلطة أكثر من اللازم، وقد سمعت بأذني بعضهم يداعبه مداعبة لا تخلو من نقد من طرف خفي، لأنه لم يتعرض للاعتقال قط. وابتسم بهاء وقتها ولم يعلق. وأنا أحاول أن أتذكر شيئا واحدا كتبه بهاء، في كل ما قرأته له، ترك لدى شعورا بأنه كتبه تملقا للسلطة فلا أجد. نعم، كان في بعض الأحيان، عندما يشتد إظلام الجو السياسي، وتضيق دائرة الحرية المتاحة ضيقا شديدا، يلجأ إلى السكوت أو إلى الكلام في موضوع آخر، مهم دائما ومفيد في جميع الأحوال، ولكنه لا يقول قط ما يخالف ضميره. كما أني أقارن بين النفع الذي عاد على القارئ العربي من استمرار بهاء في الكتابة، ومن احتفاظه بالقدرة على الكتابة والنشر، في عصر بعد آخر من العصور السياسية المختلفة، ولمدة تزيد على أربعين عاما، دون انقطاع، أقارن هذا بما يمكن أن يكون قد عاد من "نفع" من دخول بهاء السجن أو الدخول في مواجهة عنيفة مع السلطة فأفضل ما اختاره بهاء مائة مرة. والأمر في التحليل الأخير مرده إلى مزاج المرء وطبيعته، ولكل مزاج مذاقه وقيمته ودوره في تطوير الحياة الثقافية والسياسية في مصر.

وكما أن فيمن دخل السجن ومن لم يدخله مهرّجون كثيرون، فإن من بين هؤلاء وهؤلاء عظماء كثيرون، دفعوا بمصر خطوات كثيرة إلى الأمام وإني لا أشك في أن أحمد بهاء الدين هو في المقدمة من هؤلاء.

دور هام في الحياة السياسية

إن صفات أحمد بهاء الدين الشخصية والمهنية، بالاضافة إلى غزارة قلمه، جعلت تطور حياة بهاء المهنية يعكس بدرجة عالية من الدقة، ما طرأ من تطورات على حياة مصر السياسية والثقافية. فدور بهاء الدين في الخمسينات والستينات في الصحافة والحياة السياسية المصرية، ليس كدوره في السبعينات، وهذا يختلف أيضا عن دوره في الثمانينات، لأن كل عقد من هذه العقود كانت له سماته الخاصة. فظهور مواهب بهاء الدين وصلاح جاهين وحجازى وعبد الصبور وعبد الحليم حافظ وكمال الطويل

والموجى ويوسف إدريس .. إلخ فى وقت واحد، ولكن فى مجالات مختلفة لابد أن يكون له علاقة وثيقة بالتحولات العميقة التى أحدثتها ثورة ١٩٥٢ فى المجتمع المصرى وفى الحياة السياسية.

فكما أن عبد الناصر كان يشق طريقا جديدا فى السياسة الخارجية والاقتصادية، ويزيح طبقة ليحل محلها طبقة، كان هؤلاء الكتاب والفنانون يشقون أيضا طريقا جديدا، كل فى مجاله، ويزيحون مدارس أدبية وفنية وصحفية بأكملها ليحلوا محلها مدارس جديدة.. كان عبد الحليم حافظ والطويل والموجى ومرسى جميل عزيز يزيحون الأغنية الرتيبة البطيئة التى تقطر تشاؤما وانكسارا أمام القدر، وذلا أمام الحبيب، ليحلوا محلها أغنية سريعة قصيرة فرحة ومتفائلة بالحياة، كلماتها أقرب بكثير إلى الواقع وتعكس ثقة أكبر بالنفس.

وكان حجازى وعبد الصبور يكسران قواعد الشعر التقليدى ليتمكنا من التعبير عن معانٍ جديدة غير مألوفة، بينما كان صلاح جاهين يكشف عن مواطن الجمال فى لغة العامة وتعبيراتهم وأسلوب حياتهم. كان يوسف إدريس يفعل نفس الشئ فى القصة والمسرحية، ونجيب محفوظ يفعل شيئا مماثلا فى الرواية، بينما كان أحمد بهاء الدين يرسى أساس مدرسة جديدة فى الصحافة تعبر عن مطامح جيل جديد وطبقة جديدة.

هل يمكن أن يكون محض صدفة أن يحدث فى نفس الوقت الذى بدأ السادات فيه يدشن سياسة خارجية واقتصادية جديدة ابتداء من منتصف السبعينات، أن يتوقف يوسف إدريس عن كتابة القصة، ويتوقف كمال الطويل عن التأليف الموسيقى، ويصاب صلاح جاهين باكتئاب شديد، وينشغل صلاح عبد الصبور بالعمل الادارى، ويهاجر عبد المعطى حجازى إلى فرنسا، ويسافر أحمد بهاء الدين إلى الكويت ليرأس تحرير مجلة العربى؟

إنى أعرف جيدا أنى كثيرا ما أفرط فى الربط بين العام والخاص ، وأبالغ فى البحث عن علاقة، قد لا تكون موجودة بالمرة، بين أمور السياسة والاقتصاد من ناحية وبين المشاعر الشخصية من ناحية أخرى. ولهذا فإنى أعرف جيدا أننى قد أكون مبالغا بشدة عندما أحاول تفسير سكوت أحمد بهاء الدين المطبق طوال العامين الماضيين، ليس بمجرد المرض، الذى ندعو جميعا له بالشفاء منه، بل برده إلى ذلك الانحسار الذى أصاب الحركة الوطنية العربية، التى كانت دائما عزيزة على قلبه.



أحمد بهاء الدين

أحد أعمدة التحليل السياسى العربى الحديث

بقلم : د . على الدين هلال

عندما يؤرخ للتحليل السياسى فى مصر وبلادنا العربية فإن إسهام أحمد بهاء الدين سوف يحتل مكانة بارزة لمنهجه الذى أتبعه لأكثر من عشرين سنة ولجرأته الفكرية ولعدم تردده فى قول ما يعتقد أنه صحيح - دون تزيد أو اصطناع شجاعة .

ورغم أن أحمد بهاء الدين قد إختار الصحافة كحرفة فإن مادونه من مقالات وتحليلات لها قيمة مستمرة ، وتعكس فى مجملها منهجا لتحليل الوقائع السياسية ، ونظرة شاملة للنظام الدولى خارجياً ، والنظام الإجتماعى داخلياً والعناصر المؤثرة على كل منهما .

اتسمت كتاباته بعمق المضمون ويسر الأسلوب فكان بحق السهل الممتنع ، يستطيع أن يقرأه كل طالب جامعي ومثقف ، ولكن يفهمه كل واحد حسب مستواه وإداركه .

وتأثر جيل من الشباب المصريين في الستينات بالمقال الأسبوعى «هذه الدنيا» الذى كان الأستاذ بهاء يكتبه فى أخبار اليوم . وكانت هذه الصفحة نافذة يطل منها هذا الجيل علي ما يحدث فى الدنيا . فعلى هذه الصفحة كان بهاء يلخص أحدث الكتب ، والتحليلات. وأذكر أننى عرفت لأول مرة عن نظرية والت وايتمان روستو عن مراحل التطور الاقتصادى من «هذه الدنيا» .

واتسمت كتاباته بالتجديد الفكرى والتحديث الثقافى ،، وهو الذى فتح على صفحات المصور حواراً كبيراً بعد عام ١٩٦٧ بعنوان «نحو مجتمع عصْرى» وكان رأيه أننا لا نستطيع أن نفصل الأخطاء والهزيمة العسكرية عن مجمل أوضاع المجتمع . وأنه لابد من تطوير أوضاعناً ونظمنا ومؤسساتنا .

وفى نفس المجلة ، وفى نفس الفترة ، طرح الأستاذ بهاء فكرة أخرى لاتقل جرأة فى ذلك الوقت وهو إنشاء دولة فلسطين ، ووقتها لم تكن هذه الفكرة مطروحة ومقبولة مثلما هو الوضع الآن .

ولأن أحمد بهاء الدين بدأ حياته الصحفية فى روز اليوسف ، ثم تولى رئاسة تحرير صباح الخير ، ولم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره . فقد كان تفكيره السياسى جزءاً من تصور إجتماعى أشمل . وعبر حياته كتب فى الأدب والنقد ، وكتب فى العلاقات الإجتماعية ، ومن مقالاته التى مازلت أتذكرها فى يوميات جريدة الأخبار فى الستينات مقالاً بعنوان «عن الرجال والنساء» يطرح فيه قضية العلاقة بين الجنسين . وله كتاب بعنوان «أفكار عصرية» يشمل عدداً من مقالاته عن الشباب والجيل الجديد .

كان من أول كتبه كتاب «أيام لها تاريخ» الذى مازال واحداً من أكثر الكتب إمتاعاً عن بعض صفحات تاريخ مصر . وفيه قدم التاريخ لقارئه من خلال مجموعة من الأحداث

والشخصيات . ومزج فيه التأريخ السياسى بالتحليل الإجتماعى بالسمات الشخصية للأفراد . مثل الفصل عن زواج الشيخ على يوسف ، أو تحليله للضجة التى أثارها كتاب الإسلام وأصول الحكم .

ولسبب لا أعرفه فإن أحداً من المؤرخين لحقبة الستينات لم يسجل أن أحمد بهاء الدين كان هو الذى اقترح فى مقال بأخبار اليوم ضرورة تغيير اسم الاتحاد القومى ليكون الاتحاد الاشتراكى تعبيرا عن المرحلة الجديدة التى كانت مصر تدخلها وقتذاك.

ولم يكن يتردد فى أن يعبر عن رأيه حتى عندما كان يعرف أنه سيكون ضد التيار أو عندما يتردد الآخرون . من ذلك فى عام ١٩٨٢ عندما أعلن الرئيس ريجان عن مبادرته للتسوية فى المنطقة . ولأيام لم يكن هناك رد فعل عربى ، وكتب الأستاذ بهاء فى عموده بالأهرام يتساءل عن لماذا لم يرحب العرب بهذه المبادرة ، وأن يقتنصوا الفرصة . ومرة أخرى عندما قامت أمريكا بعملية عسكرية لاعتقال نوريجا رئيس بنما ، كان بهاء - ربما - الصوت الوحيد الذى أيد ذلك باعتبار أنه لم يكن هناك طريق آخر للتخلص من نوريجا الذى انتهك كل القوانين والأعراف .

ولعل القارىء يتذكر أن معركته الأخيرة قبل مرضه كانت بخصوص هجرة اليهود السوفييت إلى فلسطين والتى أسماها بمأساة القرن العشرين .

يمتلك الأستاذ بهاء قلماً طيعاً ، يعبر عن أفكار صعبة معقدة بعبارات سهلة وكلمات واضحة . يختار عباراته بدقة لتؤدى المعنى المطلوب . كانت أحياناً تنساب فى هدوء ووداعة ، وكانت أحياناً أخرى تنطلق فى حسم طلقات الرصاص ، ولكنها فى كل الأحوال لا تتخلى عن أدبها حتى عندما كان يدخل فى منازلات فكرية عنيفة .

لم يتاجر أبداً بقضية أو برأى . وعندما اختلف مع الرئيس السادات ترك مصر إلى الكويت حيث ترأس تحرير مجلة العربى لسنوات . وكتب الكثير ولكن لم يجعل من قضية الخلاف هذه مادة للمزايدة أو ادعاء البطولة والشجاعة فظل مثلاً للعفة .

وتشاء إرادة الله سبحانه وتعالى - أن يسكن هذا العقل الناقد الوثاب فى جسد ضعيف لذلك سقط صريعاً للمرض .

لقد عرفت أحمد بهاء الدين فكرياً منذ منتصف الخمسينات ، وقابلته لأول مرة عام ١٩٦١ وكنت طالبا بالجامعة ، ولم تنقطع صلتى به منذ ذلك الوقت ، وأسميت ابنى باسمه تيمنا به .

شفاه الله وأعاد قلمه إلى ساحة الفكر والعقل فما أشد حاجتنا له فى هذه الأيام .



الأستاذ بهاء وكفى

بقلم : يــــوسف القعــيد

أول مرة أسمع من يناديه بغير الاسم الذى تعودنا على مناداته به . عندما كنا فى احدى الندوات . وسمعت الأستاذ هيكل يناديه « يا أحمد » . رنت الكلمة فى أذنى . كم بدت غريبة . لدرجة اننى تصورت ان هيكل ينادى إنساناً آخر غير الأستاذ بهاء .

لا أحد فينا يختار اسمه . الأم والأب والأهل هم الذين يقومون بهـذا ونحن قطع لحم حمـراء في اللفـة . ولكن هذا الاسم بمرور الوقت يصبح جزءا من نسيج الشخصية . بل إن هذا الإنسان عندما نفكر فيه . يبدأ التفكير من خلال اسمه .

الأستاذ « بهاء » كلمتان تحسدان هذا الانسان البديع والنادر والعذب والفذ . وتجسدان أيضا رسالته فى هذا العالم والدور غير العادى الذى قام به . ومازلت فى انتظار أن يعود لنا مرة أخرى من فراش المرض لنقرأ له ونسمعه ونشرب رؤاه التى كانت تعيننا خاصة فى الأزمة العصيبة على أن نتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود .

عندما جلست أكتب له أول إهداء على روايتى الاولى « الحداد » لم أفكر طويلا فى الصيغة التى أقدم روايتى له بها ، والإهداء عندى ليس حلية أضعها فى صدر الصفحة الاولى من الكتاب وتدوين الاهداء ليس علاقات اجتماعية ، بقدر ما هو محاولة لتحديد موقفى من المهدى اليه ورأيى فيه .

كتبت يومها إلى « المفكر الفنان الاستاذ بهاء وكفى » بعد كل هذه السنوات أتوقف أمـام « المفكر الفنان » وأدرك أن ذلك – من وجهة نظرى – يلخص تجربة هذا الرائد العظيم بكل دقة تامة . وكلما مرت السنوات وكرت الايام أصبح لدى يقين أن هذا الانسان جاء إلى العالم من أجل ان يكون مفكرا وأن يكون فنانا بنفس الدرجة والقدر . نصفه فكر ونصفه فن . من الصعب القول إنه أى فكر وأى فن ولكنهما معا – الفكر والفن – لهما مواصفات شديدة الخصوصية . وهما سر الدور الهام الذى لعبه الأستاذ بهاء وجعله واحداً من القلائل الذين يسكنون تلافيف عقلى الواعى . وحتى لا شعورى نفسه .

الاستاذ بهاء : لا أعرف من أين يأتى هذا الاحساس كلما جلست معه واستمعت اليه . تخيل إلى أنه كان من المفروض أن يصبح قصاصا أو روائيا . كانت لديه دائما تلك القدرة غير العادية على الحكى . حكاء من الطراز الأول . يقول ما عنده دائما على شكل حكاية أو حدوته . بطريقة حكى فريدة وهامة . والقدرة على الحكى هى الكلمة الاولى لكى يصبح الانسان قصاصا أو روائيا . والخامة كانت عنده وكان يمارسها يوميا . وفى حكاياته الشفهية كل مقومات القص الذى لا ينقصه شئ . وان كان لابد من الاعتراف اننى لم أناقش معه ابدا حكايته مع القص أو الحكى . أقصد القص المكتوب وموقفه منه . ولماذا لم يتطور الأمر إلى محاولة الكتابة أبدا . وربما كانت عقدة بعض المحاولات التى لم نسمع عنها أو نقرأها .

فى اللقاءات الأخيرة قبل أن يدهمه المرض لاحظت ان هذا الحكى قد بدأ يتجه اتجاها جديدا . كان الرجل يغطس فى برميل ذكرياته القديمة . يحلق بعيدا مع هذه الذكريات من خلال حكى موضوعه الاساسى وهو الذكريات البعيدة . وخلال الحكى تستيقظ شخوص ويعاد خلق احداث . هى فى النهاية ملحمة مصر والوطن والعالم فى نصف القرن الاخير . من منظور رؤية كاتب هام لهذه الأحداث وتلك الوقائع .

الاستاذ بهاء : يمثل بالنسبة لى تلك القدرة الرائعة على التفكير من خلال عمليات تفكير منطقية ومنظمة بعيدا عن الانفعالات والطرطشة العاطفية . مع رفض قاطع للامساك بالامور



من طرف واحد . ورحابة نادرة . قادرة على اعطاء الآخر العذر الكامل فيما يذهب اليه . كنت أحسده على تلك القدرة التى تمكنه من الوصول فورا ورأسا إلى جوهر أى قضية مع عدم الغرق فى التفاصيل التى نعانى جميعا من الغرق فيها والتى تبعدنا عن كل ما هو جوهرى فى الواقع . كان يفرق خلال حديثه - ودون أن يبدو أنه يتعمد ذلك - بين الثوابت والمتغيرات . الثوابت لا تقبل أى نقاش والمتغيرات يؤثر عليها كل موقف طارئ ، لكن ثوابت بهاء لم توصله أبدا الى حالة من التحجر والجمود فى أى مرحلة من مراحل تطوره الفكرى .

الأستاذ بهاء : رأيت فيه فهما حقيقيا للتقدم والاستنارة دون إسقاط البعد الإنسانى لهما . أى أنهما لم يظلا مجرد شعارات مرفوعة . ولكن بعد أنسنتهما كانت له مواقف ضد التخلف والظلام والضباب . والعصور الوسطى فيها اضاءات هامة ولكن أيضا فيها ذلك القدر الهائل من التخلف . ولكن الأستاذ بهاء كان قادراً على فرز كل ما هو مضئ وسط كومة كل ما هو متخلف .

الاستاذ بهاء : كل هذا الجمال والبهاء كان له موقف من عناصر الجمال فى حياتنا

والبحث عنها وابرازها . ولو فعل كل منا هذا لطاردنا القبح والدمامة . ورغم فكره التقدمى . وحسه الاجتماعى الأصيل . وايمانه بالعدل الاجتماعى . وضعفه فى مواجهة الفقراء . الا أن ذلك لم يكن يتناقض مع أن يعيش هو كما تعيش الصفوة . صفوة العاصمة . إحساسه بالجمال يتجلى فى ملبسه ومسكنه وأهل بيته واصدقائه والذين اقتربوا منه وتعلموا على يديه . كان يدرك أن الحياة على ظهر الأرض قصيرة وعابرة ولابد أن تصل إلى نهايتها ذات يوم . ولابد من تحويلها إلى شئ جميل وعذب . الوطن فى مجمله هو إمكانية الفأس والأرض والزمان والناس . مع ضرورة أن يتحول كل هذا إلى مصنع للسعادة .

الأستاذ بهاء : إنه من ذلك النوع من الناس الذى يتسلل إليك . لا يقتحم الوجدان مرة واحدة . ولا يحتل الخيال فى غمضة عين . ولكنه المتسلل بهدوء شديد . وما أن يتمكن من الفؤاد حتى يبقى . لا يخرج أبدا . ولذلك يمكن القول إن تلاميذه أكثر من أن يحصيهم العد المشكلة أن استاذيته تختلف عن استاذية الآخرين . استاذية تهدد استقلالية التلميذ . تجعله - فى النهاية - مثل نباتات الظل . وتلك بعض أزمات الذين استقر بهاء فى حبه العقل منهم . يسير الأنسان - منهم - فى أى طريق لكى يجد الاستاذ بهاء فى أخر الطريق مهما حاول واجتهد وتعب فؤاده .

الاستاذ بهاء : كثيرة هى لحظات الضعف الإنسانى التى شاهدته عليها . وهى اللحظات التى يصبح فيها الانسان انسانا قبل أى اعتبار آخر . عندما نخلع جلودنا الاجتماعية من فوقنا ويتحصن كل منا بآخر حصونه : إنسانيته .

عندما بدأ المرض يهدد عينيه كنت عنده . وكان يتحدث عن قيمة العين بالنسبة إليه . تصورت أنه سيتحدث عن الكتابة . ولكنه قال لى إن القراءة أكثر متعة من الكتابة نفسها . وبدون قراءة حقيقية لا يمكن أن تكون هناك كتابة فعلية . قال لى إن نعمة البصر اننا نرى من خلاله « الوجه الحسن » الذى ورد فى بيت شعر لعبقرى من شعرنا ، قيمته الاساسية – أقصد الاستاذ بهاء بالطبع – أنه اغلق بالضبة والمفتاح الباب على كل ادعاء وعاش كإنسان .

الاستاذ بهاء : لا يمكن أن أقول لك كل سنة وانت طيب فقط ولكن متى تعود لنا . بهاء لا يمكن أن يجلس على مقعد الغياب أبدا . ملح البعاد لا يمكن أن يقترب من كل الأشياء الجميلة التى يمثلها الاستاذ بهاء . أقول لك " مكانك مازال وسيظل شاغرا . ومقعدك يبقى خاويا" ومساحتك ستظل فارغة . حتى يطل علينا زمن عودتك لنا . وايابنا نحوك فمتى ... متى ..... متى .



أحمد بهاء الدين

ومدرسة صحفية جديدة

بقلم : مصطفى نبيل

صدرت مجلة « صباح الخير » فى ١٢ يناير عام ١٩٥٦ .. وكانت قفزة كبيرة فى تطور الصحافة المصرية ، قام بها الأستاذ أحمد بهاء الدين أول رئيس تحرير لها ، وهو شاب فى التاسعة والعشرين من عمره، ومشروع المجلة جاء وليد أفكاره وجزءاً من تصوره ..

وظهرت « صباح الخير » صيغة صحفية مبتكرة ، وإيذاناً بظهور مدرسة صحفية جديدة فى مادتها وشكلها ، ونجحت هذه الصيغة فى جذب جيل جديد ، وبعثت فيه روحا جديدة ، وقدمت له رؤية طازجة لمصر وللعالم من حوله ، وجذبت للعمل فيها فريقا عفيا ، يحمل مفاهيم وقيما جديدة ، ويتصدى لأفكار قديمة بالية ..

وجــاءت المجلة الجديدة ، فـــى مرحلة تاريخية خاصة ، وعصـر تزدهر فيه الأفكار وتزداد فيه الحركة ، إعلان الجمهورية ، الإصلاح الزراعى ، خروج الانجليز ، ثم تأميم القناة وحرب السويس ، وانفجرت فيه الأحلام التى تراكمت طويلا وحبست وحان إنطلاقها، وحملت المجلة هذه الملامح التى تمثلت فى الإهتمام بالبعد الإجتماعى والثقافى وعدم الإقتصار على الجانب السياسى ، وكانت المجلة رائدة وداعية للعديد من الأفكار التى رسخت فى الأرض مع الأيام ، فكانت أحد رواد الفكرة العربية ..

وكما كانت جديدة فى أفكارها عبرت عن هذه الأفكار بأشكال فنية جديدة ، وأبواب جديدة أيضا ، تعتمد على اللوحة بدلا من الصورة الفوتوغرافية ، وتعطى للكاريكاتير مساحة واسعة للنقد الإجتماعى والسياسى ، وتبنت المجلة أسلوباً جديداً هو السهل الممتنع، تعالج به أعقد الموضوعات بأسهل العبارات ، وتقتحم الموضوعات الجادة بروح ضاحكة وأحيانا ساخرة ، وتنأى عن اللهجة الوعظية والخطابية ..

ونجح الفريق الذى قاده أحمد بهاء الدين . والذى كان يؤكد أنه ليس أكثر من مايسترو يضبط الإيقاع ، نجح فى الوصول إلى أجيال جديدة وإبتكار أفكار ومفردات تسللت إلى حياتنا ، وتأثرت بها لغة السينما وكلمات الأغانى ..

وانعكســت هــذه الروح الجديدة على أعمال كثيرة ، أبرزها رسومات صلاح چاهين ، وشعر صلاح عبد الصبور ، وتماثيل آدم حنين وقصص يوسف إدريس ومســرح ألــفريد فرج وأغانى عبد الحليم حافظ وموسيقى كمال الطويل وسينما توفيق صالح ..

وصاغ كل ذلك فى شكل بديع عبد الغنى أبو العينين على صفحات المجلة ، فلم يكن يكفى الفكر الجديد ، بل ويجب أن يخرج هذا الفكر إخراجاً جيداً لم تشهده الصحافة العربية من قبل .

وإذا كان طه حسين والعقاد والحكيم وأم كلثوم ومختار نتاج ثورة ١٩١٩ ، فقد كان ظهور هذا الفريق نتاج ثورة ١٩٥٢ وما فجرته من أحلام .

لذا كانت من سماته رؤية نقدية للواقع وللمدارس الفكرية والأدبية المختلفة ، وقدرة كبيرة على التقييم والتبشير والتحريض على كل ما هو طازج وجديد ..

التواصل مع المستقبل

واستطاع بهاء وهو الكاتب الذى يملك حرارة ما يعتنقه أن يتواصل مع المستقبل ، ومع الأجيال الشابة والأفكار الحية ، وظهر معه وبه تيار يطمح إلى بناء دولة عصرية تقوم على العدل والحرية .





وأخذ قلم بهاء يبث الوعى بمجتمع جديد خال من القهر ، قهر الحاكم والمحكوم أو قهر الرجل للمرأة أو قهر الأغلبية للأقلية ، فرسالته وقلمه هو حياته ، اتسمت معالجاته بالتفكير الشامل فى الحياة والمجتمع .

وجعل الحوار وتبادل الأفكار بين المدارس المختلفة هو الوسيلة الوحيدة لزيادة الوعى وإتساع المعرفة ، وقدم أحمد بهاء الدين التيارات الفكرية والأدبية التى تحدث فى العالم ، وأصبحت « صباح الخير » جزءاً من الثقافة العالمية ..

ومن يقلب « صباح الخير » فى هذه الفترة يلاحظ إهتماما ما مبكراً بالفكرة العربية ، وإهتماما واسعا بمعالم الحياة العربية ، ومتابعة دقيقة لظروف العالم العربى، ويتضح له أن مشاكل الجيل الجديد فى مصر ، هى مشاكل الجيل الجديد العربى ، نفس المشاعر ونفس الأفكار ونفس المصاعب والأزمات .

فرئيس التحرير أحد رواد الفكرة العربية ، وهو من القلائل الذين نفذوا إلى قلب وعقل القراء ، « فهو قارئ ممتاز ينتقى كتبه بمهارة ويتعامل مع الناس كما يتعامل مع الكتب ، يلتقط أفضل المحيطين به » .

القراء تحت الثلاثين

كتب بهاء فى العيد الأول لميلاد صباح الخير .. « عندما صدر العدد الأول من المجلة ، قلبها صحفى عجوز ، ثم إبتسم قائلا : لن تأخذ هذه المجلة إلا القراء الذين يقلون عن

ثلاثين سنة من العمر ، وقلنا أيامها إنه بشرى مستقبل عظيم ينتظر « صباح الخير » ، فهى مجلة ربطت مصيرها بالشباب ، أى ربطت مصيرها بالمستقبل ..

وأثبتت الأيام أن للشباب معنى آخر غير معنى العمر ، وكسبت صباح الخير قراء جددا .. تختلف أعمارهم ولكنهم يتمتعون جميعاً بالشباب شباب القلب والعقل والروح.

قلنا : إننا تصورنا ونحن نضع مشروع المجلة : أسرة فيها الأب والأم ، وفيها الشاب والشابة والفتى والفتاة فى سن المراهقة ، وهدفنا أن تكون المجلة صوتا يخاطب كل هؤلاء ..

وعالجت « صباح الخير » مشاكل العلاقة بين الزوج والزوجة ، بين الأباء والأبناء ، وبين الشباب والشابات ، وعلاقة هؤلاء جميعا بالوطن والعالم .

وفى الرسوم الكاريكاتورية أيضا ، لم تلجأ صباح الخير إلى مواضيع الكاريكاتير المطروحة ... ولم تلجأ إلى موضوعات أجنبية ، إنما إتجه الكاريكاتير مع القلم نحو المناخ المحيط بنا .

ولم تكن رسالة « صباح الخير » أن تقدم الأنباء إنما توضح معنى الأنباء ، وهى تقدم لك التفسير والتوضيح ، والقصة والصورة الشخصية والتزمت بالأسلوب العلمى الموضوعى لا الأسلوب الشخصى .

وهى حريصة على أن تربطك بالعالم الخارجى كله ، فالعالم اليوم يتشابك ويتقارب ، والحادث الذى يقع فى الهند اليوم يؤثر فينا غداً ..

وإذا كانت هذه هى رؤيته عام ١٩٥٧ ، نجده بعد حوالى ربع قرن يكتب فى عيد ميلاد صباح الخير الرابع والثلاثين قائلا .. « إنها أكبر بناتى ، وأول بناتى ، وهى بنت لا تكبر ولا تتغير ..

بعدت عنها ، والرئاسات فى المجلات والصحف تتبدل من داخلها ومن خارجها أغلب الوقت ، ولكن صباح الخير إنفردت بأنها دائما فى عصمة أبنائها الذين شاركوا فى إصدارها من اليوم الأول أو ولدوا فيها : حسن فؤاد ، صلاح چاهين ، لويس جريس .

فهى مجلة الشباب الوحيدة التى عاشت هذا الزمن ، وعاشت شابة رغم كثرة محاولات إصدار غيرها من مجلات الشباب ، فقد آمنت من يومها الأول بالحرية ، والحرية هى «أكسجين الشباب الوحيد وليس أى هواء آخر ملوث أو مزيف فى العقل والقلب معاً» ..

أيام بلا تاريخ

وعلى صفحات « صباح الخير » بعض ملامح شخصية أحمد بهاء الدين كما عبر عنها ، فهو أحد أكثر المثقفين إهتماما بالألوان والأنغام ، بالمسألة السياسة ، والمسألة الإجتماعية معاً ، وهو يقدم السر على صفحات بلون خاص فى « صباح الخير » ، يكسر بكتابتها

العزلة بين الكاتب والقارئ ، عندما يرسم بقلمه صورة شيقة عن تكوينه وحياته وطبعه ، تحت عنوان « أيام بلا تاريخ » ..

ويبدو من خلال شاب رقيق ، يميل إلى الهدوء في كل شئ ، ويحب الجمال ، عكف على المعرفة ، هوايته الوحيدة القراءة ، لم يذهب في صباه إلى أية رحلة مدرسية ، ولم تتركه أمه يلعب مع بقية الأطفال ، فهو الابن الوحيد لأربع شقيقات تهاجمه الذكريات عن وفاة خالته ، ويتأمل حياته بعد أن فقد من كانت له بمثابة الأم الثانية ..

«فقدت أمي وأنا في العاشرة ، ولم تكن بالنسبة لي أما عادية ، كنت إبنها الوحيد بين إخوات من البنات ، وكأي أم شرقية ، وضعت كل حياتها وحنانها للإبن الوحيد ، أحلامها وهمومها وقلقها وفرحها وعملها . وكان من الطبيعي ألا يبقى في حياتي مكان لشئ آخر سواها ، فهي التي تعد لي طعامي ولبسي ، وتشرف على مذاكرتي وتصحبني إلى السينما ..

كانت تخاف على إليّ درجة جعلتها ترفض أن أخرج مع أحد أصدقائي أو ألعب في الشارع أو في فناء البيت ، فمرت طفولتي ومر صباي دون أن أعرف ما يعرفه الأولاد ، فكانت كل ألعابي في البيت .

اللحظات التي كنت أفترق فيها عنها هي تلك التي كنت أقضيها في المدرسة ، إذا تأخرت جاءت إلى المدرسة تبحث عني ..

ثم .. ماتت فجأة ، وكانت فوق الثلاثين بقليل وهي أصغر إخواتها ، كان إختفاؤها من حياتي أول صدمة لي ، سيطر عليّ شهوراً طويلة بعد فقدها بأن الحياة أصبحت بلا معنى .

وقد بكيت ومرضت وحزنت ثم هدأت ، وبقي معي شعور عميق بالوحدة وحدة ألقاها هـذا الحـادث في نفسي كالبـذرة التي لم تلبث أن أورقـت وأصـبحت لها ظلالها كثيفة ، كبرت وتعلمت وسافرت واشتغلت ، ولكني كنت أجد الناس مهما إمتزجت بهم منفصلين عني ..

فكان لأمي أخوات ، ماتت الواحدة بعد الأخرى ، وعاشت لي إحداهن ، كانت أقربهن شبها بأمي ، وكنت كلما رأيتها شعرت برائحة الأم تهب عليّ .. وفقدت هذه الأم الأخيرة».

ملازم الفراش

ويتحدث في مرة أخرى عن إعتلال صحته الدائم ..

إن نومي قلق ، والشئ الوحيد الذي أتغلب به على السأم هو القراءة ، ولا إنكر أن قوتي الجسدية متواضعة .. والمحرر اليوم لا يحتاج إلى فصاحة فقط ، ولا إلى أذن



حساسة فقط ، ولا إلى ذوق فى الاخراج فقط ، إنه يحتاج أيضا إلى إطلاع متشعب آخذ للبصر مرهق للأعصاب على أحدث الكتب والصحف العالمية ..

ويكتب عن يوم عطلته .. إننا نحن المصريين لا نعرف يوم الأجازة ، البيت المصرى يوم الاجازة يوم نوم وكسل ووخم ومشاجرات عائلية ، أما فى الخارج فيوم الأجازة يوم نشاط، الأسرة تستعد طول الأسبوع لكى تغير روتين حياتها ، فتخرج وتتنزه وتلتقى مع غيرها ..

أما فى مصر ، فيوم الجمعة يوم كساد للصحف ..

الظاهر والباطن

وفى إحدى المداعبات بين الكتاب الذى تعرض لها بهاء ، وأطلق عليه كامل الشناوى تشنيعته ، بأنه إنسان منظم جدا ، قسم أيامه طبقا لجدول دقيق ، يوم للعمل ويوم للمجاملة ومقابلة الأصدقاء ويوم للعواطف يحب فيه ويفرح ويتعذب .

يكتب بهاء عن الخلاف الكبير بين الظاهر والباطن ..

«الغريب أن أكثر الناس يعتقدون أننى إنسان منظم ومرتب جدا ، مع أننى عكس ذلك ، والمأساة الكبرى فى حجرتى كثرة الكتب ورفوفها المتصاعدة ، وكل رف جديد معناه فوضى جديدة ، فحتى فى قراءاتى غير منظم أقرأ قراءة متقطعة فى عدة كتب دفعة واحدة ، وفى الليلة الواحدة .. ولا أخرج كتابا ثم أعيده إلى مكانه ..

وكثيراً ما أدفع ثمن هذه الفوضى باهظا ، عندما أبحث عن شئ أريده فلا أجده ، فأدراج مكتبى كلها مخصصة لكل شئ ، وكثيراً ما أكتب ما أحب تسجيله ولا أضعها فى المكان المخصص لها ، وعندما أحتاج إليها لا أعثر لها على أثر كأن ريحا عاتية قد حملتها إلى مكان مجهول .

وعندما أسافر أذهب بحقيبة مرتبة منسقة أعدت لى بنظام ، وأعود بحقيبة مهوشة أقرب إلى صناديق الزبالة العمومية !

وعندما يسافر أهلى إلى الأسكندرية فى الصيف واضطر إلى البقاء بمفردى يصبح البيت غير صالح للاستعمال بعد أسبوع واحد ، ففى كل يوم استعمل حجرة من حجرات البيت ، حتى إذا إنقلبت رأساً على عقب ، أغلقتها وانتقلت إلى حجرة أخرى .. وبعد أيام قليلة لا أجد مفرا من الانتقال إلى أحد الفنادق .

هذه هى حقيقتى أكتبها وأنا واثق أننى لن أقنع بها أحدا ، فتشنيعات كامل الشناوى كالماركة المسجلة .. لا يمكن محوها» .

ويشكو للقارئ همومه ، ومن هذه الهموم ما تفعله معه سيارته ..

«سيارتى لخبطت حياتى ..

فإرسال السيارة إلى الميكانيكى مثل ذهابك إلى طبيب الأسنان ، إذا ذهبت إليه مرة فانك تظل تعالج أسنانك إلى الأبد ، وإذا عرضتها على أكثر من طبيب فسدت نهائيا ..

وتشبيه السيارة بالأسنان ليس فيه مبالغة كبيرة ، إن معاملة السيارة تحتاج إلى نفس الفهم والتجاوب والرقة والحزم اللازم لمعاملة إمرأة فتجاهل رغباتها ونسيان مطالبها يفسدها ، والخشونة تزعجها .

وبلغ هذا الأسبوع عصيانها غايته ، رفضت أن تخرج من الجراج . وركبتها بعد العلاج وانطلقت إلى حى سيدنا الحسين .. وفى شارع الأزهر وتقاطعه بشارع الخليج رفضت السيارة أن تتحرك ، لم يستغرق الموقف سوى دقائق قليلة ، ولكنه بدا لى ساعة كاملة ، أنقذنى بعدها بعض العابرين الذين دفعوا السيارة » ..

فى لندن

ويروى ملاحظاته حول أجازة قضاها فى لندن ..

«فى أول مرة أزور فيها لندن طلبت من الدكتور عبد العظيم أنيس أن ينتظرنى ، وأن يحجز لى غرفة فى فندق ، وعندما وصلت لندن قال لى عبد العظيم أنه يسكن شقة فى بيت يقع فى إحدى ضواحى لندن الهادئة ، وأنه طلب من صاحبة البيت أن استأجر عندها غرفة خلال الأسبوع الذى سأقضيه فى لندن ..

وذهبت معه إلى البيت ، الشقة فى الداخل جميلة حقا كبيرة مزدحمة بالأثاث العريق ، أما السيدة فكانت جميلة حقا فى شبابها مع أنها أرملة وحيدة وفوق الخمسين ، وكانت تبدو نضرة نشيطة باسمة ، قادتنى السيدة إلى غرفة كبيرة جميلة ، أحد حوائطها زجاج كله ، إذا أزيحت الستائر أصبحت الغرفة كأنها جزء من حديقة داخلية جميلة تتدفق عليها الشمس .

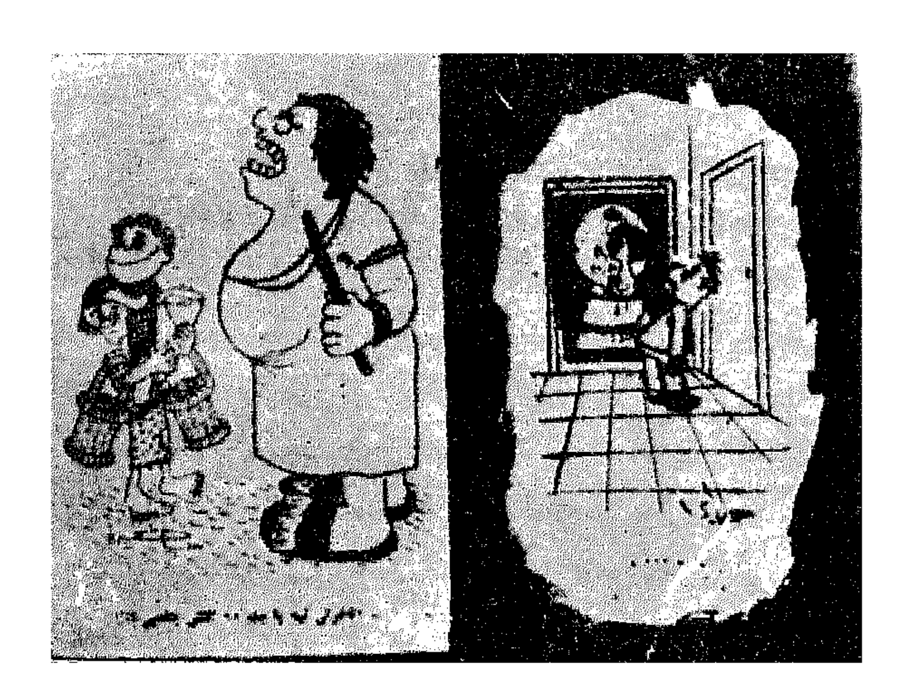
وجاء هذا المكان يعطينى جوا جديداً ، جو البيت الهادئ المريح .

قالت السيدة .. إن زوجها مات وترك لها ثروة ، ولها إبنة وحيدة متزوجة تقيم فى نيويورك، وتعيش بمفردها دائما، شعرت بحرج شديد، إذ أننى أنا الغريب اقتحمت وحدتها، وحرصت على أن لا أسبب لها أقل إزعاج ، أما هى فقد عاملتنى بعناية زادت حرجى .

ومرت الأيام السبعة ، وسألت عبد العظيم أنيس ما هو الأجر الذى إتفقت معها عليه ، قال : لم أتفق معها ، وأعتقد أنها لن تساوم ، وستدفع لها كما تدفع لأى فندق ..


صباح الخير


صباح الخير



وسألت سيدة البيت ، ونظرت إلىّ كأنها جرحت ، وقالت إنها قبلت سكنى عندها على أننى سأدفع ، ولكنها بعد يوم أو يومين تذكرت حياة كانت قد نسيتها .. لقد كانت سعيدة إذ وجدت من تعتنى به ، وإذا كان لديها ما تشكوه منى فهو أننى كنت أحاول أن أقلل من احساسها بوجودى ، يعكس ما كانت تريد ، فكيف تأخذ على هذا ثمنا ؟ ! »

الفكرة العربية

ويروى قصة إتصاله بالفكرة العربية ، كيف بدأت فى مطلع حياته ؟ يقول : « . كثيرا ما تبدأ الحقائق الكبيرة ، ببدايات صغيرة ، فمن خلال صديق شخصى لى هو أكرم الميدانى وزوجته ، بدأ إهتمامى بالقضية العربية ، .. كان ذلك منذ سنوات ، كنت أكتب فى مجلة شهرية هى « الفصول » ، وفى ذات يوم زارنى شاب سورى ، قال لى أنه موظف فى الجامعة العربية، وأنه قرأ لى بعض ما أكتب ، فأراد التعرف بى .. وفى أسابيع قليلة أصبحنا صديقين ، وكأننا تربينا سويا .. كنا فى أول شبابنا ، نقرأ بنهم لا مثيل له ، ونحمل مشاكل الدنيا كلها على رأسينا ، كأننا مكلفون بحلها نيابة عن الناس جميعا ..

كنت مزدحم الرأس بمصر وتاريخ مصر ومشاكل مصر .. أفهم كل شئ من خلال مصر وحدها ، وكانت السياسة العربية فى ذلك الوقت ، ليست بالنسبة لى سوى مناظر فارغة يقوم بها بعض الساسة المحترفين ، ولا أرى سوى إرتباط غامض بين البلاد العربية ، أما صديقى ، فقد كان يملك مكتبة ضخمة فى الفن والأدب والسياسة ، وكان يمتاز بالمام واسع بحياة البلاد العربية الأخرى وتاريخها وثقافتها وعاداتها .

وبدأت صورة بلادى تكتمل وتضاف إليها بعض الرتوش ، وبدأ كل شئ مصرى يرتبط فى ذهنى بأشياء من البلاد العربية الأخرى .

وهكذا تبلور الإيمان لدى بالقومية العربية بعد أن اكتملت له كل عناصره من عاطفة وثقافة ومنطق ، وعندما تجولت فى البلاد العربية ، أدركت أكثر وأكثر معنى عبارة « التكوين النفسى المشترك » ، التى يذكرها المفكرون كعنصر هام من عناصر الوحدة القومية ، إنها ليست الثقافة المشتركة ، ولا المصلحة المشتركة ، إنها شئ يشمل هذا كله ويشمل شيئا آخر غيره » .

وبهذه الكلمات البسيطة بشر بالفكرة العربية ..

وهذه بعض لمحات عن أحمد بهاء الدين ، والتى تقتصر على كتابته وتجربته فى « صباح الخير » وهو فى ريعان الشباب تبعتها صفحات وصفحات فى صحف ومجلات أخرى .

أغنية على الخليج العربى

بقلم:

كمال النجمى

اثنتان وسبعون ساعة قضاها كاتب هذه السطور فى دبى ليلقى محاضرة عن الغناء العربى فى ندوة الثقافة والعلوم ، عاد بعدها بهذه الانطباعات فى الفن والأدب وما إليهما ..

الطائرة تكاد تكون قطعة صغيرة من المدينة التى تنطلق نحوها بسرعة ألف كيلو متر فى الساعة ، ففى هذه الطائرة لا تسمع من المضيف ولا المضيفة ، ولا من المذيع الداخلى ولا المذيعة كلمة عربيـــة واحـــدة !.. كلهم من الفلبين أو الهند أو تايلاند ، يجهلون العربية ، ويتكلمون الإنجليزية بلهجة أمريكية قُحّة .. لكنّ هذه الطائرة التابعة للإمارات العربية ، تبدو متحررة منفتحة ، عالمية ، تعيش على مشارف القرن الواحد والعشرين .. يأكل فيها المسافرون ويشربون بلا قيود .. على عكس مايحدث فى الطائرات العاملة على خطوط بعض الدول الخليجية الأخرى ، حيث يقال : هذا الشراب ممنوع ، وهذا الطعام أيضاً..

سألت الجالس إلى جوارى عن سبب هذه « الحرية » فى طائرة الإمارات ، قال : « نحن بلد حر » !..

انعقدت بينى وبين الجالس إلى جوارى صداقة السفر ، لكنه تركنى عندما وصلنا ، وانهمك فى السلام على مستقبليه عند سلم

الطائرة !.. لقد كان من كبراء البلد وأنا لا أدرى ، وقد احتشد له مستقبلوه تحت باب الطائرة !.. شكراً له فقد كان متواضعا ولم يكشف لى شخصيته ، وذكر لى عن «دبى» أرقاما لم أكن أعرفها ، منها ـ مثلا ـ أن عدد سكانها خمسمائة ألف ، وكنت أظنهم خمسين ألفاً فقط !..

سألت الأديب المصرى الدكتور نصر عباس مدير ندوة الثقافة والعلوم بدبى عن هذا الرقم الذى ذكره لى زميل السفر فى الطائرة ، فأجاب : قل ستمائة ألف ، فهذا أقرب إلى الحقيقة !..

وفى الفندق الكبير كما فى الطائرة الضخمة لا تسمع كلمة عربية !.. الشاب الذى يدوّن اسمك فى سجلات الفندق ، باكستانى .. والشابة التى تساعده : فلبينية .. والخادم الذى يفتح لك باب الغرفة : هندى .. وما أكثر الهنود فى دبى !.. هنادكة وسيخ وبوذيون ومنبوذون ومسلمون ، أما الفلبينيون فاسم يشمل جميع ذوى الملامح الأسيوية ، ففيهم الفلبينى والتايلاندى والكورى ، وكلهم يتحدث باللهجة الأمريكية الخالصة !..

فى الساعات الأخيرة لى فى دبى ـ وقد عشت هناك اثنتين وسبعين ساعة فقط ـ فوجئت ثلاث مرات .. إحداها حين سمعت صوتا نسائيا باللهجة اللبنانية .. والثانية حين سمعت صوتا لبنانيا أيضاً ولكنه رجالى .. أما الثالثة فكانت مفاجأة سارة حقا ، فقد سمعت صوتا مصرى اللهجة .. قلت له : من أى بلد فى مصر ؟!.. أجاب : الإسكندرية !..

ها نحن أولاء نرى كيف استدار الزمان .. لقد كانت الإسكندرية قبل أربعين عاما مدينة كوزمو بوليتية أو عالمية مثل دبى .. وكانت ليالى الإسكندرية أيامئذ مضمخة بعبير الشهد والدموع ، على حد تعبير لنجيب محفوظ فى رواية ميرامار ..

ومازال بعض مخضرمى الإسكندرية يترحمون على أيام « الخواجات » ففى أيامهم كانت الإسكندرية مدينة أوربية أنيقة نظيفة ممتعة .. هكذا يقال عن الأيام الخالية فى الإسكندرية ، وكذلك يقال عن دبى فى الأيام الراهنة ..

إن دبى يسكنها خمسمائة ألف أو ستمائة ألف ، ولكن العرب الذين يحملون جنسيات دولة الإمارات فى هذه المدينة لا يزيد عددهم على مائتى ألف ، أما الموظفون والعمال من البلاد العربية الشقيقة فما أقل عددهم فى البحر الطامى للعمالة الأسيوية .. كل عشرة من العمال الأسيوين يقابلهم عامل عربى واحد ..

قيل لى :

ـ لا يدهشك ماترى ، فالعمال الهنود كل عشرين منهم يسكنون حجرة واحدة ، والعامل الهندى يرضى بربع أجر العامل القادم من البلاد العربية الشقيقة .. وهنا بلد حر ، لا ينظر إلى صوركم وهوياتكم العربية ، ولكن ينظر إلى أجركم !.. ومادام أجر العربى أربعة أمثال أجر الهندى ،

فالهندى عند صاحب العمل أحسن ، وهو يستثمره ويكفله ، ولا يهم « الكفيل » أن يكون « المكفول » من أبناء معدّ بن عدنان أو من أبناء يعرب بن قحطان !..

قلت لهم :

ـ لست ضد العمال غير العرب ، ولا أدعوكم لأن تتظاهروا فى الشوارع ضدهم كما يفعل النازيون الجدد واليمينيون الاجلاف فى ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وأوربا ، ولكن ينبغى التفكير فى المستقبل ، فإن شعوب أوربا ليست أقلية فى بلادها ، أما شعب الإمارات العربية وسائر شعوب الخليج ـ ماعدا السعودية ـ فهى أقلية فى بلادها ، وفى كل عام يزداد تعداد الأغلبية غير العربية ، والمواطن الثرى فى الإمارات يستخدم فى بيته عشرة خدم من الهنود ، ويحشد فى إدارة أمواله مائة هندى ، ولا يستخدم أحدا من العمالة العربية إلا فى الندرة .. ولن تجد عربا هنا إلا بعض المدرسين والصحفيين والفنانين والزائرين العابرين ..

★ ★ ★ ★

هل يتولى الزمن تغيير هذه الصورة ، فتتحول « دبى » وأخواتها من هذا الوضع « الدولى » أو « العالمى » الذى يشبه وضع هونج كونج وطنجة فى سالف الزمان ، إلى الوضع الصحيح اللائق بشعب الإمارات العربية المتطلع إلى الغد ، مع أن يومه الراهن لا تنقصه البلهنية وإن كانت تشوبه مخاوف يشعر بها بعضهم هناك ، ويشعر بها أمثالنا من العرب الزائرين شعورا مضاعفا ..

هذه المخاوف كشرت عن أنيابها منذ أسابيع عندما اندلعت المعارك الدموية فى شوارع دبى بين الهنادكة وبين المسلمين الهنود بسبب ماجرى لمسجد بابرى فى الهند ..

لقد تحولت دبى فى ذلك اليوم إلى قطعة من الهند يتقاتل فيها الهندوكيون والمسلمون حول مسجد بابرى الذى يبعد عن دبى بأربعة آلاف كيلو متر !..

هؤلاء الهنود يقنعون اليوم بالمشى وراء السيد العربى الذى يركب حصان الثروة ، لكنهم غدا سيفكرون بطريقة أخرى فلماذا ينفرد السيد العربى بركوب هذا الحصان الفاره الجميل ؟!..

تشبه دبى فى قصورها وعمائرها وفنادقها وشوارعها ، ديكورات السينما .. ويزداد شعورك بأنها تشبه ديكورات السينما عندما تجلس ساعة الغداء فى البرج الدائر بفندق « حياة ريجنسى » ـ أكبر فنادقها ـ فيدور بك متأنيا بطيئا لترى المدينة من أولها حيث تشتبك أطرافها برمال الصحراء .. إلى آخرها حيث تكاد تلتصق بمدينة الشارقة، أجمل وأنظف مدن الإمارات بعد دبى ، وأكثرها خضرة وبهاءً

وعمرانا . وهى مثل «دبى» مدينة عالمية «حرة» أو كوزمو بوليتية بالتعبير «العالمى» .. ومثلها أبو ظبى العاصمة الفخمة لدولة الإمارات .. وقس عليها بقية مدن الإمارات : عجمان وأم القوين ورأس الخيمة، ثم الفجيرة المطلة على خليج عمان !..

★ ★ ★ ★ ★

وفى تجوالك تشعر أن هذه المدن تتألف منها دولة مستقرة ، منسجمة البنيان .. لكل قطعة أرض « حاكم » يشبه حاكم الولاية فى الولايات المتحدة الأمريكية لولا أن الحكم يورث هنا ، ولا يورث فى أمريكا ..

غير أن الحاكم الذى تجىء به الوراثة فى الإمارات العربية خلال هذه المرحلة التاريخية ، لا يقل كفاية فى العمل عن الحاكم الذى تجىء به الانتخابات فى أمريكا .. الفرق شكلى برغم كل النظريات السياسية والاقتصادية والأيديولوجية .. وقد بنى حكام الوراثة دولة عجيبة المثال ، تبدو كأنها الأفضل بين جاراتها الخليجيات، وهى الدولة الوحيدة هناك التى لا تقف فيها الاتجاهات الدينية على يمين الحكومة ولا على يسارها !..

وفى الإمارات لا تلمس أثرا لليمين المتخلف ولا لليسار الحالم ، ولا لأى مذهب سياسى .. فالرخاء هناك هو المذهب الوحيد ، وهو محرك الحياة فى كل الاتجاهات بلا عناء وبلا مشكلات .. وسيبقى الأمر كذلك ما بقى الرخاء ، ولن تتحرك دبى وبقية مدن الإمارات عن أوضاعها الكوزموبوليتية أو العالمية ، أو الإنسانية ــ كما يقال أحيانا ــ إلا إذا تغيرت اتجاهات الرياح ، رياح النفط .. عندئذ يقفز الفلبينى والهندوكى والسيخى والمسلم الهندى أيضا من السفينة ، ولا يبقى فيها إلا العربى !..

العربى هو الروح التى ستبقى فى المستقبل نابضة على ساحل الخليج ، وهو الآن روح هذه المدينة الوضيئة الخضراء الحالمة .. دبى !.. وهو الذى يقول لك بمودة صادقة لمصر وأهلها :

– قبل ثلاثين عاما كنا فى دبى ننتظر السفن تأتينا من الهند بالصحف والكتب المصرية .. كانت ثقافة مصر تصل إلينا عن طريق الهند حيث يجلس الإنجليز يديرون شئون الخليج العربى !..

الآن تأتيهم الصحف والكتب والافلام والأشرطة الغنائية المصرية من القاهرة رأسا.. ثلاث ساعات فقط بين القاهرة ودبى فى الطائرة العملاقة التى تطوى بك ثلاثة آلاف كيلو متر قبل أن تقوم من مقامك !..

★ ★ ★ ★

وفى ندوة الثقافة والعلوم بدبى التى ألقيت فيها محاضرتى عن الغناء العربى المتقن وتاريخه وحاضره ، أطلعنى رئيسها

الأديب المفكر الأستاذ محمد المر ، على سجل كبير يضم أسماء المثقفين والأدباء والأعلام المصريين الذين حاضروا فى الندوة منذ إنشائها قبل خمس سنوات .. وكما كتب هؤلاء كلماتهم فى السجل طلب منى صديقنا المر أن أكتب كلمتى !..

فى الندوة رأيت لأول مرة سيدات من دبى يرتدين العباءات السوداء المحلية ويستمعن إلى المحاضرة مع الحاضرين .. إن المرأة فى دبى ليست حبيسة ولا مقيدة ، ولكنها بطبيعة الحال لا ترتدى المكروجيب كما تفعل المرأة الفلبينية فى الفنادق ذات النجوم فى دبى ، ولا تمسك سيجارة تدخنها كما تفعل الأمريكية والإنجليزية هناك ..

إن دبى هى الآن واسطة عقد من المدن الجميلة يملكها عرب الإمارات .. « ولكن الفتى العربى فيها .. غريب الوجه واليد واللسان » كما قال أبو الطيب المتنبى وهو يستظل بأشجار شعْب بوّان الفارسى فى طريقه إلى الأمير عضد الدولة قبل ألف سنة !..

كان عضد الدولة حاكم تلك البلاد الفارسية فى ذلك الزمن ، وكان ديلميا لكنه كان عربى اللسان والوجدان والثقافة حتى النخاع .. وقبل عهده أوشكت بلاد فارس أن تستعرب بعد أن انتشرت فيها القبائل العربية ولغة العرب ، ولكن تقلبات الزمن ضربت حركة الاستعراب ، فانقلب أعراب فارس إلى أعجام ، وازداد العجم فيها عجمة !..

لن يحدث هذا فى الخليج العربى مهما عنفت تقلبات الزمن ، ومهما احتلت جيوش الحكام الإثنى عشرية جزر الخليج .. هكذا يقول لك المثقفون من أبناء دبى ، مع أنهم لا يتحدثون فى السياسة ، وحياتهم موزعة بين الأدب والشعر والفن ..

★ ★ ★ ★

إن مثقفى دبى يحتشدون بلا انقطاع فى ندوة الثقافة والعلوم ويتناقشون فيدهشونك بمعلوماتهم عن مشكلات فن الغناء العربى الذى انقطع فى أيامنا الراهنة مصداقا لنظرية ابن خلدون الذى قال إن أول ما ينقطع فى الأمم عند انقطاع العمران ، صناعة الغناء !..

وهم يعرفون أن العمران الذى كان يتحدث عنه ابن خلدون ، لا يعنى القصور والدور والعمائر المنيفة ، لكنه يعنى مقومات حياة الأمة الحقيقية التى تستعصى على الفناء !..

والعمران فى دبى ومدن الإمارات الآن بكل خير ، وهو إلى زيادة ونماء ، ومقومات الحياة لا يعتورها نقص .. ودبى الخضراء تشبه أغنية حالمة على ساحل الخليج العربى .. ولكن ..

ولكنّ الفتى العربى فيها
غريبُ الوجه واليد واللسان

شعر : د . شهاب غانم



انعتاق

فات الذى فات لاحزن ولاعتب
قد غيض الغيظ فى أعماقنا التعب
والداء والشيب والعمر الذى سلخت
ستونه فى طلاب ماله أرب
نسعى إلى العلم فى دنيا يسود بها
جهل ويختال فيها الزيف والكذب
ونشرئب إلى الحق الذى فقئت
عيونه ودحاه الظلم والسلب
ونحمل الحب فى أعماقنا فإذا
جزاءنا الحقد والاضغان والغضب
ونعزف الشعر ألحانا محلقة
كأنها من فم الأطيار تنسكب
فما تناهى إلينا غير قهقهة
وما أثار سواها الشعر والأدب
وبعد أن ضاع نصف القرن من يدنا
لم يبق فى الصدر إلا القلب يضطرب
يارفقة العمر مهلا لم يعد لأسى
معنى ولا لسرور فى الدنى سبب
لم يبق إلا رضا الرحمن نطلبه
ولن يرد بإذن الواحد الطلب

اغتيال رئيس لغز أمريكي قبيح

بقلم : مصطفى درويش

أخيرا ، وبعد سنة من عرضه فى الولايات المتحدة ، هـا هـو ذا ج . ف . ك . أى « جون فيتزجيرالد كيندى » يصل إلى مصر .

ووصوله متأخرا يتزامن مع ذكرى مرور ثلاثين سنة على مصرع الرئيس الأمريكى .

فمصرعه وقع ، كما هو معروف ، قريبا من نهاية سنة ١٩٦٣ .

● الاغتيال كما صوره الفيلم ●

و « ج . ف . ك » ليس كما توحى تسميته ، من أفلام السيرة الذاتية .

فهو على عكس فيلم « ملكولكم اكس » الذى يدور حول سيرة الزعيم الامريكى الأسود الذى مات هو الآخر مقتولا ، على عكسه لا يدور حول سيرة أصغر رئيس للولايات المتحدة فى القرن العشرين ، وانما يدور حول ست ثوان الا قليلا من حياته ، وهى المدة فيما بين أول رصاصة اخترقت رقبته ، وآخر رصاصة أطاحت بالجزء الأعلى من رأسه ، فاردته قتيلا .

ولم يكن صنع فيلم عن مصرع رئيس أغنى وأقوى دولة فى العالم بالأمر الهين اليسير .

فما أكثر الكتب التى جرى تأليفها انطلاقا من حادث مصرعه ، حتى وصل عددها إلى ستمائة كتاب ، وغيرها لابد فى الطريق .

وما أكثر الأفلام الروائية والوثائقية التليفـزيونية والـروايات والمسرحيـات والمسلسلات والأعمال الموسيقية والقصائد والمحاضرات وحلقات الدراسة والمعارض التى جعلت من اغتيـاله الشغل الشاغل للامريكيين .

فبدءا من ظهيرة الثانى والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٦٣ - يوم اغتيال الرئيس الشـاب فى أحـد شوارع مدينة دالاس بولاية تكساس - والاهتمام بذلك الحدث الجلل الذى تزداد وقائعه غرابة على مرّ الايام ، هذا الاهتمام لا ينحسر ابدا .

الـقاتل المقتـول

فثمة حيرة ما بعدها حيرة ، وتساؤلات كثيرة مثيرة ، بعضها حول شخص القاتل، هل هو « لى هارفى اوزوالد » الذى جرى إلقاء القبض عليه فى إحدى دور السينما ، وبعد الاغتيال بقليل ، ليقتل بدوره بعد يومين أمام عدسات كاميرات حشد كبير من الصحفيين ، والشرطة تنتقل به - فى حراسة مشددة - من السجن إلى حيث تؤخذ أقواله فى التحقيق ؟

أم القاتل شخص آخر وأشخاص ظل أمرهم ، بسبب ما ، طى الكتمان حتى يومنا هذا ؟

وبعض التساؤلات تدور تارة حول ادارة المخابرات المركزية ودورها فى التخلص منه غسلا لعار أزمة خليج الخنازير فى كوبا .

وحماية لنفسها من تصـفية نهائية كان « كيندى » يزمع القيام بها درءاً لشرورها

وتارة أخرى حول « ادجار هوفر » رئيس مكتب المباحث الاتحادية الذى حجب عن وزارة العدل معلومات مهمة عن مؤامرة تدبر ضد الرئيس ، مما كان سببا فى اغتياله .

ومع ذلك احتفظ به الرئيس اللاحق مباشرة لكينـدى ، ألا وهو « لينـدون جونسون » ، فى تلك الوظيفة الهامة ، ولا أقول المحورية ، حتى بلوغه سن التقاعد وجوبا .

وتارة ثالثة حول « كارلوس مارشيللو » الاب الروحى لمافيا ولاية لويزيانا ، وهو مجرم من عتاولة الاجرام ، راعه أن يصرح « كيندى » للمخابرات باستئجاره ، هو ورجاله ، لقتل الرئيس الكوبى ، ثم يعود فيأذن ، بعد ذلك بقليل ، لشقيقه المدعى العام « روبرت كيندى » بمطاردته مع نفس الرجال بغرض البطش بهم امام القضاء .

ومن هنا قراره بالانتقام من الشقيقين « جون » وروبرت كيندى شر انتقام .

وعلى كل ، فقد وقع اختيـار المخرج « اوليفر ستون » على موضوع الاغتيال هذا رغم كل ما يحوطه من غموض وتساؤلات ، جعلته أقرب إلى أن يكون لغزا صعبا ، شديد التعقيد .

طـريق الاشـواك

ويبـدو ، حسب ظـاهر الأمـور ، أن « ستون » لم يختر هذا الموضوع الشائك ، إلا لأنه اعتاد إلا يقنع بما هو دون الأفلام الصعبة يشقى فى ابداعها ، وآية ذلك جميع أعماله ، السينمائية السابقة ، واذكر منها على سبيل المثال « السلفادور » و « فصيلة » و « ولد فى الرابع من يوليه » ، والأفلام الثلاثة عن التدخل العسكرى الامريكى فى امريكا الوسطى وفيتنام ، وبفضل الفيلمين الأخيرين فاز « ستون » باوسكار أحسن مخرج مرتين .

وقد شاركه فى كتابة سيناريو « ج . ف . ك » زخـارى سـكلار ، ناشـر كتاب « تعقب القتلة » لمؤلفه « جيم جاريسون » الذى جاءه الموت قبل انتهاء السنة الماضية باسابيع قليلة ، وبالتحديد يوم الاربعاء الموافق ٢١ من اكتوبر سنة ١٩٩٢ ، أى بعد عرض الفيلم المأخوذ عن كتابه الفاضح ، المثير .

ويؤدى دوره فى الفيلم « كيفن كوستر» نجم «الرقص مع الذئاب» ، أما زوجته فتؤدى دورها « سيس سباسيك » المتوجة قبل سنوات بالاوسكار عن أدائهـا فى فيـلم « ابنة الفحام » .

وعلاقة المؤلف « جاريسون » بقضية اغتيال الرئيس الامريكى لم تبدأ الا عندما وجه ، وهو محام عام فى « نيو اورليانس » (١٩٦٩) ، الاتهام لرجل الاعمال « كلاى شو » بالاشتراك فى مؤامرة الاغتيال .

وبعد محاكمة استمرت ستة أسابيع ، انتهى المحكمون إلى قرار بتبرئته أثر مداولة لم تدم أكثر من ساعة من عمر الزمان .

ومع ذلك فجاريسون ظل متمسكا بنظرته القائلة بأن رجل الأعمال هذا أحد أدوات المخابرات المركزية فى تدبير جريمة الاغتيال التى هى فى رأيه أقرب إلى انقلاب أزيح به كينــدى بطريقة دموية ، ليحـــل محـــله « جونسون » ، تحقيقا لمصالح المؤســسة الصناعية العسكرية التى رأت فى استمرار « كيندى » رئيسا تهديدا لها .

أين الحقيقة ؟

و « جاريســـون » يصر فى كتــابه المستوحى منه فيلم « ستون » على أن قائمة الهيئات والشخصيات المتورطة فى المؤامرة ضد « كيندى » ، أو فى اخفاء معالم الجريمة البشعة التى ارتكبت تنفيذا لها ، هذه القائمة تتضمن اسماء المخابرات المركزية والرئيس « جونسون » و« هوفر » رئيس المباحث ، و« أيرل وارين » رئيس المحكمة الدستورية ، ورئيس اللجنة التى انتهت فى تقريرها إلى أن المتهم «اوزوالد» قد تصرف بمفرده ، وبمبادرة منه ليس وراءها أحد سواه .

وفضلا عن ذلك شرطة مدينة دالاس حيث اغتيل الرئيس ، وقاتله « اوزوالد » .

وفى رأى « جاريسون » أن الاخير برئ تماما مما يصفون .

هذا إلى أن إلصاق تهمة القتل به زورا وبهتانا ، انما يكشف عن مأساة العدالة فى امريكا وما تتعرض له من كوارث واخطار .

والمخرج وإن كان قد جعل فيلمه يدور وجودا وعدما حول قصة « جاريسون » التى لا يخفى ولعه بها وبصاحبها ، إلا انه لا يتفق مع صاحب القصة فى بعض التفاصيل .

فعنده مثلا أن المخابرات المركزية ليست هى العقل المدبر للمؤامرة ، وأن مخابرات الجيش قد تورطت فيها بشكل أو بآخر .

وفى ظنه أن « اوزوالد » شبه برئ من تهمة الاغتيال مما يعنى انه شبه مذنب .

و« جاريسون » نفسه يختلف بعض الشئ ، حـــسب رؤيـــة المخـــرج ، عن « جاريسون » صاحب القصة فى الواقع .

فهو فى الفيلم باحث عن الحقيقة ، ليس له من هدف فى الحياة سوى ، الوصول اليها ، مهما كانت العقبات والصعاب .

التاريخ بقلم الكاميرا

ولم يسلم سيناريو الفيلم من ألسنة النقاد الحادة .

فناقد « الشيكاغو تريبيون » هجاه قائلا انه « اهانة للذكاء والاحتشام » .



المخرج ستون .. مع كيفين كوستنر

وناقد الواشـــنطن بوســـت عبر عن اشمئزازه من اخطاء السيناريو وسخافاته المنافية للعقل فى مقال له تحت عنوان «دالاس فى بلاد العجائب» .

يبقى أن أقول أن الفيلم يقوم على فكرة تقول .

أن اغتيال كيندى إنما جاء تنفيذا لمؤامرة أقرب إلى الانقلاب منه إلى أى شئ آخر .

وتلك الفكرة يقدمها « ستون » لنا بجلاء ومنطق واضح يترتب لاحقه على سابقه فى فيلم يدوم ثلاث ساعات أو يزيد .

وإذا كان ما يقرب من نصف الشعب الامريكى حاليا لم يكن قد ولد بعد يوم اغتيال كيندى ، فاغلب الظن أن رواية الفيلم لواقعة الاغتيال ، وأسبابها ستنطبع على شاشة ذاكرة أكثر الامريكيين ، باعتبارها التاريخ الحقيقى لتلك الواقعة التى لم تدم سوى ثوان معدودات ، ومع ذلك غيرت مجرى التاريخ .

تيارات ومواقف

شهد عقد الستينيات مجموعة من الملابسات والأحداث على المستويين العالمى والمحلى، أثرت فى موقف الكتاب من قضايا مجتمعهم. وانعكست فى أعمالهم القصصية، وفى مفهومهم للواقع، وتصورهم للشخصية، وصياغتهم للحدث، وإدراكهم لمعنى الزمن، والصدق، والحلم، والمكان، ودور اللغة والحوار. وغير ذلك من العناصر الفنية والموضوعية.

ففى هذا العقد كان التحول نحو تطبيق الاشتراكية. وفيه كانت القوى المضادة للثورة تنشط دفاعاً عن مصالحها وتدعيماً لوجودها . وفيه أيضاً كان الاختلاف الحاد بين القوى السياسية والعسكرية العليا، الذى كشف عن التناقض بين مجموعتين: إحداهما تستهدف الاستمرار فى تحقيق مبادئ العدل الاجتماعى والمساواة الاقتصادية، والثانية ترى الاكتفاء بما تم إعلانه، راغبة فى الإفادة الشخصية الكاملة: مادياً واجتماعياً وسياسياً.

وقد تسللت ملامح هذا الخلاف إلى بعض خطب الرئيس جمال عبدالناصر، وبخاصة فى افتتاح دور الانعقاد العادى لمجلس الأمة فى مارس ١٩٦٤، وفى عيد العمال فى أول مايو ١٩٦٥، وفى عيد الثورة الرابع عشر فى يوليو ١٩٦٦. حين ظهرت الدعوة إلى "مرحلة جديدة". "لابد وأن تكون ثورة جديدة". إذ كانت الحاجة ماسة إلى التغيير الجذرى فى جوانب متعددة تتصل بالعمل القومى، والاجتماعى، والاقتصادى والسياسى.

بل إنه فى هذا العقد ظهرت سلبيات كثيرة فى تطبيق قرارات التأميم، ولجان الإصلاح الزراعى، وتصفية الاقطاع، والقطاع العام، وخطر مراكز القوى، وقوة الطبقة الجديدة، ومحاولة الوقوف ضد مصالح جماهير الشعب. كذلك الحال بالنسبة

بقلم : د . سيد حامد النساج

لخطر البيروقراطية وسلطة الأجهزة الإدارية، ومحاولاتها الدائبة فى الحصول على أكبر قدر ممكن من السلطة حتى تستطيع أن تقوم بدور حاسم فى الانتاج، وفى العلاقات الاجتماعية، ومن ثم تحتكر هذا الدور، لتأخذ مكان الرأسمالية. ولم يكن الطريق ممهداً لاستتباب الديمقراطية السليمة، حتى يتوفر المناخ اللازم لاستثارة المبادرات الشعبية والفردية. ذلك أنه رغم المحاولات المتتابعة للجمع بين المساواة الاقتصادية، والحرية السياسية، وبرغم بعض الانجازات فى المجال الاقتصادى، فإنه لم يكن قد خلق الجو الديمقراطى المطلوب، الذى يتيح الفرصة كاملة للمبادرات اللازمة فى عملية البناء والتنمية.

وكان نتيجة هذا كله أن التحول الاقتصادى والاجتماعى الذى بدأ منذ يوليو ١٩٦١، واستمر حتى آغسطس ١٩٦٤، واستهدف تحقيق «الحرية الاجتماعية» للعمال والفلاحين، استند إلى الاستعداد الكامن لدى الجماهير للتجاوب مع السلطة، دون أن تكون مسلحة بالحريات والحقوق الديمقراطية الكاملة، بحيث تتمكن من الدفاع عن الإيجابيات والوقوف ضد السلبيات، وتكون لديها القدرة على الحركة، وعلى خلق قيادة من التفكير الجماعى القادر على صد نزعات التحكم الفردى، حتى تتوفر للعمل الوطنى ضمانات بعيدة المدى.

هذه وغيرها من القضايا الأساسية التى تتعلق بالديمقراطية، وعلاقة الفرد بالسلطة، وعلاقته بالتنظيم السياسى، وعلاقته بالوحدة الانتاجية التى يعمل فيها، وعلاقة السلطة به، من المسائل التى كانت تفرض نفسها فى الفترة السابقة على يونيو ١٩٦٧، مما جعل قضية «التغيير» تطرح نفسها قبل هذا التاريخ. ولا ننسى أن بعض القوى الاجتماعية التى اشتركت فى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، عادت لتعارض استمرار الثورة من مواقعها فى داخل السلطة، اعتماداً على مراكز القوى التى أنشأتها. وهؤلاء هم الذين تصوروا أنهم أصحاب حق شرعى فى أن يرثوا السلطة. فأصبحوا بوعى أو بغير وعى من عناصر الثورة المضادة بينما هم فى مواقع الثورة.

★ ظهور طبقة مستغلة

وبالإضافة إلى الصراع المتخلف عن بقايا الطبقات الاقطاعية والرأسمالية القديمة، ظهرت على امتداد الفترة الواقعة بين ١٩٥٢ ـ ١٩٦٧ طبقات جديدة فى الأجهزة التنفيذية، والقطاع العام، والمؤسسات العسكرية والسياسية. وعناصر هذه الطبقات هم الذين ترهلوا عندما أصبحت السلطة فى أيديهم مجلبة للنفع المادى مباشراً أو غير مباشر. والأخطر من هذا أنهم بدأوا ـ من مواقعهم ـ يشيعون بعضاً من قيمهم التى تتنافى مع ما يشاع عن قيم المجتمع الجديد: كحب الظهور، والسيطرة، وانتهاز الفرص، والارتقاء على حساب الآخرين، والرغبة فى الترقى بلا أداء أى عمل أو جهد، والسطحية، والنظر إلى الثقافة والمثقفين بما لا يتناسب ودورهما فى حياة المجتمع.

واللافت أن جنوح هذه الطبقات نحو متع الحياة وأسباب الرفاهية، لم يقتصر على حياتهم الخاصة، بل تعدى ذلك إلى المركز الوظيفى والقيادى. إذ إن من بينهم رؤساء وأعضاء مجالس إدارات الشركات، وكبار الإداريين، ورؤساء مجالس المدن، والمحافظين. وامتد إسرافهم الشخصى كذلك إلى الإسراف العام، فتحول الإنفاق العام نفسه إلى مبالغات فى الإنتاج الاستهلاكى، من النوع الذى تحتاجه هى فى الدرجة الأولى: السيارات، والثلاجات، والمطابخ الحديثة، والأقمشة الفاخرة، وكل وسائل الحياة العصرية فى أرقى صورها، وفى أرفع مستوى لها، واتجهت أيضاً سياسة الإسكان إلى الفيلات الخاصة والعمارات الفاخرة.

وهذا يفسر لنا وجود التناقض الخطير بين الشعارات التقدمية والاشتراكية التى تعكس الاتجاه السياسى والاجتماعى والاقتصادى، وبين الأجهزة المسئولة عن تطبيق هذه الشعارات فى حياة الشعب. كما يعلل لنا أيضاً ما تكشف عن كثير من الجوانب السلبية بعد النكسة، وأسباب الإنحرافات التى كانت قائمة قبل يونيو ١٩٦٧. وتحت وطأة الإحساس الحاد بهذه التناقضات ظلت أحاديث الرئيس جمال عبدالناصر تطرح ـ خصوصاً منذ ١٩٦٤ ـ المشكلات والقضايا التى أشرنا إليها، بهدف واعٍ، مؤداه أن يتفهم الناس مختلف التناقضات، وأن يقفوا على أبعاد الصراعات الموجودة، وأن تكون الحقائق غير خافية عليهم.

★ حيرة وفقدان للتوازن

ساهمت كل هذه الظروف فى أن تجعل الكتّاب الجدد الذين رضعوا مبادئ الثورة، وآمنوا بقراراتها التى تتغيأ للعدل الاجتماعى، يقعون فى حيرة شديدة جداً، أشعرتهم

بفقدان التوازن بينهم وبين مجتمعهم، وبينهم وبين ذواتهم، وبينهم وبين تراثهم، وقبل هذا وذاك، بينهم وبين ما يفتقدون فيه، ويؤمنون به، ويترسمون خطاه. أصبحوا في علاقة معقدة مع السلطة التي ولدوا معها، وشهدوا انتصاراتها. لكن ما وصلت إليه جعلتهم يحاولون الخروج على كثير من مفاهيمها وقيمها. وكان رد الفعل المباشر للأزمة التي وجدوا أنفسهم داخلها، هو البحث عن مناحي جديدة للتفكير، وأساليب مستحدثة للتعبير، ولغة متوافقة مع الحالة النفسية التي انتهوا إليها.

إن الكاتب الجديد وجد نوعاً من الصراع الحاد الظاهر حيناً، الخفي المستتر في بعض الأحيان، بين المجموعات الفكرية التي شكلت قيادة الثورة منذ البداية، كمجموعة الاخوان المسلمين، ومجموعة الشيوعيين، والمجموعة التي قامت بالثورة، تلك التي انفردت بالسلطة حين انتهى الصراع لصالحها. ومن ثم أخذت تصوغ لنفسها أيديولوجيتها الخاصة، بعيداً عن المجموعتين الأخريين. كما أخذت تتعامل معهما بمستويات مختلفة، تتراوح بين التصفية، وتبني جوهر التوجه العقدي الديني أو الاستلاب التام، أو التحالف العملي. مثال ذلك التحالف الذي قام بين الثورة والشيوعيين مع بداية الستينيات، بسبب إجراءات التأميم، حتى تم التقارب الفكري والعملي والسياسي، وذلك بالمشاركة في الاتحاد الاشتراكي، وتنظيم الطليعة الاشتراكية، والتعيين في بعض المؤسسات الإعلامية والثقافية والصناعية ومعاهد الفكر الاشتراكي. ثم تتم الاعتقالات مع أول يناير ١٩٥٩ وحتى يونيو ١٩٦٤، مع ممارسة شتى أنواع التعذيب الجسدي والمعنوي. وقد شرح الأستاذ محمود أمين العالم من خلال تجربته الخاصة بعض ماوقع له، في مجلة (أدب ونقد) العدد ٤٠ أغسطس ١٩٨٨، مقال "ثلاث رؤى للثورة" صفحة ٢١، ٢٢.

يتم التحالف بسبب الفكر الاشتراكي، ويتم السجن والتعذيب بسببه أيضاً. وهذا جعل الكتاب لايثقون فيما يقال، ولايصدقون الواقع، ويرون في علاقاته صوراً غير معقولة، وسلوكاً غير سوى، وشخصيات متناقضة، وعالماً عبثياً. مما دفع بهم إلى الانزواء والابتعاد، وإلى الإحساس الحاد بالغربة، والشعور المض باللامبالاة، والانبهار بشخصية اللامنتمي، اللامبالي. وبخاصة أنهم أبعدوا عن منطقة اتخاذ القرار. ليس غريباً بعدئذ أن نجد القصة القصيرة التي ألفها بعض كتاب عقد الستينيات قد احتفلت بالاغتراب، والانسلاخ عن المجتمع، والعزلة، والعجز عن التلاؤم، والإخفاق في التكيف مع الأوضاع السائدة، واللامبالاة، وعدم الشعور بالانتماء. وواجهتنا شخصيات قصصية فقدت كل البواعث لفعل شئ ما، لعدم وجود الغاية،

أو انعدام الإحساس برسالة عامة فى الحياة الاجتماعية. وثمة شخصيات أتخذت موقفاً واعياً رافضاً كل مايدور فى الواقع من أفعال ارتجالية، أو سلوكيات زائفة. وشخصيات أخرى تولد لديها شعور باللامبالاة نتيجة الإحساس بالغربة واللانتماء. لايهمها شئ مما يجرى فى المجتمع. لم يعد لديها مقياس للاختبار. لأن الاختبار هنا لا أثر له. إذ أن الحوادث المهمة تخضع فى مسارها لقوة أخرى خارجة عن إرادتها. ومن ثم فإنها فقدت القدرة على الإثبات والنفى.

وأصبح المنطوى على نفسه يظهر فى القصة القصيرة مغتربا عن الناس، وعن نفسه ومشاعره وعواطفه، يعانى عذاب الوحدة والعجز عن الاتصال بالآخرين، وعدم القدرة على التعامل مع غيره. وثمة ملاحظة جديرة بالالتفات. تلك هى كثرة المقالات. والكتب. التى ترجمت ووزعت فى أعداد كثيرة، وكان موضوعها (الاغتراب) فى الأدب، والتمرد على الواقع، والثورة على التقاليد، والأدب الوجودى. إلى جانب ما نشر عن القصة الجديدة، والبناء الفنى لها. وترددت أسماء الأبطال المغتربين الذين دارت حولهم أعمال أدبية عالمية. كما نوقشت أفكار سارتر وألبير كامى وبيكيت وأونسكو وجينيه، وجون آردن، وجون أوزبورن، وهارولد بنتر، وغيرهم. وقد لاقت مؤلفات كولن ولسن اهتماماً متزايداً من الكتاب الجدد، وبخاصة كتب: «اللامنتمى» و«مابعد اللامنتمى» و«دين وتمرد» و«المعقول واللامعقول فى الأدب الحديث».

وثمة من كانوا يدينون الماضى ويحاربونه أو يتجاهلونه. وهناك من يطالبون باحتذائه وإحيائه وترسم نماذجه وصوره وخطاه. فإذا بأبناء هذه المرحلة يقعون بين الادانة المطلقة للتراث، وبين التمجيد المطلق له. بعضهم يحذرون من محاكاة أساليب الحياة الغربية. وفى نفس الوقت يطالبون الجيل الجديد بضرورة استيعاب كل مايتصل بالحضارة الأوروبية وعلوم الغرب ونظمه. بعضهم يعلن شعار الفرعونية، وآخرون يدعون إلى القومية العربية، واتجاه ينحو منحى إسلامياً خالصاً.

★ تناقض خطير

واجه كتاب الستينيات ذلك كله، وأصبح على كل منهم إكتشاف طريقته الخاصة فى التعامل مع الواقع بشكل مستقل، اعتماداً على قدراته ومواهبه الخاصة، ورؤيته المستقلة للأمور والأشخاص والأشياء والأفكار والسياسات، فى ضوء إدراكه هو كتجاربه الشخصية والذهنية، وماقد يحصله من تجارب الآخرين. أصبح على كل كاتب من كتاب هذا العقد أن يواجه وحده تناقضاً يتمثل فى مشكلة الربط بين الأصالة

والمعاصرة. بين التراث والحداثة. بين الماضي والمستقبل، وأن يختار بين مواقف ثلاثة: أولها يتبناه السلفيون، وهو يلح على حتمية العودة إلى المنابع الأولى في تراثنا العربي والإسلامي، مع إنكار تطبيق الأفكار الغربية المستوردة التي لا تتفق مع شخصيتنا وتاريخنا ودينا. والثاني ينكر التراث في المواقف العملية والتطبيقات العقلية. أما الثالث فإنه يحاول الجمع بين الماضي والمستقبل، بين منابع التراث، ومصادر التقدم كما وردت في الفكر العالمي المعاصر.

ثم يأتي دعاة القومية التي مرشك الفكرة عندهم أن تكون امتداداً لدعوة الارتباط بالتراث وحده عند أنصار الاتجاه الأول. كما يرتبط بانتصار الاتجاه الثاني دعاة العالمية الذين يطالبون بالاتجاه نحو المغرب وحده. بالإضافة إلى ما أثير حول تبني ماسمي بالثورة التكنولوجية في مواجهة من يطالبون بوضوح الأيديولوجية العقائدية. وثمة من ينكرون هذا وذاك ويرون ضرورة الربط بين التكنولوجيا والايديولوجيا.

أثرت هذه التناقضات تأثيرا قويا فاعلا في اتجاه الأدب بعامة، والقصة القصيرة بخاصة، نحو التماس منافذ جديدة للإفلات من محاولات الاحتضان الخانقة، وارتياد آفاق جديدة، بتفجير الأزمة العامة في الفكر ورفض الصلات القديمة، والحلم بعلاقات فنية جديدة، بعيدا عن النزعة العاطفية من ناحية، والانحياز الشمولي من ناحية أخرى. وهم في ذلك لم ينفصلوا عن الشباب المصري بعامة، لأن أزمة المجتمع أصابت الجميع دون تفرقة. وإن كانت إنعكاساتها قوية لدى الكتاب والفنانين، بسبب وعيهم وثقافتهم وعمق تفكيرهم، ولأنهم مطالبون ـ أدبيا وفنيا ـ بتحديد موقفهم مما يجري حولهم.

كان الشباب المصري يعاني من ضغوط وحرمان، وعدم قدرة على الاستقلال أو التصرف، في المرحلة التي أصبح فيها ناضجاً من الناحية العقلية، وما يستتبع ذلك من حيث القدرة على التفكير في الأمور المجردة؛ إلى جانب اكتمال النمو البيولوجي الذي يصحبه وجود طاقة حيوية جديدة متدفقة.

وقد يدفعه هذا إلى الوقوع في تناقضات تتجسم معها مشكلاته: أخطرها الشك في القيم والمعايير، وفي السلطة المحيطة به، إنه يرى أن الأجيال التي تعين جنباً إلى جنب، تختلف في نظرتها إلى الحياة، والمعايير، والوسائل، والغايات، وأن من أشرفوا على تربيته لم يعيشوا في مجتمع يستهدف الاشتراكية.

وأن ما اتخذ في هذا السبيل لم يقض على كل القيم التي تخلفت عن عهود سابقة. حيث بقيت قيم التفضيل على أساس السن والأقدمية دون الكفاءة أو سداد الرأي أو الانتاج.

والتفضيل على أساس الشلة أو العصبية أو الوضع المادى أو المظهر أو مهارات السلوك الاجتماعى التى قد لا تقرها الأخلاق العامة .

إنحراف ومشكلات

عندئذ وجد الشباب المصرى نفسه - كما وجد الكتاب الجدد أنفسهم - أمام تناقضات ثقافية لاحد لها . فمن ثقافة إباحية إلى ثقافة محافظة ، ومن دعوة إلى التحرر إلى دعوة للجمود . ومن تفكير علمى إلى تفكير خرافى . ومن أفكار اشتراكية إلى أفكار رأسمالية . ومن أدب رخيص مبتذل إلى أدب كلاسيكى رصين ومن قصص انطباعى ذاتى إلى قصص واقعى اشتراكى، ومن نقد يحكمه منطق المصلحة والشلة إلى نقد منحاز عقديا وفكريا وآخر مجامل ومن تأكيد للتواكل والغيبيات إلى تأكيد للاستقلال وبذل الجهد المستمر.. ومن عربية فصيحة إلى عامية صريحة . إطار فكرى غير موحد، عرضت على الشباب - فى ثناياه - نظم هدامة تساعد على الانحراف وإثارة المشكلات ، بدلاً من أن تساعد على النمو السليم والتوافق الصحى .

حدث هذا فى إطار تغيير مهم فى علاقات الانتاج ، وفى موقع الطبقات الاجتماعية ؛ أدى إلى تدعيم الطبقة العاملة ، كما أدى إلى توسيع نطاق الفئات المتوسطة ، وتقدمها إلى موقع القيادة .

وكما أشرنا فإنه صاحب هذا ظهور الطبقة الجديدة التى تتكون من بعض فئات المثقفين ، والقيادات العمالية ، والفنيين ، والكوادر الإدارية فى القطاع العام وأجهزة الدولة . كذلك نمت بعض الفئات التى تنتمى إلى البورجوازية الوطنية مثل مقاولى الإنشاءات ، وتجار الجملة ، وبعض أصحاب العقارات ، وأصحاب شركات النقل ووسائله المختلفة ، وبعض التجار الذين نشطوا فى أعمال التهريب والسوق السوداء ، وعدد من أصحاب المهن الحرة ، ثم أغنياء الريف ، وبعض أصحاب الورش والمصانع؛ حتى تحول قطاع المقاولات والإسكان والتجارة والنقل إلى قطاع استغلالى صارخ .

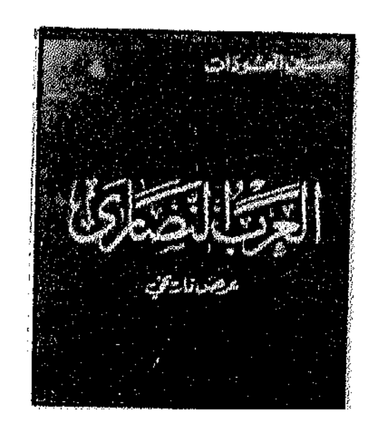
فى حين أن الفئة المثقفة التى تلعب دوراً أساسياً فى قيادة الرأى العام ؛ فى الصحافة والإذاعة والتلفزيون ، وكذا الكتاب والفنانون ، والممثلون ، والشعراء ، والرسامون ، وخريجو الجامعات وأساتذة الجامعات ، والمعاهد ، والمهندسون والمدرسون ، أصبحوا مرتبطين بالأجر الذى يتقاضونه من أجهزة الدولة والهيئات والمصالح والمؤسسات والشركات والمعاهد والكليات والمدارس المختلفة . ورغم ذلك كله فإن سيطرة الفكر السياسى والاقتصادى وأسلوب الحياة الذى تتميز به البورجوازية

المتوسطة والصغيرة ، وكل ما تحمله هذه الفئات فى طياتها من تناقض وتردد مستمرين ، ومن انتهازية مفرطة : هو الذى ساعد على تدعيم البورجوازية المتوسطة، مع أن الدولة كانت تسعى من أجل تثبيت دعائم الاشتراكية . (فى تفصيل ذلك انظر مقال الدكتور شريف حتاتة ـ مجلة (الكاتب) العدد ١١٤ ـ سبتمبر ١٩٧٠ بعنوان " تحولات مصرية فى الطبقات الاجتماعية " ص ٣٧) .

ليس من شك فى أن التغير المستمر وعدم استقرار المفاهيم، وتناقضات الفكر، ثم سلبيات التطبيق الاشتراكى، وإعلاء شأن الفئات الجديدة وكذا عدم تحديد مصطلحات الدلالة على سمات طبقات أصبح لها وجود مؤثر كالفلاحين والعمال ؛ أفضى هذا جميعه إلى أن يلجأ بعض كتاب القصة القصيرة الجديدة إلى أشكال، وشخصيات، وملامح، وموضوعات ؛ بدت هى الأخرى غير مقبولة وغير مفهومة ؛ لاعلاقة لها بتراثنا القصصى القديم والحديث . سيطر على جوها القلق وعدم الاستقرار ، والتردد ، والانغلاق ، وبخاصة أن المشروع القومى أو ما يمكن أن يسمى بالهم الوطنى العام ، الذى كان يجمع كل الفئات حوله قد اتخذ سبيله إلى التحقيق بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وجلاء الانجليز ، وخروج الملك ، وإعلان الانحياز للطبقات التى كانت محرومة ، وما شابه ذلك .

ساعد على ذيوع هذا الاتجاه الفنى فى القصة القصيرة ، أن أحد مبادىء الثورة ؛ وهو إقامة حياة ديمقراطية سليمة ، أحيط باللغط الكثير ، وأشارت خطوات السير نحو تطبيقه إلى تعثر ملحوظ ، واضطراب بين؛ أفضيا إلى الاعتقاد بأنه لم يؤخذ مأخذ الجد بالنسبة للكتاب والمفكرين ، مماً ألجأ بعضهم إلى الرمز ، والإغراب ، وتصوير الواقع الموجود بما لا يتلاءم مع الواقع المأمول .

وقد يلفت النظر أن بعض القصص لم تحتفل بقضايا الفلاحين والعمال ، على النحو الذى شاع فى القصة القصيرة بعد يوليو ١٩٥٢ وحتى يوليو ١٩٦١ : حين فتح الباب على مصراعيه لنقد الأوضاع التى كانوا عليها قبل الثورة ، أو لتصوير حياتهم الجديدة بعدها . فقد حلت مسائل الفرد الباحث عن ذاته ، وحريته ، وخلاصه، محل تلك الموضوعات ؛ حتى بالنسبة لبعض الكتاب الذين اتخذوا من الفلاح أو العامل أو من الأرض ، والعلاقات الجديدة، موضوعاً تدور حوله قصصهم . أمَّا من بدأ من الكتاب مقلداً للكتابات القصصية التى أصدرها كتاب واقعيون اشتراكيون ، فإن ملامحهم الفنية الخاصة توارت ، ولم يعد لديهم ما يستحق الإشارة إليه ؛ لأنهم لم يقدموا جديداً يذكر.



العرب النصارى - عرض تاريخى
المؤلف : حسين العودات
الناشر : الأهالى دمشق

منذ منتصف السبعينات ومع الحرب الطائفية فى لبنان ، طرحت من جديد على الساحة السياسية والفكرية والعربية ، قضية المسيحيين العرب ، وأخذت أشكالا مختلفة فى كل قطر من الأقطار العربية وفرضت القضية على الساحة السياسية والفكرية العربية بأساليب مختلفة ، بعض هذه الأساليب ، محاولة البعض مناقشة القضية كما نوقشت منذ أكثر من نصف قرن ، يوم أن استخدمها الاستعماريون فى تفتيت الأمة العربية وأقطارها ، وبعض هذه الاساليب لم يخل من روح التعصب ، وكأننا لم نتغير ولم تحدث نهضة فكرية وسياسية ، تجاوزت مثل هذه الأساليب البالية ، أما الأغلبية سواء من المسلمين أو المسيحيين فقد وقفوا بحزم تجاه أى شقاق أو تعصب أو إثارة، وعمل هؤلاء على تأكيد فكرة أثبتها الواقع التاريخى وهى أن المسيحية العربية هى جزء عضوى من الواقع الاجتماعى والثقافى العربى والإسلامى ، وهى بالتالى لا تستطيع الانفصال عنه وإلا فقدت هويتها .

وصدرت عشرات الكتب لتؤكد هذا المعنى ، سواء إقليميا أو قوميا ، وأحدث ماصدر كان كتاب العرب النصارى - لحسين العودات - دمشق - ١٩٩٢ .

ويصدر الكتاب بكلمة للمطران جورج خضر : « لسنا كلنا مسلمين ولكننا كلنا إسلاميون ، بمعنى أن هناك حضارة واضحة جدا هى الحضارة الإسلامية ونحن كلنا ننتمى إليها » .

وفى تقديم المؤلف للكتاب يقول : « يعرض هذا الكتاب مواقف الأنظمة - السياسية والاجتماعية فى البلدان العربية من العرب النصارى منذ ما قبل الاسلام حتى بداية القرن العشرين أما علاقات

الفئـــات الاجتمــاعية والدينية بعضـــها مع البعض الآخر فقد كانت انعكاسا لضعف الدولة أو قوتها وللتمايز الطبقى والاجتمــاعى وشــدته ، ولذلك كانت المظالم التى تطال النصـــارى من بعض المتنفذين تطال بالـــدرجـة نفسهـــا المسلمين من الفئات الدنيا ، مما يؤكد أن أسـبابـها اجتماعـية واقتصـاديـةوسيـاسية وليست دينية » .

والكتـــاب يضم ٦ فصــول ، ١١ ملحـقا ، والفصــول هى : الـعرب النصارى قبل الاسلام – ظهــور الاســلام وعصر الخلفـــاء الراشـــدين – الأمويون والعباسيون والفاطميــون – الغـــزو الصــليبى – الـدولــة العثمانية – عصر التنوير والنهضة .

فقـــد انتشـــرت النصرانية فى بلاد العرب قبل الاســلام انتشارا كبيرا .

وبينـمـــا كـــانت الكنـــائس فى المشـرق تتصـــارع ، بقيت بقيـة شعـــوب الامـــبراطـورية البيــــــزنطيـــة فى القسطنطينية والأناضول وأفريقيا الشمالية وأوروبا متمسكة بوحدتها .

وكان الصــــراع بين القبــائل الـعربية حـول المـــذهب النسطـــورى واصحاب الطبيعة الواحدة

وكــان للنصـــارى فى الحجاز ونجد وجود ، كما كـــان لهم علم باللغـــات الأخـــرى كالســوريانية والعـبـرية واليـــونانية ، وأطلقت الأقباط فى مصر على المسيحيين المصريين الذين بقوا على ديانتهم بعد مجئ الإسلام ولم تنقطع علاقتهم بشبه الجـــزيرة العربية وبلاد الشـــام ، فالعـــلاقات القبطية قديمة العهد ، كما كان النصـــارى العرب معادين للدولتين الفارسية والبيـــزنطية . وقد قامت الأخيـــرة بمـــذابح كبيرة للمــــذاهب النصــــرانية وتعرض النصارى سواء فى مصـــر أو فى جنوب العراق وجنوب سوريا للاضطهاد والظلم ، الأمر الـــذى مهـــد الطـــريق للفتـــوحـــات العـــربية الإسلامية ، وجعل سكان هذه المناطق ينظرون للمسلمين كمخلصين لهم من ظلم الامبراطوريتين وعندما جاء الإسلام خير أهل الكتـــاب – اليهود والنصارى – بين الدخول فى الإســلام أو دفــع الجزية والبقاء على دينهم وفى الحـالات التى شارك فيها أهـــل الكتـــاب فى الحرب مع المسلمين أعفوا

من الجزية ، وقد شارك النصارى العرب المسلمين القتال زمن عمر في بلاد فارس ومصر وأعفوا من الجزية ونالوا حصتهم من الغنائم .

لقد احترم الإسلام أيام الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدين حرية الفكر والمعتقد لأهل الكتاب ، انطلاقا من قوله تعالى : « لا إكراه في الدين » وكذلك حافظت الدولة الإسلامية أيام الرسول والخلفاء الراشدين على أملاك أهل الكتاب وأعطتهم الحق في التملك والتنقل داخل دار الإسلام وخارجها .

وقد احتل الموظف الكتابي مركزا هاما في الإدارة الإسلامية في جميع العصور وجميع المناطق .

وفي العصر العثماني أصدر السلطان محمد الفاتح « نظام الملة » الذي قسم رعايا الدولة إلى ملل حسب أديانهم ولم يكن نظام الملة تقسيما طائفيا يهدف إلى استصغار طائفة أو عدم الاعتراف بحقوقها ، بل كان يهدف لتثبيت حقوق الطوائف وواجباتها وإيجاد توازن بين هذه الطوائف وتفويض رجال الدين بالشئون الدينية لدى كل طائفة ، ولكن نظام الملة ما لبث أن تحول بعد التدخل الأوروبي ونظام الامتيازات إلى نظام أقليات وكان المستعمرون الاوروبيون يسعون جاهدين لتحويل الملل إلى أقليات (قومية) ودولة داخل دولة ، مما أرسى الحجر الأساسي في المشكلة الطائفية في المشرق العربي ، وحرص الأوروبيون على توسيع امتيازاتهم ، ومع بحثهم الدائم عن إيجاد مبررات للتدخل في شئون الدولة العثمانية ، جعلهم يجدون المبرر في شعار « حماية الاقليات المسيحية » وخلق واقع ثابت يؤكد هذه الحماية وعملوا لتدعيم موقفهم هذا بفتح المدارس والجامعات وبعث الإرساليات ومنح امتيازات للمسيحيين في مجال التجارة والصيرفة .

ومع تحديث الدولة العثمانية وصدور خط شريف الذي عرف باسم الخط الهمايوني في ١٨٥٦ والذي جاء في أحكامه أنه ألغى نهائيا من الأنظمة الادارية كل تفريق أو تسمية من شأنها جعل أي طبقة من الطبقات تختلف عن سواها بسبب الدين أو اللغة أو العرق ونص على المعاقبة القانونية لكل استعمال العبارات المهينة

أو الجارحة سواء بين الأفراد أو من قبل السلطات العامة ، ونص على حرية ممارسة جميع الديانات وحظر مضايقة أى شخص من رعايا الدولة فى ممارسة ديانته

●●

الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر الجزء الأول

تأليف : فرنان بروديل .

ترجمة : الدكتور مصطفى ماهر

الناشر دار الفكر للدراسات والنشر

نظرة جديدة لتفسير التاريخ ، يقدمها المؤرخ الفرنسى الشهير فرنان بروديل (١٩٠٢ - ١٩٨٥) حيث ينظر إلى التاريخ نظرة تجمع شتات الحياة فى العصر الذى يتناوله ، فلا هى تقتصر على الملوك والممالك والقادة وأصحاب القوة والهيمنة والحروب ، ولا هى تكتفى بأحوال الفقراء والكادحين ، بل هى تحيط بطوائف المجتمع المختلفة وحياتهم اليومية وحياتهم المادية إنه يتابع حركة البناء وموادها وأشكال البيوت ، وبعد رصدها من الخارج، يحاول تسجيلها من الداخل ويرى أن التأثيث الداخلى لا يتغير فى بيوت الفقراء أيا كانوا.

إنه يستدل من البناء والأثاث وتطوره إلى موقف الحضارات " بالمقارنة بما كان يحدث فى نفس الفترة فى أماكن مختلفة .

وهو يشير مثلا إلى غياب الترف والراحة ، فلم يكن بالشقق مرحاض أو ماسمى بالكابينيه الانجليزى الذى اخترعه السير جون هارينجتون عام ١٥٩٦ ، وكانت عملية تفريغ المجارى المكشوفة فى باريس مشكلة شغلت بها أكاديمية العلوم عام ١٧٨٨ وكان أهالى باريس يقضون حاجاتهم تحت الاشجار ناحية حدائق قصر التويلرى ، ولما طردهم حراس القصر ذهبوا إلى شواطئ نهر السين .

فى كل مدن فرنسا كان الحمام شيئا بالغ الندرة ، فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وكانت الحشرات من براغيث وقمل وبق تشغى

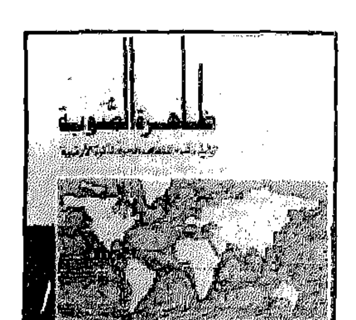
فى لندن وباريس وتعشش فى بيـوت الأغنيـاء والفقراء ، أما إضاءة البيوت فكانت تعتمد على الشموع الكبيرة حتى مطلع القرن التاسع عشر عنـدما ظهـر غاز الاستصباح الأزرق .

إن الجزء الأول الذى ترجم من الكتاب الذى يحتوى على ثلاثة اجزاء ، جاء عدد صفحاته - ٨٠٧ صفحات من القطع الكبير - تحتوى على تفصيلات دقيقة عن الحياة اليومية ، ويقول المؤرخ برودل كان شغلى الشاغل أن أرى وأشاهد وأن أجعل الآخرين يرون ويشاهدون

ويعتـبر من أبـرز المـؤرخين الفرنسـيين المعاصرين ، وقد نشر إلى جانب كتابه ، هذا ، كتاب عن البحر المتوسط وعالمه فى عصر الملك فيليب الثانى -- القرن السادس عشر - الذى صدر بالفرنسية عام ١٩٤٩ ، وفى عام ١٩٩٠ صدرت طبعته التاسعة ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات : الإنجليزية والإيطـاليةوالأسبـانية والبـولنديـةوالبرتغالية واليـونانية والالمانيـة والتركية ، ومؤخرا صدر « المـتوسط والعـالم المتوسطى » موجز للكتاب باللغة العربية عن دار المنتخب العربى فى بيروت ، كما أعد مروان أبى سمرا ، دراسة عن هذا الكتـاب تحت عنـوان « فرنان برودل مؤرخ » المتـوسط والعـالم المتوسطى : الصحراء ، البدو ، والاسلام قطب المتوسط التاريخى فى مجلة الاجتهاد - العدد السابع عشر - خريف ١٩٩٢ .

ولبرودل كتاب ثالث بعنوان : « هوية فرنسا - الناس والاشياء » وقد صدر بعد وفاته .

● ●



ظاهرة الصوبة : تأييد دفء الغلاف الجوى للكرة الأرضية

تأليف : جون جريبين

ترجمة : الدكتور أحمد مستجير

الناشر : هيئة الكتاب .

كان من بين الوقائع الرئيسية التى دفعت بجدل الصوبة إلى خشبة

المسرح السياسى مؤتمر عقد فى تورنتو - مايو ١٩٨٨ - عن الجو المتغير وحضره العلماء وصناع القرار السياسى من ثمان وأربعين دولة مع ممثلى خمس عشرة وكالة وسبع وأربعين منظمة غير حكومية ، وكانت الصورة التى عرضت على المؤتمرين تقـول إن متـوسط درجة حرارة العالم سيرتفع أربع درجات مئوية بحلول عام ٢٠٣٠ ويرتفع بناء على ذلك مستوى ماء البحر ، الشئ الذى يعرض مراكز سكانية متعددة للخطر ومنذ تاريخ المؤتمر بدأ الاهتمام المتزايد بقضية البيئة .

والكتاب بفصوله العشرة يناقش القضية ويطرح بعض الحلول ، فيحدثنا عن ارتفاع الحرارة فى هذا الزمن - وعن الصوبة والعلاقة بين العصور الجليدية وثانى أكسيد الكربون ، وما بعد الجليد، ودورات الكربون الطبيعية وغير الطبيعية ، غازات الصوبة ، وكل شئ بالبحر والفيضان الآتى - والأرض الدافئة ، ثم ماذا نفعل ؟ ، وفى نهاية الكتاب ملحق عن مـــركبات ك ف ك (كلور وفلور وكربونات) والأوزون والصوبة .

والكتاب تنبيه وتحذير لمواجهة أخطار وكوارث سيواجهها الإنسان ، وعلى الجميع من الآن العمل على مكافحتها أو على الأقل العمل على التقليل من أخطارها .



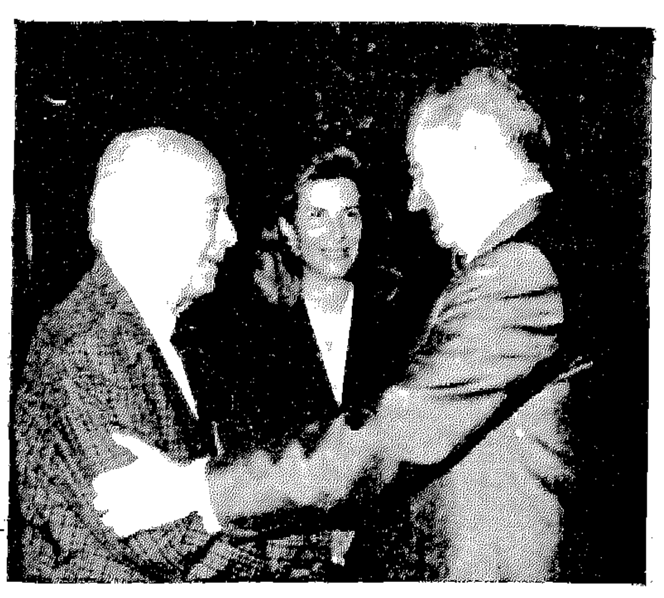
رباعية الاسكندرية
لورانس داريل
كليا - الجزء الرابع
ترجمة : الدكتور فخرى لبيب
الناشر : دار سعاد الصباح .

يصدر الجزء الرابع - كليا - من رواية رباعية الاسكندرية للكاتب البريطانى - من أصل أيرلندى - تكون الرواية قد اكتملت ترجمتها . فقد صدر من قبل : جوستين - بلتازار - مارتت أوليف لنفس المترجم ، وقد اكتسبت الرواية شهرة واسعة ، وكان لها تأثيرها فى بعض الأدباء العرب ، وعرف داريل واشتهر بروايته هذه . وكان قد بدأ نشر أول أجزائها جوستين عام ١٩٥٧ ، ثم بلتازار عام ١٩٥٨ وماوتت أوليف عام ١٩٥٩ وانتهت بالجزء الرابع كليا عام ١٩٦٠ ، وقد صدرت ترجمة عربية لبعض أجزاء الرواية فى بيروت فى أواخر الستينات .

نظرة على أدب القصة والرواية اليونانيـــــة المعـــــاصرة

فى ظل الأوقات وخاصة فى وقتنا هذا الصعب الحرج فإن من واجب الكاتب أن يصبح صوت من لا صوت لهم من كل أفراد الجنس البشرى الذين يتعذبون والذين يعانون من الظلم ، وهكذا يموتون من الجوع أو يعيشون فى ظروف اجتماعية واقتصادية قاسية وفى المشاكل ، إنهم فى سجن ومنفى بسبب النظم الرهيبة التى يتعذبون منها .

بهذه الكلمات أرسل لى أديب اليونان العالمى أنطونيو سماراكيس كلمة وداع وتحية قبل عودتى من اليونان الى مصر - ولقد كنت قبل ذلك بأيام ثلاثة فى زيارة له بداره التى تشرف على الأكروبول إثر دعوة منه تحدثنا أثناءها عن الأدب اليونانى المعاصر وخاصة القصة والرواية ، ولقد استقبلتنى السيرلانكية عند الباب لتقودنى الى بهو أنيق فاخر الرياش ، ويأتى سماراكيس ، رجل انحنى ظهره قليلا وخط المشيب شعر رأسه واتقدت عيناه ذكاء وقوة ، فهو فى السبعين من عمره ، ورغم اصابته بالمرض فإنه يتمتع بنشاط وحيوية عجيبين ، استقبلنى بقوله : أنا أحب مصر وأهل مصر إنهم دائما فى قلبى ، وقد كنت هذا الشتاء فى زيارة لمصر استمرت أسبوعين شاهدت فيها القاهرة ومنها بالباخرة الى أبو سمبل هذا المعبد ، ياله من أثر رائع أخذ بلبى أنا وزوجتى المحامية التى كانت تصاحبنى فى هذه الزيارة ، ويقطع حديثه ليقول : زوجتى « إلينا كورمباناس » أديبة أيضا وكتبت رواية بعنوان « انتقام الشخص المثالى » ولكنها توقفت عن الأدب وتفرغت للمحاماة



الأديب العالمى سماراكيس مع الرئيس القبرصى
وزوجة الكاتب المحامية



الأديب سماراكيس مع روايته
الأخيرة التى ترجمت للعربية

بعد الزواج وقد أهديتها معظم كتبى .

قلت لسماراكيس : لنبدأ من الأول - كيف كانت بداياتك ومتى اشتغلت بالأدب ؟

يقول : عملت وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى بعد حصولى على شهادة الإعدادية الفرنسية عام ١٩٣٥ ، وتعرضت للسجن أكثر من مرة وطردت من وظيفتى لاشتغالى بالسياسة ولكتاباتى الانسانية التى تقف الى جانب البائس والمظلوم ومعاناة الشعب .. ولقد بدأت حياتى العملية ولـ سنوات طوال أعمل فى وزارة العمل اليونانية وكانت هذه أول مرة تؤسس وزارة للعمل ، وكانت هناك مشاكل كثيرة من أهمها أن النساء كن يطالبن بالمساواة بالأجر فى العمل ، وقد كنت شديد الصلة بالمرأة ومشاكلها فهى التى كانت تضحى بحياتها فى الحرب العالمية الثانية ، وكنت فى ذلك الوقت أكتب شعرا ، وقد كتبت الشعر وأنا فى العاشرة من عمرى - وجاء وقت كان يحكم اليونان فيه ديكتاتور هو الجنرال متكساس وهو صورة من موسولينى وهتلر ، فطردونى من العمل لأننى كنت أيضا أدرس فى الجامعة ورفضت الانضمام الى منظمة الشباب فيها

والتي كانت تحت إمرة الحاكم .

وأسأله عن آخر أعماله الأدبية ، فيقول : ان له كتابا طبع في مصر وقام دكتور نعيم عطية بترجمته وقد وصلتني منذ أيام بعض نسخ منه وهو من مطبوعات الرواية العالمية ويحمل عنوان مطلوب أمل - وقد أهداه الى ابن بلده بيروس فاليانانوس الذى ولد وتربى فى الأحياء الشعبية فى القاهرة والاسكندرية وأحب لغة أبناء مصر وأعطاهم حبه - ويستطرد سماراكيس قائلا : إن بيروس هو الصديق الذى لم يعرفه أبدا وهو يعمل فى السفارة اليونانية منذ مدة وهو مستشارها الصحفى الآن - كذلك من اليونانيين المرموقين فى مصر كوستيس موسكوف المستشار الثقافى لسفارة اليونان وهو كاتب قصة وقد أعد مع دكتور نعيم عطية ترجمة للشاعر اليوناني ولحياته وأعماله وكان يعيش فى الاسكندرية وأقيم منذ عام احتفال بذكراه فيها .

أحب الاسكندرية

يقول سماراكيس : أحب الاسكندرية وقد زرتها منذ مدة ومن ذكرياتى فيها أننى ذهبت الى أحد المسارح وكان يقام به زفاف واذا بالقوم يدعوننى الى الحفل ويجلسوننى بجوار العروس والعريس ويجعلوننى أرقص رقصة افتتاح الحفل مع العروسين - هذه لحظة لا أنساها - مرة أخرى أردت أن أشترى قبعة صغيرة لحماية رأسى من الشمس وذهبت الى بائع فى الطريق وطلبت منه القبعة وأصر البائع على عدم أخذ ثمنها رغم إلحاحى عليه وأخيرا طلبت منه أن يأخذ صورة معى ، وعند عودتى الى اليونان نشرت الصورة والقصة فى الصحف اليونانية .

ويصمت سماراكيس قليلا ثم يقول : إن معظم كتبي عن الشعب ومعاناته ولقد ظللت أكتب الشعر من عام ١٩٣٠ حتى عام ١٩٥٢ وتوقفت بعدها ، وقد نشرت ما يقرب من أربعين قصيدة فى الصحف بالاضافة الى ستين قصيدة للأطفال وقد جمعت فى كتاب .

- متى بدأت تنشر كتبك ؟

- فى عام ١٩٥٤ بدأت نشر أول كتبى ويضم اثنتى عشرة قصة بعنوان مطلوب أمل لأنه كلما بحثت عن شيء لا أجده ولا أجد ما يحققه .

- هل ترجمت كتبك الى لغات أخرى ؟

- نعم عندى عدة كتب ترجمت الى الانجليزية والفرنسية واليابانية والصينية والعربية وغيرها وروايتى التى تحمل اسم « فلو » Flaw وهى عن المعاناة ترجمت الى اثنتين وثلاثين لغة وتتحدث عن المعاناة داخل الانسان وعن كفاح الشعب ضد نظام سياسى متعنت ثم عن أحد قادة النظام الذى يؤمن بحرية الشعب فيضحى بعمله فى سبيل شعبه .. ولقد أخرجت السينما والتليفزيون بعض أعمالى والتى وصلت الى عشرين عملا .

ولى مجموعة قصص بعنوان « أنا أرفض » وقد نشر فى عهد الهوندا وهو عهد الارهاب منذ عام ١٩٦٧ الى ١٩٧٤ وقد قبض علىّ ووضعت فى السجن وفى نفس الغرفة التى وضعت فيها عندما كنت محبوسا أيضا وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى - ولقد حصلت على الجائزة القومية فى التأليف عن هذا الكتاب وهو مجموعة قصص قصيرة ، كذلك حصلت على جائزة الرواية عن رواية « Flaw » من فرنسا وهى أكبر جائزة فيها وفى عام ١٩٨٢ حصلت على أكبر جائزة أوربية لأعمالى الأدبية كلها .

- ما الذى تقوم به الآن ؟

- أقوم حاليا بكتابة كتاب عبارة عن ثمانى قصص قصيرة سينشر فى شهر سبتمبر ويحمل عنوان « الكوندرا » وهى عن حلاق يذهب ليحلق لصديقه المريض ويعاود الحلاقة فى الاتجاه المخالف وهو فى أثناء ذلك يحدثه عن مشاكل الحياة والشعب وغيرها من الأمور وفى هذه الأثناء يكون المريض قد توفى والحلاق لا يشعر ويأتى الحانوتى بعد ذلك لدفنه ويجرى الحلاق خلفه وهو يبكى ويصيح : أنا لم أكمل لك الحلاقة بعد !

- ما هو مستقبل الأدب العالمى فى رأيك ؟

- نحن نعيش فى عهد الماسميديا « التليفزيون والراديو والصحافة » ونسمى الصحافة الآن الكترونية لأنها تحاول أن تكون أكثر إثارة وتحاول مباراة التليفزيون ومسابقته لأن التليفزيون أكثر سرعة واثارة ، ولكن رغم قوة الأخبار العالمية « الماسميديا » فإن الأدب دائما ينتصر ، لأن البشرية فى حاجة دائما الى صوت هادىء خفيض ليفهم الحياة ، والرواية هى التى تحدثك عما فى داخل نفسك مما لا يستطيع التليفزيون أن يعبر عنه ، لذلك فإن الرواية هى التى تنتصر دائما وهنا يأتى واجب الكاتب والأديب وهو أن يخفف من مشاعر الآلام والمصائب ، إن عمل الأديب يظهر مآسى الحياة .

وعن الأدب النسائى يقول : يوجد من يكتبن القصة والرواية والشعر أيضا كما توجد صحفيات بارزات .. فهناك الروائية ديدو سوتيريو والأديبة الراحلة إليو ألكسيو والشاعرة الراحلة ماريا بوليثوريو والتى توفيت منذ زمن ومازالت أشعارها رائجة ، وهناك الشاعرة المعاصرة إيزودورا روزنتال كمارينا وهى تعمل أستاذة فى جامعات ألمانيا ومتزوجة من ألمانى ومتخصصة فى الأدب اليونانى الحديث والبيزنطى وهناك شاعرة شابة هى كيكى ديمولا .

- وأسأله أخيرا : ما الذى تتمناه للحياة؟

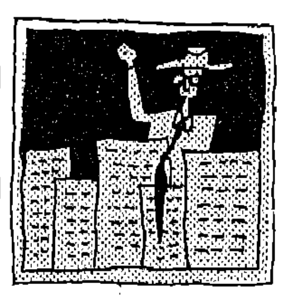
يقول : أن نستمر نكافح من أجل المبادىء والإنسانية حتى يظهر فجر الحق .

«تزييف التاريخ» في مناهجنا التعليمية

تحت شعار البحث عن المثل العليا وغرس الأخلاق ودعم الروح القومية وتنمية الولاء الوطنى ونحو ذلك من المبادىء والقيم تمت أكبر عملية لتزييف التاريخ فى مناهجنا التعليمية واستخدمت مناهج التاريخ فى مؤسساتنا التعليمية من أجل دعم سلطة الحكام وتم التضحية بالحقيقة التاريخية من أجل تثبيت الطغاة وتم تزييف وعى التلاميذ من أجل تثبيت الحاضر والمحافظة على القديم .

وسوف نحاول فى هذه الدراسة أن نتعرض لصورة من تزييف التاريخ فى مناهجنا التعليمية .

ولكى نتفهم الأبعاد التاريخية لعملية توظيف التاريخ واستخدامه فى تزييف وعى المواطنين من أجل خدمة أغراض الحكام السياسية ومصالح الطبقات الحاكمة من المهم لنا أن نوضح أن تدريس التاريخ فى مناهجنا التعليمية لم يكن له شأن يذكر حتى أخريات القرن الماضى عندما أشار قومسيون المعارف فى تقريره عام ١٨٨٠ إلى أهمية تدريس التاريخ موضحا أن تدريس التاريخ حتى ذلك الحين يكاد يكون معدوما وليس ماثلا فى البرنامج إلا بالاسم .



فما أن وقعت مصر فى قبضة الاستعمار البريطانى ١٨٨٢ حتى اتجهت سياسة الاحتلال البريطانى التعليمية إلى العناية بمنهج التاريخ فى مختلف مؤسساتنا التعليمية إذ أنه يمكن من خلال منهج التاريخ صياغة المواطنين صياغة تتناسب مع أغراض الحكام وذلك عن طريق تسييس التاريخ واستخدامه لخدمة أهداف النظام السياسى والطبقة الحاكمة .

بقلم : د. محمد أبو الإسعاد

إهمال التاريخ القومى



ولذلك اهتم الاستعمار البريطانى بتقديم منهج للتاريخ فى مدارسنا يقوم على أساس استخدام التاريخ لتثبيت الاوضاع الحاضرة وتبرير أصولها والمحافظة عليها وما يترتب على ذلك من تزييف أحداث التاريخ ، لتتفق مع هذا الغرض السياسى فتميزت مناهج التاريخ فى عهد الاحتلال البريطانى بالتركيز على التاريخ الاوربى لابراز التقدم الاوربى بوجه عام والبريطانى على وجه الخصوص ، فى الوقت الذى أهمل فيه التاريخ القومى فى عصوره المختلفة وزيفت حقائقه وتركزت مناهج التاريخ حول التاريخ السياسى المتصل بتاريخ الحكام مع اهمال واضح للتاريخ الاجتماعى والاقتصادى المتصل بتاريخ الشعوب ، وأعتمد المنهج أسلوب «القص واللصق» أى مجرد تجميع الوقائع حتى يظل التاريخ مجرد تجميع معلومات دون أن يتعدى ذلك إلى خلق القيم والاتجاهات الاجتماعية والفكرية . وحرص هذا المنهج على ألا يترك للتلميذ فرصة للجدل والمناقشة واصدار الاحكام بل قام على إملاء الحقائق كمسلمات تقبل دون نقاش وذلك باعتماد أسلوب الحفظ والاستظهار أداة لمعالجة هذا المنهج تحصيلا وامتحانا .

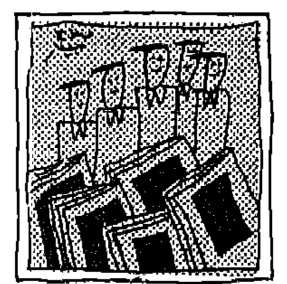
وقد كان المتصور بعد إندلاع ثورة ١٩١٩ أن تتحرر مصر من سياسة الاحتلال التعليمية ومن ثم تتخلص مناهج تدريس التاريخ فى مؤسساتنا التعليمية من الأسس الاستعمارية التى فرضت عليها لكن ذلك لم يكن بالأمر الهين فقد كان ذلك يحتاج إلى ثورة فى مناهج التعليم وفى فلسفته وهو مالم يحدث حتى الآن ، ومن ثم ظل تدريس التاريخ فى مناهجنا التعليمية منذ ثورة ١٩١٩ وحتى ثورة ١٩٥٢ يتم وفق المبادىء ، التى أرستها سياسة الاحتلال التعليمية وفى مقدمتها استخدام التاريخ لتثبيت الأوضاع الحاضرة وتبرير أصولها والمحافظة عليها وتزييف التاريخ ليتفق مع هذا الغرض السياسى ويؤدى إليه .

تزييف التاريخ في مناهجنا التعليمية

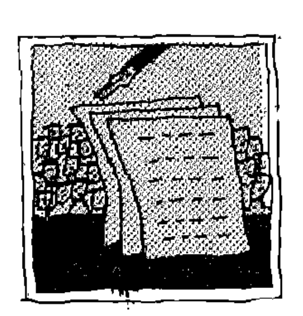
ولما قامت ثورة ١٩٥٢ استحدثت تغييرات فى مناهج تدريس التاريخ فى مختلف مراحل التعليم لكن هذه المتغيرات استمرت تقوم على الاسس التى وضعت فى عهد الاحتلال البريطانى وأساسها استخدام التاريخ استخداما سياسيا فى مناهج التعليم بما يخدم الاوضاع القائمة ويبرر أصولها ويحافظ عليها واستمر تزييف حقائق التاريخ حتى تتمشى مع هذا الهدف السياسى وتؤدى إليه

مناهجنا والثورة الفرنسية

ولتوضيح خطورة تسييس مناهج التاريخ فى مدارسنا وأثره فى صياغة فكر ووجدان المواطن سوف نحاول فى هذه الدراسة أن نقدم صورة الثورة الفرنسية كما جاءت فى مناهجنا الدراسية وسوف نتخذ أساسا لهذه الدراسة عينات من الكتب المدرسية التى تم استخدامها فى أعقاب ثورة ١٩١٩ والخاصة بمنهج تاريخ أوربا الحديث وأصول العالم المعاصر، وهذه العينات تمتد حتى إلغاء هذا المنهج من مدارسنا فى عام ١٩٨٧ ويمكن تصنيفها إلى مجموعتين الأولى هى كتب التاريخ المدرسية المقررة بعد ثورة ١٩١٩ وقد أطلعنا منها على ثلاثة كتب هى كتاب «تاريخ أوربا الحديث» الذى وضعه عمر الاسكندرى وسليم حسن عام ١٩٢٠ وكتاب «معالم تاريخ أوربا الحديث» الذى وضعه محمد رفعت ومحمد أحمد حسونة وطبع لأول مرة عام ١٩٢٣ ثم كتاب «تاريخ القرن التاسع عشر فى أوربا» تأليف محمد قاسم وحسن حسنى والذى استمر استخدامه فى مدارسنا حتى عام ١٩٤٩ . أما المجموعة الثانية فتتمثل أيضا فى ثلاثة كتب مدرسية الأول هو كتاب «أصول العالم الحديث» الذى ألفه محمد عبد الرحيم مصطفى ومحمد أحمد حسونة وعبد العزيز مبارك والذى طبع لأول مرة عام ١٩٥٤ . وكتاب التاريخ الحديث المعاصر الذى وضعه محمد قاسم وأحمد نجيب هاشم الذى طبع لأول مرة عام ١٩٥٥ ثم كتاب «أصول العالم الحديث» الذى وضعه الدكاترة أبو الفتوح رضوان ومحمد الهادى عفيفى ومحمد أحمد الغنام والذى طبع لأول مرة عام ١٩٦٢ وظل معمولا به حتى ألغى منهج تاريخ أوربا وأصول العالم الحديث من مدارسنا فى عام ١٩٨٧



ورغم ما يلاحظه المؤرخ من اختلافات سياسية وعقائدية بين



ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢م إلا أن هذا الاختلاف لاينعكس بشكل أو آخر على موقف منهج التاريخ من الثورة الفرنسية فموقف الكتب التى تقررت فى مناهج مابعد ثورة ١٩٥٢ هو نفسه موقف الكتب التى سبقتها والتى تقررت بعد ثورة ١٩١٩ الأمر الذى لايدعو إلى الغرابة بقدر مايطرح تساؤلات حول حقيقة الموقف الايدلوجى لثورة ١٩٥٢ ومدى وضوح هذه الايديولوجية لدى مخططى مناهج التعليم .

والحق أن الثورة الفرنسية هى ثورة مسبوقة بإنتاج فكرى وفلسفى خاص بها يمكن ايجازه فى ثلاثة نماذج فكرية أو ثلاثة تيارات سياسية النموذج الأول هو الملكي الارستقراطى ، وقد تمثل فكره السياسى فيما نادى به مونتسكيو من حصر السلطة فى يد الارستقراطية ، والنموذج الثانى هو النموذج البرجوازى ، الليبرالى كما مثله فولتير فى دعوته لأن يكون الحكم للطبقة البرجوازية أما النموذج الثالث فهو النموذج الديمقراطى الشعبى كما تمثل فى دعوة روس إلى أن يكون الحكم لجميع الشعب .

ووفقا لذلك نجد أن الثورة الفرنسية قد مرت بثلاثة أطوار، الطور الأول وهو الذى امتد بين (١٧٨٩/١٧٩١) وفيه قام الصراع حادا بين الملكية والبرجوازية ولم يحسم الصراع الا تدخل القوى الشعبية إلى جانب البرجوازية وأسفر هذا الصراع عن صدور دستور ١٧٩١ الذى أستأثرت فيه البرجوازية بالسلطة وحرمت المعدمين من أى حقوق سياسية وقصرت ممارسة الحقوق السياسية على الذين يملكون وجعلت الانتخابات على درجتين كما وضعت قيوداً مادية لاختيار النواب ، ومن ثم تم عزل الشعب عن الحياة السياسية التى أصبحت قصرا على الطبقتين الارستقراطية والبرجوازية اللتين تمتلكان المال والثروة وبذلك ظلت السلطة في يد الأغنياء .

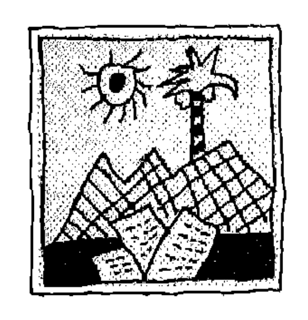
لكن تطور الاحداث فيما بعد (١٧٩١/١٧٩٣) أدى إلى تنامى دور القوى الشعبية فى الثورة وظهور قدرتها على التصدى للاخطار الداخلية والخارجية ومن ثم صدر دستور ١٧٩٣ الذى ألغى نظام الانتخابات على درجتين كما ألغى القيود المالية على اختيار النواب وجعل الانتخاب بطريق الاقتراع الشعبى المباشر أو التصويت العام المباشر وأخضع الملكية الخاصة لقاعدة المنفعة الاجتماعية وبذلك

أرسى هذا الدستور معالم جمهورية شعبية ديمقراطية الحكم فيها للشعب جميعه .

ومن ثم قام الصراع حادا بين الجيروند أنصار دستور ١٧٩١ وبين حزب اليعاقبة أنصار دستور ١٧٩٣ وكان من الطبيعي أن يشتد الصراع الداخلي وأن تحاول الطبقة البرجوازية القضاء على زعامات القوى الشعبية وأن تحاول القوى الشعبية بدورها التخلص من الطبقة البرجوازية الذى كان فيه الخطر الخارجي للتحالف الدولي يهدد استقلال الجمهورية الفرنسية ومن ثم كان عهد الإرهاب ١٧٩٣ - ١٧٩٤ حيث سيطر الزعماء الشعبيون وفي مقدمتهم دانتون ومارا وبروبسبير على الحكم حتى انتهى الامر باعدام بروبسبير في ٢٨ يوليو ١٧٩٤ فانقض الجيروند على الحكم وقاموا بتصفية خصومهم من اليعاقبة والثوار الشعبيين وأعادوا تنظيم الحياة السياسية وفقا لمصالحهم التى تمثلت فى دستور ١٧٩٥ الذى أعاد الحكم للأغنياء وقصره على الطبقة البرجوازية دون الجماهير الشعبية التى حرمت من ممارسة السلطة السياسية .

ومن ثم يمكننا أن نخلص إلى أن الثورة الفرنسية قد قدمت ثلاثة نماذج أو ثلاثة تيارات سياسية هى النموذج الملكى الذى يدعو إلى أن يكون الحكم للارستقراطية والنموذج الجيروندى الذى يدعو إلى أن يكون الحكم للطبقة البرجوازية والنموذج الثالث هو النموذج اليعقوبى الشعبى الذى يدعو إلى أن يكون الحكم لجميع الشعب .. ومن المهم لنا أن نتعرف على موقف مناهجنا المدرسية من هذه النماذج الثلاثة .

أظهر منهج التاريخ فى كتبنا المدرسية درجة ملحوظة من التعاطف مع الملكية الفرنسية وتمثل هذا التعاطف فيما تناوله المنهج عن اعدام الملك لويس السادس عشر واعدام الملكة مارى انطوانيت وعن عرض المنهج لمواقف بعض زعماء التيار الملكى - الارستقراطى من أمثال ميرابو ولافاييت ولنقتطف مثالا من كتاب تاريخ القرن التاسع عشر فى أوربا تأليف محمد قاسم وحسين حسنى وكان معمولا به فى مدارسنا فيما بين ١٩٢٧/١٩٤٩ .



يقول هذا المنهج عن اعدام الملك مايلى:

قرر المؤتمر الوطنى محاكمة الملك مع أن العرف والدستور يناقضان ذلك وقد مثل الملك أمام المؤتمر ودافع عن نفسه كما دافع عنه محاميان حتى كاد المؤتمر يقتنع ببراءته ولكن بروبسبير وقف بين الأعضاء يذكرهم أنهم ليسوا قضاة بل رجال سياسة وكان لخطابه وخطاب زملائه من التأثير ماجعل المؤتمر يقرر إدانة الملك فحاول - الجيروند انقاذه بالالتجاء إلى استفتاء الشعب فى العقوبة غير أن اليعاقبة أفسدوا عليهم حيلتهم بأن حشدوا جموعا من غوغاء باريس داخل القاعة وخارجها لإرهاب الأعضاء المعتدلين والمترددين يوم أخذ الأصوات فى أمر تقرير العقوبة ثم اقترح أحدهم ألا يبدى العضو رأيه وهو جالس أو قائم فى مكانه كما جرت العادة ، بل بالذهاب إلى المنبر وإعلان رأيه من هناك فأفزعت هذه الحيلة كثيرا من الأعضاء ودفعتهم إلى الرضوخ لرغبة أعدائهم وهكذا فاز اليعاقبة بالاغلبية وقرر المؤتمر اعدام الملك فى ١٧ يناير ١٧٩٣ وتم تنفيذ الحكم فى ٢١ يناير ١٧٩٣ بميدان الجمهورية بباريس وكان آخر مانطق به «إنى برىء ولكن فليكن دمى فداء سلام وسعادة أبناء فرنسا» .

كما أظهر المنهج تعاطفا شديدا ودفاعا حارا عن النموذج الجيروندى البرجوازى ، وقدم الكتاب المدرسى هذا النموذج دائما بصورة الحضارى المحب للسلام والنظام والحريص على الحريات والقانون والدستور الكاره للارهاب المقاوم للظلم وسفك الدماء . ويكفى لذلك أن نذكر ما أورده كتاب العالم الحديث تأليف محمد عبد الرحيم مصطفى ومحمد أحمد حسونة وعبد العزيز مبارك طبعة ١٩٥٩ حول موضوع اعدام شارلوت كورداى إذ يقول الكتاب مايلى:

كذلك أعدمت شارلوت كورداى وهى فتاة جميلة عالية الأخلاق من أهل نورمندية لقتلها أكبر زعيم من زعماء الارهاب وهو مارا محرض أخس رعاع باريس ذلك أنه استنفر غضبها فصممت على تخليص بلادها منه وزادها تصميما ماغرسته قراءة التاريخ فى نفسها من بغض عميق لكل الظالمين .

خرجت هذه الفتاة من بلدها قاصدة باريس فبلغتها فى ١١ يوليه ١٧٩٣ وقصدت إلى بيت مارا وطلبت مقابلته على اعتبار أن المقابلة

خدمة عظيمة لفرنسا فأذن لها بالدخول عقب خروجه من الحمام وبينما هما فى الحديث استلت خنجرا من تحت ثيابها وضعته فى صدره العارى بكل قوتها طعنة قاتلة وتجلت بطولة شارلوت فى قاعة المحكمة وتقدمت إلى المقصلة فى شجاعة مثالية وهى تقول «أى وطنى إن مصائبك تمزق قلبى وليس فى وسعى أن أهبك سوى حياتى وإنى أحمد الله الذى وهبنى حرية التصرف فيها » .

أما النموذج الثالث للثورة الفرنسية وهو النموذج اليعقوبى الشعبى الذى يدعو إلى أن تكون السلطة والثروة لمجموع الشعب وأن تكون الديمقراطية مباشرة فقد وقف منه المنهج الدراسى لمادة التاريخ موقفا شديد العداوة وحرص على تشويهه بأكبر قدر ممكن فوصف زعماءهم من أمثال مارا ودانتون وروبسبير وهبرت بأوصاف غاية فى القسوة ووصف عصر السلطة الشعبية بالارهاب والدموية والتآمر ويكفى لذلك أن نذكر ما أورده كتاب أصول العالم الحديث الذى ألفه الدكاتره أبو الفتوح رضوان ومحمد الهادى عفيفى ومحمد أحمد الغنام وكان مقررا تدريسه فى مدارسنا منذ عام ١٩٦٢ وحتى عام ١٩٨٧م يقول الكتاب فى وصف ما أسماه عهد الارهاب منذ عام ١٧٩٣ مايلى :

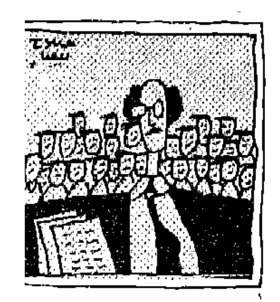
أثناء ذلك العهد كانت محكمة الثورة تقضى على مئات الرجال والنساء ممن حامت حولهم أية شبهة وأصبح منظر الضحايا شيئا مألوفا كل يوم وغدت المقصلة أمرا عاديا حتى شاع مثل بين الناس - أرسل أعداءك إلى المقصلة قبل أن يرسلوك إليها .

بيد أن حزب الجهل الإهاربى لم يسلم من الانقسام على نفسه إذ أنه على الرغم من الانتصارات التى حققها فقد كانت سياسته الملطخة بالدماء فى الداخل سببا فى كراهية معظم الناس له ثم أن اختلاف أعضائه على طريقة الحكم قد عجل بانقسامهم إلى شيع وأحزاب تحت زعامات مختلفة لكن روبسبير نجح فى التخلص من كل منافسيه فى الحزب وأعدمهم وأصبح الحاكم بأمره فى البلاد كما قبض على زمام الامور فى لجنة الامن العام والمؤتمر الوطنى وبلدية باريس وتمادى فى استبداده ودعا إلى عبادة جديدة هى عبادة الكائن الاعظم وأقام نفسه كاهنا أكبر للعبادة الجديدة ثم جرد

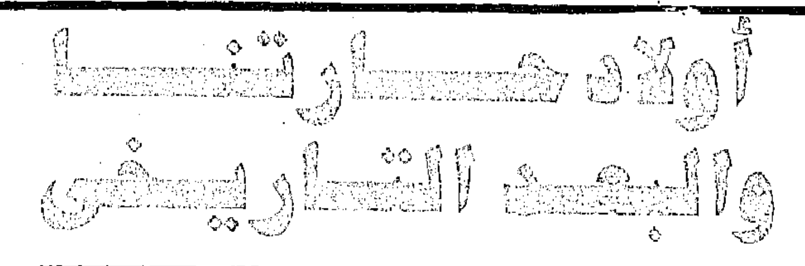
محكمة الثورة من صفتها القانونية ورفع الحصانة البرلمانية عن أعضاء المؤتمر وبدأ حملة الاعدام بالجملة حتى ساد الرعب جميعا شعبا وحكومة وجيشا .

وسرعان مادبرت ضده مؤامرة إذ عزم بعض رجال المؤتمر على التخلص من هذا الطاغية فنظموا قوات هاجمته فى أحد أحياء باريس وقبضت عليه ثم وجه إليه أعضاء المؤتمر تهمة الخيانة العظمى التى طالما رمى بها المئات من الناس واعتبروه خارجا على القانون وقد حاول بروبسبير أن يلجأ إلى العامة إلا أنهم انفضوا من حوله وسيق فى ٢٨ يوليو ١٧٩٤ إلى المقصلة كى يذوق نفس الكأس التى أذاقها للكثيرين من قبل .

وهكذا حددت مناهجنا المدرسية موقفها من النماذج والأفكار السياسية للثورة الفرنسية فالنموذج الملكى الارستقراطى غير مستهجن فى مناهجنا بل هناك تعاطف معه ، أماالنموذج الجيروندى البرجوازى فمناهجنا تنحاز إليه بشدة مؤيدة أفكاره السياسية الخاصة بحرية الملكية والثروة مع قصر الحكم على طبقة الاغنياء ، أما اليعقوبى الشعبى فقد رفضته مناهجنا بشدة واستهجنت أفكاره السياسية الخاصة بالوظيفة الاجتماعية للثروة والملكية الخاصة وبأن تكون السلطة السياسية ديمقراطية شعبية مباشرة وحرصت مناهجنا على أن تصم هذا العهد بالارهاب والدموية البشعة ، وأن ترسم صورا غاية فى البشاعة للزعماء الشعبيين من أمثال مارا ودانتون وبروبسبير فى الوقت الذى رسمت فيه صورا مضيئة للملكيين من أمثال ميرابو ولافاييت - وللجيروند من أمثال شارلوت كورداى وبالجملة أصبح هدف المنهج المدرسى للتاريخ فى مدارسنا هو اعتبار الثوار أشرارا وخونة وسيىء الخلق واعتبار عهدهم عهد اضطرابات وسفك دماء ومصادرة للحريات .



★★★



بقـــلم : عادل الكيلانى ـ عمان

اختلـف النقاد والدارسـون فى أمـر تصنيف هـذه الرواية . وقـد أجمل الدكتور نبيل راغب هذا الاختلاف والحيرة فى كتابه (قضية الشكل الفنى عند نجيب محفوظ بقوله : (عندما يتصدى الباحث لدراسة رواية (أولاد حارتنا) شكلا ومضمونا فإنه يحتار فى أمرها لعدة أسباب . أولا: إنها كتبت بعد الثلاثية ولكنها لا تحمل أى أثر للمضمون الاجتماعى و الواقعى .

ثانيا :إن نجيب محفوظ يعتمد على الجانب الميتافيزيقى الرمزى بصفة رئيسة لدرجة أن الجانب الاجتماعى يتلاشى تماما . ثالثا : فى حيرة الباحث فإن البعد التاريخى الذى لازم معظم أعمال الواقعية التعددية قد تلاشى أيضا) . (ص ٢٢٥) .

ويقول الدكتور غـالى شكـرى في كـتابه المنتمى« نجـيب فى (أولاد حارتنا) صور محاولات الانسان الدائبة المستمرة لحل المسألة الاجتماعية ، ولغز الوجود ، والمصير ، وانتهى الى أن العلم والعقل فى اطار المنهج المادى للمعرفة سوف يحل مسألة الوجود : الكشف عن سـر الـوجود والانتصار على الموت .. » . (ص٣٢٦)

رغم هذا الاختلاف فهى لا تكاد تكون تاريخية ، ولا تكاد تكون اجتماعية ، ولا تكاد تكون واقعية مع أن بها تاريخا وبها



اجتماعا وبها واقعية ، وآية ذلك إنها رواية فريدة من نوعها جمعت التاريخ والاجتماع والواقعية بغلاف رمزى ذكى لتعطى للاشتراكية بعدا تاريخيا وحقا طبيعيا مكتسبا منذ أن وجد الانسان على هذه الارض .

اشتراكية محفوظ والبعد التاريخى

تتألف هذه الرواية من خمس روايات تكاد تكون متباعدة ومع ذلك تكاد تكون متشابهة ، وآية ذلك أن الهدف واحد ولكن الطريق مختلف . اعتمد محفوظ الرمزية تجنبا لحساسية الموضوع، أو على الاصح المواضيع الدينية والسياسية الاجتماعية حيث مزجها مزجا غريبا وقولبها بفلسفة، غريبة عز أن تجدد لها مثيلا .

تبدأ الرواية بافتتاحيات مع أن الروايات عادة لا تبدأ بافتتاحيات ، ولكن الكاتب أراد بها تبريرا مسبقا لما قد يتبادر الى أذهان البعض أن الكاتب قد انحاز الى فئة دون الفئات الأخرى فهو يقول (... ولا سند لى فيما كتبت الا هذه المصادر) . (ص ٥)

وكأنه يرفع اللوم عن نفسه وأنه لم يأت بشيء من عنده . إلا أنه عاد وأخذ من مصدر واحد حيث يقول : (... الى أحد أصحاب عرفه يرجع الفضل بتسجيل حكايات حارتنا على يدى ، اذ قال لى يوماً أنك من القلة التى تعرف الكتابة فلماذا لا تكتب حكايات حارتنا ؟ .. إنها تروى بغير نظام وتخضع لأهواء الرواة وتحزباتهم ومن المفيد أن تسجل بأمانة فى وحدة متكاملة ليحسن الانتفاع بها ، وسوف امدك بما لا تعلم من الاخبار والاسرارٌ) (ص ٧) فهو اذن قد اعتمد على ما اعتقد مصدرا واحدا بدعوى أن هذا المصدر لا يخضع لأهواء الرواة وتحزباتهم وهو التفكير العلمى .

مع أن محفوظ اعتمد الرمزية شكلا لهذه الرواية الا انه ترك آثارا خفية باهتة ليهتدى بها رواد المعرفة وهى الاشارة الى بعض الاحداث بالرمز الذكى ، وكذلك تسمية أبطال الرواية ، فنجد أنه اشتق اسم « الجبلاوى » وهى الخلقه فيصبح الجبّلاوى من الجبلّة وهى الخلقه فيصبح الجبّلاوى هو خالق الخلق . وأدهم هو آدم ابو البشر ، كما أن ادهم هو الاسود الذى خلقه الله سبحانه من طين فى حين خلق ابليس (هو فى الرواية أدريس) من نار لقوله تعالى (خلقتنى من نار وخلقته من طين) وكذلك جبل وهو الذى استعاض به الله سبحانه عن موسى عند التجلى (ولما تجلى ربه للجبل جعله دكا) وهكذا استعاض به محفوظ فاصبح (جبل) بدلا من سيدنا موسى ، ورفاعه بدلا من السيد المسيح لأن الله سبحانه رفعه اليه وقاسم بدلا من ابى القاسم وهو النبى محمد (صلعم) . وعرفه من المعرفة والعلوم وهكذا نرى هذه الرموز كأنها الفوانيس تضىء لنا الطريق .

لم يكن محفوظ ليؤرخ للاديان السماوية الثلاثة فى هذه الرواية ولكنه أراد أن يعرض فلسفته الخاصة لوجود الانسان وتوزيع الارض على احفاده فنحن نرى فى الحكاية الاولى كيف أن أدهم طرد من البيت الكبير (الجنة) لأنه اراد أن يطلع على أسرار الوصايا العشر (اللوح المحفوظ) وكيف انه عاش مع زوجة وولديه همام وقدرى خارج البيت الكبير (على الارض) فى تعاسة وشقاء ، وأن هاجسه الوحيد كان دائما العودة الى البيت الكبير (الجنة) ورضاء والده عليه .

حتى اذا كانت أخر قصة أدهم ، نراه وقد ظفر بعفو الجبلاوى ، ولكنه لم يظفر بالعودة الى البيت الكبير وإنما اعطاه والده الوقف له ولذريته من بعده (سيكون الوقف لذريتك) (ص ١١١) . الوقف هنا كما هو واضح الكرة الارضية كلها بطبيعة الحال . وبهذا اصبحت الارض وقفا لذرية أدهم (آدم) من بعده ، ومن حق هذه الذرية اقتسام الارض فيما بينهم بالتساوى .

فإذا كانت حكاية جبل ، فنحن نرى أن الوقف وتقسيم ريعه بالعدل هو الهاجس الذى كان يلازم جبل ويلح عليه ، حتى كان له ما أراد .

وكذلك الحال مع رفاعه وقاسم حيث كان هاجسهما الوحيد الوقف وتوزيع ريعه على الجميع لينعموا بالرفه والسعادة . رغم ما لقوا فى سبيل ذلك من عناء ومشقة وقتل .

أما ونحن مع الحكاية الاخيرة . فنحن مع حكاية عرفه وحنش ونحن كذلك مع خاتمة الرواية وعقدتها ومع فلسفة محفوظ فى الاشتراكية وهكذا يجمع محفوظ خيوط الحكايات الاربع الاولى ليصبها ويفلسفها فى الحكاية الخامسة والأخيرة وهى الحكاية التى تختلف ولا تكاد تختلف عن سابقاتها ، فقد اشتق اسم البطل عرفه من معرفة العلوم واجراء التجارب المحسوسة الملموسة وهو يختلف عما سبقه لعدم نشدان الوحدة وعدم الرجاء الى ملاقاة الجد فهو نفسه يسعى الى هذه الملاقاة بعد أن يرسم ويخطط ويدير ويخترع الزجاجات المتفجرة وهو يعالج عين (عواطف) الحمراء بلفافة صغيرة . فى حين كان رفاعة يعالج المرضى بطرد العفاريت بالزار . وهنا اشارة واضحة الى المعالجة العلمية التجريبية . وهو كذلك يجرب الزجاجات المتفجرة فى الخلاء وهو الذى يدون اسرار هذه الزجاجات فى كراسات لتبقى وثائق يهتدى بها من بعده . ثم نراه يندد بالحكايات (والامجاد السابقة) ويتساءل (وماذا افاد الاستماع اليها طوال الليالى؟ سيتغنى الشاعر وتستيقظ الغرز يا حارة الحسرات) (صـ ٤٧١) وهو الاشارة الواضحة الى تغنى ابناء الشرق بالحكايات القديمة والتحسر على ما كان .

وهو وأن كان يطمح الى لقاء جده الجبلاوى والاطلاع على أسرار الوصايا العشر الا انه لا ينتظر حتى يجيئه

الجبّلاوى بل يقتحم عليه بيته الكبير بنفق يشقه تحت السور وينفذ الى الداخل ويقتل من يتوهم انه سيعترض سبيله أو يكشف أمره وهذا الاقتحام وهذا النفق هو الرمز الذكى الى المحاولات العلمية والتجريبية لاكتشاف أسرار الكون والوجود .

الإلحاد والعلم التجريبى

وحتى تكتمل الحبكة الفنية للرواية لابد أن نعتبر موت الجبّلاوى هنا رمزا للكفر والالحاد الذى يؤمن به بعض من انصار العلم التجريبى . أليس الكفر لغة هو الغطاء والستر ؟ ومعنى ذلك الحجب عن العيون وكأن شيئا لم يكن وكذلك الموت فهو التوارى عن الاعين فكأن الاثنين قد التقيا على شىء واحد وهو عدم الوجود .

ذكرنا سابقا أن اسم عرفه هنا مشتق من المعرفة والعلوم بمعناهما الواسع والمعرفة التى تعنينا فى المقام هى معرفة النظرية الاشتراكية بالذات وقد رمز محفوظ لهذه النظرية بالزجاجة المتفجرة وظهور هذه النظرية فى أول أمرها كان يشبه الانفجار الذى لم تشهده عين ولم تسمعه أذن من قبل .

وهنا تكمن فلسفة محفوظ وعقدة الرواية : أليست الاشتراكية الزراعية هى المرادف الطبيعى لتوزيع الوقف على الجميع ؟ وهذا الوقف الذى أوقفه الجد الكبير الجبّلاوى على أدهم وذريته وذرارى ذريته الى ما شاء الله . ألم يكن هذا هو البعد التاريخى للاشتراكية والحق الطبيعى المكتسب لبنى الانسان وهذا ما أراد أن يقوله محفوظ فى روايته هذه . وهذا ما قاله حنش (... كان من أولاد حارتنا الطيبين) (يقصد عرفه) ولكن الحظ خانه، كان يريد لكم ما اراد جبل وعرفة وقاسم ، بل واحسن مما ارادوا) (ص ٥٤٩) وهو يقصد بذلك توزيع الوقف على الجميع أو تطبيق الاشتراكية لينعم الجميع بالسعادة والرفاهية .

بقى أن نذكر أن محفوظ قد اختار اسم حنش لأنه وكما هو معروف فأن الحنش من الزواحف التى تعيش معظم أوقاتها تحت الارض ، وحنش محفوظ قد اختبأ تحت الارض ليدير نشاطه السرى ويدعو الى الاشتراكية الجديدة وتطبيقها وبذلك أصبح ينظم الشباب من تحت الارض وهذا سر اختفاء بعض شباب الحارة الذين لحقوا به لبث تعاليم الاشتراكية ووضعها موضع التنفيذ .

الإدمان ومسئولية الأسرة ؟ !

بقلم :د . محمد بهائى السكرى



تطالعنا الصحف بين آونة وأخرى بأخبار جرائم مشينة ارتكبت تحت تأثير المخدرات ويتعجب المرء كيف يتدنى إنسان كرّمه الله بنعمة العقل والخلافة فى الأرض إلى مثل هذا الحضيض ؟ . أين ياترى نقطة البداية فى طريق الإنزلاق إلى الهاوية ؟ .

ويكشف لنا علم النفس الحديث جذور الانحراف فى الشخصية ، ويبين لنا كيف يبدأ التفاعل بين عوامل البيئة والوراثة منذ الطفولة الباكرة ، وكيف يميل الخط تدريجيا عن الطريق السليم مع نمو الطفل، ويظهر الانحراف واضحا مع السنين ، وتبدو الكارثة على السطح وكأنها بدأت فجأة فى سن الشباب ، ولكنها فى حقيقة الأمر قد بدأت قبل ذلك بكثير.

فالمرء يولد ومعه قدر موروث من الاستعدادات والخصائص كما يكون قابلا للتعليم والتدريب .

وتتشكل شخصية الإنسان فى السنوات الأولى من عمره ، وتقوم الأسرة بدور خطير فى هذا التشكيل منذ أن يبدأ الطفل يتعلم كيف يحبو ثم كيف يقف على قدمين ويمشى . وعندما يصل الطفل إلى سن المدرسة يكون جانب كبير من هذا التشكيل قد تم ، كما يستمر دور الأسرة فى التربية مواكبا لدور المدرسة ومتضافرا معها .

فمنذ السنوات الأولى من العمر يبدأ الطفل فى إكتساب ردود فعل منعكسة جديدة ، أى يبدأ يتعلم كيف يستجيب لمؤثرات معينة بطريقة محددة .

وتبدأ الأم - المدرسة الأولى للطفل - تعلمه كيف يتصرف وما يليق وما لا يليق .

ويقوم الأب بدور مواز ومكمل لدور الأم.

ويبدأ الطفل يتعلم كيف يتصرف تصرفا يلقى التشجيع والاستحسان ، وكيف يتجنب التصرفات التى تسبب اللوم والاستهجان .

ويتم ذلك تارة عن طريق الكلام والشرح والافهام ، وتارة أخرى عن طريق القدوة ، والمثل الحسن . وفى بعض الأحيان يتم التعلم عن طريق الممارسة والتجربة والخطأ تحت إشراف الأكبر سنا .

ويكتسب الطفل عادات حسنة أو عادات سيئة حسب البيئة التى نشأ فيها . وتتكون عنده نزعات خاصة وميول معينة . ويبدأ فى البحث عن أشياء زينتها له الأسرة ، ويتجنب أشياءً أخرى محلا للكراهية .

وتقوم التربية الدينية بدور كبير فى وضع ضوابط للتصرفات ، وفى إحداث توازن بين رغبات النفس ومتطلبات المجتمع كما تسهم فى تزكية النفس من الميول السلبية مثل الأثرة والأنانية وعشق الذات، وتغرس فى الشخصية صفات إيجابية مثل تقدير المسئولية واحترام حقوق الآخرين والميل إلى الإحسان وإتقان العمل والرغبة فى إسعاد الآخرين .

وينبغى على الأسرة أن تهتم إهتماماً كبيراً بتنشئة الطفل فى مراحل العمر

الأولى . ولاينبغى أن ينصب الاهتمام بالدرجة القصوى على العناية بالطعام النظيف والملبس الفاخر دون النظر إلى ما يقدم للطفل من غذاء للروح وطعام للنفس .

إن الأم لتجزع لو وقفت ذبابة على طعام طفلها ولكنها قد لا تهتز عندما يطلع طفلها على صورة فاضحة أو تقع عيناه على مشهد مشين أو تطرق مسامعه قصة وقحة . بل الأعجب من ذلك أن تشجع بعض الأمهات الأطفال على السباب وتضحك بإعجاب مع صديقتها عندما يلفظ لسان الصغير الذى يتقن بعد الكلام ألفاظا وقحة ترد فى مجالس البالغين .

ويرد إلى الذهن سلبيات خطيرة قد تشوب مراحل التربية فى السنوات الأولى من العمر :

★ ترك الأطفال للشغالات الجاهلات فتقوم بتشكيله تشكيلا سيئا فى هذه المرحلة الحرجة من العمر .

★ اختلاط الأطفال بأخرين أكبر سنا دون رقابة خاصة إذا كان الأطفال الأكبر سنا سيئى التربية وليسوا قدوة حسنة .

★ الإسراف فى التدليل وتلبية طلبات الطفل حتى يشعر أن من حقه دائما أن تجاب مطالبه فى كل مراحل عمره .

★ إهمال الطفل والغفلة عن متابعة تصرفاته وإرشاده .

★ افتقاد الطفل إلى الحب والحنان أو الفهم السليم .

★ افتقاد الطفل القدوة الحسنة .

★ خوف الطفل الشديد من أحد الوالدين أو كليهما بحيث يجبن عن مصارحتهما بمشكلاته .

★ التفكك الأسرى .

★ إهمال التربية الدينية .

لقد أثبت العلم بوجه قاطع وجود مراكز خاصة للذة ، والألم بالمخ يرتبط تنشيطها بعملية التعلم ، وأصبحت هذه المراكز تسمى بمراكز الثواب والعقاب وبالتالى لا يمكن للإنسان أن يتعلم شيئا إلا إذا كان سيتسبب له فى الحصول على نوع من المكافأة أو تجنب نوع من الألم !

والطفل سليم الشخصية الذى ينشأ فى أسرة سوية يعلم تماما أن كل عمل يعمله فى الدنيا له ثوابه أو عقابه . والأسرة أولا تنير له الطريق ليعرف ما يؤدى به إلى الخير وما يباعد بينه وبين الشر .

وبذلك تضفى الأسرة مناعة واقية على طفلها وتسلحه بدرع حصين فى مجابهة أخطار الحياة . وهذا الدرع هو القدرة على التمييز بين ماهو ضار وماهو نافع ، وبين ما لا يفيد وما يفيد .

وعندما يكبر الطفل على أساس سليم وتتركه الأسرة يوما ما فى مجابهة الأخطار فلتقر عينيها ولتهنأ فسيحرسه الله الذى لايضيع أجر من أحسن عملا .

التكوين الفكر القومى



بقلم : د . محمد أحمد خلف الله

يبدأ التكوين الثقافى لأى فرد من الأفراد ، وفى أية أمة من الأمم ، منذ النشأة الأولى لهذا الفرد أو ذاك . ويحدث هذا عندما تلزم الأسرة المولود بدينها الذى تدين به ، ولغتها التى تمارس بها الحياة : لغتها القومية . وليس يخفى أن الدين واللغة هما أهم العناصر الثقافية فى كل تكوين ثقافى .

واللغة هى العنصر الثقافى الهام جدا ، والذى نستطيع أن نقرر فيه ومن غير مبالغة ، أنه التكوين الثقافى ذاته . والدليل على ذلك أن أية أمة من الأمم ترغب فى تحديد معالم ثقافتها ، وفى التعرف على مدى عمق هذه الثقافة وغزارتها ، تلجأ إلى اللغة باعتبارها الوعاء الثقافى لها ، وتعمل على حصر مفردات هذه اللغة وترتيبها ترتيبا هجائيا ، وتشرح معانى كل مفرد من هذه المفردات حسب الاستعمالات العديدة التى استعمل فيها ، وتجعل من ذلك كله دائرة المعارف الخاصة بها .

المفردات اللغوية التى يمتلكها الفرد ، والتى يمارس حياته المادية وحياته المعنوية

له دور أساسي في تكويني الثقافي

على أساس منها هي بعينها التكوين الثقافي الذي يمتلكه .

ويمتلك الفرد المفردات اللغوية عن طريق الأسرة أولا ، ثم المجتمع ثانيا ، ثم القراءة الحرة الواعية ثالثا . وما يمتلكه عن طريق الأسرة والمجتمع هو التكوين الثقافي التقليدي الذي يتمثل في بعض القيم والمعايير السلوكية ، وفي العادات والتقاليد، وفي الوسائل المادية والمعنوية التي يمارس بها المجتمع حياته اليومية ، وحياته العامة. أما ما يمتلكه عن طريق القراءة الحرة الواعية فهو الذي يتمثل في إدراكه للحياة ولو في بعض أبعادها ، وفي وعيه بالأوضاع القائمة وما فيها من صحة أو فساد ، وفي نقده للتراث وإعادة النظر في العديد من المسلمات التي أصبحت عاجزة عن أن تمارس بها الحياة .

القراءة الحرة الواعية هي العنصر الحي الفاعل في التكوين الثقافي الذي يمتاز به شخص عن شخص ، وأمة عن أمه. ومن هنا تكون أهميتها البالغة من حيث فاعليتها في تكوين شخصية الفرد وشخصية الأمة .

وحين نقول القراءة الحرة الواعية إنما نستبعد تلك القراءة التي تكون للتسلية وملء الفراغ ، والتي يقتل بها القارىء الوقت - لا أكثر ولا أقل . إن مثل هذه القراءة لا تفيد في التكوين الثقافي ، ولا أثر لها في بناء الفرد ، ولا في بناء الأمة - وصدق الذين يقولون : الثقافة عسر لا يسر - أي أنها بنت العمل الجاد الواعي .

وعلى أساس من كل ما تقدم أستطيع أن أحدد معالم تكويني الثقافي ، تكويني الذي نبت من القراءة الحرة الواعية التي تعلو على امتلاك القيم الثقافية عن طريق الأسرة والمجتمع ، والتي تصل بالقارىء إلى أن يتجاوز مرحلة الاستهلاك الثقافي إلى مرحلة المشاركة في الانتاج والتنمية الثقافية .

ولست أنكر أن مرحلة الاستهلاك الثقافي هي الأساس في تكوين الشخصية الثقافية القادرة على المشاركة في الإنتاج - لكن بشرط أن يكون الاستهلاك الثقافي قائما على الوعي بالعناصر الثقافية الصالحة لأن تكون أساسا قويا متينا في بناء التكوين الثقافي لأي شخصية ثقافية .

وفي البدء كان هناك أمران لهما أثرهما البالغ في تكويني الثقافي - الأول منهما أبي ، والثاني مكتبة مجلس المديرية بالزقازيق .

كان أبي حريصا على أن أقرأ له وبعض أصدقائه كل يوم ، وبعد صلاة

العصر ، ماتسمح به الظروف من تفسير القرآن الكريم للجلالين ، ومن تاريخ بعض المتصوفة والأولياء من أصحاب الكرامات . وكنت أضيق أحيانا بهذه القراءة التى كانت تمتد إلى ساعتين - لكنى مع ذلك تعودت على الجلد والصبر الطويل عند القراءة .

والأمر الجدير بالملاحظة هنا أنى كنت افترض أنى حين أقرأ لهم لا يطلب منى أن استوعب ما أقرأ ، وأن هذا الاستيعاب من شأنهم هم وليس من شأنى ، وكادت حركة عدم الاستيعاب هذه أن تكون عادة لى - لكنى تداركت الأمر فيما بعد ، وأخذت فى القراءة على مرتين : الأولى للتعرف على الموضوع الذى أقرأ فيه ، والثانية لاستيعاب الأفكار والوقوف على المنهج الفكرى للكاتب أو المؤلف .

أما مكتبة مجلس المديرية بالزقازيق فقد كان لها الفضل الأول فى تكوينى الثقافى حيث كنت أتردد عليها دائما ، وأقرأ كل ما أمكن من الكتب ، وفى الموضوعات المتنوعة . وساعد على ذلك أنه فى هاتيك الأيام لم تكن هناك غير المكتبة لقضاء أوقات الفراغ . فلم تكن هناك أجهزة ثقافية غير هذه المكتبة ، وغير المؤسسات التعليمية .

ومن الإنصاف أن نذكر فى هذا المقام أن مجلس المديرية المكون من بعض الأعيان من مديرية الشرقية كان يهتم بالمؤسسات التعليمية والثقافية أكثر مما تهتم الدولة : فلقد كانت الدولة تملك فى هذه المديرية مدرستين فقط ، مدرسة إبتدائية واحدة ، ومدرسة ثانوية واحدة . أما مجلس المديرية فقد كان يمتلك إلى جانب المكتبة العديد من المؤسسات التعليمية . مدرسة إبتدائية فى كل مركز من المراكز ، والعديد من المدارس الأولية ، والإشراف على الكتاتيب المنتشرة فى القرى ، والتى تتعدد فى القرية الواحدة - الأمر الذى ساهم إلى حد بعيد فى زيادة عدد الذين يقرءون ويكتبون من كل قرية ، وليس ذلك إلا لأن أصحاب الكتاتيب كانوا يسعون دائما فى زيادة عدد المتعلمين من حيث أن المكافأة التى يتقاضونها من مجلس المديرية متوقفة ومرتبطة بعدد الذين يعلمونهم القراءة من أبناء القرية .

ونعود إلى مكتبة مجلس المديرية لنقول أنها فتحت الأعين على المجلات الثقافية أيضا حيث كانت توفر للقراء مجلات : المقتطف والهلال والبلاغ الأسبوعى والسياسة الأسبوعية . ومن هنا طرقت أسماعنا أسماء الكتاب الكبار من أمثال : العقاد والمازنى والرافعى وطه حسين ومحمد حسين هيكل وأمثالهم .

وانفرد شخص واحد بالاستيلاء على قلبى فى هاتيك الأيام وهو ! المنفلوطى - بل لعله كان كذلك عند الشباب من أبناء جيلى . وأظن أن ليس هناك من لم يقرأ كل كتب المنفلوطى - وبخاصة ماجدولين ..

وتترك الزقازيق إلى القاهرة ، وتترك مكتبة مجلس مديرية الزقازيق إلى دار الكتب بباب الخلق ، وتترك القراءة للأشخاص إلى الالتقاء بالأشخاص والتأثر بهم مباشرة .

فى دار الكتب قرأت العديد من الك[illegible] واستعرت أيضا العديد من الك[illegible] وكانت كتب التاريخ الحضارى للأمم القديمة أهم ما يشغل بالى . وكان الحوار بين العقاد وطه حسين حول الثقافة الأنجلو سكسونية والثقافة اللاتينية من الأمور التى استولت على عقلى .

وكان الالتقاء بالشخصيات والتأثر بهم – وبخاصة فى المرحلة الجامعية ، من الأمور التى حددت معالم التكوين الثقافى عندى .

لقد قرأت كل ما كتب طه حسين والعقاد وأحمد أمين – لكن القراءة شيء والالتقاء بهم شيء آخر . إن الالتقاء يؤكد عملية التأثر بهم بما يصاحبه من حوار فيما كتبوا ، واستفسار عما قالوا .

ولقد أسعدنى الحظ بالتقاء الكثيرين من أساتذة كلية الآداب الذين كانوا يعرفون فى ذاك العهد بأنهم قادة الحركة الثقافية – لا فى مصر وحدها ، وإنما فى العالم العربى أجمع – ومن هنا جاء التكوين الثقافى لى ولزملائى تكوينا سليما .

لقد كان هؤلاء الأساتذة العظام يحرصون كل الحرص على أن يكون تلامذتهم إمتدادا لهم فى الحركة الفكرية . ومن هنا كانت رعايتهم لهم مما يفوق الحد .

وكانت كلية الآداب يومذاك الأداة إلى تكوين العقل العربى الحديث ، وكانت المناهج الدراسية يومذاك تستهدف أولا وقبل كل شيء عملية هذا التكوين .

ونشير هنا فى إيجاز إلى بعض هؤلاء الأساتذة العظام ، وإلى بعض المناهج الفكرية التى اعتمدوا عليها فى عمليات تكوين العقل العربى الحديث .

أذكر من بين الأساتذة هؤلاء الذين اقتديت بهم ، وتأثرت بهم إلى حد بعيد ، وهم : طه حسين ، وأحمد أمين ، ومصطفى عبد الرازق ، وأمين الخولى . ومنصور فهمى ، وعبد الحميد العبادى .

وأذكر من بين المناهج فى تكوين العقل العربى الحديث : الموضوعات الدراسية التى يتناولونها ، ثم تدريب الطلاب على القيام بالأبحاث والدراسات وتعليقهم ونقدهم لهذه الدراسات الأمر الذى كان يدفع بالطالب إلى القراءة الجادة المتنوعة فى الموضوع الذى يقوم بدراسته .

وهنا لابد من ذكر أمرين أشهد بهما بفضل المرحوم الأستاذ أحمد أمين علينا يومذاك : الأول منهما محاضراته فى المكتبة العربية – تلك المحاضرات التى استعرض فيها أهم كتب التراث العربى مما لا غنى عنه لكل من يرجو لنفسه أن

يكون ملما بالتراث العربى فى مصادره الرئيسية . والثانى ويأتى خارج المناهج الدراسية ، هو حرصه الشديد على أن ييسر لنا الحصول على الكتب الحديثة - وبخاصة المترجمة عن اللغات الأوروبية - من لجنة التأليف والترجمة والنشر بالتقسيط المريح . وقد كان القسط الذى أدفع يتراوح ما بين عشرة قروش وعشرين قرشا فى الشهر .

وأقف هنا عند ثلاثة من الأساتذة الذين كان لهم الفضل الأكبر فى تكوينى الثقافى ، واتجاهات هذا التكوين ، وهم : أمين الخولى ، ومصطفى عبد الرازق ، وعبد الحميد العبادى .

كان الأستاذ أمين الخولى ينهج منهج الدراسة الأدبية للقرآن الكريم على أساس من أن القرآن الكريم هو كتاب العربية الأول ، وأن إعجازه يقوم على الاعجاز الأدبى فى أمة شاعرة . واستهوانى هذا الأمر ومضيت فيه ، وكنت أول من تقدم لنيل الدرجات الجامعية فى هذه الدراسة . كانت دراسة ما قبل درجة الليسانس فى مفهوم النفاق فى القرآ الكريم ، وإلى أى حد كان النفاق ظاهرة إجتماعية فى الحياة الأولى للمجتمع الاسلامى ، وكانت دراسة الماجستير فى جدل القرآن الكريم وقمت بطبعها فى كتاب تحت اسم ، محمد والقوى المضادة وكانت دراسة الدكتوراه فى : الفن القصصى فى القرآن الكريم .

لقد اتجهت نحو الدراسات القرآنية بفضل الأستاذ أمين الخولى ، وكتبت فى ذلك كتبا عديدة ، ومنها إلى جانب الفن القصصى الذى طبع خمس طبعات . الكتب التالية : محمد والقوى المضادة ، القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة ، القرآن والدولة . مفاهيم قرآنية . هكذا يبنى الاسلام . عروبة الإسلام .

وكان الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق ينهج منهج الدراسة للفلسفة الإسلامية ، وكانت الفلسفة الإسلامية عنده هى أصول الفقه ، وكان يدرس لنا بعض ما كتب الإمام الشافعى فى كتاب الأم . ولقد دفع بى ذلك إلى قراءة العديد من كتب أصول الفقه .

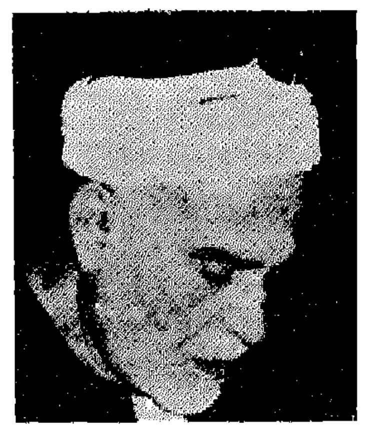
أما الفارس الثالث فقد كان الأستاذ عبد الحميد العبادى أستاذ التاريخ العربى، والذى كان يتحدث دائما عن الدولة العربية عند حديثه عن دولة الخلافة . وأذكر أننى سألته مرة عن هذه التسمية فقال : إن الدول تسمى بأسماء الأسر التى تحكمها . وحين تكون الأسرة عربية تكون الدولة عربية . وأن الدولة تسمى بالإسلامية عندما تكون الأسرة الحاكمة أسرة مسلمة وغير عربية من أمثال الدولة العثمانية .

ومنهج الأستاذ العبادى يتمثل عندى فى أمرين : الأول منهما العودة إلى المصادر العديدة فى الموضوع الواحد ،




د . محمد خلف الله


د . طه حسين


مصطفى عبد الرازق

ونقد الروايات العديدة المتعلقة بالحادثة الواحدة أو الموضوع الواحد ، والانتهاء من ذلك إلى ما يمكن أن نعتقد أنه الحقيقة التاريخية .

وأذكر أنه طلب منى مرة دراسة عن صورة هارون الرشيد عند كل من الطبرى المؤرخ ، وأبى الفرج الأصفهانى صاحب الكتاب المشهور الأغانى ، وكانت الصورة مختلفة تماما فهى عند الطبرى غيرها عند أبى الفرج - الأمر الذى جعلنى أرى أن إحدى الصورتين لابد من أن تكون غير صادقة - لكنه قال : الصورتان صادقتان. لقد صور الطبرى الرشيد الذى يجلس فى دار الخلافة والذى يمارس شئون الحكم ، وصور صاحب الأغانى الرشيد الذى يمارس حياته الخاصة مع الندماء ، والذى لا يتناول شئون الحكم وإنما يتناول من الأمور ما لذ وطاب .

إنه على أساس مما تقدم كان التكوين الثقافى الذى يلازمنى أبدا . والذى لولا هؤلاء الأساتذة العظام لما تحقق بالصورة التى هو عليها اليوم .

وتبقى بعد ذلك كلمة أخيرة تشير إلى أمرين هامين جدا فى تكوينى الثقافى . الأول هو عضويتى فى جماعة الأمناء ، وعضويتى فى جماعة الطلبة العرب ، وهما جمعيتان ثقافيتان .

والثانى ، وهو الأهم من حيث الفكر القومى ، هو علاقتى بالمرحوم الأستاذ ساطع الحصرى ، وعملى معه فى معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية .

إنه فى هذا المعهد قرأت تقريبا كل الكتب التى صدرت عن القومية العربية - معها أو ضدها - وبفضل ذلك كان الفكر القومى ظاهرة من ظواهر تكوينى الثقافى وبفضل هذا الفكر القومى قامت علاقاتى الشخصية بالمفكرين القوميين ، وببعض رؤساء الدول العربية ممن يلتزمون بالفكر القومى وينشدون الوحدة العربية .

• من هو الصوفاني ؟ •

● وردت فى مقال الدكتور أمين العيوطى « سنوات التكوين » بهلال ديسمبر هذه العبارة : (وكانت تأسرني أحاديثنا الجانبية بأركان مدرسة شبرا الثانوية مع الصديق القديم الجديد أبدا د . يحيى الجمل ، وصديق آخر لا أذكر من اسمه الآن إلا الصوفانى) ، وأذكر سيادته بأن الاسم بالكامل هو عبد العزيز الصوفانى «بك» من إقليم البحيرة أحد أقطاب الحزب الوطنى فى زمنه ، عرفناه حين كنا نقرأ فى الصحف بالأربعينات نتائج انتخابات مجلس النواب ، وفى كل مرة كان اسمه يظهر وأمامه كلمة (انتخب) أى نجح فى الانتخاب رغم سطوة حزب الوفد فى تلك الفترة ، واكتساحه لمعظم دوائر الانتخابات ، وكان من زملائه الأعضاء بالحزب الوطنى فى ذلك الوقت المؤرخ المعروف عبد الرحمن الرافعى والصحفى المشهور فكرى أباظة، وكان من المعروف عن رجال ذلك الحزب تنديدهم الدائم بالاحتلال البريطانى، ومطالبته بالجلاء عن أرض مصر ، بلا قيد أو شرط ، كما عرف عنهم ولاؤهم الشديد لمؤسس الحزب ، المغفور له مصطفى كامل باشا .

مصطفى محمود مصطفى - كفر ربيع - منوفية

• تعليق الهلال :

- لا نظن أن الدكتور العيوطى يقصد عبد العزيز الصوفانى بك عضو الحزب الوطنى القديم فهو من جيل أقدم كثيرا من جيل العيوطى ويحيى الجمل ، ولم يكن هذان إلا فى سن الطفولة عندما كان الصوفانى بك ينجح فى انتخابات مجلس النواب بالرغم من أنه لم يكن وفديا .. وقد كان الصوفانى من جيل عبد الرحمن الرافعى وأمثاله ، وهو جيل الآباء أو الأجداد

بالنسبة لجيل العيوطي ويحيى الجمل .. ويبدو أن التواريخ اختلطت عند السيد مصطفى محمود مصطفى ، أو أنه ظن أن العيوطي ويحيى الجمل كانا تلميذين في شبرا الثانوية قبل ثمانين عاما ، أي قبل إنشاء هذه المدرسة ذاتها ! ..

• قرآن وإنجيل •

على ضفافك ضج القوم يا نيل — وعكرت صفوهم تلك الأقاويل

ماذا جرى لرحيق الشهد في وطن — له على الدهر أمجاد وتفضيل

قالوا هو الدين حاشا أن يكون به — سوى الهدى في دروب النفس موصول

ما أنزل الله أديانا بتفرقة — ولا تنزل بين الناس تضليل

فمنبع النور من ذات الاله سرى — بهديه بين كل الرسل جبريل

والدين نبض حياة في جوانحنا — كما تحدث قرآن وإنجيل

الدين طاقة نور في مسيرتنا — بدونه تتغشانا الأباطيل

هو السماحة والحسنى فلا فتن — ولاعداء ولا عنف وتنكيل

هو الأمان فلا رعب ولا فزع — ولا مراء ولا زيف وتضليل

المرسلون حداة الركب قد صدقوا — كما تضئ على الدرب القناديل

والدين لله والأرواح خاشعة — وكل قلب له شدو وترتيل

ومصر تحفظ للأديان حرمتها — والحب بين حنايا الأهل موصول

مصر العقيدة من كانت موحدة — ومن جرى في حنايا شعبها النيل

عيسى نسائم حب في خواطرنا — وأمه في كتاب الطهر أكليل

وفي القلوب وصايا للنبي لها — من سالف الدهر تقدير وتبجيل

مصر العظيمة تبني صرح نهضتها — والخير والأمن منشود ومأمول

والعزم متصل والشمل مكتمل — والصف متحد والجهد مبذول

ما أعذب اللحن والآفاق مطرقة — والله أكبر تتلوها التراتيل

بين المآذن والأبراج آصرة — لا تقطعوا رحما يزهو به النيل

رشاد محمد يوسف

○ تعليق على تعليق ○

● تعليقا على التعليق الموجز لصديقنا الأستاذ عبد الواحد أحمد هيكل حول كلمة «توفى» بضم التاء أو فتحها ، وعلى ما قاله الدكتور محمود الطناحى من تساوى الكلمتين فى الصحة .. أقول بإيجاز شديد : إن هذه الكلمة لا تجدها بالفتح فى كلام أحد من بلغاء الأدباء منذ عهد عبد الحميد وابن المقفع والجاحظ إلى عهدنا الراهن ، وليبحث عنها الدكتور الطناحى فى كلام العقاد أو كلام محمود محمد شاكر فلن يجدها .. ومن المعروف أن علماء اللغة فى القرنين الثانى والثالث كانوا إذا سمعوا أعرابيا قحا - وهو ألصق منهم باللغة - يخالف قواعدهم وقياساتهم لم يأخذوا كلامه كله حفاظا على ما استقر من القواعد ، أو اعتبروا ما سمعوه لغة من اللغات .. وأما كلام على بن أبى طالب فأكثره لم يقله ولم يكتبه وإنما استقل به الإثنا عشرية الذين زيفوا الكثير ولفقوا ما شاءوا .. ولا نأخذ بكلام أقلية من قراء القرآن ونترك كلام أكثرهم .. وأنا لا أنحاز إلى الأستاذ عبد الواحد ولا إلى الأستاذ الطناحى ، ولكنى أرفض تمرير أغلاط الجرائد التى تهدد اللغة الآن ، وقد شمر لها أدباء الجيل الأسبق وكشفوها واستنكروها فكيف لا نفعل مثلهم ولو فى حدود ضيقة ؟! .. إن هذا أفضل من اللجاجة حول أقوال ابن جنى وابن خالويه ، وهذا أو ذاك من القدماء ..

عبد الراضى أحمد وهدان
أسيوط

○ الصواب والخطأ ○

● فى باب (أنت والهلال) من العدد الماضى قرأتُ تعليقا للأستاذ عبد الواحد أحمد هيكل - بكلية آداب أسيوط ، يعلق فيه على ما كتبتُه فى عدد أغسطس من الهلال ، حول (التصحيح اللغوى وضرورة التحرى) ويرى إن ماذهبت إليه من تصحيح استعمال الناس للفعل «تَوَفَّى» بفتح التاء والفاء ، و«مُتوفَّى» بكسر الفاء : يفتح الطريق إلى التسيب اللغوى الذى يؤدى إلى ضياع اللغة .

ويبدو أن القارئ الفاضل لم يقرأ مقالتى بعناية ، فإن غايتى الواضحة

فيما كتبتُ : ألا يُسرع الناس إلى التخطئة ، وأن تخطئة الصواب تساوى تصويب الخطأ ، لا ينبغى أن يُصار إليهما إلاّ بعد الاستقراء والتتّبع . بل إن لى غاية أخرى أبْعَدَ وأكبر : وهو أنى أريد أن أقول : إن عربيّتنا الفصحى لم تذهب ولم تتلاشَ ، وأن بعضاً مما نظنّه من العاميات واللهجات الخاصّة إنما هو ضارب فى العربية بعُروقه . ولعلّى أكتب فى ذلك كلمةً إن شاء الله .

ويبقى أن أذكّر القارئ الكريم إن هذا الرأى الذى سُقْتُه فى معرض تصحيح «تَوَفّى» و «مُتَوَفّى» ليس رأياً ضعيفاً ، وإنما هو فى قراءة مرويّة عن علىّ بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، وعن اثنين من القراء الكبار : عاصم والأعمش ، ثم أسندت كلامى إلى ابن جنى فى كتابه «المحتسب» ، وابن خالويه فى كتابه «شواذ القراءات» ، والسكّاكى فى كتابه «مفتاح العلوم» ، وأزيده اليوم مرجعاً رابعاً : هو كتاب «طبقات الشافعية الكبرى» لتاج الدين السّبكى ١٠ / ٦٨ وشكراً للقارئ الكريم على غيرته وحبّه للعربية .

د . محمود الطناحى

• الأقصوصة :

• المشى على حد السيف •

أمس يوم عادى مثل كل الأيام التى مرت علىّ .. ليس فيه من الأحزان ما نستغربه .. فقط مات والدى .. وجاء محترف يمرر الماء والصابون على جسده العين لا تخطئ أبى .. كله كما هو ، ومع ذلك ندفنه .. لأن الروح ذهبت منه !

النسوة جالسات فى الغرف المجاورة .. يتشحن بالسواد .. يحترقن العويل والبكاء ! دفعنى عمى دفعاً كى أكون على رأس الميت .. ولا أدرى لماذا ؟

البكاء كان يغسل أبى ! .. أخى الأصغر يتماسك وتتجمد الدموع فى عينيه انهارت أخواتى دون رؤية أبى مستسلما لأيد غريبة - لأول مرة - تغسله !

مر كل شئ فى سلام - وكل شئ يمر ! - صلينا عند الدفن وقبله .. التراتيل تفرش الميت وتفترش الشفاه .. الآيات تغسل القلب وترطبه ..

عدت إلى المنزل كى أجد أبى فى البيت .. معلقاً على الجدار .. ينظر إلىّ من إطار سجن أبدى .. صنعت لنفسى بعض الشاى كى لا أنسى أننى أحيا وعدت ..

نظر إلىَّ أبى وقال :

– ولدى ما فائدة حياة على سبيل الاعارة فى أحسن حالاتها .. يمكنك أن تمتلك عنزة .. كلباً .. فأراً .. أوراقا نقدية .. رصيداً فى بنك .. ولا تملك عمرك ! أليس كذلك ؟

قلت لأبى : كنت دائما تقول لنا ليتنا نفعل فعلاً فيه نوع من الفخر .. كنت دائماً تقول لى يجب ألا نعشق الأشياء والرتب .. وأن نتتبع الروح فى عالمها العلوى وأن نؤمن بشئ .

قال لى : يا بنى ، الدنيا ظلال وأشباح .. المشكلة هى كيف تسرق السعادة من أنياب الموت ! .. ابحث عن الحب .. ولو فى قاع الوداع ! وإن مشيت على شفرة السيف ! وشربت من بئر الدماء !! ما قيمة الجثة التى تلبسها ؟ .

– أبى . الجسم يحكمنا .. نعم الجسم يحكمنا .. المرأة تحكمنا .. والأطفال .. والمال .. المال ذلك السرطان العجيب ! .. وأنت سافرت كثيراً .. وكنت تعود تحكى لنا .. هل تعود مرة أخرى وتقص علينا رحلتك العظيمة !

وفتح أخى الباب .. وجدنى أحملق فى الصورة وأكلمها ! .. قرأ بعض القرآن فى صوت خفيض وقال لى :

– تعال ! واجلس معنا .

واستأذنت أبى .. تركته وحيداً معلقاً بين صمت الجدران !

وجدت الأسرة .. المواساة ، القهوة ، والشاى .. وتطرق الحديث فى خبث ناعم إلى تقسيم الميراث !!

رأسى ينفلق .. الغثيان .. الطوفان .. انسحبت من الجلسة قبل أن أذهب وآتى بمكنسة وأزيل هؤلاء .

يأكلون خبزك يا أبى كل الأيام ولا يحزنون ساعة واحدة ، ولا يتوقفون عن التمسح بضباب الزمن .. ولعق الآمال الطائرة !

رجعت إلى أبى أسأله :

– هل من سبيل للتسرب من عالم البشاعة !

أبى متى نحتفل سويا بالنجاة ، ونشرب نخب السعادة معاً ، دفعة واحدة .

أشار إلىّ أبى أن أصمت وقال فى سخريته المعهودة :

– هربت من ثغاء هؤلاء .. لتكلم نفسك؟ وكيف تمشى على شفرة السيف؟ اخرج إلى الشارع .. وواجه العالم !

وقبل أن أخرج من باب البيت سألنى أخى مشفقاً :

– إلى أين ؟

قلت له : لا أدرى إلى أين ؟ .. ربما أعرف فى الطريق .

أحمد عبد الله متولى

● نقد خفيف ●

● – أشكر لكم نشر قصيدتى (مصر الوفاء) ولكم الحق فى اختصار القصيدة ، ولكم أيضا الحق أن تبدلوا كلمة بأخرى إذا كانت أنسب ، ولكن ليس لكم الحق أن يكسر البيت بسبب هذا الإبدال .. مثال ذلك :

روعة تجعل الذى (يشتهى) يحيى ربيع الكلام نثرا وشعرا

حُــوِّل إلى :

روعة تجعل الذى (يتملاّها) يحيى ربيع الكلام نثرا وشعرا

فانكسر البيت انكسارا مروعا ، ولو أراد الأستاذ المبدل أن يبقى على البيت بغير كسر لقال مثلا :

روعة تجعل الذى يتملاّها كريمَ البيان نثرا وشعرا

وإنى لأتساءل ما عيب الفعل (يشتهى) وهو متعد والأصل (يشتهيها) فحذف المفعول به (الضمير) لأن المقصود مجرد إثبات الاشتهاء فقط أى تنزيل الفعل المتعدى منزلة اللازم ، وليس هذا ببدع فى كلامنا العربى .. قال البحترى :

شجو حساده وغيظ عداه   أن «يرى» مبصر و«يسمع» واع

أى يرى مبصر آثاره ويسمع واع أخباره .

أحمد عبد اللطيف حسب الله – دمنهور

● تعليق الهلال :

– نضطر إلى إصلاح أوزان بعض الأبيات أحيانا لتصبح صالحة للنشر ، ومن بينها هذا البيت الذى تذكرونه ، وقد أصلحناه هكذا :

«روعة تجعل الذى يتملاها .. ربيع الكلام نثرا وشعرا» ولكن الشطب الذى وضعناه على الكلمات الأصلية للبيت عند إصلاحه بدا كأنه تجاوز كلمة «يحيى» فبقيت في مكانها الأصلى ولكم الحق فى الاحتجاج عليها مع أنها من كلامكم وقد صار البيت موزونا بقولكم : «روعة تجعل الذى يتملاها .. كريم البيان نثرا وشعرا» فلماذا لم تكتبوه هكذا منذ البداية ؟! .. على أن اصلاحكم للبيت مثل إصلاحنا ، وكلاهما موزون ، ولاعيب فى الفعل «يشتهى» ونحن لم نحذف هذه الكلمة لعيب فيها ولكن لأنها فى موضعها الذى تذكرونه تكسر الشطر الأول من البيت فلا يستقيم إلا بحذفها وقولنا : «يتملاها» أو «يتشهّاها» .. وقد وجدنا الكلمة الأولى أفضل ، وبقى الشطر الثانى مكسورا فحذفنا من الأصل – كما قلنا – كلمة «يحيى» وأبقينا سائره .. ولا معنى هنا للدرس الذى ألقيتموه علينا فى الفعل «يشتهى» فهذا خارج الموضوع تماما ، ورحم الله شيخنا البحترى الذى جئتم به شاهدا فى غير مجال الشهادة ، لأننا لم نقل لكم إن وضع الفعل «يشتهى» خطأ لغوى أو أسلوبى بل قلنا : إنه خطأ عروضى ، ثم إنكم لو قلتم : «يشتهيها » كما أشرتم لانكسر البيت أيضا ! ..

● جُسْرأةُ اعْتِرَافْ ●

ولـــو كـــان الهَـــوَى مِلْـك اليـمـينِ

لكُنْتُ نَـزَعْـتُهُ مِنّـى انتـــزاعـــا

ولكـن سَـــارَ كـــالـــدَّم فـى وتـــينى

إذا فـارَقْـتُهُ لـم أَحْـيَ سـاعـا !

بشير رفعت سعيد محمد
كلية التربية - كفر الشيخ

الليل والكون

للنجم نبض مثل نبض فؤادى
وكأن بينهما خفى تناد
ما الكون إلا واحد مهما بدا
متنوعاً مترامى الأبعاد
وجماده كحياته متحرك
من قال إنهما من الأضداد ؟!
هذا وذاك له جليل وجوده
وفناؤه المفضى إلى ميلاد
كم وحيد ثابت ، لكنه
صور تقلبها بغير نفاد
يحصى الزمان بذرة وبنجمة
تتحركان بمنطق الأعداد
والساعتان هما الزمان ، جليله
ودقيقه ، وهما على ميعاد
فى الدورة الكبرى أو الصغرى له
ما عد من وقع ومن ترداد

صلاح عبد

اقتراح

● – أرجو إعادة طبع الأعداد الخاصة الصادرة عن أحمد شوقى وطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ .

عبده على أبو دشيش
كلية الحقوق – الاسكندرية

الكلمة الأخيرة



فى أشد الحاجة إلى أمثاله

بقلم : نجيب محفوظ

في الحقيقة أنا اذكر أننى عرفت أحمد بهاء الدين أول مرة فى نادى القصة، فى أحد الإحتفالات أثناء بداياته الأولى . وعلى غير تعارف كان كل منا يعرف الآخر جيدا . غير اننى فى الحقيقة دهشت لأننى كنت أحسب ان ما أقرؤه من مقالات لشخص أكبر سنا من الشخص الذى تعرفت به . وهذه ظاهرة جوهرية فى أحمد بهاء الدين إن عقله وتربيته الثقافية أكبر بكثير من سنه . ولعل ذلك أنه قد تحمل مالا يطيق، فبدأ يشكو المرض فى سن مبكرة .

واعتقد ان ميزة بهاء الدين أن عقله مرتب موضوعى مستنير ، مزود بثقافة واسعة جدا غير عادية ، أهلته لأن يكون محللا سياسيا فى مصاف المحللين العالميين .

فعندما يتعرض بهاء الدين لموضوع يعرضه العرض المعتمد على العقل والموضوعية أيا كان موقفه الوجدانى منه . فكان الكاتب والحكم فى آن واحد لقارئه . يزيل الضباب عن أى مسألة ، ومهما كانت محليته ، فإنه يضعها فى مكانها بالنسبة للأحداث العالمية التى تؤثر أو تتأثر بها بمعنى ان متابعته كانت تثقيفا لقارئه .

هذا من الناحية السياسية . والغريب ان نشاطه ، أو تعليقاته أو متابعاته فى المجال الفنى والأدبى ، والتى كانت تعتبر على هامش حياته ، كانت فى الواقع فى غاية الروعة . ولقد قرأت له تعليقات فنية عن مسرحيات وأفلام وإذاعيات وتليفزيونيات وأدب مصرى ، وعربى وعالمى الشيء الكثير وأشهد أنه بالحالة التي كتب عليها كان في طليعة الذواقين والحكام وأنه لو تفرغ للنقد لكان فى طليعة نقاد العصر .

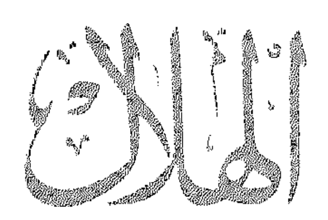
جملة القول أن أحمد بهاء الدين موهبة فذة وقد اسكته المرض قبل الأوان، وفى وقت كنا فى أشد الحاجة إلى أمثاله ، حيث اختل التوازن الفكرى فى بلادنا لغير صالح العقل ، وكان فى أشد الحاجة إلى المدافعين عن العقل والعقلانية والحقيقة .




الهلال
مارس ١٩٩٣
مضان ..
قراءة جديدة للتراث



● الموسمين
للفنان : ڤان جوخ



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أســسـها جرجي زيـدان عـــام ١٨٩٢

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدي : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : 3625469

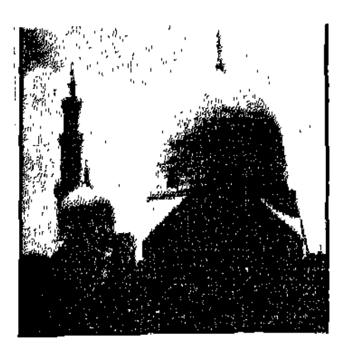
ثمن النسخة سوريا ٥٠ ليرة ، لبنان ٢٠٠٠ ليرة ، الاردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٣٠ ريالا ، تونس ١.٥ دينار ، المغرب ١٥ درهما ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، إيطاليا ٣٠٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الامارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار ، السودان ٤٥ ج. س.

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها فى ج. م. ع. تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٥ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وافريقيا ٢٥ دولارا - باقى دول العالم ٣٥ دولارا .
والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد .

فى هذا العدد



فكر وثقافة



دائرة حوار

قصة وشعر

فنون

د . شكرى عياد
راهب فى محراب العلم

الدكتور شكرى محمد عياد هو واحد من أبرز مبدعينا ومفكرينا ، الذين وهبوا حياتهم للعلم ، وفضلوه على كل مغريات الحياة ، بل إنه يعد راهبا في محراب العلم ، لا يهمه سوى شيء واحد ، هو أن يؤدى رسالته الإبداعية فى هذه الحياة .

ولم يكن غريبا على الدكتور شكرى أن يختص الهلال ، أعرق المجلات الثقافية فى الوطن العربى ، بخواطره وملاحظاته على الأدب ، وخاصة أدب الشباب ، برغم أن العائد المادى قليل ، ذلك ليقينه أن رسالة «الهلال» ستظل هى منارة الثقافة ورايتها الخفاقة في كل أنحاء الوطن العربى .

إن عالما مثل الدكتور شكرى عياد والحائز على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب ، وجائزة الملك فيصل العالمية فى الترجمة ، وصاحب المدرسة النقدية المتميزة التى لا تخضع لمزاج شخصى ، وإنما لمعايير دقيقة ، ورؤى نقدية منهجية ، يستحق منا كل التقدير ، لدوره البارز فى حياتنا الثقافية ، ولذا لم يكن غريبا أن يصبح كتابه عن الإبداع ، من أهم الكتب التى نوقشت فى معرض الكتاب الأخير .

فتحية للمبدع الكبير والعالم اللغوى المدقق ، الذى يعد نموذجا رائعا بين جيله من المبدعين الذين يعطون للحياة الأدبية بلا مقابل ، آملين أن يظل للأدب العربى ريادته وازدهاره بين الآداب العالمية .

اقرأ القفز على الأشواك ص ٨٨ .

من المتاحف العالمية

لوحة للفنان ڤان جوخ بعنوان «الموسمين» مرسومة على كانفاه (٧٣٫٤ × ٦٠ سم) انظر الغلاف الداخلى الأول للهلال .



علوم



الأبواب الثابتة

مسيلمة الكذاب وشطارته فى رمضان

كان بعض المفكرين الإسلاميين فى الجيل الماضى أمثال الأمير شكيب أرسلان ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب يرون أن المسلمين أمة قوية ولكن قيادتهم ضعيفة ، وكان هذا الرأى يتبلور فى شعار بليغ يقول : « المسلمون إلى خير ، ولكن الضعف فى القيادة » ..

ولو أخذنا بظاهر هذا الشعار لحكمنا باستحالته لأنه لا توجد أمة قوية ذات قيادة ضعيفة، فالقيادة هى ثمرة قوة الشعب أو ضعفه .. فإذا ضعف الشعب استحال على قيادته أن تكون قوية ، والعكس صحيح ..

ولكن .. ربما كان أصحاب ذلك الشعار البليغ يقصدون أن الأمة الإسلامية المعاصرة تملك من عناصر القوة ما يجعلها جديرة بكل خير ، بشرط أن يتصدى لقيادتها أقوى أبنائها وأكثرهم إخلاصا وعلما ومعرفة ! .

إن الخلاف بين أيهما الضعيف ، وأيهما القوى : الأمة الإسلامية أم قيادتها ، كالخلاف بين أيهما وُجد قبل الآخر : البيضة أم الدجاجة ؟ ! ..

ولا يوجد فرق حقيقى بين الأمة والقيادة .. وها هى ذى قيادة أمة الأفغان – وهى جزء من الأمة الإسلامية – كانت من أقوى القيادات وهى تحارب الروس ، ثم تحولت إلى بلاء يأكل الأخضر واليابس فى أفغانستان التى صارت أمة ممزقة يقاتل بعضها بعضا حتى الفناء ، بفضل قيادتها التى كانت قوية ..

عزيزى القارىء :

إن نموذج أفغانستان التى يأكل أهلها بعضُهم بعضاً يجىء صارخا داميا فى شهر رمضان الذى أُنزل فيه القرآن مبيّنا للمسلمين طريق الاتحاد والصلاح والفلاح ..

فالمسلمون يحملون السلاح ، ولكن ضد أنفسهم لا ضد أعدائهم ، وعندما تحتاج أمة إسلامية إلى معونة الأمم الإسلامية الأخرى ، كما يحدث الآن لأمة البوشناق أو أمة البوسنة والهرسك ، فإن هذه الأمة المفتقرة إلى مساعدة أقربائها المسلمين تجدهم فى قتال بعضهم ضد بعض ، وتجد الشعوب وقياداتها غارقة فى هذه الجريمة التى لا يستطيع أحد أن يلصقها بأحد ، فالجميع مشتركون فيها على حدٍ سواء ..

عزيزى القارىء

تكتمل صورة الأمة الإسلامية فى المرحلة التاريخية الراهنة بالخطوط السوداء الدامية التى ترسمها جماعات الإرهاب الدينى التى ترفع شعارات مضللة تتوارى خلف الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وهى نفس الشعارات التى رفعها الخوارج قديما فى وجه على ومعاوية

وخلفاء بنى أمية وبنى العباس ، ولم تندثر إلا باندثار جميع القبائل العربية التى كان يتوالد فيها الخوارج جيلا بعد جيل ..

فى ظل هذه الصورة الإسلامية الشاملة التى تختلط فيها طلقات المدفعية وضربات الدبابات وصواريخ الطائرات ، موجهة من المسلمين إلى المسلمين ، كما تختلط فيها الشعارات الضالة المضللة التى تزعم أنها ستحل جميع مشكلات المسلمين بما تعرفه هى وحدها عن الإسلام ..

« فى ظل هذه الصورة الكئيبة ، ماذا يمكن أن يقول الصائم للصائم فى شهر رمضان الآن ؟ ! » أيقول له : كل سنة وأنت طيب ، أم يواسيه فى المأساة التى عمت بلاد المسلمين شرقا وغربا ؟ ! ..

عزيزى القارىء :

سوف يصبح المسلمون على المحجة البيضاء إذا لم يعبث بهم كل مسيلمة كذاب يزعم لهم أنه وجد لهم حلا ، وهو لم يجد لهم إلا حبلا يربطهم به فى الساقية أو الناعورة التى تدور لتروى بمائها حقل مصالحه الخاصة ..

وسوف يصبحون على الجادة الواضحة إذا فهموا قول الشيخ محمد عبده : « قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها هو أصل من أصول الإسلام الذى هدم تلك السلطة ومحا أثرها .. على أن الرســـول عليه الســـلام كان مبلّغا ومذكّرا لا مهيمنا ولا مسيطرا ، ولم يجعل لأحد من أهله أن يحل ولا أن يربط لا فى الأرض ولا فى السماء ، بل الإيمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده .. ولا يسوغ لقوى ولا ضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد » .

ولو تأمل المسلمون هذه الكلمات وعملوا بها لكان فيها « الحل » لكل المزاعم التى يرفعها كل مسيلمة كذاب يرفع السيف باسم الدين فى المشرق أو المغرب ، ويزعم أن المسلمين سيصبحون إلى خير بفضل قيادته ..

عزيزى القارىء

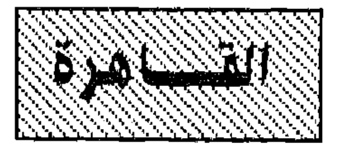
لو صام المسلمون يوما واحدا من شهر رمضان عن محاربة بعضهم بعضا باسم الشعارات المتناطحة الكاذبة بأجمعها ، لكان هذا اليوم الواحد بداية الأيام السعيدة المجيدة لهم فى المستقبل القريب والبعيد ، ولكن صوم هذا اليوم الواحد لن يقع حتى فى الأحلام ..

عزيزى القارىء :

صوم مقبول إن شاء الله ، وعيد سعيد لك ولكل مسلم وعربى يرتقب الفجر الذى يعقب هذه الظلمات ! ..

« المحرر »

العالم فى سطور



صراعات ما بعد الايدولوجيات

مؤتمر المبدعين

جميعهم تجمعهم الكلمة .. وإن اختلفت اللغة .

هذا هو حال ذلك الرهط من المبدعين الذين جاءوا إلى القاهرة فى منتصف شهر فبراير ليشاركوا فى تأسيس مشروع المؤتمر الدولى للفكر والإبداع .. وبذلك يكون هذا هو التجمع الأول من نوعه فى السنوات الأخيرة .

لقد جاءت أهمية هذا التجمع ،أنه قد جمع أبرز أصحاب الكلمة فى أقطار عديدة ، لمواجهة بعضهم البعض والاستعداد لمرحلة ما بعد نهاية حرب الايدولوجيات . ولمواجهة حروب من أنواع جديدة بدأت تنتشر فى العالم منها الدينى والعرقى والاجتماعى .

ومن هنا جاءت أهمية مناداة هؤلاء المجتمعين دولهم فى وجوب استمرارها فى ممارسة مسئولياتها المحلية والدولية . إيمانا أن الدولة وحدها لا يمكنها الوقوف فى وجه تلك الصراعات الجديدة التى تأخذ بالبشر نحو «التوحش الحضارى» .

فقد آمن هؤلاء الأدباء أن الوقت قد حان على الكُتّاب أن يمارسوا مسئوليتهم المحلية والدولية . وذلك بحكم إيمانهم بقضاياهم وأفكارهم . فى أن يسبقوا عصرهم قليلا ويصبحوا حقا مواطنين ينتمون لعالمنا الجديد «الأرقى» . فمثل هذه المشاركة من طراز «مبدعون عبر الحدود» . أو «المثقفون المنتمون للعالم» يمكنها أن تلحق من القاعدة بالمؤسسات السلطوية العلوية .

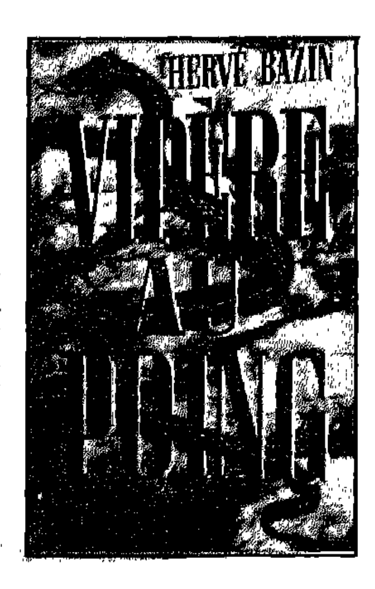
ومن هنا جاءت أهمية

هذا الملتقى الذى دعى إليه كارلــوس فوينتس وآمادو وفارجاس يوسا . ونجيب محفوظ وامبرتو ايكو والطاهر بن جـلون وعـزيز نسين وادجار موران . ونزار قبانى واريك رولو ، ويو آنج وهـم وغيرهـم ينتمون إلى كل ثقافات العالم . وذلك من خـــلال مجموعة من الدوافـــع تتلخص فى الآتى :

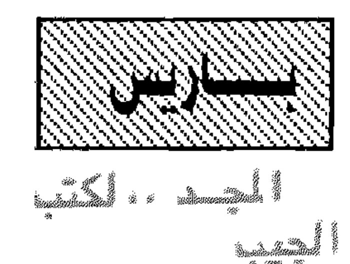
– متغيرات العـــالم التاريخية لا تفرق بين بلد وآخر .

– على المبدعين أن يلعبوا دوراً نظريا وعلمياً فى العبـــور نحو القرن الحادى والعشرين .

– إنسان العالم يجب أن يتخـلص من الأعباء المادية للصراعات المتباينة كى يمكنه المشاركة فى عملية العبور الحضارية .







« كتاب الجيب » .. لماذا ؟

انتشرت كتب الجيب فى العـــالم تبعا لتطور حضـــارى معين . فقد ارتبط ظهوره بانتشار الملابس الحـــديثة وعلى رأسها الجينز ولذا راح الناشــرون يصممـــون أحجاما بعينها من الكتب الشـهيرة كمـــا يمكن للقارىء أن يضع الكتاب فى جيبه ليسهل إخراجه فى أى وقت ومواصلة قراءته .. ســـواء فى الحـــديقة أو وســـائل الاتصال .

وقـــد جاءت أهميــة كتاب الجيب أنه أرخص سعراً . ويتناسب مع القدرات الشرائية لركاب المواصلات العامة .. ومن هنا زاد معدل تداوله فى كل أنحاء العالم .. فقد بيع من كتاب الجيب الفرنسى Le livre de poche" ٧٠٠ مليون نسخة طوال الأربعين عاما الماضية .

قامت فلسفة طبع هذه السلسلة ، التى تم

العالم في سطور

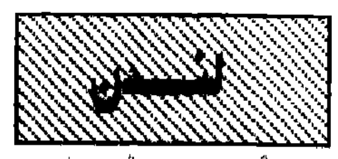
الاحتفال بمرور ٤٠ سنة على إنشائها في التاسع من فبراير الماضي ، على أساس إعادة طبع كافة الأعمال الأدبية طبعات شعبية ، بأسعار في متناول الجميع . وطوال هذه السنوات استطاع القراء أن يحصلوا على أغلب الإبداع الكلاسيكي والحديث ليس فقط المكتوب في أوروبا والعالم المتقدم ، بل في كل أنحاء العالم . وقد خصصت هذه المطبوعات سلسلة خاصة مثلا للأدب الكلاسيكي . وسلاسل أخرى للروايات البوليسية. ثم انهال سيل جارف من الروايات والمسرحيات سنويا .

وقد بدأت مطبوعات كتاب الجيب بإصدار روايات لجون شتاينبك وهيمنجواي وسارتر وآخرين وهم في قمة عطائهم . وقامت السياسة على أساس الاتفاق مع كافة دور النشر على إصدار رواياتها الضخمة، المغلفة في مجلدات غالية الثمن ، في طبعات أكثر رخصا .. وساعد ظهورها على توصيل الثقافات إلى كافة البيوتات والمنازل .. وكانت أسعار الأعداد الأولى منها ، على سبيل المثال ، لا تعادل قروشا قليلة . ولم ترتفع هذه الاسعار كثيرا حتى الآن ..

وقد ساعد نجاح هذه المجموعة من الكتب على ظهور مائتي مجموعة تقوم بنفس الدور حيث راح الناشرون أنفسهم يصدرون أعمالهم في طبعات شعبية مثل دار نشر فوليو . وتخصصت دور أخرى جديدة في إصدار طبعات الجيب مثل « قرأت » و «روايات بوليسية » و « ١٠/١٨» وهو اسم غريب لسلسلة نشرت الروايات البالغة الجدية لكاتب مثل ماركيز وسيلين وكونديرا بالإضافة إلى الأعمال الإباحية الشهيرة مثل « إيمانويل » بأجزائها العديدة ..

وطوال أربعين عاما قامت سلسلة « كتاب الجيب » بإعادة طبع الروايات المشهورة أكثر من مرة ، كل مرة منها في إخراج مختلف ، وشكل مغاير وعلى سبيل المثال ، فإن رواية « كنجز مارل » الشهيرة وهي من تأليف بيير بنوا قد صدرت طبعتها الشعبية في هذه السلسلة لأول مرة عام ١٩٥٣ و ١٩٥٩ ثم عام ١٩٦٦ . و١٩٨٧ .

كما اهتمت هذه الكتب بنشر مؤلفات الكتاب المعاصرين في كل أنحاء العالم . مثل امبرتو ايكو، وتوم وولف . وفي العام الماضي صدر الجزءان الأولان من ثلاثية نجيب محفوظ .. وسوف تصدر « السكرية » خلال أشهر الصيف القادم .



أمي .. وأمها ..

أصدقاؤها الموهوبون



ستيفن سبندر

كثيـــراً ما تمتلىء السـيرة الذاتية لكاتب مشهور بالأسرار المثيرة ، والحكايات التى تخلب لب القــارىء حــول أناس آخرين عرفهم الكاتب عن قرب .. خاصة المشاهير منهم .. ففى مثل هذه المذكـرات قد لا يهتم القارىء طويلا أن يتحدث الكاتب عن أسرته . أو عن أصدقائه ولكن من المهم أن يكون هناك مشاهير يعرفهم القـارىء وعلى الكاتب أن يلقى أضواء ذاتية عنهم .

ومن هنا جاءت أهمية السيرة الذاتية التى نشرها الشاعر البريطانى المعروف ستيفن سبندر فى يناير الماضى ...

لم تتمثل الأهمية قط فى تلك الصداقة التى ربطت بين الشاعر ، وبين مشاهير الأدب فى بلاده، وخارجها . بل أيضا لأن المساحة الزمنية التى عاشها الكاتب منذ عام ١٩٠٥ وحتى الآن قد أتاحت له التعرف على عدد كبير من البشر . وصادق أبناء الأجيال المتلاحقة من الشعراء ، والروائيين ، وأحيانا رجال السياسة والحكومات .

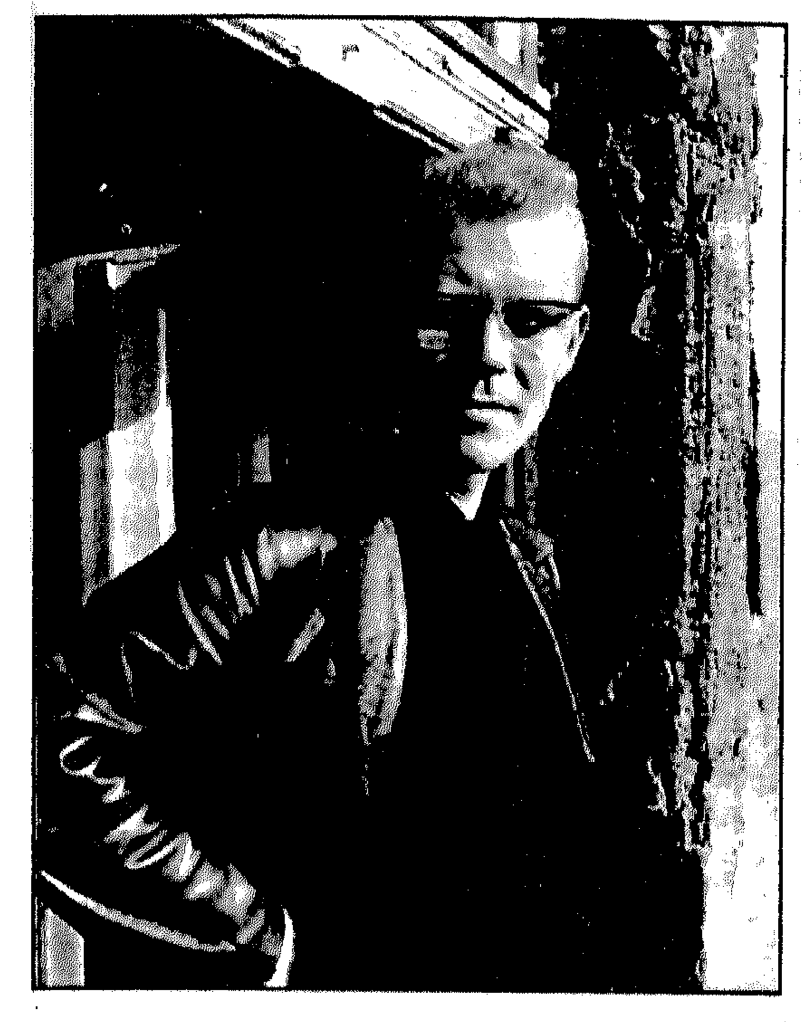
وقد جـاءت أهمية المذكرات فى جزء منها ، من خـلال حديثه عن الكاتبة فرجينيا وولف . وهى امـرأة غـريبة الأطـوار ، كتبت أروع روايات القرن العشرين ، وعاشت فى قلق نفسى ، حيث انتقلت من أسرة الرجال إلى أحضـان النساء ماتت منتحرة عام ١٩٤١ . وقـد صـادق سبندر فى شبابه أسرة وولف وقال فى مذكراته إنها كانت أقرب إلى الرجـال ، وتحب أن تستمع إلى الآخرين .

ويقول سبندر إن سر إعجابه بفرجينيا وولف ليس فقط كتابتها . بل أن لهما بداية مشتركة فقد

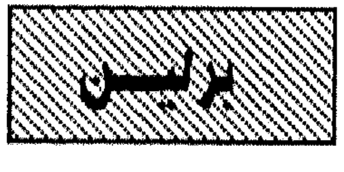
العالم في سطور

كانت أمه مجنونة مثلما كانت أم فرچينيا . وهذا وحده كاف للربط فيما بينهما .

وتقول مجلة الإكسبريس في ١١ فبراير الماضي أن السيرة الذاتية لستيفن سبندر هي أفضل سيرة كتبها أديب في القرن العشرين، فقد حاول الكاتب أن يضع أصبعه على كل ما يتعلق بغموض الفن والفنانين . وقد حاول الشاعر أن يكشف هذا الغموض المتعلق بحياة أدباء مثل چيمس جويس، و د . هـ . لورانس ، وصديقه الحميم ايشروود، وأندريه مالرو .. الذي يقول عنه : « ود مالرو أن يصبح مالرو . وقد حقق ذلك . وجاء سحره أنه لم يحاول أن يحكي . بل أن يبدو على السجية » .



أوفه جونسون



برلين

إمرأة .. وثلاث ايدولوچيات

« سنة من حياة چيسينه كرسبال »

عنوان أحدث روايات الكاتب الالماني أوفه جونسون . والذي يعتبر واحداً من الأدباء الجيدين الذين لم ينالوا نفس شهرة زملائهم في ألمانيا، ربما لأنه قد قرر أن يعيش في بريطانيا منذ قرابة ثلاثين عاما .

وقد انعكس هذا الرحيل على أدب الكاتب . ففي روايته الأخيرة

يتحدث عن امرأة ألمانية هاجـــرت إلى الولايات المتحدة . المـــرأة تدعى چيسينه وتدون وقائع ســـنوات الهجـــرة إلى نيويورك ، حيث عملت موظفة فى بنك ، وعاشت حياة جديدة لم تعتدها من قبل .. فهى امرأة ولدت فى عهـــد النازية . ثم عاشـــت فى ألمـــانيا الشـــرقية تحت لـــواء الشـــيوعية . وعنـــدما سافرت إلى نيويورك أصبح عليها أن تجرب الليبرالية . وتنقسم الرواية إلى ثلاثة أقسام تبعا لمذكرات المرأة .. فلكل أيدولوچية عاشت فيها ملامحها الخاصة . سواء على المستوى الشخصى أو العام ..

ففى طفولتها عاشت سنوات النازية ، وفى شبابها وقعت بلادها تحت سطوة الشيوعية ثم ها هى قد أصبحت امرأة ناضجة حين أقامت فى جزيرة مانهاتن . تقرأ الصحف التى تنقل أخبار الحـــرب البـــاردة مع المعســـكر الشـــرقى من ناحية . ثم عن حرب ساخنة تدور وقائعها فى ڤيتنام من ناحية أخرى ..

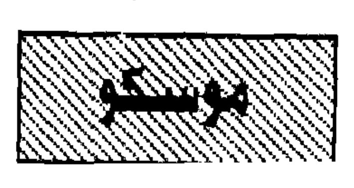
تعى چيسينه أن فى كل مرحلة هناك نضالها الخـــاص . وأيضـــا كابوسهـــا الذى تتغير ملامحه من مكان لآخر ، ومن أيدولوجية لأخرى .

تعتبر روايـــة « سنة من حيـــاة چيسينه كرسبال » بمثابة أوديسا الادب الالمانى الحديث فهى تقـــع ، بأجـــزائها الثلاثة ، فى حوالى ١٦٠٠ صفحة . وينظر إليها النقـــاد على أنها سيرة ذاتيـــة للعالم المعاصر . وأيضا لكاتبها الذى ولد فى عام ١٩٣٤ . ودرس فى المانيا قبل أن تنقسم إلى شرقية يعيش فيها ، وغربية يفصله عنها الجـــدار النفســـى والحجـــرى . وفى عام ١٩٥٧ نشر روايته الأولى « الحدود » والتى كفلت وحدها أن تحقق له شهرة جابت انحاء الالمانيتين . وتدور حول وقائع وفاة عامل سكة حديد وفىّ لعمله . وتثار التساؤلات حول وفـــاته . ويتتبع الكاتب رحلة حياة بطله يعقوب الذى نـــوى فى صباح يوم موته أن يرحل إلى المانيا الغربية .

ولم يستحق أوڤه الشهرة لأن أبطاله تطلعوا إلى الهجرة نحو الغرب . بل لأن اسلوبه قد تمتع بتشكيلات اسلوبية خاصة جعلته يحصل على جائزة بوخنر عام ١٩٦٠ وهى أهم جائزة فى الأدب الألمـــانى . وفى اوائل الســـتينات تمكن من الهجرة إلى بريطـــانيا .

الجـــدير بالذكر أن أوڤه جونسون قد مات عام ١٩٨٤ على أثر إصابته بأزمة قلبية .

العالم في سطور



هكذا تكون المجلات الثقافية الموجهة إلى شعوب العالم ..

بدت هذه الحالة فى الأعداد الأخيرة من مجلة " littre " التى تصدر باللغة الفرنسية .. هى مجلة فريدة ، وذات نوعية خاصة . والغريب إنه قد صدر منها حتى الآن خمسة وثلاثون عددا دون أن ينتبه أحد اليها ..

فى بداية الأمر قد يتصور المرء أنها أدبية متخصصة فى النقد الأدبى ، والاطلاع على الاصدارات الحديثة مثل اغلب المجلات السياسية المتخصصة . ولكن ما إن تتصفحها حتى تدرك أنها



مجلة ذات هوية خاصة . فرغم أنها مجلة فرنسية اللغة . وذات حجم مميز ، وسعر عال . وتصدر فى باريس . إلا أنها مجلة مخصصة للثقافات الروسية المعاصرة ..

إنها مجلة غير قائمة على دعاية سياسية أو أيدولوجية ، ولكنها تحاول التأكيد على أن الثقافة الروسية عالمية، وإنسانية، وذلك بخلاف ما فهم قراء المعسكر الغربى طوال سنوات الحروب الباردة . وهى تؤكد أن الأدباء الروس يكتبون دائما من أجل روسيا ، سواء كانوا يعيشون فى داخل الاراضى الروسية ، أو الذين سبق لهم الانشقاق عن الاتحاد السوفييتى. وعلى سبيل المثال ، فإنه فى العدد ٣٤ كتب أندريه بيتوفى ، وهو أديب لمع فى سنوات البيروسترويكا مقالا ضخما عن فلادمير نابوكوف ، صاحب رواية « لوليتا » ، أكد فيه أن هذا الكاتب الذى حمل الجنسية الامريكية فى اواخر حياته قد ظل روسياً رغم أنه كتب بالالمانية والانجليزية.

وفى العدد الأخير الذى صدر مع بداية هذا العام خصصت المجلة ملفا ضخما تحت عنوان «انتصار سيزيف » كتب فيه ادباء روس معاصرون عن منظورهم لفكرة فلسفية غربية . واكثر هؤلاء الكتاب غرباء ، بالاسم ، على القارىء الغربى ، ولكنهم مؤثرون فى داخل روسيا نفسها . منهم بيترنداس . وهو باحث ، وكاتب مسرحى . وسلافوى زيزيك . وهو كاتب مقال .

أمـــا الملف الثـــانى الهام فى العدد الاخير من المجـلة ، فهــو عن الاتجاهات المعاصرة فى الأدب الروسى . بالإضافة إلى ملـــف عن الأدب والحيـــاة فى جنـــوب افريقيا :.

من أهم ملفات المجلة التى فتحتها فى اعداد سابقة : حياة الكـــاتب فى روســـيا . و« ماذا بعد الثورة » . و«الحياة بلا خصوم » . و«ماذا يكـــون الشـــعر » . و« مســـألة اوروبـــا » . و «الهجرة أم المنفى » .. ثم « المدن والحياة » ..

طوكيو

كونفوشيوس زعيم سياسى

لن تحســـم أبداً مسألة عـــلاقة الإبداع بالتــــاريخ ، ولا بالشخصيات التاريخية فإلى أى حد يمكن للكاتب أن يخترق الحقائق فى حياة هذه الشخصيات ، أو أن يمزج بين الخيال والواقع ؟

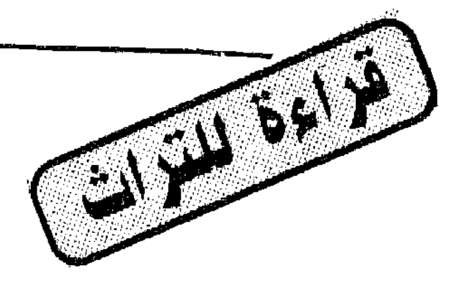
هذه الاسئلة يمكن أن تثار بمناســـبة صدور ترجمـــة روايـــة « كونفوشيوس » للكاتب اليابانى ياسوشى اينوه – مات فى عام ١٩٩٢ – حول حيـــاة الحكيم الصينى الكبير كونجزى . المعـــروف تحت اســـم كونفوشيوس . مؤسس الديانة التى حملت اسمه ، والتى يؤمن بها اكثر من ألـــف مليـــون من الآســـيويين ..

تـــرى مـــاذا كتب اينوه ؟ ..

راح الكاتب يتخيل أن كونفوشـــيوس لم يكن حكيما ولا فيلسوفا ، بقدر ما هو زعيم سياسى وذلك من خلال مهمة قام بها أحد تلاميذه ، عقب وفاته بثلاثين عاما . أحس هذا التلميذ أن هناك سببا أساسيا دفع كونجزى للرحيل عن بلاده فيما يسمى بالمسيرة الطويلة . فى بداية القرن الخامس الميلادى . من أجل بث أفكاره ، وحكمته على الناس . ويرى المؤلف أن دافع الحكيم فى ذلك لم يكن بهدف نشر الحكمة فقط . بل ايضا لأسباب سياسية .

ويقـــول اينوه إن كونجزى كـــان حكيما انسانيا برجماتيا . حاول إسقاط الحكومات فى عصره من خلال أفكاره وفلسفته . . وسعى قدر إمكانه أن يكون له تلاميذ يؤمنون به ، حتى يعملون على نشر حكمته بين ابناء الأجيال التالية . وايضا فى كل الامـــاكن التى يمكـــنهم أن يتوجهـــوا إليها .

ويـــرى الكـــاتب اليابانى، أن كونجـــزى (كونفوشيوس) قد نجح فى ذلك . فآمن بأفكاره آلاف البشر .. ثم مئات الملايين . ويعتبر المؤمنون بعقيدته الآن الاكثر عدداً من بين المؤمنين فى كافة الأديان غير السماوية ..



الدفاع عن العالم الإسلامى

بقلم : عبد الرحمن شاكر

يساور العالم الاسلامى فى مجموعه ، الكثير من الحزن ، والغضب ،والقلق العميق ، لما يصيب المسلمين فى أرجاء متفرقة من العالم ، أوضحها ما يدور فى البوسنة والهرسك ، وفى الهند ، وفى فلسطين المحتلة .. يضاف إليها الصومال ، الذى أساء إليه أبناؤه أكثر بكثير ممن عاداهم ، بل هم الذين أعطوا الفرصة للقوى الدولية ، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ، القوة الكبرى الوحيدة فى عالم اليوم ، أن تظهر بمظهر المنقذ للشعب الصومالى ، وللمسلمين فيه ، من المجاعة ومما تلحقه به الفرق المتحاربة من أبنائه ، وبذلك تبرىء ذمتها مما يصيب المسلمين في مواطن أخرى ، فتتراخى عن نصرة شعب البوسنة والهرسك الذى يتعرض للابادة ، سواء بذاتها ، أو عن طريق جهاز هيئة الأمم المتحدة ، ذات الهيئة التى أصدرت قرارها عن طريق مجلس الأمن بضرورة عودة الفلسطينيين المبعدين فى « مرج الزهور » على الحدود اللبنانية إلى بلادهم.



ولكنها أى الولايات المتحدة الامريكية ، تحتال بكل وسيلة لكى لا يصدر قرار آخر باجبار إسرائيل على تنفيذ قرار عودة المبعدين ، ولو عن طريق عقاب متواضع من نوع العقوبات الاقتصادية ، وهى أى الولايات المتحدة ، التي استخدمت جهاز الأمم المتحدة لضرب العراق مرة ثانية لمخالفاته لقرار وقف اطلاق النار ، لا ترقى الى مستوى عنف القصف الذى تعرض له، والذى أثار استياء كثير من دول العالم بما فيها دول عربية وغير عربية اشتركت فى التحالف الدولي الذى أجبر العراق على الانسحاب من الكويت بعد اجتياحه الظالم لها .

يسود العالم الاسلامى شعور بالاضطهاد ، وأنه عرضة لهجوم عدواني جديد ، وخاصة فى أجواء ترامت فيها من مختلف الدوائر الغربية ، السياسية والاعلامية والثقافية ، صيحات مسعورة عن «الخطر الاسلامى» ، وأنه قد صار هو العدو الرئيسى للديمقراطية الغربية بعد سقوط الشيوعية ، بينما يبدو الأمر من وجهة نظر المسلمين ، أن أعداء الأمس فيما بينهم قد تصالحوا اليوم على عداوتهم أى على عداوة المسلمين ، وأنهم قد نجحوا فى أن يضموا إلى صفوفهم «أصدقاء» تقليديين للمسلمين ، مثل الهند التى هى مثلهم من دول العالم الثالث وشريكتهم الكبرى فى حركة عدم الانحياز والمؤتمر الأسيوى الأفريقى ، وسائر تلك المنظمات ، التى تعبر عن تضامن «المغبونين» فى هذا العالم ، من جانب دول سبقتها فى ميادين العلم والصناعة والتكنولوجيا ، وذاقت ويلات الاستعمار على أيديها قديما ،

وويلات التحكم السياسى والإجحاف الاقتصادى ممثلا فى أسعار مبادلات المواد الخام ، ومن ثم الديون المتراكمة حديثا ، ولا يزال ينتظرها الكثير من ويلات تلوث البيئة بالنفايات الذرية والمخلفات الصناعية وهلم جرا .

من أجل ذلك ، كان لابد من أن يكون أهم شواغل الفكر الاسلامى ، أو الفكر السياسى فى العالم الاسلامى ، هو كيفية الدفاع عن هذا العالم ، وصد العدوان الذى يتعرض له ، وقد يتعرض إلى المزيد من هجماته .

ومن الخطوات الأولى فى هذا الصدد ، استعراض القوى التى يضمها هذا العالم الاسلامى فهى الوحيدة الموكول إليها الدفاع عنه .

● بعد سقوط الشيوعية ●

ربما يبدو سقوط الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى السابق ، وفى دول شرق أوربا ، واحدا من أهم الأسباب فى الاضطهاد والذى يتعرض له المسلمون حاليا بشكل وحشى فى البوسنة والهرسك ، وبدرجة أقل فى ألمانيا حيث تعانى الجاليات الأجنبية وفى مقدمتها الأتراك المسلمون ، من هجمات عدوانية من جانب القوى العنصرية التى بدأت تعاود الظهور من جديد فى ألمانيا الموحدة ، كما أن الروس يساندون الصرب فى عدوانهم على مسلمى البوسنة والهرسك ، حيث تجمعهم بهم وحدة الجيش السلافى والعقيدة الأرثوذكسية ، فيمدونهم بالبترول والسلاح ، والمتطوعين أيضا ، كما يهددون باستخدام الفيتو فى مجلس الأمن إذا ما اتخذ قرار بالتدخل لوقف الحرب فى البوسنة والهرسك ، أو سمح بامدادها بالسلاح !

ولكن ذلك الأثر السلبى لم يكن هو الوحيد الذى ترتب على سقوط الشيوعية وانحلال الاتحاد السوفييتى ، وإنما ترتب على ذلك أيضا انسلاخ الجمهوريات الاسلامية منه ، وعلى الرغم من استمرار رابطة الكومنولث التى تجمع هذه الجمهوريات مع سائر الجمهوريات السوفييتية السابقة ، فإن هذه الرابطة من الوهن بحيث لا يبدو وكأن بها مستقبلا ، وبالفعل تبحث الجمهوريات الاسلامية عن إطار اتحادى يضمها وحدها ، ويتمثل فى فكرة «التركستان الأكبر» ، وسواء تم ذلك التوحد أم لم يتم ، فهى فى وضع يرشحها للتقارب والتكامل أكثر فأكثر مع العالم الاسلامى الذى تنتمى إليه من قديم ، وكان سقوطها فى أسر الامبراطورية الروسية كتوابع لها بمثابة عزل كامل لها عن هذا العالم، أما المرحلة السوفييتية فكانت بمثابة فترة انتقال ريثما تعود إلى حيث تنتمى .

لقد كان من أخطار السياسة الشيوعية تصورها أن العقيدة الدينية قابلة للاقتلاع بسهولة ، باعتبارها من مخلفات الماضى

الذى كان يسوده القهر والاستغلال ولكن الواقع أظهر أن حاجة الانسان إلى العقيدة أكبر بكثير من الأوضاع الاجتماعية ، فهى بمثابة صمام أمان ضد الاحساس النفسى باليأس وعبث الوجود ، مهما تكن درجة المساواة والرفاهية فى هذا المجتمع أو ذاك .

وإذا كانت صحوة العقيدة الدينية ، أو استمرارها قد ولد تعصبا بغيضا فى أوربا ، بما فيها روسيا ، ويوغسلافيا السابقة ضد المسلمين ، فإن هذه الصحوة ذاتها قد شملت مسلمى تلك الجمهوريات السوفييتية السابقة ، والعالم الاسلامى فى حل من أن يعتبر نفسه قد كسب ثمانين مليون مسلم على الأقل يعيشون فى تلك الجمهوريات ، ولهم امتدادات داخل الاتحاد الروسى ذاته تمنعه من التمادى فى عداوة المسلمين مثل: التتر ، والشيشن والأنفوشى الذين ينتمى إليهم رسلان حسب اللاتوف رئيس البرلمان الروسى والمناوئ الأكبر لرئيس الجمهورية بوريس يلتسين ، كما اضطرت روسيا مؤخرا إلى تقديم العون للمسلمين فى مقاطعة «أنجازيا» فى صراعها من أجل الاستقلال ضد جمهورية جورجيا ، وذلك مراعاة لخواطر المناطق الاسلامية فى الاتحاد الروسى .

وليس أكثر من المسلمين شعورا بالأمن إزاء استقرار عقيدتهم الدينية، فالعقيدتان السماويتان الأخريان قد سبقتا ظهور الاسلام فى هذه المنطقة العربية الاسلامية وكان اختيار أغلبية سكان هذه المنطقة للدخول فى الاسلام حاسما لا رجعة فيه ، ولا تجدى معه سطوة أو سيطرة من جانب قوى أجنبية أوربية الأصول اعتنقت هذه العقيدة أو تلك مما سبق ظهور الاسلام ، وكان شعور الاعتزاز الاسلامى بأنه خاتم الرسالات وراء ما شهد به التاريخ من تسامح يسود المجتمعات الاسلامية أكثر من سواها ، إزاء العقائد المخالفة .

● التنظيم والثقافة ●

المسألة إذن أن المسلمين ، إذا كانوا مضطهدين فى أجزاء من هذا العالم ، فليس معنى ذلك أن كل شئ فى العالم يدور ضدهم، بل إن بعضها فى صالحهم ، حتى ولو لم يسعوا إليه ، وأن عناصر القوة لا تنقصهم ، ولكنها مبعثرة وتحتاج إلى تنظيم أو إعادة تنظيم .

فالعالم الإسلامى لم يكسب مسلمى آسيا الوسطى الذين كانت بلادهم جزءا من الاتحاد السوفييتى من الناحية الكمية فحسب ، أى مساحة أراضى تلك الجمهوريات ، ولا عدد سكانها ، فتلك الأراضى تحتوى على الكثير من الموارد الطبيعية ، كما أن سكانها هم من أكثر سكان العالم الإسلامى تقدما من نواح كثيرة ، ويكفى أن الأمية قد اختفت من

بلادهم تقريبا ، وقد أتاح لهم كونهم كانوا جزءا من الدولة العظمى الثانية فى العالم ، قبل انحلال الاتحاد السوفييتى أن يكونوا حائزين على كثير من أسرار العلوم والتكنولوجيا المعاصرة فى شتى فروع المعرفة، الأمر الذى ينقص الأجزاء الأخرى من العالم الاسلامى بشكل ظاهر .

إن شيئا من الخيال قد يتيح لأبناء العالم الاسلامى أن يروا خريطة العالم وقد تغيرت بشكل حاسم ، حيث لم تعد أسيا الوسطى هى «الحديقة الخلفية» للامبراطورية الروسية كما كان عليه الحال فى السابق ، بل يمكن لهذه المنطقة من العالم أن تكون طليعة لعالم اسلامى متقدم ، يمتد من سيبريا شمالا إلى أواسط أفريقيا جنوبا ، ومن الهند شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ، عالم يسكنه حوالى مليار من البشر ، أى مثل عدد سكان الصين ، وعلى مساحة أوسع ، قد تعادل أو تقارب مساحة الاتحاد السوفييتى السابق ، وبه موارد طبيعية وبشرية لا تقل إن لم تزد على موارد الصين ، التى ترشحها دوائر علمية كثيرة لكى تكون صاحبة أقوى اقتصاد فى العالم خلال القرن المقبل ، الذى لن يكون فيه موضع إلا للكتل الدولية الاقتصادية الكبرى .

ما الذى ينقص هذا العالم الاسلامى لكى يتكتل ويتحد تحت أى شكل من أشكال الوحدة؟

المهم أن تكون فعالة ، وأن يتم فى إطارها تنظيم قواه المبعثرة ، واستخدام موارده الوفيرة على أحسن وجه ، ولصالح



حرب البوسنة والهرسك

مختلف أبنائه ومن أجل أن تكون له مكانته المحترمة فى هذا العالم .

أعتقد أن الذى ينقصه هو التوجه الثقافى الواحد نحو الفكرة ، أى أن يكون لدى جميع أجزائه ومكوناته الاحساس والادراك بأن مستقبلهم على هذه الأرض يتوقف على قدرتهم على التكتل والتوحد وتنظيم الجهود .

إننى لا أتوقع أن تضم المسلمين على هذه الرقعة الشاسعة من العالم فى المدى القريب وحدة سياسية واحدة ، ولكن التواصل الثقافى والاقتصادى فيما بينهم قد يخلق ظروفا تسمح لهم بالتحرك سياسيا فى إطار موحد ، على غرار الوحدة الأوربية على سبيل المثال .

إن الذى يجمع هذه البلدان فى العالم الاسلامى هو العقيدة الواحدة ، والتراث المشترك لتاريخ الاسلام الطويل ، وهذه العقيدة وهذا التراث لهما لغة ، هى العربية التى نزل بها القرآن ، وتروى بها السنة ، وتقام بها الصلوات ويرفع الأذان .

ولكننا نشهد أحيانا عجبا فى تجمعات المسلمين .

خذ عندك مثلا المؤتمر الاسلامى ، الذى هو حاليا «المؤسسة الدولية» الوحيدة للمسلمين .. لا توجد لغة مشتركة للوفود التى تحضره ، فهناك من يتكلم العربية ، ومن يتكلم الانجليزية أو الفرنسية ... إلخ طبقا للدولة الاستعمارية التى كانت تحتل بلاده إلى عهد قريب ، ولم يتعلم أن يعبر عن ذاته إلا بلغتها !

هل هذا معقول ؟ ألا يوجد من بين أبناء الدول الاسلامية غير الناطقة بالعربية من يعرف هذه اللغة لكى يتكلم بها فى المؤتمر الاسلامى مع إخوته المسلمين ؟ علما بأنه لا تفقه فى الدين الاسلامى ولا استزادة من ثقافته ولا صلاة يمكن أن تقام طبقا لشرائعه إلا باللغة العربية ؟

إن الالمام بالاسلام لن يتأتى من خلال بعض الترجمات المختصرة أو حتى الموسعة ، إلى هذه اللغة أو تلك خلاف العربية ، ولو كانت هذه البلاد الاسلامية غير العربية جادة فى استشعار وجودها الاسلامى ، حريصة على المشاركة الجادة فى العمل الاسلامى الموحد على مختلف الأصعدة لحرصت كل الحرص على تعليم أبنائها العربية ، ولو باعتبارها «اللغة الأجنبية» الأولى فى مدارسها !

لقد ضربت المثل فيما تقدم من المقال بالمسلمين السوفييت الذين يعودون الآن إلى العالم الاسلامى ، ويحسن أن أضيف فى هذا الموضع أن القياصرة الروس حينما استولوا على دولة «القبيل الذهبى» التترية فى قازان على ضفاف الفولجا ، وبعد أن شرعوا فى بداية القرن التاسع عشر الميلادى فى «ترويس» الاجناس غير

الروسية ، بمن فيهم التتر المسلمون ، من طريق اجبارهم على التكلم بالروسية واعتناق الديانة المسيحية الأرثوذكسية ، كانت وسيلتهم فى ذلك إحراق المساجد ومدارس تعليم اللغة العربية سواء بسواء ، لأن المسلمين هناك أيام استقلالهم ، بل أيام سيطرتهم على معظم أراضى دولة الروسيا ذاتها ، كانوا يدركون تمام الادراك أنه لا إسلام لهم مالم يكن بينهم من يتكلمون العربية بل يحسنونها كأبنائها .

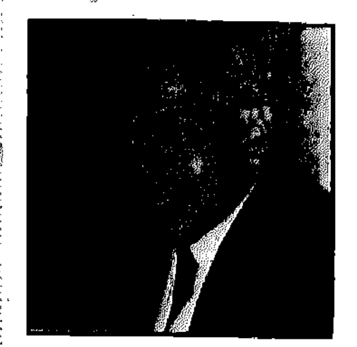
وأعجب مما تقدم ما يدور فى بلادنا العربية ذاتها ، أو فى بعضها على الأقل من إهمال لشأن اللغة العربية ، حرصا على تعليم اللغات الأجنبية للأبناء فى الصغر بدعوى أن ذلك سبيلهم للنجاح فى المعاملات التجارية مثلا ، اكتساب العلوم الحديثة .... الخ ، ولكن من قال إن الأمة التى تهمل لغتها يمكن أن يحقق أبناؤها النجاح عن طريق أن يتقن بعضهم فحسب لغات الآخرين ؟!

وأمر آخر أشد عجبا هو ما دار أو يدور ما بين صفوف المثقفين بل والمفكرين ممن سمحوا لأنفسهم أن يتحاوروا كفريقين ، أحدهما عروبى والآخر إسلامى ! إن الجيل الذى سبقنا لم يكن يعرف هذه التفرقة ، وكان ينظر إلى العروبة والاسلام كوجهين لعملة واحدة لا انفصام لها ! فأغلبية العرب من المسلمين ، كما أنه لا إسلام على وجه صحيح إلا بالعربية .

ولو سألت الفريقين عما يريدان ، قال فريق «العروبيين» إنهم يريدون وحدة عربية، فنقول لهم وهل إذا تحققت هذه الوحدة ترفضون أن ينجذب إليها من جيران العرب وإخوانهم من يشاء من المسلمين ، أليست الدول الاسلامية هى تخوم العرب المجاورة لهم فى تاريخ مشترك ؟! أما إذا قال «الاسلاميون» إنهم يريدون أن تكون الوحدة إسلامية ، فنسألهم وماذا عن لغة هذه الوحدة ؟ هل يمكن أن تكون إلا عربية ، كما أن اللغة الإنجليزية هى لغة «الكومنولث البريطانى» ، والولايات المتحدة الأمريكية ، والروسية كانت هى لغة الاتحاد السوفييتى الذى انحل ولا تزال هى لغة الكومنولث الجديد الذى أعقبه ؟؟!

أم الذى يريد أن يلتوى بك وباسلاميته إلى كيان أعجمى يرفع شعارات «اسلامية» طنانة ولو فحصت عقائده لوجدتها أبعد ما تكون عن الاسلام الصحيح ، يكفى فى ذلك رفض السنة المحمدية برمتها ولا أزيد .. أما هذا فنقول له : إن الاسلام هو الذى شرع أنه لا فرق بين عربى وأعجمى إلا بالتقوى ، ولكن هذا الاسلام ذاته هو الذى يأبى أن يكون إلا عربيا ، ويكفى فى هذا قوله تعالى فى القرآن الكريم : «لسان الذي يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » !

أقـوال معـاصرة


د . كمال أبو المجد


هنرى كسنجر


سميح القاسم

★ « التعددية والاختلاف جزء من حكمة الخالق والابتلاء » .

د . كمال أبو المجد

وزير الإعلام الأسبق

★ « التنمية الاقتصادية إن لم تسبقها فعلا تنمية ثقافية فلا أمل فيها » .

فيديريكو ماير

رئيس منظمة الأونيسكو

★ « بساط حضارتنا رقيق جداً ، وتحته تمتد الأرض الجدباء » .

تانكريت دورست

كاتب المسرح الألمانى

★ « أن تعيش فى خوف يعنى أن تعيش نصف حياة » .

المخرج الاسترالى «باز لوهرمان»

★ « من الصعوبة بمكان ألا تتشاءم » .

إبراهام رابينوفيتش

عالم نفس روسى

★ « العالم فى حالة فوضى » .

دوجلاس هيرد

وزير خارجية بريطانيا

★ « لا أرى لنا كعرب حلا ولا أملاً » .

د . عبد الرحمن بدوى

الفيلسوف المصرى

★ « أمريكا لا تستطيع أن تهيمن ، ولا أن تنسحب » .

هنرى كسنجر

وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق

★ « المطبات الفكرية التى تواجهها الأمة العربية ، لا يجوز إلقاء التبعة فيها على اتجاه واحد » .

الشاعر الفلسطينى سميح القاسم

★ « الإسرائيليون يتصرفون كبرابرة فى قمع القومية الكبرى الأخرى فى المنطقة » .

الفيلسوف الإسرائيلى

يشوعيا هو لايبوفيتز



ماذا يعنى هذا الشعار ؟

بقلم : د . محمد عماره

« إسلامية المعرفة » .... أو « التأصيل الإسلامى للمعارف والعلوم » ...

شعار جديد ، عرفته حياتنا الفكرية والثقافية منذ سنوات .. وكأى شعار فكرى جديد ، فلقد قوبل بردود فعل متفاوتة ومتباينة، وأحيانا متناقضة .. تراوحت ما بين التأييد .. والحذر .. والحماس، غير الواعى ، له أو ضده ! ..

وإذا كان هذا الشعار الفكرى والثقافى جديدا ، وإذا كانت جدته قد طرحت ، فى الكثير من الأحيان ، علامات الاستفهام التى قامت من حوله ، فإن من الضرورى - لفهم أبعاده ومضامينه وخطره - البدء بالإشارة إلى حقيقتين .

الأولى : إن جدة هذا الشعار - «إسلامية المعرفة» - لا تعنى جدة المضمون الذى يعبر عنه ، ولا جدة القضية التى يطرحها على العقل العربى والمسلم المعاصر .. فإسلامية المعرفة - كما ستقيم الدليل عليها هذه الدراسة - هى مهمة فكرية ، ورسالة ثقافية عرفتها حضارتنا منذ ظهور الإسلام . وأول كتاب عرض لهذه القضية ، فى تاريخنا الحضارى ، هو القرآن الكريم . **فشعار « إسلامية المعرفة » يوحى بالموقف الفكرى القائل بقيام علاقة ما بين الإسلام وبين المعارف الإنسانية ..** وهذه هى المهمة الفكرية والرسالة الثقافية التى عرفتها حضارتنا الإسلامية منذ ميلادها وتبلورها ، والتى قدمتها بديلا



إسلاميا فى المعرفة للنموذج المادى فى المعرفة ، الذى كان معروفا وسائدا فى حضارات أخرى ، غير الحضارة العربية الإسلامية ، قبل وعند ظهور الإسلام .

ولذلك ، فإننا نأمل أن تكون الإشارات التى تقدمها هذه الدراسة لتاريخ مضمون هذا الشعار – **علاقة الإسلام الدين بالمعارف الإنسانية** – فى تاريخنا الحضارى والفكرى والثقافى ، شاهدا على أن جدة الشعار لا تعنى جدة مضمونه ، فضلا عن أن تعنى أنه « بدعة فكرية » ! .. لأنه ، فى حقيقته ، مسلمة من المسلمات الفكرية الراسخة فى علوم حضارة الإسلام .

والثانية : من الحقائق ، التى نشير إليها الآن ، هى أن جدة هذا الشعار قد أثارت – وهذا طبيعى أحيانا – ردود أفعال متباينة تجاهه :

★ فهناك – غير الذين ينكرون ويستنكرون – بوعى أن تكون للإسلام علاقة – أية علاقة – بأى من معارف وعلوم المدنية والحضارة والحياة – .. هناك – غير هؤلاء – الذين نفهم موقفهم – ولابد أن نحاورهم – هناك الذين ينكرونه لجهلهم بحقيقة مراميه ومقاصده .

وهناك الذين يظلمون هذا الشعار – «إسلامية المعرفة» – عندما يرفعونه ، ويستخدمونه ، مع جهلهم بحقيقة ما يعنيه ! .. فيسيئون إليه أشد من إساءة العقلاء من أعدائه ، لأنهم يقدمون «الحجج» السلبية التى يستفيد منها هؤلاء الأعداء؟!.

إن ساحتنا الفكرية والثقافية ، تشهد – فى مواجهة هذا الشعار ، الذى يطرح قضية : **قيام علاقة بين الإسلام والدين وبين المعارف الإنسانية .. وطبيعة ومدى هذه العلاقة ؟** .. تشهد ساحتنا الفكرية ، فى مواجهة هذا الشعار ، مواقف .. وردود أفعال ...

★ فمن الناس من يظن أن « إسلامية المعرفة » هى « كهانة - كنيسية » جديدة ، فى دوائر المعرفة .. تريد أن تجعل من علوم ومعارف الحياة ، المدنية والحضارية ، «دينا خالصا» ، فتقدسها قدسية الدين ، وتثبتها ثبات الدين .. فهى حجر جديد على الاجتهاد فى علوم الحياة ، وتجميد لها جمودا يحول بينها وبين التطور والتغيير .

وبهـذا الفهـم للقضـية ، نراهـم يناصبونها العداء ، مخافة أن تعيد ، من جديد ، السيرة الأولى للكنيسة الأوروبية مع العلم والعلماء ! ..

★ ومن الناس من يحسب أن إسلامية المعرفة إنما تعنى فصالا تاما وكاملا مع العلوم والمعارف الإنسانية .. الاجتماعية منها والطبيعية - التى أبدعها الـ[illegible] الإنسانى فى الحضارات غير الإسلامية .. فهذه معرفة « إسلامية » .. وتلك «كافر[illegible]» .. والفصال كامل ، والخصام تام بين الـ[illegible] والإسلام ! ..

فهم يخشون أن يفضى أمر إسلامية المعرفة بنا إلى قطيعة مع ثمرات العقل غير المسلم فى المعارف والعلوم . فنزداد عزلة ونوغل فى الانغلاق ، اللذين يفضيان بنا إلى الذبول والانقراض ! ..

★ رسالة فكرية جليلة ★

★ ومن الناس من توهم أن إسلامية المعرفة لا تعنى ولا تكلف ولا تقتضى أكثر من إضافة بعض من آيات القرآن الكريم ومن الأحاديث النبوية الشريفة إلى مناهج وحقائق وقوانين العلوم التى أبدعتها مدارس الفكر الغربى - الإنسانية منها والطبيعية - .. فكما نستعين باكتشافات العلم الغربى على اكتشاف الإعجاز العلمى فى آيات القرآن الكريم ، نستطيع أن نستعين باكتشافات القرآن الكريم لإخفاء «الإسلامية» على هذا العلم الغربى .. «فالمنتج» غربى ، وما علينا إلا أن نذكر عليه اسم الله ! .. وكفى الله عقولهم «شر» الاجتهاد والإبداع !؟ .

★ لكن هناك - غير هؤلاء جميعا - من يتحفظون على جميع هذه المواقف والرؤى .. ويرون أن إسلامية المعرفة ، وإن تكن شعارا جديدا ، إلا أنه يعبر ، برأيهم ، عن رسالة فكرية جليلة ومهمة ثقافية ثقيلة الحمل ! .. تمثل واحدة من السمات الثوابت والقسمات الأصيلة فى حضارتنا الإسلامية منذ ظهر الإسلام .

وللبرهنة على ذلك .. كان لابد من ضبط وتفسير المصطلح والشعار - إسلامية المعرفة - لتبيان المقاصد ، وتبديد الغموض .. ليؤيد من يؤيد عن بينة .. ويعارض من يعارض عن بينة .. ويقلع الذين يمتهنون القضية عن هذا الذى يفعلون ! ..

ولابد كذلك ، من وضع القضية فى مكانها وإطارها الطبيعى والصحيح .. كبديل إسلامى ، ومذهب إسلامى فى المعرفة ، يقابل ويخالف المذاهب المادية والوضعية والحسية فى المعرفة .. وإقامة الدليل على أن هذا هو مكان وخطر هذه

القضية .. كانت البديل الإسلامى فى المعرفة ، الذى واجه به القرآن الكريم مذاهب الشرك فى المعرفة المادية : وكانت البديل الإسلامى فى المعرفة الذى واجه به فكرنا الإسلامى المبكر مذاهب الديانات الوضعية فى المعرفة «الحسية - التجريبية»، عندما رأتها هذه المذاهب مصدرا وحيدا لمعارف الإنسان .. فكانت هى - إسلامية المعرفة - « مقالات الإسلاميين » - فى المعرفة الإنسانية - التى واجهوا بها «مقالات غير الإسلاميين» - فى هذا الميدان - ! ..

كانت كذلك ، فى النشأة ، وفى التطور .. كما هى الآن ، عندما يطرحها هذا الشعار الجديد ! - إسلامية المعرفة - ليواجه بها مذاهب الحضارة الغربية فى المعرفة .. المادية منها .. والوضعية .. والتجريبية .. والوضعية المنطقية .. والسلوكية .. وغيرها من المذاهب التى تشترك فى نفى العلاقة بين «كتاب الوحى» - الدين - وبين « كتاب الوجود » - المُدْرَك بحواس الإنسان - ..

★ ★ ★

وإذا كان هذا هو مكان القضية ومقامها فى المنظور الإسلامى .. التاريخى والمعاصر .. فإن المنهج العلمى لتناولها يفرض علينا أن نبدأ بالتعريف والضبط لمصطلحاتها ، حتى ندخل إلى رحابها على هدى وأساس سليم ومتين .

فماذا تعنى مصطلحات هذا الشعار؟..

★ إن « الإسلامية » ، هى النسبة إلى الإسلام .. وإذا كان الإسلام - لغة - هو الخضوع والانقياد لما أخبر به الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، من البلاغ الإلهى ، المتمثل فى القرآن الكريم ، ومن البيان النبوى ، المتمثل فى السنة النبوية الصحيحة.. فإن الإسلام - فى الاصطلاح - هو الدين ، الذى وضعه الله ، سبحانه وتعالى لعباده (إن الدين عند الله الإسلام) - آل عمران : ١٩ - .. فهو : وضع إلهى ، يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، من البلاغ الإلهى ، والبيان النبوى .

فالإسلام - فى الاصطلاح - هو : الوضع الإلهى .. - وفى اللغة - هو : الانقياد لهذا الوضع الإلهى .. أى الانقياد لله ، ولما جاء من الشرائع والأحكام ، التى تلقيناها عن رسول الله .. **ومن ثم فإن «الإسلامية» ، هى النسبة إلى هذا الدين ، الذى وضعه الله ، أى إقامة العلاقة مع الوحى ونبأ السماء .. هذا عن «الإسلامية»** .

★ أما « المعرفة » ، فإنها : خلاف الإنكار .. وإدراك الأشياء وتصورها .. **فهى : العلم الكسبى ، الخاص بالبسيط والجزئى ، والذى فيه إدراك وتصور** - وتلك صفات وجهود بشرية إنسانية ....

وعندما يراد « بالعلم » : الاعتقاد الجازم المطابق للواقع .. أو : إدراك الشئ على ما هو به .. أو : حصول صورة الشئ فى العقل .. فإنه - وفق هذه التعريفات - يكون مرادفاً «للمعرفة» ، لاشتراكه معها فى كونه كسبيا ، معتمدا على الإدراك والتصور .. وخاصا بالبسيط وبالجزئيات .

أما عندما يكون « العلم » : صفة للإحاطة بالكليات والجزئيات جميعا ، على نحو يكون فيه العلم علة وسببا للموجود والمعلوم - وليس معلولا لهما - وغير متوقف على الإدراك والتصور - وأمثالهما من الخصائص البشرية الإنسانية .. فذلك هو العلم الإلهى ، المفارق «للمعرفة» .. لأن علم الإنسان ومعرفته معلولة ومُسَبَّبَة عن الموجود ، وليست سببا وعلة لوجود هذا الموجود .

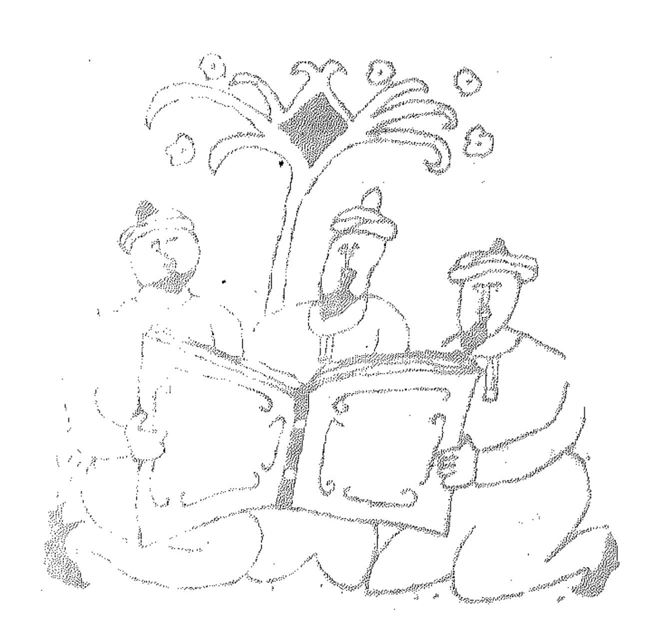
فالعلم : منه الكسبى - المرادف للمعرفة - ومنه غير الكسبى - وهو العلم الإلهى .. ولا يسمى معرفة .. لأن المعرفة كسب ، بالإدراك والتصور ، فى نطاق البسيط والجزئى .. وليس هكذا علم الله ، غير الكسبى ، والمحيط بالكليات والجزئيات.

فكل « معرفة » هى « علم » .. وليس كل « علم » هو بالضرورة « معرفة » .. والله سبحانه وتعالى ، عالم .. ولا يوصف بالعارف .. اما الإنسان فإنه عالم وعارف، بهذا المعنى الكسبى والنسبى والجزئى ، الذى حددناه .

وفيما هو بسيط .. يقال : علمته .. وعرفته .. ولا يقال علمته فيما لا يحاط به ، لخروجه عن البسيط .. ولذلك يقال : عرفت الله .. ولا يقال : علمته ! .. لأن المعرفة تقال فيما يُدْرَك بآثاره ، ولا تُدْرَك ذاته وهويته وحقيقته .

★ فعل القلب وكسبه ★

ولارتباط المعرفة بالكسب وبالواسطة - أدوات الإدراك والتصور - كانت خاصية إنسانية .. ويشهد على هذا قول رسول الله، صلى الله عليه وسلم : « أنا أعلمكم بالله ، **وإن المعرفة فعل القلب** ، لقوله تعالى : (... ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) .. » - البقرة : ٢٢٥ - رواه البخارى .



فالقرآن والسنة قد حددا أن «المعرفة» : فعل القلب وكسبه - أما « علم » الرسول بالله - الذى أشار إليه الحديث - فهو « وحى » وليس « كسبا » .. ومن هنا سمى « علما » ! ..

أى أن هناك بين « المعرفة » و « العلم » خصوصا وعموما ..

فالمعرفة إنسانية ، لأنها كسبية ، وبالوسائط ، وخاصة بالبسيط والجزئى ، وما يُدْرَك بآثاره ، ولا يُدْرَك كنه ذاته .. وتلك من سمات وخصائص وحدود الإنسان .. أما العلم فإنه أعم من المعرفة ، إذ فيه الكسبى ، الواقف عند البسيط والجزئى - وهذا هو العلم الإنسانى - الذى هو معرفة إنسانية .. وفيه ، كذلك ، العلم غير الكسبى ، علم ما هو مركب ، العلم المحيط، والكلى ، والمُسَبِّب للموجودات ، وليس المنعكس عنها .. وهذا هو علم الله ، سبحانه وتعالى .

ولذلك ، فإن «الوحى» ، رغم بلوغه لنا عن طريق الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، هو «علم» ، لا « معرفة » ، لأنه تنزيل الله، وبلاغ الرسول ، ولا كسب فيه من الرسول ولا اكتساب .. أما فهمنا له ، فهو علمنا به ومعرفتنا له ، بالكسب والاكتساب ! .. فالعلوم الشرعية فيها « علم إلهى » - هو البلاغ القرآنى وبيانه النبوى - وفيها « معرفة إنسانية » - هى اجتهادات المجتهدين وفقه الفقهاء فى البلاغ القرآنى والبيان النبوى.

هذا عن الضبط والتعريف والتفسير لمصطلحات الشعار .. شعار « إسلامية المعرفة » .. فمعناه إذن : **العلاقة بين الإسلام وبين المعرفة .. أى الصلة بين « كتاب الوحى » - القرآن الكريم - وبيانه النبوى - وبين «كتاب الوجود» - ومعارف الإنسان فى علوم الوجود - الإنسانية منها والطبيعية - ..**

فهى - « إسلامية المعرفة » - إذن : المذهب القائل بوجود علاقة بين الإسلام وبين المعارف الإنسانية ، والرافض لجعل «الواقع والوجود» وحده المصدر الوحيد للعلم الإنسانى والمعرفة الإنسانية .. هى المذهب الذى يقيم المعرفة الإنسانية على ساقين اثنتين : «الوحى» - وعلومه - و«الكون» - و علومه - .. وليس على ساق واحدة هى « الوجود » .

ولذلك ، كان تميز هذا المذهب فى المعرفة ، أيضا ، باعتماد كل أدوات وسبل المعرفة ، المناسبة لإدراك حقائق ومعارف كل من المصدرين .. وليس ، فقط ، اعتماد الحواس - وتجاربها - لأنها إن نهضت بمهام الإدراك لحقائق «الوجود» و « عالم

الشــهادة » ، فلن تفى بإدراك حقــائق وتصورات «كتاب الوحى» و «عالم الغيب» .

★ ★ ★

وإذا كانت المعارف والعلوم منها ما هو «إلهى - شرعى» ، ومنها ما هو : «بشرى .. ومدنى .. وحضارى .. ودنيوى » .. فإن هذا التقسيم لا يعنى « الفصل » التام بين « الإلهى - الشرعى » وبين «البشرى - المدنى» .. وإنما يعنى « التمييز » فقط ، بين العلوم والمعارف التى « موضوعها : الوحى - القرآن - وبيانه - السنة » .. فهى : إســلامية الموضــوع والمصــدر والمنطلقات والمقاصد والغايات .. وفيها من « المـدنى » : اجتهـادات المجتهـدين وفقه الفقهاء فى فهم الوحى وبيانه ، وبذلهم الوسع واستفراغهم الجهد فى استنباط الجزئيات من الكليات .. وفى تقعيد ذلك علوما لها هندسة العلوم ! ..

«**التمييز**» - وليس «**الفصل**» التام - بين هذه العلوم «الشرعية» وبين العلوم المدنية البشرية «الحضارية» - الإنسانية منها والطبيعية - ، والتى موضوعها «الكون - مادته .. وظواهره .. وطاقاته .. و«النفس الإنسانية » - فى ذاتها .. واجتمــاعها .. وعلاقاتها - .. فموضوعات هذه العلوم «المدنية» ومنطلقاتها ليست «الوحى والدين»، وإنما هى «الكون والإنسان والاجتماع الإنسانى » ..

وإذا كانت العــلوم والمعــارف «الإلهيــة الشــرعية » هى إســلامية الموضوع والكليــات والمنطلقات .. وفيهــا من « المدنى » اجتهــادات المجتهــدين وفقــه الفقهــاء فى الفروع والجزئيات وفى التقعيد .. فإن عــلوم « الكــون » ومعارفه «بشــرية - مــدنيــة » الموضــوع والكليات والمنطلقات . وإسلاميتها إنمــا تعنى إيجــاد أو اكتشــاف العلاقة بينها وبين السنن الإلهية ، التى جــاء بها الوحى ، فى الكون والإنســان والاجتمــاع .. وكذلك توظيــف هذه العــلوم والمعارف - عن طريق أســلمة فلســفتها - لتحقيــق المقاصــد والغــايات الشــرعية التى حــددها الوحــى « حكمـــة » لخلق الله ، سبحانه وتعالى ، الكون والإنسان ! ..

فعــــلاقة « كتــاب الوحى : الإسلام » بالمعارف قائمة - أو يجب أن تقــوم - فى كل أنواع المعــارف والعــلوم .. لكن المدى المحقق « للإســـلامية » فى هذه المعارف والعلــوم يتفاوت « كما » و « كيفــا » ، فى «الإلـــهى - الشرعى » منها عنه فى « البشرى - المــدنى » .. كما يتفــاوت فى «الإنســـانى - الاجتمــاعى » منها عنه فى «الطبيعى» .

لغـويـات

● فى ليالى رمضان يُكثر المسلون مــن «التسابيح» .. والتسبيح هو التنزيه، فيقول الرجل :

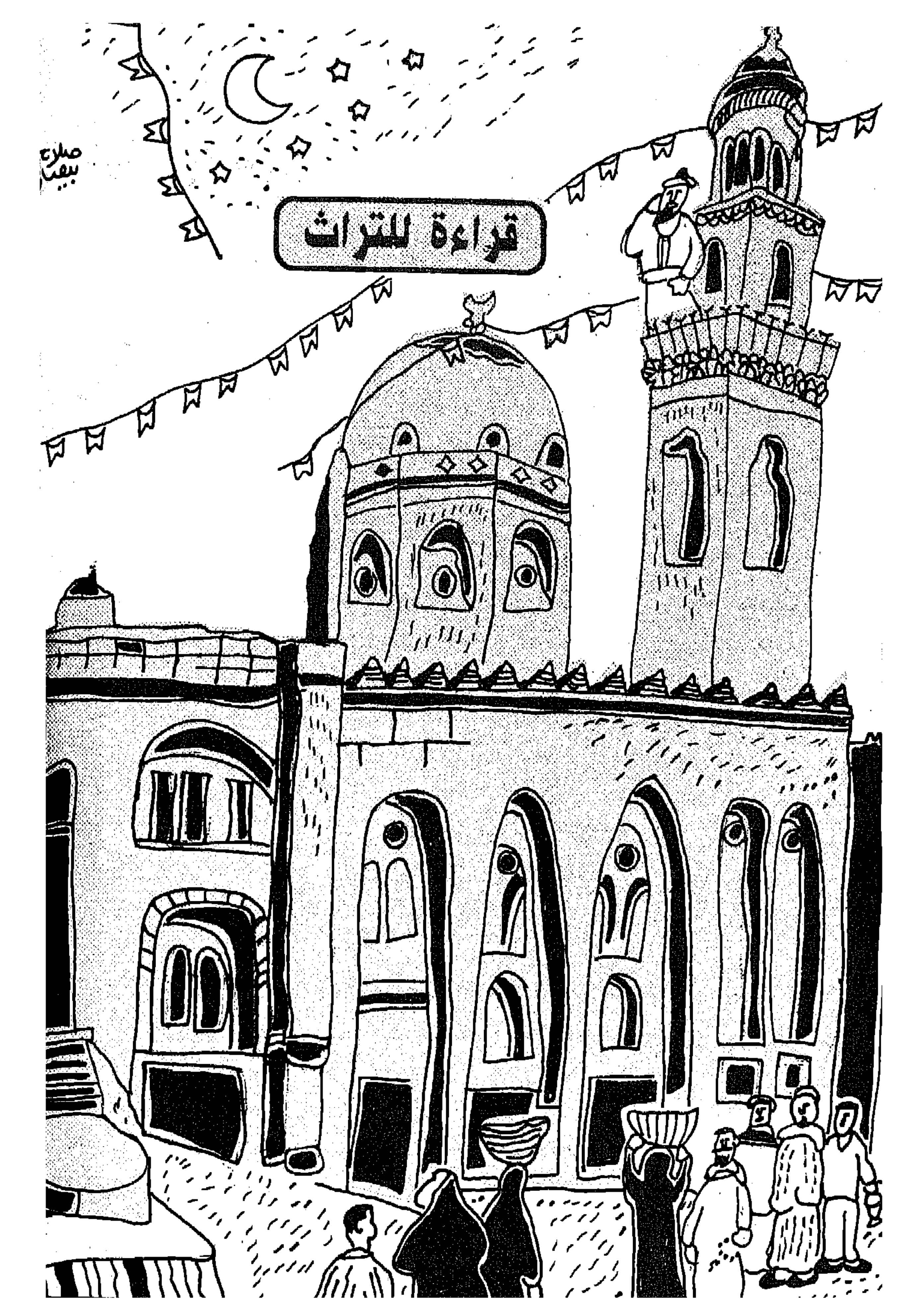
سبحان الله .. أى تنزيهاً له عن النقص ومشابهة المخلوقين ، فليس كمثله شئ» ..

● يجمع بعضهم كلمة «سحاب» على «سحب» فيقولون : «سحاب ثقيل» و «سحب ثقال» .. والحقيقة أن «السحاب» جمع «سحابة» .. وفى سورة الأعراف – الآية ٥٧ – «.. حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالا سقناه لبلد ميت» .. أى سحبا مثقلة بالماء .. وقد أفرد الضمير فى «سقناه» باعتبار اللفظ ، فمن أفرد كلمة «سحاب» مثل كلمة «سحابة» لم يخطئ ، ومن استعملها جمعاً أصاب .. وفى اللغة سعة .

● فى ليالى رمضان ينتظر الناس فى المساجد «قرآن الفجر» وقد سمعناه من الشيخين مصطفى إسماعيل والشعشاعى بمسجد الحسين فى الخمسينات كثيرا .. و «قرآن الفجر» هو «صلاة الصبح» سُميت كذلك لأن القرآن ركنها .. ولكن الناس تعارفوا على أن ما يتلوه القراء من القرآن قبل صلاة الفجر هو «قرآن الفجر» .. وأن الصلاة تأتى بعد قرآن الفجر ..

● يتوسعون فى استعمال كلمة «الملأ» فيقولون : تحدث فلان أو خطب على الملأ .. يقصدون «على جمع كبير من الناس» ، وأصل «الملأ» الرجال السادة الأشراف الذين يملأون العيون مهابة واحتراما .. والمفرد: أملاء .. وفى الآية ٢٠ من سورة القصص : «.. إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ..» .. والملأ هنا أشراف تلك المدينة المذكورة فى الآية ، وأولو السيادة فيها .. وليس الجمع الغفير من العامة وسواد الناس ..

● فى رمضان يكثر بعض الناس من أكل الفاكهة ، ويرددون الآية : «إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون» .. فيقول القائل : أى : يأكلون الفاكهة وينشغلون بها ! .. ولا شك أن الجنة كثيرة الفاكهة ، ولكن معنى «فاكهون» فى هذه الآية : متلذذون مسرورون .. ويقال : فكه يفكه ، أى يضحك من السرور وطيب النفس .. أما «الفاكهة» فقد جاءت فى الآية : «لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون» .. فهنا أكل الفاكهة ، وهناك السرور وطيب النفس والتلذذ بالنعيم ..



قراءة للتراث

المئذنة والأذان في رمضان

بقلم : د . محمد رجب البيومى

لا أتحدث عن المئذنة من الناحية الفنية فكتب المساجد الأثرية التى ألفها المتخصصون قد أفاضت فى هذا المنحى إفاضة ممتعة، وهى حافلة بالرسوم التى تصور تدرج البناء المعمارى للمئذنة من عصر إلى عصر، كما توضح بكل دقة ما تنطق به الرسوم والنقوش والخطوط من دلالات حضارية ذات أثر بعيد فى تطور الهندسة المعمارية، إنما أريد أن أتحدث عن أثر المئذنة من الناحية الاجتماعية، وإذا كانت رسالتها الأولى هى إعلان الأذان للصلوات الخمس من مكان مرتفع عال ليبلغ أسماع القاصين فى جنبات الأرض، فإن الموسم الحافل لهذه الرسالة هو شهر رمضان، فتلبس المئذنة حلتها النورانية قبيل الغروب حتى مطلع الفجر، إذ تضاء المصابيح متألقة فى شرفاتها الزاهية، فتوحى للناظرين أجمل مشاعر البهجة، وتسلمهم إلى روحانية شفافة ترتفع بهم من نزوات الأرض إلى معارج السماء .

كانت المئذنة فى الريف والمدينة ذات رسالة أولى فى انتظام شعيرة الصيام ، وبخاصة فى الجيل الماضى قبل أن ينتشر المذياع فى القرى على النحو المتعارف اليوم ، بل قبل أن يوجد المذياع أصلاً ، إذ كان إعلان شهر رمضان فى القرية يبدأ من العاصمة الكبرى (القاهرة) منطلقا إلى مديريات الدولة عن طريق التليفون بعد تحقق الرؤية ، وإعلانها فى محفل عام تقيمه وزارة الأوقاف . فتقوم المديريات تليفونيا بإبلاغ المراكز ، وهى بدورها تبلغ القرى ، وهنا يأتى الدور الأول للمئذنة ، حيث توقد مصابيحها بمجرد وصول الإشارة التليفونية ، فيعرف الناس على الفور أن هلال رمضان قد بزغ ، وأن الليلة من ليالى الصيام ، وإذا كانت المئذنة ذات علو مرتفع فإن أنوارها المضيئة تظهر فى مسافات بعيدة ، بحيث يراها من يسكنون الحقول النائية عن القرية فيعرفون ابتداء الصيام ، ومنهم سكان العزب والكفور .

وفى غير شهر رمضان يمر الليل هادئا حتى يحين موعد الفجر فيصدح المؤذن بالتكبير، أما فى شهر رمضان فإن التسابيح تبدأ فى الهزيع الأول مرسلة من فوق المئذنة على ثلاث دفعات، ففى المرة الأولى يسبح المؤذن بحمد فالق الإصباح بعبارات محفوظة ، ذات سجع يساعد على توافق الأنغام ، وانبساط الأصوات ، ثم يسكت قدرا من الوقت لا يتجاوز عشر دقائق ريثما يستريح ، وتبدأ المرة الثانية بالاستغفار والتضرع ، والاستشفاع برسول الله ، ويعقبها سكوت قصير ، لتبدأ الفترة الثالثة بالصلوات والتسليم على رسول الله تمهيداً لأذان الفجر ، وقبل الأذان مباشرة تطفأ أنوار المئذنة ليعرف من لا يستطيعون سماع الأذان أن الصوم قد ابتدأ ، وعليهم أن يمسكوا عن الطعام والشراب ، وفى الأسبوع الأخير من رمضان تلغى فى الفترة الثانية والثالثة كلمات الاستغفار ليحل محلها مايسمى (بالتوحيش) وهو استشعار الوحشة لوداع شهر رمضان والبكاء على فراقه ، والتحسر على انقضاء مباهجه الروحية والمادية ، وإذا كان صوت الشيخ رقيقا نديا ، فإنه يثير مشاعر من يتهجدون بالمسجد فتتساقط دموعهم حنانا ، وكأنهم يودعون إنساناً يرتحل ، لا زمانا يمضى وسيعود .

هذا ما كان فى الريف منذ زمن ليس بالبعيد ، فقد أدركناه وشاهدناه رأى العين أطفالاً نفرح بالشهر الكريم ، ونتجمع حول المئذنة قبل الغروب بساعة أو أكثر ، ننتظر سماع الأذان ، فإذا انطلق التكبير ، هرولنا إلى المنازل فى سرعة عاجلة ؛ لنشارك فى تناول الطعام ، وإن لم نكن من الصائمين. أما المئذنة فى القاهرة ، وهى

ليست مئذنة واحدة، بل تتجاوز العد ، فإن لها عرفا تقليديا يلتزمه المؤذنون وكأنه دستور لا يقبل التعديل ، وقد تحدث عن هذا العرف المتعارف الكاتب الاجتماعى الكبير الأستاذ عبد العزيز البشرى فقال إن جميع مؤذنى القاهرة كانوا يصعدون قبيل السحر ، ولا يبدءون التسبيح حتى ينطلق مؤذن مسجد الشيخ صالح أبو حديد بالنغمة التى يختارها ، فإذا جلجل مؤذن هذا المسجد بنغمة (الرصد)، مثلا، أسرع مؤذنو المساجد من حوله بترداد هذه النغمة، وهم ينقلوها بدورهم إلى مؤذنى المساجد القريبة، فلا تمضى دقائق معدودة إلا والقاهرة جميعها تجلجل بنغمة (الرصد)، فإذا غير مؤذن مسجد الشيخ صالح نغمة الرصد ، إلى البياتى أو الحجاز تابعه المؤذنون من خلفه ، وطبيعى أن يكون هذا المؤذن القائد أندى المؤذنين صوتا ، وأرقاهم مقاما فى الفن فهو منهم بمنزلة الأستاذ .

• المؤذنون والمطربون •

فى الربع الأخير من القرن الماضى والربع الأول من هذا القرن كانت الحواجز مرتفعة بين المؤذنين والمغنين ، فكلهم مطربون ، بل كان المطرب الكبير منهم يلقب بالشيخ ، الشيخ سلامة حجازى والشيخ سيد درويش ، والشيخ زكريا أحمد، لذلك كان الكبار من مطربى الأمس يشاركون فى الأذان الشرعى ويتخذون من رمضان موسما للابتهال ، وفيهم من يعلن عن المئذنة التى سيصدح فوقها فيتوافد المصلون إلى المسجد ارتقابا لصوته ، ولمحمد عبد الوهاب اسطوانات قديمة تحمل أنواعا من الابتهال الدينى مما تردده المآذن ، ولم يكن المسلمون وحدهم الذين يطربون لتواشيح رمضان بل كان يشاركهم كثير من المواطنين المسيحيين ، وقد تحدث الشاعر الكبير الأستاذ خليل مطران فى مقال نشره الدكتور محمد صبرى السوربونى فيما جمعه تحت عنوان (خليل مطران وأروع ما كتب) تحدث عن عبده الحامولى وإحيائه ليلة ساهرة من ليالى رمضان على مئذنة جامع الحسين ، فكان مما قال : «إن الخبر قد انتشر بين الناس بأن عبده الحامولى سينشد تسابيح دينية بعد أذان العشاء ، وما لبثت الإشاعة أن جالت جولة البرق بين الجماهير ، وفى الحى كله ، فلم يأزف وقت الأذان حتى كانت المقاهى وشرفات المنازل المجاورة ، والساحة الممتدة أمام المسجد ، تحتوى من الخلق ما لا يدرك البصر آخره ، وقد بدأ عبده إنشاده بصوت هادئ ينحدر إلى المسامع ، وفيه كل الوقار والخشية من الله، وكل الرجاء فى فضل الله ومغفرته ، وكان

يغالب العاطفة المتدفقة من قلبه ليتدرج فى إبرازها ، والجمهور فى أثر كل وقفة من وقفاته يملأ الجو تهليلا وتكبيرا .

يا لله رجل فى أعلى المنارة لا يبدو منه إلا شبح صغير ضئيل ، وهو الذى من أجله تتوافد هذه الجماهير، وكأنهم فقراء ينتظرون من محسن علوى تنزيل الأقوات ! لسان تتصل به نياط القلوب لتهتز بحكم نبراته أشهى الاهتزازات، ولتحلق على أجنحة صاعدة إلى السموات، نسمة تخرجها شفتان فتقسمها أرواح لا تحصى، وتتخذ منها غذاء من جوع، وريا من ظمأ» وكلام مطران هذا شعر تجرد من الوزن .

● عهد الكهرباء ●

كانت الفوانيس الرمضانية تملأ الشوارع منذ الغروب ، لأن ليل رمضان نهار ، فالناس ساهرون ، والمتاجر آهلة ، والشوارع مزدحمة ! فلابد إذن من الفوانيس يحملها الكبار والصغار معاً ، وتشرق بها المآذن والمساجد ، حتى إذا أطل عهد الكهرباء ضاءل من ازدهار المصابيح الزيتية ، ولكنه لم يمنع فرحة الأطفال بالفانوس ، فظلوا يشترونه إلى الآن ، كما ظل المسحراتى فى الريف يدق طبلته طيلة الليل ، وفى كل بيت مذياع يعلو، وتليفزيون يخبر بالوقت الدقيق ! وقد ينهمر المطر فى فصل الشتاء ، فلا يستطيع أن يطفئ الفوانيس المعلقة فى الحبال بين شارعين متوازيين، كما لا يستطيع أن يقيد خطو هذا المسحراتى مهما حمل من أوحال، لأن منطق الشعور، غير منطق العقل، وقد ورث الفتى اليافع فى زهوه، أحاسيس والده الكهل وجده الشيخ فابتهج لا شعوريا بما كانا يبتهجان به، ولا يزالان. ومما لا ينساه أهل الجيل الماضى من أبناء القاهرة احتفالهم الباهر بإضاءة مئذنتى القلعة ، لأنهما فى أعلى مكان بالمدينة . ومتى ظهرت أنوار المصابيح بهما تأكد القريب والبعيد أن نور الهلال قد أشرق ، وكان يقوم بالإضاءة فراش مدرب ورث مهنته عن أبيه وعن جده، لأن اختصاص عائلته بإضاءة مصابيح الزيت بأعلى المئذنتين قد جعل للوارث دربة خاصة يأخذها عن أبيه فى حياته ، لينهض بها من بعد على أكمل وجه ، وكان (عم حمزة) آخر هؤلاء المحظوظين بهذا التخصص الدقيق ، لأن المئذنة ضيقة من الداخل ، وتحتاج إلى فن ماهر يتقيد به من يصعد إلى الأعلى وفى يده اليمنى قسط الزيت ، وفى اليسرى مشعل يوقد به المصابيح وهى ذات كثرة فى طوابق مختلفة، وعليه أن يحرص كل الحرص حتى لا ينتقل لسان نارى من المشعل إلى قسط الزيت ، فيلتهب المكان الضيق ، ولا

يستطيع أحد أن يصعد لإنقاذ الفدائى المسكين ، وقد اعتاد أن يبدأ عمله من الطابق العلوى فما دونه إذ يواجه أدق المصاعب فى ابتداء نشاطه، والجمهور فى أسفل المئذنتين يتابع الرجل ويستعد لمشاهدته منذ العصر فى الليلة المرتقبة، فإذا اجتاز مهمته، دوى التصفيق، وخرج مزهوا يسلم على الحضور فى نشوة، ويظل حديث الإنارة مصدر متعة له طيلة العام، فهو يتحدث عمن قابل وشاهد من عفاريت المئذنة، وكلهم طيبون يعرفون أباه وجده لأن الجن ذو عمر طويل، وهم يقدمون له التحية ابتهاجا بمقدمه كل عام ، ويتواصون باحترامه ، ولكن سعادة عم حمزة لم تدم ، فقد فوجئ بالأسلاك الكهربائية تمتد إلى المئذنتين ، وسمع لأول مرة أن الأنوار فى الطابقين بكل مئذنة ستشرق فجأة فى وقت واحد بإدارة زر كهربى صغير فى مدى لحظة قصيرة ! إنه لا يصدق هذا ، فهو وحده الذى يكابد أعباء هذه الإضاءة ويتهيأ لها بعد صلاة العصر مباشرة ، فلا يكاد يفرغ حتى يحين أذان المغرب ، وقد فوجئ الجمهور بتجربة الكهرباء لأول مرة ، فكثر احتشاد الناس لرؤية هذا الحدث العلمى الخطير وعم حمزة غاضب ناقم يقول إن من المستحيل أن تضاء المئذنتان بدون أن يؤدى دوره ، فقد ورث الفن الدقيق عن بيت أصيل ، واستمد خبرة لا يعرفها سواه !

ولكن المفاجأة كانت أروع وأدهش ، حين رأى النور ينتشر فجأة دون أن يصعد أحد، وحين قيل له إن عمال الكهرباء قد اتقنوا هذا العمل السريع ، كذب وجابه ، وقرر أن عفاريت المئذنة وهو يعرفهم شخصيا ، وبينه وبينهم ما يشبه الصداقة قد انقلبوا عليه ، وأضاءوا المئذنتين لأنهم عفاريت !! وقد لطف الله به ، فلم ينقطع راتبه الشهرى من المسجد وكان جنيها مصريا يسعده ويرضيه حيث حول إلى عمل تنظيفى به ، ولكنه عاش قلقا ضجراً غير سعيد ، وكان يقول لمن يواسيه، ماذا صنعت مع الجن يا رب ! لقد كانوا أصدقاء الآباء والجدود، فكيف خاصمونى ؟ منهم لله !

• مأساة الزلزال •

شاهدنا فى أكتوبر الماضى هول الزلزال وروعته ، وقد لطف الله بهذه المآذن الشاهقة ، فلم يحدث بها من التدمير ما كان يحدث فى الزلازل الغابرة بمصر ، حيث كانت زلزلة أكتوبر أهون وقعا على المآذن من سابقاتها المتكررة فى عصر المماليك ، تلك التى استهدفت المآذن أول ما استهدفت ، فأحالت أكثرها إلى أنقاض ، وقد حكى المقريزى فى السلوك ، أن زلزلة سنة ٧٠٢ كانت بالغة العنف ، وقد هدمت

أكثر المساجد والمنازل وأصابت مآذن كثيرة بالدمار ، منها مئذنة الجامع الحاكمى ، ومئذنة المدرسة المنصورية ، ومئذنة جامع الظاهر ، ومئذنة جامع الصالح بباب زويلة وبعض جدران جامع عمرو بن العاص ، بل أحدثت الزلزلة شقوقا فى جبل المقطم نفسه، وهلك من جرائها خلق كثيرون، وظلت الزلزلة تعاود الناس قرابة عشرين يوما بعد هول اليوم الأول ـ ما أشبه الأمس باليوم ـ وخرج الناس من دورهم ليناموا فى الصحراء ثم أعقبت هذه الأهوال ريح سوداء لافحة لم يطقها أكثر الناس فأغمى على من لم يمت اختناقا ، وقد خرجت النساء من المنازل ساعة النكبة غير متسترات مع صياح مرعب يزيده تساقط الجدران وانهيار المآذن والقبب رعبا ، ثم فاض النيل وقذف ما فيه من السفن والمتاع، وانتهز اللصوص النكبة فسرقوا أثاث المنازل ، وتهدمت منارة الإسكندرية وفاض البحر على الأهالى ففروا فى رعب شديد .

هذا بعض ما كان ، ونحمد الله أن ما نزل بنا اليوم لا يقاس بكثير من أهوال الأمس ، ولكن المآذن – وهى موضوعنا الراهن – قد أعيد بناؤها على نحو سريع، ونشط الأمراء نشاطا جديا فى إصلاح ما فسد مبتدئين بدور العبادة ومدارس التعليم، وقد اختص كل أمير بمسجد ينهض بتعميره قدر ما يستطيع ، ونضرب المثل بما فعله الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، إذ أشرف بنفسه على ترميم مسجد الحاكم بأمر الله وبناء مئذنته ووقف عليه أحباسا جديدة لم تكن له من قبل ، ورتب فيه دروسا علمية للفقه على المذاهب الأربعة ، وأنشأ خزانة للكتب وأجرى الرواتب على القراء ومعلمى أطفال اليتامى بالمسجد. ثم حفر صهريجا بصحن الجامع يملأ كل عام من ماء النيل ، وتلك جهود جبارة ذات تضحية لا تنكر ، وقد حاول الأمراء أن يباروه فى صنعه بمساجد أخرى نيطت بهم من السلطان فسددوا وقاربوا ، وغلب الشعور الدينى ما عداه ، فتم الأمر على وجه حميد .

• مداعبات الشعراء •

لم تكن الزلازل وحدها مدعاة سقوط المآذن ، فقد تكون العجلة فى البناء ، وعدم إتمامه على وجهه المطلوب مدعاة هذا السقوط ، وسقوط المئذنة العالية ليس كسقوط جدار من منزل ، لأن أثرها المريع يمتد إلى تدمير ما تقع عليه من منازل بما فيها ومن فيها ، بل يدمر المسجد أول ما يدمر ، فتكون الخسارة فادحة ، وحين أنشأ السلطان حسن مسجده الشهير – ولا يزال إلى اليوم فى رونقه مواجهاً

مسجد الرفاعى بميدان القلعة – بذل من الأموال ما لا يعد ، وقد أشار ببناء أربع مآذن عالية ، لتقابل السائر فى كل اتجاه من الشرق والغرب والجنوب والشمال ، ولكن المئذنة الثالثة سقطت قبل بناء الرابعة، وبعد أيام من تمامها ، سقطت على مكتب يعلم أبناء الفقراء وأولاد اليتامى ، وفيه أكثر من ثلاثمائة طفل فانزعج الناس انزعاجا شديدا ، وتشاءموا بالمسجد ومناراته ، وتطاولوا فى أحاديثهم الخاصة حين رددوا أن السلطان جمع المال من حرام فلم يقبله الله ، وهى إشاعة بلغت مسامع السلطان الناصر حسن بن قلاوون، فاكتأب لها كثيرا ، وأمر بصرف النظر عن إعادة المئذنة الثالثة وعن إقامة المئذنة الرابعة مكتفيا بالاثنتين الباقيتين للآن ! ومن الطرائف أن الشيخ بهاء الدين السبكى أراد أن يرفه عن السلطان بعض أساه فى هذا الحادث ، فنظم أبياتا يزعم فيها أن المئذنة قد استمعت إلى صوت القرآن من تلاميذ المكتب ، فخرت خاشعة ، لأن الله يقول : لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ! وهو خيال واهم يتضح فى قوله عن المئذنة الساقطة :

من تحتها قرئ القرآن فاستمعت
فالوجد فى الحال أداها إلى الميل
لو أنزل الله قرآنا على جبل
تصدعت رأسه من شدة الوجل
تلك الحجارة لم تنقض بل هبطت
من خشية الله ، لا للضعف والخلل

وهو تكلف ما كان أحراه بالابتعاد عنه ! أما الطريف فى هذا الباب حقا ، فهو اتهام الحافظ بن حجر فى شعر له لزميله المحدث بدر الدين العينى بأنه حسد مئذنة جامع المؤيد ، فهوت صريعة الحسد، وكان البدر العينى يقرأ الدرس بجامع المؤيد ، فساءه أن يكون موضع الاتهام ، فرد على الحافظ بشعر مماثل ينص على أن البناء قد انقض لخسة الحجر ، ولا نطيل بذكر ما قيل .

هذا وقد كان من المتعارف بين الناس أن يدوى صوت التسبيح من المئذنة فى غير وقت الصلاة ، إذا مات كبير من العلماء والوجهاء ليتعالم الناس منعاه ، فكان بعض الأثرياء يرصدون الأوقاف على مآذن يختارونها ، ويشترطون أن تعلن وفاتهم عليها حين يحين الأجل الموعود ، وقد ظلت هذه العادة ذائعة إلى أقرب عهد عرفناه ، وأذكر أن مآذن دمياط جميعها وهى مدينة عامرة بدور العبادة قد ردد المؤذنون عليها منعى زعيمها الراحل عبد الحليم العلايلى، وكان ذا مكان مرموق فى دمياط وخارجها، وإلى ذلك يشير حافظ ابراهيم بقوله فى رثائه :

برغم الثغر أن غيبت عنه
وأن نزلت بساحتك المنون
أقام النادبات بكل دار
وكبر فى مآذنه الأذين

إقراء القرآن بمصر

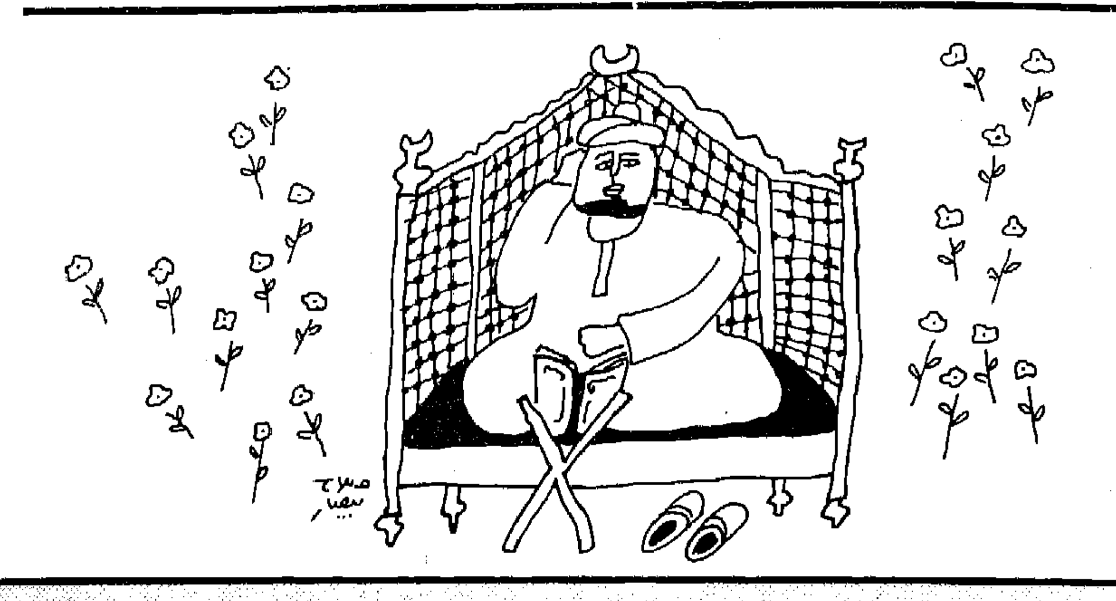
بقلم : د . محمود الطناحى

فى عدد يوليو ١٩٩٢ م من « الهلال » كتبت كلمة عن «الشيخ مصطفى إسماعيل وقراء مصر» جعلتها تحيّة وصِلة لكتاب أستاذنا الكبير الناقد الشاعر كمال النجمى ، عن الشيخ مصطفى إسماعيل ، رحمه الله .

والحديث عن قراءة القرآن وإقرائه بمصر ، لابدّ فيه من التفرقة بين «القارئ» و «المقرئ» ومعروف أن لمصر فى الفريقين تاريخا عريضا وأياما زاهية .

فالقارئ : هو الذى يقرأ لنفسه وقد يسمعه غيره ، والمقرئ : هو الذى يُقرئ غيره ، تعليماً وتوجيهاً ، وتقول اللغة : «رجلٌ قارئٌ ، من قوم قُرَّاء وقرأة - بوزن فَعَلَة - وقارئِين . وأقرأ غيرَه يُقرئه إقراءً ، ومنه قيل : فلانٌ المقرئُ» . وبهذه التفرقة بين الفعل اللازم والفعل المتعدّى يحسُن أن نقول عن الذى يقرأ بصوتٍ حسَنٍ فى المناسبات وفى الإذاعة ، كالشيخ مصطفى إسماعيل ومَن إليه : قارئ ، ونقول عن الذى يحفّظ الصغار فى الكتاتيب وجماعات تحفيظ القرآن : مقرئ . على أنه قد يجتمع الفريقان فى جمع التكسير ، فيقال : « القُرَّاء » لمن يقرأ ولمن يُقرئ ، وعلى هذا سمّى الحافظ الذهبىّ كتابه «معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار» وابن الجزرى كتابه « غاية النهاية فى اختصار طبقات القراء » .

على أن « للمقرئ » فى تاريخنا التراثىّ معنىً أوسع وأشمل من مجرّد تحفيظ القرآن للصغار ومَن فوقهم . فالمقرئ : هو ذلك العالم الذى يعرف



القراءات القرآنية : روايةً ودراية ، بحيث يكون قادراً على جَمْع الطرق والروايات ، ومعــرفة وجــوه الخــلاف بين القرّاء ، والاحتجاج للقراءات وتوجيهها من لغة العرب ، ويكون أيضاً متقنا لطرق الأداء – وهو مايُعرف الآن بعلم التجويد – ووقوف القرآن : الكافي منها والتامّ والحسَن ، ثمّ يتلقّى الناسُ عنه ذلك كلَّه مشافهةً وسماعاً . وقد نبغ فى كلّ زمان ومكان من قاموا بهذا الأمر على خير وجــه ، فضــلاً من الله وحياطةً لكتابه وحفظاً له . ولم يكن لمصر علَى سواها من الدول العربية والإسلامية فضلٌ وزيادة ، فهو رزق الله المقسَّم على خلقه شرقاً وغرباً ، ليتمّ وعده (إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون) (ولقد يسَّرنا القرآن للذكر) لكنّ الأمر كاد يخلص لمصر فى القرنين الأخيرين ، فتربّع قراؤها على عرش الإقـراء والقـراءة : رواية ودراية وجمال صوت ، وصارت الرحلة إليهم من الشرق ومن الغرب ، ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة ذكرتها فى مقالتى عن « الشيخ مصطفى إسماعيل » .

ويذكر التاريخ أسماءً عظيمة لمعت فى سـماء مصر فى القـرنين الأخيـرين ، وخدمت كتاب الله إقراءً وتأليفاً . ومنهم الشيخ محمد أحمد المتولّى المتوفى سنة ١٣١٣ هـ = ١٨٩٥ م والشيخ محمد مكى نصر المتوفى بعد سنة ١٣٠٨ هـ ، وهو صاحب أعظم كتاب فى طرق الأداء وصفات الحروف ومخارجها « نهاية القول المفيد فى علم التجويد » ، والشيخ على محمد الضبّاع المتوفى سنة ١٣٨٠ هـ = ١٩٦١ م . ومن المعاصرين : الشيخ المقرئ العالم عبد الفتاح عبد الغنى القاضى المتوفى سنة ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٢ م ، والشيخ إبراهيم على شحاته المقيم الآن بسَمَنُّود ، والشيخ أحمد عبد العزيز أحمد محمد الزيات ، الأستاذ بكلية القرآن



الشيخ مصطفى إسماعيل



الشيخ عبد الباسط

بالمدينة النبوية الآن . ويقال : إن الشيخ الزيات هو أعلى القراء الآن إسناداً (وعلوّ الإسناد معناه قلَّة الوسائط بين القارئ الآن ، وبين القارئ الأول ، وهو المصطفى صلى الله عليه وسلم بما نزل به جبريل عليه السلام ، عن رب العزّة والجلال) .

* الشيخ عامر عثمان *

ويقف سيّدى وشيخى الشيخ عامر السيد عثمان بين هؤلاء الكوكبة من القرّاء المعاصرين فى مكان ضخم بارز ، فهو أكثرهم إقراءً للناس ، واتصالاً بهم ، وتأثيراً فيهم . وقد عرفتهُ منذ عشرين عاماً قبل وفاته حين بدأ العمل فى تحقيق كتاب « لطائف الإشارات فى علم القراءات » لشهاب الدين القسطلاّنى، شارح البخارى، المتوفى سنة ٩٢٣ هـ ، بالاشتراك مع الدكتور عبد الصبور شاهين . وكان الشيخ يتردَّد على دار الكتب المصرية ومعهد المخطوطات - وكنت يومئذ أعمل به - فشدَّنى إليه ، ورغَّبنى فيه ، ودعانى إلى حلقته العامرة الممتدة على أيام الأسبوع كلّه ، فوقفت منه على علمٍ غزير جمّ ، وتمثلتُ فيه وبه هذه الأوصاف الضافية التى تأتى فى كتب التراجم والطبقات ، ويظنها من لا علم عنده بتاريخ الأمة ، وأحوال الرجال ، من المبالغات والتهاويل التى يغصّ بها تاريخنا ... زعموا ! نعم رأيت فى هذا الشيخ الجليل كثيراً مما كنت أقرأه فى طبقات القرّاء والمحدّثين والفقهاء والأدباء : من سَعة الرواية ، وكثرة الحفظ ، وجمع الطرق ، ودقة الضبط ، وتحرير الرواية وحُسن الإتقان .

وُلد شيخنا الشيخ عامر ، رحمه الله ، بقرية « ملامس » مركز منيا القمح ، محافظة الشرقية ، فى ١٦ مايو سنة ١٩٠٠ م . وحفظ القرآن الكريم بمكتب الشيخ عطية سلامة ، وأتمّه ولم يتجاوز التاسعة من عمره ، ثم أرسله والده إلى المسجد الأحمدى بطنطا ، وتلقّى القرآن بقراءة الإمام نافع المدنى ، من فم عالم القراءات الشيخ السُّعودى . وقد أُوتى الشيخ عامر فى صباه حظاً من حُسن الصوت أهَّله لأن يكون قارئاً مرموقاً بمحافظة الشرقية ، يقرأ فى الليالى والمناسبات ، وهو طريق جالب للرزق الواسع والشهرة المستفيضة ، ولكنه عزف عن ذلك وولى وجهه شطر القاهرة ، حيث الأزهر الشريف ، وأئمة القراءة والإقراء .

وفى القاهرة أخذ فى القراءة والتلقى والمشافهة والعَرْض والسَّماع ، فتلقَّى

القــراءات العشر الصــغرى من طــريق الشاطبية والدرّة ، على الشيخ محمد غنيم، وهو على الشيخ حسن الجريسى الكبير ، وهو على العلاّمة المقرئ أحمد الدرّى التهامى ، وسنَدُه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، معروف .

ثم تلقّى القراءات العشر الكبرى على الشيخ على عبد الرحمن سبيع ، من أول القرآن إلى قوله تعالى فى سورة هود (وقال اركبوا فيها) ثم إن الشيخ علياً أرسل خلف الشيخ عامر يقول له : سوف نبدأ بعد ثلاثة أيام . فقــال له الشــيخ عامر : كيف سنبدأ بعد ثلاثة أيام ياسيدى ونحن قد وصلنا إلى قوله تعالى : (وقال اركبوا فيها) ؟ فقال له الشــيخ على : «بعدين ح تعرف» ثم توفى الشيخ بعد ثلاثة أيام من هذا الكلام . وكان شيخنا الشيخ عامر إذا ذكر هذه القصة اغرورقت عيناه بالدموع ، ويقول : « فكان معنى كلام الشيخ على أن أيام الآخرة بالنسبة له ستبدأ بعد ثلاثة أيام » . وتوفى الشيخ على سبيع هذا سنة ١٩٢٧ م .

ثم إن الشيخ عامر شرع فى ختمة جديدة على تلميذ الشيخ على سبيع ، وهو الشيخ همام قطب ، فقرأ عليه ختمة كاملة بالقــراءات العشر الكبرى ، من طريق الطيّبة بالتحرير والإتقــان . وقرأ الشيخ همام على الشيخ على سبيع المذكور ، وهو على الشيخ حسن الجريسى الكبير ، وهو على الشيخ محمد المتولّى ، وهو على الشيخ أحمد الدرّى التهامى ، وسنده معروف .

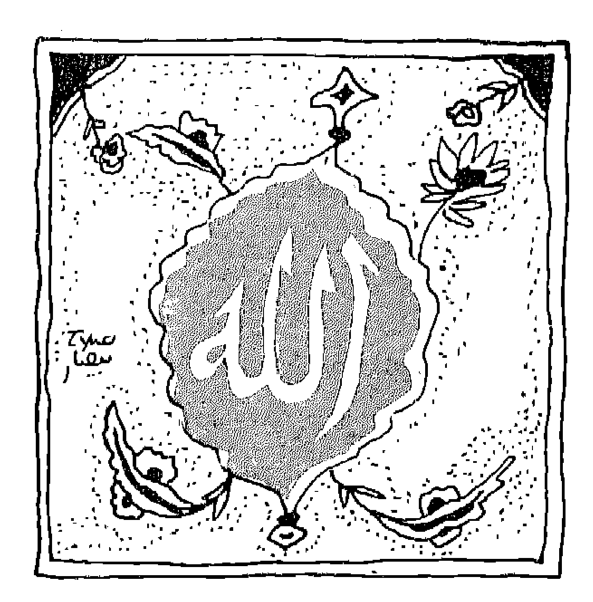
* حلقة للإقراء بالأزهر *

وهكذا عرف شيخنا الطريق ولزمه . وبعد أن رسخت قدمه فى هذا العلم ، رواية ودراية ، اتخذ لنفسه حلقةً بالجامع الأزهر سنة ١٩٣٥ للإقراء والتدريس ، وكان فى أثناء ذلك مكباً على مخطوطات القراءات بالمكتبة الأزهرية ودار الكتب المصرية ، يقرأ وينسخ ، فظهر نبوغه ولفت إليه الأنظار ، فاتصل به الشيخ على محمد الضّباع ، شيخ المقارئ المصرية يومئذ ، واستعان به فى تحقيقات القراءات العشر الكبرى .

وكان رحمــه الله حجةً فى رســم المصــحف الشريف ، وقد شــارك فى تصحيح ومراجعة كثير من المصاحف التى طبعت بمطــابع الحــلبى والشــمرلى ، والمطبعة الملكية فى عهد الملك فؤاد والملك فاروق رحمهما الله .

وحين أنشئ معهد القراءات تابعاً لكلية اللغــة العــربية بالأزهر الشريف ، ســنة ١٩٤٣م كان الشيخ على رأس مشايخه وأساتذته ، فتخرجت على يديه هذه الأجيال الكريمة من خَدَمة كتاب الله والعارفين بعلومه وقراءاته بمصر وخارج مصر .

ولما أنشأت مصر - غير مسبوقة - إذاعة القرآن الكريم سنة ١٩٦٣ م ، وقدّمت



من خلالها (المصحف المرتل) أشرف الشيخ على التسجيلات الأولي من هذا المشـــروع العظيـم ، وكانت بأصـــوات المشـــايخ : محمـود خليـل الحصرى ، ومصطفى إسماعيل ، ومحمد صديق المنشاوى ، وعبد الباسط عبد الصمد ، ومحمود على البنا ، رحمهم الله أجمعين .

وعلى ذكر الإذاعة فقد كان شيخنا عضواً بارزاً فى لجنة اختيار القراء ، وكان سيفاً بتَّاراً ، حازماً صارماً فى غربلة الأصوات وإجادتها ، ولم يكن يقبل الميوعة أو تجاوز الأصول فى القراءة والأداء ، وطالما اشتكى منه القراء ، ورموه بالتعسّف والتشدّد ، وضغطوا عليه بوسائل شتى ، ولكنه لم يلن ولم يضعف ، وكذلك كان يفعل فى لجنة اختيار القراء الذين ترسلهم وزارة الأوقاف المصرية إلى البلدان العربية والإسلامية فى شهر رمضـــان . وقد حُورِب كثيراً فى لجنة اختـيار القـراء بالإذاعة المصرية ، وطُلب إقصاؤه أكثر من مرَّة ، وكان الذى يقف وراءه مدافعاً ومنافحا : الشاعر الفحل محمـــود حســـن إســماعيل ، إذ كان مســتشاراً ثقافيا بالإذاعة المصرية ، رحمهما الله تعالى .

• مؤلفات الشيخ •

شُغل الشيخ رحمه الله بالإقراء أيامه كلّـها، فلم يجد وقتا متّسعا للتصنيف ، ولكن الله سبحانه يسَّر له أن يترك بعض الآثار العلمية فى فنّ القراءات ، حتى تكون باعثاً لمن يطالعها أن يدعو له بالمغفرة والرضوان . فممّــا يحضرنى الآن هذه التصانيف الآتية ، ولســت أدَّعى فيها الحصر : ١ - فتح القــدير شرح تنقيح التحرير (فى تحرير أوجه القراءات العشر من طريق الطيّبة) . ٢ - شرح على منظومة العلاَّمة الشيخ إبراهيم على شحاته السَّمنُّودى ، أبقاه الله ، فى تحرير طرق ابن كثير وشعبه . فرغ منه يوم الجمعة ٢٥ من صفر سنة ١٣٨٢ هـ . ٣ - تنقيح فتح الكريم فى تحرير أوجه القرآن العظيم ، بالاشتراك مع الشيخ إبراهيم على شحاته والشيخ أحمد عبد العزيز الزيات . وهو نظمٌ منقَّح من منظومة فتح الكريم فى تحرير أوجهِ القرآن العظيم ، للعلاّمة شيخ القراء فى وقته الشيخ محمد بن أحمد المتولى ، المذكور قبل . ٤ - كيف يُتلى

القرآن ، وهي رسالة موجزة محرَّرة في تجويد القرآن ، سمَّاها : إملاء ما من به الرحمن على عبده عامر بن السيّد عثمان في أحكام تلاوة القرآن . وقد أملاها على أحد تلاميذه الذين يحضرون مقارئه ، وهو الطبيب الجرّاح الدكتور حسني حجازى ، رحمه الله . وقد صدرت الطبعة الثانية من هذه الرسالة سنة ١٣٩٠ هـ = ١٩٧٠ م . ٥ - تحقيق الجزء الأول من كتاب « لطائف الإشارات » الذى ذكرته من قبل . صدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة عام ١٣٩٢ ، ولعل المجلس ينشط في طبع بقيّته . ٦ - أعان الأستاذ الدكتور شوقى ضيف في تحقيق كتاب « السبعة » لابن مجاهد ، الذى نشرته دار المعارف بمصر أول مرة سنة ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م . وذلك بمراجعة كتابة آياته الكريمة على هجاء المصاحف المصرية المضبوطة ، على ما يوافق رواية حفص عن عاصم ، والمطابقة لما رواه علماء الرسم عن هجاء المصاحف التى بعث بها عثمان رضى الله عنه إلى الأمصار الإسلامية . ٧ - وكانت آخر أعمال الشيخ مشاركته في لجنة طبع مصحف الملك فهد ابن عبد العزيز ، الذى صدر بالمدينة النبوية عام ١٤٠٥ هـ .

فهذا ما يحضرنى الآن مما تركه الشيخ من علمٍ مسطور مكتوب . أمّا أبقى أثر للشيخ وأخلده وأرجحه في موازينه إن شاء الله تعالى ، فهو تلك المقارئ التى جلس فيها جلوساً عاماً للناس ، وقد شغلت هذه المقارئ أيامه كلّها ، وأشهر هذه المقارئ مقرأة الإمام الشافعىّ يوم الجمعة ، وقد أسندت إليه مشيختها عام ١٩٤٧ م وكان عدد الذين يحضرونها من القرّاء الرسميّين أو المعتمدين من وزارة الأوقاف المصرية محدوداً جدًّا بجانب مختلف طوائف الناس التى كانت تحضر تلك المقرأة وغيرها من المقارئ ، فكنت ترى الطبيب والمهندس والضابط والمحامى والموظف والتاجر والحِرَفى ، والفتى الصغير ، والشاب اليَافع ، والشيخ الفاني ، مختلف الأعمار والمهن ، يتحلّقون حول الشيخ ؛ يقرأون ويُصَحِّح ، عيونهم مشدودة إلي شفتيه ، وهو يروضهم على النطق الصحيح ، يصبر على الضعيف حتى يقوى ، ويرفُق بالمتعثر حتى يستقيم ، لا يسأم ولا يملّ ، ولازلت أذكره - رحمه الله - وهو يروض بعض إخواننا على ترقيق اللام من قوله تعالى : (ربِّ إنهن أضللن) وكان عَسِراً على هذا الأخ أن يرقّق اللام بعد الضاد ، فكان شيخنا يقرأ أمامه (أضللن) على مقطعين هكذا : (أضْ) (لَلْن) ويكرِّر المقطعين منفردين ثم يقرأهما معاً حتى يخلص له الترقيق المراد . وكذلك لازلت أذكره وهو يروضنا على الخروج من التفخيم إلى الترقيق وبالعكس ، في قوله تعالى : (ولايشفعون إلا لمن ارتضى) فأنت هنا تفخّم الراء وإن كان قبلها كسر ؛ لأنه كسرٌ




عارض للتخلص من التقاء الساكنين ، ثم ترقق التاء وتعود إلى تفخيم الضاد . وهكذا كنت تقضى العجب وأنت تنظر إلى حركة فكّيه وشفتيه وجريان لسانه فى إعطاء كل حرف حقّه ومستحقّه : من الهمس والجهر والغُنة والإظهار والإخفاء والإقلاب والفكّ والإدغام ، وغير ذلك من دقائق الصّوتيات ، ممّا لا تستطيع معامل الأصوات أن تنقله بدقّة إلى الطالب لأن هذا العِلم – علم الأداء – قائمٌ على التلقّى والمشافهة . ولو كان لى من الأمر شئٌ لأتيت بشيخ من علماء القراءات فى كل قسم من أقسام اللغة العربية بجامعاتنا ليعمل على تدريب الطلبة على الأداء الصحيح والنطق السليم ، بجانب معامل الأصوات الحديثة . وهؤلاء المشايخ (الغلابة) لن يأخذوا من الأجر أكثر مما تستهلكه هذه المعامل من طاقة وكهرباء ، بل إنى أذهب إلى أبعد من هذا فى التمنّى: وهو أن يُعيَّن شيخ من هؤلاء القراء مشرفاً خارجياً مع المشرف الأكاديمى لكل رسالة علمية (ماجستير أو دكتوراه) تتصل بعلم القراءات من قريب أو بعيد .

ومن تفنُّن شيخنا فى مجال الأداء الصوتى : أنه كان يأخذنا إلى تفرقة دقيقة لطيفة ، فى الوقف على الراء من قوله تعالى : (فكيف كان عذابى ونذر) وقوله عز وجل : (كذبت ثمود بالنذر) فالراء فى الآية الأولى يستحسن أن يوقف عليها بترقيق لطيف يشعر بالياء المحذوفة ؛ لأن أصلها (ونُذُرِى) بإثبات ياء الإضافة ، وقرأ بها ورش بن سعيد المصرى ، عن نافع المدنى . ومن القــراء المعاصرين الذين ســمعتهم يراعون ذلك الترقيق اللطيف المشــايخ : محمــود خليــل الحصرى ، ومحمود حسين منصور ، ومحمود صديق المنشاوى .

أما الراء فى الآية الثانية فيوقف عليها بالتفخيم الخالص ؛ لأنها جمع نذير .

وأمّا « النَّبر» فى مصطلح علم اللغة الحديث – وهو النظام المقطعى فى قراءة الكلمة ، فقد كان الشيخ رحمه الله آيةً فيه ، وقد سألتُه عنه يوماً ، فقال لى : « إن القراء لم يذكروا هذا المصطلح ، ولكنه بهذه الصفة يمكن أن يُسمّى « التخليص » أى تخليص مقطع من مقطع » . وها أنا ذا أضع هذا المصطلح أمام علماء اللغة المحدثين ليروا فيه رأيهم ، ولعلهم يحلّونه محل « النبر » . وقد ســمعت لهــذا «التخليص» من الشيخ أمثلة كثيرة جداً ، أذكر منها قوله تعالى : (فسقى لهما ثم

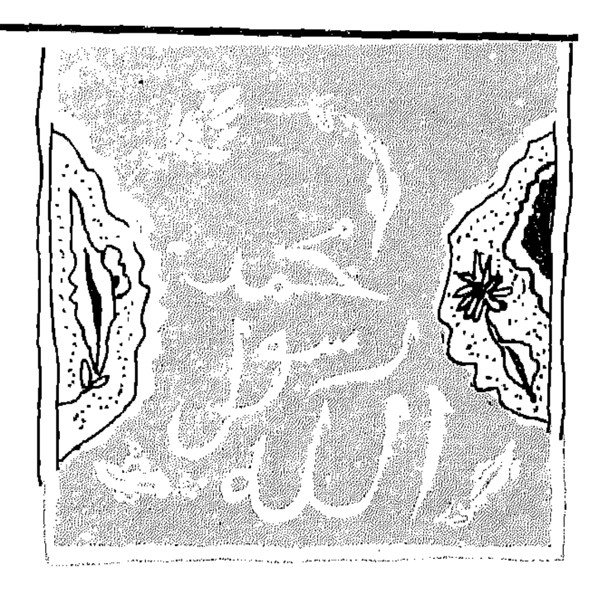
تولى إلى الظلّ) وقوله تعالى : (فقسـت قلوبهم) ، وقوله عز وجل : (وساء لهم يوم القيامة حملا) فأنت لو ضغطت على الفاء فى الآية الأولى صارت من الفسق لا من السقى ، وإن لم تضغط على الفاء فى الآية الثانية صارت من الفقس لا من القَسْوة . أما فى الآية الثالثة فلابدّ أن تخلص (ساء) من (لهم) حتى يكون من السُوء لا من المساءلة ، لو خطفْتها خطفةً واحدة . هكذا كان يعلّمنا الشيخ ، إلى أمثلة كثيرة لا أحصيها عدداً . لكنى أذكر أن أحدهم قرأ مرّةً أمام الشيخ (فلهم أجر غير ممنون) وخطف (فلهم) خطفة واحدة ضاغطاً على الفاء ، بحيث صارت الكلمة كأنها فعل ماضٍ مسند إلى ضمير الجماعة ، مثل : ضَرَبَهُمْ . فقال له الشيخ : (مَفَلَهُمْش) يريد رحمه الله أن يقول إنه ليس فعلاً واقعاً عليهم ، وأن هذه البِنية من مقطعين (فـ) (لهم) . وكان الشيخ صاحب دعابة ، فكان إذا قرأ أحدهم على غير الجادّة يقول له مستفهما مستنكرا : إنت جوّدت القرآن فى ألمانيا ؟ وقرأ بعضهم أمامه برواية خلف عن حمـزة ، ولم يكن متقناً للرواية ، فقال له : « قوم ياشيخ دانا كنت باحْسبك خَلَف الحبايب » وقرأ آخر أمامه وتحنّن فى صوته تحنُّناً ظاهراً فى تكسُّر ، فقال له الشيخ : « مفيش فايدة » يريد أنه يقلّد صوت « فايدة كامل » فقد كان فى صوته تلك السِّمات التى عُرفت بها هذه المغنية قبل أن تشتغل بالسِّياسة .

وكان للشيخ حِسٌّ دقيق جداً فى تقييم الأصـوات والحكم عليها ، وقد لا يعرف كثيرٌ من الناس أن الشيخ رحمه الله ، درس علم الموسيقى بمعهد فؤاد الأول للموسيقى العربية أول إنشائه .

وكما كانت معرفة الشيخ بمخارج الحروف وصفاتها عظيمة ، كانت عنايته بالوقوف : تامّها وحسنها وكافيها ، عالية جدا ، وكان يأخذ على بعض كبار القرّاء تهاونهم فى تعهُّد الوقوف ومراعاتها ، وكان يصارحهم بذلك فيغضبون .

وكان شيخنا رحمه الله يتشدّد فى الوقف على رءوس الآى ؛ لأنها سنّة ، ولو تعلقت الآية بما بعدها . فإذا كانت الآية التالية مقول قولٍ فى الآية الأولى ، وكان البدء بمقول القول هذا مما يوهم أن يكون إقراراً من القارئ وليس من المحكيّ عنه ، وقف على رأس الآية الأولى اتباعاً للسُّـنّة، ثم يستأنف الآية الثانية تالياً الفعل السابق فى الآية الأولى . مثال ذلك قوله تعالى فى سورة الصافات : { ألا إنهم من إفكهم ليقولون (١٥١) ولَدَ اللهُ وإنهم لكاذبون (١٥٢) } يتلوها هكذا : ألا إنهم من إفكهم ليقولون . ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون . وما أكثر ما علّمَنا هذا الإمام الكبير !

ومع حرص الشيخ على كمال الأداء وحسن التجويد ، فقد كان يعيب على بعض القراء المبـالغة فى ذلك ، ويراه لوناً من التنطع والشقشقة . وللفائدة هنا فإنى



أذكّر بأن مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ قد أخذ على قرَّاء زمانه مبالغتهم فى التجويد والتقعّر فى إخراج الحروف ، وذلك فى رسالة له لطيفة مطبوعة ، سماها « بيان زَغَل العلم » وهى رسالة نافعة ، عرض فيها الذهبى لأخطاء أهل العلم .

* نور القرآن *

وقد أضاء شيخنا القاهرة كلّها بنور القرآن ، فلم تكن مقرأة الإمام الشافعىّ هى المكان الوحيد الذى يجلس فيه للإقراء. فقد كان يبدأ يومه عقب صلاة الفجر بالإقراء بمسجد السيدة زينب ، حيث يسكن الشيخ قريباً من المسجد الزينبى . وهناك مقارىء أخرى يحضرها الشيخ منها مقرأة بمسجد النقشبندى بجوار مستشفى أحمد ماهر بالقرب من باب الخلق ، وكان موعدها يوم السبت ، ومقرأة الجمعية التعاونية للبترول بشارع قصر العينى ، يومى الاثنين والثلاثاء ، ومقرأة يوم الأربعاء بمسجد بمنزل الحناوى بجاردن سيتى . وقد تفرع من هذه المقارىء مقارىء أخرى ، منها مقرأة الدكتور صادق بمنطقة الحلمية ، بالقرب من القلعة . وهذا الدكتور صادق طبيب أطفال ، وقد تلقى عن الشيخ القراءات السبع . وفى صوت هذا القارىء الطبيب صفاء وخشوع يأخذان بمجامع القلوب . ومقرأة بمسجد يوسف الصديق بميدان الحجاز بمصر الجديدة ، يقوم عليها القارىء الطبيب الدكتور عوض الأستاذ بكلية طب الأزهر . ومقـــرأة بمســـجد مصطفى محمود بالمهندسين ، يقوم عليها الحاج حسين ، وهو صاحب معرض ملابس ، وقد لازم الشيخ كثيراً بزاوية النقشبندى . وتلامذة الشيخ كثيرون ، أذكر منهم الأديب الأستاذ عبد العزيز العنانى ، وهو مؤرخ للموسيقى العربية ، لا تجد له فى بابه نظيراً ، ألبسه الله ثوب الصحة والعافية . ومن الوزراء الذين قرأوا على الشيخ ولازموه ونَوَّروا به مجالسهم : السادة عبد المحسن أبو النور، وتوفيق عبد الفتاح ، وعبد الرحمن الشاذلى ، وإبراهيم سالم . ويأتى على رأس هؤلاء جميعا الرجل التقىّ النقىّ – ولا نزكّى على الله أحدا – الدكتور إبراهيم بدران . وكان من أبّر الناس بشيخنا ، وقد حَمَلَه وأعدَّ له مكاناً رحباً بالمستشفى الذى يملكه بالمهندسين ، وأقام عليه من يخدمه

ويتولّى أمره ، وخصَّص له سيارة تحمله إلى حيث يشاء ، وذلك بعد وفاة زوجته ، رحمهما الله جميعاً .

وقد أفاد من علم الشيخ نساء كثيرات، منهن السيدة سميحة أيوب ، وإذا تأملت أداءها فى النصوص المسرحية الفصيحة رأيت أمارات ذلك . ومنهن السيدة مفيدة عبد الرحمن ، المحامية الشهيرة . ولهذه السيدة الفاضلة بالقرآن وخدمته نسبٌ وثيق، فأبوها هو : عبد الرحمن محمد ، صاحب المطبعة الكائنة بحى الصنادقية بالأزهر الشريف . وقد تخصصت هذه المطبعة فى طبع المصحف الشريف منذ زمن بعيد .

• تلاميذ للشيخ فى كل مكان •

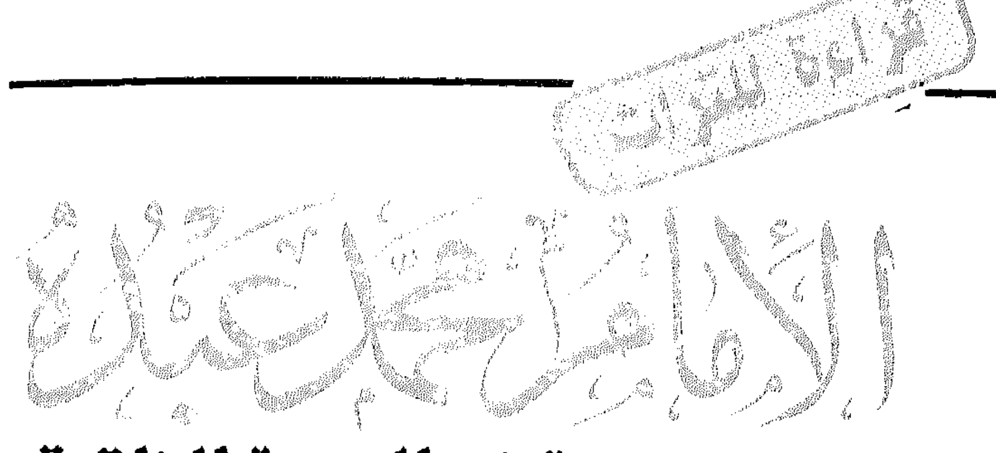
على أن لشيخنا الشيخ عامر أثراً آخر مباركاً ، غير التصنيف والإقراء : هو هذا العون الظاهر الذى قدَّمه لهذا النَّفر من الجامعيِّين الذين اتخذوا من علم القراءات ميداناً لدراساتهم الصوتية والتاريخية ، يحضرنى منهم الأساتذة : عبد الفتاح إسماعيل شلبى، وأحمد علم الدين الجندى، وعبد الصبور شاهين ، إلى كثير من المعيدين والمبتدئين الذين كانوا يختلفون إليه لتجلية غامض ، أو كشف مبهم من هذا العلم الذى هو علم العربية بحق .

وعلى الجملة فتلاميذ الشيخ والمنتفعون بعلمه لا يُحْصَوْن ، داخلَ مصر وخارجَها ، وكنت أرى كثيراً من أبناء الدول العربية والإسلامية ، بل من المستشرقين ، يأتون إليه ، ويجلسون فى حلقته ، وياليتنى أحصيتهم عدداً ، وقيّدت أسماءهم وأسماء بلدانهم وأعمارهم ، إحياءً لسُنَن قديمة فى تراثنا التاريخىّ ، من ذكر الواردين على البلاد ، والمرتحلين إلى الشيوخ .

وفى سنواته الأخيرة اختار شيخنا المدينة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام - مُسْتَقرّاً ومُقاماً ، حيث دُعى إلى هناك لمراجعة مصحف الملك فهد ، وللتدريس بكلية القرآن بالجامعة الإسلامية .

وفى مساء يوم الخميس ، وقبيل فجر يوم الجمعة الخامس من شوال سنة١٤٠٨ هـ الموافق للعشرين من مايو سنة ١٩٨٨م ، اختار الله إلى جواره عبده وخادم كتابه : عامر السيِّد عثمان ، وصلِّى عليه بالمسجد النبوىّ الشريف عقب صلاة الجمعة ، ودُفن بالبقيع ، مرحوماً مرضياً عنه إن شاء الله .

اللهم اغفر له وارحمه ، وعافه واعف عنه ، وأجعل كلَّ ما قدَّمه من خدمة كتابك فى موازينه يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً . وهيِّىء لهذه الأمة من يخلف هؤلاء الرجال العظام ، ويقوم مقامهم ، حياطةً لدينك ، وحفظا لكتابك . إنك على ما تشاء قدير .



وقراءة جديدة فى السيرة الذاتية [١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م]

بقلم : مصطفى نبيل

لم يكف الشيخ محمد عبده يوماً عن العمل لتحقيق رسالته بكافة الوسائل ، وعندما يتعذر عليه التأثير على الحكام يتجه إلى الرأى العام . وحمل رسالته من بعده تلاميذه الذين حملوا لواء التجديد والنهضة .

سيرة الأستاذ الإمام محمد عبده ، سيرة من نوع خاص ، تنقل إلينا رحلة تاريخية نابضة بالحياة ، وشخصية فذة لعبت أهم الأدوار فى حياة مصر ، وهى تنقل توق البلاد للإصلاح والعدل فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، خرج محمد عبده من إحدى القرى على ضفاف النيل ، لأبوين فقيرين، فلم يكن من أبناء العمد والأعيان ولا من طبقة الشراكسة أو الأتراك ، بل من عائلة عانت قهر الحكام وسوء الأحوال .

وهى سيرة كتبها صاحبها بناء على طلب الخديو عباس الثانى فى السنوات الأولى لحكمه ، بحجة الإلمام بأحداث الثورة العرابية ، ولعله كان يأمل استنكاره لأحداثها ، كما كتبها بعد إلحاح بعض الأصدقاء عليه « ما استحثنى على إثبات شئ مما غشينى إلا رجل يشاركنى فى الملة ولكنه يفارقنى فى الأصل والمنشأ ، وكان من كلامه .. أنه إن لم ينفع أهل



الشيخ محمد عبده فى السودان مع طائفة من العلماء ومفتش انجليزى وسلاتين باشا عام ١٩٠٥

عصرنا ، إنتفع به من يأتى بعدنا .. »

يخطها فى تواضع العلماء ، يغلب عليها ما هو عام .. « فما أنا ممن تكتب سيرته ولا من تترك للأجيال طريقته ، فإنى لم آت لأمتى عملاً يذكر ، ولم يكن لى فيها اليوم أثر يؤثر ، حتى أكون لأحد قدوة، أو يكون لأحد فىّ أسوة .... وهذا الذى أجد من استصغار أمرى وخفاء أثرى، وظهور عجزى عن بلوغ ما يرمى إليه فكرى ويطمح إليه نظرى ، كان يمنعنى من أن أكتب شيئا يتعلق بحياتى ، تعرض فيه بداياتى ، وشئ من أعمالى تعدها وصفاتى ، حتى أكون به باقيا عند من يطالعه بعد مماتى .. »

ولم تنشر هذه المذكرات - التى لم يكملها - إلا سنة ١٩٣١ ، أى بعد وفاته بستة وعشرين عاما . وأكملها ونشرها تلميذه السيد رشيد رضا ، وهى مع أعماله مادة خصبة لدراسة مرحلة هامة من التاريخ ، كما تقدم مفتاح شخصيته وتفسير الكثير من أقواله . فكان بروزه إيذانا بدخول قوى إجتماعية جديدة من أصول فلاحية بسيطة حلبة الحيـاة العامـة ...

« جدى لأبى كان يسمى حسن خير الله، توفى بمرض الهواء الأصفر الذى فتك بسكان القطر المصرى .. قبل موته وشى به واش عند الحكام بحجة أنه ممن يحملون السلاح ويقف فى وجوه الحكام وأعوانهم عند تنفيذ المظالم ، فأخذوا ذوى عصبته وزجوا بهم فى السجون واحدا بعد واحد ومن دخل منهم السجن لا يخرج إلا ميتا ،

وكان جدى حسن شيخا بالبلدة ، وهو الذى بقى من البيت مع ابن أخيه إبراهيم ، وبعد وفاته طالت يد ذلك الواشى بمساعدة أعوان الحكومة إلى سلب ما كان فى البيت من تراث حيث لم تكن قوة تدافعه، فأخذ جميع ما كان فى البيت حتى الأبواب وبعض أخشاب السقوف فهاجر والدى وعمى من البلدة : فلما اشتد الظلم على قرية « محلة نصر » وضاقت بهم السبل ، كما كان يسومهم - الواشى - من الخسف والذل ، أخذوا يتسللون بيتا بعد بيت ، يهجرون القرية ويذهبون ليقيموا فى جوار من سبقهم من أهلى .. فأحس الشقى بإشراف القرية على الخراب ، وفى ذلك انتقاص منافعه وخسارة كبيرة فى مصالحه ، فجدد الوشاية بوالدى ومن معه ، ورفع شكوى إلى مدير البحيرة يذكر فيها أن والدى مأوى لمن فروا بأسلحتهم من القرية ، وكان قد صدر أمر الخديو عباس الأول بتجريد الأهالى من السلاح وحظر حمله عليهم ... فأخذ الجميع على غرة ، وقبض عليهم فى بيوتهم ، ... وظل والدى فى السجن إلى أن توفى عباس فأفرج عنهم ، وبعدها عاد والدى إلى مسقط رأسه فى أول ولاية سعيد باشا » .

وعندما بلغ نحو الثالثة عشرة من عمره أرسله أبوه إلى الجامع الأحمدى فى طنطا ليتعلم ، إلا أنه سرعان ما نفر من اسلوب التعليم الذى يقوم على الحفظ والتلقين دون مراعاة لقدرات المتلقى ، فاستمر عاما ونصف العام يحاول أن يفهم ولا يفهم ، فانصرف عنه وعاد إلى قريته ليشارك فى فلاحة الأرض مثل أخوته ، وقد صرفه عن التعليم استقلالية فى الرأى ثم عاد مرة أخرى ، ويحكى هذه الفترة قائلا : - « إن أحد أخوال أبى واسمه الشيخ درويش خضر ، سبقت له أسفار إلى صحراء ليبيا ، والذى يتبع الطريقة الشاذلية ، ويحفظ الموطأ .. ويشتغل بما يشتغل به الناس فى فلاحة الأرض وكسب الرزق .. جاءنى الشيخ وبيده كتاب يحتوى على رسالة كتبها محمد المدنى الى بعض مريديه بخط مغربى دقيق ، وسألنى أن أقرأ له لضعف بصره .. وكانت الرسائل تحتوى على شئ من معارف الصوفية وكثير من كلامهم فى آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل ...

ولم يأت علىّ اليوم الخامس إلا وقد صار أبغض شئ إلىّ ماكنت أحبه من لعب ولهو وفخفخة وزهو ، وعاد أحب شئ إلى ما كنت أحب .. وفى اليوم السابع ، سألت الشيخ : ما هى طريقتكم .. ؟ فقال : طريقتنا الإسلام . فقلت : أو ليس كل هؤلاء الناس بمسلمين ؟ ! .. فقال : لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على

التافه من الأمر ، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب ».

وأخذت أعمل بما قال ، ولم تمض بضعة أيام إلا وقد رأيتنى أحير بنفسى فى عالم آخر غير الذى كنت أعهده ، واتسع لى ما كان ضيقا ، وصغر عندى من الدنيا ما كان كبيراً ، وعظم عندى من أمر العرفان .. وتفرقت عنى جميع الهموم ، ولم يبق إلا هـم واحد هو أن أكون كامل المعرفة .. » ويستمر تأثير الشيخ على الفتى ويعيده الى الجامع الأحمدى للدراسة، ثم ينتقل بعدها إلى الجامع الأزهر .. « ذهبت الى الأزهر مع محافظتى على العزلة والبعد عن الناس ، حتى كنت استغفر الله إذا كلمت شخصا كلمة لغير ضرورة .. » !

والتصوف عنده هو الزهد ومجاهدة النفس ، واسلوب أمثل فى التربية .

وها هو يخوض فى الأزهر الشريف صراعاً حاداً بين التقليد و التجديد .. يصف صاحب المنار هذه المرحلة من حياة الفتى بقوله : « .. كان الشيخ حسن الطويل ممتازا فى الأزهر يعلم المنطق ، وحضر عليه الفتى ، ولم يكن يشفي ما فى نفسه ، بل كانت تتشوق دائما إلى علم غير موجـــود ، فكان يبحث فى خـــزائن الكتب الأزهـــرية عن طلبته المجهولة فيظفر ببعض الشئ .. واقرأ الشيـــخ حسن الطـــويل لهـم شيئا من الفلسفة »

● السيد والشيخ ●

وتبدأ المرحلة الثانية من حياة الفتى بعد لقائه بالسيد جمال الدين الأفغانى ، فعندما وصل السيد إلى القاهرة ، يدعو إلى نهضة الشرق ويحذر من الغزو الأوروبى، كان الفتى فى مفترق طرق بين العزلة والعمل مع الناس ، وقصده الفتى مع شيخه حسن الطويل بخان أبى طاقية القريب من الأزهر ، ثم تكرر اللقاء بين الفتى والسيد عند زيارته الثانية لمصر عام ١٨٧١ ، وهى بداية خروج محمد عبده إلى العمل العام ، بعد انتقاله من التأمل والدرس إلى العمل والحركة ، وفتح له السيد أبواب المعرفة بالعصر .

وبدأ السيد والشيخ رحلة طويلة معاً ، فانضما إلى التنظيمات السرية القائمة فى مصر ، والتحقا بالمحفل الماسونى على أمل أن يتيح لهما أداة تنظيمية تساعدهما على تحقيق أهدافهما ، وخاب أملهما عندما تحققا من مهادنة الماسونية للاستبداد وصلتها بالأجنبى .

وأنشآ معا الحزب الوطنى الحر الذى كان شعاره « مصر للمصريين » ونشط الشيخ فى العمل بالصحافة والسياسة ، لتجديد حياة الشرق ، ولعب دوراً مهماً بشخصية نادرة تجمع بين الفكر والعمل ، وهو المؤهل للإصلاح ، فقد تشرب رحيق التراث ، وامتد بصره إلى العلوم الحديثة وصادق هربرت سبنسر وراسل تولستوى .

وأخذ يسابق الزمن ، فكان أول كُتّاب صحيفة الأهرام ، وكتب في العدد الخامس في سبتمبر ١٨٧٦ وكان حول عراقة تاريخ مصر ، وكتب في العـــدد الثامـــن حـــول (الكتابة والقلم) ويكتب قبل حصوله على الشهادة العالمية .. والتى حصل عليها عام ١٨٧٧

● الشهادة العالمية ●

يقول : « عرضت نفسي على مجلس الإمتحان في ١٣ جمادي ١٢٩٣ هـ وابتليت في الإمتحان أشد الابتلاء لتعصب الأكثرية من أعضائه مع المرحوم الشيخ عليش وكان يعاديني ، على الغيب ، اتباعـــا لآراء من لا رشد عندهم من بلداء الطلبة » !

لذا لم يكن غريبا أن أحد أهداف الشيخ الرئيسية هي إصلاح التعليم في الأزهر ، وإدخال العلوم الحديثة إليه فكان يؤمن أن في إصلاح الأزهر إصلاحاً لحال المسلمين وهي ذات المعارك التى خاضها فيما بعد ، كل من د . طه حسين وأحمد أمين ، واللذين يسجلان معاناتهما في الأزهر في كتابي « الأيام » و« حياتى »

وبعد أن حصل الشيخ على العالمية عمل مدرساً للتاريخ في دار العلوم ، وهي المهنة التى كان مولعا بها ، والتى تمكنه من نشر أفكاره وســـــط أجيال جـــديدة ، كما عمـــل محـــرراً في الوقـــائع المصرية الذى جعلها منبراً لنشـــر دعـــوته وطرح أفكار الاصلاح والنهضة.

وكان حصاد هذه الفترة نفي الخديو توفيق للسيد جمال الدين الأفغاني ، وتحديد إقـــامة الشيخ محمد عبده في قريته .

● أفكار متضاربة ●

وقف كتاب سيرة الأستاذ الإمام حيارى أمام عدد من المسائل التى بدت متضاربة في أقواله وسيرة حياته ..

فمثلا .. أكد الشيخ عزوفه عن السياسة بعد عودته من المنفى ، ولعن لفظ السياسة ومشتقاته ، رغم أنه قضى حياته في العمل السياسي ، في مطلع حياته بصورة مباشرة ، وفي آخر حياته بصورة غير مباشرة ، وسيرته تؤكد أنه رجل سياسي من الطراز الأول . لا يمكن فهم مواقفه إلا من خلال دوره السياسي ، منذ انغماسه في الحياة السياسية أى منذ معرفته بالأفغاني ، وبعدها حددت إقامته وسجن ونفي بعد فشل الثورة العرابية ، بل وساهم في تأسيس الحزب الوطني الحر ، وهو الذى صاغ برنامجه أيام الثورة العرابية ، وأنشأ مع جمال الدين الأفغاني في باريس جمعية سرية تعمل من أجل نهضة الشرق وأصدر مجلة العروة الوثقى من غرفة فوق سطح أحد المنازل أمام كنيسة مادلين ، بل وتنقل بين الأقطار العربية سرا يبشر بدعوته ، فكيف يمـكن



الشيخ محمد عبده فى شبابه

لمن كانت هذه حياته ، أن يستنكر السياســـة ويتنكر للثورة .. ؟ !

حقا إن للأستاذ الإمام أثرا بالغا فى تطور الفكر السياسى والإصلاح الدينى ، وهو أحد أبرز العقول العربية ، وما زالت أفكاره وكتاباته إضاءة هامة فى حياتنا الفكرية .

يحتار قارئ سيرته هل هو رجل عمل أم رجل فكر .. ؟ بعد أن عاش حياة حافلة، استمرت نحو سبعة وخمسين عاما ، قضى أولها فى التعليم والنشر فى الصحف ، ووسطها فى بحر السياسة ، وآخرها فى الإفتاء ، شهد ظلم الخديو اسماعيل ، وعانى من عسف توفيق وشارك فى الثورة العرابية ، وأسف لفشلها ، وعـــرف أسرارها ، وعــانى فى محبسه ومنفـــاه .

أيقن بعد كل هذه التجارب أن التطور وليس الطفرة هو طريق النهضة فى الشرق، وأن المعركة تدور أولا فى العقول، قبل أن تجرى على أرض الواقع ، تتغير خلالها المفاهيم ويتوارى فيها الفاسد من الأفكار.

تبدل موقفه من الثورة ومعه العمل السياسى ، واختار ما هو متاح فى التعليم والإصلاح الذى يمهد لحياة سياسية خصبة، يقول : يحتاج التطور إلى فسحة زمنية .. تبث فيها العلوم ، وتهذب العقول، وتذلل الشهوات ، وتوســع الأفكـــار الكلية حتى ينشأ فى البلاد ما يسمى بالرأى العمومى .. فمن يريد خير البلاد فلا يسعى إلا فى إتقان التربية وبعدها يأتى جميع ما يطلبه .. »

وقضية أخرى استولت على المهتمين بترجمته ، كونه أول من كتب فى مقاومة الاستبداد ، حتى أنه يلخص رسالته فى أمرين ، « الدعوة إلى تحرير الفكر من قيد التقليد و التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة » ونصاحبه وهو يذكر فى سيرته .. « أمر كنت من دعاته ، والناس جميعا فى عمى عنه .. نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها ، وهى هذه الأمة التى لم يخطر لها هذا الخاطر على بال ...

دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته ، وهو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لا يرده عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول وبالفعل ..

ويضيف .. « نعم .. إننى كنت كل ذلك، ولم أكن الإمام المتبع ولا الرئيس المطاع ، غير أنى كنت روح الدعوة .. أصبت نجاحاً فى كثير مما عنيت به ، وأخفقت فى كثير ما وجهت عزيمتى إليه .. »

ثم نجده بعد عودته من المنفى ينادى بالحاجة إلى المستبد العادل !

الثورة العرابية

والشيخ محمد عبده كان من أبرز المفكرين الذين وقفوا وراء الثورة العرابية يؤيدونها ، ويبشرون بها ويدعون لأفكارها ، ويكتب فى « الوقائع المصرية » التى يرأس تحريرها شارحاً خططها ، ولا يمنع ذلك بالطبع أن يظهر خلاف فى الرأى بين القائد والمفكر أى بين عرابى وعبده ، يقول فى الوقائع المصرية سنة ١٨٨١ ، تحت عنوان الشورى والقوانين ... « إن استعداد الناس لأن ينهجوا منهج الشورى غير متوقف على أن يكونوا متدربين فى البحث والنظر على أصول الجدل المقرر لدى أهله، بل يكفى كونهم نصبوا أنفسهم وطمحت أبصارهم للحق وضبط المصالح على نظام موافق لمصالح البلاد وأحوال العباد ... ودبت فى أهالى بلادنا المصرية روح الاتحاد ، وأشرفت نفوسهم منه على مدارك الرأى العام ، وأخذوا يتنصلون من جرم الإهمال ، ويستيقظون من نومة الإغفال ، وقد مرت عليهم حوادث كقطع الليل المظلم » .. ثم يكتب فى سيرته إنها كانت فتنة لعب الغرور برأس قادتها ! . ويتنكر للكثير من أفعالها وأفكارها ..

ويمكن فهم هذه المواقف إذا أدركنا أن الشيخ محمد عبده رجل يتعامل مع واقع متغير ، ويسعى خلال هذا التعامل إلى تحقيق رسالته ضمن الشروط الموضوعة والفرص المتاحة أمامه ، ويلاحظ على اختياراته أنها كانت اختيارات عملية ، فالإنجاز هو ما يطمح إليه ، وأن المفاهيم ذات القيمة عنده هى تلك التى تؤثر فى حياة الناس . وسعى الى تحقيق أهدافه عن طريق العلم ونشر المعارف الحديثة ، التى تؤدى بدورها إلى تغيير موازين القوى بين بلاده والعالم الخارجى ، وبهذا أمسك بقانون التقدم والارتقاء ..

ولم يكن هذا الاختيار سهلاً ، فلم تكن المفاضلة بين الحرية والاستقلال من جانب والإصلاح والتربية من جانب آخر ، بل أصبح الموقف بعد سيطرة قوات الاحتلال وهزيمة الثورة أن يعمل على نشر الوعى وإيقاظ الأمة .

وبالتالى لابد أن تناقش أقوال الأستاذ الإمام ضمن السياق الذى قيلت فيه ،

فرأينا إيمانه بالشعب أيام انتصار الثورة العرابية بلا حدود ، أما بعد الهزيمة فهو يبحث عن نهج جديد ..

● يسابق الزمن ●

فإذا كان فشله الأول يوم طرد السيد جمال الدين الأفغانى ، وأيامها قرر الخديو توفيق تحديد إقامة الشيخ في قريته التى عاد منها سنة ١٨٨٠ ، فكان فشله الثانى مع هزيمة الثورة العرابية واحتلال الإنجليز لمصر ، وسجنه ومحاكمته ، واهتزاز القيم واجتثاث رجال الثورة وأفكارها .

وكان قبل السقـــوط يكاد يسابق الزمن ..

يدرك ما يدبر اوطنه فى العواصم الاستعمارية ، ويلاحظ الضعف وبوادر الانهيار فى الدولة العثمانية ، ويرى سقوط دول الشرق دولة وراء أخرى فى أيدى المستعمر ، ولا يخفى عليه المؤامرات والمناورات التى تحيط بالبلاد ، تسير حياته مضطربة مثل عصره ، فالجميع رهن إشارة الحاكم وأسرى ما يحاك حولهم من دسائس ، وتفشل الثورة ويتهم الشيخ أنه أفتى بوجوب قتل الخديو توفيق لخروجه على إجماع الأمة ، ويمر بتجربة ثقيلة الوطأة ، عندما يقف فى مواجهات مع رفاق الجهاد ، ويعانى من انقلاب بعض الأصدقاء عليه .

ويصور برودلى محامى عرابى فى كتابه «كيف دافعت عن عــرابى ؟ » حالته بقوله : « كان الشيخ أكثر الرجال موهبة ووطنية ، وهو يتمتع بشخصية فكرية قوية ، وهو مثل زملائه أهين ، وأسيئت معاملته ، وكان يبصق عليه فى سجنه !! »

وأقام عبده دفاعه على المقارنة بينه وبين الخائن سلطان باشا يقول : « إن وطنيتى ووطنية سلطان باشا واحدة ، وكلانا عمل وفكر ذات التفكير ، وأصبح سلطان باشا يحمل لقب سير وحصل على مكافأة قدرها عشرة آلاف جنيه استرلينى، أما أنا فزج بى فى السجن منتظرا المحاكمة ، فقد كنت وسلطان باشا والبلاد المصرية قاطبة من أتباع عرابى .. »

ويكتب رسالة لسعد زغلول وهو فى السجن ، يكشف خلالها مشاعر الأسى ، والآمال التى تحطمت ، والنهضة التى انتكست ، « ذهب أرباب السلطة فى بحور الحوادث الماضية ، يغوصون لطلب أصداف الشبهة ، ومقذوفات من التهم ، وسواقط من اللمم ، ليموهوها بمياه السفسطة .. ليثبتوا أنهم فى حبس من حبسوه غير مخطئين .

ووجدوا أعوانا من حلفاء الدناءة ، وأعداء المروءة ، وفاسدى الأخلاق ، وخبثاء الأعراق ، رضوا لأنفسهم قول الزور ..

ويختم رسالته بقوله .. « هذا القلب ذاب معظمه من الأسف على ما يلم بالهيئة العمومية من مصائب هذه التقلبات ، وما

ينشأ منها من فساد الطباع ، وهل أستحق العقاب على حبى لبلادى والناس لها كارهون .. ؟ ! »

● هكذا تكلم الشيخ ●

ويروى الشيخ بعض ذكرياته مع الثورة العرابية .. يقــول .. « مررت ببيت طلـبة (طلبه باشا عصمت) ثالث يوم عيد الفطر فسمعت جلبة ورأيت بعضا من صغار الضباط يجولون من جانب الى آخر من البيت ، فدخلت للزيارة فوجدت عرابى وجمعاً غفيراً من الضباط ، ووجدت معهم أحد أساتذة المدرسة الحربية وكان من الناقمين على الوزارة .. كان الحديث موضوعه الاستبداد والحرية ، وتقييد الحكومة بمجلس النواب ، وان لا سبيل للأمن على الأرواح والأموال ، إلا بتحويل الحكومة إلى مقيدة دستورية ، فأخذت طرفا من البحث فاقمنا على الجدال ثلاث ساعات . كان عرابي والأستاذ من طرف والكاتب من طرف ..

يقولان : إن الوقت قد حان للتخلص من الاستبداد وتقرير حكومة شورية .

يقول الكاتب : علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بضع سنين ، وأن نحمل الحكومة على العدل بما تستطيع ، وأن نبدأ بترغيبها فى إستشارة الأهالى فى بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيدا لما يراه من تقييد الحكومة ، وليس من المصلحة أن نفاجئ البلاد بأمر قبل أن تستعد له ، فيكون من قبيل تسليم المال للناشئ قبل بلوغ سن الرشد ، .. وختمت قولى ، بأنه لو فرض أن البلاد مستعدة بأن تشارك الحكومة فى إدارة شئونها ، فطلب ذلك بالقوة العسكرية غير مشروع ، فلو تم للجند ما يسعى إليه، ونالت البلاد مجلس شورى لكان بناء على أساس غير شرعى ، فلا يلبث أن ينهدم ويزول ، وأرى أن هذا الشغب قد يجر البلاد إلى احتلال أجنبى ... وسألته : على من تعتمد.. ؟ وممن أخذت الميثاق . ؟ فقال : ليس الجند هو الطالب لتأليف مجلس النواب وانما هو مؤيد لطلب الأعيان ووجوه البلاد .. إن سلطان باشا قد عاهدنى على أن يجمع أعيان القطر من الوجهين ليتقدموا بالطلب متى سقطت وزارة رياض باشا ... ثم انصرفنا ...

ويقدم طلعت حرب تفسيراً لموقف الأستاذ الإمام فى مقال كتبه فى جريدة مصر فى ١٣ يوليو سنة ١٩٠٥ ، يقول .. « لما قامت حوادث الفتنة العرابية كان الشيخ محمد عبده متقلدا عمل محرر الجريدة الرسمية ، فظن أن الوقت قد حان للبدء فى القيام بخطة واسعة فى الإصلاح، فسلك سبيل الفتنة بقلب سليم ، لما كان يلوح من خلوها من الأغراض الشخصية ، ثم اضطر آخر الأمر الى أن يجاهد فيها بعض الرؤساء ، ويقاوم طرقهم الملتوية الدالة على أطماعهم لأن أفكارهم لم تكن مطابقة لأمنيته المجردة من كل شوب ، وهى مصلحة الوطن والدين »

● الفشل الثالث ! ●

يلتحق الشيخ بالسيد فى باريس فى أواخر عام ١٨٨٣ ، يعملان معا ويصدران «العروة الوثقى » واستمر الشيخ فى المنفى سبع سنوات ، سعى بعدها للعودة إلى مصر ، بعد أن خبر سلبيات العمل السرى فى المنفى ، والضغوط التى يتعرض لها خلال هذا العمل فيجذب هذا النوع من العمل المخلصين الصادقين والجواسيس والمغامرين عملاء كل من بريطانيا وفرنسا والدولة العثمانية ، وللأسف لم يسجل الشيخ هذه التجربة فى سيرته الذاتية ، وإن سجل بعض ملامحها بلنت فى يومياته ، وفى هذه المرحلة اختلف الشيخ والسيد . عرف الشيخ أن جمع كلمة المسلمين عن طريق السياسة صعب ، وأنه يمكن تحقيق ذلك عن طريق الفكر والثقافة يقول الشيخ محمد عبده .. « إن السيد جمال الدين كان صاحب إقتدار ، وقد عرضت عليه حين كنا فى باريس أن نترك السياسة وأن نذهب إلي مكان بعيد عن مراقبة الحكومات فنعلم ونربى من نختار من التلاميذ على مشربنا ، فلا تمضى عشر سنين إلا ويكون عندنا من التلاميذ الذين يتبعونا فى ترك أوطانهم والسير فى الأرض لنشر الإصلاح المطلوب ورد السيد : « أنت مثبط .. »

وكتب له يوما الأفغانى يقول .. « كن فيلسوفا يرى العالم ألعوبة ، ولا تكن صبياً هلوعاً .. »

ويورد بلنت حديثا للشيخ محمد عبده جاء فيه .. « إن جمال الدين اقترح على الشيخ قتل الخديو اسماعيل ، ورفض الشيخ » ، ويمكن ملاحظة الفارق بين ما تكتبه الوقائع المصرية والعروة الوثقى ، كانت مقالات الوقائع تدعو للإصلاح وتطالب بالتدرج ، أما العروة ، فكانت تدعو للثورة وبث الروح الوطنية ، وخلق الأمل ..

ورغم أن الشيخ تلميذ السيد ، فإن مذهبهما فى النهضة يتباين ، يركز الشيخ أغلب طاقاته فى إصلاح مناهج الفكر وتحرير العقل ، على حين استنفدت السياسة بمعناها المباشر أغلب جهود السيد .

● العودة إلى الوطن ●

يلح سعد زغلول على الأميرة نازلى فاضل كى تستخدم نفوذها عند اللورد كرومر لكى يصدر الخديو أمرا بالعفو عن الشيخ ، وتنجح المساعى ويؤكد اللورد فى كتابه مصر الحديثة ... « أن العفو صدر نتيجة الضغط البريطانى على الخديو » .

ونازلى هى بنت الأمير مصطفى فاضل وهو أخو الخديو اسماعيل ، والذى كان يستعد لتولى الحكم لو لم يتغير نظام ولاية العهد ، تزوجت من خليل باشا شريف سفير الدولة العثمانية فى لندن . وهناك توثقت علاقاتها بالسلطات البريطانية ، وتزوجت فى المرة الثانية خليل بوحاجب

الذى أصبح رئيس وزراء تونس ، وتحول صالونها إلى ملتقى صفوة المجتمع مثل سعد زغلول وقاسم أمين ، وأحيانا اللورد كرومر .

وعند عودته عمل الشيخ بالقضاء ، والعمل فى القضـــاء يبعد عن السياسة ، وانقطع الشيخ عن السياسة بمعناها الضيق ، وبذل جل طاقاته فى الدعوة للتجديد والإصلاح الدينى وتربية الأمة ، فالقضاء على التخلف هو مهمته الأولى ..

وبعد تولية الخديو عباس الحكم اصطدم الخديو بالسلطات البريطانية لرغبته فى أن يمارس سلطاته ، عندها لوحت له هذه السلطات ببقايا الثورة العرابية ، لذلك قام الفريق المؤيد للخديو بالهجوم على الثورة وعلى رموزها ، ومن هؤلاء ، الشاعـــر أحمد شوقى الذى تربى فى كنف الخديو ، والحزب الوطنى الذى أنشـــأه مصطفى كامل ، وصحيفة المؤيد التى يرأس تحريرها الشيخ على يوسف .

وفى ذات الوقت عمد كرومر إلى خطب ود فلول الثورة العرابية فقام بتمصير الوظائف التركية والشركسية ، واستعان بورثة الثورة فى القيام بالاصلاح ، وقامت مدرسة فكرية تعادى سلطة الخديو المطلقة . عندما كان الخديو يأمر بالتصفية الجسدية للخصوم مثلما فعل الخديو اسماعيل مع اسمـــاعيل المفتش ، أو مصـــادرة الأموال أو النفى باشـــارة منه ، وهـــو ما تعرض له رفاعه الطهطاوى وعلى مبارك .

ويذكر الشيخ محمد عبده .. « الله لا يرجع أيام زمان الذى كانت فيه حياة المواطنين مرهونة بكلمة ينطقها الخديو . »

وربما شعر الكتاب بحريتهم فى ظل ازدواجية السلطة بين عابدين وقصر الدوبارة وفى ذات الوقت لم يستسلم هؤلاء المثقفون للسلطة الأجنبية ، وكانوا يقاومون التسلط الاستعمارى ، ويركز الشيخ محمد عبده كل طاقته فى الإصلاح ، أى أنه قرر التعامل مع الثابت على حساب المتغير ..

ولعل الكاتب الجزائرى مالك بن نبى كان متأثرا بفكر الأستاذ الإمام عند ما تناول فكرة « القابلية للاستعمار » أى التخلف الذى يظهر فى بعض بلدان العالم الثالث ، والذى يمثل القضاء عليه أول مراحل التحرر .

وأخذ فى عمل دءوب وصبور يعلم الرجال ويقيم المؤسسات وينشئ الجمعيات التى تحقق فكرته ، فاشترك فى تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية التى أسسها خمسة كان لهم شأن كبير فى حياة مصر ، هم سعد زغلول وقاسم أمين والهلباوى وحسن عاصم وعلى فخرى ، وتولى رئاستها عام ١٩٠٠ ، والتى أخذت على عاتقها بناء المدارس ونشر التعليم ، كما أسس جمعية « أحياء التراث العربى » التى



محمد عبده فى تونس

حققت ونشرت العديد من المخطوطات الاسلامية وساهمت فى جمع المهم من هذه المخطوطات .

ويلوم محمد عبده عرابى بعد عودته من المنفى على تصريحه بأن كل ما قام به الإنجليز فى مصر خير ، ويؤكد أن عامة الناس ما زالت متعلقة به ، فالأولاد يتبعونه فى الشوارع صائحين « الله ينصرك ياعرابى » ، وحين يذهب إلى المسجد للصلاة يأتى إليه العامة ويقبلون يده .

● المرأة فى حياة الشيخ ●

ويتناول أحد تلامذة الشيخ محمد عبده وهو الشيخ مصطفى عبد الرازق ، جانباً خفيا من حياة الشيخ وهو أثر المرأة فى حياة الشيخ ، وينشره فى الهلال ومما جاء فيه : قلما تجد فى كتب التراجم علاقة الرجل بالمرأة ، نظراً للاعتبارات التى تحيط المرأة فى الشرق ، والدة الشيخ هي السيدة جنينة من حصة شير سير بمركز طنطا ، خطبها والد الأستاذ أرملة توفى عنها زوجها تاركا لها طفلة وطفلا ، تزوجها حين كان مهاجراً من بلده وقضى معها عامين فى دار أهلها ، ثم عاد بها إلى « محلة نصر » .. تزوج الأستاذ وهو صبى فى بداية عهده بالدروس ريفية من قرابته ورزق منها ببنات وولد واحد مات فى ريعان العمر ، وتزوج بعد وفاتها فى بيروت بشامية ولدت له بنتا واحدة (وهى من بيت حماده) .

وكان فى حياة الأستاذ أثر باهر لسيدة لم تكن زوجة ولا أما هى الأميرة نازلى فاضل ، تميزت منذ نشأتها بذكاء ودهاء وثقفت تثقيفا أوروبيا ، اتصلت بعالم السياسة والدبلوماسية ، وجمعت إلى ذلك كله جمالا رائعا وبيانا حلوا ولطفا سوريا فتانا وعرفت الأميرة الشيخ ، مستشارا فى محكمة الاستئناف ، وداما صديقين حتى فرق الموت بينهما .

وها هى حياة الأستاذ الإمام كتاباً مفتوحاً ، يسعى دائما وفى كل الظروف إلى الارتقاء بأمته ، ولايتبع فى ذلك طريقا واحداً ، وإنما يتبع أى طريق فيه خير الناس وتقدمهم .

مستقبل اللغة العربية

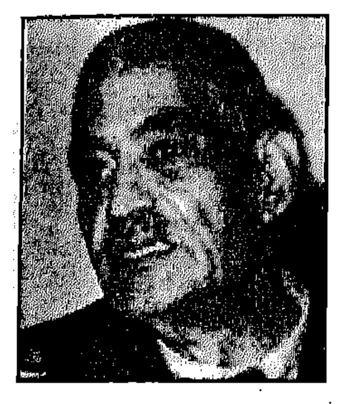
بقلم : د . الطاهر أحمد مكى



شوقى



حافظ إبراهيم



على الجارم

لنتصور ما ستكون عليه اللغة العربية غدا ، علينا أن نستقرئ تاريخها علي امتداد أكثر من ألف ونصف ألف من الأعوام، كيف نشأت أصلا ، وتطورت واقعا ، عبر هذا الزمن الطويل ، وما عوامل الثبات التى أبقت عليها دون غيرها من لغات الأرض ، ومظاهر التغير التي عرضت لها فجددتها ، وجعلتها موائمة للكثير من البيئات ، ومختلف العصور وغذتها بقاء ونماء وتطورا ، لأن هذه العوامل نفسها هي التي سوف تحكم مسيرتها أيضا في قابل أيامها ، في القرن التالي، أو بعد ألف عام ثالثة من الزمان.

كان ظهور الإسلام بعيد الأثر فى حياة اللغة العربية على نحو لم نعرفه من قبل ، ومع نزول القرآن الكريم بها تأكدت الرابطة الإلهية بينها وبين الدين الجديد ، وأصبحت لغة دين وحضارة ، ومضت مع الإسلام أيان اتجه ، وصارت لغة الدولة ووعاء الثقافة فى كل العالم الإسلامى ، واستقرت إلى الأبد فى معظم الأقاليم التى بلغها الإسلام وانسحبت بأخرة من بعضها الآخر لأسباب تتصل بالسياسة أولا ، وبقوانين الصراع بين اللغات ، وقد ربطت بين كل أجزاء الدولة برباط وثيق ، وحين استردت

فى القرن الواحد والعشرين




عزيز أباظة   نجيب محفوظ   يوسف جوهر

بعض اللغات الإسلامية الأرض التى فقدتها - كالفارسية مثلا - ظلت العربية إلى جوارها لغة الدين والمباحث الإسلامية .

لقد جعل الإسلام من الفصحى نموذجا يحتذى ، وتكفلت جهود العلماء من شتى الشعوب الإسلامية فى مجالات النحو والصرف والأصوات ومعانى المفردات بالإبقاء على صورتها الأولى ، أو على صورة جد قريبة منها إذا شئنا الدقة .

هذا النفوذ الذى بلغته العربية فى مناطق كانت تستوطنها لغات ما كان يمكن أن يحدث دون أن تتعرض هى نفسها لتأثير وتغيير ، ومهما تباينت هذه العلاقات الجديدة فلم تكن هناك حدود فاصلة بين الفاتحين المسلمين والشعوب التى خضعت للإسلام ، فخلفت لغات هؤلاء آثارا واضحة فى اللغة العربية ، فتركت الفارسية ملامح بينة فى عربية أهل البصرة ، وتلاقت فى الكوفة الآرامية والفارسية والعربية ، حيث يتلاقى التجار والصناع وغيرهم ، ويكونون مع أسرى الحروب إذ ذاك ، وكان عددهم كبيرا ، أغلبية مؤثرة ، وصارت الفارسية لغة التفاهم بينهم زمنا .

لقد تميزت اللغة العربية بأنها لغة دين عظيم ، وفيها نزل القرآن الكريم ، وهو يختلف عن غيره من الكتب السماوية ، لأنه نص أدبى عظيم قبل أن يكون كتاب تشريع

ولا يشعر المسلم بأنه يقرؤه إلا إذا كان فى لغته العربية ، أما الترجمة فهى مجرد شرح وتفسير للإفهام فحسب ، ولا يتذوق المرء معها حلاوته نصا ، ولا يدرك مدى إعجازه بلاغة ، ومن هنا تحرص جمهرة المسلمين على أن ترفق النص العربى بترجماته المختلفة ، على الهامش أو فى صفحة مقابلة أو بين السطور ، ويرى أغلب الفقهاء أن الصلاة يجب أن تؤدى بالعربية ، فما من مسلم إذن إلاّ ويعرف من العربية شيئا ، قلّ أو كثر .

وهكذا أصبحت العربية في شعور أي مسلم أيا كانت لغته الأصلية ، جزءا لا يتفصل من حقيقة الإسلام نفسه ، ولم يفكر الفرس الذين بلغوا منزلة عالية فى الخلافة العباسية ، فى أرقى عهودها وأوج نفوذهم ، أن يرتفعوا بإحدى اللهجات الإيرانية لتكون لغة الدولة ، ولا فى فارس نفسها ، وكان يجب أن يمضى قرن كامل من الزمان ، قبل أن تبعث الفارسية لغات أدب وحياة .

ولم يستطع حتى الشعوبيون الذين ادعوا تفوق غير الشعوب العربية على العرب أن ينتقصوا من مكانة العربية ، ولم يفكر ابن المقفع ولا بشار بن برد – مثلا – ويأتيان فى طليعة الأدباء العرب ، وأصولهما فارسية ، وينزعان إلى الشعوبية بقوة ، فى استخدام لغتهما الأصلية ، وهى الفارسية ، فى إبداعهما ، وإنما اعتمدا العربية ، واتخذاها وسيلة تعبير ، فكان الأول ناثرا متميزا ، والثاني شاعرا فذا .

وقد أدى انتقال العربية من البداوة إلى الحضارة ، وتغلغل غير العرب فى مناطق الأدب ، إلى تلاشى طابعها القديم ، وحل مكانه أسلوب منمق مهذب ، وسرعان ما فرضت هذه اللغة السهلة المنسكبة الواضحة سلطانها على الجميع ، فاحتذاها الكتاب ، وأصبحت لغة الأدب عند المثقفين فى العالم الإسلامى ، دون تمييز بين جنس وآخر ، ولا بين لغة أصلية أو لهجة وطنية ، حيث الشعوب والأقوام فى الدولة الإسلامية العظمى أخلاط من البشر يموج بعضها فى بعض ، والفضل فى ذلك أولا وأخيرا يعود إلى القرآن الكريم .

وفى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، أصبحت العربية لغة الأدب الوحيدة على امتداد العالم الإسلامى مهما كانت أصول أهله ، وأسهمت كل الأقاليم مهما تناءت فى بناء صرح الأدب العربى ، ولم تستطع الفواصل والحدود السياسية أن تصبح عقبة أمام انتقال الأدباء والعلماء والشعراء ، فأبو على القالى – مثلا – نشأ فى أرمينيا ، وتأدب فى بغداد ، وعلم وألف فى إسبانيا ، وعاش الخوارزمى فى العراق ، وخدم سيف الدولة فى حلب ، وطوف بديع الزمان الهمذانى فى خراسان وسجستان وأفغانستان ، وكانت حياة المتنبى قاسما مشتركا بين العراق والشام ومصر

وفارس .

وقد نجم عن انتشار اللغة العربية ثراء إمكاناتها فى التعبير عن شتى الأغراض والمعانى والأفكار ، وارتقاؤها فى الأخيلة والأساليب والتعبير ، واستطاعت أن تجلو المعانى الدقيقة التى تطلبها ارتقاء العلوم والفنون ، وأن تستخدم الحجج العقلية والبراهين الفلسفية ، وتجردت ألفاظ كثيرة من معانيها القديمة ، وأصبحت تدل على معانٍ جديدة ، خاصة بالعبادات أو السياسة أو الحرب أو مصطلحات العلوم والفنون ، واقتبس العرب إلى جانبها للأغراض نفسها ألفاظا من لغات أخرى كالفارسية بخاصة ، ثم السريانية ، واليونانية ، بعد أن عربوها وصقلوها بمناهج اللسان العربى .

لقد انتشرت اللغة العربية فى أفريقيا فى جنوب الصحراء فى زمن مبكر جدا ، وحتى قبل أن يبلغها الإسلام ، حملها التجار معهم ، وأذاعوها فى نطاق محدود قد لا يتجاوز الأسواق الرئيسية فى المدن الكبرى ، ولكنه هام ومؤثر ، فلما جاء بعدها الإسلام ثبت أقدامها ، فظهرت المدارس القرآنية ، واهتم بها المجتمع الأفريقى ، يرسل إليها الأطفال بنين وبنات ولم تكن تختلف عن بقية المدارس الشبيهة فى أى بلد إسلامى ، فطرق التدريس تقليدية ، وتتمتع بحرية واسعة ، وفى استطاعة أى إنسان أن يفتح مدرسة أو كتّابا أو خلوة أو مسرية ، ومدلولها جميعا واحد ، وإن اختلفت الأسماء حسب البلد الذى تقام فيه هذه المؤسسة التربوية البدائية . وقد بلغت العربية فى جنوب الصحراء مبلغا عظيما ، وأصبحت اللغة الرسمية فى نيجيريا على امتداد القرن التاسع عشر الميلادى ، وعرفت عدداً من الشعراء المجيدين ، والكتاب الناثرين والمؤلفين ، وكان هذا الشعر موضع دراسة جادة فى عدد من الجامعات المصرية .

فإذا اتجهنا إلى الشرق الأسيوى فإن معلوماتنا عن انتشار اللغة العربية فى العصور الأولى محدودة للغاية ، فقد تبعت الإسلام ، وكانت وراءه على بعد خطوات من وصوله دائما ، واهتم المؤرخون - كما هى العادة - بالأحداث العسكرية إن وجدت ، أو مظاهر الإسلام فى البلاد العربية التى بلغها ، وقلما يعنون بالمراحل التى بلغتها اللغة العربية فى انتشارها وصراعها وانتصاراتها ، وتجئ أفكارنا حول هذه القضية معتمدة أساسا على إشارات قليلة متناثرة فى كتب التراجم والطبقات والتاريخ .

كان الدين الإسلامى أساس التعليم ، وكان هذا بدوره يرتكز على اللغة العربية ، ويذكر الرحالة ابن جبيره المتوفى عام ٦١٤ هـ - ١٢١٧ م ، أنه شاهد الأطفال فى الهند يحفظون القرآن الكريم ويتعلمون الخط من خلال الشعر

والأمثال العربية ، ولا يستخدمون الآيات القرآنية فى تدريب الصبية عليه ، احتراما لـكلام الله تعالى .

وهكذا حفظت اللغة العربية الفصحى رغم أنها لم تكن لغة البلاد ولا لغة الحكومة ، وكانت الكتب المتصلة بالتفسير والحديث والفقه والعقائد والتصوف باللغة العربية ، ولم تكن ترجمت إلى الفارسية حتى ذلك الوقت ، وقدمت لنا شبه الجزيرة الهندية كوكبة عظيمة من كبار العلماء فى مجالات اللغة العربية والعلوم الإسلامية المختلفة .

ونلتقى بالعربية فى سومطرة وجاوة ، وقد كتب بها الكثير من شواهد القبور المزخرفة بالنقوش الإسلامية الجميلة على شكل نباتات وأزهار مكونة من تداخل الكلام ، وتستخدم التاريخ الهجرى ، ودون على بعضها أبيات من الشعر العربى ، فقد حمل شاهد قبر يعقوب ابن عم الملك الكامل ، وكان داعية أسلم على يده خلق كثير ، وتوفى عام ٦٣٠ هـ - ١٢٣٢ م ،البيت التالى من الشعر :

ولو كانت الدنيا تدوم لأهلها   لكان رسول الله حيا وباقيا

غير أن الاستعمار الأوربى عمل بقوة على منع انتشار اللغة العربية والتهوين من شأنها فى كل المناطق التى خضعت له فى أفريقيا وآسيا ، أو التى مارس عليها نفوذاً كبيراً ، حاول اجتثاثها ، وتبغيض المواطنين فيها ، واتهامها بأنها ليست لغة علم ، وأن مفرداتها لن تتسع لمتطلبات الحضارة الحديثة ، وأنه خير لهذه الدول أن تتخذ لها لغة أوربية ، وفى الوقت نفسه عمل على تجميد تدريس اللغة العربية ، ولم يتح للقائمين عليه أن يتقدموا أو يصيبوا شيئا من طرق التدريس الحديثة ، وفى الوقت نفسه أهمل المدارس القرآنية ، ودفع بها بقوة إلى الانكماش والتلاشى .

أنت ترى إذن أن اللغة العربية لم يصبها على امتداد تاريخها وهن ولا ضمور، ولو أن الأدب وهو شئ غير اللغة مرت به مراحل متفاوتة ، من السمو والهبوط ، والتقدم والتخلف ، دون أن يمس هذا اللغة نفسها فى أصولها ، وهو أمر بدهى ما دامت قد ارتبطت بالقرآن الكريم ، وما دام القرآن نفسه موضع رعاية إلهية ، « إنا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون » .

فإذا تجاوزنا ماضى اللغة وحاضرها إلى المستقبل أمكن أن نتصوره فى ضوء أمسها ، والقواعد التى حكمته ، والقوانين التى ساستها ، دون أن نخشى الوقوع فى هاوية المبالغة والافتراض .

أول ما يبدو لنا وضوحا أن القرآن يزداد رسوخا ، والإقبال عليه حفظا وتجويداً يشتد ، وذلك يعنى بداهة ألا خوف على العربية لغة فى مستقبلها القريب أو

البعيد ، لا فى القرن القادم ولا بعد ألف ثالثة من الزمان .

وثمة عوامل كثيرة تجعل هذا العامل أكثر فعالية فى المستقبل أكثر مما كان عليه فى الماضى ، أهمها الصحوة الإسلامية الهائلة التى تمتد من أندونيسيا فى أقصى الشرق إلى سواحل الأطلنطى غربا ، ومن البوسنة شمالا حتى أقاصى أفريقيا جنوبا ، وهى ذات طابع فريد وحاد يبلغ حد الثورة ، ولم تشهدها البلاد الإسلامية على امتداد تاريخها ، بمثل هذا الشمول والاتساع والتزامن .

هذه الأمم الإسلامية غير العربية ، هى فى الجانب الأكبر منها بلا لغة قومية واحدة تجمع بين أفرادها ، وتتوزع حياتها لهجات محلية عديدة ، وأكرهها الاستعمار الإنجليزى أو الفرنسى على أن تتخذ من لغته لغتها الرسمية ، ولغة التفاهم بين قبائلها المختلفة ، سوف تجد مع الصحوة الإسلامية ، وحتى مع الصحوة القومية ، فى هذه اللغات أثرا مقيتا من بقايا الاستعمار البغيض ، يذكرها دوما بممارساته الأليمة ، ومهاناته الفظيعة ، ومعاملته غير الإنسانية لهم ، وحين تبرأ هذه البلاد من عملائه الذين خلّفهم وراءه سوف ترى أن تجاوز هذه اللغة الأجنبية أمر ضرورى ، وأن من الخير اتخاذ لغة تربطها وشائج أقوى ، وليس أقوى من الدين رابطة ! .

وبعد الصحوة الإسلامية يجئ التقدم المذهل فى عالم الاتصالات ، فأى مسلم فى أية بقعة نائية من الأرض يستطيع أن يستمع إلى القرآن الكريم فى أكمل قراءة ، وأفصح عربية ، من آلة صغيرة يحملها فى جيبه ، أو يحتفظ بها فى بيته ، فيجد معها راحة الضمير واطمئنان النفس ، وهو ما يلمسه المؤمنون الطيبون المجهدون فى صراع الحياة .

وهذه الوسائل التقنية الحديثة تعين على تعليم العربية وإجادتها فى زمن أقصر وبجهد أقل ، وهى فى الوقت نفسه توسع من دائرة استخدامها لغة قومية ، وتميت اللهجات المحلية ، واللغات المحدودة الانتشار ، وأحسب أن القرن الواحد والعشرين لن يعرف من اللغات فى أفريقيا غير ثلاث : العربية والهوسا والسواحلية ، وهاتان الأخيرتان متأثرتان بالعربية إلى حد كبير ويمكن أن يذوبا فيها فى مستقبل غير قريب ، ولن تعرف آسيا غير العربية والفارسية والأوردية والصينية واليابانية ، وما غير ذلك فى طريقه إلى التلاشى . وربما حلت العربية أو الفارسية محل اللغة الأوردية .

وقد أدت الصحوة الإسلامية إلى اهتمام الغرب باللغة العربية من جديد ، بعد أن كان اهتمامه بها قد فتر مع انحسار الاستعمار العسكرى والمباشر ، ذلك أن

حاجته إلى مواجهة هذه الثورة وإفشالها وتفريغها من محتواها دفعت به ثانية إلى معاودة دراسة الإسلام للوقوف على مكامن القوة والحيوية فيه ، وطريقه إلى ذلك التمكن من اللغة العربية .

منذ سنوات كنت فى لشبونة عاصمة البرتغال ، وشكا لى أحد المستشرقين هناك أنه بذل جهدا مضنيا فى ترجمة القرآن إلى اللغة البرتغالية ، وأن دار النشر بذلت الجهد نفسه كي تجئ الطبعة أنيقة ، وفي البدء أصيب كلاهما بخيبة أمل مريرة ، لأن الترجمة لم تجد مشتريا ، ولم يقبل أحد عليها ، ولكن ما إن تفجرت الثورة الإيرانية ، وأذهلت العالم الغربى وحيرته ، حتى أقبل الجميع على ترجمته للقرآن ، المفكرون والمثقفون والصحفيون والساسة ونفدت الطبعة فى الحال ، وأعادت الدار طباعتها ثلاث مرات فى عام واحد ، ومن كل طبعة خمسة عشر ألف نسخة ، فاغتنت دار النشر ، واغتنى المستشرق المسكين ، ولم يعد نادما على ما بذل من جهد فى تعلم اللغة العربية ، ومن جهد أكثر فى ترجمة القرآن ! .

لكننا نسرف فى التفاؤل إذا تصورنا أنفسنا وحدنا فى هذا العالم ، فهناك الغرب بخبثه ، والولايات المتحدة بجبروتها ، يرون الصحوة الإسلامية خطرا على مصالحهم ، واللغة العربية تهدد ثقافتهم فى مساحات شاسعة ، وهم يستخدمون الآن كل قواهم للعمل على وقفها ، بتدميرها من الداخل ، وتفريغها من محتواها .

وهم الآن يحاربون اللغة العربية دون هوادة فى البلاد الإسلامية غير العربية أولا ، لأنهم فيما يرون يمكن تشويه إسلامهم بسهولة فى هذه الحالة ، لأن معلوماتهم عن دينهم يستقونها من مصادر غير عربية يسهل تزييفها ، والمثل الواضح لهذا نيجيريا ، وكانت العربية لغتها الرسمية على امتداد القرن التاسع عشر كله ، حتى فجأها الاستعمار البريطانى الخبيث .

وهم من جانب آخر يعملون على إشاعة الفرقة والوهن والدس والوقيعة بين البلاد الإسلامية المختلفة ، وشغلها بغير الجاد من أمورها ، وفى الوقت نفسه يدفعون بلاد البترول الغنية إلى إيقاف أموالها فى أمور مظهرية براقة ، عائدها قليل ، أو لا عائد لها إطلاقا .

وماذا عن الأدب العربى فى القرن الواحد والعشرين ؟ .

إذا كنا نعايش صحوة إسلامية عمادها القرآن ، وإذا كان الأدب هو

الاستخدام الأمثل لهذه اللغة ، فاتصور أن القرن الواحد والعشرين سوف يشهد حركة إحياء أدبية ، كتلك التى شهدتها مصر فى نهاية القرن الماضى ومطلع هذا القرن ، تعود بنا من جديد إلى خير ما فى التراث ، تنشره وتدرسه وتتمثله ، ثم يؤتى ثماره يانعة فى آخر القرن نفسه .

وسوف تختلف القضايا والهموم وطريقة التصوير والتشكيل ، ولكن بناء القصيدة العربية سوف يشهد حركة معاكسة ، تتجاوز الهلهلة والادعاء وتعود بالشعر إلى فحولته ، فتملأ سماء الأدب العربى من جديد أسماء كبار الشعراء على امتداد التاريخ العربى ، وقد انضم إلى قافلتهم البارودى وشوقى وحافظ وخليل مطران ، وعلى محمود طه ، وعلى الجارم ، ومحمود حسن إسماعيل ، ومحمد الجواهرى ، وعبد الله البردونى ، وعمر أبو ريشة ، ونزار قبانى قبل أن يترهل ، وآخرون فى مستواهم .

ولن يبقى من المسرح إلا ما كتب أمير الشعراء وعزيز أباظة ، لأنهما عرفا كيف يسموان على الأحداث العارضة ، ويبلغان القمة شعرا ، وما كتب غيرهما فتسلية مرهونة باللحظة ، أو سياسة مرتبطة بالواقع ، وكلاهما سوف يتغير ، وسوف يكون للقرن الواحد والعشرين مسرحه الخاص به ، يعالج همومه ، ويفيد من تقنياته ، ولن يلتفت إلى الوراء إلا مستلهما القمم فى العربية ، أو من تجارب الآخرين .

فى النثر سوف يتخطى الألف الثانية إلى الثالثة ما كان محكم البناء ، قوى السبك ، فخيم الأسلوب ، جزل العبارة ، فيقرأ أهله إلى جانب التراث القديم ما كتب أحمد حسن الزيات ، ومصطفى صادق الرافعى ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، ونجيب محفوظ ، ويوسف جوهر ، ولا أظن أن يوسف أدريس سوف يكون إلى جوارهم ، لأن لغته مهلهلة ، وجملته ركيكة ، مهما كانت مكانته روائيا وقصاصا .

وبدهى أن قلة أخرى لا تتجاوز أصابع اليد ، من بين الزحام الصاخب ، قد يبقى لها بعض الصدى ، لكن الكثرة الغالبة سوف تخفت ضوءا وصدى فى اللحظة التى تتخلى عنها أجهزة الإعلام التى تدعمها .

سوف تتعدد حواضر الثقافة المنيرة فى الوطن العربى ، تحتفظ القاهرة بمكانتها التاريخية ، وتعاود بغداد أداء دورها العظيم ، وتنشأ إلى جوارهما مراكز أخر فى اليمن والجزائر ، فهما مهيئتان مناخا ومكانا لهذا الدور ، ولن تعود بيروت كما كانت .

ورغم تقدم التقنيات ورخصها ، تظل للكتاب المطبوع أهميته ، وللحرف دوره ، ولن تحل الأذن محل العين ، إلا لمن حرم متعة البصر ! .

أبعاد التخلف الاجتماعى

بقلم : د . مصطفى سويف

لما كان مفهوم التخلف الاجتماعى كما يستخدمه معظمنا ينطوى على قدر كبير من الغموض الذى لا يلبث أن يصبح مثارا للجدل العقيم فقد رأينا أن نبدأ الحديث بتقديم التعريف الذى نرتضيه لهذا المفهوم حتى ينصرف الجهد إلى ماهو خير من اللغو المشتّت للعقول . ومانقصده بالتخلف الاجتماعى هو قصور العديد من مؤسسات المجتمع (توقُّفا أو تباطؤا) عن ملاحقة التغيرات التى تقتضيها مستجدات الحياة الاجتماعية ، وذلك باستحداث التغيرات والتعديلات المناسبة فى المؤسسات ، سواء فيما يتعلق ببنيتها أو فيما يرتبط بها من وظائف وسلوكيات .

ويقتضى التصور العلمى لهذا المفهوم أن نمثل له بامتداد متدرج بحيث إذا تحدثنا عن وجود تخلف اجتماعى فى مجتمعنا كان المقصود بذلك الاشارة إلى توقف المجتمع أو تباطؤ مؤسساته عند موضع بعينه على هذا الامتداد ، وهو وصف يمكننا من المقارنة بين أحوال مجتمعنا فى مراحل الحياة المختلفة ، كما يجعل باستطاعتنا أن نقارن بين مجتمعنا وسائر المجتمعات من حيث درجة التخلف عندنا ودرجته عندهم .

وجدير بالذكر أن هذا التخلف يرسب نمطا بعينه من أنماط الحياة الاجتماعية تختلف مكوناته من مجتمع إلى آخر باختلاف المقومات المسهمة فى تحديد هوية كل مجتمع ، لكنها تتفق فى سماتها العامة أو ما نسميه أبعادها الرئيسية .

والسؤال الرئيسى الذى نطرحه فى هذا المقال هو : ماهى هذه السمات العامة، وكيف تنشأ . وفيما يلى نتقدم للإجابة على هذا السؤال .

● كيف تنشأ أبعاد التخلف وتتبلور ●

هناك مسلَّمة رئيسية لابد من البدء بها فى كل حديث يتناول موضوع التخلف الاجتماعى ، ألا وهى أن مستجدات الحياة لا تفتأ تنهال علينا فى كل مجال من مجالات الحياة . وما دامت المؤسسات الاجتماعية (كالقانون والأسرة ومنظومة العلاقات الاجتماعية حول العمل ..) هى أدوات المجتمع لتمكينه من التوافق مع أحداث الحياة المألوف منها والجديد فقد وجب استحداث أنواع وأقدار مختلفة من التغيير فى هذه الأدوات حتى تظل قادرة على تمكيننا من التوافق مع ما قد يطرأ جديدا على صيغة الأحداث ومفرداتها .

وجدير بالذكر أن السرعة التى تتوالى بها الأحداث بمستجداتها تفوق سرعة استحداث التعديلات المناسبة لها فى أدوات المجتمع للتعامل معها .

ومعنى ذلك أن هناك دائما فائضا من المستجدات يتراكم وتتراكم آثاره دون أن يلقى التعامل المناسب عند أدوات المجتمع، لكن الامور لا تتوقف أبدا عند هذا الحد ، ذلك أن هذا التراكم إذا بلغ مستوى معينا أصبح له ضغط لا يلبث أن يدفع المجتمع إلى استحداث التغيير المطلوب أو ما يقرب منه ، ثم ينقضى وقت بعد ذلك يثبت أو يجمد فيه ما كان قد استحدث من تغير أو تعديل فى المؤسسات ، ولكن تيار المستجدات لا يتوقف . فيظهر التناوب مرة أخرى بين طرفى المعادلة ولا يزال يزداد وتتراكم آثاره ، إلى أن يبلغ التراكم درجة معينة ، عندها يستحدث المجتمع مرة أخرى ما يرى أنه التعديل المكافىء فى مؤسساته ، بنية ووظيفة ، وهلم جرا .

هنا يكون من الأهمية بمكان أن نتبين ما يحدث أثناء فترة التفاوت الناجم عن تراكم المستجدات وآثاره . والذى يحدث هو أن أقدارا من التوتر تتولد بين أبناء المجتمع . وتتسع رقعاتها وتشتد وطأتها شيئا فشيئا . ويكون هذا التوتر ناجما عن

أبعاد التخلف الاجتماعى

كون المستجدات التى نتحدث عنها استثارت بل وخلقت احتياجات لم يكن لها وجود من قبل، وفى الوقت نفسه بقيت المؤسسات بوضعها القائم عاجزة عن إرضاء أو إشباع هذه الاحتياجات . ومع مرور الأيام والأعوام يتضح أن المستجدات لا تكف عن استثارة الاحتياجات فتزيد من وطأتها وتوسع رقعتها بين شرائح المجتمع.

ويتضح للشعور العام تدريجيا أن المجتمع يتعرض فى أحد مجالاته لصراع لا يكف عن التزايد ، داخل النفوس وبين أصحابها ، وأن هذا الصراع بلغ حداً لا يمكن تجاهله . وأنه ينذر بعواقب وخيمة مالم نجد الحل الواقعى الملائم .

وفى غمرة اتجاه العقول إلى البحث عن هذا الحل يتضح أن المعادلة الأساسية التى لابد من الالتزام بحدودها تنطوى على حدين لا ثالث لهما ، هما تيار المستجدات من ناحية ، وكفاءة أداء المؤسسات الاجتماعية من ناحية أخرى ، ثم إذا بالسياق الاجتماعى يتجه نحو استقطاب يسفر عن وجهه شيئا فشيئا ، فتنحاز نسبة من الحلول المقترحة (وما يتعلق بها من محاولات عملية) إلى تسليط الأضواء على ضرورة إحداث تغيير فى المؤسسة أو المؤسسات المعنية بمطالب المستجدات ، بينما تنحاز نسبة أخرى إلى الحث على الوقوف فى وجه المستجدات لتعطيلها بصورة أو بأخرى ، وتتراوح النسب الباقية من الآراء والمحاولات فى توجهاتها قربا أو بعدا من هذين القطبين .

ويقضى المجتمع غالبا وقتا طويلا نسبيا فيما يمكن أن نسميه بمرحلة التوقف المتفجر ، فبين الشد والجذب تتعطل حركة الجماعة نحو الحل الفعلى الذى من شأنه أن يقضى على التوترات المتفشية ويشبع الاحتياجات المستثارة . ويظل المجتمع فى هذه الحالة إلى أن يتجمع قدر من إرادات أفراده وأجهزته (الفاعلة) ويتخلق لهذا التجمع توجه بعينه فلا يلبث هذا التجمع المتوجه أن يترجم الى محصلة لقوى هذه الإرادات يكون من شأنها تحريك المجتمع فى الطريق إلى حل الصراع .

والشىء المهم بالنسبة لموضوعنا الذى نحن بصدده أنه فى هذه الفترة التى تمتد بين بدء الشعور بالاحتياجات الجديدة والتحرك الفعال تحقيقا للحل الذى يرضى هذه الاحتياجات يتخلق مناخ التخلف ، وكلما طال أمد هذه الفترة يزداد هذا

المناخ رسوخا ، وإذا به يفصح تدريجيا عن خصائصه الكبرى أو ما نسميه أبعاده الرئيسية .

الأبعاد الرئيسية للتخلف الاجتماعي

تتخلق الأبعاد الرئيسية للتخلف وتتسق طبيعتها من خلال طبيعة التفاعلات التي تقع في فترة قصور المؤسسات بين أفراد المجتمع بعضهم البعض وكذلك بين المؤسسات بعضها البعض ومايقع أيضاً من تفاعلات بين أفراد المجتمع ومؤسساته . وتشير كثير من الدلائل إلى أن أبرز هذه الأبعاد وأشدها خطرا على الحياة الاجتماعية خمسة . وفيما يلي نذكر هذه الأبعاد واحدا بعد الآخر :

١ ـ التمسك بالشكل على حساب الجوهر :

أما كيف يتخلق هذا البعد فبيان ذلك أن المؤسسات الاجتماعية لا تقوم أبدا بدون إطار أيديولوجي يغلفها ، ويكون لهذا الإطار مهام متعددة تبدأ من تبرير وجودها ، لتصل إلى بيان كيف تتحقق فاعليتها ، ثم تمتد لتصل أخيرا إلى تعميق جذور الإيمان بها في نفوس أبناء المجتمع . ولكن لما كانت هذه المؤسسات قد أصبحت منقوصة الفاعلية في هذه الفترة (فترة القصور دون الاستجابة لمستجدات الحياة) ، ولما كان هذا النقص يزداد كما وكيفا يوما بعد يوم ، فإن الصلة بين الأيديولوجية والمؤسسة تأخذ في الضعف والتهافت حتى تنفصم أو تكاد ، ثم لا تلبث الهوة بين الطرفين أن تتسع فيصبح كل طرف في واد ؛ وهكذا تسود بين الناس سلوكيات لا تحكمها المؤسسة المعنية بالموضوع أصلا ، ومع ذلك يستمر معظم أبناء المجتمع في ترديد مفردات الأيديولوجية .

نضرب لذلك مثلا يزخر بالدلالات والمفردات أن تنتشر السلوكيات اللا قانونية ومع ذلك يظل الجميع يلهجون بذكر القانون ، فضائله وقدراته وضرورة التمسك به . ونظير ذلك يحدث فيما يتعلق بالأسرة . فيما تقضيه هذه المؤسسة من حصار متزايد ، ومع ذلك فالتسبيح بذكرها في صورتها التقليدية لا ينقطع ، والتفاخر بفضائل الأسرة في مجتمعنا لا يتوقف . وقل مثل ذلك في مؤسسة التعليم ، وغيرها ، وغيرها . وتفصح هذه المظاهر الاجتماعية عن نفسها في ممارسات تصدر عن الأفراد كما تصدر عن المؤسسات المنقوصة الكفاءة فإذا بنا أمام نمط من السلوكيات يتكامل فيه النفاق والابتزاز

أبعاد التخلف الاجتماعى

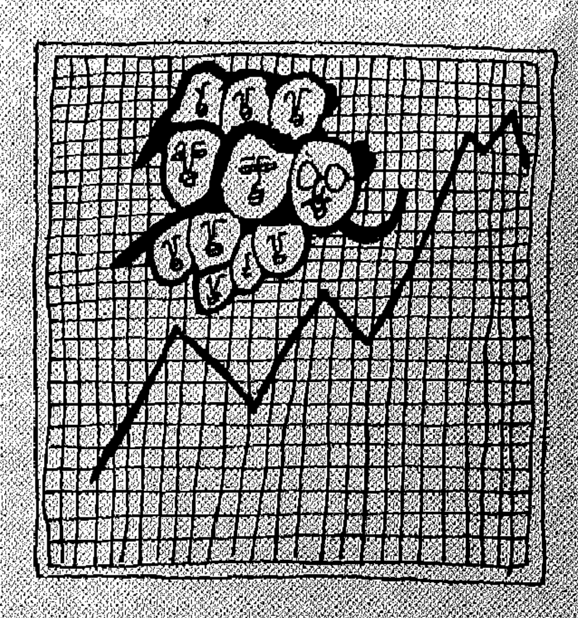
والمداراة ؛ ذلك أن النفاق فى سياقنا الراهن إن هو إلا تمسك بالشكل دون الجوهر ، والابتزاز إن هو إلا مقلوب النفاق، من لم يتمكن منك ينافقك ، ومن يتمكن منك يبتزك ؛ وفى الحالين يكون الرد المكافىء هو المداراة .

٢ ـ التبسيط المخل :

فى فترة تقصير المؤسسات تنشأ أفكار مبتسرة تبدو فى صورة ملاحق مكملة لأيديولوچيات المؤسسات المعنية ، وكأنها تقدم استدراكات لما أوردته تلك الأيديولوچيات ، أو تقدم وصفا وتحديدا لظروف الاستثناء من تلك الأيديولوچيات . ونظرا للطبيعة المتعجلة والمؤقتة لصياغة تلك الأفكار فإنها تقدم منظورا للموقف كله(بما فى ذلك مستجدات الحياة ووظائف المؤسسات) يتميز بالتبسيط الشديد الذى يعتوره الخلل فى كل ما يقدمه من تصوير وتحليل للمواقف الجديدة (التى فرضت نفسها على تيار الحياة) وما يرتبه على ذلك من توصيات بخطوات عملية . نضرب لذلك مثلا عشرات المقالات التى نشرت فى صحافتنا ، وعشرات الآراء التى أبديت من خلال مناقشات الأعضاء فى مجلس الشعب ، كان ذلك فى النصف الثانى من الثمانينيات ، حينما بدا قصور القانون القائم عندئذ (قانون ١٨٢ لسنة ١٩٦٠) عن المعالجة الكفء لمستجدات عالم المخدرات (أى ظهور الهيروين فى السوق غير المشروعة) ولم يكن التعديل القانونى الجديد (رقم ١٢٢ لسنة ١٩٨٩) قد صدر بعد .

فقد امتلأت هذه المقالات والآراء بأفكار لا علاقة لها بالحقائق العلمية المنشورة عن الدوافع إلى تعاطى المخدرات، والنتائج المترتبة على هذا التعاطى ، وحجم المشكلة على مستوى الشرائح الاجتماعية المختلفة ، واكثر من ذلك أنها امتدت الى الجزم (بشجاعة يحسد عليها أصحابها) بأن علاج الإدمان ضرب من المحال ، ثم إلى التوصية بنفى المدمنين أو إعدامهم إذا أمكن .

وباستطاعتنا أن نضرب مثلا آخرا مايصدر منذ سنوات ولا يزال يصدر حتى الآن من آراء ومقترحات خاصة بقصور الأسرة كمؤسسة اجتماعية ، ببنائها الأساسى الذى نعرفه عن استيعاب مستجدات الحياة التى تتوالى علينا من خلال اشتداد الأزمة الاقتصادية وملحقاتها



من بطالة ، وهجرة مؤقتة لأحد الأبوين أو لكليهما سعيا وراء الرزق ، وانحسارا لشكل الأسرة الممتدة ، والتى تتوالى كذلك علينا من خلال مسالك أخرى كالتطور المحلى والعالمى الذى صحبه اتجاه المرأة للتعليم والعمل وما صحبه كذلك من غزو أدوات الاتصال والإعلام واختراقها خصوصية الكيان الأسرى ، إلى آخر هذه المتغيرات والمستجدات جميعا . وبالإمكان كذلك أن نضرب مثلا ثالثا ما يصدر من أفكار وتركيبات لأفعال بعينها بالنسبة لقصور المؤسسات التعليمية فى جميع مستوياتها أمام وابل المستجدات التى يتهال علينا كل يوم وكل ساعة وكل طرفة عين . ومثلا رابعا وخامسا .. الخ .

• وفى هذه الأمثلة جميعا نلمح الطبيعة المتعجلة والمؤقتة لمعظم الصياغات التى تطرح على سبيل الحل ، مما يكشف عن قدر كبير من التبسيط المخل .

٣ ـ الإهدار :

والإهدار سمة عامة أو بعد ثالث من أخطر أبعاد التخلف . ويمكن القول بأنه يتناسب طرديا مع زيادة قصور المؤسسات ويقصد بالإهدار هنا إضاعة ما يمكن أن يُنمى فيتعاظم نفعه يصدق هذا القول على كل ما يمتلكه المجتمع من ثروة مادية وبشرية .

وفى هذا الصدد لا تعوزنا الأمثلة بل تنتابنا الحيرة إذ نحاول الاختيار من بين المعروض أمامنا مما لايكاد يقع تحت حصر؛ فالإهدار الناجم عن قصور المؤسسة التعليمية فى المال والبشر والحاضر والمستقبل أمور أوضح من أن تحتاج إلى تفصيل القول فى وصفها وتفسيرها ، وهى تنجم عن القصور نفسه فى آليات المؤسسة ، كما تتفاقم نتيجة للصراعات التى تدور من حولها بين مدعى القدرة على العلاج بدءاً من أولئك الذين يحاولون إدخال تغييرات مبتسرة وغير مدروسة على المؤسسة نفسها وانتهاء بمن يتجمدون أو يتبلدون أمام تيار المستجدات وكأنهم بتبلدهم هذا يقيمون فى وجهه سدا

أبعاد التخلف الاجتماعي

عساه يمنع تدفق هذا التيار . ومثل ذلك يمكن أن يقال عن الإهدار الناجم عن القصور في مجالات سائر المؤسسات بدءا بالأسرة وانتهاء بالدولة التي هي مؤسسة المجتمع لتصريف أمور السلطة .

٤ ـ اختزال الحياة الإنسانية :

إذا طال أمد مرحلة التخلف ، كما هو الحال في مجتمعنا ، تمكنت من الجميع نزعة إلى اختزال الحياة الإنسانية ، بمعنى تضييق آفاقها وإمكاناتها فالأصل في الحياة الإنسانية أنها ليست مجرد حياة بالمعنى البيولوجي (تقتصر على التغذية ، والإخراج ، والنمو ، والتكاثر) تضاف إلى حياة سائر الكائنات من نباتات الأرض ودوابها ، لكنها حياة تتميز بالإضافة إلى جذورها البيولوجية بخصائص ووظائف تعلو بها فوق تلك الجذور ، إذا تكشف عما نسميه بالوظائف النفسية (كالخيال ، والتفكير المجرد ، والطموح) والوظائف النفسية الاجتماعية (كاللغة والقيم) والوظائف الاجتماعية (مثل تقسيم العمل الاجتماعي) . فاذا طالت مرحلة التخلف فإن ذلك يكون مصحوبا حتما بمزيد من قصور المؤسسات عن أداء وظائف هامة كانت تؤديها من قبل بكفاءة رفيعة المستوى، فاذا هي تؤديها بصورة وضيعة المستوى، ثم إذا بهذه الوظائف تتآكل واحدة بعد الأخرى .

والقاعدة المنظمة لمسيرة هذا التآكل أنه يبدأ بإصابة المهام التي تقوم بها المؤسسات استجابة لمطالب الاحتياجات الراقية في الإنسان ، أي الاحتياجات التي يحقق الإنسان من خلال إشباعها إنسانيته ، ويظل هذا التآكل يستشري حتى يصيب معظم تلك الاحتياجات بالتدهور والذبول ، وبذلك تنكمش المساحة الانسانية للإنسان حتى تصبح حدودها لصيقة بحدوده الحيوانية . وهو أمر نقترب منه في مجتمعنا اليوم ، ويلزمنا أن نخشى مما قد يصير اليه في المستقبل غير البعيد نعم إن الدرجة التي بلغها اختزال الحياة الإنسانية لدينا لا تزال تتركنا في موضع أفضل بكثير مما بلغته في مجتمعات أخرى نشهدها متناثرة حولنا حيث بلغ قصور المؤسسات درجة الانهيار الذى أصبح يتهدد الجذور الحيوانية نفسها لحياة البشر في تلك المجتمعات .

ومع أننا نستبعد أن يلم بمصر ما

يمكن أن يصل بها إلى هذا الحضيض فإننا لانزال نخشى ألا يصمد هذا الاستبعاد أمام مستجدات الحياة الدولية الجديدة من ناحية وقصور المؤسسات المتفاقم لدينا من ناحية أخرى .

٥ ـ هبوط قيمة الكيف وصعود قيمة الكم :

في غمرة أحداث القصور (قصور المؤسسات) وهي تقوم بدور عوامل النحر في النفوس ، وما يصحب ذلك من إهدار متواصل ومن استشراء النزوع إلى اختزال معاني الحياة الإنسانية ومطالبها ، يتبلد الشعور بقيمة السعي طلبا للكيف (إذ يصبح هذا الطلب طرفاً يضني صاحبه ويرهق المحيطين بـه) ويصبح المطلب الرئيسي هو الكم ، ويصبح الكم هو أساس التقويم . وقد يعتبر ذلك جزءا من عملية الاختزال التي لا تنفك تجري في كيان المجتمع ، إلا أن هذا الجزء فيما نرى يحمل في نفسه وزنا يؤهله لأن يصبح بعداً قائما بذاته بين أبعاد التخلف لما ينطوي عليه من تراجع ونكوص فيما يتعلق بالمعايير ، معايير المفاضلة إزاء كل ما يتعلق بإرضاء مطالب البدن ، والذوق ، والعقل . ولا جدال في أن مظاهر هذا التراجع تكثر وتتراكم من حولنا ، وقد تكون أكثر وضوحا في نتاج بعض المؤسسات (كمؤسستي التعليم والثقافة)، ولكن إنصافا للحق فإن عوامل التراجع لا تقل عن ذلك تحققا (وإن لم تبرز آثارها بالوضوح نفسه) في نتاج سائر مؤسسات المجتمع .

والخلاصة :

أننا قدمنا في هذا المقال حصرا للأبعاد الرئيسية الخمسة للتخلف الاجتماعي ، وناقشناها بالقدر الذي يسمح به المقام . وأوضحنا كيف تتخلق هذه الأبعاد وتتبلور في مناخ التخلف إذا طال العهد به ، ومن قبل قدمنا تعريف التخلف الاجتماعي كما نلتزم به .

ويبقى بعد ذلك أن ننبه إلى نقطتين لايجوز إغفالهما في هذا السياق :

النقطة الأولى أننا على حرصنا توفير قدر كبير من التبسيط في الصورة التي قدمناها وذلك طلبا للحد الأمثل من الوضوح . ولكن ربما جاز للقارىء أن يكمل الحديث بأن يبذل الجهد اللازم لتصور التفاعلات البالغة التعقد بين كل من هذه الأبعاد الخمسة التي ذكرناها والأربعة الأخرى ، وهو الأمر الذي يزيد من معدلات التخلف ومن تعقد مظاهره .

النقطة الثانية : هي أن التخلف الاجتماعي مسئوليتنا جميعا ، حكّاما ومحكومين ، كل حسب موقعه على خريطة تشابك الأدوار الاجتماعية ، ولا مهرب لأحد منا إزاء هذه المشاركة في المسئولية ؛ فعسى أن يصادف قولنا هذا آذانا تصغي وعقولا تعي ، ونفوسا تهتدي .



هكذا تكلم خالد محى الدين

بقلم :
د . رءوف عباس

خالد محى الدين من بين القلائل من صناع ثورة يوليو الذين حظوا بقبول ملحوظ عند الجماهير ، فضلا عن تمتعه باحترام من يتفقون معه ومن يختلفون على حد سواء ، ولعل ذلك يرجع إلى تمسك الرجل بمبادئه التى لا يحيد عنها ولا يساوم بها، وهى نفس المبادئ التى نقلته من بؤرة الضوء فى العامين الأولين للثورة إلى مساحة عريضة من الظلال ، وهى نفس المبادئ التى جعلته يوقف حياته لخدمة بلاده فى حدود الهامش الضيق الذى أتيح له . ولعل ذلك يرجع أيضا إلى ما امتاز به الرجل من نزاهة وعزة نفس جعلتاه يترفع عن التورط فى صراعات الصغار ، ويتمسك بأسلوب رفيع من الحوار السياسى ،

وفى الشهر الماضى فاجأ خالد محى الدين الرأى العام المصرى والعربى بكتابه «.. والآن أتكلم» الذى سبق ونشر بعض فصوله الهامة على صفحات «الأهرام» و«الأهالى» مما جعل مادته موضع حوار بين المصريين على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية والثقافية ... فى البيوت والشوارع ومواقع الانتاج .

والكتاب - كما صرح بذلك مؤلفه - هو الجزء الأول من ثلاثة أجزاء وعد بإصدارها تباعا ، ويضم شهادته عن السنوات السابقة على الثورة (سنوات الإعداد) ، ثم الأحداث التى شهدتها مصر مع بداية الثورة من خلال موقعه فى جماعة القيادة أو مجلس قيادة الثورة حتى خروجه من مصر فى أعقاب أزمة مارس ١٩٥٤ منفيا إلى سويسرا ثم ذكرياته فى المنفى حتى العودة قرب نهاية ١٩٥٥ .

● صور بلا رتوش ●

وسر الشعبية التى حظيت بها مذكرات خالد محى الدين «.. والآن أتكلم» يعود إلى الأسلوب الرفيع الذى كتبت به ، ولا أعنى بذلك براعة اللغة وبلاغتها فحسب، بل أسلوب معالجة الأحداث التى تناولها الرجل ، وخاصة عند حديثه عمن اختلف معهم فى الرأى ، فكان دائما يقنع القارئ بموضوعيته ، فهو يتناول ما لتلك الشخصيات وما عليها ، ويترك للقارئ الفطن أن يدرك الأمور كما يشاء ، فأنصف الجميع : عبد الناصر ، والسادات والبغدادى ، وصلاح سالم ، ومحمد نجيب وغيرهم ، ولكنه رسم للجميع صورا بلا رتوش ، فكانت معالجة خالد محى الدين دربا من الكتابة السياسية الراقية التى قال من خلالها ما يريد دون أن يترك لأحد فرصة مآخذته على شئ ، ومن هنا يعبر الكتاب عن حنكة سياسية فائقة .

وقد كتب خالد محى الدين مذكراته فى صورة سيرة ذاتية ، حدثنا فيها عن نشأته فى بيت جده لأمه شيخ طريقة السادة النقشبندية ، وكان من الممكن أن يخلف جده فى شياخة الطريقة لولا توجيهه وجهة أخرى ، ثم طفولته ورحلاته خلال الاجازات الصيفية إلى بلدته «كفر شكر» حيث أسرته من الفلاحين الأثرياء ، وتفتح وعيه السياسى فى الثلاثينات بمدرستى فؤاد الأول ثم فاروق الأول بالعباسية حى الطبقة الوسطى المصرية عندئذ ، ثم التحاقه بالكلية الحربية عام ١٩٣٨ بعد حصوله على شهادة الثقافة ، وهناك التقى بكثيرين ممن شاركوا فى صنع ثورة يوليو ١٩٥٢ بدرجات متفاوتة ، منهم : مجدى حسنين ، ولطفى واكد ، وثروت عكاشة ، وحسن ابراهيم ، وصلاح سالم ، وكمال الدين حسين ، وعبد اللطيف البغدادى ، وصلاح هدايت ، جميعهم من فتية الثلاثينات الذين عاصروا أزمتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، رأوا دستور ١٩٢٣ يترنح أمام ضربات القصر ، وبهرت بعضهم

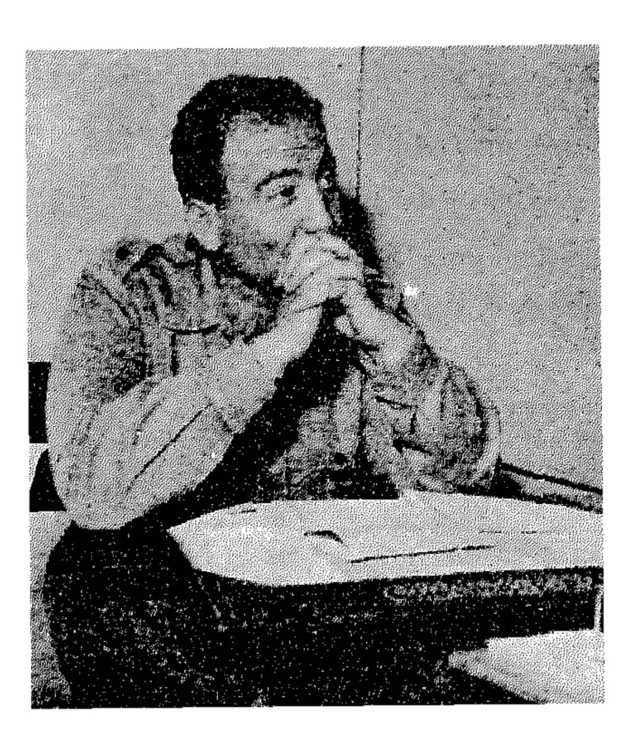
الحركات السياسية المتأثرة بالفاشية : مصر الفتاة ، والأخوان المسلمين ، خالد نفسه كان معجبا بأحمد حسين زعيم مصر الفتاة أيام كان طالبا بالثانوى ، كما طرق مع جمال عبد الناصر باب الأخوان المسلمين نحو منتصف الأربعينات قبل أن تستهويه الماركسية بتأثير صديقه عثمان فوزى ، فانضم لايسكرا أياما ثم ما لبث أن تركها عندما وجد أن مسئول الضباط بالمنظمة موظف إدارى بالجيش ، واحتفظ بصداقة حميمة مع حديتو ورجالها (وخاصة أحمد فؤاد) دون أن يرتبط بالمنظمة تنظيميا تنفيذا لطلب جمال عبد الناصر أن يظل أعضاء تنظيم الضباط الأحرار بعيدا عن تأثير التنظيمات السياسية الأخرى .

• اللقاء مع عبد الناصر •

كان لقاؤه بجمال عبد الناصر عام ١٩٤٤ عن طريق عبد المنعم عبد الرءوف الشخصية الغامضة حتى الآن ، واستمر يعمل معه فى تنظيم الضباط الأحرار منذ تأسيسه عام ١٩٤٩ (وهو التاريخ الذى أكده المؤلف ليقطع بذلك حبال الشك التى مدتها الكتابات الأخرى حول بدايات التنظيم) ، ويؤكد زعامة عبد الناصر للتنظيم منذ البداية فى رد غير مباشر على أراجيف السادات فى «البحث عن الذات» كان أعضاء التنظيم فى السنوات الأولى يتفقون على هدف واحد هو انهاء الفساد وتحرير البلاد دون أن يربطوا أنفسهم ببرنامج محدد ، وعندما صاغ خالد محى الدين ذلك البرنامج وعرضه على لجنة القيادة تردد الجميع فى تبنيه رسميا ، وطلبوا من خالد أن يطلع عليه الضباط فقط دون أن يتولى طباعته وتوزيعه ، حتى اسم «الضباط الأحرار» الذى عرف به التنظيم كان من اقتراح بعض ضباط «حديتو» الذين انضموا إلى التنظيم كأفراد . حدث كل ذلك رغم أن التنظيم كان يمثل جبهة وطنية ، والبرنامج يمثل الاطار الذى يجمع حوله الجبهة الوطنية ، غير أن عبد الناصر - على ما يبدو - لم يشأ أن يفتح الباب لجدل نظرى حول البرنامج فى الوقت الذى يتطلب فيه الموقف وحدة الجهود والقلوب ، لذلك قبل عبد الناصر انضمام ضباط من مختلف الاتجاهات إلى التنظيم منهم من عرفوا بميولهم الفاشية ، ومنهم من كانوا أعضاء فى الإخوان المسلمين أو مناصرين لها ، ومنهم من كانوا شيوعيين، ولكن .. أحدا لم يكن عضوا بأى حزب من الأحزاب الليبرالية - بما فى ذلك الوفد - فقد كان شباب الثلاثينات قد كفروا بتلك الأحزاب مما سيكون له انعكاسه على موقف مجلس القيادة من الأحزاب بعد الثورة .

ومن الطريف أن كل من عالجوا فى كتاباتهم فترة الإعداد للثورة فهموا علاقة الضباط بالتنظيمات الأخرى فهما خاطئا ،

فالاخوان المسلمون ينعون على جمال عبد الناصر نكثه بالوعد وخروجه على التنظيم ، وظن البعض أن عبد الناصر كان عضوا بحديتو يحمل اسما حركيا هو موريس (وهى واقعة صححها خالد محى الدين عند حديثه عن منشورات الضباط ، فقد كان هذا الاسم هو الذى استخدمه عبد الناصر عند استلامه المنشورات من أحد أعضاء حديتو من الأرمن المصريين ليس إلا)، وظل عبد الناصر يمارس لعبة دقيقة حذرة، وهى الاستفادة بكل هؤلاء لخدمة الهدف .



الصاغ خالد محى الدين عام ١٩٥٢

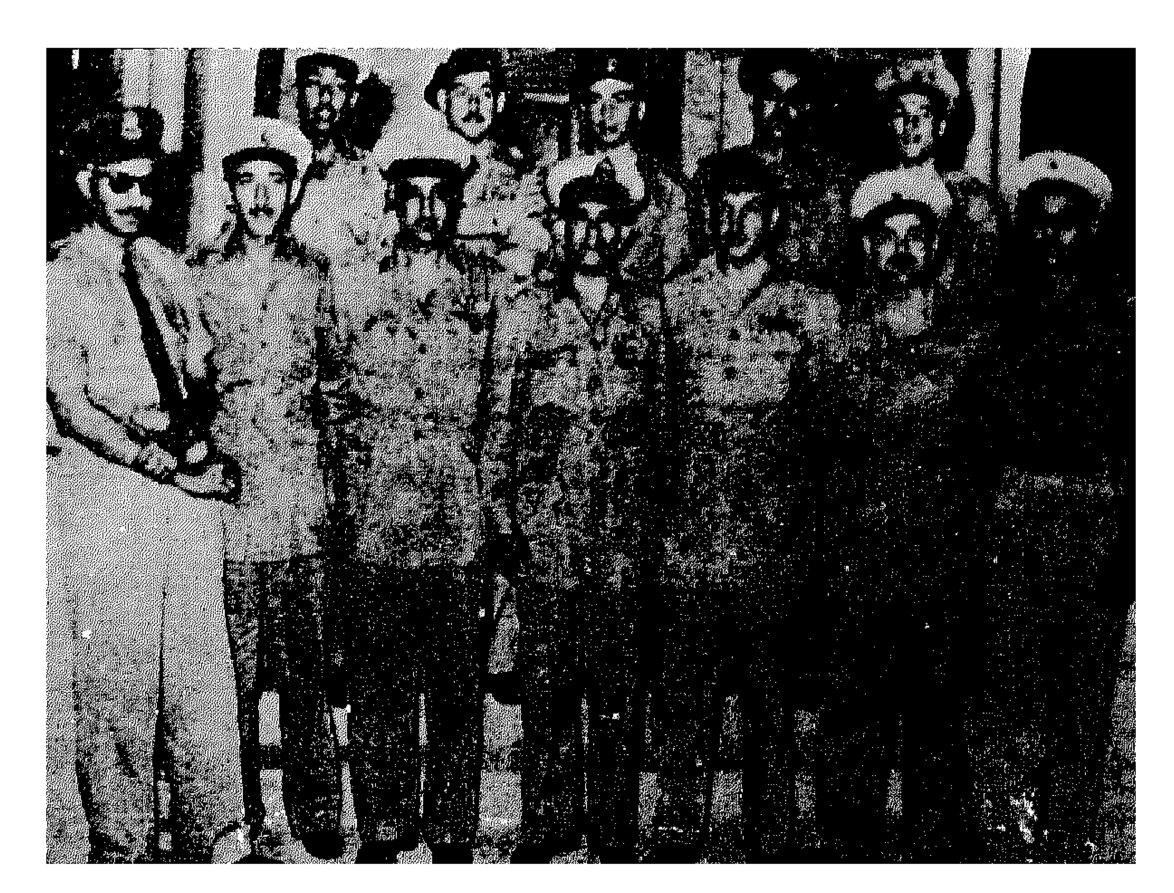
• الرجل الكتوم •

كان عبد الناصر يمسك بكل الخيوط داخل التنظيم قبل الثورة وداخل مجلس قيادة الثورة بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ولم يكن يسمح لكل زميل من زملائه إلا بخيط واحد فقط ، ومن هنا جاءت روايات كل من كتب من رجال يوليو - بما فيهم خالد محى الدين - تعبر عن جانب واحد مما حدث هو ذلك الذى شارك فيه صاحب المذكرات وألم به ، وحتى عندما نجمع تلك الكتابات معا ، تظل هناك مساحات باهتة فى الصورة لا يمكن أن يوضحها إلا شخص واحد هو : ذلك الرجل الكتوم الذى كان يجيد الاصغاء إلى محدثيه بينما عقله يعمل بدقة لربط كل شئ ببعضه البعض ، ويحرك الجميع دون أن يستثيرهم ، إنه جمال عبد الناصر . ولكن لسوء حظ المؤرخين أن عبد الناصر لم يترك مذكرات خاصة ، فمن اقتربوا منه يؤكدون أنه كان يميل إلى التعامل الشفوى بعد امتلاكه زمام السلطة ، وكأنه كان يتبع نفس أسلوب العمل السرى ، حيث يحرص على ألا يترك وراءه دليلا يستخدم ضده ، ولكن لا بد أن أوراق عبد الناصر تحمل الكثير ، ولا يمكن أن يكتب تاريخ دقيق لثورة يوليو دون الرجوع إلى تلك الأوراق وإلى وثائق مجلس قيادة الثورة ووثائق رئاسة الجمهورية فى فترة حكم عبد الناصر ، ولكنها لا زالت - للأسف الشديد - بعيدة عن متناول المؤرخين . ولا ندرى ماذ فعل السادات ورجاله بلجنة كتابة تاريخ الثورة التى شكلها ، ولا نعرف أين ذهبت المادة التى جمعت أو حتى طبيعة تلك المادة .

لقد قيض لتاريخ أسرة محمد على أن يحفظ من الضياع بفضل عزيمة الملك فؤاد الأول الذى أسس دار الوثائق التاريخية وألحقها بقصر عابدين وجمع الوثائق ورتبها ونظم سلسلة من الدراسات لتاريخ محمد على وابراهيم واسماعيل ، فأفادت هذه الوثائق كل من كتب فى تاريخ مصر ، أما ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، فلم يقيض لها من يحفظ تاريخها من الضياع ، ومن هنا تأتى أهمية كتاب خالد محى الدين باعتباره كشفا عن أحد الخيوط التى أمسك بها عبد الناصر .

● سياسة الباب الموارب ●

ودليلنا على أن عبد الناصر أبقى لنفسه الكثير مما لم يطلع عليه أقرب الناس إليه إلا بقدر معلوم ، ومما لم يطلع عليه مجلس قيادة الثورة ، أن كتاب خالد محى الدين ، وكذلك مذكرات كل من كتب من رجال يوليو جاءت خلوا من ذكر أخطر التطورات التي كانت تجرى على صعيد السياسة الخارجية دون أن تطرح على بساط البحث فى مجلس قيادة الثورة الذى تركت له على ما يبدو أمور السياسة الداخلية . من تلك التطورات الاتصالات الأمريكية مع عبد الناصر بشأن اشراك مصر فى منظومة الأحلاف التى تخطط لها الولايات المتحدة الأمريكية ، ومراوغة عبد الناصر على طريقة «الباب الموارب» فلا يرفض صراحة ولا يقبل صراحة ، وإنما يطلب أولا مساعدة الولايات المتحدة لمصر اقتصاديا ومدها بالسلاح لتصبح ندا لغيرها ، ومساعدتها على انهاء الوجود البريطاني فى مصر ، وحل مشكلة فلسطين حتى تصبح مطلقة اليد فى النظر إلى مسألة التحالف ، فى هذا السياق كانت الاتصالات المصرية الاسرائيلية التى ذكر خالد أنه سمع بها ، وكانت من خلال الولايات المتحدة وهى الاتصالات التى طلب فيها عبد الناصر تأمين اتصال أرضى بين مصر والشرق العربى من خلال جعل النقب عربية ، وعندما رفضت اسرائيل واعتبرت الموضوع ابتزازا يهدف إلى بتر نصف أراضيها ، تعلل عبد الناصر أمام الأمريكان بالتعنت الاسرائيلى ، إلى غير ذلك من تفاصيل نجدها فى الوثائق البريطانية والأمريكية ولانجد لها صدى عند خالد محى الدين أو غيره . وكان خالد واضحا تماما عندما أكد أنه لم يكتب إلا ما شارك فيه وما استطاع تحقيقه من أحداث من خلال رفاقه من شهود العيان ، ولذلك نفهم من غياب تلك الاتصالات من روايته وروايات غيره أن عبد الناصر كان يدير أخطر الأمور منفردا - حتى فى ذلك الوقت المبكر - دون أن يطلع مجلس قيادة الثورة على فحوى تلك الاتصالات ، أو بعبارة أخرى أدار عبد الناصر - على ما يبدو - دفة السلطة بنفس الطريقة التى كان يدير بها دفة تنظيمه السرى : التكتم الشديد ، والريبة، والحذر ، ولعل ذلك يفسر



خالد محى الدين أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة عام ١٩٥٢

عشقه للمعلومات (الذى حدثنا عنه خالد) وحرصه على جمعها واهتمامه بأجهزتها حتى نمت نموا سرطانيا خنق النظام نفسه فى نهاية الأمر، ولعل ذلك - أيضا - يفسر اعتماد عبد الناصر على ضباط الصف الثانى الذين ملأ بهم المواقع الحساسة فى السلطة رغم حداثة عهدهم بالتنظيم، وحرصه على التخلص من الحرس القديم تدريجيا، فلا عجب - إذن - أن نجد خالد يكتب بقلم يقطر مرارة عن تفشى نفوذ هؤلاء رغم أن بعضهم حقق مكانته من خلال الوشاية بالآخرين أيام أزمة مارس ١٩٥٤، ولكنها لعبة السيطرة الفردية التى أجادها عبد الناصر.

• نجيب والضباط الأحرار •

ومن الاكتشافات الهامة التى نجدها عند خالد محى الدين ما ألقاه من أضواء على محمد نجيب، فهو يؤكد أن الرجل كان وثيق الصلة بالضباط الأحرار، شأنه شأن غيره من الضباط الوطنيين، وأنه كان يعلم بقيام الثورة ورئاسته لها، وإن كان خالد لم يقل إنه كان عضوا بالتنظيم فرتبته الرفيعة تحول دون أن ينضم لتنظيم يرأسه أحد صغار الضباط، ولكن خالد بدد أسطورة الاتجاه الديمقراطى لمحمد

نجيب ، مؤكدا أنه كان دائما فى صف الانصراف عن الديمقراطية ، وأن السلطة كانت همه الأول ، لذلك عندما أصبح مهددا بفقدها تمسك بأهداب الديمقراطية لعلها تبقيه فى السلطة إذا كسب الجماهير فى صفه ضد مجلس قيادة الثورة ، ونجح فى تحقيق أهدافه .

ويجرنا ذلك إلى الحديث عن قضية الديمقراطية التى تحتل جانبا كبيرا من كتاب خالد ، والتى اختصم بسببها مع زملائه حتى ناقشوا أمر اعتقاله فى مواجهته ، ثم كلفه حريته وأبعده عن السلطة عندما كان الوحيد الذى رفض مبدأ : إما الثورة ، وإما الديمقراطية ذلك المبدأ الذى طرحه عبد الناصر على المجلس بعد أن غدا هذا الاتجاه مستشارو المجلس من رجال القانون (عبد الرزاق السنهورى وسليمان حافظ) ودعمته صحافة أخبار اليوم بالمقالات التى كان يكتبها مصطفى أمين وعلى أمين ضد الديمقراطية .

• نموذج للطبقة الوسطى •

لم يقف خالد محى الدين وحده فى صف الديمقراطية داخل مجلس القيادة ، بل كان وحده الذى وقف فى صفها فى بيته وبين أفراد أسرته التى تعد نموذجا دقيقا للطبقة الوسطى المصرية ، والحق أن الديمقراطية الليبرالية كما فهمها ودافع عنها خالد لم تعط فرصة حقيقية فى التجربة المصرية ، فقد جاء دستور ١٩٢٣ مدعما للسلطة الأوتقراطية للملك من خلال الصلاحيات التى كانت له ومن بينها حق تعطيل الدستور وفض البرلمان واقالة الوزارة واصدار قوانين بمراسيم . ومن ثم كانت الانقلابات الدستورية التى أطاحت بدستور ١٩٢٣ . هذا فضلا عما شاب التجربة الليبرالية فى ظل الدستور من سلبيات تمثلت فى تزييف ارادة الشعب بالتلاعب فى صناديق الانتخاب ، والتلاعب فى تحديد الدوائر الانتخابية ، والمحسوبية التى تمثلت فى الاستثناءات الشهيرة وإعلان الأحكام العرفية لفترات طويلة بما يتبعها من تقييد الحريات وشاركت الأحزاب السياسية اللبرالية فى ذلك كله بدرجات متفاوتة - بما فى ذلك الوفد - مما جعل شباب الثلاثينات (الذين جاء منهم رجال يوليو ، يمقتون الليبرالية ويبحثون عن بدائل لها ، بل كان فساد الحكم والسيطرة الأجنبية على البلاد واقتصادها القومى من بين أسباب سخط الضباط الذين التفوا حول تنظيم الضباط الأحرار ، وما لبث أن تم الربط بين مثالب التجربة وسلبياتها كما عرفتها مصر ، والديمقراطية كنظام سياسى ولذلك كان اختيار مجلس القيادة القائم على استحالة الجمع بين الديمقراطية والثورة ، الذى قصد به استحالة استمرار الثورة مع عودة الأحزاب الليبرالية التقليدية والحياة النيابية التقليدية ، له ما يبرره .

لم يكن الأمر يتطلب جهدا خارقا أو مالا وفيرا حتى يتحرك الشارع المصرى ضد استمرار الديمقراطية طالما ارتبط ذلك فى أذهان الناس بتجربة مريرة تمتد من ١٩٢٣ حتى ١٩٥٢ لم يستطع النظام خلالها أن يحل أزمة مصر السياسية والاجتماعية . وارتسم فى أذهان الجماهير أن عودة النظام السياسى بصيغته القديمة يعنى ضياع المكاسب القليلة التى حققتها الثورة وكان من المأمول أن تحقق ما هو أكثر منها ، وخاصة الاصلاح الزراعى والغاء الألقاب وغيرهما من المكاسب السريعة التى تحققت فى العامين الأولين للثورة ، لذلك كان هناك ربط بين الديمقراطية وعودة النظام القديم جعل من السهل أن تنفر الجماهير منها ، وهى اللعبة التى لعبتها أخبار اليوم وأصحابها على ومصطفى أمين .

ومن ثم كان الاختيار للثورة بغير ديمقراطية أمرا متوقعا ، وهو مالم يستوعبه خالد محى الدين فى ذلك الحين .

● المشاركة فى صنع القرار ●

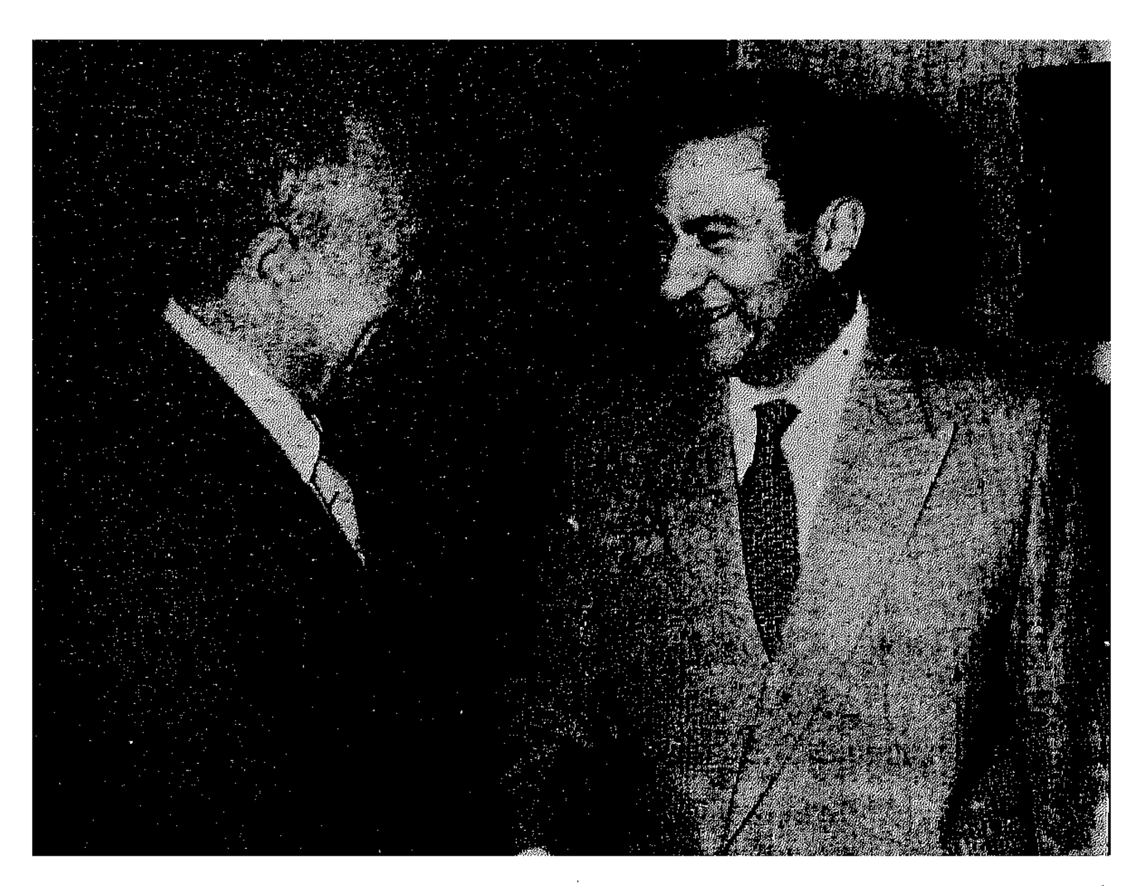
ومهما كان الأمر ، فإن ما يثير الدهشة حقا ما أورده خالد محى الدين عن موقف عبدالناصر من فكرة المشاركة السياسية للشعب عند لقائه مع ضباط المدفعية فى اجتماع «الميسى الأخضر» الشهير إذ ذكر أن الشعب لا يستطيع تقدير مصلحته الحقيقية بسرعة ، وربما لا تكفى ثلاث سنوات كفترة انتقالية لأن الشعب لا يمكنه تحمل مسئولية الحرية ، وقال : «الشعب الذى لا يستطيع أن يتحمل مسئولية الحرية ، لا يمكنه أن يستمتع بها » !! وفى اجتماع آخر لمجلس قيادة الثورة وصف أحد الأعضاء الشعب المصرى بعبارات نابية عف قلم خالد عن ذكرها . وهنا نتساءل : هل خرج أولئك الضباط يحملون رءوسهم على أكفهم فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من أجل شعب لا يتحمل مسئولية الحرية ؟ أم خرجوا لتعليمه الحرية ؟ وهل هناك علاقة بين هذا الفهم وما قاله عبدالناصر فى ميدان المنشية بالاسكندرية يوم أطلق عليه الإخوان الرصاص : «... زرعت فيكم العزة زرعت فيكم الكرامة ، إن مات جمال عبدالناصر أو قتل جمال عبدالناصر فكلكم جمال عبدالناصر»؟ . هل خرجت طليعة الضباط الأحرار لتفرض وصاية طبقتها الاجتماعية (الطبقة الوسطى الصغيرة) على الجماهير المصرية ؟ . وهل لهذا كله علاقة بموقف جمال عبد الناصر من الجماهير طوال حكمه فهو يتعامل معها من خلال الاصلاحات الجذرية ، التى تخدم مصالحها ولكنه لا يسمح لها بالمشاركة الحقيقية فى صنع القرار على أى مستوى والاكتفاء بتوجيه حركة الجماهير من خلال أجهزة الإعلام والخطب السياسية ، مما أدى إلى السلبية الشديدة التى نشكو منها والتى قضت فى نهاية الأمر على أهم ما حققته ثورة يوليو من مكاسب دون أن

تتحرك الجماهير التى تعودت أن تجلس فى مقاعد المتفرجين – للدفاع عنها . ولا زلنا نذكر خطبة عبدالناصر الشهيرة ردا على مظاهرات الطلبة عام ١٩٦٨ مطالبين بالحرية (عاوزين حكومة حرة .. العيشة بقت مرة !!) فأبدى عبدالناصر دهشته من المطالبة بالحرية وتساءل أليست الحرية هى تكافؤ الفرص واتاحة الفرصة للجميع للتعليم والعمل !!

● فى المنفى ●

وما كادت تنقشع أزمة مارس ١٩٥٤ بانتصار فكرة استمرار الثورة على حساب الديمقراطية حتى كان على عبدالناصر أن يتخلص من خالد محى الدين لأنه «زى العسل» ووجوده سيجلب حوله الذباب (يقصد الضباط المؤيدين للديمقراطية من رجال الفرسان) وطلب منه أن يغادر البلاد إلى سويسرا حيث ظل هناك مع أسرته منفيا ، بينما أخذ نجم جمال عبدالناصر يرتفع كثيرا حتى أصبح من قيادات العالم الثالث فى أعقاب مؤتمر باندونج . وسبق ذلك عقد صفقة السلاح مع الاتحاد السوفيتى ورفض سياسة الأحلاف وتبنى سياسة الحياد الإيجابى .. كل تلك التطورات كانت دلالات على الاتجاه التقدمى للنظام ، ولكن البوصلة كانت لا تزال تشير إلى عكس اتجاه الديمقراطية . ويبدو أن خالد محى الدين قد استفاد من فترة المنفى فى مراجعة تامة لموقفه بدأت بتسجيل مذكراته فى «الكراسة الزرقاء» ، كما انكب على القراءة فى الأدبيات السياسية ، وداعبته فكرة العودة لمتابعة النضال على أرض الوطن فى إطار التغيرات التى حدثت ، وشجعه على العودة – بل وألح عليه فى ذلك – هنرى كورييل مؤسس حديتو الذى كان مهتما عندئذ بفتح قنوات اتصال بين النظام الجديد فى مصر وبين إسرائيل سعيا وراء إبرام سلام بين البلدين يدعم وجود إسرائيل فى المنطقة .

كانت هذه هى المرة الأولى التى يشير فيها خالد إلى كورييل ولكنه لم يفسر لنا سر هذا التأثير السحرى الذى تمتع به كورييل على المناضل المصرى فرسم له طريق الاتصال بعبدالناصر وشجعه على الكتابة له ، فهل كانت هناك صلة ما بين عبدالناصر وكورييل عن طريق ثروت عكاشة الذى كان ملحقا عسكريا بباريس وكان على صلة وثيقة بهنرى كورييل وهو الذى أعطى كورييل عنوان خالد فى سويسرا ، ورتبت اللقاء سيدة يهودية من حديتو كانت زوجة لعثمان فوزى صديق خالد ؟ هذه كلها تساؤلات تتضمن أبعادا لا تزال خفية لا نجدها فى كتاب خالد الذى لم يكتب – طبعا – إلا ما أراد لنا أن نعرفه ، ولا زال يحتفظ – على مايبدو – بالكثير .



الرئيس حسنى مبارك مع السيد خالد محى الدين رئيس حزب التجمع .

وعلى كل ، فإن كتاب خالد «والآن أتكلم» يضع بين أيدينا كمشتغلين بالتاريخ خيطا جديدا من خيوط ثورة يوليو ١٩٥٢ ، ويلقى أضواءً هامة على جوانب كانت غير واضحة من أحداث الثورة منذ أن كانت تنظيما جنينيا حتى اشتد عودها . ولعل الجزءين التاليين يلقيان المزيد من الأضواء على الأحداث التى عاصرها خالد من وراء كواليس السلطة . ويحدونا الأمل أن تجد ثورة يوليو ١٩٥٢ من يقتدى بالملك فؤاد فينقذ وثائق الثورة من الضياع ويتيحها للباحثين وهو دور نرشح له الرئيس حسنى مبارك ، وخاصة أنه رأس فترة لجنة كتابة تاريخ الثورة أيام كان نائبا للرئيس ، فهل يستجيب لذلك امتدادا لرعايته للحياة الثقافية فى مصر ؟

بقلم : د. شكرى محمد عياد

الموت عشقاً

«العسكرى الأسود» . «شرق المتوسط» . «الكرنك» - علامات بارزة فى تاريخ الرواية العربية المعاصرة ، تبعتها موجة من الأفلام التى صورت أساليب التعذيب الوحشية لانتزاع اعترافات - كثيراً ما تكون كاذبة ! - من متهمين سياسيين .

والتعذيب قديم قدم التاريخ ، يقال إن محمد بن عبد الملك الزيات ، وزير بنى العباس - وكان كاتباً متقنا وراعيا للجاحظ فى وقت من الأوقات - اخترع آلة اسمها «التنور» - والتنور معناه الفرن ، فلك أن تتخيل كيف كانت ! ليعذب بها خصومه فانتهى أمره بأن مات فيها ، وعندما كان يعرف عن أحد الولاة أنه بالغ فى استخدام سلطته لمضاعفة ثروته الشخصية ، حتى فاحت رائحته ، كان الخليفة أو السلطان يعين خلفاً له من بين رجال إدارته ، وهم أعرف الناس بأحواله ، فيتولى هذا المعيّن محاسبة المعزول ، فإما أقر بما خبأه من أموال وأرشد إليه وإما تولى الزبانية استخلاص أموال المسلمين منه بالطرق المناسبة وكان الإعدام بالخازوق إجراء متبعاً فى أيام المماليك . ومن هنا جاء المثل الشعبى «المخزوق يشتم السلطان» .

وفى عصرنا هذا ، عصر العلم ، ترقى فن التعذيب رقياً عظيماً ودخل فيه علم النفس ، وهو ما عرف بغسيل المخ ، والقاعدة الذهبية فى هذا العلم - الفن هى الهبوط بالفرد إلى أدنى مراتب الحيوانية ،

بحرمانه من وسائل النظافة والترفيه أولاً ، ويعد الحرمان من الظروف الإنسانية العادية فى الاغتسال وقضاء الحاجة ، ومن القراءة والاستماع والتدخين إن كان مدخناً ، يتدرج الزبانية إلى التجويع ثم إلى شتى أنواع الإذلال حتى يفقد الضحية احترامه لنفسه ، وهو قوام شخصيته ، ومن هنا يبدأ بناء شخصيته الجديدة حتى يتحول من عدو للنظام إلى خادم للنظام . وإلى النازيين يرجع «الفضل» الأكبر فى تطوير هذا التكنيك . ومعلوم أنه عقب انهيار النازية هاجر كثير من العلماء الألمان ، خبراء التعذيب مثلهم مثل خبراء الصواريخ ، إلى أقطار العالم الثالث ، ليختفوا عن أعين الحلفاء المنتصرين ، وكانت مصر أحد هذه الأقطار .

● فن غير راق ! ●

هذه بعض المعالم الرئيسية فى الخلفية التاريخية «العلمية» لموضوع التعذيب السياسى . أما الخلفية الفنية فتتمثل فى نوعين من أنواع الإنتاج السينمائى وهما أفلام الرعب وأفلام العنف وقد يتمايز النوعان ولكنهما غالباً ما يمتزجان . وهما فى تمايزهما أو امتزاجهما قلما يرتفعان إلى درجة الفن الراقى ، وإن استطاع مخرج مثل هيتشكوك أو ليلوش أن يقتربا من هذا المستوى ، بفضل تعمدهما الاقتصاد فى المشاهد المخيفة والعنيفة .

وأغلب ظنى أن هذين المخرجين ، وكل من استطاعوا أن يقدموا فنا حقيقيا من خلال السينما ، هم من أصحاب الذوق الأدبى الرفيع وليسوا مجرد صناع سينما .

وليس هذا مجال الكلام عن فن السينما وتأثيره فى صياغة «أرواح» البشر على نموذج الحياة الأمريكية بكل تناقضاتها الرأسمالية ولاشك أن عندنا من نقاد السينما من هم مؤهلون أكثر منى للقيام بمثل هذا البحث . ولكننى لا أملك فى نقدى للأدب أن أتغاضى عن تأثير السينما . ومع تسليمى بأن اللغة السينمائية قد أوحت لكتاب الرواية بكثير من الحيل التكنيكية فى صنعة الكتابة ، فإنى أرى أن الوظيفة الاجتماعية للسينما كفن أكثر ارتباطاً بالسوق واتجاها إلى التسلية الوقتية قد جعلت تأثيرها فى الأدب أميل إلى الجانب السلبى ، وكأنها مع الأدب بمنزلة الإبن العاق مع الأب الحنون . وفى مجال «قصص الرعب» لا تحتاج هذه الأبوة إلى تذكير . فالقصص الشعبى ملئ بها . فحكاية الجنى الذى يخرج من القمقم ويأمر الفتى العابث بأن يختار لنفسه موتة من ثلاث ، قصة طالما جعلت أبداننا تقشعر ونحن أطفال . وفى تراث الآداب الشعبية الغربية ما يسمى بالقصص القوطية التى تلعب فيها الأشباح والأماكن الموحشة دوراً كبيراً ، وقد كانت لها امتداداتها فى العصر الحديث فى قصص

«إدجار ألان بو» و «هنرى جيمس» أما عن العنف فليس ثمة ما هو أفظع من قيام «ست» بقتل أخيه «أوزيريس» وتقطيع جسده أربع عشرة قطعة فرقها فى البلاد . وفى الأساطير اليونانية أبناء يقتلون آباءهم وأمهات يقتلن أبناءهن وآباء يتغذون بلحم الأبناء . ولكن الأساطير تتكلم كأساطير ، أى أنها تتكلم بلغة الرمز الشبيهة بلغة الأحلام ، ولذلك لا نكاد نشعر بفظاعتها ، أما إذا صرنا إلى لغة الواقع فإننا نجد إريك ماريا ريمارك - على سبيل المثال - يكتب عن الحرب العالمية الأولى من قلب التجربة الإنسانية الدميمة ، متجنبا فظائع القتال إلا أن يلمحها من بعيد . وهل أحتاج أن أذكر بمشاهد ساحات المعارك فى «الحرب والسلام» ؟ أما إذا صرنا إلى الأدب المعاصر - أدب ما بعد السينما - فإننا نجد تغيراً حادا فى طريقة معالجة الأدب لمشاهد العنف ، والكاتب «النموذجى» فى هذا النوع من الكتابة هو نورمان كابوت ، ولعلك قرأت له ، أما أنا فلم أقرأ ، ويكفيك من شر سماعه .

وحجة كابوت ومن لف لفه أنهم يصورون الواقع ، وأشهر روايات كابوت مستوحاة فعلاً من حادثة واقعية ، وكأنهم بذلك يبررون مسلكهم التجارى الرخيص - الذى كرسته السينما والصحافة الصفراء - من اللجوء إلى «الإثارة» ومتى كانت الإثارة من مبادئ الفن ؟ الفن يطهر الواقع وينقيه والفن عدو للإثارة بمختلف أنواعها .

الواقع هو الخلفية المباشرة للفن ، التى تأتى قبل الخلفية التاريخية العلمية وقبل الخلفية الفنية نفسها ، لأن الفن ينبت فى أرض الواقع وينطلق منها ، ولكنه يتجاوز الواقع بحثا عما هو أسمى من الواقع ، بحثا عن «الحقيقة» .

إن الروائى فى تعامله مع أحداث وقعت بالفعل من أناس معينين فى زمان معين ومكان معين مقيد باعتبارات كثيرة ، أولها - من الناحية العملية - الاعتبار القانونى ، إذ يمكن فى هذه الحالة أن يقع تحت طائلة قانون التشهير . ولذلك نجده يقتصد فى استخدام هذه الأحداث ، وربما اكتفى بجعلها إطاراً للحدث الروائى ، أو غيّر الزمان أو المكان ، أو تركهما مبهمين عمداً والخوف من التورط فى إعلان موقف سياسى ، يمكن أن يجعله هدفاً لانتقام السلطة من ناحية ، أو يشكك القارئ فى أمانة روايته من ناحية أخرى ، اعتبار ثان.

على أن الاعتبار الفنى هو الأهم ، فالحقيقة الفنية التى ينشدها الروائى هى - فى نهاية المطاف - حقيقة إنسانية ، أكبر من تبرئة قوم وإدانة آخرين . إن الذى يجعل لقصة «العسكرى الأسود» قيمتها الكبيرة فى أدب يوسف إدريس ، وأدبنا القصصى بوجه عام ، ليس اجتراءها على

معالجة موضوع التعذيب البوليسي ، ربما لأول مرة ، بل ارتكازها على تصوير الانهيار النفسي الذى حدث للعسكرى الأسود . وقيمة رواية سولجنتسن «أرخبيل الكولاج» التى أهلته لجائزة نوبل لا ترجع فقط إلى جرأتها فى فضح أساليب المخابرات السوفييتية بل إلى أمر أهم من ذلك ، وهو تصوير سجناء المخابرات كأناس يملكون القدرة الإنسانية على المقاومة ، حتى وإن لم نعدهم أبطالاً .

• صراع غير متكافئ •

والفن لا يمكن حصره فى صيغة معينة . فهناك - مثلا - الرؤية الكابوسية فى رواية جورج أورويل ١٩٨٤ ، والسخرية المريرة فى أمثولته «مزرعة الحيوان» ، وكلتاهما روايتان سياسيتان ، وللإرهاب البوليسى دور مهم فى أولاهما على الأقل ، والرؤية فيهما متشائمة ، والصراع بين الظالم والمظلوم غير متكافئ ، ولكن أورويل لم يعمد فى أيهما إلى الإثارة

والذى أردته بكل هذه الملاحظات هو التمييز بين فن زائف يعتمد على الإثارة ، ويعمل بجانب عوامل أخرى فى المجتمعات الحديثة ، ورغم تظاهره بالشجاعة (أى شجاعة فى طعن جثث الموتى ؟!) على إنتاج نموذج إنسانى صفته الأساسية هى السلبية والبلادة ، وبين فن صحيح يخرجنا من جحيم الواقع إلى مطهر منه تستشرف نور الحقيقة ، وبذلك يساعدنا على الاحتفاظ بإنسانيتنا ، مهما إدلهمت حولنا الخطوب .

والملاحظ أن موجة القصص والأفلام التى تناولت موضوع التعذيب على أيدى البوليس السياسى قد برزت فى السبعينيات مصاحبة للانفراج الذى حدث فى تلك الفترة وكان من مظاهره تقديم بعض رموز ذلك التعذيب إلى المحاكمة . ولعلها أفادت فى التنفيس عن غليان مكبوت ، ولكنها كانت - إجمالاً - ذات مستوى فنى ضعيف ، وكان ضعفها يأتى من عكوفها على تصوير وقائع التعذيب (ولعلها لم تكن تبالغ فى هذه الوقائع نفسها) دون أن تتجاوزها إلى حقيقة فنية ما ، تسمو فوق هذه الوقائع وإن لم تسمح لنا بنسيانها .

أما الكاتب الذى يريد اليوم أن يتناول موضوع التعذيب السياسى فى عمل روائى «واقعى» فمهمته أصعب كثيراً . فقد تغيرت نظرة معظم الناس إلى هذا الموضوع منذ حادث المنصة فى صباح ٦ أكتوبر ١٩٨١ إن الذين «زاروا» المعتقلات فى هذه الفترة الأخيرة - وقد سألت بعضهم - لا يتحدثون عن تعذيب ، ولا يمكننى أن أجزم أو أعمم الحكم ، فلم ألتق بعد بأحد من أعضاء المنظمات الإسلامية السرية حتى أسأله ، ولكن هذه المنظمات - على كل حال - لم تعد تحظى من عطف الناس بمثل ما كانت

تحظى به الفئات المعارضة - إسلامية أو «علمانية» - فى العهود السابقة ، فقد وضعتها قضايا مثل «التكفير» وممارسات مثل «الجنازير» فى مواجهة عنيفة مع غالبية المجتمع ، بحيث أصبحت الدولة تضطلع بدور الحامى للأكثرية - وهو دورها الطبيعى - ضد تصرفات غوغائية من فئات متعصبة .

وقد اختار «على أبو المكارم» فى أول عمل روائى له «الموت عشقا» أن يجعل موضوع الممارسات البوليسية ضد الخصوم السياسيين هو موضوعه الرئيسى ، ولعله شعر بأن المعالجة الواقعية الخالصة لهذا الموضوع ليست فى استطاعته ، أو لا تخدم غرضه ، أو لن تكون مقبولة من قرائه رغم أنه يحدد زمان الرواية (وقد طبعت سنة ١٩٩٠) بشهر سبتمبر ١٩٨٠ . فأبطاله أعضاء فى منظمة إسلامية سرية ، وإن ورد عرضاً على لسان أحدهم ذكر لمناضل يسارى ، كما تعرض آخر بشىء من التفصيل لمحنة مفكر حر ، أستاذ جامعى ومحام متقدم فى السن . ولكن هناك أيضا ذكرا للجنازير والخناجر والرشاشات والقنابل ، ولو أنه يرد على لسان أحد ضباط الجهاز . أما المواجهات التى تصفها الرواية مباشرة فلا تزيد على أن أحد أفراد التنظيم بدرت منه حركة غير مقصودة حين اقتحم الجند شقة جيرانه ليقبضوا عليه ، فحسبوه يهم بالمقاومة فأردوه قتيلا .

فيما عدا ذلك فالتنظيم فى حالة كمون لأنهم يشعرون بأن جهاز الأمن يستعد لحملة اعتقالات واسعة ، ويتوجسون شرا مستطيرا . ونحن نرى منهم الزوج الطيب العطوف الذى يأمر زوجته الشابة بأن تقيم مع أمها زاعماً أنه ذاهب فى رحلة عمل ، ويغيب عن باله أن مكان الزوجة يمكن أن يعرف فيقبض عليها لتعترف بمكان زوجها ، وحين يعلم الزوج بخبرها يسلم نفسه ليفتديها ولكن تكون قد ماتت تحت التعذيب ... ونرى منهم الشاب الأعزب المستقيم الذى تخرج فى الهندسة ولكنه يعمل فى استعلامات المحطة ولا يتردد فى مد يد العون إلى جارته القبطية التى مات عنها زوجها ، وتكون عاقبة مروءته أنه يقتل نتيجة لوشاية من شقيق الزوج . ونرى منهم ضابط الجيش الذى عرف بكفاءته وشجاعته ولكنه أقصى إلى الجامعة حيث يعمل مشرفاً على تدريبات عسكرية صورية . ونرى منهم مدرس الحقوق الذى لم يحسن اختيار زوجه فهى تافهة عاشقة للمظاهر ولكنه يصبر عليها ويرجع باللوم على نفسه .

● معنى الحق والعدل ●

نحن إذن نرى فى أفراد «التنظيم» بشراً عاديين ، لهم حياتهم الداخلية

الحميمة ، وبينهم من الترابط فى كنف «الأخ الأكبر» ما يجعلهم أشبه بأسرة أخرى . ولكننا فى مقابل ذلك نجد أفراد جهاز الأمن بشراً عاديين أيضا ، يستمتعون بالحب ، الحلال أو الحرام ، مثل أى إنسان ، ولهم مطامحهم فى الترقى مثل أى إنسان ، وإذا كانت طبيعة عملهم تجعل المسرفين فى الطموح منهم يدوسون على عواطفهم الإنسانية فإن لهم - ولا سيما الشبان - لحظات يتساءلون فيها عن معنى «الحق» و«العدل» فيما يقومون به .

يسيطر على الرواية من الصفحات الأولى جو التوجس والتحفز . ثم تحتدم الحركة حين يتلقى كبير فى الجهاز مكالمة تليفونية فى جوف الليل ، تتهمه بالغفلة عما يدبره أعداء النظام . ربما كانت هذه المكالمة نوعاً من الاستحثاث الغليظ الذى يلذ لبعض الرؤساء أن يوجهوه إلى مرءوسيهم ولكن تأثيرها يسرى بقوة الكهرباء ، فإذا الجهاز كله لا ينام الليل بحثاً عن مكامن المؤامرة . وبعد لأى يضع أحد الأذكياء يده على أول الخيط : ثلاثة من الصبية ضبطوا وهم ينزعون لافتات التأييد . لابد أنهم مدسوسون من تنظيم ما! ويحقق مع الصبية فيقولون إنهم أقدموا على هذه الفعلة من تلقاء أنفسهم وكان غرضهم أن يصنعوا من القماش ألبسة . ولكنهم يحجزون فى «تخشيبة» القسم ، وقبل أن يطلع الصباح يكونون قد نقلوا إلى المركز الرئيسى حيث يتلقاهم الزبانية ، ويموتون تحت التعذيب ، وتتضخم المشكلة حين يذهب ذووهم إلى القسم للسؤال عنهم فيتبين أنهم غير موجودين فيه ، ثم تتضخم أكثر حين يشرع رئيس المباحث العامة فى القسم فى البحث عن سر اختفائهم ، ويتبين له أن بعض المحتجزين فى التخشيبة من المجرمين قد اعتدوا عليهم فى تلك الليلة ، وحين يقترب من اكتشاف الحقيقة يقتل فى حادث مرورى ، تشير القرائن إلى احتمال كونه مدبرا . ويبدأ بعض الضباط الشبان فى التساؤل ولكنهم يسكتون بالأمر . لقد أصبح السر سرين والجريمة جريمتين ، غير أن الجريمة الثانية تتخذ ذريعة لمزيد من التنكيل بالمعارضين ، على اعتبار أنها كانت من تدبير بعضهم .

هكذا يحبك الحدث بمهارة فائقة ، وحين ينتهى بمحنة تسيل فيها دماء كثيرة ، يكون التنظيم قد تلقى مدداً من «دماء» جديدة . وتنتهى الرواية بمثل ما بدأت به : توجس وتحفز ، وصراع لا يريد أن ينتهى .

هذا العمل الكبير (أكثر من أربعمائة صفحة) بأبعاده الملحمية فى بناء الحدث والشخصيات ، لا يعتمد فى تأثيره على

المبالغة فى تصوير مشاهد القسوة أو تضخيم صفحات الخير والشر فى الشخصيات - ولم نكن نتوقع أن يخلو من ذلك - بل على الصراع بين قوتين لكل منهما منطقها الذى لا يسمح لها بالتراجع أو التردد ، هكذا يحدث المحامى مدرس الحقوق نفسه : «لا مجال للتراجع ، لابد من الاستيلاء على السلطة لرفع الجور وإشاعة العدل وتحرير البشر من الخوف واليأس والاعتراف الفعلى بكرامة الإنسان ، ذلك وحده كفيل بتفجير الطاقات الهائلة التى يمتلكها شعبنا ، وحشد قواه التى لا حدود لها لتطوير الحياة فى بلدنا ، وهى طاقات وقوى تهدرها السياسات القائمة لتمكن الأعداء منه .

ولكنه لا يلبث أن يتساءل : «المشكلة الحقيقية فى الوسائل التى يجوز استخدامها للوصول إلى السلطة ... المفروض من قانونى أن يكون بعيداً عن التنظيمات السرية ، فالتنظيمات السرية عمل غير قانونى لبعدها عن رقابة المجتمع التى تحققها القوانين» وحين تطوف بخياله مشاهد التعذيب يمسك بقلمه ويكتب على ورقة من الأوراق الصغيرة التى يسجل عليها ملاحظاته القانونية فى القضايا التى يدرسها ، يكتب عليها هذه الكلمات : «لا إرهاب فى مواجهة الإرهاب» . ويحدث نفسه قائلاً : «التعبير عن الرأى حق طبيعى للبشر لا يملك نظام مصادرته . وتعدد المواقف واختلافها حق طبيعى للقوى السياسية ليس لسلطة أن تلغيه» فإذا حرمت سلطة البشر من ممارسة حقوقهم فى سلطة جائرة لا حصانة لها ، وإذا سنت قوانين تحرم حقا من الحقوق الطبيعية كانت قوانين إرهابية ساقطة بالضرورة ، وهى بذلك تفرض إرهابا يستعين بإمكانيات الدولة ، وليس لقانون أن يجرم رد فعل لا مناص منه لمواجهة عسف السلطة وإرهابها» .

ويقول المسئول الكبير فى جهاز الأمن لمرءوسيه :

«الجريمة ضد الفرد بطبيعتها جزئية ، وهى لذلك محدودة الأثر حتى لو تناولت حياة الفرد ، أما الجريمة ضد نظام الحكم فإنها تمس الركائز الأساسية التى لا سبيل إلى الاستقرار بدونها ، وزعزعة أمن الدولة تؤدى تلقائيا إلى الاضطراب الشامل الذى يدمر كل شىء ويحطم كافة المصالح» .

ثم يطرح عليهم هذا السؤال : «هل فى وسع أحد أن يحدد لى المثل الأعلى فى العمل الشرطى» ؟ ويجيب هو نفسه : «إن حلم الشرطة الأبدى الحيلولة دون وقوع الجريمة ، أو بتعبير آخر : منع الجريمة قبل وقوعها . لكن تحقيق هذا الهدف أو الحلم قد يكون متعذراً بالنسبة للأمن العام فى مجتمع يضم ملايين الأفراد الذين

تختلف مصالحهم وتتضارب ميولهم وتتناقض أنماطهم السلوكية ، وإن كانت هذه الصعاب لا تعفى رجال الأمن العام من المسئولية متى علموا باحتمال وقوع جريمة وعليهم المبادرة بمنعها» .

ومن ثم يخلص إلى النتيجة الآتية :

«لكن الموقف بالنسبة لنا مختلف ، لأن نظام الحكم أكثر خطورة وأعظم أهمية من أن نترك فيه احتمالات معادية مطلقة السراح ، والمثل الأعلى فى العمل الأمنى بالنسبة لنا يقتضى السيطرة الكاملة ، منعاً للجريمة قبل وقوعها» .

وحين يتساءل أحد الضباط الصغار فيما يشبه الاعتراض : «ألا يعنى الأخذ بمجرد الظن والاحتمال المساس بمصالح بعض الأفراد الذين ربما كانوا غير مذنبين ؟» يجيبه المسئول الكبير فى ثقة : «هذا صحيح ، ولكننا أمام احتمالين : أن نحقق أمن فرد مشبوه سياسيا مع احتمال وقوع عمل مضاد للنظام ، أو أن نؤمِّن النظام مع احتمال ظلم فرد مشبوه . ولنتصور معاً نتائج الخطأ فى الاحتمالين : أن يلحق الضرر بفرد واحد أو بعدد محدود من الأفراد ، وأن يلحق الضرر بالنظام كله .

ثم يضيف : «أظن أنه لا مجال مطلقا للتردد فى الاختيار»

ووصف «الملحمية» فى رواية مثل «الموت عشقا» لا ينأى بها عن شكل الرواية العصرية وأسلوبها . (دع عنك عصرية الموضوع والشخصيات) فالملحمية تأتيها من خلال الموضوع وما يثيره من اهتمام عام ، ومن اتساع الصراع وتعدد أنماط البشر المشتركين فيه . ولكن الكاتب المعاصر لا يمكنه أن ينقل رؤيته إلى قرائه إلا بلغة عصرية ، يشكلها فى أسلوبه الخاص وقد تتجاور فيها أصداء وإيحاءات قديمة مع تقنيات حديثة . تلفت نظرنا فى هذه الرواية – على سبيل المثال – شاعرية العناوين ، فإلى جانب عنوان الرواية نفسه – وهو واضح الغرابة بالنسبة إلى سياق الرواية – هناك عنوان شبيه لكل فصل من فصولها العشرين . شاعرية يبطنها نوع من السخرية أو المرارة ، وكأنما قصد بها أن تكون تعليقات حكيمة على جو الرواية العام . أما لغة القص فتتداول بين أنماط ثلاثة : نمط السرد الوصفى (وهو غير السرد الساذج) ونمط الحوار ونمط حديث النفس . ويميز الكاتب بين الأنماط الثلاثة بأشكال الحروف المستخدمة فى الطباعة ، حتى يجعل لحديث النفس – وهو عنصر أساسى فى الرواية المعاصرة – دوراً أكبر .

إن هذا العمل الروائى الأول للكاتب «على أبو المكارم» لا يمكن إلا أن يكون ثمرة مران طويل ، وعكوف جاد على موضوع شديدة الصعوبة ، ولا سيما فى الوقت الحاضر !

دائرة حوار

اخناتون

والصهيونية الثقافية

● نشر «الهلال» في عدد ديسمبر الماضي مقالا تاريخيا خطيرا عنوانه : «أخناتون ومزامير داود» للأستاذ الدكتور سيد كريم ، ومكمن الخطورة فيه محاولة الكاتب إيجاد رابطة انثروبولوجية، أو صلة قرابة ورحم ، بين أخناتون (أمنحتب الرابع) أول من نادى بديانة التوحيد قبل بعث الرسل، وبين بني إسرائيل ، وهو ربط زائف ، حتى أن الكاتب جعل من النبي يوسف عليه السلام جداً لأخناتون ..

ومع أن جوهر موضوع الدكتور كريم يثبت سرقة اليهود للتراث الفرعوني وغيره .. إلا أن الموضوع أخطر من ذلك ، لأن السرقة معروفة وواقعة .. وسجلها المؤرخون الكبار مثل دكتور (هنرى بريستيد) عمدة المؤرخين الأمريكيين ، وكذلك الأستاذ (إيلمار) والدكتور أحمد بدوى والدكتور سليم حسن ، وعلماء الألمان وغيرهم .. والخطر الذى أريد أن أظهره للرأى المصرى العام بل وللعالم كله هو ظهور حركة صهيونية حديثة هى الحركة الصهيونية الثقافية ، ولها أنصار من المثقفين فى كل أنحاء العالم ! .. كما أن لها أنصارا من بعض العرب .. وأيضا من بعض المثقفين المصريين .

وأنا أربأ بمثقفينا أن يكونوا أدوات طيعة فى خدمة الحركة الصهيونية الثقافية الحديثة فيعملون بحسن نية أو باسم «الاجتهاد التاريخى» على ترسيخ النظريات الزائفة التى يحاول الصهاينة الجدد



تأصيلها تاريخيا .. ومنها محاولة اثبات أن حكماء قدماء المصريين ومنهم (أخناتون) هم الذين سطوا على التراث التوراتى لليهود ، وذلك عن طريق إثبات أن وجود موسى التاريخى يسبق وجود كل حكماء قدماء المصريين ومنهم أخناتون ! وبالتالى فإن التوراة تكون أقدم من كل كتابات أخناتون وحكماء قدماء المصريين ! .. وعلى ذلك تكون كافة الكتابات اللاحقة مسروقة من التوراة !

ولابد أن أكون واضحا حتى لا يكون موضوعنا مبهما .. لذلك لابد أن أعرض لأقاويل «مثقف مصرى» يزعم أن زمن موسى كان قبل الأسرات الفرعونية من ٣٢٠٠ إلى ٣٠٠٠ ق . م .

والهدف هو إثبات أن أسفار موسى الخمسة فى التوراة قد نزلت عليه أو كتبت قبل حكم وأناشيد وإبداعات حكماء قدماء المصريين وعلى ذلك فالمصريون هم الناقلون من اليهود ، لا العكس !



لقد قال بهذه النظرية الواهية دكتور ولادة بالقصر العينى هو الدكتور محمد سعيد ثابت ونشر كتابا من جزءين حاول أن يثبت فيه أن فرعون موسى هو أزوريس الذى ورد اسمه فى الأسطورة الفرعونية (إيزيس وأزوريس) والتى ترددت قبل الأسرات الفرعونية .. والفرض هو وضع عهد موسى فى تاريخ قديم جداً وقبل ظهور حكماء قدماء المصريين وأخناتون العظيم ، رغم أن كثيرا من علماء التاريخ يرجحون أن فرعون موسى هو إما رمسيس الثانى (١٣٠٠ - ١٢٩٤) وإما (مرنبتاح) بن رمسيس الثانى (١٣٥٠ - ١٢٠٠) ق . م وهو الذى « قضى على بنى إسرائيل فى مصر » كما ورد فى نص أثرى فرعونى موجود بالمتحف المصرى !

ونشر الدكتور «بحثا» مستفيضا فى مجلة آخر ساعة فى أواخر عام ١٩٩٢ فى أعداد متتالية حاول فيه اثبات هذه «الحقيقة» عن فرعون موسى وعهده ! بأسانيد واهية لا تدل على الحقيقة .

وكل الحقائق التاريخية تدحض آراء الدكتور محمد سعيد ثابت .. فإذا كان زمن فرعون موسى بل والنبى موسى نفسه هو زمن ما قبل الأسرات الفرعونية فإن هذا الزعم يكون باطلا لأن زمن ماقبل الأسرات الفرعونية هو عصر ما قبل التاريخ La PRe Histoire وهو كالآتى :

١ - العصر الحجرى القديم (من ١٨,٠٠٠ إلى ١٠,٠٠٠ ق . م) وقبل ذلك بنحو أربعين ألفاً من الأعوام حيث ظهر انسان «النياندرتال» وزال هذا الانسان وحل محله جنس جديد اسمه كرومانيون Cro - mangioh حوالى عشرين ألفاً قبل الميلاد .

٢ - العصر الحجرى الحديث من عام (١٠٠٠٠ إلى ٦٠٠٠) ق . م

٣ - عصر ما قبل الأسرات الفرعونية

فهل يمكن أن يكون زمن موسى فى العصر الحجرى القديم .. أو فى زمن انسان «النياندرتال» أو انسان «الكرومانيون» مثلاً ؟ أو فى العصر الحجرى القديم ؟ .. إن المنطق يقول : لا .. الاستدلال التاريخى الموضوعى يقول أيضا : لا !!

ولا أدرى لماذا ينادى الدكتور سعيد ثابت بنفس نظرية الحركة الصهيونية الثقافية الحديثة !! إننى لا أتهمه ولا آخذه بالشبهات لأنه (مغامر تاريخى) وهو يجتهد بحسن نية !!

وظهر فى لندن كاتب مصرى اسمه أحمد عثمان .. كان يعمل راقصا فى فرقة رضا للفنون الشعبية بالقاهرة ثم هاجر إلى لندن .. وهناك ألف كتابا مريبا اسمه (بيت المسيح) .. زعم فيه أن توت عنخ آمون (شقيق أخناتون) هو المسيح يسوع أو عيسى بن مريم عليه السلام !! ولا شك

أنه يمكن إثبات زيف هذا الادعاء التاريخى من ناحية الزمن التاريخى .. وهناك من تصدى له فعلاً ..

وآخر الغرائب هو مقال أستاذنا الكبير الدكتور / سيد كريم فى (الهلال) وهو الموضوع الذى زعم فيه (قرابة) أخناتون وسيدنا يوسف من ناحية الأم .. وهو شئ خطير لأن اليهود لا يعتدون بالصفة اليهودية لليهودى فى العصر الحديث إلا من ناحية الأم بالذات !! (القانون الجديد الأخير) أى أن أخناتون الحكيم المصرى الاجتماعى .. هو يهودى مائة فى المائة .. يهودى قح لأن اليهودية آلت إليه من ناحية أمه الملكة (تى) !! وهو بلا شك إفك مبين وضلال .

وما يقوله الدكتور كريم هو نفس ما يريد إثباته أحبار اليهود ودُعاة الحركة الصهيونية الثقافية الجديدة لإثبات أن أناشيد أخناتون التوحيدية هى فى الأصل أناشيد يهودية حيث إنه يهودى قح وتتدرج يهوديته من ناحية أمه الملكة (تى) يعنى (زيتهم فى دقيقهم) ولا فضل لقدماء المصريين فى ديانة التوحيد وهو أهم مجال لأنه قوام الحياة الثقافية فى مصر قديما بل وحديثا ولكننا لا نتهم الدكتور كريم ، ويهمنى أن أوضح زيف نسبة الملكة (تى) والادعاء بأنها ابنة سيدنا يوسف وأنها تنتسب من ناحية الأم (إسنات) ومن ناحية الأب (يوسف) إلى بنى إسرائيل !

إن الملكة تى هى ملكة مصرية قحة ، تنتسب إلى أبوين مصريين ولا تجرى فى عروقها إلا الدماء المصرية .. ولم يحدث قط أن أنجب النبى يوسف من (إسنات) المصرية بنتا وإنما أنجب ولدين هما : أفرايم ومنسّى ، وقد ذكر ذلك سفر التكوين ..

والخلاصة أن :

١ - «تى» زوجة أمنحتب الثالث (١٤١٥ - ١٣٨٠) ق . م مصرية قحة ... وهى والدة (اخناتون) الحكيم الاجتماعى المصرى .

٢ - إن «تى» ليست ابنة سيدنا يوسف ولاتمت له بنسب (وبالتالى لسيدنا موسى) بأى صلة قربى .

٣ - إن أخناتون ليس يهودياً !

وفى النهاية فإننى أحذر مثقفينا من محاولات الحركة الصهيونية الثقافية الحديثة الرامية إلى سرقة تراثنا الفرعونى وأرجو ألا يعملوا بكتاباتهم أو مؤلفاتهم على ترسيخ فكر هذه الحركة الصهيونية حتى لا يظنهم أحد ضمن عناصر الطابور الخامس الثقافى لخدمة أهداف بنى إسرائيل !! »

إننى لا أشك أبدا فى مثقفينا .. ولكن لنفتح أعيننا جميعا من أجل مصر ولندافع عن تراثنا المصرى وهو أغلى كنوز البشرية .

حمدى خضرى وفا

الوجه الآخر لسوزان طه حسين

بقلم : د . مصطفى عبد الغنى

يبدو أن لسوزان (طه حسين) وجهين ،
وجها نعرفه
ووجها آخر لا نعرفه

الوجه الذى نعرفه هو الوجه المشرق ، أو (الملك) ، كما يصفه طه حسين فى نهاية الجزء الاول من سيرته (الأيام) .

أما الوجه الآخر فهو الوجه المظلم ، أو الجامد الذى يشير - عند قليل من التعرف بحياة طه حسين الخاصة والعامة - إلى التعصب والترفع

وإذا كان طه حسين قد أطلق صفة (الملك) فى سيرته التى كتبها فى أواخر العشرينات (تاريخ كتابة الجزء الأول من الأيام) ، فإنه بين العشرينات حتى التسعينات - الآن - مياه كثيرة ألقيت فى طاحونة

فلقد كان طه حسين فى هذه الفترة المبكرة ما زال واقعا تحت تأثير سوزان ، وفى كنفها (وأكاد أقول تحت سيطرتها الكاملة) ، متحدثا كثيرا عن هذا (الدين) لها فى الجامعة بباريس أو فى العودة معه الى مصر (تزوج عام ١٩١٧ وعاد الى مصر عام ١٩١٩) ، وهو مايشير إلى أنه كان مستطيعا بغيره) ، وقد كان هذا الغير منذ هذه الفترة المبكرة هو سوزان فى المقام الأول ، فضلا عن أننا لا يمكن أن ننفى اعجابه الى درجة كبيرة بالحضارة الغربية ..



والواقع أننا لا نستطيع أن نتتبع بعض ملامح سوزان طه حسين حين جاءت إلى مصر لأول مرة حزينة لأنها تفقد جنسيتها الفرنسية - حتى رحل طه حسين - إلا ونلمح بعض الصفات التى تزيل عنها صفة الإشراق، وتقلل تلك الهالة التى حاول طه حسين إضفاءها عليها، وساعدها فى ذلك صمتها الطويل ..

لقد كان هذا الوجه، الآخر، يحمل ترفعا وكبرياء ينبع فى الأساس الأول من إنتمائها للغرب (المتحضر) فى مواجهة الشرق (المتخلف) ، كذلك لا نخطئ شيئا ليس بالقليل من هذا التعصب الذى يحمل نقيضه ويفسر به كثيرا من ردود أفعاله، وربما كان مرجعه أيضا، عدم إحساسها بالقدر الكافى بثقافة البلد الذى تنتمى اليه ومكانته الحضارية من كمون بعيد فى الشخصية الأوربية يقبع فى العقل الباطن ولا يفارقها، وأن ظهر من آن لآخر فى التصرفات العامة ..

كان الأمر جنونا

فلنهبط أكثر إلى بعض ملامح هذا الوجه - الآخر، قبل أن نحاول الاستطراد أكثر فى هذه التأملات ..

والهبوط يستدعى منا التمهل عبر عديد من المشاهد ..

ربما كان الموقف الأول فى حياة طه وسوزان هو المشهد الذى ينبئ عما وراءه، وهو المشهد الذى بدأ بتعرف أحدهما إلى الآخر، ولدينا فى الجزء الثالث وصف يفيض بالرقة والعذوبة يفصله طه حسين فى لقائه أول الأمر بالفتاة الفرنسية، وهو يكاد يغرق كثيرا فى هذه المشاعر (اللذيذة) حتى تواتيه شجاعته فيصارحها بالحب فتجيبه :

- لكننى لا أحبك

ومع ذلك، فإنه لا يكاد يمضى وقت حتى تعود الى أهلها، فتعرض عليهم قضية اقترانها بهذا الشاب المكفوف فتجيئها الردود بشدة :

« - كيف ؟ من أجنبى ؟ وأعمى ؟ وفوق ذلك كله مسلم ؟!

لا شك أنك جننت تماما ؟ »

وتنصرف سوزان وهى تتمتم : ربما كان الأمر جنونا

ويكون على سوزان أن تقترب أكثر من عم لها (قسيس) وتفضى إليه بذات نفسها، ويكون على العم أن يتروى قليلا، ولا يلبث أن يعلن لها بالموافقة ..

وإلى هنا، والقصة عادية، لا تحمل ملامح تلفت النظر، قصة فتى مكفوف يطلب يد فتاة، وتنصرف هى بعد هول المفاجأة إلى أهلها، فيتهمونها بالجنون، غير أن عمها يشجعها على ذلك آخر الأمر ..

والواقع أن (الجنون) الذى تردد هنا يطوى أشياء كثيرة ..

ذلك لأن دراسة الأستشراق فى القرن الثامن عشر يلقى بعض الضوء على تلك

القصة العادية فينير بعض جوانبها ..

وبعيدا عن شرح فكرة الاستشراق فى ذلك الوقت ، فإننا نستطيع أن نقول إن هذا القرن (الثامن عشر) ، وقد كان قرن العم زمنيا دون شك ، وأن مؤثراته كانت تمتد الى بدايات القرن العشرين .. هذا القرن شهد نمو تيارات كثيرة كانت تحدد نظرة الغرب الى الشرق ..إن أفكار الرحالة مثل لين وفلوبير وريتان كانت تشير إلى أن الغرب أسمى من الشرق سواء فى تعاليمه أو أفكاره أو تقدمه ..

كما أن تطور التاريخ الحربى بين الشرق والغرب وامتداده وتمثله الأن فى بقايا الدولة العثمانية ، كان يحمل صورة للعربى الهمجى ، الغادر ، الذى اختلطت فيه فكرة الدجل بالوحشية والعدوان ، ويقول لنا هنا إدوارد سعيد إن السبيل الى الثروات الهندية (الشرقية) كان يقتضى دائما المرور أولا عبر الأقاليم الإسلامية ، كما كان يقتضى تحمل التأثير الخطر للإسلام من حيث هو نظام من المعتقدات شبه آرى . وكان النجاح على الأقل ، خلال معظم القرن الثامن عشر ، حليف بريطانيا وفرنسا . وكانت الإمبراطورية العثمانية قد استقرت منذ زمن طويل فى وضع من الهرم المريح (بالنسبة لأوربا) هو ما يسمى فى القرن التاسع عشر (المسألة الشرقية) ، وقد كانت محاولات الباحثين أو الرحالة الأوربيين حينئذ تسعى الى غزو الشرق لتعريته من حجبه ..

كانت فرنسا قد سيطرت على الاستشراق فى هذه الفترة التى تزوج فيها طه حسين بسوزان ، ومن ثم ، وجد المناخ ملائما تماما لمواصلة الحركات الاستعمارية لغزو الشرق ، وان تقدم هذا كله صور من التبشير قصد بها فى الظاهر الثقافة ، وفى الباطن استكمال رسالة الغرب بالسيطرة على الشرق ، ولم يكن بعيدا عن أفهام رجال الدين خاصة جريجورى العاشر بارتداد المغول الى المسيحية ..

المهم أن الروح التبشيرية كانت قد نمت ووجدت لها مساحات شاسعة فى أفئدة رجال الدين ذوى الميول الغربية ..

فى هذا المناخ ، كان توق العم (القسيس) عارما فى أن تذهب إبنة الأخ لتوالى السيطرة على جانب المثقف من الحضارة الإسلامية فى مصر وهذا يغذى فكرة الأحلام الرومانسية لرجال الأكليروس منذ الحروب الصليبية ، ربما لإعادة السيطرة على الآخر (الشرق الآن) ، ولم تكن المصادفة قط أن يكون العم (قسيسا)، ولم تكن من المصادفة أن يتمسك العم ، ومن ثم إبنة الأخ ، بأن يتم الزواج فى كنيسة بفرنسا ، ولم يكن مصادفة فقط أن تظل سوزان على عقيدتها المسيحية فلا تتردد فى البوح بها بعد أن عادت إلى مصر وإعلانها من آن لآخر ..

كانت الفتاة الآتية من جنوب فرنسا حيث درجة التدين تصل أقصاها تدرك أن

عليها الآن مهمة يجب القيام بها ، وهى مهمة يقف وراءها العم (الرمز الدينى) ، والأفكار الغربية المتنامية المشبعة بروح استعمارية (المستشرقين) ، وجهات رسمية وغير رسمية لا نعرف حتى الآن مصدرها ، لقد كانت تدرك أنها لا بد أن تضطلع بهذه المهمة مع مكفوف مثقف سوف يكون له - بعد العودة الى بلاده - شأن كبير .

ومن هنا ، لا نتعجب أن تتذكر سوزان، وهى تكتب كتابها (معك) فى السبعينات ، عبارة قالتها لها صديقة فى العشرينات ، لا نتعجب أن نقرأ لها عبارة كالتالى :

(- لقد قالت لى صديقة عزيزة ذات يوم : « لقد كان عليك أن تضطلعى بهذه الرسالة »)

لقد كانت رسالة تصل الى حد (الجنون) لكنها تصل بها الى تخوم (الواجب) .

ولهذا لم يطل ترددها اكثر من فصل واحد ، عادت بعده لترسل الى الطالب المكفوف بما يثلج صدره ..

الفرنسية أولاً

وعلى هذا النحو ، فإن سوزان ، بعد عودتها الى مصر ، لم تنس قط عددا من الرموز التى كانت تمارسها حرفيا بشكل دورى ، كما انها لم تتنازل قط عن أى تقليد أو عرف كانت تمارسه هناك فى البلد الأم ..

من ذلك ، أن زوجة عميد الأدب العربى لم تكن تتحدث ، قط ، بالعربية ، فرغم أنها قضت في مصر أكثر من نصف قرن ، فإنها لم تسع إلى تعلم العربية ، أو - حتى التعرف إليها - ويذكر معاصروها ، أنها كانت ترفض بإصرار أن يجرها أحد إلى نطق كلمة واحدة بالعربية ، وهو ما يفسر أن صديقاتها كن إما فرنسيات فقط ، وإما مصريات يجدن التحدث بالفرنسية .

وقد كان من ثمرة ذلك (وما أكثر الثمار السامة) أن أبناء طه حسين لم يحسنوا العربية بالقدر الكافى ، ومؤنس - الابن - بوجه خاص ، ما زال يتحدث الى القريبين منه - حتى اليوم - عن صعوبة العربية على لسانه ، وقد كانت فرنسيته أكثر من عربيته ، وهو يبرر ذلك حين يلح البعض فى الدهشة :

- أمى كانت فرنسية ثم يضيف كاشفا عن مساحات من الوجه الأخر لزوجة طه حسين :

- لم تكن تحب - أى سوزان - أن تتكلم غير الفرنسية ، ولا تحب أن نتكلم غير الفرنسية بحضورها ..

وعلى هذا النحو، كانت الفرنسية الوحيدة فى (رامتان) - لاحظ أن اسم بيت طه حسين « رامتان » هو اسم عربى الأصيل - لا تتحدث العربية ولا تريد لغيرها من الاولاد أو الضيوف أن يتحدث بها ..

وإذا وضعنا فى الاعتبار أن اللغة هى من أول الرموز القومية لدى أى شعب لأدركنا أن الحديث بالفرنسية لمدة نصف

قرن يطوى معنى مغايراً للمعنى الظاهر ، فلا يكفى أن نقول إنها فرنسية الأصول ، أو إنها الفرنسية الوحيدة فى المنزل ، وإنما هو موقف ثابت يطوى تغايرا مع الوطن الثانى ، ورفضا للائتلاف معه ، ذلك لأن وراء ذلك موقفا آخر مقصودا ، أو غير مقصود (إذا أحسنا النية) يرفض التقابل مع هذا العالم ، الأدنى مرتبة ، والأقل عقيدة ..

أسلوب الهيمنة

ورغم اننا لا نعرف الكثير عن حياة سوزان الخاصة ، فإن بعض الملاحظات تشير الى مؤشر هام فى هذا الصدد ..

إذ يبدو أن تأثير سوزان على طه حسين كان طاغيا وحادا ، ويصل الى حد التسلط ، ويذكر عدد من العاملين بالتليفزيون ، حين ذهبوا للمرة الأخيرة للتسجيل مع طه حسين ، كيف كان حضور الزوجة عاليا إلى درجة مخيفة ، وكيف أن وجهها المربد فى مواجهة طه حسين قبل التسجيل لم يتغير أبدا .

ويحكى عديد من الحاضرين أو المعاصرين لسوزان ، القريبين منها ، كيف أنها كانت تحيط طه حسين بعنف وقسوة لا مبرر لهما ، ومن المحتمل أن بحث طه حسين فى الفترة الأخيرة على المال لأرضاء الزوجة كان دافعا له - ضمن دوافع عديدة - الا يتعامل مع الحكام الجدد بعد ثورة ١٩٥٢ بقسوة كانت من سمات طه حسين (العنيد) وخاصة قبل الثورة .

وتشير بعض الملاحظات الى عدد من التصرفات التى سلكها طه حسين فى الفترة الأخيرة من حياته ، والتى - فيما يبدو - كان مضطرا إليها تحت إسراف الزوجة ، وتمسكها بالسفر (فى فصل الصيف) إلى أوروبا كل عام ، من هذه التصرفات ، أنه أعاد طباعة عدد من كتبه تحت مسميات أخرى إما فى القاهرة وإما فى بيروت ، وعلى سبيل المثال فإن كتابه (فى صيف) الذى نشر لأول مرة فى القاهرة عام ١٩٣٣ أعيد نشره مع كتاب آخر (رحلة الربيع) بعنوان واحد هو (رحلة الربيع والصيف) فى بيروت عام ١٩٥٧ ، كذلك أعيد طبع كتاب (الفتنة الكبرى) مع كتب أخرى بعنوان (إسلاميات) عام ١٩٦٧ ، كذلك فإن كتاب (الوعد الحق) أعيد طبعه مرة أخرى بعنوان (اسلاميات) فى بيروت عام ١٩٦٧ ، كذلك ، كتاب (مرآة الضمير الحديث) أعاد نشره مرة أخرى بعنوان (نفوس للبيع) عام ١٩٥٣ ، وكتاب (مرآة الإسلام) أعيد نشره فى بيروت عام ١٩٦٧ بعنوان (إسلاميات) ..

لقد أمتد أسلوب الهيمنة الى العديد من تصرفات طه حسين فحولتها إلى النقيض، وفى اعتقادنا أن دراسة جادة لم تنشر بعد حول دور الزوجة الهيمنة على عميد الأدب العربى ، وما استتبع ذلك من تأثير على فكره وليس استجاباته الحياتية فقط

أين الرسائل ؟

ومثال ذلك أن طه حسين كانت له علاقات كثيرة ومتشعبة مع عدد كبير من

كتب عصره ، ومن يصحح النسخة الفرنسية من كتاب سوزان (معك) يلحظ نصوصا كاملة أو شبه كاملة منقولة (بالحرف) من عدد من رسائل طه حسين إليها أو عديد من رسائل اساطين الشعر والفكر فى عصره اليه ..

وعلى سبيل المثال ، فقد كتب إلى طه حسين الرئيس الستغالى سنجور وسكايف ولالاند واراجون واندريه جيد وكازانوفا وبلاشير وغيرهم كثيرون .. ومع ذلك ، فإن النصوص الأصلية للرسائل ، وما أكثرها ، لا نعرف عنها شيئا ، ويصف مؤنس طه حسين (الإبن) هنا الطريقة التى كانت تستولى بها سوزان على رسائل طه حسين فيقول إنها كانت « تستحوذ على رسائله الخاصة والأدبية بوجه عام مثل رسائل (لوى ماسينيون) و (أندريه جيد ..) ..

وما زلنا حتى الآن لا نعرف أين هى على الرغم من أهميتها فى السياق الفكرى والسياسى والأدبى .. !

وربما لهذا ، حين ذهبت الى زوج الإبنة د. محمد حسن الزيات وطلبت منه بعض كتابات طه حسين التى لم تنشر أو مذكراته (علمت من بعض تلامذته أن له مذكرات محفوظة) ، فأجابنى د. الزيات بأنه لا يوجد لديه شئ منها ، رغم أنه سلمنى فى هذا الوقت جزءا لم يكن قد نشر بعد من رواية طه حسين (ما وراء النهر) .

ومتابعتى لكتابات طه حسين وحياته لسنوات تجعلنى أجزم أن هناك العديد من الرسائل المفقودة أو المختفية ، أو عديدا من الكتابات الأدبية والفكرية التى لم تنشر حتى اليوم ، استحوذت على أغلبها السيدة سوزان ، واختفت فى مكان مجهول ..

وتتعدد صور الهيمنة وتمتد الى عديد من النواحى ..

كنائس الأندلس

على أن الوجه الجامد ، الذى يحمل مسحة واضحة من التعصب والتعالى الشديدين يطل علينا فى رحلات طه حسين دائما مع زوجته ، ومن أكثر ما يدهشنا ، فى هذا ، أن رحلة طه وسوزان عام ١٩٤٨ الى أسبانيا بدت تصبغ بصبغة عربية تماما ، أو عربية يمتزج فيها الغرب بالتعصب .. فمن الغريب أن تقضى سوزان طه حسين فى ربوع الأندلس فترة طويلة ، وتهبط إلى غرناطة ، وتتعرف على قصر الحمراء وتقترب من أشبيلية .. الى غير ذلك من الرموز التى مازالت تحمل تاريخا إسلاميا صافيا .

ان المسافر الى هذه المناطق (التى كان الاسلام فيها مزدهرا) لمئات السنين لا يمكن أن يغفل هذه الآثار الإسلامية الشامخة ، ولسنا نأتى بجديد اذا قلنا إن الآثار الإسلامية فى أسبانيا الآن من الكثرة والغزارة بحيث تعد السياحة إلى هذه الآثار هى المورد الأول للدولة .. ومع ذلك ، فإن سوزان لا تندهش لعظمة قصر الحمراء ، ولا لقمة البناء فى آلاف المساجد والحمامات والحارات والتكايا الاسلامية التى ما زالت تشهد بعظمة العرب ..

وسافرت سوزان أكثر من مرة إلى

أسبانيا ، وشهدت الأندلس الإسلامية ومع ذلك ، لم تذكر كلمة واحدة عن ذلك ، إنها تتحدث عن (أشجار السرو .. تلك الأشجار الخارقة ، والينابيع والحامى الغرناطى ، والمطاعم ، والفراولة ، وثقافة المضيف ، ورقص الفلامنكو ..

والأكثر من ذلك ، أن طه حسين دشّن هناك فى عام ١٩٥٠ معهد الدراسات الإسلامية الذى لم تذكره قط اللهم إلا فى موضع واحد ، هو الموضع الذى قلد فيه وزير التربية الأسباني طه حسين (الوشاح الأكبر لصليب الفونس العاشر)

ونستطيع أن نذكر عشرات الأمثلة فى ذكرياتها التى كتبتها عن طه حسين بعد رحيله ، مما يشير إلى أن زوجة عميد الأدب العربى لم تكن تدرك شيئا عن هذا الأدب ، أو الأصح ، كانت تريد أن تدرك منه ما يوظف أفكارها فى النسق الذى جاءت من أجله ، ومن هنا لم توجد فى حياة طه حسين إلا من خلال الإحساس (بالدّيْن) الذى فرض عليه أثناء إقامته بفرنسا ، والذى يطوق عنقه إلى درجة الاختناق .

هذه .. الكاثوليكية

ويؤكد الذين عرفوا سوزان أنها كانت معتزة بعقيدتها وقد راح الأب قنواتى فى أحد المرات التى وجد الجذع فيها على وجه سوزان ، يقول لها : ، مقويا من عزيمتها :

– أنت مسيحية ..

على أنه إن يكن الانسان ذا عقيدة متينة (أياً كانت ديانته) فهذا شئ مستحب ، ويحاط بالإحترام والتقدير ، أما أن تختلط لديه الرؤية بين عقيدة وجنس وحضارة .. وما إلى ذلك ممَّا يرقى به الى درجة التعالى ؛ فإن ذلك ، فى حد ذاته ليس من السمات الأولى فى أى عقيدة ..

ومع أن الأمثلة التى تبرهن على تعالى السيدة سوزان وتصلبها لا يمكن حصرها ، فسوف نكتفى بهذا المشهد الأخير ، الذى يؤكد ، أن لهذه السيدة وجها آخر لا نعرفه ..

وهذا المشهد يحكيه لنا مؤنس – الإبن – عن أمه ، فيقول : (يوم تزوجت إبنتى، قبل عشر سنوات من شاب يابانى، جاءت الى من القاهرة لتشاركنى بالفرح) .

وسألها أصدقاؤه وأجابت :

– ألا يصدمك أن تتزوج حفيدتك من شاب يابانى وبوذي؟.. قالت بسرعة :

– لا

وعاد المتحدث يسأل من جديد :

– لماذا ؟

وعاد صوت سوزان مرة أخرى بحدة :

– طالما جدتها ، قبل ستين عاما ، تزوجت شابا عربيا مسلما ، وهى الفرنسية الكاثوليكية ..

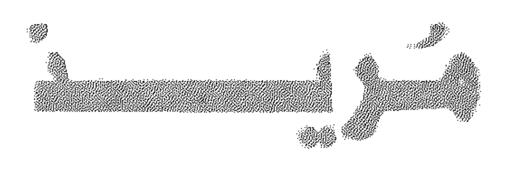
ولا نحتاج إلى تعليق ..

●● وعلى ذلك فإن لكل شئ وجهين ، أحدهما مشرق ، والآخر مظلم ..

وفى حالة سوزان ، يعرف الجميع الوجه المشرق ..

أما الوجه الآخر ، المظلم ؛ فلا يعرفه أحد ..

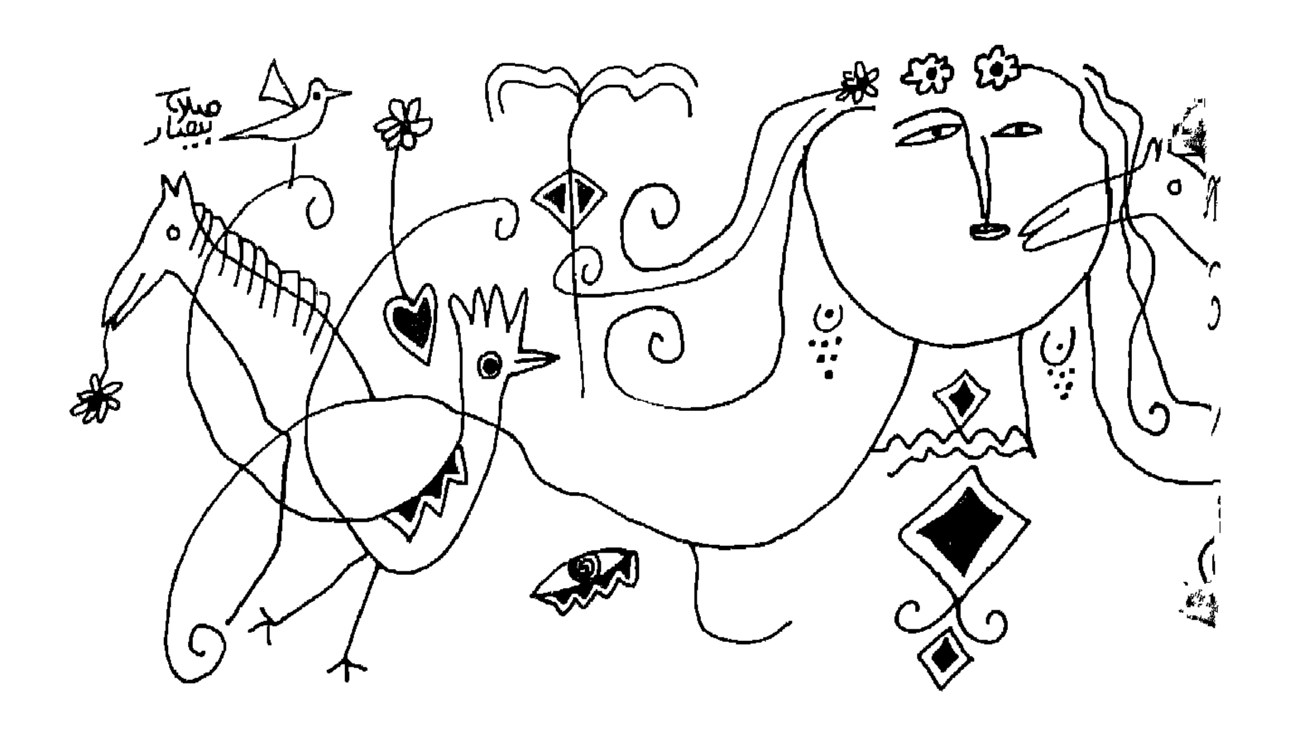




مُريـد

شعر : كاميليا عبد الفتاح

توضـأْتُ من عُـرْفِ ديـك مُطـالِعْ
وأرضـيتُ أُمِّـى
فهـل تستطيعُ الكنـوزُ الرياحـينُ أن
تستـجـيب؟
أرى لـونَ عينيـك يسعـى لقلبـى ،
فأسعى إلى القلبِ
سعـى المنـابرِ ،
تجتاحُ أرضى وتُهدى إلى العمـرِ وردًا حميمـاً
وسر ابتسامات شيخ عجوز
وسـر الرضـا
فى العيون العميقة
كأنى احتدامُ من المعجزاتِ ، أضئُ إذا شفَّ
إنسـانُ
عينـكَ كـأنى رأيـتُ انبثـاقَ الخليقـةْ
توضـأْتُ من عُـرْفِ دِيـكِ مُطـالـعِ



وأرضيتُ أمـــي

قلَّبتُ في أضلعِ العـابدين ، أشعلـتُ أسئلةً

للحروفِ ،

زاحمـــتُ هـــذا الوجَــودَ الــودودَ :

عينـــاكَ ليســـتْ بلـــونِ السمـــاءْ

وعينــــاكَ

عينـــــاكَ

رَســمُ السمــاءْ ..

ومُهْـــرُ انطلاقى إلى حضــن أمـــى ،

إلى وجــه شيـخٍ علتــهُ الــرمـــوزْ

إذا قلـــتُ هـــل تستطيعُ الكنـــوزْ ....

أومــــض في خفيـــةٍ مِـن دمـــوعى

وتمتـــم

مشْتعـِــلاً بالخفـاءِ بنـــورِ عجـــوزْ

يَجـــوزْ ....

المسلمون .. وفنون التصوير

الفنّان

يستلهم ابداعه من قدرة الله

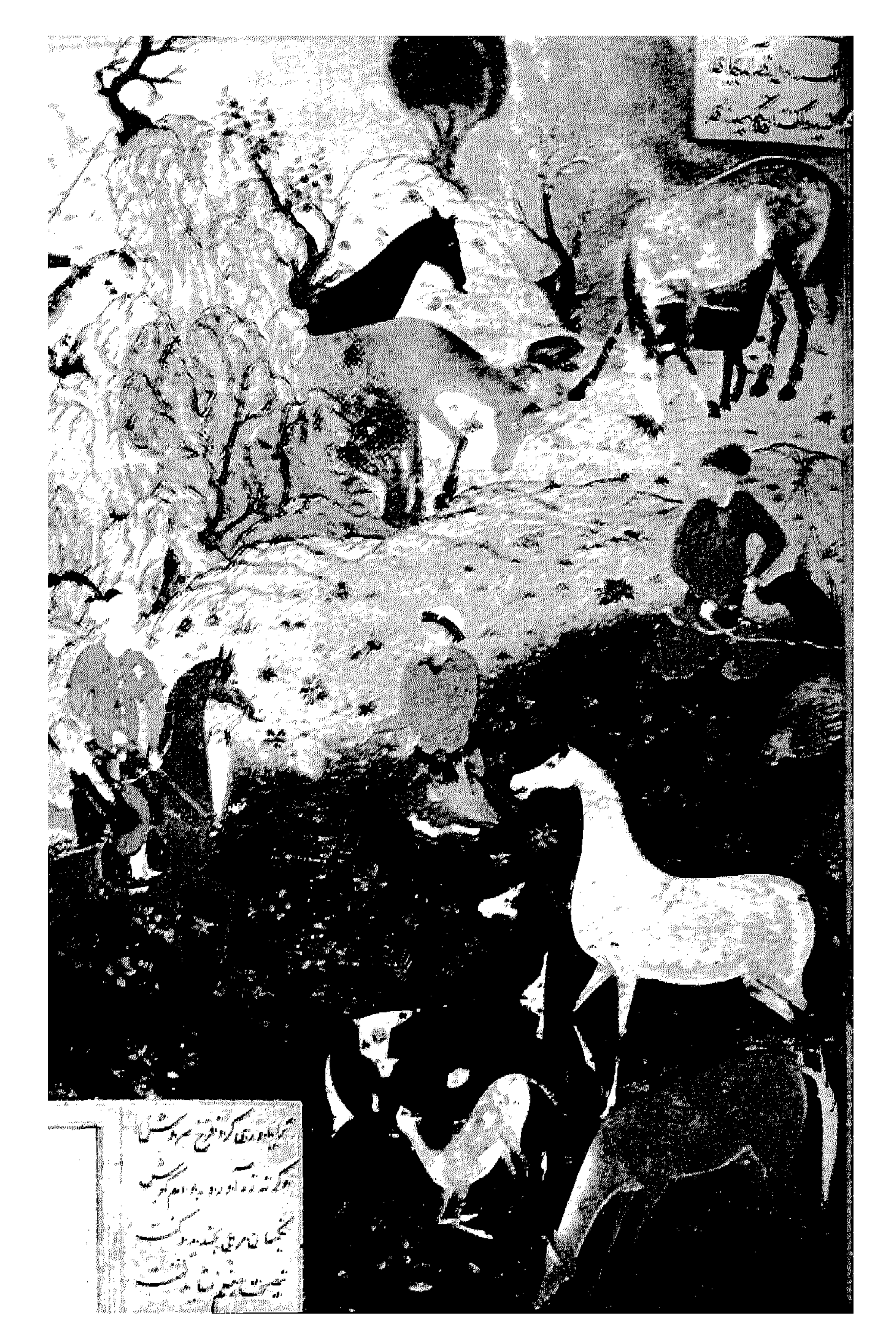
بقلم : محمود قاسم

لم يتأخر الفنان المسلم ، طوال أربعة عشر قرنا من الزمان ، عن الاتصال ببيئته ، ومجتمعه والتعبير عن هذا العالم الذى يعيشه سواء بالكلمة أو الصورة .. محاولا أن يكسب تلك البيئة جمالا وزخرفة ..

ولذا ، استطاع هذا الفنان أن يصنع فنا له هويته على مر العصور والتاريخ ، تطور يوما وراء يوم مع تطور منظوره إلى البيئة والعالم والمجتمع من حوله . بدءًا من داره ومروراً بالمساجد التى يؤمها كى يقيم فيها الصلاة . وانتهاء بكل أشكال الحياة التى تعج من حوله بالنبض والتدفق .

وتبعا لهذا التدفق ، تنوع عطاء هذا الفنان فى مجال التصوير والعمارة والنسيج والزخرفة وذلك فيما يتعلق بفن التصوير . مؤمنا أن ما يصوره ليس خلقا جديداً ، بقدر ماهو تصوير واقع الحياة من خلال منظوره الخاص . تمتزج فيه تجربته الحياتية ، بحدود موهبته التى منحها الله له . ورغبته فى تزيين أشكال الحياة الدنيا قدر استطاعته .

واينما يتجه المرء فى العالم الاسلامى يرى الفنون منعكسة فى كافة أشكال الحياة . ابتداء من القباب والمآذن العالية التى تطل من الآفاق على المرء أيا كانت المسافة التى يقف الرائى على بعد منها .



وايضا في سجادة الصلاة التي هي أقرب الاشياء اليه عليه أن يركع ويسجد فوقها عشرات المرات .

ومن الصعب أن نتناول هنا كافة أشكال فنون التصوير التي قام بها الفنان المسلم . تلك الفنون التي بدأت من البيئة الصحراوية التي نشأ فيها الاسلام وانتقلت معه إلى المدن الكبرى ورحلت معه في فتوحاته عبر البحار والمحيطات . فهذه الفنون تبلغ قدرا من الاتساع والشمولية لايمكن للمرء إدراكها في مجلدات ضخمة .

ولذا ، سنحاول هنا ، إلقاء بعض الضوء على واحد من أبرز هذه الفنون الذي برع فيه المسلمون على مختلف العصور ، وفي أماكن متفرقة من الاركان التي عاشوا فيها ، ألا وهو فن المنمنمات . هذا الفن العربي الاصيل الذي لم يكن له أن يولد إلا بعد ظهور الاسلام . والذي ظهر في القرن الثاني الهجري . وازدهر بشكل لافت للنظر في القرنين السادس والسابع من الهجرة . وكان المصريون هم الأكثر براعة فيه . رغم المحاولات العديدة التي بذلت من العثمانيين لابراز فنون أخرى في مصر ومنها الهندسة المعمارية .

العلوم قبل الفنون

في الكتاب الذي نشره أ . بابا دوبلو عن «الاسلام والفن الاسلامي» عام ١٩٧٦ يقول إن أول كتاب قد تحدث عن هذا الفن يحمل عنوان «كتاب صور الكواكب الثابتة» لعبد الرحمن الصوفي الذي عاش بين عامي ٩٠٣ و ٩٨٦ م والذي ترجم فيه بعض النصوص العلمية اليونانية القديمة ، وفي الكتاب رسوم منمنمة صغيرة للأشخاص والحيوانات وخريطة جغرافية للعالم العربي والصيني .

ويعتبر هذا الكتاب بمثابة أقدم نسخة موجودة الآن من هذا الفن . ففيه رسم الفنان بالحبر الصيني . واتسم الرسم بتجريد واضح . فلم يكن الفنان براغب في تحديد الواقع المعاش . وقد كشفت هذه الرسوم عن سعة تجارب الفنان . فهو ليس معزولا عن العالم . بل هو متصل بالبشر من الأجناس الأخرى وخاصة الصينيين .

لقد فتح هذا الكتاب العلمي الطريق لظهور عدد كبير من الكتب المماثلة ، والمترجمة عن اليونانية القديمة . وكان من المهم التعرف على هذه الفنون دون التأثر بها ، أو محاولة صنع فنون عربية على غرارها . ولذا ، فإن الفنان العربي عندما حاول أن يقدم منمنماته ، كان عليه أن يصنع فنا جديداً خاصاً به وحده . يتجاوز فيه كافة ما رآه من قبل .

ظهر هذا الفن في بداية الأمر في الاقمشة والملابس . ثم اتسعت مجالاته . وقد كشف تطور فن المنمنمات ليس فقط عن قناعات الفنان المسلم بالفن في رغبته لتزيين العالم بل ايضا عن قناعاته بدور العلوم وأهميتها في حياة الفنان .

واذا كان فن المنمنمات قد بدأ بالتجريد فإن رسم الوجوه قد جاء فيما بعد ، حين

أراد الفنان أن يعبر عن حبه للمرأة . وكم هى المرأة مهمة فى حياة أى فنان ، لذا راح يصـــور وجههـــا أقرب إلى البراءة والطهارة.

كــــان على هذا الفنان أن يدرك أن الوحـدة الجـمـاليـة للعـمل الفنى تعطى تاثيراتها من خلال درجـات الالوان التى يستخدمها . ومن خلال تنويعات الأشكال التى يعبر عنها ويعطيها لذا ظهر البشر والحيـوانات فى لوحـاته وأعـمـاله المنمنمة بمثـابة مـفـاهيم ، وهكذا خلت من الطرز ، والظلال والاضاءات والانعكاسات .

● مقامات الحريرى ●

ظهر هذا الفن واضحا فى كتب شهيرة منها «كتـاب الحيوان» و«كتـاب الحيـوان والمنافع» ، ولكنه شـهـد طفرة واضـحـة فى المائتى نسخة التى صدرت عن مـقـامـات الحريرى . حيث برع الرسام ابن باختيشو فى تصـوير وقـائع الكتـاب واعـتبـر اشـهـر فنانى عصره . وأكد مـن خلال رسومـه على استيعابه لعصره وايمانه بعلومه وجمالياته.

وقد اعتبرت «مقامات الحريرى» بمثابة الكتـاب الأكثـر انتشـارا فى هـذا النوع من الفن ، فقد بيع منه سبعمائة نسخة اثناء حـيـــاة المؤلف . ومـــا لبث أن ترجم إلى الاسبانية والفارسية والعبرية .

وقد رسم الفنان مقامات الحريرى فى منمنمات منفصلة تمثل كل منها مـوقـفـا فريداً يعكس صـورة من صـور الحـيـاة اليومـيـة فى المجتمع العربى . وقد ساعد نجاح المقامات بهذا القدر ، الذى لم يسبق له مـثـيل ، أن حـاول بعض الفنانين فى اقطار اسلامية أخرى إلى السير على هذا المنوال والتـتلمـذ على فن المنمنمـات الذى ابتدعه ابن باختـيشـو . فانتقل هذا الفن إلى ايران ، على سـبـيل المثـال ، وحـاول الفنان هناك العـزف علـى اوتار المساحـات المتاحة له للتعبيـر عن موهبته ، وعـالمه ، وازدهر هذا الفن هـناك فى القرن الخامس عـشـــر الميـــلادى . ولم يســتطع الفنان الايرانى أن يبتعد بالمرة عن فن الارابيسك وهو يقـوم بغـزل منمنمـاته ، ورسـمـهـا كمـا سـعـى الفنانون العـرب إلى نقل هذا الفن من فـوق صـفـحـات الكتب إلى آفـاق أخـرى منهـا على سـبـيل المثال مـحـاولات مـزجـه بالسيراميك . وما إلى ذلك .. »

ومن أبرع وأشـهـــر فنانى المنمنمـات المسلمين مـحـمـد زامـان الذى سـعـى إلى الخـــروج عن دائرة المجـــردات ، ليـــهـــتم بالظلال والحـركـة . ويصـور البـيـوت من داخلهـا . وقـد جـاء كـتـاب الاغـانى لابى الفـرج الاصـفـهانى ليـصـور فنونا مليـئـة بالبـهـجـة ، والحـبـور . والبـحث عن وسـائل السـعادة الحياتية . كمـا اعتبر الواسيطى واحـداً من أبرز هـؤلاء الفنانين ، فـبـدت الاشكال البيضاوية واضحة فى رسوماته،

إهتم الفنان المسلم بتصوير علاقة الإنسان بالطبيعة وأيضا بالحيوان



ورسم الوجوه واضحة ، تبدو فيها العيون واسعة والملامح النسائية متوردة ..

● لكل فنان ... ذاته ●

ويقول « بابا دوبلر » فى كتابه عن الفن الاسلامى السابق الاشارة اليه، إن كافة الفنانين الذين ابدعوا فى فن المنمنات قد خرجوا من مدرسة الحريري . سواء فى مصر أو العراق أو سوريا . رغم أن لكل فنان منهم هويته الخاصة . ولكن الشيء الذى جمع أغلبهم هوايماتهم بدور العلم في تطوير هذه الفنون . فلا شك أن تطور استخدام الفنان للالوان . مرتبط فى المقام الأول بتطور العلوم . كما أن ارتباط هذا الفن بتطور العلوم كماأن ارتباط هذا الفن بعلوم الرياضيات قد ساعده على تكوين اشكاله الخاصة كالدوائر ، والبيضاوى .

ويرى الكاتب أن الفنان العربى قد اهتم بالبناء الذى يعتمد على الفراغ فى المقام الأول ، وقد فهم الفنان أغا ميراك أن ما يرسمه ليس رسما ولكنه فن يحمل منظوراً ووجهة نظر الفنان وهو أيضا يعبر عن روحه . هذه الروح التى هي فى المقام الأول من أمر الله .

ولقد عبر عن فن المنمنات عن عالمين. الأول عالم بالغ السهولة يمكن للمرء زن يفهمه دون أى تعقيد . ويبدو هذا العالم في أشكال بعينها . مثل رسم الجوارى وقد أحطن بالامير والعشاق وهو يتبادلون عبارات الهوى. ومثل هذه الاشكال جاءت من التكوينات الادبية فى الشعر والنثر وعبرت عن كلمات وتصورات الادباء، اذن فهو عالم لم يبتدعه الفنان . ولكن عليه أن يشكله بناء على تحديات آخرين .

أما العالم الثانى فهو عالم ذاتى . يبدو فى شكل الوجوه التى يتصورها الفنان والألوان التى يختارها لصبغ هذا العالم ونقل تكويناته اللونية إلى المشاهدين كما بدا هذا واضحا فى اختياره لاشكال الاشياء ، فلا شك أن شكل الشجرة التى يرسمها فنان يختلف عن رسم نفس الشجرة عند فنان اخر .. ومن هنا تجيء أهمية انعكاس الذاتية على النمنمة .

كما تبدو هذه السمة فى المادة التى يستخدمها الفنان للرسم عليها . فالبعض يرسم على السجاد ، والبعض الآخر يرسم على القماش أو حتى على سطح الخيمة ، والستائر . وذلك من أجل التعبير عن ذاته وانفعالاته ..

● زوج من الافيال ●

ولفن المنمنمات سماته الظاهرية الواضحة . فاذا كان اللون يعكس رؤية الفنان للتشكيلات الكونية . فإن هذه اللوان بدت رغم تنوعها محاصرة في وحدة المكان والموضوع . فقد انحصر اهتمام فنان المنمنات فى العجابه بوقائع الحياة فى بيوتات المسلمين . وفى حبة للصيد . وعلاقته بالمخلوقات الأخرى خاصة الحيوانات وعلى رأسها الجمال

والافيـال . وقـد انعكس ذلك أيضـا من خـلال اهـتمـام الفنان بالمسطحـات . ولاشك أن اهتمام الفنان بالمسطحات . ولا شك أن اهتمـام الفنان العربى بهذه الاشياء ، اللون والمسطحات ، يعكس ايمانه بدور العالم فى تطوير الفنون ، كـمـا سـبـقت الاشـارة ، فـالالوان نتـاج تركـيـبات كـيـمـائيـة، أمـا المسطحـات فـقـد عكست ايمان الفنان بالابعاد الهندسية ، وليس من المغالاة أن ما نادى به فنانو القرن العشرين التشكيليين قد سبقهم اليه الفنان العربى بقرون من خلال رؤية الأشياء بتكويناتها الهندسية .

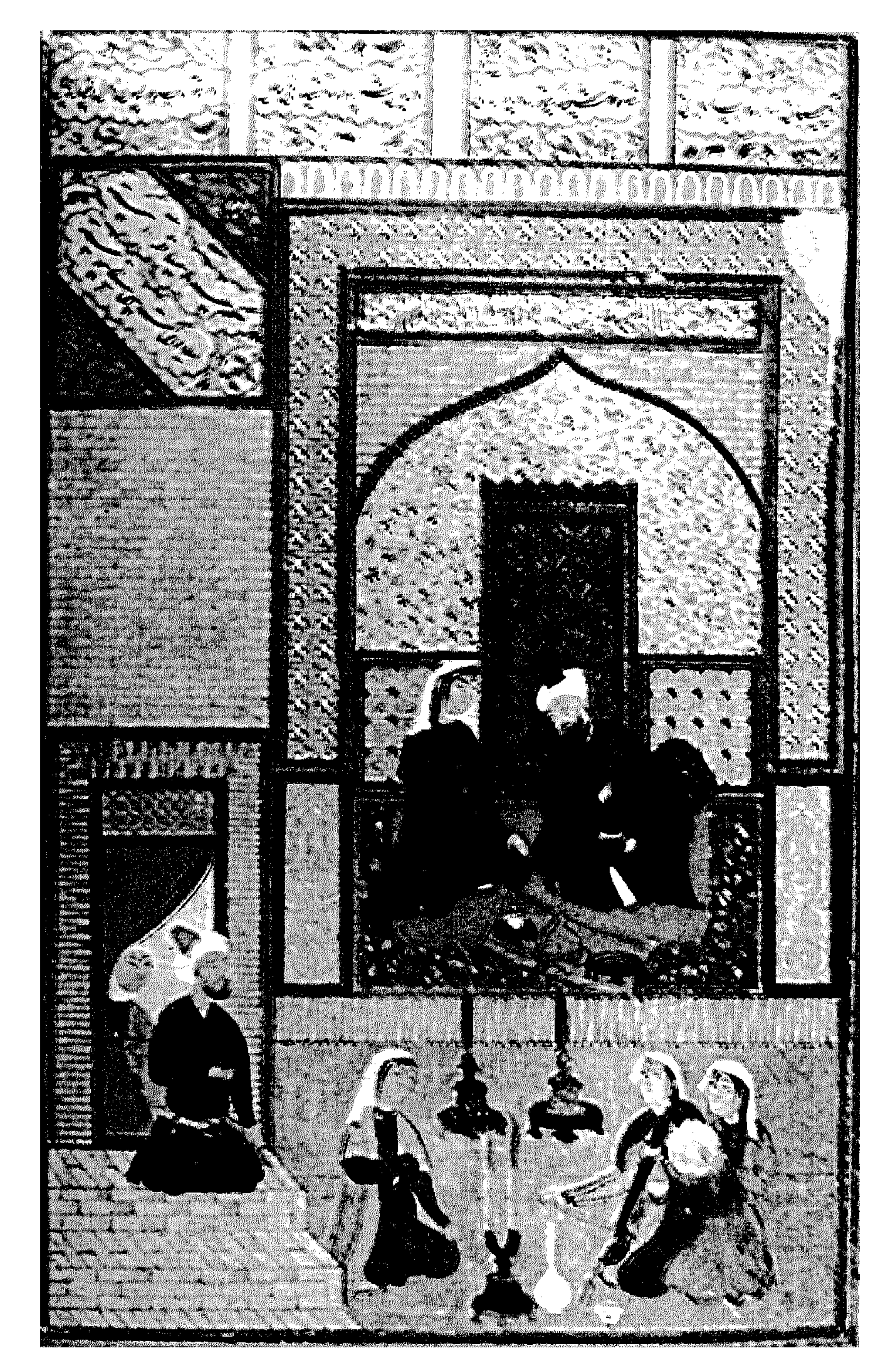
فـفى اللوحـات المرسـومـة فى كـتـاب الفنان الي رسم الوجـوه وكـأنهـا دوائر ، وأشكال بيضـاوية ليس فـقط فـيمـا يتـعلق برسم العـيـون واستـدارة الوجـه بل أيضـا بالنسبـة للأنف . وتفاصـيل الاصـابع وذلك مـثلمـا حـدث فى لوحـات «أبو زيد وابنه» و«أبو زيد والحـرث» وفى رسم الافـيـال واجسـامـها وهى تلتف حول بعضـها كـأنها مـجـمـوعـة من الكريان المتداخلة فى لوحـة «زوج من الأفيال».

ويمكن أن نلاحظ فى الكثير من لوحات هـذا الفن أن الفنان يبـحث عن التـفـرد والتنوع ولكل فنان ألوانه التى يتـفـرد بهـا عن غـيـره من الفنانين . لكن فى الغـالب الازرق والذهبى لونين سائدين .

● الحرف العربى .. خط تشكيلى ●

كان ذلك مدخلا إلى عالم فن المنمنمات الواسع الغـزير . ولأننا لا يمكن أن نرصده كلاملا ، ولا يمكن أن نلمه فى مقال واحد فإنه من المهم أن نربط بين فن الكلمة وفن الصورة فى الكثير من النصوص التى عُرفت فى تاريخ هذا الفن . فقد امتزج فن المنمنمـات بالكلمـة فى الكثـيـر من الكتب، خـاصـة الطبعات الفارسية التى رسـمـهـا فنانون مـثل« نظامى »و« الفـرسى » وغـيـرهمـا .. بالاضـافـة إلي اللوحـات الموجـودة فى مـقـامـات الحـريري ..وقـد تباين حجم العلاقة بين الكلمة والصورة فى هذه اللوحـات . ففى لوحة «المحمل الذاهب إلى مكة» والتى رسمها الواسيطى فى عام ١٢٣٧ ميلادية كانت الكلمات المتناثرة فى أعلى الرسم وفى جـوانب اقـرب إلى التشكيل الجمالى منها إلى الحكاية التى رواها الحريرى . فـفى أعلى اللوحة هناك اشـارة إلى بيـتين من الشـعـر عن الحج مذكورين فى أسفل هذه اللوحة الرائعة ..

أما اللوحـة التي رسـمـها عبد الرحمن الصـوفى فى عـام ١٠٠٩ مـيـلادية تحت عنوان « ملامح فوق القماش المثبت » فهى تعتمد فى المقام الأول على الكلمة . ويحس الرائي أن الحروف العربية هى التى رسمت اللوحـة، وأن هذه الحروف قد تحولت إلى خطوط تشكيليـة فى المقـام الأول . وهـكذا يبـدو مـدي تنويع رؤية الفنان ليس فـقط للعـالم .. لكن أيضـا لادواته الفنيـة .



لوحة منقسمة إلى قسمين فى مقامات الحريرى

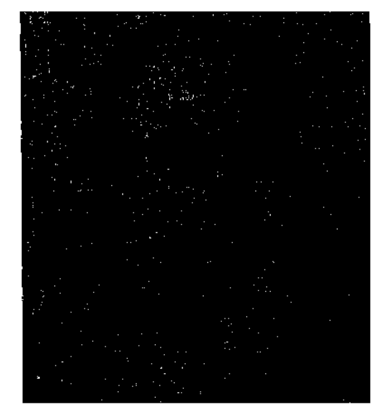
إدوار الخـــراط

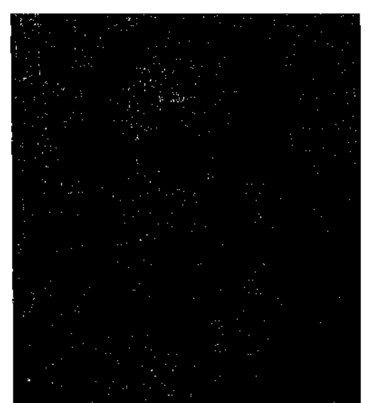
وعالم نجيب محفوظ

بقلم : عايده الشريف

سؤال من وحى مقالة رائعة مسهبة كتبها إدوار الخراط عن عالم نجيب محفوظ ، بهرتنى يومها ، وأحبطتنى فى يوم واحد . بهرنى تماسكها ، وإحاطتها ، وسلامة منطقها فى فهم هذا العالم من جنباته ، وأحبطنى هذا كله لأنه لم يترك لى ولو كوة صغيرة أدخل منها لأكتب عن هذا العالم الذى عملت مع صاحبه زمنا طويلا ، فصرت إذا ما و ضعت سن قلمى على الورق ، يرتد إلى صدى هذه المقالة الفذة فأطويه وأنصرف .

سنوات مرت إثر سنوات ، وأخيرا ظهر العدد الأول فى ربيع عام ١٩٩٢ من مجلة فصول ، وإذا بالدكتور صبرى حافظ يعرض كتاب (الأدب الحديث فى الشرقين الأدنى والأوسط) الذى نشر فى لندن أخيرا ، ويتوقف مليا عند أهم قضية يطرحها هذا الكتاب ألا وهى الفصل الذى يميز العلاقة بين رؤى المشارك فى هذه الآداب ، ورؤى المراقب لهما الدارس لتطورها حيث يأسف فيه على كاتب قصصى جيد من طراز إدوار الخراط يتحول الى ناقد ذاتى ومزاجى غير قادر على تقديم عرض متوازن لما جرى للأدب فى فترة تاريخية عاصرها ، ويعرف إنتاجها حق المعرفة ، وهى الفترة من عام ١٩٥٠ إلى الآن ، وما هالنى فى هذا





نجيب محفوظ

إدوار الخراط

الفصل هو أن ما جاء بمداد إدوار عن عالم نجيب محفوظ مناقض تماما لما كتبه في السابق وأعجبتُ به . ولكى أصور مدى هذا التناقض الذى أزعجنى ورجنى رجًا شديدًا أقتطف من مقالته الأولى برغم أن هذا يفقدها ألقها وروعتها ولا يلمُّ بكل ما جاء بها من تمجيد لعالم نجيب محفوظ .

كان إدوار قد بدأها تواضعا بكلمة « لن تلتزم هذه الكلمة بمنهج نقدى صارم ، بل هى انطباعات وتقديرات بين يدى فن عظيم ، هى أولا وقبل كل شىء كلمة محبة وتقدير للكاتب العظيم الذى أحبته مصر كلها وأزجت اليه التحية والتقدير ، هى رحلة من غير تخطيط ، فى رحاب هذا العالم المتعدد الجنبات ، المحكم التشييد ، الذاهب الى حدود بعيدة ارتفاعا سامقا ، وعمقا غائرا وجيشانا عنيفا بين أقصى أطراف العواطف والمواقف التى تضطرب بها نفوس الناس وتتخبط ، تسير بها ريح رخاء ، أو تسوقها عواصف هوج » .

والحقيقة أنها من عيون ما كتب إدوار، وما كتب نجيب محفوظ حيث شملت عالمه من رواياته التاريخية الثلاث الى السمان والخريف .

سمات مقنعة

للوهلة الأولى تساءل إدوار « هل يسعنا أن نسلِّم بأن الجبرية بل القدرية مع التشاؤم وكثرة الصدف من القسمات المميزة فى الوجه الذى يطالعنا به عالم نجيب محفوظ ؟ » .

وسرعان ما يجوس قلمه داخل هذا العالم.فيعود ليقرر أن هذه السمات منطقية مقنعة بل إنه تساءل بالنسبة للتشاؤم « وهل ثم فن كبير يقوم على التفاؤل الرخيص القريب المنال ؟ » .

أما عن صلة نجيب محفوظ بالواقع فقد قال : « وعالم نجيب محفوظ ليس منبت الصلة بالعالم الذى تعيش فيه الكائنات الإنسانية ، لأنه مرتبط بمجتمعه ارتباطا وثيقا » .

فإذا كنا نسعد بأن نجد بيننا الكاتب العظيم الذى تقلقه بل تمضه مشاكل

مجتمعه فيستقصى خصائصه استقصاء صبورا وصريحا وجسورا فى وقت معا، فلا ينبغى أن ينسينا ذلك أن هـذه الميزة الكبيرة فى فن نجيب محفوظ ، شأن كل فن عظيم ليست إلا ظـاهرة تأتى فى المرتبة الثانية بل هى فيمـا نزعم إحدى حيله الفنية القادرة البارعة ، نحن هنا بإزاء هموم اجتماعية تتصل على الفور اتصـالا حميمـا بالهمـوم الميتافيزيقية الكبرى ، وهـذه هى الشـغل الشاغل لكل فنان عظيم ، هموم الخير والشر ، العدالة بمعناها الأشمل الأعم ، العدالة الكونية إن شئت ، هموم المصير ، والفناء ، والمعرفة والفساد ، والسعادة ، والمحبة ، فهى من أوليات الفن ، والفن الروائى بخاصة وهى من معالم أستاذية نجيب محفوظ ، ورسوخ قدمه على أرض فنه ، وهى إحدى فضائله أو أحد أفضاله ، وقد كنا نفتقدها عند رواد آخرين لهذا الفن فى تاريخنا .

بين الإنسان وبيئته

وعندما تناول قلم إدوار الأشخاص الذين يعمرون عالم نجيب محفوظ قال : فهم عنـدى على الرغم من الأردية الواقعية (الثقيلة) نمـاذج (رئيسـية) وصحتها : (رئيسة) كبرى ، أو هم بؤرات تتركز فيها الى درجة التوهج والإشعاع الحاد .. تكوينات نفسية واجتماعية دقيقة مستلهمة بحدس صادق نفاذ من صميم حياتنا المصرية أولا ثم من جوهر تشكيلاتنا النفسية الإنسانية التى تشارك الإنسان فيها طالما كان هو إنسانا ، كما أظن أن سرا من أسرار جاذبيتهـا الآسرة ، وإقناعها الكامل ، وحيويتها الباهرة ، أنها ليست قوالب جامدة ، وليست أشكالا مصـبوبة بلا روح ، وليست تركيبـات مصطنعة ، وإنمـا هى فى اعتقـادى - شأنها فى كل الأعمال الفنية الصادقة - مستقطرات صافية مركزة من جوهر الإنسان الموضوع فى بيئته الحيوية والنفسية والاجتماعية والكونية معًا .

أما عن الأسلوب الكلاسيكى القديم لنجيب محفوظ المعروف برصانته ، ورسوخه ، فقد قال إدوار : إنه يذكر المرء بقدامى كتاب العرب ، وهو أسلوب رتيب تتعاقب فيه القوالب اللفظية المأثورة ، والايماءات الشخصية الأصيلة .. و .. وإذا بأسلوبه فى المرحلة الأخيرة يرقى الى شاعرية كثيفة غنية شديدة الخصب فى إيجازها وتركيبها ونفاذها وقوة إيحائها ، وإذا هو يتبنى الأسلوب النفسى الحديث فى الربط بين الذات والموضوع وصهرهما معا فى كيان واحد سريع النبض متوثب الإيقاع متحلل من تزمت القوالب وسيطرة قواعـد النطق الجـامدة ، لا يبلغ فى ذلك

ما بلغه « جويس » أو « فوكنر » ، ولكنه ينفرد بأصالة شخصية خاصة .

وفى ضوء هذه التنظيرات تتوالى أحكام إدوار على أعمال نجيب . فعن رواياته التاريخية الثلاث الأولى قال : « فإننى زعيم بأن هذه الروايات ليست بالروايات التاريخية ، وهى ليست على يقين روايات رومانسية ، مهما أحب الكاتب أن يسميها بذلك ، بل هى فى ظنى الإرهاصات الأولى للأبنية العقلية الشامخة التى سوف يبنيها نجيب محفوظ ، والتجارب الأولى التى يتيح فيها لمقومات فكره الأساسية أن تتشكل خلقا سويا » .

الواقعية فى عالم نجيب محفوظ

أثبتت المقالة نفسها صحة توقع كاتبها ، حيث ظهرت فى المرحلة الأخيرة هذه الأبنية وشكلت فنًا سويًا .. أسماها صاحبها نجيب محفوظ واقعية ، لأنه اهتم فيها بما وراء الواقع . أما إدوار فيجزم : « أما عندى فإن (الواقعية) فى عالم نجيب محفوظ واقعية متفردة خاصة ، وما من سبيل حقا الى فصل نظرة الفنان إلى الواقع عن أسلوبه فى التعبير عن هذه النظرة . ولست أعنى بالطبع ، مجرد أسلوب الجملة والكلمة ، وإن كان لذلك وزن.

أما عن أعماله الأخيرة – آنذاك عند كتابة هذا المقال بمجلة المجلة – فقد وجدنا إدوار يلهج : « إن السراب ، لوحة شاملة للنفس التى منها موضوعها ، محيطة بها أشمل الإحاطة للموقف الأوديبى فى ظروفه جميعا – فهى ترتفع بذلك من فرط كمالها وحتميتها ، الى مرتبة الأسطورة ، وهى لا يمكن فى ظنى .. أن تكون مجرد حكاية واقعية » .. ثم وصف (السمان والخريف) كمثل ثان بأنها « استبصار عميق بمأساة الضياع ، وانبتات الصلات والكارثة النفسية فى محنة اللامنتمى ، وهى مأساة تلمسها نجيب فى الثلاثية ، عند كمال عبد الجواد . لكنها لم تصل الى قمتها الفنية إلا فى (السمان والخريف) . ويسترسل « أما ذروة أعماله فى هذه الفترة فهى قصة (اللص والكلاب) التى بلغت فيها رؤيته الفنية وأدواته الفنية معا أوج الكمال . هى قصة سطوة الظروف الاجتماعية لكنها أيضا قصة المصير الإنسانى كله .. وأصداء الوجودية فى هذه القصة لا فكاك منها ، وتصوير العبث فيها ، بالمعنى الوجودى ، تصوير بلغ من النفاذ والإيحاء ما لم يبلغه أساتذة الفن الوجودى .. و .. و ..

ثم ينهى إدوار مقالته : « أما أنا فلا أجد فى وصف أعمال هذه المرحلة الأخيرة

سوى أنها من عيون مدرسة الفن الحديث ، وأنها قد وثبت بأدبنا الى قلب العصر الذى نعيش فيه ، وأنها شاركت فى الرؤية المعاصرة للإنسان وفى البصر بهمومه المميزة وموقفه الخاص . على أن لذلك تفصيلا طويلا .

وانتظرنا طويلا التفصيل الطويل .. والإضافات التى سيثرى بها إدوار نفوسنا عن هذا العالم الذى عشقه كما نرى عشقا مبرحا . وإذا بانتظارنا يسقط صريعًا ذلك أن الذى كتبه إدوار فى كتاب (الأدب الحديث فى الشرقين الأدنى والأوسط) عن المرحلة من عام ١٩٥٠ الى الآن ، وهى تشمل الفترة التى كتب فيها إدوار مقالته المحبة المقدرة لعالم نجيب محفوظ .. قد انقلبت على عقبيها .. فبدلا من أن يجعل نجيب هو المحور الذى يدور عليه أدب هذه المرحلة فى مصر (باعتبار أنه صار مقروءا فى الغرب الآن سيما بعد نوبل وأيضا لأن الغرب استدل على شهرته وحب المصريين له من خلال ما كتب عنه داخلها .. كمقالة إدوار وغيرها - فبدلا من ذلك كله نجد إدوار لم يذكر نجيب إلا ثلاث مرات .. بل إنه أرفق هذه الفترة أيضا بعبارة هازئة ساخرة أو مستهزئة .. فقد ذكره فى المرة الأولى فى ذيل فقرة خصصها للحديث عمن أسماهم بمجموعة كتاب اليمين مثل عبد الحميد جودة السحار وأمين يوسف غراب و .. و .. وفى المرة الثانية ذكره فى سياق حديثه عن قضية العامية والفصحى حيث غمزه ولمزه بأنه حرفى حاذق لأنه لم يسمح لشخصياته بالتحدث بلغتها اليومية الخاصة (أى العامية) أما المرة الثالثة : فتجىء فى نهاية الفصل حيث يؤكد لنا أنه **«طوال هذه السنوات ظل الكتاب المستقرون يواصلون عملهم بطرقهم المستقرة كأمر تقليدى وواصل عميدهم نجيب محفوظ الكدح منتجا رواياته السنوية التى واصلت التدهور والانحدار بشكل مضطرد عاما بعد عام»** .

○○○

وبعد ألا يساور من يقرأ المقالتين الشك فى أن إدوار الذى كتب الأولى وتصاغر فيها لنجيب محفوظ غير إدوار الخراط الذى تطاول عليه فى الغرب بهذا الشكل ؟

ومن العجيب أن إدوار الذى نعرفه قد أكمل ما كتبه فى الغرب بلقاء بمجلة روز اليوسف . حيث قال إن نجيب محفوظ أديب متوسط .. وأن إدوار نفسه مع أدونيس هما فقط المستحقان لجائزة نوبل !!

ودعنا من سؤال إدوار هذا السؤال الجارح وكيف تأتى له أن ينكر أيام حياته الأولى حين كان يقرأ ويكتب عن عالم نجيب

محفوظ بهذا الحب والتقدير ؟ لأن هذا كله علاقته بنفسه ، ولكن ألا يحق لنا نحن قراء إدوار أن نسأله ما السبب الذى دفعه لكتابة مقالته الأولى عن نجيب محفوظ فوق صفحات مجلة المجلة .. إن لم يكن من أجل معناها المباشر .. المفهوم من الجميع والمرضى عنه من الجميع وإلا فليدلنا على الطريقة التى نفهم بها هذه الازدواجية فى كتاباته ؟!

أليس من المفروض بل من الضرورى أن تكون الأخلاقية عند الكاتب دائما فى توهجها الأزلى .. لأنه اذا كان الفن سلوك الفنان ، فأخلاق كل فنان إذن هى فنه الخاص . واذا كانت الكلمة هى التى تمثل للكاتب تمرده ودعوته العظيمة بالنمو والحياة والحرية ففى أى موقف يكون (إدوار) اذا ارتد اليه كلامه الأخير مرة أخرى بدون أن يكون بينه وبين قرائه الذين كتبت من أجلهم مشاركة ما ؟ أى موقف هذا وأى حرج ؟

ما هذا الذى يحدث لبعض الكتاب المصريين عندما يكتبون للغرب بحثًا عن مكانة أدبية ؟ يهيأ لى أنهم ما أن يكتبوا من اليسار الى اليمين .. حتى يمحوا ما سبق أن كتبوه من اليمين الى اليسار ؟ منكرين بذلك أصولهم .. أو مرحلة من حياتهم .

ترى هل يستحق هؤلاء مكانا لدى الغرب .. ولا نقول تطلعهم النهم لنوبل ؟

إن الحديث هنا ذو شجون ، وإن امتنع معه القلم عن إيضاح مواقف أخرى لإدوار يتنكر فيها لرؤى سابقة ، ونكتفى هنا باجتزاء بعض نصوص دالة من روايته (راما والتنين) إذ يقول على ما تسعفنى به الذاكرة : « تجرى فى عروقى دماء يونانية وربما رومانية ولكن الشىء المؤكد الوحيد أنه لا تجرى فى عروقى دماء عربية.. إن عشقى للغتهم عشق الخونة ، أما لغتى أنا فقد نسيتها أو أسقطتها ولذا فإن ثقافتى بزرميط » .

وبلغت ذروة عشق الخونة البزرميط أعلاها فى « بائيات الإسكندرية » ففى الفصل الموسوم باسم (مادونا غبريال الصامتة) .

لقد احتج ادوار على د. سهيل إدريس عندما حذف عبارة فى طبعة دار الآداب ، وأصر على إعادة طبعها على حسابه حتى لا يتنكر لسطر كتبه .

ترى لِمَ تنكر لنجيب محفوظ وهو القائل فيه – كما سبق وذكرنا – « هى كلمة محبة وتقدير للكاتب العظيم الذى أحبته مصر كلها وأزجت اليه التحية والتقدير » ويالـه من عرفان بالجميل !

باولوفريرى
فيلسوف تربية المقهورين
« إلغاء المجتمع »

بقلم : د . محسن خضر

ثقافة الصمت ، تربية المقهورين

التعليم البنكى والتعليم الحوارى :

هذه بعض المسميات التى دخلت قاموس التربية فى العالم المعاصر ، وهى تنتسب الى أحد كبار المفكرين التربويين فى العالم الثالث ، هو الدكتور باولو فريرى ، والذى أثارت آراؤه جدلاً فى العالم الثالث وفى الغرب ، جعلت البروفسير الأمريكى ريتشارد شول يعترف بأن أهمية باولو فريرى بالنسبة للغرب لا تقل عن أهميته بالنسبة للمقهورين فى العالم الثالث .

اهتم باولوفريرى بالمقهورين والمتسلين ، ودعا إلى ثورة تستهدف تحرير الانسان وتوجيه طاقته نحو تغيير العالم الذى يعيش فيه ، واحتلت قضية « الأنسنة » المركز الرئيسى فى فكره ، وحيث تكمن قيمة عمل الانسان لديه فى قدرته على تغيير العالم ، ولهذا فمحاربة القهر تأتى فى مقدمة اهتمامات الثوريين فى العالم الثالث ، ولذا فقد أهدى أشهر كتبه « تعليم المقهورين » إلى « أولئك المقهورين والذين يقاسون معهم ويحاربون الى جانبهم » .

الكفاح فى البرازيل

ولد فريرى فى مدينة رصيفى الفقيرة بالريف البرازيلى عام ١٩٢١م وهى واحدة من أكبر مراكز الفقر فى العالم الثالث ، وعايش البؤس والحرمان منذ طفولته وخاصة فى ظل أزمة العشرينيات الاقتصادية والتى انعكست على الوضع الاقتصادى المتردى فى تلك المدينة الصناعية ، ولذا كرس حياته لمكافحة الفقر والنضال ضد الجوع والظلم الاجتماعى ، وتشبث بالتعليم كمخرج من الفقر والتخلف ، واستطاع أن يحصل على الدكتوراه من

جامعة رصيفي عام ١٩٥٩ ، وعمل أستاذا للتربية بها إلى أن وقع انقلاب عام ١٩٦٤ اليميني الموالي لأمريكيا ، فسجن ونفي الى شيلي وعمل باليونسكو بشيلي ثم بجامعة هارفارد ومستشارا بمجلس الكنائس العالمي في جنيف ، واستمر ينشر أفكاره الثورية حول تربية المقهورين . وأتيح له أن يقوم بالتدريس لمدة ١٥ عاما في ريف البرازيل ، وأشرف على مشروع تعليم الكبار ضمن حركة الثقافة الشعبية في رصيفي . وطبع فيها أفكاره حول التربية الحوارية ، ونجحت طريقته مع النازحين الأميين من الريف الى المدينة . ولذا فلم تأت ثقافته من الفكر النظري وحده بل صقلها وطورها من خلال الخبرة والمعايشة والمعاناة ، ومن خلال تحليل واقع الجماهير ، والاحساس بهم والتوحد معهم ومع واقعهم اشتق فريري مفهوم « ثقافة الصمت » من حياة التخلف ، وادرك أن جهلهم نتيجة السيطرة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتسلط الأبوي ، ونتيجة استسلامهم لحالة من استلاب الوعي بصورة جمدتهم واعاقتهم عن التغيير والتمرد ، وساعد النظام التعليمي المكرس لخدمة « ثقافة الصمت » على زيادة استلابهم ، ولذا فقد وجه اهتمامه الى التعليم كأداة لتنوير الوعي . تأثر باولو فريري بمفكرين عديدين سبقوه وعاصروه ، منهم سارتر وأريك فروم ، ولويس التوسير ، وجيفارا وماوتسي تونج ومارتن لوثركنج وماركس .

أما أهم مؤلفات فريري والتي عبرت عن نظريته التربوية فهي « التربية » و« السبيل الى الحرية » و « تربية المقهورين » و« طريقة لمحو الأمية بين الراشدين » و« رسائل لأمة صغيرة » و« ممارسة الحرية » .

القهر والمقهورون

يميز فكر فريري ايمانه العميق بقوة الجماهير ، وإعلاءه من شأن الانسان ، وان المعرفة عملية بحث واكتشاف لا تلقين ، وان العالم ديناميكي غير ثابت ، وان إثارة الوعي مفتاح الطريق الى التعليم ، وأن التعليم عملية تغيير اجتماعي وتحرير اجتماعي .

ونقطة الانطلاق في فلسفته هي «عملية القهر» التي يعاني منها العالم الثالث

ومحاولة اكتشاف طريق مواجهته والتغلب عليه . والثورة الحقيقية هى محاولة لتغيير العالم الذى امتهنت فيه كرامة الانسان ، والذى سيقوم بها المقهورون مع قيادتهم ويتخذ القهر عند فريرى صورتين : قهر خارجى يتمثل فى المستعمر الأجنبى ، وقهر داخلى يتمثل فى قهر الطبقة الحاكمة، وتاريخ البشرية عنده هو تاريخ القهر ، ويولد من وضع القهر الصراع ضد القهر ، والقهر هو الحقيقة الأولى فى الوجود حيث يعيش فى عالم من القهر والقهر حالة لا انسانية تشمل المقهور والقاهر معا ، لأنه يجرد المقهور من انسانيته بحرمانه من حقه فى التعبير والعمل ، ويسلب القاهر انسانيته عندما ينسلخ عنها . وتمتلك القاهر نزعة تملك العالم والناس حيث يريد أن يمتلك كل شىء ، وحيث المال هو معيار الاشياء عنده ، والآخرون أشياء لا بشر . ولذا فيجب على المقهورين أن يتحرروا ويحرروا قاهريهم ، ولن يتم ذلك الا بالقوة الثورية .

الوعى والوعى الزائف

يقصد فريرى بالوعى العملية التى يستطيع الانسان عن طريقها معرفة العالم وتغييره . وهى عملية انسانية ، مقصورة على الانسان وحده . ويفرق بين الوعى الحقيقى والوعى الكامن حيث قد يوحى الوعى الحقيقى بعدم امكان تجاوز الامكانات والواقع ، ولكن من خلال التجربة يدرك الانسان امكانية تجاوز واقعه فيتحقق وعيه الكامن ، وافضل أسلوب لتعليم الناس هو الاسلوب الذى يستثير وعى الناس بأوضاعهم ويولد عندهم الاحساس بتجاوزها وتغييرها .

وعلاقة الانسان بالعالم علاقة ناقدة عرضية ، ويؤنس الانسان العالم ويضفى عليه طابعه ، واذا كان تأثيره سلبيا فهى عملية « لا أنسنة » ، والانسان كائن تاريخى حيث تؤثر الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى مسيرته التاريخية ، وتلك بدورها تشكل وعيه الاجتماعى ، ليعود هذا الوعى ويؤثر دائريا فى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية .

ويكون الوعى الاجتماعى فى حالة جدل ديناميكية ، حيث يمر بثلاث مراحل :

١ - وعى زائف فى ظل ثقافة الصمت .

٢ - وعى متمرد فى ظل مرحلة الانتقال من القهر الى الثورة .

٣ - وعى صادق فى ظل مرحلة الثورة والتحرر .

التعليم البنكى والتعليم الحوارى

ينتقد فريرى التعليم التلقينى حيث يسميه (التعليم البنكى) وحيث تعتمد السلطة القاهرة على التعليم كأداة للقهر ، والتعليم التلقينى يصب كلمات فارغة بلا حياة والتلاميذ عبارة عن مستودعات تملأ بكلام المعلم الذى يودعها كلامه .

والمدرس هو محور العملية التعليمية : فهو يعلم ويعرف ويفكر ويفرض النظام ويعاقب ويختار المقررات ويفعل ،أما التلاميذ فهم مجرد أشياء ، فوظيفة التعليم في مجتمع القهر ان يتكيف مع الواقع الاجتماعي ويستسلم لحالة القهر .

والتعليم البنكي بنظرياته وممارساته يعمل على استمرار خضوع الغالبية للأقلية وتبنى الغالبية لأهداف الأقلية ونسيانها لأهدافها الخاصة . أما (التعليم الثورى) فهو تعليم ذو وظيفة سياسية وليس تعليماً محايداً .. عملية اكتشاف للحقيقة وليس عملية تلقين ، وهو تعليم يهدف الى تغيير الواقع الاجتماعي وليس التكيف معه ، ويقوم على ايجابية المتعلمين والحوار المستمر بينهم وبين المعلمين ، ويتبع هذا التعليم أسلوب طرح المشكلات وليس تقرير الحقائق ، وعلى المعلم أن تكون لغته شبيهة بلغة الناس يعتمل بفكرهم وآرائهم ولن يتم ذلك الا بفهم المعلم لظروف الناس والطريقة المثلى للتحاور معهم .. وبالنسبة للمقررات الدراسية : يرى فريرى أن يتعاون المعلم والمتعلم في تحديدها ، ويجب ان تنبع من حاجات الجماهير وواقعها وليس من أذهان المربين « اى لا نعلم الجماهير وفقا لما نظنه الافضل وانما وفقا لحاجاتها وواقعهم » .

ويربط فريرى بين تغيير البنية الأساسية للمجتمع وتغيير عمليات الانتاج والتوزيع لصالح الأغلبية وحيث المهمة الأساسية للتعليم في مرحلة ما بعد الاستقلال التغيير الجذرى للمجتمع وليس مجرد اصلاحه وتربية المقهورين عنده هدفها تحقيق انسانية الطرفين ، ولذا فعلى الثوار محاورة المقهورين في مختلف مراحل الثورة ، فهو عمل (معهم) وليس (من أجلهم) وهذا هو الجانب التربوى للعمل الثورى والذى يسميه (التربية الانسانية) ، فمن خلال دخول القيادة الثورية في حوار دائم مع المقهورين ، وفيها تتم عملية تربية مشتركة للطرفين لكشف ومعرفة الحقيقة واعادة فهمها .

ويعلى فريرى من شأن العمل الانتاجي في التعليم ، أى ينظر الى الإنتاج على أنه فكرة أساسية يقوم عليها التعليم ، ولا يجب السماح بانفصال التعليم عن الإنتاج ، فالعمل له قيمة تربوية لذلك يجب أن يدخل في صلب العملية التعليمية لتكون المجتمع الجديد الذى يختفي فيه الفرق بين العمل اليدوى والعمل العقلى ، ويبدى باولوفريرى إعجابه بتجربة الجمع بين التعليم والعمل الانتاجي في غينيا بيساو والتى تلغى الحواجز التى تفصل المدرسة عن المجتمع، كما أن جماعية العمل تؤكد وحدة وجماعية المجتمع .

إنها بعض أفكار الفيلسوف التربوى باولوفريرى والذى أكمل هذا العام عامه السبعين ، ولا تزال أفكاره تراثا حيا بين التربويين في العالم الثالث .



الفندق

قصة : محمد جبريل

- ١ -

حين غادر الفندق ، كان الصباح فى أوله . سار فى شارع جمال عبد الناصر الى نهايته ، ثم مال ناحية السوق الكبير . تنقل بين الأكشاك الخشبية ، صفت أمامها صناديق الخضراوات والفاكهة ، يتأمل ويناقش ويسأل يقول البائع . هذا هو الثمن الذى أراه .. فما الثمن الذى تراه أنت ؟. تبدأ عملية الفصال . ربما يبدأ الثمن بثلاثمائة أوقية ، وينتهى بتسعين . لا تقتصر الأسئلة على ما ينوى شراءه . يتحدث ويتحدث ، لمجرد الدردشة، الأخذ والعطاء ، التعرف الى حياة يراها للمرة الأولى ، جال بعينى الدهشة فيما حوله . انشغل الجميع بالتقليب والتذوق والبيع والشراء . ثم لم يعد المشهد يصدم عينيه ..

قال له السفير :

– هذا الفندق هو أصلح الأماكن للاقامة فى نواكشوط .

وهو يغلق حقيبة يده

– هل أظل مدة عملى فيه ؟

ابتسم السفير فى محاولة لاظهار الود

– لا بالطبع .. انها اقامة مؤقتة حتى يرحل السكرتير السابق .

أهمل – منذ اليوم الأول – هواجس الاقامة بمفرده لا تشغله مسئولية إعداد الطعام ولا غسيل الثياب أو كيها ، ولا أى شىء مما تتطلبه الحياة بلا أسرة . يقسم وقته بين السفارة والفندق والتجول فى الشوارع المسفلتة القليلة ، والسوق الافريقى ، والصحراء الممتدة الى نهايات الأفق

يحس باختلاف الحياة فى اختلاط الأسود والأبيض ، ورجال الطوارق الملثمين ، والمسواك ، والحراتين فى

الفندق
قصة قصيرة

أكواخ الصفيح المنعزلة ، والبيوت ذات الطابق الواحد ، والخيام ، وفيلات الفرنسيين بضاحية الأكسر ، والملحفة ، والدراعة ، والزى الأوروبى ، والتحدث بالفرنسية حتى مع عابرى الطريق ، والرمال المحملة بسخونة النهار ، ونسائم الليل فى شاطىء الأطلسى ، والرتابة ، والملل . وربما استقل سيارة - بمفرده ، أو مع موظفى السفارة - الى نهر السنغال . يقضون اليوم فى المدن المقابلة ، ويعودون آخر النهار .

-٢-

لما أراد استبدال دولارات بأوقيات موريتانية ، همس له موظف الاستعلامات :

- قد يغيرها المدير بسعر أعلى ..

كان قد تعرف الى العاملين فى الفندق . المدير الفرنسى وزوجته يتحدثان بالفرنسية وحدها ، والمساعد الأسبانى يحاول التحدث بالعربية ، والعمال من السنغال أو مالى ، فيما عدا الشاب الفرنسى باستعلامات الفندق ..

عرف اللجوء الى المدير ، والى مساعده ، فيما يواجهه من مشكلات وعندما اعتذر الشاب الفرنسى عن صعود فتاة سنغالية - برسالة - الى غرفته ، تدخل المدير ، وأذن لها .

لم يكن المدير يستقر فى غرفته الزجاجية ، يقف وراء البار ، يجول فى قاعة الطعام ، يجالس النزلاء فى أحاديث هامسة ، أو يصحبهم الى حجراتهم ، فيظل داخلها بالساعات .. ساعده قوامه الضئيل ، وخطواته القافزة ، والحيوية الملتمعة فى عينيه ، رغم سنى عمره المتقدمة . وكان قد خصص لنفسه حجرة بالطابق الأول ، بينما أقامت المرأة فى حجرة بالطابق الثانى ، تلاصقها حجرة المساعد الأسبانى ..

كانت المرأة والمساعد يهبطان الى « اللوبى » فى الضحى ، يسبقهما الزوج بساعتين أو ثلاث . يتطلع اليهما - حيث يجلس أو يقف - بنظرات صامتة . اذا اصطدمت النظرات ، هز رأسه بتحية مرتبكة ..

لاحظ عثمان السنغالى تساؤل عينيه :

- لا تشغل نفسك . فالسيدة تعانى تقدم السن !..

أعاد النظر - بتلقائية - الى الرجل والمرأة فى وقفتهما أمام البار . بدت - الى طول قامته - ضئيلة . ترتدى بنطلونا فاقع الحمرة ،

وبلوزة صيفية وكان يرتدى بنطلونا يعلو الركبتين، وقميصا ضيقا يفز الشعر من فتحته الواسعة ..

أضاف عثمان وهو يمسح المائدة أمامه :

- انها تحاول سرقة الزمن .. وهو يسلى وقته !

لما اعتذر عثمان عن قبول « البقشيش » عرف أن اهتمامه به لسبب غير النقود . هل لأنه أشفق عليه وسط خليط الأجانب، أم لأنهما التقيا فى المسجد الصغير أول السوق ؟ مع تعدد العمال والجرسونات ، اقتصرت خدمته على عثمان . شاب فى حوالى الخامسة والثلاثين . يبحث عنه - بعينيه - أو يناديه . يحادثه - أحيانا - بلا مائدة ولا طعام . يهمس عثمان بكلماته ، ويمضى لنداء ، أو لأداء خدمة ، ويعود ..

قال :

- من صاحب الفندق؟

- موريتانى من بوتليميت .. فى الجنوب .

- ولماذا لا يديره بنفسه ؟

أنهى عثمان مسح المائدة ، وسار الى نداء مائدة مجاورة ..

- ٣ -

ألف السهر - فى معظم الليالى - مع صخب الموسيقى والغناء بقاعة الطعام . تزاح الموائد الى أقصى القاعة، وتتخذ الفرقة الموسيقية موضعا فى الواجهة ، بينما يملأ الشباب القاعة بالرقص . جميعهم فرنسيون . وربما زاد عليهم نزلاء الفندق من الجنسيات الأخرى .

سحب كرسيا ،



وجلس بالقرب من المدخل. طلب زجاجة شمبانيا .

همس عثمان بالدهشة :

- هل تشرب ؟

- أفعل مثلهم .

فاجأه الرجل بفصحى واضحة :

- ولا تزر وازرة وزر أخرى !.

- ٤ -

طالت وقفته على شاطىء المحيط الأطلسى، النسائم المنعشة تخالف السخونة التى تتمطى - أثناء النهار - فى الشوارع الخالية .

تنبه لتوقف سيارة بالقرب منه . نزل منها شبحا رجل وامرأة . لم يتبين ملامحهما فى الظلمة المتكاثفة ، وان عرف - فى اقترابهما - صوت المساعد الأسبانى . وصلت اليه فى سيرهما البطىء بالقرب منه ، عبارات مدغمة ، تبين فيها أسماء الزوج والمساعد والمرأة والفندق .

الفندق
قصة قصيرة

غابت الكلمات بغيابهما ، تأكد من طبيعة علاقتهما فى إحاطة الرجل للمرأة بساعديه ، وميلها برأسها على صدره ، ومشيتهما المتمهلة .

- ٥ -

أقعده الفضول على مائدة فى مواجهة السلم المفضى الى الطابق العلوى . ينزل الزوج فى البداية . يقف وراء البار ، يراقب العمال ، يعلو صوته بالأوامر ، يبدى الملاحظات ، يحتسى كوبا كبيرا من القهوة بالحليب، يتبعه بسيجار كوبى يأخذ منه بضعة أنفاس ، ثم يطفئه فى رخامة البار ، ويدسه فى جيب قميصه العلوى . يتنبه لوقع الأقدام النازلة من السلم . يغلبه توتر واضح لمرأى الزوجة ، يتبعها المساعد . يتبادلان التحية بهز الرأس ، وتظل عيناه فى متابعتهما للمرأة والرجل ، الى قاعة الطعام، أو خارج الفندق، يعلو صوته - فى اللحظات التالية ، دائما - بعبارة غاضبة لخطأ أحد العمال ..

غلبه الفضول ، فأطال المتابعة . كانت الزوجة تقف فى الباب الخارجى ، تحيى المساعد قبل أن ينطلق بسيارته .

فاجأه عثمان فوق رأسه :

- يستطيع أن ينهى الأمر بالمواجهة !.

دارى ارتباكه بضحكة خافتة :

- هل يعرف بالعلاقة؟

- كأنه يسعد بالألم .

- وهما ..

قاطعه :

- طال غياب رد الفعل.. فلم يعودا يأبهان!

- ٦ -

مع أن غالبية المترددين على الغرف كانوا من الأجانب - يقفون أو يجلسون ، فى الأغلب ، أمام البار المواجه للمدخل - فإنه كان مألوفا جلوس الموريتانيين فى قاعة الطعام ، أو « اللوبى » السابح فى أضواء خافتة . ولكن الرجل فى جلسته - ذلك الصباح - على مقعد بجوار السلم المفضى الى أعلى ، كان يجول بعينيه فى المكان ، ويتأكد من اتساق « الدراعة » على جسمه ، ويحرك أصابعه فى الشبشب المفتوح ، وينادى على الجرسونات . يناقشهم ، ويشير بسبابته الى السقف والجدران والأثاث والرواد الجالسين والواقفين ..

- ٧ -

بدا الرجل - بجسمه الممتلىء ، وجلسته التى

يكاد لا يغيرها ، وما يشبه مغالبة النوم - وحيدا ومنعزلا عن الحياة فى الفندق . وحين يستيقظ - فى الليل - على أصوات الموسيقى والغناء ، يهبط من حجرته بالطابق الأول الى جانب البار ، يتأمل الصخب دون أن يشارك فيه . يلاحظ اعاقته لحركة العمال بين البار والقاعة ، فيزيد من التصاقه بالحائط ، ويغالب النوم بفرك عينيه .

- ٨ -

ذات صباح ، وضع المساعد الأسبانى حقائبه داخل تاكسى ، ومضى .

همس عثمان :

- انه يعود الى بلاده.

أردف لتساؤل فى عينيه :

- سافرت السيدة فى الليل .

ثم وهو يهز رأسه :

- ربما الى فرنسا أو أسبانيا .

مضى النهار دون أن ينزل الزوج من غرفته بالطابق الأول . فى عودته



الى الفندق من وقفته على شاطىء المحيط ، رأى الزوج وصاحب الفندق يخلوان الى أوراق كثيرة ، على مائدة بقاعة الطعام . يتهامسان ، وان علا صوتهما - أحيانا - بما لم يتبينه .

- ٩ -

وهو ينزل من السلم إلى اللوبى ، فوجىء بأن صاحب الفندق قد تخلى عن الموضع الذى لم يبدله بجوار السلم . لم يكن هو الرجل الذى ألف رؤيته فى الأيام الفائتة . راح يتنقل فى اللوبى وقاعة الطعام وغرفة المدير ودورات المياه ، بقدر ما يسعفه جسمه الممتلىء . يلتقط أسئلة النزلاء ومطالبهم ، فيرد عليها ، أو ينقلها الى العمال . يخاطب العمال - للمرة الأولى - بلغة عربية ، تداخلها لكنة مغربية واضحة ..

قال له الرجل وهو يدخل قاعة الطعام :

- هل تريد حجرة تطل على الشارع الرئيسى ؟

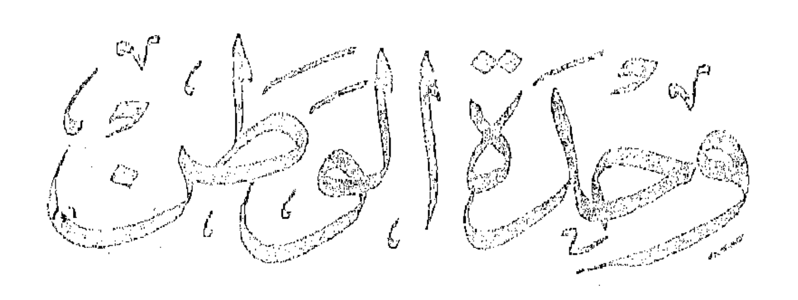
أضاف لتساؤل فى عينيه :

- خلت أمس حجرتان .. وهذا الصباح خلت حجرة ثالثة !

وقال عثمان وهو يمسح المائدة أمامه :

- تسلم الرجل فندقه هذا الصباح .

تشاغل بالنظر الى مبنى البريد المواجه . وكانت القاعة خالية إلا من مجموعة موريتانيين ، التفوا حول مائدتين متصلتين ،وعلت أصواتهم . وفى زاوية بعيدة ، جلس الشاب الفرنسى، يتناول طعامه .



وحدة الوطن

بقلم : د . محمد السيد غلاب

تمتاز مصر بميزة يكاد لا يشاركها فيها قطر آخر ألا وهي وحدة الوطن المصري ووحدة مواطنيها . وهذه الوحدة قد لعبت فيها العوامل الطبيعية دورا كبيرا . إذ ترتبط نشأة المجتمع وتاريخه في أرض مصر ارتباطا وثيقاً بعوامل البيئة الطبيعية . وتتمثل وحدة البيئة الطبيعية في وادي النيل الأدنى ودلتاه حيث يعيش معظم سكان مصر في وادي النيل ، الذي يصنع في الصحراء واحة مستطيلة تجمع أهله . وبقية مساحة مصر صحراء ، فيما عدا شريط ضئيل علي ساحل البحر المتوسط يستقبل قدرا غير مضمون من المطر في فصل الشتاء ، وبعض واحات قليلة محدودة المساحة متناثرة في الصحراء الغربية ومن ثم كان لا يسكن هذه الصحاري أكثر من ٠,٧٪ من السكان .

ولا يوجد فى المعمور المصرى ، أى الدلتا والصعيد مكان يمكن أن تنعزل فيه جماعة ما . فالنيل ينساب من الجنوب إلى الشمال ، والوادى حوله منبسط ، والحقول مستمرة غير منقطعة ، يتحرك فوقها الناس وينتقلون دون ما عوائق أو حواجز ومن ثم لم ينعزل أى جزء من أجزاء مصر عن بقية أجزاء الوطن . ولا يمكن أن تقارن بيئات مصر ببيئات قطر مثل سوريا ولبنان، أو بريطانيا أو فرنسا أو أسبانيا أو إيطاليا ، حيث يضم جبل مرتفع شعبا يختلف عن بقية الشعوب وحيث توجد



مواطن عزلة . ففى حالة بريطانيا ينعزل أهل كورنوول عن بقية سكان الجزيرة ، وكذلك أهل ويلز وأهل اسكتلندة . وهكذا نستطيع أن نضرب الأمثال فى كثير من الدول. ونستطيع أن نقول مطمئنين إن أهل مصر يتمتعون بتجانس كبير بسبب تجانس البيئة وغياب مواطن العزلة .

براءة من الأقليات

وصحارى مصر تحتضن الوطن كأنها دروع واقية تحميه ، تنشأ الحضارة فى الوادى والدلتا دون اضطراب فى أمن ودعة. ولقد كانت صحراء سيناء مصفاة تنظم الهجرات إلى مصر ، ولا تسمح بإغراقها بموجات عاتية ، مثلما حدث فى العراق وبلاد الشام، حيث كانت تغمر الهجرات العروبية (السامية) سهل ما بين النهرين، ووهاد بلاد الشام بالهجرة تلى الهجرة ، ولا تجد الهجرات السابقة من ملجأ سوى الجبال والهضاب تنعزل فيها. ومن ثم لم تتمتع بالتجانس مطلقا وقبعت فيها أقليات حضارية أو عرقية أو دينية أو طائفية .

فالوطن المصرى سلم من المنعزلات وبرئ من الأقليات العرقية .

ويمتاز تاريخ مصر بالقدم والاستمرار. حضارتها متصلة لا انقطاع فيها وتتكامل عناصر البيئة الطبيعية فيها وتتضافر ليتمكن أهل الوادى أن يبنوا حضارتهم .

وحدة الوطن

وقد بدأت مظاهر الاستقرار فى وادى النيل الأدنى منذ نهاية العصر الحجرى القديم . حين قارب الدور المطير الثانى ، على الانتهاء . واضطر السكان إلى النزوح من الصحارى إلى الوادى ، واهتدى الإنسان إلى ابتكار الزراعة . وأهم عناصر البيئة هو الفيضان ، الذى يبدأ فى أواخر الصيف وأوائل الخريف . فيغمر الوادى كله بالماء . وتغدو مصر كأنها لؤلؤة بيضاء، ثم ينحسر ماء الفيضان ويترك غلالة سوداء من الطمى ، فتبدو كأنها عنبرة سوداء ، ويلقى الفلاح ببذور النباتات الشتوية ، مثل القمح والشعير ، وتنال هذه البذور شيئا من ماء المطر الشتوى القليل وتبدو الأرض كأنها زمردة خضراء ، ويحل الربيع والصيف فتنضج السنابل ويغدو لونها كالذهب الأصفر . ويأتى فصل الحصاد وتخلو الأرض تماما لكى تستقبل ماء الفيضان مرة أخرى وهكذا تستمر الحياة الزراعية عاما بعد عام .

وحدة فى العمل

والمصريون يواجهون كل عام فيضانا عارما ، تهدر فيه المياه وتتدافع ، وكان لابد لهم أن يتعاونوا ويتضافروا لدرء . هذا الخطر القائم ، وذلك بإقامة ضفاف الوادى وتقويتها ، ولابد لكل إقليم أن يشيد ضفاف النهر منسجمة ومكملة لضفاف النهر فى الإقليم المجاور ، حتى لا تنفذ المياه من ثغرة فتهدمه ، ومن ثم تعلم المصريون العمل فى وحدة ونظام وتضافر المصريون فى العمل لكى يهيئوا الحقول للزراعة ، فقد كان الوادى مغمورا بالمستنقعات ، تنمو فيه الحشائش والبوص والاقصاب وتمرح الحيوانات المفترسة . وكان المصريون فى بدء استقرارهم فى الأرض يقنعون بالضفاف العالية للنهر ، ولا يجرءون على الهبوط إلى الوادى ، وذلك اثناء الفترات الاولى من عصر ما قبل الاسرات ، حوالى منتصف الالف الخامسة ق . م لكنهم شيئا فشيئا اقتربوا من الوادى واستطاعوا بجهودهم المتضافرة أن يروضوا النهر . ويشيدوا ضفافه (جسوره) ، وأن يجففوا المستنقعات ، ويقتلعوا النباتات الضارة ويقتلوا الحيوانات المفترسة وأن يهيئوا فى النهاية الحقول للزراعة . وهذا مجهود استغرق ما يقرب من ألفى عام . فيما يعرف بعصر ما قبل الأسرات .

فمصر إذن ليست هبة النيل فحسب ، بل هى نتيجة عمل المصريين .

وقد احتاج المصريون للوحدة والتضامن ، لا ليروضوا النهر فحسب ، بل لكى يهيئوا لأنفسهم السكن الآمن . وكان

عليهم أن يشيدوا القرى فوق تلال صناعية متينة ترتفع فوق مستوى الفيضان داخل الحياض ، ومن ثم فقد نشأت القرى القديمة كلها فوق تلال من صنع الإنسان . وكانت بالضرورة صغيرة الحجم ، مساكنها متلاصقة ، وهذا مما قوى التضامن والتلاحم فى العمل والسكن . ومن ثم كان التضامن والتلاحم فى الفكر والعاطفة .

وهكذا أدت البيئة والمتجانسة ، والخطر المشترك ، إلى العمل المشترك من أجل استمرار الخير المشترك . فى ذلك الركن الشمالى الشرقى من أفريقية الذى يكاد ينفصل عن جيرانه بطبيعته ، لم تتغير حدوده تغيرا يذكر على طول التاريخ ، تخوم تصنعها جنادل النيل فى الجنوب ، تمتد وتنكمش حسب قوة الدولة المصرية ، دروع سيناء بالكامل ، وواحات الصحراء المغربية ، التى دونها بحر الرمال العظيم الذى يفصل صحراء مصر الغربية عن بقية أجزاء الصحراء الكبرى .

أول وحدة فى التاريخ

فى هذا الوطن تكونت أقدم دولة فى التاريخ لا تزال مستمرة حتى يرث الله الأرض وما عليها . دولة نهرية بمعنى الكلمة . شعبها بدأ فى الاستقرار منذ العصر الحجرى الحديث . الذى اندمج فى عصر ما قبل الأسرات ، صنع اول وحدة فى الالف الثالثة قبل الميلاد . ومنذ ذلك التاريخ ، عندما وحد نارمر القطرين ، البحرى والقبلى ، لم تنفصم وحدة الشعب المصرى قط . ولم يعرف الحروب الاهلية إلا خلال فترات قليلة لا يؤبه بها .

تكونت أصول المصريين القدماء من سلالة البحر المتوسط القديمة ، التى تمتاز بالقامة المتوسطة النحيلة والوجه البيضاوى والرأس الطويل مرتفع القذال ، كما تظهر فى جماجم ديرتازا ومرمدة بنى سلامة والبدارى (٥٠٠٠ ق . م) ولا يزال هذا الطراز ممثلا بنسبة كبيرة فى المصريين الحاليين .

أما حضارة نمقادة الثانية التى مهدت لظهور الأسرات ، فيمتاز أهلها بالقامة التى تعلو عن المتوسط ، وبالوجه الاعرض والأنف الاضيق وفيما عدا هذا فهم طوال الرأس مثل بقية سلالة البحر المتوسط .

وفى بدء عصر الأسرات ، حوالى ٢٠٠٠ ق . م . دخل مصر العنصر الثانى الذى يمثل سلالتها . وهو عنصر عريض الرأس ، عريض الوجه ، ممتاز بالقامة المكتنزة ، قصيرة أو متوسطة ، وتسمى هذه السلالة بالجيزوية وقد ظهرت فى عصر بناء الأهرامات . ويدل دخول هذه السلالة على بدء اتصالات مصر التجارية بالشرق الأدنى .

وقد تأثرت مصر بوفود هجرات عديدة عبر التاريخ ، لم تطمس شخصيتها ولم

وحدة الوطن

تعرقل مسيرتها الحضارية ، ولم تغير سكانها تغييرا جذريا ، بل استطاعت مصر أن تستوعبها وتتمثلها وتجعلها مصدر ثراء ثقافي وحضارى لها . حتى انتهى بها الأمر إلى أن تنحسر تماما ، وتدخل فـى نسيج شعبها ، اثنوغرافيا وثقافيا فالهجرات السـامية من جنوب غرب آسيا لم تكن بأعداد كبيرة ، ولم تكن غريبة اثنوغرافيا تماما . فهى من سلالة البحر المتوسط ومن السلالة عريضة الرأس أى من نفس نسيج المصريين .

وكان التأثر الكبير الأول فى العصر الاغريقى الرومانى ، عندما غيرت مصر لغتها الرسمية ، وحكمتها أسرة إغريقية تلتها الإمبراطورية الرومانية (البيزنيطة) . في هذا العصر الذى استمر مايقرب من ألف عام ، فتحت مصر أبوابها لشعوب كثيرة من شعوب البحر المتوسط . وكان على رأسها الإغريق ، الذين انشأوا مدنا إغريقية عديدة فى الدلتا والصعيد وكانت الإسكندرية هى عاصمة البلاد ، تعتبر من أكبر المدن الإغريقية فى حوض البحر المتوسط ، وتحمل منارة العلم الإغريقى .

وقد اندمج الإغريق فى الحياة المدنية بسرعة ، وبمرور الزمن تمصر الكثير منهم، وقد ساعد على هذا المزج ظهور المسيحية وترحيب المصريين بها ودخول كل من المصريين والإغريق ومن لف لفهم فيها ، كما ساعد على هذا أن المصريين فى العصر المعروف بالهيلينستى أخذوا يقبلون على اللغة الإغريقية وكتبوا لغتهم بحروفها ونشأت اللغة القبطية .

والإغريق كما نعلم من سلالة البحر المتوسط ، وإن ظهرت فيهم بعض الصفات النوردية (الشمالية) .

وكان التأثير الكبير الثانى بعد ظهور الإسلام (فى القرن السابع الميلادى) عندما شملت مصر الموجة العربية الكبرى ، ففتحها العرب المسلمون ، ودخلها العرب أفواجا ، من شبه جزيرة العرب ، والعرب العدنانيون من سلالة البحر المتوسط، والقحطانيون من السلالة الأرمينية . وهم جميعا يمتازون بصفات السمرة . أى أن صفاتهم الإنثروبولوجية لا تختلف عن صفات المصريين . فكأن الصفات المميزة للسلالات كان يقوى بعضها بعض .

عرب فى الفكر والروح

ومن الخطأ الشائع القول بأن شعبا عربيا غزا مصر وأزاح المصريين من وطنهم وحل محلهم . ولكن كل ما هنالك أن جيشا عربيا هزم جيشا بيزنطيا فى مصر فتحولت البلاد من الحكم البيزنطى

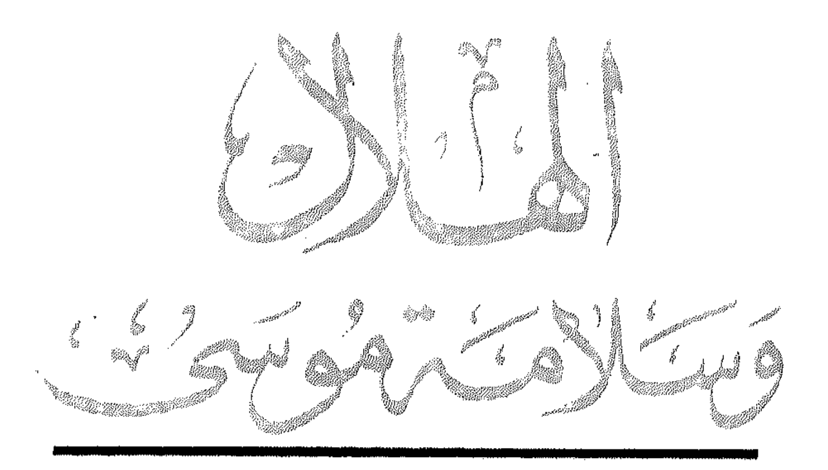
إلى الحكم العربى وقد ترك العرب مظاهر الحياة المادية كما هى . بل أن اللغة القبطية ظلت لغة الدواوين الرسمية أمدا طويلا حتى القرن الثانى عشر الميلادى ، ولم تصبح العربية لغة الغالبية العظمى للمصريين إلا بعد خمسة قرون من بدء الفتح العربى .

وقد أقبلت القبائل العربية على مصر عقب الفتح العربى فى موجات متتالية كما أن المصريين دخلوا فى الدين الإسلامى زرافات ووحدات ، حتى أصبحوا عربا فى الفكر والروح والتقاليد ، وأصبح المسيحيون أقلية صغيرة ، وأصبحت لغتهم القبطية لا تستعمل إلا فى الكنائس ، وبالتدريج نسيها اصحابها .

ومن الخطأ الجسيم أن نظن أن المصريين ينقسمون الى عنصرين ، عربى مسلم وآخر قبطى مسيحى ، فالحقيقة أن مصر طوال تاريخها كانت تستقبل الهجرات من القبائل البادية على تخومها الشرقية والغربية ، ورأينا كيف فتحت مصر أبوابها للاغريق ، وقد استوعبهم جميعا الكيان المصرى ودخلوا فى صلب الأمة المصرية . وجاء الفتح العربى فهاجرت إليها بعض القبائل العربية ، وتحول الجزء الاكبر من المصريين الى الاسلام ، فالمسلمون والاقباط إذن من أرومة واحدة من المستحيل التمييز بينهم على أساس انثروبولوجى ، ونستطيع أن نقول إن المصريين يتكونون من أقباط مسلمين ويمثلون الاغلبية ، ومن أقباط مسيحين يمثلون أقلية عددية . وقد كانت كلمة قبطى تعنى مصرى مسلماً أو مسيحيا حتى القرن الثالث الهجرى

وصفوة القول ، أن الوطن المصرى حددته عوامل الطبيعة ، منفصلا ومتميزا عن جيرانه داخل حدود طبيعية . ولم تتغير حدود هذا الوطن على مدى التاريخ ، واد ودلتا تحميهما صحراء تمتد إلى شبه جزيرة سيناء شرقا والى بحر الرمال العظيم غربا وتتحرك تخومه الجنوبية ما بين الجنادل الاولى والثانية جنوباً .

وأن المصريين وإن تعددت اصولهم من أرومة واحدة ، هى أرومة البحر المتوسط بتنوعاتها المختلفة . ولم تختلف هذه الأرومة قط عبر التاريخ . بل كانت البحرات المتتالية الى مصر تغذى بعضها بعضاً كانت أهم روافدها ما جاء من جزر البحر المتوسط وشطآنه أثناء العصر الهيلينستى فى العصر القبطى وما جاء من شبه جزيرة العرب أثناء العصر العربى الإسلامى . وقد استطاعت البوتقة المصرية بحكم مساحتها الصغيرة وضيق مداها المكانى أن تضم هذه العناصر جميعاً فى سبيكة واحدة ولا سيما مع خلو الوطن المصرى من النتوءات أو أقاليم العزلة الجغرافية . فوحدة المواطنين جاءت نتيجة وحدة الوطن .



عاطف مصطفى

■ المقال الصحفى عند سلامة موسى ودراسة تحليلية تطبيقية لمقالاته فى الهلال

■ أسباب حقيقية وراء الحملة الصحفية لسلامة موسى ضد دار الهلال ، ورد عليه بالوثائق !!

فن المقال الصحفى عند سلامة موسى ، عنوان دراسة نالت عنها الباحثة إيمان السعيد درجة الماجستير من قسم اللغة العربية بكلية الألسن ، وفى إطار هذه الدراسة ألقت الباحثة الضوء على بعض جوانب التاريخ الصحفى لسلامة موسى ، وتحديد طبيعة عمله بمجلة الهلال ، وركزت على تطور الإنتاج الصحفى والفكرى عنده ، تبعا لتطور الظروف السياسية والاجتماعية فى مصر ، وكذلك تبعا للتيارات السائدة فى ذلك الوقت ، والتى كان بعضها يدعو للأفكار الاشتراكية، والآخر يدعو إلى الرأسمالية والديمقراطية .



الباحثة أيمان السعد



لجنة المناقشة من اليمين د . عواد عبد السلام ، د . محمد عوني عبد الرءوف ، د . احمد حسين الصاوى ، د . مصطفى مندور



سلامة موسى

وترجع الباحثة أسباب اختيارها لشخصية سلامة موسى ، إلى الدور الكبير الذى لعبه فى تاريخ الفكر المصرى الحديث، بصرف النظر عن اختلاف الرأى حول فكره ، وهو اختلاف ، لايجوز أن يقف عقبة أمام البحث العلمى ، والنظرة العلمية المجردة ، كما تشير إلى أن المقال الصحفى هو واحد من الفنون النثرية العربية الحديثة ، الذى لا ينبغى ألا تقف حداثته النسبية ونشأته فى حضن الصحافة عقبة فى سبيل دراسته ضمن فنون النثر العربية ، وتحليله لغويا وأسلوبيا .

●خصومة وهجوم عنيف●

عمل سلامة موسى فى الهلال بداية من مارس ١٩١٠ ، وكان فى انجلترا فى هذه الفترة ، وأول مقال كتبه فى الهلال بعنوان «تاريخ الاشتراكية فى انجلترا» ، وحال العمال فيها ، أرخ فيه للفكر الاشتراكى والحركة الاشتراكية بها . وما استطاع أن يحققه الاشتراكيون على المستوى السياسى والبرلمانى والاقتصادى والاجتماعى ، وتضمن المقال نوعا من الدعوة الخفية لنقل الاشتراكية فكرا وحركة إلى مصر ، وآخر ماكتبه سلامة موسى للهلال كان فى أغسطس ١٩٢٩ بعنوان «النزعات العلمية والأدبية وتأثيرها فى حياتنا الاجتماعية» ، وانقطعت الصلة بينه وبين الهلال بعد خصومة ، كانت فى ظاهر الأمر وطنية مصر ، ولكنها فى حقيقة الأمر كانت صحفية .

فبعد أن ترك دار الهلال ، أنشأ جمعية اسمها «المصرى للمصرى» ، لنشرالدعوة الوطنية الاقتصادية المصرية ، وكان من خلال هذه الدعوات يحارب كل ماهو غير مصرى فى مجال التجارة ، وبخاصة الصحف السورية فى مصر ، حيث هاجمها هجوما عنيفا ، وأصدر صحفا لتكون منبرا لهــذه الدعــوات منها جريدة «المصــرى» و«النجمة الزهراء» و«الفضيلة» كان يهاجم فيها ما أطلق عليه الصحف السورية والصحفيين الشوام فى مصر !

بعد فترة حاولت دار الهلال أن تدفع عن نفسها هذه الدعوات التى أدركت أنها موجهة إليها خصيصا ، فنشرت فى المصور فى أبريل ١٩٣١ بعض العبارات التى تهاجم سلامة موسى ، وتصفه بالإلحاد والإباحية ووصفت كلماته كما تشير الباحثة فى رسالتها بأنها كلمات فاضحة ، وآراءه بأنها آراء مسمومة ، ثم وقعت دار الهلال على بعض الوثائق التى كتبها سلامة موسى بخط يده ، فنشرتها تباعا فى مجلة المصور فى خمسة أعداد (من العدد ٣٤١ بتاريخ ٢٤ أبريل ١٩٣١ إلى العدد ٣٤٥ بتاريخ ٢٢ مايو ١٩٣١) عرضت فيها كتابات لسلامة موسى بخط يده ، كانت موجهة إلى بعض المسئولين فى حكومة محمد محمود باشا ، فى بعضها وشاية بدار الهلال التى تعد عددا من المصور عن سعد زغلول ، بما فى ذلك من إكبار لشأن الوفد ، وهو يتعارض بدوره مع سياسة الحكومة كما نشرت له رسالة أخرى بخط يده فيها مطالبة بأن يسمح له بترخيص بجريدة أسبوعية ، ويعد بأن يجمع من خلال هذه الجريدة الأقباط الوفديين وغير الوفديين ، إلى جانب حكومة محمد محمود باشا فى ذلك الوقت ، ورسالة ثالثة إلى أحد الكتاب المصريين ، يطالبه بأن يرسل له خطابا باسم اسكندر مكاريوس يشتمه .

واستطاعت هذه الحملة التى شنتها دار الهلال أن تؤثر على ماحققه سلامة

موسى من نجاح من خلال جمعية المصرى للمصرى ، وكان من أعضائها حافظ محمود وعلى أمين والشيخ أمين الخولى .

ولم يستطع سلامة موسى أن يدفع عن نفسه هذه التهمة ، وترك رئاسة الجمعية ، على أننا يجب أن نشير إلى أنه لم يترك الدعوة إلى الوطنية الاقتصادية المصرية ، فظل ينادى بها فى مقالاته فى عدد من الصحف والمجلات الأخرى .

رئاسة تحرير غير رسمية

وقد أبرزت الباحثة دور سلامة موسى فى «الهلال» منذ أول مقال بعث به إلى المجلة من انجلترا ، حيث أشارت إلى أنه خلال فترة الحرب العالمية الأولى من (١٩١٤ - ١٩١٨) كان يراسل الهلال ببعض المقالات العلمية ، منها على سبيل المثال «فى اللعب والتروض» (١٤ أبريل ١٩١٧) «دولة الألفاظ» (مايو ١٩١٧) ، «الخوف والغضب» (يونيه ١٩١٧) ، وهى مقالات أخذت طابع البحوث العلمية ، وأخذت نفس المسمى ، ولم يكتب سوى هذه المقالات الثلاثة التى أرسلها للهلال فى خلال فترة الحرب .

بعد انتهاء الحرب وعودته إلى القاهرة، ظلت مقالاته التى كان يكتبها فى الهلال غير منتظمة ، حتى بداية عام ١٩٢٣ ، حيث رأس تحرير مجلة الهلال بصورة غير رسمية حيث لم يكن يظهر اسمه رئيسا للتحرير ، ولم يكن يكتب الافتتاحيات ، ولم يكن هناك أكثر من المقالات الكثيرة موقعة ، وغير موقعة باسمه ، وامتداد عمله إلى الأبواب الثابتة ، والفنون التحريرية الأخرى، ومنها مجموعة كبيرة من الأحاديث الصحفية التى نشرها ابتداء من فبراير ١٩٢٧ إلى أغسطس ١٩٢٩ .

هذه الأحاديث لها أهمية خاصة ، فقد كان أول من أدخل هذا الفن إلى مجلة الهلال ، واقتناعا من الهلال بقيمة هذه الأحاديث ، استمرت فى نشرها بعد أن ترك دار الهلال ، وكان يكتبها كريم ثابت ، علما بأن سلامة موسى لم يكن يوقع هذه الأحاديث باسمه ، بل كان يكتفى بكتابة حرف «س» .

ومن خلال إحصائية الباحثة إيمان السعيد ، أشارت إلى أن عدد الأحاديث وصل إلى أربعة وعشرين حديثا على مدى ثلاثة أعوام ، كان ينشرها تحت عنوان : «ساعة مع» أو «حديث مع» هذه الأحاديث فى مجملها تنتمى إلى مايسمى حديث الرأى، حيث يعنى الكاتب بالحصول على رأى الضيف فى قضايا بعينها يعنى بها القراء، ومن ضيوفه فى هذه الأحاديث أحمد زكى باشا ودار معه الحديث حول عنايته بالسلف ، وإسرافه فى توقير الماضى ، وساعة مع د . طه حسين فى نوفمبر ١٩٢٧ وكان مدار الحديث حول كيفية اصطناع أدب مصرى ، وساعة مع اسماعيل صدقى باشا فى فبراير ١٩٢٩ ،

وكان آنذاك خارج الوزارة ودار حول موضوعات سياسية واقتصادية وبرلمانية ، وحديث مع أحمد حسنين بك فى مارس ١٩٢٩ ، وكان آنذاك الأمين الأول للملك فؤاد ، دار حول رحلاته الاستكشافية فى الصحراء ، أيضا أدار حديثا مع الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر ، دار حول الاحتفال بمرور ١٠٠٠ عام على إنشاء الأزهر .

• فكر متميز •

وعلقت الباحثة على هذه الأحاديث بأنه وإن كان سلامة موسى لم يوقعها بإسمه صراحة فقد وقعها بفكره المتميز الذى لايغفله قارىء الهلال ، وحرص على أن يقدم لكل حديث بمقدمة طويلة ، عرض فيها أفكاره المتميزة ، واستطاع أن يبسط أفكاره الأساسية التى تشغله من خلال ضيوف انتخبهم بوعى ليكونوا نماذج تطبيقية ناجحة لما عرضه من دعوات إصلاحية نظرية فقد كان هذا اللون الصحفى لايزال جديدا على الصحافة المصرية ، وهو عنده أقرب مايكون إلى محاورة يتنافس فيها ندان ، من أن يكون حديثا بين صحفى عادى وشخصية نابهة ، وهنا فى هذه الحوارات ظهرت شخصية سلامة موسى المفكر أكثر من شخصيته كصحفى محترف .

وتعد هذه المرحلة التى عمل بها فى مجلة الهلال ، وبخاصة فى السنوات السبع الأخيرة مرحلة النضج الفكرى ، وتتبلور الأفكار الأساسية التى عنى بها طيلة حياته، بحيث يمكن القول أن المراحل الصحفية المتوالية فى أعقاب تركه للهلال ، قد اتسمت بالترديد لكل أفكاره التى طرحها فى الهلال مع قليل من الإضافة .

وفيما يبدو كما تشير الباحثة أن سلامة موسى ترك الهلال لإحساسه بالظلم ، وأنه لم يحقق المكانة التى كان يرجوها ، بعد خدمته الطويلة فى مجال إدارته للتحرير فى المجلة ، وما أضافه فى المجلة من طابع فكرى متميز ويتضح ذلك من قولها : «كانت المجلة قبل عهد رئاسة التحرير «مجلة شهرية مصورة» ، فأصبحت بعد أن رأس تحريرها (لسان حال النهضة العصرية) وأتصور أن الفارق بين العبارتين ، هو الفارق الذى أحدثه سلامة موسى على صفحاتها ، فقد استطاع أن يساير الاتجاه الفكرى العام ، الذى اختطه ابنا زيدان وبخاصة إميل وأن يطوره .

ومواصلة لحديثنا عن مقتضيات عمله فى التحرير ، استطاع سلامة موسى أن يضع بصمة واضحة على الطابع الفكرى لهذه الأبواب كما أضاف بابا جديدا وإن لم يحرره ، وهو كلمات لمشاهير المتقدمين على الصفحة الأولى من كل عدد من أمثال : محمد عبده ، جمال الدين الأفغانى ، أحمد فتحى زغلول وغيرهم .

وكانت «الهلال» تكريما لسلامة موسى تنشر أحيانا صفحات من كتبه، كما نشرت صفحة من كتابه «العقل الباطن» بعنوان «كيف تفكر» فى باريس ١٩٢٨، كما نشرت «الهلال» فصلا بأكمله من كتابه «الفنون

الجميلة وأشهر الصور» فى نوفمبر ١٩٢٨ .

ولقد أصدرت دار الهلال فى ١٦ نوفمبر ١٩٢٥ مجلة «كل شىء» الأسبوعية وأسندت إلى سلامة موسى رئاسة تحريرها بصورة غير رسمية ، وكانت هذه المجلة شيئا جديدا فى عالم الصحافة ، إذ أنها كانت تقدم لونا من الثقافة الخفيفة التى يسهل فهمها للجميع ، وكان أهم مايميز هذه المجلة هو افتتاحيات سلامة موسى القصيرة ، وكانت تعليقا أسبوعيا علميا فى أغلب الأحيان على خبر جديد .

كما أصدر سلامة موسى فى أثناء عمله رئيسا لتحرير الهلال تسعة كتب استكمالا لمقتضيات رسالته ، لكى تقدم هدية للمشتركين فى أثناء شهرى الأجازة السنوية للمجلة ، والتى لم تكن تصدر فيهما وتؤكد الباحثة أن سلامة موسى استطاع من خلال الفنون التحريرية الصحفية المختلفة التى قدمها فى «الهلال» وبخاصة المقال أن يقدم خلاصة أفكاره المتميزة ، والتى يمكن بلورتها فى الفكرة الاشتراكية ، ونظرية التطور وقضية النهضة ، والمباحث النفسية والاجتماعية ، وقضايا اللغة والأدب، وأن يرسخ فى ميدان الكتابة الصحفية أسلوبا متميزا ، هو الأسلوب التلغرافى الذى يعنى فى المقام الأول بتقريب الفكرة إلى القارىء ، والابتعاد عن التعقيد والزخرفة ، التى قد تعوق الفهم المباشر وهو أسلوب ملائم تماما لطبيعة اللغة الصحفية .

والدراسات التى وضعت عن سلامة موسى ، سواء كانت على شكل رسائل جامعية أو مقالات أو بحوث أو كتب ، قليلة جدا بالنسبة لقيمته الفكرية والصحفية ، ولانستطيع القول بأنها أنصفته .

وعلى الرغم من اختلاف الرأى حول سلامة موسى . ونظرة البعض إليه بإعتباره لا يجوز للأقلام أن تتناوله ، وأن تعيد إلى الأذهان الأفكار التى كان ينشرها ويبثها، فإن هذه الآراء فى تصور الباحثة لم تكن لتقف عقبة أمام البحث العلمى الذى يهدف فى المقام الأول إلى العرض والتحليل والتقييم ، بصرف النظر عما إذا كان الدور الذى قام به سلامة موسى إيجابيا أو سلبيا .

إن هذه الدراسة تعد أول دراسة تزاوج بين البحوث اللغوية والبحوث الإعلامية بذلت فيها الباحثة جهدا طيبا وكان لإشراف الدكتور أحمد الصاوى والدكتور محمد عونى عبد الرءوف أثر كبير على أن تأتى بهذه الصورة التى تبرز الدور الذى لعبه سلامة موسى من خلال مقالاته فى الهلال وحيث نعتبرها أول دراسة أسلوبية تحلل نصوص مقالات نشرت على صفحات أقدم دورية ثقافية عربية .. «الهلال» .

ولتحصل الباحثة نتيجة هذه الجهد العلمى الكبير على درجة الماجستير بامتياز ولتشهد لها لجنة المناقشة بالتفوق وحب البحث والدقة فى رسالتها .

الثقافة والهمجية

رسالة لكل من يهمه أمر نهضة الأمة

بقلم : د . على شلش

منذ أسابيع قدم التليفزيون البريطانى حواراً شاملاً وخصباً مع الفيلسوف الفرنسى المعاصر بول ريكور . ومع ذلك يهمنى من ذلك الحوار الذى جرى بالإنجليزية على مدى ساعة كاملة أن أتوقف عند سؤال وجواب محددين . ويتعلق السؤال والجواب بالفترة التى قضاها ريكور فى المعتقل زمن الحرب العالمية الثانية . فقد غزا الألمان باريس عام ١٩٤٠ - كما نعرف - واعتقلوا كثيرين من المثقفين الفرنسيين الذين قاوموهم أو رفضوا التعاون معهم . وكان من هؤلاء بول ريكور .

سأله مقدم البرنامج الانجليزى :

- لماذا قضيت فترة الاعتقال فى قراءة أعمال الفلاسفة الألمان ؟ ألم تشعر بالذنب وأنت تقرأ لغزاة وطنك ؟

عند ذاك ابتسم ريكور ، ونفى شعوره بالذنب ، ولكنه علل مسلكه بأنه أراد أن يعوض نفسه عن رؤية الألمان الهمج المحيطين به ليل نهار فقرر مصاحبة أفكار مواطنيهم الأفضل والأرقى والأكثر إنسانية !

وقد ذكرنى هذا الموقف بموقف آخر مماثل ، ولكن على الطرف الآخر من الموضوع ، وهو طرف الألمان أنفسهم . أما صاحب الموقف فكان ألمانياً من النوع الأفضل والأرقى والأكثر إنسانية الذى آنس ريكور فى محنة اعتقاله . ولكنه لم يكن فيلسوفا ينظر إلى الأمور بعقلانية وصرامة ، وإنما كان أديبا موهوبا يقيس الأمور بعواطفه وعقله معا ، وهو يوهان جوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) .



يوهان جوته

الثقافة والهمجية أهم نقيضين

ماذا فعل جوته بالضبط ؟

لقد غزا نابليون بونابرت إمارة فايمار وطن جوته وأرض أحلامه فى غزوة شبيهة بغزوة هتلر لباريس . وأصابت الغزوة جوته بصدمة كبيرة مثل التى أصابت ريكور بعد أكثر من قرن . وإذا كان ريكور عبر شفويا عن رأيه فى ألمان هتلر فقد سجل جوته رأيه - كتابة - فى أهل بونابرت من الفرنسيين . وكتب رسالة إلى صديقه إيكرمان وضع فيها خلاصة صدمته وحيرته معا . قال :

«كيف أنظم أناشيد الكراهية بغير كراهية ؟ كيف أستطيع ذلك أنا الذى أعد الثقافة والهمجية أهم نقيضين ؟ كيف أستطيع أن أكره أمة أعدها من أشد أمم الأرض ثقافة ، وأدين لها بالكثير من ثقافتى ؟» .

وفى هذه الكلمات لخص جوته القضية قبل ريكور . فهناك فارق لاشك فيه بين الخير والشر ، وهناك أيضا تباين بين الثقافة والهمجية ، وهناك أخيرا بون شاسع بين نابليون وهتلر من ناحية وشعبيهما من ناحية أخرى ، أو بينهما وبين مواطنيهما الأفضل والأرقى والأكثر إنسانية بمعنى أدق .

غير أن القضية ذاتها أكبر وأعمق من أى تلخيص . ولا يمكن حل إشكاليتها بكلمات عاطفية سريعة أو تعزية عقلانية عابرة . وهذا ما كشفته لى محاولتان مشابهتان لصديقين أديبين عزيزين بعثا إلىّ من الكويت فى ذكرى مرور سنتين على الغزوة العراقية . فمن الشاعر أحمد السقاف تلقيت كتابا بعنوان «صيف الغدر» ومن القاص والأستاذ الجامعى سليمان الشطى تلقيت رسالة شخصية رداً على رسالة منى ، ثم تلقيت منه أيضا كتابا آخر بعنوان «رسالة لمن يهمه أمر هذه الأمة» .

وقد سجل الصديقان الكثير من أحداث الأشهر السبعة التى عاشتها الكويت فى محنتها ، ولاسيما ما انعكس من هذه الأحداث عليهما . ومع أن الصديقين كانا من المتحمسين للعراق وزعيمه قبل الغزوة الطائشة ، أو الغادرة على حد تعبير السقاف ، فقد تغيرت الحماسة بالطبع ، وحلت محلها مرارة شديدة كهذه التى عبر عنها السقاف فى قوله مخاطبا الزعيم العراقى :

من المستفيد من الكارثة ؟

تأمل قليلاً ، وخل الصراخ وخل الهتاف

وخل العويلا

فها أنت أوقعتنا فى الهوان

وأهديت للغاصبين الأمان

وهدمت كل الذى قد بنينا

فكيف انقلبْت فصرت علينا ؟

من ناحية أخرى يقول الدكتور سليمان الشطى فى رسالته الشخصية التى إستأذنته فى نشر بعض أجزائها :

«صدقنى ، أيها الأخ العزيز ، ليس دخول جيش عربى أو غير عربى إلى الوطن هو الكارثة ، ولكن الكارثة الكبرى هى أن تفتقد الإنسان طوال سبعة أشهر ، وأن تستيقظ على الوحشية فى الإنسان عموما وفى ماكنت تعتبره أخاً على وجه أخص . ويصعب الأمر عندما تشهد كل من كنت تعرفهم ، تثق بهم ، تختارهم رفقاء طريق وهداة للمستقبل يتساقطون فيطلقون على الأسود اسم «الأبيض أو يخلطون الأوراق عمدا وقصدا»

«إنه الحزن دخل عالمنا ، واستقر به ، وتمسكنا به ، وكأننا لانود أن نخرج من كهف التخلف ، يقودنا إليه مفكرونا عامدين قاصدين . لقد كنت أتابع وأنا تحت الحصار عشرات المتكلمين فلم أجد واحدا يتذكر أن أية أرض لا اسم لها إلا من خلال الإنسان الذى يسكنها ، وأن هؤلاء كلهم يتعذبون ويقتلون ويحرمون من حقهم كبشر ، يُلعب بهم ، يُحتلون ويُضمون ويحولون إلى فرع ، ويخلق لهم أصل ، وينصب عليهم رئيس ، وتطبق عليهم قوانين دون أن يُسألوا أو يستشاروا . لم يفكر أحد ممن أيد صدام أن يسأل نفسه : هل العرب الموجودون داخل هذه الأرض لهم حق القبول أو الرفض ؟ لم يسأل أحد نفسه . سقطوا فى اختبار ، جوابه أقرب من سؤاله وأوضح .

«ولكن هذا هو قدرنا ، لا يجب أن نستسلم له ، ولكن فى الوقت نفسه لابد من أن نضع عقولنا أمامنا ، نفكر بها . فلعل هذا هو الطريق الوحيد الباقى لنا» .

عزيزى

«فى النفس أشياء تستعصى على الإرادة ، وتهرب منا فلا نستطيع أن نعبر عنها ، ولكنها التجربة التى لا نتمنى أن يتعرض لها أى إنسان ، مهما كان لونه أو شكله ، جاءت ثمرتها مُرّة ملطخة بالدموع والدماء ومحاطة بسياج الحزن والكآبة ، ولكن ليس من شىء دائم . كل شىء يتغير مع الزمن . ولهذا نحاول أن نهجر الزمن الضائع بحثا عن زمن نتحكم به ، وهذا هو أملنا» .

نسيت أن أذكر شيئين عن صاحب هذه الكلمات ، صديقى الدكتور الشطى . فهو ممن بقوا فى الكويت ، وشهدوا كارثتها من

الألف إلى الياء . وهو أيضا من العروبيين المعتزين بالعرب والعروبة والقومية والوحدة، فضلاً عن أنه كاتب قصصى وأستاذ جامعى . ولكن الذى نسى أن يذكره فى رسالته تلك كان يتعلق بأحواله الشخصية أثناء الغزو . ويبدو من كلامه السابق أن أحواله لم تكن على ما يرام . وأين ذاك المرام والوطن مغلول والقلب محبوس واللسان معقول ؟!

وعندم تحرر الوطن والقلب واللسان استطاع الشطى أن يكتب لى ولغيرى ، وأن يتأمل فى أحواله أثناء ذاك الكابوس المخيف . وخرج من تأملاته بتجربة إبداعية على صورة «رسالة لمن يهمه أمر هذه الأمة» كما يقول عنوان الكتاب الذى ضمها :

لا نملك سوى أقلامنا

ماذا تقول هذه الرسالة ؟

لقد واجهته طفلته ذات السنوات العشر بعد عودة الحرية إلى وطنها . وفاجأته برفض أشرطة مسلسل سندباد الذى كانت تحب مشاهدته . فلما سألها عن السبب قالت بحزم : «لأن الأغنية تقول عن سندباد إنه بطل من بغداد . وهذا كذب ، بغداد لا يأتى منها إلا اللصوص والمجرمون والقتلة !» ولما حاول أن يناقش طفلته أفحمته بمنطقها البسيط المبنى على معاشرة المحنة معه من أولها إلى آخرها . وبناء على مناقشته لطفلته أنهالت على ذهنه صور المحنة كلها كما شاهدها بعينيه وعينى طفلته، وسمعها بأذنيه ، منذ اقتحم الجنود العراقيون داره ، وعبثوا بمحتوياتها ، وبعثروا لعب صغيرته ومن تلك الصور المؤلمة صاغ رسالته هذه من منطق الطفلة البريئة ، الحائرة بأسئلتها ، المحيرة لأهلها!

وعندما حاصرت محطة تليفزيون بغداد أهل الكويت ، وأخذت تصب عليهم صور الزعيم ومظاهرات تأييده ، فاجأته طفلته بسؤال : «ولكن هؤلاء عرب» وأجاب بالإيجاب ، فعادت تؤكد : «ولكنهم يهتفون ضدنا ، وهذا فعل الأعداء ، فكيف كنت تقول إن العرب أهلنا ، وكيف يكون الأهل ضدنا . فمن هو ضدنا عدو لنا . إذن ليس هؤلاء بأهل لنا» ويعلق على ما قالته الطفلة بقوله : استنتاج ساذج ، ولكنه قاتل ، يشطر الإنسان العربى شطرا مخيفا» .

لقد شهدت هذه الطفلة مالا يمكن أن تشهده على شاشة تليفزيون ، وعايشت ما لا يصدقه عقل من النهب والسلب والقتل والتدمير ، كأن الإنسان قنبلة دائمة الأنفجار والتهشيم . ولأنه ، كأب ، لم يستطع مداواة أسئلة أبنته باجابات مهدئة لسخطها ومقنعة لعقلها ، فقد صاغ رسالته المفتوحة هذه ، وجهها إلى «أهل العقول» كما يقول ، حتى يساعدوه على الخروج من المأزق ، ويعيدوا إلى صغيرته كلمات المحبة

والوفاء والوفاق والصداقة والرحمة .

يتساءل الدكتور الشطى فى ختام رسالته :

«هل حقا سقطت كل الأشياء الجميلة؟»

ولنقرأ جوابه الذى ينهى به الرسالة :

«من المستحسن ألا نترك اليأس يتحكم فينا ، وأن نخط طريقا مقنعة لإحلال مفهوم حقيقى للقومية والعروبة والحب والوفاء والدم الذى يحن على الأهل والأحباب ، واللغة التى تربطنا ، وليست تلك التى هتف بها الشارع العربى فشطر الشىء الواحد إلى أشطار . نرغب فى عودة كل المعانى النبيلة التى خنقتها ببطء يدُ الشقيق وأزرته صرخات الأشقاء المؤيدين .

«إن الانتماء القومى أصل أساسى لانملك أن نحيد عنه وليس من الممكن الآن أن ننفضه كما ينفض الشجر أوراقه الميتة أو الزائدة على الحد . فهذا الجانب جوهر وليس فرعا ، مصيرا وليس ظرفا محددا بزمان أو مكان معينين . وهذا ما نسعى إليه . ولكن ، قبل كل شىء : لنفكر فى حلول عملية وليس فقط فى صفح القديسين !»

من حق الصديق أن يحزن ويتألم ويشكو إلى كل من يهمه الأمر ، وهو أمر يهمنا جميعا كعرب على الأقل . ومسئولية المثقفين عندنا غير خافية ، لأن بعضهم ساهم فى صنع أسطورة الدكتاتور العادل فى بلادنا ، وبعضهم الآخر خلط الأوراق عن عمد أحيانا أو عن عمى أحيانا أخرى، ولكنهم جميعا لا يمكن أن يزيلوا مرارة ما حدث فى الكويت ، ولا أن يقضوا على آلام الغزو وآثار العدوان فى نفوس جيل ابنة الصديق على الأقل . فهذه مرارة وآلام من صنع سبعة أشهر ، ولكنها لاتزول قبل أعوام !

ويجب أن نبدأ فى العلاج من الآن ، بعد أن مَرَّ عامان على كارثة العرب أجمعين . وأرجو – كما أقترح الصديق – أن نجعل العقل مرشدنا وهادينا فى هذا العلاج ، لأن عواطفنا ثبت أنها إلى البداوة أقرب من الحضارة . والبداوة هى التى تمنع تدريس شعر جميل صدقى الزهاوى ومعروف الرصافى لمجرد أنهما عراقيان . والبداوة أيضا هى التى تتصور سندباد وألف ليلة وليلة أعداء لمجرد أن سندباد ظهر فى بغداد وألف ليلة وليلة ولدت هناك .

ونحن ياصديقى سليمان الشطى لا نملك ، كأدباء ، سوى أقلامنا ، وما يمكن أن يكون لنا من تأثير عند جماهيرنا ، فهل هذا يكفى لإزالة الرضوض والكدمات التى أصابت أرواح الصغار فى الكويت والعراق معا ؟ إن أهل مكة أدرى بشعابها ياصديقى . وأنت من أهل الكويت ، فعليك وعلى بقية أهلها ، يقع العبء الأكبر فى تضميد جراحات الصغار وتخفيف آلام

الكبار . ونحن معكم بقلوبنا قبل كلماتنا وأقلامنا التى لم تستطع أن تمنع الغزو والعدوان فى أى بقعة بعالمنا الشاسع !

أما الحلول العملية فخبرها اليقين عند أهل السياسة والتربية . فهؤلاء وأولئك يستطيعون رأب الصدوع وتعزيز الانتماء القومى كما تعرف .

وأما نحن أهل الكلام والأقلام فلسنا أقل من جوته وريكور . ولكن ، من يسمع كلامنا ويقرأ لأقلامنا ؟!

تحضرنى الآن واقعة رواها العربى الأمريكى إدوارد سعيد فى مقدمة «كتابه» «العالم والنص والناقد» الذى لم يترجم بعد. فقد ذكر له صديق دراسة كان يعمل بوزارة الدفاع الأمريكية أثناء حرب فيتنام أنه رأى على مكتب وزير الدفاع نفسه نسخة من رواية «رباعية الإسكندرية» للروائى الإنجليزى لورنس داريل . ولم يفهم سعيد ما بين الرجل الذى يأمر طائرات ب – ٥٢ بضرب بلد أسيوى بعيد كل يوم باسم المصلحة الأمريكية فى الدفاع عن الحرية وإيقاف الشيوعية وبين الأدب الراقى والثقافة الرفيعة حتى يقرأ رواية صعبة كهذه . ولكنى لا أشك فى أن يكون ذلك الوزير قرأ تلك الرواية . فكونه يأمر بإبادة الفيتناميين لايتعارض فى رأيه مع قراءة الأدب الرفيع ، لأن واجبه الوطنى يملى عليه بالقتل والإبادة حتى لو كرههما كراهية شخصية . ومع ذلك فأنا أشك كثيرا فى أن يفعل الوزير ما فعل إذا كان منتجا للثقافة والأدب مثل جوته وريكور . ولهذا لم نسمع عن وزير دفاع أديب أو فيلسوف . ولا أعتقد أن أحدا سوف يستوزر أديبا أو فيلسوفا للدفاع أو قيادة جيش إلا إذا كان من طراز سيف الدولة الحمدانى !

ولكن الذى أعتقده هو أن نسجل ما حدث ، وأن نفرغ ما فى نفوسنا من مرارة، بل كراهية ، ثم نتأمل ونفكر . وهذا ما فعله الصديقان الكويتيان . ففى مثل هذه الأحوال ، أحوال الغزو الغادر الذى شهدته إمارة فايمار وفرنسا والكويت ، يمرّ المثقفون عادة بثلاث مراحل : مرحلة التساؤل التى عبر عنها جوته ، ومرحلة التعامل التى عبر عنها ريكور . وتترتب على هاتين المرحلتين مرحلة ختامية ، يمكن أن نسميها مرحلة التوازن ، حيث يعود العقل إلى التحكم فى التساؤل والتعامل معا ، على أساس المبدأ الإنسانى القويم الذى أوجزه القرآن الكريم : لا تزر وازرة وزر أخرى . فالصواب صواب ، والخطأ خطأ ، ولا يؤثر هذا فى ذاك .



خمسة باب بعد الإرهاب والكباب

بقلم : مصطفى درويش

الخبر السار الوحيد حتى الآن ، والسنة الجديدة فى أسابيعها الأولى، لا تزال تحبو وتتعثر فى ضباب أحداث جسام ، هو الإفراج عن فيلم «خمسة باب» بعد منع عرضه زهاء عشرة أعوام.

والسرور لعودته لا يرجع إلى أنه فنيًا فيلم رفيع المستوى ، فأى من أفلام « نادية الجندى » نجمة الجماهير لا يدعى الرفعة فى شىء ، كل ما يدعيه هو إقبال الجماهير على مشاهدته اقبالاً منقطع النظير .

وإنما يرجع السرور الى أن عودته - بعد معارك على صفحات الجرائد، وفى ساحات القضاء - هذه العودة تعد انتصارا لحرية التعبير .

فالإسراع بمنعه ، بعد أيام من عرضه في دور السينما بموجب ترخيص من الرقابة ، وبعد ساعات من نشر مقال بلا صاحب في أخبار اليوم ، يقول لوزير الثقافة لا ، ويطالبه بمنع الفيلم فوراً لأنه يسيء لسمعة البلاد ، وحماية لتلك السمعة من الضياع ، ذلك الإسراع بالمنع ، يعد ، ولاشك ، نكسة كبرى لحرية التعبير في مجال السينما ، لاسيما أنه جاء بعد منع فيلم « المذنبون » قريبا من نهاية عقد السبعينات ، أثر حملة ضالة مماثلة ، وبعد توقيع جزاءات رادعة على مديرة الرقابة وقتذاك ، وعدد كبير من الرقباء ، عقابا لهم عن ذنب الترخيص لهذا الفيلم بالعرض العام ، وتحولهم نتيجة تلك الجزاءات من رقباء الى مذنبين .

هذا الى أن «خمسة باب» لا يعدو أن يكون تمصيرا من كاتب السيناريو «شريف المنباوي» ، والمخرج «نادر جلال» «لإيرما الغانية» ، ذلك الفيلم الذى أخرجه «بيلي ويلدر» ومثلته « شيرلي ماكلين» أمام «جاك ليمون» ووافقت الرقابة على عرضه في مصر ، وعرض فعلا قبل ثلاثين عاما بالتمام .

قوى الظلام

وجدير بالذكر هنا أن عودة «خمسة باب» ، حتى وإن جاءت بعد انقضاء عقد كامل من عمر الزمان ، وبعد انتاج افلام كثيرة لبطليه «نادية الجندى» و«عادل إمام» آخرها «مهمة في تل أبيب» و«الإرهاب والكباب» ، هذه العودة إنما تعد هزيمة لقوى الظلام ، متمثلة في الإرهاب الموجَّه الى العقل والفكر والرأى ، والذى هدفه الأول والأخير اغتيال أجمل وأعز وأعظم ما استطاع الإنسان أن يصل إليه ، وهو ان يعبر كل واحد عن رأيه بحرية متحررة من الخوف ، أشد الأعداء ضراوة وبأسا

وهنا أرى من المناسب أن انتقل من هذا الحديث السار ، إلى حديث آخر ، أراه حزينا لأنه يدور حول افلام هذه الأيام .

فباستثناء «ليه يا بنفسج» و«الحب في الثلاجة» جميع الافلام الاخرى التي جرى عرضها خلال الاسابيع القليلة الماضية لا تبشر بخير للسينما على ضفاف النيل .

ولعل خير مثل على ذلك «توت .. توت» و«دماء على الاسفلت » .

وأقف عندهما وحدهما ، لا لشيء سوى أن مبدعي الفيلمين من كبار كتاب السيناريو والمخرجين

« فتوت .. توت » مأخوذ عن سيناريو مبتكر «لعصام الشماع» ، ومخرجه «عاطف سالم» صاحب أعمال سينمائية لعبت دورا في النهوض بفن السينما في بلادنا .

أما «دماء على الأسفلت» : فمن اخراج «عاطف الطيب» . وهو من هو ، في السينما المصرية الآن .

ومأخوذ عن سيناريو مبتكر من تأليف «إسامة أنور عكاشة» . وهو ثاني عمل له مع «الطيب» ، بعد «كتيبة الاعدام».

وأعود إلى «توت .. توت» ، لأقول أن أحداثه تقع في حارة .

الانحدار الكبير

ولكن لو قارنا بين حارته وبين أول وآخر حارة فى السينما المصرية ، واقصد الحارة فى « العزيمة » (١٩٤٠) و «ليه يا بنفسيج» (١٩٩٢) ، لاكتشفنا فارقا ، ولا أقول إنحدارا كبيرا فعلى عكس حال الحارة فى هذين الفيلمين ، حارة فيلم «عاطف سالم» زائفة ، ليس بينها وبين الواقع صلة ، لا من قريب ولا من بعيد .

فالأحداث فيها مفتعلة أشد افتعال ، خادمة لنجمة مصر الأولى « نبيلة عبيد » التى تلعب فى الفيلم دور متخلفة عقليا ، تملك جسـدا حـارا ، فوارا ، فاتنا للناظرين .

وتلك الأحداث تبدأ بها ، وقد أعتدى «سعيد صالح» عليها جنسيا .

فاذا ما عرف انها حامل ، ألقى بها فى الحارة ، حيث يرميها الأطفال بالحجارة ، ويختلس الرجال مفاتن جسدها بالنظرات .

ولأمر ما تتوه ، وهى حامل ، فى الشوارع والأزقة ولأمر آخر يلقى القبض عليها ، وهى تحمل فى حضنها الطفل الرضيع ، وتمثل أمام وكيل النيابة ، يكتشف دون عناء أنها بلهاء .

وفورا يفرج عنها بكفالة قدرها عشرون جنيها .

ولنا أن نتساءل لماذا الكفالة ، وقد تبين له بالعين المجردة ، ودون حاجة إلى استشارة الأطباء ، أنها بريئة بحكم أنها بلهاء .

وعلى كل ، فهو يعوضها عن خطئه ، بدفع الكفالة من جيبه الخاص !!

وفى نهاية المطاف ، تعود ، ومعها طفلها ، الى الحارة حيث تستقبل استقبال الأبطال .. لا أعرف لماذا ؟

وفى نفس لحظة عودتها ، يتصادف مجىء المعتدى « سعيد صالح » الى الحارة فى عربة مرسيدس فارهة ، للمشاركة فى الاحتفال بمولد واحد من أولياء الله الصالحين .

ولا يقابل فى هذه المرة من أهل الحارة بالأحضان كما فى المرات السابقة وإنما بالحجارة وباللعنات معبرين بذلك عن تضامنهم مع بنت الحارة «نبيلة عبيد» ضد المعتدى الأثيم ، وينتهى الفيلم بهذا الختام الذى أراه فى بلاهته يماثل بلاهة البطلة الحسناء ، بل لعله فى البلاهة يزيد .

والآن أنتقل الى «دماء على الاسفلت» ، فيلم «عاطف الطيب» الأخير .

فساد الأماكن

معروف أن الفيلم يعرف من عنوانه وإذن فلنا أن نتوقع أن تجرى فى فيلم «عكاشة - عاطف» الدماء أنهارا .. وأين ؟ على أسفلت المدينة البدينة بالفساد الذى استشرى فى الأرض ، وليس لهارب منه نجاة .

ونتوقعه ، منذ البداية مع عودة «نور الشريف» إلى مصر بعد طول غياب فى مراكز مرموقة بالهيئات الدولية فى الخارج.

وهو يعود بغرض البحث فى حقيقة ما هو منسوب الى أبيه «حسن حسنى» من اتهامات جنائية أدت الى إلقاء القبض عليه .

وكالعادة مع الأفلام القائمة على سيناريوهات لعكاشة ، وهى أربعة حتى الآن ، يدخلنا فيلم «عاطف» فى دهاليز ومتاهات لا أول لها ، ولا آخر .

وبعد مجهود داخلها يقطع الأنفاس ، نكتشف أولا أن الأب المحبوس على ذمة التحقيق ، متزوج من امرأة شابة ، وله منها أولاد صغار .

وثانيا ان أم «نور الشريف» جاءها الموت ، وهو صغير ، وأن اباه أسرع بالزواج من تلك الشابة أم العيال .

ونكتشف كذلك أن له شقيقا « طارق لطفى » وشقيقته « حنان شوقى » وأبنة عم محامية « إيمان الطوخى » تعلقت به أيام الصبا ، ولا تزال عذراء .

وفوق هذا ، نكتشف مع نور الشريف فى أثناء رحلة البحث المجهدة له ، ولنا . أن الشقيق يعمل عازفا مع فرقة موسيقية فى أحد الفنادق ، وإن الشقيقة ، هى الأخرى، تعمل فى فندق كبير حيث تبيت أحيانا .

وتهون كل هذه الاكتشافات إلى جانب ما يخبئه لنا الفيلم من مفاجآت يشيب من هولها الغربان .

ضجة كبرى

فالشقيق فتى منحرف ، مدمن ، يتعاطى الهيروين والشقيقة فتاة لاهية تبيع جسدها للغادى والرائح بلا حياء

وملف القضية المتهم فيها الأب ، وهو كاتب في محكمة ، بإخفائه لمصلحة طبيب يعمل فى مستشفى انفتاحى يتاجر ، بوسائل غير مشروعة ، فى الأعضاء ، ذلك الملف سرقه الشقيق المدمن كى يبتز به ذلك الطبيب .

وهو يسرقه لأنه تورط فى توزيع كمية من الهيروين بمبلغ مائة ألف جنيه .

وبدلا من بيعها ، استنشقها بالكامل مع رفاق السوء .

وتاجر المخدرات يطالبه بقيمتها ، وله بالمرصاد يطارده في كل مكان .

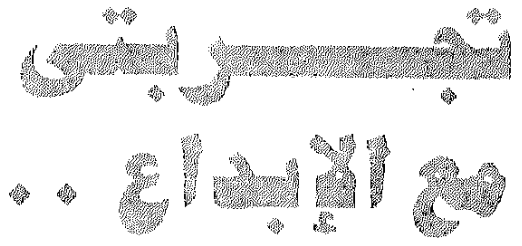
ومن هنا اضطراره إلى سرقة الملف من مكتب أبيه الذى لا يعرف من أمر مأساة أبنه شيئا .

وكأن كل ذلك لا يكفى ، فهاهى ذى الشقيقة البغى ، تندفع صارخة من شقة ، ممزقة الثياب ، والدماء منها تسيل .

فقد أوقعها سلوكها المشين فى براثن سائح أجنبى غير طبيعى ، يذكرنا بالقاتل العشوائى فى فيلم « صمت الحملان » .

ولأمر فى نفس صاحب « دماء على الأسفلت » تقع الشقيقة ، وهى تجرى هاربة من عربة نور الشريف التى وقف بها أمام قسم الشرطة ، تقع تحت عجلات عربة مسرعة ، وتسيل الدماء قريبا من ختام فيلم شديد التعقيد والإدعاء ، أراد به صاحبه أن يقول بصوت عال غاضب إن مصر قد تحولت إلى وكر للفساد والملذات ، فضلّ الطريق .





تجربتى مع الإبداع ..

حنان الشيخ

كيف أكتب عن تجربتى الإبداعية والنيل أمامى وأنا مازلت أجرب؟ أجرب أن اعتاد على فكرة السنين التى مرت منذ أن كنت طالبة فى القاهرة وعلى المعالم التى تغيرت والاماكن التى تبدلت والاشخاص الذين كانوا وفارقوا؟

أجدنى الآن لا أكف عن تناول الخيط الذى تركته هنا منذ منتصف الستينيات بتركى للقاهرة ، فاتلصص على الشقة التى كنت ارتادها لألتقى هناك بمن كان ينتظرنى بلهفة وانا اهرب من بواب المدرسة الداخلية، من المشرفة فى بيت الطالبات .. واذا بالرائحة تعود إلىّ رائحة المكان والانسان والاشجار المتربة ، واذا بى امسك

رأسى بين كفى ولأنى أمسك بتلك الحـيـاة لأول مرة منذ السـنوات البعـيدة و أترك رأسى الا وانا قد قررت أنى سوف اتبع الخيط . الضوء الذى لمع فى الرأس .

ضوء رواية جديدة تهيمن روحها على تلك الفترة التى طهرتها باللاوعى منذ ذلك الحين بعد ان عبث قليلا بسطحها واكتفيت بكتابة روايتى الاولى : «انتحار رجل ميت» عن رجل فى الاربعين يقع فى حب فتاة مراهقة التى بدلا من ان تقوده أى حياة والشباب تقوده إلى اليأس « ووحدة الشيخوخة.

والآن .. اجد ان بذرة رواية جديدة تكبر فى كل لحظة منذ ان قدمت إلى القاهرة قبل أيام . تكبر مع كل لحظة ، مع كل بناء أتذكره ، وكلى شعور بأنى لن اتركه قط تكبر مع كل لفته . مع شرفة ما . مع افريز هذه الشرفة ، مع الشمس ذاتها والضوء نفسه .

قبل وجودى فى القاهرة ، كنت اعكف على إنهاء مجموعة قصصية واذا بهذا الشعور الزاحف على من الماضى ماهو الا لارتقاء الحاضر وبأن تذكرى للماضى لن يعوده إلى .. انما ليجعله اليفا ، مالوفا .. لا غريبا .

يبدو لى الآن أنى لا أستطيع اللحاق بتجربتى الابداعية . لأنى لم أكتب ولم انشر من قبل . كلها تصبح خلفى ، وانا اعدو الآن خلف فكرة الرواية الجديدة التى اخذت تحفر نفسها فوق تلافيف الدماغ .. هذا يحدث لى مع كل فكرة رواية أو قصة قصيرة، تأتينى سواء فى اليقظة أو اعلم ، مما اراه بعينى ، وما يراه فكرى ، وكأنى الحائط الذى يتلقى ضربات الطابات ، فيردها بدوره وعلى طريقته . أو عينى حمام زاجل عليها ان تجوب الفضاء والاماكن وتعود لتحط فى بيتها وهى تحمل ما تحمله .. فتتنوع الأجواء بين الحرب والسلم ، بين البشر والعلاقات ، بين المدن والصحارى واذا بى اتبع ذلك الخاطر وانا امسك بعدة الكتابة أو الصوت الذى يملى وانا افكر . واشعر به يمتد فى شريان فى العقل إلى الابط إلى الزراع إلى الرسغ، إلى الكف ، إلى الاصابع . اتعثر واتدحرج بين شخصيات واجواء واحاور وأدور الى أن اكتشف ما كنت اجهله ام أصل بما كنت الم به إلى اللّب .. عندما اعرف ان عملى قد انتهى ، هكذا .. فى انتحار رجل ميت ..إلى فرسى الشيطان إلى حكاية زهرة أى وردة صحراء (مجموعة قصصية) إلى مسك الغزال ..إلى بريد بيروت.

الإنســـان والنيـــل

بقلم: د . محمد عبدالفتاح القصاص



د . رشدى سعيد



الكتاب ـ نهر النيل
المؤلف ـ الأستاذ الدكتور / رشدى سعيد
الناشر ـ دار الهلال ـ ١٩٩٣م

١ ـ كتب عديدة تناولت جغرافية نهر النيل ووصف أجزائه من المنابع فى الهضبة الاستوائية وفى المرتفعات الأثيوبية، ومسارات أحباسه فى سهول السودان وصحاريه وفى أرض مصر. وكتب عديدة تناولت هيدرولوجية نهر النيل وحساب مياهه المتدفقة من المنابع إلى المصبات الدلتاوية. وكتب عديدة على مدى القرون جمعت أرصاد النهر وجريانه فى السنوات السمان وقصوره فى السنوات العجاف. وكتب عديدة تناولت تاريخ استيطان الانسان لوادى النهر فى تخومه وفى دلتاه، وتاريخ الحضارات المتوالية التى تتابعت على جنبات النهر. وكتب عديدة تناولت مشروعات ضبط النهر من عهود العمل على توقى مخاطره ونزوات فيضانه إلى عهود العمل على التحكم فى مجراه وضبط مسراه وتخزين مياهه منذ القناطر الخيرية التى بناها محمد على فى منتصف القرن التاسع عشر حتى السد العالى الذى بناه جمال عبدالناصر فى منتصف القرن العشرين. كتب تملأ الخزائن. ولكن الأجزاء الثلاثة الأولى لكتاب نهر النيل للأستاذ الدكتور رشدى سعيد

جمعت كل هذه المعارف الغزيرة المتعددة والمتشعبة فى ٢٧٢ صفحة، ووضعتها فى كلام يجمع بين الإيجاز والوضوح وفى نسيج متكامل جمع بين علوم الجيولوجيا والجغرافيا والتاريخ الجيولوجى وتاريخ المناخ وتاريخ المجتمعات البشرية. وهذا التكامل العلمى الذى لا يقدر عليه إلا أستاذ راسخ القدم، مهد السبيل ـ وكانت وعره ـ لدراسات وبحوث فى مجالات عديدة تتصل بتاريخ الانسان وتاريخ الحياة ذاتها من النبات والحيوان فى هذا الوادى الذى يمتد من قلب القارة الإفريقية إلى شواطئ البحر المتوسط، ومن ثم فهو يمثل دهليزا يربط بين المناطق الاستوائية والحارة فى أواسط إفريقيا والمناطق المعتدلة فى شمالى القارة .

٢ ـ الجزء الأول من الكتاب يتناول تاريخ النهر كظاهرة جغرافية، وقد يتجادل الناس فيما اذا كان نهر النيل أطول نهر فى العالم، أو هو ثانى أطول أنهار العالم. ولكن الجزء الاول من هذا الكتاب يدلنا على أن نهر النيل فى صورته الحاضرة أكثر أنهار الدنيا تعقيدا، وأنه نهر مركب من عدة أنهار، وأن هذه الأنهار اتصلت وانفصلت على مدى تاريخها الجيولوجى الذى امتد إلى عدة ملايين من السنين، وأن فهم هذا التاريخ ومتابعة علاقات هذه الأنهار وتطور كل منها أمر بالغ الصعوبة. ولكن الأستاذ المؤلف يعرض هذا الموضوع ومتابعة أحداثه على نحـو يجعل الفهم والمتابعة أقل عسرا ، ويقتضى شرح هذا التاريخ العسير الجمع بين علوم الجيولوجيا وعلوم التاريخ القديم والحديث، ومتابعة القرائن التى تدل على تغيرات المناخ بين عصور الجمد فى الشمال وفى مناطق الجبال العالية وتعاور عصور المطر وعصور الجفاف فى الجنوب . فهم هذه الأحداث المتوالية والمتداخلة التى تبلغ مبالغ الألغاز والاحاجى لا يقدر عليه إلا أستاذ رحب الآفاق، وشرحها وعرضها على نحو يقرأ ويفهم لا يقدر عليه إلا أستاذ معلم مثل الدكتور / رشدى سعيد .

وأنا ممتلئ إعجابا بقدرته الفائقة على عرض هذا الجزء من علوم نهر النيل، واعترف أنى ما فرغت من قراءة هذا الجزء الا وأنا أتصبب عرقا كأنما كنت أجرى وألهث لمتابعة قضاياه. والأستاذ المؤلف يشفق على قارئه من عسر هذا الجزء، فيجعل له موجزا ميسرا فى أول الكلام، ويدعوه إن قصر جهده عن متابعته أن يتجاوزه إلى ما بعده من أجزاء. وهذا الجزء الأول يذكرنا بكوكبة من كبار الأساتذة المصريين: الدكتور محمد عوض محمد، والدكتور مصطفى عـــامر يرحمهما الله ويجزيهما عنا خيـــر الجزاء، والدكتور سليمان حزين مد الله عمره بالعمل النافع فقد كان كتابه عن مكان مصر فى تاريخ ما قبل التاريخ من المؤلفـــات ذات القيمة الباقية .

على أن واقع الأمر أن منطقة جنوبى مصر فى بلاد النوبة وتخومها الصحراوية جذبت جماعات من فرق الباحثين والمنقبين فى مجالات التاريخ القديم، وقد شارك الأستاذ الدكتور رشدى سعيد بنفسه أو بتلاميذه فى العديد من تلك الفرق، وتابع أعمالها من موقعه عندما كان يتولى رئاسة الهيئة العامة للمساحة الجيولوجية والبحوث التعدينية. وقد جمعت هذه الدراسات معارف جمة وبيانات غزيرة عن تاريخ الانسان وحضاراته القديمة فى تلك الأراضى التى نراها الآن صحارى جرداء، ولم تكن كذلك فى التاريخ القديم. وقد استطاع الأستاذ الدكتور رشدى سعيد أن يجمع شواهد هذه الدراسات وخلاصاتها ويصوغ منها قصة متواصلة الفصول، وأن يقدم لنا لتاريخ امتد إلى عدة ملايين من السنين سبقت، ثم يفصل التاريخ الذى شهد ظهور الانسان ومجتمعاته على مدى عشرات الألوف من السنين سبقت التاريخ المكتوب منذ الزمان الفرعونى وما تلاه، وهو سرد يحتاج إلى الارتكاز على البيانات والقياسات والشواهد والقرائن، ويحتاج فهمه وهضمه وإفرازه كالرحيق المصفى إلى خيال عظيم وقدرة عقلية فائقة وهبها الله للمؤلف الكريم .

٣ ـ الجزء الثانى من الكتاب يتناول النهر كظاهرة هيدرولوجية: المياه وتدفقها. يمهد المؤلف لهذا الجزء بفصل عن تاريخ اكتشاف منابع النيل، وهو تاريخ امتد على مدى قرنين من الزمان، وجمع بين مغامرات المستكشفين الأفراد، وحملات الجماعات العسكرية، وروى فى عشرات المجلدات بسائر اللغات. وقد أحسن المؤلف صنعا أن أوجز هذا كله ويسره لنا. ثم يعرض هيدرولوجية النهر فى أحباسه العليا عند المنابع وفى أحباسه الوسطى عبر السودان حتى يصل الى أسوان. وفى هذا العرض بيان عن تقلبات النهر بين البسط والقبض، ويذكرنا بكوكبة من مهندسى الرى المصرى ومن شاركوهم من الخبراء الأجانب، نذكر منهم العالم البريطانى هرست وزميله العالم المصرى يوسف سميكه مؤلفى الكتاب الموسوعى «نهر النيل»، وهو مؤلف ليس له نظير فى أحواض أنهار العالم جميعا. والفصل الخامس من هذا الجزء يؤرخ تقلبات النهر على مدى عمره الحديث ـ أى عشرة آلاف سنة ـ وقد أوجز هذا الفصل ما ورد فى عشرات وعشرات من مجلدات ودراسات قديمة، عكف عليها المؤلف فى صبر وأناة بالمراجعة والتدقيق، وخرج علينا بموجز يدل على جهد خارق لا يقدر عليه إلا أهل العزم .

٤ ـ الجزء الثالث يتناول تاريخ الانسان فى وادى النيل، واستخدامات أرضه، وهو تاريخ الرى والزراعة، تاريخ الحضارات الأولى للانسان. وقد كان لأهل وادى النيل فى مصر قسط عظيم من هذا التاريخ

الحافل بالجهد البالغ والمشقة والعبقرية أيضا. فى هذا الجزء قصة التحول من رى الحياض إلى الرى الدائم، والتحول من رهبة النهر وتوقى نزواته إلى ضبط النهر والتحكم فيه، وهو تحول بلغ مداه ببناء السد العالى. ويتناول المؤلف هذا المشروع العظيم بالتحليل، وتقييم جدواه وبيان آثاره الجانبية، كل ذلك فى إحاطة علمية موضوعية.

٥ ـ الجزء الرابع والأخير من هذا الكتاب الموسوعى ينظر إلى المستقبل، مستقبل النهر وتنمية موارده، ومستقبل العلاقات بين دول حوضه التسع، ومستقبل مصر التى تقع فى أدنى النهر وتعتمد على مياهه اعتمادا بالغ الخطر. ويتناول المؤلف التشريعات والأعراف الدولية التى تنظم علاقات دول أحواض الأنهار الدولية، والاتفاقيات المتصلة بمياه النيل. وهذه أمور لا تخفى صعوباتها وخطرها ومحاذيرها. ويطرح المؤلف هذا بين يدى مخططى التنمية فى مصر والأمناء على مستقبلها طرحا يفتح العيون على الإمكانات الواعدة والمزالق الخطرة، وكأنما يدعو إلى اليقظة والى مقابلة احتياجات الغد بنظرة تستشرف المستقبل ولا تقعد حتى تهدم الأحداث، ولتكون سياسة مصر فى هذا المجال الحيوى قائمة على أسس من المعارف العلمية الموثقة.

٦ ـ هذا الكتاب الموسوعى منجم من المعارف التى أحاطت بالنهر الذى هو شريان الحياة لمصر. يجد فيه الباحثون فى مجالات الجيولوجيا والتاريخ القديم علما نافعا، ويجد فيه مهندسو الرى والمشتغلون بالرى والصرف والزراعة وتنمية موارد الأرض زادا ثريا، ويجد فيه واضعو سياسات التنمية ومخططو مستقبل السياسات المصرية أضواء هادية، ويجد فيه واضعو المناهج التعليمية والكتب المدرسية مرجعا ثريا وخزانة للمعارف النافعة.

٧ ـ والكتاب ـ من بعد ـ نموذج للأدب العلمى. لغة عربية فصيحة وسليمة تدل على قدرة اللغة العربية على استيعاب العلوم فى أعقد صورها. ونص مصفى ـ وهذه هى اللغة العلمية ـ لا زيادة ولا فضول فى الكلام ولا نقص يخل هذه لغة تحتاج الى تركيز واستيقاظ دائم فيها حفز للعقل والتنبه. وقد عرض الاستاذ الدكتور رشدى سعيد فى مؤلفه هذا نموذجا يحتذى للأدب العلمى. نفع الله به امته، وبارك فى جهده.

٨ ـ وقد أحسنت دار الهلال صنعا بنشر هذا الكتاب فى صورته المشرقة، ولم تبخل على إخراجه فى أحسن صوره طباعة وعرضا. وإقبال دار الهلال على نشر هذا العمل العلمى الموسوعى فاتحة خير وإشارة للمجتمع العلمى المصرى إلى أن الباب مفتوح لإثراء المكتبة العربية بكتب المراجع العلمية الجادة. هذه خطوة تحمد لدار الهلال وللمسئولين عن توجيه سياسة النشر فيها.

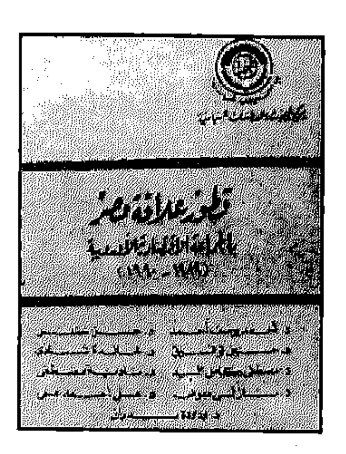


● أرض العروبة - رؤية حضارية فى المكان والزمان .
● تأليف: الدكتور سليمان حزين .
● دار الشروق

تأتى أهمية هذا الكتاب من أنه يثير قضية هامة وأساسية ، وهى قضية العروبة ، الوحدة العربية ، القومية العربية ، فى الوقت الذى كفر به البعض بالعروبة ، نتيجة لحرب الخليج وتداعياتها ، وفى الوقت الذى يفضل به البعض مصالحه الأمنية على مصالح الأمة فى استمرار حركتها ، وفى الوقت الذى يشيع فيه الكتاب الأوروبيون ، من بينهم برنارد لويس أن القومية العربية انتهت ولن تقوم لها قائمة .

قدم المؤلف رؤيته فى المكان والزمان ، مجموعة من التأملات عن منطقة هامة من العالم القديم من خلال منهجه الذى أسماه الجغرافيا الحضارية والذى هو امتداد لمنهج ما نسميه أحيانا بالجغرافيا التاريخية ، أى العلاقة المتطورة بين الإنسان والبيئة، فى أرض العروبة، تابع المؤلف المكونات الإقليمية بكل امتداداتها وحضارتها ويرى أن لكل بقعة من هذه الأرض الطيبة دورها الخاص فى بناء القومية العربية والثقافة العربية والتاريخ العربى ، فالصحراء والبادية مثلا كانت ضمير الأمة العربية خلال التاريخ حيث تشكلت السجايا العربية بين الأعراب والبدو ، والمناطق الجبلية أضفت على أهلها صفاتهم وطبائعهم التى ورثوها عن البيئة القاسية وأهل السهول والأراضى المنبسطة كانت لهم صفة الاستقرار والمدنية والنزوع إلى طلب الرخاء والعافية وأهل السواحل كانت لهم صفة الجمع بين نشاط البر ونشاط البحر، وكانت ثغورهم مطلا على العالم الخارجى وراء البحار ، ومناطق الحدود كانت مناطق دفاع فى مواجهة حضارات أخرى وثقافات وانتماءات سياسية مختلفة ، ومع ذلك فإن تنوع مصادر الثروة فى الأمة العربية كان مصدر خير وقوة وقد عرفت الأمة العربية التنقل من التنوع إلى الوحدة ، وكانت اللغة والثقافة والتعارف والتكامل والتراحم سبيل هذه الأمة إلى تلك الوحدة ، إنه يدعو لبناء الوحدة العربية والتى نادى بها بعض أسلافنا من أهل الفكر والوطنية ، يدعو إليها

بعيدا عن القسر والإغراء بالسياسة والدفع بالقوة والسلطان، يدعو إليها عن طريق ريادة الناس إلى الوحدة وإلى القومية.



● تطور علاقة مصر بالجماعة الاقتصادية الأوروبية (١٩٨٩ - ١٩٩٠).
● مجموعة من الباحثين - تحرير الدكتورة ودودة بدران.
● مركز البحوث والدراسات السياسية - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.

في إطار اهتمام مركز البحوث والدراسات السياسية بعلاقة مصر بالجماعة الأوروبية، نظم ندوتين مع مؤسسة فريدرش إيبرت حول هذا الموضوع، عقدت الأولى في يناير ١٩٩٠ وتم نشر أعمالها في كتاب بعنوان: «مصر والجماعة الأوروبية ١٩٩٢» أما الندوة الثانية فقد عقدت في فبراير ١٩٩١ وحضرها ٢٧ من المشاركين المصريين والأوروبيين، ويتضمن هذا الكتاب الأبحاث التي قدمت في هذه الندوة، وركزت على أربعة محاور:

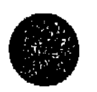
١ - التغيرات الأوروبية ١٩٨٩ - ١٩٩٠، خاصة التغيرات في أوروبا الشرقية وانعكاساتها على الجماعة الأوروبية وكذلك الوحدة الألمانية.

٢ - تحليل السياسة الخارجية المصرية تجاه الجماعة الأوروبية.

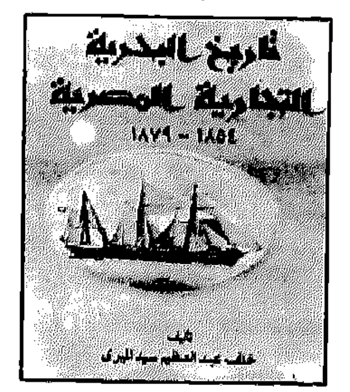
٣ - الجماعة الأوروبية وصراعات الشرق الأوسط.

٤ - العلاقات الاقتصادية بين مصر والجماعة الأوروبية حيث تم التركيز على الاستثمار ونقل التكنولوجيا والعلاقات التجارية في قطاع الزراعة.

أما المشاركون في الكتاب فهم الدكاترة: أحمد يوسف أحمد - حسن علي خضر - حسنين توفيق - خالدة شادي - مصطفى كامل السيد - نادية محمود مصطفى - نازلي معوض أحمد - وودودة بدران، بقسم العلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، والدكتور علي أحمد علي - خبير اقتصادي بهيئة الاستثمار.







● تاريخ البحرية التجارية المصرية ١٨٥٤ - ١٨٧٩ .

تأليف : خلف عبد العظيم سيد الميرى.

تقديم : د . يونان لبيب رزق .

الهيئة المصرية العامة للكتاب .

هذا العمل الكبير عن البحرية التجارية المصرية فى عهدى كل من سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣) واسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) سوف يحتل يقينا مكانة متميزة فى المكتبة العربية ، ويدلل الدكتور يونان على حكمه هذا بما رصده من أسباب تفرد هذا البحث (كان هذا الكتاب في الأصل رسالة ماچيستيروأجيزت بامتياز) والتى منها : قضية اختيار الموضوع ، حيث أن دراسة البحرية التجارية لمصر لفترة ربع قرن يحمل قدرا كبيرا من العناء ، فالفترة حافلة ليس فى التاريخ المصرى فحسب وإنما فى تاريخ التحولات البحرية على المستوى العالمى وعلى مستوى المنطقة ، كما أن تلك الفترة عرفت بناء الإمبراطورية المصرية والتى كانت تقع أغلب شواطئها على البحر الأحمر وكانت البحرية التجارية أداة سياسية لربط أوصال هذه الإمبراطورية . وأضفى افتتاح قناة السويس ١٨٦٩ على الموقع المصرى مزيدا من أسباب التميز ، فضلا عن الموانىء الجديدة التى نشأت عند مدخل القناة فقد أصبحت المياه المصرية تموج بسفن التجارة من كل جنس ونوع ، وكان منطقيا أن تسعى مصر لأن يكون لها نصيب فى هذه المتغيرات. وفى نفس الفترة عرف العالم المتغير الهام فى تكنولوچيا الملاحة عندما بدأ البخار فى الحلول محل الشراع .

والكتاب دراسة تاريخية ترصد التطور المصرى والعلاقات المتشابكة عبر البحار بين مصر والعالم حيث يتلاقى التاريخ والسياسة والاقتصاد والإدارة والجغرافيا وعلوم البحار.



● وثائق جمعية عمر المختار - صفحة من تاريخ ليبيا

● محمد بشير المغيربى .

التقت مجموعة من الشباب الليبى ، جنود وطلاب ومهاجرون على أرض مصر ، أثناء الحرب العالمية الثانية – عام ١٩٤١ – وفكروا فى العمل من أجل وطنهم وكيفية العودة إليه ومواجهة المستعمرين الإيطاليين . وبرزت فكرة تأسيس جمعية باسم المجاهد الشهيد عمر المختار – استشهد فى ١٦ سبتمبر ١٩٣١ – لتخليد ذكراه ، والعمل من خلال الجمعية فى المجالات المتاحة آن ذاك ، وتم الاتفاق على تكوين الجمعية واعتمد قانونها الأساسى فى ٣١ يناير ١٩٤٢ بالقاهرة ، وتأسست فى بنى غازى ١٩٤٣ ، وكان نشاطها فى مجالات مختلفة سياسية ، واجتماعية وثقافية ورياضية ، حتى أمرت السلطات بحلها فى يوليو ١٩٥١ .

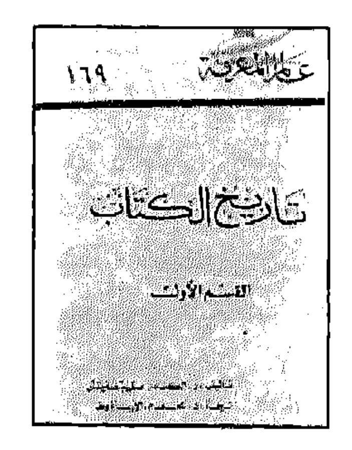
وهذا الكتاب يتضمن مسيرة الجمعية ووثائقها ، وقد قسم إلى أربعة أقسام :

الأول : يحتوى على وثائق النشاط السياسى للجمعية حتى ١٩٥١ ويتضمن التقرير السرى التى وضعته دار المعتمد البريطانى فى بنغازى فى ٢٧ أكتوبر ١٩٥١ عن جمعية عمر المختار .

الثانى : يحتوى على وثائق النشاط الرياضى والثقافى والكشفى .

الثالث : وثائق نشاط رجال الجمعية بعد حلها سنة ١٩٥١ حتى ١٩٦٧ .

الرابع : وثائق العمل القومى لمواقف الجمعية ورجالها فى قضايا الأمة العربية .



● تاريخ الكتاب – القسم الأول .
● تأليف : د . الكسندر ستيبتشفيتش .
● ترجمة: د . محمد م . الأرناؤوط .
● سلسلة « عالم المعرفة » – الكويت .

صدرت فى أوروبا مجموعة من الكتب حول الكتاب وتاريخه وتطوره ودوره ، وللأسف جاء معظمها متحيزاً ، وكان الاهتمام بتاريخ الكتاب فى أوروبا ، وتجاهلت هذه الكتب دور الشرق بصفة عامة والعرب بصفة خاصة حتى صدر هذا الكتاب والذى اعتبر فى حينه من أفضل الكتب التى صدرت فى يوغسلافيا عام ١٩٨٥ ، وتميز بنظرة مؤلفه البروفسور اليوغسلافى ستيبتشفيتش الموضوعية فقد وضع الشرق فى مكانته الطبيعية وأبرز

دوره فى اختراع الكتابة وأدواتها وموادها وحروفها، كما خصص فصلا عن العرب ودورهم فى نقل صناعة الورق من أقصى الشرق إلى مركز العالم القديم، ومساهمتهم فى المؤلفات البيبلوجرافية وتطور المكتبات لديهم واهتمامهم البالغ بالكتاب.

وتضمنت فصول الكتاب: الحضارات القديمة فى الشرق الأوسط - الحضارات القديمة فى الشرق الأقصى - العالم اليونانى - الرومانى - أوروبا فى العصر الوسيط - الكتاب فى الإمبراطورية البيزنطية - العرب. وقام بترجمة الكتاب الباحث السورى الدكتور الأرناؤوط - الأستاذ المساعد بجامعة اليرموك.



● رؤية لتغيير أمريكا - الاهتمام بالناس أولا.

● بيل كلينتون - آل جور.

● ترجمة ونشر مركز الأهرام للترجمة والنشر.

فى هذا الكتاب يحدد كلينتون ونائبه آل جور موقف أمريكا من قضايا الشرق الأوسط، وتأييدهما لإسرائيل، والمنافسة الاقتصادية مع أوروبا واليابان، هذا مع اهتمامها بالمشاكل الداخلية الأطفال والأسرة والتعليم والرعاية الصحية والمسنين والمرأة والأمن القومى والمخدرات والإيدز، إنهما يطرحان شعار «الأولوية للناس» ويقولان فى تصديرهما للكتاب، هى مجرد نتيجة واحدة من نتائج حوارنا المستمر مع الشعب الأمريكى من أجل رؤية وخطة للمستقبل، فالحاجة ماسة للحوار، فعلى مدى الاثنتى عشرة سنة الماضية قامت الحكومة بخدمة الأغنياء والمصالح الخاصة، ودفع الملايين من الأمريكيين من أبناء الطبقة المتوسطة الكثير للحكومة ولكنهم أخذوا الأقل فى المقابل، وكانت النتائج مدمرة، أرقاما قياسية للمتعطلين، ومدارس آخذة فى التهاوى وملايين الناس لاتتوافر لهم رعاية صحية وشوارع وأحياء أكثر خطورة لقد حان الوقت للتغيير، وحان الوقت لظهور زعماء راغبين فى تحمل المسئولية ومستعدين لتسخير سلطة الرئاسة للعمل من أجل الشعب الأمريكى.



● موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية .

● تأليف : دكتور عبد المنعم الحفنى .

● دار الرشاد .

رصد مذهب لكل الطوائف الإسلامية من فرق الشيعة والسنة منذ أول فرقة وهى السبأية حتى آخر فرقة وهى الإخوان وجماعات الجهاد والتكفير والهجرة وأنصار السنة وحزب الله .

ويقول المؤلف فى المقدمة : « وكتابنا هذا فى الفرق الاسلامية يتناول هذه الفرق جميعها – قديمها ومحدثها – من زاوية رؤية موضوعية شمولية ، وقد حرصنا فيه على إيراد فكر هذه الفرق كما ذكرته المصادر الكبرى بنصه مع بعض التأويلات من عندنا ، بحسب فهمنا الذى حاولنا فيه أن نتحرى العلمية المحضة » .

ومع تأكيد المؤلف على حرصه على الموضوعية والعلمية إلا أنه لم يشر إلى مصادره ومراجعه عن هذه الفرق .



● الليلة الكبيرة وخمس مسرحيات

● صلاح چاهين

● مركز الأهرام للترجمة والنشر .

يضم هذا الكتاب المسرحيات التى كتبها الفنان الكبير صلاح چاهين لمسرح العرائس فى الفترة ما بين ١٩٦٠ – ١٩٦٦ ، بعضها من تأليفه وإبداعه والبعض الآخر مقتبس ، والمسرحيات هى :

الليلة الكبيرة – صحصح لما ينجح – الشاطر حسن – حمار شهاب الدين – الفيل النونو – الغلباوى – قاهر الأباليس مع العروسة والعريس ، وكتب المقدمة الزميل الشاعر بهاء چاهين ، وتميزت مسرحيات صلاح چاهين بالفكرة الواضحة والألفاظ المختارة بعناية شديدة ، والتى كان يلتقطها چاهين بمهارة فائقة ويعيد صياغتها وكأنه اكتشفها من جديد ، وكان چاهين فنانا وأديبا وسياسيا وممثلا ، كان ببساطة أحد الرموز الثقافية والفنية فى عصرنا ، أثارت رسومه معارك سياسية وفكرية ، وسجلت أشعاره مسيرة ثورة يوليو المجيدة ، ومنها كانت أروع الأغانى الوطنية والعاطفية ، وبأشعاره أكد وجود شعر العامية .

كتاب
الهلال يقدم

مذكرات الإمام محمد عبده

عرض وتحقيق
طاهر الطناحي

يصدر ٥ مارس ١٩٩٣



التدخين : الخطر المباح

بقلم : د . محمد بهائى السكرى

غريب أمر الإنسان فى بعض الأحيان ، يحب ما يضره ويكره ما ينفعه ، ويجادل بإسهاب دفاعاً عن وجهة نظره وهو يعلم أن الحق ليس معه وأن الصواب يجانبه .

ومن أوضح الأمثلة على ذلك دفاع المدخن عن التدخين ، وتعلقه بالسيجارة المعلقة فى شفتيه وهو يعلم فى قرارة نفسه أنه يتشبث بما يؤذيه ، وأنها خطر كامن يتهدد صحته وحياته ، ولكنه يتمسك بلذة عاجلة بدل دفع خطر آجل .

وتسوق السيجارة الملايين خلفها إلى بيداء المرض القاحلة مثل الناى السحرى الذى تحدثت عنه الأساطير يسير الناس خلف نغماته الغريبة مشدوهين حتى يردوا البحر فيلقوا فى أليم بأنفسهم وتبتلعهم الأمواج وهم فى غيبوبة النشوة !

ولفافة التبغ ورق أبيض رقيق يحتوى داخل طية اسطوانية الشكل على أوراق



نبات مفتتة جافة ، ويوقد المدخن طرفها فيتصاعد منها الدخان المحترق مع هواء الشهيق ، وقد يستخدم مرشحا خاصا ليقلل كمية الدخان التى تدخل صدره ، ومع احتراق السيجارة يتحول لون المرشح من الأبيض الناصع إلى البنى الداكن مشيرا بذلك إلى ما يحدث داخل جسم المدخن من تراكم لذرات الدخان البنية داخل الممرات الهوائية !

ويحدث احتراق السيجارة تولد ما يقرب من أربعة آلاف مركب كيميائى تشمل غاز أول أكسيد الكربون ، وغاز ثانى أكسيد الكربون الخانق ، وغاز النشادر المهيج للأغشية المخاطية ، ومركبات عضوية ذات قدرة على إحداث تغيرات سرطانية فى الخلايا وتتولد أيضا جزيئات دقيقة من مادة القطران مغطاة بالنيكوتين ، وتحتوى تلك الجزيئات على مواد ذات نشاط إشعاعى ضار .

وتمتص تلك المواد بسرعة من الرئتين وكأنها قد حقنت فى الدم عن طريق الوريد وتصل إلى المخ خلال ٨ ثوان حيث تحدث تغيرات فى النشاط الكهربائى للمخ .

أضرار هائلة

وتسرى جزيئات النيكوتين مع الدم حيث تحدث تلفا فى الأغشية الملساء المبطنة للأوعية الدموية مما يؤدى إلى حدوث تصلب فى جدران الشرايين ، وتزداد قابلية الدم للتجلط وإحداث إنسداد داخل الأوعية الدموية .

ويتحد غاز أول أكسيد الكربون مع هيموجلوبين الدم ويحل محل الأكسجين مما يتسبب فى تقليل تدفق ذلك الغاز الحيوى للأنسجة .

وعلى الرغم من بعض المنافع الضئيلة للسيجارة حيث قد تحدث بعض التهدئة العصبية أو تساعد على تركيز الذهن إلا أن ضررها أكبر من نفعها كما يمكن الاستغناء عنها عن طريق تدريب النفس على التحكم فى الأعصاب ، وتركيز الذهن فى العمل .

وقد اقترن التدخين بقائمة كبيرة من الأمراض الخطيرة تتلاءم مع العدد الكبير من المركبات الكيميائية الضارة التى تنتج أثناء احتراق لفافة التبغ ، وثبت بغير شك علاقة التدخين بالأزمات الربوية ، والتهاب الجيوب الأنفية المزمن ، وانخفاض حاسة الشم والتذوق ، وزيادة حموضة المعدة ، وقرحة الأمعاء ، وفقد الشهية ، وارتفاع

منسوب السكر فى الدم ، وارتفاع ضغط الدم ، وتصلب الشرايين، والذبحة الصدرية، وتجلط الدم فى الأوردة، وانسداد الشرايين، وسرطانات الرئة والحنجرة واللسان ، وفقد شفافية عدسة العين .

كل ذلك بالإضافة إلى الآثار الاقتصادية الضارة عندما تتحكم آفة التدخين فى محدودى الدخل .

ومن اللافت للنظر أن آثار التدخين تتعدى المدخن إلى من حوله .

فبالإضافة إلى المتاعب الاقتصادية التى تنشأ فى الأسرة متوسطة الدخل عندما يدمن أحد أفرادها التدخين نجد أن عملية التدخين فى حد ذاتها تحدث أضرارا صحية عندما يشعل امرؤ سيجارة وسط مجموعة من الناس موجدين على مقربة منه فى حيز ضيق .

أضرار لغير المدخنين

فقد ثبت ثبوت اليقين أن التدخين السلبى « أى استنشاق الدخان المنبعث من سيجارة شخص آخر » له أضرار مشابهة للتدخين الإيجابى (أى أن يستنشق المرء دخان سيجارته الخاصة) بل إن التدخين السلبى قد يكون فى بعض الأحيان أشد خطورة حيث إن متلقى الدخان بالرغم عنه قد لا تكون حالته الصحية تسمح له بتحمل ذلك الدخان بما فيه من مركبات ضارة .

وكم من أناس أصابتهم أزمات ربوية أو ذبحة صدرية أو ارتفع ضغط الدم عندهم إلى حد خطير بسبب جار ثقيل الظل ينفث دخان سيجارته فى الهواء وهو مستمتع بها وهو يدرى أو لا يدرى أنه ينفث الأمراض فى أجسام من حوله ! .

إن خطر التدخين ينبغى أن يقتصر فقط على من يدخن التبغ بمحض إرادته ، بل أولى بالمدخن أن يحافظ على نفسه قبل أن يفكر فى الحفاظ على صحة غيره ..

إن خطر التدخين خطر جسيم ، ومركبات الدخان الضارة تنفد من جسم الأم المدخنة إلى جسم وليدها المنتظر وهو ما زال جنينا فى أحشائها فتؤثر على نموه وتطور أنسجته فى أدق مراحل تكوينها .

ويلاحق خطر التدخين أطفال الأسرة فيؤثر فى صحتهم ويهيئهم نفسيا لأن يكونوا من المدخنين فيما بعد .

بل الأكثر خطرا من ذلك أن التدخين قد يكون الخطوة الأول فى سبيل إدمان المسكرات أو تعاطى المخدرات .

وبذلك يسقط النشء الجديد أمل المستقبل المشرق فى هوة مظلمة .

إن معظم النار من مستصغر الشرر فلا يحقرن من امرؤ أمر اشعال لفافة تبغ على مرأى من الجميع !

التكوين

محمود أمين العالم



أمسك بالقلم لأكتب عن سنوات التكوين يثب إلى خاطرى سؤال إشكالىّ مشاكس : هل هناك سنوات محددة للتكوين ، سنوات لها بداية ونهاية ، أم أن التكوين بداية متجددة مستأنفة لا تتوقف أبداً ؟ هل هناك حد يبلغ عنده تكوين الإنسان مداه فلا يتعداه ، أذكر أننى منذ أكثر من أربعين عاماً ترجمت موضوعا فى مجلة علم النفس التكاملى عن أن السنوات الخمس الأولى من حياة الإنسان هى سنوات تكوينه النهائى ، وأن كل ما يتلوها بعد ذلك من سنوات هو امتداد لجذر تثبت ، وتفريع على أصل اكتمل . هل هذا صحيح ؟ اليوم .. ما أظن ذلك .

بالتمرد والتساؤل والقلق !

إن ما أشعر به – عن خبرة ويقين – بعد كل هذه السنوات ، أننى وأنا أختتم العام الأول بعد السبعين من عمرى ، لا أزال أتكون ، لا أزال أحتاج الى مزيد من الخبرة والتكون، لا تزال تغمرنى الدهشة ويغمرنى القلق والتوتر والهوس أحيانا أمام كل لحظة وخبرة جديدة .. لا يزال يشتعل فى كيلنى كله الاستعداد والرغبة فى التجدد والتغيير والتجاوز ، لكل ما سبق أن مارسته قبل هذه اللحظة الراهنة فى مجالات المعرفة أو التذوق أو الشعور أو العمل .

هل أقول إن هذا هو ما تكونت عليه ؟ هذا هو تكوينى ، الذى هو التكونن المتصل المتجدد – لو صح التعبير – وليس التكوين النهائى ؟ هناك بغير شك مغالاة فيما أقول . فثمة ملامح لشخصيتى قد تحددت بالفعل ، أردت أم لم أرد ، وثمة رؤيا إنسانية وثقافية قد تبلورت وإن لم أقل إنها استقرت وجمدت نهائيا . هل يمكن القول – خروجا من هذا الإشكال – بأن حياة الإنسان هى مزيج من الكينونة والصيرورة ، من الثبات والتغير ، وأن بين هذين الطرفين جدلا حيا متصلا لا ينقطع أبدا ؟ لعل هذا أن يكون أقرب إلى الصواب . فالحق أنه لا نهاية ولا حدود للتكوين والتكونن ، وللتجديد والتجاوز فى تاريخ الفرد أو فى التاريخ الإنسانى العام ، وإلا أصاب هذا التاريخ – الفردى أو العام – نوع من تصلب الشرايين ، ففقد تاريخيته ، أى فقد حياته حتى وإن استمرت فى ظاهرها . ولعل هذا هو ما يجعلنى أكاد أبصر سنوات حياتى مراحل مختلفة متغايرة من التكوين والتكونن ، ولا أكاد أشعر بالحدود النهائية لكل مرحلة ، ولا أكاد أشعر حتى اليوم بتوقفها أو اكتمالها ، ولا أقصد كمالها . ولهذا أقول لنفسى، وأنا أكتب بصوت عالٍ ، أكتب بتلقائية ، وبغير إعداد مسبق ، أقول لنفسى ليكن حديثى إذن عن السنوات الأولى للتكوين ، وليس عن سنوات التكوين على إطلاقه . ولا أستطيع هنا أن أغوص فيما هو ثابت ومتغير ، فيما هو موروث ومكتسب ، وما دار بينهما منذ بداية العمر – ولا يزال حتى اليوم – من حوار وصراع وتداخل باطنى . حسبى أن أحاول أن أرسم على الأقل – بعض التضاريس الخارجية فلعلها أن تساعد على تحديد بعض المعالم الدالة .

● بين أحياء القاهرة القديمة ●

ولدت فى اليوم الثامن عشر من شهر فبراير عام ١٩٢٢ فى حارة الكحكيين بحى الدرب الأحمر بالقاهرة . وما أذكر أننى غادرت سكنى هذا الحى وحى الأزهر عامة قبل أن

أبلغ الثلاثين من عمرى عندما تزوجت . على أنى انتقلت مع أسرتى داخل إطار هذا الحى نفسه بين حارة الكحكيين وحارة القربية ودرب المحروق ودرب الدليل وحيضان الموصلى . وكان من الطبيعى كذلك أن يكون تعليمى الأولى والأبتدائى والثانوى فى أحضان هذا الحى الشعبى العريق . بدأت تعليمى الأول فى كتاب الشيخ السعدنى فى مدخل حارة السكرية عند بوابة المتولى . وما زلت أذكر الشيخ السعدنى بوجهه المتجهم دائما وعصاته الطويلة التى ما كانت تعجز عن الوصول إلى أى تلميذ منا ونحن نحفظ معه القرآن الكريم . ولا أدرى لماذا تثب إلى ذاكرتى الآن زيارتى فى هذه السن المبكرة مع شقيقى محمد شوقى أمين لأديب كبير كان يسكن فى حارة السكرية فى بيت من البيوت الأثرية القديمة هو حسن القاياتى .ما أعتقد أن جيلى فضلا عن الأجيال التالية يعرف هذا الأديب الكبير . ولا أدرى لماذا ما أزال أذكر حتى اليوم ظلال بعض ما أخذ يلقيه علينا فى هذا اللقاء من شعر . بل ما أزال أذكر بعض ألفاظه التى تتسم بالعراقة اللغوية . بل لا أزال أذكر نكتة عن صديق له ، حكاها لنا وانطلق يضحك هو وأخى شوقى عليها . أما أنا فلم أفهمها إلا بعد أن أخذ يشرحها لى أخى شوقى بعد خروجنا من عنده . قال الأستاذ حسن القاياتى إنه أرسل إلىّ صديق له يدعى فؤاد رسالة بدأها بقوله : سمى قلبى يافؤاد . فرد عليه صديقه فؤاد برسالة بدأها بقوله : سمىٌ قلبى ياحسن ! طبعا لم أفهم آنذاك أن الفؤاد هو اسم مرادف للقلب ، أما حسن فليس اسما أو مرادفا للقلب ! عذرا على هذه الانعطافة من كتاب الشيخ السعدنى إلى هذه الزيارة العابرة للأستاذ الأديب حسن القاياتى . ولكن لعلها تشير إلى مازالت تحمله وتحياه الذاكرة من عطر أدبى قديم عريق . وما انتهيت من كتاب السعدنى حتى التحقت بمدرسة الرضوانية الأولية بالقربية ، وهو جزء من حى الدرب الأحمر كانت تصنع فيه قرب الماء التى كان يستخدمها السقاءون فى ذلك العهد . وما أعتقد أن المجال يسمح لى بأن أترك بعض ذكريات هذه المدرسة تفرض نفسها - كما تحاول الآن معى - على هذه السطور الوصفية الخارجية عن حياتى فى هذه المرحلة . المهم أننى التحقت بعد مدرسة الرضوانية بمدرسة النحاسين الابتدائية بالقرب من ميدان بيت القاضى على مقربة من جامع سيدنا الحسين . وقد علمت بعد ذلك أن جمال عبد الناصر كان تلميذا فى نفس المدرسة وإن كان يسبقنى بعامين . وكان الالتحاق فى هذه المدرسة بمصروفات ، لأنى ما زلت أذكر حتى اليوم أننى لم أتمكن من دخول المدرسة عندما أخذنى أبى إليها فقد أخرج كيس نقوده الدمورى ، واكتشف أن ما فيه لا يكفى لدفع

المصروفات فتركنى وذهب إلى قريب لنا هو الشيخ منير الدمشقى صاحب المكتبة المنيرية المشهورة فاقترض منه ما يكمل به مصروفات دخولى المدرسة ، وعاد إلىّ وأنا فى انتظاره على باب المدرسة . وبعد أن حصلت على الابتدائية من مدرسة النحاسين التحقت بمدرسة الإسماعيلية الثانوية بميدان السيدة زينب . وكان ذلك فى عام ١٩٣٥ ، وكان عاما عاصفا بالأحداث السياسية التى لا أزال اتذكر الكثير منها . على أنى لم أمكث فى مدرسة الإسماعيلية – وكانت مدرسة أهلية – غير سنة واحدة ، انتقلت بعدها إلى مدرسة حكومية هى مدرسة الحلمية الثانوية – بحى الحلمية – التى حصلت فيها على الشهادة الثانوية . وانتهت بهذا المرحلة الأولى من حياتى التعليمية ، بل المرحلة الأولى من تكوينى الثقافى .

وقد تعطى سكناى فى حى الدرب الأحمر وانتقالى بين مدارسه ، لا مجرد إطار عام لهذه السنوات الأولى من حياتى ، وإنما تعطى كذلك عمقا له دلالة خاصة . ففى هذا الحى الشعبى الدينى قضيت الثلاثين عاما الأولى من عمرى ، تجولت فى كل حواريه وأزقته ، وعرفت كل آثاره ، وصليت فى كل مساجده ، واختلطت بناسه بمستوياتهم الاجتماعية المختلفة وتمثلت ومارست تقاليده وعاداته . ومن أحد منازله فى منطقة « الباطنية » كنا ونحن أطفال نستطيع أن نمضى رأسا إلى جبل الدراسة ، وأن نشتبك هناك فى معارك مع الأحياء الأخرى بالطوب والمقاليع . ومازلت أذكر هتاف حارتنا آنذاك « إحنا بتوع الباطنية واللّى يعادينا مين» . ومنطقة « الباطنية » كانت مشهورة . وأظنها لا تزال – بتجارة الحشيش . وما أكثر ما كنت أشاهد آن ذاك عمليات بيع الحشيش فى ميدانها الصغير .

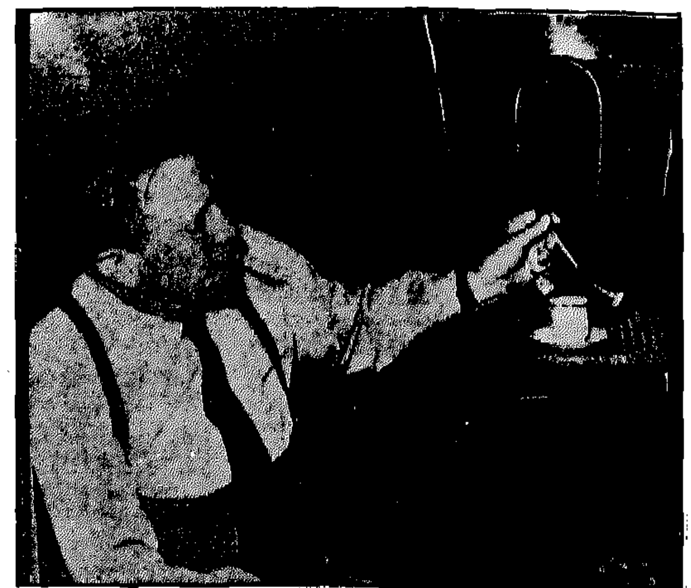
● أجمل علاقات الصداقة ●

وفى أثناء سكننا فى درب المحروق عاصرت البدايات الأولى لمحمود شكوكو الذى كانت عائلته من سكانه أيضا وما زلت أذكر بعض مونولوجاته الأولى . وفى جامع المردانى بشارع الغورية ، بالقرب من بوابة المتولى كنت أذهب لأذاكر فوق قاعدة نوافذه الكبيرة ، أو فى باحته الواسعة . ولا أكاد أنسى أبدا حتى اليوم نسائمه الرخية على وجهى . وبالقرب من هذا المسجد الجميل كانت تسكن عائلة ناظر مدرسة النحاسين آنذاك وهو عبد الهادى برادة . كانت تسكن بيتا كبيرا – كما هو فى ذاكرتى الآن – كنا نلعب فى حوشه الواسع . فقد كنت على علاقة طيبة مع أولاده وخاصة ابنه كمال الذى ما أزال أحمل له الود العميق رغم هذه السنوات البعيدة التى فرقت بيننا . وفى شارع قريب كذلك من المسجد كانت تسكن أسرة المناديلى . وهى أسرة

تجارية عريقة ، كان لها محل مانيفاتورة مشهور آنذاك فى حى الغورية ولا أزال أحمل عطر علاقات الصداقة مع أطفال وشباب هذه الأسرة الكريمة . ولا أدرى كيف وجدت طريقى فى هذه السن المبكرة الى السير الشعبية .

● بداياتى مع السير الشعبية والقراءة ●

كان لى صديق من منطقة الباطنية عرّفنى على مكتبة من مكتبات شارع الأزهر ، لعلها مكتبة صبيح أو مكتبة أخرى . وكانت هذه المكتبة تعيرنا ملازم مفرقة من بعض السير الشعبية لقاء ملاليم تقريبا . كنا نأخذ الملزمة نقرؤها ثم نعيدها ونأخذ الملزمة التى تتلوها وهكذا حتى ننتهى من قراءة السيرة . وأذكر فى هذه السن أننى قرأت سيرة الأميرة ذات الهمة، وعنترة ، ولكننى تعلقت تعلقا شديدا بسيرة عمر العيار ولا تزال فى نفسى من هذه السيرة أطياف بطولية لا تختفى . كما تعلقت بعد ذلك فى بداية مرحلة الدراسة الثانوية بقصص اللص المصرى الشريف حافظ نجيب ثم بأرسين لوبين . على أن أخطر ما أتاحه لى هذا الحى الى جانب هذه العلاقات الإنسانية والمعنوية هو قربه الشديد من دار الكتب بباب الخلق . كنت أذهب إليها لأقرأ وأستعير ما أشاء من كتب . وكان يجلس بجـــوار مبنى هــذه « الكتبخانة » بائع صغير للكتب فى مثل سنى . كنت أشترى منه بعض القصص باللغة الانجليزية التى كنا نتعلمها تعلماً جاداً فى هذه المرحلة الابتدائية . وفى دار الكتب كنت أغامر كثيرا بالاطلاع على كتب لا أحسن فهمها تماما ، بل أحيانا لا أفهم منها شيئا . كان يغرينى بها عنــوانها أساسا ، أذكر فى بداية المرحلة الثانوية ، وقوعى على كتاب بالإنجليزية فى مكتبة باب الخلق أغرانى عنوانه وهو « حب الحياة فى الطبيعة » كان الكتاب فى البداية مستغلقا على فهمى ، ولكنى أخذت أحاول أن أستوعب بعض دلالاته وأذكر أننى استطعت أن أفك بعض رموزه أخيرا ، واعتقد أنه كان البداية السحرية لى لتعرفى على نظرية التطور وعلى أننى فى مدرسة النحاسين الابتدائية أتيح لى الحصول على كتابين كان لها أكبر الأثر فى تشكيل بعض ملامح حياتى الفكرية . ولا زلت أذكرهما جيدا . وكان حصولى على هذين الكتابين فى إطار مصادفة نادرة ، لولاها ما واصلت تعليمى ، فقد كنت فى السنة الثالثة - فيما أذكر - وعجزت أسرتى عن دفع مصروفاتى المدرسية ، ففصلت من المدرسة ومكثت فى البيت . وأخذتنى أمى الى زوج خالتى الشيخ منير الدمشقى صاحب المطبعة المنيرية الشهيرة الذى أشرت إليه من قبل ، وكان هدفها أن أتعلم صنعة بدلا من مكثى عاطلا فى البيت . وفى بضعة أسابيع استطعت أن أتعلم جزءا كبيرا من صندوق الحروف وتركيب الجمل والعبارات



بيرم التونسي



أحمد حسن الزيات

وربطها بالخيط مع غيرها من الجمل الأخرى ، وأبنى صفحة كاملة من الرصاص . على أني في أغلب الأوقات كنت أعمل مساعـــدا للعدد البسيط من العمال الذين كانوا يعملون فى هذه المطبعة ، لا فى الأعمال الطباعية أساســـا وإنما فى الخدمات الصغيرة كإحضار الشاى وشراء السجائر لهم إلى غير ذلك .

● المجانية والتفوق ●

ولم تطل غيبتى عن المدرسة ، إذ سرعان ما جاء خطاب رسمى منها يدعونى الى العودة مُعْفَى من أداء المصروفات ! وكان السر وراء ذلك أن الملك فؤاد كان مريضا آنذاك وشُفى . فتقرر منح المجانية للمتفوقين فى سنوات الدراسة الابتدائية فيما يبدو . وهكذا عدت إلى مدرسة النحاسين لأواصل دراستى بها . على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد . فقد أُجْريت فيما يبدو مسابقة عامة نجحت فيها . فحصلت على جائزة من وزارة المعارف آنذاك . وكانت الجائزة تتمثل فى كتابين : أولهما هو كتاب أحمد حسنين باشا عن رحلته فى الصحراء الغربيـــة واكتشافه لواحة من واحاتها . والثانى هو كتاب يعقوب صروف عن مكتشفات العلـــم الحديث .

أو ما يقرب من هذا العنوان .

ولا تزال مغامرة أحمد حسنين فى مجاهل الصحراء ، والمغامرات العلمية التى عشتها فى كتاب يعقوب صروف تواصل رفيفها الحى فى وجدانى حتى اليوم . ولعل هذين الكتابين

قد أثرا فى مسلكى العملى والفكرى عامة . على أنى ما زلت أحمل من هذه السنوات المبكرة فى حياتى ســواء فى حى الدرب الأحمر أو فى مدرسة النحاسين بعض الذكريات السياسية . فما زلت أذكر مظاهرة شاركت فيها بعض طلبة مدرستنا مع بعض طلبة مدارس الحى - كمدرسة الجمالية مثلا - .

لست أذكــر كيف ! ولكنى أتذكر صداما مع البوليس آنذاك فى ميدان بيت القاضى ، وأتذكر بقايا هتافات وأهــازيج لا تزال ترن فى أذنى مثل « أحيه يا نسيم يا أبو عقل «تخين »، ونسيم هو نسيم باشا الذى كان رئيسا للوزارة آنذاك . ويبدو أن المدرسة كان يغلب عليها الاتجاه الوفدى شأن القاعدة الشعبية عامة فى هذه السنوات على أن أول مظاهرة سياسية اشتركت فيها كانت قبل ذلك ، وكانت محصورة فى حارة القربية أمام بيتنا . كنت حدثا صغيرا . وكان العام هو عام ١٩٣٠ . وكانت مصر كلها تغلى بالمظاهرات الوفدية ضد صدقى باشا . وفى هذه الأيام ، اعتُقل أخى شوقى . على أن المظاهرة التى قامت فى الميدان الصغير أمام بيتنا لم تكن احتجاجا على اعتقاله ، وإنما كانت جزءا من الاحتجاج الشعبى العام الذى كان يشارك فيه الكبار والصغار . وأذكر فى هذه الأيام ، أن بعض افراد أسرتى صحبنى إلى سجن قراميدان بحى القلعة فى محاولة للاتصال بأخى من خارج الأسوار بالطبع، عن طريق النوافذ الصغيرة لزنازين السجن التى كان أخى شوقى يقبع فى إحداها . وما زلت أتذكر جيدا هذه الزيارة ، ولم أكن أدرى حينذاك أننى سأكون داخل أسوار هذا السجن ، وفى إحدى زنازينه بعد أكثر من ثلاثين عاما !

● أبى والشيخ محمود خطاب ●

على أن اعتقال أخى شوقى كان شيئا شاذاً فى أسرتنا . فأسرتنا لم تكن تهتم بالسياسة . فقد كان أبى من رجال الدين . وكان من أتباع الشيخ محمود خطاب مؤسس الجمعية الشرعية . وكان أبى على صداقة حميمة بالشيخ محمود خطاب . فكان يصحبه فى رحلة صيد من حين لآخر نصحه بها الأطباء . وكان يذهب إليه عصر كل يوم فى مسجده الذى بناه فى حارة فى المغربلين بعد نهاية شارع الخيامية ، هذا الشـــارع الفريد الذى يغطيه - ولا يزال - سقف خشبى . وكنت أذهب مع أبى أحيانا . كنا ننتظر الشيخ محمود خطاب عند أسفل السلالم الداخلية لبيته الذى كان ملحقا بالمسجد . ويقبل الشيخ محمود فى عباءته الفضفاضة وجلاله المضئ الفريد ، ويتجه إلى مجلسه بالقرب من ساحة المسجد ، ويتحلق حوله

مريدوه . وكان للشيخ محمود خطاب مهابة ما أزال استشعرها حتى اليوم . ما أزال استشعر صفاء وجهه وشفافية نفسه . وعندما مات حزنت عليه حزنا شديدا . وتولى بعده ابنه الشيخ أمين . وأذكر أنه كان رجلا طيبا للغاية . ولكن لم تكن له مهابة الشيخ محمود . وكنت أحرص في نهاية كل عام دراسي ، وأنا في المرحلة الابتدائية – أن أحمل إلى الشيخ محمود خطاب شهادة نجاحي . وكان يطلب منى أن أقرأها فى مجلسه أمام الجميع وكان يمنحنى دائما قطعتين لامعتين من الفضة . أظن أن كل قطعة منهما كانت تساوى عشرة قروش . وكنت أفرح جداً بلمعانهما ورنينهما . ولكن أبى كان دائما يأخذهما منى . وكنت أحزن لهذا كثيرا . على أنى أذكر – بخجل شديد – أننى آخر مرة حصلت على هاتين القطعتين ، ولم يكن أبي حاضرا بالمصادفة ، استوليت على إحداهما ، وكذبت على أبى وقلت له : إن الشيخ محمود لم يعطنى إلا قطعة واحدة . واستغرب أبى كثيرا . وأعتقد أنه شك فى كلامى .

● بدايات التمرد ●

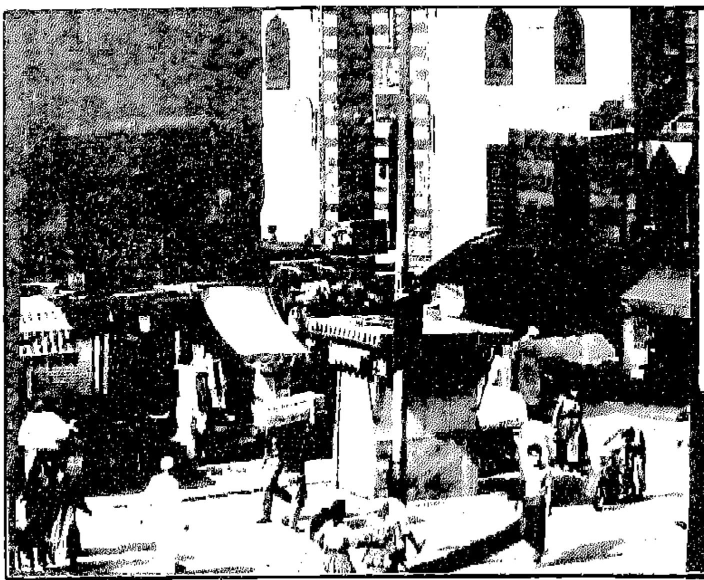
على أنى كنت مغرما آنذاك بأفلام توميكس فى سينما أوليبيا . وكنت فى العادة أشاهد أفلامه في التيرسو . وكانت الصالة فى العادة مزدحمة جدا والمتابعة فيها مرهقة . ولهذا صممت أن أذهب لمشاهدة أحد أفلام توميكس فى الدرجة الثانية ، واصطحبت معى أختى أمة الله التى تصغرنى ولقد كان هذا السلوك جزءا من حالة تمرد أخذت تملأ نفسى فى هذه السن المبكرة فى مواجهة أبى . وأذكر أننى بعد خروجي من الفيلم قررت أن أقوم بعملية تمرد أخرى أشد خطورة . فذهبت واشتريت « سردينا » وأكلته أنا وأختى فى الطريق وأخذنا نبذل جهوداً لإزالة رائحته عنا قبل عودتنا إلى المنزل . ذلك أن أبانا كان يعتبر أكل الفسيخ والسردين من المحرمات ، لأنهما من الميتة . وما زلت أذكر كتابا حول هذا الموضوع هو «الف سيخ فى عين من أكل الفسيخ » . ولقد كان تذوقى لطعم السردين المملح لأول مرة تذوقا يمتزج فيه الإحساس بالمتعة بالإحساس بالخطيئة فضلا عن الإحساس الواعى بالتمرد . والحقيقة أن علاقتي مع أبى منذ طفولتى المبكرة وحتى وفاته كان يطغى عليها دائما طابع التصلب والتوتر على خلاف علاقتى الحميمة مع أمى . وما أكثر التفاصيل المعقدة التى تصلح للسيرة الذاتية وليس لهذا الاستعراض الوصفى الخارجى لهذه المرحلة الأولى من سنوات التكوين . على أن أبى لم يكن رجل الدين الوحيد فى بيتنا .



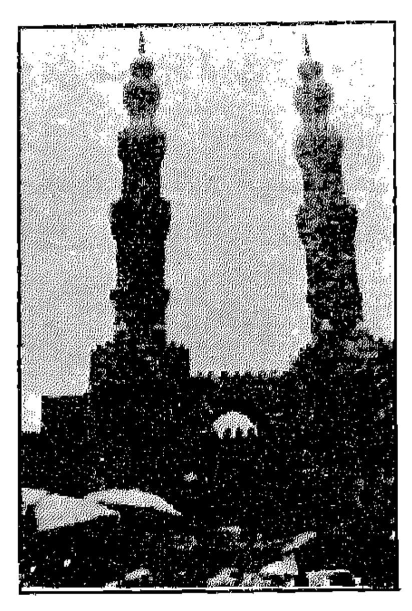
● أخي وعطر الثقافة العريقة ●

كان هناك أخي أحمد . وكان كفيفا . يدرس في الأزهر ، وواصل دراسته حتى حصل على شهادة كلية الشريعة وكان للشيخ أحمد فضل معرفتي بالتراث القديم منذ هذه السنوات المبكرة . لم تكن معرفة بالمعنى الحقيقي ، وإنما أقرب إلى المعايشة الخارجية لمتون هذا التراث وهوامشه والتلمس الغامض السحري لبعض دلالاته . فقد كان الشيخ أحمد يحرص على أن ينقل كل كتبه الدراسية إلى طريقة بريل . كنت أملْي عليه ، ويقوم هو بتخريم أوراق خاصة مثبتة على لوح خشبي بمسطرة معدنية مستخدما لهذا ما يشبه المسمار المثبت في قبضة خشبية ، ولقد ظللت أملي عليه ، وأقرأ له منذ أن استطعت القراء ة حتى سن المراهقة ، خائضا في مختلف كتب التفسير والحديث وأصول الدين وعلم الكلام واللغة إلى غير ذلك ، أفهم بعض المعاني ، ويغيب عني أغلبها . ولكني كنت أعيش عطر ثقافة عريقة لا يزال رحيقها الغامض يغمر نفسي ، رغم استيعابي ومعرفتي بعد ذلك بل قيامي بتدريس بعض جوانب هذا التراث العظيم. وكان الشيخ أحمد عضوا - مثل أبي - في الجمعية الشرعية . وكان متطوعا لإحياء صلاة الجمعة وإلقاء خطبتها في أحد مساجد هذه الجمعية المنتشرة في القاهرة وخارجها . وكنت أصحبه دائما أو في أغلب الأحيان . وكان هذا يغيظني كثيرا رغم محبتي الشديدة لأخي أحمد وحرصي الدائم على مساعدته . ذلك أنّ أيام الجمعة كانت تعني عندي المشاركة في ماتشات الكورة في أحواش جبل الدراسة ، أو الذهاب إلى حمام سباحة وزارة المعارف في الجزيرة ، الذي كنت مشتركا فيه طوال سنوات المدرسة الابتدائية . ولكنني في الحقيقة كنت استمتع بصحبة أخي أحمد ، فقد كان على جديته العلمية والدينية ، شخصا مرحا فكها لا يعرف التجهم والتزمت . ولقد مات للأسف دون أن أراه . علمت بموته من بعض الجرائد التي كانت تُهّرب إلينا ونحن في سجن الواحات الخارجة . وحزنت عليه كثيرا .

وكان شوقي هو الأخ الأكبر . وإن كان لي أخ أكبر منه ولكني لم أره . مات قبل أن أولد . قيل لي أنه مات في ثورة ١٩ في ميدان الأزهر . وكان اسمه فهمي ، وأنني أشبهه تماما ولهذا عشت فترة طويلة من حياتي استشعر أنني امتداد له . وعندما قرأت شخصية فهمي في الجزء الأول من ثلاثية نجيب محفوظ خيل إليّ أنني أقرأ شخصية أخي فهمي . وأعود إلى أخي شوقي الذي كان في الحقيقة أكثر من أخ . كان العائل الحقيقي للأسرة وخاصة بعد أن فوجئنا بأن أبانا قد باع بيتنا في حارة القربية الذي كان يدر علينا بعض الدخل ولهذا كان



حي الغورية ... عشقي



القاهرة القديمة .. وجداني

علينا أن نبحث عن سكن وعن مصدر للرزق ! وحمل أخي شوقي العبء كله وكنا أسرة مكونة من سبعة أفراد . فإلى جانب الوالد والوالدة وشوقي ، كان هناك أحمد وأمة الله وعائشة وأنا . وكنا نحن الأربعة لا نزال في مرحلة التحصيل العلمي .

ولهذا كان شوقي مشغولا بنا دائما ، ومشغولا عنا دائما . كان طالبا في الأزهر مثل أخي أحمد . ولكنه وهو ما زال طالبا في الابتدائية ألف كتابا صغيرا في نقد الأزهر ورجاله بعنوان « الأزهر فوق المشرحة » . ففصل من الأزهر . وكان محبا عاشقا للأدب واللغة ، فراح يشق طريقه للعلم والكتابة ، وأخذ اسمه يلمع على صغر سنه . وأخذ ينشر مقالاته الأدبية واللغوية في جريدة الأهرام . وكان من أوائل الداعين لإنشاء مجمع اللغة العربية . ولهذا كان أول المعينين فيه عند إنشائه ، ثم أصبح بعد ذلك وبعد جهاد علمي طويل عضوا من أعضائه . وفي منتصف هذا الجهاد كان عليه أن يحمل عبء أسرة بكاملها ما أكثر ما عطلت مسيرته العلمية الصاعدة ! ولقد كانت مكتبة أخي شوقي ، البحر المحيط الذي رحت أنهل منه كنوز المعرفة التراثية القديمة ، والجديدة ، العربية والغربية المترجمة . والحديث عن هذه المكتبة وعن بعض ما كان فيها ، مما كان له أثر عميق في توجيهي وتكويني في هذه المرحلة المبكرة من حياتي ، حديث يطول . ولكن حسبي أن أشير إلى أثر واحد هو مجموعة مجلة الرسالة للأديب الكبير أحمد حسن الزيات . وجدت أمامي في هذه المجموعة منذ بدايتها ، فضلا عن استمرارها ، ما فتح لي آفاق الثقافة الرفيعة في مختلف مجالاتها . وما أكثر ما قرأت فيها

من صفحات أرعشتني وهزتني وأقلقتني ولكن حسبي أن أكتفي داخل هذه الآفاق الثقافية أن أذكر ترجمة فيلكس فارس لكتاب نيتشه « هكذا أتكلم زارادشت » التي اطلعت عليها بل عايشتها معايشة حميمة بعد ذلك بسنوات ، وكانت الخطوة الحاسمة الأولى في حياتي نحو التخصص في دراسة الفلسفة .

● أخي شوقي وكامل كيلاني ●

على أن فضل شوقي عليّ لم يقتصر على مكتبته وعلى شخصه النبيل وعلمه الوافر ، وإنما قد أتاح لي أفقا آخر كان له أثر كبير كذلك في تطويري الثقافي المبكر . كان أخي شوقي صديقا حميما للأستاذ كامل كيلاني نقيب الأدباء كما كان يلقب في ذلك العهد . وكان كامل كيلاني صاحب المبادرة العظيمة في التأليف للأطفال ، تأليفا موسوعيا متنوعا يجمع بين التراث العربي القديم والحديث والغربي ، الأدبي منه والعلمي والتاريخي والجغرافي . وكان للأستاذ كامل كيلاني مكتب خاص في شارع حسن الأكبر غير بعيد عن بيتنا . وكان أخي شوقي يصحبني معه في ذهابه إلى مكتب كامل كيلاني . وما أسرع ما جعل مني كامل كيلاني معياراً للقدرة على قراءة كتبه وتفهمها وتذوقها . وهكذا أصبحت أوجد في مجالسه التي كانت تضم أبرز الأدباء من مصر ومن سائر البلاد العربية ، وأقوم بقراءة بعض صفحات من كتبه . وأعتقد أنني قرأت كل ما كتبه ونشره كامل كيلاني من كتب في هذه المرحلة . ولم تتوقف قراءتي عند كتبه المخصصة للأطفال ، وإنما امتدت لكتبه الأخرى التي كان يكتبها للشباب ، فضلا عن دراساته العلمية المتخصصة الأخرى عن أبي العلاء وابن الرومي وغيرهما . وأعترف أنني عرفت لأول مرة عن طريق كامل كيلاني شكسبير وبوكاتشو بوجه خاص والعديد من الأدباء والمفكرين العرب والغربيين الآخرين فضلا عن العديد من المنجزات والحقائق العلمية التي كان يكرس لها سلسلة من سلاسله . وبين طائفة الكتب الخاصة التي كانت موجودة في مكتب شارع حسن الأكبر وجدت كتاب تاريخ الفلسفة ترجمة أحمد أمين وزكي نجيب محمود وكانت قراءته تعميقا لتوجهي المبكر نحو دراسة الفلسفة .

ولست أذكر تماما في أي سنة من هذه السنوات علمت أثناء وجودي في مكتب كامل كيلاني أن بيرم التونسي قد استطاع أن يتسلل داخل مصر ، متحديا القرار القديم بإبعاده ونفيه ، وأن عدداً من الأدباء يسعى لحمايته والتدخل لدى السلطات الرسميـــة للسماح له بالبقاء و بممارسة حقوقه المدنية . وأذكر أن كامل كيلاني والشاعر الشعبي محمد حمام وأدباء آخرين من بينهم أخي شوقي راحوا يبذلون جهوداً مختلفة في هذا الشأن . وأذكر أنني حضرت حفلا

أقيم للترحيب بعودة بيرم التونسى الذى كان لا يزال مختفيا ولم يحضر الحفل . ولا أكاد أتذكر إلا بعض رفيف من كلمة كامل كيلانى فى هذا الحفل .

وأذكر أننى فى هذه المرحلة كنت أشعر بوحدة شديدة ، لعلى اخترتها اختيارا ، أو لعلى وجدت نفسى فى إسارها . لقد كان حديثى مع نفسى أكثر من حديثى إلى غيرى . بل لم يكن هناك من أتحدث إليه . فالواقع أن هذه العلاقات الثقافية الكبيرة التى أتاحها لى أخى شوقى ، وهذه الآفاق الثقافية التى أتاحتها لى مكتبته ومكتبة باب الخلق (الكتبخانة) وقراءاتى الخاصة ، قد أخذت تعزلنى عن تلاميذ مدرستى من ناحية ، وعن معايشة أبناء الحى الشعبى الذى كنت أعيش فيه من ناحية أخرى . ولهذا أصبحت علاقتى بالثقافة ، بالمونولوج الداخلى الذاتى ، أكثر من علاقتى بالناس والحياة . وغلب علىّ فى هذه المرحلة طابع الانطواء والعزلة الداخلية رغم وجودى فى زحام من العلاقات الثقافية والاجتماعية الأكبر منى !

● خليط من الثقافة ●

أين وصلت بحديثى هـــذا الذى أخشى أن يكون قد طال أكثر مما ينبغى ؟ أظن أننى ما زلت عند مشارف مرحلة الدراسة الثانوية . لعلى عبرت الى بعض لحظات متقدمة فيها ولكنى فى الحقيقة ما زلت فى هذه المرحلة الأولى من تكوينى . فهل أستطيع القول بأننى تكونت فى هذه المرحلة ؟ ماهى ملامح هذا التكوين ؟ هل هى هذه المعايشة الحميمة لحى الدرب الأحمر الشعبى بأجوائه الدينية التاريخية وسكانه البسطاء الفقراء ؟ هل هو هذا الخليط من الثقافة التراثية الدينية والشعبية والأدبية عامة ، وهذا التفتح المبكر على الثقافة الفلسفية والعلمية ، وهذا التعرف الغامض على الواقع السياسى المضطرب ، وهذه الرغبة فى التمرد من ناحية ، وفى العزلة الباطنية من ناحية أخرى ؟ حقا هناك العديد من العناصر والرؤى والتجارب والأجواء والتوجهات والمشاعر والأفكار والقيم التى لاتزال باقية فى نفسى من هذه السنوات الأولى . ولكنها فيما أعتقد كانت مرحلة تلقى وتساؤل وتمرد وقلق وبحث وتطلع وتعرف غامض على الذات وعلى الآخرين أكثر منها مرحلة إجابات وتكون أو لعلها كانت مرحلة - كما ذكرت فى البداية - من مراحل التكونن التى لم تتوقف حتى الآن . على أن المرحلة التالية لهذه المرحلة الأولى ، أقصد مرحلة الدراسة الثانوية وخاصة فى سنواتها الأخيرة ، كانت نقلة أكثر تحديداً وبلورة فى تكوينى الثقافى . وقد يكون لهذا حديث آخر .



البوسطجي ودماء وطين

● جاء فى «أنت والهلال» بالعدد الصادر أول يناير ١٩٩٣ ، أن « فيلم البوسطجى الذى عرض منذ بضعة عشر عاماً مأخوذ من قصة دماء وطين تأليف يحيى حقى ، وقد رأى منتجو الفيلم تغيير عنوان القصة لأسباب تجارية .. »

فى الحقيقة هذا التعليق غير صحيح ، لأمر جد بسيط : أن «دماء وطين» مجموعة قصصية تحمل فى طياتها قصة : البوسطجى ، وقصة : قصة فى السجن ، وقصة : أبو فودة ، فى طبعة ١٩٤٥ الصادرة عن دار المعارف فى سلسلة إقرأ ، وعندما صدرت الأعمال الكاملة للأستاذ / يحيى حقى عام ١٩٧٩ أضيفت ثلاث قصص جديدة إلى ذات المجموعة – دماء وطين – ومن ثم لم تكن قصة : «البوسطجى» موسومة بدماء وطين ، وإنما هو اسم المجموعة القصصية التى تتضمنها .

وائل وجدى
١١ شارع دجلة بالمهندسين – الجيزة

● تعليق الهلال :

– ردنا لم يقصد استعراض هذا التاريخ المعروف ، ولكنا أردنا أن نبين للقارئ أن سيناريو الفيلم السينمائى «البوسطجى» مأخوذ من «دماء وطين» وليس من قصة تحمل اسم البوسطجى .. وذلك ماهو مكتوب فى مقدمة السيناريو المطبوع لهذا الفيلم وتقول حرفيا : «النص السينمائى مأخوذ عن قصة دماء وطين تأليف يحيى حقى ، مع مجموعة الدراسات التحليلية والنقدية للسيناريو والفيلم» .. ولعلك تراجع السيناريو وماهو مكتوب فيه ، فذلك ما أردنا أن نوضحه بغض النظر عن تواريخ طباعة وصدور مجموعات قصص يحيى حقى ..

النورس الأبيض

أتشرف بأن أرسل هذه الرسالة مرفقاً بها قصيدة صغيرة متواضعة المبنى والمعنى من تأليفى بعنوان «يقول النورسُ الأبيضُ» وهى من شعر الفصحى تأخذ الشكل العمودى الجديد موزونة على تفاعيل بحر الهزج مع الأخذ فى الاعتبار التركيب اللغوى لبعض الجمل التى تبدو

الضرورة الشعرية والحفاظ على الوزن دعت إليها .. أرجو التكرم بنشر هذه القصيدة فى باب «أنت والهلال» - إن كانت صالحة للنشر .. وهذه هى القصيدة :

يقولُ النورسُ الأبيضْ
ألا تدرى أيُّها الشّاعرْ
بأنَّ عَروسَكَ السّمراءْ
تُحبُّ الفَارسَ المِقْدامْ
ومَنْ يَطْوِى لَهَا البيدّاءْ
بلا نَصَبٍ ولا آلامْ
ويَنْزِعَ عَنْ ثَنَايَاهَا
ثِيَابَ العَجْزِ والأحزَانْ
ويَرْسِمُ بَيْنَ كَفَّيهاْ
طَريقَ العشقِ والأحلامْ ؟ !
فَخُضْ فى البَحرِ لا تَنْدَمْ
وأَقْبلْ عنْدهَا تَعْلَمْ
بأنَّ عروسَكَ الحسناءْ
تَنَامُ اللّيلَ لا تَحلمْ
بِغَيْرِ جَوَادِكَ الأزهرْ
وومْضَةِ سيفكَ الأخْضَرْ
وقُبْلَةِ خَدّ لا أكْثَرْ !!
يقولُ النورس الأبيض

الراسل : السيد السمرى
المطرية دقهلية

● تعليق الهلال :

- حتى ولو كانت قصيدتكم هذه غير صالحة للنشر فإننا ننشرها تعاطفا مع مايبدو من تواضعكم بعكس غالبية شعراء الجيل الجديد الذين يفوح الغرور من رسائلهم ..
- أولا: لاتقل : الراسل ، والصواب لغويا هو المرسل لأن الفعل هو : أرسل .. يرسل
- ثانيا : فى السطر الثانى من القصيدة تقول : «ألا تدرى أيها الشاعر» .. وهذا مكسور ، ويستقيم الوزن إذا قلت : أتدرى أيها الشاعر .. وفى السطر الرابع ، ضع كلمة «تهوى» بدلا من «تحب» ليستقيم الوزن .. وفى السطر الخامس احذف همزة البيداء ليستقيم الوزن .. وفى



السطر الرابع عشر ضع كلمة «تغفو» بدل «تنام» ليستقيم الوزن .. والسطر الأخير مختل الوزن بسبب كلمة «خد» التى جعلتها بلا تنوين ليستقيم وزنك ، وحقها التنوين فابحث عن طريقة لإقامة الوزن هنا .. ونشكر لك اجتهادك وحسن ظنك ..

قصة جمع

● شرعت فى قراءة كلمة «المحرر» فى مفتتح عدد ديسمبر ١٩٩٢ من مجلة «الهلال» الغراء ، ولما وصلت إلى قوله (إن قانون الغابة لن يخلع بيديه أنيابه من فكيه ، ولن «يقص أظافره» تطوعا واحتسابا) قلتُ ها قد وقع المحرر فى خطأ ، فقد جمع كلمة «ظفر» على «أظافر» والصواب أن تجمع على «أظفار» ومعرفتى بهذا الخطأ لها قصة يرجع تاريخها إلى أوليات الخمسينات حين كنت طالبا بقسم اللغة العربية بآداب جامعة القاهرة من ١٩٤٩ إلى ١٩٥٢ وكنت فى هذه الفترة أبعث ببعض المقالات إلى «رسالة» المرحوم الزيات ، وكنت أقلد أسلوبه بإحكام حتى أن أستاذى الدكتور عبد الحميد يونس - رحمه الله - وصفنى بعد أن عرضت عليه بعض كتاباتى بأنى «زياتى الأسلوب» ولم يكن هذا هو السبب الذى دعاه إلى نشر ما أبعث به إليه وإنما كان اقتناعه به ، وكان يمنحنى لقب «الأستاذ» على غير معرفة منه لى ، وقد حدث أن خططت هذا الجمع : «الأظافر» فى إحدى رسائلى ، وبعد أسبوعين تقريبا قرأت كلمة مهذبة لأستاذ فاضل من رجال التعليم يشير فيها إلى خطئى ويسأل فى أدب جم عما إذا كان لى رأى يسوغ استخدامى لهذا الجمع أو أنها كبوة الجواد - على حد قوله رحمه الله - ولم أستطع الرد وتقبلتُ النقد مستسلما ، وقبل أن أحرر هذا إليكم للدلالة على هذا الخطأ رجعتُ من باب الحيطة إلى «المعجم الوسيط» فربما كان «المجمع» قد أجاز هذا الجمع فوجدته يفسرّ «الظفر» بأنه «الأظفور» وجمع «الظفر» أظفار وجمع الجمع أظافير فقلت لقد كسبت الجولة الأولى فلأنظر فى تفسير «الأظفور» فوجدته قد فسره بما يفيد أنه «الظفر» وذكر أن جمع «الأظفور» «أظافير» و «أظافر» وهنا أدركتُ أننى قد خسرتُ ما كسبت فى الجولة الأولى وقلت ربما كان المحرر يجمع «الأظفور» لا «الظفر» وقلت فى نفسى لو كنت أعلم جمع هذا «الأظفور» حين وجه إلىّ النقد لرددت وأدعيت أننى أجمع «الأظفور» لا «الظفر» ولبرأت ساحتى من هذا الخطأ ولكن شاء الله أن أعرف ذلك بعد أربعين عاما تقريبا ..

والآن يا سيدى الأديب الكبير هل كنت تقصد جمع «الأظفور» أو «الظفر» حين جمعت على «الأظافر» ؟ إن الأمر إليك فاذكر لنا ما كنت تقصده ..

أحمد قاسم أحمد
قنا - شارع على بن أبى طالب

● **تعليق الهلال :**

- لم نقصد هذا الرأى اللغوى أو ذاك ، وأردنا فقط أن نشير إلى ماكنا نطالعه على ظهر الكراسة المدرسية فى أيامنا من الحكمة القائلة : «اغسل يديك .. وقص أظافرك» .. وكل من جاوز الستين أو حتى الخمسين يعرف هذه الحكمة ، ويذكر : «قص أظافرك» .. ألا ترى السخرية فى قولنا : «ولن يقص أظافره تطوعا واحتسابا» ؟ ! .. فالاستعمار العالمى ليس تلميذا مطيعا «يقص أظافره » و «يغسل يديه قبل الأكل وبعده» .. هذا ما كنا نقصده ، ولم يخطر على بالنا جمع الأظفار والأنياب الذى لا خفاء به .. ولم يكن مستساغا أن نقول للتلميذ : «قص أظْفَارَكَ» .. لأن تمام ذلك أن نقول له : «.. واغسل أَنْيَابَكَ » ! على أن الأظافر جمع صحيح إذا جاء فى موضعه ..

الفارابى والمتنبى

● قرأت فى إحدى المجلات العربية مقالا تخيل كاتبه لقاء بين الشاعر المتنبى والفيلسوف الفارابى فى بلاط الأمير سيف الدولة بحلب فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، فهل التقى هذان العظيمان فعلا أم أن المقال كما نظن مجرد خيال ؟ !

عبد المحسن شرف الدين عبده
الإسكندرية

● **تعليق الهلال :**

نظن أنه مجرد خيال ، فإن أبا نصر الفارابى عرف سيف الدولة قبل أن يعرفه المتنبى بسنوات، وتوفى الفارابى فى دمشق سنة ٣٣٩ هـ وكان قد غادر حلب منذ مدة طويلة نسبياً ، بينما بدأت صلة المتنبى بسيف الدولة سنة ٣٣٧ هـ وانتهت بعد تسع سنوات ، أى أن لقاءه بالفارابى مستحيل لسببين ، أولهما أن الفارابى لم يعش حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، وحسبك بالموت حائلا دون اللقاء !



سلامة موسى .. وأنور الجندى

ذكر الأستاذ أنور الجندى فى عدد فبراير الحالى من مجلة «الهلال» بالصفحة ٦٢ أن كتاب «اليوم والغد» لوالدى «سلامة موسى» «يحوى أسوأ عبارات المهانة للعروبة والإسلام » . وأن «التابعين» لسلامة قد حرصوا على حجبه وعدم إعادة طبعه .

وليس هذا صحيحاً . فالتابعون لسلامة لم يحجبوا ، ولم يمنعوا إعادة طبع كتاب «اليوم والغد» . وطبعة الكتاب الأخيرة التى صدرت بالقاهرة منذ حوالى عامين ، قد وزعتها حين نشرها ، من الإسكندرية وحتى أسوان إدارة توزيع مؤسسة الاهرام . ولاتزال توزعها إلى الآن كبرى مكتبات القاهرة والعالم العربى . وعندما تنفد قريباً من الأسواق – إن شاء الله – فسوف يليها طبعة وطبعات أخرى من القاهرة أو غيرها من العواصم العربية .

وأحب أن أطمئن الأستاذ الجندى، أن «التابعين» لسلامة ، يشرفهم أن يطبعوا وأن ينشروا وأن يوزعوا جميع مؤلفات سلامة موسى . لا من أجل سلامة موسى فقط ، وإنما من أجل قشع غيبوبة الجهل ، والتعصب ، والمخدر ، التى لاتزال تعشش للأسف فى عقول كثيرين من أبناء الدول العربية . الذين أخذوا بقشور الحضارة المعاصرة ، كالسيارة والطائرة والتليفزيون والثلاجة الكهربائية . من دون جوهر ولباب تلك الحضارة : وهى أفكارها . فهم لايزالون يعيشون فى قهر وفقر ، ومذلة . ويغلقون نوافذهم عن ضوء ، وغنى وبهجة ، هذه الحضارة . التى هى فى أيامنا حضارة أوروبا . كما كانت قديماً حضارة مصر ، وبابل ، واليونان ، وايطاليا ، والعرب .

وقد أشار الأستاذ الجندى فى مقاله إلى مقال سابق للدكتور محمد عمارة «تيارات التقليد والمحاكاة» نشر – كما قال – فى صحف الإمارات : « أن ماكان يحرك سلامة موسى وبعض المفكرين الشوام فى دعواهم ، هو الحقد على الإسلام . وأن الرواد الأوائل : يعقوب صروف ، وفارس نمر ، وشاهين مكاريوس ، وشبلى شميل ، ونقولا حداد ، وجرجي زيدان ، وفرح أنطون وبشارة تقلا ، وسليم تقلا ، وأخيراً سلامة موسى ، هو الدعوة للعلمانية . أو لتطوير الفكر العربى واللغة العربية ، للأخذ بالعلوم ، وقد فعلوا ذلك تعصبا منهم ضد الإسلام » .

وأحب أن أقول للأستاذ الجندى ، ولقراء «الهلال» فى تلخيص شديد :

١ – إن الدكتور محمد عمارة كان قد نشر فى جريدة «الحياة» اللندنية مقالاً باسم «بين

على عبد الرازق والخضر حسين» فى ٢٤ فبراير ١٩٩١ . ثم أعاد نشر هذا المقال فى جريدة «الاتحاد» بأبى ظبى فى ٢١ يونيه ١٩٩١ . وقد لفت بعض أصدقاء سلامة موسى (وهم كثيرون والحمد لله) نظرى فى الحالتين . فرددت على المقال الأول فى «الحياة» فى ١٤ مارس ١٩٩١ . وعلى الثانى فى «الاتحاد» فى ١٦ أغسطس ١٩٩١ .

٢ - وتلخص دى فى أن جميع الأسماء التى أوردها الدكتور عمارة هى لمسيحيين . ومسيحيين فقط . مع أن أكثر هؤلاء المسيحيين كانوا يتجنبون بحرص شديد - وكما أشرت فى كتابى «سلامة موسى .. أبى» الذى صدر أخيراً - التعرض للإسلام أو العروبة أو للعربية . وأن الذى يفكر بهذه الطريقة التى فكر بها الدكتور عمارة والاستاذ الجندى رجل خطر . بل خطير

٣ - ومع ذلك ، فإن الدعوة إلى «المصرية» والتى تؤدى بطبيعتها إلى «العلمانية» كانت دعوة أحمد لطفى السيد . وأن الدعوة لإصلاح الكتابة العربية ، واقتراح الكتابة باللاتينية ، كانت دعوة عبد العزيز فهمى . وهكذا .

وإن سلامة موسى بالذات لم يكتب قط باللاتينية ، أو العامية ، أو ينبذ الإعراب وأصول الكتابة العربية .

د . رءوف سلامة موسى

أقصوصة : «الخروج من التابوت»

● اندفع سيل العربات مارا من الشريان الكبير الذى يغذى ملتقى الجهات الأربع للعاصمة عند رمسيس بعدما فتحت الإشارة .. وراح هذا منطلقا بين السيارات لايعنيه أن تدهسه إحداها تحت عجلاتها وقد راح يخلع ثيابه قطعة قطعة ثم يعاود ارتداءها ويصرخ : لابد أن تفعلوا شيئا يا سادة يا كرام .

يعترض طريق سيارة . تهدئ السيارة تارة من أجل الزحام وتارة لتفاديه .. يطرق أبوابها بعنف : افعل شيئا يا سيد يا محترم !

تسير السيارة فى طريقها ، لا تأبه به يمصمص القائد شفتيه لاحول ولاقوة إلا بالله .. يجذب شعره من جانبيه بعنف ويصرخ فى الواقفين بالمحطة انتظارا للعربات والباصات وقد بعث الزحام والانتظار فى نفوسهم مللا وضيقا ونفورا لايحتاج لمزيد ، يصرخ بأعلى صوته : لأنه أستاذ لأنه (بيه) ، لابس قميص وكرافته وبدلة (ويشير إلى صدره وربطة عنقه ويمثل «البك» فى سخرية ومرارة تنقط من ارتعاشاته على الطريق .

يجذب الجمهور اليه من فرط حركاته البهلوانية وصوته الجهير الذى يعلو فوق صوت العربات ، وتمزيقه لملابسه .



يرتعب طفل من هذه البانوراما يحتمى بيد أمه فتخبئ رأسه عندها ، تضحك فتاة وتقهقه بصوت عال .. يتجه نحوها بألفاظ نابية منافية للآداب ويستطرد : بتضحكى يا .. أنا لست مجنونا يا بنت الـ .. الله يرحمك يا قاسم أمين ظلمت نفسك وظلمت نسوان الـ ..... معاك ....

تعالى يا قاسم «طوف وشوف» الفستان القصير والشعر العريان والصبغة والموضة ... تعالى يا قاسم شوف الموضة ... نسوان آخر زمن .... علامات الساعة ظهرت .... أى والله بانت) .

يبصق على الارض أمامها ويمر .. ترفع الفتاة رأسها لأعلى وتستدير للجهة الأخرى وكأن شيئا لم يكن .. يعاود ارتداء قميصه بغضب شديد ويتركه مفتوحا يتجه نحو كهل جاوز السبعين يتكئ على عصا : لماذا لم تفعل شيئا ؟

لأنه أستاذ و (بيه) بقميص جديد وكرافته وعربيه . يدعو له : ربنا يهديك ، يرد عليه : ربنا على كل قوى يا شيخ .

يمر جيئةً وذهابا يصرخ فى مجموعة محتشدة خلف المحطة تشاهد واجهات المحلات التى عرضت البضائع المخفضة : هل تتفرجون أم تشترون ؟ !

– اللى معاه فلوس يدفع .. اللى معاه فلوس يشيل ...

– معاكم فلوس يا بهوات ، ولا عشان هو أستاذ وبيه ولابس كرافته وبدلة جديدة وعربية .. يا أولاد الـ ... اه يا بلد ... يمضى ، يرفع يده لأعلى مصفقا بإيقاعات لاغنيات مختلفة ومتداخلة معا وبسرعة «يلضم» عبارات الاغنيات معا .

واللى بيشرب من نيلك لابد يرجع لك تانى .....

– أصون كرامتى ....

– عشر سنين السنه دى ...

– ٦×٥ بثلاثين يوم ... ثم يواصل ثلاثين يوم ... ثلاثين يوم ... شادية بتقول ٣٠ يوم وساعات واحد وثلاثين والله .. واحد وثلاثين يا ناس ....

– الله أكبر الله أكبر فوق كيد المعتدى

يخرج من سترته «فلاية» يجرد شعره على الأسفلت وسط الطريق ومرور السيارات دون أن يبالى وكأنه يرى شيئا أمامه على الأرض يجلس على ركبتيه يقتل بأظافر إبهاميه حشرات

جرت على الأرض أو خيل اليه ذلك .... يزعق : امسك دى ... اقتل ده .... امسك .. اقتل .. يقفز على (الأسفلت) قفزات تلو قفزات يتابع حشرات الوهم أو حشرات حقيقية لاندرى ... ويغني وهو يقتل ويقفز مرددا الاغنيات المتداخلة التى كان يرددها قبلا ..

يغني ويعلق ويبتلعه زحام السيارات

ويردد الهواء صدى آخر كلماته قبل أن يغيب عن الأعين التى كانت تترصده : ٥ × ٦ بثلاثين يوم .. وواحد وثلاثين ساعات يا شادية !

أميمة منير جادو

مع أصدقائنا

● شوقى محمد السيد – طالب بكلية اللغة العربية – الزقازيق :

– قصيدتكم التى عنوانها «رعشة القاع» عن الزلزال تفتقر مع الأسف افتقارا تاما إلى الأوزان ، وتحفل بالأغلاط النحوية واللغوية ، ناهيك بتواضع مستواها الفكرى ! ..

● ابراهيم أحمد غيث – شربين :

– نرجو أن نتمكن فعلا من إصدار عدد ممتاز فى سبتمبر من كل عام ، بناء على رغبتكم ، ورغبات القراء ، وشكرا لكم ونرجو أن تستعمل فى رسائلك كلمة «المرسل» بدلا من «الراسل» لأن هذه الكلمة الأخيرة خطأ ..

● سوسن محمد خميس – شبراخيت :

– قصائدك الآن تفتقر إلى الأوزان ولكن ربما استطعت بالمثابرة أن تعرفى الأوزان وتستوعبيها فضلا عن اللغة نحوا وصرفا ..

● ونشكر لأصدقائنا السادة : رفعت عبد الوهاب المرصفى . عصام الدين أحمد أمين ، إبراهيم عبد المعطى متولى . أدهم عبد السلام محمد النظامى . محمود عباس . عصام فريد البرقوقى . درهم جبارى . حسن رجب محمد ابراهيم . أحمد محمد أحمد سلامة . اسحاق روحى الفرشوطى . فيصل أحمد حجاج . علاء الدين عايش . طارق رضوان . ابراهيم عبد اللطيف منصور . السيد غريب السيد المكاوى . محمد السيد أحمد الطبلاوى . مصطفى محمود مصطفى . أبو عبيدة عبد الجليل الحجازى . حسن حافظ مندور . صلاح عبد الستار الشهاوى . رجب عبد الحكيم بيومى الخولى . فارس عبد الشافى عطية. ناصر محمد خليل عبد العال . درويش الزفتاوى . طه فخرى طه . محمود عبد العزيز عبد المجيد . زغلول توفيق محمد محمد نعمان على . أحمد عوض طايل .



الكلمة الأخيرة

دفاع عن التراث

بقلم: د. يوسف خليف

على امتداد رحلة الشعر العربى منذ أن بدأت خطواتها الأولى قبل خمسة عشر قرنا من الزمان حتى اليوم، شهد هذا الشعر حركات من التجديد واكبت هذه الرحلة على طول الطريق الذى تحركت فوقه منذ خروجها من أعماق الجزيرة العربية، حتى انتشارها فى آفاق الأرض، ووصولها إلى عصرنا الذى نعيش فيه. ومع كل حركة من حركات التجديد التى شهدها هذا الشعر كان تراثنا الذى احتفظت به الحياة حتى اليوم رصيدا ثريا تستمد منه هذه الحركات مقوما من مقوماتها التى يقوم عليها تجديدها. وهكذا عاش هذا التراث فى أعماقنا عنصرا فعّالا مؤثراً فى حياتنا الأدبية، وأصبح هو الأساس الثابت الذى لاتستطيع هذه الحياة أن تقوم بدونه، وذلك لأن هناك حقيقتين فى هذا المجال يجب أن نضعهما دائما نُصْبَ أعيننا:

الأولى أننا أمة غنية بتراثها الشعرى، بل لعلنا أغنى أمم الأرض تراثا شعريا، وأكثرها امتدادا بهذا التراث على مدار التاريخ، فرصيدنا من هذا التراث رصيد ثرىّ خلفته لنا أجيال الشعراء الذين تعاقبوا على قمم الفن الشامخة على امتداد هذه القرون المتطاولة، وهو امتداد لم يعرفه تاريخ الشعر فى أى أمة من الأمم القديمة، وذلك لأن القرآن، كتاب العربية الخالد، حفظ على لغة هذا الشعر حياتها حتى اليوم، وحفظ معها هذا التراث الفنى فظل حيا بيننا حتى اليوم.

والحقيقة الأخرى التى يجب ألا نجادل فيها هى أن رصيدنا من هذا التراث لا يزال صالحا للحياة، فلم يفلح الزمن فى أن يسدل عليه أستار النسيان، أو أن يضع عليه كلمة «النهاية»، وذلك لأنه رصيد يحمل فى أعماقه عناصر البقاء، وينطوى على سر من أسرار الخلود التى تستعصى على الفناء، ولولا ذلك لما احتفظت به الحياة حتى اليوم. وليس من الحق فى شئ ما يردده من يعانون من عقدة «الأجنبية» من أن هذا التراث قد انقطع ما بيننا وبينه، وأنه لم يعد إلا أثرا من آثارنا التاريخية. فهذا كله وهم يخدعون به أنفسهم، وجُرْم يرتكبونه فى حق ماضيهم، فهذا التراث الأدبى قطعة غالية من تراثنا الحضارى، ومرآة لانزال نرى على صفحتها صورة مشرقة من تاريخنا الإنسانى.

إن من يقطع صلته بتراثه يكن - كما قال العقاد بحق - «كمن فقد ذاكرته»، والفن الذى يحقق الموازنة البارعة الذكية بين الأصالة والحداثة، أو بين التراث والمعاصرة، هو الفن الذى يحمل فى أعماقه سرا من أسرار الخلود والبقاء، يستعصى معه على الفناء.


EGYPTAIR
مصر للطيران

الهلال

ابريل ١٩٩٣ • الثمن ١٠٠ قرش

القاهرة
عاصمة الدنيا

- مستقبل الفكر القومى
- الجنس والبروسترويكا

لوحة العشاء الاخير للفنان جاكوبوكاروتشي ص ٥



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة – ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١٠ – العتبة – الرقم البريدى : ١١٥١١ – تلغرافيا – المصبور – القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ – تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : 3625469

مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبو طالب المستشار الفنى

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفنى

عيسى دياب سكرتير التحرير التنفيذى

ثمن النسخة سوريا ٥٠ ليرة ، لبنان ٢٠٠٠ ليرة ، الاردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٣٠ ريالا ، تونس ١.٥ دينار ، المغرب ١٥ درهما ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، إيطاليا ٣٠٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الامارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار ، السودان ٤٥ ج . س .

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها فى ج. م. ع. تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية – البلاد العربية ١٥ دولارا – أمريكا وأوربا وآسيا وإفريقيا ٢٥ دولارا – باقى دول العالم ٣٥ دولارا .

والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال – ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد .

فى هذا العدد

فكر وثقافة

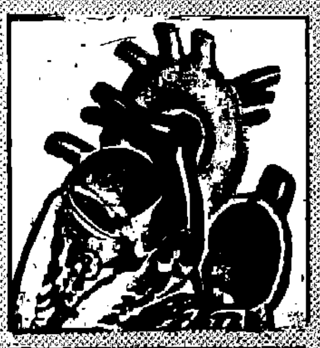
دائرة حوار

قصة وشعر

رسائل صحفية

فنون







«عاصمة الدنيا»

ما أجمل أن يكون الحديث عن القاهرة ، تلك المدينة الساحرة التى عاشت مجدا غابرا ، حملته آلاف الصفحات من كتب التاريخ والأدب والفن ، لتثبت أن تاريخ مصر والقاهرة من أكثر تواريخ البشرية تدوينا وتسجيلا ، وتؤكد على أنه وحدة متكاملة ورواية متصلة ، ذات فصول ، بطلها الشعب المصرى ، وتاريخها المدون ، يؤكد على مذاقها الخاص ، وخصوصية تاريخها .

لقد أصبحت القاهرة عاصمة الدنيا ، عندما أصبحت عاصمة العرب والإسلام خلال القرن الثالث عشر ، عندما خرجت منها الجيوش الجرارة تدافع عن العرب والإسلام ، وتحقق الانتصار وتهزم الغزاة الصليبيين .

ازدهرت القاهرة فى الماضى ، وحققت شهرة عريضة فى الحاضر ولكن نحتاج إلى وقفة طويلة إزاء ما يحدث للقاهرة المعزية المتمثلة فى شارع المعز لدين الله الفاطمى ، وتلك التعديات السافرة على أغنى الآثار الإسلامية فى العالم .. فهل يعود للقاهرة وجهها المشرق ، ومكانتها فى التاريخ .

« إقرأ مقال » يوم كانت القاهرة عاصمة الدنيا ص٧٤»

من المتاحف العالمية

لوحة « العشاء الأخير للسيد المسيح » للفنان الإيطـالى جاكوبو كاروتشى - المنشورة بظهر الغلاف الأول .

عزيزى القارىء

عيد الهلال فى تونس الخضراء

طوال مائة سنة كانت مجلة «الهلال» رسالة دائمة بين الأقطار العربية ، بل والمهاجر العربية أيضا وراء البحار .. وكانت تتكلم بلسان جميع العرب على اختلاف منازعهم ومنازلهم مشرقا ومغربا ، وهم فى إسار الاستعمار الاستيطانى الفرنسى والإيطالى فى شمالى إفريقية ، وفى قبضة الاستعمار البريطانى فى مصر ، وتحت نير الصهيونية فى فلسطين ! .. ثم ـ بعد ذلك ـ فى عصر التحرر الوطنى عقب الحرب العالمية الثانية ..وأخيرا فى الزمن الأخير .. زمن النظام العالمى الجديد ..

وقد تجلت هذه المعانى التى تمثلت فى كفاح «الهلال» وظهرت فى أحسن صورة خلال العيد المئوى للهلال فى اكتوبر الماضى ، فاشتركت فيه البلدان العربية ممثلة بمفكريها وأدبائها وصحفييها وشعرائها .. ولم يكد العيد يتم تمامه حتى كانت أصداؤه القوية قد تجاوبت حتى ملأت الخافقين بين المحيط والخليج ..

ولفتت رسالة «التنوير» التى كانت محور احتفالات العيد المئوى للهلال ، أسماع وأبصار العالمين العربى والإسلامى ، فكان من أثر ذلك أن قررت وزارة الثقافة فى تونس الاحتفال بهذا العيد ، تكريما لدلالته العميقة المتعلقة برسالة التنوير والتحديث ، تلك الرسالة ذات الأعباء التى حملها «الهلال» على امتداد مائة سنة .. وما زال ..

عزيزى القارئ من أجل تكريم تلك الرسالة تقيم حكومة تونس الشقيقة خلال هذا الشهر ندوة فى العاصمة «تونس» عن «الهلال» وكفاحه فى مائة عام ، ويحضر هذه الندوة الحافلة مثقفون من تونس ومصر والبلاد العربية.

وتقيم الحكومة التونسية معرضا لكل ما صدر من مطبوعات فى تلك المناسبة ، كموسوعة «أهم مائة كتاب فى مائة عام» التى أصدرتها دار الهلال عن كتب حركة التنوير خلال المائة سنة الماضية ، قوبلت من مثقفى مصر والبلاد العربية بأجمل حفاوة ، وأكرم اهتمام ..

إن الشقيقة تونس فى احتفالها بعيد «الهلال» ونجاح رسالته فى التنوير ، إنما تحتفل فى الحقيقة بالجهود المثابرة المتواصلة الصادقة التى بذلتها شقيقتها مصر خلال مائة سنة لكى ترفع نير القرون الوسطى وظلامها عن كاهل الأمة العربية كلها ..

عزيزى القارئ ها نحن مرة أخرى فى الربيع ! .. إن الربيع يذهب ويعود ، ولا يمكن لأحد أن يمنع الربيع من العودة دائما ..

ولكن الربيع الذى يعود بالأزهار الجميلة ، يعود أيضا بالدماء المطلولة .. وقد كان الرومان يعتبرونه شهر «الزهرة» .. أما الشرقيون ـ ونحن العرب منهم ـ فيسمونه «نيسان» .. أى شهر الذبيحة ! ..

ومن بين الأزهار والذبائح يطل الآن مستقبل الأمة العربية بوجهه ، غامض الملامح ، مغمض الجفون ، كأنه يقول لأصحابه العرب : إننى أنا مستقبلكم لا أدرى كيف تصنعون ملامحى ، أو كيف يصنعها لى ولكم أصدقاؤكم وأعداؤكم ! ..

والمستقبل العربى لا يسعه اليوم إلا أن يغمض عينيه ، لأنه لا يدرى على أى شئ يفتحهما ـ على كثرة الأشياء التى يملكها العرب ـ ولا يعلم على أى أحد يفتحهما ـ على كثرة الآحاد والجماعات فى دنيا العرب ـ كأنه على مذهب الشاعر القديم الذى قال :

إنى لأفتح عينى حين أفتحها

على كثير ، ولكن لا أرى أحدا

عزيزى القارئ مهما يكن من شئ ، فأمة العرب إلى خير ، ولكن الرياح لا تأتى بما تشتهى سفنها المبحرة فى بحار متلاطمة الأمواج ! ..

إلا أننا واثقون بأن الجهود التى بذلتها أمتنا خلال اكثر من مائة سنة لكى ترى النور ، لن تذهب سدى فالله يرى عملنا ، ورسوله والمؤمنون ! ..

المحـــرر

القاهرة

شكسبير ضد العنصرية !

ضمن أنشطة قسم اللغة الانجليزية وآدابها بكلية الآداب جامعة القاهرة ، كان آخر هذه اللقاءات ، لقاء مع شخصية مصرية هامة ، هو الدكتور اسماعيل سراج الدين ، الذى يعمل نائبا لمدير البنك الدولى . وكان الغريب فى الموضوع أن يحاضر الدكتور سراج الدين فى الأدب الانجليزى ، وفى شكسبير على وجه التحديد .

كان مثيرا لطلبة قسم اللغة الانجليزية وأساتذته أن يكون هناك رجل اقتصادى مرموق ، يجمع بين الاقتصاد والأدب ، ولهذا غصت القاعة رقم ١٣ بقسم الأدب الانجليزى بالطلبة . والأساتذة عن آخرها ، وتحدث د . سراج الدين عن شكسبير ، وتناول فى المحاضرة حداثة شكسبير بمعنى أنه حتى فى ذلك الزمن المتقدم ، كان يثير قضايا تشغل العالم الآن .

شكسبير

ومن خلال تناوله لمسرحيتين على وجه التحديد ، هما « تاجر البندقية » و « عطيل » أثبت أن شكسبير كان ضد العنصرية ، سواء بالنسبة لقضية اليهود ومعاناتهم فى أوروبا على امتداد تاريخهم أو بالنسبة للتفريق العنصرى بين البيض والملونين .

ومن خلال تناوله لهذا الموضوع ، استشهد بمشاهد من المسرحيتين ، وكان فى قراءته للمشاهد مؤديا مسرحيا عميق الإحساس بالكلمة وبالشعر وبالموقف .

وعقب المحاضرة بدأ الحوار بينه وبين الطلاب ، ودهش لمستوى تمثل الطلاب لشكسبير واستجابتهم لمحاضرته .

وقد اختلف البعض منهم معه فى تفسيره لشخصية اليهودى ، وشخصية « بورشيا » فى تاجر البندقية ، ولكنه استقبل اختلافهم معه بصدر رحب ، وبابتسامة رائقة ، وظل الحوار يدور بين الجانبين لمدة ساعة كاملة ، بالإضافة لوقت المحاضرة .

بيروت

الشمس ساخنة .. فى بيروت

الأديبة المصرية جوزيت عالية هى حديث الناس فى فرنسا فى الفترة الأخيرة بعد أن نشرت روايتها الأولى «عندما كانت الشمس ساخنة » .. والتى تتحدث عن رحلة فتاة مسيحية بين الماضى ، والحاضر. فهى لولا فانكونير، من أصول يونانية، لكن الكثير من الدماء زحفت فى عروقها فهناك فى جذورها دماء سورية وارمينية . ولبنانية وقد عاشت فى مصر حتى عام ١٩٥٢. فى تلك السنة تزوجت لولا من الطبيب انطوان بولار، الذى سافر إلى لبنان واصطحب زوجته معه . وهناك وجدت نفسها فى عالم ساخن ملىء بأحداث العنف ، والصراعات الدينية .



جوزيت عالية

وتعتبر الرواية بمثابة حنين إلى سنوات الحب الأولى. فهناك قصة حب تربطها بالشاب الفرنسى فيليب الذى يعمل ملحقا فى السفارة الفرنسية بالقاهرة. وفى بيروت تعرفت على المناضل الفلسطينى شفيق. وقد وجدت لولا نفسها بين عالمين متضاربين . عالم الحب والواجب. وهى تجد نفسها مضطرة الى الرحيل لفرنسا عقب اندلاع الحرب الأهلية فى بيروت عام ١٩٧٥. فتسافر مع ابنتها منى. وتترك ابنها نيقولا الذى لا يود مغادرة بلاده .

وتصف جوزيت عالية حياة بطلتها لولا فى مصر باسلوب شاعرى رقيق. فقد كانت أسرتها تقيم على ضفاف النيل فى مبنى فخم. وكان الرجال الذين يضعون الطرابيش فوق رءوسهم يأتون الى حفلات الاستقبال المسائية التى تقيمها الأسرة. انها حياة وردية كان عليها أن تنتهى عندما بلغت لولا سن السادسة عشرة ، من الواضح أن هذه الرواية الأولى التى كتبتها جوزيت عالية هى بمثابة سيرة ذاتية عن حياتها الخاصة ، مزجت فيها شعورها العام. فلا شك أن أسرتها قد انتقلت من بلد لآخر تبعا للاحداث السياسية التى شهدتها مصر ولبنان . والرواية ، مزدحمة بالعديد من الشخصيات التى مرت فى حياة البطلة لولا.



فاتسلاف هافل مع بول نيومان الممثل الامريكى

الكثير منها عربى ، وبعضها أجنبى. ولكن كل أحداثها تدور فوق ارض عربية. حيث تنتهى الرواية والبطلة تتأهب للسفر الى باريس والجدير بالذكر أن الكاتبة تعمل محللة سياسية فى مجلة « لونوفيل اوبسرفاتور » .



الكتابة .. وسلطة رئيس الجمهورية

فى يناير الماضى، تولى فاتسلاف هافل منصبه كأول رئيس لجمهورية التشيك، بعد أن انفصلت دولة تشيكوسلوفاكيا . ولا تجىء غرابة الحدث فى أن كل شىء، تم بهدوء ، واتفاق تام بين الطرفين المنفصلين التشيك ، والسلوفاك . ولأن أمام هافل ستة أعوام كاملة من رئاسة الجمهورية وهو بذلك يعد أول كاتب يبقى فى السلطة لأكثر من ثمانية أعوام ، حيث كان رئيسا لتشيكوسلوفاكيا منذ عام ١٩٨٩.

وقد أجرت مجلة « الاكسبريس » حديثا طويلا مع هافل الرئيس الحالى ، والكاتب السابق، وتطرق الحديث الى موضوعات عديدة حول السياسة، ومستقبل البلاد. ولكن يهمنا هنا أن نعرف رأيه فى دور الكاتب لتغيير مجتمعه عندما يتولى أعلى سلطة فى البلاد .

كان السؤال هو : ماهو دور الكاتب ، وهل عليه أن يكون واعيا لشعبه مثلما قال الشاعر التشيكى ياروسلاف سيفيرت .

رد هافل أن هذه العبارة قد قالها سيفيرت فى عام ١٩٥٦ . وسيفيرت كما هو معروف قد حصل على جائزة نوبل عام ١٩٨٤ . ومنذ أن قالها راحت العبارة تثبت نفسها . وتحققت . فانا أرى الحقيقة شاملة فى أن العدل يجب أن يسود مجتمعنا فنحن نعيش فى قلب أوروبا الوسطى . فى مفترق طرق كافة الثقافات وكل التهديدات التى تسعى لفرض سيطرة ثقافات أخرى علينا. ولذا فإن كتابنا هم الذين يحملون هويتنا ويقدمونها للعالم .

ولعل هذا المفهوم دفع هافل أن يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية الجديدة: كان يمكنني أن أبقى فى بيتنا وأعيش حياة فكرية مستقلة.. والوضع أكثر راحة الآن فى بيتنا. وأنا أحب أن أهتم بأمورى الشخصية. لكن وضعى ككاتب يدفعنى أن أساهم فى المصلحة العامة . فأنا سجين لشعورى بالمسئولية .

ويقول الرئيس الكاتب إنه لم يكن له أى طموحات سياسية. ولكن المبادىء العليا التى ينادى بها الكاتب تجعله محملا بمسئولية وأن يبقى فى منصبه .

من المعروف أن فاتسلاف هافل بدأ حياته كاتبا مسرحيا، وكان من أبرز شباب أحداث براغ فى عام ١٩٦٨ . وقد ترجمت له مسرحية «المذكرة » قبل عامين فى روايات الهلال .



طوكيو

نهاية أزمنة الأحلام والواقع

حصل الكاتب اليابانى هاروقى موراقامى على جائزة «تانيزاكى» الأدبية عن روايته الأخيرة «نهاية الأزمنة ..» وتجىء أهمية هذا الحدث فى





هاروقى موراقامى
وروايته الاخيرة

أن موراقامى هو أحد المع وجوه الأدب اليابانى فى السنوات الأخيرة ، بعد رحيل جيل العمالقة ومنهم اينوه. وتانيزاكى الذى حمل اسمه الجائزة التى حصل عليها موراقامى .

وتدور الرواية على

لسان رجل يعمل فى مجال الاعلام. وينتمى الى أسرة غنية. يجد نفسه يسعى ذات يوم للالتقاء بعالم يسكن فى دهليز إحدى العمارات . والمهمة التى يقوم بها صعبة . فمدينة طوكيو محكومة، فى هذه الرواية، لأسياد الظلام الذين يسيطرون على الشارع. ولا يجد الراوية امامه سوى أن يضع فوق رأسه جمجمة أحد الحيوانات المجهولة . ومنذ ذلك الحين تتغير حياته تماما . فاللصوص يهاجمون شقته . والغرباء ينهشون فيه. ويحاول أن يتخلى عن مهمته . لكن ابنة العالم تطلب منه أن يقف إلى جانب ابيها. وهى فتاة صغيرة السن بدينة الجسم . وتتمتع بسحر ظاهر. فيجد نفسه فى مغامرة بلا عودة .

وهكذا يجد نفسه أسيراً للزمن . ولمدينة تسكنها الحيوانات الخرافية ذوات الجلود الذهبية . فيصبح كائنا هشا. عليه أن يعيش بلا ظل. ينتقل بين احلامه وسط جماجم الحيوانات الميتة .

و.. « نهاية الأزمنة » كما هو باد، تنتمى الى نوع الفنتازيا. وهو أدب غير منتشر كثيرا فى اليابان. حيث يجد القارىء نفسه يسبح مع الراوية فى أحلام لا يستطيع أن يمسك بها. لكنه يتعذب فيها ويتمتع مثلما يحدث فى الواقع. فلا فرق بين مشاعر المرء فى منامه، عن أحاسيسه فوق أرض الحقيقة . فكلاهما يتواصل معا .

هاروقى موارفاى ولد فى مدينة كوبى اليابانية عام ١٩٤٩ وقد درس الأدب اليابانى فى جامعة ساوة ثم فتح محلاً لموسيقى الجاز فيما بين عامى ١٩٧٤ و ١٩٨١ . قبل أن يتجه بشكل نهائى الى الأدب. وقد نشر أكثر من رواية تدخل فى إطار الفنتازيا والخيال العلمى . ومنها « عالم الازرار المتوحشة » .

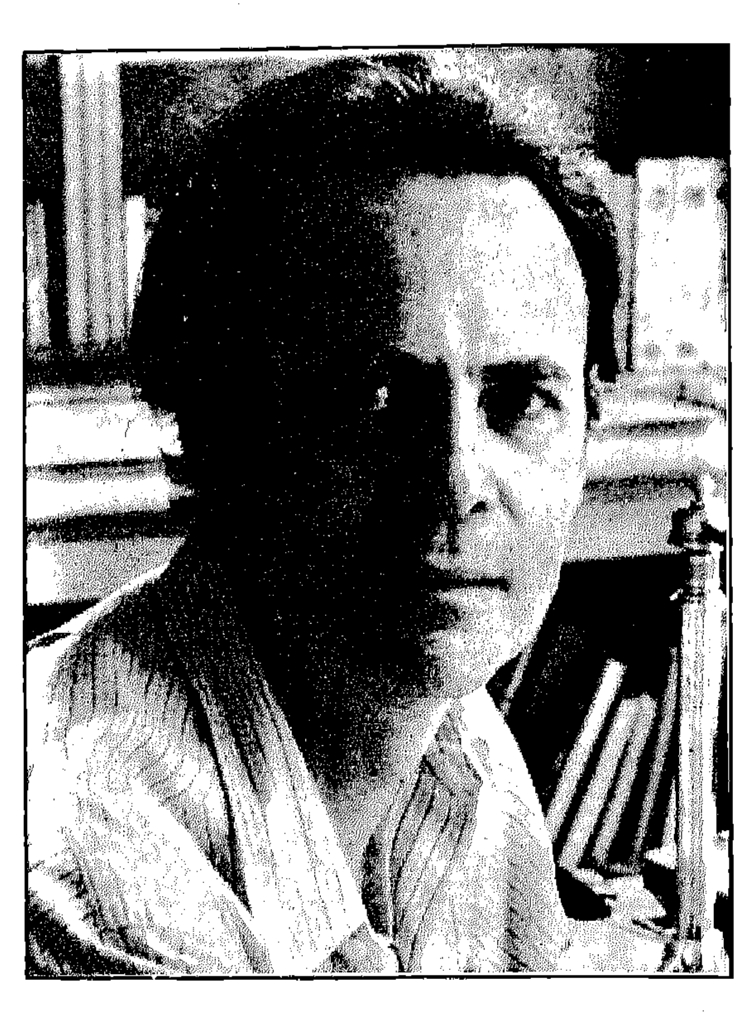
باريس

والسيرك « يمر » فى باريس

هل يمكن للكاتب أن يدخل دائرة الظل بعد أن يكرر عالمه.. ويكتشف القراء أنه أسير منطقة واحدة، هى منطقة ذكرياته عن طفولته وصباه، وسنوات الشباب الأولى..؟

قبل سنوات قليلة كان الكاتب الفرنسى باتريك موديانو حديث كافة

الأوساط الأدبية برواياته التى جاءت تباعا لتتحدث عن أشخاص مجوفين، أسرى للذاكرة المفقودة، ولا يعرفــون حتى أسمائهم، فهى أشياء لاتهمهم كثيرا. ووصلت قمة عطــاء موديانو فى روايته «شــارع الحوانيت المعتمة » التى حصل بها على جائزة جونكور عام ١٩٧٩ . وقبل عامين نشر رواية تحمل عنوان «مستودع الذكريات» بدا فيهــا شغــفه بــهذا المستودع الذى يفتحه دائما عندما يكتب رواية جــديدة .



باتريك موديانو

اليـوم فتـح الكـاتب صفحة جديدة فى نفس المســتودع وهــو يقـدم روايته الأخيرة «السيرك يمر» وإذا كانت بعض أعمال الكاتب السابقة تدور فى أعقاب الحرب العالمية . فإن الــرواية الجديدة تدور فى بداية الستينات أى والكــاتب - المولود عام ١٩٤٥ - فى الخامســـة عشــرة من العــمر .

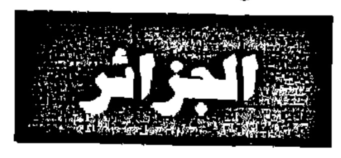
وتدور الرواية حول أب يهرب إلى مدينة جينيف ويطارده بعض رجـــال الشرطة. أما زوجته فهى ممثلة قديمة، اختفت فى ظروف غريبة هى الأخرى والراوية فى الثامنة عشرة من العمر. ويدعى ايضا باتريك. ويحاول أن يبحث عن سر ابيه الهارب . وأمـــه التى اختفت . وهو يسكن فى شقة صغيرة مع شريك لأبيه يأتى من وقت لآخر إلى الشقة بغانيه . كما أنه

مشغول بتدمير كافة الوثائق التى تدينه، هو وشريكه الهارب.

ويحس باتريك أن وجوده فى باريس يزيد من حدة احساسه بالضياع . فيقرر السفر إلى روما ولكنه قبل الرحيل يتعرف على امرأة مليئة بالعقد النفسية، وهاربة من زوجها الذى يعمل موظفا فى سيرك . تدفعه المرأة إلى البقاء فى باريس ، وإلى ممارسة بعض الأعمال المشبوهه مثلما كان يفعل أبوه .

وقد استدعى موديانو روايته من أغنية مشهوره تقول كلماتها لا داع للتفكير فالتيار يجرى .

الجدير بالذكر أن هناك روايتين لموديانو قد تمت ترجمتهما إلى اللغة العربية «شارع الحوانيت المعتمة» و «الحى الضائع».



الجزائر

سلبيات وايجابيات مصرية

شغف الكثير من كتاب العالم بمسألة الرحيل والرحلات مؤمنين أن فى السفر عشرات الفوائد . والكاتب الفرنسي اندريه جيد هو واحد من الذين سكبوا رحلاتهم فى ابداعهم بشكل واضح . حيث يتحول الابطال الى رحاله لا يكفون عن التنقل من مكان لآخر .

وقد صدر فى الشهر الماضى كتاب «رحلات» الذى يتكون من ٦٠٠ صفحة ، تحدث فيه الكاتب الراحل عن رحلاته العديدة الى أفريقيا ، وبعض الدول العربية ، ومنها مصر . وتجىء أهمية الكتاب أن جيد قد شغف كثيرا بالمنطقة العربية . وصادق الكثير من ادبائها. ومنهم على سبيل المثال الدكتور طه حسين . يقول جيد فى كتابه متسائلا : «ترى أى شيطان يدفعنى للاقامة فى افريقيا . وماذا ابحث فى هذه البلاد .. الاجابة لأننى أشعر هناك بالسكينة» .

وفى الكتاب يتحدث اندريه جيد كثيرا عن رحلاته الى تشاد والكونغو وايضا الى الاتحاد السوفييتى . وقد خصص ثلاثين صفحة كاملة عن مصر . والغريب

ان مشاعره قد تضاربت لزيارته لمصر التى تمت فى عام ١٩٣٩ . وتحت عنوان بطاقات مصرية يقول إنه لم ينظر الى البلد سوى من منظور رجل فى أجازة . وبالتالى لم يهمه الجانب السياسى ولا الاقتصادى ولكن الناس. ولذا فانه لم يسع الى الاحتكاك بالناس ، خاصة السائحين . ورغم عدم ارتياحه للبشر، فإنه ابدى دهشة عميقة وهو يتأمل ضواحى مدينة القاهرة ، ثم حين زار وادى الملوك ، وغاص فى الصحراء . رغم ماقاله الكاتب فإنه لم يخف اعجابه بذلك الشاب الأسمر « على » الذى رآه فوق إحد المراكب الشراعية على النيل .

رحلات .. أحدث كتب أندريه جيد

وقد اعترف اندريه جيد انه قد زار مصر وهو معتل المزاج . ولكنه حين سافر الى الجزائر ، بدا مندهشا بالمدن الصغيرة، خاصة مدينة «بسكرة» التى تدور فيها أحداث روايته « رجل عديم الاخلاق » التى ترجمت أخيرا الى اللغة العربية ، وهى عن كاتب ينتقل مع امرأته المريضة بين قرى عربية وفرنسية حتى تموت بين ذراعيه وبدا فى هذه الرواية مدى عشق الكاتب للطبيعة والحياة ..

هذا الجيل الضائع ...
إلى متى يظل ضائعا ؟

غالى شكرى ناقد أدبى وفير الإنتاج. ومع أنه لامس السياسة أحيانا، واكتوى بنارها أحيانا أخرى ، فصفة الناقد الأدبى كانت دائماً هى الصفة الغالبة عليه . وقد اتجه منذ شبابه الباكر إلى الكتابة فى الصحف وتأليف الكتب ، مقتديا ، على مايبدو ، بالعلَم الذى كان أقوى رجال النهضة تأثيراً فى فكره وشخصيته ، سلامة موسى ، ولكنه تطلع ، بعد أن رسخت قدمه فى الكتابة ، إلى لقب أكاديمى فأصبح دكتوراً وهو الذى كان قبلها ومازال بعدها يستريب فى كل ما يوصف بالأكاديمية .

بقلم : د. شكرى محمد عياد



سلامة موسى



غالى شكرى

هذه بعض المتناقضات فى سيرة غالى الأدبية، مع أنه كاتب ذو قوام فكرى واضح يمتد من أوائل ما كتب إلى أحدث ما كتب فهل هى تناقضات ظاهرية إذن ؟ الغريب أنها ليست كذلك، فهناك من التناقضات ما يكاد يستحيل الجمع بينها، حتى ليوشك المرء أن يصوغ لها تعبيراً يناسب هذا التناقض، وهو أنها تناقضات جوهرية لا تمس الجوهر ! ذلك أن كل ما لدى غالى من تناقض فمرجعه إلى عصره، الذى ظل يضغط بثقله الفادح على فكره، فيبرز فيه من النتوءات والالتواءات ما يكاد يغلب على شكله العام. يضاف إلى ذلك أن اختياره للعمل فى وسائل الإعلام الجماهيرية، بدلاً من الاعتزال النسبى فى صنعة التدريس أو العكوف على الأدب الخالص، قد جعله مكشوفا لمؤثرات العصر - تلك المؤثرات التى لم ينج منها كبير ولا صغير - وهو بعد ناشىء طرى العود.

فقد كان ميلاده الأدبى مصاحبا - على وجه التقريب - لحركة ٢٣ يولية . وماحدث لمصر والعالم العربى منذ ٢٣ يولية شىء باهظ قصف أعمار الكثيرين وترك الباقين حيارى يتخبطون كالغرقى وسط تيار عكر اختلطت فيه الأحداث السياسية

القفز على الاشواك

العاصفة، القادمة من الخارج أو النابعة من الداخل ، بالتغيرات الاجتماعية التى قلبت موازين القيم ومعايير الأخلاق بأضغاث النظريات التى تصارعت حتى التفتت أو انبثقت كالنبات الشيطاني من بذور كامنة في الصحراء. وأصبح السؤال اليوم : ما مسئولية «المثقف» عما حدث، وما واجبه فى الحاضر والمستقبل ؟

● مفهوم المثقف ●

هذا السؤال الذى يطفو على السطح أحيانا ويختفى أحيانا أخرى، جدير- فى نظرى – بالا يترك دون حل جذرى . فكلمة «مثقف» نفسها لم تعرف قبل الحقبة التى نتحدث عنها، بعكس كلمة «ثقافة» التى يقول البعض إن أول من استخدمها بمدلولها الحديث كان محمود عزمى ويقول آخرون إنه سلامة موسى .فـ «المثقف» ، مثل «العامل والفلاح» ، أصبح لها مفهوم سياسى ، حتى كاد هذا المفهوم يغلب على مفهوم «الثقافة » نفسها. «المثقف» إذن، منذ ٢٣ يولية، له «دور» سياسى فى النظام، سواء أقام بهذا الدور المقسوم له، أم حاول الخروج عليه. وطبقا لهذا المفهوم السياسى تكلم كاتب السلطة عن «أزمـــة المثقفين» ، و «سلبية المثقفين» .

السؤال المطروح إذن حول مسئولية المثقف اليوم سؤال مشروع، بل ضرورى، بل ملح. فقد كان عليه أن يتعامل ، لمدة طويلة جدا، مع سلطة سياسية لا تستمع اليه ، ولا تتركه في حاله، وأصبح اليوم وقد خفت يد السلطة عنه وظهر الشعور بالحاجة إلى تقييم العهد السابق، أو العهود السابقة، ومحاولة استشراف المستقبل، قادراً على أن يكتشف بنفسه «الدور» الذى يمكنه القيام به. وأول خطوة نحو هذا الاكتشاف هى أن يعيد النظر فى فكرته عن نفسه : ماهو «المثقف» ؟ وماعلاقته بالسلطة على المستوى النظرى العام؟ إننا نظلم حركة ٢٣ يولية والنظام الذى جاءت به أو نعطيهما أكثر من حقهما حين نتصور أنها جاءت بشىء جديد حين أصرت على أن يكون « المثقف » بوقا للنظام . فلقد كان وضع المثقف التابع مبدأ مقرراً فى الستالينيه، وكامنا فى الماركسية نفسها (فضلا عن كونه بديهية من بديهيات السياسة فى الدولة الفاشية). وكان المثقفون اليساريون فى مصر، قبل ٢٣ يولية، مستعدين لأن يرددوا، بنوع من المازوكية أو تحضير الذات، أن الكتب والثقافة سموم تفسد الوعى. الطبقى.

ولكى يكونوا منطقيين مع أنفسهم كانوا يصفون هذه الثقافة المكروهة بالبورجوازية، متناسين أن هـــذه الثقافة البورجوازية وماسبقها (وهو بالطبع أسوأ منها) تشكل القسم الأكبر من ثقافتهم، وأنها كانت تسمى فى يوم من الأيام ثقافة إنسانية .

● المثقفون و ٢٣ يوليو ●

لذلك لم يكن من الصعب أن يضع المثقفون المصريون أنفسهم فى خدمة نظام ٢٣ يوليو، وأن يعانوا كل ماعاناه ذلك النظام من نكبات، رغم أنه لم يأمنهم قط، بل زج بمعظمهم فى السجون والمعتقلات. لقد كانوا «شماعة» حاضرة دائماً يمكن أن يعلق عليها النظام أخطاءه ، فإذا كان الخطأ أفدح من أن يزاح بهذا التفسير الساذج، فقد كان المثقفون اليساريون مستعدين أن ينهضوا بمهمة الدفاع، مشيرين بأصابع الاتهام إلى الرجعية التى اندست فى صفوف الثورة. وإلا فليبكوا مع «الثورة» على المجد الضائع .

المثقف المصرى كان دائماً ميالاً نحو اليسار لأن اليسار يعنى التغيير ، والتغيير يعنى الأمل فى المستقبل. ولكن هذا المثقف اليسارى لم يكن أمامه، بعد ٢٣ يوليه، إلا أحد موقفين : الموقف السلبى المحض، بكل ما ينطوى عليه من مرارة الشعور بالعجز، أو قبح الشعور بالشماتة فى هزائم «الثورة» وهى فى النهاية هزائم الوطن، أو الموقف المهادن الملاين، الذى يعرب عن نفسه فقط فى حدود ماتقبله السلطة السياسية، ويتطوع أحيانا، حين يلوح له خطر أو منفعة ، فيؤيد أو يمدح، ومع أنه قد «يتخصص» فى الكتابة عن الأدب أو الشعر أو الفن، ويتناسى أنه مواطن مصرى قبل أن يكون أديباً أو ناقداً ، فقلما يسلم من تهمة تؤرقه، أو شك يعذبه، ولكن التفسير الستالينى لدور المثقف أمده ببعض الهدوء، إذ عاش فى وهم أنه يناضل ويبدع ثقافـــة جديدة، حين كان فى الواقع يبرر ، و- أحيانا - يزيف .

هل يستطيع المثقف اليسارى المصرى، وقد تغيرت الظروف أن يغير فكرته عن نفسه ؟ هل يستطيع أن يبرأ من مازوكيته؟ أم يظل واقفاً يبكى على أطلال «الدولة التقدمية» ، التى كانت - إلى حد كبير - وهما صنعه لنفسه، حين كانت تبتسم له وتجلسه على حجرها، فيخيل إليه أنه سوف يقودها ، وينسى أنها تستطيع فى أى لحظة أن «تشيله وتنكته» كما فعلت من قبل ؟

● أزمة الضمير ●

لعلى حين أتناول بعض أعمال غالى

القفز على الأشواك

شكرى الحديثة نسبيا، أستطيع أن أتبين معك أيها القارىء بعضاً من جوانب «أزمة الضمير» لدى فريق من المثقفين اليساريين، وشيئا من انعكاساتها على فهمهم لواقعنا الاجتماعى الراهن، وهو - لاشك - جزء من المناخ الفكــرى الذى يتأثر به الجميع. ولا شك أن «الواقع الاجتماعى الراهن» مشغول بقضايا جديدة، لاتبدو لها علاقة قوية بموقف جيلين من المثقفين من نظام ٢٣ يوليه، الذى أصبح الآن تاريخاً، وفى مقدمة هذه القضايا أن هناك شمولية جديدة تطرح الآن باسم الدين ، ويخشى المثقفون جميعا - على اختلاف مواقعهم وألوانهم - أن تكون بداية لمحن رهيبة تصيب - فيما تصيب - الدين نفسه. وقد لا نحتاج أن نذكر بأن هذه المشكلات الجديدة إنما ولدت من رحم الماضى القريب، ولكننا يجب أن نتذكر أيضاً أن الأربعين سنة الماضية التى جعلت لاسم المثقف تعريفاً سياسيا بالدرجة الأولى، قد ثبتت فى شخصيته مواقف تجعله - وهو المرجع الوحيد الذى يمكن أن يفزع إليه الوطن للتغلب على مشكلته الراهنة الكبرى وهى ذات أساس فكرى - عاجزاً عن أن يفكر فيها تفكيراً واضحاً مستقلاً ويتخذ منها موقفا شجاعاً مسئولاً .

سأستشهد فى هذا المقال بكتابين : «ثقافتنا بين نعم ولا» وقد ظهـــرت طبعته الأولى سنة ١٩٧٣ (فى بيروت) وأعيد طبعـه سنـــة ١٩٨٤ فى تــونس (مع كلمة تقديم جديدة) ثم صدرت طبعته الثالثة عن «الهيئة العامة لقصور الثقافة» سنة ١٩٩١. والكتاب - وهو مجموعة مقالات نشـرت فى الصحف والمجــلات فى مناسبات مختلفة - يمثل فى مجمله «سنوات المراجعـة» التى أعقبت هزيمة ٦٧، والتى حاول النظام نفسه أن يشـــارك فيها. ومـــع أن عنوانه «ثقافتنا» فهــو يتناول الثقافــة من زاويــة المثقفين، مثقفى الستينيات على الخصوص وهم الجيل الذى يحب غالى أن يتحدث باسمه ، والذى وقف أمام «الثورة» حائراً بين نعم ولا .

أما الكتاب الثانى :«أقواس الهزيمة : وعى النخبة بين المعرفة والسلطة » فقد كتبت مقالاته كلها أو معظمها ، فى مناخ مختلف ، كتبت فى الثمانينيات بعد غزو بيروت ، وكان غالى يعيش ويعمل فيها ، وربما كان بعضهـــا قد كتب فى باريس ،

و كان الكاتب مشغولا بمراجعة من نوع آخر، مراجعة أكثر راديكالية ، وإن كانت مطعمة بأفكار مختلفة كل الإختلاف عن الأفكار الماركسية التى يصدر عنها عادة .

● الأدب والسياسة ●

وقد قلت فى صدر هذا المقال إن لغالى شكرى الناقد الأدبى قواماً فكرياً يمتد فى جميع ما كتب . وهذا القوام يضمن له مكانا مستقراً فى قبيلة النقاد رغم اهتماماته السياسية الواضحة . فغالى يؤكد فى أكثر من مناسبة استقلال الأدب عن السياسة ، وإن كان الفرق بينهما شعرة. ومن ثم يؤكد أيضا قدرة الأدب على التجاوز ، تجاوز الظروف الزمانية والمكانية تتألف منها خامات العمل الأدبى . وهذا القول يستلزم الإقرار بذاتية الإبداع الأدبى . ولكنه حين يحاول التأريخ للفكر ، والمضمون الفكرى للأدب ذو أهمية كبيرة فى نظره ، يبتعد قليلا أو كثيرا عن هذه المبادىء ، اعتماداً على أن الإنتاج الفكرى لا يمكن أن يوجد بدون حوار . وأكثر من ذلك أن «التنظيمات» ، التى شغلت المساحة الكبرى من النشاط الثقافى فى الستينيات، ولا تزال متشبثة بمواقعها حتى الآن ، تشغل جانبا كبيرا من اهتمامه ، بحيث تطغى على الإبداع الشخصى ، الذى يغلب أن تكون نقطة ارتكازه فى الأدب والفن ، ولكنه قد يمتد - وينبغى أن يمتد - حتى يشمل السلوك العملى أيضا .

يقول غالى شكرى فى مقال عنوانه : «نحن جيل ضائع» نشر فى مجلة الطليعة (سبتمبر ٦٩) تعليقا على شهادات جمعتها المجلة من عدد من الأدباء الشبان : إن تسلسل الثقافة عبر الأجيال (يقدر غالى الجيل بعشر سنوات ، ويتعسف فى التقدير حتى يخرق التواريخ ، ويسمى هذا التسلسل العشرى «قانونا» قد انقطع بالنسبة لجيل الستينيات ، ويعلل ذلك بأحداث فى أمريكا مثل المكارثية وحرب فيتنام ، وأخرى فى المعسكر الشرقى أبرزها النزاع بين روسيا والصين، أما الذى كان يجرى فى مصر فليس هناك إلا إشارة عابرة عنه ، جاءت فى معرض دفاع مهذب عن الأجيال السابقة التى هاجمها بعض الكتاب الشبان هجوماً عنيفا (ولكن مع التسليم بأنهم عجزوا عن تسليم الرسالة إلى الجيل التالى كما كان يقضى القانون) فهذا الجيل ، من ليبراليين واشتراكيين ، «لم تتوازن أحلامه مع واقع حركة يوليو ، بل ارتبطت وتناقضت فى أحيان كثيرة .

القفز على الاشواك

وقد خلق هذا الواقع من أعظم أبناء الأجيال الماضية منقسمين على أنفسهم بين لا ونعم » .

أمـا جيل الستينيات فيتحدث عنه - أو باسـمه - غالى مرصعاً كلامه باقتباسات من شهادات أولئك الشبان (وهو ما يجعل لمقاله هذا قيمة خاصة) إذ إنه يعبر عن رؤية مشتركة ، وإن كان من الواجب أن تحسب حساباً لقيود النشر فى مجلة يهيمن عليها «الإتحاد الاشتراكى»

وكان من الطبيعى ألا يتلقف الجيـل الجديد حلماً من أحلامه ، وبخاصة أن سقوط المدن الفاضلة أمام عينيه وفوق رأسه دفعه إلى الشك فى أن يكـون هناك حلـم جـديـر باستيطان الرءوس » ثم : «ويعى هذا الجيل وعيا حزينا يثقب القلب أن ضياعه يختلف في الكثير عمـا يبدو على الأجيال المعاصرة لـ فى أوربا وأمريكا من ضياع . ذلك أن ضياعهـم هناك وليد حضارة متقدمة تتجاوز نفسها على الدوام بحيث إنه يمكن أن يكون عـامل خصوبة ونماء. أما ضياع جيلنا فهو وليد حضارة متخلفة تنتكس أميالاً كلما تقدمت خطوة ، بحيث إن الأمل شبه مفقود فى أن يؤثر هذا الضياع تأثيرا عميقا يحـرث الأرض ويخصبها» .

ويعتـرف غالـى للجيـل المصـرى السابق على جيله بأنه «أفضل الأجيال» ، لأنه مد يده للشبان بمنح التفـرغ (ولا أدرى على كل حال إن كانت هـذه المنح قراراً سـياسيا أم تنظيما ابتكـره المثقفون الكبار من تلقاء أنفسهم) . أما «الرؤيا» التى يمكن أن يتسلح بها الجيل الجديد لمواجهة واقعه فليس فى وسـع الجيل السابق أن يقدمهـا (هذا الجيل الذى كان خطيئته التراجيديـة أنه تمـزق بين لا و نعم . وهذا ، فى نظر غالى، دليل دامغ على انقطـاع الحوار بين الجيلين، كما انقطـع الحـوار بين الجيل الجديد والواقع. «وبين انقطاع الحوار هنا وانقطاعه هنـاك يضيع جيلنا ضياعاً مأساوياً فادح الثمن. وربما كان ذلك سر تعاسته .. وعظمته » .

هـذا هـو الكلام الذى «يثقب القلب» حقا. وإن المرء ليسأل نفسه: ألم يكن الصمت أولى من مثل هـذا الكلام ؟ مامعنى هذه العظمة الكاذبة التى تصدر عن إشفاق مرضى على الذات ؟ لقد نال كلا الجيلين حظه وافيـا من العظمة

التراجيدية المأساوية، وانقطع الحوار فلنسحب الملاءة على رءوسنا ولنمت فى هدوء، ولتكن آخر ذكرى تراود أحلامنا من ذكريات هـــذه الدنيا، أن السلطة السياسية سمحت لفريق منا أن يجلس فريقاً آخر على حجرها، ويضع فى فمه بزازة التفرغ، ولنطـرد أى حلـم مزعج، حين بصقت السلطة فى عيوننا، أو صفعتنا على وجوهنا ، لمجرد أننا – ولسنا إلا أطفالاً – تبولنا على حجرها من شدة السرور .

إنما نحن ننسى، ولكننا لا نموت . ولايزال فى «ثقافتنا بين نعم ولا» (لاحظ الفرق، فهذا الجيل يقول نعم ولا ، بعكس الجيل السابق الذى يقول لا ونعم !) لايزال هناك كلام كثير عن المؤسسات الثقافية، المأثرة الخالدة، التى لاتريد أن تتزحزح، للدولـــة على الثقافة، ولايزال هناك إيمان ساذج بأن البيروقراطية يمكن أن ترعى أدبا، أو حتى تصنع أدبا. وبين نعم ولا يقول غالى شكرى فى مقال واحد :

«كانت الظاهرة الإيجابية الثانية هى قيام المؤسسات الثقافية المتطورة كالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ووزارة الثقافة والمعاهد الفنية المختلفة والقطاع العام فى النشر والمسرح والسينما» .

وبعد صفحتين :

« وكانت الظاهرة السلبية الرابعة هى شيوع التحلل فى القيم بين المثقفين . ففى ظل غيـــاب التنظيمات الفكـــرية المستقلة تحل مكانها (الشلل) للمصلحية الموقوتة . وعندما يظهـــر الإلــــزام يختفـــى الالتـــزام ، ومن ثم تمطـــر السمـــاء رشاويهـــا المقنعـــة مرتين : الأولـى هى (الأمـــان الشخصى) فمـــا أن يهـــرب الفكر من النافذة حتى يعتذر الخوف ويخرج من الباب، والثـــانية هـــى المكافـــآت المرموقـــة من الإذاعــــــة والتلفـــــزيون والمســـــرح والسينما ، والمرتبات اللامعة من المراكز القيادية فى مؤسسات الثقافة والإعلام، وتذاكـــر السفـــر المريح إلى جميع أنحاء العالم، وجوائز التفوق والتقدير والتشجيع، وامتيـــازات الاســـــتقبال والإرسال وإرهاق السهر إلى بزوغ الخيـط الأول من ضوء الفجـر » .

نظرة فى كتاب الدكتور شكرى عياد

دائرة الإبداع

بقلم : د . على الراعى

قال الدكتور شكرى عياد وهو يقدم لكتابه المضئ ، الحافل بالفكر المتزن : «كان فى تقديرى أن أنتهى من هذا الكتاب فى بضعة أشهر ، ولكنى تبينت أن إتمامه كان يقتضيني سياحات طويلة فى الفلسفة والعلوم الانسانية ، فضلا عن الأدب ونقده» وأضاف : «وأهم من ذلك أننى كنت مصمما على أن اكتب كتابا عربيا لقارئ عربي ، وأن يكون هذا الكتاب كتابى ، وأن يكون هذا القارئ مثقفا عربيا يألف تراثه ، ويعيش حاضره ، ويتطلع الى آفاق جديدة للمستقبل .

أما أن دائرة الابداع «كتاب عربى» فإن هذا واضح فى تضاعيفه . بارز فى ذلك التنقل السهل الرشيق بين الثقافة العربية ، تراثا وحاضرا ، وبين غيرها من الثقافات العالمية . تُمتَحن هذه الثقافات الاخيرة امتحانا دقيقا ، وتُغَربل ، وتنقد النقد الرحب الذى يسع الشئ ونقيضه . ويتم هذا كله لحساب الثقافة العربية أولا وأخيراً . ويعود السائح من رحلاته الطويلة فى الفلسفة والعلوم الانسانية محملا بكنوز من الفكر يضعها جميعا فى حقل الادب ونقده ، لا تشغله السياحات عن هذا الهدف الجليل : هدف خدمة الادب والنقد ، العربيين خاصة . فليس هو فيلسوفا ولا باحثا فى العلوم الانسانية ، وانما هو اديب وناقد أولا وأخيرا ، وسمة هذه الخدمة هى الصراحة التامة . حتى ولو أدى الافصاح الى جرح حساسيات هنا وهناك.

يجرى الحديث عن مشكلة الأصالة والمعاصرة فى الغرب والشرق فيظهر شكرى عياد وجه الاختلاف البيّن بين موقف المثقفين من المشكلة فى الغرب والشرق ، مثقفو الغرب أصبحوا أفراداً كاملى الاهلية داخل نظام هائل اسمه الدولة ، أو المدينة ، أو الطبقة ، أو الانسانية فكلها لا تضمن لهم أىّ علاقة واقعية محسوسة بالبشر الآخرين . كلها مجردات لا تسمن ولا تغنى من جوع .

نحن وحضارة الغرب

«مجتمعاتنا العربية ليست أفضل بكل تاكيد . للمثقف العربى همومه التى ينوء بحملها ، ولكنها هموم من نوع مختلف فلابد أن يكون له موقف مختلف من تراثه .. إن إحدى مشكلاتنا هى أننا لا نملك حضارة الغرب ، ولكننا نعيش على أبوابها كشحاذين ، لاننا لانملك ، أو لا نعتقد أننا نملك حضارة سواها يقول أقوام : بلى ، اننا نملك هذه الحضارة ويقول شـكرى عياد : أجل نملك ، ولكنها حضارة ماض فقط . فنحن مغتربون أما فى ماضينا الذى نعجز عن وصله بالمستقبل واما فى مستقبل ليس مستقبلنا . لا جرم أن شجب الدكتور شكرى على حد سواء الغارقين فى الماضى والباحثين عن الحداثة عند الغير ، جريا وراء احراز المعاصرة . ان المعاصرة دون فهم واضح لما تعنيه تنتهى الى اللهاث وراء الحداثة الغربية ومن ثمّ يصبح المعنيون بها نَقَلة ومقلدين .

وبالصراحة المؤلمة ذاتها يكشف شكرى عياد الستر عن بحوث التراث التى تتم فى الوطن العربى على امتداده . فرغم كثرة البحوث فى تاريخ الفكر أو الثقافة أو الأدب ، فان المرء يصدم باعتماد اكثرها على الجمع والتلفيق والسرد ونقل البعض عن البعض ، وغياب العمليات النقدية الحقيقية من التحليل والمقارنة والحكم .

من هو الناقد الحق عند شكرى عياد ؟ أنه الناقد الذى يعتمد تمرسه بالتجربة الابداعية ، فيدخل فى قلب العمل ويشارك المنشئ فى جميع خطواته ، بخبرة تضاهى خبرته أو تفوقها ، ومن ثمّ يمكنه أن يقارب الدقة فى فهم العمل على جميع مستوياته ، وتذوقه بحسب ما فى العمل نفسه من امكانيات التذوق ، والحكم عليه تبعا لذلك .

ومن هو الكاتب الحق ؟ إنه الإنسان الذى تخرج كتاباته منبثقة عن لاوعى الكاتب أو الشاعر ، وتأتى تعبيرا عن وجود معنوى يشعره بالقلق والحاجة الى الاكتمال، من خلال التواصل . هذه الانبثاقة يسميها شكرى عياد التجربة الجمالية ، ويرى فيها شبها كبيرا بعملية الولادة . العمل الفنى فيها يكون دائما وليداً متميزا عن غيره من المواليد وككل

مولود جديد لابد أن يشترك فى صنعه اثنان ولابد أن تكون صفاته مزاجا او اتحادا من صفات الاثنين . إن الكتابة عند البعض كالعملية الجنسية هى تداخل حميم ينتج شيئا لم يكن موجودا من قبل . وككل المواليد ، يأتى بعضها فاقى الحيوية ، فيتأتى له أن يعيش وينضج ويتطور ، وتنكشف شخصيته النامية عن صفات كانت كامنة فى المولود الصغير ويلوح لنا أنه يتغير كل يوم ، مع أنه هو هو . هذه تجربتنا من الكتاب الذى نسجله . نقرؤه فنسجله ونعاود قراءته وتظل له فى حياتنا مكانة وحضور ، لا يختفى الا ليظهر ، لاننا نشعر أننا صنعناه كما صنعنا .

الخلط والتشويش

ما الذى ينبغى أن يكون الموقف من ارتباط القيم الفنية للعمل بالقيم العملية ؟ ها هنا مجال للخلط والتشويش وتبادل الاتهام يقول شكرى عياد . تقول الاتهامات اليوت ومن نحا نحوه رجعيون ، والواقعيون الاشتراكيون عبيد ، والوجوديون طغمة من البورجوازية الصغيرة المتعفنة . كل فريق يتعمد التشويش على خصمه باستخدام مصطلحاته نفسها . اليوت وانصاره والوجوديون يصمون الماركسيين بأنهم رجعيون ، والماركسيون يرون فى اعدائهم جميعا خُدّاما للسلطة والتهم تتخذ ترجمات نقدية مثل الشكلية ، الميكانيكية ، الواقعية الفوتوغرافية الخ .

هذا فى الغرب . اما فى عالمنا العربى فالقديم مجهول والجديد ضعيف التحديات لا حد لكثرتها وضخامتها . ولكن الاحتمالات أيضا لا حد لها . والمطلوب هو الفكر الواضح والعمل الدءوب والاحساس المباشر بالواقع هذه هى حاجة القارئ والتزام الكاتب ، ليصنعا حياة وليصنعا جمالا . وبدونهما نغرق فى طوفان الكلمات ، ولا يكون جديد المذاهب فى الادب والنقد الا شقشقة من نوع أو آخر .

ما هو الاثر الذى يتركه فينا عمل أدبى عظيم ؟

يجيب شكرى عياد: إنه ليس أثرا شخصيا الا فى شكل الخطاب . أما فى الجوهر فهو يأخذ بيدنا من كل ماهو شخصى وجزئى وعابر ، ويسمو بنا نحو المطلق . ان التجربة الجمالية فى جوهرها الصافى لحظة نادرة ، ولكننا نخوض اليها بحارا من المعاناة ، واذا ظفرنا بها ولو مرة واحدة تركت علينا طابعها طول العمر . واذا كانت هناك قيمة مطلقة فى حياة الانسان فهذه هى القيمة المطلقة الوحيدة .

والكاتب والفنان يظل قلقا دائم التجريب ، يخطط مشروعا وراء مشروع للوحة أو قصة أو رواية أو قصيدة ولا يقبل بسهولة أى شكل جاهز لأى من هذه الاعمال . ورغم أنه قد يكون متأثرا بمدرسة ادبية أو نقدية معينة ، فهو يشعر ان هذا الالتزام يشوش على تجربته . التزامه الوحيد هو الصدق : أى السعى

المخلص الدءوب لاستكشاف معنى تلك اللمسة لاعماق الذات . ذلك النداء الذى سمعه دون سائر البشر - من واقعة أو فكرة أو صورة فاذا ما فاض النبع ، مثل اشراقة الصبح ، تتضح معالم الاشياء فإذا كل شئ فى مكانه - هكذا يخيل للفنان . ينتهى التردد والحيرة ، وتبدأ حمى الابداع غير أن هذا كله ما يلبث أن يسلم الفنان الى مزيد من التردد لقد كان ما رأى وأحس وهماً . هنا قد يمزق الورق أو يلطخ اللوحة أو يحطم التمثال . ولكنه لا يلبث أن يعود الى العمل ببصيرة أعمق وعزم أشد ، الى أن ينتهى الى الايمان بأن العمل قد انتهى لأنه لم يعد يستطيع ان يجعله افضل مما هو فينصرف عنه فى رضا هو اشبه باليأس . ويعود الفنان يواصل بحثه المحموم عن حقيقة ذاته فى اعمال أخرى .

نظرة جدلية

هذه النظرة الدينامية الجدلية الى الفن والفنان هى ابراز ما يميز هذه الدراسة العميقة النافذة لموضوع الخلق الفنى . ان العمل مولود ينمو ويكبر ، وتكون له حياة طويلة ، يكون فيها دائم الحضور فى ذاته وفى انفسنا وهو أبدا ليس شيئا ثابتا انه دائم الحركة . كجوهرة متعددة الاوجه تعكس الوانا مختلفة باختلاف الاضواء التى تسلط عليها . وهو ليس شيئا تاماً كاملا بل إنه مجرد مرحلة من مراحل الخلق الفنى لدى الفنان . الفنان دائم البحث ، دائم التجريب ، لا يقنع ابدا ، ولا يقتنع لا تهدأ أبدا حمى الخلق عنده ولا يرضى - الا كارها - بما أدى من أجل هذا ينظر شكرى عياد الى المدارس الادبية والنظريات النقدية نظرة جدلية . يرى ما فيها من صدق ومن زيف . ويحكم فيها عقله الصاحى دائما . ولا تشده اليها الا بمقدار ما تعبر عن جدلية الفن . ومن قدرة على أن تصف هذا الذى يحدث للفن وللفنان منذ لحظة انبثاق الفكرة التى اختارها نهاية الى ميلادها بالطريقة الشاعرية الجميلة التى وصف بها شكرى عياد هذا الميلاد وحرص فيها وسط جمال العبارة على التأكيد على أن الميلاد هو مجرد مشروع لميلاد ، أو هو ميلاد واحد فى سلسلة طويلة تتعلق بها مواليد كثيرة .

لقد نظر شكرى عياد الى النقد والنظر النقدى نظرة فنان خالق . وهذه النظرة هى التى ستجعلنا نواصل بشغف قراءة دراسته العميقة هذه ، الشاملة المضغوطة ، التى تكلفنا غير القليل من العنت فى تتبع أفكارها واحكامها . ولكننا نصل - آخر المطاف - وقد حسمت فى انفسنا اشياء كثيرة ، وان ثارت فى انفسنا اسئلة تستحق الاجابة وننتظرها . وليس هذا بمستغرب فالنقد الخلاق يثير من الاسئلة أكثر مما يقدم من اجابات تلك هى سمات النقد الصاحى .

مستقبل الفكر القومى

بقلم : د . عبدالعظيم أنيس

لا شك أن الفكر القومى (اقرأ أيضا العربى) الحديث هو الابن الشرعى للمشرق العربى ـ لا سيما سوريا بمعناها الجغرافى القديم. ولقد نشأ هذا الفكر من خلال الصراع ضد القهر التركى، وهو القهر الذى استمر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. لكنه استمد عوامل ازدهاره من خلال الخطر الصهيونى على فلسطين ووعد بلفور، وهو الخطر الذى تجسد مبكرا فى المستوطنات التى بناها الصهاينة فى أوائل القرن العشرين وفى سعيهم لشراء الأراضى الزراعية وفى ما مثله وعد بلفور من نيات للمستعمر البريطانى.

ومعنى هذا أن الفكر القومى الحديث هو فى اتجاه مسارة معاد للاستعمار الغربى والصهيونية التى تمثلت فيما بعد فى دولة اسرائيل. لكن لم تكن تلك السمة الوحيدة له، فالسمة الأخرى للفكر القومى الحديث هى أنه علمانى النزعة يكاد يتبنى شعار «الدين لله والوطن للجميع». وكان هذا أمرا منطقيا فى منطقة تتعايش فيها منذ مئات السنين فئات دينية مختلفة من مسلمين ومسيحيين، من شيعة وسنة ودروز، من موارنة وبروتستانت وأرثوذكس، فضلا عن أقليات عرقية مثل الأكراد. فالراية




الشريف حسين



سعد زغلول

مصطفى كامل

التى يمكن أن توحد كل هذه الفئات هى الراية القومية وليست الراية الاصولية الدينية، والقهر الذى عاناه أهل هذه المناطق على يد الأتراك ـ وهم مسلمون ـ كان من شأنه أن يدفع بالدين إلى الخلف فى حلبة العمل السياسى.

سمتان إذن ميزتا الفكر القومى الحديث.. عداءه للاستعمار والصهيونية ونزعته العلمانية ولكن بعد أن ذكرنا هذا ينبغى أن نسارع إلى القول أيضا إن هذا الفكر كان يحمل بذور ضعفه فى المنشأ بموقفه إزاء إنجلترا وفرنسا زمن الاحتلال التركى. فالقوميون الأوائل وضعوا أيديهم فى أيدى هاتين الدولتين الاستعماريتين توهما أنهما سوف تساعدان حقا على استقلال المشرق العربى ومن هنا التسمية المبالغ فيها جدا عن «الثورة العربية الكبرى» وهى الحملة التى قادها لورانس من الحجاز ومعه فيصل ابن الشريف حسين والتى اشتهر فى تخريب خطوط التموين التركية فى شبه الجزيرة العربية. وعندما اتضحت الصورة الحقيقية لأهداف هاتين الدولتين بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى هبت شعوب المشرق العربى تناضل ضد الاحتلال الفرنسى فى سوريا ولبنان وضد الاحتلال البريطانى فى فلسطين والعراق.

والحقيقة أن الفكر القومى الحديث كان يعبر فى نشأته عن طموح البورجوازية المشرقية (السورية أساسا) إلى سوق عربية واحدة تضم سوريا ولبنان وفلسطين والعراق كما تضم شبه الجزيرة العربية، وهى مناطق ذات ارتباطات تجارية وثيقة تاريخيا، لذا لم يكن غريبا أن تجد أسماء

بارزة من التجار من بين القوميين العرب الأوائل ، كما لم يكن غريبا قبول فيصل - من الحجاز - حاكما على سوريا خصوصا أنه لدى القوميين الأوائل يكتسب شرعية دينية توازن شرعية الخلافة العثمانية فى الآستانة ، وذلك على أساس أن أسرة الشريف حسين تعود فى نسبها إلى الرسول كما تقول .

ولقد نشأ حزب البعث العربى بعد ذلك تجسيدا لهذا الفكر القومى عندما فقدت حركة القوميين الأوائل قوة دفعها لاعتبارات عديدة، وكان النضال ضد الصهيونية ومشروع دولتها واحدا من العوامل الأساسية فى نشأة حزب البعث.

لكن التيار القومى العربى كان - رغم قوته فى المشرق العربى - كان يعانى ضعفا أساسيا نتيجة غيبة مصر عنه. فالحركة الوطنية المصرية - منذ التدخل الاجنبى فى شئون مصر فى عهد اسماعيل ثم الاحتلال البريطانى بعد ذلك عام ١٨٨٢ حتى ثورة ١٩١٩ اجتازت ظروفا مختلفة تماما عن ظروف المشرق العربى .. فبينما كان المصريون ينظرون إلى بريطانيا باعتبارها عدوهم الرئيسى ويتطلعون إلى تركيا (زمن مصطفى كامل) كقوة مساعدة ضد الاحتلال البريطانى... كان المشارقة ينظرون إلى تركيا باعتبارها العدو الأساسى ويتطلعون إلى بريطانيا وفرنسا طلبا للمساعدة. ومنذ منتصف القرن التاسع عشر نزح الكثير من اللبنانيين والسوريين إلى مصر خصوصا إثر ثورات الفلاحين ضد الاقطاع فى لبنان، وقدموا لمصر خدمات ثقافية جليلة لكن الكثيرين منهم تعاون مع الاحتلال البريطانى مما أثار حفيظة الحركة الوطنية المصرية .

لذا لم يكن غريبا أن تكون قيادات ثورة ١٩١٩ فى مصر متحفظة إزاء الفكر القومى العربى الذى نشأ فى المشرق ، ولم يكن غريبا أن ينسب إلى سعد زغلول ما قيل أنه قاله عندما سئل عن رأيه فى الوحدة العربية خصوصا أن خطب مصطفى كامل وعبد الله نديم العنيفة فى نقد المشارقة المقيمين فى مصر كانت لا تزال حية فى الأذهان. ومع أن الشعب المصرى ظل شديد التعاطف مع نضال الشعوب العربية فى المشرق ضد الاستعمار بعد الحرب العالمية الأولى فإن هذا التعاطف كان شيئا مختلفا عن

الالتزام القومى بالمعنى المعروف فى المشرق، ويبقى التيار الليبرالى المصرى مرتبطا بفكرة الوطنية المصرية التى أعادها أدباء مثل توفيق الحكيم إلى جذورها الفرعونية (عودة الروح) كما أعادها طه حسين ثقافيا إلى جذور «بحر أبيضية» (مستقبل الثقافة فى مصر).

تبنى الفكر القومى

وإلى حد كبير بقى هذا وضع مصر حتى ثورة يوليو سنة ١٩٥٢. وحتى فى السنوات الأولى للثورة لم يكن هناك وضوح فى تبنى الفكر القومى العربى كما عرفه المشرق العربى، ولم يكن للنضال ضد الصهيونية واسرائيل أولوية خاصة لدى قادة الثورة، لقد كان فكر قيادة الثورة عن «الدائرة العربية» كما جاء فى كتاب فلسفة الثورة أقرب إلى فكر التضامن العربى. ولكن بالتدريج وخصوصا بعد الجلاء البريطانى عام ١٩٥٤ ـ برز موقف الثورة المعادى للامبريالية وأحلافها ممثلة فى حلف بغداد، ورغم جهود واشنطن الحثيثة لتزيين فكرة الصلح مع اسرائيل فإنه قاوم هذا الاغراء مرة بحجة أن هذا الموضوع ليس من أولوياته ومرة أخرى بحجة أن اسرائيل رفضت مشروع الأمم المتحدة لدولتين على أرض فلسطين. حتى إذا يئست اسرائيل من عبد الناصر بدأت أعمال الاستفزاز فى غزة، وتطور الأمر إلى الذهاب إلى باندونج، فصفقة الأسلحة التشيكية، فإعلان أمريكا سحبها لقرض السد العالى، فقيام عبدالناصر بتأميم قناة السويس.. إلى آخر القصة المعروفة التى انتهت بالعدوان الثلاثى على مصر ووقوف الأمة العربية صفا واحدا ضد هذا العدوان الذى وقع فى أكتوبر سنة١٩٥٦.

وربما كان هذا التحول التاريخى هو البداية الحقيقية لتبنى مصر الناصرية الفكر القومى العربى. وتدافعت للأحداث السياسية بسرعة مذهلة بعد العدوان الثلاثى... انسحاب القوات الاسرائيلية من غزة فى يناير سنة ١٩٥٧، نزول الجيش المصرى فى اللاذقية فى سبتمبر سنة ١٩٥٧ تصديا للتهديدات التركية لسوريا، الوحدة المصرية السورية فى فبراير سنة ١٩٥٨، قيام ثورة العراق فى يوليو سنة ١٩٥٨... إلى آخره.

غير أن هذه التحولات الكبرى أصيبت بنكسة خطيرة نتيجة الصراعات التى جرت بين قاسم وعبدالناصر، وبين الأحزاب القومية والأحزاب الشيوعية إثر الوحدة المصرية السورية، الأمر الذى انتهزته الرجعية العربية فدبرت خطة الانفصال فى

سبتمبر سنة ١٩٦١. وأيا كانت أخطاء الأطراف المختلفة فإن تجربة الوحدة قد أوضحت عداء الفكر القومى للديمقراطية السياسية والتعددية، كما بينت مدى سذاجة فهمه لمشروع الوحدة. فالفيدرالية مثلا كانت مرفوضة لحساب الدولة شديدة المركزية، وتجربة سوريا فى الديمقراطية السياسية والتعددية أهدرت دون مبرر مفهوم، والاعتراف بالمستويات المتباينة فى التطور الاقتصادى والاجتماعى فى مصر وسوريا كان مرفوضا أيضا. ولا شك أن حزب البعث السورى قد دفع عبدالناصر إلى كثير من هذه المواقف الخاطئة كما أن أخطاء الأحزاب الشيوعية قد ساهمت هى أيضا فى أول وحدة فى تاريخنا الحديث.

وبعد الانفصال بعام وقعت ثورة اليمن التى أخرجت هذا البلد العربى الكبير من ظلمات القرون الوسطى. ولم يتردد عبدالناصر عندما استنجدت به الثورة فى نجدتها فأرسل قوات مصرية لمساندة الثورة فى وجه الرجعية العربية ومرتزقة الامبريالية. ومع أننى كنت ـ ومازلت ـ من المقتنعين بأن مساندة مصر للثورة اليمنية كانت عملا جليلا من ناحية المبدأ، إلا أنه ربما كان خطأ عبدالناصر فى هذا الموضوع أنه سمح باستنزاف قوات مصر وقدراتها خمس سنوات فى صنعاء، وكان لابد من البحث عن وسيلة للخروج من اليمن قبل ذلك. ولقد أظهرت تجربة اليمن ظاهرتين متناقضتين فيما يتعلق بجيش مصر إذ بينما استشهد ضباط وجنود مصريون على سفوح جبال اليمن دفاعا عن الشعب اليمنى وثورته فأعطوا بذلك أروع الأمثلة على الشهادة، أوضحت أيضا تلك التجربة حجم الفساد المنتشر بين كبار الضباط الذين كانوا يلهثون وراء السلع المعمرة والبدلات ثم انتهت الأمور إلى استدراج جيش مصر فى يونيو سنة ١٩٦٧ ووقوع الهزيمة المدوية المعروفة.

نمو الفكر الدينى

لقد كانت هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ هى بداية تراجع الفكر القومى ونمو الفكر الأصولى الدينى من جديد. وكانت إشاعة ظهور العذراء على قبة كنيسة الزيتون والاندفاع الشعبى الهستيرى لرؤيتها تعبيرا عن محاولة البحث عن ملاذ سماوى إزاء هزيمة صنعها بشر على الأرض. ثم جاءت وفاة عبدالناصر المفاجئة فى سبتمبر سنة ١٩٧٠ ففتحت الباب نحو

التحول إلى اليمين فى مصر والوطن العربى، وكانت تلك بداية الانفتاح والتخلى عن الفكر القومى ، وهكذا صار السادات «الرئيس المؤمن» ودشن النميرى إماما للمسلمين فى الخرطوم ، وكان هذا التحول علامة من علامات التغيير الذى جرى .

ومنذ ذلك الوقت ازداد نمو الحركة الأصولية على حساب التيار القومى بشكل واضح. ولعبت مجموعة من العوامل دورا فى ذلك، من بينها ثورة إيران فى فبراير سنة ١٩٧٩، وتحول القيادة فى العالم العربى إلى أقطار « الثروة » بدلا من أقطار « الثورة » ، إلا أن أهم الأسباب فى رأيى هو الانهيار التدريجى فى مستويات معيشة الطبقات الوسطى (وخصوصا شرائحها الدنيا) الذى ارتبط بالانفتاح وبسياسات صندوق النقد الدولى وما أدت إليه من بطالة وارتفاع فاحش فى الأسعار وانهيار خدمات التعليم والصحة نتيجة سياسة التقشف. وانتهى كل هذا بأقسام واسعة من الطبقة الوسطى إلى البحث عن ملاذ ـ تمثل فى الحركة الأصولية ـ إزاء قوى غير معقولة تطحن هذه الطبقة تحت عجلات تحولات تقود فى جذورها إلى قوى رأسمالية عالمية غير منظورة . ولا تقتصر هذه الظاهرة ـ الحركات الأصولية ـ على البلاد الإسلامية ، ففى الهند مثلا تتحول اليوم جماهير البورجوازية الصغيرة الهندية إلى الهندوكية كملاذ، وتبدأ الصراعات بينها وبين الأقلية المسلمة .

المهم أن ظاهرة نزوع جماهير الطبقة الوسطى نحو العلمانية الذى صاحب حركات التحرر الوطنى فى أقطار العالم الثالث تتحول الآن إلى ظاهرة الأصولية الدينية، بعد أن فشلت كثير من حركات التحرر فى مواجهة مسئوليات التنمية والدفاع عن الاستقلال الوطنى نتيجة الفساد الداخلى من ناحية ونتيجة قوى خارجية كاسحة من ناحية أخرى.

فى أغسطس سنة ١٩٩١ أصدر دى كويلار أمين عام الأمم المتحدة آنذاك تقريرا عن أسباب فشل التنمية فى أفريقيا اشتمل على توقعاته بأن أفريقيا سوف تنغمس أكثر فأكثر فى أزمة اقتصادية بلا حدود مالم تتخذ إجراءات حاسمة لتخفيف عبء المديونية الخارجية. ويرصد التقرير مظاهر الأزمة المحتدمة فى أفريقيا : انهيار الاجور الحقيقية ، التدهور الحاد فى الخدمات الاجتماعية ، الارتفاع المستمر فى البطالة، الهبوط المستمر فى حصيلة النقد الاجنبى نتيجة الضغوط الدولية على أسعار الخامات. ولكن أغرب ما فى تقرير دى كويلار أنه ينص على سياسات وروشتات صندوق النقد

مستقبل الفكر القومي

الدولي والبنك الدولي كأحد الأسباب الرئيسية لهذا التدهور!

وأخيرا ربما يكون من الضروري أن نشير إلى بعض الاشارات الحديثة للانتكاس الذي أصاب الفكر القومي، ومنها مثلا تلك الدعوة التي صدرت عن د . يوسف والي في أهرام ٢٧ فبراير الماضي لانشاء سوق تجاري شرق أوسطي يضم البلاد العربية واسرائيل. وهي فكرة قديمة ترددت في كتاب الزميل محمد سيد أحمد «بعد أن تسكت المدافع» الذي صدر في السبعينيات ، وتقوم على أساس أن تمد إسرائيل هذه السوق بالتكنولوجيا الحديثة وتمدها أقطار الخليج برؤوس الأموال ، وتمدها مصر بالعمالة . والحقيقة أن هذا المخطط تردد كثيرا في الولايات المتحدة من قبل بأمل تسهيل عملية المصالحة العربية الاسرائيلية، فضلا عن أنه يجيز سوق الشرق الأوسط لصالح النفوذ الأمريكي، فضلا عن أنه يعتمد اسرائيل كالوكيل الرئيسي لأمريكا في المنطقة. ومما يلفت النظر إلى أن د . حلمي نمر نقيب التجاريين والأمين العام السابق لمجلس التعاون العربي قد انتقد هذا المخطط في الأهرام مؤخرا محذرا من خطورة هذه الدعوة.

تجديد جذري

والآن ما هو مستقبل الفكر القومي العربي بعد رصد كل هذه التحولات ؟

أعتقد أن هذا الفكر في حاجة إلى تجديد جذري إذا كان عليه أن يواجه تحديات المستقبل. ولا شك عندي في حاجة الشعوب العربية إلى هذا الفكر سلاحا في المواجهة مع الامبريالية والصهيونية، وهي مواجهة لن تخفت في رأيي في المستقبل المنظور بل لعلها ستزداد حدة . لكن الحاجة الى تجديد هذا الفكر تأتي من مصدرين ... أولهما دراسة تجارب الماضي لمواقف وتوجهات هذا الفكر على مدار السنوات الأربعين الماضية وبالتالي استخلاص الدروس والعبر من أخطاء هذا التاريخ وسلبياته ، أما المصدر الثاني لهذا التجديد فيأتي من حقيقة أن ظروف عالم اليوم تختلف جوهريا عن ظروفه حتى عهد قريب. ويكفي أن نشير إلى انهيار المعسكر الاشتراكي وبالتالي اختفاء الحليف الأساسي للأنظمة القومية في المواجهة مع الامبريالية وفي المشروع الوطني للتنمية . ومع بروز عالم أحادي القطب تبرز في

المقدمة صراعات التكتلات الاقتصادية سواء الكتلة الأوربية بقيادة ألمانيا أو الكتلة الاسيوية الباسيفيكية بقيادة اليابان أو الكتلة الامريكية بقيادة الولايات المتحدة . ومن المرجح أن تزداد حدة هذه الصراعات على إعادة مناطق النفوذ فى العالم الثالث، ومن المرجح أيضا أن تزداد أحوال أقطار العالم الثالث سوءا . فعبء خدمة الدين آخذ فى الارتفاع فى أقطار العالم الثالث وأحوال معيشة الجماهير الشعبية فى تدهور مستمر فى تلك الأقطار، والقرارات الهامة فى شئون الاقتصاد تبدو بعيدة عن سيطرة أى سلطة وطنية فى قطر واحد بمفرده ، مما يؤكد الحاجة إلى تكتل أقطار العالم الثالث والتنسيق العميق بينها، ومن باب أولى الحاجة إلى تنسيق واسع على النطاق العربى فى مواجهة هذه الظروف الجديدة .

وفى مثل هذا الوضع ثمة مجالات عديدة لتجديد الفكر القومى العربى ، ولكن ربما كان من أهمها مجالان... أولهما قضية الديمقراطية السياسية. إن من عيوب الحكم القومى فى العالم العربى.. كما بدا فى الماضى ـ هو عداؤه التقليدى للديمقراطية السياسية وللتعددية. وربما كان مقبولاً إلى حد ما فى الماضى بحجة التركيز على الديمقراطية الاجتماعية، لكنه فى عالم اليوم لم يعد مقبولا على الاطلاق.

وهناك أيضا الحاجة إلى تجديد جذرى للموقف من قضية الوحدة العربية، لا استخلاصا لدروس الماضى فحسب وإنما استيعابا للتغيرات الدولية والأقلية التى حدثت اليوم. إن من المعروف أن الفكر القومى كان معاديا للتعددية بحجة أنها مشكلة ومعوقة للتنمية، كما أن موقفه من قضية الوحدة كان حادا ومتجاهلا لحقائق اقتصادية واجتماعية عديدة، وفضلا عن ذلك فالخريطة العربية قد تغيرت كثيرا خصوصا بعد حرب الخليج وكل هذا فى حاجة إلى بحث ودراسة وإعمال فكر لمواجهة كل التحديات .

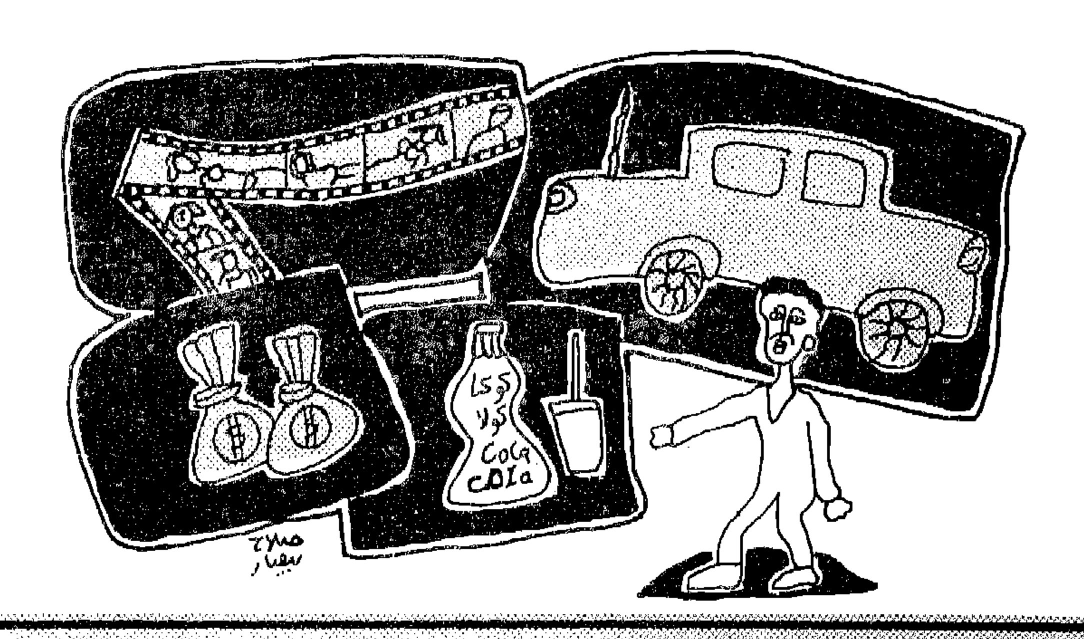
وينبغى أن نعترف أنه ليس فى يد أى قطر عربى وحده الكثير لمواجهة الأوضاع المتحولة للرأسمالية الدولية وضغوطها أو لما يخبئه صراع التكتلات الدولية فى القرن الواحد والعشرين ، ومن هنا فإن فرص النجاح فى مواجهة تلك التحديات لا تبدو ممكنة إلا من خلال تآزر واسع على النطاقين الحكومى والشعبى. وفى هذا الميدان يمكن للتجديد فى الفكر العربى أن يلعب دورا مهماً .

فكر التنمية

كيف ولد العالم الثالث ؟
هل تعانى الشعوب من أمراض لا يمكن علاجها ؟!

بقلم : د. جلال أمين

ما أن انتهت الحرب العالمية الثانية حتى شهدنا اهتماما مفاجئا بقضية التنمية بعد أن ظل الفكر الاقتصادى لأكثر من سبعين عاما لا يكاد يعيرها اهتماما ، سواء تعلق الأمر باستمرار النمو فى العالم المتقدم أو بإحداث التنمية فى العالم المتخلف . تغير الأمر فجأة بعد سنة ١٩٤٥ ، وأصبح موضوع التنمية من أكثر الموضوعات استحواذا على اهتمام الاقتصاديين وتسابقت دور النشر فى نشر كتب التنمية حتى أصبحت إضافة «التنمية الاقتصادية » الى عنوان الكتاب سببا قويا لتوقع انتشار الكتاب وذيوعه ، ودخلت مادة التنمية الاقتصادية كجزء أساسى من المقررات فى الجامعات الاوربية والامريكية واستحدثت لتدريسها «كراسى» الاستاذية ، وأصبح لها متخصصون يعرفون بها ، كما كان من قبل للمقررات الاقتصادية التقليدية كنظرية الثمن ونظريات العمالة والاقتصاد



كيف نفسر بزوغ هذا الاهتمام المفاجئ بالموضوع ؟ لقد دأب الاقتصاديون على تفسيره بعوامل شتى لا أعتقد أن واحداً منها يصيب كبد الحقيقة . قيل مثلا إن حصول الدول المستعمرة على استقلالها ، الواحدة بعد الأخرى في أعقاب الحرب ، كان من الطبيعي أن يحول الاهتمام من القضية السياسية الى القضية الاقتصادية. كانت قضية التنمية مؤجلة حتى يتم الجلاء، إذ كان من السهل تفسير التخلف الاقتصادى بوجود الاستعمار ، كما كان من الواضح ان كثيرا من الخطوات المطلوبة للتنمية تتعارض تعارضا أساسيا مع رغبة المستعمر . أما وقد حققت هذه البلاد استقلالها فما هو أخطر على تقدمها من الفقر ؟ وأى قضية أجدر بالاهتمام من التنمية الاقتصادية ؟

وهذا التفسير يبدو معقولا ولكنه لا يشفى الغليل . فهو قد يصلح لتفسير التحول فى اهتمامات أبناء هذه البلاد حديثة الاستقلال نفسها ، ولكن هل يصلح حقا لتفسير هذا الاهتمام المفاجئ بالتنمية فى الدول المتقدمة أيضا ؟ إن اهتمامات الرأى العام فى البلاد المتقدمة واهتمامات أكاديمييها، كانت تحدده دائما مصالح هذه البلاد نفسها ولا أظن أن شيئاً قد حدث في أعقاب الحرب كان من شأنه أن يغير تلك القاعدة .

قد يقال ، كما قيل بالفعل ، أن حصول البلاد المستعمرة على استقلالها

قد أعقبه مباشرة أو اقترن به ، نشوب الحرب الباردة بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي ، وبدأ التنافس الشديد بينهما على اكتساب مناطق النفوذ في هذه البلد المتخلفة حديثة الاستقلال أو تلك ، وكان من بين أهم الوسائل التي اتبعت لاكتساب هذا النفوذ تقديم المعونات الاقتصادية والعسكرية ، فكان من المهم مثلا للولايات المتحدة أن تقدم معونات سخية للهند تجنبا لوقوع الهند في براثن الشيوعية ولتحويل أنظارها عن الانبهار بالنموذج الصيني ، وكان من المهم للاتحاد السوفييتي أن يقدم معونات سخية لدولة كمصر تحاول أن تؤكد استقلالها عن النفوذ الغربي ، وهكذا ولكن تقديم المعونات يستلزم دراسة مشاكل التنمية والتخلف ، ومقارنة دولة متخلفة بأخرى من حيث احتمـالات النجاح والفشل، واحتمالات الانحياز للشرق أو للغرب ، وتحديد الأولويات ومعايير الاستثمار وحجم الاستثمارات والادخارات المطلوبة وشروط نجـاح التنمية ومعوقاتهـا .. الخ، ولم يكن ثمة مفـر من أن يهتم الاقتصاديون (و السياسيون) في داخل الدول المتقدمة نفسها بقضية التنمية والتخلف .

ولا اعتراض لدينا على هذا التفسير ، ولكنه يثير بدوره التساؤل عن نوع النفوذ الذي كان المعسكران يحاولان كسبه في البلاد الحديثة الاستقلال ، وإلى أي حد كان النفوذ الجديد المطلوب ، الامريكي أو السوفييتي ، والذي جاء ليحل محل النفوذ البريطاني والفرنسي (أو الى حد اقل النفوذ البلچيكي والهولندي والالماني والايطالي والياباني ايضا) الى أي حد وفي أي مجال كان هذا النفوذ الجديد المطلوب يختلف عن نفوذ الدول الاستعمارية القديمة ؟ الى أي مدى وفي أي شئ يختلف « الاستعمار الجديد » عن الاستعمار القديم ؟ وعلى الاخص ، يثير التساؤل عما اذا كانت قد جدت ظروف جعلت نوعاً من أنواع التنمية في الدول الحديثة الاستقلال مطلوباً ومفيداً للدول المتقدمة نفسها ، بينما لم يكن هذا مطلوبا ولا مفيدا لها من قبل . واعتقادي ان هذا هو السبب الحقيقي في بزوغ هذا الاهتمام المفاجئ بقضية التنمية في أعقاب الحرب العالمية الثانية . لم يكن الأمر في رأيي ، مجرد اهتمام بتوزيع المعونات وتحديد حجمها ودراسة آثارها ، بل كانت هذه المعونات نفسها مدفوعة برغبة الدول المتقدمة للمعونة في إحداث نوع من التنمية الاقتصادية في العالم الفقير ، لم تكن

ترغب فيه من قبل . ومن ثم لم يعد تجاهل التنمية مطلوبا وواجبا ، بل كان الاهتمام بها هو الواجب والمطلوب . وقد ساير الاكاديميون، كالعادة اهتمامات السياسيين وأصحاب المصالح ، وان كان الامر قد بدا فى الظاهر وكأنه مجرد تحول برئ فى اهتمامات العلماء .

لماذا أصبح نوع من أنواع التنمية فى البلاد الحديثة الاستقلال مرغوباً فيه من جانب الدول المتقدمة بعد أن كان غير مرغوب فيه ؟ السؤال شيق ومثير ، ولكنه ليس صعباً . فخلال الثلاثة أرباع قرن التى انقضت بين ١٨٧٠ ونهاية الحرب العالمية الثانية ، كانت الدول الصناعية قد شهدت تغيرات أساسية فى هيكلها الاقتصادى ، وفى نوع التكنولوجيا السائدة والسلع المنتجة ، ومن ثم فى طبيعة المصالح التى تسعى إلى تحقيقها فى الدول الخاضعة لها . كانت الاهداف الاقتصادية الاساسية للاستعمار تنحصر فى الأهداف الآتية : الحصول على مادة أولية رخيصة ، وقوة عمل رخيصة ، وتصريف فائض السلع . أما تصدير فائض رأس المال ، فهو أن اتخذ صورة استثمارات أجنبية فى الدول الخاضعة ، فإن من الممكن رده الى استغلال الموارد الاولية الرخيصة والعمل الرخيص . ولكن تصدير فائض رأس المال قد يتخذ صورة تقديم القروض بأسعار فائدة باهظة ، استغلالاً لضعف الحكام والولاة الخاضعين للاستعمار ، ومن ثم يمكن اعتباره صورة رابعة من صور استغلال الدولة الاستعمارية (أو المسيطرة) للدولة المستعمرة (أو الخاضعة) .

إن هذه الصور الاربع للاستغلال كانت دائما هى الاهداف الاقتصادية للاستعمار ، وهى لا تزال كذلك حتى اليوم. وإنما ينحصر التغير الذى طرأ عليه فيما حدث من تغير فى الأهمية النسبية لكل منها . إن الدول الخاضعة تختلف فيما بينها بالطبع فى الأهمية النسبية التى تحتلها كل صورة من صور الاستغلال المتقدمة ، ومدى جاذبية كل من هذه الصور للدولة المسيطرة . فالاستثمار الاجنبى المباشر كان أكثر أهمية مثلا فى حالة الاستعمار الفرنسى للجزائر ، منه فى حالة الاستعمار البريطانى لمصر ، وتصريف فائض السلع البريطانية فى حالة الاستعمار البريطانى للهند كان أكثر اهمية منه فى حالة الاستعمار البريطانى لمصر ... وهكذا . ولكن الذى يهمنا الآن هو ما طرأ من تغير على الاهمية النسبية لهذه

الاهداف للاستعمار بوجه عام ، دون تمييز بين دولة وأخرى من الدول المسيطرة أو الخاضعة . وهنا يمكن القول أن هدف تصريف فائض السلع قد أصبح له من الاهمية النسبية (أى بالمقارنة بسائر الاهداف الأخرى) فى أعقاب الحرب العالمية الثانية هدف أكبر مما كان له من أهمية فى نهاية القرن الماضى . لا أقصد بالطبع أنه لم يعد يهم الدول المتقدمة أن تحصل على نفط رخيص من دول الخليج ، أو على قطن رخيص من الهند أو مصر ، ولكنى أقصد التغير فى الأهمية النسبية ، أى أن تصريف فائض السلع فى الدول الخاضعة أصبح له أهمية أكبر بكثير بالمقارنة بالأهداف الأخرى ، مما كان له فى القرن الماضى، تؤيد هذه الأرقام الدالة على نسبة اعتماد الدول الصناعية على أسواق الدول المتخلفة فى تصريف سلعها، حيث تصل الى نحو ٤٠٪ فى حالة الولايات المتحدة ، بالمقارنة باعتماد الولايات المتحدة اعتمادا ساحقا على سوقها المحلية قبل قرن من الزمان ، وليس من الصعب تفسير ذلك فهناك اولا محض الزيادة فى القدرة الإنتاجية فى فى الدول المتقدمة بالمقارنة باحتياجات أسواقها الداخلية ، أو ما قد يوصف باقتراب هذه الاسواق الراكدة أكثر فأكثر من « التشبع » ، ومن ناحية أخرى أدى التقدم التكنولوچى فى هذه الدول الى الاستغناء أكثر فأكثر عن المواد الاولية الرخيصة الآتية من الدول الخاضعة (دون ان يعنى هذا استغناء تاما بالطبع) ، وقدرتها على إحلال مادة أولية محل أخرى، أو إحلال مادة مصنعة محل مادة طبيعية، الأمر الذى أدى أيضا إلى انخفاض الأهمية النسبية لاستغلال العمل الرخيص غير الماهر ، لارتباط هذا العمل غير الماهر بانتاج المواد الاولية من ناحية ، ولاحتياج التكنولوچيا الحديثة إلى عمل أقل أو الى عمل أكثر مهارة .

رفض التصنيع

إذا كان هذا صحيحا ، وأعتقد أنه صحيح ، فإنه يذهب بنا شوطا بعيدا فى تفسير ما طرأ من تغير فى نظرة الدول المتقدمة الى « تنمية » الدول الخاضعة لها . فى ظل الاستعمار القديم حيث تحتل المادة الاولية الرخيصة والعمل الرخيص مكان الصدارة بين أهداف الاستعمار ، يصبح أى شكل من أشكال التنمية أمراً مرفوضاً من جانب الدوله المسيطرة ، اللهم باستثناء أعمال البنية الاساسية الضرورية ، كإنشاء الطرق وتحسين وسائل المواصلات وتوسيع

الموانى وبعض المرافق الأساسية الأخرى اللازمة لنقل المادة الاولية الرخيصة الى الخارج ، أو لخدمة المستثمر الاجنبى وتزويده بالخدمات التى يحتاج لها. كان التصنيع فى داخل البلد الخاضع للاستعمار ، مرفوضاً لأنه يتعارض تعارضا مباشراً مع استمرار توفر المادة الاولية الرخيصة والعمل الرخيص للمستعمر، ومن ثم لم يسمح إلا بالحد الادنى من التصنيع . بل إن تزايد السكان لم يكن لينظراليه على أنه نقمة ليس فقط لان معدل التزايد السكانى لم يكن قد بلغ مستوى الانفجار بعد ، بل لأنه كان أيضا يضمن استمرار توفر العمالة الرخيصة . لا عجب إذن ان سادت فيما يكتب فى البلد المتقدم عن البلاد الخاضعة فى الربع الأخير من القرن الماضى والجزء الأكبر من النصف الأول من القرن الحالى، نغمة تعنى فى التحليل الاخير أن تنمية هذه الشعوب الخاضعة وتقدمها يكاد يكون مستحيلا. فهذه الشعوب تعانى من امراض نفسية وثقافية لا يمكن استئصالها وتحكم عليها باستمرار الفقر والخضوع . لقد شاع فى ذلك الوقت الكلام عن أثر « المناخ » ومسئوليته عن الفقر وانخفاض الإنتاجية . كما شاع تعليق أهمية كبيرة على لون البشرة وتفوق الرجل الابيض . كان أقرب كلام يقال فى ذلك الوقت الى « التنمية » هو الكـــلام عن سبل « إدارة » الدولة المحتلة من جانب الدولـــة المستعمرة ، ولكن الادارة غير التنمية ، فالإدارة تتعلق بتسيير الامـــور دون احــداث تغير جوهرى ، اما التنمية فهى نقل الدولة من حال الى حال ، وهـــو كما رأينا أمر مفروض استحالته . كان الوصف الشائع فى تلك الفترة للشعـــوب الخاضعة للاستعمار هو وصفها بالشعوب « البدائية» Primitive ، « المتأخرة » Backward وهما وصفان يوحيان من طرف خفى بأن العيب دائم ومستقر ويكاد يستحيل استئصاله ، بعكس وصف الدول «المتخلفة» Underdeveloped الاكثر تأدبا والذى شاع فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، والذى يحمل فى طياته إمكانية التقدم .

كان المطلوب الآن بالفعل ، بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية ، نوعاً من أنواع التنمية لا يتعارض مع مصالح الدول المسيطرة على مصير العالم والمنتجة فى نفس الوقت للجزء الأكبر من نظريات التنمية و أوسعها نفوذا . فالمطلوب الآن رفع قدرة هذه الدول « المتخلفة » على الاستهلاك ، وعلى الأخص ، قدرتها على

الاستيراد ، وليس فقط مجرد زيادة قدرتها على تصدير المادة الخام ، وانتاج الايدى العاملة الرخيصة . ولا بأس من بعض التقدم فى التعليم ، اذ ان الاستثمارات الاجنبية بتكنولوچيتها الحديثة ، تحتاج الى عمال اكثر مهارة ، كما أن الاستهلاك الواسع للسلع المستوردة يتطلب بدوره مستهلكا اكثر نضجا واكثر دراية بما يجرى فى العالم . ان الطبقة الوسطى فى ١٩٤٥ فى معظم بلاد العالم « المتخلف » ، أصغر بكثير من اللازم ، بل لا يكاد ألا يكون لها وجود ملموس ، بينما هناك حاجة الى تلك الطبقة الوسطى القادرة على مشاهدة افلام هوليود وفهمها ، وعلى الاستمتاع بزجاجة الكوكاكولا ، وركوب السيارة الامريكية أو الاوربية .. الخ ، ناهيك بالطبع عن الحاجة الى دولة قادرة على شراء الاسلحة . هذه الدولة لابد أن تحرز بعض درجات « النمو » والا فمن أين لها هذا الفائض الذى سوف تبدده على شراء السلاح ؟ ان القضايا « القومية » التى تخلق الحاجة الى التسلح ليست صعبة المنال ، فإن لم توجد ابتداءً فان الدول المتقدمة تستطيع أن تخلقها خلقاً . ولكن لابد الى جانب ذلك من زيادة الانتاج بدرجة كافية تسمح بالانفاق على السلاح . وهذا يتطلب نوعا من أنواع « التنمية » .

هذا إذن ، فى رأيى ، هو السبب الاساسى لهذا الاهتمام المفاجئ بقضية التنمية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وليس مجرد الحصول على الاستقلال أو نشوب الحرب الباردة ، وان كان لكل من هذين العاملين نصيب بالطبع .

كان من آثار قيام الحرب الباردة واحتدامها بين المعسكرين الرأسمالى والاشتراكى ظهور تلك التسمية الغريبة للجزء الفقير من العالم ، فى منتصف الخمسينات ، وهى تسميته «بالعالم الثالث ». وقد شاع استخدام هذا الاسم بشدة ، حتى من جانب من لا يكاد يعرف من هو بالضبط « العالم الاول » و « العالم الثانى » .كان المقصود أن العالم يتكون من عالمين رأسمالى و اشتراكى (هما الاول والثانى) وعالم « ثالث » متخلف، وهو تقسيم تحكمى وذاتى له من الايحاءات ما هو على أقل تقدير محل نظر .

أوجه الشبه

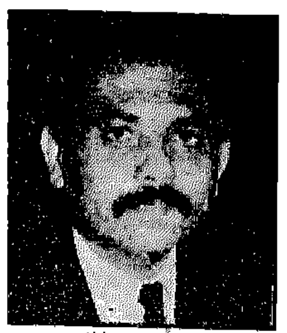
فالاسم أولا يؤكد على ما بين شعوب أو دول العالم الثالث من أوجه شبه دون ما بينها من فوارق . فكلها ينتمى الى

عالم واحد (ثالث) بالرغم من كل ما بينها من فوارق ثقافية وتاريخية . وهذا التأكيد على أوجه الشبه دون أوجه الاختلاف هو محل الجدل أو الاعتراض . أهم ما فى هذه الدول، (طبقا لهذا التقسيم) هو أنها «متخلفة » عن العالمين الآخرين : الأول والثانى ، ومن ثم فقضيتها الأساسية هى «اللحاق » بهذين العالمين أو سد الفجوة بينها وبينهما . وتصوير القضية على هذا النحو هو أيضا محل نظر ، اذ قد تكون قضية اللحاق وسد الفجوة ليست بقضية تستحق الاهتمـــام على الاطلاق ، أو قد لا تكون ، على الاقل ، أهم القضايا الجديرة بالاهتمام . فى نفس الوقت الذى يؤكد هذا الاسم على ما بين دول العالم الفقير من شبه ، يؤكد على ما بين العالمين الرأسمالى والاشتراكى من اختلاف ، فهو اختلاف ، يستوجب ، كما ترى ، تقسيمها الى عالمين متميزين : اول وثان بينما قد تكون الحقيقة هى عكس ذلك بالضبط وهما ان هذين « العالمين » هما فى الواقع عالم واحد صناعى ، له نفس الغايات والطموحات (تعظيم معدل النمو ومستوى الاستهلاك) وينتج نفس النمط من السلع ، وينتسب لنفس الحضارة ويدين بنفس النوع من الثقافة .

والآن وقد انتهت الحرب الباردة يتضح لنا أكثر من أى وقت مضى الى أى حد كان هذا التقسيم تحكميا وذاتيا . فالذى يجمع بين دول العالم الصناعى ، كان حتى قبل سقوط الشيوعية وانتهاء الحرب الباردة ، أهم مما يفرقها . وانما ادى الى ذلك التأكيد على ما يفرق بينهما تسلط الخـــوف من الشيوعية على الاذهـــان فى الغرب (او على الاقل الرغبة فى تضخيم خطرها فى اذهان الناس) وتسلط الرغبة فى الظهور بمظهر من يقدم حضارة جديدة هى « الحضارة » الاشتراكية ، لدى الاتحاد السوفييتى وانصــــاره . ومن ثم كان من المفيد تقسيم العالم الى ثلاثة عوالم : عالمين يقدمـــان نموذجين يقال انهما مختلفان اشـــد الاختلاف ، وعالم ثالث ليس أمامه الا الاختيار بينهما .

هكذا نرى من جديد كيف أن الاهواء والمصالح الخاصة التى سادت أكثر البلاد تقدما هى التى حددت نوع الافكار السائدة عن التنمية ، وكيف ان تغير المصالح يؤدى بالضرورة الى تغير الافكار السائدة .

اقـــوال معـاصـرة


حسن احمد اللوزى


اينياسيو راموني


بوريس يلتسن

● «لست أنا الذى يتغير ، ولكنه المناخ»

الملك الحسن الثانى

● «الخوف من فقدان السلطة ، هو الذى يفسد الحكام»

أوونج سان سوكوى

الفائز بجائزة نوبل للسلام

● «التراث هو ما نصنعه به»

الدكتور فؤاد زكريا

● «لا نجاح لأية قضية ، مهما تكن عادلة ، اذا كان أصحابها يقاومون التغيير» .

الاديب الفلسطينى اميل حبيبى

● «الشاه لا الخمينى ، هو الذى قام بالثورة الايرانية»

الأديب الايرانى احسان ناراغى

● «الفصحى توحدنا ، وتمنع الضحالة» .

حسن احمد اللوزى

وزير الثقافة والسياحة اليمنى

● «أحببت التمثيل لأهرب إلى الأحلام الجميلة من الواقع الأليم» .

الممثل الامريكى داستن هوفمان

● «الكتاب طفل لا يولد كاملا ، بل ينمو باستمرار» .

حليم بركات

الاستاذ بجامعة جورج تاون

● «مايوجد اليوم هو لانظام عالمى جديد ، حل محل اللانظام العالمى السابق» .

اينياسيو راموني

رئيس تحرير لوموند ديبلوماتيك

● «قفزنا فى النهر من دون أن نعرف السباحة» .

الرئيس الروسى بوريس يلتسن

● «هذا هو زماننا ، فلنحتضنه ! » .

الرئيس الامريكى بيل كلينتون

لغة الأدب
وفكر ما بعد الحداثة

شيلوك : بين الاختزال والتركيب

بقلم : د . عبد الوهاب المسيرى

يتسم الفكر العنصرى بأنه فكر اختزالى، أى أنه فكر كسول، لايكد ولايتعب كى يحيط بتركيبية الواقع وتعدد مستوياته، ويقنع بإدراك هذا الواقع إما على مستوى واحد أو من خلال صورة إدراكية واحدة بسيطة أو استعارة اختزالية ساذجة فالعالم كله بعد واحد، وهو يشبه الساعة أو النبات الذى يتبع دورات طبيعية منتظمة، وهناك منهج واحد لإدراك كل الظواهر إنسانية كانت أم مادية، والبشر بدوافعهم كلها مفهومة ويمكن تفسيرها من خلال عامل أو أكثر من العوامل المادية .(فالانسان يمكن رده إلى قوانين الطبيعة)، والمسألة كما نقول بالعامية المصرية «واضحة ومحلولة» وكأن العالم (الطبيعة والانسان) كيان أحادى مكون من ذرات وأرقام، كما يتصور بعض الماديين السذج والعلماء البسطاء ممن نسميهم دعاة الواحدية الكونية (أى أن الكون كله مكون من مادة واحدة) .

اللغة المجازية

ويتسم الأدب العظيم بأنه يرفض هذه الاختزالية والواحدية الكونية، وأنه يحاول ان يعود بالانسان إلى ذاته ليدركها وليقدرها حق تقديرها، ولذا فهو يقدم صورة للنفس البشرية باعتبارها كياناً مركبا إلى أقصى حد يستعصى على التفسيرات المادية البسيطة ولايمكن ان ينضوى تحت القوانين العلمية الرتيبة. فالعالم بالنسبة للأديب العظيم لايمكن ان يختزل فى بعد واحد أو ان يرد إلى مستوى مادى واحد أو أن يسقط فى استعارة

واحدة ساذجة ، واللغة الأدبية المجازية تنفر من لغة الجبر والقوانين الهندسية لانها تتعامل مع ظاهرة مركبة. ولذا إذ كانت لغة الجبر لغة بسيطة لاتتحمل الإبهام، فهى لغة تهدف لوصف الأشكال الهندسية وحركة الكواكب وعلاقة الأرقام والذرات، وكل ما هو محسوس ويقاس، فإن لغة الأدب، لانها تتعامل مع الانسان فى أفراحه وأتراحه، هى لغة مجازية تحاول الإفصاح عن المفارقات والتعبير عن الشيء وعكسه فى ذات الوقت وأن تتعامل مع المحدود واللامحدود والمتناهى واللامتناهى ومايقاس ومايستعصى على القياس.

فاستخدام المجاز هو فى صميمه مؤشر على وجود المجهول فى حياة الإنسان (الذى يشير إليه المتدينون على أنه الغيب) وعلى أن العقل البشرى محدود، ولكنه مؤشر أيضا على ان هذا العقل مبدع فعال يتطلع إلى استشراف هذا المجهول وإلى إنشاء علاقة معه ولذا فهو يبحث أدوات وآليات يمكنه عن طريقها الإفصاح عن عالم الغيب واللامحدود واللامتناهى (ولذا أذهب الى القول إلى أن اللغة بشكل عام واللغة المجازية على وجه التحديد مؤشر على أن العالم له معنى وأن وجودنا له غاية، على عكس مايذهب إليه فكر مابعد الحداثة الذى يعلن فشل اللغة وإفلاس الفكر وبالتالى موت الانسان.

والأنماط الإدراكية العنصرية هى أنماط اختزالية تبسيطية تعبر عن كسل من يستخدمها، فهى تختزل له الآخر فى كلمة أو كلمتين وفى صورة بسيطة وفى استعارة أكثر بساطة فالآخر « غشاش » «ولايمكن الثقة فيه » والعالم سيصبح عالما كاملا لو اختفى من هذا الآخر فهو مصدر التعاسة والآخر هو الجحيم والعالم يرونه هو الفردوس وهكذا.

الآخر هو الجحيم

ومن أهم الأنماط الادراكية الاختزالية للآخر، والتى توجد فى كل الأدبيات العنصرية فى العالم، صورة الآخر باعتباره « حريصا على المال » و « شرها بطبعه » وهى صورة منتشرة عن الصينيين فى جنوب شرق آسيا والباكستانيين فى انجلترا وعن اليهود فى أوروبا والعالم العربى (وقد يكون المفيد والطريف معا عقد دراسة مقارنة لمجموعات الأنماط الادراكية التى يفرزها العقل البشرى لادراك الآخر واختزاله).

وهذه الصور الادراكية الاختزالية كثيرا مايكون لها أساس فى الواقع، ولكن مايفعله العقل العنصرى هو أن يعزل بعض التفاصيل عن واقعها المركب وعن اسبابها وملابساتها ويحولها إلى بنية مجردة ونموذج ادراكى معرفى يفسر به كل الأمور. ولنأخذ تهمة الحرص الزائد هذه التى يدعى العنصرى أنها صفة لصيقة بطبيعة الآخر

لو دقق العنصرى الاختزالى قليلا لاكتشف ان الصينيين والباكستانيين أهل كرم فى بلادهم، وأن عقائدهم الدينية تشجع على السخاء وإكرام الضيف، ولذا فالحرص المتطرف ليس أمرا كامنا فى طبيعة الصينيين أو الباكستانيين أو فى عقائدهم الدينية، لذا إن وجد مثل هذا الحرص الشديد فيهم فلابد من البحث عن مصدره فى مكان آخر ولو دقق صاحبنا العنصرى قليلا لاكتشف ان هؤلاء الباكستانيين والصينيين واليهود يعيشون فى بلاد غير بلادهم، ولذا فإحساسهم بالأمن يكون عادة ضعيفا ويتزايد إحساسهم بالخطر ، وعادة مايكون هؤلاء الغرباء لاعلاقة لهم بالأرض أو بالثوابت فى المجتمع اذ ان كيانهم ووجودهم فى المجتمع يستند إلى الدور الذى يلعبونه وإلى الوظيفة التى يضطلعون بها وإلى الثروة التى يراكمونها، ولذا يصعب عليهـم أخـذ موقف متسامح من المال .

كما أن هذا الصينى الشره فى علاقته مع الاغلبية، عادة مايكون سخيا للغاية مع اعضاء جماعته ومع وطنه الأصلى إن وجد. فكان هذا الصينى الشره فى علاقته مع الاغلبية فى المجتمع المضيف، هو ذاته الصينى السخى فى علاقته مع اعضاء جماعته. ويختزل العنصرى كل هذا ويأبى إلا أن يركز على عنصر واحد منتزع من ملابساته الاجتماعية ولحظته التاريخية، ومنفصل عن كل زمان ومكان.

وقد قام شكسبير بتناول احد هذه الانماط الادراكية الاختزالية والعنصرية وهى شخصية المرابى الشره الشرير متمثلا فى شخصية شيلوك فى مسرحية تاجر البندقية وقد أصبحت كلمة «شيلوك» جزءا من المعجم الانجليزى وتعنى : الرجل الطماع الذى لا تعرف الرحمة طريقا إلى قلبه ، ولكن تناول شكسبير لهذا النمط الادراكى هو نموذج جيد على الأدب العظيم الذى يتجاوز كل محاولات الاختزال التى يتسم بها الفكر العنصرى. فهو يقدم تصويرا مركبا لهذه الشخصية الأمر الذى جعل النقاد يقدمون تفسيرات عديدة لها أبعادها وأصلها ودلالتها ويركز كل تفسير على بعد واحد أو بعدين ، مع أن كل العناصر متداخلة. ولكن هذه هى حدود اللغة النقدية : إنها تقوم بتفكيك العمل الأدبى ثم تركيبه ، فتقدم كل عنصر على حدة، وكأنه مستقلا بذاته ، على عكس العمل الأدبى الذى يقدم كل العناصر فى تداخلها وتركيبتها وتزامنها ورغم ادراكنا لكل هذه إلا أننا سنقوم بتقديم هـذه التفسيرات المختلفة كل على حـدة ، على أن يقوم القارىء برؤيتها فى تلاحمها وتمازجها ولحن لن نقدم قراءة أدبية للنص ذاته، مسرحية تاجر البندقية، وإنما سننظر إلى النص باعتباره تعبيرا عن مواقف انسانية



شكسبير

متباينة متنوعة تعبر عن نفسها - خلال نصوص مختلفة (اجتماعية وفلسفية ونفسية وتاريخية وأدبية) أى أن اهتمامنا ليس أدبيا صرفا ، أذ أننا ستستخدم النص فى دراسة هذه المواقف الإنسانية ولكن رغم ان دراستنا ليست أدبية خالصة إلا أنها ستثير العمل الأدبى .

١ - التفسير التاريخى: من المعروف أنه لم يكن يوجد يهود فى إنجلترا زمن كتابة المسرحية (فى أواخر القرن السادس عشر الميلادى - حوالى ١٥٩٧) إلا بعض من يهود المارانو (وهم يهود متخفون كانوا يظهرون الكاثوليكية ويبطنون اليهودية إبان اقامتهم فى شبه جزيرة أيبريا، خوفا من محاكم التفتيش) الذين كانوا يقيمون هناك. ويقال أن رودريجيز لوبيز، طبيب الملكة إليزابيث، والذى اتهم بالتآمر ضدها ثم أعدم، هو النموذج الذى استخدمه شكسبير (وكان عدو رودريجيز لوبيز هو دوم أنطونيو، ومن هنا نجد أن أنطونيو هو أهم شخصية فى المسرحية وعدو شيلوك اللدود) . ولكن المؤرخ الأمريكى اليهودى سيسل روث يذهب إلى أن شيلوك هو يهودى أشكنازى من البندقية . وقد كانت البندقية تضم فى ذلك الوقت ثلاثة أنواع من اليهود كان يشار إليهم باسم « الثلاثة أمم » سفارد الشام والمارانو والأشكناز، وقد كان السفارد والمارانو مصرحا لهم بالعمل فى التجارة المحلية والدولية وكانوا يمتلكون السفن التجارية ويتاجرون مع الشام. أما الاشكناز، فقد كان ممنوعا عليهم الاتجار، بل كان مصرحا لهم بالعمل فقط بالربا وبيع الملابس القديمة (وهى وظيفة مرتبطة تماما بالربا).

٢ - التفسير الطبقى : يذهب بعض النقاد إلى أن أعضاء الأرستقراطية الإنجليزية الزراعية (الإقطاعيين)، وكثيرون منهم كانوا يرتادون مسرح جلوب الذى كانت تعرض فيه مسرحيات شكسبير، كانوا قد بدأوا يشعرون بآثار الثورة التجارية وبنمو اقتصاد المدن والتضخم الذى صاحب ذلك، وقد زادت نتيجة لذلك مصاريفهم ، ولكنهم لم تكن لديهم الكفاءات اللازمة للاستثمار التجارى باستثناء أقلية صغيرة منهم. ولذا فقد بدأت ديونهم تزداد أكثر فأكثر. وفى ذات الوقت بدأت القيم

التجارية التعاقدية تسود فى المجتمع وتحل محل قيم الشرف والكرم والأبهة التى كان يؤمن بها هؤلاء الإقطاعيون . ويجسد أنطونيو فى المسرحية المذكورة الأخلاقيات الأرستقراطية ، فهو كريم يقرض أمواله بدون فوائد، يعيش حياة مسرفة ولكنه ليس تاجرا بمعنى الكلمة لأنه غير مشغول بتراكم رأس المال. وهكذا فإن أنطونيو يقف على الطرف النقيض من شيلوك عضو الجماعة الوظيفية المالية، الذى لايدين بالوفاء إلا لقيمة التراكم ولا يدين بالولاء إلا للمال ويعرّفه شيلوك تعريفاً نفعياً مادياً حينما يشير إليه على أن « لديه من الممتلكات مايسمح له برد الدين » فكأن حكمه عليه حكم مالى إجرائى ينزع عنه أى قداسة وينظر إليه بشكل موضوعى كمى غير تراحمى. وفى مقابل العلاقة الحميمة وكلمة الشرف التى يؤمن بها الأرستقراطيون هناك العلاقات الموضوعية التعاقدية التى تؤمن به الطبقة التجارية الجديدة والتى يدافع عنها شيلوك فى المسرحية .

٣ ـ التفسير الدينى الاقتصادى: وهناك بعد دينى اقتصادى يتمثل فى ظهور جماعات البيوريتان البروتستانت من عناصر البورجوازية الجديدة النشطة المؤمنة بتعاليم كالفن، والتى حولت الزهد المسيحى فى الدنيا من أجل الآخرة إلى زهد داخل الدنيا من أجل تراكم رأس المال علامةً على الخلاص فى الآخرة، ولذا فقد كان هؤلاء يكرهون الملذات والانفاق وارتياد المسرح والمسرات. ويجىء شيلوك، فى هذه المسرحية، رمزا لهذه القطاعات المتزمتة المتزمة بالتراكم وحسب والتى تنكر العلاقات الإنسانية وخلاص الروح حتى تحقق تزايد الثروة. ولم يكن شكسبير مخطئاً على الإطلاق، فبعد فترة وجيزة استولى هؤلاء على الحكم فى ثورة كرمويل وأغلقوا المسارح كلية. وكان من المألوف آنذاك أن يتم الربط بين غلاة البروتستانت واليهود.

٤ ـ التفسير اللاهوتى : ولكن هناك بعداً دينياً خالصاً، فالعهد الجديد قد أشاع صورة سلبية للغاية عن الفريسيين (وهى فرقة دينية يهودية ظهرت أيام المسيح). وفى هذه المسرحية، ارتبطت هذه الصورة باليهود بصورة واضحة تماماً. ويمثل شيلوك فى هذه المسرحية الفريسى بالدرجة الأولى، فهو يحترم حرفية القانون لا روحه، وهو لا عاطفة لديه، كما أنه يجيد استخدام الكتاب المقدس لتبرير أفعاله وهى تهمة وجهها المسيح فى العهد الجديد إلى (الفريسيين). وأخيراً، ارتبط الفريسيون فى الوجدان المسيحى بأنهم المحرضون

الحقيقيون على صلب المسيح. ومن هنا فإن شيلوك، حين يطالب برطل اللحم، بمثابة الفريسيين، أما أنطونيو فهو كالمسيح بمثابة حمل الإله الذى سيقدم للذبح.

بل إن العلاقة بين شيلوك وأنطونيو هى مثل العلاقة بين العهد القديم والعهد الجديد وكما يرى المسيحيون فالتعاقد والميثاق هى مسائل مركزية فى العقيدة اليهودية، والقيمة العظمى فيها هى العدل بلا رحمة أما المسيحية فترى ان العدل بلا رحمة لا يكفى للخلاص، بل وتذهب إلى أن العهد الجديد قد أكمل العهد القديم وربما حل محله ونسخه .ولذا بينما أصبحت اليهودية (والعهد القديم) هى ممثل لاهوت العدل، أصبحت المسيحية (والعهد الجديد) هى ممثلة لاهوت الرحمة. ورغم هذا استمر اليهود فى انكارهم المسيح وظلوا حبيسى العهد القديم ولاهوت العدل والقانون والتعاقد، وهم بسبب تمسكهم هذا بلاهوتهم يذوقون أشد ألوان العذاب ويعانون فى الدنيا ويقفون بذلك شاهدا على عظمة المسيحية والكنيسة وعلى عناء اليهود، وفى هذه المسرحية يجسد شيلوك العنصر اليهودى كما يجسد التعاقدية والعدل، ويقف فى غبائه وذله شاهدا على خساسة لاهوت العدل فى حين يقف أنطونيو ممثلا للمسيحية ولاهوت المحبة.

ومع هذا يعطى شكسبير الفرصة لشيلوك ليحاكم المسيحيين من منظور لاهوت الرحمة هذا الذى يدّعون ايمانهم به فيذكرهم بما كانوا يلحقونه به من أذى كما يعطيه الفرصة للحديث عن الجوانب الايجابية فى فكرة التعاقد ولاهوت العدالة، فالإيمان بالتعاقد وبالعدل هو أيضا إيمان بأن النفس البشرية ليست منزهة عن الهوى، وأنه لو تركت المسألة للمحبة وحسب، لاختلط الحابل بالنابل ولتحولت القيم الأخلاقية، وذات البعد الاجتماعى، إلى تجارب نفسية شعورية. ويمكن القول ان شكسبير يقترح علينا نموذجا يجمع بين القانون والرحمة وبين العدالة والمحبة وبين التعاقد والتراحم وبين الذات والموضوع وبين الفرد والمجتمع .

٥ ـ الجماعة الوظيفية: وقد اختلف النقاد فى تفسير موقف شكسبير من شخصية شيلوك هل هو متعاطف معه جدا أم أنه يرفضه تماماً، وهل شيلوك شيطان رجيم يجب أن نفرح لسقوطه، أم أنه ضحية المجتمع المسيحى المستغل. ولعله يمكن حسم هذه القضية بالتأكيد على هوية شيلوك كعضو فى جماعة وظيفية أوكل لها المجتمع الاضطلاع بوظيفة الربا الذى يؤدى الى دمار أعضاء المجتمع، أى أنه

أداة دمار. ولكن عضو الجماعة الوظيفية لم يختر وظيفته، فوظيفته هي قدره ومصيره الذي اختير له . ومن ثم فإن ما يقوله شيلوك عن نفسه باعتباره إنسانا أهدرت إنسانيته هو أمر حقيقي، ومايقال من أنه أداة استقلال صماء لا تدخل في علاقة إنسانية مع البشر وتحاول هدمهم أيضاً أمر حقيقي . وهذه الصورة المزدوجة التي يتحدث عنها بعض النقاد هي، في واقع الأمر، ازدواجية تعبر عن علاقة أعضاء الجماعة الوظيفية بأنفسهم وبالمجتمع، فهم بشر في علاقتهم بأنفسهم وهكذا يرون أنفسهم، وهم أدوات في علاقتهم بالمجتمع وهكذا يراهم المجتمع. والواقع أن شكسبير وكتاباً آخرين من بعده، قد حاولوا أن يتعاملوا مع هذه العلاقة في تركيبيتها الصلبة وثنائيتها الحادة.

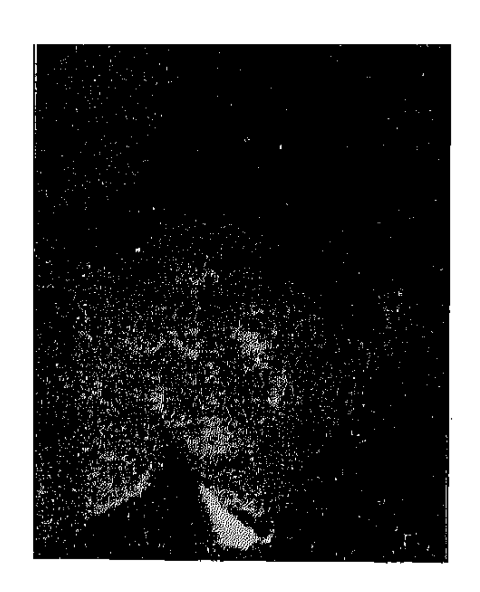
وشيلوك شخصية فنية تأتي ضمن سلسلة طويلة من الشخصيات الفنية رسمها الفنان الغربي لليهود قبل وبعد تاجر البندقية (فاليهودي جزء لا يتجزأ من الخطاب الغربي في مشوار اكتشافه لذاته وتحديها) . ومن أهم الشخصيات اليهودية الأخرى شخصية باراباس يهودي مالطة في مسرحية مارلو (وهو شيطان صرف لا يتسم بازدواجية شيلوك) . وهناك شخصية اليهودي في رواية وولتر سكوت إيفانهو، وشخصية فاجين في قصة ديكنز أوليفرتويست، وشخصية دانيل ديروندا في رواية جورج إليوت التي تحمل هذا الاسم والشخصيات اليهودية المختلفة في روايات دزرائيلي . وتوجد إشارات مختلفة في الشعر الإنجليزي خصوصاً ابتداءً من القرن التاسع عشر، عن اليهود ويقال أن الشخصية الأساسية في قصيدة « الملاح القديم » لكوليردج هي أساساً اليهودي التائه.

ويتراوح الموقف من اليهود في الأدب الإنجليزي (وفي الآداب الغربية عامة) بين الكره الشديد والحب العميق، بين النبذ والتقديس، وكلاهما موقف يستند إلى فكرة الشعب العضوي المنبوذ حيث يتم رؤية أعضاء الجماعات اليهودية لا باعتبارهم بشراً، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وإنما باعتبارهم كياناً عضوياً متماسكاً غير منتمٍ للمجتمع ومن ثم لابد من طرده .

هذا على عكس موقف شكسبير الذي قدم صورة مركبة للغاية يمكن تفسيرها على عدة مستويات ولأنها مكونة من عدة أبعاد، ومن ثم تصبح عملية تفسيرها من خلال بعد واحد مسألة مستحيلة . وقد رسمت الصورة بطريقة تجعل من الصعب بل ومن المستحيل، ان يسقط الانسان في استجابة بسيطة سهلة تتأرجح بين الاعجاب الشديد والازدراء العميق وبين التعاطف الشديد والبغض العميق.

من جورباتشوف الى

بقلم : عبد الرحمن شاكر



جورباتشوف



كلينتون

لم تمض شهور معدودة، على تولى الرئيس الأمريكى الجديد بيل كلينتون مهام منصبه، ومع ذلك فإن الحديث عن «ثورة كلينتون» تستفيض بها أنهار الصحف والمجلات، وربما بعض الاصدارات الخاصة، قليل منها عندنا، وكثير منها فى الخارج. وخاصة داخل الولايات المتحدة ذاتها، وهو أمر طبيعى. وغير بعيد الزمن الذى مر بين هذه «الثورة»، وأخرى سابقة عليها وهى ثورة «جورباتشوف» فيما كان يعرف باسم «الاتحاد السوفييتى» وقد بدأت فى منتصف الثمانينات من هذا القرن.. فهل هناك علاقة ما بين الثورتين؟ وما كنه هذه العلاقة إن وجدت؟

كلينتون وبالعكس !!

أول عناصر هذه العلاقة هو أن ميدان هاتين الثورتين، هو القوتان العظميان، اللتان كان العالم إلى عهد قريب ينقسم إلى معسكرين يتبعانهما، وكانت الحرب الباردة وسباق التسلح المحموم هو الطابع الرئيسى للعلاقة ما بين الدولتين والمعسكرين حولهما، وقد انتهت هذه الحالة الآن وانتهى معها انقسام العالم إلى المعسكرين المذكورين، واستطال الحديث عن «نظام عالمى جديد»، يقوم أو لا يقوم، وتقوده، أو تحاول قيادته.. تنجح فى ذلك أو تفشل، دولة كبرى واحدة، هى الولايات المتحدة الأمريكية.

وكانت البداية هى ثورة جورباتشوف فى الاتحاد السوفييتى السابق، تنفيذا لسياسته التى اختار لها اسم «البريسترويكا» أى إعادة البناء، عندما تولى المسئولية الأولى فى بلاده، وشفعها بتعبير آخر اضافة إلى القاموس السياسى وهو «الجلاسنوست» أى المصارحة والمكاشفة. وكان المعنى الأصلى لاعادة البناء عند جورباتشوف هو أساسا إعادة بناء الاقتصاد السوفييتى الذى أنهكه سباق التسلح المحموم مع الدولة الكبرى الأخرى أى الولايات المتحدة الأمريكية، وكان جزءا من تلك السياسة إنهاء هذا السباق والحرب الباردة التى استوجبته، مما يعنى بالضرورة إعادة بناء «النظام العالمى» إذا جاز وصف انقسام العالم إلى معسكرين بأنه «نظام»! وكانت أداته ـ أى أداة جورباتشوف فى ذلك ـ هى «الجلاسنوست»، أى مصارحة الشعب السوفييتى بحقيقة ما آلت إليه أموره، وخاصة التدهور الشنيع فى اقتصاده، حتى يؤيد هذه السياسة الجديدة، وكان جزءا ـ بدوره من سياسة الجلاسنوست هذه، إطلاق حرية النقد والتعبير، وصولا إلى تمام الديمقراطية السياسية باطلاق حرية النشر وتشكيل الأحزاب. بعد أن كانت السلطة، بل مجرد الوجود السياسى، مقصورة على الحزب الشيوعى الذى كان جورباتشوف هو أمينه العام، وبالتالى كانت وسائل النشر والتعبير السياسى مقصورة على هذا الحزب وأجهزته ومنظماته.

ولأن إعادة البناء تقتضى بالضرورة «الهدم» أولا، فإن هدم السلطة المطلقة للحزب الشيوعى السوفييتى، كان هو الخطوة الأولى، ولكنه لم يتوقف عندها،

وإنما امتد ليشمل النظام الاشتراكي ذاته، الذى قامت عليه ومن أجله هذه السلطة، واستطال ـ أي الهدم ـ ليشمل كيان الدولة ذاتها ـ متجاوزا تقديرات جورباتشوف وما كـــان يصبو إليـــه ـ يتفكك الاتحاد السوفييتي إلى جمهوريات مستقلة يضمها كومنولث واهي العرى، وترتب على ذلك ـ ربما كنوع من العقاب على سوء تقديره (!) ـ إن فقد جورباتشوف موقعه على قمة السلطة فى بلاده، وإن كان من غير المرجح أن يفقد مكانته فى التاريخ كعلم على أحد التحولات العظمى فى العالم، ومن غير المستبعد أيضا ـ إن امتد به الأجل ـ أن يعود إلى الساحة السياسية بقوة، إن لم يكن بالضرورة إلى موقع المسئولية الأولى فى بلاده.

على أن المصـــــير الشخصـــى لجورباتشوف ليس موضوعنا، ولا يشغلنا كثيرا، وإنما المهم لدينا هو عمله وآثاره. لقد انطلق جورباتشوف من أفكار منطقية بالنسبة لأوضاع بلاده حينما تسنم قمة السلطة فيهـــا. فإقـــرار الديمقراطية السياسية فى بلاده كان مطلبا معقولا بالنسبة لدولة كبـــرى مثل الاتحـــاد السوفييتي، كان كذلك من أيـــام كشف «نيكيتاخروشوف» فى المؤتمـــر للحزب البلشفى فى عام ١٩٥٦، عن فظائع عصر ستالين وسياسته فى «عبادة الفرد»، ومع اقتران ذلك بما أورده فى بيانه الرئيسى باعتباره الأمين العام للحزب، من أن الاشتراكية قد أصبحت نظاما عالميا لا يمكن قهره. كان حق الأمور أن لا تزول عبادة الفرد وحدها، بل أن تتخلى الدولة الاشتراكية الأولى فى العالم عن ديكتاتورية البروليتاريا، التى كان مؤداها هو احتكار الحزب الشيوعى للسلطة ولحرية التعبير والنشر.. الخ.، بعد أن أدت دورها التاريخى ولم تبق على الساحة إلا عيوبها، وكانت «العودة» إلي الديمقراطية، على هذا الأساس، بهذا المستوى، عودة إلى المنابع الأصلية للفكر الاشتراكى حيث كان كارل ماركس يعتبر الجمهورية الديمقراطية هى الاطار السياسى الملائم لديكتاتورية البروليتاريا أو حكم الطبقة العاملة، وحيث كانت الأحزاب التى تأخذ بالماركسية أو الاشتراكية العلميـــة تسمى بالأحـــزاب الاشتراكية الديمقراطية، وكان بعضها قد وصل إلى الحكم فى بعض بلدان غرب أوربا عن طريق الانتخابات النيابية وشرع فى تطبيق برامج اشتراكية مهما تكن محدودة، وكان إقرار الديمقراطية على هذا النحو فى الاتحاد السوفييتى، مع بقاء نظامه الاقتصادى والاجتماعى اشتراكيا، واكساب الاشتراكية بذلك وجها انسانيا كما كان يقول جورباتشوف، كافيا جدا لازالة مخاوف العالم «الديمقراطى» الغربى من الديكتاتورية الشيوعية، وبالتالى إنهاء

الحرب الباردة وسباق التسلح.

أما التحول إلى اقتصاد السوق،فقد دعا إليه جورباتشوف، باعتباره ضرورة للاستفادة من منجزات الثورة التكنولوجية التى تحققت فى الدول الرأسمالية المتقدمة فى أمريكا الشمالية وغرب أوربا واليابان، وكان ينتسب فى ذلك إلى لنين، ويشبه سياسته تلك بما لجأ إليه هذا الاخير حينما دعا إلى «السياسة الاقتصادية الجديدة»، بدلا من «شيوعية الحرب» التى طبقت فى أوائل عهد الثورة البلشفية، أيام كانت الدولة السوفييتية الوليدة غارقة فى مواجهة الجيوش الغازية إبان حرب التدخل التى شنتها دول رأسمالية كبرى عليها بهدف الاجهاز على الثورة فى مهدها.

ولكن بالنظر إلى أن «الريجيانية» أو سياسة اليمين الرأسمالى المتطرف، كانت وقتذاك تحكم واشنطن، فى عهد ريجان ونائبه الذى خلفه جورج بوش، فقد بدا أمام أعين القادة السوفييت، أنه لا أمل لهم فى الحصول على مساعدات غربية ذات قيمة تذكر فى إقالة اقتصادهم المنهار من عثرته، مالم يتم تدمير الاشتراكية والشيوعية تماما فى بلادهم، والتحول الكامل عنها إلى الرأسمالية، وتبدى ذلك فى المعاملة المهينة التى لقيها جورباتشوف، حينما توجه إلى لندن لمحاولة لقاء زعماء الدول الصناعية السبع الكبرى فى مؤتمرهم المنعقد هناك، للحصول منهم على معونات اقتصادية لبلاده، فلم يلق منهم إلا الاعراض والاستخفاف، وعاد إلى حيث بدأ العد التنازلى لسقوطه وخروجه من السلطة، ليخلفه من هم أكثر استعدادا للقبول بالتحول الكامل إلى الرأسمالية، بل وحل الاتحاد السوفييتى ذاته، وعلى رأسهم منافسه الاكبر بوريس يلتسين، الذى انتخب رئيسا لروسيا، كبرى جمهوريات الاتحاد السوفييتى السابق.

ولكن اندفاع يلتسين فى تطبيق سياسة السوق الحرة وإطلاق الأسعار، أدى إلى ارتفاع جنونى فى هذه الاخيرة، فى الوقت الذى ازدادت فيه اعداد المتعطلين، ممن استغنت عنهم المؤسسات التى راحت تعمل بنظام السوق الحرة، ولم يزد الانتاج بل تناقص، وأصبحت الواردات الأجنبية من السلع الاستهلاكية منافسا خطيرا، بل وقاتلا لكثير من المنتجات المحلية، ولم يقدم الغرب ما يتمناه الروس من معونات أو استثمارات، ولم يتم تحويل الصناعات العسكرية إلى الانتاج المدنى إلا بقدر محدود، ولا تزال روسيا بحاجة إلى تصدير السلاح لكى تظل مصانعها تعمل ولو بجزء من طاقتها، وانتشرت الجرائم وتجارة

المخــــدرات وشبكات الدعارة، وأصبح للمافيا الدولية قاعدة تزداد اتساعا، ولم تنعم بثمار هذا التحول إلا قلة محدودة من المهربين والمختلسين والمرتشين والبلطجية، بينما ازداد فقر الجماهير وشقاؤها، وانعكس ذلك كله على الحياة السياسية، بحيث تقوم معارضة عنيفة داخل البرلمان الروسى، ويدور صراع لم يحسم بعد حول تنازع السلطات بين الرئيس أو البرلمان أو السلطتين التنفيذية والتشريعية، على نحو يهدد بسقوط النظام بأكمله أو قيام ديكتاتورية عسكرية.

على الجانب الآخر

بقدر ما خابت آمال الروس فى أن يكون التحول إلى الرأسمالية هو مفتاح الازدهار والتقدم والرخاء، كانت خيبة النظم الرأسمالية المتقدمة فى أن يكون السقوط المطلق للشيوعية والاشتراكية، شهادة لها بالتفوق المطلق، فجميع البلدان الرأسمالية تعانى من البطالة والركود وانخفاض معدل النمو الانتاجى بما فى ذلك اليابان، والحرب التجارية تهدد بالاشتعال بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية، وبين هذه الأخيرة وغرب أوربا، بحيث أصبحت الصورة أشبه ماتكون بالأوضاع التى سبقت كلا من الحربين العالميتين فى عام ١٩١٤، وعام ١٩٣٩، لولا أن الحروب المسلحة كانت هى المخرج الذى لجأت إليه الدول الرأسمالية الامبريالية فى ذلك الحين، وكان انتاج السلاح وتدميره فى القتال، وابادة ملايين البشر هو أسلوب الرأسمالية الأمثل فى التغلب على ما تواجهه من أزمات.

ولكن هذا الحل «العسكرى»، أصبح مرفوضا الآن فى العصر النووى، حيث يعنى اشتعال حروب كبرى انهاء الوجود الانسانى على الأرض، هكذا بكل بساطة!. وكما حاول جورباتشوف أن ينتسب إلى لنين، وسياسته الاقتصادية الجديدة، يحاول كلينتون الآن فى الولايات المتحدة الامريكية العودة والانتساب إلى سياسة روزفلت أو «النيوديل»، بحيث تتدخل الدولة لمحاولة اصلاح الأوضاع الاقتصادية المتردية، وهى تتمثل الآن فى العجز الهائل فى الميزانية وانتشار البطالة، ونقص الخدمات.

وتقدم سياسة كلينتون الجديدة، التى توصف كما تقدم بأنها «ثورة» هى عناصر من بينها خفض الانفاق العسكرى، وزيادة الضرائب على الدخول الكبيرة، وتوجيهها للاستثمار من أجل ايجاد فرص عمل جديدة، ولزيادة الخدمات فى ميدان التأمين الصحى والاسكان والتعليم، وذلك مع استمرار أسس التعامل الرأسمالى، وأهمها المنافسة وخاصة مع الدول الرأسمالية

الأخرى مثل اليابان وغرب أوربا.

ويواجه كلينتون في «ثورته» تلك مشكلة البيروقراطية الحكومية، وخضوعها المطلق لجماعات الضغط من أرباب المصالح الرأسمالية الكبرى، على نحو يهدد الديمقراطية وأجهزتها بالعجز والفشل، وهذه بدورها تمثل معركة سياسية لا يضمن كلينتون أن يكسبها هي وحركته الاقتصادية، وقد يفقد فيها منصبه، بل حياته ذاتها على نحو ما حدث لسلفه ومثله الأعلى جون كيندي!

وبغض النظر عن نتيجة محاولات كلينتون إصلاح الاقتصاد الأمريكي في حد ذاته، نجاحا أو فشلا، فإن المبدأ الذي أقره وهو ضرورة تدخل الدولة وازدياد دورها في معالجة الأوضاع الاقتصادية، يتناقض تماما مع كل ما دعا إليه ريجان وتاتشر من الحد من دور الدولة والاكتفاء بحرية السوق، بدعوى أنها تصحح نفسها بنفسها طبقا لقوانينها الخاصة، والواقع أنها في كل من أمريكا وبريطانيا وروسيا مؤخرا، لم تصحح إلا أوضاع القلة فزادتهم ثراء أما الكثرة فزادتهم بؤسا، وإذا كان كلينتون يرفع شعار أن يكون الانسان ورخاؤه هو الهدف، فإن مفهوم الانسان لا ينطبق على طبقة دون طبقة أو فئة دون أخرى ولابد أن يشمل الجميع.

إن مغزى ثورة كلينتون بعد ثورة جورباتشوف هو أن سقوط الأشكال المتطرفة من الاشتراكية، سواء لما أصابها به سباق التسلح أو لعيوب فيها، من نوع خنق المبادرات الفردية، والاعتماد على البيرقراطية الحكومية في كل شئ، كان من شأنه أن يمهد لسقوط التطرف الرأسمالي بدوره [1] وما يتجه اليه كلينتون الآن في اكبر دولة رأسمالية هو مقدمة فحسب. لاعادة النظر في دعوى حرية السوق باعتبارها الأداة الوحيدة للنهوض الاقتصادي، فربما كانت كذلك فيما مضى، في أوائل عهد الرأسمالية، أيام كانت الصناعة الآلية أمرا مستحدثا، ولكن عصر الثورة التكنولوجية وثورة المعلومات أصبح يقتضي نظاما اقتصاديا جديدا، ربما لا تستطيع هذه الدولة أو تلك أن تطبقه بمفردها، كما حاولت روسيا تطبيق الاشتراكية في بلد واحد بعد الثورة البلشفية، وإنما ينبغي تطبيقه على مستوى الجنس الانساني برمته بحيث يشمل جميع الدول والشعوب، ويكون ذلك هو بحق النظام العالمي الجديد، بدلا من الوضع الحالي الذي يسوده غبار الهدم في كل مكان!

(١) راجع الفصل الخاص بالاشتراكية الأمريكية في كتابنا عن «الثورة الاشتراكية العالمية» الصادر عام ١٩٦١.

دائرة حوار

دور التعليم الابتدائى في بنـــاء الأمـــة

بقلم : د . رشدى سعيد

لا يحتاج المرء إلي عناء كبير لكى يدرك أن التعليم في مصر يمر بأزمة هائلة فالشكوى عامة من عدم جدواه فى إعدادفتية الأمة وفتياتها للمستقبل الذى سيواجهونه ومظاهر هذه الشكوى تتمثل فى عدم الثقة وفى المحاولات التى يقوم بها الفرد أو الجماعة التى ينتمى إليها للالتفاف حول نظامه بدءا بانتشار ظاهرة الدروس الخاصة الفردية والجماعية ، وانتهاء ببناء مدارس خاصة خارجة عنه ومرورا بالالتفاف حول شهاداته والتقدم لمدارس أجنبية للحصول على إجازاتها .

ولا تعود ظاهرة عدم الثقة فى نظام التعليم فى مصر إلى انحدار مستوى المعلم والتعليم والإدارة فقط بل وأيضا إلى سوء المناهج التى لا تعايش العصر وإلى هبوط مستوى الكتب المقررة وامتلائها بالحشو واعتمادها على التلقين وقد أدرك المسئولون مؤخرا هذه الجزئية الأخيرة من مشكلة التعليم فقامت الجمعية المصرية للتنمية والطفولة التى ترأسها قرينة السيد رئيس الجمهورية بالاشتراك مع وزارة التربية والتعليم بعقد مؤتمر لتطوير مناهج التعليم الابتدائى وهو عمل محمود فى ذاته ، إلا أن أمر إصلاح التعليم يتعلق أول ما يتعلق بإيجاد فلسفة متكاملة لسياسته لكى يتحقق فى إطارها نجاح قضية تطوير المناهج والتعليم .

وللحق فإنه منذ أن تحطمت السياسة التعليمية التى وضعها د . طه حسين تحت ضغط جماعات السلفيين الذين تولوا قيادة وزارة التربية والتعليم عندما تولى شئونها

الوزير كمال الدين حسين وأطلقت أيديهم فى فترة السبعينات فإنه لاتوجد لمصر سياسة تعليمية بل أنقاض سياسة سابقة هى ركام تغييرات أجريت فى الخفاء بواسطة هؤلاء المتسللين إلى إدارة التربية والتعليم فى مصر .

كانت سياسة التعليم فى مصر التى وضع أسسها طه حسين معبرة عن النهضة القومية التى جاءت مع ثورة سنة ١٩١٩ والآمال التى تعلقت بها الأمة لجعل التعليم منظومة قومية تلم شمل الأمة وتجمع كلمة أبنائها شأن التعليم فى ذلك شأن الجيش فكلاهما منظومتان يأتى إليهما جميع أبناء الأمة يستوى فى ذلك من جاء من الحضر أو الريف ، من أرقى مناطق الحضر أو أفقرها ، من الصعيد أو الوجه البحرى ، مسلما أو قبطيا ، غنيا أو فقيرا - ففى هاتين المنظومتين يتم تقريب الفجوة بين أبناء مصر . بحيث يخرجون وهم يتكلمون لغة متقاربة وقد فهموا بعضهم وتعلموا السماحة واحترام عقائد الآخرين والتفوا حول مفهوم جامع للوطنية - وبالاختصار فإن الهدف الأول لمنظومة التعليم الابتدائى هو بناء الأمة المتماسكة .

إنهاء الازدواجية

ومن أجل تحقيق هذا الهدف ارتكزت السياسة التعليمية على انهاء ازدواجية التعليم التى كانت سائدة منذ القرن التاسع عشر حين أضيف إلى نظام الكتاتيب الذى كان سائدا لقرون طويلة نظام آخر من المدارس المدنية - وظلت مصر حتى نهضتها القومية بهذين النظامين : كتاتيب يذهب إليها فقراء الناس يتعلمون فيها أصول الدين لسنوات قليلة يذهب فى نهايتها البعض القليل منهم إلى أروقة الازهر ومدارس مدنية يذهب إليها متوسطو الحال وأغنياء الناس يتعلمون فيها علوم الدنيا - وكان هذا النظام تكريسا للنظام الطبقى الذى ساد مصر لسنوات طويلة حين كان الحراك الاجتماعى صعبا إن لم يكن مستحيلا - وبدخول الأمة عصر النهضة فى أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ القومية بدأ التحرك نحو انهاء هذه الازدواجية والتوسع فى بناء المدارس الابتدائية المدنية لتحل محل نظام الكتاتيب القديم وكان طه حسين فارس هذا التحرك وواضع فلسفته .

وعلى الرغم من أن احدا لم يجرؤ على تحدى هذه السياسة الهادفة إلى بناء الأمة الواحدة فإن الواقع الحالى يدل على أن بعض متخذى القرار قد حادوا ، عن جهل أو عن علم ، عن هذه السياسة حتى أصبح فى مصر اليوم نظم مختلفة وكثيرة للتعليم أخشى أنها ستؤدى فى نهاية المطاف إلى

تفتيت الأمة - فإليك أولا نظام الكتاتيب الذى عاد الآن فى صورة مدارس ومعاهد دينية امتدت فيها الدراسة حتى مستوى الثانوية العامة مما يؤهل حاملها لدخول كليات جامعة الأزهر دون الحاجة إلى المرور على مكاتب التنسيق وهذه المدارس مقصورة على أهل مصر من المسلمين فقد أغلقت كتاتيب الاقباط منذ قيام ثورة سنة ١٩١٩ ولم يعد لها وجود ولم تقم الدولة بانشاء نظام مماثل للمواطنين الأقباط كما فعلت لمواطنيها المسلمين .

وإليك ثانيا المدارس الابتدائية المدنية المفتوحة أمام كل المواطنين والتى ازدادت فيها جرعة علوم الدين على حساب علوم الدنيا . وهذه المدارس مفتوحة حتى الثانوية العامة فالجامعة التى يحدث على دخولها تنافس شديد يتم فى إطار مسابقة يئن من هولها الكثيرون - وقد أدى ازدحام هذه المدارس وتغير مناهجها وإهمالها لعلوم المستقبل إلى ظهور مدارس النظام الثالث مدارس اللغات الخاصة ذات المصاريف الباهظة التى لايقدر عليها إلا الأغنياء وهذه تؤدى فى النهاية إلى الجامعة التى يفضل أن تكون أجنبية بما فى ذلك الجامعة الامريكية بالقاهرة التى أصبح الالتحاق بها هدفا لكل عائلة تطمح فى التقدم فى السلم الاجتماعى .

وهكذا أصبح فى مصر ثلاثة أنظمة تعليمية مختلفة تعمق وتكرس الاختلافات الفكرية والطبقية للأمة مما سيؤدى ليس فقط إلى سوء الفهم الكامل بين خريجى هذه الأنظمة بل وإلى اختلاف هويتهم وأهدافهم وتنافر رؤياهم للعالم المحيط بهم - وقد أدت نفس هذه السياسة التعليمية إلى المأساة التى نراها فى الجزائر المعاصرة حين انقسمت الأمة حتى أصبح من العسير على النخبة قبول أفكار العامة فى طرق الحكم والنظرة إلى العالم ومما يزيد الأسى أن أفكار العامة هذه كانت من صنع النخبة نفسها التى رأت فى تشجيع المبادئ الأصولية تكريسا لمركزها - والحقيقة التى لامراء فيها هو أن قيام الديمقراطية لا يجيئ إلا عندما يكون للناس لغة مشتركة يختلفون ويتحاورون فى إطارها .

ومثل هذه اللغة المشتركة لا تأتى إلا بتوحيد التعليم الابتدائى ووضع المناهج الصالحة له ففيه تنخرط بنات وأبناء الأمة لكى يؤصل عندهم تصور واحد أو متقارب للوطن وقواعد للمواطنة والسلوك السوى - وهذا الغرض من التعليم الابتدائى لا يقل إن لم يزد أهمية عن غرض اعداد المواطن للحياة الحديثة وتلقينه المعارف الأساسية لإعداده لمجابهة المستقبل الملئ بالتحديات .

● الجماعات المتطرفة الآن ترمى المسلمين جميعا بتهمتين : الفسوق والكفر .. أمّا الكفر فمعناه معروف وأما الفسوق فهو الفجور والخروج عن الحق !.. ويسُبُّ المتطرفون المسلمين سبابا فاحشا فى كتبهم ونشراتهم ، ويقاتلونهم بالسلاح .. فانطبق على المتطرفين قول النبى عليه السلام : «سِبابُ المسلم فسوق ، وقتاله كفر» .. أى أن الفسوق والكفر يقعان على المتطرفين الخوارج لا على المسلمين ، لأن السباب والقتال إنما يأتيان من جهة المتطرفين الخارجين على الجماعة ..

● وأسرعُ ما ينطقه المتطرفون كلمةُ التكفير ، وفى حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله قال : «أيُّما رجلٍ قال لأخيه : يا كافر .. فقد باء بها أحدهما»... ومعنى : «باء بها» .. رجع بهذه الكلمة فصارت صفة له .

● يتحدثون الآن عن مضاعفة جائزة الدولة . ومعنى «الجائزة» فى الأصل : «العطاء» .. ويكثر فى الكتب القديمة قولهم : أجاز الخليفة فلانٌ .. الشاعر فلاناً .. أى أعطاه .. وفى الحديث الشريف : «.. من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكْرِمْ ضَيْفَهَ جَائِزَتَهُ» .. أى : ضيافته .. والتاء فى «جائزته» مفتوحة مثل الفاء فى «ضيفه» فهذه مفعول أول ، وتلك مفعول ثانٍ .

● مــن عجائب الالتباسات اللغوية ما قرأناه من قولهم : «إن فلانا يقع فى الآثام ويزداد بمرور الأيام تأثما» !.. وكلمة «التأثم» هنا خطأ وتؤدى عكس المعنى الذى أراده كاتبها .. ذلك أن التأثم هو اجتناب الإثم والابتعاد عنه لا الوقوع فيه كما ظن صاحب ذلك القول !..

● من قولهم وقولنا : «هذا البيت يتألف من أربع حجرات أو خمس» .. وأصل «الحجرة» الموضع المنفرد فى البيت ، فيكون البيت سقيفة واسعة ، وتكون الحجرة بناءً منفرداً فى جانب من البيت .. وكانت غالبية بيوت أهلنا فى قرى الصعيد الأعلى تقام على هذه الصورة حتى الثلاثينات ، كأنها تخلَّفت أكثر من ألف سنة عن الحضارة العربية الإسلامية التى اتسعت فى بناء القصور والدور ذات الحجرات والمقاصير .

سلامة موسى وأسئلة تبحث



سلامة موسى



جورجي زيدان

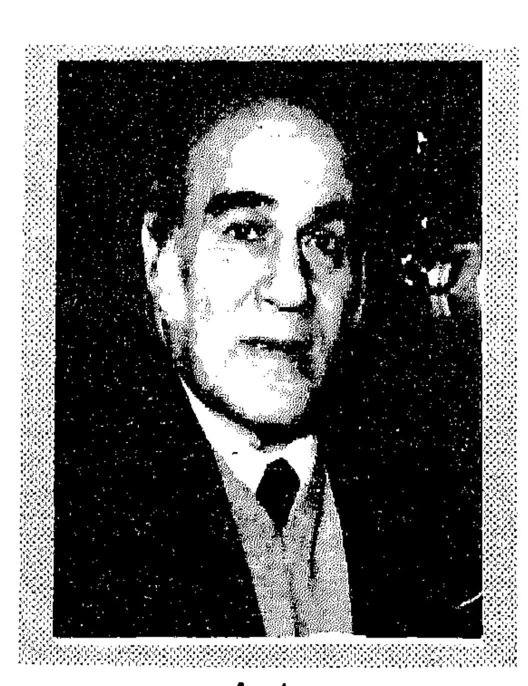
نشرت الهلال مقالا يتناول الرسالة التي نوقشت أخيرا حول المقالة عند سلامة موسى، وعلاقته بمجلة الهلال، والظروف التي نشأت بعد الخلافات بين دار الهلال وسلامة موسى.

وقد وردت إلينا فور نشر المقال هذه الرسالة من ابنة الدكتور رءوف يتناول فيها الرد على بعض القضايا من وجهة نظره.

عندما اتصلت بنا الآنسة ايمان السعيد منذ حوالي ثلاثة أعوام لمساعدتها في بحثها في موضوع «المقالة عند سلامة موسى» لنيل درجة الماجيستير من قسم اللغة العربية بكلية الألسن بجامعة عين شمس، حاولنا جميعاً (أنا وأخواتي) مساعدتها وتزويدها بما نستطيع ولفتنا أنظارها إلى أعمال عديدة، تمت في مصر، والبلاد العربية، والخارج. وذكرت لها أن الأمريكي فيرنون إيجر في رسالته لنيل درجة الدكتوراه من جامعة ميتشجان بالولايات المتحدة الامريكية، قد عاش في

عن إجابات! بقلم : د . رءوف سلامة موسى


حافظ محمود


مصطفى أمين

مصر متفرغا لموضوعه أكثر من عامين، قرأ فيهما الكثير. وقابل خلالهما العشرات وأنه مثلا كي يتحقق من عضوية سلامة موسى بالجمعية الفابية في لندن في أوائل القرن، سافر الى هناك، وبحث في أوراقها. واهتدى إلى تاريخ اشتراك سلامة فيها، ورقم اشتراكه، ومحل اقامته بشارع راسل الكبير خلف المتحف البريطاني.

وقد كانت رسالة ايجر هامة جدا لبحث الآنسة ايمان، لأنها تتناول نفس الحقبة من حياة سلامة التي تناولتها الآنسة ايمان، وقد أوفاها ايجر حقها من الدراسة والنقد.

وأنا لم أطلع مع الأسف حتى الآن، على رسالة الآنسة ايمان، رغم وعدها لي باهدائي نسخة منها عند اتمامها. ولكنني اطلعت بدهشة بالغة على مقال الاستاذ عاطف مصطفى في «الهلال» هذا الشهر (مارس ١٩٩٣) في موضوعها.

وقد فوجئت أن أكثر الأسئلة التي أخذت الآنسة ايمان تبحث لها عن أجوبة قد تناولتها أعمال ايجر وغيره من الباحثين. وأن الغبار الذى ثار في بعض الأوقات حول بعض النقاط قد ركد تماما. وللأسف أن الآنسة ايمان قد ناقشت رسالتها في نفس الوقت الذى ظهر فيه كتابي «سلامة موسى، أبي» الذى تناولت

فيه أنا نفسي كثيرا من هذه النقاط.

واسمحوا لى أن أتقدم لكم بخمس نقاط لا غير...

كتب سلامة موسى أولى مقالاته لمجلة «الهلال» من لندن في عام ١٩١٠. واستمر يواليها، ويوالى «المقتطف» أيضا فى نفس الفترة، بمقالاته من لندن، ثم القاهرة، ثم الزقازيق، ثم القاهرة، حتى ٢٣ حين أصبح «محررا» لمجلة «الهلال». وتعبير «المحرر» يقابل فى الانجليزية وغيرها تعبير Edi-tor. لأن استخدام تعبير «رئيس التحرير المسئول»لم يكن قد شاع بعد فى بلادنا. وهو تعبير استخدمه سلامة أيضا فى وصف عمله فى مجلاته التالية: صاحبها ومحررها.

وفى أعداد «الهلال» بين ١٩٢٣ و١٩٢٩ مقالات عديدة باسم سلامة موسى، أو المحرر، أو س، أو س.م، أو بدون أيضا، وكلها لسلامة موسى، كما يدل على هذا بوضوح تام: الموضوع، والتناول، والأسلوب.

وفى نوفمبر ١٩٢٥، أصدرت دار الهلال مجلة أسبوعية جديدة باسم «كل شئ» تولى سلامة أيضا تحريرها.

ويلاحظ أن مؤسس الهلال: جورجى زيدان، كان قد توفى فى القاهرة فى ١٩١٤. مما جعل ابنيه: إميل وشكرى زيدان يقطعان دراستهما فى مدارس بيروت اليسوعية، ويحضران للقاهرة. ولم يكن كل منهما يجاوز العشرين بينما كان عمر سلامة يقارب الخامسة والثلاثين.

يذكر ايجر فى رسالته أن سلامة موسى قد ذكر لأميل وشكرى زيدان (وقد قابل ايجر الاول وتحادث معه فى القاهرة فى أواخر السبعينات عندما أراد الاستقالة من «الهلال» فى أوائل عام ١٩٢٩، أنه يحب أن يصدر صحيفة يومية وأخرى شهرية خاصتين به. ولكن سلامة لم ينجح الا فى الحصول على امتياز بمجلة شهرية. أسماها «المجلة الجديدة». وأصدر أول أعدادها فى نوفمبر ١٩٢٩.

ويكاد ايجر أن يتفق (فى رسالته) مع شيخ الصحافة المصرية حافظ محمود (فى كتابه عمالقة الصحافة) فى أن السبب فى ترك سلامة لمجلة «الهلال» هو العطف الكبير الذى أسبغه صاحبها على كريم ثابت، الذى كان قد التحق وقتها بها. وعلى أن هذا قد أدى إلى تحول واضح للدار فى ممالئة القصر الملكى وساكنه، الذى كان سلامة يكن له كراهة واحتقارا كبيرين.

وأود أن ألفت النظر هنا، إلى أن دار الهلال لم تكن تحمل لسلامة حتى هذا الوقت أية ضغينة أو عداء.

ولكن سلامة موسى لم يكن راضياً عن التحول المضطرد فى تأييد دار الهلال للملك والملكية، ومحاولة استرضاء أية حكومة

مصرية قائمة. وقد انتهى إلى أن صاحبيها يفعلان ذلك من أجل مصالحهما التجارية والخاصة. أى من أجل جمع المال. وإلى أنهما لهذا السبب أيضا ينجحان، حيث يخفق المصريون، لأن الأخيرين يضعون أمام ناظريهما أشياء أخرى، قبل المال.

فلما اشتدت حملة وزارات الأقلية المتتابعة فى أوائل الثلاثينات على دور الصحافة الوطنية المصرية. وأقفلت أكثر هذه الدور، وتشتت أكثر كتابها الوطنيين. أمثال محمود عزمى، والعقاد، واسماعيل مظهر، انبرى سلامة يدافع عن هذه الدور المصرية والكتاب المصريين، أمام ما أسماه بالدور «الشامية» والكتاب «الشوام».

ونلاحظ أن حملة سلامة لم تقتصر على صاحبى دار الهلال أو الصحفيين «الشوام». وإنما هو أخذ يهاجم - إلى جانب الرجعية المصرية - الاستعمار الانجليزى أيضا. ولما كان أساس الاستعمار عنده هو الاقتصاد. ولما كانت الدولة المستعمرة لا تلجأ للاستعمار الا لمصالح اقتصادية، من أهمها استيراد خامات الدول المستعمرة، وتصدير منتجاتها المصنوعة فيها إليها. ولهذا فهى تعرقل قيام الصناعة الوطنية، وتعمل على حفظ التقاليد (انظر إلى موقف الاستعمار الانجليزى فى مصر من الحجاب أو تعليم النساء)، وتعادى كل تطور وتقدم وتمدن فى البلد المستعمر. فقد أخذ سلامة يهاجم الاستعمار الانجليزى فى مصر على هذا الجرح الدامى، وهو اقتصاده فى مصر.

وفى سبيل هذه الدعوات (ولم تكن دعوة واحدة) أصدر سلامة مجلاته الأسبوعية.

وأسس وتزعم جمعية «المصرى للمصرى» التى كانت تدعو إلى استخدام كل ما هو مصرى. والاستغناء عن كل ما هو أجنبى، فى مأكل أو مشرب أو ملبس أو غيرها.

وقد أصابت هذه «الدعوات» المصالح الأجنبية، وأيضا الصحافة الشامية فى مصر فى مقتل. ووجد ايجر بمراجعة أوراق وزارة الخارجية البريطانية، أن موضوع هذه «الدعوات» قد أقلق بال الانجليز فى مصر. وكان موضوعا متكررا لتقارير ممثليها فى القاهرة.

وذكر مصطفى أمين لايجر (وكان أحد أعضاء المصرى للمصرى) أن دعوات سلامة كانت من القوة والفعالية بحيث كادت تفلس جميع الصحف الشامية فى مصر، وفى مقدمتها دار الهلال والأهرام والمقطم.

وقد شرحت فى فصل «فى مواجهة الاستعمار والاستبداد وأذنابهما» فى كتابى «سلامة موسى.. أبى» كيف تكاتف المستعمر الأجنبى مع الرجعى والمستبد المصرى، والصحفى الشامى، على العصف

ـ منذ ديسمبر ١٩٣٠ وخلال عام ١٩٣١ ـ بسلامة وأدواته، والقضاء على دعواته.

ففصله المجمع المصرى للثقافة العلمية من عضويته. وكان أحد أعضائه المؤسسين، وأحد المحاضرين فى أول دورة لجلساته.

وزودت وزارة الداخلية دار الهلال وغيرها بأوراق زعمت أنها تدينه وتشينه وتحطه.

ثم أغلقت تلك الوزارة صحفه جميعاً، واحدة بعد أخرى، ومرة بعد مرة.

وثارت عليه مجموعة جاهلة أو مأجورة فى جمعية المصرى للمصرى. ففصلته من رئاستها ثم سرعان ما أغلقت الجمعية أبوابها.

فجلس سلامة حزينا ووحيدا فى بيته. وأقام المستعمرون والمستبدون والرجعيون والصحفيون الشوام الأفراح. وأطلقوا الزغاريد.

وأوراق وزارة الخارجية البريطانية التى كشف عنها ايجر تؤكد أن ما حدث لم يكن حادثاً فردياً أو طارئاً. وإنما كان مخططاً واسعاً وشاملا. نجح فى القضاء على «دعوات» سلامة. ولم تقم لبعضها بعد ذلك قائمة.

والناس تسمع، وليس لديها الرغبة أو الوقت كى تتحقق. وقد نجح المستعمرون والمستبدون فى احاطة سلامة موسى بالاشاعات والأقاويل والتهامات، التى لا تزال تتردد حوله وحول اسمه إلى اليوم.

وقد وجد ايجر أن الأوراق التى زعمت دار الهلال فى عام ١٩٣١ أن سلامة قد كتبها قبل ذلك بعامين (أى فى عام ١٩٢٩) وأنها تدينه وتشينه وتحطه. قد أرسلها سلامة لوكيل وزارة الداخلية المصرية المختص، طالبا فيها التصريح له باصدار جريدة يومية تتحدث باسم أقباط مصر. وماذا فى ذلك؟.. وكيف بلغت هذه الأوراق يد متهميه بعد كتابتها بعامين؟. وأن سلامة قد وعد وكيل الداخلية بتأييد الأقباط له. وماذا كانوا يريدون أن يقول؟. تفضل على بالترخيص ، وسوف أعارضك وأهاجمك وألعنك؟

وقد لاحظ ايجر بحق أن الخطاب الذى زعمت دار الهلال ان سلامة قد أرسله لوكيل الداخلية قد نشر فيها على جزءين، وحذف منه قسم غير معروف. ولم يستطع ايجر الاستدلال عليه.

وأن الفقرات التى استخرجت من سياق مقالات سلامة، للتدليل على أنه كاتب «اباحى» و «ملحد». وعلى أنها كتابات «مسمومة» ، «فاضحة». و «معادية» للعروبة و«الإسلام». قد نشرت كلها قبل ذلك بأعوام، فى صحف الدار نفسها: دار الهلال. وقد كانت تقطر عند كتابتها ونشرها عسلاً، فأصبحت تقطر بعد اختلافه مع دار الهلال وتصديه للاستعمار والاستبداد وأذنابهما، سماً.

أثر الدراما التليفزيونية على الوجدان

بقلم : وفية خيرى

تعددت أجهزة الاعلام وتنوعت وطرأ عليها الكثير من التطورات بحيث اصبحت تشغل حيزا كبيرا من حياتنا واهتماماتنا، ونعنى باجهزة الاعلام الصحف والاذاعة والتليفزيون بما يبثه من برامج وما يلتقطه من مواد من القنوات الفضائية المختلفة عبر الاقمار الصناعية التى تجوب الفضاء ، والتى تتيح هوائيات الاستقبال رؤيتها من أى مكان فى العالم .

من هنا تأتى خطورة هذا الجهاز "المبهر الساحر" الذى طغى على كافة الأجهزة الأخرى ، ونقل الخبر المصور فى لحظة وقوعه وسبق الصحيفة ، وامكن بفضل تقنيته المتطورة التنقل من مكان لآخر فى العالم فى سرعة مذهلة ، هذا فضلا عن إتساع دائرة مشاهديه لتشمل ملايين المشاهدين ما بين أميين ومتعلمين .

لهذا السبب يتضح لنا خطورة الرسالة التربوية لهذا الجهاز الخطير وخاصة بالنسبة للشباب ، ومن هنا أيضاً تأتى أهمية ما يقدمه من إنتاج درامى (تمثيليات ومسلسلات) فغنى عن القول أن أكثر البرامج تأثيرا على وجدان المشاهدين هى التى تقدم فى شكل درامى تمثيلى حيث تتسلل القيم والمعانى التى يراد إيصالها للمشاهد بشكل غير مباشر .

الإقناع الفنى والطرافة

لذلك حرص التليفزيون فى بداية إرساله على تقديم مسلسلات هادفة موجهة مثل حلقات "عادات وتقاليد" و"القاهرة

والناس" و"سيداتى أنساتى" "مواقف إنسانية" و"الناس والفلوس" وغيرها .

هذه الحلقات الدرامية الموجهة لم تكن تخلو ، مع ذلك ، من إمتاع فنى وطرافة وحبكة فنية ، فكان جمهور المشاهدين يقبل على مشاهدتها وتتبعها ومناقشتها حيث كانت تقدم لهم عناصر توجيهية وتربوية ضمن نسيج الأعمال الدرامية المقدمة على النحو التالى :

(١) صورة البطل المثالى الذى يكافح ضد الفساد والمفسدين ويرسى القواعد والمبادئ البناءة الشريفة ، وكانت صورة البطل هذه تتخذ أحيانا دور البطل الفرد وأحيانا صورة البطولة الجماعية ممثلة إما فى عائلة مناضلة شريفة وإما فى عدة أفراد يجمعهم مكان واحد .

غنى عن القول أن الشباب فى بحث دائم عن مثل عليا يحتذى بها فى حياته فإن لم يجدها فى الواقع بحث عنها فى الخيال ، وهنا مكمن الخطر حيث تتسلل المبادئ المنحرفة إلى الشباب مغلفة بصورة البطولات الزائفة لذلك فعندما كانت هذه المسلسلات تقدم صورة البطل أو الأبطال المثاليين الشرفاء - من واقع الحياة اليومية -كان الشباب يجد فيهم ضالته فيتخذهم قدوة ومثلاً أعلى يحتذى به ، فلا يضطر إلى أن يلهث وراء أبطال وهميين .

(٢) عرض المشاكل الاجتماعية التى تواجه الإنسان فى حياته اليومية .

حيث كانت هذه البرامج تعرض لنا نماذج من الأسر المصرية العادية لكل فرد فيها مشاكله اليومية ، فكان المشاهدون يرون أنفسهم فى هذه النماذج فيتعاطفون معها ويقتنعون بها .

(٣) محاولة ايجاد الحلول على ضوء المبادئ والقيم السائدة .

كانت هذه البرامج تعمد فى نهاية كل حلقة إلى إيجاد الحلول للمشاكل المعروضة فى ضوء التوجهات الاجتماعية والفكرية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت ، فكانت تكرس هذه المبادئ والقيم أولا كما كانت تلقى بظلال من الأمل فى إمكانية تفهم الدولة (ممثلة فى جهاز اعلامها) للمشاكل اليومية للناس العاديين وخاصة الشباب منهم وتقديم الحلول لها .

★ ★ ★

لأسباب كثيرة لم تعد هناك برامج درامية موجهة بالتليفزيون ، فإن قدمت فبشكل دعائى مباشر مما ينفر المشاهدين منها مثل مسلسل "ولا زال النيل يجرى" و"سر الأرض" وغيرهما ، الخطأ ليس فى التوجه الفكرى والاجتماعى فهو أمر ضرورى وحتمى ، ولكن الأسلوب المباشر الدعائى هو المرفوض .



لا خلاف إذن على ضرورة إيصال القيم الاجتماعية والفكرية والتربوية المراد إيصالها للمشاهد وخاصة الشباب منهم ضمن نسيج الأعمال الدرامية المقدمة ، فلا توجد دولة فى العالم مهما كانت درجة الحرية الفكرية التى تتمتع بها لا تدخل توجهاتها ، فكرية واجتماعية وسياسية ضمن برامجها الدرامية وأيضا ضمن عروضها السينمائية والمسرحية حتى فى الولايات المتحدة نفسها ، بكل ما يكفله لها نظامها من ديمقراطية وحرية فكر ، فلا يمكن أن يترك أمر هذه الأجهزة الإعلامية والثقافية الخطيرة للاجتهادات الشخصية للمؤلفين أو المنفذين .

ويمكن تلخيص الأسباب التى أدت إلى اختفاء ، معظم البرامج الدرامية الموجهة فيما يلى :

أولا : عدم وجود توجهات اجتماعية وفكرية محددة واضحة المعالم بوجه عام بعد فتح جميع الأبواب والنوافذ لمختلف التيارات الفكرية مما أدى فى أحيان كثيرة إلى تناقض هذه التيارات مع بعضها البعض ، وقد يكون بعضها مناهضا لسياسة الدولة ذاتها .

ثانيا : تحول الانتاج الدرامى التليفزيونى إلى انتاج موجه إلى التصدير تحقيقا للربح المادى على حساب أى قيمة فكرية أو توجهات اجتماعية .

ثالثا : ظهور شركات قطاع خاص للانتاج الدرامى التليفزيونى ، بعض هذه الشركات لها توجهات خاصة ، وجميعها لا يستهدف سوى الربح المادى ويلجأ التليفزيون المصرى إلى شراء وعرض بعض الانتاج الدرامى لهذه الشركات ، بحيث يظهر هذا الانتاج وكأنه من انتاج التليفزيون ، فتبدو بعض توجهات هذه الشركات الخاصة وكأنها التوجهات الرسمية للدولة مما يسبب بعض الخلط بالنسبة للمشاهد .

رابعا : التركيز على سلبيات المجتمع دون ايجابياته وخاصة بالنسبة للاعمال التى ينتجها القطاع الخاص ، مما أشاع روح اليأس والتشاؤم والاحباط بوجه عام ، ودفع الشباب إلى السلبية واليأس من المشاركة فى أى جهود توجه نحو التغيير أو الإصلاح الاجتماعى .

أنا لا أنكر أن بعض الانتاج الدرامى التليفزيونى الآن على درجة عالية من الجودة ، إلا أننا إذا نظرنا إلى الناحية التربوية فى بعض المسلسلات الناجحة والممتعة لا نجد أثرا لها ، بل هى لمجرد التسلية بهدف التصدير الى الخارج ، باستخدام عنصر الابهار فى التمثيل والاخراج والتأليف والتقنية العالية فى التنفيذ .

هناك بعض الانتاج الدرامى القليل الذى يمكن أن يستثنى من ذلك حيث استطاع صانعو هذه البرامج والتمثيليات والمسلسلات أن يجمعوا بين الامتاع والتسلية وعنصر التربية والتوجه ، إلا أنها قليلة للغاية ولا تمثل اتجاها عاما .

واذكر اننى سمعت تعليقا - فى أحد المهرجانات السينمائية على فيلم سينمائى من انتاج التليفزيون حيث تعرض الفيلم لبطولات حرب اكتوبر ، سمعت أحد المشاهدين يعلق على هذا الفيلم قائلا : (أنه يشعر أن صانعى هذا الفيلم يأتون إلينا من كوكب آخر بما يقدمونه لنا من فن هادف ومؤثر عالى الجودة) إلى هذا الحد بلغت ندرة البرامج الدرامية التربوية فى التليفزيون المصرى بحيث أصبح ينظر إلى من يقدم لنا مثل هذه البرامج على أنه إنسان قادم إلينا من كوكب آخر .

وفى الوقت الذى يحدث فيه ذلك يطل علينا عبر الشاشة الصغيرة سيل من المسلسلات التافهة الخالية من أى مضمون، فضلا عن هجمة من الاعلانات المثيرة المستفزة . وإذا كان هناك توجه فهو توجه سياسى محض دون الربط بين السياسة والحياة اليومية والمشاكل الاجتماعية والاقتصادية التى يواجهها الفرد العادى .

إن تفريغ البث التليفزيونى من محتواه الفكرى والتربوى قد واكبه فى نفس الوقت تفريغ للمسرح أيضا من هذا المحتوى ، حيث أصبحنا نعيش عصر المسرح التجريبى والعبثى الذى يخلو من أى معنى، ويصبح ما يقدم إلينا مجرد شكل بالغ الحداثة والغرابة ، كما أصبحنا نعيش من جهة أخرى - عصر المسرحيات التجارية الهابطة المبتذلة حتى فيما تقدمه مسارح الدولة .

مسرحيات قليلة هى التى أفلتت من ذلك، وكانت تحتوى معنى ومضمونا ، وهذه لاقت من الجمهور كل اقبال وتشجيع .

لذلك واسترشادا بالعناصر التوجيهية التى كانت تميز الدراما التليفزيونية - فى بداية الإرسال التليفزيونى - والسابق ذكرها ، فيمكن للدراما التليفزيونية ان تسهم فى إحداث التغيرات الاجتماعية المطلوبة بين الشباب بشكل غير مباشر ، ومن خلال نسيج العمل الدرامى نفسه على الوجه التالى :

بالنسبة للعنصر الأول وهو صورة البطل المثالى أو النموذجى يمكننا أن نقدم النماذج الآتية :

١) الشاب العصامى الذى يبدأ من الصفر ويبنى نفسه ويصنع مستقبله بمجهوده الذاتى إلى أن يصل إلى تحقيق النجاح .

٢) الحرفى الناجح الذى ينال اعجاب الجميع واحترامهم بفضل اتقانه لعمله واحترامه لنفسه وأمانته وحسن أخلاقه .

٣) الشاب الذى يملك روح المبادرة الفردية فيعمل على انشاء المشروعات العامة لنفسه ولمجتمعه .

٤) الشاب الذى يملك روح الابداع والابتكار مع توضيح مفهوم أن الفكر المبدع المتحرر لا ينشأ إلا فى ظل مجتمع متحرر ، وانه كلما أعطينا حرية للناس وللمجتمع كان ابداع الأفراد فيه أكبر وعطاؤه أشمل .

وبالنسبة للعنصر الثانى وهو عرض المشاكل اليومية التى تواجه الشباب على أساس النماذج المقدمة سوف تختلف المشاكل التى تواجه الشباب اليوم عن المشاكل التى كانت تواجهه فى الماضى-، فالشباب اليوم يواجه عالما متغيرا ، والمجتمع أيضا سوف يواجه شبابا

مختلفا، وعلينا أن نعرض من المشاكل ما يمس العلاقات الإنسانية مثل علاقات العمل والحب والزواج ونظرة المجتمع إلى النماذج الجديدة من الشباب، وما يجب أن يحيطها من احترام وتقدير واعجاب.

وبالنسبة للعنصر الاخير وهو حل هذه المشكلات يكون متماشيا مع المتغيرات التى تحدث فى المجتمع على أساس احترام العمل اليدوى والحرفى وابداعات الفكر والفن، وبذلك نرسى هذه القيم فى المجتمع بشكل غير مباشر.

بعض الأفكار المقترحة للنهوض باجهزة الاعلام وخاصة التليفزيون :

أولا : تفتقر معظم أجهزة الاعلام إلى خطة شاملة للتوجه الاجتماعى والتربوى للدولة بحيث تدخل هذه التوجهات فى جميع برامجه، وفى نسيج الأعمال الدرامية المقدمة حتى لا تتخبط هذه الاجهزة بين الأضداد، مما يشتت أفكار الشباب ويحدث بلبلة بينهم، وليست هناك دولة فى العالم ليس لديها هذه الخطة الموجة مهما كانت درجة حرية الفكر السائدة فيها.

ثانيا : جعل الانتاج الدرامى خدمة عامة بقصد احداث التنمية الاجتماعية والفكرية فى المجتمع لتحقيق التغيير الاجتماعى المطلوب، وإلاّ يوجه هذه الانتاج نحو التسلية والمتعة بهدف التصدير لتحقيق الربح مع عدم التوسع فى شراء وعرض الاعمال الدرامية من انتاج القطاع الخاص، حيث أن كثيرا من هذه الأعمال يخلو من أى قيمة فكرية يعتد بها، فى الوقت الذى يلاحظ فيه أن شركات الانتاج الخاص تعمد - فى هذه الأعمال - إلى اظهار سلبيات المجتمع المصرى.

وإذا كان لابد من عرض هذه الأعمال بالتليفزيون المصرى فيكون عرضها فى قناة خاصة بالاعمال التجارية - لا بالقناة الأولى كما يحدث الآن - وينوه على أنها ليست من انتاج التليفزيون المصرى ليكون للتليفزيون قيمه ومبادئه.

ثالثا : زيادة ساعات البرامج التى تعظم من دور العلم وقيمة التفكير العلمى لدى الشباب حتى يتمكن من مواجهة تحديات المستقبل فى عالم سار خطوات متقدمة واسعة نحو ترسيخ قيمة العلم والعلماء وحقق منجزات علمية هائلة وذلك بالتوسع فى فتح النوافذ عبر أجهزة الاعلام - وخاصة التليفزيون على الحضارات المعاصرة للعالم الخارجى وما حققه من منجزات وخاصة فى مجالات العلم.

رابعا : التوسع فى عرض صورة الأبطال العالميين - ليس فقط المعاصرين

منهم - بل أيضا من تركوا بصماتهم عبر التاريخ بما قدموه للإنسانية من منجزات فى شتى المجالات ، حتى يكونوا قدوة للشباب ومثلاً أعلى يحتذون به .

خامسا : لما كان المرء دائماً ينفر من الشيء الذى يجهله ويناصبه العداء لذلك يجب تعريف شبابنا بالثقافة العالمية . بتقديم روائع المسرح العالمى والأدب العالمى لهم وأن يعود التليفزيون لتقديم برامج لها قيمتها - اختفت الآن من على خريطة التليفزيون - مثل (المسرح العالمى) و(القصص العالمية) التى تحمل لنا قيما انسانية وأخلاقية .

تحويل جهاز البث التليفزيونى إلى جامعة متحركة :

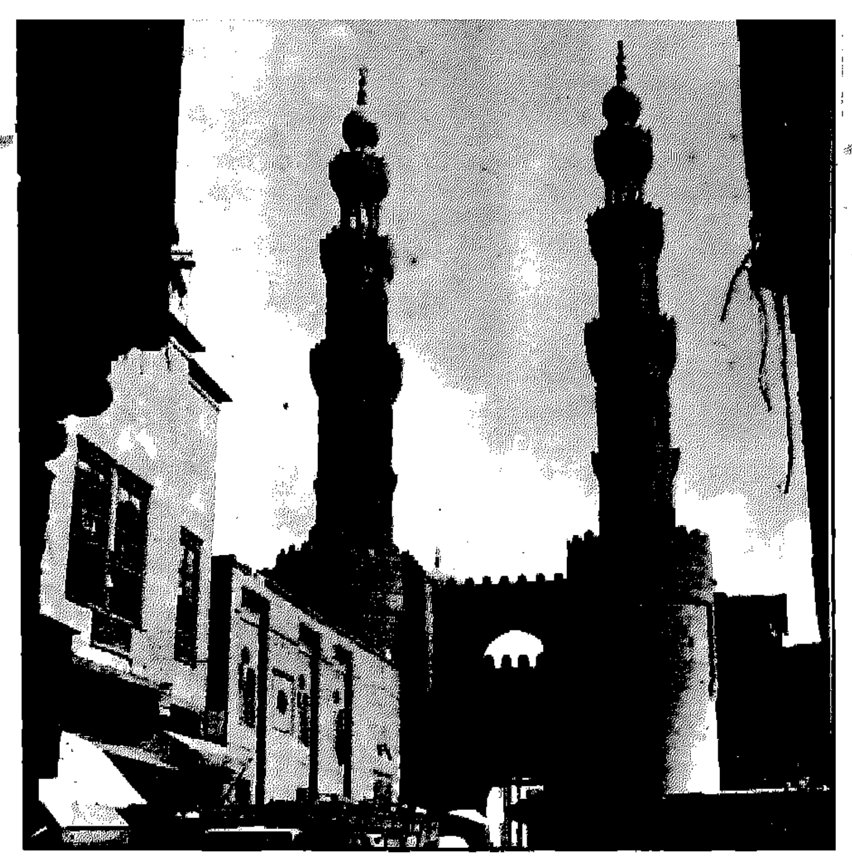
إذا راعينا ما سبق فيمكن أن يتحول جهاز البث التليفزيونى إلى جامعة متحركة، بأن تتعاون وزارتا الإعلام والثقافة والاستعلامات والمدارس والمعاهد والجامعات وغيرها فى تنفيذ مشروع قومى لنشر البث التليفزيونى على أكبر عدد ممكن من أفراد الشعب الذى يتعذر عليه اقتناء جهاز تليفزيونى قوى ومواصلة صيانته والاعتناء به على الوجه الأكمل .

ويمكن أن يتم ذلك مع تخصيص الساحات والأماكن العامة - وخاصة فى القرى والنجوع والكفور - البعيدة عن العمران - للعرض التليفزيونى على شكل نواد خاصة باشتراك رمزى حيث تعرض من خلالها الأعمال التليفزيونية الموجهة تعقبها مناقشات وندوات لمناقشة الأعمال المعروضة واستخلاص أهم ما فيها من أفكار ومبادئ .

مثل هذا الاقتراح من شأنه أن يعمل على التقريب بين أفكار فئات الشعب المختلفة وخاصة الشباب منهم وتحديد من هى الفئة الأكبر عددا والأولى من غيرها من فئات الشباب لان نوليها اهتمامنا عبر جهاز البث التليفزيونى .

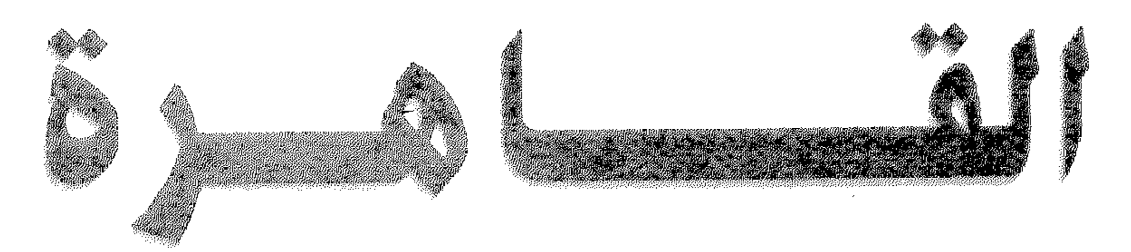
ان اتساع القاعدة العريضة لمشاهدى التليفزيون المرتقبين بعد تنفيذ هذه التجربة سوف تنير لنا الطريق لكى نقدم لهذه القاعدة العريضة من المشاهدين ما تحتاج إليه بالفعل من فكر وفن وعلم ، لا ما نعرضه نحن عليها حاليا ، ولن يتأتى ذلك إلا بفتح الباب أمام هؤلاء المشاهدين للمناقشة فيما يقدم لهم من أعمال ، حتى يتسنى تطوير البرامج وتقديمها لهم بالصورة التى تناسبهم .

وبذلك فقط يمكننا أن نصل إلى قلوبهم وعقولهم ونخاطبهم بلغتهم ، وبذلك نستقطب الشباب منهم ليدخلوا فى نسيج مجتمعهم ويسهموا فى بنائه وتطويره ليتعايش مع حضارات العالم وتقدمه .



بوابة المتولى
إحدى بوابات
سور القاهرة

يــوم
كانت



عاصمة
الدنيــا



باب الفتوح
ومسجد الحاكم بأمر الله

بقلم : مصطفى نبيل

تعانى القاهرة من التكدس والزحام ، تحاصرها المصاعب بعد أن تضخمت ، وتحولت من مركز للتحديث والتطور إلى عقبة أمامهما ، وكادت تصل إلى حالة العجز ، فطرق مصر كلها تصب فيها ، ولا تتمكن من وقف الزحف إليها من كل أنحاء البلاد .

وتقاسى القاهرة من المركزية الشديدة ، رأس كبير وجسم ضعيف ، تحيطها الأحياء العشوائية ، ويكاد يصل تعداد سكان القاهرة إلى ربع سكان مصر كلها ...

وبدأت اليوم بوادر اهتمام كبير بحل مشاكل العاصمة ، ويتوق أهلها لوضع حد لمتاعبها ، ومع هذه المحاولة الكبيرة نتذكر أيام عزها ، يوم كانت عاصمة الدنيا وحاضرة الحواضر ... بشرط أن لا يمنع مجد الماضى من رؤية بؤس الحاضر .

ليس صحيحا أن عمر القاهرة ألف عام فحسب بل آلاف الأعوام ، فعندما احتفلوا بألفية القاهرة ، احتفلوا بالقاهرة المعزية التى بناها جوهر الصقلى ، وتجاهلوا أنها وريثة منف القديمة ، وأطلق عليها من قبل الفسطاط والقطائع والعسكر، ولم تنازعها مكانتها سوى طيبة والإسكندرية ، ترتمى تحت أقدام أبى الهول والاهرام ، وهى أقدم عاصمة فى العالم .

وهى عاصمة مصر معظم الوقت ، وفى بعض العصور عاصمة الدنيا ، وإن لم يكن فهى ند لأكبرها ، هكذا كانت مع بغداد ودمشق واسطنبول .

وصفحة التاريخ المصرى مدونة ومسجلة ، بعد أن قدر لكل مراحل التاريخ أن تجد من يسطر أحداثها ويسجلها بما فيها تاريخ القاهرة ، ويكاد يندر فى تاريخ مصر الفجوات ، بما لا يقارن مع تواريخ المجتمعات البشرية الأخرى ...

وإذا أعدنا قراءة التاريخ ، بعين منصفة وفى إطار سياقه الطبيعى .

وخاصة أنه كلما تزايدت المصاعب التى تواجه مصر الحديثة ، زادت محاولة إخفاء جوهر الرسالة الحضارية للشعب على ضفاف النيل ، وعدم النظر إليه باعتبار الماضى تجربة إنسانية ، وسجل لأعمال المواطن وأفكاره ، عندها تظهر عبرة التاريخ . ونبتعد عن التفاخر والغطرسة الفارغة ، كما نبتعد عن النظرة الظالمة المتحيزة التى تنظر للماضى بمقاييس الحاضر ...

وهذه بعض ملامح تاريخ القاهرة ومصر المحروسة .

ويكاد البحث التاريخى يتفق على أن فجر البشرية كان فى مصر ، ويتناول "وول ديورانت" الفكرة فى كتابه "قصة الحضارة" بقوله : "لم يكن الشرق مسرحاً لأقدم مدنية عرفها الإنسان فقط ، بل إن تلك المدنيات كونت الأساس والبطانة للثقافتين

اليونانية والرومانية اللتين ظن "سير هنرى" خطأ أنهما المصدر الوحيد الذى استقى منه الفكر الحديث ، فما لنا من فلسفة يرتدان إلى مصر والشرق » ثم يضيف ... «إن التعصب المقيت الذى ساد كتاباتنا للتاريخ ، والذى يبدأ كتابة التاريخ من اليونان ويكتفى بتلخيص الشرق كله فى سطر واحد ، لم يعد مجرد غلطة علمية ، بل ربما إخفاقا ذريعا فى تصوير الوقائع ونقصا فادحاً فى ذكائنا .

ثم يتساءل ... « كيف يتاح لعقل غربى أن يفهم الشرق ؟ فالعمر بأسره لا يكفى طالبا غربيا ليدمج نفسه فى روح الشرق الدقيقة اللمحات ، وفى تراثه الذى يكتنفه الغموض .

فما أقصر ما تبدو حياة اليونان أو روما بالقياس إلى السجل الحافل فى حياة مصر ، فاليونانيون قد أخذوا فنون عمارتهم من هذا الشعب المبدع المبتكر » .

أكثر التواريخ تسجيلا

نقول ... إن تاريخ مصر والقاهرة من أكثر تواريخ البشرية تدوينا وتسجيلا ، ولم توجد مرحلة تاريخية مهمة لم يرافقها مؤرخ يسجل وقائعها ...

كان فى مصر منذ عهد الأسرة الأولى سجل بوقائع كل عام ، وبما بلغه النيل من ارتفاع ، وحفظ التاريخ آلاف السنين ، وأصبحت بفضل التدوين كتابا يمكن أن تقرأ خلال صفحاته رسالتها وطبيعة شخصيتها ، ومغزى أحداثها .

وإذا كان تاريخ الفراعنة قد سجل على المعابد وأوراق البردى ، فتكاد لا توجد مرحلة تاريخية لم يظهر فيها مؤرخ يدون أحداثها ووقائعها ، منذ هيرودوت ومنتون المصرى وحتى عبد الرحمن الجبرتى .

وبقى التاريخ محفوظا ، يجهل بعض جوانبه حتى أصحابه ، إلى أن اكتشف شمبليون حجر رشيد ، فى مغامرة علمية جسورة تسلحت بالخيال ، وقادت إلى سر اللغة المصرية القديمة ومعرفة أبجدية الهيروغليفية ، فأزاح بذلك الستار عن فجر التاريخ الإنسانى ، وقاد المؤرخين إلى ينابيع لا تنضب من المعرفة التاريخية ، ومهد الطريق إلى عالم التاريخ المصرى الرحيب .

ويدون الرهبان تاريخ مصر المسيحية ، ويحتفظ اليهود بتاريخ الكنانة فى الجينزا ... وينقل "شفيق غربال" عن مؤرخ مصر المسيحية "كارنا سك" قوله : "إن المسيحية

قد لاءمت فى مصر بين خصائصها والخصائص الأساسية للدين المصرى القديم ، لمدى أوسع مما شهدناه فى أى بلد آخر ، فإن كان أكثر المصريين قد أصبحوا عند منتصف القرن الرابع مسيحيين ، فمرجع ذلك إلى أنهم خلقوا لأنفسهم دينا قوميا من المسيحية ، بأن لقموا هذه الديانة ببقايا معتقداتهم القديمة وآمالها ..." ويضيف ... «وأقامت مصر المسيحية كنيسة قومية ، وخلقت فنا جديداً وأداة لغوية جديدة ودونت تاريخها وسجلته ، وأصبحت الحضارة المصرية ذلك المزيج الفذ ، المسيحية المصرية، وعندما ظهرت المسيحية دان لها الحكام البيزنطيون - حكام مصر فى ذلك الزمان - وبقى الحكام أجانب يسعون إلى فرض مذهب دينى مغاير ، وقاوم وانتصر المصريون، فاحتفظوا بشخصيتهم وأقاموا صروح الفن و اللغة ...»

ومصر لا روما ولا أثينا كانت مصدر التشريع الكنسى للعالم المسيحى ، وابتدعت مصر نظام الرهبنة الذى انتشر منها فى أنحاء العالم .

وبرزت ظاهرة التدوين واضحة فى مصر الإسلامية ، نتيجة رسوخ التدوين فى أرضها ، «... فمن أقدم المحفوظات العربية التى تضمها المكتبات - والمتاحف فى عواصم العالم ، تلك التى كتبت فى مصر على ورق البردى ...»

والقائمة طويلة لأولئك الذين أرخوا لمصر الإسلامية ، تضم كلا من ابن عبد الحكم، والكندى ، وابن زولاق ، والقضاعى ، والمقريزى ، وابن تغرى بردى ، والسخاوى ، وابن إياس ، والجبرتى .

سجلت كل المراحل فى تتابع يثير الدهشة ، وشمول كامل ، فيقدم الكندى سجلاً وافيا عن قضاة مصر ، ويسجل ابن زولاق انهيار الحكم الطولونى وقيام الدولة الإخشيدية ، وانتقال مصر من الخلافة العباسية إلى الخلافة الفاطمية ، ويكتب المسبحى سيرة الحاكم بأمر الله ، وبعدها يأتى مؤرخو مصر المملوكية ، ويسجل وقائعها كتاب موسوعيون هم النويرى والعمرى والقلقشندى .

وترك لنا ابن إياس المشاهد الدامية لخضوع مصر للعثمانيين ، ثم يأتى الجبرتى راصداً أعمال الحملة الفرنسية على مصر ، وبداية عصر محمد على ...

إن هذا العرض يؤكد أن تاريخ مصر والقاهرة وحدة متكاملة ، ورواية متصلة ذات فصول ، بطلها الشعب المصرى ، وتاريخها المدون يؤكد على مذاقها الخاص وخصوصية تاريخها .

ويتحدث شفيق غربال عن خصوصية تاريخ مصر بقوله : «عندما نبحث عن مصر خلال كل العصور ، مصر التى تسمو فوق هامات الحقب والعصور ، نلاحظ أن التفاعل بين الاستمرار والتغيير هو مادة التاريخ ، فما يبدو فى التاريخ مستمرا لا يخلو أبدا من تغيير خفى دقيق ، وما من انقلاب مهما كان فجائيا ومهما كان عنيفا استطاع أن يقطع صلة الاستمرار بين الماضى والحاضر ...» ويضيف ... «بقيت للشخصية المصرية خصائصها عندما اتصلت بشعوب العهد القديم وباليونانية والرومانية ، وقد حان الوقت لأن ننفذ إلى صميم النفس المصرية من خلال فنها وأدبها وعادتها ، ومن الناس من يرى إهمال تلك الأيام ويلحقها بقصص الاستعمار ، مما يفرض على الكتاب واجب أن يصلوا بين أطوار حضارة مصر ...»

فهل لهذا التاريخ المدون والمتصل من مغزى ومعنى ، سوى أن المجتمع الذى يعيش على ضفاف النيل ، قدر له أن يلعب دوراً حضاريا فى حياة البشر ، فإذا أقعدته الظروف بعض الوقت ، فسرعان ما يقوم ويكمل رسالته ...

قلب العالم

وقامت القاهرة بدورها رائدة لهذا الدور وحاضنة ...

ويلاحظ أنها أصبحت عاصمة الدنيا عندما أصبحت عاصمة العرب والإسلام ، خلال القرن الثالث عشر الميـلادى ، عنـدما هدد الشرق جحافل الغزاة الصليبيين والمغول ، وتخرج من القاهرة الجيوش الجرارة تدافع عن العرب والإسلام وتحقق الانتصار وتهزم الغزاة .

وكان رمز هذه المرحلة «الظاهر بيبرس» أحد سلاطين المماليك البحرية ، أيامها كانت دولة كبيرة متسعة ، تضم مصر والشام واليمن والحجاز وبرقة ... وتوحد عالم الإسلام بقيادة خليفة واحد انتقل إلى القاهرة .

وتمتع بيبرس بمكانة خاصة فى الوجدان الشعبى ، بل يكاد يكون الحاكم الوحيد الذى تروى قصته الملاحم الشعبية ويتغنى بها المنشدون على الربابة حتى اليوم ، فهو بالنسبة إليهم شخصية غنية بالرموز والدلالات ، خاضت مصر أيامه أعظم معاركها عندما ألقيت عليها مسئولية الدفاع عن كل الأراضى العربية ضد غزاة العصور الوسطى . فاستكمل الظاهر بيبرس انتصار صلاح الدين ، ولاحق بقايا الغزاة

الزاحفين الذين أسقطوا الخلافة العباسية فى بغداد سنة ١٢٥٨م . وبهذا اكتمل دور مصر القاهرة وانتقل الوسط الجغرافى إليها ، بعد انسلاخ الإمارات الإسلامية فى آسيا ، وانهيار بغداد ، وذهاب قرطبة . وأصبحت مصر القلب من الجسم بعد أن تكونت للعروبة معالم واضحة ، فامتدت حدود هذه الدولة من اليمن جنوباً حتى نهر الفرات وجبال طوروس شمالاً . وعلى شاطئ البحر الأبيض من خليج الإسكندرية حتى بلاد برقة ، وعلى ضفاف النيل حتى أعالى النوبة .

وقد شهدنا من قبل انتقال عاصمة الإسلام من المدينة فى عصر الخلفاء الراشدين إلى دمشق فى عصر الأمويين عندما امتدت الدولة شمالاً ، وانتقلت مرة أخرى مع انتقال الوسط الجغرافى إلى بغداد فى العصر العباسى ، واستقرت فى القاهرة فى عصر المماليك عندما فاقت كل المدن فى العمران والازدهار .

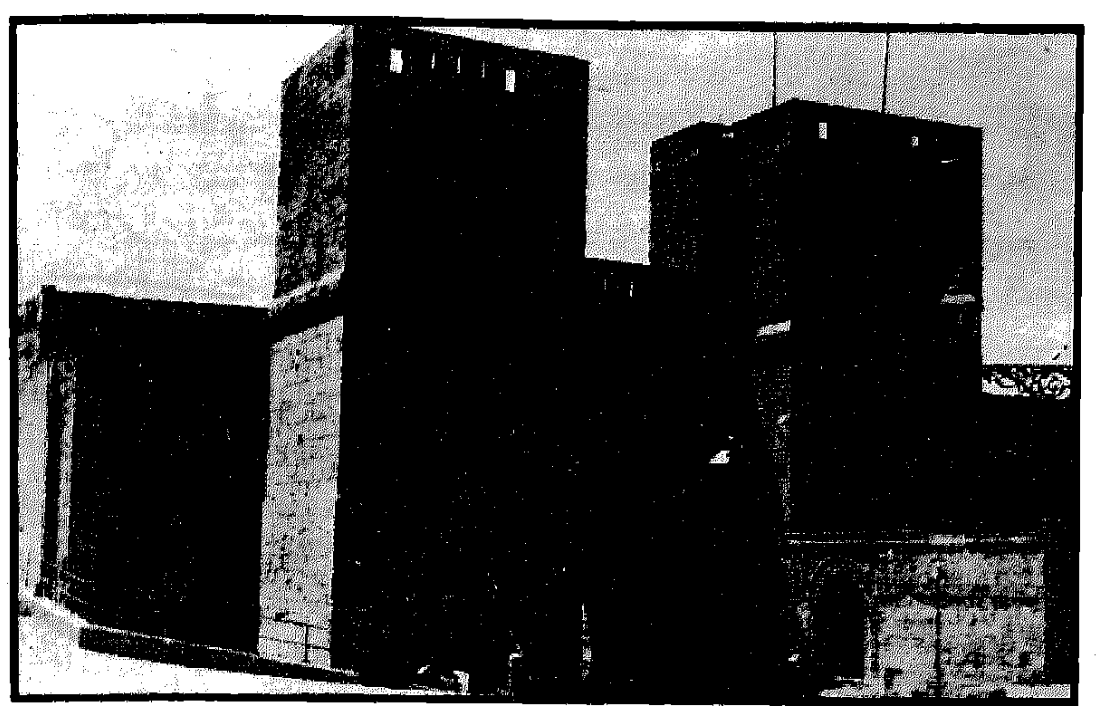
وتدفق على مصر العلماء والصناع بعد سقوط الأندلس ، وبعد وصول إعصار المغول إلى العراق ، وازدهرت اقتصاديا عندما أصبحت عاصمة تجارية فى طريق القوافل بين بلاد الشرق البعيدة وثغور البحر الأبيض فمصر واقعة على طريق التجارة بين الهند والامارات الإيطالية .

والغريب أنه فى هذه الفترة التاريخية هددها الإرهاب الذى تمثل فى سيطرة الحشاشين بتنظيمهم الإرهابى المحكم الذى روع العالم بالأعمال العدوانية والتخريبية وتفننوا فى تجنيد العملاء واغتيال الخصوم ، ونجح بيبرس فى القضاء على دولتهم وأنهى بلا رجعة سطوتهم .

ولم يقتصر عمل ومسيرة سلطان المماليك على الأعمال العسكرية من قيادة الجيوش وإعداد الأساطيل وتحصين القلاع والثغور ، بل إمتدت إلى عمارة الأرض وبناء الإنسان .

وتميزت سياسة بيبرس الخارجية بالبراعة ، فعقد بيبرس معاهدة مع الامبراطور البيزنطى ميخائيل بليولوجس .

ومازال فى القاهرة أحد الأحياء التى تحمل اسمه وهو حى "الظاهر" ، كما يوجد أكثر من قرية تحمل اسم «الضهرية» ، واتخذ الظاهر بيبرس قلعة الجبل مقرا لحكمه والتى استمرت مقراً للحكم حتى بدايات حكم الأسرة العلوية ، ومازالت بين القصرين تضم إنجازاته المعمارية ، المدرسة والجامع الذى يحمل اسمه ، وأعاد بيبرس الجامع الأزهر إلى ما كان عليه من ازدهار فى عهد الفاطميين .



باب النصر كما هو الآن أحد بوابات سور القاهرة

ونتوقف أمام حدث تاريخي غير مسبوق وهو إحياء بيبرس للخلافة واختار السلطان سلطة أعلى منه ، احتراما واكتسابا للشرعية ، هذا بعد أن قدم إلى القاهرة الإمام أحمد عم المعتصم آخر الخلفاء ، وابن الخليفة الظاهر الذى نجى من مذبحة بغداد .

ومنذ ذلك الوقت أخذت وثائق تقليد حكام الولايات تخرج من القاهرة ومنهم بعض حكام الهند ، بل وحتى وثيقة تقليد السلطان العثمانى بايزيد الأول سنة ١٣٩٤م .

واستمرت الخلافة في القاهرة حوالي ثلاثة قرون ، إلى أن انتزع السلطان سليم حكم مصر عام ١٥١٧م ، ونقل إلى القسطنطينية ضمن ما نقل العمال المهرة والحرفيين مع الخليفة المتوكل آخر خلفاء بنى العباس .

أمالي المحروسة

ولعل عدم الاهتمام بهذه الصفحات من التاريخ يرجع إلى رفض المماليك الذين انتقلوا من الرق إلى الحكم ، رغم ما فى تجاهل هذه المرحلة من النيل من الدور



بركة الفيل والمنازل التى تطل عليها .

التاريخى لشعب مصر وموقعه الحاكم فى المنطقة العربية ، وليس صحيحا أن المماليك قطز وبيبرس وقلاوون ، قد اتخذوا مصر منطلقا وحكموا منها إنما الحقيقة التاريخية تقول إنهم حكموا بها قبل أن يحكموها ، وواجهوا الغزاة باسم مصر وبطاقات مصر، يساعدهم موقع مصر وثروتها البشرية .

ومن الغريب الإدانة المطلقة لعصر المماليك وتجاهل إنجازاته ، بلا تمييز بين المماليك البحرية والبرجية مثلا ، وبين المماليك أيام قوتهم وأيام هزيمتهم عندما كانوا مجرد سوط فى قبضة الوالى العثمانى ، واتسم سلوكهم حينئذ بالظلم والقهر ولعل الإدانة المطلقة لعصر المماليك تعود إلى تقييم تاريخ مصر فى العصور الوسطى بمقاييس عصر جديد ، عندما كان الولاء للدين ، وعندما لم تعرف المجتمعات التجنيد الإجبارى ، والفصل بين الجيوش المحترفة والمهن المختلفة ، تتمثل العسكرية فى فئة خاصة أحسن إعدادها لتكون التعبير الصادق عن قيم البلاد ، وهم فى هذا لا يفترقون كثيراً عن الانكشارية فى الدولة العثمانية .

فكان هؤلاء الوافدون المماليك يتلاقون ويختلطون ويتعاونون داخل مجتمع واحد ، يجمع بينهم الدين فى دولة يلقب رئيسها من بيبرس حتى الغورى ، بـ «سلطان الإسلام والمسلمين وارث الملك وسلطان العجم والترك اسكندر الزمان صاحب القبلتين خدام الحرمين الشريفين سيد الملوك والسلاطين» ، وتجمع بين المصريين وغير المصريين من عرب وأتراك وأكراد ، وتقوم على نظم محكمة لم تعرفها مصر من قبل .

يشهد على مكانة هذه المرحلة التاريخية أجمل الآثار التى تعود إليها ، ففيها بنيت قلعة المقطم وأقيم سور القاهرة ، وأنشئت الروضة ، يلعب فيها العلماء دوراً بارزاً إلى جانب السلطان ، فنجد إلى جانب بيبرس يوجد بهاء الدين على الذى يقول المقريزى أن بيبرس لم يبرم أمراً بدونه ، يشترك العلماء فى الحكم ويوجهونه دون أن يكون فى سلوكهم روح التبعية الذى تصوره الذين عرضوا لتاريخ ذلك العصر .

وكان للعرب الريادة العلمية ، وخاصة فى العلوم الفلكية والرياضة والطب .

وزار سنة ١٣٨٤ مصر الرحالة المغربى ابن بطوطه ، وهى فى المرحلة المملوكية ، وترك لنا مشاهداته والصورة الحقيقية لهذا العصر .

وجد "الاسكندرية" تتاجر فى العطور والسكر والحرير ، ووجد « دسوق » مدينة ضخمة تبلغ ضعف الإسكندرية وتملك تجارة واسعة ، وشهد ثراء سوق "القاهرة" بالبضائع من السكر والمواد الغذائية والعطارة مالم يره فى عاصمة أخرى ، تزدحم "القاهرة" بالسكان يبيت خارجها كل يوم مالا يقل عن مائة ألف ساكن ، وكان بمصر ١٢٠ ألف سقاء و ٣٠ ألف مكارى و ٣٦ ألف مركب نيلية .

وكانت "إبيار" مدينة كبيرة تصنع الثياب الفاخرة وتصدرها للشام والعراق ، "والمحلة" مدينة حسنة كثيرة السكان ، ودمياط مدينة صناعية تملح السمك وتصدره إلى الشام وبلاد الروم ، تصنع "قوص" الكتان وتصدره إلى المغرب ، و"بهنسة" تنسج الصوف الجيد ، و"منفلوط" تصنع العسل وتمتاز بجمالها ، لا تنقطع الأسواق بين القاهرة وأسوان .

ويؤكد الرحالة البندقى بيلونى فى القرن الخامس عشر على أهمية القاهرة بقوله : "مدينة القاهرة هى أكبر مدينة فى العالم بين المدن الواقعة فى إطار معرفتنا"

القاهرة المعزية

هل ازدهرت القاهرة أيام الدولة المملوكية وحدها ... ام ازدهرت أيضا أيام صلاح الدين ، وأقيمت أيام الدولة الفاطمية ، ورب قائل ، كانت القاهرة أيضا عاصمة

الخلافة الفاطمية ، ولكن وقع ذلك فى ظل انقسام العالم الإسلامى بين الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية ، وانقسام بين السنة والشيعة ...

ولنتابع هذه المرة تاريخ القاهرة المسطور فيما خلفه لنا السابقون من آثار ...

ولنقتصر على بقعة واحدة فى القاهرة ومن خلال جولة فى الشارع الأعظم الذى أصبح شارع المعز لدين الله الفاطمى ، ولن نتجول فى أسواق الخان ، وإنما نتابع ما كان مقراً للخلافة الفاطمية ، فى منطقة من أغنى مناطق العالم بالاثار ، فهنا نقطة بدء القاهرة الفاطمية ، والذى كان يوما سرة القاهرة وقصبتها ، ومبانيه المتقاربة تضم كل مراحل تاريخ مصر الإسلامية .

وهى منطقة أنشأها جوهر الصقلى وجعل حولها سوراً ، يحدها باب الفتوح وباب زويلة ، والشارع فى تعرجه يعتبر عملاً معماريا يهدف إلى حماية رواده من أشعة الشمس فى صيف القاهرة ، وتزخر المسافة القصيرة بين البابين بما يزيد على خمسة عشر أثرا ، إضافة إلى اضعاف هذا العدد فى الحارات والأزقة التى تحيطه وتصب فيه ، أسواق ومساجد وحمامات وخانات وأسبلة وأسوار وبوابات ومدارس .

وكانت هذه المنطقة طوال العصر الفاطمى مقصورة على سكن الخليفة ورجاله ، تكاد تكون الجولة فى هذا الشارع هى جولة فى الزمان والمكان معاً ، فالمبانى ليست مجرد أحجار مرصوصة ، بل وظائف محددة ، قصر السلطان هو مركز القاهرة ، يحيط به قصور الأمراء والقادة ، وفى الدائرة الأوسع التجار والعامة وعند هوامش القاهرة يعيش المزارعون .

الداخل إلى الشارع من الجنوب ، يدخل على مشهد مهيب ، عندما يظهر باب زويلة الذى تدلف منه إلى ساحة يطل عليها مسجد المؤيد لدين الله فى لوحة بديعة ، سجلها العديد من الرسامين .

يحمل المكان رحيق الماضى وعظمته ، تشعر وأنت داخله أنك انزلقت إلى عصر آخر ، وأنك لست أمام مدينة جليلة فحسب بل أمام آثار مدينة فريدة ، تتداخل فى اللوحة ملامح البشر مع معالم العمارة ، فداخل باب زويلة ممر له قنطرة وروافد يربط بين الأبراج المعدة لمواجهة الأعداء .

وسيدة هذا الشارع تحمل الكثير من الصور الدرامية ، ويحكى باب زويلة العديد من فصول التاريخ حول العصر الفاطمى بما فيه من سحر وخفاء ، وعصر المماليك بعنفوان جنوده ومجالس علمائه .

تحكى بوابة المتولى أحد فصول التاريخ الدامية ، حتى تكاد تسمع صليل السيوف وترى غبار المتحاربين مع بداية الغزو العثمانى لمصر ، عندما تحولت القاهرة من مركز العالم إلى ولاية تابعة ، بعد أن قتل السلطان الغورى شهيداً فى معركة "مرج دابق" سنة ١٥١٦م ، وتولى القيادة طومان باى الذى عرف بمتولى الأمر ، وقبض عليه العثمانيون وشنقوه على باب زويلة ، ويحكى ابن إياس عن جزع الأهالى وتظهر عاطفته الفياضة فى وصفه لمحنة سقوط المماليك على يد العثمانية وينعى عصراً باكمله يقول : أشيع خبر الكائنة العظيمة التى لمت وعمت وزلزلت ... وزال ملك الأشرف الغورى فى لمح البصر ، فكأنه لم يكن ... وقام نعى السلطان والأمراء والأعيان الذين قتلوا ، وصار فى كل حارة وزقاق وشارع من القاهرة صراخ وبكاء ... ورجت القاهرة ، وضجت الناس واضطربت الأحوال ... وانقض الغزاة البرابرة على القاهرة كالضوارى المفترسة ، فأوقعوا فى سكانها السفك الذريع ، وأمعنوا فى الآمنين قتلا وهتكا ونهبا ، ودامت المذبحة الهائلة أياما أربعة ... وهى المصيبة العظمى التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان ، وكانت الجثث فى الطرقات من باب زويلة إلى الرميلة (فى القلعة) ... وصرخت الناس على السلطان صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف ، فكان شجاعاً بطلا تصدى لقتال ابن عثمان وقتل منهم ما لا يحصى ووقع منه فى الحرب أمور لم تقع من الأبطال العناترة ...

لهفى على سلطان مصر كيف

قد ولى وزال كأنه لم يذكرا

الماضى والحاضر

إن كل العصور التاريخية تتداعى فى هذا المكان ، وهذه بعض تقسيماته ونغماته...

نتأمل المبانى على الصفين فى الطريق المتعرج الحافل بلمحات من جمال الماضى، نشق طريقنا وسط الزحام بصعوبة ، يصر قائد شاحنة ضخمة أن يشق طريقه وسط كل هذا الزحام ، لا يرفع يده عن بوق سيارته ، ولا يعرف إلى أى حد يخدش حرمة المكان . التعديات تغالب الآثار ، ويختلط عطر الماضى بروائح المأكولات ، وتتشبث الصناعات التقليدية القديمة بآخر معاقلها ، تعرض ملابس النساء الحمراء على واجهات المبانى الأثرية فتمس جلال الماضى ، يرتفع منسوب الطريق

عن المبانى الأثرية حتى أصبح جزءا من المبانى الفاطمية تحت منسوب الشارع بما لا يقل عن ثلاثة أمتار ، وأخذت تهددها المياه الجوفية ومياه الصرف الصحى . نصل إلى جامع ومستشفى المنصور قلاوون ، وفى هذه البقعة كان مركز الدولة الفاطمية ، وهى تحمل اسم «بين القصرين» ، كانت تضم قديما قصرى الخليفة الشرقى والغربى وبينهما ميدان فسيح يتسع لما يزيد على عشرة آلاف فارس .

وأما القصران فقد اندثرا ، وكانا من عجائب الدنيا عمارة وفنا ، تجلت فيهما حضارة الدولة الفاطمية ، وزالت هذه القصور وأقيمت محلها المساجد والمدارس والأسواق ، وترك لنا كتاب الخطط والرحالة فيضا من الصور لهذه البقعة ، وسجلوا بدقة ما كان عليه حالها ، وكان باب القصر الشرقى من الذهب الخالص ، والذى كان قائما محل محراب ومدرسة الظاهر بيبرس ، وقد اخترق شارع بيت القاضى هذه المدرسة ، وكان موقع هذا المحراب يبعد عن الشارع الحالى بحوالى سبعين مترا ، كما سجل على باشا مبارك فى خططه .

وتروى هذه البقعة ، قصة قيام وانهيار الدولة الفاطمية ، والتى كان قيامها إيذانا بأن تصبح القاهرة عاصمة بعد أن كانت ولاية تابعة ، كما كان العصر الفاطمى أحفل عصور مصر الإسلامية بالمواقف الشائقة ونشرت الخلافة فيضا من العظمة .

وأصبحت الحياة الاجتماعية تتقلب بين ألوان البذخ والترف ، وأظهر الشعب مرحه المأثور ، وأظهر روح الدعابة والفكاهة التى يملكها ، ولمس الحكام الطبيعة المرحة والولع بالحياة اللذين يتمتع بهما الأهالى ، وكانت مواكب الخلافة وحفلاتها ومآدبها وما يحيطها من الاجلال مواقف مشهوده ، وكانت الأعياد والمواسم مثار البهجة والمرح ، واحتفلت الدولة الفاطمية بأعياد المصريين القديمة مثل وفاء النيل يوم عيد فتح الخليج .

لقد أحب أهالى القاهرة عاصمتهم على الدوام ، وقام الكتاب بدورهم فى تبيان أهميتها والتحذير من مغبة اهمال الآثار ، وألفت العديد من الكتب عن أحوالها وعمارتها القديمة ، واستوحى التشكيليون والروائيون من آثارها أعمالا فنية ، وتركت القاهرة بصماتها على أهلها ، ويغضبون وهم يرون تراث الماضى يتعرض للزراية والإهمال ، أو يتداعى تحت تأثير الزلزال ، ومازالت القاهرة تبحث عن من ينقذها ، وتستمد مرة أخرى من مجد الماضى حافزا لبناء الحاضر والمستقبل .



تجربتى مع الإبداع

بقلم : لينين الرملى

لا أذكر متى بدأت الكتابة على وجه التحديد . لكن بين أوراقى أول قصة نشرتها وكانت فى مجلة صباح الخير وشغلت مساحة أقل من نصف عمود .

كنت حينئذ فى العاشرة . بعدها بخمس سنوات بدأت بجسارة فى كتابة رواية طويلة . فجأة توقفت وكتبت مسرحيتى الأولى . وبعد أيام وقع فى يدى كتاب "فن كتابة المسرحية» للكاتب المجرى "لايوس أجرى" وهو من المراجع الهامة فى هذا الشأن ولأنى لم أستطع أن أستعير الكتاب سوى ليلة فقد سهرت للصباح كى أتمكن من قراءته كله

عندما أعود إلى مفكرتى التى دونت بها خواطرى وأنا على مشارف السادسة عشرة أجد هذه السطور بالترتيب الآتى :

- بدأت فى تكوين فرقة تمثيل أسمها فرقة التمثيل للأشبال . وكتبت مسرحية لنمثلها .

- قررت أن أصبح كاتبا .

- قرأت كتاب (فن كتابة المسرحية) .

* * *

الآن يعنى ذلك لى أن تجربتى الذاتية تتلخص فى هذ الخطوات الثلاث .

١ - كتبت أولا . ٢ - ثم قررت أن أصبح كاتبا . ٣ - ثم حاولت أن أعرف قواعد الكتابة .

عندما كبرت وبعد أن ظهرت لى بعض الأعمال الدرامية عرفت الخطوة الرابعة .

٤ - سألت نفسى عن ماهية الكتابة .

(ولازلت أجيب على السؤال وأطور الإجابة عليه من حين إلى آخر) .

١ - الكتابة :

تعنى الكتابة المبكرة انها كانت احتياجا نفسيا وربما وجوديا . اجتمعت ظروف كثيرة لتخلق هذا الاحتياج منها أنى جئت من أبوين عملا بالصحافة والكتابة والسياسة وعرفا صنوفا من الاضطهاد السياسى انعكست آثاره علىّ فى ذلك الوقت المبكر كما تأثرت باهتمامهما بالقضايا العامة وكان إدراكى لاختلافهما ما عمق احساسى بالاغتراب وبالتالى خلق عندى حاجة إلى التعبير عن اختلاف مشاعرى وافكارى ومحاولة للاتصال بالآخرين عبر هذا التعبير والتأثير فيهم ، كانت الكتابة بالنسبة لى إذن سياجه ضد الاغتراب واليأس والاحباط أو كما قال أحد الكتاب الأمريكيين وسيلة خرافية لاحتواء الرعب .

ويمكننى القول بثقة أن أغلب الافكار التى تناولتها فى مسرحياتى هى نفسها الأفكار التى شغلتنى على نحو أو آخر فى السنوات الأولى التى تقع بين العاشرة وسن الرشد .

٢ - الكاتب :

يعنى قرارى المبكر أيضا أن أصبح كاتبا أنى اخترت أن أكون ما احتاجه فعلا وما زالت الكتابة بالنسبة لى حتى هذه اللحظة طريقة للوجود لكن لماذا المسرح تحديداً ؟ اعتقد أن ميلى للجدل هو السبب. كنت فى الغالب طفلا صامتا أتأمل أفكار الناس أكثر مما أتأمل وجوههم أو هيئتهم، فإذا استوقفنى ما هو مرئى يكون أيضاً لحساب ما هو فكرى ، لايلفت نظرى مثلا براءة وجه إلا إذا دل علىّ نفسية مناقضة ... إلخ .

وكنت أحاور الناس فيما بينى وبين نفسى وأتخيلهم يردون علىّ الحجة بالحجة مستعينا بما سمعته أو رأيته منهم . وكنت

إذا آنست للآخرين ودخلت معهم فى نقاش لا أملّ من الجدل ولو امتد لساعات . كان تصارع الأفكار متعة بالنسبة لى .

وعندما بدأت الكتابة للمسرح كنت أدير صراعاً بين الشخصيات لكى أصل فى النهاية إلى إثبات ما أريده لذلك كنت أبحث عن نهاية المسرحية بمجرد أن أعرف بدايتها . اقف خلف بطلى ضد خصمه (مع توفير كل الضمانات له ليدافع عن نفسه !) .

ثم تعلمت أن أترك الشخصيات تصارع بعضها دون تدخل منى وكأنهم جميعاً أولادى بينما انشغل بأن أدير النقاش داخلى أنا .

كان أبى يتابع شغفى مع اصحابى للتمثيل (بالنسبة لى كان شغفا بالتجربة المسرحية لا التمثيل نفسه) وكنوع من شقاوة الكبار كتب لنا مسرحية صغيره (لم يكتب غيرها) لكنى أدركت أنه تعمد كتابتها بسذاجة لتناسب اعمارنا وتمردت مراهقتى على ذلك ، وببساطة متناهية اعدت كتابة المسرحية مغيرا كل سطورها وحرضت فرقتى على تمثيلها بدلاً من مسرحية أبى ، لكنه بدوره لم تعجبه مسرحيتى !

ما يستلفت نظرى الآن ان كتابة أول مسرحية ارتبط بتكوين فرقة للتمثيل .

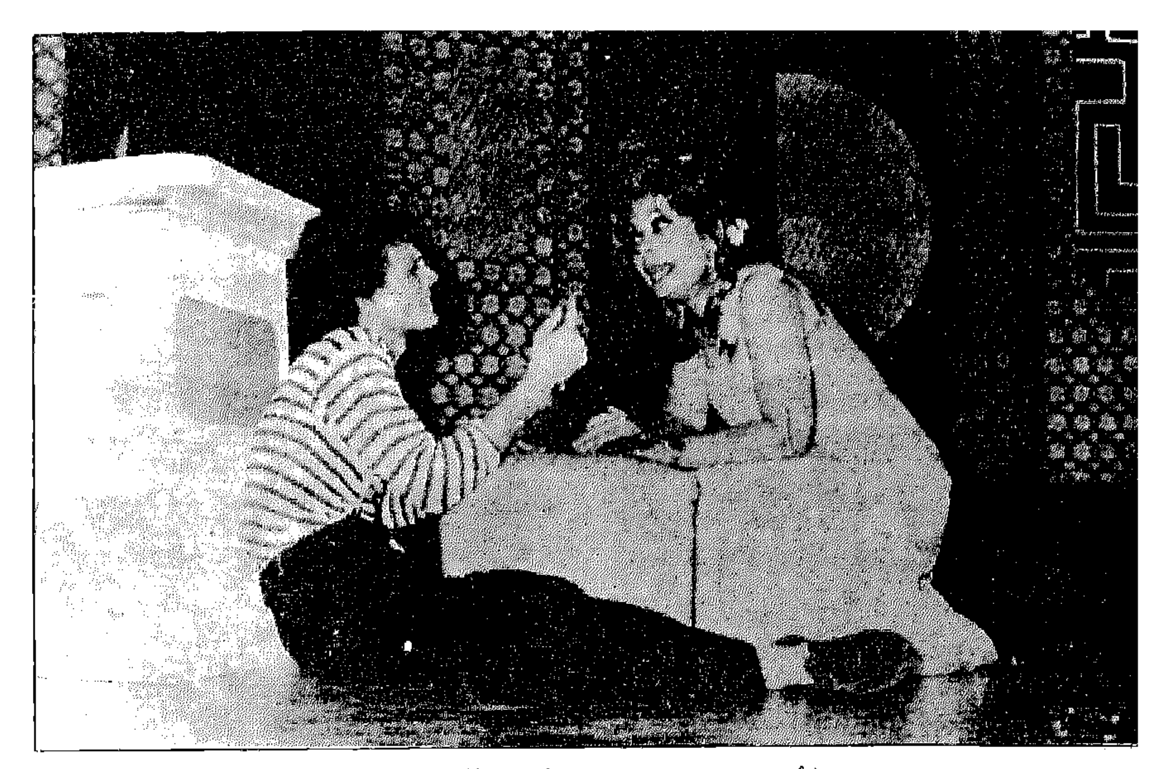
القاص لا يكتب (للمطبعة) لكن المسرحى يكتب (للمسرح) .

لذلك لا أزال حتى الآن ادون افكار مسرحياتى واضيف واعدل فيها وقد اشرع فى كتابتها لكنى لا اتمها إلا بعد أن أتأكد انها ستعرض فورا ، وهناك بعض الأفكار لم اكتبها إلا بعد مرور أكثر من عشرين سنة لهذا السبب .

لا أقصد من ذلك أن المسرحية يجب أن تكون طازجة كرغيف الخبز الساخن أو أنها يجب أن ترتبط بزمن معين فالعكس هو الصحيح وقيمة المسرحية تقاس بقدرتها على تحدى الزمن . ولكنى أقصد أن الوعى بأن العرض سيظهر حالا هو ما يجعل الكتابة درامية بحق . القصة قد تقرأ (سطورها) على فترات ، والفيلم - رغم كونه وسيلة درامية - تراه (صورا) صورت من قبل . أما فى المسرح فأنت أمام (بشر) يمثلون (الآن) .

هكذا تعلمت أن اجلس للكتابة والجمهور وفريق الممثلين فى ذهنى . اتخيل المسرحية اسمع شخوصها وهم يتكلمون واراهم يتحركون فى فراغ خشبة المسرح. إذن لم يتخيل الكاتب ممثليه ينطقون حوار شخصياته عاقبه الممثلون - أو الأذكياء منهم بأن يرفضوا تمثيل مسرحية . وإذا لم يتخيل وقع كلماته على مشاهديه ، عاقبوه بأن ينصرفوا عن مسرحيته قبل نهايتها

والكاتب المسرحى كالأعمى مستطيع بغيره . ولقد تعلمت أنه لكى يحترم كل



خيرية أحمد ومحمد صبحى « انتهى الدرس يا غبى »

الفنانين نص مسرحيتى علىّ أن افكر فيهم وأنا اكتب ، ولكى يقبل منى الجمهور أن أقول كل ما اريده حتي لو كان فيه ما يصدمهم علىّ أن أفكر كيف أبقيهم فى مقاعدهم ليتحملوا فلسفتى الفارغة !

٣ – القـــواعد :

اعتقد الآن أن كتابتى لمسرحية قبل التعرف على القواعد كان له ميزة .

حقا انت بلا معرفة للاصول تتخبط وترتكب الاخطاء ولكن القواعد هى الصنعة فقط . إذا تعلمت العروض أولا فقد لا تكتب إلا نظما أما إذا كانت روحك شاعرية فلسوف تعرف كيف تزن كلماتك فتغدو قصيدة .

كتب النقد وتراث المسرح تعلمك كيف تلم بقافية الدراما وموسيقاها وعروضها . أن (تصنع) مسرحية محكمة تتبع الأصول وترضى الجمهور لا يحتاج سوى بعض الذكاء وبعض الجهد ، لكن أن (تكتب) مسرحية لها قيمة تتجاوز أن يقول لك متفرج فى نهايتها (شكرا لقد قضينا امسية لطيفة) هو الشىء الذى لا يمكن أن يعلمه لك أحد .

لا ينبع تقديرنا لكاتب من مدى اجادته

لصنع مسرحية ولكن لروحه الإنسانية الخلاقة الكامنة فى أعماله . صانع المسرحية الجيدة يبهرنا مثل حاوى لا نعرف سر مهنته لكننا ندرك أنه ليس بساحر حقيقى . الصنعة المتقنة ممكن تكرارها أما الخلق فلا يتشابه .

بعد أن كتبت أول مسرحية أدركت أن ما فعلته كان اعادة صياغة لمسرحية ابى وليست مسرحيتى الخاصة . وقد كتبت بعدها مسرحيات حبكت لها قصصا من تأليفى ولكنى كنت أسأل كل مره هل هى حقا مسرحيتى الخاصة ؟ هل لم أقلد فيها غيرى ؟ وكيف تكون مسرحيتى الخاصة وأنا اتبع نفس القواعد والتقاليد والأساليب السائدة؟

الصراع بين تقاليد واساليب التأثير المسرحى وبين أن تكتب مسرحيتك الخاصة هو المشكلة وقد واجهتها . هو صراع شاق ومضن لكنه ممتع أيضا .

عرفت أنى لن استطيع أبدا أن اهرب من التقاليد المسرحية ، انها قدر أى كاتب درامى لكن عليك أن تراوغه وتمرر عن طريقه اسلوبك انت . انه الوحش الذى لا يجب أن تقتله بل عليك أن تطلبه حيا ثم تروضه ، لأن على ظهر هذا الوحش ستدخل المدينة فتستقبلك كالفاتحين العظام ولا تملك الجماهير عندما تراك على ظهره إلا أن تهتف وتصفق لك .

٤ - ماهية الكتابة :

طوال انهماكى فى الكتابة كنت أسأل نفسى ما هى الكتابة وهل لها رسالة ؟

يقولون ذلك . لكن الكتاب ليسوا انبياء. هل للكتاب وظيفة ؟ يقولون ذلك . فهل كلنا إذن علينا أن نثبت قضية واحدة ؟ كيف ولكل كاتب رأى ينفرد به ويكاد يختلف مع غيره ؟ هل يجب أن يكون الكاتب ملتزما ؟ يقولون ذلك . هل يلتزم بما يحدده ضميره؟

ما معنى الضمير ؟ أليس هو الصدق مع النفس ؟ إذن يجب أن يكون الكاتب صادقا مع نفسه أولا قبل أن يطرح رؤيته على الناس . لكى أعرف ما يجب أن أقوله للأخرين يجب أن اعرف ما أريد أن أقوله لنفسى وبالتالى فالصدق هو أن تعرف نفسك وذلك يتطلب أن تغوص داخلها وأنت تغوص داخل شخصياتك المسرحية ! اصبح علىّ أن أنصت جيدا لكى اسمع صوتى من أعماقى فأكتشفه ثم أعيد صياغته متخيلا وقعه على الأخرين .

الكاتب المسرحى يلاحظ شخصياته نعم ولكن بأى منظار يراها إن لم يكن بمنظار نفسه ؟ لقد لاحظت شخصياتى وتأملتهم الآن علىّ أن أتأكد من أن نظارتى سليمة .

وبعد أن كتبت كثيرا من المسرحيات والأعمال الدرامية عرفت أن الكتابة ليست وسيلة لاثبات أى شىء وإنما هى وسيلة للنقاش .

وبعد أن كنت اكتب وجهة نظرى التى تسبق جلوسى للكتابة تعلمت عندما اجلس للكتابة أن اعيد تكوين وجهة نظرى بأن ادير الصراع داخلى فى نفس الوقت الذى اديره بين ابطالى . أسأل نفسى وأنا أسأل عن شخصياتى وكان يزعجنى أن السؤال الواحد يولد أسئلة كثيرة ، ثم أدركت أن هذه ميزة ، ثم تعلمت أن أجعل الأسئلة تتولد فى ذهن المتفرج أيضا .

كنت أكتب عندما يكون لدى ما أريد أن أقوله للناس واعتقد أنه الصواب على نحو يقينى . اصبحت اكتب عندما يكون لدى مشكلة تؤرقنى . ما يدفعنى للكتابة الآن هو حيرتى وقلقى ودهشتى بل ومعاناتى عندما أرى الأمور من عدة زوايا مختلفة ومتناقضة .

أظن أن كتاباتى قد نضجت عندما ايقنت أنى لا أملك اليقين . فالكتابة ليست تعبيرا عن الحكمة ولكنها محاولة للوصول إليها .

الحيرة والشك والقلق والدهشة التى اشعر بها ، أحاول أن اطرحها على جمهورى واجعله يشاركنى فيها ، كأن لسان حالى يقول لماذا أعانى كل ذلك وحدى؟

الأن عندما يخرج احدهم من مسرحيتى ليقول انها لم تعجبه أو لم يقتنع بما تقوله لا يحزننى ذلك مطلقا . فإذا قال انها رائعة لا يسعدنى ذلك تماما ، لكن إذا خرج أحدهم مندهشا لا يجد ما يعبر به تماما فيصيح محتجاً (ما هذا الذى فعلته لنا؟) أو (ماذا تريد أن تقول بالتحديد ؟) أو يقول مرتبكا (لكنك لم تطرح علينا حلا للمشكلة) أو يسأل بفضول (بغض النظر عّما توحى به المسرحية ما هو رأيك انت شخصيا ؟) حينئذ اعرف أنى فعلت شيئا .

ويحدث احيانا أن يقول لى ثالث (ابنى فى الثالثة عشرة وقد اعجبته مسرحيتك وقرأ أيضا نصها المطبوع) ... إلخ ، هنا فقط اقول لنفسى : لقد نجحت . لقد تواصلت مع ذلك الصبى الذى يعرف بحكم سنه كيف يندهش ويحتار ويقلق دون خجل .

ويعنى لى هذا أن الطفل بداخلى لم يكبر كثيرا بعد وأنى مازلت قادرا على التساؤل . ما هو الفن ؟

أليس هو إعادة طرح الأسئلة بشكل جديد حول نفس الموضوعات القديمة ؟

بلى ... هو ذلك .

أليس طرح الأسئلة هو دعوه لحرية المتلقى ؟

بل .. أليس هو بعض اجابة ؟

بلى هو كل ذلك .

أما اليقين الكامل فلندعه لرجال السياسة والارهابيين والنقاد !

قناع الهوية

قصة قصيرة .. بقلم : عادل كامل

بريشـــة : سـقيحـــة حسنين



عادل كامل كاتب روائي قديم زميل لنجيب محفوظ وعلى أحمد باكثير ويوسف جوهر ، لمع لفترة فى ميدان الأدب . بدأ الكتابة مع نجيب محفوظ، وأصدر روايتين شهيرتين هما « مليم الأكبر » و « ملك من شعاع » التى نال عنها الجائزة الأولى فى مسابقة وزارة المعارف فى المجمع اللغوى، كما أصدر مسرحيتين هما «نيران المركب » و «ويك عنتر» ،التى ظهرت بين ١٩٤٠ - ١٩٤٥ ..ثم توقف عن الكتابة تماما.

وننشر له هذه القصة التى اختص بها الهلال، والتى تنشر لأول مرة

كان «مجر» على مرمى حجر، فشرب الفتى خمرا كثيرا لغير موجب. وفي هدأة الليل المدلهم، شعر بالبرد يلسع أذنيه وهو يتحسس مفتاح الباب الخارجي، من بين مفاتيح أخر، يحتفظ بمعظمها في حلقة سلسلته لغير موجب، وتذكر وهو يدس بالمفتاح في القفل، أن حافظة جيبه مفعمة بشتيت من الأوراق لغير موجب. اقفل الباب واحكم الرتاج، وهو يتمتم قائلا:

ـ ما أنا بحمار حمل. ينبغي أن أتجرد من فضلات كثيرة حتى أدخل الجنة. هؤلاء الناس يجمعون في جيوبهم ويكدسون في افئدتهم فضلات لا حصر لها. ماذا فعلت بنفسي يا ترى...

فتح باب حجرة نومه، فهب عليه منها اشعاع دافئ كان يتوقعه، فقد أصبحت هذه الحجرة منذ زمن رمزا لعنصر الدفء في حياته. الدفء المؤنس، والخمول المنسرح النشيط، اللذان يستحيلان أحلاما عبقرية تأتيه من خلال النافذة حين يفتح عينيه على بياض الصبح ـ هذان وحدهما، من بين مختلف الأحاسيس، هما الكفيلان بأن يولدا في نفسه سعادة مادية لاريب فيها.

وقف برهة يمتع أنفه بالأريج الحيواني المتصاعد من جسد المرأة الحار المعطر، فتذكر لتوه رائحة الخيل في اصطبل نظيف. وضغط مفتاح النور، فرآها مكورة تحت الغطاء لا يظهر منها سوى خصلات من شعرها المتوهج، بدت فوق الوســـادة البيضاء كنتف من سحاب الأصيل. تقدم نحوها خطـوة ثم وقف عن السير، فقد ساورتـه رهبة خفية في حضرة هذا الجسد الوادع، وارهق أعصابه المتوترة ذلك التنفس المنتظم كدقات الساعة. حقا إن قتل امرأة نائمة يتطلب شجاعة عشرة رجال.

ولكنه لم يكن ينوي قتلها، فهو يحبها حبا يخترم حياته من طرف لآخـــر. ووقف حـائرا لا يدري ماذا يفعل. كانت ثمة عهود بينهما الا يغيب في العودة فغاب، والا يشرب كثيرا فشرب. ولم تكن تلك أول مرة ينقض فيها العهد.

أزاح الغطاء عن رأسها الصغير ففتحت عينيها على الأثر. فلما أعشى الضوء بصرها أغمضتهما عودا على بدء، وزمت ما بين حاجبيها. وبدا له وجهها المتورد، وسط زحمة شعرها الموسوس، كاسطورة من أساطير الشمال، فمال عليها وقبل جبينها.

قالت له:

ـ لقد حضرت عمتك الليلة وانتظرتك طويلا حتى ملت.

وخشي أن تشم رائحة الخمر فابتعد عنها وقال:

ـ العمات نكبة البشرية على مر العصور.

ـ انها تحبك كثيرا...

ـ هذا أس النكبة. فالناس يضارون من الحب بما يفوق ضرر

قناع الكهولة

الكره، حسب الأعداء مزية أنهم لا يزوررون.

لوت اليه وجها مقطبا وقالت مستنكرة:

ـ ما هذا الكلام...

والحق أنه لم يكن يدرى ماذا يقول، فقد أشاع فيه الخمر نوعا من الاستهتار، وجعله أقل تملكا لزمام فكره، فأشاح بوجهه وقال:

ـ لاتلقى إليه بالا.

ثم جلس على المقعد المواجه لمنضدة الزينة وبدأ يحل رباط حذائه. ولم يكن يجدر به التزام الصمت إن أراد ملافاة ساعة الحساب. ولكنه لم يكن فى حال يؤهله لمراعاة جانب الحكمة، فسعى إلى تعجيل النهاية المحتومة.

وقد كان. إذ لم تستغرق لحظة الصمت ســـوى دقائق قليلة، وإذا بها تنهض من تحت الغطـــاء، وتسند ظهرها إلى الوسادة، ثم تلقى عليه الســـؤال المتوقـــع:

ـ لم تأخرت؟

وكان حتام عليه أن يكذب كما كذب فى المرات السابقة. فان ذكر الدواعى الصادقة، فى مثل هذه الأحوال، يؤدى إلى تطاحن أكيد. لقد ثبت لديه ان هذه الدواعى ليس مما يفهمه النساء، وان فهمنها فهن لا يقدرنها حق قدرها، بل يعتبرنها مصطنعة زائفة، بحيث يكون الكذب أقرب عندهن إلى التصديق. حقا ان النساء مخلوقات أجنبية عن الرجال! إن كل عضو من أعضائهن، يختلف عن نظيره فى الرجال، تقابله فى النفس طبيعة مختلفة.

كان قد فرغ من خلع حذائه الايمن، فبدأ يحل رباط حذائه الأيسر، وهو يدلى بالعذر المعد من قبل:

ـ لقد قابلنى صديقى عبد الرحمن بعد غيبة عامين فى أسيوط. ولما افهمته وجوب عودتى مبكرا، قال انه على يقين بانك لو علمت مقدار شوقه إلىّ لأعطيته الحق فى أن يحتجزنى هذه الساعة أو الساعتين. وأنا كما تعلمين رجل خجول.

رفع رأسه فوقعت عيناه على صورة وجهه المنعكسة فى مرآة منضدة الزنية، فاذا به ينتفض ويقف جزعا. هذه هى السمات عينها.... سمات الكهل الذى صعد فى الترام منذ نصف ساعة لقد القى اليه نظرة عابرة فى أول الأمر، فلما سمعه يحيى كهلا آخر يجلس إلى جواره، صافحت اذنيه لغة غريبة لم يكن قد انتبه إليها من قبل ـ لغة الكهول:

ـ كيف حالك يا سيدنا البيه. نحن والله فى غاية الشوق. ألف نهار أبيض اذ وجدناك بخير. يعلم الله ان ذكراك لم تغب عن بالنا قط. بالأمس فقط كنت على القهوة مع حسين بك وجاءت سيرتك على ألسنتنا فذكرناك بكل خير. الحمد لله على السلامة....

هذا الشوق البالغ الذى توحى به معانى الألفاظ، لم يكن له أثر ما

فى لهجة الكلام. كان يحيى زميله الكهل وكأنه يقول له:

ـ أنت تعلـــم اننى لا أشعر قط بشئ مما أقول.

وكان الكهل الآخر سعيدا بهذا الوضع الذى يتيح له حرية التفنن فى ملاقاة نفاق صاحبه بما يناسبه، دون أن يحمل نفسه عناء التعبير الصادق عما يحس به نحوه. فالمسألة بينهما سباق يقوم على المهارة فى اصطناع العبارات البراقة. لهذا فقد نزل الى المضمار فى فرح المقبل على لعب النرد مع صديق قديم.

كان يستمع الى حديث الكهلين، وعيناه منصرفتان إلى تصفح كتاب بيده. فأغرته غرابة لغتهما بأن يتطلع إليهما ليرى أى شخصين هما. ونظر، فرأى، فلم يدر من أمرهما شيئا.

لم يجد أمامه شخصين حيين، بل قناعين جامدين. انهما انموذجان لأى كهلين، فى أية بقعة من بقاع الأرض. لم تكن فى وجهيهما قسمات «شخصية» يعتد بها، وكأنهما وجهين من الوجوه المصنوعة من الورق، التى يستطيع أى قادر على الشراء أن يحصل على أية مجموعة يريد من المحلات المعدة لبيعها.

أيكون للكهول قناع خاص بهم ولم يفطن هو لهذا الأمر من قبل...

انه يعرف كثيرا من الشبان معرفة وثيقة، كما أنه على صلة ببعض الشيوخ. وهو لا يذكر أنه رأى على وجه أى منهم قناعا كقناع الكهولة هذا.

ولقد يفهم هذا بصدد الشبان الذين لم يفقدوا بعد ملكة الاندفاع وراء فطنتهم الطبيعية أو نوازعهم الباطنية، مما يمنعهم من اصطناع قناع يقوم على تجاهلها. ولكن كيف يطرح الكهول اقنعتهم عند باب الشيخوخة، مع أن حاجتهم الى الاحتماء وراءها تتضاعف فى هذا السن المرهوب، الذى لا يشفع فيه سوى أن من يصلون إليه يكتسبون على مر الأيام «انسانية» رقيقة تقربهم إلى القلوب...

انه اذ ينظر إلى المسألة خلال من يعرف من الشيوخ، فلعل بعضهم يفقدون اقنعتهم لاضمحلال جهدهم الارادى، والبعض الآخر لفقدان اهتمامهم بالعالم الخارجي. البعض منهم قد دكت اقدام الزمن حصونه فانهار، وكلما يسمع دبيب الموت يتكئ على عكازة أبى العلاء ويعض شفته ثم يئن منشدا:

يهال التراب على من ثوى
فآه من النبأ الهائل

والبعض الآخر يهزأ بالدنيا التى توشك أن تلفظه، ومن أعماق سخريته هذه، وهو جالس فى سكون الليل يحرك قدمه المتورمة، تراه يبسط وجهه نحو السماء ويتنهد قائلا:

«مللت يا الهى وجودى وضيق صدرى بدنياى... يا من يجعل من العدم وجودا، اخرجنى من عدمى بحرمة وجودك».

قناع الكهولة

آه من هذا السن الذى لا يرحم.... انه لمخوف.

جالت هذه الخواطر برأسه، وهو يتأمل وجهه فى المرآة، فجز بأضراسه. أليست هذه أطراف الكهولة الباردة بدأت تنساب فى قسمات وجهه....

مسح بأصابعه على خديه وهو مبهور، ثم تمتم قائلا:

– رباه ! إذن فلن أدخل الجنة آخر الأمر....

★★★

فى اليوم التالى ذهب إلى صديق حكيم، شامخ الجبهة عميق النظرات. قال له:

– اكتشفت «قناع الكهولة».

فابتسم الحكيم وسأله:

– ما هو؟

كان لا يزال مبهورا من محنة تجربة الأمس، ولذا لم تكن نظراته ثابتة، ولم يكن لسانه منطلقا. وكان قد أرق زمنا طويلا يفكر فى جواب هذا السؤال، دون أن يهتدى إلى حقيقة حاسمة تكشف عن أمره. قال لصديقه:

– اننى أدرى ولا أدرى. أدرى أن أوضح مميزات هذا القناع هو انه وضع لإيقاع الوهم بأن صاحبه رجل محترم. هذا هو الأهم. فالناس فى هذا السن يصابون بمرض التعالى، لأنهم غير محترمين فى الحقيقة. اذ من أعجب الأمور أن المحترم حقا يتواضع عن غير ادراك، وربما حسد أصحاب الأقنعة على أقنعتهم . أما سائر الناس ، فلا بد لهم من الكذب والادعاء لتزييف مظهر من الاحترام قد يغتر به الكثيرون. وفى ظنى أن الكهول مصيبون فى هذا المسلك، اذا نظرت إليهم من ناحية الحكمة العملية. فهم يستطيعون تصريف الكثير من أمورهم بفضل هذا القناع، لا سيما أن كانوا يعيشون فى بلد غير متحضر..

شاعت البسمة فى محيا الحكيم، ورمق صديقه برهة، ثم سأله قائلا:

– هل تقصد أنه كلما تحضر شعب من الشعوب رق قناع كهوله؟

رفع الفتى رأسه إلى محدثه وقال:

– أجل . ألست ترى هذا؟

– دعك منى. أتستطيع أن تتميز علائم هذا القناع فى وجهى؟

ثبت بصره فى صديقه لأول مرة، ولكنه صمت طويلا قبل أن يقول:

– لا أدرى .

– أرى أنك تتأدب معى. ألست تجدنى «محترما»؟

– لقد جئت التمس العون منك.

رفع الحكيم رجليه إلى الأريكة، وضم ساقيه وجلس عليهما، ثم عرّى ساعديه المشعرين وعقدهما فوق صدره، وقال:

– أتمم حديثك.

وكان الفتى يكره جلسة

الحكيم هذه، فغادر مقعده، ومشى إلى النافذة، فــوقف قبالتها موليا ظهــره لصديقه، وقال فـى شئ من الغيظ:

ـ هذا هو حديثي، ان المرء كلما ازدادت لديه شهوة الظهور بمظهر الاحترام، كثف القناع وجمد. هذا الجمود مصدره انعدام الصلة تقريبا بين القناع وبين ما يدور فى النفس من أحاسيس، التى لا تلبث أن تنوى تدريجا حين يطول العهــد بكتمانها. ولعل هــذا بيت القصيد، اذ حين يتحــرر القناع من تأثير العواطف الحقيقية، يصبح أقدر على التعبير عن المقاصد تعبيرا إراديا، يتفنن صاحب القناع فى وضع حدوده وتسوية معالمه. فالتعبير عن الفرح مرسوم ومعد من قبل. وكذلك التعبير عن الدهشة، والغضب، والحزن،والاستنكار.

فما يكون قناع الكهولة هذا؟ هل هو رواسب الاثار المتراكمة للنفاق المتكرر؟ وهل لا يكذب المرء، دون أن تخلف فيه الكذبة اثرا ماديا يدل عليها؟ هذا ما لا أدرى، وهو ما أريد أن أعرف.

ابتسم الحكيم، ولزم الصمت دهرا دون أن تفارقه ابتسامته، ثم قال:

ـ انظر إلى يديك.

نظر الفتى إلى يديه، ثم رفع عينيه متسائلا:

ـ ما شأن يدى؟

ـ لعلك تراهما مرهفتين مصقولتين جديرتين برجل مثقف، بينما يراهما غيرك غليظتين قبيحتين، وقد يكرهك من أجلهما. لقد مررت بهذه التجربة من قبل .

وعاد الحكيم الى صمته، ثم مد إحدى ساقيه وأخذ يدلكها وهو يقول:

ـ إن مشكلة الداخل والخارج هذه لمن اعقد المشكلات فالمرء لا ينظر إلى نفسه الا من الداخل، ولذا يعجز عن أن يدرك صورته كما تبدو للآخرين. وأنت لا تنظر الى الناس إلا من الخارج، فلا يمكنك أن تدرك دخيلة أنفسهم. وقد يكون كهلك الذى حدثتني عنه، انسانا جيدا من الداخل، وانت لا تدرى، فثمة حاجز يحول دون اتصال النظرتين. وهو حاجز كثيف يقصر الفكر عن اختراقه، وإلا صرنا آلهة.

★★★

مضت عليه ثلاث ليال. وفى الليلة الرابعة، عاودته نوازع قديمة فلبى النداء، وعاد إلى بيته متأخرا ساعات عن الموعد المضروب. وفيما هو يولج المفتاح فى القفل تذكر السؤال المتوقع:

ـ لقد تأخرت ....

ماذا تراه يفعل غير ما اعتاد ان يفعل.... سيدلى بالعذر الذى أعده فى الطريق، وسيضيف بعض السمات الى قناع كهولته الوليد.

وسطع فجأة نور أضاء السلم، فنظر إلى يديه.....

وتمتم يقول:

ـ رباه! أحلال هذا أم حرام.... لا. لا. لا. لست أريد أن تدفعنى إليه. لا. لا. لا .... و انطفأ النور.

بقلم : محمد وهبى

واحة وسط أمريكا لتعدد الزوجات

وأولمبيــــاد ســـــنة ٢٠٠٢ !!

هربا من الاضطهاد وبعد رحلة مرهقة قطع خلالها مئات الاميال فوق وديان متسعة وجبال مرتفعة وصل بريجام يانج - ومن ورائه أتباعه من المورمونيين وهم يحملون أمتعتهم وأطفالهم على عربات يد يدفعونها بأيديهم المشققة إلى قمة جبل عال .. ثم جلس ليستريح .. بل الأحرى ليريح أتباعه فقد كانت بنيته أقوى رغم أنه كان فى السادسة والأربعين من عمره وصبره أطول وعزيمته أشد فهو المرشد الأكبر والهادى الاعظم والملهم الاوحد لدينهم الجديد بعد اغتيال «نبيهم» جوزيف سميث . كما أن يانج كان يركب من وقت لآخر - تحت ضغوط أتباعه - مع زوجاته السبع والعشرين فى عربة يجرها حصانان .

وسرح بريجام يانج بخياله إلى الوراء ليتذكر رحلة العذاب التى مر بها منذ أن اعتنق المورمونية فى نيويورك وهو فى التاسعة والعشرين من عمره وكيف انضم لأول هجرة للمورمونيين إلى أوهايو ثم لهجرتهم إلى مسورى ثم شاركهم العودة

إلى أوهايو حيث قتل «النبى» فى إحدى موجات القتل والحرق التى تعرضوا لها فى كل مكان لاختلاف دينهم عن المسيحية التى اعتبروا كنائسها قد «ضلت» الطريق فنزل «الوحى» على جوزيف سميث ليضع أتباعها وأتباع الديانات الاخرى من البشر



الترام الهوائي الذي ينقل السائحين للتزحلق على الجليد على قمة مرتفعة إلى ١١,٥٠٠ قدم

على الطريق السوى فى رحلة السمو إلى الخلود . ثم يتذكر يانج كيف «أختير» هو «بوحى» جديد ليقود «المؤمنين» إلى حيث يمكن لهم أن يستقروا بعيدا عن الاضطهاد والملاحقة فيستطيعون بناء كيانهم ، ومن ثم ينطلقون منه للتبشير بدينهم الجديد .

عندما يتذكر بريجام يانج هذه المهمة التى يؤمن بأنه قد كلف بها ، يجرى الدم فى عروقه من جديد ويهم واقفا ليشير إلى أتباعه بمواصلة المسير .. فيواصل الجميع المسير من ورائه إلى المجهول مدفوعين بإيمان لم ينل منه كل ما تعرضوا له من عذاب واضطهاد . وما هى إلا ميل أو ميلين بعد ذلك وإذا ببريجام يتجمد فى مكانه ليصرخ بأعلى صوته «هذا هو المكان!» . فيجرى الجميع إلى حيث تسمر قائدهم لينظروا معه من فوق الجبل مشدوهين من جمال ما رأوه . فقد رأوا بالقرب من سفح الجبل بحيرة تبدو وكأنها بحر لا يصل النظر إلى نهايته .. كما رأوا جداول تتدفق من على قمم الجبال المجاورة التى غطاها الجليد لتصب فى هذه البحيرة التى انعكست على سطحها شمس الاصيل فى حمرة مبهرة فارتدت إلى السماء لتلون السحب المتفرقة بألوان طيف ساحرة .

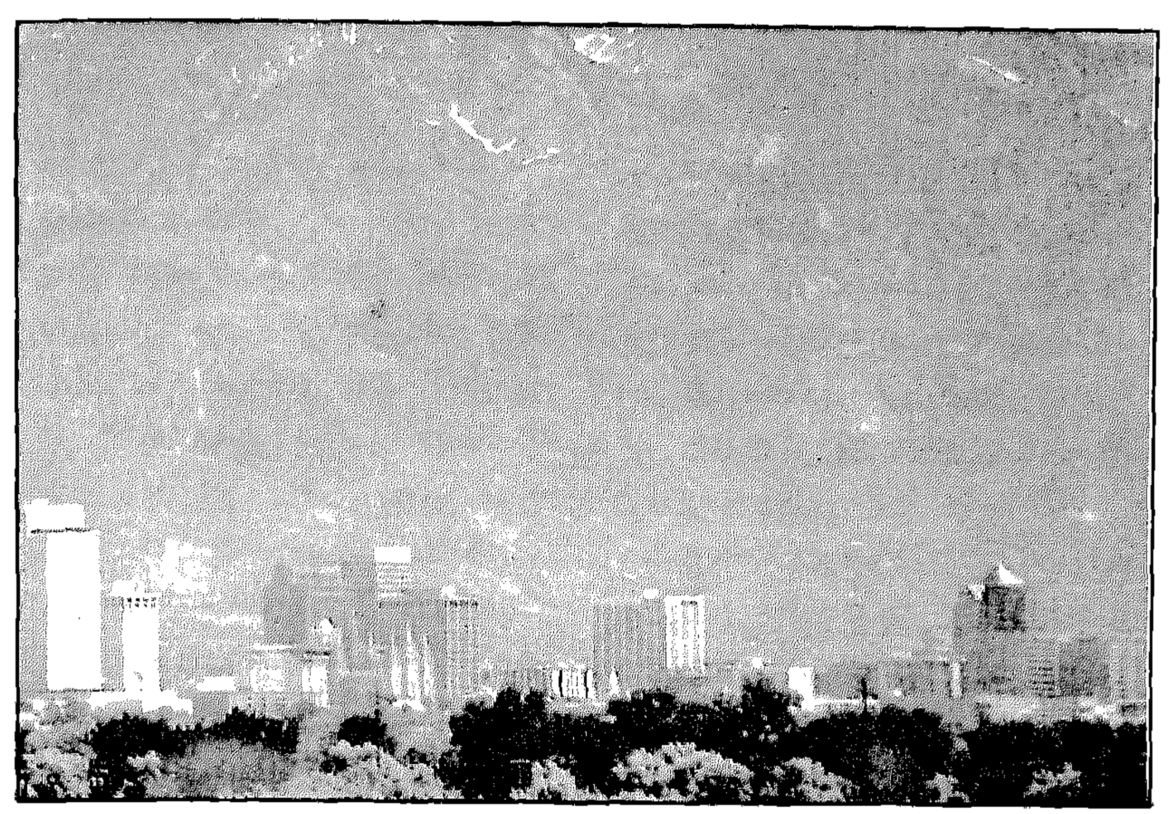
وما هى إلا أسابيع بعد ذلك حتى ظهرت بالقرب من هذه البحيرة بدايات سولت ليك سيتى (مدينة البحيرة المالحة) وقد أحاطت بها الجبال من كل مكان تقريبا . فقد عرف المورمونيون منذ البداية بإيمانهم بأن العمل من الايمان وبتفاؤلهم الذى ينبع من تأكيد دينهم على أن الإنسان بطبيعته خيـر وإن قـــدرته على التطور لا تحدها حدود وأن مهمتهم هى تحقيق النبوءة التى تقول بإمكانية العمل حتى يعود المسيح ليحكم ألف عام يسود خلالها الخير والعدل والسعادة والقدسية فى جميع أنحاء الارض . أما أين يمكن أن يتحقق كل ذلك ، ففى الغرب الأمريكى أولا، أى حيث استقر المرومونيون أخيرا حول البحيرة . وقد أدت هذه المعتقدات بالإضافة إلى اعتقادهم بأنهم شعب الله المختار الذى تقود خطاه سلطة دينية تتلقى الوحى بصورة مستمرة من جيل إلى جيل لتضع له أسلوب حياة متميز يرتكز على النظام والانضباط والامانة فى المعاملة والاستقامة فى الحياة وتكريس خدمة مجتمعهم كأحد أقدس الواجبات مع التبشير بدينهم بكل القوة .

فقليلة تلك المنازل التى لم يطرق بابها بعض المرومونيين ليشرحوا لسكانها دينهم. وقد حدث هذا معى شخصيا ، وعلى عكس معظم الامريكيين الذين يسارعون بقفل ابوابهم فى وجوههم ، فإننى قد فتحت لهم بابى ، وبدأت معهم حوارا طويلا هادئا استمر على مدى عدة أيام فى كل يوم

ساعة أو ساعتين ، طالبا منهم أن يوضحوا لى لماذا وأنا مسلم يجب علىّ أن أعتنق دينهم . بعبارة أخرى ماذا يمكن لدينهم أن يضيفه إلى القيم التى ترشد حياتى حتى أغير دينى وذلك بالطبع دون أن يتطرق الحوار إلى أى اتهامات أو الإشارة إلى أى سلبيات لا من جانبهم ولا من جانبى .. ولما لم يجدوا شيئا يمكن أن يضيفوه إلىّ بحيث يمكن أن يحول حياتى إلى الافضل ، فإنهم قد شكرونى على حوارى معهم ، وأهدونى «كتاب المورمون» فقبلت هديتهم شاكرا ووضعتها بجانب الكتب الدينية الاخرى التى جمعتها واستمتع بقراءتها من وقت لآخر منذ عملى بالهند فى صدر شبابى ثم فى عدة بلاد أخرى مكنتنى من الدخول فى حوارات مع رجال دين من الهندوس والبوذيين والمسيحيين واليهود زادتنى إيمانا وثقة بدينى وفهما وإحتراما لدياناتهم .

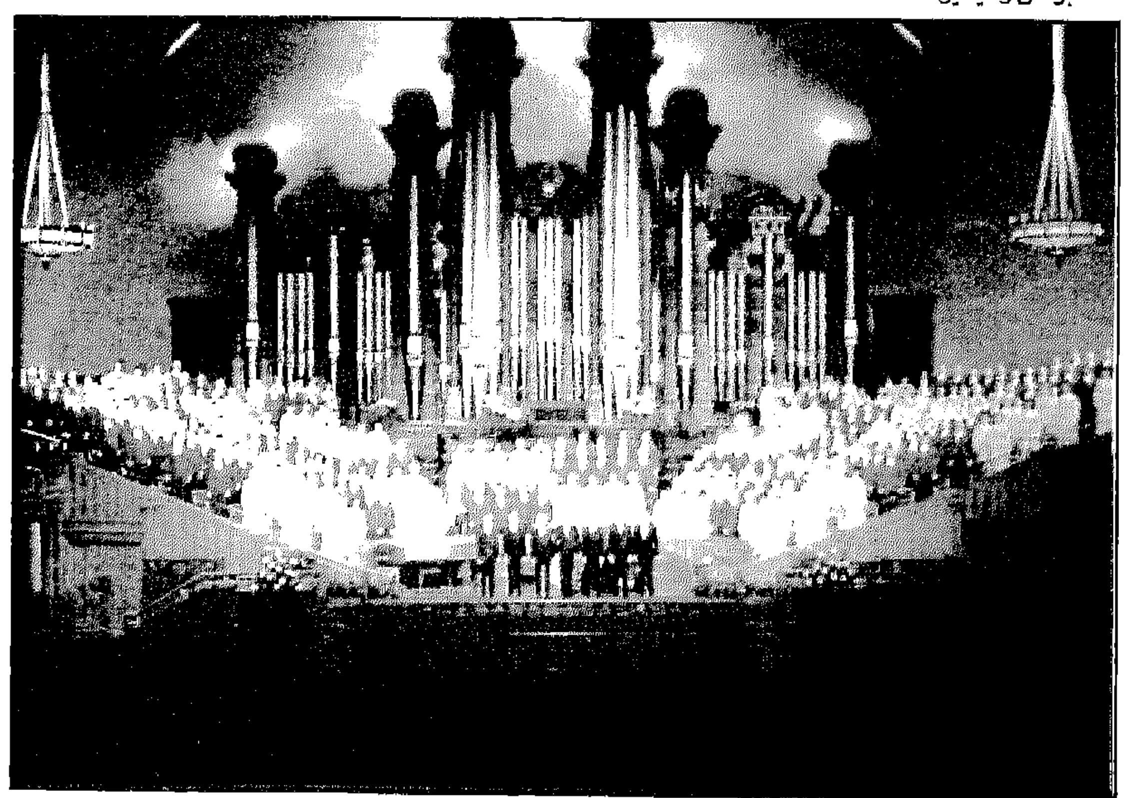
ومن الطريف أن أشير هنا إلى أن بعض الخبراء قد قاموا بدراسة التعاليم المقدسة التى ضمنها تبى المورمونيين جوزيف سميث فى «كتاب إبراهيم» والتى من المفروض أن الوحى قد نزل بها عليه مترجمة من لغتها الاصلية التى كانت مدونة على ورق البردى ، فوجدوا ان هذه التعاليم كانت ضمن النصوص الجنائزية التى كانت متداولة بين قدماء المصريين . وتشير ترجمات سميث إلى الآلهة (بالجمع) وإلى أن النجوم تسكنها الأرواح وأن السوّد من البشر ملعونون فلا يسمح لهم بأن يرقوا إلى مرتبة رجال الدين . وقد حرم الأمريكيون السود بالفعل من أن يشغلوا أى وظيفة داخل الكنيسة المرمونية إلى أن تم تغيير هذه النظرة كلية سنة ١٩٧٨ .

المهم ، بفضل الصفات الإيجابية الكثيرة التى تميز طريقة حياة المورمونيين من نقاء وإخلاص وأمانة وتفان فى أى عمل يقومون به وتضامن فيما بينهم ، فإنهم قد تمكنوا بعد استقرارهم حول البحيرة المالحة بسنتين فقط . وعلى وجه التحديد فى سنة ١٨٤٩ - من إعلان دولتهم المستقلة التى أطلقوا عليها اسم ديسيريت وأصبحت عاصمتها سولت ليك سيتى . وكانت الارض التى أقاموا عليها دولتهم تتبع فى هذا الوقت المكسيك ثم أصبحت تتبع من ناحية الملكية الولايات المتحدة سنة ١٨٥١ دون أن تنضم إليها لتصبح إحدى ولاياتها حتى لا تتبع أوامر الحكومة الفيدرالية فى واشنطن . ومع ذلك، فقد تغير اسم الدولة من ديسيريت إلى يوتاه وأصبح من سلطة الحكومة الفيدرالية تعيين الحاكم . وكان من الطبيعى أن يعين بريجام يانج حاكما ليوتاه بحكم السلطات التى يخولها له مركزه بين المورمونيين كرئيس لكنيستهم .


مدينة سولت ليك المحاطة بسلسلة جبال شاهقة


احد اماكن التزحلق على الجليد حيث يتوقع إقامة اولمبياد عام ٢٠٠٠

برلمان ولاية يوتاه



فرقة تابرناكل كوالير .. اعظم فرقة غنائية جماعية فى العالم

ولكن ما كاد المهاجرون أن يستقروا حتى لبى الكثيرون منهم نداء يانج بالانتشار فى بعثات تبشيرية إلى أماكن أخرى كثيرة حول كيانهم الجديد . ومهما كانت الصعاب فقد كان الجميع يطيعون أوامر يانج لأنهم كانوا ومازلوا يعتقدون أنهم بإنتشارهم فى الارض وإكتساب «مؤمنين» جدد لديانتهم فإنهم يساهمون فى بناء «مملكة الإله على الارض.» كما كان يانج نفسه قد ضرب المثل لهم، عندما سافر إلى إنجلترا سنة ١٨٣٩ حيث اسس بعثة تبشيرية اكتسبت خلالها عددا كبيرا من الإنجليز وشعوب دول إسكاندنيفيا لكنيسته . وقد هاجر هؤلاء بعد ذلك من أوروبا هرباً من الإضطهاد لينضموا إلى إخوانهم فى الدين فى امريكا .

الجنة وتعدد الزوجات

ورغم إقامة المورمونيين لكيانهم الجديد المستقل فإن الخلافات والمشاحنات استمرت بينهم وبين الحكومة الفيدرالية خاصة بعدما أصدر يانج قانونا يكرس رسميا تعدد الزوجات . فالمورمونيون كانوا يؤمنون بأنه لابد للمرأة أن تتزوج وإلا فإنها لن تستطيع بعد موتها الذهاب إلى الجنة . وبما أنهم كانوا يعتقدون أن عدد النساء فى العالم أكثر من عدد الرجال ، فإن تعدد الزوجات كان ينظر إليه على أنه واجب دينى لإنقاذ أكبر عدد من النساء . وقد وصلت الخلافات بين المورمونيين والحكومة الفيدرالية فى واشنطن إلى نشوب نزاع مسلح أدى إلى عزل يانج من مركزه كحاكم ليوتاه . ولكنه قد استمر واقعيا فى السيطرة على كل صغيرة وكبيرة فيها بحكم مركزه كرئيس للكنيسة فليس هناك فصل فى المورمونية بين الدين والحياة العامة . ومعنى ذلك أن تعدد الزوجات قد استمر وكان ذلك سببا فى أن الكونجرس الامريكى رفض أربع مرات طلب يوتاه الإنضمام إلى الولايات المتحدة . وأخيرا قبل طلبها فى يناير ١٨٩٦ وأصبحت الولاية الخامسة والإربعين فى الإتحاد الفيدرالى (يتكون حاليا من ٥٠ ولاية) ولكن بعد أن ألغت على مضض السماح بتعدد الزوجات . ولهذا السبب فإن المورمونيين مازلوا ينظرون إلى الحكومة الفيدرالية فى واشنطن بقدر من الشك والريبة .

وقد علمت أثناء زيارتي لسولت ليك سيتى فى الشهر الماضى أن هناك من يمارس تعدد الزوجات حتى اليوم ولكن دون الاعلان عن ذلك وإن يكن قد قل عددهم جدا . والمفارقة هنا أن هناك قرية بها حوالى ١٠٠ أسرة تمارس تعدد الزوجات ولكن هذه القرية واسمها كولورادو سيتى أصبحت حاليا جزءا من ولاية اريزونا وليس جزءا من ولاية يوتاه كما كانت فى الماضى

وإن كانت لا تبعد عنها كثيرا .

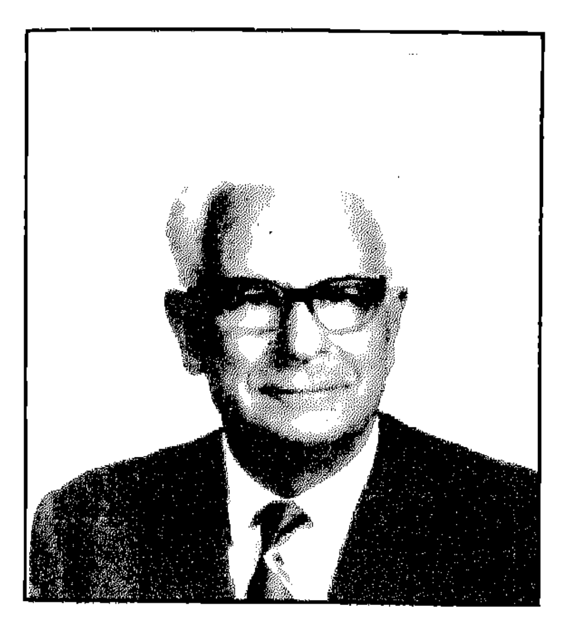
فالمعروف أنه بعد انضمام يوتاه للولايات المتحدة فإن أجزاء كبيرة منها قد انسلخت منها ودخلت ضمن حدود الولايات المجاورة مثل كاليفورنيا وأيداهو . بل كانت دنفر نفسها وهى العاصمة الكبيرة لولاية كولورادو - التى تجرى فيها أحداث مسلسل فالكون كريست - جزءا من يوتاه أيضا . وهذا كله يدل على حيوية وديناميكية المورمونيين الذين رغم صغر عددهم ضموا مساحات كبيرة إلى دولتهم . وعدد المورمونيين فى العالم حاليا حوالى ثمانية ملايين ونصف وإن كان يقال أن أصبحوا يكتسبون إلى كنيستهم حاليا حوالى ٣٥٠,٠٠٠ مرمونى كل سنة .

وقد أدت الديناميكية التى يتميز بها المورمونيون إلى جعل يوتاه مركزا كبيرا للحركة التجارية والصناعية علاوة على كونها مركزا مرموقا للفنون من موسيقى وباليه . فأوركستراها السيمفونى وفرقتها للبالية من أفضل فرق الموسيقى والباليه فى أمريكا . أما فرقة الكورال التى تعرف باسم « مورمون تابر ناكل كواير » فإن معظم نقاد الموسيقى يعتبرونها أفضل فرقة كورال فى العالم . والغريب أن كل أعضائها من المتطوعين الذين يساهمون بمواهبهم ووقتهم دون أى مقابل سوى التمتع سويا بالغناء ورفع اسم كنيستهم عن طريق تجسيد روح الخدمة والتطوع من أجل صالح قضية عامة يؤمن بها الجميع . ولا تكاد تجد مرمونيا فى سولت ليك سيتى يعمل فى وظيفة واحدة . فمعظمهم يتطوع للعمل بدون مقابل ولو لبضع ساعات كل أسبوع .

وقد ذهلت عندما علمت فى نهاية زيارتى للمدينة أن السائقة التى كلفت بقيادة السيارة التى خصصت لى ولأربعة صحفيين آخرين من روسيا وأسبانيا واليونان وكوريا كانت زوجة لأحد أصحاب الشركات الكبيرة التى تنتج وتصدر العديد من معدات الرياضة . والمديرة العامة لهيئة السياحة دورين ماكسفيلد بيوتاه تعد من أهم أعضاء فرقة تابرناكل العالمية للكورال مما يعنى أنها تقضى ساعات طويلة كل أسبوع للتدريب على الغناء أو للمشاركة فى حفلات الفرقة أو فى تسجيلاتها مع كبرى الشركات الامريكية أو الاوروبية دون أن تتقاضى - مثلها مثل بقية الفريق - سنتا واحدا وإنما يذهب الدخل كله لخدمة الكنيسة وأعمالها الخيرية والتبشيرية والمرشدات والمرشدون الذين يخدمون أفواج السياح أثناء زيارتهم للمعبد الرئيسى للمورمونيين أو للمعابد الاخرى معظمهم طالبات أو طلبة فى الجامعات وهبوا سنة أو سنتين من حياتهم لهذه المهمة. ومعظم هؤلاء المتطوعين يأتون من

اقاصى أمريكا على حسابهم ويتكفلون بالصرف على إقامتهم وطعامهم طوال فترة تطوعهم .

الامثلة لا تحصى بين المورمونيين بالنسبة لروح التطوع فى سبيل الخدمة العامة التى تقدم دائما بوجه بشوش عليه مسحة هدوء غريبة لاتكاد تصدق فى المجتمع الامريكى الذى يفقد المرء نفسه فى دوامته بسهولة وتكاد تنقطع أى صلة حقيقة بينه وبين الآخر .



دكتور .. عزيز سوريال عطية

صورة للمعبد الرئيس للمورمونيين



ويعيش هؤلاء الناس الطيبون فى بلد يتمتع بجمال طبيعى خلاب لم تفسده صناعة أو يقضى عليه التلوث . فمساحة يوتاه كبيرة وسكانها لايزيدون على ١,٧٠٠,٠٠٠ نسمة ولا يعيش فى عاصمتها سولت ليك سيتى سوى ٨٠٠,٠٠٠ نسمة . وفى حين ترتفع العاصمة فوق سطح البحر ب ٤,٣٠٠ قدم فإن الجبال التى تحيط بها وتغطيها الثلوج طوال السنة ترتفع إلى ١١,٥٠٠ قدم . ومن ثم فهى جنة هواة رياضة التزحلق على الجليد . وقد بدأت الإستعدادات بكل جدية فى سولت ليك سيتى من الآن لعقد أوليمبياد هذه الرياضة سنة ٢٠٠٢ – أى تسع سنوات كاملة قبل الوعد المحدد لها رغم أنه لم تتخذ بعد اللجنة الأولمبية الدولية قرارها الأخير فى هذا الشأن وإن يكن قد رشحتها أمريكا مفضلة أياها على مناطقها الاخرى المشهورة أيضا بأنها من أهم مراكز هذه الرياضة فى العالم .

الفوز بأولمبياد ٢٠٠٢ !

وإحتمالات فوز يوتاه بالاولمبياد كبيرة . فالطبيعة حولها توفر كل ما يحلم به كل من له أى علاقة بهذه الرياضة سواء بصفة مباشرة أو غير مباشرة . بالإضافة إلى ذلك فإن شعب يوتاه مضياف ، وأسعار فنادقها ومحلاتها ومطاعمها وقاعات الباليه أرخص بكثير من أى مدينة أوربية أو آسيوية يمكن أن تقام فيها الأولمبياد دعك من طوكيو ! وهذا أمر يهم بلاشك السياح الذين يسافرون من كل مكان لمشاهدة مسابقات هذه الرياضة ويتمتعون فى نفس الوقت بالمدينة التى تستضيفهم .

وكان لرخص تكاليف الحياة فى يوتاه أثره الإيجابى على ازدهار اقتصادها فى الوقت الذى عانت فيه الولايات المتحدة من انكماش اقتصادى خانق خلال السنوات الأربع الأخيرة . وقد أدى هذا الازدهار بالإضافة إلى رخص الأيدى العاملة مع توفر المهارات الفنية والصناعية المتقدمة ووجود بنية أساسية ممتازة إلى هجرة العديد من كبرى الشركات الصناعية والاليكترونية الامريكية إليها . وكان من أهم ما قامت به يوتاه فى الثمانينات أنها قد ركزت على تشجيع الصناعات التى تتطلب تكنولوجيا متقدمة . فبجانب الصناعات التقليدية مثل صناعة الصلب والنحاس هناك صناعة الطائرات والصناعات التى يتطلبها عصر الفضاء . كما أن يوتاه قد أصبحت من أهم مراكز إنتاج برامج الكمبيوتر .

ففيها المركز الرئيسى لشركة إيفانز وساذر لاند التى كانت أول شركة استطاعت أن تطور صورا من ثلاثة أبعاد وليس من بعدين فقط عن طريق الكمبيوتر . وقد مكن ذلك الشركة من أن تصبح

أهم شركات العالم فيما يسمى بال simulation أى تقليد الواقع عن طريق برامج فى غاية التقدم تمكن على سبيل المثال من أن يجلس طيار مكلف بالقيام بغارة جوية على موقع ما على كرسى ثابت فى حجرة العمليات مثلا ويدير برنامج كمبيوتر مجهز مقدما فيتخيل أنه يقود طائرته ويمر بجميع المصاعب الجوية والعسكرية المحتملة فيقوم على سبيل التمرين بتفاديها ثم يعود إلى قاعدته .. كل ذلك وهو ثابت فى مكانه. وهناك بالطبع العديد من التطبيقات المدنية لهذه العملية التكنولوجية التى بعد أن قمت بتجربة بعضها جعلتنى أشعر وكأنى قد انتقلت إلى كوكب آخر يتقدم عن الكوكب الذى عرفته بعشرات السنين ، ناهيك على عالمنا الثالث .

ومع هذا فبعد جولة لى بهذه الشركة خرجت وأنا أشعر ببعض من الطمأنينة . فقد اكتشفت قبل أن أغادر إيفانز آند ساذر لاند أننا فى مصر قد تنبهنا إلى أهمية إقتحام هذا العالم الجديد . فقد ذكر لى مدير مبيعات الشركة أن بعض أفرع قواتنا المسلحة قد أصبحت من أهم عملاء هذه الشركة التى اقتحمت السوق اليابانى نفسه . والبدء بالقوات المسلحة بداية طبيعية فمعظم القفزات التى تحققت فى ميدان التكنولوجيا تدين إلى حد كبير إلى التنافس فى الميادين العسكرية ولكن سرعان ما تجد طريقها إلى التطبيقات الميدانية .

وبالقرب من سولت ليك سيتى هناك قرية كاملة لبرامج الوورد بير فيكت أكثر برامج الكمبيوتر - التى حلت محل الآلة الكاتبة - شهرة وأقواها على الإطلاق . وكما اخترع برامج شركة إيفانز وساذرلاند أستاذ بجامعة يوتاه بالتعاون مع أستاذ من جامعة هار فارد ، فقد ابتكر أستاذ من جامعة يوتاه أيضا بالتعاون مع تلميذ له برنامج الوورد بيرفكت وأصبح الآن كل منهما يملك ثروة تقدر بمئات الملايين من الدولارات . وأحدث نسخة من هذا البرنامج للغة الإنجليزية لا تصحح جميع اخطاء الهجاء أوتوماتيكيا فحسب ولكنه يصحح أيضا جميع أخطاء القواعد اللغوية إذا أخطأ الكاتب فيها . وقد علمت أثناء زيارة قمت بها لمقر هذه الشركة أنهم سينتهون فى أوائل العام الحالى من تطوير برنامج الوورد بيرفيكت للغة العربية وإن يكن من الصعب أن يضاهى برنامج اللغة الانجليزية من حيث قدرته على تصحيح الأخطاء النحوية أو حتى الهجائية . ولكن ليس من المستبعد التوصل إلى ذلك فى المستقبل مع القفزات الهائلة فى عالم الكمبيوتر ومع نشوء جيل من العرب يمكن أن يجمعوا بين إتقان اللغة العربية والعلوم

الإليكترونية حتى يمكن أن يضموا خبرتهم إلى خبرة الاجانب الذى سبقونا فى هذا الميدان . وريثما يتم ذلك فلا داع لأن يخشى مصححو اللغة العربية فى دورنا الصحفية على وظائفهم لأن اللغة الإنجليزية أسهل كثيرا من اللغة العربية ولابد من مرور سنوات قبل أن نرى برنامج للكمبيوتر بالعربية مماثلا للبرامج المتطورة للغة الإنجليزية . وعلى كل فإنه يمكن تصور القفزة التى قفزتها الصناعات الإليكترونية فى يوتاه إذا ما قارنا بين عدد العاملين فيها سنة ١٩٨٩ الذى كان لا يتعدى ٣,٥٠٠ عامل وبين عددهم فى سنة ١٩٩١ - أى بعد سنتين فقط - حيث أصبح ٤٠,٥٠٠ عامل !

عمار يامصر ..

وكما فى أماكن كثيرة فى امريكا تقريبا ، فإن لمصر وجوداً يذكر الجميع فى يوتاه بحضارتنا القديمة والحديثة . ففى قلب عاصمتها ، وبالتحديد فى قلب جامعتها أحد أهم مصادر فخرها - فهى التى تخرج لها العلماء فى جميع الميادين - يوجد مركز لدراسات الشرق الاوسط يعد ضمن أهم عشرة مراكز أمريكية تتخصص فى كل ما يتعلق بمنطقتنا مثل مراكز جامعة هارفارد وبرنستون وبير كلى . وبالنسبة لأهمية هذه المراكز فإن المؤسسات الفيدرالية هى التى تقوم بتمويلها وليست الهيئات المختلفة فى الولايات التى تقع فيها .

وقد قام بتأسيس مركز دراسات الشرق الاوسط بيوتاه العالم المصرى المرحوم الدكتور عزيز سوريال عطية الذى كان وكيلا لجامعة الإسكندرية ورئيسا لقسم التاريخ فى كلية الأداب قبل هجرته إلى امريكا منذ سنين طويلة . وقد قام الأستاذ المصرى بتأسيس مكتبة فريدة بالمركز تعتبر من أهم مكتبات الشرق الاوسط فى الغرب . ففيها أكثر من ١٥٠,٠٠٠ ألف مجلد بالإضافة إلى أكبر مجموعة عربية عن التراث والتاريخ الإسلامى وكلها مراجع أصلية . كما أن بها أكبر مجموعة فى أمريكا من الكتب النادرة والمخطوطات والوثائق التاريخية القديمة المدونة على ورقها القديم الاصلى ، علاوة على ١٥٠٠ قطعة من ورق البردى . ويوجد بين مجموعات الميكروفيلم والميكروفيش بالمكتبة المجموعة العربية الكاملة لدير سانت كاترين .

ويدير هذه المكتبة الرائعة ويعمل على إثرائها بإستمرار أستاذ مصرى قدير وهو الدكتور رجاء نجيب مقار الذى يعد حاليا مجلدا ضخما عن مصادر التراجم العربية ينتظر أن يصدر هذا العام . وكانت لجنة الاساتذة بجامعة يوتاه قد منحته - تقديرا لدوره الاكاديمى - منحة خاصة

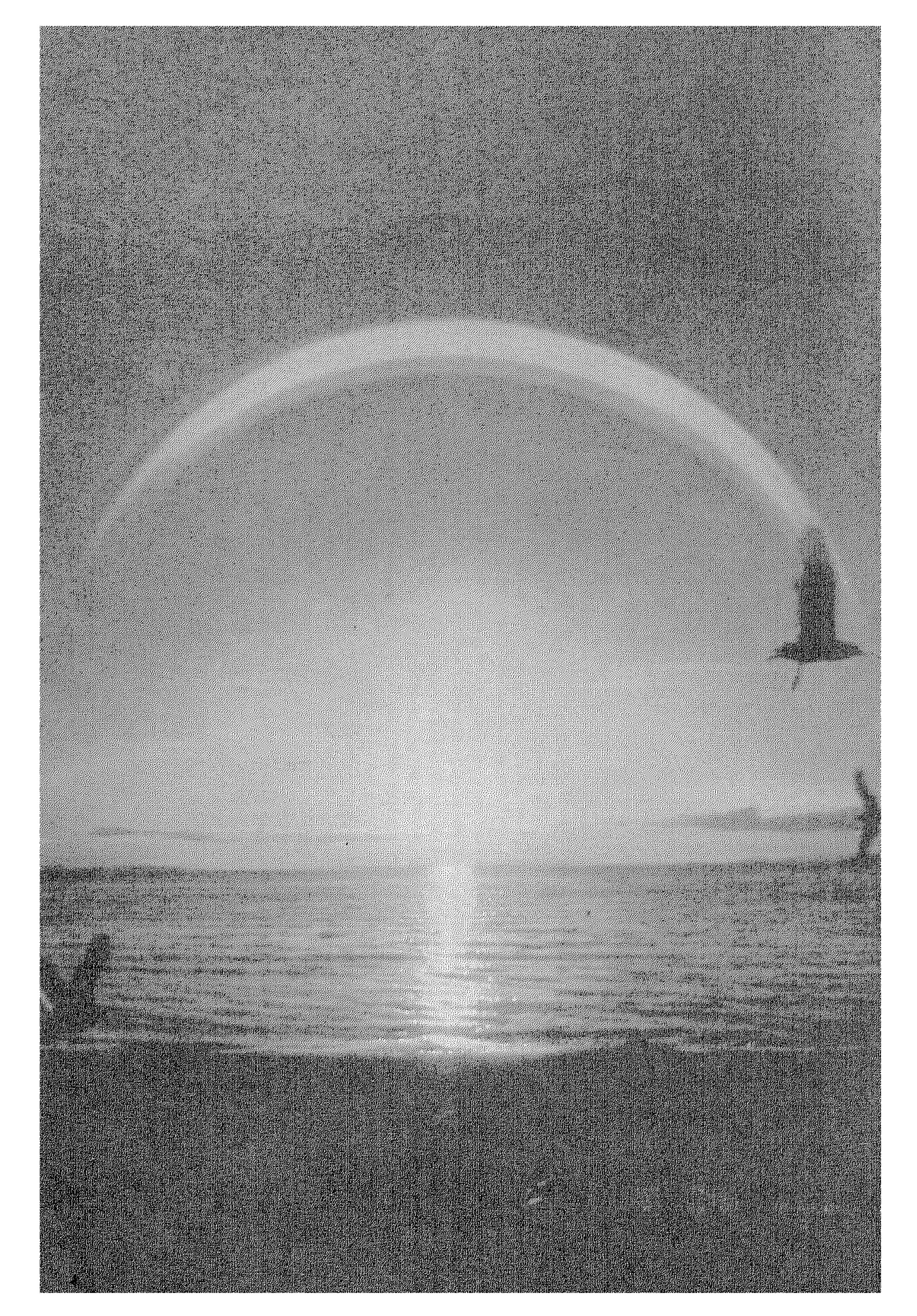
للسفر لعدة عواصم لإتمام هذه المجلد .

وإذا كان مركز دراسات الشرق الأوسط ومكتبته يعدان من ضمن أهم ما خلفه للولاية العالم المصرى عزيز عطية الذى توفى فى سبتمبر سنة ١٩٨٨ . فإنه قد ترك وراءه عملا عظيما ستظل أجيال بعد أجيال من الأكاديميين فى العالم يتذكرونه به . وأعنى بذلك الموسوعة القبطية The Coptic Encyclopedia التى تعد أهم أعماله بل وأهم ما صدر عن الحضارة المصرية القديمة حتى الفتح الإسلامى ، وتعالج هذه الموسوعة تلك الفترة الطويلة الخصبة فى تاريخنا ليس فقط من الناحية التاريخية ولكن أيضا من الزوايا الأدبية والفنية والثقافية والحضارية . كما تعالج الموسوعة بتعمق أكاديمى التاثيرات المختلفة لهذه الفترة من تاريخنا – التى زدهرت فيها الحضارة القبطية لتشكل إحدى الطبقات الهامة فى الشخصية المصرية – على أوروبا وعلى حضارات الشرق الأوسط . هذا وقد نبتت فكرة المجموعة أول ما نبتت في ذهن الدكتور عطية وبدأ فى العمل فيها بالفعل بمفرده إلى أن تبلورت فى صورة إطار مشروع متكامل تقدم به إلى المؤسسة القومية للعلوم الإنسانية التى تتبع الحكومة الفيدرالية وإلى جامعة يوتاه فلم تتردد المؤسستان فى التعهد بتمويل عملية إخراج هذا العمل الكبير إلى الوجود .

وسرعان ما استطاع العالم المصرى أن يجند للعمل معه مجموعة من كبار الأساتذة والعلماء من ٣٥ بلدا برز كل منهم فى مجالات محددة فى تاريخنا الحضارى بالمفهوم الشامل . فمنهم من تخصص فى الآثار والفن مثل الإستاذ الفرنسى بيير دى بورجيه ومنهم من تخصص فى العلوم الدينية القديمة مثل الأستاذ البريطانى و . هـ س . فرند ومنهم من جمع بين التخصص فن الهندسة والآثار مثل العالم الألمانى بيتر جروسمان ومنهم من برز فى اللغويات مثل الأستاذ السويسرى رودولف كاسر كما كان المرحوم الدكتور مجدى وهبة ضمن اللجنة المشاركة فى عملية التحرير للموسوعة . وبعد وفاة الدكتور عزيز عطية فإن زوجته المصرية السيدة لولا عطية قد حملت الشعلة محله إلى أن تم نشر الموسوعة فى فبراير سنة ١٩٩١ .

ولا يكتمل الحديث عن جامعة يوتاه ودور المصريين فيها فى المساهمة فى كل ما يرفع اسم مصر فى أمريكا دون أن أشير إلى الدكتور إبراهيم كروان أستاذ العلوم السياسية الذى لم أذهب إلى مؤتمر ثقافى أو ندوة سياسية سواء فى الغرب الامريكى أو على الساحل الشرقى أو فى أقصى الجنوب إلا وكان من ضمن أهم المتحدثين عن مصر المعاصرة .

وعمار يامصر .. بأولادك فى يوتاه وفى كل مكان !





يا حبيبي ..

شعر : سليم الرافعي

يا حبيبي ! رشفت قدك سكرا ... صرت كأساً أم كنت في القد خمراً ؟

لا تدر وجهك الذي أشعلته ... فتنة الورد عن حبيبك كبرا

ياحبيبي ! كم غابة فيك لاحت ... جدلاً في غموضها مستعرا

بين زهر تهتز أم فوق عرش ... تتهادى حلماً .. وتطلع فجرا ؟

سجد الشوق للعيون وغنى ... بلبل يوقد التراتيل جهرا

أين وادي الخيال يغرس رؤيا ... عبقري كسا الجمال وعرى ؟

ياحبيبي ! لففت من جبروت ... وملأت اللحاظ نهياً وأمرا

بالفم الكوثري أصفى وأشهى ... بالنسيم الأنيق طيفاً وعطرا

بالتفاتات يحتسي الرميسم ويبني ... أملاً وارف الظلال وقصرا

ياحبيبي ! من وحدة الكون جادت ... نظرة تحتوي المقادير قسرا

قبلت .. قبل أمس .. وروّع زماناً ... كذب الصمت فيه حلواً ومرا

قلت : عانق ما شئت .. عانق وحطم ... ذلك الصمت واستبح منه سرا

ترامُ العمق ذلك الصمت أدهى ... نبأ في الهوى وأبعد غورا

قاتل .. غير أنه يتفادى ... أن يراه العشاق سيفاً وغدرا

هذه الأرض تكتسي الهول ليست ... غير روض لمن أحب وذكرى

أيها الصمت ! أيها السيف ! ماذا ... صانع أنت بالتباريح حرى ؟

أيها الفارس اللئيم ! مهلاً ... أغمد السيف دامي النصل سترا

شفتانا وردتين في ملكوت ... تحكمان القضاء كرّاً ونشرا

كان نهر الجمال في الثلج لغزاً ... سال بالحب موجة بعد أخرى

جرف النهر غابة وسقاها ... من كؤوس الربيع بيضاً وحمرا

لحظة الوصل للحبيبين عصر ... أبدى الحقول ضوءاً وزهرا

لحظة تنهب العصور وتحيا ... في الأعاجيب والروائع عمرا

أي نهر نهداك .. أي اكتساح ... نظرات الغزو المدجج سحرا ؟

قبل الكون كله واصطفاه ... ذلك العاشق الذي ضم صدرا

بذراعيه أحرز الكون كبرا ... دافئاً في الشفاه ينبض طهرا ..

طرابلس – لبنان

شخصيات

الفنان أحمد صبري

ونقد الذات

بقلم : محمود بقشيش

عندما إلتحقت بكلية الفنون الجميلة سنة ١٩٥٨ كان من نصيبى أن أكون طالباً فى مرسم «أحمد صبرى» ، ولم يكن هو نفسه موجوداً فى الحياة ، لقد رحل عنها فى مارس سنة ١٩٥٥ ، وانتهت علاقته الفعلية بالكلية سنة ١٩٥١ ، ورأى تلامذته - وفاءً لذكراه - أن يضعوا لافتة باسمه على ذلك المرسم ، ومنحوتة من النحت البارز لرأسه .. لاتزال موضوعة إلى جوار كبار الفنانين الذين رحلوا أمثال : محمود مختار ، وراغب عياد ، وجمال السجينى .. على حائط أحد مبانى الكلية .



لم نكن فى حاجة إلى السؤال عن سيرته الذاتية ، فقد كانت تشيع بيننا حكايات عن أسطورية هذا الأستاذ ، عن مدى صرامته ، وتقديسه للعمل الفنى المتقن .. وقد حكى لى تلميذه المفضل الفنان «حسين بيكار» .. واحداً من مواقفه العجيبة .. قال : «كنت قد انتهيت من رسم منظر من المناظر الطبيعية . بذلت فى رسم اللوحة كل ما أملك من براعة وصبر ، وانتظرت أن أتلقى إعجاب الأستاذ .. وإذا به يوبخنى قائلاً : هذه ليست أوراق شجر بل قطَع من الزبد ! .. ولم يكتف بذلك بل أمسكَ قلماً خرق به اللوحة عند النقطة التى استهجنها !» .

موقف بالغ القسوة دون شك ، وكان كفيلاً بإحباط تلميذه المتفوق . المتميز .. بل كان كفيلاً بإحباط أى طالب آخر ، غير أن «بيكار» أدرك فيما بعد الرسالة التى أراد أستاذه أن يبلغها إليه ، هى أن يبذل أقصى ما يستطيع حتى يبلغ الدرجة الرفيعة التى بلغها فنان عصر النهضة .

كانت ذاكرة «أحمد صبرى» الحافلة بصور من كلاسيكيات الفن الأوربى هى المرشد السلوكى له ، سواء على مستوى الإبداع أو المستوى التربوى .. وفى ظنى .. إن أى فنان مصرى جاد .. بعد زيارات لمتاحف أوربا .. سيتجه ، بوعى أو بغير وعى ، إلى شىء كثير أو قليل ، من نقد الذات ، وهو ما كان يفعله «أحمد صبرى» مع نفسه قبل أن يفعله مع تلامذته ، وربما بالغ «أحمد صبرى» فى تلك القسوة .. لشىء فى تكوينه النفسى الذى شكّلته ملابسات شخصية مريرة .. فقد عاش يتيماً ، فقيراً ، ولم تتخل عنه الحياة قبل أن تتركه فريسة لمصيبة ثالثة .. هى العمى !

★★★

ولد فى ١٩ أبريل سنة ١٨٨٩ بحى المغربلين بالدرب الأحمر ، لأبوين ينتميان إلى أصول تركية ، ولهذا يميل بعض نقاده إلى تفسير صفة «العناد» إلى ذلك الأصل!

ماتت أمه وهو فى الثانية من عمره ، ولحق بها الأب وهو فى الثامنة ، وتبدد استقراره بعد أن لحق بهما الجد . وكان من الطبيعى أن يفشل فى دراسته ، وكان يجد العزاء فى عزف الموسيقى ، واكتشف فى ذات الوقت الميل إلى الرسم .. غير أن مخالطته لموسيقيين جعلته يظن أن الموسيقى هى مصيره .. لولا أن عرف ، بالمصادفة ، أن مدرسة للفنون الجميلة قد أنشأها الأمير «يوسف كمال» بدرب الجماميز ، فلم يتردد فى الالتحاق بها سنة ١٩١١ ، وتخرج فيها سنة ١٩١٦ . وتألقت موهبته فى ذلك الإطار المنهجى الذى أحيط به داخل المدرسة ، ونال تشجيع أساتذته ، وكان كلهم من الأجانب فى ذلك الوقت

أمثال : «باولو فورشيلا» ، و «سيمون» ، و «بوتوه» .. وبزَّ كل أفراد دفعته ، وتفوق فى رسم الوجوه تفوقاً دفع أساتذته إلى ترشيحه فى بعثة دراسية إلى فرنسا - على نفقة الأمير «يوسف كمال» - غير أن ظروف الحرب العالمية عطلت القرار .. ولكنها لم تتمكن من القضاء على حلمه ، وقراره الخاص بالسفر ، فبعد أن تأكد من تبدد قرار أساتذته قرّر أن يبعث نفسه بنفسه إلى باريس ! .. لكن .. لكى يكون الحلم حقيقة ، والقرار فعلاً .. كان عليه أن يحصل على مال .. ولم يكن فى مقدور الفنان المصرى ، فى ذلك الوقت ، أن يخترق غابة الفنانين الأجانب كى يصل إلى حوائط وجيوب رجال المال .. وفى غمرة البحث وجد وظيفة مدرس رسم بمدرسة «مصطفى كامل» الابتدائية بمرتب ثمانية جنيهات فى الشهر ، وحَمِدَ الله على أن أتيح له ، بعد عناء ، شيئاً من الاستقرار . ويحكى الفنان «بيكار» عن تلك الواقعة بقوله : «ما كان يمضى فى وظيفته شهراً حتى استدعاه ناظر المدرسة ليخبره بالاستغناء عن خدماته لأنه غير كفء فى مهنة التدريس ، دون أن يعوِّضه عن الثلاثين يوماً التى عملها بكل أمانة» !

كاد ييأس لولا أن أخبار نبوغه فى فن «البورتريه» قد أغرى بعض الأثرياء فى التعامل معه ، واستطاع بالقليل الذى كسبه أن يسافر إلى باريس فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، والتقى هناك بالفنان «محمود مختار» الذى ساعده فى الالتحاق بأكاديمية «شوميير» ثم أكاديمية «جوليان»، وأطلعه على تجربته الباريسية ، غير أن «صبرى» لم يتمكن من الاستمرار أكثر من ثلاث سنوات بسبب القليل الذى كان معه ، والقليل الذى كسبه من رسم وجوه السيّاح فى «مونمارتر» أو أمام كنيسة «نوتردام» .

☆ ☆ ☆

إن تلك الرحلة الأولى لاتزال مبهمة ، فلم يترك لنا مذكرات عن سيرته الذاتية .. كما أنه لم يكن بعيداً عن عالم «القلم» ، فقد كان أحد أعمدة جلسة العقاد الأسبوعية ، وكان صديقاً له ولعبد القادر المازنى وعبد الرحمن صدقى وغيرهم من المبدعين فى دنيا «الكلمة» .. ولم يتحدث عنها أحد من أبناء جيله ، ولم تَرِدْ على أقلام نقاده ، وتركت لتساؤلات عديدة .. غير أن المؤكد أنه لم يحقق ذاته فنياً ، على النقيض من رحلته الثانية .. عندما بعثته «وزارة الأشغال العمومية !» فى بعثة رسمية إلى «باريس» لاستكمال دراسته الفنية . وهناك تتلمذ على المصور «بول البير لوران» .. ثم على يد «إيمانويل فوجيرا» .. وقد تأثر بهما أشد التأثر . ويُفصِّل الناقد «بدر الدين أبو غازى» ذلك التأثير فى النقاط الآتية :

(أ) اعتبار «الرسم» هو أساس «التصوير» ومن هنا جاءت عنايته بالخط الخارجي .

(ب) أهمية البناء فى اللوحة ، وبهذا اتخذ اللون عنده عمقاً وقيمة فى بنية التكوين لا مجرد طلاء سطحي .

(جـ) اختيار الوضع المثالى للنموذج والعناية بالتكوين .

★★★

عاش «أحمد صبرى » فى باريس فى فترة من أكثر الفترات الثقافية امتلاءً بالأساليب الفنية المتصارعة ، غير أنه انصرف عن دوامتها تماماً ، ولم تظهر على ريشته من آثارها سوى بعض آثار الأسلوب التأثرى ، وكذلك فعل «محمود مختار» بصراحة أكثر .. عندما لاذ بمدرسة النحت الفرعونى .. من حرب أو طوفان الأساليب، ونال شهادة تقدير من صالون باريس على نموذج من منحوتته الشهيرة «نهضة مصر»، ونال «أحمد صبرى» جائزة الشرف من جمعية الفنون الفرنسية عن رائعته «الراهبة» .. عندما عُرضت فى «الجران باليه» بباريس سنة ١٩٢٩ .

لقد انحاز «أحمد صبرى» للأسلوب الأكثر استقراراً ، وكان طبيعياً بالنسبة لرسام حاذق ، ليس طرفاً من أطراف الصراع الجمالى المشتعل ، أن يفعل ما فعل .

ثانياً : إن النقاد الفرنسيين المكلفين بتفسير ما يحدث كانوا يزيدون الالتباس التباساً . ويكفى أن يعرف إن أكثر المصطلحات التى جاءت وصفاً لأساليب بعينها .. إنما أُطلقت فى بداية الأمر تهكماً واستخفافاً . لم يُطلق النقاد - مثلاً - مصطلح «الوحشية» أو «التأثرية» أو «التكعيبية» إلخ .. إلا سخرية بتلك الأساليب، بل لقد شارك الفنانون أنفسهم فى مهرجان السخرية عندما أطلق بعض الفنانين على أسلوبهم الفنى مصطلح «الدادا» وهى لفظة وجدوها بالمصادفة .. كما هو معروف .. فى القاموس .

فإذا كان «صالون باريس» الرسمى ، ونقاد الفن ، على تلك الدرجة من سوء الفهم للأساليب الجديدة .. فكيف يمكن لفنان مصرى ، يعيش ظروفاً فنية وثقافية اتسمت بالانقطاع .. كيف يمكن له أن يكون طرفاً فى ذلك الصراع الدائر ؟!

لقد اختار «صبرى» - بروح الناقد - الأسس أو المحاور التى يبنى بها أسلوباً شخصياً يميزه ، دون أن يقطع السبيل مع الأصول المرجعية لهذا الأسلوب . ويصف «بيكار» تلك المحاور بقوله : «أخذ من التأثرية صفاء لونها ، ومن الكلاسيكية جمالياتها ، ومن الواقعية صدقها ، ومن الفن المصرى القديم شموخه» .. واتسم أسلوبه الشخصى بكل هذا ، وإنْ رجح المزاج أو المذاق المصرى فى لوحاته ، بما يتجلى فيها من رقّة ، وشىء من التقشف .. فمعظم لوحاته تتجنب الغنائيات الزخرفيه كما تتجنب التداعيات الروائية

توفيق الحكيم بريشة أحمد صبرى

التى تحفل بها لوحات «محمد ناجى» و«محمود سعيد» على سبيل المثال .

★★★

الرائد الأول للرسم

إن وجه الإنسان هو الموضوع المحورى فى إنتاجه الفنى ، وبسبب طبيعته المتعففة فإنه لايتوجه إلى علية القوم من الموسرين ، بل يختار وجوها من علية المثقفين .. أو من بين أصدقائه .. ومن بين رسومه الشهيرة وجه «العقاد» الذى رسمه عدة مرات . كان مُعَذِّبا «للموديل» .. يعيد رسم اللوحة مرات ومرات حتى يحصل على أجمل وضعة ، وأدق تعبير ، ولايستطيع أن يتحمل هذا إلا صديق عزيز .. لهذا يحتل الأصدقاء الموقع الأول والأخير فى لوحاته . كان يفضل من الخامات «الباستيل» و «الزيت» .. ويُعَدُّ الرائد الأول للرسم بخامة «الباستيل» أو الطباشير الملون . تكشف لوحاته «الزيتية» عن فهم عميق لتلك الخامة .. فكما يتكون الوجه الإنسانى من طبقات تحتية وظاهرية فكذلك كانت لوحاته الزيتية، تتكون من طبقات مسامية ، وتتصاعد إلى شكلها النهائى الظاهر عبر تراكمات نسيجية ، متقنة . وقد أثَّر أسلوب التناول هذا على بعض أبناء الجيل التالى له من الفنانين ، وهم الآن من كبار الفنانين الذين يحتل وجه الإنسان الركيزة المحورية فى إبداعاتهم الفنية .. مثل : حسين بيكار ، صبرى راغب ، عز الدين حموده ، عبد العزيز درويش ، جمال .. وإن توقف الأهتمام بهذا الموضوع لدى الأجيال الجديدة استخفافاً أو عجزاً .

«الموناليزا» المصرية

لا أظن أن لوحة أخرى فى مصر قد ارتفعت إلى المستوى الرفيع الذى بلغته لوحة «الراهبة» . تجلّت فيها براعته ، وحساسيته كأحسن ما يكون . ومن يتأمل تلك اللوحة يكتشف أنها حصاد لجهد طويل مع كلاسيكيات «اللوفر» .. تأملاً ، واستنساخاً ، ودراسة . فى اللوحة استقرار «كلاسيكى» مألوف ، وإن اتسم عند «صبرى» بالصرحية - وهى إحدى سمات اسلوبه الفنى - وكذلك إلغاء كل ما من شأنه أن يزاحم جوهر الموضوع . وجهها يجمع بين السماحة والجدية والجمال المتعفف . وعيناها متألقتان تنظران إلى مالا نهاية .. وكل هذا محاط بغطاء الراهبة الأبيض . وبين القمة المتمثلة فى الوجه .. والسفح المتمثل فى يديها المستسلمتين .. يحتل الثوب الأسود المساحة ، ويقوم (جغرافياً) بوصل الغطاء الأبيض وجزء من ثوب بنى ، و(زمنياً) بخلق مسافة ، وإيحاء روحى بين الرأس واليدين المتباعدتين مكاناً والمتسقتين تعبيراً . إن ذلك الوجه ، وغيره من الوجوه التى رسمها «أحمد صبرى» تتميز ظاهرياً بالسكون ، باطنياً بالتعبير

المشحون .. سواء كان ذلك فى لوحاته ذات الطابع الكلاسيكى الذى يختفى فيها نبض لمسة الفرشاة، أو لوحاته التأثرية التى تتألق فيها اللمسات. و«صبرى» ليس صياد التعبير العابر ولكنه فنان يحرص على التعبير المثالى ، إن تعبير وجه الراهبة يتجاوز الحدود المألوفة والمتوقعة من راهبة تذوب خشوعاً واستسلاماً وضعفاً ، ففى راهبة «صبرى» نرى شيئاً مغايراً لكل هذا، نرى الشموخ، والنظرة المستيقظة التى تكاد - بسبب تلك اليقظة - أن تكون متحدية ، فالعينان مفتوحتان عن آخرهما ، يزيدهما انفتاحاً حاجبان . كثيفان . طويلان . عيناها أشبه بعينىّ صقر لحظة الانقضاض . تخترقان فضاءً لا نراه . إن المساحات الممتدة للثوب الأسود ، والغطاء الأبيض ، والخلفية الفاتحة ، والأصابع الساكنة ، تتحالف جميعاً .. فى صمت .. من أجل هذا التعبير المشحون . الموجب .

تأتى فى المرتبة الثانية - من ناحية الشهرة - لوحة «مابعد القراءة» ، وتتناقض - إلى حد ملحوظ فى اسلوب الأداء ، وزاوية التعبير ، مع «الراهبة» .. ففى اللوحة الأولى أخلى الفنان الساحة بأكملها من كل ما يتناقض مع التقشف ، من أجل إبراز التعبير المكثف لوجه الراهبة ، بينما اللوحة الثانية .. قد أغرق كل جزئية من جزيئاتها فى جوٍ مخملى يدعو إلى التأمل المسترخى ، ظهرت الزهور البيضاء راقصة خلف السيدة ، وانتشرت زهور أخرى مرسومة على غطاء مسند تتكىء عليه ، وامتدت أصداء هذا فى شكل زخارف أخرى تتراقص على مسطح الخلفية . ويسترخى الجسد ، واليدان ، وتميل العين .. لا تنظر إلى شىء محدد . وتشترك اللمسات البارعة ، المتنوعة ، فى تشكيل نسيج ملمسى ، وضوئى ممتع .

على الرغم من التزام «صبرى» الدقيق بالأصول المتعارف عليها للتكوين ، فإن حريته تتزايد مع رسوم المناظر الطبيعية ، فاللمسة يتزايد وضوحها ، وحركتها ، وتتنوع تنوعاً ملحوظاً يتسق مع تنوع مثيره الجمالى .. لمساته تقدم تلخيصات موحية للأشكال المرئية ، وتتسم مناظره بالدفء اللونى ، وحيوية العجالات . أما المرأة - كموضوع - سواء ظهرت بوجهها، أو جسدها عارياً ، لا تستثير فى مشاهدها الكامن غرائزه . يظهرها دائماً فى أجمل أوضاعها ، وأكثرها تعففا ، حتى مَنْ أظهر دلالها ، أظهره بشكل لا يخدش الحياء ، فهو دلال عفيف ، لا خوف منه أو عليه ! .. ويأتى موضوع «الطبيعة الصامتة» يشارك فى احتفالية الدفء اللونى ، وصرحية البناء ، والانصراف عن الافتعال والتصنع .. والدعوة إلى التواصل مع الحقائق الجميلة والبسيطة .





آل باشينو ... فى عطر امرأة

أوسكار ضد الجميع وهوليوود ضد أمريكا !

بقلم : مصطفى درويش

تحول مصنع الأحلام إلى مصنع للسموم الناقعات : هكذا قال الناقد الأمريكى «مايكيل ميدليد» فى كتابه المثير للجدل داخل أمريكا وإنجلترا «هوليوود ضد أمريكا - الثقافة الشعبية ، والحرب ضد القيم التقليدية» .

ويبدو أن مصنع الأحلام ، وقد تحول هكذا إلى النقيض ، يواجه الكثير من المتاعب والازمات ، ولا أقول الأعاصير .

ولقد كان لهذه التحولات انعكاسات بدت فى تصرفات غريبة وعجيبة من قبل ملوك هوليوود غير المتوجين ، وأعضاء الأكاديمية الأمريكية لفنون وعلوم السينما .

لعل آخرها حفل توزيع جوائز الكرة الذهبية ، ومن بعدها الترشيحات لجوائز الأوسكار .

وأبدأ بالجوائز الأولى لأقول أنه قبل أسابيع أقام اتحاد الصحافة الأجنبية فى لوس انجلوس ، حفله السنوى ، ذلك الحفل الذى يجرى فيه توزيع جوائزه المسماة بالكرة الذهبية على الأفلام الفائزة وصانعيها فى مختلف فروع الإبداع السينمائى .

وكان الحفل أمام حشد من نجوم عاصمة السينما ، ليس له مثيل .. لماذا ؟

لأن الاتحاد أصبح له من العمر الآن ، نصف قرن من عمر الزمان .

رائحة فضيحة

وكانت المفاجأة الكبرى ، عندما أعلن عن اسم الفيلم والممثل الرئيسى الفائزين بالكرة الذهبية فى مجال الأفلام الدرامية .

فإذا بهما «عطر امرأة» وممثله الأول «آل باشينو» .

فهذا الفوز للفيلم ولممثله كان على عكس التوقعات ، لوجود أفلام أخرى مرشحة لتلك الجائزة ، كانت محل تقدير الجميع ، مثل «هواردز اند» و «جريمة لا تغتفر» و «اللعبة الباكية» وكلها فى رأى أغلب النقاد ، تفضل «عطر امرأة» بكثير ، لأسباب من بينها أن أفكارها مبتكرة ، لا يعيبها ما يعيب الفيلم الفائز .

فهو منقول عن فيلم إيطالى قديم ، بنفس الاسم ، أخرجه ، قبل سبع عشرة سنة «دينو ريزى» ، ومثل فيه النجم الإيطالى الموهوب «ڤيتوريو جاسمان» نفس دور الضابط الضرير المسن فى «عطر امرأة» إلى النجم الامريكى «آل باشينو» .

وبعد انتهاء حفل توزيع جوائز الكرة الذهبية بقليل ، كانت المفاجأة الثانية والأكثر خطورة عندما أتضح أن نفرا من الصحفيين اعضاء الاتحاد الطويل العمر ، كان قد سافر ، قبل التصويت بأيام ، من لوس إنجلوس إلى نيويورك لمشاهدة الفيلم، والإلتقاء بنجمه الكبير .

وثار التساؤل من دفع ثمن تذاكر سفر أعضاء الاتحاد بين المدينتين ، وثمن فاتورة إقامتهم فى نيويورك ؟

وإذا بأصابع الاتهام تُشير إلى يونيفر سال الشركة الضخمة صاحبة الفيلم .

حيرة نجم

ومما هو جدير بالذكر هنا أن «آل باشينو» يكاد يكون النجم الوحيد من بين كبار الممثلين الذين جاءتهم الشهرة ، قريبا من بداية عقد السبعينات ولم يفز حتى الآن بجائزة الأوسكار .

وذلك ، دون ريب ، أمر غريب .

وغرابته إنما ترجع إلى أن «آل باشينو» ممثل قدير ، صاحب رصيد كبير

من الأدوار الرائعة فى أفلام رفيعة المستوى ، يكفى أن يكون من بينها ثلاثية «الأب الروحى» للمخرج «فرانسيس فورد كوبولا» .

والأكثر غرابة أنه رشح للأوسكار ، بدل المرة مرات .

وفى كل مرة ، كان يخرج من ليلة الأوسكار الكبيرة ، خاسرا ، خالى الوفاض .

ويبدو أنه ضاق ذرعا بإستمرار الخسران ، ولا أقول الاضطهاد .

وفجأة ، وقطار عمره الفنى يقترب من النهاية ، بدأ يحس بأن فرص فوزه بالأوسكار آخذة فى الاضمحلال شيئا فشيئا .

ومن هنا ترحيبه باداء دور ضابط كبير ضرير فى فيلم عاطفى رقيق اسمه «عطر امرأة» لصاحبه «مارتين برست» ، وهو مخرج لم يشتهر إلاّ بفضل فيلمين اثنين «شرطى بيفرلى هيلز» و «هروب منتصف الليل» .

وكلاهما من ذلك النوع العنيف من الأفلام التى تقوم اساسا على دغدغة حواس الناس بمطاردات السيارات والطائرات ، وما إلى ذلك من وسائل الإثارة والتشويق .

ولعل ما دفعه إلى اختيار دور الضرير هو أن أدوار المعوقين ، غالبا ما تنتهى بالممثل الذى قام بادائها إلى الفوز بالأوسكار ، وما فوز كل من «داستن هوفمان» عن « الرجل المطر » (١٩٨٨) و«دانى داى لويس» عن «قدمى اليسرى» (١٩٨٩) بأوسكار أفضل ممثل رئيسى لهذا السبب ، ما هو ببعيد .

الصدمة الكبرى

وعلى كل ، فبعد هذا الحدث الفاضح بأيام ، وبالتحديد فى مساء يوم الأربعاء الموافق ١٧ فبراير الماضى ، بتوقيت لوس انجلوس ، أعلنت الأكاديمية الأمريكية ترشيحاتها لجوائز الأوسكار .

وكانت هذه الترشيحات مخيبة لآمال الشركات السبع الكبرى المسيطرة فى هوليوود على صناعة الأفلام .

فمن بين الأفلام الخمسة التى جرى ترشيحها ، لا يوجد إلا فيلم واحد من إنتاج تلك الشركات ، هو «عطر امرأة» السىء السمعة .

ولا يغير من هذه الإنتكاسة غير المتوقعة ، ترشيح «جريمة لا تغتفر» الذى أخرجه وأنتجه ومثله نجم أفلام رعاة البقر «كلنت ايستوود» .

و «قليل هم الرجال الطيبون» للمخرج «روب راينر» الذى اسند بطولة فيلمه إلى «توم كروز» و «جاك نيكلسون» و «ديمى مور» ، والثلاثة من مشاهير النجوم .

فكلا الفيلمين من إنتاج شركات مستقلة ، عجزت عن توزيعهما بمعرفتها ، ومن ثم اسندت الأمر إلى اثنتين من الشركات السبع الكبرى .



اللاعب يفقد قانون اللعب في هوليوود

والأخطر أن ربع الترشيحات كانت من نصيب السينما الإنجليزية .

هذا إلى أن فيلمين إنجليزيين اقتسما معا خمسة عشر ترشيحا .

والفيلمان المحظوظان هما «هواردز اند» المأخوذ عن قصة بنفس الأسم للأديب الإنجليزى الراحل «أى ، أم ، فورستر» .

والفيلم من إخراج «جيمس ايفورى» ، وهو أمريكى يعيش فيما بين الهند وإنجلترا، منذ زمن بعيد .

أما الفيلم الثانى «اللعبة الباكية» فللمخرج الإنجليزى «نيل جوردان الذى سبق له ، وأن بهرنا ، قبل ست سنوات ، برائعته «موناليزا» .



جي .. داڤيدسون .. أوسكار أفضل ممثل مساعد

وفيلمه مرشح لست جوائز من بينها أوسكار أفضل مخرج وسيناريو وممثل رئيسى « ستيفن ريا » و« ممثل مساعد » « جيي داڤيدسون » ، ويعتبر دور الأخير فى الفيلم من أغرب الأدوار فى تاريخ السينما .

ولا ينافس «هواردز اند» فى عدد الترشيحات (وهى تسع) ، سوى فيلم أمريكى واحد «جريمة لا تغتفر» ، وهو من ذلك النوع المسمى بأفلام رعاة البقر أو الغرب ، حيث السيادة للأقوى والأشرس ، أى لقانون الغاب .

المنافسات إنجليزيات

وعن أداء «إيما ثومبسون» الممثلة

الإنجليزية الصاعدة الواعدة لدور الزوجة المستقلة فى «هواردز اند» ، عنه جرى ترشيحها لأوسكار أفضل ممثلة رئيسية .

كما جرى ترشيح «فانيسا ريدر جريف» الممثلة الإنجليزية الذائعة الصيت لأوسكار أفضل ممثلة مساعدة ، عن أدائها لدور زوجة «إنطونى هو بكنز» صاحب قصر «هوارد اند» .

وقد سبق لها الفوز بتلك الأوسكار ، قبل خمس عشرة سنة ، عن أدائها لدور «جوليا» أمام «جين فوندا» .

أما الجوائزة الأخرى التى رشح لها «هواردز اند» فهى خاصة بالسيناريو والإخراج والديكور والتصوير والصوت والتوليف .

وتعتبر الممثلة الأمريكية « سوزان ساراندون » أخطر منافسة للممثلة الإنجليزية «إيما ثومبسون» فهى الأخرى مرشحة للأوسكار عن أدائها لدور أم طفل مصاب بمرض عضال فى فيلم «زيت لورنزو» .

وقد سبق ترشيحها لهذه الجائزة أكثر من مرة ، آخرها عن أدائها الرائع فى فيلم «تيلما ولويز» .

نقر الفكر

ونظرا إلى ضعف المستوى العام لأفلام السبعة الكبار ، لم يكن أمام أولى الأمر فى الأكاديمية إلا البحث فى أماكن أخرى ، عما قد يكون أهلا من الأفلام للترشيح للأوسكار .

ومن هنا ترشيحها الفيلم المستقل «سمكة الحب» للمخرج «جون سايلز» لجائزتين مهمتين «السيناريو» وأفضل ممثلة رئيسية «مارى ماكدونيل» التى لعبت دور هندية حمراء منحدرة من أصول بيضاء فى فيلم «الرقص مع الذئاب» .

وكذلك ترشيح كل من « ابريل المسحور» واللاعب لثلاث جوائز .

والأول فيلم إنجليزى صغير من إنتاج الإذاعة البريطانية ، ومرشح لأوسكار أفضل تصميم ملابس وسيناريو وممثلة مساعدة « جوان بلاورايت » زوجة الممثل والمخرج الراحل « لورنس أوليفييه » .

فى حين أن الفيلم الثانى « اللاعب » من إخراج « روبرت آلتمان » الذى اتخذ من موضوعه الضاحك الباكى ذريعة لنقد هوليوود ، ووسائلها فى تشويه ، ولا أقول قتل الإبداع .

و « آلتمان » يقيم منذ زمن فى باريس، وقد فاز بفضل « اللاعب » بجائزة أفضل مخرج فى مهرجان كان الأخير .

الفرص الضائعة

وها هو ذا يرشح ، بفضل إخراجه له ، للأوسكار وينافسه فى هـذا المضمـــار « ايستوود » و « ايفورى » و« جوردان » و«برست».

ولعـل الأخير ، وهـو مخرج « عطر امـرأة » أقلهم استحقاقا للترشيح

للأوسكار .

ولعل « جوردان » أكثرهم استحقاقا لها ، ففيلمه « اللعبة الباكية » ، وهو عن إرهابيى الجيش الجمهورى الايرلندى ، أكثر الأفلام المرشحة للأوسكار إثارة للجدل ، ومدعاة لإعجاب الجمهور والنقاد .

ومن ظواهر فقر الفكر فى أفلام هوليوود ، هذه الايام ، عجزها عن ابتكار أدوار مناسبة للنساء .

وقد انعكس ذلك ، بشكل صارخ على الترشيحات للأدوار النسائية المساعدة فليس ثمة بين المرشحات عن أداء تلك الأدوار ، سوى ممثلة واحدة من هوليوود ، هى «ماريسا توماى» فى فيلم «ابن عمى ڤينسى »

اختلاط الانساب

وأغلب الظن أن أحسن المرشحات الخمس ، هى الممثلة الانجليزية «ميراندا ريتشاردسون» ، عن أدائها لدور الأم أمام الممثل الانجليزى «جيريمى أيرنز» فى فيلم «الخراب » لصاحبه المخرج الفرنسى «لوى مال» .

وهنا قد يكون من المفيد التنبيه إلى أن «ميراندا» ليست ابنة «ڤانيسا ريد جريف» من المخرج الراحل «تونى ريتشاردسون» ، كما جاء فى مقال لأحد النقاد ، نشر فى جريدة الشرق الأوسط قبل أسابيع .

الموت والتجلى

يبقى أن أقول أنه مما يثير قلق أصحاب الاستديوهات الكبرى فى عاصمة السينما أن أفلام الانتاج الضخم التى كانت دائما تتقدم الترشيحات للاوسكار ، مثل «ذهب مع الريح» و «الوصايا العشر » و «بن هور » وغالبا ما كانت تخرج من المضمار فائزة بنصيب الاسد من جوائز الاوسكار هذه الافلام أختفت تماما من الترشيحات أو كادت .

وهاهى ذى أفلام من نوع آخر ، لم تكلف أصحابها كثيرا مثل «هواردز اند » و«اللعبة الباكية» ، و «ابريل المسحور» و «اللاعب» ، تحل فى الترشيحات للاوسكار محل أفلام ضخمة كلفت الاستديوهات الكبرى عشرات الملايين من الدولارات أذكر من بينها على سبيل المثال «لعب» للمخرج بارى ليڤنسون» صاحب «الرجل المطر» الفائز بأوسكار أفضل فيلم ، قبل أربع سنوات .

و «هوفا» للمخرج «دانى دى ڤيتو » الذى وقع اختياره على النجم المكلف «جاك نيكلسون » لأداء دور الزعيم النقابى الفاسد «چيمى هوفا» وآفاق بعيدة «للمخرج رون هوارد» ، وهو فيلم كلف استديوهات يونيڤرسال حوالى سبعين مليون دولار .

ومع ذلك فشل فشلا ، أصبح مضرب الامثال .

وحتى الآن لم تفق هوليوود من صدمة الترشيحات ولعلها بسبب فقر الفكر ، قد لاتفيق أبدا .

حكاية مغربية

الإمبراطور يستفتى شعبه



بقلم :
د . الطاهر أحمد مكى
بريشة :
الفنان : حلمى التونى

منذ سنوات طويلة سمعت الحكاية فى طنجة ، بين حكايات أخرى كثيرة نشرت بعضها ، وكنت يومها طالب بعثة فى مدريد ، أرد المدينة المغربية من حين لآخر ، وكانت منطقة دولية ، تديرها مجموعة من الدول الأوربية ، والمغرب إذ ذاك ، فى بقيته ، حديث عهد بالاستقلال ، لما تستقر أموره . وتضم المدينة حيين مختلفين تماما : الحى الإفرنجى ، يسكنه الأوربيون ، وقلة من أغنياء المغرب الطارئين على المدينة ، بيوته حديثة ، وشوارعه متسعة ، وكل شئ فيه أجنبى : الأزياء ، واللغات ، والعادات والتقاليد ، والتجارة والفنادق ، والبنوك والمطاعم والمقاهى .

والحى العربى ، تطوقه أسوار عالية ، ويسكنه أهل البلد الأصليين من المغاربة ، وعشاق التاريخ والأجواء الشرقية من الأوربيين ، شوارعه ضيقة متعرجة ومزدحمة ، ويحرص أهله حتى لا يذوبوا فى الغاصبين على لغتهم ودينهم وأزيائهم وعاداتهم ، ويجعلون منها سدا منيعا يحميهم ، ليظلوا دائما متميزين عن بقية الأوربيين من الروم والإفرنج كما كانوا يطلقون عليهم ، ويعبق بأريج العروبة والإسلام ، وتلفه روائح التاريخ القريب والبعيد ، ويتوسطه قبر الرحالة الخفيف الظل ابن بطوطة الشهير ، وكان أحب إلىّ من الحى الإفرنجى ، ففيه كنت أجد نفسى وأهلى ، وأرى الأندلس الذى ضاع فى وجوه أهله وحركة حياتهم اليومية ، وكان مكانى المحبب فى لحظات الفراغ المقهى الكبير فى الشارع الرئيسى ، حيث الشاى الأخضر الممزوج بالنعناع ، والمتاجر العربية ، والحركة التى لا تتوقف ، وكان فى المقهى مذياع قديم ، قليلا ما ينطق ، وحين يتكلم لا يسمعه أحد ، فقد كان صوت غلاة المستعمرين يومها من الإسبان والفرنسيين ، ويستعيض عنه رواد المقهى «بالقوال» ، وهو شيخ مسن وقور ، وسيم الطلعة ، كث اللحية ، حاد النظرة ، يجلس فيلتفون حوله ، ويقص لهم الكثير من الحكايات ، الملغزة والرمزية والمضحكة والمسلية والخرافية ، مقابل عطاء قليل ، فى السر من صاحب المقهى ، وفى العلن مما تطيب به نفوس الحاضرين ، والناس يؤخذون بما يقول

معجبين ، ويستزيدون .

ولقد استمعت إليه كالآخرين ، وأعجبنى قوله ، وسجلت شيئاً مما سمعت ، قاله بلهجته ، وحررته بأسلوبى ، دون تجاوز أو زيادة ، وكان بين ما سمعت :

ذات يوم دعا إمبراطور بابل المعظم نساءه وقيانه وجواريه ، وأبناءه وأقاربه وخاصته ، وخدمه وجنود حرسه ، إلى اجتماع عام . وأمر بأن يدعى إليه أيضا العلماء والجهال ، والفلكيون والسحرة والمشعوذون والمنجمون ومفسرو الأحلام، وولاة المقاطعات وعبيد المدينة .

عندما اجتمع المجلس قال السلطان إنه دعاهم ليأخذ رأيهم باعتبارهم ممثلى كل الشعب فى شتى طوائفه وطبقاته ، فى استفتاء يتكون من جزءين :

الأول : هل تكون خيلى أشد عدوا ، وأصلب أجساما ، وأطول عمرا، لو علفناها لحم ضأن بدل الحشائش والحبوب ؟ .

وعندما سمع الحاضرون السؤال نظر بعضهم إلى بعض ، وتهامسوا إنهم سوف يردون على هذا السؤال بلا طبعا .

الثانى : أليس من الأفضل أن يذهب جنودنا الذين يقاتلون أعداءنا على الحدود مجردين من أى سلاح أم تفضلون أن يظلوا مسلحين كما هم الآن ؟ وفكر غير قليل من الحاضرين : إن الرد على هذا سوف يكون نعم ، يظلون كما هم الآن .

وواصل السلطان حديثه : إن الصعوبة تكمن فى أن الإجابة على السؤالين يجب أن تكون واحدة لكليهما ، إما نعم وإما لا لهما معا ، دون تفرقة وعليكم أن تأخذوا فى الحسبان أن النتيجة إذا جاءت سلبية، وصوتت الأغلبية بلا ، فسوف أهجر القصر ، وأترك التاج ، وأستعيض عنه بعصا الراعى ، وألبس الصوف الخشن ، بدل الخز والأرجوان ، وانسحب إلى الصحراء أمضى فيها بقية أيامى .

وما إن أنهى الإمبراطور كلامه حتى وقف بلتسار بن عريوش راهب معبد سينار ، وأخذ الكلمة :



« أيها الملك العظيم ، الجليل بين كل عظماء الملوك والسلاطين ، المحترم من كل الأمم والشعوب ، ومنافس الآلهة فى معابدها ، استمع - أرجوك ! - إلى أقل إنسان فى شعبك ، ولكنه الأكثر ولاء وصدقا ووفاء وحبا بين خدامك .

لقد دعوتنا إلى الاستفتاء خمس مرات : مرة توسلت به إلى عون شعبك فى دعم شواطىء نهر الفرات العظيم ، لدفع أذاه حين هطلت الأمطار غزيرة ، وسالت أودية بقدرها ، ودفعت الفيضانات العالية بالمياه خارج مجراه ، فتدفقت فوق حقولنا وأهلكت الحرث والنسل ، دمرت المحاصيل ، واستحالت الحقول الخضراء الزاهية إلى طين ، ثم أصبحت أرضا قاحلة جدباء .

ودعوتنا إلى استفتاء ثان تضمن خطتك التى أعددتها لمحاربة الوحوش الضارية التى اجتاحت ودياننا فى كثرة وقسوة ، فافترست أغنامنا ، وهاجمت أطفالنا . ومرتان أخريان استشرتنا فيهما حول القضايا العامة ، وفى كل المرات أظهر الوطن بأجمعه أنه متفق مع إرادة الإمبراطور ، فنفذت ما أعلنت ، وعظمت مجدا ، وامتلأت زهوا ، ومدح المواطنون أفعالك ، وشعروا بالكرامة لأنك استشرتهم ، واعتبروا أنفسهم شركاء فى إنجاز ما وعدت .

ولكنك الآن ، فى هذه اللحظة ، وقد امتد سلطانك ، واشتهرت قوتك ، وطبق مجدك الخافقين ، وبلغ أقصى أطراف المعمورة ، تدعونا من جديد لتسألنا عن شىء بالغ الغرابة ، لا يستطيع فلكى ولا منجم ولا ساحر ، حتى لو كان من كلدانيا ، أن يجد له حلا . باستثناء الآلهة ، وهم لا يتخذون من أجسام البشر سكنا ، ولا فى فهمهم مقرا ، كيف نرد على السؤالين إما بنعم وإما بلا ، وهما يتصلان بمشكلتين مختلفتين تماما ، وليس بينهما أية علاقة أو رابطة ، كهذه القضية

التى تعرضها علينا الآن ؟ اسمح لنا أن نرد على كل سؤال من هذين السؤالين المختلفين ردا مستقلا دون ربط بينهما ، أو لا داعى لأن تسألنا وتستشيرنا على الإطلاق ، وافعل ما بدا لك ، وكلنا نثق فى حكمتك !

وعلى أية حال ، يا قائد القواد ومحسود الأقوياء ! ، حذار أن تفسد ما يطمح إليه الشعب ، من الخير لك ، وللوطن ، أن تجعل أوامرك المجيدة تستلهم ما يفكر فيه خدامك الطيبون المخلصون ، وهم يعملون ويقصدون صالح عامة المواطنين ، ودعك من المنافقين والانتهازيين ، فهم يكثرون عند الطمع ، ويقلون عند الفزع ، ولن تجد حولك منهم أحدا إذا ألمت بالوطن ضائقة .

استمع الجمع فى صمت بليغ لخطبة بلتسار ، راهب أرض سينار ، ولكن الإمبراطور وقد انتفخ عجبا وزهوا وغرورا رد : ما نطقت به أمر ، ماقلت ينفذ ! .

سرت وشوشة مثل وشوشة نهر الفرات عندما يحطم جسوره ويمضى حيث يريد ، وطأطأ الرجال الأكثر شيخوخة جباههم النبيلة ذلا وجللوها بالغبار والرماد ، ومزق الولاة والحكام ملابسهم ، وغطت النساء والجوارى عيونهم بالنقاب إشارة أسف وأسى .

حينئذ تحدث شيرو بن شرخس أمير فارس ، وحاكم الولايات المحتلة :

– من ليس له الحق أن يفك ربطة حذائك ، ومن ليس أهلا لأن يطأ ظل خطوك عندما تصد الشمس ، ومن ليس جديرا بأن يشرب فضلة كأسك ، ولا أن يجلس إلى مائدتك ، ولا أن ينظف بقماش معطفه غبار مقعدك ، أعطه الكلمة أيها السيد القوى ، يامن مجدك موضع زهو الوطن ورعب أعدائك ، وثروتك من الذهب تكسف أشعة الشمس ، ومن الفضة تسرق ضياء القمر ، أعطه الكلمة ليقول : إنه لشرف عظيم له ، أن يتحدث فى هذا الجمع الموقر أمام عظمتك ، وهاهى ذى كلماتى :

لقد وضعت الآلهة الرصانة على لسان بلتسار ، والتعقل فى صوته ، إذا لم تعن أيها الملك بالمخلصين ، وجعلك العجب والزهو أصم لا تسمع رأيهم ، ولا تدرك فطنة قولهم ، فاسمع هذه النبوءة منى : كثيرون من

الذين سوف يردون على السؤال الأول بنعم ، سوف يردون منطقيا على السؤال الثانى بلا . وكثيرون من الذين سوف يردون بنعم على السؤال الثانى سوف يردون منطقيا على السؤال الأول بلا . وأعداؤك الذين كانوا سوف يجيبون بنعم على السؤالين سوف يردون الآن بلا ، لمجرد أن يعرفوا ما إذا كانت السلبية سوف تنتصر فتترك التاج .

لهذه الأسباب وحدها سوف يكون الإجماع أخيرا على معارضتك ممن قالوا لا من أصدقائك ، وممن قالوها من أعدائك ، وتلقى بنفسك فى مخاطرة لم يلزمك بها أحد وهذا كاف وحده لكى يجعلك تتراجع عن اندفاعك المجنون هذا ، ولاحظ أيضا يا ملك الملوك ، ونور الأنوار الذى يلمع أيضا حتى وسط الشعاع ، أن كثيرين من قدامى المخلصين لك سوف يتخلون الآن عن إخلاصهم ووفائهم ، وسوف يقولون لك : من هذا الذى يترك أولاده يتامى ، ويتخلى عن رعاياه ، ويدير ظهره لهم ، بسبب مشكلات عارضة ؟

إذا أردت أن تلقى بنفسك فى الصحراء كى ترتع وحدك فى الحشائش المغذية ، تنمو فى كل مكان ، بين الأحجار والحصى والزلط ، وفوق التربة الخصبة ، والرمال المنبسطة كما فعل جدك من قبل ، افعله فى لحظة مواتية ، دون أن تلزمنا بقرار فيه من القهر أكثر مما فيه من الشورى ، وأن تأخذنا بمسئولية حل وحيد خاص بك دون غيرك ، وليس من الضرورى أن تكون الإجابة واحدة على كلا السؤالين كما تفعل معنا الآن .

إذا كان الملك قد تقدمت به السن ، ويستثقل الأمانة وتعب من حملها ، وأرهقته مسئولية شعبه ، فهو ينوء بها صباح مساء ، ومحروم من ممارسة ما يمارسه أبسط رعاياه ، من الأغنياء والفقراء على السواء ، من نزهة فى غابة ، أو لعبة رياضة ، أو سباحة فى الفرات ، أو جلسة هادئة على حافة بركة ، أو لحظات حالمة مع جارية جميلة ، ويود الراحة من هذه الأعباء ، فليسترح فى سلام ، مع الصوف الخشن بدل الحرير ، وعصا الراعى عوض التاج ، وسقاية الماء معلقة فى نطاقك ، ولكن لا تثقل ضمائرنا بمثل هذا القرار ، وليحمله ضميرك وحدك إذا شئت .

وإذا كان هذا ما يقوله محبوك ، وهم لا يقولون لك إلا ما يبهجك وفى صالحك ، ويدفع عنك الملل ، فنحن أيها الملك القوى نرجو

متواضعين متذللين عظمة قوتك ، إما أن تدع استشارتنا فلا تسألنا عن رأينا فى أى شىء ، وأن تفعل ما تمليه عليك الآلهة ، وإما ألا تضع تاجك رهانا فى هذه القضية ، أو غيرها ، وأن تبعده نهائيا عن لعبة الاستفتاء هذه ، فتفصل بين الاستشارة والتاج .

وما إن أنهى شيرو العظيم ، أمير الفرس وحاكم الولايات المستعمرة ، كلماته حتى ساد الصمت ، ونقل الإمبراطور نظره بين الخطيبين ، ثم أظلم عقله ولف الضباب فهمه ، وأخذ يردد :

- ما نطقت به أمر ، ماقلت ينفذ !

●●●

وتحكى مدونات الإمبراطورية أن عجرفة الإمبراطور وخيلاءه ، وعجبه بنفسه ، وتكبره فى تعامله ، أصمت أذنه فلم يعد يسمع غير الأصوات التى يود أن يسمعها ، وأظلمت ذاكرته فلم يعد يذكر من الأشياء إلا ما يحب .

وجاء أمره ينبىء عن تجبر وحمق : ملعونان كلاكما ! ملعون أنت يابلتسار ، وملعون أنت يا شيرو ، وليقطعوا جسديكما أرباعا ، تقدم للوحوش الضارية ، ولتصبح قصوركما مقالب للزبالة والقمامة ، لأنكما مستشارىّ ولم تنصحانى ، لأنكما صديقاى وتخليتما عنى .

إن إمبراطور بابل العظيم لا يلوى أحد ذراعه أبدا ، وقد أمر بهذا ، وهو يستبدل عصا الراعى بتاجه ، والصوف الخشن بطيلسانه وحريره ، وآنية الفخار بكئوسه الذهبية ، وهدوء الصحراء ، وصفاء الوحدة ، وجمال السماء بصخب القصور ، وأبهة الحكم ، وفتنة القوة والسلطان !



القصة القصيرة المصرية فى الستينيات

«ثوار غاضبون متمردون»

محمد حافظ رجب



بقلم :

د . سيّد حامد النسَّاج

يقف محمد حافظ رجب فى صدارة كتاب القصة القصيرة فى مرحلة الستينيات . بل إنه فارس من فرسان التجديد الفنى ! الذى رسم قصص هذه الفترة ، استند فى تجاربه ، وفى رؤيته ، وفى دعوته إلى الفن وحده دون غيره من الوسائل والأساليب والأدوات . استطاع بصوته المنفرد الصادق مع نفسه أن يصرخ فى وجوه التقليديين من الكتاب ؛ رافضاً أسلوبهم وفكرهم ، قائلاً : «نحن جيل بلا أساتذة» ●

وأياً ما كان رأينا فى هذه المقولة ؛ فإنا نزعم أنه تحمل تبعاتها وحده ، وظل يصارع التيار حتى صرعه . فاعتكف بعد عودته إلى الاسكندرية : قارئاً متصوفاً ، محايداً خافت الصوت . ثم سرعان ما عاود الكتابة ، حيث نشر قصة هنا وقصة هناك ، ومالبث مؤخراً أن أصدر مجموعة بعنوان : «اشتعال الرأس الميت» ١٩٩٢ . لم يصطنع لنفسه جوقة . ولم يملك أى وسيلة من وسائل الإغراء للكتابة عنه . ولم يلتفت إليه بعض النقاد - آنذاك - لأنهم بحثوا عنه فى المقاهى ، والأندية ، والأماكن التى يترددون عليها ، والشلل التى يلتقون بها ، وفى ثنايا ثرثراتهم الفارغة ؛

فلم يعثروا عليه لأن موطنه الأساسى والوحيد هو «القصة القصيرة» التي يكتبها ثم يجتهد فى محاولة نشرها . إنه لا يحسن ابتكار مجموعة من محترفى العلاقات العامة فى الحياة الثقافية كى يستخدمها لحسابه الخاص جداً هنا وهناك كما أنه لم يكن ذا وظيفة مرموقة تجذب إليه الوصوليين ، ليكتبوا عنه .

ذاق طعم الأيام ملحاً مصفى ومرارة فى الحلق . وغصة فى القلب . وعذاباً متصلاً من أجل لقمة العيش . ويكفى أنه عانى وحده فى سبيل مادعا إليه ومع ذلك لم يُكتب اسمه – ولو ذراً للرماد فى العيون – ضمن كتاب الستينيات . إذ اقتنص المزيفون ادعاء «الريادة» . وأصاب عيون النقاد المتحازين قذى «فلم يروا إلاّ ثلاث ثمار مزهرة فوق شجرة القصة القصيرة والرواية الطويلة . وزيّف الآخرون أدواراً وأسماء وانتحلوا كتاباً لا قيمة لهم ، ولا موهبة لديهم . لايملكون القدرة على المواجهة ، أو الإبداع الفنى ، أو الرؤية الصحيحة ؛ وإنما أجادوا القنص بليل

أما محمد حافظ رجب ' فإنه فى صرخته ، لم يكن يريد أن يلفت الأنظار إليه . وإنما كان يطلب إلى رفاقه من أبناء جيله أن يعبروا عن «أفكارهم» هم ، لا أفكار سابقيهم وأن يتحدثوا «لغتهم» لا أن يستعيروا لغة الأقدمين . صادقاً مع نفسه ومع الفن الذى أجاده . وقد تبيّن لنا فيما سبق أبعاد دعوته ، وأسس رؤيته الفنية ، وملامح التجديد الذى طالب به .

ورغم ردود الأفعال العنيفة التى تلقاها ورغم الصعوبات والتحديات التى صادفته ' فإنا نعجب إذ كنا – ومازلنا – نقرأ كتابات صاخبة تنسب محاولات التجديد للأصدقاء . إذ تجعل منهم «ثوار» الأدب ، وحاملى مشعل التطور ، ورافعى راية الابتكار . وكان من الممكن أن يقبل هذا لو أنهم استندوا إلى دراسة موضوعية، وبظرة شاملة ، واستيعاب واعٍ لكل ماكتب من قصص قصار لأصدقائهم ، ولغير أعضاء محموعتهم بدلاً من اللهاث المحموم من أجل اصطناع «قيادات» أدبية من داخل «الشلة» التى جعلت مثل هؤلاء لسان حال لها صحفياً وإعلامياً ودعائياً

واللافت للنظر أنهم أغفلوا «محمد حافظ رجب» عند الحديث عن اتجاه التجديد والثورة على الأشكال القديمة . فى معرض حديثه عن بهاء طاهر يقول محمد بدوى فى مجلة (فصول) م١١ – ع٢ – صيف ١٩٩٢ صفحة ٢٤١ (ليس بهاء طاهر واحداً من كتاب الستينيات فحسب ؛ بل واحد من المؤسسين الأوائل لها ، حين كانت مجرد مجموعة من الأصدقاء المنشغلين بالكتابة وتحديدها . وكان هؤلاء الأصدقاء يلتقون فى بيت واحد منهم أو فى مقهى (ريش) ليقرأوا قصصهم ويناقشوها ثم وصف بهاء طاهر – بعدئذ – بأنه كان هامشياً فى هذه المؤسسة الأدبية . أو فى «مؤسسة الستينيات للقصة القصيرة» . وهى لاتضم إلاّ الأصدقاء الذين يلتقون فى مقهى «ريش» أو فى بيت «واحد» منهم ' وكأنها قطاع خاص . لم

يهيىء للكتاب المجيدين الآخرين الفرصة لتحرير استمارات عضوية للانتساب إلى هذه المؤسسة !

والأكثر من هذا أنه يوحي بأن هامشية بهاء طاهر في الإذاعة ، وفي مصلحة الاستعلامات ؛ ثم هامشيته في هذه المؤسسة (!!!) وراء تأخر نشر كتاباته ، في حين أن مجموعته القصصية الأولى صدرت وقد تجاوز السادسة والثلاثين . ومعروف - موضوعياً - أنه بدأ ينشر قصصه في ١٩٦٤ ثم جمعها وأصدرها ١٩٧٢ . إناَّ نطالب بالأناة والصبر والدقة والعلمية في إطلاق الأحكام ، والمعايير ، والأسس . والنظر في الاتجاهات والفنون وحركة الآداب ينبغي ألاَّ تكون «جزئية» و «قاصرة» و «ضيقة» لاتخرج عن دائرة الأصدقاء الذين يلتقون في «حجرة» أحدهم أو في «مقهى» معين .

● موقف غير صحيح ●

إن مثل هذه الكتابات هي التي جعلت الدارسين والقراء الجادين يحذرون عند التعامل مع كتابات عقد الستينيات ، وقد يتخذون منهم موقفاً قد لايكون صحيحاً ؛ ليس بدعوى التضاد معهم ؛ ولكن رفضاً للزيف الذي أحاط ببعضهم . وهل ثمة من يقبل إعلان الدكتور لويس عوض في قصر ثقافة مصر الجديدة ١٩٨٢ عند تكريم المرحوم الدكتور محمد القصاص ، حكمه بأن أبناء هذا الجيل - يقصد كتاب الستينيات - لم يقدموا شيئاً يذكر ؛ وأنه لم يتابع كتاباتهم لأنها لا تلفت النظر . ثم يكتب في «الأهرام» مشيراً إلى بستان الرواية الذي لم تثمر شجرته إلاَّ ثلاث ثمرات حدد أسماء أصحابها . ويبعد جيلاً كاملاً عن سور حديقته . فهل نطالبه - بعدئذ - بالإشارة إلى كاتب مثل محمد حافظ رجب أو .. أو .. ممن لم يقرأ لهم ، ولم ترد أعمالهم على «خاطره» ؟!

وحتى هذه اللحظة ، لا أجد سبباً منطقياً مقبولاً جعل مجلة (الطليعة) تغفل هذا الكاتب ، ولاتعنى بمجرد الإشارة إليه . فالشهادات الواقعية التي قدمتها في العدد التاسع - سبتمبر ١٩٦٩ لمجموعة من الكتاب والنقاد ، والسينمائيين ، والتشكيليين ؛ قد خلت تماماً من شهادة محمد حافظ رجب . وكان - ساعتها - قد أصدر مجموعتين من القصص القصار . ولم يكن صدى صيحته قد خفت بعد في حين احتفلت المجلة بكتاب لم تكن قد صدرت لهم أية مجموعات قصصية .

نفس الظاهرة نلمسها في العدد الخاص «بالقصة القصيرة» : اتجاهاتها وقضاياها » من مجلة (فصول) ١٩٨٢ . سعت المجلة نحو عدد محدد وجدناهم في هذا العدد ، وفي عدد الرواية . كذلك الحال بالنسبة لمجلة (إبداع) العدد ٩ - السنة ٦- سبتمبر ١٩٨٨ . وهو عدد خاص بالقصة القصيرة . كما أن إدوار الخراط لم يتخير له قصة قصيرة في العدد ١٤من مجلة (الكرمل) ١٩٨٤ . وقد تفضل فذكر اسمه - فقط - واحداً من الكتاب الاسكندرانية - كما قال - دون إشارة إلى دوره وأهميته ؛ بينما أفاض في الحديث عن صغار حوارييه ممَّن لم تكن تجاربهم قد نضجت

بعد . ومنهم من لم يكن قد سمع بهم أحد داخل مصر أو خارجها . وغض الطرف عن قصص تحمل سمات خاصة ، وتثير الجدل حولها .

★★★

كانت قصص محمد حافظ رجب قد نشرت في بداية الستينيات . مثال ذلك قصته «الكرة ورأس الرجل» التي نشرت في العدد السابع من مجلة (القصة) يوليو ١٩٦٤ ص ٨٤ . وقصة «مخلوقات براد الشاي المغلي» نشرت في مجلة (المجلة) العدد ١١٦ - أغسطس ١٩٦٦ ص ٦٠ . وهي التي حملت عنوان مجموعته الصادرة ١٩٧٩ . أما قصته «أصابع الشعر» فإنها نشرت في عدد يونيو ١٩٦٥ من مجلة (القصة) ص٧٣ . أي قبل أن تضمها مجموعته «مخلوقات براد الشاي المغلي» بأربع عشرة سنة . كذلك الحال بالنسبة لقصة «الأب حانوت» ضمن مجموعته «الكرة ورأس الرجل» فإنها نشرت لأول مرة في مجلة (المجلة) العدد ١٠٧ - نوفمبر ١٩٦٥ ص ٨٨ .

وفي عدد أغسطس ١٩٦٦ من (المجلة) كتب عنه يحيى حقي : «إنه يتميز بأسلوب يدل عليه ويكاد هو ينفرد به ، وأعني بالأسلوب : المضمون والشكل واللغة» ص ١٠٥ . ومالبث - بعدها - أن أعلن أنه يسبق زمانه . يختلف محمد حافظ رجب عن كثير من رفاقه ، من حيث إنه لم يبدأ «التجديد» من فراغ . كما أنه لم يمارسه في ضوء محاكاة ما كان يقدم من ترجمات لأعمال : البير كامي ، صموئيل بيكيت ، سارتر ، كولن ولسون ، يونسكو ، چون آردن، هارولد بنتر ، آلن روب جرييه ، ناتالي ساروت ، فرچينيا وولف ، چنييه . ثم إنه لم يقدم على الكتابة القصصية مستنداً إلى فلسفات ورؤى أوروبية ، تحكمت في منظوره للواقع الاجتماعي ؛ وفي أشكال وأدوات التعبير عنه .

إنه - فكرياً - انطلق من وعي عميق بواقع الحياة في مجتمعه : سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وتاريخياً . وهو - فنياً - قد فطن إلى أشكال التعبير القصصي في تراثنا ، ولدى كبار الكتاب الإعلام الذين عاصرهم . ولعله بحث فيما توافر له من «نصوص» قصصية ؛ فلم يجد ما يعتبره «مثالاً» أو «نموذجا» يقنعه ويقوده إلى «التجديد» الذي يصبو إليه . إنه ليس من دعاة «سوء الخلق» باسم «الفن» ، ولاهو من هواة «الفوضى» تحت شعار «التجديد». يؤكد ذلك أنه مارس الكتابة القصصية في «الشكل» التقليدي الملتزم . وتعتبر بعض قصص مجموعته الأولى (غرباء) ١٩٦٨ تمثيلاً لهذا الاتجاه ؛ وإنْ حملت في طياتها بذور التجديد الذي يسعى لممارسة الكتابة فيه ، يقول محمد حافظ رجب (لقد وجدوا المائدة أمامهم حافلة وجاهزة فانقضوا على مافيها دون اهتمام بقدرتهم على الهضم . لكن الحاجة إلى التجديد تستوجب المحافظة على الجديد الصالح في الأشكال الأدبية ، وبالتاكيد لايمكن أن تنفصل حركة الأدب عن حركة المجتمع) - مجلة رواد - العدد ٧ - ص ٢٧

بعد سنوات طوال من الممارسة ، والمتابعة لما يجرى تحت شعار التجديد ، يعلن محمد حافظ رجب رأيه فيمن قلدوه (لقد ظنوا أن مالايفهم هو الأجود . وهذا خطأ كبير . إن الترنيمة التى يتسم بها الأدب الجديد هى ترنيمة الصورة والموسيقى والرسم ، لكنهم اتبعوا شهوتهم فى إغراق المتلقى بالغموض الكاسح . وهذا اللون يستحق اللعنة وعدم السكوت عليه وهو فى حاجة إلى سكين النقاد لقطع لحمه . لقد انبهروا بالغموض الكاذب فكانت النتيجة هى موضة الضباب الذى يكتنف كل أعمالهم . إنهم يستحقون اللا اهتمام بهم وعدم منحهم صك الغفران) - الثقافة الجديدة - العدد ١٠ - أبريل ١٩٨٦ ص ٨١ والمتابع لما يكتبه محمد حافظ رجب ، سوف يلاحظ أنه يواصل الإبداع فى نفس الاتجاه الذى بدأ به حتى الآن . فقد نشرت له مجلة (إبداع) فى عدد أكتوبر ١٩٩٢ قصة «الثدى المقطوع» . وكانت قد نشرت له فى عدد يونيو ١٩٩٢ قصة «لهيب السقا المستعر» أما مجلة «نادى القصة» السكندرية فإنها نشرت له فى سبتمبر ١٩٩٢ قصة «أشجار اللحم تطرح عظماً» . وعلى هذا النحو نجد له قصصاً فى الثمانينيات والتسعينيات .

وقف محمد حافظ رجب فى قصصه الأولى عند تفاصيل الحياة اليومية ، لشخصيات انتخبها من القاع : بائع الترمس ، بائع الحلاوة العسلية ، بائعة الطعمية ، سائق عربة الكناسة ، موظف بالأرشيف ، شرطى ؛ محاولاً تسليط الضوء على كدحهم اليومى ومعاناتهم المستمرة من أجل ضرورات الحياة ، متوسلاً إلى ذلك بوصف المكان ، ولمحة الجزئيات المحيطة ، والاهتمام بالحارة والشخصيات الثانوية . لكن النظرة الفاحصة فى معالجة بعض القصص ؛ تفضى إلى تلمس بذور التحول ؛ أو محاولة الانفلات من أسر الشكل التقليدى . حاول - مثلاً - التصريح بأنه يرفض الطريقة المألوفة التى يقدم بها الكتاب شخصيات قصصهم ، يقول فى قصة «المليونير» : (وأرى ألاّ نتوقف أمام ركاب العربات الأخيرة ، فنصفهم كما يفعل كل الكتاب عادة ؛ فهذه الطريقة وإن كانت ناجحة ومثيرة إلاّ أنها تكلف المؤلف كثيراً من اللفافات الرخيصة . لا أجد ثمنها الآن . كما أنها تكلف القارىء كثيراً من «الباستيليا» التى يروح يستحلبها ، كأوامر الأطباء ، وهو يتمخط بين كل سطر وآخر بينما عيناه تعالجان القصة . لذلك سأصرف النظر عن وصف ركاب عربة الدرجة الثالثة وأعدو بسرعة إلى بطل قصتى) . مجموعة «غرباء» ص ٢٦ .

تنبه - هنا - إلى ضرورة الابتعاد عن الإغراق فى التفاصيل التى لا تتصل اتصالاً عضوياً بوحدة القصة القصيرة . وأنه سوف يتجاوز كل ما كان متبعاً . مع ملاحظة أنه اقتحم عالم أصحاب الملايين ؛ وكأنه يصور أصحاب الثروة فى السبعينيات والثمانينيات، ومايسفر عنه سلوكهم .

أمّا الإحساس الحاد بالغربة الداخلية ، والشعور «بالوحدة» ؛ فإنه تصوره قصة «غرباء» حيث يتعمق نفسية «سباك» صغير الشأن ، هاجر من الاسكندرية إلى القاهرة. وقد عولجت الفكرة بأدوات فنية واقعية . بينما يُقدم على معالجة قضية العلاقة بين «القدم» و «الرأس» . بين «العلم» و «الثقافة» و «الفكر» و «الأدب» واللعب بالكرة الذى لا يحتاج إلاّ إلى قدم قوية قد لاتستلزم عقلاً ولا تفكيراً ولا ثقافة . وكيف أن «القدم» هى التى أصبحت تسوس الناس . وهى الفكرة المحورية التى صاغها بشكل مبتكر فى قصة «الكرة ورأس الرجل» . إن البذور الجنينية لهذه الفكرة نقرؤها فى قصة «شغلانة» ضمن مجموعة «غرباء» .

كما تأتى قصة «جدران ونصف» بداية للاتجاه الجديد الذى أصبح معروفاً به بعدئذ . العلاقة بين «الأنا» و «الآخر» . العرى . البحث عن «الأنا» فى «الآخر» . الأسلوب غير التقليدى . اللغة التى لا نألفها عند معاصريه . تقول الفقرة الأولى من القصة : (فى الجب صمت ، ورجل ، وامرأة .أنا فى الجب . وفراش بارد لم تلمسه أنامل حارة بعد . فوقنا مصباح ، تحتنا كتب كثيرة مبعثرة ، فوقها نسيج عنكبوت تائه فى عشه . لسان الرجل أبكم. كلماته مرتعشة . كلماتى مبعثرة كالقش ، المرأة غاضبة : «ماله كالمريض . ميت ! الكفن أولى به من هذا الفراش ، وامرأة مثلى عندها شغل تجرى وراء رغيف العيش» . لم أسمعها . كلماتها لم أسمعها. سمعها شخص «آخر» غيرى يعيش معى ، أعرفه جيداً . عينا المرأة تنزعان ثوبى . تعرينى. تنتزع منى حتى جلدى) . وثمة نصوص أخرى داخل بناء هذه القصة القصيرة التى كتبها فى أوائل الستينيات تثبت أنه أخذ يستخدم لغة جديدة ، ومفردات جد مبتكرة : الضياع ، الانشطار، التمزق . الجسد نصف جسد . القدم واحدة . العين واحدة . الأصابع خمسة . الرأس نصف الرأس . الشعيرات معدودة يتقاسمها اثنان ، أحدهما سمين شره ، و«الآخر» لا فائدة ترجى منه . اللسان أبكم . والجُبُّ لايضم إلاّ «المرأة» و «الرجل» و «الشخص الآخر» . الوعى هنا مفقود ، وخلايا المخ موزعة ، والرأس مشتعل باللهيب . لا اتصال بين الأعضاء البشرية ، وبين أفراد المجتمع . المرأة راغبة لكن «الرجل» نصف رجل ، و«الانسان» نصف إنسان . مشطور . شطران لا يلتقيان فكيف يمكن أن تكون حميمية ، أو أن يكون تواد ، أو جماعية . إنها بداية النظر إلى «الواقع» الغريب المشوش الذى سوف يسيطر على العالم القصصى لمحمد حافظ رجب .

هذه البداية الفنية الجيدة تبلور شكلاً من أشكال الرفض للواقع ، ولتركيبته المختلفة غير المتوازنة . جزئيات ، وتفاصيل وأفكار ، وقيم ، غير مترابطة . لاتنسق فيها ولا تنظيم لها ولا دقة . ولا انسجام أو اتحاد . هذا اللون من التعبير أو التصوير ، لم يكن مألوفاً بالنسبة لذوق

المتلقى العام ، قياساً على الكتابات القصصية السابقة . فقد كان الرفض عند الكتاب مباشراً وواضحاً وخطابياً وزاعقاً ، يعتمد - فى الأغلب الأعم - على تصوير ما هو كائن كما هو . ثم التعليق عليه أو تضخيمه بقصد تشويهه .

لكن محمد حافظ رجب رأى الإنسان ، والأحداث ، والفكر فى وضع مقلوب تماماً ، والفرد فى هذا العالم - الواقع : ضائع ، غريب ؛ لا كُنْه له ولا كينونة . محاصر ، مخنوق . لا دور له . يتساوى بالأشياء أو بالأرقام . يحاول الخلاص والتمرد ؛ لكن كيف ؟ وإناء الماء تشتعل من تحته النيران الملتهبة ؛ وهو فى داخل هذا الإناء ذرة من الذرات المسحوقة ، التى فتتتها النيران ، صنعه التيار الذى لايميز إنساناً من حشرة أو جماد «أى شىء» آخر لايدرك ولايحس ولايفكر ولايعى .

● نظرة سطحية ●

إنه - على هذا النحو - لايقدم إلاّ واقعاً كان من اللازم ألاّ يكون قائماً وموجوداً ؛ لأنه مرفوض ، وغير عقلانى ، ولاقابلية لتصديقه ؛ لكنه - للأسف - موجود . منطلقه العالم الواقعى الذى يتعامل معه يومياً . ومحوره شخصيات من الحياة الدنيا - لاسيريالية ، ولا أسطورية ، ولا ابتعاد عن المعقول للجوء إلى اللامعقول؛ كما وصفت النظرة السطحية قصصه فى البداية . والحق أنه يتناول واقعاً هو فى كليته مرفوض . ومن الضرورى ألاّ يكون له وجود، غير أنه كائن بصورته الشائهة . ومن ثم فإنه «عبث» . أما الإنسان الفرد الذى يريد أن يؤدى دوراً فى مجتمع قائم على أساس البناء الاجتماعى الصحيح غير المعتل ؛ فإنه ضائع ، أو غريب ، أو محاصر .

ومن ثم كانت رؤية محمد حافظ رجب ، التى قوبلت بعدم الفهم . وهو ما أفضى إلى عدم قبولها من الكثرة الغالبة من الكتاب وإلى التشويه من قِبَل بعض النقاد الذين زعموا لأنفسهم أنهم يؤيدونها فاصطنعوا لها وصفاً يلصقها بالسيريالية والفانتازيا وهم بذلك لايختلفون عن سابقيهم ؛ ليخرجوا بها من دائرة «التجديد» و«الابتكار» .

والمتأمل فى قصص محمد حافظ رجب «مخلوقات براد الشاى المغلى » و «مارش الحزن» و«جولة ميم الملة» و «الأب حانوت» و«ذراع النشوة المقطوع» و «الثور الذى ذبح الرجل» و «الكرة ورأس الرجل» و «عظام الجرن» و «جف البحر» و «الطيور الصغيرة» و «حديث بائع مكسور القلب» وغيرها ؛ سوف يجد أن الكاتب حرص على أن يتناول قضايا الواقع الاجتماعى والإنسانى فى مصر ؛ من خلال رؤية واحدة؛ لا تبتعد كثيراً عن هذا الواقع ، فى تلك اللحظة من تاريخ مجتمعنا .

لم يخرج العالم الخاص الذى صوره محمد حافظ رجب عن عالم الواقع الذى عاشه ، وعانى طويلاً من تناقضاته ، ووصل - إزاءه إلى مرحلة اليأس من محاولات التمرد عليه . ولعل أول ما أرقه

ذلك التباين الواضح فى النظرة الاجتماعية للكاتب أو الأديب . إذ إنه لايتساوى مع لاعب كرة القدم . وقد ألحت عليه هذه المفارقة ؛ حتى أصبح نبضه الفنى متدفقاً بها فى عدد من القصص . ويسببها قد نفسر شعور الفرد المتميز بالوحدة ، وإحساسه بالغربة ، والضياع ، والتمزق ؛ ورغبته فى الخلاص ، ومحاولته الثورة ، ومنها تأتى النظرة «العبثية» إلى الواقع اللامعقول ؛ الذى لايستند إلى منطق ، وتعادل ، وحرية .

تبدأ قصة «الكرة ورأس الرجل» على هذا النحو : (قال الرجل الذى بلا رأس ، للشرطى الواقف خلف سور الملعب : هل لك أن تساعدنى ياسيدى الشرطى؛ لأسترد رأسى الذى يلعبون به داخل الملعب ؟) ضاع العقل ، وافتقد الإنسان المفكر رأسه الذى يميزه ، ويساعده على منطقة الأشياء، وقيادة الوعى ، وتوجيه الرأى العام . لكن جموع الناس اتجهوا نحو شىء آخر هو «الملعب» بدلاً من «المجلة» ليستمتعوا بأقدام تتلاعب بالكرة وليس بأقلام تقدم ثقافة وعلماً وفناً وأدباً . وما كانوا يدفعونه لشراء «المجلة» أصبحوا يقدمونه ثمناً لتذكرة ، حيث حلت «الكرة» محل «الرأس» . وتحول المحرر سليط اللسان إلى أن يصبح معلقاً رياضياً . وغدا الكتاب والمفكرون كالماعز ؛ جلودهم خشنة . (وأخيراً جداً تبينت أنى لست موجوداً . ومن ثم فرأسى هو الآخر غير موجود . ولأننى غير موجود ؛ فقد مد رجل خلفى يده وشد شعرة من رأسى من فرط الحماس ليس إلاّ . فالتفت ورائى مدهوشاً. فقال وهو يستعد للصراخ : معذرة حسبت رأسك معلقاً فى فراغ ! قلت وأنا أرغب فى محادثته : إنه كذلك ؛ لكنه يستحق الإعجاب أيضاً . لكنه لم يرد . فقفز إلى أعلى وصرخ «جون» .)

إذا كان المحور الأساسى هو «العقل» فإن الرمز بالحرف «ع» لبطل قصة «الثور الذى ذبح الرجل» مقبول فنياً . وفقدان «العقل» و«الوعى» سمة أساسية من سمات هذا المجتمع الواقعى . حتى العمال الفعلة الذين يمثلون الفئات الدنيا فقدوا عقولهم وأخذوا يبحثون عنها فى «القاع» حيث التراب ؛ فسقطت عيونهم فيه . ومادام الجميع قد فقدوا عقولهم التى تميزهم عن الكائنات الأخرى ؛ فإنهم أصبحوا يتساوون معها . ولاضير إذن من أن يجعلهم الكاتب أرقاماً أو حروفاً أو ثيراناً أو مكاتب . إن قصة «جولة ميم المملة» يحتل الحرف «ميم» مكان الصدارة فى العنوان ؛ وهو الشخصية المحورية فى القصة . وإلى جانبه الحروف «س» و«غ» و «ن» وشخصيات قصة «رجل معلق فى توسيه» ليسوا إلاّ مكاتب . وهناك «الدمية» و «البراد» و «الجثة» و «الشبح» فى قصة «مخلوقات براد الشاى المغلى» . أما الأرقام فإنها أساسية فى قصة «اشتعال الرأس الميت» . إن التحول من المحسوس إلى المجرد قد تطور فى العصر الحاضر ، ولم يعد وقفاً على حسابات الميزانية والعمليات الاقتصادية ، فقد أصبح الانسان جزءا فى آلة ضخمة ينبغى حساب شئونها . والفرد فى هذه الآلة الضخمة

ليس إلاَّ رقماً من الأرقام ، أو وحدة مجردة؛ كأنها لا تتنفس ولا تنبض بالحياة. إذ إن التفكير المجرد بالكم والرمز قد تجاوز دائرة الانتاج الاقتصادى ؛ وامتد إلى موقف الإنسان من كل شىء ، ومن كل فرد بل وامتد حتى شمل موقفه من نفسه . هذا المعنى هو الذى أدركه محمد حافظ رجب فى قصة «مارش الحزن» : (كل شىء يسير فى مداره بنظام نحن ذرات ضئيلة غير مرئية داخل هذا النظام.)

مجتمع يجرد الإنسان من هويته الإنسانية بتحويله إلى «شىء» أو إلى «ذرة»؛ فاقد القدرة على الإحساس والشعور والتعاطف . مجتمع يوجد فيه أفراد متفردون ؛ لكنهم عاجزون عن التجاوب مع الأوضاع السائدة فيه ، والثقافة التى يفترض أنهم ينتمون إليها ؛ لكنهم يرفضون القيم العامة التى تسود فى هذه الثقافات التى يتقبلها أفراد المجتمع الآخرون . مجتمع تزداد فيه سطوة القيود ممثلة فى العادات والتقاليد والعرف ، وانحسار الديمقراطية ، وطغيان المادة ، من شأنه أن يخضع الفرد لهذه السطوة تماماً بطريقة تنمى معها شخصيته المستقلة المتميزة ، بحيث لايكاد يتمتع بكيان مستقل عن الجماعة التى ينتمى إليها ويستمد منها كل مقوماته . عندئذ تكون حياته – من حيث هو فرد – عديمة الأهمية بالنسبة لنفسه ، وبالقياس إلى غيره من الناس ؛ مما يلجئه إلى الانتحار ، أو إلى حالة «الاغتراب» الدائمة عن الذات ، وعن الآخرين .

والهروب إلى العزلة عند محمد حافظ رجب فى معظم قصصه القصيرة ، محاولة يائسة من شخصيات لإيجاد نوع من «الأمن الخاص» أو «الاستقرار الذاتى» ؛ بعيداً عن العلاقات الخارجية التى تتسم بالتعقيد والقسوة والقهر ، وتفضى إلى الانسحاق ، والطحن الدائم المؤلم . إذ إنه – إزاء الضغوط الخارجية – عاجز عن فعل شىء ، أو عن رد الأذى عن نفسه ، لاتتلاءم قوته الذاتية مع مجموع القوى الخارجية ؛ فيشعر بالعجز والضآلة ؛ مما يجعله يهرب إلى حيث العزلة فى «براد شاى» أو «علبة سجائر» أو داخل «دوسيه» معلق . وسرعان ما يتضخم الإحساس بالغربة ويتحول إلى غربة عن الذات ؛ بعد أن كان اغتراباً عن الواقع ، إن بطل محمد حافظ رجب هو أغرب الغرباء كما يقول علماء النفس وعلماء الاجتماع .

● العجز عن تحقيق الأمل ●

والاغتراب عن النفس ينطوى على شعور الفرد بانفصاله عن ذاته ، وهو نمط من التجربة يرى الفرد نفسه فيها كما لو كانت غريبة عنه ؛ حين يصبح منفصلاً عن نفسه ، وحين يفتقد المغزى الذاتى والجوهرى للعمل الذى يؤديه . ويمكن لنا أن نتبين هذا فى قصة «رجل معلق فى دوسيه» وفى «الأب حانوت» و «المربع الدائرى» و «ذراع النشوة المقطوعة» . ويظل العجز عن تحقيق الأمل يلاحق الانسان فى هذا العالم الغريب «الطيور الصغيرة» حيث يبقى حبيساً كالطيور

الصغيرة فى قفص مصنوع من قضبان حديدية صارمة فيكون افتقاد الأمن ، والراحة والاستقرار ؛ والإحساس بالاغتراب عن هذا الواقع المليء بالخداع والزيف .

حيث يحتل القهر أسمى مكانة . وترتوى الخيانة من أصفى منهل "الأمطار تلهو" ؛ فلا تظفر بعدئذ بحب أو إنسانية أو صدق . لأن كل ما سبق ينحرف بالإنسان عن جوهره ، وليفصل بينه وبين الآخرين .

ومن ثم تبدو صورة الانفصال شاملة فى قصص محمد حافظ رجب . وهى انعكاس للصورة التى تسود العلاقات فى المجتمع . إنه يتغلغل فى العلاقة بين الإنسان وعمله . وبينه وبين الأشياء التى يستهلكها . وبينه وبين الدولة . وبينه وبين غيره من الناس . بل بينه وبين نفسه . إن العلاقة بين الإنسان والإنسان فى ظل النظام القائم ، والواقع المفروض ، فقدت إنسانيتها التى تتميز بها . لذا فإن المجتمع أصبح مؤلفاً من أفراد ، كل منهم غريب عن الآخر . وهو المعنى الذى توصل إليه محمد حافظ رجب فى قصصه القصيرة . وكأنه يريد أن يقول إن "الاغتراب" نوع من الوباء الذى خلقته عوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية . وهو ما يدفعنا إلى التأكيد على أنه لا يستند إلى نظرية نفسية أو رؤية فلسفية معينة يسعى إلى تطبيقها عند تصوير الإنسان "المغترب" . أو إلى تبنى مفهوم معين للاغتراب . ولكنه - بالفعل - يصور واقعاً ، قاده إلى تصويره ، الحرص على رفضه ، والثورة عليه ، أو تحطيمه . وهو لا يعلن ذلك بإطلاق الشعارات الزاعقة أو الخطب الجهورية ؛ ولكنه يجعل الواقع "المقلوب" فى تناقضه ، وتقلبه ، ولا معقوليته ، هو محور الحركة والصراع فى القصة القصيرة . فهو لا يتمثل "ميرسو" بطل "الغريب" لألبير كامى ، بقدر ما يعى الواقع السياسى والاجتماعى والاقتصادى والفكرى ؛ ودور الإنسان - الفرد فيه ، وموقف الجماعة منه .

ولعل التأمل الدقيق فيما تضمنته قصة « جولة ميم المملة » يقودنا إلى بلورة صياغة لعالم محمد حافظ رجب ؛ ولكثير من مفاهيمه . تأتى كلمات البداية هكذا : (تتدحرج ميم داخل المأزق المجنون . رياح تندفع من كل الثقوب تدحرجه ، ظل يتدحرج ملتات العقل) . فالبطل محاصر ومجنون داخل مأزق مجنون والقوى العاتية تعمل على دحرجته من كل صوب وحدب ، وهو لايملك إلاّ الاستجابة لها صاغراً فاقد القدرة علىَ التفكير ، والوعى، والتصديق . ثم نقرأ : (عاد يتدحرج من جديد ، وتذكر كلمات أبيه له فى الماضى : يا ابنى ، أنت قاتلى ، وقاتل أبنائك وأبنائى ، صرخ فى أبيه : اصمت . اصمت يجب أن أذبحك لأتحرر منك . وليتيتم الأولاد . لايهم . حريتى : الهدف : خروجى من العادة) .

هنا يتجسم الانفصال حيث الانسان غريب عن الإنسان - الابن قاتل أبيه - ماضيه - وقاتل أبنائه - مستقبله - والهدف هو الحرية الفردية ؛ لأن سلطة

الأب كانت جبارة قاسية . والذبح هو السبيل الوحيد للقضاء على الماضى ، والعادى ، لأن الغاية هى الخروج من العادية والتقليد . لم تعد ثمة وشائج ، ولا صلة رحم ، ولا شفافية ، ولا حوار عقلانى مقعول لأن الكائنات ، والأشياء ، والأحداث ، والوقائع ، غير عقلانية ولا معقولة . وتقودنا هذه العلاقة إلى قمة العبث والغثيان ، والوحدة ، والوحشة ؛ حيث الجثث الميتة ، فى مقبرة الغرباء .

ونحن نلاحظ أن قصصه - غالباً - تجرى حوادثها فى «مكان» ضيق محدود . وفى زمان أشد ضيقاً ومحدودية . ورغم ما توحى به ، من حيث الاختناق والحصار والسجن والقيود ؛ فإنها تمثل ملجأ للشخصية أو للفرد ؛ يحميه من شرور العالم الخارجى المحيط . وكأنها أداة تعذيب وإيلام ؛ أو مهرب للخلاص ؛ فى وقت واحد ، حيث يتوافر مناخ العزلة والوحدة .

ومهما تصور القارىء أن الكاتب يبتعد عن واقع الحياة فى مجتمعه ؛ فإنه سوف ينتهى إلى عكس ذلك ؛ عندما يتفهم أسلوب الكاتب ، وشخصياته ، ومفردات القصة ، وأدواته الفنية . ولعل قصصه شكلت صوتاً رافضا لكل عوامل القهر والخوف والرعب ؛ بحثاً عن الحرية ، والأمن النفسى ، واستقلال الشخصية ؛ وربما تكون قد أوضحت مشاعر الخيبة التى أصابت جيل الكاتب تجاه واقع مفروض مرفوض ؛ إبّان كتابتها .

ونحن نرى أن دراسة هذا الكاتب ضرورية . فالمقال لا يتسع للوقوف عند كل ماينبغى أن يقال فى دوره ، وعالمه ، ولغته؛ والعناصر التى أسهمت فى تشكيل صوته ورؤيته . قد يجد الباحث فى بعض كلماته هادياً إلى تحديد الرؤية الفنية ، وأسرار الحرفة ، وما يتطلبه هو من قارئه . يقول على سبيل المثال : (حياة العذاب وطول المعاناة الغريبة فجرت أحشاء الإنسان ، ووضعه فى القوالب الحديدية جعل الحاجة ماسة إلى تصوير متفجر دموى الملامح والمضمون . إن العالم المقلوب فيه روعة وإبداع ولابد من الإحاطة به والولوج إلى أسراره ومتاهاته الحافلة . إن عجينة الإنسانية محيرة ومدهشة من هذا كان لابد من الدهشة التى تستولى على آفاق الرؤية للكاتب الفنان . إن الرجل ليس هو المنظر المواجه للناس . إن قاعه وإدراكه وأفكاره تحتاج إلى كل الفنون لتصويره . إن المعاناة الجديدة تفجر محتويات لم توجد من قبل ؛ لذلك يستلزم الأمر معاناة القارىء المقابلة لجهد الفنان الكاتب حتى تتم المعايشة المشتركة) مجلة «نادى القصة» - السكندرية - العدد ٣٦ - ١٩٨٨ - ص ٨ - ٩ .

ومع غرابة العالم الذى يصوره ، والشخصيات التى يحركها ، والفكر الذى يشكل رؤيته ؛ فإنه كان مدركاً لضرورة التحام الشكل بالمضمون ، إدراكه لأهمية الالتحام اليومى بواقع الحياة فى المجتمع المصرى .



الساخرون فى مصر

نجوى صالح

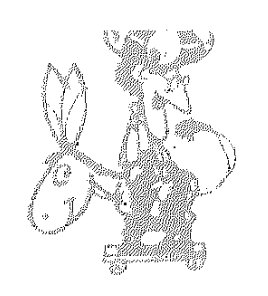
تحتاج الفكاهة إلى ذكاء ، ودقة فى الحس ورهافة فى الذوق والشعور ، وكل ذلك لا ينقص المصرى ، كما لا ينقصه حضور البديهة وسرعة الجواب .

ويكمن فى الروح المصرية خليط من الدعابة والمرح والفكاهة، والمصريون مشغوفون بالنكتة والقفشة ، فضلا عن أن بداخلهم جوهرة دائمة التألق واللمعان ، ويتأكد بريقها الأخاذ ، في مجالسهم ومحافلهم .

إن الروح الفكهة بين المصريين ، ضاربة فى القدم وقد تأكدت على مر التاريخ ، منذ الفراعنة ، حين كان المصريون القدماء ، سواء فى عصور الرخاء ، والتسيد ، أو فى عصور الرق والاستعباد ، لا يفوتهم التندر والدعابة فى الحالين .

وما بين عصور الرخاء فى عطاء هذا الوادى السخى بثرواته وكنوزه ، وبين عصور الشدة من بناء الأهرام إلى التعرض لظلم الحكام كان التهكم والسخرية سلاحاً خفياً لهذا الشعب الطيب.

إن الفترات الطويلة بين الزرع



والحصاد ، وأوقات الفراغ الطويلة ، جعلت الانسان المصرى ينفس عن نفسه بواسطة خلق المواقف الفكهة التى تزيح عنه سواء الملل والهم ، أو الظلم الذى يقع عليه .

أميرة بنط

وتبدو السخرية فى كثير من الرسوم المصرية القديمة .. ومنها رسم لأمير وأميرة بنط ، وهما وافدان على فرعون لتقديم فروض الطاعة ، وفيها نرى الأميرة وقد بدا نصفها الأسفل وقد تضخم وتأخر وضعه عن نصفها الأعلى ، فأصبح شكلها مثيرا للضحك . ونجد أن خاصية الضحك على الغرباء والتندر عليهم ما زالت سارية إلى اليوم فهم يتندرون على لهجة الرومى والتركى وغيرهما ، وقد وجدت مقبرة لأمير دفن فيها بعض أقزام الزنوج .. وتوضح الرسوم ولع المصريين بالتلاعب بالألفاظ وبين تراثهم نشيد فى مركبة لفرعون ألف على اساس التلاعب بالألفاظ اذ يحصى مؤلفه أجزاء المركبة ويسميها وفى كل مرة يذكر فيها اسم الجزء الخاص من اجزائها يعود فيذكره مرة ثانية بمعنى آخر يصف به قوة فرعون

السخرية فى عصور الاحتلال

وعلى هذا المنوال كانت مصر الفرعونية تضحك ، فلما ابتليت بغزو الفرس واليونان والرومان ذهبت تنفس عن ظلمها وآلامها وكآبتها بفكاهات لاذعة فيها تهكم وسخرية على العدو .

ولم يتركوا البطالسة فى حالهم رغم أن حكامهم أحسنوا معاملة الشعب المصرى ...

ثم نرى ثيوكريتوس الشاعر اليونانى الذى عاش فى الاسكندرية أثناء القرن الثالث قبل الميلاد ، يشير إلى هذه النزعة فى المصريين ، وما ينطوى فيها من سخرية قاسية بقوله : «إنهم شعب ماكر ، لاذع القول ، روحه مرحة » .

ثم كان العصر الرومانى والذى اشتدت فيه وطأة سهام السخرية المسمومة التى يقذفها الشعب المصرى إلى الحكام الرومانيين ومن بينها أنهم أطلقوا على القيصر «فسبسيان» اسم «تاجر السردين» وأنه لا يساوى ستة مليمات ، ولقبوا قصيراً آخر «بالنسناس» المدلل الصغير . وكان الرومان مقابل تلك السخرية يسومونهم العذاب ولكن هذا لم يجعلهم يغيرون من هجائهم والكيد لهم ..

عهد ابن طولون

تستقل مصر عن الخلافة بعد عصر زاخر بالمطاحنات وظلم الرومان للمصريين الذين ما زالوا يرفعون راية العصيان بالسخرية والفكاهة .. وكان عصراً جديداً استقلت فيه مصر عن الخلافة عصر «ابن طولون» .

وظهر شاعر فكه مشهور كان ينبز «بالجمل الأكبر» يقوم بالمنادمة والمديح للأمراء .. ويحكى لهم النكت والنوادر .. ومن نوادره : «كان رجلان كسولان ينامان تحت شجرى كمثرى .. واتفقا لكسلهما أنه

إذا وقعت ثمرة فى فمهما أكلاها .. وإلا فلا ، فسقطت كمثراة إلى جانب أحدهم ، فقال له الذى يليه : ضعها فى فمى ، فأجابه : لو استطعت أن أضعها فى فمك لوضعتها فى فمى !» .

وقد انضم للجمل الاكبر فى عصر الاخشيد - الجمل الأصغر ، ثم سعيد ، وكان يلقبه الاخشيد بقاضى البقر .

سيبويه المصرى

لم تر عصور مصر الاسلامية الأولى فكهاً ساخرا ، على نحو ما عرفت فى شخص يسمى سيبويه المصرى .. الذى عاش فى ظل الدولة الاخشيدية ، كان يظهر التباله .. والحمق والجنون ، لينفذ منها إلى نقد هذه الدولة الأجنبية ، نقداً ينطوى على الخبث .. والمرارة فيه تنفيس عما يقع للناس ، مستخدما آية قرآنية أو سجعا مرتجلا .

ومن نوادره .. أنه كان يطوف بحماره يوم جمعة فرأى تجمهراً من الناس ، لرؤية موكب «الاخشيد» أثناء مروره للصلاة فتوسط الناس وصاح «ما هذه الأشباح الواقفة ، والتماثيل العاكفة ، سلطت عليهم قاصفة ، يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ، وتغلى لهم قلوب واجفة ؟» فقال له رجل هو «الاخشيد» ينزل إلى الصلاة فقال : «هذا الأصلع البطين المسمن البدين، قطع الله منه الوتين ، ولا سلك به ذات اليمين !أما كان يكفيه صاحب ولا صاحبان، ولا حاجب ولا حاجبان ، ولا تابع ولا تابعان ، لا قبل الله له صلاة ولا قبل له زكاة ، وعمرت بجثته الفلاة» ولقد ارتفع نجم هذا الساخر ، وجالس أونوجور ابن الاخشيد والوزراء وكبار الدولة .. ولم يفلت واحد من لسانه .. حتى أنهم كانوا يرهبونه فيأتوا إليه بالهدايا والهبات .

الفكاهة عند الفاطميين

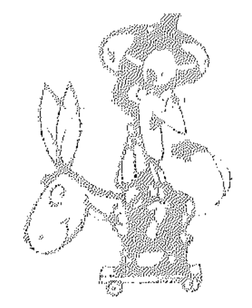
وفى العصر الفاطمى اتسعت روح الفكاهة ، والتهكم ، إذ كثر القول بين الناس عن الفاطميين ونسبهم ، وهل ينسبون إلى فاطمة الزهراء أم إلى غيرها حيث كتب شاعر ساخر مقطوعة فى هذا الصدد فقام من بين المصلين ، واتجه إلى المنبر ورمى بها إلى العزيز ثانى خلفائهم تناولها، فإذا فيها :

إنا سمعنا نسبا منكرا
يُتْلىَ على المنبر فى الجامع
إن كنت فيما تدعى صادقا
فاذكـر أبا بعد الأب الرابـع
أو فرع الأنساب مستورة
داخل بنا فى النسب الواسع
فإن أنساب بنى هاشم
يقصـــر عنها طمع الطامـع

ويقصد هنا النسب الواسع الى «آدم» ويترك النسب الضيق إلى بنى هاشم .. ثم تهكم من الخليفة الحاكم الذى ادعى الألوهية وقال :

بالظلم والجور قد رضينا
وليس بالكفر والحمـــاقة
إن كنت اعطيت علم غيب
فقل لنا كاتب البطـــاقة

وانتقد المصريون الفاطميين فى اساليب السياسة .. والتشكيك فى نسبهم .. وسلوكهم .. وسخريتهم من إدارتهم ،



وتولية اليهود المناصب الكبرى فى الدولة ، وكان احتجاج المصريين بصورة لاذعة ومن ذلك قول بعضهم :

يهود هذا الزمان قد بلغوا
غاية آمـــالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم
ومنهم المستشـــار والملك

وقد كثرت فى العصر الفاطمى بجانب الفكاهة السياسية الفكاهة الاجتماعية وأصبح النبز بالألقاب موضة العصر ، فنجد شاعرا ينبز «بالجهجهان» ، وثانيا يلقب «بشلعلع» ، وثالثا «بالكاسات» ، ورابعا «بالوضيع» وخامسا «بالنسناس» ، وسادسا «بابن مكنسة» ، وكان ماجنا ، يظهر الفقر والتصعلك . وله شعر يصف فيه قبح منزله وقذارته قال فيه !

لى بيت كأنه بيت شعر
لابن حجاج من قصيد سخيف
أين للعنكبـــوت بيت ضعيف
مثله ، وهو مثل عقلى الضعيف
بقعة صد مطلع الشمـس عنها
فأنا من سكنتها فى الكسوف

إن كل ما سلف حتى العصر الفاطمى يفسر ما لمصر من مكانة فى هذا المضمار فقد سبقت بلاد العالم العربى فى الأدب وشعره ونثره وظل لها فيها طابع الخفة والرشاقة .. وكأنما لقن الآباء أبناء هم فى لغة «الضاد» هذا الحس الرقيق ، الذى يعرف كيف يستغل المغنيون المختلفون لكلمة واحدة ويظهر ذلك فى شكل يصيب السامع بشئ من الذهول ، فيضحك لترقبه شيئا حدث عكسه .

الفاشوش فى حكم قراقوش

أما فى عصر صلاح الدين الأيوبى - أثناء الحروب الصليبية - فلم ينس المصريون طبعهم .. بل لقد خلف لنا هذا العصر طرفة فكاهية مشهورة وهى : كتاب «الفاشوش فى حكم قراقوش» ، هذا الكتاب أقدم الكتب الفكهة - بالمعنى الدقيق للفكاهة - ألفه «الأسعد بن مماتى» صاحب ديوان الجيش والمال لعهد صلاح الدين . كان آباؤه من «نصارى» أسيوط ، ثم دخلت هذه الأسرة فى الإسلام ورعاها صلاح الدين فجعل رئيسها «الخطير بن مماتى» قيّما على ديوان الجيش ، ثم خلفه ابنه الأسعد وقد اشتهر الأسعد بن مماتى بسرعة البديهة واللذع فى النادرة ، وقد تعلق بشخصية عاصرته هى شخصية قراقوش التركى أحد قواد صلاح الدين .. وأصفيائه ، وكان فيه على ما يظهر شئ من الشدة والقسوة ، وكان صلاح الدين يسلم له أمور مصر حين يغيب فى حروبه الصليبية وقد وضع عليه ابن مماتى الحكايات المضحكة التى تصور حمقه فى أحكامه وغفلته وبلاهته ، ويظهر التاريخ أن ابن مماتى قد ظلم قراقوش ظلما بيّنا بوضعه عليه هذه النوادر الساخرة بدليل ثقة صلاح الدين به ، وفيما يلى بعض النوادر المفتراة على قراقوش .

يقول ابن مماتى : إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش ممزقة فاشوش ، قد أتلف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غمة ، لا يقتدى بعالم ، ولا يعرف المظـلوم من الظالم ...

ويحكى أن سيدة حجازية سوداء تقدمت لقراقوش تشكو له جارية بيضاء ، فعجب أن تكون امرأة بيضاء مملوكة لسيدة سوداء فرد شكواها عليها ، مدعيا أنها ليست السيدة ، بل هى الجارية والجارية هى السيدة ، وهم بحبسها ، لولا أن تدخلت الجارية فعفت عن سيدتها .

المماليك وقمة الفكاهة

لقد اتسعت فى عصر المماليك الروح المصرية الفكهة .. إذ فرغت مصر من الحروب الصليبية .. وخلد المصريون إلى رخاء شاعت فيه فنون اللهو .. واللعب وتفجرت ينابيع الفكاهة فى أنفسهم وهى نكت لم يقفوا بها عند أصدقائهم .. بل تعدوهم إلى ساستهم وحكامهم الأجانب من الترك والمماليك .

وقد امتلأت هذه الفترة بالتورية واللعب بالألفاظ والكلمات التى تؤدى إلى معنيين مختلفين .. وكثر شعر العامية ، ومن يتصفح آثار الشعراء فى هذا العصر يغرق فى الضحك .

وهذا شعر فى السلطان «حسن» حينما قتل .

لما أتى «للعاديات» و«زلزلت» حفظ «النساء» وما قرأ «للواقعة»

وهذا شعر قيل فى مملوك يسمى «قشتمر» وكانت العامة تنبزه بحمص «أخضر» :

وبالدنا حزت مالاً
ملأت فيه الخزانة
وكم عليك قلوب
يا حمص أخضر (ملانة)

ومن التوريات التى رويت أيضا هذا العصر تورية للشاعر إبراهيم المعمار صنعها متهكما على شخص طلب اليه أن يصوم «الأيام الستة البيض» .

بعد شهر رمضان ، فقال متماجنا :

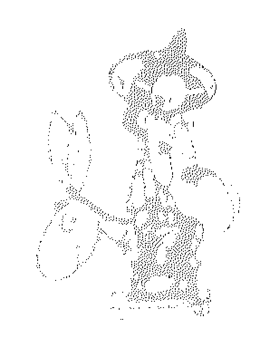
شهر الصيام تولى
فراقه يوم عيدى
فقيل شيع بست
فقلت أيضا وسيدى

ثم التورية بأنواع الطعام ، وخاصة القطايف ، ونسجوا فيها كثيراً من الداعبات ولبعضهم فى غلام كان يطوف صباحا بأقداح الفول .

يطوف بأقداح «العوافى» على الورى
ويصبح بالخير الكثير (يفول)

وهذا شاعر اسمه الجزار وكان جزارا ونراه يصف منزله قائلا :

دار خراب بها قد نزلت
ولكن نزلـت فى السـابعة
فلا فرق ما بين أنى أكون
بها أو أكون على القـارعة
تساورها هفوات النسيم
فتصغـى بـلا أذن سـامعة
وأخشى بها أن أقيم الصلاة
فستجد حيطانهـا الراكعة
إذا ما قرأت «إذا زلزلت»
خشيت بأن تقرأ (الواقعة)



وله شعر آخر حين تزوج أبوه الشيخ من امرأة كبيرة السن :

تزوج الشيخ أبى شيخة
ليس لها عقل ولا ذهن
لو برزت صورتها فى الدجى
ما جسرت تبصرها الجن
كأنها فى فرشها رمة
وشعرها من حولها قطن
وقائل قال فما سنها
فقلت ما فى فمها سن

طيف الخيال

حوى عصر المماليك على أكبر كمٍّ من الظرفاء والفكهين والساخرين والزجالين والشعراء .. وفى هذا العصر بدأ ظهور المسرح الشعبى «خيال الظل» وهذه بدعة كانت قد اقتبست من بلاد الصين فى القرن السادس عشر ، وقد تحول فيما بعد إلى «أراجوز» وكان أشهر من تخصص فى التأليف لهذا المسرح والارتفاع به شاعرا يعرف «بابن دانيال» وقد ألف له ثلاث مسرحيات هى مسرحية طيف الخيال ، ومسرحية عجيب وغريب ، ثم مسرحية متيم ، وكلها ألفها ابن دانيال فى عهد الظاهر بيبرس فى القرن السابع الهجرى وتعتبر مسرحية طيف الخيال هى من أبدع المسرحيات الثلاث ، بل هى أبدع مسرحية فى تاريخ خيال الظل المصرى ، وقد ونعرض نبذة من ذلك العمل الفنى الذى استمر متوارثا لأجيال طويلة من الشعب المصرى ويستهل المسرحية بقوله :

«كتبت إلى أيها الاستاذ البديع والماجن الخليع ، لازال سترك رفيعا ، وحجابك منيعا ، تذكر أن خيال الظل قد مجته الأسماع ، ونبت عنه لتكراره الطباع ، سألتنى أن أصنف لك من هذا النمط .

فصدنى الحياء فيما رمته منى ، أن ترويه عنى ، ولكنى رأيت تمنعى عن هذا المرام ، يوهمك أنى قاصر عن هذا الاهتمام ، واهن الفكرة ، عاجز الفطرة ، عن غزارة الينبوع ، وإجابة الخاطر المطبوع ، فجلت فى ميدان خلاعتى ، وأجبت سؤالا لساعتى ، وصنفت لك من بابات المجون ، والأدب العالى لا الدون .. إلى آخر هذه المقدمة التى يسردها على المتفرج قبل تقديم المسرحية ، ثم تبدأ المسرحية بقول الريس :

خيالنا هذا لأهل الرتب
والفضل والبذل وأهل الأدب
حوى فنون الهزل والجد فى
أحسن سمط وأتى بالعجب

إلى آخر هذا الشعر حينما أنشد يقول وهو يصف طيف الخيال البطل :

مذاهب الفضل به جمه
فنقطوه سادتى بالذهب
ترجمته طيف الخيال الذى
حكى هلالاً طالعا بالحدب

فإذا فرغ «الريس» من هذا الإنشاد ، شرع ينادى : يا طيف الخيال يا كامل الاعتدال ! فيخرج شخص «أحدب» وهو بطل المسرحية فيلقاه الريس بهذا المديح قبل الكلام .

قسما بحسن قوامك الفتان
يا أوحد الأمراء في الحذبان
يا مشية الغصن الرطيب إذا انثنى
من حدبتيه يميس بالرمان .

وتمشي المسرحية على هذا المنوال تصف خيال الظل الأحدب ، ومغامراته الماجنة الخليعة التي يلازمه فيها الأمير «وصال» .. ثم يقرران الاقلاع عنها واللجوء إلى الخطبة للزواج .. وينتهي بهما المطاف .. بعد أن يتزوجا من سيدات ينغصن عليهما حياتهما فيقررا أن يذهبا للحج والشرب من ماء زمزم .. ويتوبان توبة نصوح ، ويسدل الستار . وقد تميزت هذه المسرحية بأنها تشعر المتفرج بأنه مسوق إلى نهايتها بشكل منطقي ، وقد صورت البيئة التي يعيش فيها الشخوص تصويرا بارعا .. وكل هذا يخدم غايات الكاتب المسرحية ، وهي غايات كلها فكاهية ، وقد نادم ابن دانيال السلطان خليل بن قلاوون ، ونادم الوزراء والأمراء حتى آخر حياته .

ابن سودون

وأكبر زجال هزلي في هذا العصر هو «ابن سودون» صاحب «نزهة النفوس ومضحك العبوس» في العصر المملوكي أيضا - في القرن التاسع عشر - وكان ابن سودون يختلف عن ابن دانيال بأنه لا يميل إلى المجون بل إلى المفارقة المنطقية فهي المفتاح الذي ينصب منه نغم الهزل والفكاهة .. ومن قوله :

عجب عجب هذا عجب
بقرا تمشي ولها ذنب
ولها في بزيزها لبن
يبدو للناس إذا حلبوا
من أعجب ما في مصر يرى
الكرم يرى فيه عنب
والنخل يرى فيها بلح
أيضا ويرى فيه رطب

إنه يستهل القطعة بقوله «عجب ، عجب» وننتبه ظانين أننا سنسمع العجائب ، وإذا هو يورد لنا بديهيات في صور ، من التباله ، تجعلنا نحس عدوانا على منطقنا حتى نضحك .

الضحك المر !

ساءت أحوال مصر في العصر العثماني .. وقد أصبحت مصر ولاية عثمانية ، وخيم الظلام على كل شئ . فساءت الأحوال الاقتصادية والأدبية والعلمية ..

وبالرغم من كل هذا الهم والغم الذي خيم على مصر ، فقد روى الجبرتي أن أهل القاهرة قد غضبوا على آل عثمان فتجمعـــوا تحت قصره وقالوا الشعر التالي :

باشا يا باشا يا عين القملة
من قال لك تعمل دي العملة
يا باشا يا عين الصيرة
من قال لك تدبر دي التدبيرة

وتجري الفكاهة في حياة المصريين كمجرى الدم في العروق .. رغم ما يجللها من بؤس وشقاء ، بل إنهم يحولون البؤس والحرمان والجوع إلى فكاهة وهزل في الأطعمة وألوانها وفي ذلك :

قالوا تحب المدمس قلت بالزيت الحار
والعيش الأبيض تحبه قلت والكشكار

وبنهاية الدولة العثمانية في حكم مصر بدا العصر الحديث في الهزل والفكاهة .. وهذا شق آخر .

فى عالم يائيل دايان الروائى

الاســرائيليون يؤمنون أن الارض قبل الله

بقلم : محمود قاسم



ياسر عرفات : أهلا يا ابنة دايان !!

انها يائيل دايان .. كاتبة اسرائيلية اعتبرت أبرز وجوه الادب العبرى طوال حقبة الستينات بالاضافة الى انها حملت اسم ابيها موشيه دايان الذى برز اسمه عقب عدوان يونيه ١٩٦٧ ، وزوجها دوف صهيون لمع فى وظائفه العديدة بوكالة الاستخبارات الاسرائيلية « الموساد » لسنوات طوال .

وياثيل دايان التي كانت لفترة طويلة اكثر كتاب اسرائيل معرفة خارج حدود بلادها قد انحسرت عنها الاضواء . وكأنها كانت كاتبة لمرحلة بعينها . وبدت وكأنها قد ارتبطت معنويا بالنجاح الوهمي والعدواني الذي حققه أبوها على المستوى العسكري . حتى إذا انحسرت عنه الشهرة .. حدث نفس الشيء لابنته التي حملت اسمه .

وقد جاءت شهرة ياثيل دايان خارج حدود بلادها ، ليس فقط لانها تكتب رواياتها باللغة الانجليزية ، وليس اللغة العبرية . وانما لأن رواياتها تتكلم عن معاناة جديدة . قد تبدو غريبة على القارئ الاوروبي فهو ادب عن الهجرة الى ارض اخرى . ومحاولة الاستيطان فيها . والتأقلم للحياة فوق سطحها ومثل هذه الموضوعات تبدو دائما مثيرة للانتباه للاوروبي الذي لم يعرف ادباؤه الهجرة الحقيقية ، من خلال الامتلاك والاستيلاء على ارض جديدة .

● فرانسواز ساجان تحمل السلاح ●

عندما نشرت ياثيل روايتها الاولى « وجه جديد في المرآة » في منتصف الستينات ، كانت في ريعان الشباب جميلة تتفجر بالانوثة .. وكان ابوها موشيه دايان في قمة مناصبه العسكرية . كانت ياثيل المولودة عام ١٩٣٩ ، مجندة في جيش الدفاع الاسرائيلي . فحملت السلاح . وعاشت في معسكرات الكيبوتز ، وفي تلك السنوات كان نجم الكاتبة الفرنسية فرانسواز ساجان عاليا . ولذا قيل أن دايان بمثابة ساجان اسرائيل . خاصة بعد ان صدرت روايتهاالثانية «طوبي للخائفين» حول معاناة جيل الحرب في الدولة العبرية. وقبل ان نتحدث عن بعض روايات الكاتبة . فانه من المهم ان نشير الى انتمائها لجيل من الاسرائيليين لم يشعر بعداء تام مع العرب . فعندما اندلعت ، حرب عام ١٩٤٨ ، كانت اسرة دايان هناك منذ بضع سنوات . وبحكم الصلات الاجتماعية ، ارتبطت الاسرات بعلاقات حميمة ثم جاء القتال لترتجف القلوب .. ولذا فإن الكاتبة لم تكن يوما ما زاعقة مثل الادباء الذين آمنوا تماما بالصهيونية ، بل أن للآخرين الحق في الارض . مثلما لليهود وقد برزت في اعمالها أهمية هذه الارض . باعتبارها الاله الارضي الموجود أمام الاعين . فاذا كان الله في السماء . فإن الارض هنا ونحن نعيش فوقها . وقد جاء هذا واضحا على لسان أحد أبطال روايتها « طوبى للخائفين » حين يحدث ابنه قائلا وهو في المعبد اليهودي : « نحن الان اسرائيليون . ولسنا مجرد يهود . وقد اكتشفنا الرب الجديد . انه الارض، خصوبتها وثمارها . امسك حفنة من هذا التراب . واحتضنه في كفك وتذوقه . انه ربك الاوحد الذي يجب ان تصلي له وتصلي من أجل أن تشبعه الامطار » .

ومثل هذه العبارة تعتبر مدخلاً لفهم ادب وفكر ياثيل دايان .. بل يمكن ان تعد مدخلا لفهم اساس الصراع العربي

الاسرائيلى . فاذا كان الاسرائيليون .، يعتبرون ارضهم بمثابة اله . فان العرب يعبدون الله من فوق هذه الارض التى اعطاها لهم ..

● الأرض الدافئة ●

ومن اجل ان تؤكد الكتابة على هذا المفهوم ، فقد جعلت اغلب ابطال رواياتها من المهاجرين الى اسرائيل . وهم فى المقام الاول جاءوا من اجل الارض ، الدافئة من خلال فكرة مجردة ممزوجة بالعقيدة ، ففى روايتها « طوبى للخائفين » التى تدور أحداثها داخل المجتمع ، وليس على جبهات القتال ، نرى قرية صهيونية صغيرة هى « بيت عون » يلعب فيها الاطفال لعبتهم المفضلة : « من الاقوى » فكل طفل عليه أن يثبت انه الاقوى . انها اللغة التى يتعلمها الصغار وسط هذا الجو الذى يعيشه الكبار، وجدعون بطل الرواية، هو أحد أبطال هذه اللعبة لقد لعبها دائما مع صديقه « نمرود » ،لاحظ الأسماء التوراتية التى تستخدمها الكاتبة ، لقد تعلما من اللعبة الا يعترفا بالحب أو الخوف.

وترى الكاتبة أن هذين الشخصين مثلان نموذجين من ابناء اسرائيل الجدد وكيف تربوا . فالأباء يسعون لنزع كل الخوف من قلوب الابناء وذلك تحت شعـــار ان من لا يخاف لا يمكن له ان يحب اى ان الحب هنا مضلل بالخوف .

وتبدو العلاقات الانسانية خشنة فظة . فالاب يهدى لابنه « نمرود » خنجرا حقيقيا فى عيد ميلاده . وليس أرنبا جلديا .. وهذا الاب يعلمه ان الرب القديم لم يعد له وجود وان عليه ان يتعلم كيف يستخدم البندقية .

ونحن هنا أمام رواية نهرية حول حياة اسرة . جاءت من بولندا من أجل ان تقيم عيشة جديدة فوق هذه الارض المقدسة . ونحن فى البداية أمام جيل الاجداد والذى يمثله الاب ايفرى الذى يود لابنه « نمرود » ان يكون قويا مثل جدعون .. ولكن هذا الاخير ، حواسه بمثابة كلمة تعنى الصخرة يعود يوما بعد أن كبر وقد فقد احدى ساقيه . وهو «الصخرة» يبدو منهزما تماما بعد ذلك الحادث . فهو يعتمد فى المقام الاول على قوته البدنية . وهاهى القوى قد زالت وهو الشخص الذى لم يعتد قط على استخدام عقله .

مثل هذه النماذج البشرية موجودة فى بقية اعمالها وخاصة فى « اذا كان للموت ابنان » و « ثلاثة اسابيع فى اكتوبر » . ففى الرواية الاولى نجد انفسنا أمام اسرة بولندية جاءت الى اسرائيل اثناء الحرب العالمية الثانية . فدانيال الابن ، اشبه بشخصية باراباس فى تاريخ المسيحية . فقد تم اختيار السجين باراباس كى يعيش بدلا من السيد المسيح الذى كان

عليه أن يصلب .. أما دانيال فقد كتبت له الحياة بعد ان اضطر ابوه ان يختار بين ولديه ليذهب أي منهما الى المحرقة في المعسكرات النازية .

ومثلما لم يستطع باراباس أن ينسى ان السيد المسيح دفع ثمنا لحياته ، فإن دانيال لا ينسى انه يعيش على اشلاء موت أخيه في المحرقة ، وفي اسرائيل بعد سنوات يلتقي الاب وابنه . الاب لا ينسى قط تلك اللحظات المريعة التي قرر فيها ان يختار . أما دانيال فعليه ان يكون شخصا منطويا . بل عليه ان يذهب الى الحرب . وفي حرب السويس تكون المفاجأة . هي انه جندي مظلات ماهر ، ولكنه بعد أن ينجح في الهبوط خلف القوات المصرية ، يصدم حين ينفجر الجسد . ويصبح صديقه يورام عاجزا .

انه نفس العالم الذي رأيناه في «طوبى للخائفين» .. فقد اصبح يورام مثل جدعون شخصا محطما مثلما حدث ليورام .مع اختلاف بسيط ان دانيال يحس انه السبب في انفجار الجسد واصابة صديقه . ولذا فالحرب هنا ، تؤدي الى الدمار وتدمير النفس البشرية ..

والرواية تنتمي بدورها الى النوع النهري . فهناك علاقات متعددة تربط بين دانيال والعالم من حوله وهذه العلاقات تتدفق كالنهر .. هي أحيانا عالية ، واخرى خابية .. فدانيال بعد ان يصدم في اصابة صديقه يورام ومايكاد يشفى من هذه الصدمة ، حتى يصدم في اصابة ابيه القادم من بولندا ، بمرض السرطان .. ثم يكتشف وهو واقف على مقبرة الاب ان عليه ان يرتل بعض التراتيل .

وهذه الرواية ، كما كتب رشاد الشامي في مجلة الهلال في سبتمبر ١٩٦٩ دعوة للمهاجرين اليهود « لادراك ان يهوديا من نوع جديد قد خلق في اسرائيل بكل صفاته السلبية والايجابية ، فإن محاولات خلق هذه الشخصية الجديدة في المجتمع الاسرائيلي لن تنجح ، لأن هذا المجتمع يعاني من التحلل الروحي . انه مجتمع بلا ماض . وبلا تقاليد . وبلا مثل . مجتمع قام على اسس عنصرية اعتمدت على منطق لا يستقيم على العدل والانسانية » .

● زوجة دايان .. تبكي ●

كتبت يائيل دايان روايتها « اذا كان للموت ابنان » في عام ١٩٦٨ . أي عقب عدوان يونيه مباشرة وقد نشرتها كالعادة باللغة الانجليزية .. وكان من المنتظر منها ان تكتب رواية جديدة عقب هذه الاحداث التي هزت اسرائيل في اكتوبر عام ١٩٧٣ .. والغريب أن يائيل كانت قد توقفت طويلا عن الابداع بعد ، هذه الرواية ، وفي عام ١٩٧٨ جاءت روايتها الخامسة تحت عنوان « ثلاثة اسابيع في اكتوبر » بعد عشر سنوات كاملة من الصمت .

في تلك السنوات بدت يائيل وكأنها تود

أن تعيش فى استراحة المحارب .. ولا تخرج من عزلة فرضتها على نفسها ، بعد أن انسحب ابوها موشيه دايان من الحياة السياسية والعسكرية ، ان تقاعد زوجها الجنرال العسكرى دوف صهيون .. واذا كانت يائيل قد تأثرت بمنطق الاب والزوج فى ان القـوة تسـود وان الذى لا يخاف لا يحب ، فإن منطق الحرب قد جعل روايتها « ثلاثة اسابيع فى اكتوبر » تدور فى مستشفى عسكرى ، وهو مكان مغلق ، يئن ساكنوه دائما من الالم الجسدى والمعاناة النفسية .. وكأن هذا هو حال الوطن العبرى فى تلك السنوات ..

ويمكن ان نقول ان أحداث هذه الرواية بمثابة رؤية مقاربة لرواية « وداعا للسلاح » لارنست هيمنجواى .. فآماليا بطلة رواية يائيل دايان ، تختلف كثيرا عن كاترين بطلة هيمنجواى ، رغم انهما ممرضتان ، فهذه الاسرائيلية تعمل جندية احتياط ، وذلك بحكم نظام التجنيد الاسرائيلى ، هى امرأة متزوجة ، انضم زوجها ايضا الى الجيش ، وترك لها طفلين كى تتولى تربيتهما ، وبدلا من رعاية الصغيرين عليها ان تبقى فى المستشفى وسط مصابى الحرب ، خاصة « نداف » الجندى الذى يكتشف ان المعارك قد شوهت وجهه للأبد .

وتعيش آماليا فى صدمـات متوالية خاصـة حين تكتشف أن زوجهـا من بين الجرحى الذين جاءوا أخيرا الى المستشفى وتعرف منه أنه كان يعمل فى مجال الاستخبارات العسكرية ، وانه اصيب اصابة بالغة فى الحرب .. تقف آماليا كى تتأمل المصابين ومن بينهم زوجهـا .. وتدرك مثلما حدث لأغلب ابطال الكاتبة ، ان المكسب قد يقاس بالمسافات المترية ، أما الخسارة فلا تقدر لأنها بالارواح .

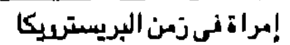
وتدرك آماليا ان ثمن الحرب شئ بشع، هذا الثمن يتمثل في فقدان الآباء والازواج فتصبح الاسرة بلا عائل تفتقد الى الدفء..

ولعل هناك تشابها بين بطلة الرواية وبين الكاتبة يائيل فى هذه الرواية ، فهى متزوجة من جنرال عسكرى ، كما ان لها طفلين هجرت من اجلهما الكتابة ، كما تحدثت الى مجلة « ال » فى عام ١٩٧٩ ، وقد عاشت تجربة مقاربة اثناء اكتوبر ١٩٧٣ ، وتقول فى الحديث المشار اليه : نحن نعيش فى بلد يجب ان يعتاد على الحياة العادية ، والا يعيش فى لهاث دائم ، وعليه ان يترك حالة التعجل ، فابنى يحب موسيقى الديسكو التى لا اميل اليها رغم اننى احب ما يحبه ، فلدينا يقرأ الاطفال الذين هم فى سن العاشرة الصحف ، وهم مشغوفون بالاحداث الجارية ، أما عن اسرتى .. فإن امى تحب كل ما افعله وتبكى وهى تقرأ كتبى .. وقد اهتم أبى كثيرا بموضوع روايتى الاخيرة ، وقال : من الصعب ان نعود الى الحياة العادية الا بعد سنوات طويلة ، أما بالنسبة لزوجى فهو كثير النقد ولا أميل ان اقدم له ما أكتب ولكنه مفيد للغاية حين استشيره فيما يتعلق بالمشاهد التى تتعلق بالحرب ..»



فلادمير نابوكوف





إمرأة فى زمن البريسترويكا

زمن تحطيم الأصنام القديمة

الجنس والبريسترويكا

بقلم : د . رمسيس عوض

لكل نظام سياسى كتابه الذين يفرزهم . سواء وقفوا معه أو وقفوا ضده .. وقبل زمن البريسترويكا كان هناك الأدباء المنشقون الذين هاجر أكثرهم خارج الاتحاد السوفييتى كى يناهض الشمولية . لكن فى زمن البريسترويكا ظهر أدباء آخرون منهم اندريه بيرتوف ، وقد سعى هؤلاء الأدباء إلى التعامل مع الاشياء بمعدلات جديدة .. فكسر الكثير منهم المحرمات التى كانت سائدة فيما قبل ومنها نقد السياسة والجنس ..

وفى هذا المقال رؤية لكاتب من أوائل الذين حطموا حاجز هذه المحرمات إنه ابروفييف .

أحب قبل أن أتناول الرواية الروسية في فترة الثمانينات وبالذات في عهد ميخائيل جورباتشوف أن أبدأ برواية فكتور ابروفييف «الجمال الروسى» التى انتهى من كتابتها عام ١٩٨٠ ولكنه لم يتمكن من نشرها فى لغتها الروسية إلا فى عام ١٩٨٩ . ويرجع السبب فى هذا إلى أن هذه الرواية - كما أسلفت - مؤشر بالغ الدلالة على التغير الهائل الذى طرأ على الأدب السوفييتى قبل انهيار الاتحاد السوفييتى وإلى أنها ثمرة من ثمار البريسترويكا .

بدأ ابروفييف حياته الأدبية ناقدا قبل أن يتحول إلى التأليف الروائى واستطاع مثل شخصية ايرينا بطلة روايته «الجمال الروسى» أن يتغلغل فى جميع طبقات المجتمع السوفييتى من قمته إلى سفحه رغم علو شأوه من الناحية الاجتماعية فهو ينحدر من عائلة بورجوازية تؤمن بالشيوعية كانت موضع ثقة النظام الستالينى الذى عين والده سفيرا للاتحاد السوفييتى فى باريس . وهكذا شب ابروفييف وترعرع فى أحضان الطبقة الراقية وفى مجتمع غربى صرف ، وكان عضواً فى اتحاد الكتاب السوفييت . ولكن الاتحاد قام بطرده مرتين لمروقه«الأمر الذى أتاح له فرصة مخالطة المنشقين والتعرف على كل شرائح المجتمع .

إن الأدب الروسى حتى فى فترة ما قبل الثورة البلشفية يفوق الكثير من الآداب العالمية فى وصف العواطف المتأججة ومشاعر الحب الملتهبة والعارمة . ولكنه دائما أبدا يتحاشى الخوض فى أمور الجنس ويتحرج فى معالجتها . وحين جاء النظام الشيوعى أظهر قدرا أكبر من العشق والتزمت . واعتبر الكلام فى الغرام والهيام ضربا من الفردية الممجوجة والخروج على المجتمع والنظام العام . وليس أدل على بيوريتانية هذا النظام وتزمته فى شئون الجنس من أن القانون السوفييتى يجرم الشذوذ الجنسى بين الرجال . ناهيك عن السحاق بين النساء الذى استبعده المشرع السوفييتى تماما من تفكيره لدرجة أنه اسقطه تماما من حسابه وأغفل الإشارة إليه فى مواد القانون . ولكن البريسترويكا فتحت باب الإباحية الجنسية على مصراعيه . ومن ثم نرى أن أحداث رواية ابروفييف تتناول الجنس بصراحة لا عهد للروسى بها . ويقول المؤلف فى هذا الشأن إنه تأثر بأدب المهاجر الروسى الأصل الأمريكى الجنسية الكاتب المعروف فلاديمير نابوكوف أكثر من تأثره بأى كاتب آخر .

إدمان الجنس

تدور رواية «الجمال الروسى» حول فتاة تدمن الجنس وتستغرق فيه اسمها إيرينا

تسجل حياتها الجنسية على شكل يوميات يتضح منها أنها تضاجع طوب الأرض فى أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ومن الشيوعيين إلى المنشقين على الشيوعية وفى قمة الهرم الاجتماعى إلى سفحه . ورغم مضاجعتها للرجال على اختلاف ألوانهم ومذاهبهم فإن عشقها الحقيقى ينصرف إلى بنت من صديقاتها اسمها كسيوشا . والغريب أن المؤلف يجد شيئا من العذر لوجود مثل هذه العلاقة السحاقية بين إيرينا وصديقتها . فهو يقول إن أفضل النساء ينصرفن عن معاشرة الرجال لأن صحبتهم غبية ومملة وخاصة صحبة أعضاء الحزب الشيوعى الذين لا يكفون عن الحديث فى السياسة والأيدولوجيا . فضلا عن افتقاده أن الروس يفتقدون إلى الأداء الجنسى القوى بسبب سكرهم البين واستغراقهم الكامل فى الشراب . ولهذا يرى ابروفييف أن السحاق فى روسيا ليس اكلينيكياً أو مرضيا ولكنه يرجع إلى أسباب اجتماعية . وأثار ابروفييف حنق كثير من الروس عليه أكثر وأكثر عندما هاجم المنشقين بعنف وضراوة وصورهم على أنهم جماعة من المغرورين الذين يتقنون ألاعيب السياسة وحيلها . ورغم أن الجيل القديم يحمل لأدبه الموجدة ويعتبره مفعما بالسادية والشذوذ والإباحية الجنسية فإن بعض الروس يعتبرونه أدبا صليبياً . فضلا عن أن قلوب العذارى تعلقت به أشد التعلق لدرجة أنهن دأبن على الكتابة إليه يلتمسن لديه النصح والإرشاد فيما يواجهن من مشاكل جنسية، الأمر الذى وفر له مؤخرا الشهرة العريضة الواسعة التى ازدادت بسبب قيامه بتقديم برنامج تليفزيونى بإنتظام. يقول ابروفييف إنه يسعى فى أدبه إلى التخفف من أثقال السياسة والأيدولوجيا وإن الدين لابد أن يكون أحد عناصر الأدب لأنه لايتصور مطلقا أنه يمكن للأديب أن ينكر وجود الله أو ينكر الأديان . فضلا عن أن مؤلفنا فى إنتاجه الأدبى يكثر من الإشارة إلى أدباء ما قبل الثورة أمثال تولستوى ودستيوفسكى وبوشكين . وهو يحاول أن يضع نفسه فى مكان المرأة عندما يصف مشاعرها الجنسية ، وهو أمر غير مألوف بالمرة فى الأدب الروسى القديم والجديد . والذى لاشك فيه أنه ابروفييف الذى ظهر فى أعقاب البريسترويكا سوف يكون بداية لتحطيم الأصنام القديمة تحطيما كاملا والسير بخطى حثيثة نحو حرية الأديب فى التعبير عن نفسه دون خوف من الرقابة . وقد غمر الكثيرين الإحساس باليأس والتشاؤم مما اعتبروه احتضارا للأدب السوفييتى ولهذا تحمسوا لابروفييف الذى يبعث الحياة فيه . والجدير بالذكر فى هذا الصدد أنه أصبح من المألوف فى آخر

أيام جورباتشوف فى الفترة بين عامى ١٩٩٠ و١٩٩١ أن يتحدث المثقفون الروس على اختلاف مللهم ونحلهم السياسية عن موت الأدب السوفييتى .. وهى نغمة قديمة على أية حال ترجع جذورها إلى الستينيات من القرن العشرين وفيها أعلن يورى بونداريف عندما انتخب رئيسا للاتحاد الفيدرالى للكتاب الروس أن الأدب الروسى المعاصر وصل إلى حالة من السوء أطلق عليها اسم الشر العقلى ، وكذلك ذهب فكتور ابروفييف فى عهد جورباتشوف فى مقاله المشهور «تغطية الأدب السوفييتى» إلى أن الجلاسنوست (المصارحة) لم تغفل الرواية الواقعية الاشتراكية فحسب بل قتلت الأدب الليبرالى المنشق أيضا . حتى صفوة الدارسين للأدب الروسى فى الغرب تنبهوا إلى المحنة التى يمر بها الأدب فى فترة الجلاسنوست : فقد شكا هؤلاء الدارسون من امتلائه بالبيانات التاريخية غير المهضومة هضما جيدا وأحيانا بالمساجلات العقائدية والأيدولوجية. ولكن نفرا محدودا للغاية من الأدباء حاول تصحيح هذا العطب عن طريق خلق الأدب البديل الذى سبق أن أشرنا إليه والذى قلنا إن فكتور ابروفييف رأى فيه بذور النهضة الثقافية الروسية . ولجأت البراعم المؤمنة بالأدب البديل والداعية إليه إلى إنشاء مجلة أدبية جديدة فى لننجراد باسم فستنيك نوفوى ليتيراتورى عام ١٩٩٠ كان الأديب ميخائيل بيرج (الذى درج على نشر رواياته تحت اسم فى . إرسكين المستعار) رئيسا لتحريرها. وكان جوزيف برودوسكى (الذى حصل فيما بعد على جائزة نوبل للأدب) واحدا من أعلام الدعوة إلى أحياء الأدب الروسى وتجديد شبابه فى فترة الستينات . ورأى الأدباء الشبان أنه يمكنهم الاستمرار فى حمل مشعل الأدب متقدا عن طريق الابقاء على صلات الود التى تربطهم بالأدباء القدامى المغضوب عليهم أمثال أنا أخماتوفا ، ورفض بيرج مهادنة السلطة رفضا باتا على عكس ما فعله بعض الكتاب الليبراليين الآخرين المعروفين أمثال بيكوف واسكندر وجرانين فضلا عن مواكبته الأدب الطليعى فى الغرب مثل أدب صامويل بيكيت وناتالى ساروت . وأهم ما يميز هذا الأدب البديل رفضه رفضا قاطعا للطابع الاجتماعى والسياسى الذى يتسم به الأدب السوفييتى سواء كان هذا الأدب مؤيدا للنظام أو منشقا عليه . فلا غرو إذا رأينا بيرج يقول إنه يدعو فى أدبه إلى خلق الجمال والاستمتاع به . فضلا عن خلق الموسيقى والقيم الروحية والاستمتاع بهما . ويمكن اعتبار السعى إلى خلق «بطل غنائى جديد» من أهم ملامح هذا الأدب البديل مثلما فعل أيفجينى بوبوف وساشا

سوكولوف وابروفييف . ويعزو بيرج صعوبة فهم واستيعاب هذا الأدب البديل إلى احتفاله بالتجريب والقيم الجمالية وإنصرافه عن معالجة المضامين الاجتماعية والسياسية التى انصرف ابروفييف عنها فى «الجمال الروسى» .

الرقابة والحرية

وقد خلق إطلاق الحريات فى عهد جورباتشوف لبيرج وأترابه من الكتاب المنشقين مشكلة غريبة الشأن ومن نوع جديد فقد اعترف بيرج بعجزه عن التوائم مع بزوغ فجر الحرية الجديدة ، وهو الأمر الذى ينطوى على المفارقة . يقول بيرج فى هذا الشأن إن الرقابة الصارمة قد تكون فى صالح الأدباء والفنانين أكثر من الحرية والإباحة على شريطة ألا تنجح هذه الرقابة فى تحطيمهم وكسر أقلامهم . فهم بكل بساطة يستطيعون ممارسة الخلق الفنى والإبداع الأدبى سرا وتحت الأرض بعيدا عن عيون السلطة مثلما فعل كل كتاب الساميزدات . وعبر كتاب آخرون عن أفكار ومشاعر مماثلة . ولا غرو فقد مادت الأرض من تحت أقدام الأدباء وأصبحوا فى حالة انعدام وزن لا يعرفون أى طريق يسلكون . وقد تعرض هذا الأدب البديل لهجوم فكتور توبوروف عليه فوصفه بأنه أدب الصفوة وأنه هامشى وليست له أهمية تذكر ، الأمر الذى حفز بيرج للرد عليه واتهامه وأقرانه بمهادنة السلطة والتصالح معها والسكوت على ما تعرضت له جماعة الأدب البديل من خسف واضطهاد . وأنحى دعاة الأدب البديل باللائمة على الليبراليين الذين تصالحوا مع النظام الشيوعى من ناحية وعلى المهاجرين الذين غادروا البلاد فى عهد ليونيد بريجنيف (والذين يعرفون بموجة المهاجرين الثالثة) من ناحية أخرى . وسوف نتناول الأدباء السوفييت الذين هاجروا إلى الغرب فى عهد بريجنيف بشىء من التفصيل نظرا لأهميته للكثيرين منهم وتعاظم حجمهم . ورغم شدة تأثر كتاب الأدب البديل بالأدب الغربى واستيعابهم له فإنهم يعيبون على الغرب النظر إلى الأدب باعتباره صناعة وتجارة أو مجرد ديكور للزخرفة والزينة . فالروس على اختلاف مشاربهم يأخذون الأدب مأخذ الجد ويعتبرونه مسألة حياة أو موت ويتأثرون به بالغ التأثر . ومن ثم خوف السلطة منه وتشككها فيه والعمل على تجنيد الأدباء ليدافعوا عن النظام السوفييتى أو التنكيل بهم إذا ما عن لهم انتقاده . ومن السابق لأوانه أن نتكهن بمدى الأثر الذى سوف تتركه هذه الجماعة الأدبية الوليدة فى الحياة الثقافية الروسية . ولكن من المؤكد أن الساحة الروسية الثقافية والأدبية والفنية بعد انقلاب أغسطس الفاشل عام ١٩٩١ سوف تشاهد تعددا فى وجهات النظر واختلافا فى أنواع الأدب وأجناسه .



د . رشدى سعيد ونهر النيل

مستقبل يخلو من الأوهام

بقلم : مصطفى الحسينى

هذا كتاب يزيل الوهم، ويعترف للتاريخ المصرى بنصابه الصحيح، ويدفع بهذا النصاب الى مركز الوعى.

وقد يكون هذا غريبا أن يقال عن كتاب عنوانه « نهر النيل ـ نشأته واستخدام مياهه فى الماضى والمستقبل» . لمؤلفه ... الاستاذ الدكتور رشدى سعيد .

وربما يعرف بعض القارئين أن رشدى سعيد أحد علماء الچيولوچيا المرموقين، ليس فى مصر وحدها، انما فى العالم . فكتابه عن « چيولوچيا مصر » هو المرجع بـ « أل » التعريف فى موضوعه، ولايكاد يخلو مرجع فى هذا الموضوع، أو فى ثروات مصر الطبيعية يخلو من إسناد اليه. لكن هذا الكتاب عن نهر النيل هو عمل العالم، لا مجرد الاستاذ المرجع فى الچيولوچيا المصرية، فالعالم هو الذى يتفوق على تخصصه ويتخطاه، ليضع معرفته العلمية، والمتخصصة فى سياقها الشامل والصحيح والطبيعى أيضا، فى سياق التاريخ الكلى، أى تاريخ الحضارة والمعرفة والثقافة والسياسة، وفى سياق الجغرافيا والتاريخ الطبيعى ونشأة العلوم. وربما لا يقلل البحث المتخصص من قيمة العلم ، إنما الذى يصل العلم بحياة الناس ومشاكلها ويمنحهم مؤشرات إلى مستقبلهم وكيف يعالجونه، هو وضع العلم المتخصص فى سياقه على نحو ما نقرأ فى هذا الكتاب.

وقد يلفت النظر فى عنوان الكتاب أنه يتناول استخدام مياه النيل فى « الماضى والمستقبل » أى أنه لايذكر الحاضر، على أن ذكر الحاضر ـ فى حقيقة الأمر ـ لا يعنى إسقاطه أو التجاوز عنه، إنما الحاضر هو المختزن فى الماضى الكامن فى المستقبل ، فليس « الحاضر » سوى حيلة حسابية لقياس الزمن ، انما لا وجود له فى الحياة.

إزالة الوهم

ويبدو أنه لا شىء يعلم الناس هذه الحقيقة فى حساب الزمن أو تصنيفه أكثر من علم الچيولوچيا ، ورغم أن الزمن لدى هذا العلم لا يحسب بالسنين ولا بالقرون ، إنما بعشرات الآلاف من السنين ، أو ربما لهذا السبب يعرف الچيولوچيون بالذات هذه الحيلة عن الزمن، وليس أولى بها من هذا العالم الذى يقول عنه علماء المصريات القديمة أن اكتشافاته الچيولوچية فى الستينات صححت معرفتهم بحساب الزمن فى التاريخ المصرى القديم .

أما الوهم الذى يزيله هذا الكتاب فمتعدد الأوجه ، إنما تدور هذه الأوجه جميعا حول مياه النيل . فالمصريون يتميزون أو هم مصابون ـ باعتقاد شائع بأن الماء وفير وفرة الهواء ، وانه ليس عليهم أن « يحملوا له هما » فما دام النيل يجرى





د. رشدي سعيد

فلديهم ماء بلا حدود . لكن الكتاب يقول لهم - لنا - إن جريان النهر وفيض مياهه محكوم بعوامل ليست تحت سيطرتهم وبعضها ليس تحت سيطرة الانسان، وتتصل بتغيرات مناخ الكرة الارضية وغير ذلك من فعل الطبيعة الخارج عن تناول السيطرة البشرية ، وأن منابعه تقع في أراض غير أراضيهم، وأنه مهما بلغت القدرة على التحكم في منابع النهر وروافده ومجاريه، فإن ما يحمله من الماء لن يكفي لتلبية احتياجاتهم واحتياجات غيرهم من شعوب تعيش في حوضه ؛ وأن عليهم أن ينظروا الى مستقبلهم من هذا المنظور.

ويقول الكتاب للمصريين أيضا، أن ما يعتبرونه « حقا لهم » في مياه النيل ، ليس مما لاينازع فيه منازع، فإذا كانت شعوب عديدة تعيش في حوض النهر، تعتمد - حتى الآن - في الزراعة على المطر، فان هذا قابل للتغير ، بل هو يتغير بالفعل دون أن نشعر، انما يجب أن ندرك . فزحف «التصحر» على أجزاء من أراضي الحوض يدفع بالناس الذين يعيشون عليها باتجاه النهر ، ليأخذوا منه احتياجات حياتهم ، وكما أن أعدادنا تتزايد وتتزايد معها حاجتنا الى الماء فإنهم أعدادهم واحتياجاتهم أيضا تتزايد ، وكما ينزح عندنا الناس من الريف الى المدينة، فهنالك أيضا ينزحون ، وليست حقوقهم في مياه النيل بأضعف سند من حقوقنا ، وإذا كانت قدراتهم الحالية على التحكم في المياه - أي احتجازها لاستخدامهم - مازالت محدودة بفعل عوامل التخلف التكنولوجي وضعف القدرة الاقتصادية والحروب الأهلية والمشاحنات القبلية، فإن هذا حال لا يدوم ، وليس أقوى من الاحتياج الى المياه حافزا للتغيير.

السد العالي .. ضرورة

وفي وجه آخر يقول الكتاب للمصريين إن من حقهم على أنفسهم أن يحذروا التشكك في منجزاتهم فضلا عن الاستخفاف بها فقد كان بناء السد العالي في اسوان ضرورة بعيدة النظر، فلولاه لأصاب مصر نصيبها من الجفاف والمجاعة اللذين ضربا بلدان منبع النيل وروافده في الثمانينات القريبة.

وإذا كانت ازالة الأوهام تتصل بالماضي وبما هو شائع فهي - بالطبع - لا تحيط بما أراده رشدي سعيد بالكتاب، بل

ربما هى التمهيد لما أراده ، وهو ما يتصل بالمستقبل .

ومن هنا نقرأ عرضا واضحا للتاريخ السياسى لنهرالنيل ، نرى بعض اشاراته فى العصور الفرعونية ونرى كيف انشغلت به الدولة فى تغيرها وتقلبها على مدى القرون. أما فى العصر الحديث فنرى بدايات ادراك الدولة المصرية الحديثة لما يمكن تسميته البعد الافريقى لمصير مصر

ففى منتصف القرن الماضى دفعت الحكومة المصرية بحملات عسكرية وصلت الى حدود نهر الكونغو غربا وساحل البحر الأحمر الجنوبى والقرن الأفريقى شرقا. ولم يكن هدف هذه الحملات هو التوسع ، انما كان ضمانا أن لاتقع منابع النيل وروافده تحت سيطرة قوى معادية لمصر ، اى تامين وصول المياه الى البلاد .

ولقد شهد منتصف القرن الماضى بداية الاستعمار الأوروبى للقارة الافريقية ، وكان هذا هو الذى دفع بالدولة المصرية الى ارسال قواتها جنوبا حتى تؤمن للبلاد مياهها أمام هذه الموجة التوسعية الأوروبية . وقد لا يوضح مدى اتساع هذه الأطماع الأوروبية وتشابكها حدث أكثر مما يوضحه المؤتمر الذى عقد فى برلين فى ١٨٨٤ . لاتكاد توجد دولة يعتد بها فى ذلك الحين لم تشارك فى المؤتمر : بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية والمانيا والنمسا وبلجيكا والدنمرك واسبانيا وايطاليا وهولندا والبرتغال وروسيا والسويد والنرويج وتركيا.

الاتفاقيات الخاصة بمياه النيل

وفى هذا المؤتمر اتفقت تلك الدول على حدود متبادلة لأطماعها الافريقية ، وفى تلك القسمة لم يقع حوض النيل باكمله تحت سيطرة واحدة ، بل توزع مابين اثيوبيا التى نجت باستقلالها من هذا الصراع والتواطؤ الاستعمارى ، وبين بريطانيا وايطاليا وبلجيكا وفرنسا.

ولما كان هذا المؤتمر قد عقد بعد سنتين من دخول بريطانيا الى مصر محتلة، فقد كان الأمر الواقع هو أنها ورثت الفتوحات المصرية فى منابع النيل، وأصبحت لها اليد العليا فى السيطرة على القسم الأكبر منها، وشهدت الفترة التى تلت مؤتمر برلين سلسلة من الاتفاقيات كانت بريطانيا طرفا مشتركا فيها ، فعقدت اتفاقيات مع ايطاليا والحبشة وفرنسا وبلجيكا ، تتعلق كلها بتنظيم مياه الانهار النابعة من الكونغو ومن الحبشة وتقضى كلها بالتزام الدول الأخرى بعدم اقامة منشآت على روافد نهر النيل يكون من شأنها التأثير فى تدفق المياه اليه.

وكانت لبريطانيا مصلحة واضحة فيها. هى التوسع فى زراعة القطن فى السودان ومصر لتوفيره لمصانعها.

وتكاد هذه الاتفاقيات تكون هى كل ما ينظم مياه النيل ، ومازالت قائمة وملزمة ، وتعترف بها منظمة الوحدة الافريقية فى نطاق ما استقرت عليه من الاعتراف بالحدود التى رسمها الاستعمار لدول القارة حتى لاتنفجر بينها منازعات حدود تستنزف طاقاتها.

ولا يتضمن أى من هذه الاتفاقيات قواعد لاقتسام مياه النهر فلم تكن هناك ثمة حاجة الى ذلك ، فالزراعة فى دول الحوض الجنوبية تعتمد على المطر، ولذلك اقتصرت اتفاقيات تقسيم المياه على مصر والسودان حيث توجد الزراعة القائمة على الرى.

التعاون من أجل الصالح العام

لكن وجود هذه الاتفاقيات والقول بانها ملزمة واعتراف المنظمة الافريقية بها ، لايغنى عن إدراك المتغيرات والتطورات ، خصوصا وأن اثيوبيا مثلا ومنذ وقت طويل تنازع فى المعاهدة التى عقدت بينها وبين بريطانيا فى ١٩٠٢ ، وتقضى المعاهدة بان تتعهد اثيوبيا بعدم عمل أى شىء على النيل الأزرق أو بحيرة تانا أو نهر السوباط يمكن أن يسبب اعتراض سريان مياهها الى النيل ، دون موافقة مسبقة من حكومة بريطانيا وحكومة السودان .

كما أن محاولات الحكومات المصرية لايجاد قواعد للتعاون بين البلدين بشأن مياه النيل تنتهى دائما بالفشل.

وقد أبلغت دول المنبع كلا من مصر والسودان رفضها لتلك الاتفاقيات السابقة على استقلالها ، وأعلنت تنجانيقا (التى أصبحت تنزانيا) مصر والسودان رفضها لتلك الاتفاقيات فوراستقلالها فى ١٩٦٢ .

كما ان اثيوبيا اعترضت على انشاء السد العالى لأن بناءه تقرر دون تشاور معها ، ووجهت الى مصر فى ١٩٧٦ مذكرة تسجل اعتراضها على تحويل أى جزء من مياه النيل الى خارج حوضه .

ولعل لهذا الموقف الاثيوبى بعض الحسنات، فعندما أعلن الرئيس السابق انور السادات عن نية تحويل جزء من مياه النيل الى اسرائيل اعترضت أثيوبيا .

يوضح هذا العرض أن المسألة ليست الاتفاقيات ولا الاقرار بشرعيتها ، انما هى مدى الثبات والتغير فى الأوضاع التى تجعل هذه الاتفاقيات قابلة للاحترام .

والوضع الذى مازال قائما ، والذى يجعل مصر هى المستفيد الأكبر من مياه النيل ، تليها السودان انما تستنده الأوزان النسبية لدول حوضه وثقلها النسبى اقتصاديا وعسكريا .

وما يحذر منه الكتاب فى هذا الشأن ، إنه مهما كان الاستقرار أو التغيير فى هذه الموازين النسبية فإن الضغوط الحياتية تؤدى الى تزايد الطلب على المياه: من تزايد السكان الى التوسع الزراعى الى تزايد الاعتماد على الرى، الى انتشار التمدن ، الى نمو الوعى الصحى.

هذا الأفق الذى يوضحه الكتاب يستدعى أن يكون من أهداف السياسة المصرية ومن مسئولياتها أن تتوصل فى وقت مبكر مع دول الحوض الى اتفاقية شاملة تتعلق بحياة النهر وتعالج مسائل المستقبل جميعا : أقصى استفادة من مياهه ، تنظيم تلك الاستفادة على نحو مشترك تنمية مشتركة للزراعة وغيرها من مجالات تعتمد على المياه .

أى أن هذا الأفق يوضح أن البعد الافريقى فى السياسة المصرية ، ومن داخله البعد المتعلق بدول حوض النيل ، يجب أن يحتل مكانا متقدما فى أى استراتيجية مصرية، إن كان لمثل هذه الاستراتيجية أن توجد .

***

البعد السياسى الاخر الذى يقودنا اليه الكتاب هو أن موارد النيل من المياه ، من المنبع الى المصب ، قياسا الى طول النهر واتساع حوضه موارد قليلة وانه مهما بذل من جهد واقيم من منشآت ، فأقصى مايمكن استخلاصه محدود . وحصة مصر من هذا الأقصى ستبقى محدودة ولن تزيد زيادة يعتد بها عما تحصل عليه حاليا ، أو على الأقل أن الموارد القصوى لا تسند الاعتقاد بأن الماء ليس مشكلة .

ومن شأن هذا أن يحفزنا الى التفكير فى حلول لمشاكل كل حياتنا ، خصوصا ما يعتمد منه على المياه يتخلى عن هذا الاعتقاد بالوفرة .

ومنذ عقود ونحن نسمع ونردد ، نسمع عن امكانيات المياه الجوفية، لكن الكتاب يحذرنا أيضا وعلى أسس علمية واضحة من المبالغة فى هذا الشأن .

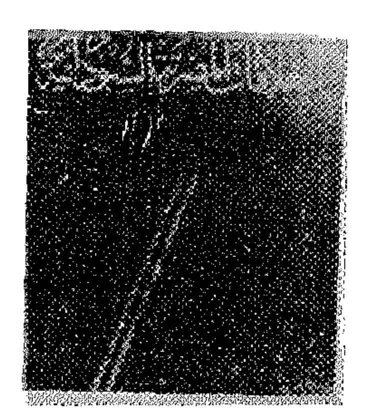
والى هذا التحذير يضيف كاتب هذا المقال تحذيرا آخر .

إن المبالغة فى تقدير امكانيات مصر المائية، علاوة على انها تعلق بعض آمالنا فى الرخاء على أوهام فانها فى خضم ماأصبح يعرف باسم « الصراع على المياه فى الشرق الأوسط » تقدم لإسرائيل سندا جاهزا، صادرا عنا للمطالبة بحصة من المياه المصرية .

***

هذه السطور ظلمت الكتاب ومؤلفه .

فهى لا تزيد عن بعض ما يخرج به القارىء العادى ، من كتاب بالغ الثراء .



العلاقات المصرية السودانية فى ظل الاتفاق الثنائى ١٨٩٩ - ١٩٢٤

تأليف : الدكتور عبد الفتاح عبد الصمد منصور

الهيئة المصرية العامة للكتاب

يتناول هذا الكتاب تاريخ العلاقات بين مصر والسودان فى أعقاب القضاء على الحكم المهدى فى السودان وتوقيع الاتفاق الثنائى بين مصر وبريطانيا فى ١٩ يناير ١٨٩٩ ، وتنتهى هذه الفترة باخراج الجيش المصرى والموظفين المصريين من السودان وانفراد بريطانيا به ، وذلك فى نهاية سنة ١٩٢٤ فى أعقاب مقتل السردار .

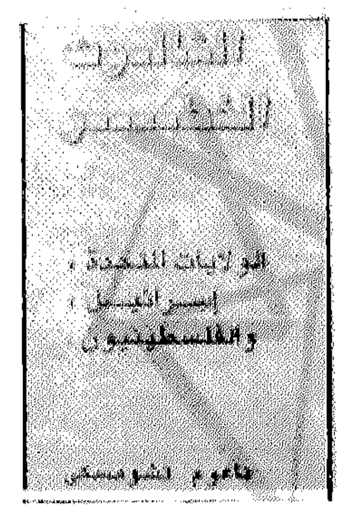
ولم تستطع بريطانيا أن تستغنى عن العنصر المصرى فى السودان ولا عن المعونة المالية المصرية للسودان فمصر كانت الدولة الوحيدة التى قبلت أن تقدم للسودان مساعدتها المالية لسد العجز السنوى فى ميزانيته فضلا عن قروض للتنمية أمدته بها لتطوير اقتصادياته ، فانتشلته مصر بذلك من خراب مالى مؤكد كان يتردى فيه بعد عهد المهدية ، لقد كانت الروابط الطبيعية بين مصر والسودان أقوى من كل ما بذلته بريطانيا لقطعها حتى أنه ما لبث الشعب السودانى أن هب فجأة - حين ظنت بريطانيا أنه بات يكره مصر - يطالب بوحدة وادى النيل ويبذل فى سبيلها دماء ابنائه سنة ١٩٢٤ .

لقد أقام المؤلف خمس سنوات فى السودان فى البحث المستمر فيما تضمه دار الوثائق المركزية بالخرطوم والوزارات والمديريات والاتصال بعدد من الشخصيات السودانية التى شاركت فى صنع الأحداث ، كما تمكن من جمع عدد من الوثائق ونشرت - لأول مرة - كملاحق للكتاب ، ونرى أن الكتاب كان فى الاصل رسالة دكتوراه وتناولت أبواب الكتاب الستة : عرض عام لتطور أحداث السودان السياسية والاقتصادية خلال القرن التاسع عشر

سنة ١٨٢٠ – ١٨٩٩ ، الاتفاق الثنائى سنة ١٨٩٩ ، تنظيم الحكومة فى السودان عقب توقيع الاتفاق الثنائى وأثره على تطوير السودان السياسى (١٨٩٩ – ١٩١٩) ، الترتيبات المالية فى السودان عقب الاتفاق الثنائى وأثرها على التطور الاقتصادى فى السودان اليقظة القومية فى ١٩١٩ – ١٩٢٤ ، حركة اللواء الأبيض بالسودان ومصير الاتفاق الثنائى ١٩٢٢ – ١٩٢٤ .

والكتاب يؤكد من خلال الوثائق الدور البريطانى فى فرض الهيمنة على السودان وتخريب العلاقة بين مصر والسودان





الثالوث الخطر : الولايات المتحدة ، إســـــرائـيل ، والفلسطينيون

تأليف : ناعوم تشومسكى

ترجمة : عبد الهادى عبله

مراجعة : ميسون على شعث

الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين فرع جمهورية مصر العربية .

يرى تشومسكى أن إسرائيل تتمتع منذ إنشائها بمكانة خاصة لدى معظم الدول الغربية ، ويركز على العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة الامريكية وإسرائيل وتأثير هذه العلاقة على مستقبل الشعب الفلسطينى ، ويرى أن الولايات المتحدة الأمريكية تكافح أى نزاعات تحررية فى المنطقة وما حولها وتؤمن بأن إسرائيل قوية وهى رصيد استراتيجى لأمريكا ويرى المؤلف أن اليهـــود الاســـرائيليين والعرب الفلسطينيين بشر لهم حقوق انسانية متساوية وأن لكل مجموعة الحق فى تقرير مصيرها، ويرى أن أى تسوية سياسية يجب أن تعترف بالحـــقوق القـــومية للفلسطينيين وأن تقوم على أساس وجود دولتين ذات حدود آمنة ومعترف بها ، وهو ليس معاديا لإسرائيل ولكنه معاد لسياستها تجاه الفلسطينيين .

والمؤلف يهودى أمريكى ، هاجر إلى إسرائيل وأقام فى تل أبيب لمدة عامين واكتشف كـــذب الادعـــاءات الصهيونية فتخلى عن

الجنسية الإسرائيلية وعاد إلى الولايات المتحدة الأمـــريكية ، ويعتبر تشومسكى أشهر عالم لغويات فى العصر الحاضر إلى جانب اهتمامه بالسياسة خاصة السياسة الأمريكية ، ومن مؤلفاته : مقالات معاصرة فى نظرية اللغة - أركان نظرية اللغة - اللغة والعقل - القوة الامريكية والمثقفـــون الجـــدد ، الاقتصـــاد السيـــاسى لحقوق الإنسان ، نحو حرب باردة جديدة ، الإرهاب الدولى ، وإعاقة الديمقراطية ، والكتابان الأخيران تمت ترجمتهما إلى اللغة العربية .

ذكريات عطرة وخواطر عابرة

تأليف : الدكتور عبد الحليم منتصر

دار المعارف

هى ذكريات عالم جليل منذ أن عمل معيدا بكلية العلوم عام ١٩٣٣ ، وحصل على الدكتوراه عام ١٩٣٨ وكان موضوع رسالته «التربة المصرية ونباتاتها - وبيئة بحيرة المنزلة» . ثم أصبح عميدا للكلية عام ١٩٥٤ حتى عام ١٩٦٠ ، وأصدر مجلة «رسالة العلم» منذ عام ١٩٣٤ حتى عام ١٩٧٥ وأسهم فى إنشاء الاتحاد العلمى المصرى ، والاتحاد العلمى العربى ، وكان عضوا بالأكاديمية المصرية للعلوم ، عضوا فى مجمع اللغة العربية ، وله عشرات البحوث العلمية فى علم البيئة النباتية - ٧٥ بحثاً - ومن كتبه : التربة المصرية ونباتاتها - صحارى مصر - الوراثة والجنس - حرب الخامات - العلم فى حياة الإنسان - تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه ، ذكرياته فى الجامعة ومجمع اللغة العربية ومن تتلمذ عليهم فى المعارف العامة والمثل العليا والخلق الفاضل والأدب الجم من أمثال : لطفى السيد - حسين هيكل - طه حسين - العقاد - أحمد أمين - أحمد حسن الزيات - على مشرفه - مصطفى نظيف - محمد كامل حسين - أحمد زكى - ويقول عنهم إنهم العشرة الكرام .

ومن ذكرياته يقول : سألتنى مجلة الهلال الغراء أن أكتب فى موضوع القنبلة الذرية وكتبت مقالا ، قلت فيه ، فلنصنعها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً فينبغى أن يتسلح العاقل بأحدث ما أنتجه العلم من أسلحة فإن عدوى سيفكر مرات قبل أن يستعمل سلاحا لدى نظيره .



مؤلفات سليمان فياض

الأعمال القصصية - القسم الأول

الهيئة المصرية العامة للكتاب

يضم هذا القسم من مؤلفات الأديب الكبير سليمان فياض ، ثلاث مجموعات قصصية ، هى: عطشان يا صبايا - وبعدنا الطوفان - أحزان حزيران ، وقد نشرت هذه القصص بين عامى ١٩٥٦ ، ١٩٦٩ ، وتميزت بسلامة اللغة والتعبير ، وبساطة الموقف الذى يعبر عن معاناة الفرد ، وهموم الوطن والبحث عن العدل وقد شغل سليمان فى السنوات الأخيرة بالبحث والدراسة فى عالم اللغة ، ونشر عدة معاجم ، كان آخرها «معجم المأثورات اللغوية والتعابير الأدبية» .



التاريخ العاصف لعلم وراثة الإنسان

تأليف : دانيل ج . كيفلس

ترجمة : الدكتور أحمد مستجير

المكتبة الأكاديمية .

سأل الطبيب زميله : «أب مصاب بالزهرى وأم مصابه بالسل . أنجبا أربعة أطفال : الأول أعمى ، ومات الثاني ، وكان الثالث أصما أبكم ، أما الرابع فقد أصيب بالسل . والأم الآن حامل فبماذا تنصحها ... ؟ أجاب الزميل «لن أتردد فى أن أنصحها بالاجهاض .

رد الطبيب : ستكون فى هذه الحالة قد قتلت بتهوفن ... وإذا أردت أن تفهم هذه النصيحة ، تحتاج أن تعرف الكثير عن فرع التحسين الوراثى للإنسان ، وهو جزء من الهندسة الوراثية، تجد الإجابة فى كتاب «التاريخ العاصف لعلم وراثة الإنسان » .

يقول المؤلف ... «إن ما أتوقعه من هذا الكتاب هو أن يقدم العون فى تمييز الفوائد التى قد نتطلع إليها ، من المخاطر التى نخشاها» ونصل إلى طريقة للتفكير فى مستقبل علم وراثة الإنسان .

كهربـــاء ونبض القلـب

بقلم : د. محمد بهائي السكرى

استلقى المريض على أريكة الكشف في عيادة الطبيب وأخذ يجيل بالنظر فيما حوله وهو ممتقع اللون، على منضدة قريبة كان يقبع جهاز صغير تمتد منه أسلاك كثيرة متعددة الألوان منها الأحمر والأخضر والأصفر والبنى والأسود والبنفسجي. و بجواره وقف الطبيب في ردائه الأبيض يدير بعض الأزرار في الجهاز. ودنا الطبيب من المريض فلاحظ لونه الممتقع ونظرته الشاردة.

قال له الطبيب في عطف : «هل أنت خائف ؟ لا تخش شيئا».

قال المريض : « كل هذه الأسلاك والكهرباء؟»

قال الطبيب : « ياعزيزى أنك أنت الذى سيمد الجهاز بالكهرباء فتتحرك مؤشراته، وستنتقل منك النبضات إليه أما هو فإنه معزول عنك تماما ولا يسرى منه أى شىء إليك ! ».

أخذ المريض يفكر : ماهذا الجهاز العجيب وما الذى أتى بى إلى هنا غير آلام الصدر التى عانيت منها أثر القيام بمجهود فنصحنى الطبيب بعمل رسم قلب كهربائى ، ما هذا الرسم الكهربائى للقلب؟

وكأن الطبيب كان يقرأ أفكار مريضه فقال له : سأخبرك بحديث هذا الجهاز بعد الاطمئنان عليك ».

وبعد أن فرغ الطبيب من رسم القلب واطمأن على المريض، ووصف له العلاج طفق يحدثه عن كهرباء القلب .

منذ أكثر من قرن ونصف من الزمان اكتشف العلماء أن كل خلية حية في جسم الحيوان أو النبات أو الانسان تنتج شحنات كهربائية طالما كانت على قيد الحياة .

فالتفاعلات الكيمائية المختلفة التى تحدث داخل الخلايا تنتج طاقة وتوزع شحنات كهربائية موجبة على السطح الخارجى لجدران الخلايا وشحنات سالبة على سطحها الداخلى ، وينتج فرق جهد كهربائى بين السطحين يمكن قياسه وتسجيله عن طريق الأجهزة الدقيقة . ومن الغريب أن فرق الجهد هذا يحدد مدى استثارة الخلية أى قدرتها على الاستجابة للمؤثرات المختلفة ، كما أنه يتماوج بالزيادة والنقصان أثناء قيام الخلية بالمهام المختلفة كما انه يتأثر إذا اعتلت الخلية أو

اعترى بعض وظائفها الخلل .

دراسة نشاط الخلايا

ومع تقدم التقنية الحديثة وتطور طرق القياس والتسجيل أمكن دراسة النشاط الكهربائي للخلايا على حدة ولأعضاء الجسم الهامة مثل القلب والمخ والعضلات .

وأصبحت هناك أنماط ثابتة معروفة للنشاط الكهربائي لأعضاء الجسم تلك فى حالات الصحة والمرض .

والقلب على سبيل المثال مكون من أربع غرف عضلية : الأذينين ، والبطينين .

وقبل كل انقباضة قلبية تحدث موجة تنشيط كهربائية تلقائية تنتشر من الأذين الأيمن إلى الأذين الأيسر . ويتبع موجة التنشيط هذه انقباض الأذنين معا فى وقت واحد فيدفعان بالدم الى البطينين .

ثم تنتشر موجة التنشيط من الأذينين إلى البطينين الأيمن والأيسر فينقبضان معا ويدفعان الدم إلى أنحاء الجسم : البطين الأيمن يدفع بالدم الى الرئتين لتنقيته وامداده بالأكسجين، و البطين الأيسر يدفع بالدم النقى لجميع أجهزة الجسم وأعضائه المختلفة .

وفى مطلع هذا القرن قام الطبيب الهولندى « اينتهوفن » Einthoven بتسجيل النشاط الكهربائى للقلب لأول مرة عن طريق التقاط الموجات الكهربائية التى يبعثها القلب وتنتشر فى سوائل الجسم حتى تصل الى سطح الجلد . فقام بتثبيت أسلاك خاصة عند الرسغين وأسفل الساقين تنتقل منها كهرباء القلب إلى جهاز رسام القلب الذى يقوم بتحويل هذه الموجات الكهربائية الى طاقة حركية تحرك ذراع مؤشر يرسم على ورقة مدرجة مثل تدريج أوراق الرسم البيانى تتحرك بسرعة ثابتة لتسجل تلك الموجات بدقة تتيح للطبيب التعرف على شكل كل موجة، واتجاهها ومدى ارتفاعها أو انخفاضها، والزمن الذى تستغرقه ويبين هذا الشكل التموجات الطبيعية لكهرباء القلب كما يسجلها رسام القلب الكهربائى فى حالات الصحة .

ويتضح فى ذلك الشكل موجات كهربائية تمثل انتشار موجة التنشيط على سطح الأذينين «P» ثم انتقالها وانتشارها على سطح البطينين « R » ثم عودة النشاط الكهربائى إلى حالة السكون «T» ، ويتكرر ذلك مع كل نبضة من نبضات القلب .

ومنذ اكتشاف «أينتهوفن» لطريقة تسجيل نشاط القلب الكهربائى بدأت دراسات مستفيضة لتطوير تقنية التسجيل ولمعرفة الأنماط المختلفة لنشاط القلب الكهربائى فى حالات الصحة والمرض .

موقع ممتاز

وفى نهاية هذا القرن أصبح لرسام القلب الكهربائى موقع ممتاز كأداة

تشخيص لأمراض القلب في الحالات التي يحدث فيها اختلال في ايقاع نبضات القلب، أو قصور في دورة شرايينه التاجية، أو إجهاد في القلب نتيجة لارتفاع ضغط الدم. وتبين أن رسم القلب يعين على اكتشاف تغير منسوب الأملاح الهامة في الدم مثل أملاح الصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم.

ويلجأ الطبيب إلى تسجيل النشاط الكهربائي المنبعث من أسطح القلب المختلفة من أجل تحديد مكان العلة. مثل ما يحدث عندما ينظر المرء إلى بناء هام ضخم من زوايا مختلفة حتى يتعرف عليه بشكل تفصيلي. من أجل ذلك يوصل الطبيب أثناء رسم القلب الكهربائي أسلاكا عديدة بسطح الجسم في مناطق مختلفة عند الرسغين وفي أسفل الساقين وعلى السطح الأمامي للصدر في مواجهة البطين الأيمن والأيسر والحاجز بينهما.

وكل ذلك يتيح التعرف بدقة على مصدر الخلل في النشاط الكهربائي للقلب إن كان هناك خلل.

ولا وجه للمقارنة بين رسام القلب الكهربائي والموجات فوق الصوتية في ميدان تشخيص أمراض القلب فلكل واحد منهما مجال مختلف تماما.

فرسام القلب الكهربائي يسجل التموجات الكهربائية التي تنبعث من الأذينين والبطينين أثناء انقباض القلب وبين الطريقة التي تنتشر بها تلك الموجات في عضلة القلب ولكنه لا يسجل قوة الانقباضات أو مداها الحركي، كما أنه لا يعطي مؤشرا دقيقا لسمك الجدران بالملليمترات.

بينما تسجيل الموجات فوق الصوتية حركة جدران القلب وتحدد سمكها على وجه الدقة كما تبين حركة الصمامات واتساع فتحاتها وحالة الأوعية الدموية المتصلة بالقلب.

فلكل من طريقتي التشخيص مجالاته واهتماماته.

وسيظل رسام القلب لسنوات طويلة مداها في علم الله سبحانه كوسيلة دقيقة لتشخيص اختلالات النبض، وعيوب انتشار موجة التنشيط في القلب، وقصور دورة الشرايين التاجية.

بينما تقتحم الموجات فوق الصوتية الآفاق كوسيلة هامة لإعطاء صورة مفصلة عن تشريح القلب ومدى حركته، يستشفها الانسان عن طريق رجع صدى تلك الموجات التي تخترق الجسم دون أن تراها العين أو تسمعها الأذن وتعطي بيانات كثيرة تغني الطبيب في كثير من الحالات عن تلصص النظر داخل صدر المريض أو تفقد حالة القلب بالأشعة والقساطر أي الأنابيب التي تنفذ إلى داخل تجاويف القلب عن طريق الأوردة والشرايين.

التكوين

رغم تفوقه



محمد سيد أحمد

كان والدى يزعجه كثيرا وقد بلغت سن العاشرة أننى لم أكن قادرا على التكلم باللغة العربية .. فلقد ربتنى « دادا » سكوتلاندية .. ولأن المظاهرات عمت المدارس عام ١٩٣٥ ، تقرر أن أذهب إلى مدرسة فرنسية ، هى «الليسيه فرانسيه» بباب اللوق .. وفى عام ١٩٣٨ ، عين والدى محافظا لبور سعيد .

ظلت معرفتي للغة العربية قاصرة!

فواصلت الدراسة بمدرسة « الليسيه » هناك . ولم يكن صدفة أن « الليسيه » كانت أفضل مدارس بورسعيد ، ذلك أن الجالية الفرنسية كانت تضم الكثير من كبار القوم ، بعضهم من بقايا الارستقراطية المنقرضة .. فان « شركة قناة السويس العالمية » وكان يديرها فرنسيون كان يتقاضى كبار العاملين بها مرتبات سخية .. وكان كبار موظفي الشركة يتمتعون بامتيازات كثيرة ، دون أن يطالبوا بعمل جاد ! .. ولذلك خصصت هذه الوظائف لعائلات تنحدر من البرجوازية الكبيرة الفرنسية وحتى من الارستقراطية القديمة السابقة على الثورة ..

وهكذا وجدت نفسى أجيد التحدث بالانجليزية والفرنسية .. ثم أخذت أنسى الانجليزية ، بسبب التحاقى بمدرسة فرنسية ، وبسبب أنها اللغة التى كانت تتقنها والدتى .. وأصبح هذا كله سببا لانزعاج والدى، لتخلفى الشديد فى تعلم لغة بلدى ! ..

وكان يزورنا فى بورسعيد شيخ يرتدى جلبابا أخضر أو أصفر أو بنفسجيا (!!) – « الشيخ رزق » على ما أذكر – ليحفظنا ، أنا وإخوتى ، بعض آيات القرآن .. وليباشر معنا قدرا من المطالعة باللغة العربية .. وكان الشيخ أكثر حرصا على التردد على سراى المحافظ منه حرصا على تعليمنا .. ولم نكن نستفيد من دروسه كثيرا .. وقد بدأت فى عمر الثانية عشرة اتطلع إلى تأليف كتب (!!) على غرار تلك التى كنت أقرأها .. وكان «لجول فيرن» كتاب شهير بعنوان « تجوال حول العالم فى ٨٠ يوما » . فقررت تأليف كتاب بعنوان « تجوال حول العالم فى ٦٠ يوما » !. ولم أكن أدرك أن « جول فيرن » كان قد ألف كتابه قبلى بقرن ، وأن التجوال حول العالم فى ٨٠ يوما وقتذاك كان معجزة ، ولم يعد ذلك شأن التجوال حوله فى ٦٠ يوما فى منتصف القرن العشرين !.. وكنت بوجه عام ، طالبا نجيبا . وكنت متفوقا باستمرار . وكان بعض التلاميذ يتصورون أن تفوقى مجاملة لوالدى المحافظ . ولكن ثبت لهم فيما بعد أن منصب والدى لم يكن له أى اعتبار فى هذا الصدد ..

مشكلتى مع اللغة العربية

وفى عام ١٩٤٢ ، عدنا إلى القاهرة وواصلت الدراسة « بالليسيه فرانسيه » بباب اللوق .. ولكن تقرر أن انتظم فى القسم العربى بالليسيه وهو القسم الذى كانت تجرى الدراسة فيه حسب برامج المدارس المصرية ، وكانت تفضى إلى ما يقابل الآن الثانوية العامة .. وقد ركزت جهودى على تعلم اللغة العربية . وقد نجحت بتفوق فى امتحان «التوجيهية» وأصبحت رابع القطر ، مع تقدمى فى العام ذاته لامتحان البكالوريا الفرنسية وحصولى على أعلى الدرجات .. ولكن ظلت معرفتى للغة العربية قاصرة .. وما زال كلامى باللغة العربية الدارجة تعيبه لكنة ، لأنى لم اتعلمه على صغر .

وأذكر أن هذه مشكلة عقدتنى .. وأذكر ذات يوم أن والدى كان قد دعا لمأدبة غداء الأستاذ محمود عزمى ، المفكر والكاتب وممثل مصر – فى وقت لاحق لهذا اللقاء – بالأمم المتحدة . وكانت زوجته الروسية معه .. كان ذلك قدر ما أذكر – قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية .. وربحت أصارحهما ، ولا أدرى لماذا ، بهمومى وشعورى بأننى غريب فى بلدى .. واننى أتقن اللغة الفرنسية ، بل إننى أنظم الشعر بالفرنسية، وأنا لا أكاد أعرف لغتى .. وأذكر أن السيدة زوجة الأستاذ محمود عزمى قد دعتنى بعد ذلك لحفل شاى عندها برفقة « نيفين » بنت رئيس الوزراء الأسبق حسين باشا سرى .. لتفتح معنا حديثا فيما تصورتُه هى مسائل نعلم عنها الكثير ، والحقيقة أننى لم أكن أعلم عنها ما تصورَتْ .. فلقد خرجت نيفين من الزيارة وكانت تتقن العزف على البيانو بكتاب عن تشايكوفسكى .. وخرجت أنا بكتاب عن لينين ! ..

توجهى نحو الماركسية

وكان الأمر بالنسبة لى – وقتذاك – غريبا ومثيرا . فكنت أسمع الكثير عن الاتحاد السوفييتى بسبب انجازاته فى الحرب العالمية الثانية ، وبالذات وقت معركة ستالينجراد .. وكانت هذه المعركة موضوع خناقات حادة فى العائلة .. كانت بنات عمتى وهن فى سن والدتى – بنات اسماعيل باشا صدقى – تدافعن بحرارة عن هتلر .. وكان والدى الذى كان يؤيد بريطانيا يغيظهن بالتهكم على هزائم قوات هتلر فى ستالينجراد .. ومع متابعتى لانجازات روسيا وقت الحرب ، ظل اسم لينين غامضا فى ذهنى .. وكان كتاب مدام عزمى أول تنبيه لى بمن هو .. والواقع أننى لم أتعلم اللغة

العربية إلا نتيجة توجهى فيما بعد نحو الماركسية ، وانغماسى فى الحركة السياسية .. عندئذ فقط ، وبفضل تعاملى مع فئات مختلفة من الشعب تعلمتها .

والغريب أن الذى وجهنى هذا التوجه الماركسى كان أستاذا فرنسيا .. كان علىّ أن أتلقى دروسا خصوصية كى استطيع دخول امتحان البكالوريا الفرنسية بينما كنت أتابع فى الفصل مقررات البكالوريا المصرية .. وكان لى أستاذ أتلقى منه هذه الدروس فى الأدب الفرنسى والفلسفة .. كان يدعى « رينيه جرانتيه » .. كان له الفضل فى إعدادى للبكالوريا الفرنسية ، وكان له أيضا الفضل فى تلقينى « النهج الماركسى » دون أن أدرك أن ما كنت أتعلمه منه « ماركسية » ! ..

وأذكر أننا قد طلبنا فى موضوع الانشاء الذى طرح علينا فى امتحان البكالوريا الفرنسية أن نعلق على السؤال : « هل الأدب يكتب بالقلب أم بالعقل ؟ » .. وكانت إجابتى أن الأمر تحكمه فى النهاية الظروف الاجتماعية .. ففى عصر الكلاسيكية ، كان الأدب يكتب بالعقل لفرط إلتزام الكلاسيكيين بالعقلانية ، وأوردت أسبابا فسرت ما سقته فى هذا الصدد .. ثم فى عصر الرومانسية ، كان الأدب يكتب بالقلب ، وأعددت الأسباب التى أوجدت هذه الظاهرة فى أعقاب الثورة الفرنسية والحروب النابليونية .. ولم يعجب الأستاذ المصحح « نهجى » فى معالجة الموضوع .. وربما اعتبر ما كتبته منشورا شيوعيا وأنا لا أعلم !.. وسألنى فى الامتحان الشفهى : « هل أنت الذى كتب كذا وكذا ؟ .. قلت بكل براءة : « نعم » . قال : « كنت أريد أن أعطيك ٢ من ٢٠ لأن ما كتبته خارج الموضوع تماما .. ولكن لأنك ملم بمعلومات كثيرة ، وأنك من حيث المعلومات تستحق ١٨ من ٢٠ .. فأعطيتك المتوسط ١٠ من ٢٠ » .. ومع ذلك استطعت بفضل المواد الأخرى ، وبالذات الرياضيات والفيزياء ، تعويض هذه الدرجة السيئة ، وظللت أول الدفعة .. ولكن ما لم أكن أدركه أن موضوع الانشاء قد كتبته من منطلق ماركسى دون قصد ولا معرفة !.. وربما اعتقد الأستاذ المصحح أننى أعلم وأننى أتحدى .. وقد يكون أنه كان من أعداء الشيوعية الألداء وأراد معاقبتى .

طموح موسوعى

وهكذا يتضح أننى كنت حتى عام ١٩٤٦ أعيش فى عالم يبتعد كثيرا عن محيطى المصرى .. ومازلت أتساءل : هل انطوى ذلك على سلبيات فقط ؟ ..

فلقد أفسحت لى فرصة التعرف على ثقافات أخرى ، ورؤى أخرى .. ونشأ لدى طموح ، حتى قبل معرفتى بالماركسية ، بأن أكون ملما بكل ما هو وارد أن يلم به إنسان ! .. كان لى طموح موسوعى .. وكنت أعتقد أن هذا ممكن .. وقد مرت على

عباس بك سيد أحمد والد الكاتب (محافظ بور سعيد) يستقبل الملك سعود عام ١٩٣٨

سنوات كثيرة قبل أن أدرك أن الانسان ليس عليه « أن يعلم » بل أن «يعلم كيف يعلم» .. وأن القضية قضية « نهج » قبل أن تكون قضية « تخزين معلومات » ..

وهكذا فإن ظروفا قد هيأتنى كى أصبح ماركسيا دون اقتران ذلك بشعور بالانتماء إلى واقع شعبى وما أصابه من فقر ووهن وظروف بالغة السوء ! .. من هذه الظروف إعجابى بأدباء المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازى فى السنوات الأخيرة من الحرب وبالذات بالشاعرين « أراجون » و « إلوار » .. وقد كان العديد من أدباء فرنسا وقتذاك شيوعيين ..

وكما سبق وأشرت فى مقالات نشرتها فى مجالات أخرى - وربما بالذات مقال لى بمجلة « الهلال » منذ أعوام بعنوان « اليهود فى الحركة الشيوعية المصرية والصراع العربى الإسرائيلى » ، وأيضا مقال نشرته مؤخرا فى نوفمبر الماضى بمجلة «القاهرة» عن « مستقبل الماركسية فى مصر » - أشرت فى هذه المقالات إلى أنه كان للجالية

عباس بك سيد أحمد محافظ السويس مع زوجته وأولاده الثلاثة محمد وهدايت وعمر عام ١٩٣٤ م



اليهودية فى مصر دور بارز فى الحركة الماركسية فى حقبة الأربعينات. وكان الكثير من تلامذة « الليسيه » من أبناء هذه الجالية . وكان لى بالبداهة زملاء وأصدقاء بين هؤلاء ومنظمة « إسكرا » الشيوعية التى نشطت فى مصر وقتذاك ضمت فى مراكزها القيادية ما لا يقل عن ٣٠٠ يهودى ، وهكذا وجدت نفسى وقد انتقلت من بيئة ارستقراطية مصرية بثقافتها « العالمية » COSMOPOLITAN (الفرنسية بالذات) إلى ثقافة أخرى انتسبت إلى فرنسا لدرجة أو أخرى وكانت أيضاً تنسب نفسها إلى الحركة التقدمية المصرية ، فضلا عن الدور المحورى الذى نهض به أستاذى «رينيه جرانييه» فى سنوات التكوين ..

أذكر أننى قلت لـ « جرانييه » ذات يوم أننى علمت بأن هناك مركزا للنشاط الماركسى بشارع الدواوين قرب ميدان لاظوغلى .. كان المركز معروفا وقتذاك «بدار الأبحاث العلمية» .. وكان يلتقى فيه عدد كبير ممن أصبحوا فيما بعد اقطاب الحركة



صدقى باشا خال الكاتب محمد سيد أحمد



السيدة وحيدة هانم يسرى
والدة محمد سيد أحمد ١٩٣٤ م

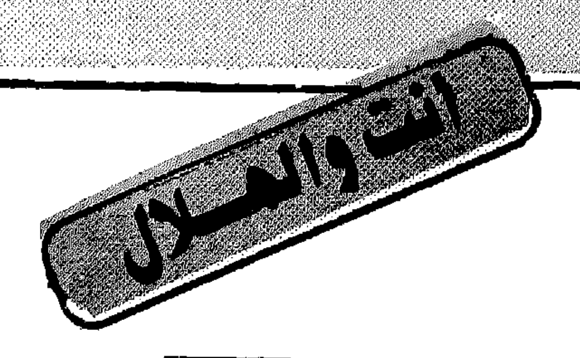
اليسارية فى مصر .. أجاب «جرانييه» بقوله لى : حيرتنى كثيرا ! .. فاننى لم أكن أريد أن تتجه هذا الاتجاه .. ذلك أن لك ما يهيئك - فكريا ووجدانيا - كى تصبح ماركسيا .. ولكن ظروفك الاجتماعية عقبة فى وجه هذا التحول .. ولذلك أخفيت عنك كل شىء بشأن هذه الدار » .

وليس من شك فى أنه كان لـ «جرانييه» هذه الشخصية الجذابة الكاريزمية ، دور عظيم فى تكوينى ، وربما فى تكوين كثيرين غيرى فى مصر .. وللأسف بعد ارتباطى بالحركة الماركسية المصرية ، وارتباطى بالذات - فى نهاية الأربعينات - بتنظيم متطرف داخله عرف بـ « م . ش . م » (المنظمة الشيوعية المصرية) ، ألح قادة هذا التنظيم على ألا تكون لى صلة بـ « جرانييه » قط .. وتحججوا بحجة « الأمان » فى

عباس (بك) سيد أحمد يستقبل فى السويس شاه إيران عند زواجه من شقيقة الملك فاروق

سنوات الأحكام العرفية إثر اندلاع حرب فلسطين الأولى كى أنقطع عنه .. وظل « جرانييه » فى مصر حتى حرب ١٩٥٦ .. ثم سافر مثل غيره من الفرنسيين الذين توطنوا فى مصر طويلا واعتبروها وطنهم الثانى .. ولم يعد إلى مصر مرة أخرى .. ولم أره بعد ذلك إطلاقا .. وقد وصلنى منه خطاب فى يوم ما قال فيه إنه كان قد سمعنى فى الاذاعة ذات مرة وعرف منى كيف ينطق اسم الزعيم الليبى « القذافى » .. فكان ذلك آخر اتصال بيننا .. وقد علمت بعد ذلك من صديق حميم آخر له هو الدكتور أنور عبد الملك أن « جرانييه » كان قد توفى فى مونبلييه بجنوب فرنسا ..

ومع إحاطتى علما برحيله ، شعرت بأن سنوات التكوين فى عمرى قد طويت صفحتها نهائيا ..



● الإعجاب .. بقصة مستجاب ●

● طالعت في عدد فبراير ٩٣ من الهلال قصة عجيبة للأستاذ محمد مستجاب بعنوان « مستجاب الثالث » وأقول « عجيبة » مع أنني دارس للأدب ومتخصص فيه ، وعملي يرتبط به لكن هذه القصة كفيلة بأن تدير رأس المتخصصين المحصَّنين من الاندهاش عادة .

فهي عجيبة ومذهلة ، حتى أنني صوّرت منها صوراً كثيرة ووزعتها على رفاقي في الفندق الذين لم يكن عجبهم إلاّ أكثر من عجبي حين التقينا في ردهة الفندق ليلاً ، وكان لابد أن نسأل عن الكاتب الذي لا نعرف عنه شيئاً بالمرة للأسف الشديد سواء في المغرب أو فيما نطالعه أو نقوم بتدريسه ، فأنا من أصول مراكشية وأعمل في فرع اليونسكو بنيويورك وأستاذ لمدة محدودة بجامعتي لندن والسربون ، وعملي تدريس نظرية الجمال والوجوه التربوية في النص الأدبي ، وأعترف بأنني طالعت بقدر واسع الكتابات الحديثة لكل الكتاب العرب وقابلت كثيرين سواء في ندوات باريس أو حلقات المدارسة في الولايات المتحدة وكندا وبعض الجامعات الأوروبية ، وفي كل حال فإنني لم يقع تحت نظري نص أدبي له هذا المقام في التأثير وروعة الخيال وسحر اللغة دونه أي زيادة .. فهل هو كاتب مصري ؟ وهل له كتابات أخرى لقد حاولت بالفعل أن استهدي إلى شخص الكاتب لكن المدة المحدودة لسفرنا حانت وأزفت كما حاولت الاتصال بكم في التليفون المرقوم على مجلة الهلال سدىً . مع رجاء العلم بمتابعتي الدائمة لمجلتكم الجميلة الهلال .

الذي أرجوه أن تساعدوني في توصيل الأستاذ الكاتب مستجاب بعنواننا المذيل لكتابي إليكم هذا ، وأن توافي بعنوان ناشر كتبه وتدلوني على أية مؤلفات له في القصة بالذات . أو عنوان الجهة التي يعمل بها . ولو كان

لديّ وقت لقمت بذلك فى القاهرة العزيزة نظرا لسفرنا من أسوان مباشرة .

ونشكركم على سعة صدركم ورغبتنا التى سوف تحظى باهتمامكم مؤكداً ..

چان آل غسّـان

Jan de ghasan

77 St mart's Palace,

New york, N. Y 10003

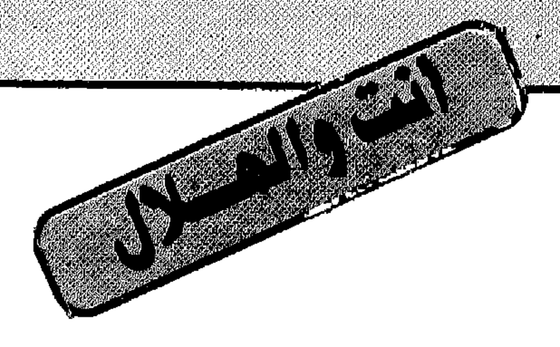
U. S. A

● تعليق الهلال :

– الأستاذ جان آل غسان ، أو « دى غسان » كما يكتبها باللغة الفرنسية ، مشكور على موضوعيته ونزاهتـــه كناقد يفتش عن الأدب الحقيـقى ، لا عن الأســـماء الرنانة ، وهو على حـق فى إعجــابه بقصـــة « مستجاب الثالث » المتفردة بخصائصها الفنية .. أما الأستاذ محمد مستجاب فهو مدير عام بمجمع اللغة العربية بالقاهرة وعنوانه : ١٥ شارع المعهد السويسرى بالزمالك وهو يكتب الرواية والقصة القصيرة منذ زمان ، ويعتبره العارفون من أحسن كتاب القصة المصريين ، وقد نشر له الهلال قصصا غير قليلة ومؤلفاته : من التاريخ السرى لنعمان عبد الحافظ وديروط الشريف « قصة قصيرة » والقصص الأخرى وكتاب « حرق الدم » وكلب آل مستجاب وقد صوّرنا له خطابكم هذا وبعثناه إليه لكى يتصل بكم .

● سلامة موسى والتغريب ●

● طالعت ما كتبه الأستاذ أنور الجندى فى الهلال (فبراير ١٩٩٣) تحت عنوان : « تاريخ مصطلح التغريب » وهو هجوم على د . طه حسين والشيخ على عبد الرازق وسلامة موسى ، أما طه حسين وعلى عبد الرازق فإن من دافعوا عنهما كثيرون ، كذلك لا أتحدث عما نال به نجيب محفوظ ولويس عوض ونعمان عاشور وغيرهم من المصريين والسوريين أمثال فارس نمر ونقولا حداد وچرچى زيدان ، ولكنى أود أن أقول إن هجومه على سلامة



موسى كان عنيفا بلا مبرر ، ولا أدرى أى عيب فى أن يعترف لويس عوض بأن سلامة موسى هو الذى قاده إلى الفكر الاشتراكى والأدب الروسى ، وهل هى تهمة أن يتعرف الأديب أو المفكر المعاصر على الأدب الروسى والفكر الاشتراكى ؟ ! .. إن الإسلاميين أنفسهم يتعرفون عليهما ..

ويستمر فى هجومه على سلامة موسى وكتابه (هؤلاء علمونى) ولا يجد من يستشهد به سوى مصطفى محمود قائلا : « فقد كان غزوا فكريا ماركسيا قامت به عصابة ، وتبناه نظام قومى ، وقامت على نشره أجهزة إعلام وأبواق دعاية محترفة وعشرات من الكتاب الذين وهبوا أقلامهم لفلسفة الكرملين » .

وأسأل الأستاذ الجندى : أى فكر يقدمه مصطفى محمود فى برنامجه التليفزيونى وفى كتبه الخاوية من أى فكر إلا إذا كان هناك من يطلق على السباب الذى يكتبه فكراً ..

لا أنكر أن هذا الذى كتبه أنور الجندى آثار داخلى حزناً .. وأنى اتوجه بسؤال : لمصلحة من هذه الحملات التى تظهر كل فترة على اسماء محددة تتكرر باستمرار ؟ !

انور حافظ على
كلية آداب سوهاج - قسم صحافة

● تعليق الهلال :

- أنت يابنى تستنكر هجوم الأستاذ الجندى على الأسماء الكبيرة التى تذكرها فى رسالتك ، فإذا لم يكن من حقه الهجوم عليها ، فهل من حقك أنت الهجوم عليه وعلى مصطفى محمود أيضا ؟ ! .. يبدو أن لغة الهجوم هى لغة «النقد» قديما وحديثا عندنا .. وقد كثر التعليق على مقالة الأستاذ الجندى فى العدد الماضى وفى هذا العدد ، ونظن أن إغلاق هذا الباب أَجْلَبُ للراحة من تركه مفتوحا .. ولهذا نكتفى بهذه الكلمة ونرجو ألا نعود إليه ..

● جامعة الهداية الإسلامية بالهند ●

● يسرنا ويسعدنا أن نحيط سيادتكم علما بأن جامعة الهداية التى أنشئت فى مدينة « جيبور » عاصمة ولاية « راجستان » بشمال غربى الهند جامعة اسلامية ممتازة ذات هدف تربوى اسلامى نبيل .

إن هذه الجامعة الاسلامية الوليدة قد أضافت بابا جديدا فى المجال العلمى والدينى والثقافى ، وعرفت المدارس الدينية والمعاهد العربية فى الهند العلوم المهنية والتكنيكية والصناعية الحديثة ، وانها أول جامعة اسلامية حاولت أن تسهل قضايا المعاش إلى جانب مسائل المعاد بشمول مناهجها الدراسية على العلوم المهنية الحديثة واجبار تدريسها فى الفصول المختلفة كفن ، فهى تهيىء الآن فرص الدراسات العليا فى العلوم الاسلامية والعربية ، كما أنها تهيىء فرص الدراسات فى العلوم المهنية على مستوى الدبلوم كهندسة الكهرباء ، وهندسة اللحامة والخراطة والتركيب ، وعلوم الكمبيوتر ، وسوف تهيىء فرص الاختصاص فى علوم الكمبيوتر وفرص الدراسات على مستوى الدبلوم فى الاتصالات والالكترونيات .

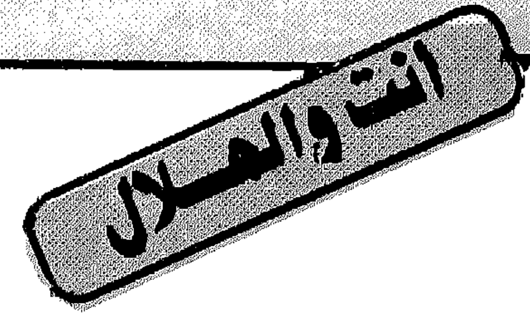
نحن بهذا الصدد نرجو من سيادتكم أن تتكرموا بنشر تقرير عن هذه الجامعة فإن هذا يكون تعاونا كبيرا لنا منكم ويزيدنا همة وقوة . ونحن الآن مقيمون فى دبى ، الامارات العربية المتحدة لمدة أسبوعين ، فنرجو ردكم الكريم فى دبى ، لنتمكن من ارسال التفاصيل اليكم عن النشاطات التعليمية والتربوية للجامعة .

محمد فضل الرحيم المجددى
نائب أمير الجامعة

● ماذا جنينا ●

سَــنَبْـدأُ مِنْ حَيْثُ كُنَّا انتهيْنَا   ســواءٌ أردنـــا ، ســواءٌ أبيْنَا

فَإنَّ المقــاديرَ كـــانت لقـــاء   فـكيفَ المقــاديرُ تقضى علينَا



ضَـعِى عَنْك هَمًّا ، أَتَتْهُ الظنونُ   فكمْ مِنْ قُصُـورِ الـرمَالِ بَنَيْنَا
وَوَشِّى جَمَـالـكِ أُنْـشُـودَتى   تَعـوُدِ الليَـالى ، تُغَنِّى لَدَيْنَـا
وَطِيرِى بَأَجْنحَـةٍ مِنْ ضِـيَاءٍ   فبالنورِ عِشْنَـا ، وفى النورِ ذُبْنَا
وَكُـنَّا زرعنَـا بـأرضِ التَّمنِّى   بـذورَ التـردُّدِ . مَاذَا جَنَيْنَا ؟

محمد عبد الوهاب

هليوبوليس غرب – مصر الجديدة

إلى أخى

حبيبى – وكُلُّ الأحبَّة أنْـتـا   إذا كُـنْـتَ تَدْرِى بحالى لعُدْتا
تـغـيبُ كأنـكَ بعـتَ حبيبـاً   تـمـزَّقَ بالبُـعْـدِ لمَّـا ذَهَبْتا
تَمزّقْتُ بالبُعْـدِ حـتّى بـكيتُ   وحتى مَرِضْتُ ، وحتّى .. وحتّى
لقـد أوحشَ القلبَ صوتُ غناء   على سُلَّم البيتِ حَيْثُ صَعَـدِتا
ظمئْتُ إلى صوْتِكَ العبقـرىّ   فيـاليتَ شـعرى الامَ ظمئتـا ؟
أراك مع الليـل تسـهرُ مِثْلى   وتبـكى لبُعـدِى إذا ما بكيتـا
بعـادُكَ أكبـر مـن كلّ شـىءٍ   فمنْ لى يكون كما أنت كُنْتَا ؟
فـلو ملئَ الـكونُ لى أصْـدَقاءً   لزانوا الفـراغ الذى قد تركتا
أخى ، ليس مثـلك كل البـرايا   فعُـدْ لى سريعاً كما قد وَعَـدْتا

عبد العزيز محمد الشراكى – المنصورة

● عناوين الأستاذين شاكر وأنيس ●

أرجو تزويدى بعنوان كل من الأستاذين محمود محمد شاكر وأنيس منصور .. وأنا من المتتبعين للهلال منذ زمن بعيد وأحث طلبتى على اقتنائها .

د . ناول عبد الهادى

أستاذ بكلية الآداب - الدار البيضاء - المغرب

- عنوان الأستاذ شاكر : مجمع اللغة العربية - القاهرة وعنوان الأستاذ أنيس منصور : جريدة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة .

● مع الأصدقاء ●

● نجلاء حسام الدين حسين الجندى - مدينة السلام - المنصورة :

- لا داعى لأن تتعجلى نشر إنتاجك من الشعر والمقالة والقصة .. ونرحب برسائلك .

● السادة : نور قاسم ماجى سيونغ (الصين) .. شعبان صقر .. إيهاب عبد السلام جاد .. عارف خلف عبدالرحمن البرديسى .

- أشعاركم تنقصها الأوزان

● د . ماهر منير كامل - المنصورة :

- قصصكم طويلة نسبيا ، ولا تستطيع صفحات هذا الباب استيعابها .. ونوجه هذه الكلمة أيضا إلى السادة الفضلاء الذين يرسلون إلينا قصصهم ، مع مراعاة الكتابة على وجه واحد من كل ورقة ، مع بيان العنوان .

● ونشكر أصدقاءنا : رمضان أبو غالية .. زارع عبد الراضى رضوان .. مصطفى محمود مصطفى .. أبو الحسن الصابونابى .. مؤمن المحمدى .. نوبى حسان محمود .. صلاح عبد الستار الشهاوى .. علاء عايش .. أيمن لاشين .. جمال محمد طلحة .. عبد الهادى أحمد سليم .. عاصم فريد البرقوقى .



والسيف المبصر

بقلم: بهاء طاهر

لا أذكر اسمه لأننا لم نكن صديقين . كان مثقفا عراقيا يتردد على إذاعة صوت العرب أيام كنت أعمل فى مكتب يضم غيرى من الإذاعيين .

وعرفت عنه أنه مناضل سياسى ، حارب النظام الملكى وتعذب كثيرا فى سجونه وكان أيامها يكتب تعليقات نارية ضد حلف بغداد وضد نورى السعيد ، ورأيته فى مكتبنا يوم نجاح الثورة التى قضت على الملكية فى العراق وكان يرقص بالفعل فرحا، وبدا لى يومها كما لو كان قد رجع من الأربعين إلى العشرين ، ثم عاد إلى بغداد لكى يتنسم عبير الحرية .

لكنه لم يتنسمه طويلا! .. فما هى إلا شهور قلائل ثم عاد إلى القاهرة : لاجئا مرة أخرى ! .. كان عبد الكريم قاسم قد فتح السجون من جديد لتأوى من يفكرون مثله، ومن يقولون قوله .

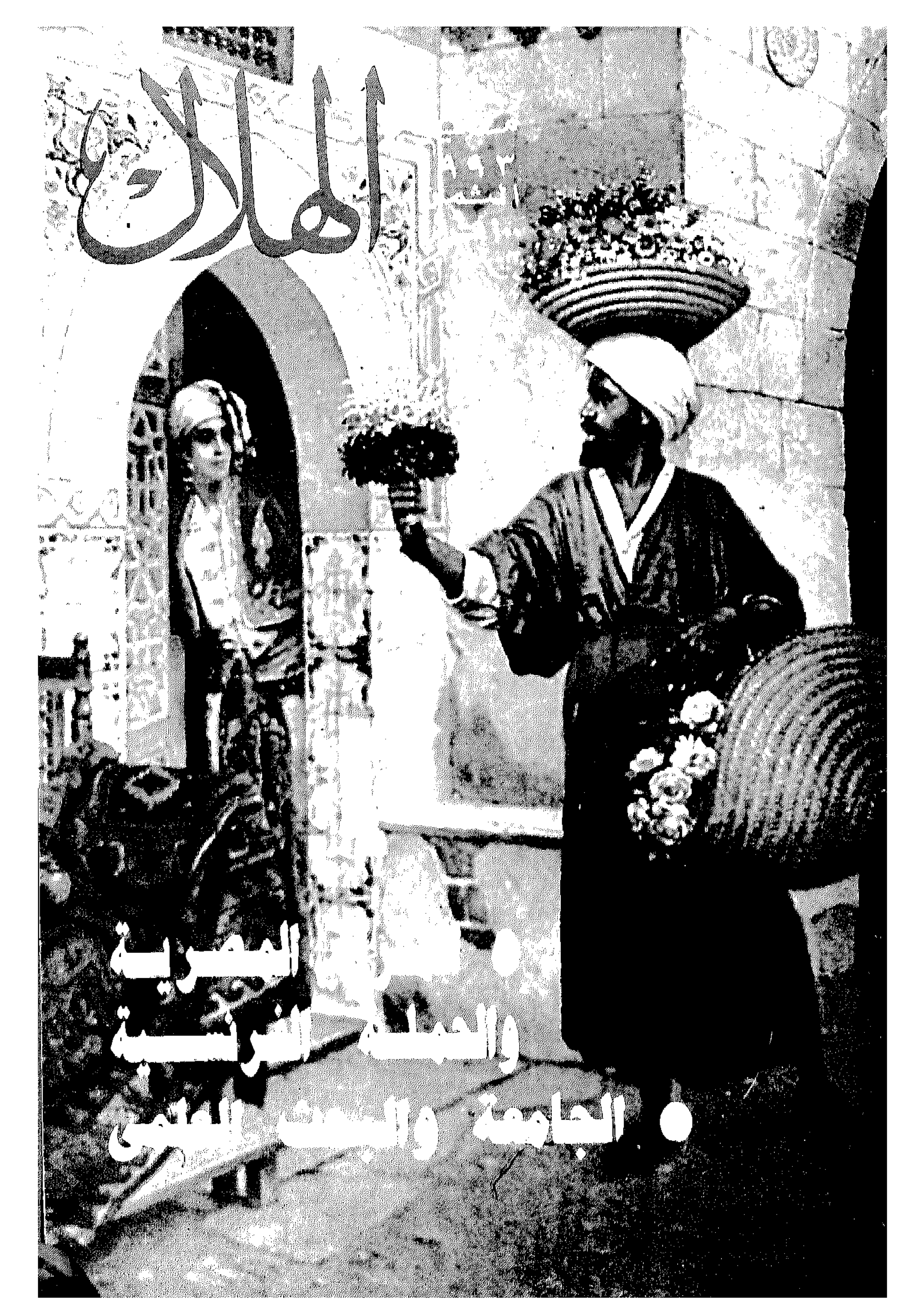
ولكنه فى هذه المرة لم يكتب تعليقات ضد عبد الكريم قاسم .. كان يكتب شعرا حزينا ويطلعنى عليه . وسألته لماذا لم تعد تكتب ضد قاسم كما كنت تفعل ضد نورى السعيد .

فسكت قليلا ثم قال : إسمع ، خصوم قاسم منهم من هم مثلى من أنصار الوحدة والاستقلال ، ولكن منهم أيضا أنصار نورى السعيد ، فإن أنا الآن حاربته ، فكيف لى أن أعرف أنى لا أحيى نورى السعيد من جديد ؟ قال ذلك وهو يتطلع نحوى بعينين حزينتين ووجه عجوز . وبعد أسابيع قليلة مات فجأة .

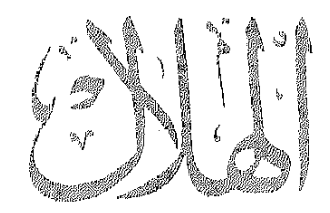
معذرة ، فإنى قد نسيت اسمه منذ وقت طويل ، ولكنى لم أنس قط قوله :

أتذكره كثيرا حين أستمع إلى مناقشات أصدقائى من المثقفين الساخطين ، وحين أقرأ أقوال كثير من المعارضين . أقول لنفسى ربما يكونون على حق ، بل هم فى كثير من الأحيان على حق ، ولكن هل يسألون أنفسهم عن المرمى النهائى لما يقولون أو يفعلون ؟ .. هم يهاجمون ما يؤمنون بخطئه ، ولكن هل هم واثقون انهم لا يخدمون دون أن يدروا سيدا لا يريدونه ؟ .. لا أشك فى إخلاص أحد ، ولكنى أتساءل : هل عذبهم البحث عن السيف المبصر الذى يعرف الحق من الباطل ، أم هم يغمدونه كيفما أتفق ؟ ..

أتذكر ذلك الشاعر الراحل فأقول لنفسى مرة أخرى هم ينقذون أنفسهم على أية حال من بعض الأخطار . وأدعو للجميع بطول العمر !


الهلال
١٩٩٣
• المصرية
والحملة الفرنسية
• الجامعة والبحث العلمى





مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) ، المكاتبات : ص.ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : 3625469

ثمن النسخة سوريا ٥٠ ليرة ، لبنان ٢٠٠٠ ليرة ، الاردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٣٠ ريالا ، تونس ١.٥ دينار ، المغرب ١٥ درهما ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، إيطاليا ٣٠٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الامارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار ، السودان ٤٥ ج . س .

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى ٢٩ جنيها فى ج. م. ع. تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٥ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وإفريقيا ٢٥ دولارا - باقى دول العالم ٣٥ دولارا .

والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد .

فى هذا العدد

فكر وثقافة



دائرة حوار

قصة وشعر

رسائل صحفية

رسالة لندن

الاهتمام بثقافة العلوم

« ثقافة العلوم » من أبرز الموضوعات التى يناقشها هذا العدد ، ويتناول فيه كاتبه د. مصطفى سويف - الذى نعتز بكل آرائه - قضية هامة ، وهى ضآلة الثقافة العلمية .

وفى عرضه الأمين فيما تقدمه المجلات الثقافية ، نجد أن حجم تقديم العلوم بها ، كان ولازال شديد الضآلة ، بحيث يوصف بالندرة ، وبالأرقام نجد أن مانشر فى مجلة ثقافية رصينة على مدى ثلاث سنوات ٥٧٠ مقالا ، ليس بينها سوى عشرين مقالا فى العلوم ، أى أنه بين كل مائة مقال ، لايوجد سوى أربعة تقريبا ، تقدم فيها الثقافة العلمية ، وذلك يحدث فيما يصدر لدينا من كتب ، فضلا عن أن الصحافة لاتهتم هى الأخرى بالعلم ، أما فى الإذاعة المسموعة والمرئية فالصمت أبلغ من لغة الكلام فى شأنها .

ويحدد د. مصطفى سويف الحجم الأمثل لثقافة العلوم - خاصة ، أن لدينا المقومات الأساسية لكى يضاف العلم إلى حصيلتنا الثقافية .

من المتاحف العالمية :

بطن الغلاف : لوحة للفنان هنرى ماتيس رسمها لزوجته عام ١٩١٣ ، وهى زيت على قماش ومحفوظة بمتحف الأرميتاج بسان بيترسبرج .



أزهار مايو لكل إنسان

يبدو شهر مايو فى عامنا هذا شديد التعقيد والاضطراب فى كلّ شئ .. فى السياسة والاقتصاد ، وفى الأدب والفن ، وعلى جميع الأصعدة التى تتأرجح علُواً وسُفلاً فى الداخل والخارج ، وفى صفوف الأصدقاء ، وصفوف الأعداء ، وصفوف الواقفين بين هؤلاء وهؤلاء ممن يسمون أنفسهم محايدين ! ..

ومايو هو أيار فى الشهور السريانية التى تتخذها البلاد العربية من قديم للدلالة على الشهور الشمسية ، ولكن عقدة هذا الاسم ـ لغويا ـ أنك لابد أن تفتح الهمزة التى فوق الألف ، كما يجب أن تشدد الياء ، وحذار من مدّ الألف الأولى وفتح الياء حتى لايتحول معنى هذا الشهر الربيعى الفواح بعبير الورد والريحان ، وسجع الأطيار ، ونضج الثمار .. إلى معنى لغوى آخر ..

وفى أيّار يبدأ جسم الإنسان فى اتخاذ إيقاعات يومية مختلفة عن إيقاعاته فى الشتاء وبداية الربيع ، سواء كان الإنسان يقظان فى الليل أو نائماً بالنهار ـ هكذا يقول العرفاء ـ ويستعيد الإنسان ذكريات الشتاء المنصرم ، ويتطلع إلى مباهج الصيف القادم .. ويبدو له الزمان الذى كان يتحدث عنه نيوتن زمانا مطلقا بلا معنى ، أما زمان النسبية الذى كان يتحدث عنه أينشتين فيبدو غير مفهوم المعنى ! ..

إلا أن الإنسان العربى الآن لم يعد يبالى بالفروق بين زمان «نيوتن» وزمان «اينشتين» ، ففى هذا وذاك يشعر الإنسان العربى أن الكون قد أطبق على أنفاسه ، بزمانه ومكانه ، وطبقاً لنظريات «نيوتن» و«أينشتين» معاً ، كأنما النظريات والقوانين الطبيعية متآمرة على تضييعه فى متاهة الزمان والمكان ! ..

إلا أن الإنسان العربى لم يرفع الراية البيضاء على كل حال ، ليس لأنه لم يعد يملك راية بيضاء يرفعها كما يقول الشامتون ، ولكن لأن السفينة التى تحمل شعوب العالم الآن فى التيار الهائج ، باتت ثقوبها تهدد جميع الشعوب بما فيها شعوب الدول الكبرى : أمريكا وألمانيا

واليابان وفرنسا وبريطانيا ، ولا نذكر روسيا لأنها سقطت فعلا من الثقب الذى كانت تقف فوقه، وأوشكت أن تغرق ! ..

لقد بلغت البشرية مأزقا جماعيا ، فلا الدول الكبرى تستطيع أن تنقذ رقابها بقطع رقاب الشعوب الصغيرة ومحوها من الوجود ، ولا هذه الشعوب بقادرة على السير وحدها فى المتاهة التاريخية التى دخلها الإنسان برجليه وهو على مشارف القرن الواحد والعشرين .

عزيزى القارئ :

إن هذا الإنسان يأكل الآن ذاته ! .. يحارب بعضه بعضا تحت شعارات عنصرية ، ويقتل بعضه بعضا تحت هتافات دينية ، ويتصدر الإرهابيون نشرات الأخبار فى التليفزيون والراديو، ويتربعون على مانشتات الصحف كل يوم !

وفى بعض زوايا الكرة الأرضية تعربد سياسة إبادة الأجناس ، كما فى جنوب أفريقيا ، وكما فى فلسطين حيث يزعم قطاع الطرق الصهيونيون أنهم من أبناء الدم السامى ، وأن هذا الدم يبيح لهم إبادة شعب فلسطين ! ..

ومع ذلك كله ، لن يستطيع الكبار أن يأكلوا الصغار ، فقد أخذ هؤلاء وأولئك ، بعضهم برقاب بعض ، وليس الذى يحمل القنبلة النووية بأقوى من الذى يحمل قنبلة الجوع والأوبئة ! ..

عزيزى القارئ :

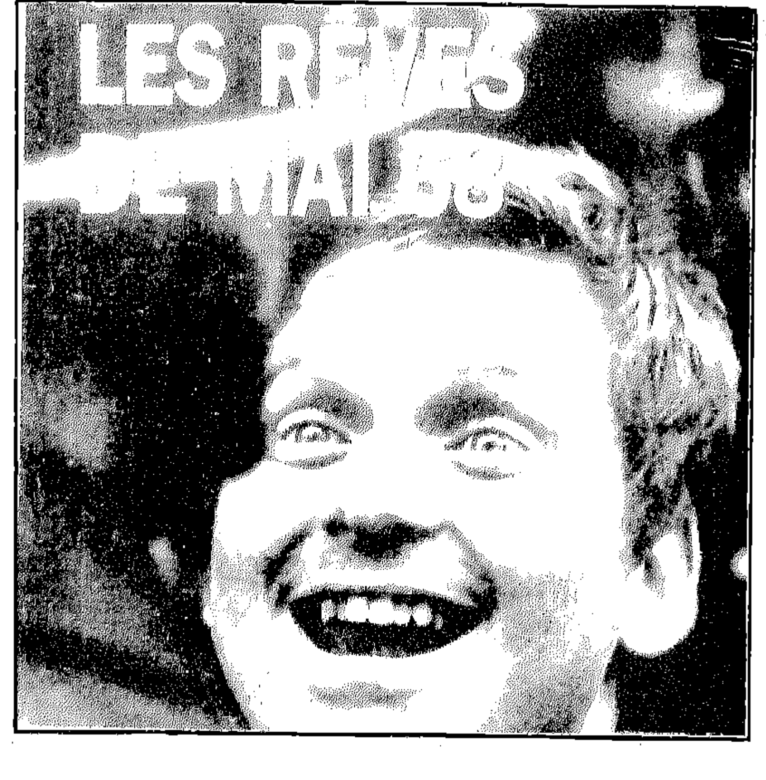
إن مايو أو أيار سنة ١٩٩٣ يحمل الأزهار ملطخة بالدماء ، فالبشرية كلها تنزف دما ، والسلام بين الشعوب لم تثخنه الجراح فى أية مرحلة تاريخية كما أثخنته فى مرحلتنا الراهنة!..

ولكن الإنسان فى هذا المنعطف الدامى يحاول أن يبحث عن طريق جديد .. فهل يهتدى إلى هذا الطريق قريبا أو بعيدا فيبقى الجنس البشرى حيا على ظهر الأرض ، أو يضل الإنسان السبيل فينقرض كما انقرض الديناصور فى سالف الدهور ؟! ..

عزيزى القارئ :

برغم كل شئ تزدهر الورود فى الحدائق ، وتنفح منها روائحها ، وتحملها الأنسام إلى كل إنسان ! ..

العالم في سطور



براج

ربع قرن .. على ثورة مايو ١٩٦٨

تحتفل اوروبا باكملها هذه الايام بذكرى مرور ربع قرن على ما يسمى بربيع براج من ناحية وثورة الشباب التى اجتاحت المدن الاوربية قاطبة من أجل تغيير سياسات الحكومات من ناحية ، مثلما حدث فى فرنسا ، ومن أجل صناعة ثقافة جديدة من ناحية أخرى ..

كانت هناك مجموعة من المؤشرات التى دفعت إلى هذه الثورة منها الغزو الروسى لمدينة براج ، بعد أن تحدث الزعيم التشيكى دو بشيك ضد رغبات الكرملين . ثم الحرب الفيتنامية ، وتخلص ماوتسى تونج من حرسه الاحمر فى الثورة الثقافية . ثم الحرب الباردة . وفى مصر كانت هناك نكسة يونيه .

ولم يكن لهذه الحركة أن تزدهر ، وتنطلق دون موقف الكتاب ، والصحافة ، حيث نشرت جريدة لوموند على صفحتها الأولى مقالا يحمل عنوان « لماذا أصاب الملل اوروبا ؟ » .

وتنبه الطلاب فى جامعة نانت إلى خطورة ما يحدث من حولهم فى العالم . وهم الذين عانوا الكثير من مسألة التعليم .

وبدأت ثورة شباب اوروبا حين حطم الطلاب أحد رموز الثقافة الامريكية ، من أجل مناهضة حرب فيتنام . ثم تجمعت الاسباب ، فسرعان ما وجدت هذه الثورة رءوسها المحركة مثل دانيل بندى ، وايتفلايش .

وما لبثت الاسباب ان تراكمت من أجل الثورة ، فبعد أن كانت ضد السوفييت الذين غزو براج وضد السياسة الامريكية فى الهند الصينية ، ظهرت هناك مشاكل أخرى اقتصادية، وسياسية ، وانتقلت من اروقة الجامعات إلى الشوارع ، حيث تظاهر فى باريس وحدها ستمائة الف شخص . ووقف الفيلسوف والكاتب المعروف جان بول سارتر يعلن مطالب المثقفين والشباب.

ورغم أن الثورة قد انتهت ، إلا أن آثارها الثقافية والسياسية قد بقيت حتى الآن ، وعلى سبيل المثال ، فإن الفلاسفة الجدد من امثال برنار هنرى ليفى ، واندرية جلوكسمان ، وغيرهم ، قد ولدوا فى هذه المظاهرات . وهم الذين قادوا حركة الفكر فى اوروبا طوال سنوات السبعينات والثمانينات ، حيث قامت فلسفاتهم على مناهضة النظم الشمولية ، والديكتاتورية .

بروكسل

حب نمساوى .. على الطريقة البلجيكية

لدينا المسرح السياحى .. ولديهم المسرحيات البورنوجرافية !

وليس هناك فارق بين العبارات التي ينطقها الممثلون فى هذين النوعين من المسرح . إلا أن مسرحياتهم قد تجمع بين النص المحبوك جيدا . والذى يجعلك لا تشعر بالإسفاف . وقد بدا هذا واضحا فى المسرحية الاوبرالية « الدائرة » التى تعرض الآن على مسارح بروكسل من تأليف ارثر شنتزلر مؤلف العديد من المسرحيات المشابهة مثل « الطريق الوحيد » و« الأرض الاجنبية » .

والمسرحية عبارة عن عشرة حوارات مليئة بعبارات الحب الملتهب . بين خمسة رجال وخمس نساء . ولأن لهذا الحشد المتنوع من البشر حول الحب الملتهب سوف يجذب المزيد من المشاهدين . فنحن أمام أجساد مليئة بالرغبة ، وأفواه تعبر عن هذه الرغبات . وذلك باعتبار أن المشاهد يجب أن يكف عن أن يكون متلصصاً . وعليه فقط أن يستمع إلى الآخرين ، وكأنه واحد منهم .

المسرحية من اخراج البلچيكى فيليب بوسمان الذى يرى أن ما جذبه فيها هو أنها ليست مليئة بالكلمات الحسية . بقدر ما ان هذه الكلمات تعبر عن المرارة التى يعيشها ابطال المسرحية من

العالم في سطور



الممثل لابرتو ساكا والممثلة اليزابيتا في « الدائرة »

الرجال والنساء . فالمسرحية رغم كل شيء خالية من البهجة . وفي نفس الوقت فإنها لا تثير الحزن الشديد ، لأنها مصاغة في قالب اوبرالي يهز المشاعر .

المسرحية كتبها النمساوي شنتزلر عام ١٨٩٧ . وظلت ممنوعة في المانيا لسنوات طويلة. وفي عام ١٩٢٠ وبمناسبة اعياد الميلاد عرضت في ثلاث مدن ناطقة بالالمانية هي فيينا ، وبرلين ، وميونخ . فضلا عن هامبورج ثم براج ..

وابطال المسرحية العشرة هم : غانية ، وجندي ، ومحظية ، وزوجان متزوجان حديثا ، وشاعر ، ومطربة ، ورجل من علياء القوم ، يدورون في دائرة واحدة هي الحب ، ولا يسعون للخروج منها ورغم أن هذا الحب هو المتعة ، لكن يجلب لهم جميعا السخرية

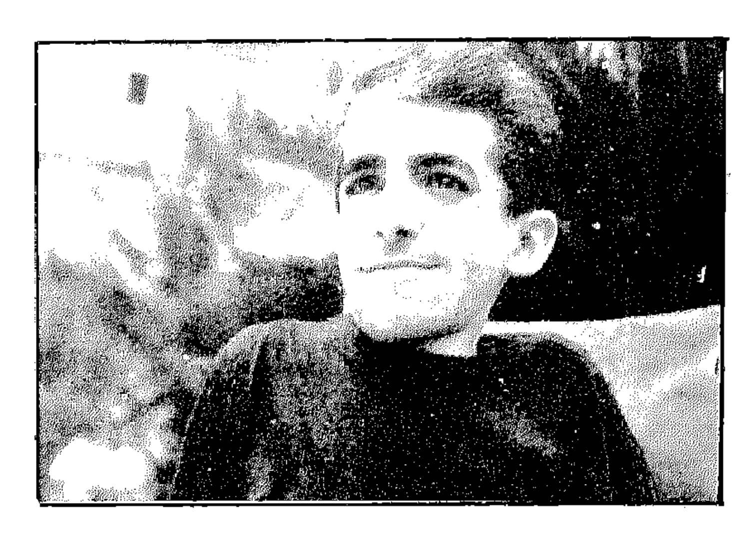
بومباي

الجلباب على الجسم .. والقبعة فوق الرأس

من الواضح أن بعض أبناء المستعمرات القديمة يودون الاستفادة إلى اقصى حد من اللغات التي غرسها المستعمرون في بلادهم ، لتحقيق هدف ما . ولو في مجال الادب .. حدث هذا منذ سنوات للافارقة والعرب الذين يكتبون مباشرة باللغة الفرنسية ، ويحظون بشهرة على المستوى الاوربي ، جعلت أبناء لغتهم العربية يعتبرونهم عالميين .

ويحدث هذا الآن بالنسبة لبعض الادباء الهنود ، فيما يتعلق باللغة الانجليزية ، باعتبار ان بريطانيا قد احتلت الهند أمدا طويلا ، وأن اغلب الهنود يجيدون الحديث بهذه اللغة .

وفي الفترة الأخيرة اكتشف بعض الأدباء



فرداوس كانجا

الجدد ، أنه من الأفضل بالنسبة لهم أن يكتبوا باللغة الانجليزية مباشرة بدلا من التأليف باللغات المحلية .

وبحثا عن أقصر الطرق للشهرة العالمية ، حزم بعض هؤلاء الشباب امتعتهم ، وسافروا إلى العاصمتين البريطانية والامريكية لتقديم اعمالهم إلى الناشرين هناك . ومنهم امتياف جوش – سبق أن قدمناه في «العالم في سطور » – الذي ترجمت اعماله إلى الفرنسية و الايطالية .

ومن الاسماء التي لمعت أخيرا هناك فرداوس كانجا ، وشاشي طحرور ، رينتون ميستر، وآخرون . وهم جميعا يحملون هدفا واحداً ، هو أن يصبحوا ادباء هنود يكتبون بالانجليزية ..

وكانجا على سبيل المثال مولود في مدينة بومباي وهو كاتب معوق ، حاول مخاطبة الغرب من خلال موضوعات قد لا تكون محببة كثيراً في الشرق . حول علاقاته المشبوهة المرضية . في روايته « محاولة للنمو » . أما شاشي طحرور فبحكم عمله كدبلوماسي في الأمم المتحدة ، فإنه قد حاول أن يجرب حظه ، حين دفع روايته الأولى إلى الناشر الامريكي الذي تحمس لها باعتبارها رؤية عصرية للحمة « المهابارتا » .

ويعتبر فيكر ام سيث ابرز هذه الاسماء في الأونة الأخيرة . حيث بيع من روايته الاولى « البوابة الذهبية » أكثر من مائة الف نسخة في طبعتها الاولى عام ١٩٨٦ . علما بأن الكاتب مولود في مدينة كلكتا قبل واحد واربعين عاما .

ومن هذه الاسماء ايضا فاروق دوندي ، والذي عمل لفترة في الانتاج التليفزيوني ، ثم كتب روايته الأولى « بطة بومباي » .. كما تعاون مع المخرج البريطاني المعروف بيتربروك في اخراج مسرحيته الملحمية المأخوذة عن«المهابارانا».

بالتيمور

تفاصيل حياة .. القديسة « ربما »

« القديسة ربما » عنوان أحدث رواية صدرت للكاتبة الامريكية آن تيلر ، التى فازت بجائزة بوليتزر الادبية عام ١٩٨٩ .. وباعتبار أن الكاتبة معروفة الآن فى الوطن العربى عقب ترجمة روايتين لها هما «دروس التنفس» الفائزة بالجائزة ، عن دار الهلال و « عشاء المشتاقين للأهل » . فإن المتابع لأدبها يكتشف أن قيمتها الابداعية جاءت من التفاصيل الشديدة الواقعية التى تحكيها عن حياة الاسرات الامريكية فى المدن الصغيرة .

والأسرة فى آخر رواياتها الأخيرة« القديسة ربما » تسكن نفس المدينة بالتيمور ، إنها اسرة «برلوى » . حيث نعيش معها منذ لحظات الميلاد ، ومرورا بكافة الشعائر اليومية التى يعيشها الابناء فى المناسبات الصغيرة والكبيرة . إنها اسرة سعيدة ، قليلة المشاكل الجسيمة ، ويمارس الابناء فيها المهن الصغيرة كالتصوير .

والرواية تعيش مع ثلاثة أجيال من اسرة «برلوى » ابتداء من عام ١٩٦٥ ، وحتى الآن ، هناك الأخ دانى الذى يعلن أنه سوف يتزوج من امرأة مطلقة ساحرة ولديها ولدان . الا أن ايان الاخ الاصغر يقف ضد هذا الزواج . فيحدث أخاه بمخاوفه . فيقتنع دانى ، لكن المفاجأة ، أن ايان نفسه يتزوج من لوسى ، وتنجب منه ابنا .

ومثل هذا النوع من الروايات ملىء بالشخصيات التى تصنع الأحداث الصغيرة ، وتعيش يومها ساعة بساعة ، لا تفكر كثيرا فى الغد . وهناك علاقة ما بين هؤلاء الاشخاص وبين الكنيسة القريبة . والتى يترددون عليها فى أوقات الصلاة ، وايام الاعياد .

ورغم هذا الاقتراب من الله ، فإن الظروف الحياتية لا تمنع أحد ابناء عائلة « برلوى » من الانتحار كما لا تمنع آخرين من أن يكونوا سعداء .

لاجوس

كاتب أفريقى ينعى نفسه

« اعلن عليكم بكل سرور أن الكاتب بن اوكرى قد مات » .

هذا هو ما صرح به الأديب النيجيرى بن اوكرى بنفسه أخيرا فى جامعة كمبردج . وقد جاء ذلك باعتبار إن الكاتب الذى فاز بجائزة بووكر فى العام الماضى عن روايته « طريق الشهرة »



آن تيلر

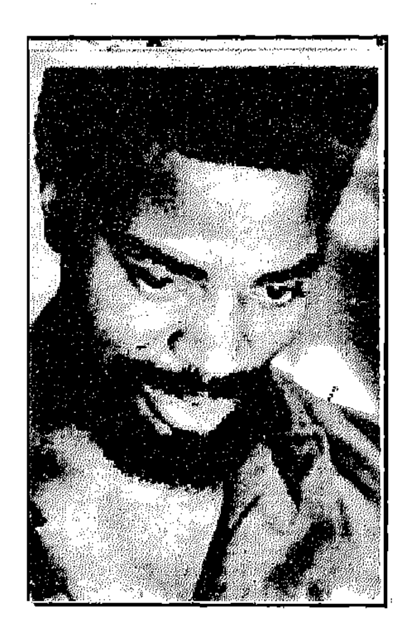
لن يكون هو نفسه الذى يكتب روايات فى المستقبل .

يعتبر بن اوكرى أحد الأجانب القلائل الذين فازوا بهذه الجائزة الكبرى . بعد مايكل اونوى من جنوب أفريقيا . والكاتب الصينى تيمونى مو . وهو ليس جديدا فى عالم الأدب ، فقد سبق ان نشر ثلاث روايات ، ومجموعتين قصصيتين ، وديوان شعر ، ومنها «نجوم خط النار الجديد». عام ١٩٨٨ .

ولد بن اوكرى فى بلدة بشمال نيجيريا عام ١٩٥٧ . وقد توقف عن استكمال تعليمه وهو فى العاشرة ، بسبب الحرب الأهلية فى بيافرا . وراح يثقف نفسه ، فقرأ أفلاطون ، والفلسفة الشرقية ، والروايات الروسية .

بدأ حياته الأدبية بكتابة المقالات حول المجتمع النيجيرى ، وقصائد لم ينشرها قط . ثم سافر إلى لندن وهو فى العشرين من عمره . وهو يحمل فى حقائبه مسودة روايته «زهور وظلال» ، ثم روايته الثانية «بلا أى منظر طبيعى» .. فضلا عن أقاصيصه القصيرة .

أى أن كل مانشره الكاتب فى لندن ، قد كتب كاملا فى نيجيريا .. حتى مجموعته القصصية «نجوم خط النار الجديد» المكتوبة فى بريطانيا ، فإن وقائع بعضها تدور فى مخيمات القبائل النيجيرية . والبعض الآخر يدور فى اجواء كفكاوية . مثل أقصوصة ذلك الرجل الذى جاءه



بن أوكرى

شخص غريب فى مكتبه ليسأله عن اسمه .. ثم يختفى فجأة دون ان يعرف أحد السبب .

الآن ، ترى إلى أى مدى سيتغير أدب الكاتب بعد حصوله على جائزة بووكر ، وذلك حسبما أعلن عن وفاته أمام تلاميذه فى جامعة كمبردج ، حيث يقوم بتدريس الأدب الأفريقى فهو يردد « أن الحياة خطيرة . ولكن الكتاب أشد خطورة » . وان « السياسة هى فن المستحيل ، وإبداع الفن هو المستحيل نفسه » .



المرأة المصرية ..
والحملة الفرنسية



«ثورة النساء قبل ثورة القاهرة»

بقلم : حلمى النمنم

تراوحت آثار ونتائج الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) بين المبالغة والتهويل فى جانب والتجاهل والتعتيم فى جانب آخر .. وربما يكون موقف المرأة المصرية من تلك الحملة وانعكاساتها عليها أبرز جانب يلتقى فيه العنصران معاً المبالغة والتجاهل فنحن لم نعرف من ذلك غير ما ذهب إليه د . لويس عوض من أن الحملة كانت «بدايات حركة السفور فى مصر وحركة تحرير المرأة ..» ولا شئ غير ذلك .



الجبرتى نابليون

والواقع أن نابليون كان يعرف جيداً قيمة المرأة وموقعها فى المجتمع الذى جاءه غازياً ففى نداء إلى جنوده على ظهر السفينة «لوريان» وقبل النزول بسواحل الإسكندرية بأسبوع يقول : «إن الشعوب التى سننزل بينها تعامل النساء بطرق تختلف عن طرقنا كل الاختلاف ، ولكن المغتصب الذى يهتك الأعراض يعتبر متوحشا فى البلاد جميعها .. »

أما الجبرتى فيحدثنا عن الشائعات التى تناثرت فى القاهرة قبل وصول نابليون إليها « أولهم وصل إلى باب البحر يحرقون ويقتلون ويفجرون بالنساء » وتردد أيضا أنهم «سلبوا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن » .

وهذه الأقاويل تعكس مركزية المرأة فى النفس والوجدان فهى «شرف الأمة والوطن» والتاريخ الطويل ينبئ بأن أى غاز أو معتد لابد أن يأخذ النساء سبايا وجوارى أو على الأقل ينتهك عرضهن ..

ولكن هذه الأقاويل التى رصدها الجبرتى ونداء نابليون إلى جنوده كانت قبل دخول نابليون مصر .. فماذا حدث بعد دخوله ؟؟!

خرج الرجال فى القاهرة إلى القتال مع المماليك ومقاومة الفرنسيين لكن تخلف الأطفال والمسنون والنساء ، «وأما مصر - يقول الجبرتى - فإنها باقية خالية الطرق لاتجد بها أحد سوى النساء فى البيوت والصغار وضعفاء الرجال الذين لايقدرون على الحركة فإنهم مستترون مع النساء فى بيوتهم ..» .

فمكانها الذى لاتبرحه وموقعها بالضبط الاستتار فى البيوت ، ولكنها لن تبقى كذلك .. وسنرى موقفين أساسين أو فريقين من النساء : -

الأول : نساء المماليك وكن مشغولات بتهريب الأموال والمجوهرات وتخبئة الممتلكات وقد قبض على بعضهن أكثر من مرة لهذا السبب وقد لعبت دوراً رئيسياً فى ذلك السيدة «نفيسة المرادية» زوجة مراد بك وعلى بك الكبير من قبله وقد اقتيدت أكثر من مرة للمساءلة وافتدت بعض زميلاتها وكان نابليون والمشايخ يكنون لها عظيم الاحترام والتقدير .

الثانى : «عوام النساء» فى مصر وهؤلاء لهن مواقف عديدة ومختلفة ، وهن أيضا فئات متعددة .

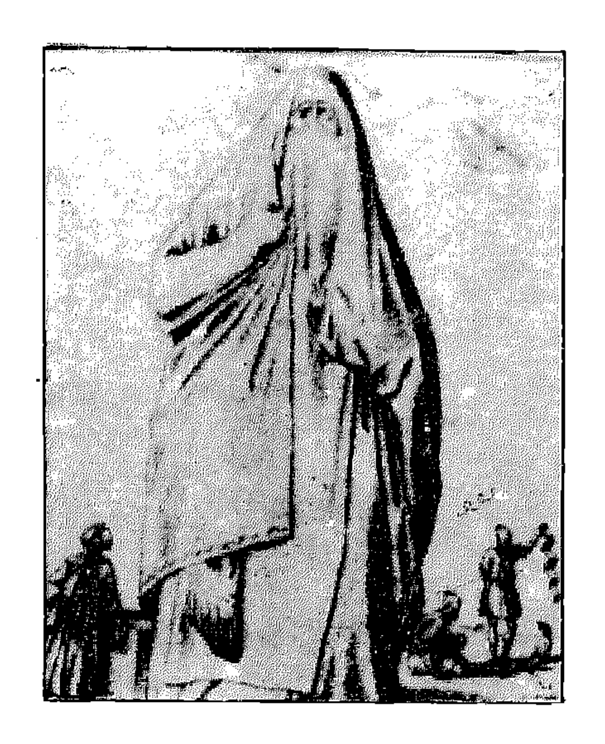
ترفضن الهدم

وبعد أن استقر الأمر لنابليون فى القاهرة هرب المماليك إلى الصعيد وفر العثمانيون وبعض المشايخ إلى الشام وبقى أبناء البلد وحدهم وجها لوجه مع المحتل .. وقد شرع بونابرت فى اتخاذ بعض الاجراءات بالمدينة للحفاظ على الصحة العامة وخشية انتشار الأوبئة ومنها إبعاد السكان عن المقابر خشية أن يؤدى تحلل الجثث إلى انتشار الأمراض .. ويبدو أن سكاناً كثيرين كانوا بالمقابر وحولها وذهب الجنود - كانوا مصريين - لتنفيذ الأوامر ليس فقط بإبعاد السكان وإنما بطريقتهم التاريخية هدم البيوت أيضا .. فما كان من السيدات الساكنات بمنطقة باب اللوق والمناصرة إلا أن خرجن فى مظاهرة إحتجاجية صاخبة وذهبن إلى مقر إقامة بونابرت بالأزبكية - قصر الألفى - وأعلنّ رفضهن لما يحدث فكان أن اعتذر القائد وتوقفت أعمال الهدم .. وهذه فيما نعلم أول احتجاج يقابل به بعد دخول العاصمة .. ويوردها الجبرتى فى وقائع ربيع ثان ١٢١٣هـ على النحو التالى «.. فى يوم السبت الثامن عشر ذهب جماعة من القواسة الذين يخدمون الفرنساوية وشرعوا فى هدم التراكيب المبنية على المقابر بتربة الأزبكية وتمهيدها بالأرض فشاع الخبر بذلك وتسامع أصحاب الترب بتلك البقعة فخرجوا من كل حدب ينسلون وأكثرهم النساء الساكنات بحارة المدابغ وباب اللوق وكوم الشيخ سلامة والفوالة والمناصرة وقنطرة الأمير حسن وقلعة الكلاب إلى أن صاروا كالجراد المنتشر ولهم صياح وضجيج واجتمعوا بالأزبكية ووقفوا تحت بيت صارى عسكر فنزل لهم المترجمون واعتذروا بأن صارى عسكر لا علم له بذلك الهدم ولم يأمر به وإنما أمر بمنع الدفن فقط ، فرجعوا إلى أماكنهم ورفع الهدم عنهم ..» وكانت هذه الوقعة قبل الاحتجاج العام الذى أصبح يعرف باسم «ثورة القاهرة الأولى ..»

المرأة إذن كانت فى قلب الحركة الوطنية لحظة ميلادها الأول؛ ليس هذا الموقف فقط ولكن هناك مواقف أخرى أهم .

حاملة الوطنية

كان الراحل د . سيد عويس يردد دائما أن المرأة المصرية حاملة القيم والتراث فى المجتمع وهذا صحيح تماماً .. ففى أثناء الحملة كان موقف «المعلم يعقوب»



واضحا إذ انحاز إلى جانب نابليون ضد المجتمع كله وشكل ما عرف باسم «الفيلق القبطى» وتهيأ للخروج بفيلقه من مصر مع الحملة حينما فشلت ووقعت معاهدة ١٨٠١ والتى تقضى بالانسحاب - فخرجت النساء القبطيات وزوجات أعضاء هذا الفيلق يعلنَّ رفضهن وتوجهن إلى الجنرال «مينو» يطالبنه بعدم السماح لهم بالخروج منّ البلاد .. وأما يعقوب فإنه خرج بمتاعه وعدا إلى الروضة وكذلك جمع إليه عسكر القبط وهرب الكثير منهم واختفى واجتمعت نساءهم وأهلهم وذهبوا إلى قائمقام وبكوا وولولوا وترجوه فى ابقائهم عند عيالهم وأولادهم فإنهم فقراء وأصحاب صنائع مابين نجار وبناء وصائغ وغير ذلك فوعدهم أن يرسل إلى يعقوب أنه لا يقهر من لايريد الذهاب والسفر معه » .

لقد وضعت تجربة الاحتلال والمقاومة المرأة إلى جوار الرجل ولم تعد كما كانت البداية مجرد عرض يمكن أن ينتهك ولذا عليها الاستتار فى البيت .. ففى القاهرة كان موقفها واضحاً وفى الأقاليم أيضا ففى الإسكندرية ورشيد قمن بالمشاركة الفعلية من صب الزيت المغلى فوق رءوس جنود الفرنسيين وكثير من أخبار الحملة فى القرى المصرية تؤكد مشاركة المرأة وتذكر «المأسورين والمأسورات» من الرجال والنساء الذين قاوموا الجنود .. وكان الفرنسيون فى البيانات والمواقف العامة ينظرون إلى النساء كأفراد لهن هوية وعليهن مسئولية مثل الرجل ولسن كماً مهملاً كما هو الحال من قبل وشعرت السيدات بذواتهن ؛ وهذا ما يفسر موقف نساء رشيد والاحتجاج الذى قمن به سنة ١٨٠٠ وعند بداية شهر رمضان فقد حدث أن أعلن عمدة رشيد حظراً على النساء يمنعهن من دخول الحمامات العامة .. وكان الحمام بالنسبة للنساء هو «النادى والملتقى» الذى يجتمعن به وقد حدث مثل

هذا الحظر قبل ذلك ولم يحدث أى احتجاج أو رفض بل كن يمنعن حتى من الذهاب إلى الأسواق -راجع ابن أياس الجزء التالى ص ١٨٢ - وكان الموقف يمر ، أما هذه المرة فقدتجمعت النسوة فى الحمامات للتشاور فى أمرهن وكتبن إلى الجنرال مينو الذى كان موجوداً فى رشيد أنهن يعرفن جيدا أن (الأفندى) قد أصدر هذا الأمر بدون علمه وأنهن يأملن فى أن يرفع عنهن هذا الحظر ...» وينتهى الموقف بإلغاء هذا الحظر وتم ذلك فى اجتماع يضم أعيان البلد ويشهده الأفندى ، حضر الاجتماع «مندوبات عنهن لمعرفة ما سيجرى فى هذه الجمعية» - صحف بونابرت فى مصر ج ٢ ص ١٣١، ١٣٢ وهذه أول مرة فيما نعرف يعقد إجتماع للأعيان وتحضره السيدات ويجلسن معاً ويخصص لمناقشة مطلب نسائى !!

أهل الهوى

يبقى هناك موقف فئة أخرى من السيدات وهن اللاتى جارين جنود الاحتلال وخلعن رداء الحشمة كما وصفها الجبرتى واعتبرها د . لويس عوض «بدايات حركة السفور فى مصر وبدايات حركة تحرير المرأة» واعتبرها أيضا «ثورة النساء» أو «ثورة الحريم» نتيجة لمخالطة المصريين للفرنسيين ومحاكاتهم فى الزى والسلوك !! «تاريخ الفكر المصرى الحديث ج ٢ - كتاب الهلال» وأقام د . لويس استنتاجه هذا بناء على ما قدمه الجبرتى فى مجمل وقائع سنة ١٢١٥ هـ حين قال «ومنها تبرج النساء وخروج غالبيتهن عن الحشمة والحياء وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش »

ويضيف الجبرتى : «وكان ذلك التداخل أولا مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة فى اخفائه فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا فى أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات صرن مأسورات عندهم فزيوهن بزى نسائهم وأجروهن على طريقتهن فى كامل الأحوال وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر » .

ويختم الجبرتى « وأما الجوارى السود فإنهن لما علمن رغبة القوم فى مطلق الأنثى ذهبن إليهم أفواجاً فرادى وأزواجاً فنططن الحيطان وتسلقن إليهم من الطيقان ودلوهم على مخبآت أسيادهن وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك »

فالجبرتى - هنا - يحدد ثلاث حالات فقط وليس كل النساء وهن :

- « أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش » .

- «السيدات والفتيات المأسورات فى أحداث ثورة القاهرة الثانية» .

- « الجوارى السود » .

وهؤلاء لا يشكلن عموم المرأة ولا يعبرن عنها فأهل الاهواء من الفواحش ، كن يمارسن أقدم مهنة فى التاريخ وكن موجودات بكل المدن العربية طوال العصر العثمانى؛ ولا غضاضة عليهن أن يملن إلى النساء والرجال الفرنسيين فهؤلاء تضعف عندهن الاعتبارات الأخلاقية ومع ذلك فكان لدى بعضهن أو كثير منهن حس وطنى فالجبرتى ذكر واقعة إعدام سيدة غررت بجندى فرنسى واقتادته إلى أحد البيوت وكان هناك من قتله .. ويبدو أن العملية كانت على نطاق واسع ولم تكن مجرد حالة أو حالتين ؛ فالمعلم « نقولا الترك » وكان



شديد التعاطف والتأييد للفرنسيين يذكر فى أسى ما تعرض له الجنود فقد مات منهم جمع غفير وكابدوا تعباً كثيراً» .. وذلك لأن «أهالى البلاد قتلوا منهم أناسا كثيرين بالانفراد ، وكانوا يدخلونهم إلى منازلهم بالأمان ويقتلونهم ويخفونهم ويضيف نقولا الترك – ص ٨٧ – « وكانت نساء مصر وخوارجها كثيرة فكانوا يأخذون الفرنساوية إلى منازلهم إلزاما ، ويقتلونهم ويرمونهم فى الأبيار ويخفون منهم الآثار وقد فقد منهم كثيرون بهذه الوسايط والانكاد هؤلاء هن «النساء الأسافل والفواحش» أو الباحثات عن الحرية والسفور .. كل يؤدى واجبه الوطنى ولكن بطريقته الخاصة !

ومع ذلك فإن هناك حالات اغتصاب قد وقعت ويمكن أن تكون بعض السيدات قد ملن هنا وهناك واختار المصريون الرد من جنس العمل ؛ ففى الصعيد خاصة كان البدو يخطفون الجنود الفرنسيين ويلوطون بهم ثم يطلقون سراحهم وكان ذلك رداً على أشياء كثيرة مراجع كتاب «بونابرت فى مصر» ومع ذلك فإن الجبرتى يذكر لنا أنه بعد جلاء الحملة وعودة العثمانيين فإن هؤلاء اللاتى جارينّ الفرنسيين قد ارتدين النقاب وارتبطن بزيجات مع العثمانيين يقول الجبرتى فى وقائع ربيع ثان ١٢١٦هـ ..

وفى يوم الاثنين الرابع عشر نودى على أن أهل البلدة لا يصاهرون العساكر العثمانية ولا يزوجونهم النساء وكان هذا الأمر كثر بينهم وبين أهل البلد وأكثرهم النساء اللاتى درن مع الفرنساوية ، ولما حضر العثمانية تحجبن وتنقبن وتوسط لهن أشباههن من الرجال والنساء وحسنوهن للطلاب ورغبوا فيهن الخطاب فأمهروهن المهور الغالية وأنزلوهن المناصب العالية فهؤلاء الباحثات عن الحرية والسفور عدن إلى النقاب والحجاب» .. وأمثال هؤلاء كثرة ولا يحدثن ثورة ولا يطلبن حرية ولا يسعين إلى سفور وأنما هن يبحثن عن صاحب السلطة أيا كان – عثمانيا أم فرنساويا – وعلينا أن نعترف بوجود هذه الفئة بين النساء والرجال فى كل مكان !!

أما «الجوارى السود» .. اللاتى نطظن الحيطان ؛ فقد قمن بوشاية ضد أسيادهن وهذه الفئة كن مقهورات «جوارى» ولا يعد هذا دليل موقف عام ومع ذلك فالجبرتى يقدم لنا هذه الواقعة – رجب ١٢١٥ هـ – «فى ثانية قتل غلام وجارية بباب الشعرية ونودى عليهما هذا جزاء من خان وغش وسعى بالفساد فيقال إنهما كانا يخدمان فرنساويا فدسا له سماً وقتلاه .. » .

ثقافة العلوم

بقلم : د . مصطفى سويف

نقصد بثقافة العلوم مجموع المعارف التى يحصل عليها المواطن غير المتخصص فى فرع علمى بعينه ، والتى تتناول أى فرع من فروع المعرفة العلمية المختلفة . والمقصود بهذه الفروع كل ما يصنف تحت أى من هذه البطاقات الأربع : العلوم الطبيعية ، والبيولوچية ، والسلوكية ، والرياضية . والموضوع الذى نعرض له بالمناقشة فى هذا المقال يتناول القدر الشائع من هذه الثقافة بين المهتمين بالاطلاع والتفكير من مواطنينا .

ونحن ندعى أولا أن هذا القدر ضئيل بالنسبة لما هو متاح من الأنواع الأخرى من مكونات الثقافة العامة ، وندعى ثانيا : أنه ضئيل كذلك بالنسبة لما يمكن وما يجب أن يكون الحال عليه فى مجتمع تتوفر له ظروف مجتمعنا المصرى المعاصر . وندعى ثالثا : وأخيرا أن علاج هذه الحال واجب ، وأنه ميسور فى ظل الإمكانات البشرية والمادية المتاحة لدينا فعلا . وسوف نختتم هذا المقال بإشارة موجزة إلى الكيفية التى يمكن أن يتم بها علاج هذه الحال .

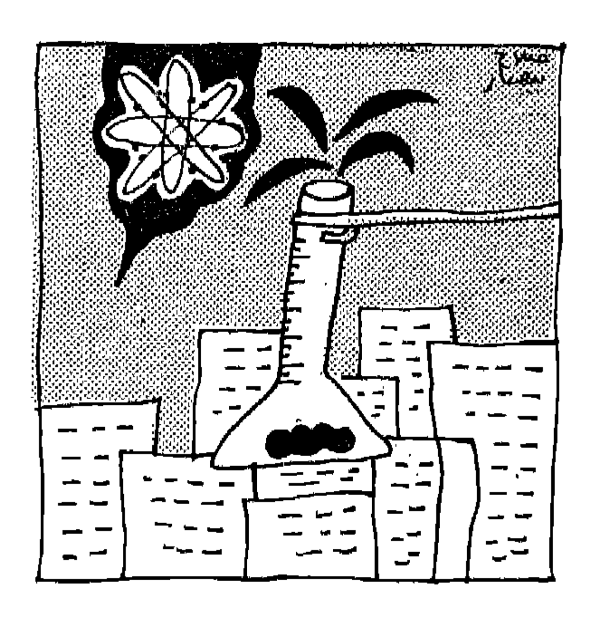
ضآلة الثقافة العلمية الشائعة :

لما كان من أعراض الاضطرابات النفسية الاجتماعية التى شاعت فى مجتمعنا المصرى فى الآونة الأخيرة الزيادة المطردة فى أعداد السادة المغرمين بالكلام من أجل الكلام ، فقد أصبح لزاما على الكاتب الحريص على وقته وعلى أوقات القراء الجادين أن يدخل أفضل قدر ممكن من الضوابط على أقواله حتى يقلل من فرص استشراء لغو الحديث . والتزاماً بهذه القاعدة فقد رأينا أن نحدد محك

الضآلة التى نحتكم إليه فى موضوعنا الذى نحن بصدده ؛ إذ مما لاشك فيه أن مسألة الضآلة أو الوفرة مسألة نسبية . ولذلك وجب التحديد الصريح لمحك التنسيب . وفى هذا الصدد نقرر أننا ندخل فى اعتبارنا محكين : أحدهما هو ما يقدم لمثقفينا من مكونات أخرى للثقافة غير المكونات العلمية . والمحك الآخر هو تصورنا للحجم الأمثل الذى نحتاج إليه فعلا من عناصر الثقافة العلمية فى هذه المرحلة التاريخية من حياة مجتمعنا المصرى بكل ما تنطوى عليه من مقومات موضوعية .

الوزن النسبى الراهن لثقافتنا العلمية :

فأما عن المحك الأول فلنا أن ننظر فيما تقدمه المجلات الثقافية التى تصدر



فى مصر الآن ، وتلك التى كانت تصدر فى بعض الأوقات على مر الثلاثين سنة الماضية أو نحو ذلك ثم احتجبت لسبب أو لآخر . ولنا أن ننظر فى الكتب المؤلفة والمترجمة التى لا تفتأ تصدر تحت مظلة الثقافة العامة . ولنا أن ننظر أيضا فيما تقدمه بعض الصحف الأسبوعية واليومية بين الحين والحين ، وما تقدمه الإذاعة المسموعة والمرئية . هذه هى الأوعية الرئيسية التى يجد فيها مواطنونا زادهم الثقافى على اختلاف ألوانه . ومن ثم فإن نظرة فاحصة على ما تحوى هذه الأوعية كفيلة بأن تضع النقط فوق الحروف فيما يتعلق بالمحك الأول الذى نحتكم إليه . وفى هذا الصدد تبدو نتيجة الفحص أمامنا واضحة لا لبس فيها ؛ فحجم تقديم العلوم فى هذه الأوعية جميعا كان ولا يزال شديد الضآلة بحيث لابد من وصفه بالندرة . يكفى أن نذكر فى هذا الصدد تحقيقا عمليا محدودا قمنا به أخيراً ، وذلك بتحليل المادة المنشورة على امتداد السنوات الثلاث ، منذ بدء عام ١٩٩٠ إلى نهاية عام ١٩٩٢ ، فى إحدى مجلاتنا الثقافية الشهرية الرصينة التى يتسع أفقها ليشمل ألوانا شتى من المادة الثقافية . فقد كشف التحقيق عن أن مجموع ما تم نشره فيها ٥٧٠ خمسمائة وسبعون مقالا ، ليس بينها سوى ٢٠ عشرين مقالا فى العلوم

بالصورة الصريحة المباشرة التى نعنيها فى معالجتنا الراهنة ، أى بنسبة لا تزيد على ٣٨ ، ٤٪ . أى أنه بين كل مائة مقال لا يوجد سوى أربعة تقريبا تقدم فيها الثقافة العلمية ، والباقى وعددها ستة وتسعون مقالا تكرس للمكونات الأخرى للثقافة من آداب وفنون وآراء فى السياسة والإصلاح الإجتماعى .. الخ . وجدير بالذكر هنا أننا لم نصنف تحت هذه المقالات الستة والتسعين أى عمل من الأعمال الابداعية التى نشرتها المجلة من قبيل القصص وقصائد الشعر . فإذا تركنا فئة المجلات الثقافية العامة فما عداها مما ينتظم فى مستواها مجلات ثقافية مخصصة بكاملها لفروع بعينها من الدراسات السياسية والأدبية والفنية أو لأنواع بذاتها من الأبداع الأدبى . وعلى سبيل الاستزادة من التحقيق فى هذا السياق فقد رجعت إلى كثير من أعداد مجلتى « المجلة » و« الفكر المعاصر » وكانتا تصدران فى الستينيات ، فلم أجد حال العلم فيها خيرا مما هو عليه الآن . بل لعل حالنا الآن أفضل قليلا .

فإذا تركنا بند المجلات الثقافية العامة واتجهنا نحو النظر فيما يصدر لدينا من كتب تستهدف المثقف العام وجدنا أن الأمر فيها لا يختلف عن ذلك فى قليل أو كثير . وقد نظرت لهذا الغرض فى قائمة المنشورات التى تحصى ما أصدرته دار نشر حديثة التأسيس مشهود لها بالنشاط، فوجدت أن من بين ١٣٠ مائة وثلاثين إصدارا تضمنتها القائمة لا يوجد سوى أربعة إصدارات تقدم موضوعات العلم ، أى بنسبة ٠٨ ، ٣ ٪ ، وتشير كثير من الدلائل إلى أن دور النشر الأخرى القائمة على الثقافة العامة لا تسهم فى نشر ثقافة العلوم بما يجعلها فى وضع أفضل من تلك الدار التى أشرنا إليها ، رغم التفاوت فى أعمار تلك الدور ، وفى أحجام الأموال الموظفة فيها .

وننتقل الآن إلى الصحافة . بالنسبة لصحافتنا الأسبوعية يكاد يكون هذا الموضوع غائبا تماما عن جدول أعمالها . أما الصحافة اليومية فالأمر فيها يقتصر على صحيفة واحدة هى التى تخصص من

حين لآخر صفحة أو بعض صفحة لما يبدو وكأنه ثقافة العلوم بالتحديد الذى نعنيه ، ولكن هذا غير صحيح . وقد حاولنا أن نحدد طبيعة هذا الذى ينشر فى تلك المساحة وذلك بالنظر فى مضمون ما ظهر فيها على امتداد شهر كامل هو شهر مارس الماضى فوجدناه يقع تحت واحدة من فئات أربع ، هى : الدعاية (المجانية) لأطباء بأسمائهم وأحيانا بصورهم ، أو الدعاية لوزير بعينه ، أو لبضعة أساتذة جامعيين لدواعى « النجومية » غالبا ، أو الدعاية لجهاز أو أجهزة تباع آنذاك بشكل مباشر أو عن طريق الوكلاء فى السوق المصرية . هذا عن الجريدة اليومية التى تقترب من إعارة موضوعنا قدراً محدوداً من اهتمامها . **أما عن الإذاعة المسموعة والمرئية فالصمت أبلغ من لغة الكلام فى شأنهما .**

هذا عن نصيب ثقافة العلوم منسوباً إلى العناصر الثقافية الأخرى مما تقدمه أوعيتنا الثقافية الرئيسية فى الوقت الراهن. وقبل أن ننتقل من هذا الموضوع إلى الفقرة التالية من الحديث أرجو ألا يساء فهم المقصود من الموضوع الذى نعالجه ؛ فنحن أولا : لم نقصد إلى التقليل من شأن العناصر الأخرى التى يتكون منها المعروض الثقافى الذى يقدم إلى موطنينا . ونحن ثانيا : لا نستكثر هذا الذى يقدم سواء فى كله أو فى بعضه بل لعلنا نجده أقل بشكل ملحوظ مما ينبغى أن يتاح لطالبى الثقافة العامة . ونحن ثالثا : لا نشير من طرف خفى إلى المعانى التى قد تتداعى عند البعض عندما يستخدم أحدهم عبارة « المكونات غير العلمية » وهى عبارة شاع استخدامها عند من يريدون بحق أو بغير حق خفض قيمة الموصوف بها . ونحن رابعا : وأخيرا لم نستهدف إلا التنبيه إلى وجوب زيادة وزن ثقافة العلوم ضمن مقومات الثقافة العامة المعروضة .

ثقافة العلوم فى حجمها الأمثل :

والسؤال هنا ، فما هو الحجم الأمثل ؟ لابد من التسليم بادىء ذى بدء بأن تحديد الحجم الأمثل فى أمر كهذا الذى نعالجه مسألة يجوز فيها اختلاف الرأى ومع ذلك فما لا يمكن قبوله تحت هذا الشعار أن يبقى الحد الأمثل عند ٣ ٪ أو ٤ ٪ من حجم المعروض الثقافى ، إذ أن إقرار هذه النسبة يتعارض مع مسلّمة ذات أهمية استراتيجية فى حياة الأمم مؤداها وجوب أن تكون مقومات الثقافة المعروضة والشائعة متوازنة فيما بينها أو قريبة من التوازن من حيث فئاتها الكبرى ؛ فإذا قلنا إن هذه الفئات الكبرى هى : مجموعة العناصر ذات الطبيعة العلمية والشبيهة بالعلمية ، ومجموعة المقومات ذات الطبيعة الفنية والأدبية وما شابهها ومجموعة المقومات ذات الطبيعة الميتافيزيقية والدينية، بالإضافة إلى مجموعة المكونات

ذات الطبيعة العملية ... فلابد من تصور أن يكون هناك سعي دائم إلى تحقيق قدر معقول من التكافؤ بين الأنصبة التي تسهم بها أوزان مضامين هذه الفئات الأربع في الكيان الكلى للثقافة الشائعة . وقد تحدثنا من قبل على صفحات هذه المجلة الغراء عما أسميناه باللياقة النفسية للفرد . والآن نتحدث عما يقترب من اللياقة الثقافية للأمة.

وليس من المعقول ولا من الممكن في حدود الواقع البشرى المعهود أن نطلب تحقيق التوازن داخل الكيان الثقافي العام على أساس التساوى الدقيق رياضيا بين الأوزان النسبية لمكوناته الكبرى بحيث يكون نصيب كل منها ٢٥ ٪ من الوزن الإجمالي للبناء الثقافي . ولكن هذا لا يعنى بحال من الأحوال أن نرتضى الخلل على أساس أن هذا الرضا تقتضيه المرونة في تدبر أمور المجتمع ؛ فكون نسبة أحد المكونات الرئيسية منخفضة إلى ما يقرب من ٣ ٪ أو ٤ ٪ هذا خلل لا يجوز السكوت عليه ، سواء جاءت الدعوة إلى السكوت باسم المرونة أو حتى باسم الصبر على المكروه . لابد من عمل بقصد التغيير يبدأ فورا ويقوم على تخطيط واضح في فلسفته حاسم في توجهه نحو تعديل النسبة التي تتوفر بها ثقافة العلوم في الكيان الثقافي العام لهذه الأمة بحيث ترتفع إلى المستوى الذى يستوجب الوصف بشيء آخر غير الخلل ، شيء أقرب إلى التكافؤ والتناسق .

هذا واجبنا جميعاً كل بقدر ما أتيح له من الوعى العام ، وما ألقى إليه من مسئولية في إدارة دفة حياتنا الاجتماعية الثقافية .

ولا أظنني أتجاوز حدود الكياسة هنا إذا ذكرت على رأس قائمة المسئولين في هذا المجال الصديقين الكريمين الأستاذ الدكتور سمير سرحان رئيس الهيئة العامة للكتاب ، والأستاذ الدكتور جابر عصفور أمين عام المجلس الأعلى للثقافة ، وكذلك السادة الأفاضل المسئولين عن دور النشر ، وعن الصحف الشهرية والأسبوعية واليومية .

في البدء كان الفعل :

في هذا الموضع من الحديث تفرض عدة أسئلة نفسها داعية إلى الإجابة الواضحة حتى تستقر في الذهن معالم الموضوع وما بينها من علاقات وتبريرات بصورة مقنعة ؛ ويأتي في مقدمة هذه الأسئلة جميعا السؤال عن السبب الذى من أجله يلزمنا أن نعتنى بالعلوم في ثقافتنا العامة . لماذا ؟ صحيح أننا أجبنا على ذلك بما طرحناه من ضرورة تحقيق التوازن بين المكونات الكبرى لهذه الثقافة . ولكن تظل روح السؤال رغم ذلك قائمة ؛ ولماذا ينبغى أن يتحقق هذا التوازن ؟ لابد من تعميق الإجابة حتى نصل إلى الجذور . ولكن لأن الجواب المطلوب في هذا الصدد يحتاج إلى جهد خاص من الكاتب والقارىء معاً ، جهد ينطوى على التفاتة ذهنية جديدة ، أو

زاوية نظر جديدة دون أن يكون مجرد استمرار على وتيرة الأجزاء السابقة من حديثنا هذا فقد وجب أن نؤجل معالجته هو وما يتداعى معه من أسئلة متفرعة عنه إلى مقال آخر قائم بذاته .

أما الآن فالسؤال الوارد بإلحاح هو : هل يمكننا البدء في خطوات التنفيذ على الفور ؟ وهل لدينا من يستطيعون النهوض بهذه المهمة ؟

نعم يمكننا البدء في خطوات التنفيذ فوراً . قليل من الكلام وكثير من الفعل هو المطلوب في بعض المواقف . ونحن هنا بصدد واحد من هذه المواقف . ولا جدال في أن النوع المطلوب من الكتابة (أو العرض بأية وسيلة تثقيفية) يحتاج إلى أشخاص يجمعون بين المعرفة العلمية رفيعة المستوى وقدرة الإفصاح اللغوى البليغ ، أى أن يكونوا من ذوى العلم والقلم . فهل يوجد لدينا هؤلاء ؟ نعم . هؤلاء موجودون الآن، وكانوا موجودين قبل الآن، وسوف يظلون موجودين في المستقبل المنظور ، لأننا هنا فى مصر ، ولسنا فى « بلد ما » من بلدان العالم الثالث . كان لدينا من ذوى العلم الرفيع والقلم العربى البليغ رجال من أمثال على مصطفى مشرفة ، وأحمد زكى، وعبد الحليم منتصر، ومحمد كامل حسين ، وعبد اللطيف جوهر، وحسين فوزى ، ومحمد داود التنير ، وعندنا الآن عشرات يواصلون المسيرة ؛ من أمثال أبو شادى الروبى ، وعصام الدين جلال ، وعبد العظيم أنيس ، ومحمد عامر ، وحسن عواض ، وأحمد عامر وحامد عمار ، وأحمد أبو زيد . ولهؤلاء تلاميذهم الذين يتشكلون الآن ، وسوف يملأون الساحة فى المستقبل القريب .

إن المشكلة الرئيسية التى تواجه مثل مطلبنا هذا هى فى معظم الأحوال مشكلة وجود القوة البشرية القادرة على التنفيذ . أما والحال أن هذه القوة متوفرة لدينا ، بل ولها ماض يمكن الاسترشاد به ، فلم يبق إلا الإقدام على استثمارها لإضافة العلم إلى حصيلتنا الثقافية هؤلاء رجال وصلوا فى الاشتغال بالعلم تحصيلا وبحثا وتعليما إلى مستويات رفيعة ، وهم يجمعون إلى ذلك طواعية القلم . **فلماذا لا نستثمر هذا الجانب فيهم ، أسوة بما هو حادث بالفعل من استثمار جوانبهم الأخرى كمعلمين فى المدرجات أو باحثين فى المعامل ؟ وجدير بالذكر فى هذا المقام أن المهمة التى ندعو إلى الاهتمام بها لا يقوى على إنجازها إلا علماء متمكنون ، فلا يجوز أن نقع هنا فى خدعة أننا مادمنا نطلب تبسيط العلم فلنطلبه من البسطاء فى الإلمام به ؛ هذا خطأ لا يجوز الانزلاق إليه بأى دعوى أو تبرير . إنما الصواب أنه لا يقوى على تبسيط العلم إلا الراسخون فيه ؟ .**

في الشهر الماضي أحتفلنا بمرور مائة عام على مولد بيرم التونسي


أحمد شوقى بيرم التونسى

"شوقى زجال والا شاعر ؟

بقلم : د. على الراعى

بين شوقى وبيرم قامت علاقة لم تنقطع . كان شوقى يخشى على شعر الفصحى من بيرم ، وكان بيرم يرى فى شوقى عقبة كأداء تحول بينه وبين أن يعرف الناس قيمته الحقيقية : ليس زجالا وحسب ، بل أمير الشعر الذى يتحدث بلغة الشعب عن هموم الشعب .

كان المركز الأدبى والمادى والاجتماعى لشوقى يستفز بيرم إلى الهجوم على أمير الشعراء من كل سبيل ، وبكل وسيلة ، مُقْنعة أم غير مقنعة ، مشروعة أم جانبها الانصاف . لم تسلم عيون القصائد التى كتبها شوقى من التندر والتسخيف . قصائد مثل قصيدته فى شكسبير : « اعلى الممالك ما كُرْسيه الماء » ، ومثل : « يا جارة الوادى » ، وقصيدته الأندلسية وغيرها وكان بيرم يسعى إلى أن يُعْلى من شأن نفسه بوضع عبارة : «أمير الزجالين من غير منازع » فى كل مرة ينشر فيها أزجاله فى مجلة «الفنون » التى صدرت

فى مصر ابتداء من عام ١٩٢٧ ، كان بيرم يكاد يحـررها كلها هى وزميلتها ، الامـام ، التى صدرت فيما بعد بتمويل ورعاية من محمد بك . وفى احدى المرات أقام بيرم مسابقة خُصص لها جوائز تدور حول سؤال القراء عن أحسن مادة أدبية نشرت لبيرم فى العام السابق على الاعلان عن الجائزة .

ثم أخذ بيـرم يهـاجم شوقى مبـاشـرة فى أزجـاله . وضع لأحـد هذه الازجال العنوان المستفز التالى : ، شوقى زجال والا شاعر ، ؟ يقول فيه :

يا أميـر الشعـر غيـرك / فى الزجل يصبح أمـيـرك / مش بعيد اسـأل غفيرك / اللى يفهم فى المجال . الزجل يظهر مقامك / والعيال تفهم كلامك / يتفقس فنك قوامك / بعد ما نلت المنال . أما مسألة القوافى / اللى فيها الغش خافى / هىّ انفع لك وكافى / انك انكرمت ، قال !

غيـر أن هذا السـخط كله ، وهذه الرغبـة فى التـهوين والتـسخيـف ، لم تكن الا مشاعر تتحرك على السطح . ففى داخل بيرم كان فنان صادق الحس يعرف الجمال أين وجده ويعترف به عند الضرورة . وقد جاءت هذه الضرورة حين مـات شوقى . فانظر ماذا قال أمير الزجل فى أمير الشعر ، من قصيدة ألقيت فى حفل تأبين شوقى اقامته الجالية المصرية بباريس :

مكتـوب لى فى الغيب مصيبة	والغيـــــب خـــــافى
تطـــول حيـــاتى الكئيبـــة	وأرثـــى أمـــيـــر القـــوافى
يا شـــوقى ســـاعة رهيبـــة	لمـــا المنـــايا تـــوافـــى
عزيز عـلى الشـــرق بات لـــه	الشـــرق صـــارخ ولاطـــم
وقفـت ارثيـــك بصـــــوتى	والصـــوت على البعـد خافت
مـوتـك ، وياريتـــه مـــوتى	انطق لسان كل ساكت .. الخ

ولا تعليق .....!



التسامح ..
فى طوبغرافية القاهرة



بقلم :جمال الغيطانى

امتزجت حياتى بالقاهرة واتحدت ، أيام عمرى توزعت على شوارعها وحاراتها ونواصيها ومساجدها وأسبلتها وخانقاواتها وبيوتها المتجاورة فى المكان ، التى وصلت من أزمنة مختلفة .

هكذا يكون تجوالى فيها بحثاً عن دفائن ذاكرتى وخباياها وما فقدته من لحظات حميمة عبر مرور الأيام بى أو مرورها بى .

القاهرة الآن مدينة شاسعة المساحة ، يعيش فيها أكثر من خمسة عشر مليوناً من البشر ، تتجاور فيها الأزمنة التاريخية ، العصور المختلفة ، ما قبل التاريخ في المقطم والمعادى . الفرعونى فى الجيزة ، القبطى فى مصر القديمة . الإسلامى الذى يشكل إطاراً لهذا كله . مركزه ما يعرف بالقاهرة الفاطمية أو المدينة القديمة . فى هذه المدينة عشت ، نشأت وتعلمت وتأملت ولا تزال حتى الآن مرجعى الأول والأخير حتى بالنسبة لدقائق الأمور .

أشهر الكنائس

بعد الفتح العربى لمصر عام ٦٤ ميلادية أسس العرب أول مدينة إسلامية والتى عُرفت باسم الفسطاط ، كان الفسطاط الذى ضربه القائد الفاتح عمرو ابن العاص على بعد أمتار قليلة من حصن بابليون الرومانى ، ومجموعة الكنائس القبطية الشهيرة فى المنطقة المعروفة الآن بمار جرجس حيث توجد أشهر الكنائس القديمة فى مصر وهى الكنيسة المعلقة ويرجع تاريخها إلى أواخر القرن الرابع الميلادى وإلى نفس الحقبة يرجع تاريخ كنيسة أبى سرجة ، وكنيسة القديسة بربارة وهذه الكنائس إضافة إلى المتحف القبطى تعتبر من أهم المزارات التاريخية والسياحية الآن فى القاهرة .

فى نفس المنطقة التى بنى فيها الفاتح العربى والقائد المسلم عمرو بن العاص أساس أول مدينة اسلامية ليس فى مصر فقط ولكن فى أفريقيا كان يوجد عدد من معابد اليهود المهمة . ويذكر المؤرخ الذى صان تاريخ القاهرة القديم من الاندثار ، المقريزى ، الذى عاش فى القرن الخامس عشر الميلادى ونقل عن مصادر قديمة لم تصلنا . يذكر عدد من المعابد اليهودية فى الفسطاط منها معبد «المصاصة» الذى بنى قبل الفتح الإسلامى ، يقول المقريزى عنه:

«هذه الكنيسة يجلها اليهود وهى بخط المصاصة من مدينة مصر ويزعمون أنها رممت فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وموضعها يعرف بدرب الكرمة وبنيت فى سنة خمس عشرة وثلثمائة للاسكندرية وذلك قبل الملة الإسلامية بنحو ستمائة واحدى وعشرين سنة ويزعم اليهود أن هذه الكنيسة كانت مجلساً لنبى الله إلياس ...» .

يحدثنا المقريزى عن معبد (أو كنيسة كما يسميه) الشاميين بخط قصر الشمع بالفسطاط ، ومعبد العراقيين .

عندما تم فتح مصر على أيدى العرب المسلمين كان أهل مصر من المسيحيين واليهود ، الغالبية من المسيحيين وأقلية من اليهود وكانت كلمة "قبطى" تطلق على جميع المصريين ، ثم أصبحت تعنى بعد ذلك المصريين المسيحيين . لقد عقد صلح بين المصريين والفاتحين الجدد ، وأعلن أمان يكفل للمصريين من المسيحيين واليهود الأمان لممارسة حرية العبادة فى الكنائس والمعابد ، ويشمل الأمان أنفسهم

وأموالهم وأراضيهم ، كان عمرو بن العاص وهو يمنح المصريين هذا الأمان يعبر عن جوهر الدين الجديد من تسامح وسمو روحى ، وقد ظل هذا جوهر الدين الإسلامى فيما تلا ذلك من عصور . عندما زرت الأندلس والمجر ويوغسلافيا وبلغاريا رأيت عدداً من المساجد التى تمت إلى الزمن العثمانى يعلوها الصلبان ، فى الأندلس جرت محاولات لطمس الملامح المعمارية الإسلامية ، وجدت أيضاً الكنائس القديمة السابقة على دخول المسلمين تلك الديار سليمة لم تمس ، كذلك الآثار الرومانية . لم تتعرض للتدمير على أيدى العرب أو الاتراك المسلمين ، فى مصر لم تمس الكنائس القبطية ، أو المعابد اليهودية فى أول مدينة يشيدها العرب المسلمون ، الفسطاط ، ولم يقتصر الأمر على المنشآت الدينية فقط ، إنما امتد الأمان والتسامح إلى رجال الدين، إلى الأموال ، إلى البشر.

تسامح الإسلام

هكذا ... ظهر البطرك القبطى بنيامين الذى اختفى قبيل وصول قيرس حاكم مصر من قبل الإمبراطور البيزنطى هرقل إلى الاسكندرية سنة ٦٣١ ميلادية ، عندما علم عمرو بن العاص باختفائه أرسل كتاباً إلى جميع أقاليم مصر يؤمنه فيه على نفسه ويدعوه للظهور حتى يشرف على شئون القبط ، وفعلاً عاد البطرك إلى مقره فى الاسكندرية بعد اختفاء استمر ثلاثة عشر عاماً .

ونتيجة لعوامل عديدة منها أصالة الاسلام وتسامحه وقدرته على استيعاب الحضارات القديمة وتكييفها وإعادة تقديمها ، ومنها قدرة مصر على استيعاب الوافد ، وتمصيره ، لم ينقسم الشعب المصرى إلى طوائف منعزلة عن بعضها ، متباعدة أو منغلقة على نفسها بعد دخول اعداد كبيرة من المصريين فى الدين الجديد ، لقد ظل المصريون وحتى الآن جماعة واحدة ، متداخلة ، متجانسة ، منهم المسلم . ومنهم القبطى . ومنهم اليهودى . وانعكس ذلك على شتى مظاهر الحياة ، وبالتحديد طوبغرافية القاهرة التى لم تعرف على امتداد تاريخها التمايز فى المناطق السكنية ، حيث تخلو تماما من وجود مناطق أو أجزاء مغلقة على سكان ينتمون إلى دين معين أو جنس ما . هناك تداخل وتجانس فى المدينة كلها ، وإذا كنا بدأنا من الفسطاط حيث الكنائس العتيقة لاتزال فى مواقعها العتيقة ، تتلامس فى الفراغ ظلال أبراجها التى ترفع الصلبان مع مآذن المساجد التى تنتهى بالهلال ، ومنها مئذنة أول مسجد فى مصر . وفى أفريقيا كلها ، مسجد عمرو بن العاص .

لقد استمر التسامح هو القانون العام، والنطق الأول لتدفق الحياة فى المدينتين التاليتين ، العسكر التى أسسها الخلفاء العباسيون والقطائع التى أسسها أحمد بن طولون ، العسكر والقطائع الآن احياء صغيرة فى المدينة القديمة ، القاهرة التى

وضع أساسها جوهر الصقلى القائد الفاطمى ، بالتحديد فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هجرية (٦ يوليو ٩٦٩ ميلادية) . لقد نمت عاصمة الفاطميين واتسعت واحتوت كافة المواضع والمدن التى سبقتها ، وأصبحت العواصم السابقة مجرد مناطق صغيرة من مكوناتها ، بدءا من منف الفرعونية ، وبابليون الرومانية ، والفسطاط والقطائع والعسكر الإسلامية ، هكذا احتوت القاهرة الأزمنة المختلفة وحولتها إلى عناصر فى زمنها الخاص . وهذا جوهر وقتى الخاص أيضاً ..

قصر الشوق

دير للأقباط اسمه دير العظام

بستان

حصن صغير قديم ، كان معروفاً باسم «قصر الشوك»

هذا ما كان موجوداً فى تلك المنطقة الممتدة قرب جبل المقطم والتى أرسى فيها جوهر الصقلى أساس المدينة الجديدة ، القاهرة .

حصن «قصر الشوك» اختفى ، بقى منه الآن الاسم فقط ، أصبح «قصر الشوق» انه اسم شارع شهير بالجمالية ، ويحمله أيضاً الجزء الثانى من ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة . حارة صغيرة اسمها «درب الطبلاوى» تتفرع من شارع قصر الشوق ، فى أحد بيوتها أمضيت طفولتى وشبابى . يوما ما .. لا يمكننى تحديد موقعه الآن ، لا من مسيرة الزمن ، ولا من عمرى ، أذكر خروجى بصحبة أبى لزيارة أحد ابناء بلدتنا جهينة التى ولدت بها فى أعالى الصعيد ، إنه قبطى مازلت أذكر اسمه ، «فخرى غورس» ، كان تاجراً ، يمتلك متجراً يبيع فيه الثوم والليمون والزيتون بالقرب من مسجد الحاكم بأمر الله ، أذكر زيارتنا له فى بيته مهنئين بأحد أعياده المسيحيين ، لا أذكر اسم العيد، ولكننى أذكر أنه قدم الينا طبقا من البسكويت والكعك الذى يقدمه المسلمون فى عيد الفطر ، كعك العيد الذى كانت تسهر والدتى - رحمها الله - الليالى الأخيرة من شهر رمضان لإعداده ، إنه نفس الكعك المحشو بالملبن أو البلح والمغطى بالسكر الناعم ، ويُقال إن المصريين عرفوه لأول مرة فى العصر الفاطمى ، لقد عرف المجتمع المصرى أعياداً للأقباط وأعياداً للمسلمين وأعياداً لليهود ، كل عيد اتصف بمظهر وتقاليد معينة ، ونلاحظ احترام كل عنصر للآخر ، بل والحرص على المشاركة، وهناك أعياد يحتفل بها المصريون جميعاً وهذا موضوع يحتاج إلى دراسة مستقلة ، غير أننى أشير إلى شهر رمضان الكريم وحرص جيراننا الأقباط على احترام شعور اخوانهم المسلمين ، بل تناول الوجبة الرئيسية داخل بيوتهم بعد الغروب ، والحرص على تقديم التهنئة للجيران المسلمين فى عيد الفطر وعيد الأضحى وأذكر أثناء ترحالى فى صعيد مصر

مشاركة المسلمين باعداد كبيرة فى موالد «العذراء» التى تقام بالأديرة القبطية . وفى تقديرى أن هذه الموالد تحوى الكثير من العناصر المنحدرة إلينا من العصر الفرعونى.

من درب الطبلاوى بقصر الشوق كنت أخرج بصحبة الوالد إلى ميدان سيدنا الحسين إلى المسجد الأزهر ، إلى باب زويلة ، وكثيرا ما كنا نعبر منطقة الباطنية ، ونمر فى قلب المنطقة المزدحمة . العامرة بالبيوت ، والمساجد ، وأضرحة أولياء المسلمين ... نمر أمام كنيسة عتيقة ، مهيبة المظهر ، وكثيرا ما تطلعت إليها ، وعندما تقدم بى العمر ، ورحت أجوس خلال المدينة بمفردى ، إما فى شوارعها أو زمنها ، كنت أفكر فى تاريخ هذه الكنيسة ، وموقعها الفريد، القريب من الجامع الأزهر، وشيئا فشيئا يتكشف لى أحد المعالم القوية، الثابتة للتسامح فى قاهرتنا العريقة .

الكنائس

يذكر المقريزى فى كتابه الموسوعى «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» المعروف بالخطط المقريزية سبع عشرة كنيسة قبطية فى القاهرة ، موزعة على جميع انحاء المدينة ، ولا تتركز فى منطقة واحدة ، بل نلاحظ أن معظمها يقع فى قلب المدينة جنباً إلى جنب مع المساجد الكبرى، من الكنائس التى ذكرها المقريزى :

كنيستا الخندق وكنيسة حارة زويلة ، وكنيسة المغيثة بحارة الروم ، وكنيسة يوحنا وكنيسة المعلقة وكنيسة شنودة وكنيسة مريم وكنيسة بوجرج وكنيسة بربارة وكنيسة بوسرجة وكنيسة بابليون وكنيسة تادرس الشهيد وكنيسة يوحنا بجوار بابليون وكنيسة يوحنا وكنيسة الزهرى وكنيسة ميكائيل وكنيسة مريم .

فى خطط على باشا مبارك المكتوبة فى القرن التاسع عشر ، يذكر على باشا مبارك ثمانى وعشرين كنيسة إذا تأملنا مواقعها سوف نجد أنها تغطى المدينة من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها .

– كنيسة الأرمن : بوسط شارع بين السورين .

– كنيسة الأرمن الكاثوليك : داخل عطفة الأحمر بدرب الجنينة .

– كنيسة الأروام : هى بشارع الحمزاوى على يمين المار من الحمزاوى إلى الوراقين (لاتزال موجودة وتبعد عن الجامع الأزهر أقل من نصف كيلو متر) .

– كنيسة الأروام : داخل حارة الروم من شارع السكرية .

– كنيسة الروم : داخل عطفة البطريق بحارة الروم .

– كنيسة خميس العدس : بجوار مدرسة الفرنساوية بآخر شارع خميس العدس .

- كنيسة درب الطباخ : بشارع حارة اليهود .

- كنيسة الدير : داخل عطفة الدير بشارع وكالة الصابون .

- كنيسة السرياني : داخل درب قطرى من درب الجنينة .

- كنيسة السبع بنات : آخر حارة الدحديرة الموصلة لشارع كلوت بك .

- كنيسة الشوام : داخل عطفة البحرى بدرب الجنينة .

- كنيسة القبط : بحارة زويلة .

- كنيسة القبط : داخل عطفة من شارع الدرب الواسع الموصل لشارع كلوت بك .

- كنيسة القبط : أول درب المواهى من شارع حارة الحمام بقرب حارة السقايين .

- كنيسة الموارنة : داخل درب الجنينة

ثم يذكر كنائس أخرى بالخرنفش ، وشارع الدهان ، ودرب المبلط وشارع الدروة ودرب الكتان ، ودرب النصيرى ، وشارع الصقالبة . وداخل حوش الصوف، وفى عطفة المصريين ، وداخل حارة البرابرة بالموسكى . ويتحدث على باشا مبارك مطولاً عن مقر البطريركية الارثوذكسية بمنطقة الأزبكية والتى شيدت عام ١٨٠٠ ميلادية ، ويوجد مقر البطريركية الآن فى العباسية ، وهذا المقر المهيب اختار موقعه وتبرع بتكاليفه الزعيم الراحل جمال عبد الناصر فى الستينات .

ونلاحظ أن المقر البطريركى الحالى أو القديم فى الازبكية أو الأقدم فى حارة الروم ، فى كل هذه الحالات والعصور كان المقر قائماً فى منطقة لا توجد بها أغلبية قبطية ، بالعكس ... ذلك أن القاهرة لم تعرف كما ذكرت الأحياء أو المناطق المغلقة على طائفة واحدة ، أو أصحاب دين واحد، ذلك أن المجتمع المصرى كان مجتمعا يعيش فيه المصريون كجماعة واحدة ، داخلها مسلمون واقباط ويهود ، ويكفى أن نراجع مرة أخرى مواقع دور العبادة والقائمة حتى الآن لنتأكد من هذه الحقيقة .

المعابد

فى قلب القاهرة الفاطمية توجد منطقة اسمها حارة اليهود ، تقع غرب خان الخليلى السوق الشهيرة . وعلى بعد أقل من نصف كيلو متر من مسجد الإمام الحسين ، المركز الروحى ليس للقاهرة فقط وإنما للقطر المصرى كله ، تتكون حارة اليهود من أزقة صغيرة متداخلة ، بها عدد كبير من المتاجر التى تصنع التحف الصغيرة ، خاصة الفضية والذهبية ، وعلب

القطيفة ، والصناعات الدقيقة اليدوية . ومع أن الحارة اسمها حارة اليهود ولكن لا يمكن اعتبارها بمثابة (جيتو) لليهود ، أو (ملاح) كما تسمى احياء اليهود فى المغرب العربى والتى تمتد إلى جوار القصر الملكى مباشرة رمزاً لحماية سلطان المغرب المسلم للأقلية اليهودية .

حارة اليهود فى القاهرة ليست مغلقة على اليهود فقط ، سواء فى العصر الفاطمى ، أو المملوكى ، أو العثمانى ، أو ... الحديث .

تماما مثل المساجد ، والكنائس المسيحية ، تتوزع المعابد اليهودية على القاهرة ، وحتى عام ١٩٣٠ كان فى القاهرة نحو ٣٠ معبداً ومحفلاً تنتمى إلى مجموعات ومجتمعات متباينة ، يهود مغاربة وأتراك ، ويهود من أصول إيطالية وأسبانية وفرنسية ، إلى جانب اليهود المصريين الذين كانوا منذ القدم جزءا من المجتمع المصرى .

وأكبر معابد القاهرة يوجد الآن فى شارع عدلى ، شيدته عائلة موصيرى عام ١٩٠٣ ، ويعتبر من أجمل المعابد معمارياً والشعائر لم تنقطع به قط منذ انشائه ، أما حارة اليهود فتضم عدداً من المساجد والكنائس إضافة إلى معبد المصريين الذى تأسس زمن الفاطميين سنة ١٠٣٨ ميلادية، والطريف أن عدد المسلمين فى هذه المنطقة المعروفة بحارة اليهود كان يفوق عدد المسيحيين واليهود معاً .

* * *

هكذا تعكس طوبغرافية القاهرة ذلك التسامح الذى ساد المجتمع المصرى وكان مصدره جوهر الإسلام نفسه وطبيعة المجتمع المصرى ، وهذا التسامح لا يبدو فقط فى امتزاج المصريين فى المكان ، ولكن يتخطى ذلك إلى تشابه العادات والتقاليد فى المناسبات والأعياد ، وفى اوراق البردى القديمة لم يستطع الباحثون تبين ديانة هذا المصرى من ذاك لأن معظم الأسماء متشابهة ، أما البيع والشراء منذ القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، نرى القوم يتعاملون فى عقود البيع والشراء عند المسلمين والمسيحيين واليهود طبقاً للشريعة الإسلامية . وإذا تأملنا جميع جوانب الحياة ومظاهرها سوف نجد روح التسامح هى السائدة وهى الأساس رغم شوائب عابرة هى فى الحقيقة جد ضئيلة . لم ولن تحجب هذه الروح العميقة من التسامح والتى تسود بدءا من طوبغرافية المدينة وعناصر العمارة والأزياء والطعام ... ولكن الأهم تلك العناصر التى لا يمكن تحديدها أو رصدها والتى تنتمى إلى التكوين والجوهر القديم .

القفز على الأشواك

بقلم : د . شكرى محمد عياد


د . غالى شكرى

عودة إلى الوطن

أظننا فى حاجة إلى قليل من الجرأة لكى نقرر أن مجتمعاتنا العربية لم يطرأ عليها أى تغيير جوهرى منذ أكثر من ألف سنة ، ولكننا قد نكون فى حاجة إلى جرأة أكبر لكى نقرر بديهية أخرى لازمة عن هذه وهى أن استعصاءنا على التطور راجع إلى أننا توقفنا طوال هذه المدة عن إعادة تفسير تراثنا ، وهو ما كان يحدث مرة بعد مرة خلال القرون المجيدة الأولى من تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، وما تحاول أن تنهض به مختلف الحركات الاسلامية الآن ، بطريقة يغلب عليها الخطأ والاندفاع ، فى غياب التفسيرات العلمية النزيهة ، وأخيرا فإن أدباءنا ونقادنا فى حاجة إلى أن يستجمعوا كل شجاعتهم ليواجهوا أنفسهم بحقيقة أن الأدب والنقد الأدبى ليست لهما إلا قيمة هامشية فى حياة أمتنا فى الوقت الحاضر ، لأن الخواء الفكرى الذى نعيش فيه ، عرضة لكل العواصف التى تهب علينا من مناطق «الضغط العالى» كرياح أبريل الموسمية ، تحمل إلينا مرة رمالاً تكاد تنعدم معها الرؤية ، ومرة أخرى قطرات من المطر لا تبل الصدى - مثل هذا المناخ الفكرى لا يساعد على نمو أدب صحيح أو نقد صحيح .

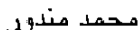


محمود حسن اسماعيل



على محمود طه





محمد مندور

● جيلنا تقع على عاتقه المهمة الكبرى .. مهمة اجتياز مرحلة فاصلة فى تاريخ الأدب .

إن خيرة نقادنا يتحولون – فى غياب المصلحين الدينيين الحقيقيين والفلاسفة الحقيقيين – إلى مؤرخى حضارة بشكل من الأشكال . وقد كان لانتشار الفكر الماركسى منذ أواخر الأربعينيات أثر فى هذا . ويبدو منذ كتابات غالى شكرى فى الستينيات وهى الفترة التى عكف فيها على عدد من الدراسات ذوات الموضوع الواحد أو المترابط – أنه يقرن بين المستوى الفنى والمستوى الحضارى ، كما يقرن بين التيار الفنى والموقف الفكرى ، ويضاف إلى ذلك حساسية خاصة بدور «الجيل» – أو جيله هو بالذات ـ فى تطور الثقافة فليس فى الأجيال التى تعاقبت بين عصر محمد على وثورة ٢٣ يوليو سوى جيلين يستحقان منه بعض الاهتمام . أولهما الجيل الذى ظهر بثورته التجديدية فى الفكر والشعر فى أوائل هذا القرن ـ جيل طه حسين وعباس محمود العقاد وعبدالرحمن شكرى ومن إليهم – ولكن هذه الثورة أجهضت خلال مدة لا تتجاوز عشرين سنة ، والجيل الثانى هو ذلك الجيل الذى فاجأته ثورة ٢٣ يولية وهو فى قمة نضجه – جيل محمد مندور ولويس عوض ونجيب محفوظ – وكان هذا الجيل يحلم بالحرية والاشتراكية فسبقت الثورة أحلامه ولم تتح له مجالا للمشاركة فى تحقيقها فوقع فى الاضطراب والحيرة أما الجيل الذى اكتمل نضجه فى ظل ثورة ٢٣ يولية وشارك بمجهوده كله فى تشكيل ثقافة جديدة تلائم مطامح العصر الجديد – رغم أن «الثورة المضادة» كانت هناك فى قلب الثورة بنفسها تبيت له الغدر والانتقام

أما هذا الجيل «جيلنا» فتقع على عاتقة المهمة الكبرى ، مهمة اجتياز مرحلة فاصلة فى تاريخ الأدب ، كما أن العصر نفسه يشهد معركة فاصلة ، معركة الإنسان بين الحضارة والتاريخ .

● محاولة التخفيف ●

هذه هى نظرة غالى إلى العلاقة المتطورة بين الواقع السياسى والاجتماعى من ناحية وبين النشاط الثقافى والأدبى من ناحية أخرى ، ممثلين فى الأجيال المتعاقبة من الأدباء ، وهى نظرة تمتد من أقدم كتاباته إلى أحدثها ، ولا يكاد يختلف التعبير عنها (وقد التزمت فى هذا التلخيص بعباراته ذاتها غالبا) . واهتمام الناقد الأدبى بأن يؤسس نقده على نظرة ما - حتى ولو كانت مرتجلة - إلى الأوضاع الحضارية المعاصرة اهتمام طبيعى كما سبق القول . وما دام طبيعيا فهو مشروع إلا أن الناقد يجب أن يحترس من شيئين : الإسراف فى تعميم الأحكام ، والمبالغة فى تقدير أثر العوامل الحضارية فى تشكيل الأدب ، أو أثر الأدب فى تشكيل الحضارة وإذا اعتبرنا إشارة غالى المتكررة إلى أن «هناك استثناءات» محاولة للتخفيف من بعض التعميمات الكاسحة ، فإن الخطوط الفاصلة التى يضعها بين الأجيال والمراحل ليس لها فى الغالب ما يبررها ، وإسقاط اسمى على محمود طه ومحمود حسن اسماعيل - مثلا - من الشعر الحديث ، رغم تأثيرهما المعترف به فى شعراء «جيله» - تشويه لتاريخ الأدب .

ولا يرى غالى من العوامل الحضارية إلا القشرة الظاهرة ، ولذلك فهو بارع فى ابراز المتناقضات ، كالتناقض بين التقاليد الاجتماعية البالية واقتناء أشد أدوات الحضارة الحديثة ترفا ، وهذا تناقض يمكن أن يثير الضحك حين ننظر إليه من الخارج، ولكن الشخص الذى يمارسه لا يكاد يشعر به، فى حين أن العوامل الحضارية الأعمق، كالمعتقدات والممارسات الشعبية ، يمكن أن تصطدم إصطداماً مأساويا ومروعاً بالأشكال الحضارية الخارجية بما تحمله من دلالات مناقضة ، والأدب الجديد بهذا الاسم فى عنايته بالأعماق دون الظواهر - قلما يسهل استقطابه فى أدب تقدمى وأدب رجعى هل كان شكسبير رجعيا كما يقول سلامة موسى أم كان تقدميا كما تقول طائفة من النقاد السوڤييت ؟ وهل كان بلزاك (حسب المثل المشهور عن كارل ماركس) رجعيا كما صرح عن معتقداته أم تقدميا كما يدل فنه؟ الأدب الجدير بهذا الاسم ينشأ عن وعى ما ، ويخلق وعياً آخر جديداً . هكذا تصنع الحضارة الأدب، ويصنع الأدب الحضارة . ووراء ذلك معان خالدة نسميها تارة الحقائق الفنية وتارة القيم الإنسانية . هذه المعانى التى تجعلنا

نشعر أن الشاعر المصرى أو البابلى القديم يكلمنا . بلغتنا .

• الطريق الصعب •

ولكن غالى يختزل قيمة الأدب فى دوره الحضارى ، ويختزل قيمة الحضارة فى التقدم التاريخى ، ويختزل قيمة الحضارة المعاصرة فى الحضارة الغربية ويتعامل مع هذه الفروض على أنها مسلمات ، وبناء على ذلك تنحصر قيمة الأدب العربى الحديث ، وقيمة كل أديب على حدة ، فى الخطوات التى يخطوها نحو الاقتراب من «ذروة الحضارة المعاصرة فى أوربا» وصحيح أنه لا يستريح إلى موقف من يسميهم ، فى تصنيفاته الصارمة ، «أبناء مدرسة التجاوز والتخطى» - شعرنا الحديث إلى أين ص ٢٧ - الذين يذهبون فى حركة رد الفعل ضد السلفيين الجدد إلى محاولة الذوبان فى أعلى مستوى حضارى بلغة العالم المعاصر ، هروبا من مرحلة التخلف المرير التى نجتازها نحن ويسلم عصا القيادة الثورية إلى أولئك الذين اختاروا الطريق الصعب ، طريق «المعايشة الحارة والعميقة لكافة جوانب المرحلة الحضارية المتخلفة التى نجتازها » سعيا للانضمام إلى ركب الحضارة الحديثة بدون ذوبان ولا تبعية ، وصحيح أن هذا الرعيل الأول من الأدباء والشعراء الثوريين المعاصرين يمكن أن يعدّوا امتدادا - رغم الفجوة الكبيرة المظلمة التى تفصل بينهم - لمحاولة جيل الرواد الثورية «لأن نلقى عن كواهلنا عوائق الوجه السالب فى التراث، ونتجه إلى حضارتنا فى تكاملها الحى العميق، نستخلص منها وسيلة اللقاء المشروع بيننا وبين ذروة الحضارة الانسانية المعاصرة فى أوربا (شعرنا الحديث إلى أين، ص ٢٠) أو «للمزاوجة الحية العميقة بين رؤيتنا المتخلفة والرؤية الغربية المتقدمة» (صراع الأجيال فى الأدب المعاصر ص ٨٢). وصحيح أيضا أننا لن نكون منصفين إذا زعمنا أنه تخلى فى الثمانينات عن هذه الأفكار التى رددها كثيرا فى الستينيات، ولكننا لا نظلم إذا قلنا إن الأمل المشرق فى تحديث الأدب، أثناء مرحلة «المد الثورى» رغم كل ما شابها، وهو أمل امتد بشئ من الرضا إلى بعض منجزات جيل الرواد، وأمكنه أن يقبل الواقعية الاشتراكية إلى جانب الرمزية والأسطورية على أنها جميعا «حداثة»، قد استحال فى مرحلة الهزيمة والضياع إلى تسليم ـ يكاد يكون راضيا ـ بانحلال جميع الرؤى الواضحة، وقبول ـ يكاد يكون مرحبا ـ لما يسميه «الرؤى فى الظلام»، ظلام «اللايقين والشك والسلب والنقص»، وأصبحت الواقعية الاشتراكية «حداثة» بالمعنى الزمنى فقط، و«القادة الثوريون للحركة الحديثة فى تجديد الشعر» ـ فضلا عن اسلافهم الرواد ـ أصحاب «رؤية جاهزة»، وبما أن كل الرؤى الجاهزة مرفوضة فهم كذلك مرفوضون. أما الأسلاف الحقيقيون للحداثة الجديدة

القفز على الأشواك

فهم فئة من الكتاب والفنانين السرياليين تجمعوا في القاهرة في أوائل الأربعينيات، وكان بعضهم يكتبون بالفرنسية، ومن هؤلاء من هاجر بالفعل إلى فرنسا ونال فيها بعض الشهرة ككاتب فرنسي.

● بين الضياع والهزيمة ●

ذلك بأن هذا الجيل الضائع المهزوم ـ وقد أصبح أقطابه اليوم في خمسينياتهم، ولكنهم ينعمون بشباب دائم لأنهم أثمروا بعدهم جيلا تنفس منذ صغره نتن الضياع والهزيمة ـ هذا الجيل الضائع والجيل الضائع الآخر الذي يسحبه في يده قد تبين لهما أن الأجيال السابقة جميعها كذبت عليهم كذبة مجرمة حين صورت لهما السقوط على أنه نهضة. إن موقف الرفض المطلق لكل ما هو قائم يمكن أن يكون بناء فقط عندما يقترن بالبحث عن ركيزة أخرى للمستقبل. إن غالي يبدو مصرا على تجاوز السقوط حين يبحث في أسسه المعرفية ويحاول إصلاحها. فمن الأخطاء التي ارتكبتها النخبة المثقفة: الانعزال بين النخبة والقاعدة، وهذا صحيح أيضا، بل إنه يزداد كل يوم، بقدر ازدياد الأمية الثقافية بينما يحلم الكتاب والشعراء بأن ينطلقوا نحو العالمية! ومنها كذلك ما يسميه غالي «الانقطاع في التراكم المعرفي» وهو صحيح أيضا رغم التناقض في التسمية، فالانقطاع المعرفي شئ والتراكم المعرفي شئ آخر. ولكن المعنى المفهوم من السياق هو أننا لا نملك تراثا من الفكر المتحرر، أو نملك هذا التراث ولكننا لا نصونه ولا نبني عليه.

بينما نجد غالي قادرا على الاشارة إلى المسئوليات التي يجب أن تنهض بها الأجيال الجديدة حتى تتجاوز «السقوط» (بالمناسبة: لا يوجد شئ مفزع، بل ولا شئ جديد في الحقيقة، في القول بأن معادلة النهضة تتضمن السقوط، فهذا ليس إلا تطبيقا عاديا لمبدأ جدلي قديم!) بينما نجد هذه المسئوليات واضحة محددة تطرح أمام كل «فرد» مثقف واجبات معينة ـ في مجال الفكر ـ باعتبارها ركائز للمستقبل، إذا بنا نجد «الأدب» بمعزل عن ذلك، يجري في أعقاب الحداثة الغربية، كأنما انقطعت الصلة بينه وبين الفكر، وأصبح من حقه وحده أن يتلذذ بمضغ الضياع والهزيمة!

● الحداثة العربية ●

في «أقواس الهزيمة» يحاول غالي تحديد موقع «الحداثة» زمانا ومكانا ـ ممهدا الطريق بذلك لمعرفة مدلولها، أو أعم خصائصها (بطولة عناق المستحيل) ـ وهي الفقرة الرابعة من الفصل الأول «نحو مصطلح اجتماعي للمعرفة العربية». فيبدأ بتقرير أنها «ولدت بين أنقاض الحرب العالمية الأولى وارهاصات الحرب العالمية

الثانية (وهذا ميلاد متأخر جدا، ولا يتفق وما يقوله غالى نفسه من أن الشعر الغربى عرف «الرؤية الحديثة» منذ رامبو: ١٨٥٤ ـ ١٨٩١ ، ولكن التحديد بحربين عالميتين سيفيده فيما بعد عندما يتحدث عن «الحداثة العربية»، احتجاجا على تدهور قيم الحرية والتنوير التى كانت عنوانا على نهوض البورجوازية الغربية على مدى قرون عدة، ولكنها انتهت بالهيمنة السياسية، والحرب فى أعقابها، من ناحية، وبسيطرة الآلة من ناحية أخرى ، بحيث أصبح الانسان مغتربا أمام المجتمع وأمام الطبيعة ثم يتساءل بعد هذا التحديد الزمانى أين تقع الحداثة جغرافيا؟ ويجيب: «طالما أن الحربين كانتا (كونيتين) وطالما أن انعكاساتهما الفكرية والوجدانية لم تقتصر على الأطراف المتحاربة بل شملت العالم كله، فإن الحداثة (رؤية كونية) لا يقتصر مفعولها فى الأدب على الابداع الغربى وحده، ولكنها تنعكس ـ كالآلة والاستعمار والأفكار ـ على كل مجتمع فى الدنيا بشكل (قومى) مختلف.

ومع أن غالى يحب أن يحتاط لنفسه، بعد كل تعميم كاسح، بقيد أو استثناء، فإن هذا «الشكل القومى المختلف» لا يمكنه أن يجيب عن تساؤلاتنا التى تجعلنا نتوقف بعد كل كلمة فى تقريره. فلندع التحديد الزمنى المفتعل بحربين «كونيتين» ولننظر إلى التطور الاجتماعى الشامل والعميق الذى يحسب بالقرون. إذا كانت الحداثة فى موطنها الأصلى ـ أو «بلد المصدر» بلغة التجارة! ـ احتجاجا على تدهور قيم الحرية والتنوير التى كانت عنوانا على نهوض البورجوازية ـ كما يقرر غالى ـ فكيف يمكن أن ينطبق هذا الحال ـ لو صدقنا مع أنفسنا ـ على عالمنا العربى؟ اللهم إلا أن يكون تقليدا محضا، وتبعية ذليلة ـ وغالى يكره التبعية ـ كما يلبس الخدم ثياب الحداد لوفاة السيد: ثم هل عرفنا ـ حقيقة ـ كنه ذلك الاحتجاج؟ أليس من الجائز ـ مثلا ـ أنه امتياز يتمتع به بعض الأفراد فى تلك المجتمعات المترفة، كحالة قصوى من التعبير عن الذات، كما يعتبرون الجنسية المثلية حقا من حقوق الفرد لا يجوز أن ينظر إليه المجتمع بشئ من الاستهجان؟ وهل صحيح أن الجنس هو «القاسم المشترك لدى مختلف أركان الحداثة فى أدب العالم أجمع شرقا وغربا شمالا وجنوبا»؟ وهل نسينا «الجنس» عند الجاحظ أو أبى الفرج الاصفهانى مثلا؟ وهل يحتاج تأكيد ذاتية الفرد فى مواجهة الغول الجديد الذى لا يرحم: الآلة أو الجماعة أو التخلف» إلى التعبير عن الجنس بالضرورة، حتى تصبح «درجة الحداثة» مرتبطة بدرجة الحرية فى التعبير عن الجنس، وحتى يصبح رامبو، أو ملارميه أقل حداثة من أصغر روائى غربى معاصر، سلمان رشدى مثلا؟ وهل يمكن أن نغفل المؤثرات الثقافية الخالصة التى جعلت للجنس هذا المكان الكبير فى الأدب

القفز على الأشواك

الغربى المعاصر بالذات، وليس فى الحداثة كلها، ولا فى الحداثة الغربية نفسها؟ أليس لفرويد بعض التأثير ؟ أليس لرد الفعل ضد نفاق العصر الفكتورى بعض التأثير (وكانت بريطانيا فى العصر الفكتورى تصدر أذواقها وسلوكياتها إلى العالم الغربى كله؟)

● قضية غريبة ●

إن غالى لا يشغل نفسه بمثل هذه الأسئلة، فقضيته التى يريد إثباتها، ولو بجدع الأنف كما يقال، هى أن «الرؤية الحداثية متشابهة إلى حد كبير... رغم الاختلافات الحضارية العميقة بين عالمنا العربى المتخلف والعالم الغربى الشديد التقدم» (ألفاظه مع بعض الاختلاف فى الترتيب) إنها قضية غريبة حقا، فمن شأن «الاختلافات الحضارية العميقة» أن تؤدى إلى اختلافات، لا تقل عمقا، فى التعبير الفنى. ولكن التفسير عندنا يسير جدا، وهو أن مثل هذه الحداثة الغربية لابد أن تكون حداثة زائفة. وأعنى بالتحديد ما يسميه غالى «الرؤية الحداثية» فهذه الرؤية لا يمكن أن تكون واحدة عندنا وعندهم : لقد طورت الحداثة الغربية (ولا أقول ابتكرت) أدوات جديدة فى تكنيك الصورة الشعرية وتكنيك القص. هذه الأدوات، وإن لم تكن جديدة كل الجدة، زادت من قدرات الكاتب، وأصبحت جزءا من حساسية العصر، ولكنها ليست صورة مطابقة أو ملازمة للرؤية، كالشئ وظله، فهى مباحة لكل من يحسن استخدامها لأغراضه، ولن تبقى كما كانت، بل ستتطور مرة أخرى بحكم اختلاف الأغراض، أى اختلاف الرؤية.

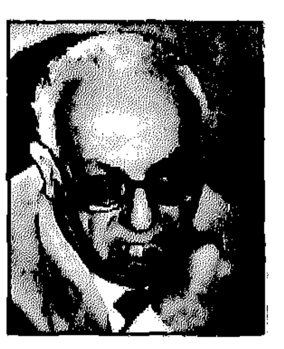
أما لماذا يستبيح حداثيونا، أو معظمهم، أن يأخذوا الأم مع أبنتها، فغالى نفسه يعرف السبب: إنها «مساحة السقوط» التى يتمرغون فيها، بأركانها الثلاثة: التراجع وهو قرين الكسل وضعف الثقة بالنفس، ويمكنك أن تحصى الأسماء التى ذكرها غالى لأدباء جيله وتسأل كم منهم استمروا وكم نفضوا أيديهم من الحكاية كلها، والانعزال عن شعوبهم (أو عن «القاعدة» بالتعبير السياسى الذى لايزال لاصقا بلغة غالى)، وأخيرا إهمال تراثهم من فكر النهضة، الذى أصبحوا يتباهون بازدرائه، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء معرفته.

أما آن للجيل الضائع أن يعود إلى وطنه بعد رحلة الضياع؟



أقوال معاصرة


الوزير حبيب شوقى


د. فؤاد زكريا


كوستا جافراس

● البديل للتطرف هو الثقافة .

حبيب شوقي حمراوى
وزير الثقافة الجزائرية

● الأنشطة الرياضية تطعيم لابنائنا ضد الارهاب .

د . حسين كامل بهاء الدين
وزير التربية و التعليم

● العلم ليس حكرا علي أحد ، ونحن لا نخشى ان نتفاعل ثقافتنا مع الثقافات الاخرى .

الاديب السورى حنا مينه

● ما زلنا ندخر لانفسنا المزيد ، والمزيد من الهزائم والخسائر .

المفكر المصرى د . فؤاد زكريا

● هؤلاء الناس، لا يملكون النفط ، انهم يعيشون فوقه فقط !!

ويليم سايمون
وزير الخزانة الامريكى الاسبق

● خطة فانس – اووين الخاصة بالبوسنة و الهرسك ، ليست الا حلما زائفا .

ليرلى جيلب
المعلق السياسى بيومية النيويورك تايمز

● الاصلاح لا يمكن ان ينبثق من منحة .

جورباتشوف
رئيس الاتحاد السوفييتى الاسبق

● أكثر شئ يسعدنى فى الحياة هو العمل .

جودى فوستر
الفائزة مرتين بأوسكار افضل ممثلة

● ليلة الاوسكار تذكرنى بالاسواق ، حيث يمنحون الجوائز لأفضل بقرة ، وأكبر خنزير .

كوستا جافراس
مخرج فيلم زد الفائز بالاوسكار

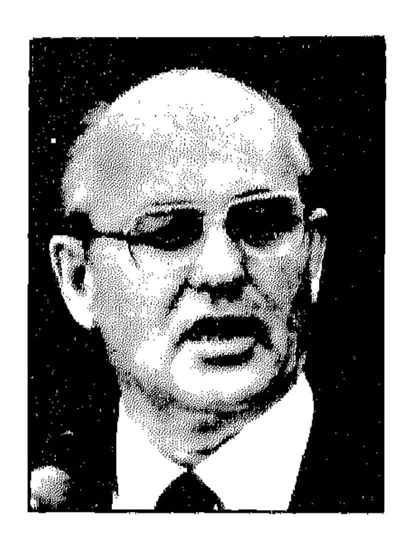
تقنيـــن الفســـاد في الاتحاد السوفييتى

بقلم : عبد الرحمن شاكر

تمثل المشكلة الروسية الآن ، واحدة من أخطر شواغل العالم ، إن لم تكن أخطرها على الإطلاق . فبعد انحلال الدولة الكبرى ، التى كانت تسمى الاتحاد السوفييتى فى أواخر عام ١٩٩١ ، قيل إن أكبر جمهوريات هذا الاتحاد ، وزعيمته ، أى جمهورية روسيا الاتحادية ، قد تحررت من عبء الجمهوريات الآسيوية المتخلفة ، التى تعوق انطلاقتها نحو الرخاء والازدهار ، على الطريقة الرأسمالية ، بعد التحرر من ربقة الشيوعية والاشتراكية ، التى كانت تربطها إلى تلك الجمهوريات فى الاتحاد والذى انحل .. والآن .. فإن روسيا السائرة فى طريق الرأسمالية .. قد أصبحت رجل العالم المريض .. الذى تمثل إعاشته عبئا ثقيلا ، وتركه يموت ، قد يعنى انطلاق شرور لا يعرف مداها ، قد تساوى - ببساطة - خراب العالم من حولها !



يلتسين



جورباتشوف

بادىء ذى بدء : فإن الرأسمالية التى عرفها العالم ، وازدهرت فى الغرب المتقدم صناعيا ، وتحاول روسيا محاكاتها الآن ، كانت ظاهرة اجتماعية لها ظروفها الخاصة، جاءت بعد عصر الصناعة اليدوية ، واختراع الآلة الحديثة ، فقامت المدن الصناعية ، بدلا من الصناعات المنزلية والورش الحرفية الصغيرة ، وتوسعت من هذا المنطلق ، وغزت العالم بسلعها المستحدثة ، وخاضت الصراعات والحروب فيما بينها من أجل اقتسام الأسواق العالمية .. ودولة أوربية كبرى واحدة ، هى روسيا القيصرية ، وقفت فى أوائل هذا القرن على أبواب العصر الصناعى عاجزة عن اقتحــامه على غرار نظيراتها فى الغرب ، أو العودة إلى الانكفاء على اقتصادها الزراعى المتخلف ، بعد أن جرها قيصرها الطموح بطرس الأكبر إلى ساحة التغريب والتمدين قبل ثلاثة قرون ، وفتحت أبوابها للمنتجات ورءوس الأموال الفرنسية والألمانية وسواها من رأسماليات العالم الصناعية الكبرى ، جعلتها بمثابة التابع لهم وهى الإمبراطورية الضخمة التى لهـــا توابع هائلة فى جاراتها الأسيوية ، وذاقت الهزيمة المرة فى الحرب العالمية الأولى ، التى كانت حرب الدول الرأسمالية الإمبريالية من أجل اقتسام المستعمرات ، ومن قبلها بعقد من الزمان أذلتها جارتها الفتية فى الشرق الأقصى ، وهى اليابان التى استطاعت اختلاس نهوض صناعى على الطريقة الغربية من رأسماليات العالم الكبرى المسيطرة ، فى حرب بين الجارتين على جزر قرابة الساحل الأسيوى لسيبريا وعلى أجزاء من هذا الساحل . وكانت النتيجة بالنسبة لروسيا ثورة هائلة على نظام العالم الذى أذلها فى شرقه وغربه ، وتلك هى الثورة البلشفية فى عام ١٩١٧ ، التى استخرجت من ترسانة الغرب الفكرية،

نظرية «ثورية» تنادى بأن الرأسمالية مآلها إلى التحول إلى الاشتراكية ، بحكم التناقضات التى تجتاحها من داخلها ، لكى تتنكب روسيا طريق الرأسمالية وتحاول فى مسعاها للحاق بالغرب المتقدم أن تعتمد على ما تصوره دعاة الاشتراكية من نظام بديل عنها ، يقوم على الملكية العامة والجماعية لوسائل الانتاج .

وبالفعل نجحت روسيا ، أو الإمبراطورية الروسية المتعددة الأجناس والقوميات ، والتى صار اسمها «الاتحاد السوفييتى» ، فى أن تحقق تقدما صناعيا ملحوظا ، وخاصة فى مجال صنع الأسلحة، وقد اضطرها العالم الرأسمالى إلى التركيز على هذه الأخيرة ، بالعداوة التى أظهرها للثورة البلشفية بدءا من حروب التدخل بعد الحرب مباشرة ، إلى المحاولة الهتلرية للقضاء عليها فى الحرب العالمية الثانية انتهاء بالحرب الباردة مع الولايات المتحدة الأمريكية أساسا ، والتى بلغ سباق التسلح فى ظلها آفاقا رهيبة ، كان من شأنها أن يتضعضع اقتصاد الولايات المتحدة ، أقوى اقتصاد فى العالم ، أما الاقتصاد السوفييتى فينهار تماما أو يقف على شفا الانهيار !

وتفقد روسيا إيمانها بالاشتراكية ، بعد ما وصل بها الحال إلى ما وصل إليه ، أما سباق التسلح بسبب الاختلاف المذهبى فقد أصبح هلاكا محققا الاستمرار فيه ، ولا شىء يستحقه أو يساويه ، أما النظام المرفوض سابقا وهو الرأسمالية ، فقد استطاعت قلاعه الكبرى ، رغم سباق التسلح فى كبرى دوله أن تحقق رفاهية ملحوظة لشعوبها تثير حسد الشعوب السوفييتية وحسرتها معا ، أما الدعوى النظرية القديمة بأن الرأسمالية مصيرها إلى أفول قريب بحكم تخلفها عن مواكبة تطور قوى الانتاج ، فقد لاح بطلانها من تحقق الثورة التكنولوجية فى الغرب رغم استمراره رأسماليا فى علاقات انتاجه ، مهما أصاب تلك العلاقات من تحوير ظاهرى لا يمس جوهرها .

اللحاق بثورة التكنولوجيا

كان الجيل الاخير من القادة السوفييت معذوراً ، حينما قرروا مفارقة نظامهم والاقتراب - على الأقل - من النظام الرأسمالى متطلعين إلى أمور ثلاثة :

أولا - التخلص من سباق التسلح وعبئه الفادح على اقتصاديات بلادهم ، الأمر الذى كان يعنى حرمان شعوبهم على غير طائل من ثمرات جهودها .

ثانيا - اللحاق بالثورة التكنولوجية التى تحققت فى الغرب عن طريق الاستفادة بمنجزاتها الانتاجية من ناحية والسعى للحصول على استثمارات جديدة

من رءوس أموالهـا الوفيـرة من ناحية أخرى .

ثالثا - التخلص من عيوب فادحة أظهرها الاقتصاد المعتمد على التخطيط المركزى ، وفى مقـدمتها التواكل والاستهانة ، والنظر إلى المال العام كأنه مال لا صاحب له ، الأمر الذى فتح الطريق أمام فساد كبير ، فى مقدمته الرشوة والمحسوبية والمظهرية الفارغة ، والذى انطوى على إخلال شديد بالقيم الرئيسية التى تدعو إليها الاشتراكية ، حيث قامت طبقية مقنعة ، عمادها القادة الحزبيون والبيروقراطيون ، تستأثر لذواتها برغد العيش ، تاركة الفئات لقواعدها الشعبية التى تعانى مرارة الحرمان ، فى مجتمع المفروض فيه أنه قد أصبح مجتمعا بغير طبقات ، وينبغى أن يكون التفاوت فيه محدودا ، بقدر الفرق بين عمل وآخر من حيث الكمية والنوع ، ولكن لا يبلغ به الحال أن يكون أشبه بالتفاوت ما بين الملوك والسوقة ! خاصة والتعليم العام الاجبارى الموحد ، يجعل الأساس الذهنى والثقافى للجميع متساويا أو متقاربا على الأقل .

رأسمالية الخصخصة

لم يكن أبدا التحول إلى اقتصاد السوق هو الوصفة السحرية لإقالة الاقتصاد الروسى من عثرته ، على الأقل ، بالنسبة للطريقة التى تم بها هذا التحول ، منذ قرارات يلتسين رئيس جمهورية روسيا فى أوائل عام ١٩٩٢ بإطلاق حرية السوق والأسعار .

قليلة جدا هى العناصر التى استطاعت أن تنشىء مشروعات تجارية أو صناعية خاصة من عندها ، أو بالتعاون مع شريك أجنبى ، ومعظمها يعمل فى مجال الخدمات الاستهلاكية المباشرة ، من مطاعم ومشارب وما إليها . أما تحويل المنشآت الاقتصادية العامة إلى منشآت خاصة فقد شهد مآس حقيقية .

بعض المديرين الذين كانت إدارتهم الفاسدة هى المسئولة عن الركود الاقتصادى الذى ضاق به المجتمع السوفييتى وقرر التحول إلى اقتصاد السوق للتخلص منه ، راحوا يسنون أسنانهم لكى يكونوا هم سادة العهد الجديد ، عهد الخصخصة والرأسمالية ، كما كانوا من قبل سادة العصر الاشتراكى بحكم مواقعهم ...

كانت « الخصخصة » بالنسبة لهم فسادا جديدا هائلا لم يتح مثيله من قبل . لقد سقطت القيم الاشتراكية والشعور بالمسئولية عن توفير حاجات الجماهير ، وكانت أول خطوة اتخذها هذا الصنف من المدراء هو رفع أسعار منتجاتهم بشكل جنونى ، جعل قدرة الجماهير على شراء منتجاتهم أمرا يكاد يكون مستحيلا ، بعد أن دارت عجلة التضخم ، وظهرت فئة

المضاربين الذين يخفون السلع ويخزنونها ويتولون بيعها فى السوق السوداء لمن يقدر على دفع الثمن الباهظ ، وفى سبيل ذلك لا يبالون أن ينقص الانتاج ، وأن تصبح كمية المعروض من السلع أقل بكثير من الوفاء بحاجات الجماهير ، مادام ذلك يضمن ارتفاع أسعارها ، وفى الوقت ذاته يستمر طبع البنكنوت لكى تقدر هذه المؤسسات على دفع مرتبات العاملين فيها ، مما يعنى مزيداً من التضخم وانهيار سعر العملة المحلية .

تدفقت السلع المستوردة من الخارج ، وخنقت كثيرا من السلع المحلية المثيلة والبديلة من أجل فروق ضئيلة فى النوع ، وأفلست مؤسسات كثيرة وشرد عمالها ، وأصبحت البطالة ظاهرة جديدة متفاقمة فى المجتمع الذى كان يتغنى أصحابه بالعمالة الكاملة .

بعض المديرين أساءوا عمدا إدارة المؤسسات تحت أيديهم لكى يبخسوا قيمتها ، ويكونوا هم أول من يبادر إلى شرائها بالثمن البخس حينما يأتى عليها الدور فى الخصخصة ، مؤجلين إصلاح إدارتها حيثما يأتى اليوم الذى يصبحون فيه ملاكا لها !

أصدرت الحكومة كوبونات تتيح لكافة أفراد الشعب - نظريا - القدرة على امتلاك حصة مساوية للآخرين فى المؤسسات العامة التى يجرى تحويلها إلى منشآت خاصة . ولكن مع التضخم والبطالة وسوء الحال ، تنخفض قيمة هذه الكوبونات ، ويضطر المعوزون إلى بيعها بثمن أقل بكثير من قيمتها الأساسية لاستخدام ثمنها فى سداد حاجة عاجلة .

كثير من الأموال بالعملات الصعبة - بما فى ذلك ما حصلت عليه بعض المؤسسات العامة كمعونة خارجية - تم تهريبه إلى الخارج - سويسرا على سبيل المثال - ليوضع فى حسابات شخصية بلغت قيمتها فى بعض التقديرات عدة عشرات من المليارات !

وكثير من المواد الخام التى كان محظوراً تصديرها إلى الخارج للحاجة الماسة إليها فى الصناعات المحلية ، بما فى ذلك المعادن المستخدمة فى صنع السلاح ، بدأ تهريبها إلى الخارج ، ونشأت عصابات مترابطة داخل الحكومة والمؤسسات العامة لتهريبها ، وتشمل شبكاتها أفرادا من خارج الجمهورية الروسية من جمهوريات سوفيتية أخرى سابقة مثل ليتوانيا التى كان وربما لايزال تهريب تلك السلع يتم عن طريق موانيها على بحر البلطيق .

حتى السلاح المصنوع لم يسلم من التهريب والبيع فى السوق السوداء ، يمارسه ضباط وجنود من أفراد القوات المسلحة الروسية من أجل الحصول على المال اللازم لقضاء حوائجهم فى عهد التضخم المريع وغلاء المعيشة ، ويعتبرون هذا العمل نوعا من الخصخصة يتم داخل

الجيش . أسوة بما يدور في المجتمع كله ، على طريقة « إن خرب بيت أبيك خذ لك منه طوبة » كما يقول المثل العامي وبعض هؤلاء يتعمد أن يخرب هو بنفسه بيت أبيه لكي يأخذ هذه الطوبة و بعد أن صار شعار المجتمع بأسره التسارع إلى إثراء الذات باعتباره القيمة الرأسمالية الراسخة ، أما ما بقى من القيم الاشتراكية ، فيعبر عنه شعور كل فرد بأن من حقه أن يصبح غنيا هو الآخر مثل الآخرين ، على طريقة «اشمعنى » .. وإن أعوزته الوسائل المتاحة لذلك فهو أحد أمرين :

★ إما أن يشعر بالعجز والضياع إلى الحد الذى يجعله يقدم على الانتحار ، وكثير من الفقراء فعلوا ذلك .

★ وإما أن يشترك فى عصابة تفرض الاتاوات على الأغنياء الجدد من التجار والمهربين والمضاربين والمرتشين ومديرى شبكات الدعارة والقمار وتهريب المخدرات ممن أصبحوا يملكون ثروات طائلة ، ويركبون سيارات فارهة مستوردة ، ويختالون في ثياب فاخرة مستوردة أيضا ، ويقضون ليالي صاخبة فى بارات ومطاعم ومراقص الدفع فيها بالدولار ، ومن أجل حماية رفاهيتهم من عدوان عصابات السوقة يشكلون بدورهم عصابات مسلحة من « الحرس الخاص » تحميهم ..

والدولة عاجزة إزاء هؤلاء وأولئك .. بعد أن أصبح كل شيء « خاصا » أو فى طريقه إلى الخصوصية بما فى ذلك السلاح .

معارضة !

ويزداد غرق المجتمع فى الجريمة والفساد ، وتزداد معيشة الأغلبية الساحقة من الجماهير تدنيا وبؤسا ، ويتساءل الجميع إلى أين نحن سائرون .

الأغلبية من نواب الشعب فى البرلمان تشعر بسخط الجماهير ، وتتهم الحكومة بأن سياستها الخرقاء فى التحول المفاجيء إلى اقتصاد السوق هى المسئول عن هذا الوضع المنذر بالخطر ، والحكومة بدورها تتهم هؤلاء النواب بأنهم «شيوعيون» يريدون عرقلة الاصلاح ، أو «قوميون» متطرفون يحلمون بعودة الامبراطورية الروسية ، التى كانت تحمل اسم الاتحاد السوفييتى قبل أن ينحل ... وقد تكونت بالفعل جبهة معارضة من الفريقين .

ولا تجد الحكومة الروسية أمامها ملجأ إلا دول الغرب ، التى وعدتها بالمساعدات السخية فى حال تحولها إلى اقتصاد السوق ، ولكن قلة هذه المساعدات كانت سببا فى ذهاب جورباتشوف ، ويخشى أن تكون سبباً فى ذهاب يلتسين أيضا .. وربما عودة المتشددين .

ويناشد الرئيس الأمريكى بيل كلينتون العالم الرأسمالى أن يهب إلى نجدة روسيا ، ويقدم كل ما يستطيع تقديمه من مساعدات عاجلة ، وذلك بعد لقاءه الأخير مع الرئيس الروسى بوريس يلتسين فى مدينة

فانكوفر الكندية .

ولكن دون تقديم هذه المساعدات على نحو كاف عقبات كثيرة ، من أهمها الفساد الذى أصبح قانونا لحياة المجتمع الروسى الجديد ، واحتمال تهريب كل أو معظم ما يقدم للروس من أموال إلى الخارج لحساب بعض الأفراد كما تقدم . كما أن الأوضاع الداخلية على صورتها الراهنة تثير فزع المستثمرين الأجانب ، من ذلك الخوف من عصابات الجريمة المنظمة أو المافيا الروسية الوليدة ، ومن عصابات الموظفين المرتشين ، الذين يطالبون بإتاوات باهظة على كل خطوة يخطوها المستثمر الأجنبى داخل بلادهم ، حتى لقد فقد كثير من الأمريكان ممن خاطروا بالاستثمار فى السوق الروسية رءوس أموالهم .

فضلا عن ذلك ، فإن كثيرا من قيم «التواكل» ولا أقول الاشتراكية لا تزال تسود قطاعات كبيرة من المجتمع .. على سبيل المثال ، لقد كانت أول خطوة فى التحول إلى اقتصاد السوق فى الصين ، الدولة الاشتراكية الكبرى الأخرى ، والتى يتم فيها هذا التحول بنجاح ملحوظ ، هى توزيع الأرض على الفلاحين .. ولكن كثيرا من الفلاحين الروس يرفضون الآن هذه الفكرة ، وهم الذين قاوم أسلافهم سياسة ستالين منذ عقود من الزمان لفرض الزراعة الجماعية ، إلى حد حرق المزروعات وقتل المواشى الخ .. ولكن أبناءهم الذين ذ وا حلاوة « الأمن الاجتماعى » فى ظل الاشتراكية ، أصبحوا يحرصون على استمرار المزارع الجماعية التى تكفل لهم الحصول على مرتباتهم سواء كان الانتاج وفيرا أو لم يكن ، سواء وجدت شبكات التوزيع التى تتولى تصريفه ، أو لم توجد ، وترك المحصول يتعفن فى مخازنه.. فالدولة فى النهاية مسئولة عن إطعامهم ، ومن ورائها الحكومة الأمريكية تساندها ، ومن وراء الحكومة الأمريكية الفلاح الأمريكى الذى يسعده أن تشترى محصوله لكى تطعم الروس ..

أما لماذا تفعل أمريكا ذلك وتجد نفسها مضطرة إليه ، فلأن الروس يملكون أسلحة ذرية ، من الممكن أن تعود لتمثل خطرا على أمريكا إذا ما عادت روسيا شيوعية بسبب فشل سياستها فى الاصلاح الاقتصادى ، أو تصبح أكثر خطورة من ذلك إذا ما انهارت الدولة الروسية ، وتحولت إلى ستين دويلة صغيرة كل منها يملك سلاحاً ذريا ، أو تملك أن تبيعه فى السوق العالمى لمن يقدر على دفع ثمنه ..

هل أفلحت روسيا فى أن تصبح دولة « ديموقراطية » على النظام الغربى ، أم كل ما أفلحت فيه هو تقنين فسادها الخاص وتحويله إلى فساد عام ؟ !

الجامعة والبحث العلمى

بقلم : د . عبد العظيم أنيس



د . نصر حامد أبو زيد

أثارت قضية د . نصر حامد أبو زيد الاستاذ المساعد بقسم اللغة العربية بآداب القاهرة ، والذى رفضت اللجنة الدائمة للغة العربية بالمجلس الأعلى للجامعات ترقيته إلى وظيفة الاستاذية على أساس أن بحوثه تتعارض فى رأى البعض مع النصوص الدينية ... أقول أثارت تلك القضية شجونا عديدة لدى العديد من المثقفين المصريين المهمومين بحرية البحث العلمى وضرورة الدفاع عن تلك الحرية خصوصا فى البحوث الاكاديمية .

والحقيقة أن هذا الحادث الاول من نوعه فى جامعاتنا ، فمنذ صدور كتاب «الشعر الجاهلى» لطه حسين عام ١٩٢٦ وحتى اليوم جرت ضغوط عنيفة على حرية البحث الاكاديمى فى جامعاتنا أو سحبت رسائل جامعية بعد تقديمها ، وهى رسائل لم يكن حتى إيمان مقدميها ولا مشرفيهم محل شك من أحد . أشير على وجه الخصوص إلى رسالة الدكتوراة التى أشرف عليها الاستاذ أمين الخولى وكان مقدمها د . محمد خلف الله وقصتها معروفة لدى الكثيرين ، و إلى رسالة ماجستير لطالبة فى كلية الآداب جامعة الاسكندرية فى الستينات وكان يشرف عليها الاستاذ الدكتور ابراهيم أنيس . ومع أن الرسالة كانت فى اللغويات فقد اعتبر البعض ما ورد فيها مخالفا لآراء المؤسسة الدينية الرسمية ، وكان أن سحبت الرسالة وعدلت. كما أشير أيضا إلى دراسة الدكتور لويس عوض والمنشورة فى كتابه «فقه اللغة» ، وقد اعتبر الازهر أن ما ورد فيه مخالف للرأى الدينى الرسمى فكان أن صودر الكتاب وجمع من الاسواق والغريب فى هذه الواقعة بالذات أن الكتاب كان صادرا عن الهيئة المصرية العامة للكتاب (دار النشر الرسمية للدولة) وظل مطروحا فى الاسواق طيلة حياة الرئيس السادات ولم يتجرأ أحد على مصادرته لعلاقة د . لويس عوض الجيدة برئيس الجمهورية وأسرته . فلما اغتيل السادات وتولى الرئيس مبارك أثير موضوع كتاب الدكتور لويس عوض وجرت مصادرته !

كل هذه الوقائع وغيرها كثير يثير قضية هامة ، ومن الضرورى مواجهتها بصراحة رغم حساسيتها . هذه القضية هى العلاقة بين البحث العلمى وبين النصوص الدينية كما يفهمها البعض ، أو كما يفهمها الغالبية . ولسنا نحن الوحيدين فى هذا العالم الذين واجهوا تلك القضية . فالاوروبيون واجهوها من قبلنا ، وكانت المؤسسة الدينية الرسمية فى أوروبا واثقة تماما من أن آراء ابن رشد فى الفلسفة مثلا تتناقض مع نصوص الكتاب المقدس، ولهذا كانت تحرم نشر آرائه أو الدفاع عنها ، وكانت الكنيسة واثقة تماما أن نصوص الكتاب المقدس تؤكد استدارة سطح الارض فلما نشر جاليليو آراءه عن كروية الارض اعتبر هذا هرطقة وحوكم جاليليو وأجبر على أن يعلن تراجعه عن آرائه ، بينما كان هو فى الواقع يهرب مخطوطته إلى هولندا لطبعها هناك .

وصدر الحكم على جاليليو بالحبس فى

منزله إلى أن مات . ومن قبله أحرق برونو لأنه دافع عن آراء اعتبرتها الكنيسة هرطقة . وها هى الكنيسة تعلن اعتذارها اليوم عن محاكم جاليليو وذلك بعد وقوع الحادث بقرون .

فهل يا ترى علينا أن نجتاز كل الآلام والعذاب الذى مرت به أوروبا حتى ندرك أنه لا مفر - إذا كنا حقا نبحث عن التقدم وملاحقة الآخر - من الفصل بين البحث العلمى وبين النصوص الدينية كما يفهمها البعض أو حتى كما يفهمها الغالبية إن النصوص الدينية ليست سفرا ينطق بذاته، وإنما ينطق به الرجال كما قال الاقدمون ، ولذا تعددت الاجتهادات فى تلك النصوص ، وجاء هذا التعدد من اختلاف زوايا الرؤية واختلاف المواقع الاجتماعية والمصالح السياسية والاقتصادية .

التسامح

تثير أيضا قضية د . نصر حامد أبوزيد مسألة أخرى على جانب كبير من الاهمية خصوصا بين الاكاديميين والباحثين .. وقد بحثت عن مسمى لتلك المسألة - يقابل الكلمة الانجليزية Tolarance فلم أجد غير كلمة «التسامح» وإن كنت غير راض تماما عن تلك الترجمة ، والذى أقصده هنا هو قدرة الباحث على تحمل آراء زملائه المخالفة لرأيه فى أى قضية سواء كانت دينية أو اجتماعية أو علمية طبيعية . إن هذا «التسامح» هو أمر من الضرورة أن يتوفر فى أجواء الباحثين الاكاديميين ، وقد تعلمت أوروبا هذا بعد أن دفعت ثمنا باهظا للتعصب للرأى ، وما أجدرنا أن ينأى الباحثون لدينا عن هذا التعصب الذى يسئ تماما إلى مستقبل البحث الاكاديمى. ولذا حزنت تماما عندما وجدت اللجنة الدائمة بالمجلس الاعلى للجامعات بدلا من فحص الانتاج العلمى للدكتور نصر حامد أبو زيد تحولت إلى محكمة تحكم عليه فى دينه وتشكك فى سلامة عقيدته الدينية وأسفت لذلك كثيراً !

أقول هذا بعد أن قرأت نص تقرير الاغلبية فى تلك اللجنة ، كما قرأت التقرير المضاد الذى صدر عن قسم اللغة العربية بكلية الآداب معارضا رأى الاغلبية فى اللجنة الدائمة . وهو الأمر الذى يصل بى إلى موقف رئيس جامعة القاهرة ومجلسها فى تلك القضية .

لقد كان أمام رئيس الجامعة رأيان .. رأى اللجنة الدائمة ورأى مجلس قسم اللغة بالكلية ومجلس الكلية المؤيد لرأى القسم ، ومن المعروف أن رأى اللجان الدائمة بالمجلس الأعلى لكافة التخصصات هو

رأى استشارى وغير ملزم ، وما اكثر ما ضرب رؤساء الجامعات عرض الحائط برأى اللجان الدائمة أو برأى الغالبية فيها وتمسكوا برأى الاقلية أقول هذا عن خبرة طويلة من العمل كعضو باللجنة الدائمة للرياضيات بالمجلس الأعلى وباللجنة الدائمة للإحصاء . وبالطبع فى مثل هذه التخصصات (الرياضة ، الاحصاء) ليس هناك بين أعضاء اللجنة خلافات ذات طابع دينى أو مذهبى ، وإنما هى خلافات على مدى عمق البحث والباحث وابتكاريته . وكثيرا ما ينتهى النقاش فى مثل هذه اللجان إلى رأى أغلبية ورأى أقلية ، وبالطبع يرفع إلى الجامعة رأى الاغلبية ، وما أكثر ما أهمل رؤساء الجامعات هذا الرأى . فإذا كان رأى الغالبية مثلا أن الباحث لا يرقى إلى مستوى الاستاذية صدر قرار من مجلس الجامعة بالترقية اعتمادا على رأى مجلس القسم أو الكلية .

وأنا لم أكن أطالب رئيس جامعة القاهرة بالاخذ برأى مجلس القسم والكلية وإهمال رأى اللجنة الدائمة ، وإنما كنت أتوقع منه أن يرد التقرير إلى اللجنة مطالبا بإعادة النظر على ضوء تقرير مجلس القسم وكان من حقه أيضا اعتمادا على التباين فى الرأى تشكيل لجنة أخرى لبحث الموضوع .

لكن د . مأمون سلامه لم يفعل شيئا من هذا واختار الطريق الأسلم له ، وهو الموافقة على تقرير اللجنة الدائمة ، وهو أمر يأسف له المثقفون تماما .

وأخيراً فإن قضية د . نصر حامد أبو زيد تثير مسألة ثالثة تتعلق بهذه اللجان الدائمة بالمجلس الأعلى للجامعات وضرورة إعادة النظر فى كيفية تشكيلها أو حتى فى وجودها أصلا بعد أن تحولت العديد من هذه اللجان فى عملها إلى مأساة كاملة ، وبعد أن أصبح السائد فى الاعتبارات التى تحكم عملها أى شئ إلا الاعتبارات الاكاديمية والامانة العلمية . والمفروض أن هذه لجان تقييم للانتاج العلمى دون التعرض لأى اعتبارات أخرى ، ولكن ما يجرى فى الواقع أن عمل كثير من هذه اللجان يجرى على طريقة «شيلنى وأنا أشيلك» ، وأن بعض الأعضاء فى بعض هذه اللجان يفتون فى تخصصات لا يعرفون عنها شيئا .

استقالة

أقول هذا وأنا حزين . وأنا بالطبع ليس لى خبرة عمل فى اللجان الدائمة المتعلقة باللغات أو العلوم الانسانية وإن

كنت أسمع من أصدقائى فى كليات العلوم الانسانية ما يشعرنى بالحزن والاسى على ما يجرى . أما خبرتى الشخصية فتتعلق بالعمل سنين طويلة فى لجنة الرياضيات ولجنة الاحصاء بالمجلس الاعلى للجامعات . ولقد وصلت إلى قناعة مؤلمة بأن هذه اللجان تحتوى على العديد من الاساتذة الذين لا يصلحون أبدا .. لا علميا ولا خلقيا - لأن يكونوا فى لجان تقييم ، ووصل الأمر فى لجنة الاحصاء أن مقرر لجنة الاحصاء فى السبعينات كان أستاذا لم يدرس فى حياته كلمة واحدة فى الاحصاء وقد عينه الوزير أنذاك فى هذا المنصب لا لشئ إلا لأنه نائب رئيس إحدى الجامعات . وقد قابلت وزير التعليم العالى أنذاك الدكتور اسماعيل غانم - وكان ذلك فى أواخر عام ١٩٧٤ فيما أتذكر - وأوضحت له حقائق الموقف وطلبت منه تعديل تشكيل هذه اللجان لكنه اعتذر بأنه لا يستطيع ذلك الآن رغم اقتناعه بوجهة نظرى ، فكان أن قدمت استقالتى من كل لجان المجلس الاعلى وظل هذا هو موقفى حتى هذا اليوم

ما هو الحل إذن ؟

لدينا حلان لتلك المشكلة .. أولهما العودة إلى نظام التحكيم العلمى الخارجى، وهو نظام كانت كلية العلوم بجامعة القاهرة فى الزمن القديم تلجأ إليه وما تزال بعض الجامعات العربية (مثل الجامعة الاردنية) تلجأ إليه . وأنا لا أحبذ اللجوء إلى مثل هذا الحل فى حالة مصر لاعتبارات عديدة.

أما الحل الثانى فهو ضرورة العودة إلى فكرة إنشاء كليات للدراسات العليا فى كل جامعة وإعادة نظام كراسى الاستاذية فى تلك الكليات ، على أن يختار الاساتذة لتلك الكليات اختيارا علميا دقيقا ، وأن يقوم العمل على أساس التفرغ الكامل ، مع منح أساتذة تلك الكلية الاجور التى تجعل تفرغهم للعمل بالكلية أمرا حقيقيا . ويكون من مهام هؤلاء الاساتذة المشهود لهم بالكفاءة العلمية القيام بأعمال التقييم لابحاث الآخرين عندما يتقدمون للترقية .

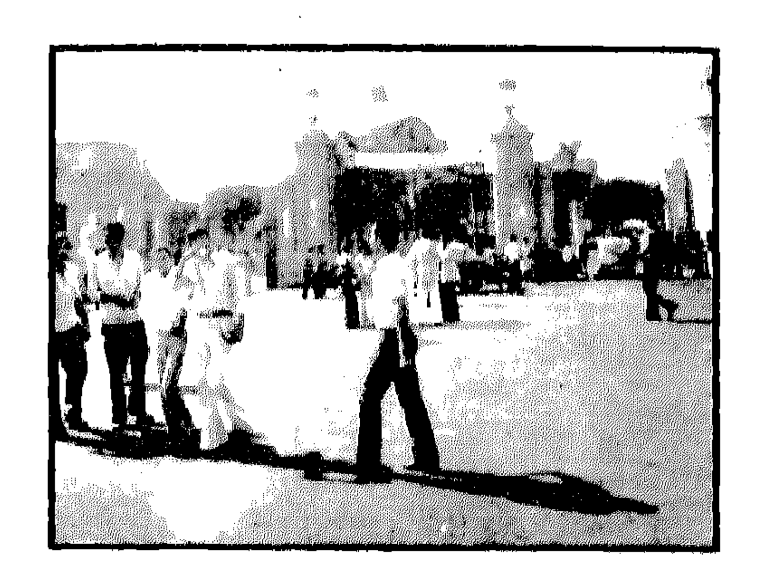
أما تعيين أعضاء اللجان من رؤساء الاقسام لمجرد أن رئيس الجامعة قد عينهم فى منصب رئيس القسم ، وكأن هذا التعيين شهادة علميه لا إدارية فهزل ليس بعده هزل . وما جرى للدكتور نصر حامد أبو زيد يجرى بشكل معكوس لآخرين ، أى تقوم اللجان بالموافقة على ترقيتهم بينما هم لا يستحقون أن يكونوا مدرسين فى مدرسة ثانوية !

مستقبل الجامعات الخاصة فى مصر

بقلم : د . رشدى سعيد

أصبح من الممكن انشاء الجامعات الخاصة فى مصر بعد صدور القانون الذى ينظم هذا الأمر فى العام الماضى . وعلى الرغم مما أثاره القانون من جدل كثير إلا أنه جاء متسقا ومكملا لما آل إليه التعليم فى مصر كما تحدثت عنه فى مقالى السابق الذى نشر فى هلال إبريل سنة ١٩٩٣ . فما دامت النخبة من متخذى القرار فى مصر قد رأت فرز أبناء الأمة بحيث يصبح تعليم ابنائها هى فى مدارس اللغات الخاصة ذات الاتجاه المدنى والمصاريف الباهظة ، وتعليم أبناء عامة الناس فى مدارس دينية أو مدارس نصف مدنية فإن مما يكمل هذه الصورة هو ضرورة انشاء جامعات خاصة لاستقبال أبناء هذه النخبة التى لم يؤهلها تعليمها فيما قبل الجامعة إلى دخول الجامعات القائمة .

وقد رأيت بنفسى السبب الذى يدفع النخبة للإلحاح على انشاء الجامعات الخاصة عندما أقوم بالقاء المحاضرات فى الجامعات الامريكية والأوروبية المختلفة فأراها مزدحمة بأبناء النخبة من المصريين الذى فشلوا تماما فى التواؤم مع أحوال الجامعات المصرية فلم يكن بينهم وبين عامة الناس شيئا

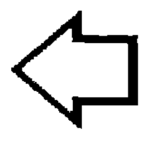


مشتركا فلجأوا لجامعات الخارج .

وعلى الرغم من أن شيئا لم ينشر بعد عن شكل الجامعات الخاصة التى يزمع تأسيسها إلا أن القليل الذى عرف عنها ينبىء بكل وضوح أن الذين ينوون انشاء هذه الجامعات من رجال النخبة لا ينتمون إلى طبقة متسقة النشأة أو الميول أو المستوى الفكرى فمهما كان شكل الطريق الذى استخدم فى تكديس المال والوصول إلى موقع النخبة فقد استفادوا جميعا من فترة السبعينيات التى غفل عنهم فيها القانون ، واتيحت فيها الفرصة لجمع الثروة عن طريق المتاجرة فى الممنوعات والاستيلاء على أراضى الدولة والحصول على عقود التوريدات والمقاولات دون وجه حق ، وخداع العامة بتوظيف أموالهم ، وأخيرا بالقيام بعمليات التصدير أو الاستيراد دون رابط – ويتم الآن فرز هذه النخبة من الرجال إلى مجموعة لازالت تترحم على فترة السبعينيات تسعى لاستمرار قواعدها فهى الكفيلة ببقاء امتيازاتها ، ومجموعة أخرى أكثر ذكاء تعرف أن بقاء قواعد السبعينيات لم يعد ممكنا وأن عليها أن تعيد تنظيم أمورها وتقنين أوضاعها لفتح آفاق أرحب للثراء عن طريق الانفتاح على الشركات المتعددة الجنسية العملاقة وجذبها إلى مصر .

ويعكس مشروعا الجامعتين المطروحان على الساحة اليوم فلسفة وآمال كل من هاتين المجموعتين :

ففى المشروع الأول تصور بأن الجامعة ليست مكانا جادا للبحث أو



التحصيل بل هى أشبه - بالنادى الخاص - يجتمع فيه أبناء هذه المجموعة لكى يحصلوا منه على شهادة تؤهلهم لارتقاء المناصب العالية والحصول على الصفقات المجزية - الجامعة فى هذا التصور حق للأبناء يدخلونها دون أن يتجشموا مشقة مسابقات الثانوية العامة وقواعد لجان التنسيق ويخرجون منها بعد نزهة لطيفة عبر سنوات الجامعة .

ولا غرو لذلك أن جاء اختيار المسئول عن هذه الجامعة واحدا ممن نال شهادته الجامعية بعد لأى وبعد سنوات رسوب طويلة فقد كان تجسيدا لأن النجاح لايتم بالتحصيل والدرس فقط ، ولا غرو أن كان شرط دخول هذه الجامعة قدرة الطالب على دفع رسومها الباهظة وأن يكون أب الطالب عضوا مؤسسا فى هذه الجامعة دفع رسما كبيرا للمساهمة فى بدء عملها - ولا غرو كذلك أن كلية الطب هى أول كلية فى هذه الجامعة فالكثير من أبناء النخبة من الأطباء يجدون صعوبة فى توريث عياداتهم لأبنائهم بعد إحكام قواعد الدخول فى الجامعات وإيقاف مناورات الالتفاف حولها .

هذه جامعة خائبة إذن بنيت لكى يفيد منها أولاد هذه المجموعة من الخائبين الذين يراد لهم الشهادة الجامعية لكى يرثوا ما سيتركه الآباء .

تجميل وجه النخبة

أما مشروع الجامعة الثانى المطروح على بساط البحث فهو مشروع تلك المجموعة من رجال النخبة الذين ينظرون إلى الجامعة بطريقة أكثر ذكاء فهى أولا مشروع يمكن أن يحقق الربح فما دام الكثير من أبناء النخب من مصر والبلاد العربية يسافرون إلى خارج أوطانهم لتلقى العلم فى معاهد باهظة النفقة فلماذا لاتقام فى مصر جامعة تجذب هؤلاء الطلاب وأموالهم التى ينفقونها فى الخارج وهى ثانيا مشروع مطلوب لإعداد ابنائهم وأبناء الأذكياء من الفقراء لإدارة أعمالهم بالطرق المتقدمة التى لا يتيحها التعليم فى الجامعات المصرية وللقيام بالابحاث اللازمة لفتح آفاق جديدة للاستثمار الداخلى والتعاون الخارجى وهى ثالثا واجهة طيبة لتجميل وجه النخبة القبيح فهى دليل اهتمامهم بالعلم والخير ومن هنا اهتمامهم بالإعلان عن أن جامعتهم لن تكون مقصورة على الاغنياء بل ستكون مفتوحة لأذكياء الفقراء .

هذه جامعة جادة إذن لمؤسسيها الكثير

من النوايا الطيبة وهم لقلة خبرتهم لم يكن يعرفون أن الجامعة الجادة يستحيل أن تكون مشروعا للربح لأن مثل هذه الجامعة تحتاج إلى بنية أساسية ضخمة وانفاق باهظ لايمكن لمصاريف الطلاب مهما بلغت أن تنفق عليها - كما أنهم لم يكن يعرفون كم هو مكلف طلب الخبرة - من الجامعات الشهيرة أو استقدام الأساتذة منها وكم هو صعب تحقيق الانضواء أو الانتساب إلى أى منها .

وتدل أنواع الكليات التى يرغب مؤسسيها فى البدء بها مع هموم هذه النخبة من رجال الأعمال فهم أولا مهتمون بتسيير أعمالهم بطرق الإدارة الحديثة ولديهم الرغبة فى أن يكون من بين معاونيهم رجال يعرفون أصول وفنون القانون الدولى للدفاع عن مصالحهم التى انفتحت على العالم - وهم ثانيا يتطلعون لفتح جبهة جديدة للاستثمار فى الصحراء ذات الأراضى الرخيصة والتى يرون فيها متسعا للقيام بمشروعاتهم دون أن يجابهوا مشاكل المدن المكتظة بالسكان - ومن هنا جاء التفكير فى انشاء كليات للإدارة والقانون ولاستثمار موارد الصحراء . على أن انشاء هذه الكليات إن اريد لها أن تكون على المستوى الجاد يحتاج إلى انفاق ضخم لبناء الأقسام المساندة لتخريج طالب متعدد الثقافات وإلى انفاق أعظم لبناء المعامل المتقدمة ومراكز البحث اللازمة لتقدم الأساتذة وجلب كبارهم للعمل فهؤلاء هم الذين سيصنعون للجامعة اسمها .

وما لم يستطع مؤسسو الجامعة من إيجاد التبرعات الضخمة اللازمة لإقامة الجامعة وهو أمر يبدو أن النخبة غير مستعدة له فإن أمر بناء الجامعة الجادة هو منال صعب - فلازال أمام هذه النخبة طريق طويل حتى يرتقع مستواها الفكرى لترى الفائدة التى يمكن أن تجنيها بربط مصالحها الخاصة بالصالح العام وبرفاهية الوطن ككل ، فشواهد الحال تنبىء بأن النخب فى العالم الثالث على اتساعه لاترى فى ذلك مصلحتها .

إن النوايا الطيبة لا تصنع الجامعة الجادة بل الذى يصنعها هم رجال النخبة الذين يريدون أن يمدوا الجسور مع مواطنيهم والذين يشعرون أن الحفاظ على مصالحهم لا يأتى باستخدام القمع أو العنف بل ببناء المجتمع الذى يصبح فيه الحراك الاجتماعى ممكنا طبقا لقواعد الإنصاف .

البرجماتية في التربية والثقافة العربية

بقلم : د . محسن خضر

من الملاحظ أننا نصل متأخرين بعد قيام القطار بساعات ! وإننا - في العبارة السابقة - تعود على المثقفين العرب ، والقطار في نفس العبارة مقصود به التيارات الفلسفية والفكرية الغربية . حدث ذلك - على سبيل المثال - مع الفلسفة الوجودية . وحدث ذلك أيضا - مع تيار اللاوعى أو تيار الشعور في الرواية . وحدث ذلك - مرة ثالثة - مع تيار الحداثة في الأدب .. ولكننا سنتوقف عند - المثال الرابع لظاهرة الوصول المتأخر لمبدعينا ومثقفينا الى قطار التيارات الفلسفية والفكرية الغربية ، بعد ان يكون العقل الغربى قد استنفدها وتجاوزها الى مراحل جديدة .. والمثال الرابع هو الفلسفة البرجماتية الأمريكية الأصل والتطبيق .. فبينما كان الرئيس الأمريكي الأسبق ايزنهاور يهاجم الفلسفة البرجماتية في عقر دارها وموطنها (١٩٥٩) كان موسم ازدهار البرجماتية عندنا .. ينتقد ايزنهاور بأبى التربية البرجماتية جون ديوى (١٨٥٩- ١٩٥٢) قائلا : « إن السنوات الخمس التى قضيتها في منصبى كرئيس للجمهورية جعلتنى مؤمناً تماما بحتمية إعادة النظر في تعليمنا ، و يجب على المربين و الآباء والطلاب ان يشعروا مثلى بالسخط على العيوب الكامنة في نظامنا التعليمى ، عليهم أن يسلكوا طريقا تعليميا غير ذلك الذى سرنا فيه معصوبى الأعين بفضل تعليمات جون ديوى » .

وتناول هذه الظاهرة يتماس بالضرورة مع ظاهرة تبعية الفكر العربي في الكثير من أوطاننا ، وهى تبعية تصل الى مرحلة النقل لا الاستعارة ، والتقليد لا التمثل . ومن المتفق عليه بين مفكرى التربية ان التبعية الفكرية للغرب تبلغ مداها في مجال التربية ، وكما سنفصل في بقية المقال .



وليم جيمس



ايزنهاور

البرجماتية في التربية الأمريكية

الواقع هو نقطة انطلاق الفلسفة البرجماتية . والمعيار الأساسى فيها هو المنفعة أو المصلحة . ويحدد صدق الفكرة النتائج العملية المترتبة على تطبيقها ، أى مدى منفعتها ، فكل ما يحقق فائدة عملية يعتبر صادقا . وقد ارتبطت البرجماتية بمؤسسيها الكبار : تشارلز بيريس (١٨٣٩ – ١٩١٤) ووليم جيمس (١٨٤٣ – ١٩٢٠) الا ان ثالثهم جون ديوى هو الذى حولها الى فلسفة لتربية الأمريكيين ، كما طورها تلاميذه من بعده . والبرجماتية هى فلسفة أمريكية فى البداية والنهاية ، ليس هذا فقط ، بل هى (الفلسفة الأمريكية) الكبرى لأنها لا تعبر عن ظروف مجتمع كما تعبر عن ظروف المجتمع الأمريكى منذ ظهورها فى نهاية القرن الماضى : النظام الرأسمالى والتقدم الصناعى والنزعة العملية والنزعة الليبرالية القوية .. ان البرجماتية هى الفلسفة المعبرة عن المضمون العدوانى فى التجربة الأمريكية :

ابادة الهنود الحمر واسترقاق الزنوج ومعاملتهم كمواطنين من الدرجة الثانية .

وأهم الجوانب الأساسية فى التربية البرجماتية انها تؤكد على الخبرة الذاتية ، فكل مادة التعليم تستخرج من حياتنا المعاشة ، ولذا هى تكيف التلاميذ مع الواقع ، ولا تهتم بتغييره ، وعملية التعليم تفاعل متبادل بين الفرد والبيئة ، وسلوكنا يقاس تبعا لمقاييس الطبيعة . وتعنى التربية البرجماتية باحترام الفردية وبتكوين الشخصية الاجتماعية للطفل وباحترام قدرته على الابتكار ، والتربية هى تكميم الخبرات الفردية للتلميذ ، وتهتم بنشاطه وميوله ، وبأهمية العمل والممارسة ، ولذا يرفض البرجماتيون التحديد المسبق

لمادة التعلم ، و يقللون من أهمية المتعلم فى الفصل حيث يتحول الى مجرد مرشد أو مراقب لنشاط التلاميذ وفاعليتهم ، ومن ثم فالمنهج الملائم فى تربيتهم هو « طريقة المشروعات » حيث يقوم التلميذ باكتشاف قدراتهم والتعلم من البيئة خلال قيامهم بتخطيط وتنفيذ مشروعاتهم ، وخطورة ذلك انها قد تقدم للتلاميذ معلومات جزئية و مفتتة مما ينعكس على المستوى العلمى للتلاميذ .

البرجماتية فى تعليمنا

يرتبط صعود التيار البرجماتى فى فكرنا العربى بنشأة معهد التربية للمعلمين فى مصر سنة ١٩٢٩ ، وعزز هذا الصعود عودة المبعوثين الذين تعلموا فى الولايات المتحدة حيث ادخلوا الفلسفة البرجماتية داخل معاهدنا ومدارسنا ، وبدأوا فى حركة ترجمة نشطة لكتب ديوى وتلاميذه لتتحول مصر الى منطقة نفوذ للفكر البرجماتى عدت امتداداً للمصدر الأصلى أكثر مما عبرت عن ظروفنا وفكرنا وشاع فى معهد المعلمين الاهتمام ببحوث الذكاء والقدرات العقلية ، وروج اسماعيل القبانى و عبد العزيز القوصى ، و أبو الفتوح رضوان ، و غيرهم لهذه الفلسفة وتقوم أفكار القبانى على انتقاء الطلاب من خلال الاختبارات والمقاييس العقلية ، وهو الاتجاه الذى انتقد مرارا لأنه يحول التربية الى أداة للانتقاء الاجتماعى و التوزيع على أنواع التعليم المختلفة مما ينعكس على حظوظهم الاجتماعية من الأدوار والوظائف فى المستقبل ، اذ إنها تكرس الطبقية فى التعليم تحت لافتة علمية وعادة ما تفرز هذه الاختبارات التلاميذ الفقراء الى التعليم الفنى وتعوقهم عن الوصول الى التعليم الجامعى بحجة انخفاض مستواهم العقلى. وانتشرت « المدارس التجريبية » فى مصر مواكبة لنمو التيار البرجماتى فى الأربعينات والخمسينات متأثرة بالمدرسة التجريبية التى أقامها جون دوى فى جامعة شيكاغو عندما عمل بها .

برجماتيون فى ثياب اشتراكية

ومن الأمور المثيرة للدهشة ان الخمسينات والستينات شهدت رواجا للفكر البرجماتى فى مصر وخاصة فى ظل التحول الاشتراكى فى مصر فى الستينات، ولم يجد البرجماتيون التربويون الكبار حرجا من تطويع الفلسفة البرجماتية لخدمة الاشتراكية ، وراجت ترجمات بقية مؤلفات جون ديوى التى لم تترجم ، فى نفس الوقت التى كانت أمريكا تنفض يدها من فلسفة ديوى وتتهمه بالمسئولية عن تدنى مستوى تلاميذها العلمى وازدياد نسب الأمية بين التلاميذ الأمريكيين ، فترجم لديوى فى تلك الفترة أهم كتبه (الخبرة والتربية ، والفن خبرة ، و الديمقراطية والتربية ، والمدرسة و المجتمع ، و البحث عن يقين و غيرها) .

ومن بين التربويين العرب الذين لم يجدوا

حرجا فى تطويع إلباس البرجماتية ، ثوبا اشتراكيا محمد الهادى عفيفى وأبو الفتوح رضوان وسعد مرسى لبيب النجيحى وهو ما يدل على عدم أصالة فكرنا التربوى عموما وعن مدى خضوعه للتيارات الفكرية الغربية (الاشتراكية والليبرالية) تجاوبا مع الظروف وبصرف النظر عن خصوصية المجتمع العربى ومعطياته .

وظلت البرجماتية – حتى اليوم – تنعم بمساحة كبيرة فى فكرنا التربوى من خلال تلامذة القبانى داخل الأدب التربوى ومراكز البحوث وكليات التربية :

مؤسسة فرانكلين

يستوقفنا تاريخ إنشاء مؤسسة فرانكلين ، حيث ظهرت بعد عام واحد من ثورة يوليو ومع دخول المنطقة العربية فى مرحلة التحرر الوطني ومثلت هذه المؤسسة نموذجا للتغلغل الفكرى الأمريكي لحياتنا الثقافية ، وبينما كانت النظم الراديكالية العربية تتجه لبناء الاشتراكية فى الستينات وسط صدام قومى حاد مع السياسة الأمريكية المعادية لحركة التحرر العربى ، كانت اصدارات هذه المؤسسة هى الأكثر رواجا فى مكاتبنا ، ونجحت هذه المؤسسة فى استقطاب عدد كبير من رموزنا الفكرية للتعامل معها . ورفعت هذه المؤسسة شعار « مؤسسة غير قابلة للربح » وقدمت مؤلفاتها بأسعار زهيدة لتستقطب أوسع دائرة من القراء .. وبمراجعة سريعة لأسماء المترجمين العرب المتعاونين معها سوف تصيبنا بالدهشة من حجم سطوتها ونفوذها (نذكر منهم زكى نجيب محمود و ابراهيم عصمت مطاوع و محمد لبيب النجيحى) ومن الغريب أن أكبر موسوعة عربية ، وهى « الموسوعة العربية الميسرة» قد صدرت عن تلك المؤسسة لا سواها ، وتكفلت مؤسسة (فورد) الأمريكية بتمويل اصدارها . كما نشرت « فرانكلين » مؤلفات المستشرقين تمر بنيادم وجب وروزنتال ، وقد غطت موضوعات مؤلفات الدار أغلب مشكلاتنا وقضايانا العربية ولكن من وجهة نظر أمريكية .

وتعدى الأمر الى تنفيذ نفس المؤسسة مشروع « الكتب الدراسية والمراجع الأمريكية المترجمة » لحساب وزارة التربية والتعليم فى مصر ، ووزعت بعض كتبها بالمجان على المدارس المصرية .

وانتشرت مطبوعات مؤسسة فرانكلين فى مصر وسوريا و العراق و لبنان .

ويطرح السؤال نفسه مجددا : الي أي مدي يمكن القول بأننا لدينا فلسفة تربوية أصيلة ؟ ننقل نعم ، نفتن بالتقاليع والتيارات الفكرية والابداعية نعم ، ولكننا – للأسف – نصل متأخرين وعندما نصل بعد تحرك القطار ننقل كل البضاعة كما هي ونظل فاغري الأفواه تعجبا ودهشة وتطيل استضافتنا علي موائد الآخرين .



فى التجربة الروائية أيضا !

بقلم : حنا مينه - دمشق

أستطيع القول ، بعد نيف وعشرين رواية حتى الآن، ان الرواية بنت التجربة الحياتية ، التجربة التى عاناها الروائى ، بمعنى عاشها بعمق ، شاهدها ، وضع رجله ، قولة المتنبى ، فى مستنقع موتها ، ثم قال لها : «من تحت اخمصك الحشر» .

حنا مينه

ولعل ارنست همنجواى ، الذى حدد تجربته الروائية والقصصية بهذه الكلمات:«لم اكتب الا ما عشته وشاهدته» ان يكون فى الخبرة التى اكتسبها شاهدا على ان الحياة البشرية ، هى التى تعطى الحياة الروائية ، وليس التأمل الذهنى ، الذى يلوب دودة ، قصاراها ان تكد الدماغ ليتفتق عن فكرة ، مجردة اغلب الاحيان ، ثم يعمد الى دحوها كالرغيف حين يكون عجينا ، ومطها وشطها كما يفعل الحذاء مع الجلد ، حتى تتسع رقعتها ، وتتمدد فى سياق مركب ، ينهض على اديمه شخوص مركبون ، فلا يتجاوز ، فى هذه الحال ، ان يكون روائيا ذهنيا ، فبرك فكرة، ثم فبرك للفكرة حدثا ، وللحدث شخصيات ، يسقط عليها ، وعلى السياق والحوار نتاج ذهنه ، وليس نتاج معاناته ، تصوره هو ، كلماته هو ، ليس تصور الحدث الفعلى ، المعيوش ، أو كلمات ابطال هذا الحدث الذين وجدوا ، نطفة على الاقل ، فى الحياة الجارية من حوله ،

وفي المعاناة التي أمدته : بالتجربة العيانية عن هذه الحياة بعينها وليس عن سواها .

ان التجريد الذهني لا يصنع رواية . هذا ما ينبغي ان نفهمه ، ونؤمن به ، من البدء ، ولئن كانت الرواية ، كحدث حياتي حافل بالتجارب والمعاناة ، لا تجانف التجريد ، الا انها لا تشكل حدثا معاشا على اساسه . التجريد ، هنا ، يأتي قولا ذهنيا ، فلسفيا ، نظريا ، يوشى السرد فكريا ، باقتصاد في الكلمات ، انما من داخل الحدث وليس من خارجه ، فاذا لم يكن هناك حدث في الاصل ، قام الانفصال بين التوليفة الذهنية والتجريد الذهني ، وأصبح كل شئ مسقطا ، مفتعلا، متعسفا ، نابيا عن النسيج الحدثي المتشكل من التجربة العميقة وما فيها من معاناة ، ملصقا ، كالقشرة ، على جذع الشجرة ، وليس هو لب الجذع نفسه وهذا ما يعرفه النجار جيدا ، فهو يلصق «الفورمايكا» على أي خشب عتيق أو نخر ، لكنه لا يتوصل ، بفعلته هذه ، الى خشب حقيقي ، أكان زانا أم سنديانا ، فهذه القشرة الملصقة على خشب ما ، نعرف سلفا أنها كذلك ، وأنها عندما نضعها على محك السبر ، أو يقوم الزمن بحكها ، ستتبدى كما هي : قشرة لا أكثر أو هذا الالصاق ، في الاتحاد العضوي للعمل الروائي ما بين موضوعه وشكله ، ينفي ، ويتنافى ، مع التدامج الكامل ، فيكون التخلخل الذي يكشف اللعبة الذهنية ، لان القارئ يريد من الرواية ، وكذلك القصة ، المتعة أولا ، والمعرفة تاليا ، والحدث الذهني، دون سند واقعي ، يظل تجريدا ، تغيب عنه شروط المكان والزمان والمحل ، فيبقى معلقا في فراغ ، يتأرجح ، ويؤرجح القارئ معه ، لكنه لا يتوصل ، غالبا الى الارتكاز على قاعدة حياتية ، تجلوها التجربة ، وتتنامى بها ومعها، حتى يغدو ما هو حياة على الورق ، حياة مستقلة عن الورق ، تغزو الوجدان الانساني ، عن طريق الامتلاك القسري ، او ما يعرف بالترويض ، حين ينسى الانسان انه يعيش حياتين احداهما حياته هو بصفته مطالعا ، والاخرى حياة ما يقرأ ، وعندئذ يأخذه الكتاب اليه ، يدخله دائرته السحرية ، يجذبه ، كالفيلم السينمائي الناجح ، الى أجوائه ، فلا يكون من بعد الا الجو الذي يوفره الحدث ، في هذا أو ذلك من الاجناس الادبية ، أو الأجناس الفنية ، من النغم الى اللوحة الى الصورة المرئية ، والا كان ما ندعوه ابداعا ، لا ابداعا ، بل استعراضاً فكرياً ، من الافضل ان يقدم في اطار دراسة لا اطار رواية .

الا ان المسألة ، هنا تدخل باب التبسيط ، لو اخذناها بهذه التقريرية التوصيفية فالكلام على الابداع ، لا يستوي مع التبسيط أبدا ، لأن الذات الابداعية أوفر غنى ، واشد تعقيدا ، من التسطح على هذا النحو ، وما تعطيه هذه الذات ، في أي جنس من الابداع ، يعود أولا وأخيرا الى سر الابداع ، العائد بدوره الى تنوع لا حصر له في اختلاف هذه

النفس البشرية عن تلك، مادام الخلق الانساني، الذي لم نتوصل الى كشف سره، يكمن في شئ نحسه ولا سبيل لنا الى تحديده، لأن أي وجه، لأي انسان، يتشكل من شعر وجبين وعينين وهدبين وأنف وفم وذقن، كما يتشكل الوجه الآخر، للانسان الآخر، من كل هذه العلامات الفارقة فاذا أخذنا ملايين ، بله مليارات، الوجوه في عالمنا، وظل هذا التنوع الخلافي قائما بينها، ادركنا صعوبة التحديد ، واستحالته عند المطابقة، فلا يتبقى لنا، في هذه الحال، سوى الشبه، وسوى المثل القائل: «يخلق من الشبه أربعين» وينغلق السر علينا انغلاقا كاملا .

أصالة المعالجة

لهذا علينا ان ندع أصالة المعالجة، تبعا لذلك، وفي مرتبة أدنى، سر الخلق الأدبي الذي لا يدرك، حتى لو حيرنا في توصيفه أو في محاولة ادراكه ، آلاف المجلدات. ذلك ان الحدث، واقعيا كان أم ذهنيا ، لا قوام له في ذاته، وانما في معالجته، وعلى أصالة هذه المعالجة يتوقف استواء هذا الحدث حيا، وما المعالجة الا الدربة الحرفية، المعلمية في التقاط الحدث خامة، وصياغة هذه الخامة أدبا أو فنا، وفي هذه النقطة علينا ان نبحث عن المادة المطاوعة للتشكل الادبي والفني، في أرض الواقع وليس في حوض الذهن، مع ملاحظة ان المادة ، واقعية كانت أم ذهنية، منتماها الى الواقع أبدا، مهما ينكر ذلك الذهنيون المكابرون، الا ان هذا الواقع، في الحدث الحياتي، غيره في الحدث الذهني، ويأتي بعد ذلك دور الخيال والتخييل والابتكار، في كلا الحدثين، ليقرر الفشل أو النجاح في العمل، اذا ما اخذنا في حسابنا مقولة تشيكوف «الموهبة هي العمل»، أي ان الموهبة تحيا بالعمل، ودونه تموت .

لكن الحدث الذهني ، حتى لو اسعف الخيال في اصطناعه ، كما في الروايات البوليسية يبقى حدثا ذهنيا ، تأتي نهايته لتكشف ضحالته ، وهذه الضحالة ، أو فقر الدم هذا ، مرده الى ان الحل ، في الحدث الواقعي ، يأتي حلا واقعيا ، ممكنا أو في حيز الامكان ، اما في الحدث الذهني فأنه يبقى ذهنيا ، بمعنى انه يقنع ولا يقنع ، يقول ما يبتغيه الروائي ، وليس ما يقوله السياق ، في تناميه المعبر عن معايشة ، عن معاناة ، عن فهم للحدث في محليته ، وفهم للشخصيات الروائية في محليتها أيضاً، وهذا هو الفارق الصغير الكبير بين الذهنية والواقعية في التقاط حدث ما، ومعالجته معالجة ذهنية، فكرية، تخييلية بحتة، او معالجته معالجة معاناة صادقة حارة، تجعل القارئ يقول: «نعم هذا ما عشته، أو هذا ما شاهدته، وهذا ما اجد صورتي، أو مشكلتي فيه، وهؤلاء الاشخاص هم انا والآخرون، لانهم موجودون، ولأنني أعرف ، في قريتي في مدينتي ، في حارتي ، من هم مثلهم ، في

تصرفهم وحوارهم ، وكذلك فى وداعتهم وشراستهم ، فى خيرهم وشرهم على السواء.

ما أريد قوله ، بتعبير آخر ، ان الرواية حياة كاملة ، ولن نتوصل الى رواية حقيقية، حية تجعلنا نعيش حياتها هى ، بتوليفة ذهنية ، وانما بتوليفة حدثية واقعية ، تستوعب ، فى ذات واقعيتهم الرومانتيكية والسوريالية والتعبيرية والرمزية والاسطورية وكل المدارس الاخرى ، وتنبنى من لبنة الواقع ، الذى يصير فى الفن واقعا آخر ، مأخوذا من النطفة ، مشغولا سياقا وشخصيات ، بإنماء هذه النطفة ونفخ الروح فيها ، مع كل ما يلزم هذا الانماء ، للسياق والشخصيات ، من خيال وتخييل وابتكار ، ومعرفة مستمدة من التجربة ، ومن المعاينة ، من المعاناة ، ومؤسسة على ملاحظة دقيقة، عميقة ، تمدنا بالنسج الحقيقى للبيئة ، ليكون هذا النسج ، من بعد دما ولحما لهذا الكائن الذى نسميه رواية ، يتيح لبنائها المعمارى ان ينهض على أديم ثابت ، وثقافة شاملة ، مكتسبة من المعايشة والمطالعة ، هذين الشرطين المتلازمين لتحصيل المعرفة .

لقد استقر فى الذهن الآن ، ان الرواية هى ملحمة البورجوازية ، وأن البورجوازية الاوروبية تخصيصا ، قد ابتدعت ملحمتها هذه ابان صعودها ، فكان البطل هو المحور ، وهو الخط الرئيس للحدث ،الا ان هذه البورجوازية ، فى مرحلة انحدارها وتفسخها ، لم تعد بحاجة الى هذا البطل فقامت المكانية الروائية بالبطولة ، وفى هذا كثير من الشطط لان هذه البورجوازية ، والصناعية تخصيصا ، فى أوربا وامريكا وغيرهما ، لم تدخل مرحلة الانحدار والتفسخ تماما ، رغم أزمتها التى تتراوح بين شدة وانفراج ، وحسب القانون التاريخى ، فان هذه الازمة اشتدت فى اواخر القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين ، وبلغت ذروة اشتدادها بالحرب العالمية الثانية ، ثم عادت الى الانفراج بعدها ، لكن تأزمها ، الآن يبرز من جديد ، الا أنه لم يصل مرحلة الانفجار الذى يحول الكم كيفا ، لذلك لا تزال الرواية ، ملحمة هذه البورجوازية ، بحاجة الى بطل فرد ، لا تعوضه بطولة مكانية ، مثل حى او مدنية او قرية ، وفى هذا الصدد يحسن ان نولى ما قاله الروائى اليابانى كانزو بورا ، صاحب رواية «لعبة العصر» ما يستحق من انتباه ، فهو يلاحظ ان البطولة فى الرواية ، مطلوبة فى وقتنا ، ويعلن «انا لست ناطقا باسم غيرى ، بل العكس هو الصحيح ، فان لدى انطباعا باننى شديد العزلة ، وهذا جيد فى الخلق الأدبى ، وعدا ذلك لا اظن احدا اليوم له الدور الذى قام به ميشيما او انا فى الستينات . ثم ان الجيل الجديد لا ينتظر من ينطق باسمه ، ان افراده ابطال يتعاقبون دون توقف ، كالموضة ، لكن دون رسالة . اعتقد ان رسالة الادب ، الآن ، ان

يخلق هو ابطالا يجتذبون الناس ، لا ان يكون الادباء هم الابطال ، للأسف و ليس لدينا فى اليابان ، مثل هذه الشخصيات البطلة فى الوقت الحاضر» .

ابتداع أبطال شعبيين

تأسيسا على إبتداع أبطال شعبيين هذا ، وإذا كانت البورجوازية الصناعية اليابانية تفتقر الى «ابطال يجتذبون الناس » فمن باب أولى، ونحن لم ندخل العصر الصناعى العربى تماما بعد، ان يكون افتقارنا الى هؤلاء الابطال الروائيين، الذين يجتذبون الناس، أكبر واشد ضرورة ، وهذا ما قمت به، عن دراية وقناعة، فى ابتداع ابطال شعبيين فى البحر والبر، وفى كل رواياتى، دون ان أعير الرأى الآخر الداعى الى الغاء البطولة الفردية، أى اهتمام، بسبب من ان قضايانا كعرب، اكثر وفرة وتنوعا وسخونة من قضايا البلدان المصنعة، لابد لنا، فى كفاح الامبريالية والصهيونية، وكفاح التخلف من ان نخلق نماذج بطولية تكون القدوة والجاذب للآخرين .

ولاننى لاحظت ، منذ سبعينات هذا القرن، ان الرواية العربية تتقدم على الأجناس الادبية الاخرى، وانها ستكون ديوان العرب فى القرن الواحد والعشرين، فقد كرست وقتى كله لكتابة الرواية، هذه التى صارت ديوان العرب منذ الآن، نحن فى العقد الأخير من القرن العشرين إضافة الى ان الرواية فى العالم كله، تتقدم لتحتل مكان الصدارة ، ما بقى ان نعرف قيمة الرواية التى قال عنها د . هـ . لورانس هذه الكلمات التى تصدح فخرا :«اننى لكونى روائيا ، اعتبر نفسى أعلى من القديس والعالم والفيلسوف والشاعر ، فالرواية هى كتاب الحياة الوحيد الباهر» .

هل أزعم ، كروائى ، أننى كتبت هذا الكتاب ؟ لا ليس بعد ، فاذا كان كل ما كتبته عن البحر لا يتعدى ، كما قلت مرارا، مقدمة كتاب البحر ، فان ما كتبته عن الحياة لا يتعدى مقدمة كتاب الحياة ، وعلىّ ان اواصل ، متحملا الالم بشرف ، فرحا بهؤلاء الذين يأتون الى ليقولوا باندفاع وحماسة ، نحن نعرف هذا البطل فى هذه الرواية ونحن نعرف تلك البطلة فى تلك الرواية ، وقد صادف همنجواى مثل هذا الموقف ، فى روايته «العجوز والبحر» لان اكثر الصيادين ، فى ذلك الجو البحرى ، أتوا اليه قائلين :«نحن نعرف العجوز سنتياجو إنه فلان أو فلان من الصيادين» وكان هيمنجواى يسر لذلك ويضحك منه فى أعماقه لأن سنتياجو هو كل هؤلاء ، وهو فى نفس الوقت ، ليس أحدا من هؤلاء .

واذكر أننى بعد صدور روايتى «الشراع والعاصفة» جاء اكثر من بحار ليقول لى ان الطروسى هو عمى، أو خالى، أو قريبى، أو أننى اعرفه، وفى احد الأيام قرع باب بيتى فى اللاذقية، رجل ومعه صورة يبدو فيها شابا وقال: «انا هو خليل العريان وهذه صورتى تشهد لى فاستقبلته

ببشاشة وقلت له مداعبا : إذن أنت سندباد مدينتنا يا عزيزى ؟» فاجاب:« نعم واسأل البحارة والصيادين عنى ! » طبعا لم اسأل احدا ، لكننى احتفظت بصورته كتذكار ، ولا تزال موجودة عندى وبعد نشر روايتى «بقايا صور» ، تلقيت رسائل وهواتف وزيارات من اناس لا أعرفهم ، وكل واحد منهم يزعم ان الام فى هذه الرواية هى امه، ولم اناقش هؤلاء الطيبين، لأن الشقاء الذى عرفته امى وانا طفل ، هو عينه شقاء امهاتهم عندما كانوا اطفالا . وكثيرا ما يأتى اناس ، بعد صدور هذه او تلك من رواياتى ، زاعمين انهم يعرفون شخصياتها، ولشد ما حاولت ، دون جدوى ، اقناعهم ان البطل ، فى رواية «الربيع والخريف» أو رواية «فوق الجبل وتحت الثلج» أو رواية «الرحيل عند الغروب» ليس انا ، وانما هو غيرى ، هو البطل الذى فى الرواية ، الذى عرفته ربما نطفة فى الحياة، فرسمته شخصا فى« الرواية ، عن طريق الابتكار ،لان تناول شخصيات جاهزة من الواقع ، ينتفى منه الابداع ، وحين ينتفى الابداع يكون الفشل ، لكن القراء يتشككون فى ما اقول ، ويميلون ، غالبا ، الى تصديق انفسهم ، وهذا كله جزء من المعاناة الممضة ، التى تبدأ بالتجربة ، وتمر بالتكون، وتستمر فى الكتابة ، هذه المهنة الحزينة التى كثيرا ما قررت اعتزالها ولم اوفق ، لان الكتابة بالنسبة للكاتب ، هى الخلاص ، وهى التوازن النفسى .

طبعا تعرفون ان الأديب ، وكذلك الفنان ، تتحصل له تجربة غنية فى مجال عمله ، وهذه التجربة ، بالنسبة الىّ تحتاج الى كتاب أو كتب ، وليس الى مقالة فى مجلة ، الا ان الاجتزاء ، فى الكلام على هذه التجربة ، مريح على نحو ما ، وهذا ما أفعله من حين الى حين ، ولقد يكون مناسبا ، فى هذه العجالة ، ان اذكر بما قاله توماس مان عن الفن والفنان ، فقد رأى ان ألم المعرفة والتشكيل ، يعطى للفنان الحق ، الفنان الذى ليس بنصف روحه فنانا فقط ، وانما هو فنان بعاطفته ووظيفته ، التعويض الاخلاقى الذى يرفعه فوق كل حساسيات وفضائح العالم ، لان الفنان والروائى بخاصة ، عرضة لهذه الحساسيات وهذه الفضائح ، وهذا ما يزيد فى معاناته للألم ، الذى يصبح فيه استاذا مع الايام .

وفى المسألة عن شخصيات رواياتى ، وما يثار ، احيانا من كلام جارح وغير منطقى حولها ، بقصد خبيث على الارجح، أجيب كما اجاب توماس مان :«لا تسألوا دائما: من هذا ؟ لا تقولوا دائما : هذا انا وهذا ذاك ، كل ما هنالك ان بعض تعبيرات الفنان تشابهكم . لا تثيروا عن طريق اللغو والافتراء ، الشبهات التى تحد من حرية الفنان ، فهى وحدها التى تؤهله لان ينتج ما تحبون وما يحظى برضاكم ، فبدون هذه الحرية يصبح الفنان عبدا لا فائدة فيه» ، وأنى لا أوافق توماس مان فى ما ذهب اليه، واتشدد ، كما يتشدد كل فنان ، فى انتزاع هذه الحرية ، والمحافظة عليها .

القصة القصيرة
المصرية
فى الستينيات

عز الدين نجيب وصوت التجديد والثورة



بقلم :

د . سيد حامد النساج

الهلال مايو ١٩٩٣

لا يقف محمد حافظ رجب وحده ممثلاً لصوت التجديد والثورة ؛ ولكن يلتقى معه كل من عز الدين نجيب وأحمد هاشم الشريف وضياء الشرقاوى ثم محمد ابراهيم مبروك .. وأحمد الشيخ فى هذه الفترة ، الاهتمام بالداخل ، وتصوير عبث الوجود ، وتجسيد غربة الإنسان ، والحصار الذى يقع فيه الفرد ، والإحساس العام بالعجز ، والاختناق . وكذلك المطاردة والكوابيس ، والأحلام ، والزحام ، والخوف . هذه هى المعانى ، والموضوعات التى تعلن عن صوت فريد جديد ، منبت الصلة عن أساليب التعبير السابقة التى شهدتها القصة القصيرة المصرية .

مع اتفاق موضوعاتهم واتحادها - فى الأغلب الأعم - فقد كانت لكل منهم أدواته ووسائله ، والبناء الفنى الذى يسم قصصه ، بمعنى وجود أصوات خاصة ذات نغمات تتوافق وتنسجم مع الصوت الجماعى المنفرد . فقد صحب هذه

المضامين الجديدة محاولات متنوعة للتجديد فى الشكل القصصى ؛ بالإفادة مما يقدمه الفن التشكيلى، وطاقات اللغة ، والموسيقى، والفلسفة ، وعلم النفس ، والسينما .

ولئن دل هذا على شيء ؛ فإنما يدل على أن سياسة النظام – فى الستينيات – لم تكن تفرض خطاً فكرياً أو أدبياً أو فنياً أو نقدياً . وأن الاستجابة للواقعية الاشتراكية نبعت من الكتاب أنفسهم ، تعبيراً عن إيمانهم بالتطبيق الاشتراكى الذى أخذت به الدولة : اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً أما شباب الأدباء فإنهم يفجرون ينابيع النقد ، وإعادة النظر ، بشكل جذرى فى كل المسلمات التقليدية : مادياً ومعنوياً . وكانت القصة القصيرة من أقدر الينابيع التى تفتحت بالتمرد ، والنقد والعطاء ، والتجديد . حيث شهدت تيارات خلاّقة من إبداع شباب الكتاب : تدين ، وتخلق ، وتحاول التعبير عن إنسان هذا المجتمع ؛ وإعادة تغيير نظرته إلى الحياة ، وتعميق شعوره بها . بحيث يشعر بكيانه وحيويته ، وبالتكامل معها ، فى وقت واحد .

جيل الأمل

وسرعان ماسرت نغمة التجديد بين كل من اقتحم ميدان الكتابة فى القصة القصيرة ؛ دون عزله عن واقع الإنسان المصرى . يبدو هذا من الإهداء الذى تصدر مجموعة (الأحلام . الطيور . الكرنفال) لأحمد هاشم الشريف وأحمد يونس وأحمد الخميسى : (إلى الجيل الجديد الذى يحاول استكمال الحرية فى التعبير الفنى ملقياً الضوء على واقع الإنسان الحديث ، ومسئولياته ، وآماله فى التقدم والسلام) . ويهدى وحيد حامد مجموعته الأولى (القمر يقتل عاشقه) : (إلى جيل من الشبان يسعى بجهد وإصرار . إلى جيل هو الأمل .. أقدم .. القمر يقتل عاشقه) . هناك وحدة منطلق ، موقف ، واتجاه .

● عز الدين نجيب صاحب الرؤية التشكيلية أحد هؤلاء المجددين . شارك وهو فى العشرين من عمره (من مواليد ٣٠ إبريل ١٩٤٠) فى إصدار مجموعة قصصية مع عدد من الأدباء الشبان بعنوان (عيش وملح) ١٩٦٠ قبل تخرجه فى كلية الفنون الجميلة بعامين . ثم ما لبث أن أصدر مجموعة خاصة به فى يناير ١٩٦٢ بعنوان (أيام العز) . وهذا يعنى أنه انفرد بإصدار كتاب مستقل ؛ قبل كثير ممن كانوا يضعونهم فى مصاف رواد الستينيات . أما مجموعته الثانية (المثلث الفيروزى) فإنه أصدرها عام ١٩٦٨ مقدماً لها يحيى حقى بكلمة تكشف عن ملامح مميزة لهذا الكاتب الشاب . بعدئذ جاءت مجموعته الثالثة (أغنية الدمية) التى صدرت عن منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق عام ١٩٧٤ . ثم ما لبث أن أصدر طبعة ثانية مضيفاً إليها بعض القصص ، عن دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع عام ١٩٨٧ .

لم يكتف بما أصدره من مجموعات ؛ وإنما واصل النشر في الصحف والمجلات مثل « المجلة » و « الكاتب » و « الثقافة العربية » و « صباح الخير » و « الشهر » و « روز اليوسف » و « المعرفة السورية » و « نادي القصة » و « إبداع » . وكانت قصصه القصيرة الأولى قد نشرت في صحيفة « المساء » عام ١٩٦١ . لكنه في السنوات الأخيرة توفر على الاهتمام بالفن التشكيلي إبداعاً ونقداً ؛ دون أن يهب القصة القصيرة ماكان يهبها إياها حتى بداية الثمانينيات . حين استطاع الجمع بين الفن التشكيلي وكتابة القصة الحديثة . إذ واكبت كتاباته - دائماً - انتاجه الفني التشكيلي .

وإذا كان أبناء الجيل السابق قد اتهموا شباب هذا الجيل من الكتاب الذين بدأوا مع أوائل الستينيات بأنهم لا يفهمون ولا يدركون ، وليست لديهم الأصول الفكرية والثقافية التي تدفع إلى تصديق تجاربهم والاعتراف بها ؛ فإن التأمل الدقيق فيما كتبوه من قصص أو رسموه من لوحات ، أو أطلقوه من آراء يدحض ذلك ويرد عليه . ذلك أن عز الدين نجيب - مثلاً - يعرف خطواته الفنية جيداً ، ويستند إلى رؤية محددة ، ويقنن لكل مرحلة . يضاف إلى هذا وعى عميق بالقضية الاجتماعية ، ودور - كاتباً - في كيفية التعبير عنها .

ناقد مبدع

ومن يقرأ أقواله التي نشرتها له مجلة (الطليعة) العدد ٩ - السنة الخامسة - سبتمبر ١٩٦٩ ، فإنه سوف يجد نفسه أمام ناقد واع مدرك لأبعاد العملية الإبداعية، وأهدافها . يقول : (أعتقد أنني أكتب أو أصور ، لأقول رأياً ما في الواقع الذي أعيشه . لقد عشت هذا الواقع قبل أن أفكر في التعبير عنه . واهتديت مبكراً إلى الفلسفة التي أستطيع أن أفهمه من خلالها . وقد قدمت لي الإجابات عن كل أسئلتي الحائرة أمامه وأمام العالم . ارتبط الأدب والفن عندي بقضية التغيير الاجتماعي ، وتمزيق القشرة الخارجية للصراع الطبقي وتفجيره ، وفضح الظروف الخارجية التي تسحق الإنسان الفرد وتهدر حريته وإرادته . باختصار كل الواقع الخارجي الذي يضغط على روح الإنسان ويتحول داخلها إلى واقع نفسي مريض يدفعها إلى الضياع والاغتراب) ص ٤٤ .

وفي ضوء هذه الرؤية نجده يصنف خطواته الفنية : (.. وكانت قضية الصراع الطبقي هي القضية الرئيسية في معظم قصص المجموعة الأولى « أيام العز » . بينما كان ضغط الظروف الخارجية على الإنسان الفرد ومحاصرته حتى الهزيمة هو محور معظم قصص المجموعة الثانية « المثلث الفيروزي » بعد ست سنوات . وفي القصص التي كتبتها بعد ذلك لم يعد

الأشخاص عندى صرعى الضياع والغربة واليأس يمضغونها فى استسلام أو استعذاب بل اكتسبوا شيئاً من التمرد الذى قد ينتهى بدمارهم) .

ويستمر الناقد لنفسه قائلاً : (لكننى لا أقف محصوراً فى إطار القضية الإجتماعية بل أسعى إلى أن أصل من خلالها إلى التعبير عن هموم إنسانية ووجودية ، تعكس الضغوط التى يعانيها الإنسان فى الحضارة المعاصرة . وهذا لا شك يترك أثره فى أسلوب كتابتى ؛ فأحياناً يتلون بلغة الشعر ، أو يلغى منه الزمن الميكانيكى . ويصبح الزمن والكائنات هى ما تشعر به الشخصيات أو تراه . كما أننى فى التصوير لم أعد أهتم بالشكل الواقعى والبعد الثالث ؛ وأصبحت العلاقات الديناميكية للأشكال والألوان والخطوط وثراء السطح ، مشاكل أساسية لى كمصور) .

ماذا يقول النقد بعدئذ ؟! فنان ناقد يتحدث فى اللغة ، والصورة ، والزمن ، والقضية الاجتماعية ، واللون ، والصوت ، والاغتراب ، والتمرد ، والضياع ، ومع ذلك فإن الذين تعرضوا للقصة القصيرة فى الستينيات احتفوا بغيره ، وقدموا الأضعف فنياً وفكرياً ، ونصبوه رائداً . وقد واجه عز الدين نجيب الشلليين أول ما واجه مع الأيام الأولى لقدومه من القرية إلى المدينة . وتنبه إلى الدوافع الخفية وراء بدعة صراع الأجيال ؛ الذى لا يستند إلى « قضية » أو « فكرة » أو « عقيدة » ؛ كما أنه لا دخل فيه للقوى الاجتماعية والسياسية . واهتدى إلى أن الشللية تزدهر «حول مستنقع المصالح». بعد هذه القناعة أخذ فنه مأخذ الجد ؛ دون الانشغال بغيره من الترهات .

والمدخل الحقيقى لعالم هذا الكاتب الفنان هو محاولته تشكيل الرؤية ؛ أو رؤيته التشكيلية ؛ وما قام به من استخدام اللون والصوت والصورة ، والظلال ، والأضواء ، فى التعبير عن الواقع الاجتماعى ، من وجهة نظره هو ، التى قد يشترك فيها مع رفاقه ؛ مع تمايزه فى التوسل بأدوات وأساليب جد متباينة ، وقد يلفت الانتباه أن له قصة بعنوان « البحث عن لون » ، وأنه فى الطبعة الثانية لمجموعته (أغنية الدمية) أعاد نشر قصة « الأقنعة » بعنوان « عقد من الخزف الأزرق» . فالخزف مادة يتعامل الفنانون معها باعتبارها أداة من أدوات التشكيل ؛ والزرقة لون من الألوان التى لابد منها فى العمل الفنى التشكيلى والأكثر من هذا أن بطل قصة (ظل السكين) ينتهى تفكيره فى محبوبته (بمجرد ابتعاده عنها أو انشغاله بكتاب أو بلوحة) ص ٢٣ مجموعة « المثلث الفيروزى » . ولك أن تلاحظ استخدام كلمة « ظل » فى عنوان القصة ؛ و« الفيروز » كلون فى عنوان المجموعة .

الصورة والضوء ، والألوان المختلفة ، وانعكاسات الصورة فى المرآة ، والمربعات والمستطيلات عناصر لافتة فى هذه القصة

لا نظفر بها على هذا النحو فى قصص غيره . وهى هنا موجودة لا للتزيين أو الزخرفة والتمنمة كحلية ؛ وإنما هى مقصورة ؛ وملتحمة « بالداخل » ، والحالة النفسية التى يريد أن يلقى عليها الأضواء أو الظلال ، « وأشعة الشمس المنسكبة على زجاج مكتبه من النافذة تنعكس على زجاج نظارته ؛ فتوحى بسعادة بلهاء » ص١١ ؛ «عندما أرسم أمى ياسادة لا أصور أشخاصاً . أنا فقط أطل إلى الداخل» ص٨ ؛ « عندما رفع رأسه أخيراً ، كانت تغطى صورة أمه « بقعة غزيرة من العرق » ص١٣ ؛ « فى الترام كان يحاول أن يتذكر وجهها .. وجه أمه .. لم يستطع . ضاعت ملامحه . كل شىء غامض ضبابى . السحب الداكنة قريبة جداً من «العمارات» . والدنيا كلها رمادية » ص١٦ مجموعة « المثلث الفيروزى » .

لما أراد التعبير عن « الداخل » ؛ وإحساسه بضياع ملامح « الأم » ؛ ربط بين كفاحه وكده من أجل رؤيتها ، باستخدام بقعة العرق الذى ينضح من جبينه ، بدلاً من بقعة اللون ؛ وكأنه أعطى للعرق لوناً من شأنه أن يطمس الملامح ويغطى الصورة ؛ فيبدو كل شىء فيها ضبابياً غائماً لم تعد عيناه تريان شيئاً إذ غطت السحب الداكنة على الملامح الخارجية للصورة ، والبنايات شاهقة الارتفاع ، والانفعالات الداخلية ، والمشاعر الذاتية؛ أصبحت الدنيا كلها رمادية اللون .

وهكذا تكون النظرة التشكيلية التى أضفت على المشاعر والأحاسيس ثراءً وغنى . لأن الكاتب لا يحكى « حدوته » ولا يقص قصة فى ثوب تقليدى ولكنه يصور لنا أحاسيس البطل فى موقف شديد الخصوصية والحساسية معاً .

ويتحد الصوت أو الصمت مع الضوء أو اللون فى تجسيد المشاعر الداخلية فى قصة « ظل السكين » حيث يتناول الصمت مع الظلام والكلام مع الضوء والنور ؛ فى تتبع حالة القلق ، والترقب ، واليأس ، والخوف لدى كل من صباح والبقرة وفتحى، إما الذبح والسكين ، وإما الانجاب والإثمار والخلف ؛ وكأن تجويفاً فى الصدر لا يزال مفتوحا عند ثلاثتهم . كل منهم يستشعر هذا التجويف ؛ حيث تتحكم فيه قوة خارجية هى التى يتعلق بها مصيره . وكل منهم يبحث عن « الخلاص » و« الخروج » من هذا المأزق الذى هو فيه البقرة والجزار ؛ صباح وفتحى ؛ وظروف قاهرة كثيرة ، وصراعات نفسية داخلية مدمرة .

وكلمات البداية وفقت إلى تسلمنا لهذا الانطباع . (تخطى باب الحجرة إلى السطح . فاجأته ألواح الظلام فى لطمات غليظة طمست عينيه) ؛ (كان الصمت والظلام جاثمين فى كآبة) ص٢٠ الظلام متحداً مع الصمت يفضيان إلى كآبة وحزن. والظلام ألواح ثقيلة ؛ بمثل ما إن اللطمات غليظة مؤثرة جعلت العينين لا تؤديان الوظيفة والمهمة الطبيعية لهما . فلم تعد ثمة

رؤية ، ولم يسمع صوت . وهناك فراغ كبير فى « المادة » حيث الصوامع فارغة مهملة ؛ يوازيه فراغ فى المساحة واللوحة والزمن . وحيث يرتعش النور تكون الخطوات مكتومة؛ وعندما يلتقى اللونان الأبيض والأسود فقط فإن لنا أن نتوقع إيقاعاً حاداً جداً (أراد أن يضيف شيئاً ، لكن الصمت كان أقوى ، صمتا كئيبا ؛ جلال . نظر نحوها . بدت كقطة سوداء حالكة تحتمى به . كانت أقصر منه ، ولم يكن يرى من وجهها إلا الأنف وأعلى الرأس) ص٢١ .

الصمت كئيب ثقيل ، والسواد حالك يضيف إلى الكآبة والحزن تشاؤماً . وملامح الوجه لا يظهر منها إلا الأنف وأعلى الرأس. لأنه رسام فإنه لا يهتم عند رسم البورتريه إلا بالجانب المرئى الأعلى الذى يواجه الناظر إليه . وما أن يأخذ الصمت فى النوبان شيئاً ؛ حتى تبدأ أصابعه تتحسس « تقاطيع وجهها الناعمة » . ص٢٢ فهو أيضاً يهتم بدقة الملامح والارتسامات المجسدة . ومادام الصمت قد اتجه نحو النوبان ؛ فإن الضوء هو الآخر لابد له من أن يبين ويظهر « أصبحت السماء بيضاء فى جهة الشرق وإن لم يظهر القمر » ص٢٤ . كذلك كان الصوت «ثقيلاً مجروحاً» ص٢٢ .

ولا نضيف جديداً إذا قلنا إنه يختار اللون ، والظل ، والصوت ؛ بما يتلاءم مع «داخل» الشخصية وملامحها النفسية والشعورية ، وهذا واضح فى قصة (السقوط) على سبيل المثال ؛ بل وفى جميع قصص هذا الكاتب – الفنان : (كان خط الضوء على مسافة قدم واحدة من مجلسه ، يهتز اهتزازات خفيفة مع أرجحة « الكلوب » المدلى من السقف . تحرك فى تلك اللحظة خط الضوء من أمامه . أخذ ينسحب وينسحب ، فتضيق رقعة النور فى الزقاق . وسقط فجأة على المكان ظلام ثقيل . نظر هناك كانوا قد أغلقوا باب المضيفة) ص٣٩مجموعة المثلث الفيروزى ، فالظلام يسقط فى لحظة عدم تحقق الأمل، وإغلاق الأبواب فى وجه عواد . بل إن الضوء الذى اختفى تماماً كان قد ارتعش – قبلئذ – لحظة اكتشافه مزقاً جديداً فى جلبابه (ارتعش ضوء مصباح « الجاز » على « الطبلية » عندما هبت نسمة مجهولة المصدر . لاحظ عواد مزقاً جديداً فى جلبابه عند الحجر . كان رأسه تحت المصباح تماماً . يغمره الظلام . أخذ يلملم المزق بإصبعه ووجهه فى حجره . قام فى صمت ودس قدميه فى حذائه البالى وغادر الدار . يخترق ظلام الزقاق) ص٢٩ م. ف

صياغة تشكيلية

ولنا أن نتوقع هذه العين اللاقطة ، وتلك الفرشاة الحريصة على جعل الظلال والألوان والمساحات والفراغات أدوات ووسائل لا يمكن الاستغناء عنها فى صياغة هذه الرؤية التشكيلية ، التى – كما يقول عنها يحيى حقى فى مقدمة مجموعة

المثلث الفيروزى – هى بطبعها نظرة جمالية تحتاج إليها القصة القصيرة ، بما تحمله من أطياف تتساند حول جمال الصدق فى التعبير ؛ حتى يشع بها انتباه الكاتب للوجود كله من حوله . ولك أن تتأمل قوله ص٢٩ : « كانت أرنبة أنف الحاج شعبان تلمع وحدها . وسط وجهه الغارق فى الظل» وقوله ص٣٢ : « تراجعت البيوت القصيرة السوداء إلى الخلف » بمثل ما تتراجع فى خلفية الصورة حين ينظر إليها من بعيد ، حيث تكبر العناصر والجزئيات القريبة ، وتصغر التفاصيل البعيدة وقوله ص٣٨ اقترب عواد أكثر . أصبح جسمه كله فى رقعة الضوء العريضة أمام المضيفة » . وقوله ص٤٤ : «ألف شمس فوق الأسفلت»، تنفذ « الصهد » ورائحة القار . ضوء شديد جداً ، درجة حرارة مرتفعة إلى أبعد حد ، مع رائحة لم تألفها حاسة الشم من قبل .

ليس من شك فى أن هذه اللملمة الفنية الواعية ، تستلزم دقة وسبكاً فى صياغتها بحيث لا تنفصل عن الانطباع العام الذى يريد أن يحدثه الكاتب من خلال قصته ؛ ولا تبعد عن الموضوع الذى تعالجه القصة القصيرة . كما أنه يحتاج إلى أناة وصبر بالغين لإجادة هذا التشكيل الفنى الدقيق . وهذا ما ينفرد به عز الدين نجيب بين زملائه الذين كتبوا القصة القصيرة معه فى أوائل الستينيات . كانت إفادته من تخصصه الفنى سمة واضحة لديه فى الأغلب الأعم من قصصه القصيرة . وإن لم يبتعد عن القضايا المحورية التى دارت حولها قصصهم .

فالإنسان عنده متهم دائماً بارتكاب جريمة لم يرتكبها . « متهم دائماً ودائماً مدان . وحين أوجه الاتهام إليهم أخرج أيضاً مذنباً ص١٢٥ مجموعة « أغنية الدمية » وعندما تفشل كل حيلهم معه يعلنون جنونه ، « وفشلت محاولاتهم لإقناعه بالنزول ، فدفعوه عنوة إلى المستشفى ، واقتادوه إلى الطابق العلوى ، ووجد الجميع فى انتظاره ، يملأ عيونهم الفضول والبهجة وهم يعدون الكلام الذى سيقسمون عليه لأصدقائهم وذويهم مؤكدين أنهم رأوه بعيونهم هذه » ص١٤٥ مجموعة أغنية الدمية ، « .. لكن ألا ترين كم هو مضحك كل هذا ؟ ثلاثون يوقعون على أننى مخرب ومجنون . ثلاثون هم كل موظفى المكتب .. ويقولون إن الناس لا تجتمع على خطأ » ص١٢٤ مجموعة أغنية الدمية .

الفرد – دائماً – فى مواجهة الفرد ؛ والجماعة – أبداً – ضد الفرد ، تطارده ، وتتهمه ، تحاصره وتخنقه ، أو تعزله . «الأسفلت .. ورائحة البنزين . والطرق المقفرة تنبت عيوناً تقتفى أثره . وكان منعماً بالضآلة» ١٢٣ مجموعة أغنية الدمية. « عشرات العيون والعوينات الزجاجية : لامعة، ومحدقة ، ومبتسمة بشكل ما ، تحاصرنى ، تغرقنى بترقب مصهور ، يلهب أطراف أذنى » ٤٥ مجموعة أغنية الدمية «انشق الطريق المنحدر فجأة عن

عشرات الأشخاص بجلابيبهم البلدية ، اندفعوا خلفى يتصايحون ويثيرون الغبار ، بحقد وعدائية ثأر قديم . انتهى المنحدر فجأة إلى سلالم حجرية عريضة لا نهائية العدد . اندفعت أخطف كل عدة درجات فى قفزة واحدة . كانوا ينبتون فجأة على الدرجات كأنما ينشق عنهم الحجر ، ويقابلوننى بالعرض . لم أكد أدرى بأية قوة تتحرك ساقاى . انحنت السلالم بغتة إلى منحنى جانبى التفت خلفى ، كنت قد تجاوزت المطاردين بمسافة كافية لأن أختفى الآن فى أى ركن . خلف جدار أثرى مهدم ألقيت بنفسى ، ومن مخبئى رحت أشاهد جحافل المطاردين تتدفع مدومة » ص٥١/٥٢ مجموعة أغنية الدمية .

الإنسان الفرد المطارد فى قصة (الزوايا) متهم بالسرقة وهى لم تحدث ؛ وإن لم يمنع هذا استمرار المراقبة ، والمتابعة ، والمحاصرة ؛ بهدف الإدانة ، والتعذيب ، وخنق الحرية. والمطارد فى قصة (الطوفان) متهم بالتخريب أولاً ثم بالجنون بعدئذ . وهذا هو ما يستهدفه الكاتب ؛ حين تتكاتف القوى الخارجية الضاغطة على الإنسان ؛ كى تودى بعقله وحياته ، والمطارد فى قصة (الأقنعة) متهم بقتل زوجته ؛ فى حين أنه لم يفعل ، وإنما السائق هو الذى فعلها بدعوى الانتقام منها لكرامة الزوج . فالجماعة الخارجية هى التى تثأر لكرامته هو ؛ وسيلة لكى يكون قتله مشروعاً ؛ وسجنه مؤبداً ؛ ونهايته مضمونة . والمطارد فى قصة (المملوك) تتهمه الجماعة بنقل أسرار العمل للخارج . والمطارد فى قصة (طريق الكثبان الرملية) يوجه إليه اتهام غامض مثير ؛ ينتهى إلى أنه يعمل لحساب العدو .

وإذا كان المطاردون جماعة قد تتحدد هويتهم ؛ فإن الكاتب - أحياناً يشير إلى الشرطة فى قصة (التفاحة والسكين) ، (.. فإن ما تنقصهم معرفته عنى هو ما أفعله فى تلك الساعات التى أقضيها فى البيت ، أما خارج البيت فلديهم الكفاية هناك دائماً على درجة من السلم . واحد منهم ، فى الأركان المظلمة ، فى المطاعم ، فى الحانات ، فى المقاهى ، فى الأتوبيسات غيرت طريقى بين البيت والعمل مرات . امتنعت عن ركوب الأتوبيس وتحملت التكاليف الباهظة لسيارات الأجرة: اكتشفت أنهم السائقون أيضاً . لو كنت فقط أجرؤ على النظر فى وجوههم ! . لكننى – حتى وهم يبتسمون لى ، وهم يمدون أيديهم الطرية لمصافحتى لم أكن أجرؤ ، بل كنت أكتفى بأن أشيح بوجهى عنهم وأبتعد مسرعاً . قررت أخيراً أن ألزم البيت بعد عودتى من العمل ، تجنباً للظهور فى الأماكن العامة ، فلجأوا إلى التليفون .. لكن . أن يطلب منى ذو الرأس الأصلع بعد كل ذلك أن أقوم أيضاً بالدور نفسه . أن أصبح عيناً لهم على الآخرين – ولو لبضعة أيام – حتى يأذنوا لى بالسفر ...) ص٨٧ – مجموعة أغنية الدمية .

ـ ولا يغيب هذا العالم عن قصة (كونشرتو النادى) حيث الاعتقال، والسجن والتعذيب، والمراقبة. وهو ما نلاحظه فى قصة (ليلة ذى الرأسين).

وأحياناً ما تتضافر عناصر كثيرة موجودة فى الواقع الخارجى، لتشكل مع الجماعة - المحددة وغير المعروفة - هذا الحصار وتلك المطاردة. البقعة الرمادية البعيدة فى الميدان، إشارات المرور، العربة ذات الغطاء الرمادى، الصمت المشحون بالتآمر، العيون التى يزداد حصارها إحكاماً، الصمت السميك الذى يتذبذب فوقه الصدى. فليس ثمة تواصل بين الفرد وكل العناصر المحيطة به، والأناسى الذين يعيشون أو يعملون معه، أو يتظاهرون بحبه، لا حوار، لا جدل، لا تفاهم، لا اتصال « شخصوا إليه صامتين كأنهم لا يعرفونه »، لم يتلق غير الصمت » : التفتوا إليه بحدة كأنهم بوغتوا بوجوده. تردد صوته فى أذنيه غريباً بائخا، راحوا يحاصرونه بالنظرات » ص ٣٥و٣٦ مجموعة أغنية الدمية. إزاء هذا العالم العبثى الغريب، يشعر الفرد بالعجز، والاختناق، والغربة. « ظل السؤال الأخرس معلقاً فى عينيه بلا جواب، تضاعف ثقله، واختنق بالعجز عن أية حركة »، « لقد ظللت طوال الوقت تسلط الفكرة على ذهنى، لكننى لم أكن أستطيع » ص٩٧ - ٩٨ مجموعة أغنية الدمية.

ويلعب الصوت مع الصورة، والنغمات مع الظلال والألوان، دوراً مهما فى قصصه القصيرة، لإضفاء شعور معين، وحالة نفسية خاصة. وقصة (قطار الشمال) تحفل بهذا العنصر. فجملة الابتداء توحى لنا بذلك « سمعت البوق. رغم الطنين المندغم المصهور. فى المرة الأولى كان واهناً قصيراً مكتوماً.. انطلق البوق للمرة الثانية. انصب بينى وبينها تماماً، غليظاً ممطوطاً لحوحاً فالطنين مصهور. وصوت البوق واهن « صحياً »، « قصير » حجماً، مكتوم، لمحاكاة الحالة الشعورية التى عليها البطل. ثم هو غليظ « حجما » ممطوطاً « حالة » لحوح «استبداد ومحكم». « يذوب زعيقها فى الطنين المصهور من أصوات الرجال ونقيق النسوة وبكاء الأطفال وعجلات القطار » ص٢١، ٢٢، ٢٣ لكل من العناصر درجة الصوت التى تميزه؛ وهى - جميعاً - تكون النغمة النشاز. إنها كائنات ذائبة فى طنينها الغامض.

ويهيمن « الصمت » فى المدينة الفارغة من البشر، الحافلة بالأشياء والأدوات الاستهلاكية التى لا يتعامل معها الناس. لا حوار بينهما. بمثل ما يختفى أو ينعدم الحوار بين الأحياء. « الصمت وحده هو الذى استقبلنا فى المحطة. صمت معدنى سميك » ص٢٤. « أصبح للصمت فى المخبأ صوت غريب كأنه بقايا صيحات وهمسات الناس المذعورة ». « وجدنا

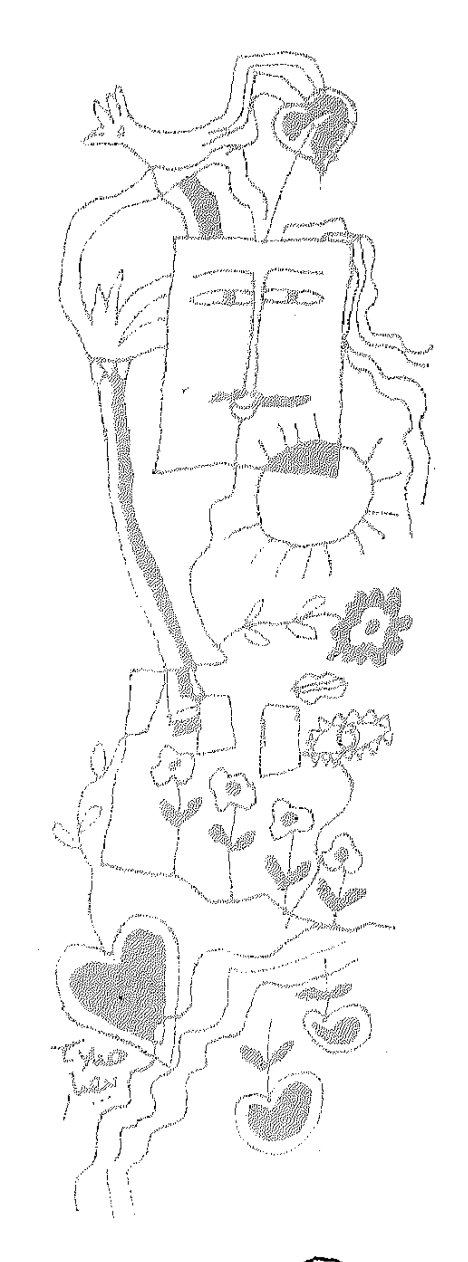
الصمت بانتظارنا » ص٢٥ . وكيف لا يهيمن الصمت ، والإنسان مخنوق ، والحوار مقطوع ، والفعل ممنوع . « وفجأة تلقت عيناى صفعة ضوئية عنيفة ، من فوق سطح النهر الذى يلمع كالسيف تحت الشمس الأصيلية » ص٢٦ . « خيم فوقنا ذلك الصمت المعدنى الذى يتذبذب - بغموض - ببقايا أصداء ضحكاتنا ، وكأنها حدثت فى زمان بعيد) ص٣٢ .

« عندما رفعوا رءوسهم مرة أخرى لم يكن هناك غير الصمت ، ذلك النوع من الصمت الذى يملك حضوراً لا تجسر أى قوة على خدشه . أيقنوا أنه الموت » ص٧٤.

وفى قصة (التفاحة والسكين) نلتقى مع واقع حى متحرك ، تجسده لحظة حاضرة آنية ، يتخللها صوت البطلة أحياناً ليستكمل الصورة ويربطها بالحاضر ، ثم يكون صوتها الصامت الذى يحدد تاريخ علاقتها بالبطل ، ونوع هذه العلاقة ، ودرجتها ؛ وما يلبث أن يأتى صوت البطل؛ ليكشف عن أغوار نفسه وأحاسيسه الداخلية الآنية ، وأخرى ليذكر بعضاً من ماضى علاقته بها ؛ كل ذلك فى اتحاد فنى وانسجام شعورى ووجدانى ، كذلك فإنا نراه فى قصة « الزوايا » يستخدم وسيلة لا تتعدد فيها الأصوات . فالراوى يلتقط لحظة حاضرة فى حياة البطل ؛ ويتتبعها حتى يصل بها إلى الذروة ؛ لكنه - فى ذات الوقت . يتوجه إليه بحديث مباشر مسترجعاً بعض الصور والذكريات من ماضيه . وذلك بهدف استكمال الحدث ؛ حيناً ، ولتجسيد رؤية شخصية من الشخصيات المحورية حيناً آخر . ويكون ذلك للتطور بالحدث خطوة إلى أمام ، أو التعليق على موقف من المواقف المستحدثة فى القصة . وفى المثلث الفيروزى) تتعدد الضمائر ص٩ .

وقد توسل فى تجربته لمتابعة الحالة الشعورية والوجدانية لشخصياته : أن يجيىء ذلك عن طريق تقسيم القصة إلى مواقف نفسية وشعورية . وجعل لكل قسم رقماً . لا تنفصل الأقسام عن النسيج العضوى للقصة . لأنه احتفل بالداخل احتفالاً شديداً ؛ وحرص على أن يكون كل قسم من الأقسام ملتحماً ومؤدياً إلى تمثيل المحاصرة ، والاختناق ، والقهر . ولم تحل « اللغة » دون تحقيق الهدف . إذ ينبغى أن نشير إلى أن « لغته » تتسم بالشاعرية لم يقصدها لذاتها وإنما جعلها طائعة لتوصيل الانطباع الذى يريده هو إلى القارىء . جملة قصيرة محكمة الصياغة والسبك . قلمّا لجأ إلى « العامية » فى الحوار بين الشخصيات . وكانت تلك هى أداته فى قصصه القصيرة الأولى التى استجاب فيها لمبادىء الواقعية الاشتراكية. ولئن بدا العالم الذى يكشفه عالماً عبثياً مجنوناً فى غالب الأحيان ؛ فإن الشكل الفنى الذى استوعب هذا العالم ، لم يكن كذلك .

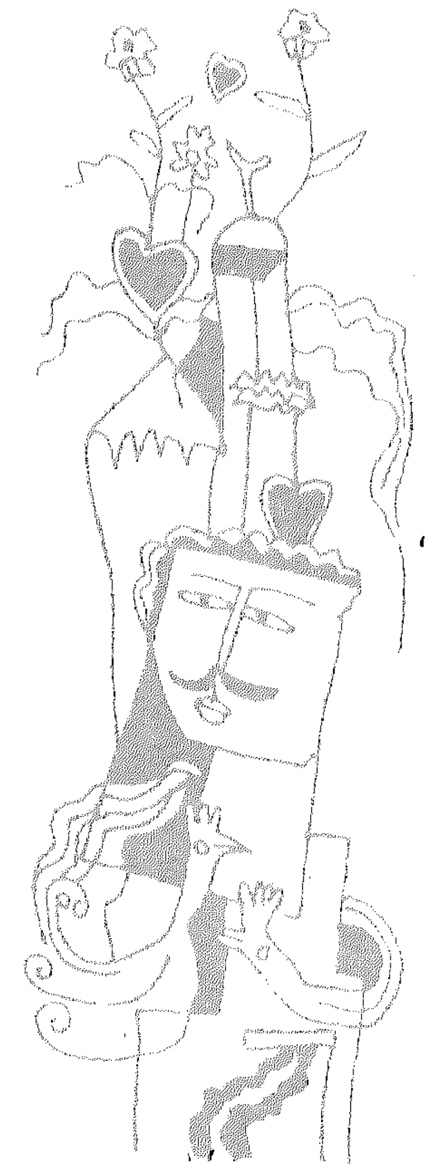
أزمنة الكراهة



يتمدد ظل الليل على أبواب مدينتنا
يثلج ما ينبت من زهر
نتحول في الوطن كائنا
رهط رحال ضلّ بقفر
وينقب عن جرعة ماء
نشخص بالبصر فنلقى الكثبان بأعيننا
تصطف كمن يتقبل في الموت عزاء
من يمنحني الدهشة تنسلخ على شفتي
ضحكا وبكاء ؟!
كي يمكنني الإبحار بلا غرق
عبر ثلوج اليأس بأوردتي
ورياح البغضاء

تنقسم الذات بمرآتي
شطرين امتزجا وافترقا
يصعب نومي ، أستجديه بكل مساء
تملؤني الحسرة قلقا
تشتعل النار بأنسجتي
أتحول بقعة ضوء ، يحملها الطير إلى مدن

شعر : مدحت قاسم



يتفتح لى فيها الزهر ، ويحاورنى العشب ،
تنبت لى أعضاء غير الأعضاء
تتراقص أنهار حولى
أحتضن الماء برفق وأصلى
صلوات الإستسقاء
كى تخضر بقلبى الصحراء

تقبل نحوى فى الحلم مدينتنا
زهرة فل ، تختنق بعروة ثوب ، وتحن إلى البستان
نتحاور فى صمت ، نتوحد قدر الإمكان
وتهز إلى بجذع النخلة ، نأكل ما يتساقط من رطب ،
نغتسل بضوء الشمس ، نرتل سفر الغرباء
نتزامن والحلم برحم يتآكل فيه الأبناء
نتخضر كالنبت البرى على الفطرة
ما بين الشهقة والميلاد
تكتمل الدورة
يتدلى الثمر على الشجر النائم فى استرخاء

أترنح من وهنى
كالطير العائد من سفر فى كل شتاء
فليعذرنى زمنى
جئت إليه قبيل بدايات الأشياء

خيانة الوطن
بين الأدب والسياسة

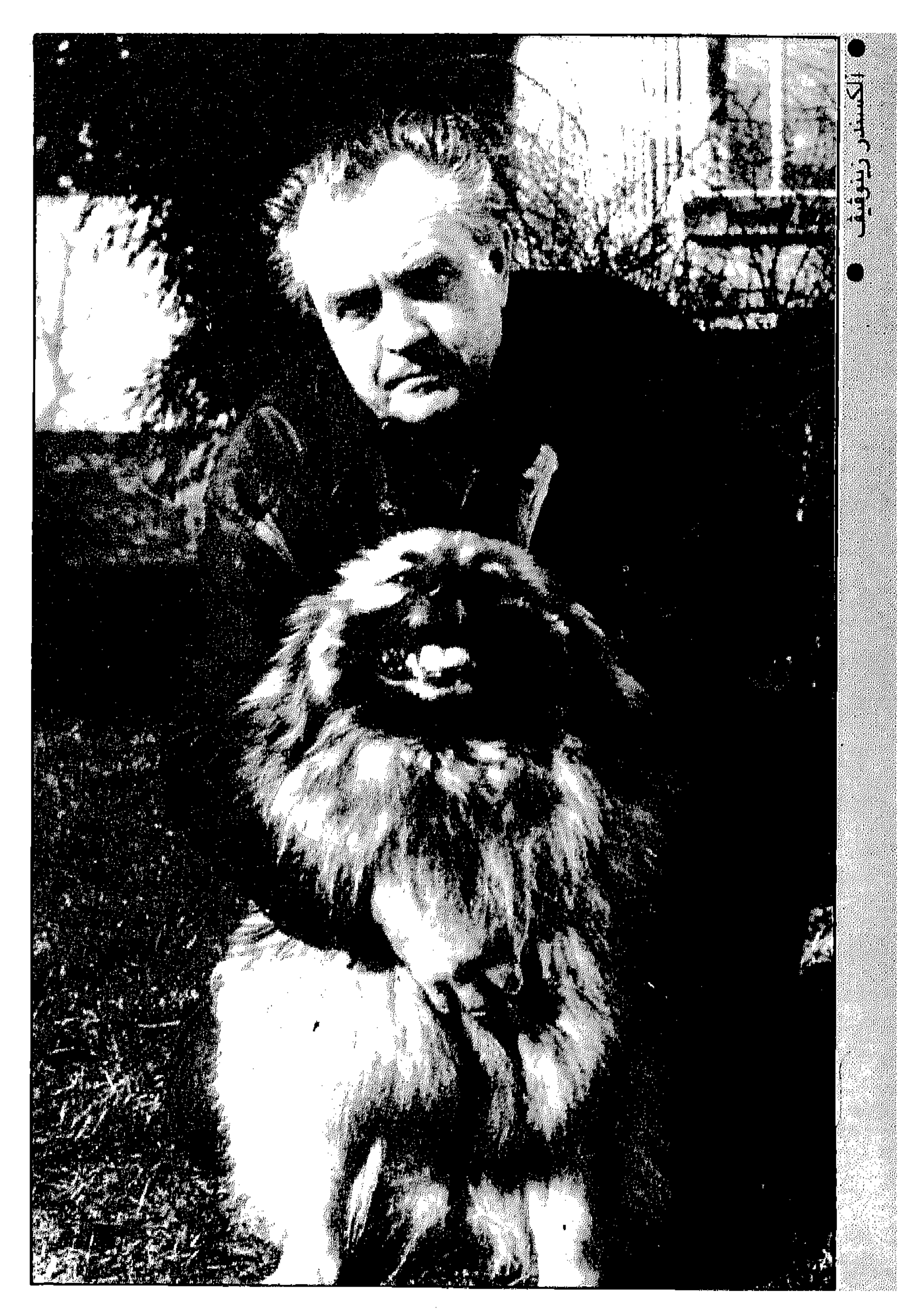
بقلم : محمود قاسم

لن تتوقف الاتهامات المتبادلة فى روسيا ، الاتحاد السوفييتى السابق ، بين رجال السياسة ، ورجال الأدب الذين لديهم حساسية خاصة لكل من يجلس فوق مقعد الحكم بالكرملين .

هؤلاء الأدباء الذين تغيرت أسماؤهم تغيرا سريعا فى السنوات الأخيرة ، فهم تارة منشقون ، وهم تارة أخرى أدباء بيروسترويكا ، أو أدباء بوقيُّون للقوميات الجديدة .. وبشكل عام فهم يعملون بالسياسة ، وأكثرهم قد ذاب وسط تلك الوقائع الانفكاكية التى شهدها المعسكر الشرقى فى السنوات الأخيرة ، لكن القليل منهم لايزال على موقفه ، ولايزال حادا فى آرائه ، ولم يتغير كثيرا .

ومن هؤلاء ألكسندر زينوفييف الذى اختار أن يعيش فى فرنسا منذ سنوات السبعينات ، وهو الحاضر دوما بشأن الإدلاء برأيه ، فى كل ما يتعلق بالتغيرات التى تحدث فى البلاد .. وآخرها تلك الأزمة السياسية الطاحنة بين الرئيس بوريس يلتسين ، وبين البرلمان الروسى .

جاء الحديث الذى أجرته مجلة «لوبوان» الفرنسية مع الكاتب فى ٢٧ مارس الماضى بمثابة قنبلة سياسية وأدبية حقيقية ، لم يكن دوى انفجار هذه القنبلة نابعا من الهجوم الشديد الذى أطلقه الأديب المنشق، ضد جميع الأنظمة الحاكمة هناك ، على كل من جورباتشوف ويلتسين ، ولكن لأن عملية تبادل مقاعد الاتهامات قد بدت واضحة فى هذا الحديث .



● الكسندر زينوفيف ●

أكد زينوفيف أن ما يحدث الآن في روسيا يعد بمثابة آثار للجريمة التي دبرها الغرب ضد المعسكر الشرقي، وأن جورباتشوف لم يكن سوى دمية للغرب في بلاده، وقد خان وطنه وشعبه، وشكل حكومة خائنة، وأن يلتسين كان هو بطل الأحداث أثناء انقلاب عام ١٩٩١ الذي أطاح بجورباتشوف لعدة أيام، ثم عاد ليكون دمية من جديد لبضعة أشهر فقط حتى يتفكك الاتحاد السوفييتي بشكل شرعي.

تبادل الاتهامات السياسية

وأكد زينوفيف أن يلتسين أيضا دمية بين أيدي الغرب، وأن الرئيس كلينتون سيتركه يسقط بعد أن يلعب دوره - من الملاحظ أن الحديث قد تم قبل لقاء فانكوفر في ٤ أبريل الماضي - وأحس الكاتب بالأسى الشديد لأن جورباتشوف قد دمر الحزب الشيوعي لأنه كان كيان الدولة .. وأن كلا الرجلين اللذين حكما البلاد كانا بمثابة الطابور الخامس للمعسكر الغربي داخل الاتحاد السوفييتي.

وعندما حاول محاوره چيل هرتسوج أن يراجعه فيما ألقاه من اتهامات حول الرجلين، قال زينوفيف من جديد ان يلتسين هو محافظ الغرب لدولة روسيا. وأن الغرب هو الكاسب الوحيد من نهاية الحرب الباردة، بعد أن كانت روسيا هي القوة العظمى الثانية منذ عهد ستالين. ولكن القوة انتقلت الآن الى الصين واليابان.

تعمدنا أن نذكر هذه الكلمات من الحديث الذي أجرته « لوبوان » مع زينوفيف، لنؤكد أن الأدب المنشق لم يذب بعد في حنايا التاريخ. وأنه في الوقت الذي توجه فيه الاتهامات الى كل المعارضين سابقا للسياسات السوفييتية، وسكنوا المدن الغربية، وحصلوا على امتيازات وشهرة لانشقاقهم، بأنهم لم يعودوا بعد الى وطنهم الذي تحدثوا باسمه، فان الكسندر زينوفيف هو الوحيد الذي أكد بموقفه هذا، أن الانشقاق لايزال قائما، وأن هناك أسبابا لذلك.

الغريب طبعا في هذه الاتهامات التي أطلقها زينوفيف على كل من جورباتشوف، ويلتسين، وهي تحمل وجهة نظره، بالخيانة الوطنية، هي نفسها الأسباب التي أطلقها رجال النظم السوفييتية السابقة، لكل من عارضهم، وخاصة هؤلاء الذين هربوا للإقامة في حدود المعسكر الغربي - سابقا - لمناهضة النظم الشمولية الشيوعية .. ومن هؤلاء بالطبع زينوفيف نفسه، الذي سبق أن ذاق طعم اتهامه بالخيانة الوطنية، فأحب أن يعيد الاتهام الى أصحابه، وهو الذي برع دوما في العثور على تبريراته الخاصة

لانتقاد الحكام الذين يدخلون قصر الكرملين .. أيا كانت انتماءاتهم .

لكن السؤال .. لماذا زينوفيف بالذات ؟

الحجة .. ضد الحجة

احتفل الكسندر زينوفيف في التاسع والعشرين من أكتوبر الماضى بعيد ميلاده السبعين ، فهو من مواليد عام ١٩٢٢ ، فى قرية باختينو ، بمنطقة كوستروما الروسية، لأم فلاحة ، وأب يعمل نقاشا على الجدران ، ووسط أسرة أنجبت أحد عشر طفلا ، وعندما سافر الى موسكو للدراسة عام ١٩٣٩ ، ما لبث أن استبعد من هناك لأنه أعلن شفاهة عن معارضته للينين . اهتم بدراسة فلسفة العلوم . وعمل مدرسا فى هذا المجال حتى عام ١٩٧٧ . ولم يكف عن الهجوم على ستالين حتى الآن . فى عام ١٩٧٤ أصبح عضوا بأكاديمية العلوم بفنلندا وفى عام ١٩٦٦ استقال من الحزب الشيوعى . وراحت الاستخبارات تمنع نشر رواياته وأعماله . فسعى إلى طبع كتبه خارج الاتحاد السوفييتى . ومنها روايته « المتثائبون الكبار » عام ١٩٧٦ والتى تعتبر بمثابة سيرة ذاتية لحياة أخيه فاسيلى الذى تم طرده من الجيش . والمعاناة التى عاشها كضابط كبير مطرود.

وقد أثارت هذه الرواية غضب السلطات السوفييتية عليه ، وفى نفس الوقت الذى وجدت فيها وسائل الاعلام الغربية وسيلة للهجوم على الاتحاد السوفييتى ، فى قمة الحرب الباردة . فأصبح خائنا لوطنه هنا ، وبطلا فى أوربا الغربية بشكل خاص . وكان ذلك تمهيداً لأن تعلن السلطات عن رغبتها فى عدم بقائه . فسافر إلى ميونيخ عام ١٩٧٨ . وهناك كانت الاحتفالية تنتظره، مثلما انتظرت جميع المنشقين الذين لمعوا فى تلك الفترة فراحت دور النشر تتلقف كتبه ، ورواياته ، وأقيمت له الندوات الكبرى لمناقشة هذه الأعمال . خاصة فى باريس التى اختار أن يقيم فيها مع أسرته الصغيرة .

وأغلب الكتب التى نشرها زينوفيف منذ عام ١٩٧٨ وحتى الآن ، مكتوبة باللغة الروسية ، تتم ترجمتها أولا بأول إلى الفرنسية . وعلى خلاف زملائه المنشقين ، الذين اختاروا السفر إلى الولايات المتحدة، فإنه قد آثر أن يبقى فى باريس ، يحصد هناك الجوائز الأدبية ، ويعتبر لسان حال الانشقاق . وزينوفيف كاتب غزير الابداع، والكتابة ، كما أنه دائم الحضور فى وسائل الإعلام ليتحدث عن مجريات الأمور فى بلاده . ومن أشهر البرامج التى ظهر فيها على الشاشة هو تلك الحلقة من برنامج « ابستروف » عام ١٩٩١ والتى راح فيها يناظر الرئيس يلتسين ، ويطرح عليه الحجة تلو الحجة .

صـــناعة الإلحـــاد

من أهم روايات الكاتب هناك : « غرفة الفــردوس المضـــــادة » عـــام ١٩٧٨ . و« المســـتقبل المُشـــع » عـــام ١٩٧٩ و« الذهاب الى الجولاتا » عام ١٩٨٦ .

أما أهم دراساته ، وكتبه السياسية فهناك « الانسان السوفييتى » عام ١٩٧٨ ، و« الجورباتشوفية » أو « سلطة الوهم » عام ١٩٩٠ ، و« تراسفيل » عام ١٩٩٢ .

ورغم كل هذه الكتب ، وغيرها ، إلا أن زينوفيف يذكر دائما من خلال روايته الأولى « المتثائبون الكبار » باعتبارها الوقفة الابداعية الهامة التى أكد فيها موهبته ، والتى ينظر النقاد اليها باعتبارها الأم الكبرى لبقية أعماله ، فهى رواية عن مجتمع يعيش تحت سطوة القوانين الاجتماعية ، وليس مسموحا لأحد مهما كان ان ينتقد هذه القوانين ، حتى ولو كان من داخل النظام ، ولذا فان العقاب الذى يحل بالكولونيل العسكرى يعتبر صارما .

وقد صب الكاتب كل معارضته للستالينية فى هذه الرواية .. لكنه مالبث أن ترك تلك الحقبة التاريخية ، كى يعيش فى الحاضر فى روايته «الذهاب الى الجولاتا». فنحن هنا أمام شخص عادى ، سوفييتى بين السوفييت ، كما يقول الكاتب ، ويسكن وسط السكارى ، انه يدعى ايفان لابتيف ، يكتشف أن السلطات الرسمية قد صنعت دينا اسمه الالحاد ، وان من يود الحج حسب هذا الدين عليه أن يذهب الى موسكو ، وعليه هناك أن يصطنع قبلة يهوذا ، وأن يمشى فى درب الشخصية التوراتية الجولاتا ، ولكن بمنظور سلطوى شمولى معاصر .

وفى هذه الرواية يمزج الكاتب بين الأسماء التوراتية ، وبين الأسماء المعاصرة، مثل انتيبود الذى عليه هنا أن يحقق مكاسب أيديولوجية وسياسية ، ويقول الكاتب جان فرانسوا ريڤل فى مجلة لوبوان - ٩ يونيه ١٩٨٦ - ان الكاتب قد صنع قصة خيالية فى هذه الرواية ، وكأنه يقدم الدين بمثابة العزاء الممكن للبشر ، والوسيلة الحقيقية لاعادة الحرية الداخلية فى داخل المجتمع الشمولى ، لم يود زينوفيف أن يركب الخطر بأن يدخل فى دائرة سوء الفهم ، رغم أنه قادر أن يفتح للأمل بابا ، ففى النهاية يتم القبض على ايفان ، ويصدر الأمر باعدامه . ولكن الحكم لا ينفذ ، ويحس أن المطلق قد مات فيه . وأنه لم يكن سوى واحد من بين العديد من أمثاله البشر » .

الأديب .. دولة حاكمة

يقول زينوفيف فى الحديث الذى نشرته مجلة الاكسبريس فى ١٩ أبريل ١٩٨٥ أن مفتاح الكتابة لديه يتولد من منطق التمرد ضد كل شئ .. « فأنا كاتب

متحرر ، ثرت على المنطق ، وعلى علوم الاجتماع ، والأدب التقليدى ، رجل يرتدى ملابس غير مناسبة يدخل غرفة ويفتح النافذة ، وليس فى امكانه أن يفعل شيئا ، فأنا أكتب الأدب الذى يخلو من المعنى ، وليس لأبطالى عيون ولا أنوف ولا ملابس ولا شئ » .

ويؤمن زينوفيف أنه ليس للكاتب مهمة الاصلاح : « أنا دولة حاكمة ، أنا الرئيس فيها والمواطن الأوحد والأيديولوجى الوحيد .. والعضو الوحيد فى الحزب ، هذه الدولة تسمى زينوفيف . ولا أشارك فيها أى تكتل لأننى التكتل الأوحد » .

والجدير بالذكر أن زينوفيف قد رفض دوما أن يسمى كاتبا منشقا ، باعتبار أن الانشقاق هو شكل من أشكال الضعف ، وأن المنشق لا يجد من يسانده من الجماهير ، « المنشقون هم نتاج الموقف السوفييتى ، والقوى الغربية كى يؤثروا على الاتحاد السوفييتى الآن فهو حركة منتهية ، لم يبق منها سوى أفكار معزولة ، ثم أن هناك معارضة اجتماعية لهؤلاء الناس الذين أبعدوا أنفسهم عن التكتل » .

السؤال المطروح الآن .. هل هناك تناقض بين مواقف الكاتب ، فقد هاجم السلطات يوما لأنها لا تمشى على النهج الديمقراطى الغربى ، ثم هو يهاجمها اليوم ، ويتهمها بالخيانة ، لأنها سارت فى هذا الركب ، وهناك اتهام واضح للكاتب بأنه من «الشيوعيين الجدد» .. وقد رد الكاتب على هذا الاتهام فى مجلة « لويوان » – ٢٧ مارس ١٩٩٣ – قائلا : « لست شيوعيا ، ولكننى مواطن يفكر فى روسيا .. واذا ظل يلتسين فى السلطة ، فإن روسيا سوف تنفجر .. وسوف يختفى الشعب الروسى من حلبة التاريخ » .

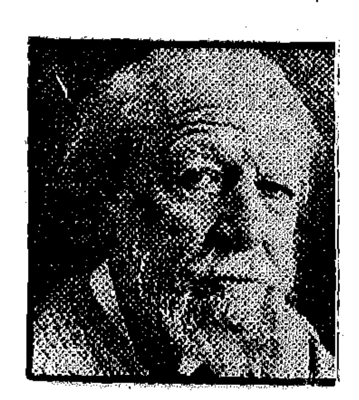


● يلتسين يصافح زينوفيف قبل المواجهة الساخنة فى التليفزيون الفرنسى ●

رسالة لندن

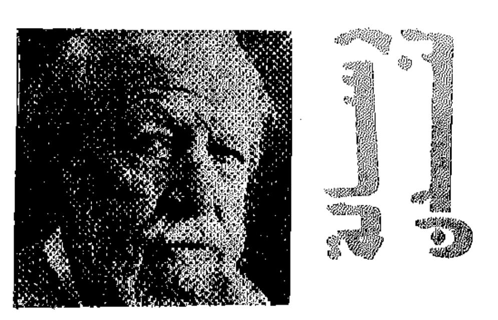
سكت دهراً.. ونطق حكمة

بقلم : د. على شلش



وليم جولدنج

فى سنة ١٩٨٣ فاز بجائزة نوبل الروائى الانجليزى وليم جولدنج الذى ولد فى عام واحد مع نجيب محفوظ. ومع أن جولدنج محدود الشهرة الجماهيرية ، بسبب صعوبة رواياته . وميله الشديد الى العزلة والانطواء ، فلم تفلح الجائزة المرموقة فى اخراجه من عزلته أو التخفيف من انطوائه . بل لم تحمسه الى انتاج المزيد من الأدب ، وإن كانت شجعته على القيام برحلة طريفة الى مصر سجلها فى كتاب ظهر عام ١٩٨٥ بعنوان « يوميات مصرية » . وبعدها عاد الى شرنقته ، واختفى عن أنظار وسائل الاعلام ومسامعها ، حتى ظهر اسمه أخيرا على مقال قصير نشرته جريدة « الديلى ميل » الواسعة الانتشار .



وقبل أن نتحدث عن هذا المقال القصير يجب أن نشير – على الأقل – الى أن مصر تحتل فى كتابات جولدنج حيزا غير عادى . فله غير تلك الرحلة الطريفة ، المزودة بصور أكثر طرافة ، رواية بعنوان « الهرم » ، ظهرت عام ١٩٦٧ ، ومع ذلك لم يهتم به أحد من وسطاء الثقافات عندنا سوى الدكتور رمسيس عوض . ففى ذلك العام أو بعده بقليل أصدر الدكتور عوض كتابا مفيدا بعنوان « دراسات تمهيدية فى الرواية الانجليزية المعاصرة » ، وخصص لجولدنج فصلاً تعريفيًا جيداً . ثم انطوت صفحته فى سجل التعريف بالأدب الانجليزى ، ولم يعطف أحد بعدها بشئ عليه ولا على رواياته ، حتى بعد أن تنوبل وصار من مراكز القوة الأدبية فى العالم . ومع ذلك فهو مركز قوة عاطل عن العمل ، لأن حبه للعزلة والانطواء جعل بينه وبين العالم الخارجى سداً ، وجعل الناس يسمعون عنه ولا يشعرون به .

لم يتحرك جولدنج عندما توالت على العالم أحداث كبار منذ حصوله على جائزة نوبل ، فلا هو انفعل تحريريا – مثلا – بانهيار الاشتراكية وسقوط الاتحاد السوفييتى وانتهاء الحرب الباردة ، ولا هو احتج على مظاهر الشر والهمجية التى اجتاحت العالم فى السنوات الأخيرة ، مع أنه من أشد الأدباء المعاصرين حملة على هذه المظاهر فى رواياته . وقد دارت أولى رواياته « سيد الذباب » التى ظهرت عام ١٩٥٤ ، ووضعته على الفور فى صدر قائمة الموهوبين الواعدين ، حول المظاهر المذكورة . وفيها صور الخير فى صورة طلاء هش تراكم على سطح الانسان بفعل حضاراته المتعاقبة ، دون أن يصل مفعوله الى الشر المتأصل فى طبيعته على نحو ما يعتقد هو نفسه . واذا بدا هذا نوعا من التشاؤم ، إن لم يكن تشاؤما لا شبهة فيه ، فالرجل نفسه ليس متشائما ، ولا هو متفائل أيضا ، وانما تنطبق عليه صفة « المتشائل » التى أطلقها إميل حبيبى على بطله سعيد أبى السعد . ولكن تشاؤل جولدنج من النوع الذى لا يحمل أية فكاهة!

وحتى حين تحول سلمان رشدى فى بريطانيا وأمريكا الى حائط مبكى للأدباء فى السنين الأخيرة ، وراح الأدباء يوقعون بيانات الاحتجاج على الفتوى الايرانية ، ويعلنون تضامنهم مع حرية التعبير غير المشروطة ، لم ينجح أحد منهم فى استدراج جولدنج أو استفزازه للمساهمة فى ذلك « المولد » السنوى الذى يعقدونه فى ذكرى صدور الفتوى ، مع أنهم نجحوا أخيرا فى تجنيد أحدث « نوبلية » أعنى

نادين جورديمر !

حكاية جيمس بولجر

طوال هذا كله ظل جولدنج ساكتا ومسكوتا عنه فى وقت واحد . فما الذى أخرجه أخيرا عن سكوته الذى دام دهرا أو بعض دهر ؟ لم ينطق منذ تنوبل ، ولكنه نطق يوم ١٧ فبراير ١٩٩٣ فى نصف صفحة من جريدة الديلى ميل . وكان نطقه حزينا ، يحمل حكمة السكوت الطويل . ولهذا حكاية غير طويلة .

بدأت الحكاية قبل أسبوع من ذلك التاريخ ، حين روعت وسائل الاعلام المسموعة والمرئية الناس بجريمة قتل نادرة الحدوث . وكان ضحية الجريمة الغريبة طفلا فى الثانية من عمره يدعى جيمس بولجر ، تنطق صوره التى عرضها التليفزيون بالبراءة وحب الدنيا والاقبال على الناس . ولكن الأغرب أن القاتل طفلان فى العاشرة من عمرهما !

كيف توصل الشر والهمجية الى طفلان فى هذه السن ؟

هذا هو السؤال الذى هز المجتمع البريطانى ، وأنطق الساكتين دهرا ، وعلى رأسهم جولدنج ، الشيخ الذى تجاوز الثمانين .

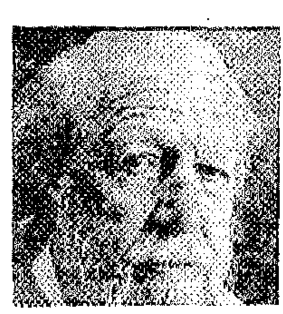
لقد ذهب جيمس بولجر مع أمه للتبضع فى المركز التجارى بمدينة بوتل الصغيرة القريبة من مدينة ليفربول . ولم يمر وقت طويل حتى تلفتت الأم داخل أحد محلات المركز التجارى فلم تجد صغيرها وظنته فى البداية يتجول داخل المحل كعادة الأطفال ، ولكن الظن ما لبث أن أزعجها حين نادت عليه فى كل ركن فلم يجب .

أين ذهب جيمس بولجر ؟

هنا تتدخل التكنولوجيا فى هذه القصة المحزنة التى لا تصلح للكتابة على أى حال إلا لرجل مثل جولدنج ، سبق أن صور الصبية والمراهقين أشرارا وقتلة وهمجا فى روايته الأولى المشهورة أكثر منه . فمع انتشار الجرائم فى بريطانيا وزيادة سرقات المحلات التجارية وغيرها استعان أصحاب المال والأعمال بكاميرات الفيديو وثبتوها فى الأركان والزوايا حتى على أرصفة محطات القطارات . ومن حسن الحظ أن احدى كاميرات المركز التجارى لم تخذل الشرطة - كما حدث كثيرا من قبل - فسجلت حركة جيمس بولجر خارج المحل بصحبة ولدين صغيرين ، وأحدهما ممسك بيده ، ثم سجلت خروج الثلاثة من ساحة المركز . ولكن صور الولدين لم تكن واضحة ولا تدل على جريمة .

وتتبعت الشرطة هذا الخيط ، وأسعفها الحظ مرة أخرى فأتاح لها شريطا من كاميرا أخرى مثبتة فى الشارع المفضى الى السكة الحديدية القريبة جدا من قسم الشرطة . وكشف الشريط الجديد عن الصبيين وضحيتهما ، ولكن الصور لم تكن واضحة أيضا .

هنا تتدخل التكنولوجيا مرة أخرى . فقد سمعت الهيئة القومية الأمريكية



للطيران والفضاء بالموضوع فأبدت استعدادها لتقوية الصور وتركيز وضوحها. وسرعان ما تعاونت الشرطة معها، وكانت النتيجة صورا أفضل، وملامح للصبيين أقوى. ولكن أين جسم الجريمة ؟ بعد بحث مضن وجدت الشرطة الطفل المسكين مقتولا ومشوها وملقى على القضبان الحديدية بحيث يبدو أنه ضحية قطار أعمى، على غير مبعدة من قسم الشرطة ذاته.

وهنا أيضا بدأت حملة طويلة شاقة للوصول الى الجانيين بعد أن تجمعت قرائن كثيرة ضدهما. وبعد نحو أسبوع تم القبض على الولدين، وقدما للمحاكمة. وتجمهر الناس حول المحكمة كأنما يريدون الفتك بالمجرمين الصغيرين. واضطرت الشرطة الى اعتقال بعضهم عند مرور السيارة التى تقل الجانيين.

هذه هى الحكاية باختصار.

ولكن، قبل أن تعثر الشرطة على الجانيين كان جولدنج قد انفعل وكتب مقاله ثم نشره.

وهذا هو المقال بنص عنوانه ومتنه :

• ماذا يجعل الأطفال وحوشا ؟

« اختر أيا من عظماء القديسين أو قادة الأخلاق فى الحضارة الغربية – مثل المسيح والقديس فرنسيس والأم تيريزا – تجد أن السمة البارزة فيهم هى بساطتهم».

« واذا صح، ويبدو ذلك صحيحا، أن البساطة تميز الخير عن البشر، فالحق أيضا أن الشر فى البشر يتميز بالتعقيد. فقد كان هتلر وستالين وعيدى أمين – اذا شئنا أن نسمى قلة قليلة داخل سجل الشر فى القرن العشرين – أناسا أبعد ما يكونون عن التحلى بالبساطة. بل كانوا أحيانا كالأطفال، وأحيانا أخرى مجانين، وأحيانا ثالثة يثيرون الرثاء، ولكن أفعالهم كانت تمثل الأفعال المنحرفة للنفوس الواقعة فى حبائل التعقيد والالتواء ».

« وهكذا لا توجد أدنى خردلة من البساطة فيما حدث لجيمس بولجر ذى العامين، بعد أن قاده صبيان مراهقان – ربما أقل من مراهقين – الى خارج المركز التجارى بمدينة بوتل ».

« ولقد علمنا أن الطفل ضُرب، وألقى على سكة حديدية حتى يمكن إخفاء جراحه. واذا شئنا التأمل فى هذا الفعل، وهو أمر واجب علينا اذا أردنا الحياة فى العالم الحقيقى لا العوالم الصغيرة التى نصطنعها، فمعنى ذلك أننا نواجه شكلا غريب الصرامة من أشكال الرعب .. ولا معنى للقسوة التى تكمن وراءه سوى أنها

معقدة » .

« ومنذ قرابة ٤٠ عاما كتبت فى روايتى « سيد الذباب » عن القسوة التى يمكن أن يُلحقها الصبيان بعضهم بالبعض . ولم تكن هذه ، بالطبع ، أول مرة فكرت فيها فى قسوة البشر ومظاهرها المتعددة . فمنذ ذلك التاريخ أيضا تجمع عندى الكثير من الأسباب والفرص التى دفعتنى الى التفكير فى الموضوع أكثر مما فعلت » .

« هل ولد الرجال والنساء بمصاحبة القسوة كعنصر كامن فى طبيعتهم ؟ هل الحضارة عموما صراع بطولى من أجل وضع طبقة فوق طبقة من الطلاء على المادة الخام الخشنة المتشعثة فى البشر ؟ أم أن الصورة تصح أكثر لو أننا تخيلنا الطفل الوليد لوحا اردوازيا خاليا سرعان ما تطبع عليه خشونة التجارب أشكالها المخيفة غير القابلة للزوال ؟ » .

« أعتقد أن جميع المحاولات الساعية الى الجواب عن هذه الأسئلة الكبرى مقض عليها بأن تنتهى الى الشك والبلبلة . وسأتركها لعلماء النفس والأنبياء . فليس فى مقدورى سوى الحديث كرجل عاش ردحًا من الزمن . ولكن ، ثمة أشياء معينة عن القسوة – ولا سيما قسوة الصبيان – أعتقد أنها قد تكون صحيحة وأننا نستطيع التعلم منها ، على الرغم من أننى أعتقد أيضا أننا – فى النهاية – لا نستطيع مطلقا أن نستبعد تماما ذلك الضرب من الرعب المركز الذى تقدمه لنا قصة جيمس بولجر » .

« هناك – على سبيل المثال – الظروف التى تزدهر القسوة فى ظلها ، وهى تختلف عن القول بأن للقسوة أسبابا واضحة ، فما هذه الظروف ؟ إن منها الفوضى ، ومنها الخوف . فقد ظهرت فى روسيا بعد الحرب العالمية الأولى – على ما أعتقد – عصابات من الأطفال الذين فقدوا آباءهم . وكان هؤلاء الأطفال لا يملكون شيئا ، ولا مأوى ، ولا معاشا ، فراحوا يجوبون البلاد وهم يعملون فى الناس الهجوم والتقتيل ، بغير دافع سوى القسوة المجردة . وفى ذلك الوقت كانت الفوضى تعم بلدانا كثيرة ، فلما تُرك هؤلاء الأطفال وشأنهم وجدوا فى نزعتهم الشريرة نوعا من التماسك الطبيعى » .

« وها نحن نعلم أن فى بعض أرجاء بريطانيا اليوم عصابات من الأطفال – أبناء طبقة أدنى من الدنيا – يرفضون فكرة الوالدين التقليدية المعهودة . ولا يجد هؤلاء الأطفال ما يعولهم ، فى غياب المساندة من الأمهات والآباء ، سوى ثمار ما يقدرون عليه من استجداء وسرقة . ولا يدهشنى فى مثل هذه الظروف ، التى تتوقف فيها أوامر المجتمع وأنماطه عن التأثير ، اذا بدأت العصابات تلتمس التماسك فى مجرد الإشباع المشترك لأشد غرائزها شرا وعماء .

أضف الى هذا الخليط العنيد العنيف العنصر الآخر – أعنى الخوف – وعندئذ



تجد مزيجا أكثر من مروع . فالناس حين يصيبهم الخوف يكتشفون العنف الكامن بداخلهم ، وحين يخافون بشكل جماعى يكتشفون أن العنف الذى بداخلهم لا قرار له » .

« ولست أعتقد أن من غير المحتمل أكثر من اللازم افتراض أن الأطفال الذين يعيشون دون حماية من البالغين يتعرضون للخوف فى كثير من الأحوال ، زد على ذلك الخوف المفاجئ من الاعتقال أو المحاكمة – أو مجرد الخوف مما ارتكبوه بغير تفكير – وعندئذ لنا أن نتبين كيف تتحقق الأهوال ».

« هل صحيح أيضا أن قدرة الذكر الشاب على تشويه الغير وتعذيبهم ترتبط على نحو ما ببدايته التى طال نسيانه لها حين كان صيادا وقاتلا – وهى بداية مختلفة جدا عن بداية الأنثى ؟ » .

« أشك فى ذلك ، ولكنى – مرة أخرى – غير راغب فى الاعتقاد بأن الأمر بمثل تلك البساطة : فأى نقاش حول الأطفال لا يمكن أساساً أن ينتهى نهاية واضحة الى توجيه اللوم الى أمنا الطبيعة أو الى ذلك العدد الذى لا حصر له من المؤثرات التى تشكل نمو الطفل الصغير » .

« ولابد من أن تتمثل الحقيقة فى أن كلا المكونين على قدر متساو من الأهمية . فنحن نولد وبداخلنا الشر ، والقسوة جزء منه . (مع أنه توجد أيضا قدرة على انكار الذات ، والا فنحن ننكر جزءا من طبيعتنا البشرية) » .

« غير أن ما يجب أن يكون صحيحاً هو أننا قابلون للانحراف والتشوه التامين بفعل الإرشاد – أو نقصه – الذى نكتسبه من أسرنا مباشرة . فإذا لم يوجد من يرشد الأطفال فسوف يضلون . أما الذين يرشدون الأطفال فهم آباؤهم وأمهاتهم . والأطفال يحتاجون اليهم مجتمعين ، ولكنهم فى القسط الأخير من هذا القرن لا يجدون هؤلاء ولا أولئك فى كثير من الأحوال .

« وحين يضل الأطفال فانما يضلون فى كثير من الأحوال بعنف شديد . فثمة طاقة مدهشة فى الأطفال ، بل هم أقوى من أية قنبلة » .

« إن كثيرا من مظاهر الطفولة الحديثة لابد من أن تنطوى على رعب خالص ، بالرغم من أننى لا أعتقد أن هذا بالضرورة شئ جديد – فالتاريخ حافل بالرعب ، وقد عانى الأطفال دائما من نصيبهم منه . واذا غاب الوالدان ، ولم يقدم الآباء القوة ولا الأمهات الحب للأطفال فإن هؤلاء سيعودون الى أغوار طبيعتهم ويلتمسون العون منها ».

« وربما كان من الصعب ادهاش كبار السن . فاذا كان هذا هو ما حدث فى حالة

قاتلى جيمس بولجر فيجب ألا نندهش . ولكننا يمكن أن نصدم بالتعرف على الشر حين نراه . وها هى آلام الطفل المسكين قد انتهت . كان الله فى عوننا جميعا » .

عنف مدمر :

ربما كان الأنسب أن يضع جولدنج على مقاله هذا عنوانا مثل : ماذا يخرج الشيخ عن صمته ؟ فمن الواضح أن هذا الرجل الذى عاش ردحا من الزمن على حد تعبيره أزعجه ذلك العنف المروع الذى يهدد سلام المجتمع البريطانى ، ولا أقول المجتمعات الأوربية والأمريكية أيضا . فهناك موجة من العنف المدمر تجتاح هذه المجتمعات اليوم . ولو جاءت هذه الموجة من الكبار - كما هو المألوف - لاختلف تقييمها ، ولكن غير المألوف أن تأتى من الصغار . فقد بدأوا - قبل حادثة جيمس بولجر - فى قتل الكبار ، وكانت آخر مبتكراتهم سرقة السيارات وقيادتها بسرعة عنيفة لاجتياح كل من يقف فى طريقهم . وها هم اليوم يقتلون الصغار أيضا .

والمعنى الوحيد المقبول لهذا العنف الطارئ هو أنه مظهر لخلل اجتماعى واضح . وقد يكون سبب هذا الخلل تربويا أو اقتصاديا أو سياسيا أو نفسيا ، وقد يكون هذا كله مجتمعا . ولكن نسبته أو إرجاعه الى الشر الكامن فى البشر نوع من التبسيط الشديد للأمور ، وفض لليد من المسئولية الاجتماعية . وحتى المثال الذى ساقه جولدنج من أطفال روسيا بعد الحرب الأولى - أى عشية الثورة الاشتراكية - يؤيد المعنى الذى أشرنا اليه، والا فما تفسير ارتباط العنف عند الكبار والصغار معا بزيادة الأزمات الاقتصادية والبطالة وسوء العدل الاجتماعى ؟ ولماذا يتناسب العنف - على مدار التاريخ - مع هذه الأزمات الاقتصادية الطاحنة تناسبا طرديًا ؟ بل كيف نقبل العنف من الكبار ، ولا نقبله من الصغار ، فى الوقت الذى يكون فيه الكبار أنفسهم آباء وأخوة للصغار ؟ ألا يخطر على الذهن - والحال هذه - قول أجدادنا : « هذا الشبل من ذاك الأسد » ، أو قول أمثالنا الشعبية : « ابن الوز عوام؟ » اذا صح قول أجدادنا أيضا إن الناس على دين ملوكهم فلماذا لا يصح أن الصغار على دين كبارهم ؟

ليس العنف ابن اليوم على أى حال ، والتاريخ يعج بألوان العنف كما أشار جولدنج ، ولكن الجديد - بالطبع - هو اختلاف مظاهر العنف ووسائله من ثقافة الى أخرى ، ومن مكان الى آخر . ويوم يتحرك المجتمع كله لعلاج هذه المظاهر والوسائل ، بعلاج عواملها وأسبابها ، فسوف يهدأ العنف ، وينسحب الى الداخل، ويكمن ، وهذا أضعف الايمان . أما القضاء عليه نهائيا فهو حلم بعيد ومستحيل . وأما الحلم القريب الممكن التحقيق فهو القضاء على عوامله وأسبابه، وهذا يحتاج الى منبهين وقارعى أجراس ، مثل وليم جولدنج الذى سكت دهرا ونطق حكمة .

لغـويـات

● يخطئ بعض الناشئة في رسم حروف الكلمات ، ومنها كلمة « الضرورة » فيجعلونها «الضارورة» ، لكن هذا ليس خطأ ، لأن «الضارورة» والضاروراء صحيحتان مثل الضرورة ، وإن كان الناشئ لا يعرف ذلك ولا يقصده ، وخير للناشئ وللشيخ الاكتفاء بكلمة «الضرورة» منعاً للبلبلة ! ..

● « الذراع » مؤنثة إذا كانت للإنسان وتكتسب التذكير في المقاييس فيقال : هذا البناء يرتفع تسعة عشر ذراعاً ، لأن الذراع هنا مذكر لا مؤنث ..

● سمعت قائلا : « جاءت تجرجر أذيالها » والصواب « تجرر » .. لأن «تجرجر» معناها صوت الماء في فم الشارب أو بطنه .. يقال : جرجر فلان الماء إذا أحدث صوتا عند شربه .. قال أبو العتاهية :

أتـتـه الخـــلافـــة مــنـقـــادة
إلـيـــه تجـــرر أذيـــالـهـــا

ولـم يـقل : تجـرجـر ! ..

قول العامة : رائحة الطعام تفيح ، أما الأدباء فقولهم : تفوح .. والعامة هنا كالأدباء على صواب ، لأن قدور الطعام إذا فاحت على النار قيل : تفيح .. أو تفوح ! .

● في الصعيد يقتطعون النخلة من أصلها ويفلقونها نصفين يسمون كلا منهما «الفلق» - بكسر الفاء - وهي تسمية فصيحة .. والفرق - بكسر الفاء أيضاً - هو كالفلق : نصف الشئ أو قسمه ، ومنه فرقة الجنود ، وهناك « الفرق » - بفتح الفاء ، وله معان .. قال ابن خلدون : ذكرت لأحد أصحابنا البيت القائل :

لم أدر حين وقفت بالأطـــلال ما الفرق بين جديدها والبالى

فقال : هذا من شعر الفقهاء لأنهم الذين يقولون : ما الفرق ؟

كأنما نسي صاحب ابن خلدون قول المتنبي :

وما الفرق ما بين الأنام وبينه إذا حذر المحذور واستصعب الصعبا

وأقوال غيره ممن ليسوا بفقهاء ! ..

رسالة باريس

بين الليالى المتوحشة وأشجار النخيل

بقلم : مصطفى درويش

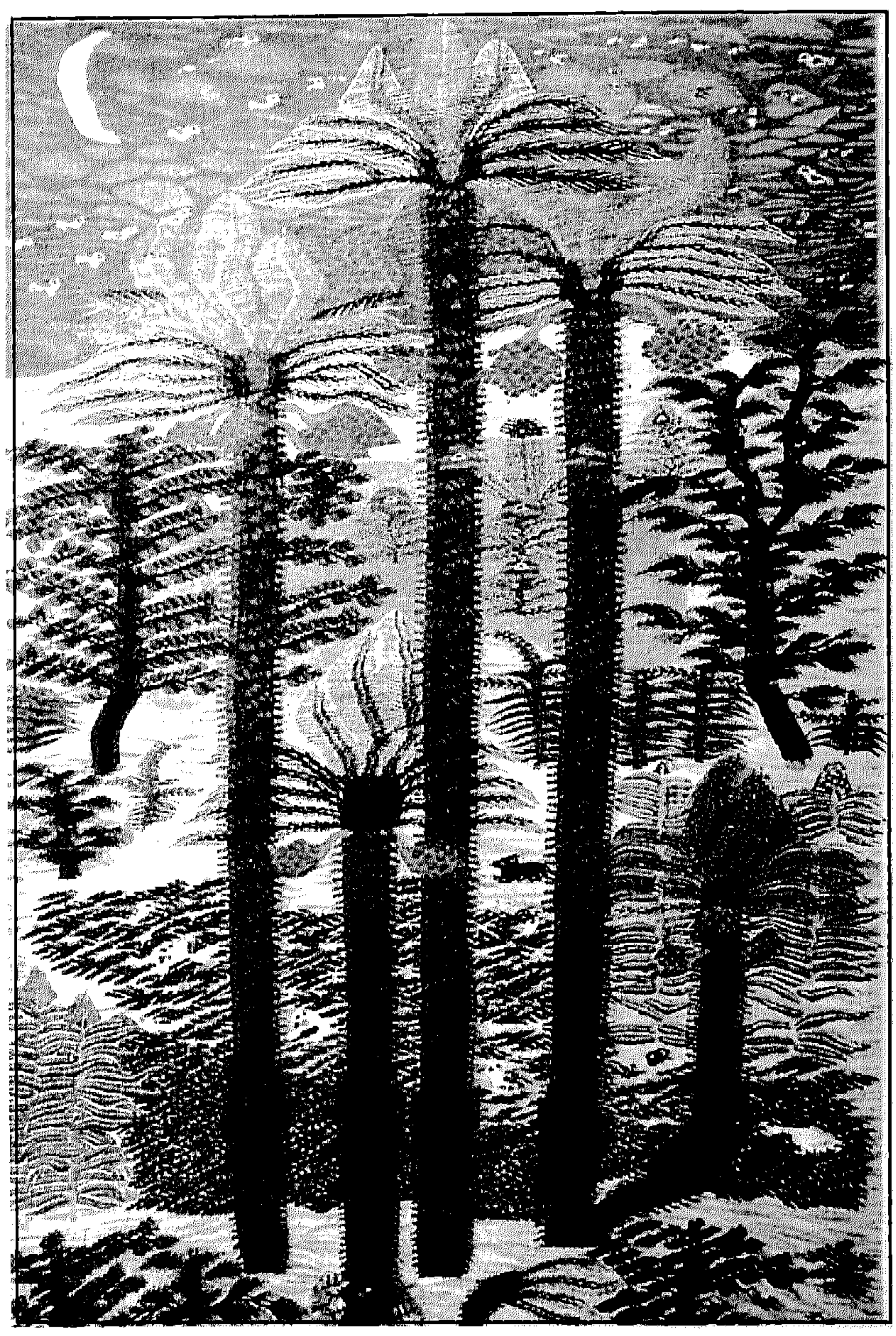
نادرا ما أزور مدينة النور فى الشتاء ، فالشوق والحنين إليها لا يعاودنى إلا فى أوائل الربيع ، بعد ذوبان الجليد ، وحالما يصبح كل ما عليها مكتسيا بالزهور ، أو فى أواخر الخريف ، وأوراق الاشجار تتساقط أحيانا صفراء ، وأحيانا أخرى حمراء ، فتبدّل الأرض والسماء أشكالها بلون الذهب ، يظل كذوب من السحر تشربه العين ، فلا ترتوى .

ولأمر ما ساقنى قدرى إليها فى عز شتاء هذه السنة ، لأراها بعجائب وغرائب متاحفها وآثارها الفنية ، وقد ازدادت رونقا وبهاء .

وما كنت أدرى ، يوم ساقنى قدرى ، إننى أساق فى مارس ، ذلك الشهر الذى تحتفل فى مستهله السينما الفرنسية بتوزيع جوائز السيزار ، المعادل الفرنسى لجوائز الأوسكار .

كذلك لم أكن أدرى ، أننى سأكون فى مدينة النور ، ومعى واحد من أعظم الفراعين ، واثنان من أشهر الفنانين وأكثرهم تأثيرا فى مسار الرسم ، بدءا من القرن السادس عشر ، الإيطالى « تيتيان » والفرنسى « هنرى ماتيس » وفوق هذا ، نفر مبدع من الفلاحين المصريين .

وبداية احترت بين الافلام المرشحة للسيزار ، والاخرى المرشحة للأوسكار ،



النخيل ... لسارة عظيم

رسالة باريس

أيها أرى ، وأيها أسقطه من الحساب .

وكان لابد أن أحسن الاختيار ، فأيامى معدودة فى مدينة النور ، لا تزيد على عشرين يوما من عمر الزمان .

وبعد إعمال الكثير من التفكير ، وقع الاختيار من بين الافلام الفرنسية على «الليالى المتوحشة » للمخرج الراحل «سيريل كولار » .

و « الهند الصينية » الفيلم الذى كان مرشحا ، هو ونجمته الأولى « كاترين دى نيف » لأوسكار افضل فيلم اجنبى وممثلة رئيسية ، علاوة على الترشيح للعديد من جوائز السيزار .

الفوز المبين

وليلة الإعلان عن الجوائز الأخيرة ، فاز « الليالى المتوحشة » ، فى غياب صاحبه الذى كان الموت بالايدز ، قد اختطفه قبل الليلة الكبيرة بثلاثة أيام ، فاز بأربع جوائز سيزار ، من بينها جائزتا افضل فيلم ، وأفضل عمل أول .

كما فازت « كاترين دى نيف » بسيزار افضل ممثلة وقبل انتهاء مارس بيومين فاز فيلمها « الهند الصينية » بالأوسكار .

وما أن أعلن عن فوز « الليالى المتوحشة » ، حتى خرجت المجلات الفرنسية ، وما أكثرها ، على الناس ، وقد ازدانت أغلفتها بصورة مخرجه « كولار » .

و « الليالى المتوحشة » فيلم مأخوذ عن قصة لكولار بنفس الاسم . بطلها - ويؤدى دوره « كولار » - مصاب هو الآخر بطاعون القرن العشرين .

وأغرب ما فى الفيلم أنه ، ورغم علم «جان» بأن المرض يعيث فىَ جسمه فسادا ، والأقدار تلملم خيوط حياته الأرضية التى على وشك الانتهاء ، رغم ذلك فهو بطل متفائل ، مقبل على الحياة بحماس واشتهاء ، وكأنه قد تعافى من المرض العضال أو كاد ، وكأنه سيعيش ابدا .

الفرص الضائعة

والفيلم فيه من الجرأة والجسارة الشىء الكثير ، وبالتالى فلا ينتظر له عرض على أرض مصر ، لا فى زمن قريب ، ولا حتى بعيد .

أما الأفلام الخمسة المتكلمة بالانجليزية ، والتى كانت مرشحة للأوسكار ، فلم أشاهد منها إلا « الصرخة الباكية » و«العودة إلى هواردز اند » و« عطر امرأة » والفيلم الأخير أجلت عودتى إلى مصر ثلاثة أيام ، حتى أتمكن من مشاهدته فى أول يوم يعرض فيه على أرض فرنسا .

وقد فاز نجمه « آل باشينو » بالأوسكار عن ادائه لدور ضابط متقاعد ، ضرير ، يزمع الانتحار .

وعندى أن « الصرخة الباكية » واحد من اروع وأجمل الأفلام التى شاهدتها ، وأنا فى مدينة النور .

ولا يضارعه فى الروعة والجمال إلا «دراكيولا» آخر إبداع للمخرج « فرانسيس فورد كوبولا » .

وفى اعتقادى أن فرص عرض هذين الفيلمين ، لا سيما « الصرخة الباكية » ، تكاد تكون هى والعدم سواء .

فموضوع أيهما ، والتناول له غير مألوف لعقلية الرقباء .

وليس صدفة أن « الصرخة الباكية » لم يفز إلا بأوسكار أفضل سيناريو مبتكر ألفه مخرج الفيلم « نيل چوردان » .

وأن « دراكيولا » لم يرشح أصلا لاوسكار أفضل فيلم، ولم يفز إلا باوسكار أفضل تصميم ملابس ومؤثرات صوتية وماكياچ .

وكما هو معروف فأوسكار أفضل ممثلة رئيسية ، كانت من نصيب النجمة الانجليزية الصاعدة الواعدة « إيما تومبسون » عن أدائها المذهل لدور «مارجريت شلينجل » فى « العودة إلى هواردز اند » .

قوة الاشياء

وأوسكار أفضل فيلم ومخرج كان ، من حظ « كلينت ايستوود »

ولو كان الفوز بالأوسكار مرهونا بامتياز العمل السينمائى شكلا ومضمونا ، لما فاز بها فيلم « ايستوود » باية حال من الأحوال .

فالأحق بها ، والحق يقال ، إما «الصرخة الباكية » أو « العودة إلى هواردز اند » .

ولكن منذ متى كان الامتياز وحده ، دون غيره من المؤثرات ، محل اعتبار لدى اصحاب الأمر والنهى فى الاختيار للأوسكار .

الفرعون الشمس

والآن أنتقل بالحديث إلى معارض أربعة شاء لى قدرى أن تكون فى مدينة النور ، وقت وجودى بها لأيام مرت كالأحلام ، وكأنها ثوان .

وأولها بطبيعة الحال معرض « امنحتب الثالث » الفرعون الشمس ، وليس «أمونيفيس » كما أسماه الاغريق القدامى ، ومن بعدهم الفرنسيس .

وامنحتب تعنى لغويا « آمون راض » ، وكما هو معروف آمون رب الآلهة أجمعين .

وقد اعتلى « امنحتب الثالث » عرش الفراعين سنة ١٣٩١ قبل الميلاد ، وليس له من العمر سوى اثنتى عشرة سنة.

وامتد حكمه لمصر ثمانى وثلاثين سنة ، اتبع فى اثنائها سياسة خارجية مسالمة ، دعمت تدفق خيرات الشرق والسودان على البلاد .

وقريبا من نهاية عمره ، شهدت مصر سنوات رخاء بفضل ما اثمرته أرضها الخصبة من خيرات فاقت كل التوقعات .

وبسبب هذه الظروف الملائمة مجتمعه ، استطاع امنحتب الثالث أن يحقق برنامجا معماريا طموحا ، وصل بالفن المصرى القديم إلى ذروة الازدهار .

ففى عصره الذى يشبهه الفرنسيون بعصر لويس الرابع عشر « الملك الشمس » جرى تشييد معبد الاقصر ، وزيادة مساحة معبد الكرنك ، ونحت تمثالى ممنون الضخمين ، بل إن أحدهما تم نقله جنوبا عن طريق النيل ، وضد التيار من محجر

رأس أمنحتب الثالث

راقصات ماتيس كانت ممنوعة في روسيا

لوحة تيتيان اثرت في كل من مانيه وبيكاسو

رسالة باريس

قريب من هليوبوليس (مصر الجديدة الآن)، حتى طيبة (الاقصر) فى اقاصى الصعيد، وهذا حقا إحدى المعجزات .

يبقى أن أقول أن التحف الفرعونية التى كانت معروضة فى القصر الكبير المطل على شارع الشانزليزية ، هذه التحف كان عددها مائة وخمسين قطعة ، جاءوا بها إلى المعرض من جميع أنحاء العالم .

ولعله من المناسب هنا التذكرة بأن امنحوتب الثالث حكم مصر من بعده ابنه «اخناتون » ، ذلك الفرعون الذى انتقل بالعاصمة إلى تل العمارنة ، حيث غير دين البلاد إلى دين أقرب إلى التوحيد .

شرارة النهضة

وعلى كل ، فبعد عصر الفرعون الشمس بحوالى ثلاثين قرنا ، صار لمدينة أخرى غير طيبة ، ألا وهى ڤينيسيا شأن كبير .

فمنها ، ومن مدن أخرى فى شمال ايطاليا ، انطلقت شرارة النهضة الاوروبية التى فتحت للعلوم والفنون آفاقا لم تكن فى الحسبان .

وعن فنانى هذه المدينة العائمة فى اثناء القرن السادس عشر ، وتحت عنوان « قرن تيتيان » أقيم فى نفس القصر الكبير إلى جوار فرعون مصر ، معرض ضم مئات اللوحات لتيتيان ، ولأستاذيه «جيوڤانى بيللى » و « جيورجيونى » الذى اختطفته يد المنون ، وهو فى الثالثة والثلاثين ، ولتلاميذه المتأثرين بفنه امثال «تنتوريتو » و « ڤيرونيزى » و « بساناو » وغيرهم كثير .

الفردوس الأرضى

وتيتيان جبار من جبابرة الفن ، وكاهن من كهنة الجمال المعدودين .

وآثاره الفنية كثيرة ، لأنه معمر عاش حتى قضى عليه وباء الطاعون ، وهو فى سن التسعين .

ولوحاته التى رسم فيها الرجال والنساء فى أحضان الطبيعة الغناء ، تتفجر بقوة الحياة ، وتشع استمتاعا بالفردوس هنا على الأرض ، وليس فى السماء .

وعند إحدى هذه اللوحات « حفل موسيقى فى الغيط » ، وهى لوحة تنسب احيانا إلى استاذه « جيورجيونى » ، عندها اتوقف قليلا .

وبادىء ذى بدء أقول إنها من تلك اللوحات النادرة التى يقف المرء أمامها غير مـرة يدرس دقائق معانيها وتفاصيل ألوانها ، وتركيبها .

فالمرأتان فيها عاريتان ، والرجلان بكامل لباسهما ، احدهما يمثل الثقافة ، كما يدل على ذلك مظهر ردائه المتحضر ، والعود المسك به ، والتناغم بين قبعته الانيقة وبين وجهه الذى صورته الفرشاة من جانبه الايمن حاد التقاطيع ، وذلك القصر على قمة التل ، يطل من عل على المنظر الجميل .

فى حين أن الآخر بمظهر ملابسه العتيقة وشعره الكث المماثل فى التكوين للشجرة خلفه ، إنما يرمز إلى الطبيعة العذراء .

وأهل مدينة النور لا يعيشون مكتفين بالماضى ، يجترونه كما هو الحال عندنا هنا فى ديار مصر .

لا .. إنهم يتمثلونه من أجل مستقبل أكثر تقدما وتحضرا ومن هنا معرض «ماتيس ١٩٠٤ / ١٩١٧ » فى « مركز بومبيدو » على بعد خطوات من متحف اللوفر .

والمعرض الآخر « صور منسوجة عن مصر - سجاجيد مدرسة ويصا واصف الفنية المقام فى معهد العالم العربى المطل على نهر السين .

وهنرى ماتيس (١٨٦٩ / ١٩٥٤) يعتبره الفرنسيون أهم فنان تشكيلى انجبته بلادهم فى القرن العشرين .

ومن عجب أن فترة تكوينه استمرت حتى بلوغه سن الخامسة والثلاثين .

وبـــدءا من هذه الســـن ، أصبح هو و « بابلو بيكاسو » منافسه وصديقه الحميم فرسى رهان .

فلا يذكر اسم احدهما ، إلا واقترن به اسم الآخر .

ولا غرابة فى هذا ، فهما بلا منازع عملاقا النصف الأول من قرننا الذى على وشك الرحيل .

بئر الحرمان

ويقتصر معرض « ماتيس » على اللوحات التى أبدعها فى الفترة الواقعة بين سنتى ١٩٠٤ و ١٩١٧ .

ومن بينها مجموعة لوحات نادرة كان قد اشتراها قبل الحرب العالمية الأولى ثـــريان روســـيان « ايفـــان موروزوف » و « سيرجيبى تشوكين » .

وبعد ثورة أكتوبر - ظل الجمهور محروما من مشاهدتها مدة أربعين سنة أو يزيد .. لماذا ؟

لأن قادة الاتحاد السوفييتى ، لا سيما فى عصر الطاغية ستالين اعتبروها فنا منحلا ، منحطا يهبط بمعنويات الثوار .

★★★

والآن إلى معهد العالم العربى ، حيث سجاجيد الحرانية معلقة على جدران المعرض تسر الناظرين .

إنها منسوجة بأيد كريمة ، حكيمة لفلاحات وفلاحين من ورائهم تقف حضارة لها من العمر آلاف السنين ، تلك الحضارة التى يزدان بآثارها القصر الكبير على الضفة الأخرى من نهر السين .

وفجأة توقفت أمام سجادة « النخيل » للفلاحة الفنانة « نادرة عظيم » .

وإذا بى ، وأنا أتأملها ، اتذكر حلم اديبنا الراحل « يحيى حقى » بفيلم عن النخلة ، تلك الشجرة العجيبة ذات الخط الواحد ، الدالة على طبيعة وادينا وشعبه ، والتى تموت ، وهى فى أتم صحة ، إذا عاشت بعيدا عن الإنسان .

شجرة الميلاد .. للفنان عبد السلام عيد « جائزة التحكيم »

بينـــالى القاهرة الــدولى الرابــع

الجناح المصرى

بقلم : محمود بقشيش

أبدأ وأنتهى عند الجناح المصرى .. لأنه الجناح المتميز والمتمايز.. مؤيداً بذلك معظم النقاد الذين رأوا إن المشاركات الأجنبية والعربية لم ترتفع الى المستوى الذى يحرك فى النفس نوازع الخلق. شاركت مصر فى كل المجالات، وفازت بخمس جوائز كبرى، وكانت تستحق أكثر. ولو لم يكن هناك مجاملات دبلوماسية ما فازت «أسبانيا» بجائزة النحت عن عمل يدخل فى إطار الألاعيب الشكلية المجردة، وما فازت «كوبا» بجائزة الرسم عن لوحة سيئة الاخراج، ركيكة التكوين، تنتمى إلى مجال الرسم الملون (التصوير).

الفنـــــانـــون

« آدم حنين »

بطاقة تعريف :

● ولد فى القاهرة سنة ١٩٢٩

● تخرج فى كلية الفنون الجميلة بالقاهرة سنة ١٩٥٣

● أقام فى باريس منذ سنة ١٩٧١

● تعرض له حديقة النحت الدولية (دالاس) بالولايات المتحدة تمثاله «حامل القدور» وله على واجهة مدينة الفنون بالهرم نحت من الخزف الملون عن الموسيقى، وتمثال لطائر مفرود الجناحين أمام مبنى مؤسسة الاهرام.

اشترك الفنان «آدم حنين» بمجموعة من المنحوتات البرونزية صغيرة الحجم، انتمى بعضها إلى مرحلته الباريسية الأولى، واشترك ببعضها فى مسابقات دولية أخرى الأمر الذى كان يجب أن يعطل دخوله فى دائرة التحكيم، وقد سبق للإدارة المصرية أن أخرجت من دائرة التحكيم فنانا يوغوسلافيا بارزا لأن تاريخ انتاجه الفنى كان قد تجاوز الخمس سنوات .

وبعيدا عن تلك الملاحظة قدم «آدم» مجموعة اتسمت بالأناقة والرقة والدقة والإيجاز ويميل إلى مايسمى بـ « الكتلة النقية » .. وهى صفات التقينا بها فى مرحلة ما قبل السفر .. وإن اختلفت المرحلتان فى التوجه، ومنابع التأثر، ودرجة الدفء . فى «القاهرة» استلهم مايتسق مع طبيعته من النحت المصرى القديم والفن الشعبى القبطى، وفى باريس كان إبداع الفنان الرومانى الأصل «قسطنطين برانكوزى» (١٨٧٦ ــ ١٩٥٧) هو الملهم . وكما نعرف فإن «برانكوزى» هو أول من ابتكر الاسلوب التجريدى التعبيرى فى بدايات هذا القرن .. بينما لايزال (آدم) محتفظا باسلوب رمزى، لم يقطع خطوط اتصاله بالواقع المرئى، وإن اقتربت درجة التلخيص لديه من التجريد.. وربما بسبب هذا خفتت درجة الحرارة والدفء فى منحوتاته الباريسية وإذا كان فى القاهرة قد استلهم التراث المصرى الفنى، وخلع على موضوعات الواقع أقنعة مختارة من هذا الإرث .. فقد فعل فى «باريس» نفس الشىء، وإن اكتفى ببرانكوزى ملهما له فى الموضوع والشكل معا .. للدرجة التى تصور معها البعض إنه نقل عنه .. وعقدوا مقارنات بين ديكه وديك «برانكوزى» .. وبين قرصية المذهبين وتمثال «برانكوزى» الشهير بيضى الشكل ذهبى اللون . المسمى : « ربة الفن النائمة » .

" Muse endormie " كما عقدوا مقارنة بين تمثاله الفائز فى البينالى والذى لم يطلق عليه اسما وبين طائر « برانكوزى » فى الفضاء Oiseau dans L'espace والحقيقة إن «آدم» قد تأثر بشدة بمنهج «برانكوزى» دون أن ينقله . وكما قلت من قبل إن الملامح الجوهرية التى تميز فن «آدم» كانت ولا تزال كما هى وإن اختلفت فى درجة حرارتها وتوجهها إن «آدم » من الفنانين الذين يرون إن التراث المصرى والأوروبى تراث انسانى . زاد لكل البشر على السواء . ويرى إن من حقه أن يستلهم كل مايحرك داخله نوازع الخلق . وبالنسبة لمرحلته الباريسية، وكما يظهر بوضوح فى وثيقة أعماله الفنية الأخيرة، كان محرك تلك النوازع هو «قسطنطين برانكوزى» .. دون أن يسقط من ذاكرته التراث المصرى القديم.. وحاول أن يقيم نسقا جماليا يستلهم الحركة الداخلية للمنحوتة الفرعونية والحركة الخارجية كما تتبدى فى أعمال «برانكوزى» أى علاقة التمثال بعناصره وعلاقة التمثال بالفضاء الخارجى والمحيط ، كما انحاز إلى الملمس الناعم الذى ينزلق عليه الضوء فى رقة اسطوانية لاتخلو، من مفاجآت المسطحات المباغتة .

« عبد الرحمن النشار »
بطاقة تعريف

- ولد بالقاهرة سنة ١٩٣٢
- يعمل أستاذا بكلية التربية الفنية
- كان عضوا فى جماعة « المحور »
- نال جائزة الدولة التشجيعية فى فن الرسم الملون (التصوير)
- نال جائزة البينالى فى الرسم الملون (التصوير)

قدم الفنان « عبد الرحمن النشار » لوحات معقدة التكوين استغرق إنجازها عامين كاملين أثارت لوحاته مجموعة من الأسئلة والتساؤلات وأول هذه الأسئلة وأكثرها بداهة هو :

إلى أى نوع أو جنس فنى تنتمى ؟!..

هل تنتمى إلى فن الرسم الملون، ولوحاته حافلة بالألوان البراقة ..أم إلى العمل الفنى المركب، ولوحاته حافلة بتضاريس تتأرجح بين الارتفاع والانخفاض ..؟!

ولم يفلت الفنان نفسه من الحيرة وفى ندوة مشتركة معى وجه الى قوميسير البينالى سؤالا مباشرا : هل كنتم تفكرون فى وضع لوحاتى فى إطار الفن المركب ؟!

لقد أجمعت كل القواميس والموسوعات الانجليزية والفرنسية(حتى الآن) علي صفتين أساسيتين يتصف بهما فن الرسم الملون (التصوير) Peinture, Painting الصفة الأولى هى «اللون» والصفة الثانية هى « السطح المسطح » وهو ما يتناقض مع المعنى العربى لكلمة «تصوير» . وعندما كسرت بعض الاساليب المعاصرة هذا النظام، منحها نقاد الفن مسميات جديدة تسمح بنمو مستقل .. فظهرت كلمة (كولاج) مثلا.. لوصف علاقات جديدة مغايرة لنظام التلوين على سطح مسطح.

ظهرت الكلمة الجديدة لتعبر عن حالة جديدة ، تختلف عن سابقتها في المجال لا الطبقة . لوحات « النشار » عبارة عن صناديق ذات حجوم ومستويات مختلفة، ملصوقة على سطح ذى إطار هندسى مستطيل، أو مربع ، أو معين . وتتحرك الرسوم الملونة ، والمهندسة ، فوق وعبر تلك المستويات. كل مقطع من مقاطع اللوحة يمثل لوحة مستقلة . لكن ..عندما تجتمع تلك اللوحات فإنها تحدث ارتباكا فى التلقى ، وفوضى فى الايقاع ولو مددنا الخطوط على استقامتها بقصد اكتشاف أطرا مرجعية للوحاته فسرعان مانرتد خائبين؛ لوعدنا الى

الهندسيات الاسلامية ـ والفنان عاشق للفن الاسلامي كما يقول ـ لوجدنا الفارق هائلا .. ففى الهندسيات الاسلامية ايقاعات منتظمة، تسهم إسهاما فاعلا فى بناء، وحركة العمل الفنى بل إنها ترسم طريق الاتصال بين العمل ومتلقيه. وإذا عدنا الى أسلوب «الأوب» لوجدنا طريقا «مغايرا» ، قائما على نظام مختلف الايقاع. أما فى لوحات « النشار » فالإيقاع فيها هو الاضطراب بعينه !.

فى الندوة التى أشرت إليها قال « النشار » :إنه قرأ كثيرا فى التصوف ، ويريد للوحاته أن تعبر عن المطلق . ولاشك أن نوايا الفنان طيبة ، ومن حقه أن يجدد ، وأن يتمرد كيفمايشاء.. لكن عليه أن يتسلح بمشروع التغيير أولا . وأرى أن مشروعه لم يكتمل بعد .

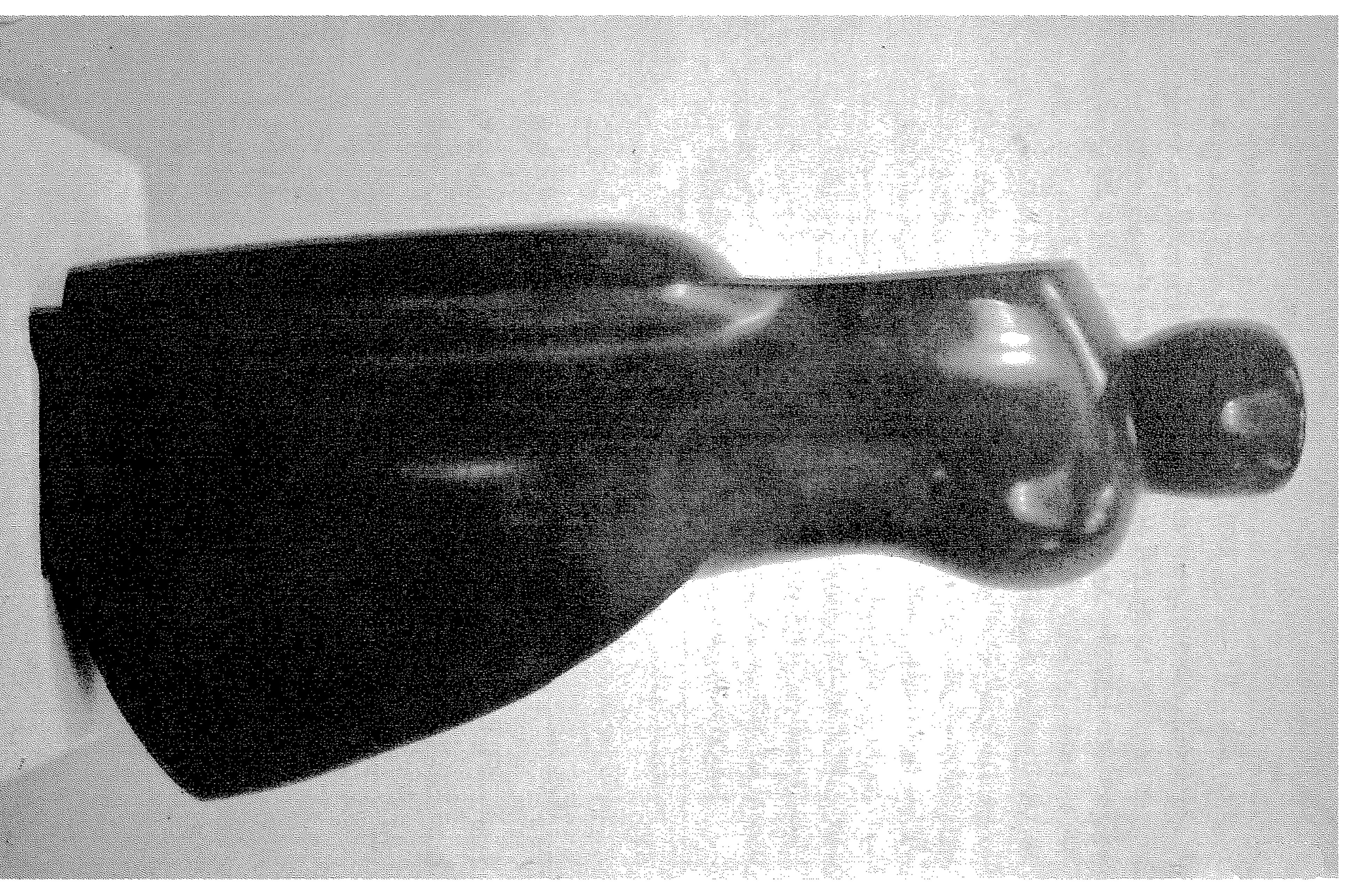
إن ألوانه الزاعقة، وتكويناته المعقّدة ، وتكدس صناديقه .. يحدُث جلبة واضطرابا وفوضى فى نفس المشاهد، ويوجهه إلى عكس مايدعونا إليه الفنان وهو : السلام الروحى .

« صالح رضا »

بطاقة تعريف :

- ولد بالقاهرة سنة ١٩٣٢
- أستاذ متفرغ بكلية الفنون التطبيقية بالقاهرة.
- حصل على العديد من الجوائز منها : الجائزة الأولى فى الحفر ببينالى الاسكندرية السادس، الجائزة الأولى فى النحت ببينالى الاسكندرية السابع، جائزة نحت من بينالى بغداد سنة ١٩٨٧، وجائزة الدولة التشجيعية فى النحت سنة ١٩٦٥.

الفنان « صالح رضا » من أكثر الفنانين المصريين احتكاكا بالبينالات الدولية، ويدرك أن «البينالى» يتناقض مع « المتحف »؛ البينالى يدعو إلى الإثارة ويرحب بالإبهار، والصدمة .. بينما يحرص « المتحف » على الاحتفاظ بالنماذج المعلّبة . لهذا شارك بعملين استعراضيين .. أحدهما داخل المتحف، والثانى خارجه . نفّذ العمل الأول تنفيذا فوريا .. بعد أن عرف الحيز الذى خُصص له، وساعدته خامة الـ« فوم » السهلة ، وفريق من المساعدين.. كان يمده بالتصميمات ويتابعه بالاشراف على التنفيذ ونال عن هذا الانجاز الفورى جائزة التحكيم . أمّا العمل الآخر فقد شكّل من صفائح الحديد . كان محور العرض الداخلى والخارجى هو الشكل الهرمى . أراد لكليهما أن يحدُثا فى النفس أثرا دراميا، ولتأكيد هذا جعل قاعدة العرض الداخلى مغطاة بطبقة من الرمال، خرجت منها أياد تطلب الغوث ، كما ظهرت بصمات أرجل



شيخ البلد للفنان آدم حنين « الجائزة الكبرى »

وأيد تتجه إلى الشكل الهرمى الممزق . لاحظ بعض النقاد إن الخامة التى جسّد بها أضعف من تتحمل تلك الشحنة الدرامية.. فهى بيضاء هشّة . وتبدو العناصر فى مجملها تائهة فى اتساع المتحف وفى زحام الجيران.. وخاصة من العمل الفنى للفنان « عبد السلام عيد » الذى ارتفع الى اكثر من أربعة أمتار فى حين لم يزد ارتفاع هرم « صالح رضا » عن المتر ونصف المتر .. بالاضافة الى سوء الإضاءة فى المتحف. يعكس العملان مزاجا انقلابيا.. عنيفا .. يقلق الوحدة العضوية الضرورية للعمل الفنى.. ففى الوقت الذى يُعّد مشاهده نفسيا لتلقى رسالته الدرامية بواسطة الرمال ـ الأيدى والوجوه التى تطلب الغوث ـ الهرم الممزق.. يفاجئنا بأشكال ذات طابع تزيينى أو غنائى بعيدة كل البعد عن السياق المنطقى لعمله الفنى، وربما كان الشكل الهرمى الخارجى أكثر دقة فى تجسيد هذا التناقض.. حيث يفاجئنا بخط لولبى راقص يقتحم الشكل الهرمى ويفصله فصلا، ويحيله الى قطعة ديكور. ويقلل من القيمة التعبيرية ذلك الدخول «الكاريكاتيرى» فى رسم الأطراف والوجوه ، بالاضافة الى اللون الابيض الذى وحد بين خامة الـ «فوم» وخامة الحديد .. وتبددت بذلك القيمة التعبيرية والجمالية للخامة .

إن هذا العرض « البانورامى » يضم بعض المنحوتات التى كان من الخير لها أن تعُرض مستقلة فهى جميلة فى ذاتها .. غير أنها تفقد تلك الميزة بوجودها فى خضم الزحام !

« عبد السلام عيد »

بطاقة تعريف

- ولد بالاسكندرية سنة ١٩٤٣
- يعمل استاذا لفن الرسم الملون (التصوير) بكلية الفنون الجميلة بالاسكندرية.
- مثّل مصر فى العديد من البينالات الدولية من أهمها : بينالى ڤينيسيا سنة ١٩٨٤، مهرجان « كان » بفرنسا سنة ١٩٧٩ ، المهرجان الدولى للرسم الملون باليابان سنة ١٩٨٥ ، مهرجان بغداد سنة ١٩٨٦ .
- حصل على العديد من الجوائز منها : الجائزة الأولى فى بينالى الاسكندرية ١٩٧٦ ، الجائزة الكبرى فى المعرض العام بالقاهرة سنة ١٩٨٢ ، جائزة الدولة التشجيعية فى الرسم الملون سنة ١٩٩١ .

شارك الفنان « عبد السلام عيد » بعمل فنّى مجمّع .. فاز عنه بجائزة لجنة التحكيم . العمل عبارة عن اسطوانة ارتفاعها نحو أربعة أمتار ، تتوجها بالونات ورقية .العمل فى مجمله يشبه نخلة، تتوسطها فتحة تكشف عما هو كائن بتجويف الشكل الاسطوانى أضاء البالونات الورقية بإضاءة دافئة، بينما أشاع فى التجويف إضاءة باردة . فيروزية اللون وغطى الاسطوانة الخارجية بتنويعات بارعة التنفيذ من الحبال وخامات أخرى . تذكرنا فتحة التجويف المستديرة بعيون « صندوق الدنيا » وحكاياته الشعبية، ولم نتوقع بالطبع سردا لحكاية، بل توقعنا أن نتوقف عند حدود التأمل والتفكير وهو ماأراده لنا الفنان أيضا لهذا رسم لنا ثلاث رحلات أو حركات لاستيعاب عمله الفنى : حركة رأسية تبدأ أو تنتهى عند البالونات الورقية المضاءة، وحركة اسطوانية حول العمل الفنى، وحركة داخلية تطلعنا على مايدور داخل عمله الفنى من أسرار يُفترض أن تكون مغايرة لكل مانراه على السطح . يُعَدُّ التقابل بين الضوء الخارجى الدافىء والضوء الداخلى البارد هو محور الحوار البصرى والرمزى للعمل الفنى. إن هذا المشهد البصرى البسيط .. لابد أن يوحى للذاكرة بمشابهات كثيرة فى الطبيعة، وفى علم الأحياء على وجه الخصوص، ولست أظن أن إنسانا يلتقى بهذا العمل دون أن يلمع فى ذهنه صورة لثنائيات عديدة : بين البذرة والثمرة، بين الوجود الظاهر والوجود الباطن .. وهكذا ..

« محمد هجرس »

بطاقة تعريف :

- ولد بطنطا سنة ١٩٢٤.
- درس فن النحت والميدالية بروما من سنة ١٩٥٠ حتى ١٩٥٢.
- حصل على جائزة صالون القاهرة سنة ١٩٥٧، وجائزة بينالى الاسكندرية سنة ١٩٦٣.

شارك الفنان « محمد هجرس » فى حركة الفنون الجميلة منذ سنة ١٩٥٢ .. غير أن رحلته الفنية لم تكن سهلة بل اعترضها كثير من الصعاب ، بسبب مواقفه السياسية ورغم ذلك فقد قدم لحركة الفنون الجميلة مجموعة من المنحوتات التى لاتنسى .. منها تمثال : الجوع ـ الطائر والجيفه ـ الثور .. وعمال التراحيل .. الذى أنجزه منذ أكثر من ربع قرن وكبّره من عام تقريبا ليشترك به فى « البينالى » .. وكنت أتمنى ألا يفعل .. فقد فرض هذا النقل على الأعضاء المصريين المشاركين فى لجنة التحكيم مقارنة بين الاصل والنسخة المكبّرة .. جاءت

لصالح الأصل القديم الذى كان يتمتع بحيوية، ويكشف عن سيطرة الفنان على كتلته. كان بمقدوره أن يقدم مجموعة من المنحوتات صغيرة الحجم كما فعل « آدم حنين » وبخامة صلبة بدلا من منحوتة ضخمة الحجم بخامة يسهل كسرها أو شرخها عند النقل، وهو ماحدث بالفعل مع تمثاله الجصيّ المكبرّ .. بالإضافة إلى لونه الأبيض البارد الذى يتعارض مع الإيحاء الدرامي للكتلة الرباعية التي تمثل عمال التراحيل .. واضطر « هجرس » أن يلتزم بأسلوب المنحوتة الفني أو بمعنى أدق اسلوب الفنان في تلك المرحلة وهو : «الواقعية التعبيرية» .لاحظ الفنان العالمي «جياكومتي» ملاحظة على جانب كبير من الأهمية هى أن التكبير والتصغير لا يقف عند تغيير « الكم » بل يتجاوزه إلى « الكيف » .. فالمقطع المسطح أو الاسطوانى الجميل قد يفسد عند تكبيره أو يزداد جمالا، ويرجع ذلك إلى المتغيرات الجديدة فى علاقة الشكل بالفراغ المحيط والفراغ البيني. وعند تأمل المسطح العريض الذى يجمع بين الكتل الأربع نراه مقبولا فى التمثال الصغير .. باردا أشد البرودة في التمثال الكبير، وكذلك تبدو كتلة الرأس فوق مسطحها الأمامي.. مقبولة في الصغير ، مقحمة ومفتعلة فى النسخة المكبرّة.

إن إمكانات الفنان « هجرس » أكبر كثيرا مما طالعنا به، ولست أظن أنه أفلس حتى يعود الى عمل قديم ..ليكبرِّه .. وكان الأجدر أن يحيله إلى أى « أرتيزان » ليقوم بهذه المهمة .. أمّا إذا كان لابد من تلك العودة .. فكان عليه أن يقدم إلينا قراءة جديدة، ووجهة نظر جديدة.

« محمد سالم »

بطاقة تعريف

- ولد بالاسكندرية سنة ١٩٤٢ .
- يعمل استاذا لفن الرسم الملون بكلية الفنون الجميلة بالاسكندرية.
- حصل على الدكتوراه فى فن الافرسك سنة ١٩٨٢ .

منذ عشر سنوات تقريبا أقام الفنان « محمد سالم » معرضا لفن الزجاج الملون، ظنناه أول الأمر يمارس نزوة عابرة .. فإذا به يواصل إقامة معارض ومشاركات مختلفة تؤكد انحيازه لهذا الفن .. وتركه للألوان الزيتية وفرشاة الرسم . لم أناقشه سر هذا التحول.. والمهم انه نجح فى ابداع أعمال ممتعة تبقى فى الذكراة . وعندما رشح للاشتراك فى البينالى فى مجال الرسم الملون فضل الاشتراك بثلاث نوافذ زجاجية، دائرية الشكل، قطر كل منها ١٢٠ سم . وهو كأستاذ فن يدرك أن نوافذه أو دوائره الزجاجية الملونة تخرج على ماأصطلح على تسميته بـ « الرسم الملون » أو التصوير، كما تخرج بانتمائها إلى مجال الفن التطبيقى على

تكوين للفنان صالح رضا « جائزة التحكيم »

شـروط المسـابقـة . ورغـم ذلك فـهى تكشف عن براعـة ورهـافـة حس. وعندمـا إلتـقيت بـه يوم الافتتاح ، عن بعُد، ظننتها للوهلة الأولى نوافد حقيقية .. أستطيع فتحها للإطلال عما تخفيه من أسرار !

إن نظام « مـحـمـد سـالـم » اللونى فى الرسم الملون وفـى الزجـاج المعـشق يتسم بالوقـار، والحسابات الرياضية، أما الخلاف فى درجة سطوع اللون والامتاع فيعود إلى الخلاف بين خـامـة الزجـاج الشـفـافـة ، وخـامـة الزيت المعـتـمـة فى رسـومـه الزيتيـة كان اسلوبه الغـالب هو الاسلوب التـعـبـيـرى الرمـزى .. بينمـا تكشف نوافـذه الزجـاجـيـة عن انحـيـاز إلى الاسلوب التجريدى الهندسى .

« ثروت البحر »

بطاقة تعريف :

- ولد فى تلا سنة ١٩٤٤ .
- يشارك فى حركة الفنون الجميلة منذ سنة ١٩٦٤ .
- حصل على العديد من الجوائز أهمـها : الجائزة الأولى فى الرسم الملون ببينالى الاسكندرية سنة ١٩٧٨ ، والجائزة الأولى فى البينالى العربى الحادى عشر بالكويت سنة ١٩٨٩ .

اشترك الفنان « ثروت البحر » بثلاث لوحات مقاس كل منها ١٤٠سم × ٢٠٠سم .

خالف بها كل ماشاهدناه له من لوحات سابقة . تتسم ألوانه بالصراحة والبهجة، ولمساته بالجرأة ، والتمكن . يقترب أسلوبه فيها من مشارف التجريد دون أن يقطع الصلة مع الواقع . يدعونا الى مشاركته لحظات حريته، وتلقائيته، وانفعاله بمثير جمالى واقعى هو « النخيل » . ولقد سبق للفنان أن تناول هذا الموضوع من قبل تناولا قريبا من الوصف فى لوحات عديدة.

إن لوحاته الثلاث تواجهنا بإيقاعات قوسية وطولية متداخلة إلى حد اللهاث تقطعها مساحات حاسمة ومباغتة .. وبألوان صريحة..

لقد طرحت لوحاته فى البينالى أسئلة لدى نقاده ومتابعى فنه .. من تلك الأسئلة :

كيف تم انقلابه على لوحاته السابقة ذات الطابع التأملى الشعرى ؟

لماذا تخلى عن أنغامه الوترية إلى آلات النفخ الزاعقة ؟!

هل كان السبب هو مناسبة مسابقة البينالى .. أم أن السبب كان أكثر عمقا من ذلك ؟!

لايستطيع أن يجيب على تلك الأسئلة غير الفنان نفسه .. فلننتظر إجابته !

« جميل شفيق »

بطاقة تعريف :

● ولد بطنطا سنة ١٩٣٨

● تخرج في كلية الفنون الجميلة بالقاهرة سنة ١٩٦٢ قسم الرسم الملون (التصوير).

● يعمل في مجال الصحافة والكتاب منذ سنة ١٩٦٠.

● شغله العمل الصحفي طويلا. فلم يتمكن من إقامة أول معرض له في فن الرسم إلا سنة ١٩٨٩ ومنذ معرضه الأول ظهرت ملامحه الفنية التى حرص على تاكيدها خطوة خطوة .. ولم يعد الآن في حاجة الى التوقيع على لوحاته باسمه حتى يمكن التعرف عليها.

اسلوبه يحفل بالرموز العامة والخاصة أبرزها ثنائية : الرجل والمرأة، والقط والسمكة. ويحتل الانسان محور البطولة فى لوحاته، وإنسانه ذو ملامح نمطية.. فهو كممتلىء امتلاء الدببة، ويذكرنا « بإنسان » فنان أمريكا اللاتينية « بوتيرو » المنتفخ انتفاخا بالونيا، والطريف رغم .. أو .. بسبب ذلك شارك فى البينالى خمس لوحات مرسومة بالحبر الصينى . تكشف عن مهارات عالية فى استخدام ريشة الرسم أجمل لوحاته .. تمثل مجموعة من الخيول ، يُميِّز منها مُهرة ـ غالبا ـ يضعها فى الصدارة .. فى وضع خلفي .. ليظهر مفاتنها الحسيّة، ويؤكد ذلك بشعر مسترسل وعين كحيلة . ويلخص مناطق النور والظل ، دون أن يحفل بمتابعة درجات السلم الضوئي وتسير خطوط الظل مع شكل وحركة العناصر .. فهى تنحنى حيث يكون الانحناء، وتستقيم حيث تستقيم الأشكال .. فى توافق دائم .. وممتع .

« سيد سعد الدين »

بطاقة تعريف :

● ولد بقنا سنة ١٩٤٤

● شارك فى حركة الفنون الجميلة منذ سنة ١٩٦٧.

● حصل على العديد من الجوائزمنها : الجائزة الأولى فى معرض ميلانو الدولى،سنة ١٩٦٧ والجائزة الأولى فى بينالى الاسكندرية سنة ١٩٨٢، والجائزة الثانية فى صالون القاهرة الرابع عشر، وجائزة الرسم بالمعرض العام للسنوات ٨٢، ٨٣، ٨٤.



تكوينات مجسمة للفنان عبدالرحمن النشار (جائزة البينالى)

● اسمه مسجل بموسوعة كامبردج العالمية سنة ١٩٩٠.

اشترك الفنان « سيد سعد الدين » بثلاث لوحات ، مقاس كل منها ١٠٠سم × ١٠٠سم، منفذة بأقلام الفحم، ويطالعنا بأسلوبه الرمزى . المعروف ..الذى يتميز بالأناقة ، وإحكام التكوين، والشفافية، والتلخيص، والوضوح، والرقة والصلابة فى ذات الوقت .

وعلى الرغم من اقتراب عالم لوحاته شكلا ومضمونا من أفهام غير المتخصصين ..فإنه يحتفظ فى لوحاته بحالة تعبيرية متزنة : لاتسقط فى هوة البرودة ولا تنزلق إلى « الميلودرامية». ويحتفظ بمنطقة وسطى فى التجسيم؛ فهو لايحفل بسلم الدرجات الضوئية والظلية بل بخطوط ومساحات ظلية موجزة تقف عند حدود الإيحاء باستدارة الشكل .



عمـــــال التراحيـــــل للفنـــان محمد هجرس

« محمود بقشيش »

بطاقة تعريف :

● ولد بكفر الزيات سنة ١٩٣٨

● تخرج فى كلية الفنون الجميلة بالقاهرة سنة ١٩٦٣.

● فاز بالعديد من الجوائز منها : جائزة الدولة التشجيعية فى فن الرسم سنة ١٩٨٧، وجائزة التحكيم فى البينالى الدولى الرابع .

● له كتابان فى مجال النقد: « البحث عن ملامح قومية » صدر عن دار الهلال، وكتاب « النحت المصرى الحديث » صدر عن هيئة الكتاب .

● يكتب فى مجال نقد الفنون الجميلة منذ سنة ١٩٦٤، ومقالاته تنشر فى

تحية إلى ابنتي فيروز وأحزان خليجية للفنان محمود بقشيش (جائزة التحكيم)



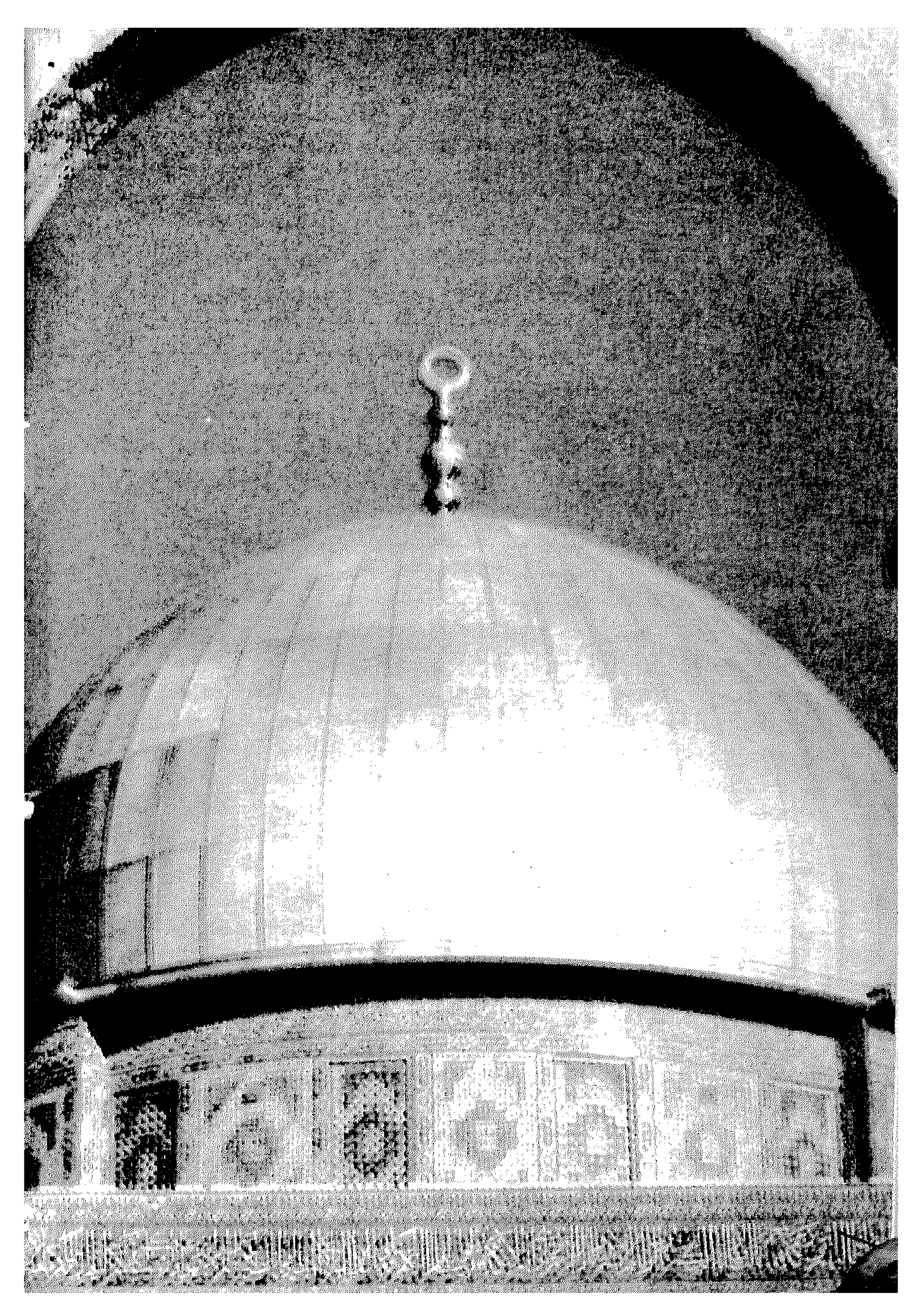
المجلات والجرائد المصرية والعربية منها: الهلال، وابداع.
● له مجموعة قصصية مشتركة بعنوان « الموجة » بالاشتراك مع المخرج «سيد سعيد».

أستأذن القارئ الكريم أن أتحدث عن نفسي، وأعده بأن أكون موضوعيا، وأمينا. قدمت خمس لوحات مرسومة بالحبر الصيني، وبسنون معدنية متعددة الدرجات.

كنت حريصا على تقديم سلّم ضوئي وظلي يتمدد من الأسود الصريح إلى الأبيض الصريح عبر الدرجات الضوئيه الوسطى لم أتابع درجات ذلك السلم الضوئي والظلي استجابة لرغبة في استعراض المهارة .. بل للتعبير عن طبيعتي الشخصية التي تميل غالبا إلى الخطوات المتدرجة غير المحسوسة والنغمات الوترية المغموسة بحزن شفيف. استلهمت في بعض اللوحات مأساة الخليج، ولم أختر هذا الموضوع لركوب موجة دعائية بل لأن الحرب قد ضربتني شخصيا، وكانت السبب المباشر في فشل أهم معارضي الفردية في مجمع الفنون بالزمالك. واستلهمت موضوعات إنسانية أخرى مثل لوحة بعنوان: « تحية إلى طفلتي فيروز » كان الدافع إليها هو أنني صرت أبا لأول مرة في حياتي وأنا في سن الثالثة والخمسين !.. كنت أتمنى لهذه اللوحة أن تفوز، غير أن الحظ قد أصاب لوحة من لوحات الخليج: مقاسها ١٠٠سم × ٧٠سم .. واستغرق تنفيذها عاما كاملا.

في السنوات العشر الأخيرة احتل الضوء الركيزة المحورية في لوحاتي وهو ضوء بلا مصدر لهذا فإن علاقته بالعتمة ليست علاقة تبادلية أو « ميكانيكية » كالأشكال التي نراها في الواقع أو في الرسوم « الأكاديمية » .. بل نراه في اشتباك دائم مع العتمة. يظهر في مواضع النوافذ والأبواب ليكون بديلا رمزيا عن حضور الانسان بهيئته الواقعية. يقوم « الضوء » بدورين مختلفين ومتكاملين في ذات الوقت: دور رمزي، ودور بنائي. أمّا الدور الرمزي فيمكن إدراكه من حالة اشتباك الضوء والعتمة: قد نرى فيه أملا، أو تحديا أو دعوة إلى العبور إلى المستقبل. ويظهر الدور البنائي أو التشكيلي في خلق علاقات تهيئ للعين والنفس طريق الاتصال والحركة داخل مسطح اللوحة لهذا لا أضع الضوء حيثما اتفق.. بل أضعه في أماكن مختارة من أجل إيحاء نفسي أريد تبليغه للمتلقي، فأختار لنقاط الضوء مواضع محورية، متباعدة أحيانا، كي تبدو وكأنها تتراسل عبر فضاء متسع .. من هنا يرسم الضوء فضاءه الرمزي المشحون بتوتر خاص. في اللوحة الفائزة أردت أن أنشئ زحاما شديدا معتما، يمزقه من أسفل ألسنة نيران تصاعد إلى نقطة المركز في اللوحة .. حيث يظهر شبح إنساني لم يتكرر في اللوحة ..لتأكيد ثقل الحصار بل كابوسيته .. فليس هناك أمام هذا الكيان الشبحي من مفر. الحقيقة .. كنت أرسم نفسي. كنت أتذكر دائما مشربية مرسمي بوكالة الغوري.. لهذا انتقلت الى نسيج لوحتي .. بعد أن تحولت فراغاتها إلى نوافذ وأبواب لا حد لتكاثرها وتشكل بهذا التكاثر عبر منظور وهمي صرخة مكتومة تتمدد في أرجاء اللوحة. إنني لا ألغي البعد الثالث أي عمق اللوحة ولا أؤكده .. بل أحرص على أن تقترب الأبعاد الثلاثة من بعضها البعض، وأحيانا تتداخل. حتى يكون لكل جزئية في اللوحة ـ مهما كانت ضآلتها ـ ضرورة في بناء النسيج التعبيري والجمالي للوحة.

إذا كنت أرى في النوافذ المضيئة بدائل عن الحضور الانساني .. فانني أرى في البيوت التي تواجه المشاهد وجوها إنسانية، تخاطبه خطابا جماليا وأخلاقيا، لايخطئ الطريق اليه الحكم النقدي السليم.





رحلة إلى القدس

بقلم : جريس هالسل • عرض : د. أمين العيوطى

يتضمن هذا الكتاب تقريرا صحفيا عن العائلات اليهودية والمسيحية والمسلمة التى تعيش على أرض مزقتها الصراعات. وكاتبته تهديه إلى «أولئك الذين يبحثون عن السلام».

فى رحلتها إلى إسرائيل تلتقى الكاتبة بالكثير من الإسرائيليين الأشكيناز والسفارديم جاءوا من مختلف بقاع الأرض من البلاد العربية والبرازيل وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا. لم يكونوا حتى مجيئهم يعرفون العبرية لكنهم تعلموها هناك. الكثير منهم وخاصة الشبان لايؤمنون بالدين ولايذهبون إلى المعبد إلا فى المناسبات، والكتاب المقدس فى رأيهم مزيج من التاريخ وعلم الآثار القديمة. بعضهم هاجر أبناؤهم إلى أمريكا. ففى كل عام يهاجر ١٠,٠٠٠ إسرائيلى إلى أمريكا ولا يفد إليها إلا ثلاثة آلاف أمريكى فقط مما يزعج المسئولين ويُهدد بعدم توازن الهجرة السكانية بين البلدين.

واليهود الشرقيون (السفارديم) يمثلون ٦٠٪ من السكان. وقد جاءوا من سوريا ولبنان والعراق التى تمثل أرض فلسطين التاريخية، كما جاءوا من مصر والمغرب والجزائر واليمن وإيران وأسبانيا. كانوا جميعا حريصين على المجئ إلى إسرائيل بعد انشائها. لكن معظمهم كان فقيرا، بسيط التعليم، أسمر البشرة ولهذا اعتبروا مواطنين من الدرجة الثانية. والفجوة بين اليهود الغربيين (الأشكيناز) وبين السفارديم تتسع. فالاشكيناز يشكلون نظام الأحزاب التشريعية ويتحكمون فى أجهزة الدولة، فى حين لا يمثل السفارديم فى الأجهزة التشريعية والتنفيذية، مما يدل على أن الديمقراطية الإسرائيلية ديمقراطية كاريكاتيرية. ولهذا كثرت الاضطرابات بين اليهود السفارديم ودعوتهم إلى المساواة.

وقد بنى اليهود الأول الذين وفدوا إلى القدس من تركيا بعد طردهم من أسبانيا فى ١٤٩٢ معابدهم تحت تأثير المعمار التركى، واستخدموا الموارد المحلية مثل خشب أشجار الزيتون وأحجار مدينة القدس. وقد اكتسب بعضهم من اليهود اليمنيين بعض عادات المسلمين. ففى هذه المعابد حاجز يحجز الرجال عن النساء. وهم يخلعون نعالهم عند باب المعبد، ويصلون على الأرض. وحين أصر الشبان على أن تكون هناك مقاعد بنى الشيوخ لهم مقاعد من الحجر حتى لا تكون لينة. كذلك فإن اليهود الفارسيين أدخلوا فى معابدهم زخارف وطقوسا واحتفالات تتماثل مع مثيلاتها فى الجوامع. وهم يرتلون التوراة تماما كما يرتل القرآن فى الجوامع. وكان رئيس هذا التجمع يسمى "حاجى" لا حاخاما. وفى يوم السبت يرتدون قلنسوات من الاستراكان وهى ألبسة رأس الأرستقراطية الفارسية. واللون المفضل فى زخارفهم ومناسبات الزفاف، والختان هو اللون الأخضر كما فى الإسلام.

خلافات عقائدية

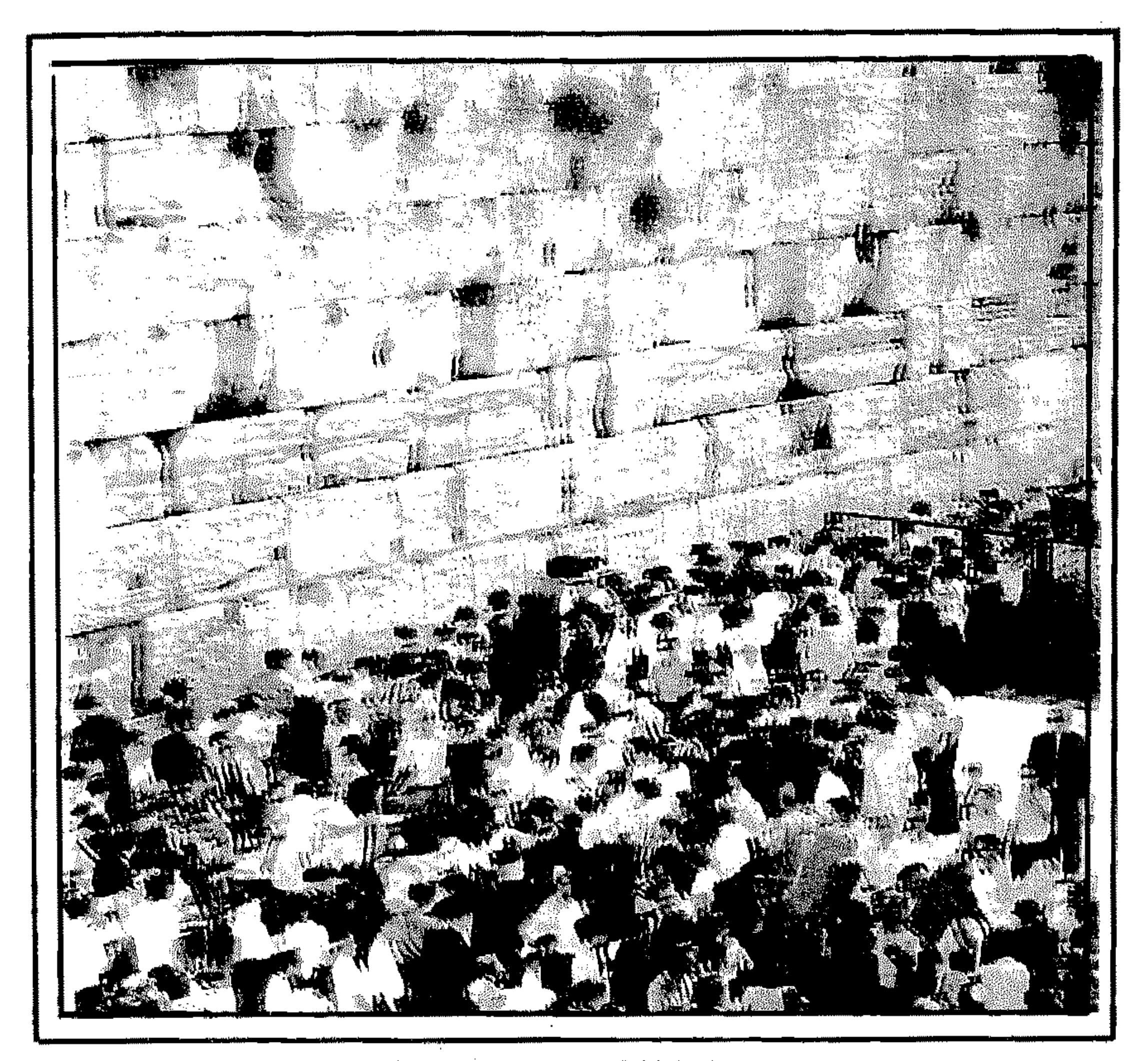
واليهودية الأرثوذكسية هى مذهب الدولة المعتمد. والقانون الدينى هو قانون الدولة فى كل الأحوال الشخصية مثل الزواج والطلاق والشرعية والارتداد عن الدين. غير أن هذا لايمنع أن هناك بعض الخلافات بين الحاخامات الأشكيناز والحاخامات السفارديم. ففى حين يرى الجانب الأول أن القانون الدينى لا يسمح بترك أجزاء من الأراضى العربية المحتلة، يعارض الجانب الثانى هذا الاتجاه ويدعو

إلى ترك هذه الأراضى لانقـــاذ الأرواح، ويتمثل الخلاف أيضا فى النظرة إلى فكرة الدين. فـالبـعض يرى أن الله رب سـلام ، والبعض الآخر يراه رب حرب. القسم الأول يرى أن حدود إسرائيل المعترف بها دوليا حدود ثابتـة ولا يريد الخوض فى حـــرب لتوسيع تلك الحدود، والقسم الآخر يرى أن الحرب ليست ثمنا باهظا للاسـتـيلاء على مــزيد من الأراضى العــربيـــة وخلق اسرائيل الكبرى خلف الموقف الأول تكمن عـقدة الخـوف من الحـرب التى لم تنقطع على مـدى مـا يقـرب من أربعين عـامـا .هذا الخـوف وراء كل مـا يفـعله الإسرائيليـون. فـهـو خـوف ممتـد منذ مـا حـدث لهم فى الماضى، حتى أنهم يشعرون أنهم محاطون بالأعداء من كل جانب.

والكثـيــر من الإســرائيليين لا يؤمنون بالدين. فعلى الرغم من أن يوم السبت يوم مــقــدس إلا أن القليل منهم لا يذهب إلى العمل. فمن يعملون فى المزارع الجماعية مـثـلا عليـهم أن يحلبـوا الأبقـار. ورغم أن الإسـرائيليين يبـقون على فكرة أنهم شـعب الله المختار إلا أنهم يدركون أن احتفالاتهم تضــرب بجـذورها فى الطقـوس الوثنيـة. فلديهم مـثـلا "احـتـفـال الأنوار" فـى وقت مـعين من السنة يرجع تاريخـه إلى الأزمنة الوثنية فى وقت الشتـاء حين كانوا يشعلون النيـران مـبكرا . وقـد ظل هذا التـقليـد مستمرا حتى الآن. وهذه الطقوس يحافظ عليها السفارديم أكثر مما يحافظ عليها الأشكيناز الذين لم تكن لهم صلة بتـراث المنطقة. وقد أدى هذا بالكثير إلى الاعتقاد بأن اليـهود الشـرقـيين شـعب سـامى، وأن اليهود الغربيين ليسوا كذلك لأنهم لم يأتوا أساسا من فلسطين. والحقيقة أن اليهود قد أصبحوا خليطا من شعوب عديدة.

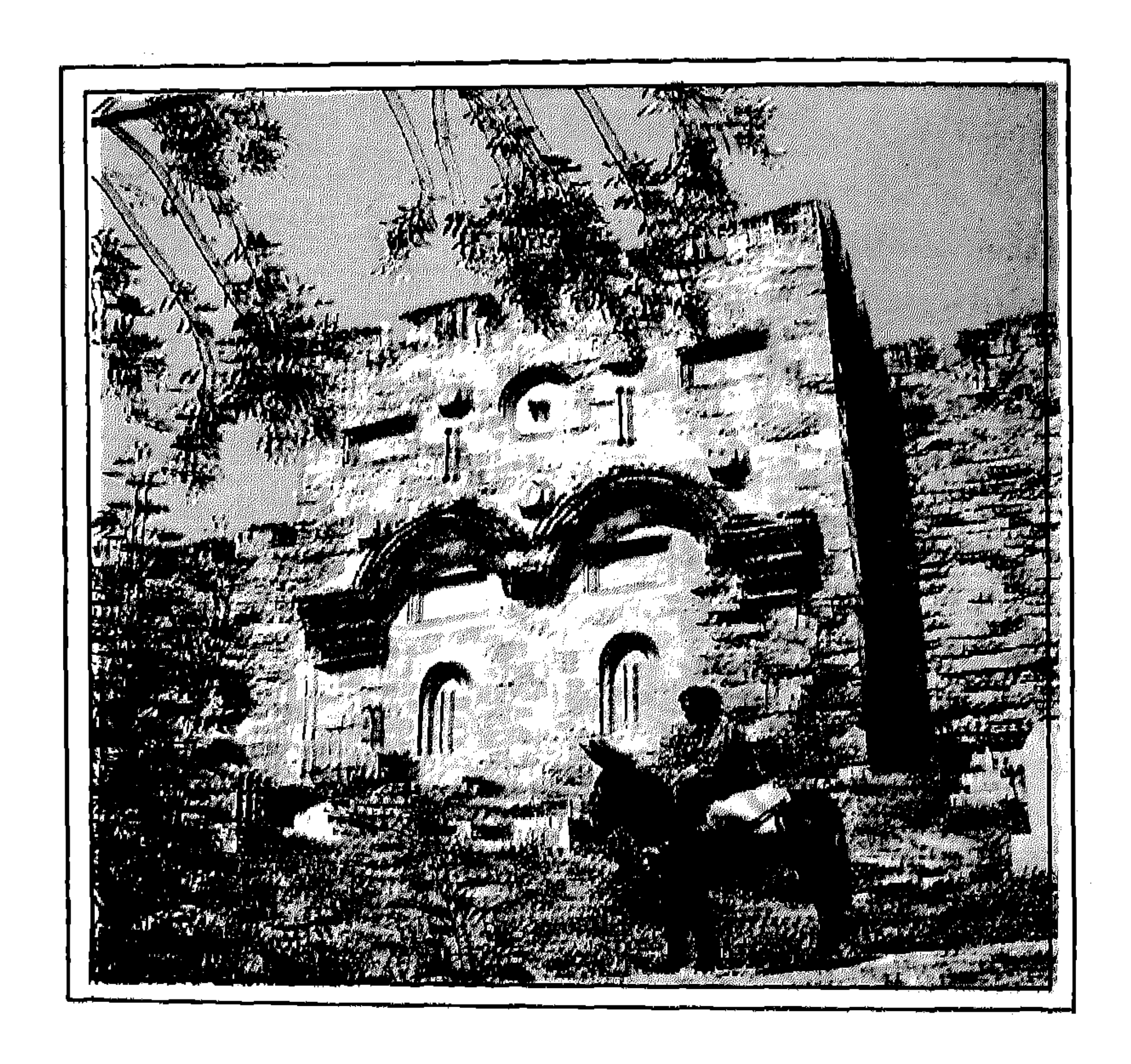
الإسرائيليون والضفة الغربية

تقع الضفة الغربية على مساحة ٢١٦٥ ميلا مربعا وتمتد ثمانين ميلا من الشمال إلى الجنوب. وحـدودها الغـربيـة تبـعـد عن البحر المتوسط تسعة أميال ويعيش حوالى مليـون فلسطينى بالضـفـة وغـزة. وتدعى اسرائيل أن الضفة ملك لها ولا يشاركها فى هذا الرأى كل حكومات العالم بما فى ذلك الولايات المتحدة والمحاكم الدولية ، وقرب الضفة والفلسطينيين العرب من إسرائيل يزعجها ، لهذا يريد الكثير من الإسرائيليين ضم الضـــفـــة بزعم دواعى الأمن. لكنهم يدركون أنهم مـهما توسعوا فسوف يكون هناك دائما عرب. ولهذا يداخلهم الشعور



حائط المبكى .. حيث يبكى اليهود

أنهم لابد أن يتعايشوا مع العرب، والفلسطينيون العرب لايزعجونهم بما يمكنهم أن يفعلوه بقدر ما يزعجهم أنهم مطالبون منافسون بالأرض. فقد عاشوا عليها آلاف السنين قبل أن يصل أى يهودى إلى فلسطين. وعلى الرغم من مطالبة حركة السلام الآن بالتعايش السلمى مع الفلسطينيين، إلا أن جماعة يمينية صغيرة محافظة ومسلحة وفد الكثير منها أخيرا من أمريكا، ويدعون أنفسهم «جوش أمونيم»، أى «كتلة المؤمنين» مستعدون للحرب لابتلاع ما تبقى من



فى وادى الزيتـــون

فلسطين التاريخية ولبنان والأردن وتحقيق اسرائيل الكبرى. وهذه الجماعة تعيش فى معسكرات قرب جامعة بيرزيت فى رام الله ويشيعون الارهاب بين الفلسطينيين المدنيين وطلبة الجامعة.

هنـــا عاش الفلسطينيون منذ آلاف السنين يزرعون أشجار الزيتون. كذلك عاشوا أربعمائة سنة فى ظل الامبراطورية العثمانية وتحت الاحتلال الانجليزى والحكم الأردنى وهم يزرعون أشجار الزيتون ويرعون الأغنام على أرض توارثوها أبا عن جد. بعضهم لديه وثائق ملكية الأرض،

والكثير منهم ليس لديهم ما يثبت ملكيتهم لها.

وتنقسم الأرض في الضفة إلى ثلاثة أقسام. القسم الأول يمتلك أصحابه عقود ملكية، "أرض ملك"، والقسم الثاني مسجل لدى وزارة المالية الأردنية والقسم الثالث كان يخضع للسلطان العثماني، "أرض ميرى". ويقول الفلاحون إن ملكيتهم للأرض كان معترفا بها من جانب البريطانيين والأردنيين. الفئة الأخيرة تمثل ٧٠٪ من الضفة عاش عليها الفلسطينيون آلاف السنين. ولهذا كان قولهم بأن الأرض ملكهم. لكن الاسرائيليين لايعترفون بهذه الأرض ملكا خاصا. لكنها أملاك دولة ولذا فإن لهم الحق في أخذها.

والمستوطنة التي استولت عليها جماعات الإسرائيليين المسلحة كان بها قلعة أقامها العثمانيون وحولها البريطانيون إلى قسم للشرطة ثم هجرت حتى استولت عليها تلك الجماعات وأقامت سورا حول خمسين هكتارا تخص فلاحي بلدة النبي صالح كانوا يزرعونها قمحا وحدائق فاكهة. لكن الإسرائيليين حذروهم من الاقتراب منها وإلا أطلقوا عليهم الرصاص. وعلى الرغم من ذلك فإن بعض الذين جاءوا من أمريكا يشعرون بالاحباط والوحدة بعد أن انتقلوا إلى لغة جديدة هي العبرية وإلى ثقافة جديدة هي الثقافة العربية. والنساء منهم يقضين وقتهن في رعاية الأطفال في انتظار عودة أزواجهن من تل أبيب، ولا يخرجن من القلعة إلا في حماية مسلحة، فهم يرون كل العرب هناك ارهابيين!

مع المسيحيين في القدس

الغالبية العظمى من المسيحيين في القدس مسيحيون عرب بالاضافة إلى بعض الأرمن. ويجمع المسيحيين والمسلمين هدف واحد هو أن يعيشوا أحرارا على أرض فلسطين. وقد تجد من المسلمين من يعمل في أحد الأديرة نادلا أو عاملا في محل الهدايا التابع للدير. بل إن بعضهم ولد في الدير عندما طرد الإسرائيليون آباءهم من بيوتهم فعملوا في الدير وتزوجوا وأنجبوا أطفالهم فيه. بل إن بعض اليهود تحولوا إلى المسيحية رغم صعوبة هذا. فقد أصدرت المحكمة العليا الإسرائيلية حكما بأن المرء لا يمكنه أن يكون يهوديا ومسيحيا على الرغم من أنه لا توجد مشكلة في أن يكون المرء يهوديا وملحدا. وبعد حرب ١٩٦٧ حين احتل

الإسرائيليون القدس الشرقية لم تعد المسيحية ديانة رسمية.

وغالبية المسيحيين فى القدس لم يجيئوا من أوربا وأمريكا لكنهم عرب تمتد جذورهم إلى ما يقرب من ألفى عام. وقد كان تعدادهم فى ١٩٤٨ فى القدس ٥٠٪ من السكان، وفى بيت لحم ٩٠٪ ثم بدأ المسيحيون يهاجرون، فاليهود يريدون دولة يهودية بالكامل، دينها الرسمى اليهودية. ومنذ احتلالهم للضفة أصبحت العطلات الرسمية الجمعة والسبت بدلا من الأحد. منذ ذلك الحين والمسيحيون يهاجرون من بيت لحم والناصرة والقدس، من الضفة الغربية كلها ومن قطاع غزة. ويشجع اليهود هذه الهجرة إذ يريدون التخلص من كل الفلسطينيين سواء كانوا مسيحيين أم مسلمين. كما أن المسيحيين المتعلمين لا يريدون العيش تحت السيطرة اليهودية. فمنذ ١٩٦٧ هاجر ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ منهم إلى درجة أن المقيمين منهم فى القدس لا يمثلون سوى ١٠٪ من السكان.

مستوطنات غير شرعية

وفى بيت لحم حيث ولد السيد المسيح ترتفع الآن ناطحات سحاب يقطنها ما بين ٥٠,٠٠٠ ـ ١٠٠,٠٠٠. هذه إحدى المستوطنات التى مولتها أمريكا وأرسلت لها أكثر من ٢٣ بليون دولار، وهى تردد فى نفس الوقت أنها مستوطنات غير شرعية. فى نفس هذه البلدة لا يرى السكان المسيحيون الأصليون إلا العسكر الإسرائيليين الذين يستوقفونهم ويعتقلونهم، رجالا كانوا أم نساء،دون سبب مفهوم، أو يقومون بترحيل قادتهم. ولهذا فإن الروح القومية هى الروح السائدة فى الضفة الغربية المحتلة. والبلدة محاطة بأعداد غفيرة من العسكر الإسرائيليين وعلى أسطح المنازل حتى لتبدو أشبه بمدينة محاصرة خاصة فى عيد الميلاد المجيد، حيث يقوم العسكر بتفتيش الناس ومراقبتهم بالمناظير المكبرة من فوق الأسطح وبنادقهم معلقة بأكتافهم، ومن فوقهم تحلق الطائرات الهليكوبتر والطائرات النفاثة.

وجامعة بيت لحم، وهى جامعة مسيحية تمولها الفاتيكان تضم ٦٢٥ طالبا ثلثهم من الطالبات. وهى ترحب بالطلبة المسلمين العرب مثلما ترحب بالمسيحيين حتى أن أعداد الطلبة المسلمين تفوق أعداد الطلبة المسيحيين. وجميعهم يدرسون موضوعات من الإنجيل والقرآن ، ويتناقشون فى جوانب من المسيحية والإسلام. فالجانبان



يهود الميمونة ، جاءوا من شمال افريقيا

يشعران أنهما أقرب إلى أحدهما الآخر خاصة بعد أن أحالهم الاحتلال الاسرائيلى إلى مواطنين من الدرجة الثانية. وهذا ما يجعل رئيس الجامعة، وهو قس من أصل أمريكى، يشعر بعقدة الذنب نتيجة دعم أمريكا لإسرائيل وتفرقتها العنصرية بين كل من هو أوربى وكل من هو عربى.

القدس الشرقية العربية

تقف مدينة القدس القديمة واحدة من المدن القليلة الباقية التى يحيط بها سور احاطة كاملة. وتقع الجدران جزئيا على

١٠ أساسات من ميدان هيدريان الذى بنى فى ١٣٥ ميلادية، وتضم بقايا جدران أقدم، الجدران التى بناها هيرود فى ٣٥ ق. م، وأجريبا فى ٤١م وصلاح الدين فى ١١٨٦. وقد أعاد السلطان عثمان بناءها فى القرن السادس عشر. وقد عاش أهل البلد داخل هذه الأسوار ـ سنين طوالا لم يتركوا خلالها فلسطين أبدا. ويستطيع البعض منهم تعقب أسلافه حتى الجد العاشر. كما عاش بعضهم فى نفس البيت ثلاثمائة سنة. ويرجع تاريخ القدس القديمة إلى أيام السيد المسيح، فى حين أن القدس الغربية يرجع تاريخها إلى مائة سنة فقط. والوافدون الجدد الذين يبنون ناطحات سحاب تحيط بالمدينة القديمة ليسوا ساميين بل غربيين جاءوا من أوربا وأمريكا ولايقدرون الأماكن المقدسة.

تتخلل هذه الجدران بوابات. فهناك بوابة دمشق التى بناها السلطان سليمان فى ١٥٣٧ مدخلا رئيسيا لقلعته بارتفاع بيت من أربعة طوابق لا تكاد تدانى ناطحات السحاب ضخامة. لكن أجنحتها وأبراجها وبرجها الهائل يبعث الاحساس بالقوة والجمال والقدرة على التحمل. وهى أجمل من أى بناء جديد فى القدس. وهناك بوابة يافا التى يسميها العرب "بوابة الخليل" وقد حفر عليها "لا إله إلا الله ابراهيم خليل الله". إلى جانب هاتين البوابتين هناك بوابات كثيرة بعضها مسيحى وبعضها يهودى مثل بوابة القديس ستيفن والبوابة الذهبية. وكل هذه البوابات التى تؤدى إلى المدينة القديمة بوابات صغيرة. وكل ما بالمدينة صغير منمنم. هنا عالم وضع داخل اطار. وهى تمثل كل البشرية كما تمثل فهما واحدا لإله واحد.

داخل المدينة القديمة شبكة من الأزقة الضيقة. وهناك سوق قديم تعلوه عقود تحمى من الشمس والمطر. كان السوق الرئيسى فى القدس لمدة ألفى عام. وفى هذه الأزقة المزدحمة يجتمع الباعة والمشترون والحجاج والعرب والرهبان الفرنسيكان والقسس الأرثوذكسيون والمشايخ المسلمون واليهود والارثوذكس والجنود الاسرائيليون المدججون بالسلاح وفتيات المدارس والشحاذون ورجال الشرطة العرب والنساء العربيات المحجبات.

والشعور الذى يسود بين الفلسطيتيين هنا هو أنه لكى يقيم يهود أوربا دولة لهم على أرض كانت للعرب لآلاف السنين فإنهم شقوا فلسطين والقدس بسكين وأعطوا

الجزء الغربي لليهود والشرقي للعرب بما في ذلك المدينة القديمة المسورة. والمثقفون منهم الذين نالوا قسطا وافرا من التعليم في جامعات انجلترا ينعون على الغرب أنه لا يدرك أن العرب هم الذين اكتشفوا إرث الثقافة الاغريقية وقدموه له، وأنه لا يدرك أنهم تعلموا من العرب علم المثلثات والفلك والجبر والأرقام وخطوط الطول وخطوط العرض وغير ذلك .

والجيل القديم منهم يعى أنه في ١٩٠٥ لم يكن في فلسطين سوى خمسين ألفا من اليهود السفارديم وأن العلاقات معهم كانت طيبة. ولم يكن المسلمون يكنون لهم كراهية أو يمارسون التمييز العرقي، وأنهم لم يكونوا يعترضون على مجئ اليهود الأوربيين الأول إلى فلسطين ولا يرون فيهم تهديدا لحياتهم وممتلكاتهم. غير أن الصهاينة الذين عقدوا مؤتمر بازل في ١٨٩٧ كانوا مستعمرين أوربيين يهدفون إلى الاستيلاء على فلسطين كلها وأن يطردوا العرب منها. وهم يدركون كل تاريخ الحركة الصهيونية بدءا من وعد بلفور في ١٩١٧ إلى جهود الوكالة اليهودية في تهجير اليهود إلى الأرض العربية، وهم من لم يكونوا أبدا من سكان فلسطين، بتمويل من الولايات المتحدة وانجلترا وجنوب أفريقيا. ولاتزال كل البشاعات والإرهاب الذى اقترفه اليهود ضدهم تعيش في وجدانهم واضطهادهم لمن يعارض استيلاءهم على بيته وأرضه، وتحكمهم في التليفونات والطرق والمياه وكافة الخدمات والكهرباء والسياحة. فاليهود في نهاية الأمر يريدونها دولة يهودية خالصة يفرضون فيها على العرب كل الضرائب ولا يؤدون لهم الخدمات.

والبطاقة الشخصية للفلسطيني لا تحمل كلمة فلسطيني أو عربي بل "غير يهودى" كما تحمل ملاحظة تقول "هذه البطاقة الشخصية لا تمثل أى اثبات فيما يتعلق بقانون الدخول إلى اسرائيل". وهذا يعني أن أى شخص يغادر القدس أو الضفة الغربية لا يسمح له بالعودة. لكن الأمر لا يخلو من أن هناك بين اليهود من يفهم أنه ليس هناك شخص واحد يحاول أن يكون منصفا وأن يتجرد وأن ينزع عن عينيه العصابة . ومن يدرك أن هناك حاجة إلى السلام بين العرب واليهود، وإن كان هؤلاء لا يخلون أيضا من الاحساس بأنهم الجنس الحاكم.

الفلسطينيون في الضفة الغربية

يشكل قطاع غزة والضفة ربع مساحة أرض فلسطين التاريخية ويسكنهما ١,٢ مليون عربي: ٤٠٠,٠٠٠ في قطاع غزة والباقي في الضفة. وداخل اسرائيل يعيش نصف مليون عربي. وفي المنفى، في الأردن ولبنان وسوريا والولايات المتحدة ودول أخرى، يعيش منهم ١,٥ مليون. وبالضفة الغربية ٢٥ بلدية، وبغزة بلدية واحدة. وقد كان القطاعان أرضا زراعية. لكن نمو مدن مثل نابلس يعني أن الناس يحتاجون إلى خدمات أكثر. وهم لا يملكون موارد مثل الفحم والزيت والصناعات، في حين تقيد السلطات الاسرائيلية أيديهم. هذا بالاضافة إلى حرمان الشباب الفلسطيني من فرص التدريب التعليمي والمهني واغلاق بعض المدارس الثانوية ومراكز تدريب المعلمات. ومعظم من يتعلمون يرغمون على العمل بالخارج في السعودية وليبيا ودول عربية أخرى رغم أن جوهر الفلسطيني هو رفضه لفكرة النفي.

والفلسطينيون في الضفة الغربية محرومون من فرص محاولة تنمية منطقتهم اقتصاديا ومن الحصول على مساعدات من الأمم المتحدة. فرغم أن الأمم المتحدة أصدرت أمرا لبرنامج التنمية التابع لها بزيارة الضفة والقطاع ووضع مشروعات محددة لتحسين الظروف الاقتصادية إلا أن اسرائيل لم تسمح لفريق البرنامج بالدخول. وهكذا يفتقد الفلسطينيون التخطيط والبحث الاجتماعي والاقتصادي في ميادين الصحة والتعليم والزراعة والصناعة والتجارة والنقل والاسكان والمؤسسات الاجتماعية.

ومن الناحية الأخرى أصبحت الضفة سوقا للمنتجات الإسرائيلية مما يمثل سيطرة اقتصادية واستعمارية واستقلالا بحيث أصبحت الضفة والقطاع ثاني أكبر سوق للإسرائيليين بعد الولايات المتحدة. وهم لا يسمحون للفلسطينيين باستيراد مولدات الكهرباء اللازمة لأي نمو اقتصادي. واحتلالهم للضفة لا يرجع في الحقيقة إلى أي أسباب عسكرية أو دينية بقدر ما يرجع إلى رغبتهم في التحكم في مصادر المياه النهرية والجوفية لتغذية المستوطنات فهم يأخذون ٨٠٪ من مياه الضفة، ولا يسمحون للفلسطينيين بحفر آبار للري أو للشرب وهو ما يعني أن الفلسطينيين يفقدون ٨٠٪ من محاصيلهم.

معسكر اللاجئين في الضفة الغربية

الدخول إلى معسكر اللاجئين يشبه الدخول إلى حي سكني في القرون الوسطى بحاراته الضيقة وبيوته التي تتكون من غرفة أو غرفتين يتساند بعضها على البعض الآخر. وهو بلا طرقات أو أرصفة أو حدائق أو أشجار أو زهور أو دكاكين. يسكنه أناس مشتتون بلا دولة مثل اليهود قبلهم فى شتات مأساوى. وداخل هذه البيوت لن تجد إلا أرضا خرسانية وبطاطين مكومة لصق الجدران لتكون أسرة. أما دورات المياه فلا تعدو أن تكون حفرا فى الأرض. هى بيوت بلا وسيلة راحة واحدة.

والأمم المتحدة تمد المعسكرات باحتياجاتها الأساسية مثل المستوصفات والتعليم. لكن أحدا لم يساعد اللاجئين على العيش فى مساحة أكبر أو العيش حياة أفضل. فالأمريكيون يدفعون خمسمائة وثمانية وعشرين دولارا لكل واحد من الاسرائيليين كل عام فى حين يدفعون ثلاثة دولارات فقط لكل فلسطينى .

والحياة مع اللاجئين تدهشك بفقرهم، وأيضا بإرادة الحياة منهم تحت وطأة كونهم قوما بلا حزب سياسى أو حكومة أو أرض أو هوية أو أى أمل فى الغد. وتجمعهم كلهم التجربة المشتركة. ومن كل الأنحاء ترتفع أصوات الراديو والأصوات العالية وبكاء الأطفال. وقد يمتلك قليل منهم أجهزة تليفزيون يشاهدون فيها أفلام هوليوود وبيوتا فاخرة ذات سجاد ودورات مياه ومطابخ ومقومات الحياة الرخية التى يفتقدونها، وفى هذا العالم لم تغادر النساء أبدا بيوتهن لثلاثة أجيال. ومن يعمل منهن خارج المعسكر لهن مجرد "حرية" العمل فى المصانع الاسرائيلية. وفى البيوت لا تعمل النساء إلا فى تنظيف المكان الضيق، وحياكة الملابس واعداد أقراص العجين التى ترسل لكى تخبز فى دكان ضيق مظلم له سقف واطئ. والغرفة يملؤها الدخان وتبدو مثل زنزانة. فى هذه الغرفة يعمل الخباز ١٤ ساعة ويخبز ألف رغيف يوميا . فالمعسكر قد أنتج جيلا بعد جيل من أناس وقعوا فى مصيدة.

ورغم هذا فإن الأطفال حريصون على التعليم للخروج من هذا الجيتو والبحث عن عمل. وبالمعسكر أربع وتسعون مدرسة لتعليم خمسة وثلاثين ألف طفل يتولى أمرها وكالة غوث وتشغيل اللاجئين. لكن الفصول مكدسة بالأطفال. فلم تسمح

السلطات الإسرائيلية بعد حرب ٦٧ باقامة مدارس أخرى. ولهذا تلجأ المدارس إلى نظام الفترتين الدراسيتين وتفرض السلطات الاسرائيلية رقابة على الكتب المدرسية. و ٩٠٪ من مصادر هذه المدارس يأتى من المساهمات التطوعية من الحكومات، وتوفر الأمم المتحدة الـ ١٠٪ الباقية.

وطلبة وطالبات المدارس الثانوية أشد الناس وعيا سياسيا فى الضفة الغربية. فهم الذين ينظمون المظاهرات والاحتجاجات. كان شعار واحدة من المظاهرات فى فناء مدرسة: "نحن فلسطينيون. يجب أن نكون أحراراً". فقفز عليها ستة رجال مسلحين من المتدينين المتعصبين وطاردوها فى فناء المدرسة وأطلقوا الأعيرة النارية على الطلبة والطالبات فى الفصول، وطاردوهم إلى معسكر اللاجئين وهم يلقون بالحجارة على الناس والأطفال خارج البيوت ثم تبعهم العسكر الاسرائيليون برشاشاتهم واعتقلوا الطالبات وحبسوهن يومين فى السجن.

وفى معسكرات اللاجئين بالضفة لا يوجد سوى ٢٩٣ سريرا بالمستشفيات. سرير لكل ألف لاجئ، وطبيب لكل عشرة آلاف. ورغم ندرة مقومات الحياة فى المعسكرات الا أن العائلات تستمر من خلال انجاب الأطفال، تماما مثلما لم يؤثر الشتات على أسر اليهود.

و بعـــد .....

لقد كانت الأرض المقدسة دائما جزءا ضئيلا من انفساحة الكون، لكنها أثرت فى حياة ملايين البشر. فمنها أعطانا الزراع والرعاة والصيادون الضوء الذى أعطى شعائر ترتبط برؤى الأخوة والسلام. وقد قدس بلايين البشر هذه الأرض بحيث أصبحت رمزا لا مجرد مكان. لكن هناك الجشع والقنابل والرشاشات تحارب أدنأ المعارك على هذه الأرض.

حين عشت مع أفراد الديانات الثلاث وجدت تشابها مدهشا بينها جاء بها أناس من أصل سامى. كلها أديان تؤمن بإله واحد. وكل منهما له كتاب موحى ولديها إيمان بأن يعامل المرء الآخرين كما يجب أن يعامل هو نفسه.

والرغبة التى تجمع الجميع فى الوصول إلى الله تؤدى إلى كونية توفر لنا مؤشرات إلى أن البشر لابد أن يعيشوا فى سلام. ولعل النجمة التى رأيتها فوق بيت لحم تلهم القادة أن يعانق أحدهم الآخر بثقة وإيمان يقولان إننا بشر.

رواية سحر خليفة

الصبار

نبوءة ومفارقة !!

بقلم : فوزية مهران

«سحر خليفة» كاتبة متميزة ومتفوقة تخلق أعمالا مجاهدة وتضيف ثراء جديدا إلى فن الرواية العربية ، تتبع أسلوبا مشوقا وفريدا فى السرد ينطوى على عمق ورؤية موضوعية وواقعية .. ونظرة تحليلية ناقدة ممتدة إلى المستقبل .

تمثل روايتها «الصبار» ومن بعدها «عباد الشمس» لوحة نادرة وفسيحة مثل «الجيرونكا» تصور الحياة داخل مدينة أسيرة تحوى صورا ومواقف وأحداثا .. لحظات إنسانية ودرامية .. شخصيات صامدة .. ساخرة ويائسة .. تغلى بالغضب أو «تطاطئ» للحياة، وأخرى تصبح «مجرد حلقة فى سلسلة القضية» .

تسجل حركة المجتمع كله .. صدى الحرب والاحتلال والفكر الذى يخلق ثورة ويفجر قوى الابداع والمناورة .

تقيم رواية «حياة متفردة» نبوءة وتنحت مفارقة ماثلة .

أحداث من تراجيديا دائرة .. مواقف من حياة كل يوم لعمال وفلاحين .. شبان



الكاتبة مع سحر خليفة مؤلفة «الصبار»

ونساء ومثقفين داخل الأرض والجرح الفلسطيني . مشاهد فنية تتابع وتتداعى ويفضى بعضها لبعض تحوى تفاصيل دقيقة لاتقدر عليها إلاّ كاتبة مرهفة الحس . عميقة التجربة تشتعل حبا وعشقا للحرية والحياة العادلة .

زوايا اللوحة تضم تصويراً دقيقا .. لقطات تظل بأعيننا وتطبع فى ذاكرتنا . كان الدرس الأول الذى تعلمه البطل عند عودته إلى مدينة نابلس - بعد جولة له فى بلاد النفط وأمة العرب .

كان الدرس صاعقا وبيّنا ..

- يغلى من الغضب . المهانة التى يشعر بها الإنسان وهو يطرق أبواب الوطن .. الغرباء هم الذين يستجوبونه ويفتشون داخل عقله وجسده وحقيبته ..

يسأل الجندى البولندى أصفر الشارب والعينين من أين جاء ولماذا وكيف ولم ..؟

يسأله عن بلدته «شخيم» ويصر أن يجيب عن «نابلس» حيث تقيم أمه بعد موت والده وتحاول «أن تلم الشمل» .

وفى دوامة التحقيق والتفتيش والأسئلة تسمع صرخات فتاة من إحدى غرف التحقيق تسبهم - كأنها موسيقى تصويرية للموقف التعس ..

يكاد ينفجر .. وتقول له سيدة عجوز «اهدأ» .

«كيف يهدأ القلب الموجع» ؟

- لكنك سمعتها تصيح ..

ثم تقول : أترى هذه الأرض الجديبة ؟

«كانت بياراتها تمتد حتى الجبل» أحرقوها «حاولوا انتزاع البصمات» بصمات أقدام تمشى وكانت الأشجار تمشى .. أتعرف زرقاء اليمامة ؟

هل فهمت ؟ ماعادت الأشجار تمشى لكن البصمات بقيت فالأرض الجديبة ليست جديبة «افهم أو لاتفهم أنت حر - ولكن دع فمك مغلقا واترك بصمة مكان وقوفك أو قعودك .. »

● هو درس العودة الأول والنضال .. ألا ندور بدوامة الكلمات وألا نتعاطى الكلام.

المهم أن نصنع شيئا .. أن نعمل عملا .. أن نحقق شيئا بحياتنا وأن نترك من بعدنا أثرا .

(ربما من أجل هذا كان اسم الرواية «الصبار» .. مثل تلك العجوز الصلبة .. ولأنها عن ناس يعانون ويعانقون الصبر والصمت .. وينزفون ألما ويتحدون ويستمرون فى المواجهة .)

وتفتح الكاتبة ساحة مدينتها نابلس :

«لاشىء تغير فى هذه المدينة .. الدوار مازال مكانه .. الأزهار نمت واستطالت . المصبنة مازالت مكانها .. رائحة الجفت والرطوبة ..

الأعيان يناقشون ولايفعلون .. بقية الخلق على الرصيف يفعلون ولايناقشون ولاشىء تغير وفريد الأطرش مازال ينعى يوم مولده ..»

تتساءل على لسان بطلها «احتلال هو أم انحلال»

● مجتمع بلا قلب ●

منذ البداية ومن خلال اللقطات السريعة والأحداث الصغيرة تشعر أنك داخل مجتمع بلا قلب .. المرأة تبكى أمام نافذة الجمرك وأبو صابر تلتهم الآلة أصابعه ولاتتحرك عربة الاسعاف - لأنه لم يشترك بالتأمين - اللقطة الساخرة حقا وهو فى شبه غيبوبة يطلب أن يسمع بعض الحكايات المسلية مثل أبو زيد الهلالى - على الأقل يرحل الإنسان أو يغمض عينيه على حلم البطولة والشجاعة والقدرة على المواجهة .

المفاجأة التى قصمت ظهر «أسامة الكرمى» الفتى العائد أنه يجد «عادل» ابن خاله وصديقه ومعلمه قد ترك العمل فى الأرض وذهب إلى مصانع اسرائيل - إخوانه بالمعتقلات وهو يدعم اقتصاد اسرائيل - !

- مفارقة مرعبة -

سنرى كيف طورتها سحر خليفة وكيف واصلت نموها الواقعى والدرامى حتى لتظل المفارقة فاغرة فاهها حتى يومنا الحاضر . حل مشكلة التناقض هذه هى عصب الصراع فى السرد الروائى .. فى الواقع .. بين الشخصيات .. وعلى مائدة مفاوضات السلام ربما تجلى فى السرد

الروائى الصدق التاريخى والصدق الواقعى وارتفعا لذرى الصدق الفنى .

يمر أسامة بالأخ الأصغر «باسل» وأصدقائه يجد فيهم الأمل . «يناقشون» قضايا ما كانت تخطر ببال الشبيبة قبل «الاحتلال» .

يقولون «يرهقونا فى دراسات عقيمة والأهل يطالبونا بالحصول على أعلى المعدلات لنصبح أطباء ومهندسين – وعندما نصبح كذلك يطالبونا بتسديد نفقات دراساتنا ونقبض راتبا تافها فى بلدنا – والحل هو الغربة !

(أليس هذا مايدور فى ربوع الوطن – الحل هو الغربة – نصير مشردين داخل أوطاننا أو منفيين ومبعثرين وأشتاتا) .

وهكذا اتسعت صورها لتشمل الجميع وتحيط بالأمة العربية كلها ومع ذلك فهذا الجيل الجديد هو الأمل .

(إنهم البراعم والأشجار الجديدة التى تمشى على الأرض الجديبة وزرقاء اليمامة ضمن صفوفهم .. الرؤية الممتدة المبصرة إلى آفاق المستقبل والتى تترك أثرا على الأرض .. بصمات وعلامة .)

وجيل الأمهات الصابرة . مثل «الصبارة» الجافة المعتقة تحيا بأقل القليل لكنها تهب الحياة والمعنى لاتزال تواصل العطاء

● صراع مرير ! ●

«أسامة الكرمى» كان فى حاجة ليؤكد لنفسه عظم المهمة التى جاء من أجلها ! – وهى نسف الباصات التى تحمل العمال إلى مناطق عملهم فى المصانع الاسرائيلية .

«على العمال أن يكفوا عن القيام بدورهم المشئوم »

وجود «عادل» بينهم – آخر ما كان يتوقعه – جعله فى صراع مرير .. أحيانا يركن للتبرير لنفسه – «عادل واحد من عشرات أو مئات . احتمال إصابته هو جزء من عملية التضحية الكبرى» .

و«الخدمات التى قدمها لأمه أثناء غيابه فهى واجب ممكن تسديد حسابه مع الزمن حتى لو انتهى العمر فلن تموت الأم جوعا– حتى لو مات عادل ومات الخال الرفاق فى الخارج سيدعمون الموقف»

تذكر بائع الخبز الذى زجره أحدهم لبيعه الخبز الاسرائيلى «وكمان الخبز له دين .. وملة ؟»

«نزلت اشتغل هناك قلتوا عيب .. قعدت فى الدار مثل النسوان قلتوا عيب .. بعت الخبز قلتوا عيب .. وأنت ياأستاذ تلبس بنطلون على الموضة وقميص مكوى وتقول لى عيب ؟»

تنهد أسامة الكرمى .. انتابه إحساس بالغربة والعجز .. «عادل يقول للصورة أكثر من بعد .. ليس هناك إلاّ بعد واحد ..

واقع الهزيمة والاحتلال .. وهذا الشعب يهزمنى أكثر .. والفتيان علينا أن ننتظر حتى يكبروا .. ومن يدرينا أنهم لن يتحولوا إلى عادل جديد ؟ ولكن لن تغوص البلد سيظل فيها أناس يؤمنون بالمستحيل »

كان يستدعى الصور التى تدعم قراره وتدفعه لتنفيذ المهمة !

ويقول : «ماذا يريد هؤلاء الرجال ؟ أن يعيشوا فى رفاهية فى ظل الاحتلال ! أهذا هو مفهوم الوطنية والقومية لديهم ؟

وفجأة تذكر النظرة الحزينة فى عينى طفلة تلعب بجانب صفيحة زبالة .. عيون تدينه وتقلقه وتنفذ داخله .. تؤرقه .

وترسم سحر خليفة الصورة باقتدار «اهتز قلبه بجزع وهو يفكر بأن العينين ماكانتا عينى طفلة وأن النظرة كانت تحفر رأسه وتقرأ أفكاره التى تهدد والدها وأمثاله..»

● تناقض ! ●

الصورة تبرزها الكاتبة من الداخل .. أولئك الذين يعانون ويتعرضون للاختناق والضغط المستمر لكى يخدموا أو يموتوا أو يرحلوا .. وأولئك الذين يأتون من الخارج ويقولون إنهم يؤدون مهمات محددة ويقدمون على تضحيات كبيرة يلتزمون بها ..

ويبدو التناقض واضحا .. ومنطق التبرير والتهويل .. تبتكر الكاتبة عبارات قصيرة وجمل نافذة وتكررها كثيرا .. بعضها تؤكد به معنى والآخر ترمى به للمناورة والاحتماء بحضن الكلمات .. وأحيانا كنوع من الموسيقى التصويرية تخفف به من وقع المأساة وتدخل عنصر الطرافة والراحة من كثرة التوتر والقلق ..

من هذا العبارات الموحية «لم الشمل» ظل يكررها البطل وهم يحققون معه فى المنفذ أو الجمرك ..

– لماذا جئت ؟

– أمى تريد لم الشمل

● خبرة فائقة ●

سحر خليفة لها لقطات أنثوية حميمة وكاشفة .. لاتتأتى إلاّ إلى فنانة دقيقة الملاحظة متوهجة الحس خبيرة بنفسية المرأة .

– زوجة عم صابر عندما كانت تندب حظها وتتمنى لو قطعت يدها اليمنى بدلا عن زوجها تنظر إلى أساورها الذهبية وتزيد من حرقة البكاء لأنها تعرف أنها ستبيعها بلا شك فى نوبة الشقاء المقبلة .

ولها تعبيرات وجمل منغمة تنثرها بين حنايا العمل وفى مواقعها تماما داخل النسيج العام .. تصبح أشد تأثيرا ونفاذا .. «مشى الرجال فى الطرق الجبلية يعرفونها كما يعرفون دروب حياتهم»

«الرجال يرقبون البناء المحتضر بأعين حزين» و «بيوت يحكم عليها بالاعدام » «ياصبر أيوب هل علينا الانتظار حتى يكبر

الأطفال ؟»

ويهتف أسامة لنفسه بأغلظ الهتافات «جيفارا لم يمت .. وفلسطين فى القلب يانيرودا .. فى بؤبؤ العين ولب الحياة» ..

ثم تعود لواقعية الحوار والحديث والسخرية الكامنة والأسى المتصاعد .. يسألون الوافد عن الأحوال - هل هناك حرب أم لا ؟

وتجيء الإجابة : الاعتماد على الناس الموجودين بالداخل «آلاف البيوت نسفت .. والقرى .. والمعتقلات مليئة بالشباب واحنا بطولنا وعرضنا رحنا نشتغل معهم - وتقول الاعتماد على الناس اللى جوه ؟».

وتدير الصراع داخل بطلها وعلى الساحة باقتدار ..

- يكتشف العمال أنه لايريد أن يسمع منهم المزيد ويكرر كل ماحفظه من شعارات يردد خطب وأحكام وبيانات .. العواطف مرفوضة فى أحوال كهذه .. ولا أهمية للفرد فى سبيل المجموع - وأن عليه أن يقوم بالمهمة مهما كانت التضحيات - ويومض على الجانب الآخر ما يلاقيه فى الداخل من عنت وقهر حتى اضطروا للعمل وليست الفرصة متاحة للجميع للهجرة أو نفى أنفسهم - والمعاملة فى الدول العربية ليست أفضل بكثير .

ومن المؤسف حقا أن تصدر عليهم من الخارج أحكام الإدانة وضرورة التنفيذ .

وتجيء النبوءة ●

تقع حادثة ويطول وقت منع التجوال .. ويزهق الأطفال وانطلقوا إلى الأزقة وداروا خلف البنايات .. رأوا الجنود فى عرباتهم ومركباتهم المجنزرة .. وعنّ لهم مشاغبتهم . يرمون بالحجارة هنا وهناك وينطلق الرصاص ..

كانت لعبة صغار .. وانقلبت جدا ..

نبوءة بين طيات الرواية .. ومن خلال رصد حقيقى للواقع - قبل ثورة الحجارة يتحمس الشباب .. يهتفون .. يأخذونهم إلى المعتقلات ..

- رغم التعذيب تعد مدارس للشعب فى التثقيف والتربية .

عادت المفارقة حادة ومضنية - «السجن للصبيان والرجال يأخذون الباصات لاستكمال بناء الدولة»

باسل يلقب فى المعتقل بأبى العز وإهداء الرواية إليه وكل «أبو العز» وللفكرة أن المستقبل لهؤلاء الشبان .

عادل كان يفكر بحكمة واتزان عندما ينال أبو صابر حقه فى التعويض مهما كلفه الأمر جهد ومال .. إن ذلك يدفعهم إلى نسق جديد من التفكير والعمل .. ومحاولة التعايش مع الواقع .

«نتعلم كيف تصبح أسيادا لاضحايا»

- ورغم كل هذه المهادنة ومحاولة التحلى بالصبر والعقل .. يفلت الزمام لحظة

وينفجر الموقف ..

عندما حاول أن يفض معركة بين العمال تلقى لكمة اهتز لها كيانه «وعندما تهتز الأرض من تحتك فكل شيء على ظهر الكرة يموج . وقد كررت سحر خليفة هذه العبارة فى مواقف مشابهة - ولم يلبث أن تلقى صفعة على خده الأيسر .. فثار وارتج «لست المسيح وحق الإله» . ونسى كل شيء عن الظلم المشترك والسلام الموعود وأحلام الإخاء وحقوق العمل ، واهتزت قبضته بعنف .

● دعابة وسخرية ! ●

سحر خليفة تتمنع على الحوار الممتع الذكى .. تجعله صادقا متدفقا مليئا بروح الدعابة والسخرية - يقول باسل : «أسامة ليس طريد العدالة لسبب بسيط ليس هناك عدالة على الاطلاق .»

وعندما يصل أحدهم من المعتقل إلى منزله تكون زوجته بالحمام يقول «عن الجسد الساخن المبلل بالماء - شواطىء الأمان اليتيمة فى بلد محتل»

والشخصيات لديها من لحم ودم .. نكاد نعرفهم ونسميهم بأسمائهم وتحيطهم بالمواقف وتكشف عن عمق مشاعرهم وردود أفعالهم .

جسدت صورة المعتقل وعشنا داخله وامتدت خيوط المأساة .. وملامح الأمل وروح المشاركة .

بكينا مع الأخ السورى الذى لم يحضر ولادة ابنه ومرت خمس سنوات ولم يره ذوبتنا دموع الكبرياء التى يحاول أن يخفيها لحظة اللقاء مع ابنه وزوجته وفاضت الدموع حتى شملت جنود الحراسة وأعين السجانين ..

وماذا عن النساء ؟

تنظر للمرأة على أنها أساس المجتمع تعانى معه وتتقدم من خلاله وتتضاعف عليها المهام والهموم . قضية المرأة جزء أساسى من قضية الوطن ..

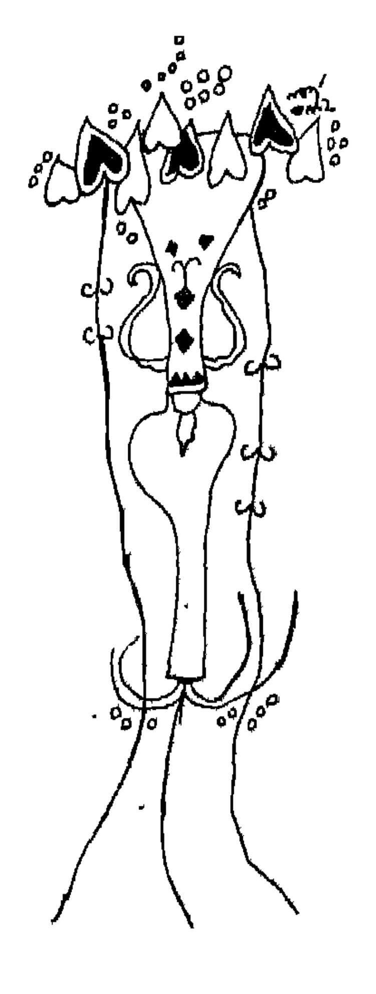
الصبارة القديمة الشائكة .. المرأة التى تقدم التضحيات .. تبدو مسالمة تقول «يحلها الحلال» .. لكن عندما يستجوبها جنود الاحتلال تصبح متنمرة وعسيرة .. يفرون من أمامها ..

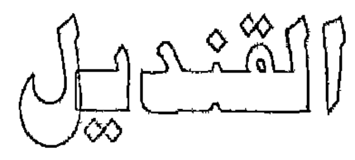
«هــل رأيت شـعبا يقابل الألم بزغرودة ؟..

هذه الصبارة الشائكة ترعى الثورة وتضمها بحضنها والشباب يكبر وينضج - يعتاد الدخول والخروج - من وإلى المعتقل - مثل زهور عباد الشمس .

يتجه إلى شمس الحرية .. ومشرق العدل .

- و«عباد الشمس» هى الجزء الثانى لهذه الرواية القيمة «الصبار» .





شعر :

د . حسين على محمد

القنديل

شعر : د . حسين على محمد

وعَدْتنى تجىءْ
كىْ يبْرأَ العليلْ
وتحملُ القنديلْ
وتطردَ الأحزانَ والظّلامْ
وقُلْتَ لى عن حُلْمك الخبىءْ
وعاصفِ البروقِ والأحلاَمْ

★★★

ومرّ نحو عامْ
فهل تجىءُ لى غداً
كى يبسمَ النهارْ
وتشرقُ الوجوهُ فى صفاءْ
وننشدُ الأشعارْ

★★★

أظلّ أنتظرْ
كىْ أنتشى بصوتِك الشجىّ
ودهشة اللقاء
قبل الرحلة الخَضراءِ للغدِ السخىّ
فهلْ أظلّ أزرعُ الأحلاَمْ
وأحصدُ الأوهامْ ؟

★★★

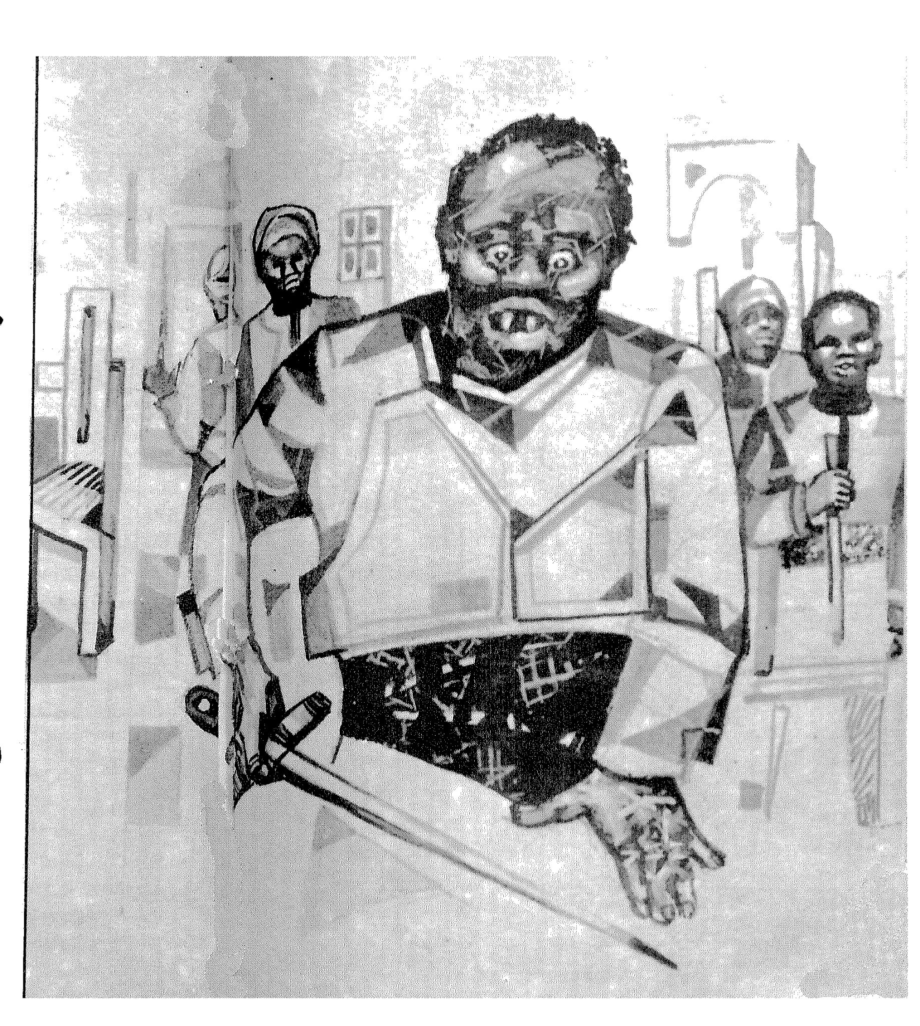
لم تدهش الأشياءْ
ولم تقلْ للعاشق القديم قد رحلت
ركبت ما استطعت من مخاطرْ
لم تخش أىّ شىء
لم تخش أىّ شىء
وها هو القنديل ينطفىءْ !

العبد الأسود

قصة قصيرة

بقلم : مصطفى نصر

بريشة : سميحة حسنين



يريد الشيخ جابر أن ينسى ذلك العبد الأسود ، سوءته فى هذه الدنيا . تفاحة آدم التى أكلها فعصى بها ربه .

وقتها لم يكن شيخا . بل لم يكن قد صلى ركعة واحدة لله .

كان يخلط الزيت بالجاز ، ويضعه فى اناء وبعصا رفيعة طويلة ، فى آخرها فرشاة ، يدهن بها مجارى الأبواب الصاج التى كثرت فى هذه الأيام ، نظير قرش أو نصف قرش .

رغم أنه لم يكن قد أسس مكتبه الزينبى وقتذاك . فإنه كان يأتى بأشياء غريبة . كانت مقدمة لتحوله ذلك التحول الكبير . فكان يشرد فى المساء . ويردد كلمات لا يدرى من أى مكان تأتيه . فهو لم يسمعها من قبل . بل لم يقرأها . لكن وحيا يأتيه بها . فيرددها .

عندما أنشأ مكتبه الزينبى ، وسمع كلمات الوعاظ فى المساجد .

وجد فيها تلك الكلمات التى كانت تأتيه مساء . فيرددها أمام أخوته (أبو الحمد وأبو الترك وزغلول) فكانوا يضحكون ، وتخفى فريدة زوجة أبو الحمد وجهها بوشاحها الأسود ، حتى لا يكتشف جابر ضحكها عليه ، فيغضب منها .

أجل ، قبل أن يؤسس مكتبه الزينبى ، كان البعض ينادونه «الشيخ جابر» ، وتحوله إلى شيخ طريقة وصاحب مكتب ، أمر منطقى وطبيعى بالنسبة لأحوال عائلته ، عائلة عوض الله .

فأبو الحمد – الأخ الأكبر – يعمل فى البلدية. أنجبت له فريدة البنات بكثرة . ليس فيهن ولد واحد . لذلك قنع الرجل بنصيبه . وجرى على لقمتهن . ما له هو والشجار الدائم الذى يدور فى الحارة أو الحوارى المجاورة .

بعد انتهاء الشجار ، يقوم بدور المصلح بين المتشاجرين .

أما أبو الترك فقد استأجر الدكان الصغير فى الشارع العمومى ، المواجه للحارة . وحوله إلى قهوة . فالنجعاوية أقاربه كثروا فى الحى ، لم يكتفوا بحارة بيت عوض الله . بل انتشروا فى الشارع العمومى وحارات غربال ، وتشتتوا فى المقاهى . بعضهم يجلس على قهوة «بكر» ، وبعضهم يجلس على قهوة أبو دومة .. جمعهم أبو الترك فى مكان واحد .

الدكان صغير ، لا يتسع للقليل . فجلسوا متراصين ، متلاصقين أمام الدكان وحوله . ومقاعد خوص ودكك الواحدة تتسع لخمسة مرة واحدة . وأبو الترك – مثل أبى الحمد – ليس له حظ فى الشجار ، وهذا ليس عن حكمة أو اقتناع ، أنما لأن جسده لا يساعده على ذلك . فالافيون هده ومصه . فهو لا تفارقه الافيونة . حتى وهو يحمل صينية الشاى ويسير بها ، فيضعها تحت لسانه ويمصها بفمه .

الافيون رخيص ، كما أنه ليس ببعيد ، فزغلول – الأخ الأصغر له – يتاجر فيه . بل يرجع اليه الفضل فى نشر هذه التجارة فى حارة بيت عوض الله . وفى المنطقة

المجاورة لها . وليس من المعقول ان يشترى أبو الترك من أخيه الأصغر . ولو باع له أحد صبيان أخيه . فسيعملون خاطرا لمعلمهم ، ويبيعون لشقيقه بسعر أقل .

أما زغلول فغنى عن البيان والتعريف : وسامة وشباب وأناقة وعقل . يتحدث بعد ترو وتفكير .. يمتلك محلا فى الشارع العمومى ، يبيع فيه الحلوى والسجائر والخردوات والمشروبات العادية (فالخمور لا تدخل دكانه ، ولا يطيق سيرتها فهى حرام) .

كل تجار المخدرات فى غربال يشهدون له « بالمعلمة » ويدينون له بالفضل . ويقفون له عندما يهل عليهم بقفطانه الأبيض ، وبشرته السمراء . وشعر رأسه الأسود العارى ، والشارب المصفوف بعناية .. فهو لم يضبط متلبسا ببيع المخدرات مرة واحدة ، رغم طوال ممارسته لذلك .

فى كل مرة يداهمون فيها بيته أو دكانه ، لا يجدون معه شيئا . حقيقة هم يضربونه بوحشية فى مكتب مكافحة المخدرات ، لكنه يعود دائما بعد ساعات . أو بالكثير فى اليوم التالى .

كما أنه يختص بخاصية لا يشاركه فيها أحد من تجار المخدرات – على مستوى غربال كلها – وهى أن البوليس لم يضربه أمام أهله قط . يأخذونه بكل احترام داخل البوكس فورد . وهناك يقومون باللازم . فزغلول له معجبوه من الرجال الكبار والشباب والنساء . ولو فعل الضابط معه مثلما يفعل مع باقى تجار المخدرات، لن يخرج سالما من غربال .

يمثل أبو الحمد وأبو الترك وزغلول نوعيات مختلفة من الرجال . لكل واحد منهم شخصيته المستقلة . فكان لابد أن يكون جابرا نوعا آخر غيرهم . وربما أرسل الله ذلك العبد الأسود ، لكى يظهر نور جابر وتتبلور وتتحدد هويته . وتصبح مكانته فوق زغلول وأبو الترك ، وربما فوق أبو الحمد – نفسه – (مؤسس أسرة عوض الله فى الإسكندرية) .

كيف تكونت غربال

السكان كانوا قلة . أراض زراعية مهملة . وبواقى سواقى كانت تدور وتملأ الأرض بمائها . ورجل غنى يمتلك الأرض ، أراد ان يحولها إلى أراض سكنية . فباعها مقسمة .

الأرض رخيصة . المتر بأربعة صاغ . ويصبر على المشترين فى السداد . والصعايدة تضيق بهم الأرض فى بلادهم ، خاصة فى قرية (أ) التى خرج منها شيخ الإسلام ، وابنه الوزير . فاذا ما غضب الحزب الحاكم أو الملك على واحد منهما . اتخذ موقفا من القرية وأهلها : يعاندونهم



العبد الأسود

فى كل شئ . يشحنون شبابهم إلى الجيش ، بصرف النظر عن السن أو اللياقة البدنية . حتى موتاهم يتركونها باليوم والاثنين عرضة للتعفن دون أمر دفن . فيهرب الناس منها إلى المدن ، يحلمون فى لبس القميص والبنطلون . والاتجار فى كل شئ .

استقبلتهم غربال بأرضها الرخيصة . بجنيهات قليلة يمتلكون الأرض . والبناء سهل . وإذا ما تعذر البناء ، يقيمون فوق الأرض أكواخا من صفيح .

لكن بعد مسافة ليست بالقصيرة توجد منطقة قريبة من شارع محسن باشا والاسكندرانى . بيوتها بيوت حقيقية عالية ، يصل بعضها لخامس دور ، أو سادس دور .

من هذه المنطقة ، ومن شارع شجرة الدر بالذات ، جاء ذلك العبد الأسود حاملا سيفه . ومرتديا قماشته الخضراء حول وسطه . وخلفه العديد من الشبان السود الذين يحملون المطاوى والخناجر والشوم.

قبل أن يجئ بقليل نهقت حمير الزبالين المربوطة فى عربات الزبالة أمام بيوتهم . وحاولت الافلات من الحبال ، واستطاع بعضها - بالفعل - أن يقطع الحبل ويهرب . ثم دارت حول الحارة حائرة، غير قادرة على الخروج إلى الشارع العمومى الذى يسير العبد الأسود فيه . ونبحت كلاب الحى جميعا ، مما جعل كل الناس يدهشون لما حدث.

لاحظوا ان هذه الحالة تنتاب الحمير والكلاب دائما قبل هجوم ذلك العبد الأسود على غربال .

دخل العبد وسط غربال وخلفه اتباعه . كانوا أقل حجما منه بكثير . منظره مروع ، جسد عملاق .. تصل قامته لحافة النوافذ والشرفات . وصلعته كبيرة تشبه القبة . بها ندبات غائرة لاثار جروح قديمة . وشفتان كبيرتان ، وعينان تطقان شررا .

الكل خاف منه ، خاصة أنهم قد وفدوا حديثا من قرية (أ) بالصعيد المليئة بالعفاريت.

رمى العبد الأسود عربات الخضار والفاكهة .. وضرب رجاله الحمير

التى لم تستطع الافلات من حبالها ودفعوا الأبواب المغلقة فى اســتخفاف . والعبد الأسود - العملاق - يسير مترنحا من أثر البوظة التى يعبها قبل كل مرة يأتى فيها . وأخذ نقودا كثيرة من الباعة ، حتى لا يقلب عرباتهم .

وسار بموكبه الرهيب حتى آخر الجبل . ومن هناك عرج إلى شارع راغب باشا ، وعاد إلى مكانه فى شــارع شجرة الدر عن طريق المحمودية.

يا للعار ، قطع غربال من أولها إلى آخرها دون ان يجرؤ مخلوق واحد على اعتراضه .

أخفت النسوة أولادها فى البيوت مرددة :

- بسم الله الرحمن الرحيم .

فلا يستطيع الهجوم على غربال بهذا الشكل سوى بسم الله الرحمن الرحيم .

فى اليوم التالى كان الحديث منصبا على العبد الأســود الذى يحــرق البيوت من حدة النار التى تطق من عينيه كالشرار، والذى حمل ذكور الحمير فوق أناثها راغبا فى أن تتم المضاجعة أمامه . وأن بعضها قد اســتجاب له وامتثل خوفا منه ورهبة .

وكان - هو وأتباعه - يشاهدون هذا ضاحكين . مقهقهيـــن حــتى أن ضحكاتهم قد هزت بيوت غربال الواهنة الضعيفة ، وبسيفه البتار كاد يقتل كل من في غربال .

بعض عمال الزبالين - الذين يبدأ عملهم عند الفجر - خافوا من السير فى الظلام ، فتخلفوا عن الذهاب إلى عملهم .

وحــكى الأطفـــــال حكايات غريبة عن ذلك المخلوق الغريب الذى ظهر فى صورة إنسان أسود كعملاق . عيناه حمراوان.

واهتم جابر - مثـــل غيـــره - بذلك العبــد . وخاف من سيرته واستعاذ بالله عدة مرات من لقائه . داعا الله بألا يعثــر به . حتى لايقلب زيته وجازه فوق رأسه ، أو يضربه بعصاه الرفيعة الطــويلة التى يدهن بهــا مجارى الأبواب الصاج .

لقــد شـــاهد جـابر العفاريت كثيرا فى قريته، قبـــل أن ينتقــل إلى الإســـكندرية . شـــاهد النخل الذى يسير نحوه ، وقت ان كان يحــرس الأرض هناك . وكان ينام على بطنه ليسهل قيامه إذا ما هاجمه اللصوص ، فالنوم على الظهر يجعل القيــام صــــعبا . لكن العفــاريت لا يهمها النوم على الظهر أو البطن .

كان يشـــعل النار ، ويهاجم النخل المتحرك ، فيتباعد .

قال زغلول شـــقيقه بهدوئه القاتل :

- أنا لا أصــدق ما تقولونه . أننا نعيش فى عمار . وليس للعفـــاريت مكان فى الإســكندرية . وذلك العبد الأسود مآ هو ســوى إنســان استخف بكم ، واستغل سذاجتكم .

كان زغـــلول مدفوعا





بما يقرأه فى الجريدة التى يشتريها كل صباح .. ويجلس أمام دكانه واضعا ساقا فوق ساق ليقرأها .

ناقشه البعض :

– لو كان إنسانا حقا، فكيف تصل قامته لحافة النوافذ والشرفات ، وكيف تخرج النار من عينيه ؟!

أصر زغلول على رأيه. وأصر الباقون على رأيهم. إلى أن حدث ما حدث من قبل . فقد نهقت الحمير معلنة العصيان . مادام أصحابها لم يحموها من ذلك العبد الأسود فى المرة السابقة .

ونبحت الكلاب ايذانا بوقوع المصيبة . واسرعت بعض النسوة فى لم أولادها من الحوارى وحبسهم .. ونادت النسوة الأخريات فى هلع :

– اطلع يا ولد . العبد الأسود زمانه جاى .

ويدخل العبد من ناحية شارع «المهدى العباسى»، يلوح بسيفه الذى بيده . ورايته الخضراء فوق جسده ، ورجاله تحته بعضهم عرايا ، أجسادهم تلمع وتنز عرقا، يلوحون بعصيهم وخناجرهم .

وصلوا إلى وسط الشارع أمام الحارة التى تسكنها نعمة السمرة الآن . وأمام قهوة أبو دومة فى الشارع العمومى، رفع العبد الأسود سيفه ليخيف الجالسين فوق القهوة . ثم رطن بلغة لم يكن الشيخ جابر يعرفها وقتذاك . لكنه الآن بعد أن منّ الله عليه بعلمه يعرف كل شئ . حتى المستور والذى يخفى عن الناس .

أسرع البعض هاربا إلى مدخل القهوة والبعض الآخر لم يمنعه من التحرك سوى كبريائه وخشيته من أن يتهم بالجبن فى الحى .

أبو دومة نفسه أخذ يندب حظه داخل قهوته . لأن عقله الزنخ لم يلهمه بغلق القهوة قبل وصول ذلك العبد الأسود . وقد أحس بقدومه حتى قبل أن يصل إلى أول الشارع العمومى .

صاح العبد الأسود بلغته غير مفهومة لهم . لكنهم أدركوا مقصده . بأن يقوموا من أماكنهم .

اقترب الشيخ جابر منه . تفحصه جيدا . شاهد أغوار عينيه عن



قرب . هما حقيقة مليئتان بالتحدى ولونهما أكثر احمرارا ، لكن معظم السود لهم عيون حمراء مثله .

قبل أن يصل الشيخ جابر إليه . نغزه العبد بالسيف في كتفه . وحاول رجل من اتباعه بأن يبعد جابر عنه . فعل هذا باستخفاف ، مما أغاظ جابر . وجعله يدفعه بعيدا عنه . لم يكن جابر يريد ان يشاجره ولا ان يعاتبه لما فعله بغربال وأهله . كل ما كان يفكر فيه وقتها هو أن يتفحصه جيدا .

حاول العبد ان يهوى بسيفه فوق جسد جابر . لكنه كان أسرع ، فهوى السيف فوق مائدة من موائد أبو دومة، فحطمها .

وأمسك جابر بمقعد ليحمي نفسه به . فالتف مساعدو العبد الأسود حوله .. لكن العبد أشار اليهم بأن يبتعدوا . فلابد ان يقتله بنفسه .

التف أهالي غربال حولهما . ومساعدو العبد يتراجعون . وقفوا أمام أهل الحي .

وأمسك جابر بمقعد محاولا ضرب العبد . بينما لوح العبد بسيفه . العبد كان ثقيلا . كما ان البوظة التى عب منها كثيرا هذه الليلة . لم تجعله متزنا . لهذا . طاشت ضربات سيفه . بينما ضربات الشيخ جابر أصابته في جانبه .

تقدم الأهالى قليلا . وتداخل مساعدو العبد الأسود وسط الناس . فهم أول مرة يرون إنسانا يتحدى معلمهم وينازله .

اتسعت الدائرة . فالكل يتباعد خشية أن يصيبه سيف العبد الأسود القوى والطائش . أو مقاعد جابر المتناثرة . وانطلقت الصرخات من النساء والعويل . فالشيخ جابر ميت لا محالة . ما لهم ومال غربال وعفاريتها . كانوا فى قرية (أ) بعيدين عن هذا كله . حتى عفاريتهم هناك كانت أقل قسوة . كل ما تفعله هو ان تخيف امرأة، أو رجل يسير بمفرده . كانت العفاريت تمازحهم دون أن تؤذيهم .

جابر هده الجرى والهرب من هجمات العبد الأسود المتلاحقة ، وخارت قواه .

يداه لم تقدر على حمل المقاعد . لو سألوه وقتها، لأقسم بأن ذلك ليس إنسانا . بل هو عبد بن عبد ومن جنس آخر غير البنى آدمين . وكل ما



يقوله زغلول - شقيقه - هراء وادعاء ، ومحاولة منه لأن يظهر في صورة المثقف الواعي .

تعثر جابر فوقع قريبا من الناس المتجمهرين ، والعبد برقت عيناه ، فمه الواسع كشف عن كهف عميق وأسنان تشبه أسنان الحمير من كبرها . لكنها تبدو أكثر بياضا ، ربما من تاثير اللون الأسود حولها .

وصرخت النسوة وتباعد الرجال ، فربما يستطيع جابر ان يهرب منه ، ويدخل وسط المجموع .. حينذاك سيصعب على العبد قتله . لكن يد العبد كانت قوية فهوى بها بسيفه ، والشيخ أيقن بأنه ميت لا محالة . قفز من مكانه ، لا يدرى كيف استطاع ان يقفز وجسده كله قد مات من الخوف والذعر ، والسيف رشق في الأرض الطينية اليابسة .

قبل ان يشد العبد الأسود سيفه ، كان الشيخ جابر قد غزه بخنجره .

لايدرى جابر حقيقة ما حدث . هل قصد القلب حقا . أم أن الخنجر قد عرف طريق القلب وحده ، لينقذه من ذلك العملاق العجيب .

لو أخطأ الخنجر القلب لكان جابر ميت الآن . فالعبد الأسود كان سيطيح بكل شئ . فليس أشد من حيوان جريح . فربما يهد البيوت جميعا .

زأر العبد أو زمجر . أو ارتعد . المهم انه هوى كجمل يتفجر . أخذ يخور والناس حوله مندهشة .

الخنجر مازال مرشوقا فوق صدره العالي . وعيناه تفحان نارا . وشفتاه العظيمتان انفرجتا حتى كشفتا عن بئر عميق واسع .

الشيخ جابر مازال مذهولاً . لم يهرب والناس أفاقت من سباتها بعد وقت ليس بالقصير ، فوجدوا اتباع العبد الأسود وسطهم يرتعدون من الخوف ، ويحاولون الهرب . فانهالوا عليهم ضرباً ، حتى دفعوهم وسط الساحة (مكان منازلة العبد الأسود وجابر) .

الاتباع يحاولون الهرب . والناس تمنعهم ، يضربونهم في وحشية . عذاب الأيام الماضية كله مثل أمام أعينهم الان . يريدون ان يستخلصوه منهم . بعضهم كان يقفز ويعض آذانهم .

أفاق الشيخ جابر . كل ما مر أمامه بعد موت العبد الأسود لم يره أو يحسه . أسرع إلى الاتباع وصاح : - اتركوهم . اتركوهم .

الناس لا تريد ، مما اضطره لأن ينام فوق بعضهم صائحا :

- أضربونى أنا لو أردتم .

ابتعد الناس عنهم وهم يلهثون. لولاه لقتلوا جميعا مع معلمهم .

دفع جابر الاتباع . والدم ينزف من وجوههم واجسادهم . أسرعوا إلى الطريق يعدون. لم يتوقفوا عن العدو الا في شارع شجرة الدر ، شارعهم.

جاء زغلول الأخ الأصغر لجابر . وهو أدرى منه بمعاملة الشرطة قال :

- أهرب ياجابر، البوليس سيأتى بعد لحظات .

لكن جابر خلع عن العبد رايته الخضراء المثقوبة بخنجره والملطخة بالدماء . ولفها حول رأسه . وانحنى وأمسك بالسيف المرشوق فى الأرض الطينية اليابسة . ودار به كأنه جن .

(مازالت الراية معه . وكذلك السيف ، يشهره إذا ما خرج إلى اتباعه . أو فى الاحتفالات الدينية التى يقيمها المكتب الزينبى) .

★★★

عندما جاءت الشرطة . قبضت على العديد من رجال الحى . منهم جابر وزغلول .

اعترف جابر بأنه القاتل . لكن الضابط صفعه فى عنف . وصاح فيه غاضبا :

- تريد ان تنقذ اخاك

كل الحى يشهد بذلك .

- أنت الابله الضعيف، تقتل عبدا بهذه القوة .

ولبس زغلول التهمة . ودخل السجن من أجلها .

يقولون إن الحكومة - بعد ان ضاقت بزغلول لفشلها فى القبض عليه متلبسا بتجارة المخدرات، وجدت فى قتل العبد الأسود فرصتها للتخلص منه وايذائه .

ويقول البعض ان تصرف جابر الذى يشبه الجنون والبله أمام الضابط ، هو الذى جعله يكذب قتله لذلك العبد العملاق ، كما ان جابر كان ضامرا ضعيفا .

وسجن زغلول رغم محاولة جابر لأن يسجن بدلا منه . فزغلول لديه زوجة ، وينفق على بيوت كثيرة فى غربال . بينما جابر تتساوى معه المعيشة فى السجن ، أو خارجه. كلها لقمة والسلام



مجمع اللغة العربية يناقش إصدار المعجم العربى

بقلم : عاطف مصطفى

عقدت الدورة التاسعة والخمسون لمجمع اللغة العربية ، وهي الدورة السنوية التى يبحث فيها أعضاء المجمع موضوعا قائما بذاته ، وكان موضوع هذه الدورة «المعجم العربي» ، وهو موضوع له أهمية خاصة ، حيث توالت على الصعيد المعجمى العربى ، معجمات كثيرة ، زاحم بعضها بعضا ، وخالف بعضها بعضا ، وفى هذا التزاحم المعجمى ، تدافع قد يؤدى إلى تصارع لايفيد منه سوى الناشرين ، كما أن فى هذا التخالف المعجمى فى المصطلحات والتعريفات بلبلة للقارئين والكاتبين.

وبلا شك فإن المجمعيين جميعا كانوا حريصين على تخصيص هذه الدورة للمعجم، خاصة فى ظل الفوضى التى تحدث والأمور متروكة لبعض المجتهدين أو المغامرين فى مجال إعداد بعض المجامع .

ومصدر هذه الفوضى كما يشير الأستاذ إبراهيم الترزى أمين عام المجمع ، أن كثيرا ممن يتخصصون فى علم أو أدب أو فقه ، يظنون بأنفسهم قدرة على التأليف المعجمى فيما تخصصوا فيه ، فيشرعون أقلامهم ترجمة عن معجمات أوربية ، ويبيحون لأنفسهم أن يضعوا بالعربية مصطلحات وتعريفات لما يترجمون ، بألفاظ وعبارات قد يبلغ من ركاكتها وفجاجتها ، أنها لا تنتمى إلى العربية إلا فى أشكال الحروف والكلمات ، ومثل هذا قد يرتكبه بعض دور النشر والهيئات ، وإن كانت هناك جهود حميدة لا تنكر لبعض واضعى المعجمات العربية ، تتسم بالصحة والدقة ، والاجتهاد السديد فى اختيار المصطلحات والتعريفات .

ولاسبيل لأن يكون للغتنا العلمية شأن بين لغات العلم العالمية ، إلا إذا اعتصمت

● دور هام للحفاظ على اللغة العربية ومحاصرة العامية

● تيسير تعليم الفصحى للناشئة وحفظ قدر كافٍ من القرآن

مصطلحاتها بحبل اصطلاح علمي واحد ، فاجتمعت على كلمة سواء وصارت عربية المنبع والمشرع .

والمعجمات العلمية التى تصدر عن مجمع اللغة العربية ، خير ما يحقق ذلك ، فمصطلحاتها وتعريفاتها قد أقرتها مؤتمرات المجمع ، الذى تتمثل فيه وحدتنا العربية ، حيث يضم أعضاء أشقاء من وطننا العربى بالإضافة إلى أعضاء من أوطان أخرى فى الشرق والغرب ، وكل ما يقرونه يظفر بشهادة ميلاد، ويكتسب شرعية الاستعمال، وحق التداول ، وبهذا تصبح مصطلحات المجمع مؤهلة لتحقيق وحدة المصطلح العلمى العربى .

تذليل صعوبات العربية

والمجمع أنشىء للوفاء بحاجات العلوم والفنون وألفاظ الحضارة المعاصرة من المصطلحات منذ إنشائه فى ديسمبر عام ١٩٣٢ ، فضلا عن أنه هيئة علمية مستقلة لها شخصية اعتبارية ، وهو يخدم اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، الذى أتاح لها الخلود ، والقرآن هو الذى مكنها من الاستمرار ويضم ٢٥ لجنة منها (١٦) لجنة علمية وتسع لجان لغوية .

واللجان العلمية تجتمع أسبوعيا لوضع مقابل للمصطلح الغربى فى العلوم المختلفة عن طريق الترجمة والتعريب ، وعادة اللجان العلمية تراجع أصول المصطلحات الغربية فى اللغتين اللاتينية والأوربية ، وتحاول أن تضع الكلمات الملائمة لهذه المصطلحات ، بينما تعنى الجهات اللغوية بتذليل الصعوبات فى قواعد اللغة العربية ، بحيث ترفع عنها كل الصعوبات ، حتى تتماشى مع حاجة المجمعيين لوضع المصطلحات الجديدة وكل لجنة تعرض سنويا على مجلس المجمع ، ما وضعته من مصطلحات لمناقشتها فى المجلس مع جميع أعضاء المجمع ، وعادة حصيلة جميع اللجان تعرض على المؤتمر الذى يضم أكثر من ثلاثين عضوا مصريا ، سوى أعضاء

عاملين ، يمثلون جميع البلاد العربية ومراسلين أيضا من البلاد العربية والإسلامية ، ويحضر المؤتمر بعض المستشرقين ، وبذلك يتحول المؤتمر إلى هيئة علمية كبرى ، تتشاور فى المصطلحات، وما تقره يصبح نهائيا ، ويتعامل به علماء البلاد العربية المختلفون .

ونعرف أن المجمع حتى الآن قد وضع أحد عشر معجما علميا فى الجيولوجيا والفيزيقا والرياضيات والعلوم الطبية والأحياء والجغرافيا والقانون وألفاظ الحضارة ، والحاسبات ، والتاريخ والتربية وعلم النفس وهناك اتحاد للمجامع اللغوية ، يشترك فيه جميع رؤساء المجامع العربية ، وله أيضا نشاطه ، ففى صيف العام الماضى أقام ندوة فى تونس لتوحيد المصطلحات الطبية ، وهى أمنية كبيرة فى نفوس قراء العربية ، وتعمل المجامع على توحيد المصطلحات فى جميع العلوم ، تلبية لرغبات العلماء فى الوطن العربى كله.

وتقوم لجنة فى المجمع منذ إنشائه بمحاولات لتيسير تعلم الفصحى للناشئة ، وللمجمع فى ذلك قرارات منذ مؤتمره فى عام ١٩٧٩ وأخذت فعلا وزارة التعليم فى مصر بكثير من هذه القرارات فى قواعد العربية بكتبها المدرسية .

ولنتوقف قليلا عند الكلمة التى ألقاها د. حسين كامل بهاء الدين والتى يبرز فيها التعاون الفعال بين وزارة التعليم والمجمع موجها حديثه إلى المجمعيين فى افتتاح الدورة التاسعة والخمسين : إن المنجزات المجمعية الجليلة ، قد أخذت تتوارد عاما بعد عام ، على مدى تسعة وخمسين عاما ، حتى قاربت مائة وخمسين ألف مصطلح علمى ، ومئات القرارات اللغوية ، التى تستهدف تيسير قواعد اللغة العربية ، وتصويب ألفاظ وأساليب شائعة ، تتهم بالخطأ اللغوى ، والخروج على ضوابط العربية ، فتمنحونها بقراراتكم - بعد البحث الدقيق العميق - شهادة صحتها اللغوية ، وصلاحيتها للاستعمال ، وإنى بوصفى وزيرا للتعليم ، سأعمل على أن نفيد من تيسيراتكم فى قواعد اللغة العربية وألفاظها وأساليبها وهجائها ، فى إعداد الكتب المدرسية لقواعد اللغة العربية والقراءة بمراحل التعليم الابتدائى والإعدادى والثانوى ، فمراحل التعليم هى أولى ما يفيد من تيسيراتكم اللغوية ، وأولاها بذلك .

ولقد كان تعاون المجمع ووزارة التعليم فى طبع معجمكم الوجيز وتقريره على تلاميذ المرحلة الثانوية ، بادرة علمية جليلة ، أفاد منها المعلم والطالب ، وأعادت عهدا حميدا تولى ، حين كانت وزارة المعارف تقرر طبع «مختار الصحاح» أو «المصباح المنير» على طلابها ، وإننا لنحرص كل الحرص على أن نفيد من تيسيراتكم اللغوية ، وأن نعيد طبع معجمكم الوجيز ، ففى هذا وذاك ما ينهض ويرقى بمستوى تعليم اللغة العربية لدى ناشئينا ولدى معلميهم ، كما أن فيه علاجا لظاهرة الضعف العام فى لغتنا

القومية ، الذى استشرى داؤه فيمن يكتبون ويقرءون .

من هنا فإن دور المجمع يقوم على تيسير تعليم اللغة العربية الفصحى ، وتعريب العلوم ، وأن تصبح اللغة العربية لها وجهان ، وجه أدبى وليس الوجه العلمى فقط ، لأنه لا توجد أمة فى العالم الغربى تدرس العلم بلغة أجنبية ، بل جميع الأمم تدرس العلم بلغتها الخاصة ، وجدير باللغة العربية أن تتخذ نفس النهج ، وهذا من شأنه أن يرقى بالفكر بصفة عامة .

ولو ألقينا نظرة على بعض توصيات مؤتمر المجمع من منطلق الحرص على أداء الرسالة المجمعية نتوقف عند عدد منها فى دورته السادسة والخمسين :

● يوصى المؤتمر أن يعنى فى مرحلة التعليم الأساسى بحفظ قدر كاف من القرآن الكريم . مع تفسيره فى صفوف هذا التعليم ، وأن تتلو الناشئة مجموعة من أجزاء القرآن ، موزعة على الصفوف حتى ترسخ الملكة اللغوية فى نفوسهم ، ويتمثلوا قيم القرآن الجمالية والسلوكية والاجتماعية.

● يوصى المؤتمر الدول والحكومات العربية ألاّ تعمل على إحياء اللهجات المحلية ، حتى لاتغض من العناية بالعربية ، لغتنا القومية والدينية ، ولغة ثقافتنا على مر التاريخ ، ولغة هويتنا وشخصيتنا ، وإذا كتبت أى لهجة محلية ، أو جعلت صحيفة لسانا لها ينبغى ألاّ تكتب بأبجدية سوى الأبجدية العربية .

● يدعو المؤتمر الصومال حكومة وشعبا إلى العودة إلى الأبجدية العربية ، حتى تظل الأواصر قائمة بينها وبين شقيقاتها من البلدان العربية .

● يدعو المؤتمر علماء العربية ، كل فى وطنه إلى محاصرة العامية ، وبيان الفروق الدقيقة بينها وبين الفصحى ، وما دخل الكلمات الفصيحة فيها من إبدالات فى الحركات والحروف ، وتغيرات فى البنية والهيئة ، لعرض ذلك على الناشئة والإذاعيين حتى يتحاشوه فى كتابتهم ونطقهم .

إن الدور الذى يقوم به مجمع اللغة العربية لابد وأن يحظى منا بوقفة متأنية ، فنلقى الضوء على ما يقوم به المجمع ، ونتابع ما يتم من تنفيذ توصياته ، طالما تخدم اللغة العربية ، فلا ينبغى أن يضيع جهد العلماء العاملين فى هذا المجمع ، فليست مهمتنا أن نقرأ البحوث الكثيرة التى تقدم فى المؤتمرات ، وتخرج بها أعداد من مجلات المجمع .

والحقيقة فمجمع اللغة العربية فى القاهرة ، يعد بين المجامع أخا كبيرا لها وهو يزود كل من يريد التعرف على ما ينتج من المصطلحات العربية ، أو من الدراسات اللغوية ، بكل ما يطلبون ، وله قواعد فى الترجمة والتعريب ، جدير بكل من يعملون فى هذا المجال ، أن يطلعوا عليها للإفادة منها .

خمسة قرون
وندوة جلال الدين السيوطى

بقلم : عادل عبد الصمد

على مدى ثلاثة أيام من أول أبريل كانت الندوة العلمية الموسعة التى أقامتها جامعة الأزهر احتفاء بمرور خمسة قرون على وفاة العالم المصرى الموسوعى جلال الدين السيوطى، وأشرف عليها ونظمها الأزهر الشريف، والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «الايسيسكو» واللجنة الوطنية للتربية والعلوم والثقافة ناقشت الندوة خمسة محاور حول الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية للعالم الإسلامى فى القرن التاسع الهجرى بالإضافة إلى ثقافة الإمام السيوطى وإنتاجه العلمى وسيرته وأثره فى عصره .

وجلال الدين السيوطى هو أحد علماء الإسلام الذين قدموا للمكتبة العربية، أكبر عدد من المؤلفات الأدبية، وقد عاش خلال أعوام «٨٤٩ - ٩١١هـ» الموافق «١٤٤٥ - ١٥٠٥م» . والحديث عن السيوطى متعدد الجوانب ومتشابك العناصر، فأينما وجهت بصرك الى أى فن من الفنون أو علم من العلوم، وجدت السيوطى آخذا بزمام فيه ، فقد كان السيوطى موسوعيا حافظا مدركا لثقافة عصره وثقافة العصور التى تلته .

ويقول الدكتور مصطفى غلوش فى بحثه «إننا لا ندهش عندما نجده يضطلع بحركة ثقافية وعلمية رائعة ، لايستطيع أن يقوم بها الآن ورغم التقدم العلمى - سوى أجهزة ومؤسسات ومراكز علمية كبرى تحظى بالعدة والعدد والتجهيز والتمييز .

ولكن السيوطى وحده قام بمسح علمى شامل ودراسة موضوعية نقدية، جمع الشتات والمتناثر، وحفظ السطور الهامة، يوازن ويقارن، واختار وتحمل المسئولية وقدم لنا كتبه التى تعد تصفية رائعة لكتب السابقين، وتنظيما سابقا لعصره لما فى المكتبة الإسلامية من مخطوطات ألفها علماء فى كل عصر، وحصر دون الاستقرار لمناهج التاليف أو تحديد هوية العلوم والفنون بصفة قاطعة للعلوم الفرعية

المندرجة تحت العلوم الكبرى » .

لم يكن السيوطى يفهم فى الرياضيات كثيرا بينما برز بوجه خاص فى العربية وعلوم الدين والتاريخ، وشرع وهو فى السابعة عشر من عمره فى وضع أول كتاب له، واستمر على ذلك طوال حياته يؤلف ويدرس دون انقطاع، وقدم لنا العديد من المؤلفات وهى كما ذكرها هو نفسه فى سيرته تأتى فى ستة أبواب على النحو التالى

علوم القرآن – علوم الحديث – علوم الفقه – اجوبة على اسئلة فى مختلف العلوم – الأدب واللغة – الأصول والبيان والتصوف، والواقع أن السيوطى لم يتوقف عند هذا الحد فقد بلغت مؤلفاته ستمائة منها بحوث مستفيضة، استلزمت الصبر والدقة

ونحن هنا أمام العديد من البحوث التى تناولت معظم تراث هذا العلامة ، وتحاول فى عجالة الإلمام بأهم القضايا التى فجرتها أقلام هؤلاء المشتركين فى هذه الندوة .

● إنتاجـه العلمى ●

كانت للسيوطى عناية كبرى بالتفسير متصلة أشد الاتصال بعنايته بالحديث فكان من أهم كتبه كتاب «الدر المنثور فى التفسير المأثور» .

ولقد ترك السيوطى فى التصوف عددا كبيرا من الكتب والرسائل وأفتى ببعض الفتاوى تدل على تعمقه فى فهم التصوف ومصطلحاته ومذاهب أهله، كما نرى دفاعه عن رجال التصوف المبرزين .

وعن إنتاجه الأدبى، كتب السيوطى مقامات متنوعة نهج فى بعضها نهج الحريرى، وبديع الزمان فى ابتداع شخصية طريفة تدور حولها القصة، وتحرر فى أكثرها من هذا المنهج، فضمن بعض المقامات موازنات ومنافرات، وضروبا من الحوار التمثيلى كما فى مقامته المسكية فى أنواع الطيب .

وليس غريبا أن يكون الرجل شاعرا، فقد رأيناه أديبا يجيد فن القول النثرى والشعر كما عرفه عصره، وقد كان بالإضافة إلى ذلك بارعا فى كل العلوم الإسلامية .

وقد نظم فى الأغراض الشعرية المختلفة، كما أن له باعا طويلا فى العلوم والفنون .

ويتميز بطابع خاص فى كتابته للتاريخ، ولذلك وضع منهجا لعلم التاريخ والاستفادة منه فوضع كتابه «الشماريخ فى علم التاريخ» وقد طبع مع مقدمة له باللغة الألمانية وتقع كتاباته التاريخية عن عصره فى مؤلفه المعروف « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » والذى حفل بأسماء الكثيرين من أعلام عصره والذين سبقوهم من فقاء وأئمة وزهاد ولغويين ومفكرين، ومن رجالات الملل والنحل وكذلك كتابه «نظم العقيان فى أعيان الزمان » .

ولقد انتهج السيوطى فى كتاباته التاريخية مبدأ الدقة وتحرى الحقيقة فى كل رواية .

وللمؤلفات الإمام جلال الدين السيوطى تأثير كبير فى منهج تفسير القرآن الكريم فى السنغال وفى الهند وفى بلاد كثيرة ، إذ أن مؤلفاته توجد فى معظم مكتبات التفسير ومن أهم هذه الكتب التى

كان لها أثر عظيم في هذه البلاد كتاب تاريخ الخلفاء الذي ألفه الإمام لسرد فضائل الخلفاء الراشدين ، ولكتاب الاتقان في علوم القرآن تأثير هام في المجتمع السنغالي بالإضافة إلى كتب أخرى مثل ألفية السيوطي النحوية - الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير - المزهر في علوم القرآن ، ويستعمل كمرجع أساسي من مراجع علوم القرآن .

كتب السيوطي في بلوغه مرتبة الاجتهاد مؤلفا سماه «الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض» . افتتحه بما يريد قوله من أن الأمة لا تخلو في عصر من عصورها من مجتهد أو طائفة من المجتهدين، ولا تخلوا من طائفة تنصر الحق وهي ظاهرة عليه، ثم يهاجم الذين أنكروا قوله بالاجتهاد، وهو هنا لم يقصد الاجتهاد المستقل كالأئمة الأربعة وإنما قصد الاجتهاد المنتسب، على أن السيوطي قد نص على بلوغه درجة الاجتهاد في الفقه والحديث والعربية، وأن بلوغ رتبة الاجتهاد في الفقه قد وجدت عند كثير من العلماء أما الجامعون للثلاثة فقليل .

● السيوطي بين الخصوم والأنصار ●

وقد أثار هذا العدد الكبير من المؤلفات وبعض أفكار السيوطي ريبة بعض الدارسين، بل حاول بعضهم التشكيك في كثير مما نسب إلى السيوطي من مصنفات كالمؤرخ السخاوي في كتابه «الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع» ولكن السخاوي كان معاصرا للسيوطي ، ومع أنه كان رجلا مؤرخا وثقة إلا أنه يؤخذ عليه تحامله على بعض معاصريه وخاصة السيوطي، حيث كان بين الرجلين خلافات ومنافسات دفعت السيوطي إلى كتابة مؤلفه المسمى «مقامة الكاوي في تاريخ السخاوي» انتقد فيه كتابه المذكور .

وتوفي السخاوي عام اثنين وتسعمائة للهجرة، قبل جلال الدين السيوطي بنحو تسعة أعوام، وترك لنا في ضوئه اللامع ترجمة السيوطي مبسطة، حل محلها نقد وهجوم على السيوطي وأعلام المحدثين من معاصريه ومن بعدهم قد أثنوا على السيوطي، واعترفوا بجلالة قدره وغزارة علمه وسعة معلوماته في علم الحديث، ورغم ذلك فقد وجه البعض مطاعن إليه لتساهله في رواية الأحاديث دون تمييز الموضوع عن ضعيفها، وقيل إنه كان بهذه الصفة حاطب ليل مع كثرة تصانيفه وسيولة قلمه وطروقه كل باب، وكان جماعا في كل فن بدون تمحيص وتنقيد، وهذه الظاهرة تغلب في سائر مؤلفاته، ومن طرائف الأمور أنه ألف رسالة في رواية الحديث الموضوع «تحذير الخواص في أكاذيب القصاص» وأنه أجاد فيه، ولكنه في بعض مؤلفاته الأخرى حشد كثيرا من تلك الأباطيل والخرافات .

أما موضوع الاجتهاد الذي أثار الكثيرين وألف فيه السيوطي كتابين هما «الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف» وكتابه « الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض» يكون مرجعه أن السيوطي قد شغف بموضوع الاجتهاد وألف فيه التآليف وأكد جدارته بالاجتهاد .

والحقيقة أن السيوطي رأى في زمانه وفي القرون السابقة له جمود الفكر الاسلامي، رغم وجود بعض العناصر العلمية ويقول السيوطي في تقرير الاستناد .

« شنّع مشنّع على دعوى الاجتهاد بأنى أريد أن أعمل مذهبا خامسا، وربما زادوا أكثر من ذلك ، ومثل هذا التشنيع إنما يمشي على عقول العوام ومن جرى مجراهم» .

وبدأت فكرة انسداد باب الاجتهاد، والغريب أن الدارسين لم يجدوا لهذا التعبير حضورا واضحا في النصوص المتعارفة فهى فكرة أخذت تسيطر على الأذهان بدون أن تكون لها مشروعية حقيقية تجعل الفقهاء يدافعون عنها .

والجدير بالملاحظة أن دفاع السيوطي عن الاجتهاد دفاع نظرى نقلى أى أنه أراد أن يبين تقريبا بمسحه لمختلف القرون أنه وجد علماء لهم شأن، ادعوا الاجتهاد ، أو اعتبرهم معاصروهم جديرين بمرتبة الاجتهاد، وجمع أقوالهم ولغيرهم فيها تنويه بالاجتهاد، واعتبر أن كل ذلك تصديق للحديث النبوى المتعلق بمجدد القرن، وغيره من الآثار الحاثة على الاجتهاد ويرى الدكتور سعد غراب أن تدخلات السيوطي يغلب عليها الطابع النقلي الحفظي، وذلك يتماشى مع ماأكده عديد المرات من أنه مضطلع بصفة خاصة في العلوم النقلية ، وقد أكد لنا مثلا أن معرفته بالأصول تأتي في مرتبة ثانية ولا يخفى ماللأصول من أهمية في الاجتهاد ، ونقص السيوطي الحقيقى هو في العلوم العقلية حيث يقول: «وأما الحساب فأعسر شيء عليّ، مع معرفتي به ولكن يثقل النظر فيه، وتضيق منه أخلاقى » .

ونرى بذلك وإن ادعى السيوطي أن آليات الاجتهاد قد توفرت لديه فإن بعضها لم يتوفر في الحقيقة بل الأدهى هو أن هذه الآليات التى لم تتوفر أى الرياضيات والمنطق هي التى سيصبح لها الشأن العظيم في القرون الموالية، وستكون من أهم الركائز التى ستعتمد عليها النهضة الأوروبية، بداية من قرن السيوطي تقريبا .

وبذلك أن تحديدات السيوطي أصبح لا معنى له منذ أن تشعبت العلوم، وتضخمت مادتها وذلك قبل السيوطي بقرون .

ورغم اختلاف النقاد حول مؤلفات السيوطي كان إقبال العلماء عليها كبيراً وخاصة كتب السيرة ، ولا يوجد أى كتاب في السيرة النبوية إلا وفيه اقتباس أو نقل أو أخذ من مؤلفات السيوطي، وهذا يدل على اعتدادهم بالسيوطي .

وأخيرا يجب علينا أن نزيح الغبار عن مئات الآلاف من المخطوطات التي تتكدس في دور الكتب ومخازنها في الشرق والغرب ونقوم بتنقيحها وتحقيقها ونشرها، فهناك كنوز كثيرة في المعرفة لا تزال تحتاج إلى من يبحث عنها خلفها لنا الأجداد ومنهم السيوطي ونحن في نهضتنا الحديثة بحاجة كبيرة إلى أن نعرف كل ماقدمه علماؤنا الأوائل للانسانية لننطلق ونبنى .



اسم الكتاب تراث الغناء العربى
المؤلف:كمال النجمى
الناشر: دار الشروق - ١٩٩٢

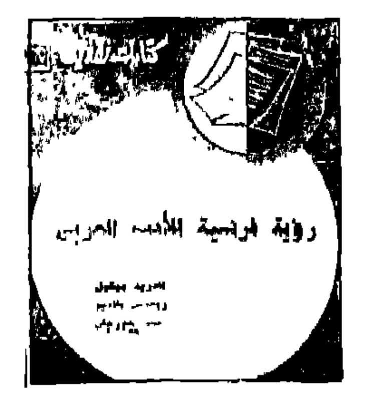
- كمال النجمى هو أحد قلائل الكتاب الذين تعمقوا فى التأليف الموسوعى عن الغناء العربى القديم والحديث، وهو بذلك يكون قد جمع عصور الغناء المتتابعة فى التاريخ العربى .

وقد جاء كتابه الأخير «تراث الغناء العربى» .. ليصل ماانقطع من التأليف الذى كان يجمع قديما بين الفن والأدب والتاريخ كما فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الاصفهانى . ويقدم كتابه صورة بانورامية لفن الغناء العربى خلال أكثر من اثنى عشر قرنا .. من عهد إسحاق الموصلى فى القرن الثانى الهجرى إلى أيام أم كلثوم وعبد الوهاب فى عصرنا .

فمن عصر الموصلى قدم النجمى مناظرات هذا الأخير مع ابراهيم ابن المهدى ثم شعر عمر ابن أبى ربيعه فى الغناء القديم، والغناء الدينى والدنيوى عند الإمام الغزالى، والغناء والإيقاع والرقص بين الإمام الغزالى والمستشرقين .

ثم تتبع النجمى شيوخ الغناء المصرى مثل عبده الحامولى، والقصبجى، والسنباطى ومحمد عثمان وسيد درويش . وزكريا أحمد.

ومن المحدثين تتبع رحلة أم كلثوم، وعبد الوهاب، وليلى مراد وشادية. وتجىء أهمية هذا الكتاب أن المؤلف يؤكد أن أحفادنا القادمين من وراء الغيب سوف يصابون بالدهشة من قلة مؤلفات هذا العصر فى فن الغناء، رغم أن هذا العصر قد أجمل الأصوات التى شكلت الوجدان النفسى، والانسانى لأجيال قادمة .



رؤية فرنسية للأدب العربى
تأليف : آندريه

ميكيل - ريجيس بلا شير - بيير جورجان

ترجمة وتقديم وتعليق: د. أحمد درويش

الهيئة العامة لقصور الثقافة (كتابات نقدية)

- يقول أندريه ميكيل فى أحد أبحاثه المترجمة فى هذا الكتاب «لقد مضى زمن الرواد الأوائل من المستشرقين الذين رأوا فى دراسة العربية زينة للعمل الدبلوماسي أو البحث العلمى، أو فى مجال الدفاع عن المسيحية وانفتحت طرق جديدة نحو الدراسة المتعمقة للغة والعلوم والعقيدة والتاريخ».

وقد ناقش الدكتور أحمد درويش فى مقدمة الكتاب «الاستشراق والتعريب» وأشار للمراحل التى مرت بها الحركة الاستشراقية ونظرتها وأهدافها، ولاشك أن طبيعة النظرة إلى الأدب العربى من خارجه، تختلف عن النظرة التى نراها من الداخل ولكن يبقى من المهم أن نقف على نظرة الآخرين لنا ولأدبنا، والأبحاث التى ترجمت فى هذا الكتاب كان منها . ملاحظات على تطور التأليف المعجمى عند العرب - الرواية العربية المعاصرة - الفن الروائى عند نجيب محفوظ - ملاحظات على البناء الشعرى عند الياس أبو شبكة - محاولة لتحليل البناء الشعرى عند نزار قبانى .



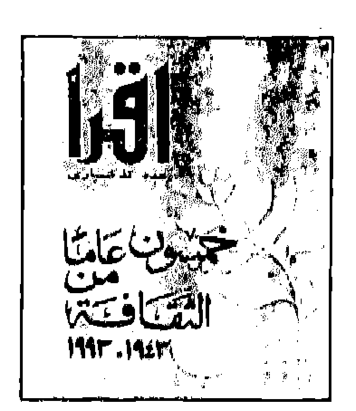
بيرم . التونسى - عاصفة من الحارة المصرية

تأليف : كمال سعد

دار الأمين

- أدرك قيمة الإنسان ووظيفة الفن، وانحاز لقضايا الوطن وأبناء الشعب المقهورين وكشف زيف المواقف والأشخاص والعادات، وتربع على عرش الشعر الشعبى بأعماله الخالدة، واستحق عن جداره وحب وتقدير لقب «فنان الشعب» وتحمل من أجل أشعاره وكلماته الشجاعه مرارة الجوع

والتشرد والنفى ، فى باريس وليون ومرسيليا، وجاءت أشعار بيرم مليئة بالدفء والإيمان وصدق الإحساس صاغها بإحساسه المرهف ومزج فيها بين الجدية والروح الساخرة ، وحرص على اختيار اللفظ وابتكار المعنى ، ومهد الطريق بأزجاله وأشعاره لشعراء العامية المصرية، الذين جعلوه رائدا وإماما لهم .

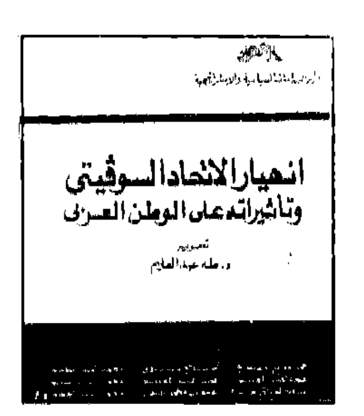


خمسون عاما من الثقافة
١٩٤٣ - ١٩٩٣
اقرأ - عدد تذكارى

دار المعارف

- بمناسبة مرور نصف قرن على صدور سلسلة «إقرأ» صدر هذا العدد التذكارى عن هذه السلسلة بأقلام الكتاب والمفكرين والأدباء ، فتحدثوا عن تجربتهم مع هذه السلسلة، وماقدمته فى مجال الثقافة والعلم والفكر والفن، وجاء بالعدد الإصدارات التى نشرت من يناير ١٩٤٣ حتى ديسمبر ١٩٩٢، وكان أول هذه الاصدارات: أحلام شهر زاد للدكتور طه حسين ، والتى بلغت ٥٧٨ كتابا .

أما مقدمة السلسلة كما جاء فى يناير ١٩٤٣، فجاء فيها: هذه السلسلة جهد من الجهود تبذل فى سبيل نشر الثقافة وترقية الشعب وإزالة الفروق بين الطبقات وهى نتيجة طبيعية لهذا الطور الذى نحن فيه من أطوار حياتنا ، والقيمة فى هذه السلسلة أن تكون على يسرها وقربها متنوعة أشد التنوع وانفعه فهى تنشر المؤلفات الحديثة كما تنشر الآثار القديمة ، وهى تنشر الآثار التى تؤلف كما تنشر الآثار التى تترجم ، فى الأدب الإنشائى وفى الأدب الوصفى فى العلم الخالص وفى العلم التطبيقى ، فى السياسة، فى التاريخ ، فى العمران والاجتماع ، فى كل لون من ألوان هذا النشاط الذى يجعل العقل الإنسانى منتجا فى جميع فنون المعرفة .



انهيار الاتحاد السوفيتي وتأثيراته على الوطن العربي

تحرير : د. طه عبد العليم

تصدير : د. أسامة الغزالي حرب

مركز الدراسات السياسية الأهرام

– يضم هذا الكتاب أعمال الندوة التي عقدها المركز في ٢٢ – ٢٣ فبراير عام ١٩٩٢ ، والتي اشترك فيها مجموعة كبيرة من الباحثين والكتاب المصريين والعرب والسوفييت أن الموضوعات التي نوقشت في الندوة ، وجاءت بالكتاب فهي ·

– انهيار الاتحاد السوفييتي : المقدمات والتداعيات – لماذا إنهار الاتحاد السوفييتي ؟ – ورثة الاتحاد السوفييتي ومصير الكومنولث – الصراع على السلطة في روسيا الاتحادية .

– الوطن العربي مابعد الاتحاد .

مذكرات عبد الرحمن فهمي

يوميات مصر السياسية

الجزء الثاني

إشراف وتحقيق .

د يونان لبيب رزق

– يضم هذا الجزء من مذكرات عبد الرحمن فهمي، الفترة من يوميات مصر السياسية التي تبدأ من ٦ يونيو عام ١٩١٩ وتنتهي يوم ٦ مارس عام ١٩٢٠ أي تسعة شهور من تاريخ مصر وتاريخ عبد الرحمن فهمي .

– وكان الجزء الأول من المذكرات قد صدر عام ١٩٨٩ وضم أقل من ثلاثة شهور من أحداث ثورة ١٩١٩ والتي تفجرت يوم ٩ مارس، ويرى الدكتور يونان أن الجزء الثاني من المذكرات هي أهم فترة إبراز لدور صاحبها خلال ثورة ١٩١٩، أما تفسيره لعنوان «الحصار» لهذا الجزء من يوميات مصر السياسية، فيرى أن كلا من جانبي الصراع: البريطاني والمصري سعى إلى أن يفرض حصارا على الآخر، البريطانيون حاولوا أن يفرضوا حصاراً على الوفد المصري في باريس .

والمصريون ردوا على الحصار بحصار فرضوه على لجنة ملنر والذي قام به عبد الرحمن فهمي وعرف بمقاطعة لجنة ملنر.

علم الفلك

تاريخه عند العرب في القرون الوسطى

تأليف : السنيور كرلو نلينو

عرض : د. محمد حسن عبدالله

هل تترتب أهمية هذا الكتاب على حجم ما أنجز العرب فى مجال علم الفلك ؟ إن هذا الربط يبدو صحيحا فى ظاهره ، وإن التسليم به ليلغى حق كتاب المستشرق الإيطالى الشهير فى أن يكون مؤثرا فى توجيه الفكر . وتنوير المنهج البحثى ، منذ ألقاه فى شكل محاضرات (هذا الكتاب ملخصها فى ٢٧٠ صفحة) بالجامعة المصرية ، حيث عمل استاذا بها ، ثم طبعه بمدينة روما العظمى - كما وصفت على غلافه - عام ١٩١١م .

ذلك لأننا نوافق على أن جهود العرب، وغير العرب أيضا ، فى إطار علوم الفضاء - الاسم العصرى لعلم الفلك - ستكون متواضعة جدا فى كثير مما اكتشفت من حقائق الكون ، وتحتاج إلى كثير من التصويب فيما ظننته أنه من الحقائق ، إذا ما قيست إلى المعلومات المتوفرة لعالم متوسط المعرفة ، ولا أقول إلى مراكز بحوث الفضاء فى الدول المتقدمة لقد فكر نلينو فى هذا الأمر ، وقدمه ، وأجاب عليه فى صدر محاضراته ، مستفيدا من طريقة العرب والعقلية الفقهية الإسلامية التى تبدأ بطرح الاحتمالات ، وتقدم جواباتها بطريقة جدلية طريفة نحت بعض المحدثين لها اسما طريفا أيضا هو «الفنقلة» - التى تعنى فإن قال كذا ، قلنا كذا .. إلخ .

إن انتقاء نلينو لهذا الموضوع من بين موضوعات تاريخ العلوم عند العرب يكشف - كما سنرى - عن غزارة الاطلاع ، ودقة المعلومات ، والقدرة على تتبع حركة المعرفة بين حضارات العالم القديم والوسيط ، ولهذا لم تنحصر جهوده فى علم الفلك عند العرب فى التعريف بعلمائه ومؤلفاتهم أو مكتشفاتهم ، وإنما تجاوز هذا المدى المقدور عليه ، المستقر كمنهج للتأليف أوائل هذا القرن - إلى وضع أساس جديد ، لأهداف البحث العلمى ، والمنهج الدقيق الذى يحقق هذه الأهداف . إننا - فى تناولنا لأهمية هذا الكتاب وأثره فى تفكيرنا العلمى - لن نتوقف عند مسائله أو مكتشفاته الفلكية ، إنها تنتمى إلى الماضى ، أما وضع أسس البحث ، وتصحيح مسار الفكر ، فإنها التى وجهت نظرتنا ، وصححتها ، إلى المستقبل ، بما فيه تصور «الماضى التاريخى» تصورا دقيقا ، علميا ، وفى هذا السياق يأخذ كرلو نلينو ، وكتابه هذا ، مكانا يقدر !! أما «الفنقلة» الأساسية فى هذا المدخل فيسوقها فى صيغة سؤال :

« لم هذا الاشتغال بتاريخ العلوم عموما ، والعلوم الرياضية خصوصا ؟ . فى جواب هذا السؤال فرصة ليصحح لعلماء جيله مفهوم التاريخ ، كما يرسخه فى عقول طلابه بالجامعة المصرية أوائل هذا القرن ، كما أنه يسوق هذا التصحيح على لسان ابن خلدون . فليس التاريخ خاصا بالملوك ، أو الحروب أو الثورات أو المصائب ، فحقيقة التاريخ ، كما نقل نلينو عن ابن خلدون «أنه خبر عن الاجتماع الإنسانى الذى هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال » ويوضح نلينو ما ينبغى على المؤرخ الحديث

أن يأخذ به ، بما يدل على وعيه بثغرات ونواقص كتابات المؤرخين العرب ، بل كتابات العرب عامة عن حضارتهم ، إذ يقرر أنه لا يحيط بالتاريخ علما حقيقيا إلا من أطال الفكر فى أمور كثيرة غير طنانة ، تبدو أنقص منظرا من العوارض السياسية ، مع أنها - فى الحقيقة - أهم لأنها مؤثرة فى الوقائع وتسلسلها . معللة لها تعليلا لا ينفى ، ومن هذه الأمور المهمة ، غير الطنانة تاريخ العلوم .

وإذن ، فإننا نستطيع أن نجمل الأثر العلمى لهذا الكتاب ، بما يتجاوز عنوانه (هو فى الحقيقة خارج عنوانه إذ لا نعرف أنه وجه أبحاث الفلك عند علمائنا المعاصرين) وهذا التجاوز ليس عن عدم الالتزام بالدقة المنهجية ، بل على العكس ، إن هذه الدقة هى التى ضمنت له النفاذ إلى التأثير الفكرى العام

١- فقد رسم منهجا للبحث ، لم يكن مألوفا فى فترته ، إذ يحدد المصطلح ويشرح حدوده ومفرداته ، ويكشف عن مصادره ومراجعه ، ويحدد اقتباساته، ويقابل بين النصوص ، ويقرر رأيه ، ويعلله

٢- وجه الاهتمام إلى تاريخ العلوم ، وأدخله فى صميم التاريخ الإنسانى ورفض اعتبار قصور العلم القديم ، أو أخطائه مسوغا لإهماله والانصراف عنه .

٣- إنه يقدم الحضارة العربية الإسلامية كحضارة عالمية ، تظهر قيمتها وما قدمته للبشرية حين تعرض ثمارها العلمية على منجزات الحضارات قبلها (الهندية والفارسية واليونانية) والقول بأن العرب أفادوا من جهود سابقيهم لا يغض من قيمة ما صنعوا ، بل على العكس ، فقد طوروا، كما ابتكروا ، حتى فتحوا الطريق بأيديهم لعالم جديد يقر لهم بالفضل .

إن هذه المبادئ الثلاثة التى نستخلصها من قراءة أربعين محاضرة هى المحتوى العلمى لكتاب «علم الفلك» قد تحققت لأن كرلو نلينو قد أحسن السيطرة على موضوعه ، فهو مستشرق أصيل الفكر ، عميق الصلة بلغة العرب وتراثهم ، وقد كان عضوا بالمجمع اللغوى حتى وفاته عام ١٩٣٨ ، والمعلومات التى تحويها ترجمته فى « المجمعيون » تقول إنه كان يعرف العربية والعبرية ، وتضيف مقارناته اللغوية فى تحليل بعض مصطلحات الفلك أنه يعرف اليونانية والسريانية والفارسية ، وليس العربية والعبرية فقط كما قرر كتاب المجمع

ثم نتأمل مصادر البحث ، والأسلوب الذى صيغت به هذه المحاضرات . لا نريد بالمصادر ما كتب العرب - أو غيرهم - عن النجـوم والكواكب والأرض .. إلخ ، من أمثال ابن القفطى ، وابن أبى أصيبعة ، والبيرونى، وأبى معشر البلخى ، والفزارى، وابن يونس المصرى ، وغيرهم ، فهذا أمر بدهىّ أن يكون . ولكن الطريف حقـا ، والجديد على عصرنا الحديث (وإن يكن من سمات تراثنا العربى) أنه لايهمل التحليل اللغوى للمصطلحات ، ولا يـغـفل الشـعـر ، والقـرآن الكـريم كمصـدر للمعلومات . لقد أشرع الباحث المستشرق عقله ليتلقى المعرفة من كافة مظانها ، فلم يحصر تفكيره فيمن بحثوا فى موضوع النجوم أو الأرض قصدا ، من علماء الطبيعة أو الجغرافيا أو الرحالة مثلا ، بل اتسـع هـذا التفكير ليشمل الفلسفة والتنجيم والأساطير والأديان . على أن الأمر هنا يتجـاوز القـدرة على جمع المعلومات ، أو الوصـول إلى مصـادر المعرفة ، فإنه - على جلالته وخطره كان يمكن أنْ يتاح - فى أيامه - لغيره ، وهو فى زماننا هذا متاح بغزارة بعد التطور المثير فى مجال نقل المـعرفة بالتـصوير الفورى والتسـجيل الصـوتى .. إلخ .

إننا لم نرغب - بالطبع - فى تجاهل أو التقليـل من شـأن المعلـومات الفلكيـة أو الجغـرافية التى نظمهـا ، وقدمها ، وشرحهـا ، وبين قيمتها حتى فى بناء العـصر الحديث ، بعد إشـهار قيمتها فى زمانها ، مما يتعلق بجهود العرب فى الفلك والجغرافيا ، وكل ما فى الأمر أننا نرى أن هذه المعلومات - على أهميتها - لم تكن ذات تأثير قوى فى ذاتها ، بقدر ما كان التوجه إلى إعادة اكتشاف تراثنا العلمى ، وتقـديمه إلى العصر الحديث ، باعتزاز وثقة ، كإحدى الدعامات الأساسية فى بناء الحضـارة الإنسـانية ، الوسيطة ، حين كانت الامبراطورية العـربية قمة العالم ، والحديثة والمعـاصرة ، التى استخلصت رحيق ما سبقها من حضارات ، وظل موقع الرحيق العربى الإسلامى ، لا يجد من يتحمس لتمييزه ولفت الانتباه إليه وتأكيد حقه ، تحمسـا علميا ، وليس خطابيا ، يقوم على التحديد وتقديم الدليل ، وليس على الإيمان الشخصى ، أو القلبى ، الذى لا يجـد «الآخرون» ما يحملهم على التسليم بصحته .

وإذن ، فإننا نرى أن الالتفات إلى التراث العلمى العربى ، وتسليط الضوء على المنجزات العربية ، فى الطب ،

والصيدلة ، والهندسة ، والطرز المعمارية ، والنبات، والكيمياء ، والرياضيات ، والجغرافيا ، والبيطرة ... إلخ ، هو ثمرة من ثمرات هذه الالتفاتة المبكرة التى اختار لها كرلو نلينو موضوعا دقيقا صعبا ، كان مجهولا تماما فى مستواه العلمى .

جهود العرب

لقد أصبح الكلام عن جهود العرب فى مجالات العلوم مقبولا ، بل يقابل بكثير من التقدير والعرفان عند غير العرب ، ولسنا نشك فى أن المستشرق الإيطالى ، وكتابه هذا ، يعتبران بداية جديدة فى إعادة تلوين الصورة العربية - من الوجهة العلمية - لدى الأمم الأخرى . على أن هناك نقطة إضافية - منهجية - جلية ، تستحق التنويه ، فالسنيور نلينو فى تقدمة محاضراته ، حدد مقصده بالعرب ، وبين أنه يتجاوز بهم أولاد قحطان وعدنان (أى سلالة العرق العربى) إذ نعرف - كما يقول - قلة البارعين منهم فى علم الفلك ، أما العرب فى رأيه فهم جميع الأمم والشعوب الساكنين فى الممالك الإسلامية ، المستخدمين اللغة العربية فى أكثر تآليفهم العلمية ، من الفرس والهند والترك ، والسوريين والمصريين والبربر والأندلسيين . هذا يعنى أن العربية «لسان» ، وأنه - كما يقول : نسب إلى لغة الكتب لا إلى الأمة. لقد كان حريا أن يتحدث عن جهود «المسلمين» ، ولكنه آثر اللسان ، وأدخل جهود غير المسلمين ، واعتبرها عربية ، مادامت قد توصلت إلى ما توصلت إليه ، وفكرت ، وكتبت أفكارها بلغة العرب!!

يمكن أن ننظر إلى الجيل التالى الذى تتلمذ على يدى السنيور نلينو ، أو قارب فترته ، لنجد اتجاها واضحا إلى الاهتمام بالتراث العلمى للعرب ، بل لنجد تقاربا لا يخفى فى طريقة الطرح المنهجى ، وإن كان لايرقى - فى حالات كثيرة - إلى التدقيق المرتكز إلى تنوع الخبرات وتحصيل المعلومات . تحديدا تجب الإشارة إلى الدكتور أحمد زكى (ولد عام ١٨٩٤) والدكتور عبد الحليم منتصر (ولد عام ١٩٠٨) ولسنا نستطيع ، ولا نملك الحق فى الزعم بأن أسلوب أحمد زكى (العلمى المتأدب) صدى أو أثر لأسلوب نلينو ، لأن هذا الأسلوب نفسه ذو جذور تراثية ، بل إنه عماد التأليف العلمى عند العرب كما أسلفنا ، ويمكن أن نقرأ ابن المقفع ، والجاحظ ، وأبا حيان وغيرهم لنجد كتابات ابن المقفع السياسية ، وما كتب الجاحظ عن الحيوان ، وأبو حيان فى الفلسفة واللغة، وتقدم المعرفة العلمية ممزوجة

بالخيال ومسـوقة فى أسـلوب تصويرى سهل يغرى بالاستمرار . لكننا حين نقرأ لأحمد زكى : سلطة علمية ، أو : بين المسموع والمقروء ، أو : بواتق وأنابيق ، فضلا عن مقالاته المجموعة فيما بعد ، تحت عنوان : مع الله فى السماء ، ومع الله فى الأرض ، سنجد أن المثل القريب «نلينو» هو الذى يسبق إلى الخاطر كمؤثر مباشر . والأمر كذلك فيما يتصل بجهود عبد الحـليم منتصر الذى يصـفه كتاب «المجمعيون» بأنه «عالم نباتى ضليع فى اللغة والأدب» .

أمانة تنوير التراث

وقبل أن نستطرد قليلا مع هذه المسألة الأساسية (أثر نلينو وكتابه فى علمائنا وفكرنا العام) نقول إن الجامعة المصرية ، دعت فى نفس العام الذى انتهت فيه مهمة نلينو بها (عام ١٩١٢) مسـتشرقا آخـر لا يقل وزنا وأثرا هو لويس ماسنيون الذى قدم ليحاضر عن تاريخ الفلسفة ، أو تاريخ المصطلحات الفلسفية تحديدا ، ونشأة المصطلح الفنى فى التصوف الإسلامى بصفة خاصة ، فلعل هذا يعنى - فيما يعنيه - أن الجامعة المصرية ، فى هذه المرحلة المبكرة من هذا القرن حملت منفـردة فى حينـها أمانة تنوير التراث العربى ، وإحيائه فى ظل معرفة عصرية شاملة ، ومن ثم توحيد الأمة العربية على مستوى وحدة ماضيها الفكرى ونشاطها العلمى .

ولقد قـدمنا مثلين (أحمد زكى وعبد الحليم منتصر) لوضوح التأثير فى التوجه، والأسلوب ، ولكنهما لم يكونا مفردين . وبصرف النظر عن جـهود استشراقية أخرى ، كالتى نجدها لدى إنو ليتمان (١٨٧٥-١٩٥٨) وما كتب عن تاريخ التقدم العلمى ، وهاملتون جب ودراساته عن حضارة الإسلام، فإن الأثر عندنا سيكون أشد وضوحا ، لأننا المعنيون بالقضية أصلا ، وأصحاب الإفادة منها رأساً ، والأحق بالتوجه إليها قصدا ، فليس مستغربا أن يؤلف عيسى اسكندر المعلوف (ولد عام ١٨٦٩) عن : تاريخ الطب عند العرب ، وأن يكتب محمد شفيق غربال (ولد عام ١٨٩٤) عن : «أساليب كتابة التاريخ عند العرب» ، وأن يبحث مراد كامل (ولد عام ١٩٠٧) فى الرمز فى الكيمياء عندالعرب ، وأن يهتم مصطفى نظيف (ولد عام ١٨٩٣) - وهو أحد علماء الطبيعة المعدودين فى مصر - بكتاب الحسن بن الهيثم وبحوثه وكشوفه البصرية (وقد نشـرته جـامعة القـاهرة فى جـزءين عامى ١٩٤٢-١٩٤٣) .



إن توجيه الاهتمام إلى التاريخ العلمى للعرب ، بل إدخال التاريخ العلمى فى إطار التاريخ العام من أهم ما نلمس من تأثير كرلو نلينو ، فى كتابه هذا ، وكتاباته الأخرى . على أنه يبقى هناك أمران على غاية من الأهمية : الأول : مابدأ نلينو به بحثه ، من تحديد لمفردات عنوانه ، وكشف عن مصادره ومراجعه ، ومناقشة كل منها ، ومقدار الثقة به ، «وهو يعترف بأنه أخذ المسألة الأخيرة من علم الحديث ، أى من مبدأ الجرح والتعديل) . إن هذا الأمر الذى يمارسه الآن طلاب «الدكتوراه» فى مقدمة اطروحاتهم ، لم يكن له وجود فى بدايات هذا القرن ، فى المؤلفات العربية على تنوع أغراضها ، كان «المؤلف» يعتبر مراجعه ومصادره سرا من أسراره ، ومفتاح تفوقه أو تفرده ، ولا يصح أن يكشف عنه للمؤلفين الآخرين (المنافسين) وحين نقرأ مقدمة طه حسين لكتابه الأول «تجديد ذكرى أبى العلاء» الذى ناقشته الجامعة المصرية عام ١٩١٤ . كأول أطروحة للدكتوراه (وكان نلينو قد عمل بهذه الجامعة ثلاث سنوات ١٩٠٩ - ١٩١٢ ، ودرس لطه حسين أيضا) سنجد فى مقدمة طه حسين لأطروحته ، شرحا للمنهج ، لا يخلو من صنيعة التفاخر ، يسير على خطوات ما ذكر نلينو فى صدر كتابه يكشف فيه طه حسين عن مصادره ، ومراجعه ، ودرجة ثقته بها .

الأمر الثانى الذى نجد بدايته (العصرية) عند نلينو ، فى كتابه عن علم الفلك ، واتسع أمره وتنوع بعد ذلك ، هو ما يشيع بيننا الآن تحت مصطلح «التفسير العلمى للقرآن» كانت معارف عرب الجاهلية بالفلك فى حدود الاستخدام أو الإفادة العملية ، غالبا ، فجاء الإسلام ، وبعض

عباداته تستلزم معرفة بالفلك والجغرافيا ، كبدء الصوم ، والحج ، ومواقيت الصلاة ، وتحديد القبلة ، ثم جاءت إشارات قرآنية تستدعى التفكير ، وتبحث عن تفسير : «تسبح له السموات السبع» – «لقد خلقنا فوقكم سبع طرائق..» و «هو الذى خلق الليل والنهار»«والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون» . وهنا يروى عن القدماء تفسيرات مدخولة أو غير معقولة ، فالسماء الدنيا من رخام أبيض، وخضرتها من خضرة جبل قاف !! وهذه الأقوال وما يشبهها تدل على عدم اهتمام المفسرين القدماء بعلم الهيئة أى علم الفلك . لقد اعترف بعلم الفلك فى زهو الحضارة العربية ، حتى جرى على الألسنة قولهم : العلوم ثلاثة : الفقه للأديان ، والطب للأبدان، والنجوم للأزمان . فهل تحمل مثل هذه العبارة دلالة على أن المعرفة بالطب ، وبالنجوم يلزمان الفقيه أيضا ؟ على أنه قد نظر إلى القرآن الكريم على أنه معجزة بيانية ، وأنه معجز بإخباره بالغيب ، والقول بأنه معجزة علمية لم يسع إلى إثباته أحد فى القديم ، وليس موضع إجماع من المفسرين والمجتهدين فى عصرنا ، لتجدد مكتشفات العلوم ، وإمكان الخطأ على ما وقع التسليم به كحقائق من قبل ، فربط الإعجاز القرآنى بأمور احتمالية أو قابلة للتغيير، لايفيد معجزة القرآن ، بل لعله أن يسئ إليها . ومهما يكن من شأن هذه القضية – فى ذاتها – فإن إشارة نلينو إلى أهمية احتياج مفسر القرآن إلى المعرفة بالعلوم الأخرى ، حتى لا يجد نفسه مجرد راوية لأقوال مظنونة ، أو غير مقبولة ، عن الكون ، والإنسان ... إلخ ، لابد أنها عملت عملها فى بعض العقول ، ولعله ليس من قبيل المصادفة أن يكون صاحب البداية فى الإفادة من العلوم العصرية فى تفسير القرآن هو الشيخ طنطاوى جوهرى ، فى تفسيره المطول : «الجواهر فى تفسير القرآن الكريم» ، (ولد عام ١٨٧٠ ، وتوفى عام ١٩٤٠) وجهده عظيم حقا ، وقد حاضر فى الجامعة المصرية أيضا ، بعد نلينو ، وهو جدير بأن يذكر فى مقدمة الاتجاه نحو التفسير العلمى للقرآن ، الذى توسع فيه الدكتور عبد الرزاق نوفل ، ومن جاء بعده ، دون أن يذكر اسم هذا الشيخ الجليل .

التكـــوين
(٢)

ما زلت أسير خطى الطريق

محمود أمين العالم



ما أن صدر العدد الأسبق من مجلة الهلال ، وفيه حديثى عن المرحلة الأولى من تكوينى حتى اتصلت بى أختى التى تصغرنى ، وقالت لى ضاحكة : تقول إنك ما زلت تتكوّن أو تتكوَّن ؟ والحقيقة أننى أراك قد بدأت تتفكك ! والواقع أننى انزعجت لقولها الحاد ، ويبدو أن هذا ظهر واضحاً فى تساؤلى : كيف ؟ فأجابت : عُذْرًا . لستُ أقصدك أنت وإنما أقصد ذاكرتك .

لقد أصبحتْ ذاكـرتك مليئة بالخروم ، وتداخلت فيها الأشـياء والأسماء، بل أخذت تتآكل فى بعض الأمور !

وخفف هذا من انزعاجي قليلا وواصلت تساؤلى بهدوء : خبّرينى ، كيف ؟ فأجابت : إنك مثلا لم تذاكر دروسك فى هذه الفترة الابتدائية فى جامع الميردانى كما ذكرت وإنما فى جامع المؤيّد . فقلت لها : هذه واحدة والثانية ؟ قالت : إن مدرسة الرضوانية لم تكن فى القربية بل فى حىّ الدوادية . قلت لها : حسنا : والثالثة ؟ قالت : الثالثة هى ثالثة الأثافى ، فشقيقنا الأكبر الذى مات فى ثورة ١٩ لم يكن اسمه فهمى كما ذكرت بل كان اسمه فتحى . وضحكت وقلتُ لها محاولاً تبرير أخطاء ذاكرتى : بل هذا دليل على أن ذاكرتى تزداد تكوينا وتركيبا . حقا ،كنت أذاكر فى جامع المؤيد لا جامع الميردانى . ولكن ما أقرب الميردانى إلى المؤيد ، الأول يقع جنوب بوابة المتولى والثانى فى شمالها ، ولقد قامت ذاكرتى بالتوحيد الجغرافى بينهما وكذلك الأمر بين القربية والدوادية إنهما يشكلان فى ذاكرتى الطفولية أنذاك ساحة واحدة ؟ فقالت لى فى تحد: وفهمى وفتحى ؟ قلت لها : نفس الأمر يا ست أمة الله ، فهناك شبه كبير بين شقيقنا فتحى ، وفهمى شقيق كمال فى رواية بين القصرين ! على أننى بينى وبين نفسى أدركت أن كمال نجيب محفوظ - شقيق فهمى - لا يزال قابعا فى جانب من جوانب شخصيتى برغم تصورى أننى مختلف عنه ! كما أدركت بالفعل أن الذكريات والمشاهد والأسماء قد أخذت تختلط فى ذاكرتى عندما أستعيد بعض هذه اللحظات القديمة . لا أقول هذا لأصحح بعض ما ذكرته فى حديثى السابق ، وإنما لأنبّه القارئ العزيز أننى عندما أواصل حديثى هذه المرة ، فقد أقع فيما وقعت فيه فى الحديث السابق من خروم وتداخلات ، والواقع أن الست أمة الله أشفقت بى فاكتفت بما ذكرتْ ، وهى تعلم بغير شك أن بعض ما تحدثتُ عنه فى المرة السابقة تداخلت فيه مرحلة المدرسة الابتدائية مع مرحلة الدراسة الثانوية. على أنى سأحاول هذه المرة أن أقصر حديثى على المرحلتين الثانوية والجامعية قبل أن أخرج إلى شوارع الحياة المتلاطمة بأحداثها وبناسها .

● ذكريات الطفولة ●

ولكن يبدو أننى لن أستطيع التخلص تماما من المرحلة الابتدائية . فلا تزال تلح علىّ منها حادثة أشبه بالمأساة الضاحكة فى حياتى الصغيرة آنذاك . وقعت هذه الحادثة لى فى السنة الرابعة الأخيرة فى مدرسة النحاسين الابتدائية .

كنت فيما أذكر أحَبَّ التلاميذ إلى تكلا أفندى مدرس اللغة الانجليزية . وفى أحد الدروس الأخيرة راح يسأل تلاميذ الفصل عن كلمة محطة باللغة الانجليزية. وعجز الفصل كله عن معرفتها . وبثقة واعتزاز لاحدّ لهما ، التفت إلىّ تكلا أفندى طالباً الإجابة منىّ . ولا أدرى كيف ضاعتْ منى الكلمة الانجليزية فجأة . وألح تكلا أفندى فى طلبه . فوجدتُ نفسى أقول وأنا فى

حالة هلع شديد وبلهجة خواجاتية : مهطّة ، وانفجر الفصلُ بالطبع ضاحكاً . أما تكلا أفندى فتقدم منى بوجه يقطر غضبا وأمسك بكتفىّ بيديه ثم أخذ ينهال على بطنى ضربا بحذائه . وأعتقد الآن أن قسوته لم تكن نتيجة لخطئى وإنما نتيجة لخذلانى له أمام تلاميذ الفصل . المهم أننى فى تلك الليلة قررت بينى وبين نفسى ألا أذهب إلى المدرسة فى اليوم التالى . وحاولت عدة محاولات ساذجة لأمرض ، ولكن دون جدوى . وخرجت من البيت فى الصباح ، فلم أتوجّه إلى المدرسة وإنما إلى كوبرى قصر النيل ولازلت أتذكر حتى اليوم إحساسى بالجمال الناعم الرقيق لما كان يمْتد أمامى من حدائق . لازلت أتذكرها كلحظة حلم أخضر حر وإن كان مشبعا بالخوف والقلق والاحساس بالخطر! وفى اليوم الثانى كان لابد لى أن أذهب إلى المدرسة ، وكان لابد أن أحمل معى خطابا من أبى بأسباب غيابى . وجلست فى المساء بعد أن انتزعت ورقة عادية من كراسات المدرسة لأكتب خطاب الاعتذار عن الغياب. وبخطّى الطفولىّ قلت لناظر المدرسة إن ابننا محمود كان مريضا جدا جدا جدا بالأمس . وعلشان كده لم يحضر المدرسة . ووقعت باسم أبى . ووضعت الرسالة فى ظرف ، وكالعادة وقفت بجوار حائط مع كل من تغيبوا بالأمس . وما أن تحركت طوابير التلاميذ إلى فصولهم حتى أخذ ضابط المدرسة يقرأ خطابات الاعتذار وما أن وصل إلى خطابى حتى أخذنى إلى غرفة الناظر وكانت علقة ساخنة . ولكن فى الحقيقة صارحتهما بما حدث مع تكلا أفندى ، وذهبت بعد ذلك إلى الفصل، ولم يكن فى هذا اليوم درس لتكلا أفندى . ومضى ذلك اليوم كالمعتاد ، وعندما كنت أسير فى نهاية اليوم الدراسى عائدا إلى بيتى عن طريق ميدان بيت القاضى ، أحسست بمن يداعب طربوشى من الخلف ، فالتفت فوجدت تكلا أفندى ينظر إلى نظرة تقطر مودة وحنانا ، وربت برقة شديدة على خدى ، ثم سار فى طريقه دون أن يقول لى كلمة واحدة . تمنيت فى هذه اللحظة أن أجرى نحوه وأن أعتذر له وأن أقول له إننى أحبه جدا . ولكنى تجمدت فى مكانى فقد كان نهر من الدموع السعيدة يملأ وجهى. لأزال أتذكر هذه اللحظة الرهيفة ويملؤنى إدراك منذ تلك اللحظة بأن أجمل لحظات العمر وأعمقها تتمثّل فى هذا التفاهم الصامت بين البشر .

● أهم لحظات حياتى ●

وانتهت المرحلة الابتدائية ، ووجدتنى ذات صباح ، بدلا من أن أخرج من حارة درب الدليل حيث كنت أسكن واتجه يميناً إلى الباطنية فالحسين فبيت القاضى لأنعطف إلى مدرسة النحاسين ، وجدتنى اتجه يساراً فى شارع حيضان الموصلى ، فبير ألمش لأواصل السير حتى انعطف فى شارع الخيامية فالمغربلين ثم اخترق الحلمية فجنينة ياميش لأدخل مدرسة الإسماعيلية الثانوية فى مدخل ميدان السيدة زينب . كانت الرحلة الصباحية هذه المرة أطول من الرحلة السابقة فى المرحلة الابتدائية . ولكنى كنت استمتع بها كثيرا . ولعلها عمقت طبيعتى الإنطوائية . فلقد أصبحت الرحلات الطويلة التى أقوم بها وحيدا ، هى أهم اللحظات فى حياتى للتأمل، ولحلّ الكثير من المشاكل الشخصية والفكرية ، ثم كانت عالمى الذى أخذت أنسج فيه البدايات الأولى لقصائدى الشعرية عندما بدأت أكتب الشعر ، كنت أنسج البداية ،

أو يتوارد على وجدانى بعض كلماتها وبعض تعابيرها وبعض صورها لأهرع بعد ذلك إلى البيت لكتابتها .

على أن مدرسة الاسماعيلية الثانوية لم تضف إلى حياتى شيئا كثيرا اللهم إلا ثلاثة أمور : الأول هو إحساسى بمزيد من حرية الحركة. كانت هذه المدرسة مدرسة أهلية . إلتحقت بها لعدم قدرة أسرتى على إلحاقى بمدرسة حكومية لارتفاع مصروفاتها – فيما يبدو – عن المدارس الأهلية آنذاك . وكنت فيها أتغيب كما أشاء عن الحضور دون ضرورة تقديم خطابات اعتذار ! الأمر الثانى هو تعلقى برياضة ثالثة جديدة غير رياضة كرة القدم فى أحواش جبل الدراسة ، وغير السباحة ، هى لعبة العقلة والمتوازيين فى حوش المدرسة ، وجدت هذين الجهازين وتعلقت بهما تعلقا شديدا . ولم يكن يمر يوم دون أن أقوم ببعض التمرينات عليهما . وأذكر أننى قطعت شوطا كبيرا فى ذلك . ولا أزال حتى اليوم رغم سنى لا أجد متوازيين بالذات حتى اندفع محاولا – بصعوبة طبعا – ممارسة بعض الحركات القديمة .

وكانت هذه السنة الأولى فى مدرسة الاسماعيلية هى سنة ١٩٣٥ . وما أدراكم بهذه السنة من الناحية السياسية ! بدأت فيها المظاهرات مبكرة ، وكنا ننتظر أن تقبل علينا مدرسة الخديوية أو نذهب إليها . وكانت المظاهرات حامية ومعادية للمحتل البريطاني بالطبع ، ولكنها كانت بالذات ضد تصريح للوزير البريطانى هور . وكنا فى أغلب المظاهرات نُسْقطه ، هاتفين : «يسقط هور ابن الطور» . وكانت المظاهرات السياسية انطلاقا من مدرسة الاسماعيلية نشطة وميسرة للغاية فقد كانت شبه مندمجة فى هذا الحى الشعبى العريق حى السيدة زينب ، ولازلت أذكر بأسىً عميق ما أتخيله حتى اليوم أننى كنت سببا فى مصرع أحد رجال الشرطة . كنا قد علمنا بمصرع الشهيد عبد الحكم وشهداء آخرين . فخرجنا من المدرسة فى مظاهرة كبيرة عالية الهتاف ، تهتف باسمه وباسم بقية الشهداء ، وبسقوط هور والانجليز عامة . وتصدّى لنا كالعادة رجال الشرطة ، ولست أتذكر أنه كان بينهم بعض الضباط الانجليز ، الذين كانوا يملئون علينا الشوارع آنذاك فوق أحصنتهم . وأخذت أجرى مع من كانوا يجرون من حولى ، وفى لحظة ، رأيت أحد رجال الشرطة يجرى نحوى ويكاد يقترب منى ، وقد رفع نبوته الطويل ويهمّ باسقاطه فوق أم رأسى . ولم أفعل شيئا غير أننى ضاعفت فجأة من سرعتى . وسمعت ضربة النبوت على أسفلت الشارع فالتفت خلفى فإذا بى أجد الشرطى قد سقط فوق النبوت منكفئًا بلا حراك ! لست أدرى ماذا حدث له ؟ ولكنى تصورت أننى مسئول عما حدث . وأننى سوف أتهم بقتله وامتلأت رعبا وعجلت من سرعتى وأخذت أجرى حتى كدت أسقط إعياء عندما وصلت أخيرا إلى بيتنا . ولا تزال صورة هذا الجندى المنكفئ خلفى على وجهه ، تلوح لى أحيانا وتملئونى بكثير من الحزن ، ولا تزال الأحداث السياسية فى هذا العام الصاخب حية بشكل أو بآخر فى ذاكرتى .

● أول حادث سياسي ●

ولم أمكث في مدرسة الاسماعيلية غير عام واحد ، والتحقت بعد نجاحي في السنة الأولى فيها بمدرسة الحلمية الثانوية . استطاع أخي شوقي بصداقته لأحمد نجيب الهلالي ، ولعله كان وزيرا للمعارف في ذلك الوقت في الوزارة الوفدية ، استطاع أن يتيح لي الالتحاق بهذه المدرسة بالمجان أو بنصف مصروفات ، لا أدرى تماما ، بعد أن قدّمنا المسوغات الضرورية لذلك . على أنى فى هذه السنة الأولى من وجودى فى المدرسة أو فى بداية السنة الثانية لا أذكر تماما ، وبرغم نعمة التحاقى بهذه المدرسة الحكومية بفضل الحكومة الوفدية حدث لى حادث سياسى لعله كان أول حادث سياسي يمسني بشكل شخصي . كان قد تم توقيع معاهدة ١٩٣٦ . وكانت المدرسة وفدية شأن كل المدارس في ذلك الحين . وكان زعيمها شابا وفديا صعيديا - أتذكر هذا من لهجته - ومن صوته الجهورى، ولا تزال ترن فى أذني جملته المختارة التى كان يحولها دائما إلى شعار وهى «الوفد عقيدة الأمة» . المهم أن طلبة المدرسة أقاموا شبه مظاهرة داخل المدرسة تمهيدا للخروج تعبيراً عن تأييد توقيع معاهدة ١٩٣٦ . على أن أربعة أو خمسة تلاميذ فقط في المدرسة كانوا ضد هذه المعاهدة . وكنت من بينهم . وأذكر كذلك أنه كان من بينهم الصديق أمين صفوت . وكان الدور الأول للمدرسة له ممر وسور خشبى يطل على الحوش الذى كان يحتشد بمظاهرة التأييد . وكنا - نحن المعارضين - فى الدور الأول نطلّ على مظاهرة الحوش ونتبادل الهتافات المتعارضة . وبدأ طلبة المدرسة جميعاً يتحرشون بنا ويحتشدون ويتجهون للصعود إلينا لتصفية الحساب معنا . إلا أن ناظر المدرسة وكان رجلا حكيما - فيما يبدو - تحايل واستطاع إخراجنا نحن الأربعة أو الخمسة من المدرسة سراً . وأذكر أننى خرجت مع أمين صفوت ورحنا ندور على الأحزاب المختلفة لنتعرف على مواقفها . وأمين صفوت بهذه المناسبة هو شقيق الاستاذ جلال كشك . وكان من أبرز من سمعتهم من خطباء في ذلك العهد على صغر سنه . وكنت أقارنه بخطيب عظيم كان يملأ وجدانى إبّان ذلك العهد وأتابعه فى كل مجال يخطب فيه هو توفيق دياب .

المهم أننى ذهبت مع أمين صفوت إلى حزب الأحرار الدستوريين فقوبلنا مقابلة لم تكن تليق على الأقل بحماسنا . ثم ذهبنا إلى اجتماع لبعض شباب الحزب الوطنى فى مكتب أحد المحامين . ومازلت أذكر فى هذا الاجتماع اقتراح أحد الحاضرين بتكوين حزب جديد باسم "الحزب البازى" . وتساءلنا : لماذا هذا الانتماء لهذا الطائر الغريب .. الباز !؟ وفهمنا أن الأمر هو محاولة للتشبه حتى فى الاسم بالحزب النازى ، حزب هتلر ، الذى كان اسمه قد أصبح أسطورة وخاصة بسبب عدائه لعدونا المشترك الانجليز ! ومازلت أذكر احتداد أمين صفوت فى هذا الاجتماع ، ورفَضْنا ما كان يدور فيه من أفكار ومقترحات دون أن أتذكر تماما أى معالم تفصيلية أو عامة لذلك . وهكذا خرجنا بعد أن انشققْنا منذ أول اجتماع ! إلى أين ؟. أذكر بعد ذلك عدة انتماءات سياسية عابرة . كان لنا زميل فى مدرسة الحلمية لازلت أذكر وجهه وأذكر اسمه . كان يدعى الجوهرى . وكان يشبه موسولينى . وكنا نجتمع معه فى مكان بالقرب من

القلعة . وكان يأتى دائما متأخرا . وكنا نقول : هكذا يفعل الدوتش فى إيطاليا ، فهو يأتى دائما متأخرا ، وأظن أن الجوهرى كان منضماً إلى القمصان الخضراء التى شكلها آنذاك حزب مصر الفتاة . والحق أننى لم أنضم إليهم ، ولم أنضم بالطبع إلى القمصان الزرقاء التى شكّلها حزب الوفد . وإن كنت بعد ذلك فى الاربعينات قد بدأت اقترب من الناحية السياسية الوطنية عامة إلى مجموعة الطليعة الوفدية . على أنى أذكر أننى ذهبت كذلك مع أمين صفوت – وان كنت لا أذكر العام – إلى مقر الإخوان المسلمين فى حى الحلمية والتقينا مع الشيخ حسن البنا . واعجبتُ بهذا اللقاء الغريب فى شخصيته بين طربوشه المدنى ودعوته الدينية ! ولكنى لم أشترك فى حركة الإخوان المسلمين . كان فكرى قد أخذ ينشغل بالفلسفة انشغالاً جادا ، وبفلسفة نيتشـه بشكل خاص . وكان ذلك بفضل بعض القراءات فى مكتبة أخى شوقى وبفضل مدرس اللغة الفرنسية مسيو دانييل الذى كان يحدثنا عنه رغم نُذُر الصراع بين هتلر وفرنسا فى هذه السنوات قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ . وفى هذه المرحلة شكلتُ بالفعل مع عدد من الطلبة من مدرسة الحلمية ومن مدارس أخرى مجموعة سرية أطلقنا عليها اسم "المجد الفرعونى" ! وكان للمجموعة برنامج أتذكر أنه كان مزيجا من العداء للانجليز والدعوة للإصلاح والاهتمام بالرياضة . ولا أدرى لماذا لا استبقى فى ذاكرتى من هذا البرنامج بشكل محدد إلا فقرة أخيرة نؤكد فيها على ضرورة إعداد لقاء كل عام وأن نشرب فى هذا اللقاء شايا ونأكل جاتوها !

● عشقت الشطرنج ●

على أننى داخل المدرسة كنت قد بدأت اهتم اهتماما كبيرا بالشطرنج ، وكان ناظر المدرسة من هواة هذه اللعبة . فشجعنا على تشكيل جماعة لها ، وأمدنا ببعض المال لشراء أدواتها . ولقد عشقت هذه اللعبة عشقا قاتلا . أخذت أقرأ كل ما وجدته عنها فى دار الكتب . وغامرت فى قراءة بعض الكتب الانجليزية عنها . وتعلّقت بلاعب اسمه إليخين ، رحت أجمع كل أدواره . وأصبح عندى كرّاس أسجل فيه الافتتاحيات الرئيسية والدراسات الخاصة بكل قطعة ، وبعض الأدوار المهمة ، ومن بينها بعض الأدوار التى لعبتها ، ولم يقتصر اهتمامى على الشطرنج فى المدرسة ، بل خرجت ألعبه فى مختلف المقاهى التى اشتهرتْ به كقهوة متاتيا فى العتبة الخضراء وغيرها . وكان يصاحبنى فى هذا أمين صفوت الذى كان لاعبا ماهرا ، كما كان يصاحبنى فى ذلك صديق آخر عزيز كان شاعرا جيدا هو محمود عزمى اسماعيل ، لازلت أذكر وجهه وشخصيته الدمثة . أتمنى أن يكون حيا ، فى صحة وعافية ، وأتمنى ذلك كذلك لأمين صفوت الذى انقطعتْ عنى أخباره منذ فترة بعيدة .

● الفلسفة والتأمل الذاتى ●

المهم أننى فى هذه المرحلة الثانوية وخاصة قرب نهايتها ، أخذ اهتمامى السياسى يخفت أو رحت أتحرك فيه بشكل هامشى وسطحى ، وبدأ يزداد اهتمامى بالشعر والفلسفة والشطرنج والتأمل الذاتى . اذكر أننى كرست كشكولا لتأملاتى كان عنوانه "بينى وبين نفسى" مازلت

احتفظ به . أقرأ فيه أحياناً ما كنت أكتبه فيه ، فأجد تأثرا كبيرا بابن المقفع وخاصة بأدبه "الكبير" و"الصغير" ، بل ألمح محاولة لتقليد أسلوبه ، وأجد تأثراً كبيراً بالحلاج ، وملخصاً لبعض القراءات ، وبرنامجاً لإصلاح نفسى وإصلاح العالم ، واعترافات بإحساس عميق بالعزلة الشديدة داخل أسرتى بل وخارجها . والواقع أنه لم يكن لى فى البداية أصدقاء غير أمين صفوت ومحمود عزمى اسماعيل . حقا ، لقد قامت مودة كبيرة بينى وبين طالب فى الصف الثالث من المرحلة الثانوية كان مهتما اهتماما كبيرا بالاختراعات ، وقام بالفعل باختراع بعض الأجهزة والأدوات ، وكان شابا على درجة عالية من التهذيب والنبل ، اسمه أحمد الشايب . كان بيته فى مواجهة القصر الملكى فى عابدين . كنت أزوره لنلعب الشطرنج ، وكنت أحاول تقليده فى الاختراع وأذكر أننى قمت باختراع قفل آلى يُغلق ويُفتح بغير مفتاح ! لا أدرى الآن كيف ؟ ولكن لم أواصل هذه الهواية . فقد غلب على توجهاتى الجانب النظرى . ولكن لم تخرج علاقتى مع أحمد الشايب عن هذه المودة العلمية والشطرنجية . وأتوقع أن يكون قد بلغ مرتبة عالية فى مجال الاختراع . وأتمنى أن اسمع عنه خيرا . وعرفت فى الفصل نفسه أمين عز الدين الذى كان يجاورنى فى مقعدى الدراسى ، وظلت صداقتنا ممتدة من هذه السنة الثالثة الثانوية حتى اليوم ، وتحولت فى بعض المراحل إلى لقاء فكرى ونضالى . وأصبح أمين عز الدين بعد ذلك أبرز مؤرخ للحركة النقابية العمالية فى مصر . أما زميل الدراسة الآخر فهو مصطفى سويف لم نكن فى فصل واحد . كنت أسبقه فيما يبدو بعام . ولكن مازلت أذكر حتى اليوم محاضرة له ألقاها فى مدرسة الحلمية الثانوية باللغة الانجليزية ، ونحن سعداء أن يقوم تلميذ منا بالحديث باللغة الانجليزية – ولا تزال تعلق بذاكرتى السمعية والعاطفية عبارة له فى هذه المحاضرة هى Our beloved Country لقد اتصلت بعد ذلك مودتنا واهتماماتنا العلمية ، وأصبح مصطفى سويف اليوم من أبرز علمائنا ومفكرينا فى مجال علم النفس .

نعم كان هناك كل هؤلاء الأصدقاء والزملاء وغيرهم فى هذه المرحلة ، ولكنى مع ذلك كنت أعيش احساسا عميقا بالوحدة والعزلة ، وكان الاستغراق فى الشعر والشطرنج والقراءات الفلسفية تعبيرا فكرياً عن هذا الإحساس ومحاولة لتجاوزه .

● الجامعة وفى وزارة المعارف ●

ثم كان انتقالى إلى الجامعة . وكان من الطبيعى أن أتمسك بالالتحاق بقسم الفلسفة بكلية الآداب ، متأثرا بقراءاتى فى الفلسفة وتعلقى بنيتشه بالذات . وكان أخى شوقى حريصاً على أن ألتحق بقسم اللغة العربية . كان العميد آنذاك هو الأستاذ الكبير أحمد أمين وكان صديق لأخى كذلك . وحاول أن يقنعنى هو نفسه بقسم اللغة العربية ، ولكنى مع انبهارى بشخصيته وحديثه ، تمسكْت بقسم الفلسفة . وفى هذه السنة الأولى من حياتى الجامعية وجدت نفسى أكثر حرية وتفرغا لكتابة الشعر ولعب الشطرنج والاستغراق الذاتى فى التأمل ، ولم أهتم كثيرا

بالدراسة المنتظمة ، اللهم إلا بعض الدروس وخاصة محاضرة الدكتور توفيق الطويل . كان إنسانا واستاذاً ساحرا فى شخصه الشفّاف وحديثه الفصيح الحريرىّ الجميل . والواقع أننى رسبت في السنة الأولى رغم نجاحي في جميع العلوم ! وكان ذلك بسبب نظام إدارى غريب . كان هذا النظام يفرض على الطالب ألا يدخل الامتحانات الشفهية ، وكانت تشمل جميع المواد تقريبا ، إلا بعد دخوله امتحانات جميع المواد التحريرية ! وفى هذه السنة كانت اللغة اللاتينية من أصعب مواد الدراسة علىّ . فقررت تأجيلها إلى الملحق ، لاستعد استعداداً أكبر للامتحان فيها . وكان معنى هذا تأجيل امتحاناتى الشفهية فى جميع المواد الأخرى التى كنت قد نجحت فيها بالفعل . ونجحت كذلك فى امتحان اللغة اللاتينية فى الملحق أو ما كنا نسميه بالدور الثاني الذى ينعقد فى مطلع العام الجديد . ولكني للأسف رسبت فى مادة أو أكثر فى الامتحانات الشفهية ، فما اهتممت اهتماما كافيا بمراجعة موادها إذ كنت مطمئنا إلى معرفتى بها بدليل نجاحى فى امتحاناتها التحريرية من قبل . والمفارقة الغريبة أننى رسبت فى امتحان الفلسفة فى هذه الامتحانات الشفهية . حضرتُ هذا الأمتحان شبه نائم من ارهاق السهر طول الليل محاولا تحصيل المقرر كله . وكان الدكتور عبد الرحمن بدوى - فيما أذكر جيدا - فى لجنة الامتحان . وما أعتقد أنه اغتفر لى ذلك أبدا بطبيعته النيتشوية الصارمة ! المهم رسبت فى السنة الأولى ، وأذكر أن الاستاذ أحمد أمين انزعج لهذا جدا ، وسارع إلى تغيير هذا النظام الإدارى للامتحانات الشفهية . وكان من الصعب بعد ذلك أن أواصل دراستى الجامعية لولا أن أختى عائشة أصرت على ذلك . وكانت مستعدة أن تبيع «مصاغها» من أجل أن أواصل الدراسة . وكان الحل أن أعمل وأن أواصل الدراسة فى الوقت نفسه . وهكذا التحقت بعمل كتابى بديوان وزارة المعارف (آنذاك) ، انتقلت بعده إلى العمل أميناً للمخازن ثم سكرتيراً لمدرسة الأورمان الابتدائية لأكون قريباً من الجامعة ولأتمكن من مواصلة الدراسة . إلا أن ناظر المدرسة عندما علم بأنى طالب فى كلية الاداب ، وأننى أذهب أحياناً لأحضر بعض الدروس ، منعنى من ذلك . ولهذا حاولت ونجحت في إيجاد عمل داخل الكلية نفسها ، وذلك بعمل بدل بينى وبين أحد موظفيها . إلا أن عملى داخل الكلية كموظف كتابى كاد أن يحرمنى تماما من حضور أى محاضرة ، بل كاد أن يفصلنى منها ! ذلك أن الموظف الذى أخذت مكانه، كان طالبا بها كذلك . ولكنه استغل عمله بها وسرق بعض الامتحانات ! وخشية أن أستغل عملى فى الكلية فأكرر ما فعله ، طلب منى عميد الكلية وهو آنذاك الدكتور حسَن إبراهيم حسن، أن أبحث لى عن عمل آخر خارج الكلية وإلا سيُضطر لفصلى ، على أن امتنع نهائيا عن حضور أى محاضرة ! وبعد فترة ، توطدت الثقة بى ، وواصلت وجودى فى الكلية مع استمرار شرط عدم حضور المحاضرات أثناء العمل الرسمى . وقد ساعدنى ذلك تماما فى الاعتماد أساسا على المراجع والقراءة الخاصة الشخصية فى المواد المختلفة ، وفى الحرص على تجويد الأبحاث التى كان يكلّف بها الطالب وقامت علاقة شخصية بينى وبين اساتذه الكلية عامة وأساتذة قسم الفلسفة بوجه خاص وفى مقدمتهم الاستاذ الجليل الدكتور يوسف مراد ، الذى

كان له أكبر الأثر فى توجيهى العلمى . والغريب أن أقرب الناس إلى فكرى فى هذه المرحلة وهو الدكتور عبد الرحمن بدوى كان أبعد الناس عنى لطبيعته الشخصية التى كانت تتسم بالصرامة والتعالى النيتشوى ! وتعمقت علاقتى باستاذ آخر من قسم اللغة الانجليزية كان قادما لتوّه من انجلترا هو الدكتور لويس عوض . وقد جمعنى مع لويس عوض فى البداية أمران : الموسيقى الكلاسيكية والشعر . اشتركت معه فى تأسيس جمعية الجراموفون التى كنا نقيم جلساتها فى نادى الكلية ويحضرها العديد من اساتذة مختلف كليات الجامعة . مازلت أذكر منهم العالم المصرى الجليل الدكتور مصطفى مشرفة ، كما كان يحضر بعض المثقفين من خارج الجامعة ، ولعل هذه كانت المناسبة التى تعرفت فيها على الأديب والفنان العزيز عبد الرحمن الخميسى . على أن علاقتى بلويس عوض توثقت كذلك عندما قرأت له بعض شعرى ، الذى تحمس له وقام بترجمة قصيدة طويلة منه إلى الإنجليزية . ثم توثقت علاقتى الفكرية به بعد ذلك عندما أخذت اقترب من الفكر الاشتراكى العلمى . والواقع أننى فى هذه المرحلة الجامعية كنت أتراوح فكرياً بين نيتشوية ووجوديّة عبد الرحمن بدوى واشتراكية لويس عوض . والغريب أننى كنت أرى فى وجودية عبد الرحمن بدوى – وخاصة بعد أن طبع رسالته عن الزمان الوجودى – أنها وجودية مغدورة ، ذلك لأنه صبها فى قوالب ومقولات تجمد – فى رأيى آنذاك – طبيعتها الوجودية . وكان يشاركنى هذا الرأى صديق العمر فى هذه المرحلة الجامعية وهو عباس أحمد المفكر والقصّاص والروائى والإذاعى والتلفزيونى الكبير الذى لم يأخذ حتى اليوم حقه من التقدير . وأذكر أننا قرأنا معا رسالة الدكتور بدوى ، وامتلأنا غضبا عليه ، وقررنا الذهاب إليه لمحاسبته ومحاكمته فى بيته . ولحسن الحظ أنه لم يقابلنا عندما ذهبنا إليه. فقد كنا فى حالة من الهياج الفكرى والنفسى وخاصة بعد أن شربنا نصف «فياسكة» من النبيذ استعداداً للقائنا به ! وأذكر أننا ذهبنا بعد ذلك إلى صديقنا "فرحات توما" فى بيته بالجيزة لنحكى له صدمتنا وفجيعتنا الفكرية فى عبد الرحمن بدوى ! والواقع أن القضية الفلسفية كانت آنذاك – قضيتنا الحياتية الحميمة . وإذا كان هذا هو موقفى آنذاك من وجودية عبد الرحمن بدوى فقد كان موقفى مشابها من اشتراكية لويس عوض . كنت أراها اشتراكية ملتبسة غير علمية ، رغم أننى لم أكن اشتراكيا فى فترة الدراسة الجامعية ، بل كنت مختلفا فلسفيا مع الماركسية وأقرب سياسيا إلى النشاط الوطنى الديمقراطى عامة . على أن الدكتور يوسف مراد بمنهجه التكاملى ، واستاذيته الرفيعة كان يتيح لى قدرا من التوازن الفكرى بين وجودية بدوى واشتراكية لويس عوض . وحول الدكتور يوسف مراد تحلّقت مجموعة من طلبة قسم الفلسفة ، كان منهم مصطفى سويف ويوسف الشارونى ، ومحمد جعفر وبدر الديب وعباس أحمد وبهيج نصّار وأنا . ومن معطف يوسف مراد تشكلّت بيننا ملامح مشتركة ونضجت فى الوقت نفسه ملامح مختلفة متمايزة . وتفرقت بيننا بعد ذلك السبل الإيديولوجية والعملية وأن ظلت بيننا مودة من أغنى كنوز الحياة . على أنه خارج هذه المجموعة قامت صداقة نادرة أخرى بينى وبين طالب سورى فى قسم الفلسفة ، هو سامى الدروبى . وكان

لسامى الدروبى بشخصيته النورانيّة البالغة الشفافية والصدق ، وثقافته العميقة فضل تفتحّى على الحركة القومية العربية ، وبرغم ما كان بيننا من اختلاف حول منهجها فى حوارنا المشترك الحميم الذى لم ينقطع حتى آخر أيامه ، فقد ظل سامى الدروبى ولا يزال أعز الأصدقاء وأقربهم إلى نفسى .

● أنا والواقع السياسى ●

ما أكثر ما يقال عن هذه المرحلة ، مرحلة الأربعينات ، وعن كل ما كان يزخر فيها من أحداث وأفكار وعلاقات شخصية وعامة ، فى بدايتها كنتُ أقرب إلى الفكر المثالى بل الصوفى كانت لى شطحات مع هيجل بوجه خاص ونيتشه ، وبرجسون ، والحلاج . وأذكر أننى ألقيت محاضرة فى الجمعية الفلسفية فى كلية الآداب آنذاك ، بعنوان «اللامعقول فى الطبيعة والفن» دافعت فيها دفاعا مجيدا عن اللامعقول . ثم ساهمت فى إصدار مجلة بعنوان «البشير» صدر منها أربعة أعداد أو خمسة كانت افتتاحيتها بالذات التى كتبتها دعوة إلى التمرد العدمى المطلق على كل تحْديد ، انطلاقا من رؤية مثالية للعلوم الطبيعية نفسها . على أنى فى الوقت نفسه كنت اشترك فى المظاهرات السياسية والاجتماعية طوال فترة الاربعينات بروح نقدية رافضة للأوضاع القائمة ويغلب عليها الطابع الوطنى الديمقراطى ، مع اختلافى مع الفكر الماركسى وإن كنت أنسج فى الوقت نفسه علاقات فكرية حميمة مع العديد من الماركسيين أخص منهم بالذكر الشهيد عبد الخالق محجوب ، والزميل العزيز التيجانى الطيب اللذين كانا طالبين بقسم اللغة الانجليزية . ولهذا سجّلت رسالة ماجستير فى الفلسفة عندما تخرجت فى القسم موضوعها "المصادفة فى الفيزياء الحديثة ودلالتها الفلسفية" محاولا بها أن أنفى الأساس الموضوعى لعلم الطبيعة بالذات وأن أؤكد جذره المثالى الذاتى ، وفى الوقت نفسه كنت اشترك اشتراكا عمليا فى حركة ١٩٤٦ ، "لجنة الطلبة والعمال" ، وكنا قد رشحنا عباس أحمد ممثلا لقسم الفلسفة فى هذه اللجنة . وأذكر أنه فى هذه الأيام العاصفة من عام ١٩٤٦ بحث عنّى سكرتير الكلية ، لأقوم ببعض الأعمال الإدارية التى كنت لا أزال مسئولا عنها ، فلم يجدنى واكتشف غيابى فى مظاهرات هذه الأيام ، فأوقع علىّ عقوبة إدارية . كنت ممزقا فى هذه الفترة بين اتجاهات وارتباطات وأنشطة شتى . كنت التقى بيوسف مراد الذى كان مشرفاً على رسالتى ، والتقى بلويس عوض ورمسيس يونان وجورج حنين فى المجلة الجديدة التى تركها سلامة موسى لرمسيس يونان ليشرف عليها فى هذه الفترة ، وكنت أحرص على حضور محاضرات سلامة موسى فى جمعية الشبان المسيحيين ، وأذكر لقاءً مع علال الفاسى والشيخ أمين الحسينى وصالح حرب وغيرهم حول قضية فلسطين فى جمعية الشبان المسلمين . وأذكر حوارات سياسية واقتصادية ذات توجه ماركسى فى دار الأبحاث العلمية ، قبل لقائى بعد ذلك بأنور عبد الملك وشهدى عطية الشافعى . على أنى لا أنسى أبدا زيارة قام بها ثلاثتنا يوسف الشارونى ومصطفى سويف وأنا للدكتور طه حسين . ذهبنا لأقرأ له شعرى ويقدم الشارونى حصيلته من القصص ، ومصطفى سويف عمله العلمى فى مجال علم النفس . ولكن طه حسين

سرعان ما تحول بنا من هذه الاهتمامات الأدبية والعلمية ليسألنا عن موقفنا من الواقع السياسي السائد . وكانت حركة الإخوان المسلمين قد أخذت تبرز وتسعى لفرض فكرها بل حركتها على الشارع المصري آنذاك . وكنا بالطبع في الجانب المعارض لهذه الحركة ، وقد أحسسنا من طه حسين رضاً عن ذلك . ثم فاجأني بقوله ناقداً لنا بما معناه "إنكم تتبنون أفكاراً جيدة ، ولكنكم لا تعرفون ولا تدرسون التكتيك والاستراتيجية الثورية التى تتيح لكم تحقيق هذه الأفكار ولعلى ذكرت هذا فى مقال قديم لى عن طه حسين . وقد خرجنا من عنده مذهولين بهذا الوعى السياسى العملى ! وفى هذه المرحلة جاء استاذ فرنسى زائر لقسم الفلسفة هوجان جرنييه وكان استاذاً للمفكر والأديب الفرنسي كامو ورغم أنيَ آنذاك كنت قريبا منه فكريا ، ولكنى اختلفت معه كثيرا . ثم جاء بعده استاذ فرنسى آخر زائر هو ادوار موروسير وهو هيجلى النزعة وله كتاب فكرى مهم يقوم على أساس مفهوم النفْى . وقد اقتربت كثيرا منه وأسعدنى وجوده الفكرى خلال فترة كتابتى لرسالتى العلمية التى أصبح مشرفا عليها مع الدكتور يوسف مراد .

وكنت فى هذه الفترة قد انتقلت من موظف إدارى فى كلية الآداب ، إلى أمين مكتبة قسم الجغرافيا ثم إلى مترجم ومنظِّم محاضرات بالكلية ، وأخذت انقطع تماما للانتهاء من رسالتى العلمية ، وعندما كنت أكتب فى فصولها الأخيرة حول بعض الاتجاهات الابستمولوجية «المعرفية» فى القرن التاسع عشر فى انجلترا وفرنسا والمانيا ، وقع فى يدى كتاب يعرض لهذه المرحلة عرضا نقديا ، وحرصت على أن أتوقف عنده استكمالا لمراجعى . وكان الكتاب هو «المادية والنقد التجريبى» لفلاديمير إيلتش لينين . وما أن انتهيت من قراءة هذا الكتاب ، ومن كتاب آخر قادنى إليه هو «جدل الطبيعة» لفريدرك انجلز ، حتى تزلزلت كثير من أفكارى التى كنت أعرضها فى رسالتى العلمية ، بل حسمت بعض القضايا التى كانت ضبابية قلقة فى رأسى . وهكذا قمت بتغيير عنوان رسالتى من "نظرية المصادفة فى الفيزياء الحديثة" إلى "نظرية المصادفة الموضوعية فى الفيزياء الحديثة" ، وبدأت أعيد كتابة العديد من فصول الرسالة على أساس من رؤية موضوعية للعلم . وهكذا بدلا من أن أقدم رسالتى بعد بضعة أشهر ، أخذت منى سنتين أو ثلاث سنوات أخرى لاستكمالها . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تحولتُ عن الرؤية الفلسفية المثالية إلى الرؤية المادية الجدلية ، وإلى الاشتراكية العلمية ، وأخذت أقترب بحماس فكرى من بعض التنظيمات الماركسية السرية ، وانتهى بى الأمر إلى الانضمام إلى احداها ، والمشاركة فى نشاطها . وانتهيت من رسالتى العلمية التى تضمنت هذا التوجه الفكرى الجديد ، وإن حاولت إخفاءه باستخدام بعض المصطلحات الملتبسة ، فبدلا من كلمة الجدلية مثلا كنت استخدم كلمة «التكميلية» على ما بين الكلمتين من اختلاف ! وحصلت على درجة الماجستير ، وعلى جائزة الشيخ مصطفى عبد الرازق للفلسفة تقديرا لهذه الرسالة ، وعينت مدرسا مساعداً لمادة المنطق وفلسفة العلوم بقسم الفلسفة بالكلية، وقمت بتسجيل رسالة للدكتوراه أواصل بها دراسة موضوع الضرورة - الوجه الآخر للمصادفة - فى العلوم

الإنسانية ، بعد دراستها فى الفيزياء ، فى رسالة الماجستير . وكان العام هو عام ١٩٥٤ . كنت قد تزوجت عام ١٩٥٢ من طالبة فى قسم اللغة الانجليزية كانت تواظب على حضور جلسات الموسيقى الكلاسيكية التى كنت أعقدها كل أسبوع هى سميرة الكيلانى ، وأصبحت لنا فى عام ١٩٥٤ طفلة جميلة ، وامتلأت حياتى بمشروعين كبيرين ، هما مشروع فلسفى علمى استكمل به بحثى السابق ، ومشروع سياسى نضالى أحقق به عمليا رؤيتى الفكرية الجديدة . وكنت فى عام ١٩٥٤ اختلف اختلافا كبيراً حاداً مع النظام الناصرى بعد أن كنت قد أيّدته تأييدا متحفظا مشروطا فى بدايته عام ١٩٥٢ . وكانت قضية الديمقراطية والعلاقة مع الأمريكان هى نقطة الاختلاف الأساسية حينذاك معه .

● قرار بالفصل من الجامعة ●

وفى عصر يوم من أيام صيف ١٩٥٤ اتصلت بى كلية الآداب ، وطلب منى سكرتيرها أن أحضر فورا لمقابلة عميدها الدكتور يحيى الخشاب . ولبست ملابسى وذهبت مسرعا إلى غرفة السيد العميد . ومنذ الوهلة الأولى أحسست بشىء غير عادى . وجدت معه الدكتور لويس عوض وكانا ينتظراننى فى صمت غامض . ثم مالبث الدكتور الخشاب أن أبلغنا بحزن عميق وتأثر صادق أن هناك قراراً بفصلنا من الكلية . وشكرنا مشاعره ، الدكتور لويس عوض وأنا ، بل أخذنا نخفف عنه الأمر وخرجنا

وأتذكرالآن الطريق الطويل الذى أخذنا نقطعه بتمهل لويس عوض وأنا ، من كلية الآداب – جامعة القاهرة إلى ميدان الجيزة ، من ساحة الجامعة التى كانت فارغة فى هذه المرحلة من الصيف وفى فترة بعد الظهر ، إلى ميدان الجيزة الزاخر بالناس والحركة . ما تكلّمنا كثيرا . لا شك أن حزنا ذاتيا كان يملأ قلبينا . بل كنت أحس شخصيا بأن حلمى بالمشروع الفلسفى قد أخذ يتلاشى ، وأشعر بتهديد غامض لمستقبل ابنتى الوليدة . ولكنى أتذكر أننا ونحن نفترق لويس عوض وأنا ، قلنا معا شيئا واحداً واتفقنا عليه معا ، بوضوح وحسم : سوف نغيب عن ساحة الجامعة ، ولكن لا ينبغى أن نغيب أبدا عن هذه الساحة التى نمضى نحوها ، ساحة شعبنا ، بلادنا ، ساحة مصر كلها ، سنواصل فيها الرسالة التى يؤمن بها كل منا .

وواصل لويس عوض مسيرته المضيئة الشريفة التى لا تزال رغم وفاته تنبض فى وجدان شعبنا وثقافتنا العربية بفعلها التنويرى .

أما أنا ، فمازلت فى الطريق العاصف الذى بدأته منذ تلك السنوات البعيدة ، أتحرك فى مساراته السياسية والفكرية والأدبية قدر طاقتى ، ومازلت أتعلم وأحاول أن أتكوّن وأتجدد كل يوم ، وأن أكون نافعا للناس وللثقافة .

وأتمنى عندما تقترب ساعة الذهاب الأخير ، أن أكون قادرا على أن أقول ما قاله الفيلسوف كانط وهو على فراش الموت يتأمل حياته هذا حسن . ولكن ... هيهات لى أن أبلغ هذه المرتبة الرفيعة



• الهلال وصحفى قديم •

شاهدت السيد رئيس تحرير الهلال على شاشة التليفزيون أثناء حديثه عن المراحل التى مرت بها مجلة «الهلال» منذ صدور العدد الاول منها فى سبتمبر ١٨٩٢ حتى بلوغها المرحلة الحالية .

ونظراً لأننى قمت شخصيا بدور هام فى عملية التطوير الذى أدخل على المجلة عندما قررنا تعديل حجمها وجعلها بالحجم الحالى تروننى على استعداد - اذا رغبتم فى ذلك - للإدلاء بالمعلومات التى لدى المتعلقة بأسباب هذا التغيير وكيف تم من الناحية التحريرية والطباعة .

ولا يدعونى الى الكتابة اليكم بهذا الخصوص إلا الرغبة فى خدمة الحقيقة والتاريخ .

شفيق مرشاق

رئيس أقسام تحرير «دار الهلال » سابقا

تعليق الهلال :

- الأستاذ شفيق مرشاق صحفى قديم معروف نرحب به إذا رغب فى الإدلاء بذكرياته حول «الهلال» خدمة للصحافة المصرية والعربية وما يمثله «الهلال» بعد مرور مائة عام على صدور العدد الأول منه .

•حول الحركة الصهيونية الثقافية•

نشرت الهلال في عددها (٣ - مارس ١٩٩٣) مقالا بعنوان «اخناتون والصهيونية الثقافية» للكاتب حمدى خضرى وفا تناول أحد بحوثى التاريخية بالنقد والاتهام ولكن مقاله غير موثق بأدلة علمية .

١ - ورد فى المقال أن اخناتون هو أول من نادى بديانة التوحيد قبل

بعث الرسل ، فهل يشمل هؤلاء الرسل نوحا وصالحا وهودا عليهم السلام ؟! فمن الثابت استدلالا بآيات القرآن الكريم (غافر : ٣١) وبما هو معروف تاريخيا وأثريا أن المصريين كانوا على دراية كاملة بهؤلاء الأنبياء وبالقصص الواردة عنهم ، فقد كانوا سابقين فى زمانهم على زمان يوسف وموسى وداود فكانوا كذلك سابقين على اخناتون .

٢ – أورد الكاتب اتهاما خطيرا لجزء من دراستى وتحليلى بكتاب «فرعون موسى» هذه الدراسة التى تظهر وجود بعض تشابه بين المزمور (١٠٤) لداود عليه السلام ونشيد اخناتون وتظهر كذلك وجود تشابه كثير بين ماورد فى الأمور العقائدية مثل حساب الآخرة والجنة والنار وكان المقصود من هذه الدراسة تتبع منشأ تلك الأفكار والنصوص فى محاولة لتحديد زمان فرعون موسى لأن أول النصوص المكتوبة والمدونة كان فى زمان إبراهيم وموسى طبقا لما ورد قرآنيا : «إن هذا لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى» (الأعلى: ١٨ ، ١٩) » وعليه فإن دراسة بعض نصوص التوراة واسفارها ومزامير داود كانت لازمة لإثبات حقبة فرعون موسى لأن صحف إبراهيم غير متداولة أو معروفة ، ولهذا فإن اتهام هذه الدراسة بمحاولة إثبات أن حكماء قدماء المصريين ومنهم اخناتون قد سطوا (أو كما أورد الكاتب كذلك، سرقوا) التراث التوراتى لليهود ، هو تأويل خاطئ للكاتب الذى يتوهم صورة يسميها : «الحركة الصهيونية الثقافية» .

وهنا أرد على الكاتب فأقول : إن مصر أكبر مما تتوهم فلا تخف من البحث عن الحقيقة فى الأمور التى تهم التاريخ المعاصر بعد «تواجد» إسرائيل على أرض الواقع التاريخى فى زماننا المعاصر حتى نستطيع الرد على الإدعاءات الإسرائيلية وليس الهرب منها .

٣ – دافع الكاتب عن الرأى القائل بأن فرعون موسى هو رمسيس الثانى أو ابنه مرنبتاح ، تمشيا مع إجماع العلماء الذين لا يعلم عنهم أنهم إسرائيليون أو موالون لإسرائيل . فمن المعروف أن اتهام هذين الملكين جاء بمحض الصدفة عندما قام المؤرخ (يوسف) اليهودى بالرد على كتاب المؤرخ المصرى (اوبيون) عن تاريخ بنى إسرائيل فى مصر الذى ذكر فيه بالدليل ومن



واقع نصوص التوراة أن الإسرائيليين كانوا أهل فتنة ، وأنهم كانوا عبيدا مسخرين ، وأنهم قد سرقوا المصريين عند خروجهم من مصر وغير ذلك من الواقع التاريخى لبنى إسرائيل ، ففى رده ادعى المؤرخ يوسف اليهودى أن بنى إسرائيل قد دخلوا مصر فى زمان يوسف كفيلق من الهكسوس ، وذلك ليثبت أن الإسرئيليين هم الذين أذاقوا المصريين العبودية وليس العكس . وبناء على هذا وقياسا وتطابقا بين المدة الزمنية لدخول وخروج الهكسوس ودخول وخروج بنى إسرائيل يكون فرعون موسى هو رمسيس أو ابنه مرنبتاح .

أرد على كاتب المقال فى هذا الشأن فأقول لا تشجع يا سيدى ادعاءات علماء إسرائيليين وتسفه حقائق توصل إليها اخوك فى الوطن فتخدم ، أنت لا نحن ، عن غير قصد ما تسميه : «الحركة الصهيونية الثقافية» يا أخى لقد تم التعرف على حقيقة فرعون موسى وتم التوصل إلى موميائه ومقبرته ولا تزال سيادتكم تردد اتهامك لملك مصر العظيم «رمسيس» .

٤ - أورد الكاتب ما يفيد بأن سلسلة «تأملات» طبيب بين الاثار المصرية لم يكن الغرض منها إلا اثبات أن أسفار موسى الخمسة فى التوراة قد نزلت عليه أو كتبت قبل حكم وأناشيد وإبداعات حكماء قدماء المصريين وعلى ذلك فالمصريون هم الناقلون من اليهود لا العكس .. يا سيدى .. إننا نحاول فى هذه السلسلة إظهار الدور الرائد لمصر فى التاريخ العقائدى للبشر أجمعين ، ونحاول كذلك كشف النقاب عن فترة تسمى فى التاريخ المصرى بفترة الظل التاريخى أو الإبهام التاريخى وليس لها أى علاقة مباشرة من قريب أو بعيد بالتوراة وأسفارها ، اللهم إلا للاستدلال ببعض النصوص لتأكيد واقعة تاريخية أو أثرية .

٥ - أورد الكاتب تشكيكا عاما فى حقيقة فرعون موسى كما سجلناها فى كتاب «فرعون موسى» كما أورد تشكيكا فى الأسانيد والاستدلالات على هذا الموضوع ، ويكفى رداً أن أرجو الكاتب وأى قارئ يريد الحقيقة الاتصال

بى لنزور معا مقبرة أوزير (عزير) الذى هو فرعون موسى ليوقنوا بالحقيقة وبصحة بحوثنا عن فرعون موسى ، وقد كان أول تطبيق لنتائج هذا البحث الوصول إلى مومياوات قصر العينى وهي أكبر خبيئة للمومياوات احتوت أكثر من ألف مومياء وهيكل عظمى لملوك وملكات وأمراء من جميع العصور الفرعونية . وقد تحدثت عنها جميع وسائل الإعلام .

د . سعيد محمد أحمد ثابت

أستاذ بكلية طب القاهرة

● العصا .. والعصاة ●

فى عدد مارس ١٩٩٣ من (الهلال) وفى مقال الاستاذ محمود أمين العالم جاء قوله :« ومازلت اذكر الشيخ السعدنى بوجهه المتجهم دائما و(عصاته) الطويلة التى ما كانت تعجز عن الوصول إلى أى تلميذ» .

وصواب المقوسة (عصاه) وليس (عصاته) بالتاء وقد قيل إن أول خطأ وقع فى البادية قول الاعرابى القح (هذه عصاتى) ، والمثل يقول : (العصا لمن عصى) .. كما جاء قوله :« وما اكثر ما كنت أشاهد (آن ذاك) ... الخ والصواب أن يقرن اللفظين فيقال (آنذاك) كما يقال حينذاك ووقتئذ وساعتئذ .. الخ مقرونة . فلزم التنبيه .

عدنان أسعد

تعليق الهلال :

- سبق أن نبهت «الهلال» فى باب «لغويات» إلى هذا الخطأ فى كلمة العصا ، وهو خطأ يقع فيه كثير من الأدباء والصحفيين الآن ، ولكن لعل الأستاذ العالم وقع فيه سهوا .

● الشاعر بائع الكسكسى ●

الكسكسى أكلة مغربية الأصل كما يقال ، ينطقها بعض أهل ليبيا «كسكاس» وننطقها نحن أهل الصعيد - سكسكية .. وأنا كنت فى الزمان الأول طالبا فى كلية دار العلوم وقد فصلت منها لأسباب يطول شرحها .

أنت والهلال

وقصائدى ، عفوا : محاولاتى لا أظن أن لها مكاناً على صفحاتكم لأكثر من سبب ؛ من هذه الأسباب أنها قصائد أو محاولات طويلة ، ومنها أنها محاولات ذات صبغة سياسية ، ذقت من جرائها الكثير .

ولى بعض المحاولات السكسكية الشعرية سيما وأننى الآن بائع سكسكية ، فإن شئتم أن تضحكوا معى فاضحكوا واليكم القصيدة :

وأعرج يا سحاب كأن دهرى ... يناصبنى العداء بلا جناح

كأن لم يكفه ما نال منى ... ليستلب القوادم من جناحى

ضباب أينما يممت وجهى ... وهم فى الغدو وفى الرواح

وإن أك قد فصلت كدرعمى ... فما «الآداب» بالحرم المباح

ولو كان البكاء يفيد شيئا ... لأبدلت القصيدة بالنواح

تتابعت الجراح على فؤادى ... وليس هناك من يأسو جراحى

فصرت وقد تنكر لى زمانى ... أبيع السكسكية فى الصباح

أشرف البولاقى - قنا

تعليق الهلال :

- لا بأس بما حكم الزمان عليك ، فإن بيع السكسكية يجلب الرزق الحلال، ولا يقل شرفا عن تدريس النحو والصرف فى المدارس لو كنت قد أكملت الدراسة بدار العلوم .. وقد رأيناك تقول فى الشطر الثانى من البيت الرابع : «فما حرم الآداب بمستباح» وأحسن منه فى رأينا أن تقول :«فما الآداب بالحرم المباح» لتستطيع إظهار المد فى «الآداب» .. أما الشطرة الثانية فى البيت الخامس فتركناها على حالها لتصلحها بنفسك ، فالصواب إبدال كلمة «النواح» بكلمة القصيدة لأنك ستترك القصيدة وتأخذ النواح ، فانظر كيف تصلح هذه الشطرة !.. ولا تأس على ما فاتك ، ولو اطلعت على الغيب لاخترت الواقع ! ..

● التدوير وقافية السطر ●

بخصوص تعليق الهلال على قصيدتى «النورس الأبيض أحيطكم علماً بسعادتى البالغة لهذا التعليق المفيد والبناء واسمحوا لى أن أرد رداً صغيراً على هذا التعليق المنشور فى عدد مارس ١٩٩٣ :

أولا : فعلا كلمة «الراسل» خطأ لغوى كما قلتم وإن كان شائعا وصوابها «المرسل» كما قلتم أيضا وإن كانت غير شائعة .

ثانيا : فى السطر الثانى من القصيدة كان من المفروض أن أقول :«أتدرى أيها الشاعر» بدلا من «ألا تدرى أيها الشاعر» وقد عدلتها بالفعل بعد ارسال القصيدة اليكم مباشرة ولم يكن فى وسعى أن أبعث رسالة أخرى تلحق بالأولى قبل النشر ولذلك أشكركم على هذه الملاحظة البناءة التى تداركتها بالفعل . أما بالنسبة لوضع كلمة «تهوى» بدلاً من «تحب» فأنتم قصدتم بذلك أن يكون البيت مدوراً فى حين قصدت أنا أن تكون هناك وقفة لإظهار الموسيقى الخارجية «قافية السطر» وأعتقد أنه بالوقف يستقيم الوزن ، وبالتدوير كذلك فى حالة «تهوى» وكلانا صحيح أنت وأنا . وبالنسبة لحذف همزة البيداء ليستقيم الوزن فهى تعتبر عروضياً محذوفة لأنها «ساكنة» لإظهار الموسيقى الخارجية فى السفر ، أما فى حالة تدوير البيت فيلزم فعلا حذفها ليستقيم الوزن كما أشرتم ، وكذلك فى كلمة «تنام» و «تغفو» فى حالة الوقف والتدوير ، وأنا أشكر لكم نقدكم البناء الذى يفيد الشعراء من الجيل الجديد وأرجو أن تغفر لهم إصطدامهم بنقاد الأجيال السابقة عليهم بحكم «صراع أو تصارع الأجيال» وحالة الرفض والتمرد التى تسيطر علينا نحن شعراء الجيل الجديد وإن كنا نتوق الى قدوة تفهم واقعنا وظروفنا . ولسيادتكم جزيل الشكر ويسرنى أن أراسلكم دائما للاستفادة من نصائحكم وخبراتكم الفنية والأدبية والنقدية .

المرسل : السيد السمرى – المطرية دقهلية



حضرة لعينيها

حين أخش إلى عينيك

أرش البسملة ، التسبيح

على أعتاب الهدب

أعبئ شفتى

بتمتمة الكهنة فى الملكوت

أغتسل بشقشقة الفجر

وبهرجة النرجس

من حمى الشهوة

وفضاءات الرعشة

فتباغتنى الروح وتخرج

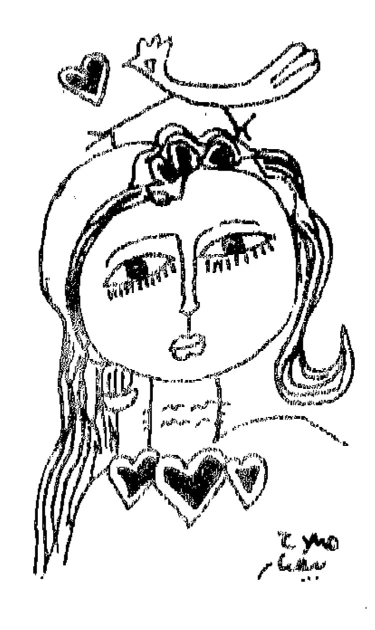
من بين مسام الجسد الممقوت

أدخل صومعة الايماءات المبهمة

مساحات الزمن / الأرجوحة

ونهايات بنفسجة البهجة

كى أسجد !!



نادى عبد السميع عبد الكريم حافظ

اطسا - منشية عبد المجيد

● امرأة ●

تتبقى أشياء ما تصغر
حتى تكبرَ ... تكبرُ
حتى لا تجلو ... تتبقى
منشفة زرقاء ، مشط أسود
وبقايا أضواء
تتسلل من ثقب الباب الخشبى
وحنين لامرأةٍ
بدأت تتشكل من ثمر الزيتون
وأمواج الزئبق
ماذا تتوقع منى ؟ !
غير الشعر بلا شرط أو قيدْ
ماذا تخفى بعيون
ليست إلا لامرأة لم تولد بعد ؟ !



ماهر محروس حميد ـ طنطا

● مع أصدقائنا ●

ونشكر لاصدقائنا السادة : أنور يوسف دلالة .. عارف خلف عبد الرحمن البرديسى .. ابراهيم محمد حمزة .. السيد التحفة .. سعاد الصاوى .. ضاحى عبد السلام .. فرج مجاهد عبد الوهاب .. مصطفى محمود مصطفى.. رءوف سلامة .. أميمة منير جادو .. محمد حسن أحمد .. حسن رجب .. محمد ابراهيم .. مصطفى الأسمر .. عصام الدين أحمد أمين .. أحمد محمد نعمان الهوى .. شعبان صقر .. ماهر محروس محمد .. فكرى رضوان .. صلاح عبد الستار الشهاوى .. شوقى محمد السيد .. أيمن سمير لاشين .. حسن حافظ مندور ..



الكلمــة الأخيــرة

الفجوة بين التقدم والتخلف

بقلم : مصطفى نبيل

تؤدى « صدمة » التكنولوجيا الحديثة ، الى اتساع الفجوة بين المتقدمين والمتخلفين ، فهذه التكنولوجيا لها آلياتها وقدراتها الذاتية على التأثير والانتشار ، وخلق آفاق جديدة وقيم جديدة ومهارات خاصة ينتفع بها كل من يملكها .

ويؤذى نفسه كل من يرفض أو يعجز عن التوافق مع هذه التقنية الحديثة .

ومع الأيام تتسع الفجوة بين المتقدم والمتخلف ، ويظهر السخط والاضطراب ، هذا ما شاهدناه فى الماضى من عمال الصناعة فى بداية الثورة الصناعية ، عندما اتسعت الاضرابات ، ودمرت الآلات ، وما رأيناه فى منتصف هذا القرن من ظهور الجماعات الساخطة فى الغرب ، التى ترفض تكنولوجيا الالكترونيات والمعلومات .

وكان التخلف التكنولوجى فى الاتحاد السوفييتى السابق أحد أهم أسباب انهياره ، عندما تخلف عن التكنولوجيا الحديثة فى الغرب ، واتسعت الفجوة داخله بين الصناعات الحربية والصناعات المدنية !

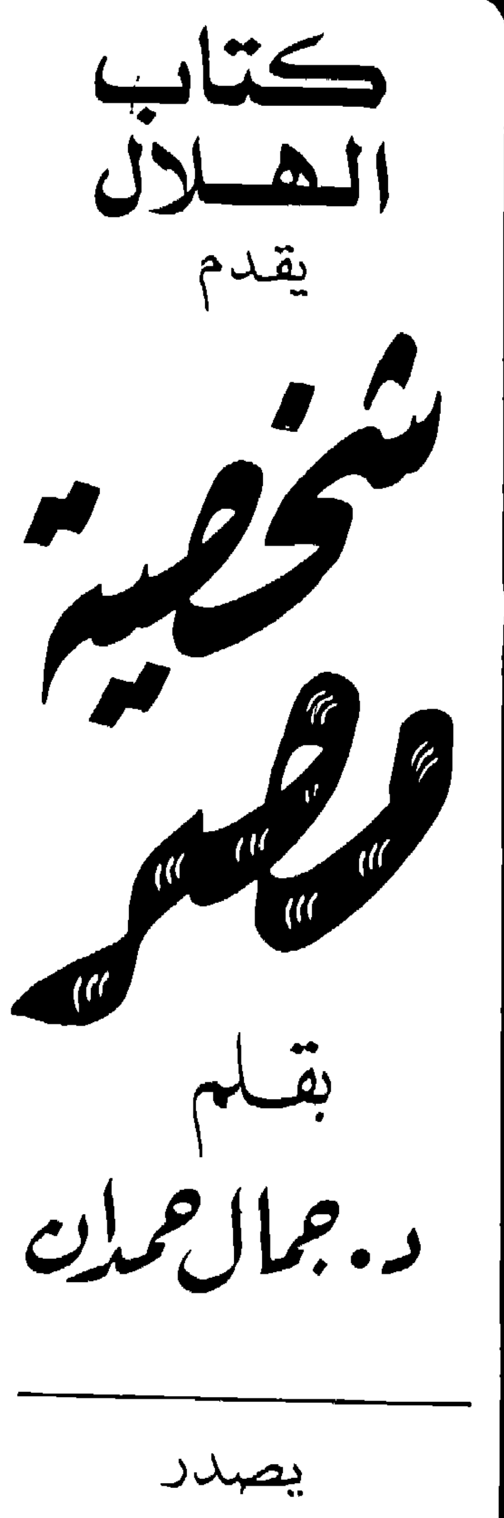
فمع بداية الصدمة التكنولوجية ، يكون عدد المتخلفين أكبر كثيرا من عدد المتقدمين ، ومع استقرار التكنولوجيا الجديدة ، يبدأ المتخلفون فى إدراك أن الفجوة لن تضيق عن طريق مناوأة هذه التكنولوجيا ومحاربتها ، وإنما عن طريق معرفة أسرارها واكتساب مهاراتها ، والتكيف مع نظمها ، وقبول ما جاءت به من قيم جديدة .

وما يقال عن الفجوة بين المتقدمين والمتخلفين داخل الأمة الواحدة ، يقال أيضا عن الفجوة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة .

وما نشاهده اليوم من اضطراب فى البلاد المتخلفة ، سيتوقف عند ادراك ضرورة التعامل والتواؤم مع استخدام التكنولوجيات الجديدة ، فالانسان قادر دائما على تطوير شئونه .

فالتخلف ليس أمراً ثابتاً وليس قدرياً لا يتغير ، وليس لصيقاً بأمة دون سواها ، والخروج من التخلف يحتاج الى معرفة ، وشعور جارف بضرورة ملاحقة العصر ، وتغيير ميزان القوى لصالح الأمة ، كما يكتسب بالتدريب المستمر .

هذا ما جرى – فى الماضى – مع كل صدمة تكنولوجية حديثة ، وهذه المرة مطلوب أن يتم استيعاب التكنولوجيا الحديثة بسرعة فائقة ، بعد أن وصلت مشاكل العالم الى درجة لم تعد تتحمل طويلاً المتقاعسين الذين يسيرون الى الأمام وينظرون الى الخلف !



كتاب
الهلال
يقدم
شخصية
مصر
بقلم
د. جمال حمدان
يصدر
٥ مايو ١٩٩٣



روايات الهلال
تقدم
الغبى
بقلم
فتحى غانم
تصدر
١٥ مايو ١٩٩٣



الهلال

يونيه ١٩٩٣ ● الثمن ١٠٠ قرش

نجيب محفوظ : من الممكن أن يتوقف الكاتب فجأة !

القيروان والبحث عن الجذور

أمــة فى خطر وتطوير التعليم

وداعا جمال حمدان صاحب شخصية مصر





مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدي : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : 3625469

ثمن النسخة سوريا ٥٠ ليرة ، لبنان ٢٠٠٠ ليرة ، الاردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٣٠ ريالا ، تونس ١.٥ دينار ، المغرب ١٥ درهما ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، إيطاليا ٣٠٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الامارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار ، السودان ٤٥ ج . س .

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها فى ج. م. ع. تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٥ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وإفريقيا ٢٥ دولارا - باقى دول العالم ٣٥ دولارا .

والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد .

فى هذا العدد

فكر وثقافة

دائرة حوار

قصة وشعر

فنون

رسائل صحفية

رسالة تونس :

التعليم .. أمة فى خطر

التعليم هو عملية بناء البشر عقليا ووجدانيا من خلال إكسابهم المعارف والقيم والميول والمهارات والقدرات التى يصبحون بها ومعها مواطنين منتمين مشاركين مبدعين .

وهناك بلا شك فرق كبير بين التعليم السيىء الذى يكون منبعا لثقافة التخلف والتعليم الجيد ، والذى يعد مصدرا لثقافة النهضة .

وهناك دور كبير يؤديه التربويون فى إعداد جيل من المتعلمين على أسس قويمة ، ومن خلال مناهج صحيحة ، تتيح لهم التعرف على وطنهم الأم ، ووطنهم العربى الكبير ، فضلا عن القضايا المصيرية التى تواجهنا وفى مقدمتها المشكلة الكبرى فلسطين التى ابتلعتها إسرائيل خلال حروبها ضد العرب فى الآونة الأخيرة ، أثيرت آراء خطيرة حول مناهج التعليم المطورة ، وكيف أنها أغفلت إبراز قضايا الوطن ، وبعدت عن قيمنا ، ربما بإيحاء من آخرين ، وخروجا عما ألفناه فى الماضى ! .

و « الهلال » تنشر ثلاث مقالات تتناول فيها أبعاد هذه القضية الهامة بحيدة شديدة ، وصولا إلي الحقيقة الغائبة !



الأبواب الثابتة

ملامح جمال حمدان



طوال حياته عاش فقيد الفكر والأدب والتاريخ والوطنية الدكتور جمال حمدان ـ رحمه الله ـ بعيداً عن العيون ، كأنه يتوارى أو يختبئ أو يتنكر ، فلم يتح لقارئ من قرائه الكثيرين أن يعرف ملامح وجهه ، فكان جمال حمدان وهو ملء الأبصار والأسماع ، مجهول الملامح حتى من سكان العمارة التى يسكنها ، أو ـ على الأصح ـ يختبئ فيها ! ..

والصورة التى تطالعها ـ عزيزى القارئ ـ على غلاف هذا العدد من «الهلال» لن تعرفها للوهلة الأولى ، ولا بعد التمعن والتروّى ، كما اعتدت أن تتعرف على صور المشاهير من المفكرين والأدباء ، ناهيك بصور النجوم الذين تتلألأ وجوههم بالأضواء المسلطة عليهم فى حركاتهم وسكناتهم ..

ذلك أن هذه الصورة التى تطالع ملامحها لأول مرة ، هى صورة جمال حمدان .. فارس القلم والفكر والمبدأ الثابت الذى عاش بضعة وستين عاما دون أن يسمح للكاميرات وأضوائها أن تتجه إلى ملامحه ولولا الضرورة لما كانت لجمال حمدان صور على الاطلاق ، حتى تلك الصور فى البطاقات والشهادات والأوراق الرسمية ! ..

عزيزى القارئ

إن صورة جمال حمدان التى تتصدر «الهلال» هى إحدى اللقطات القليلة التى انتزعناها

منه انتزاعا فى بعض المناسبات ، ولعله لو عرف يومها أن صورته هذه سوف تطل بالألوان هذه الإطلالة المتواضعة بعد رحيله عن الدنيا لما سمح بالتقاطها ..

أكان ذلك انصرافا عن الدنيا ؟ ! ..

نعم .. كان كذلك ، ولكنه انصراف المشغول بجوهرها عن قشورها ، وقد فات الكثيرين أن يتفهموا هذا الموقف لجمال حمدان ، لأن موقفه كان أشبه بمرابطة المقاتلين المجاهدين على ثغور الوطن المهددة بهجوم الأعداء ، وكأنه كان يخاطب نفسه فى ذلك الموقف الضنك قائلا : أنت على ثغرة من ثغور بلادك وقوميتك فلا تدع فى ثغرتك منفذا للأعداء .. وحذار أن يخترقوا الوطن من ناحيتك أنت بالذات ! ..

لهذا كان كل شئ فى حياة جمال حمدان وقفاً على هذا الهدف الكبير ، وكان عمله فى سبيله أشبه بعمل المقاتلين المرابطين ، وإن بدا للناس أشبه بوسواس قهرى لا فكاك لصاحبه منه ! ..

وفى سبيل ذلك الهدف اختبأ جمال حمدان من عيون الكاميرا ، واحتبس نفسه فى شقته احتباس الأسير المقيد اليدين والرجلين فكان أشبه بالمقاتل المستميت ، يضع القيود فى يديه ورجليه لكى يموت فى مكانه ، ثابتاً فيه لايتزحزح قيد أنملة ، أو يفوز بالنصر ..

وطوال حياته كان يقال له بين النصيحة والإشفاق : إن أشد المعارك هولاً لاتستلزم تقييد اليدين والرجلين ، ولاتقتضى اعتزال الناس ، ولكنه كان يرى أنّ تمام الإخلاص لمعركته ، هو الاعتزال بمعنى من معانيه التى عرفها المتكلمون الأقدمون قبل ألف سنة ، وأولها التوحيد والعدل ..

ولم يكن جمال حمدان معتزليا ، ولكنّ معنى التوحيد والعدل عنده اتخذ شكل صدام طاحن مع الدنيا ، فلم يبتسم لها ولم تبتسم له ، ولم يألفها ولم تألفه ، وافترقا فى آخر الأمر وقد احترقت بينهما السفن التى كان يُرجى لها أن تكون وسيلة الإبحار واللقاء ! ..

عزيزى القارئ

كانت حياة جمال حمدان ، مفكرا وكاتبا وثائرا ملحمة فردية جرت وراء ستار ، مع أنها بارزة للأنظار .. لم تستطع مصر أن تتبين معالم الطريق إلى جمال حمدان ، فأنكرته حيا وأوشكتْ أن تنكره ميتا .. ولكن جمال حمدان عرف الطريق إلى مصر ، عبر كتبه وأوراقه وأقلامه .. وكان بارا بأمته ، حانيا عليها ، فلم يحرق أوراقه وكتبه وأقلامه غضبا وسخطا ، وآثر أن يكون جسده هو الذى يحترق ! ..

«المحـــــرر»

القاهرة

قوافل ثقافية مكيفة الهواء !!

كلما اشتدت الأزمات بالشباب المصرى ، وخرج من بينهم دعاة التشدد والتطرف ، تنبهت وزارة الثقافة ، وخاصة جهاز الثقافة الجماهيرية ، إلى ضرورة التدخل ، وبسرعة وعلى طريقة الحقن السريع فى العضل ، للمشاركة فى التصدى لهذه الازمات ..

وانعكاسا للاحداث الدامية الأخيرة ، فكرت الوزارة فى عمل حقنات سريعة تمثلت في طبع مجموعة من الكتب ، لم تصل قط إلى أهدافها ، والمقصود هنا عقول الشباب ، فلا أحد رأها ، ولا تعرف أين هى بالضبط . رغم الهدف النبيل من صدورها ، وسرعة انجاز طباعتها . واسعارها التى تقل عن سعر مشروب ساخن فى أى مقهى صغير ..



حسين مهران

كما تمثلت الأنشطة فى عمل ما يسمى بالقوافل الثقافية ، عليها أن ترحل من القاهرة لتعرض مجموعات كتب ، وعروض فنية ، وتشكيلية وسينمائية لأيام قليلة في المدن والقرى المتناثرة فى انحاء الجمهورية . هذه القوافل تأخر تنفيذ خروجها من «القاهرة» . وهى أنشطة تؤكد وصاية العاصمة على الأقاليم ثقافيا ، فأصحاب المبادرات هم القاهريون ، وهم المشاركون فى جميع الأنشطة .. أما أبناء هذه المدن والقرى ، وخاصة المثقفين منهم فعليهم استقبال ذوى الياقات القاهرية الثقافية القادمين بالطائرات، وعربات القطار المكيفة من أجل أن يكونوا ضيوفا لبضع ساعات ، ثم يعاودون الرحيل ..

قافلةالثقافة الحقيقية تبدأ من هذه المدن والقرى «المصرية» فطالما أن هناك بيوت وقصور ثقافة متناثرة فى كل الانحاء ، فلماذا لا تتحول إلى «أماكن جذب» لطاقات الشباب فى كافة المجالات إبتداء من الانشطة العلمية للموهوبين إلى كافة أنشطة الابداع لماذا لا تكون صورة من المراكز الثقافية الاجنبية فى العاصمة ، يتعلم فيها الشباب اللغات بأسعار معقولة ، ويتعلمون كيف يتعاملون مع الاجهزة

الحديثة مثل الكمبيوتر ، والاتارى (للصغار) وما إلى ذلك .. وليست هذه تجربة غريبة عن العالم العربى ، فقد قامت تونس بتطبيقها فى السنوات الأخيرة ..

لعل الشباب بمثل هذه الأنشطة وغيرها، وبعضها يمارس فى حدود أقل من المطلوب ، يعرفون أن العالم مفتوح أمام طاقاتهم ، وأن الدنيا تسير أبدا على وتيرة واحدة .. وأن آفاق الدنيا والدين مرتبطة بآفاق المعرفة فى كافة الميادين .

البوسنة في الحرب الأهلية : تتعادل الخطيئة والفضيلة !!

ليس هذا وقت للأقلام بل هو وقت للحروب والألم، والفظائع ..

هذا هو الحال فى البوسنة فالأحداث المفزعة تتلاحق ، ولا وقت حتى لمعرفة كل الفظائع من كثرتها وبالتالى لا وقت للكتابة حتى بعد أن يقف نزيف الدماء بوقت طويل

وعلى الأدباء أن ينتظروا طويلا ، ولاشك أن أقلامهم سوف تعجز عن وصف هذه الفظائع مهما بلغت براعتهم .



و الروايات أقل بشاعة من الواقع

لكن ، هذا لم يمنع من ظهور بعض التجارب الابداعية عن أبعاد الصراع هنا ، ومن منظور ابناء البوسنة أنفسهم . وقد صدرت فى فرنسا فى الشهر الماضى مجموعة من الروايات والكتب حول البوسنة منها رواية «الجليد والكلاب» لڤيروساف شتڤاتوفيتش و«داعر الحرب» لمارك ريول، ثم «يوميات الحرب» كما سجلها زالتكو ، ومجموعة وثائق عن التطهير العرقى كتبها وجمعها ميركو جرميك .

وفى رواية «الجليد

العالم في سطور

والكلاب» التى تمتزج بالفانتازيا ، هناك كلب ينتهى أمره بأن يقوم بقتل البشر : عندما تصبح جميع الكلاب سوداء ، فإن كل الرجال سوف يصبحون كلابا » .

والحرب الأهلية هنا بشعة وهى بالطبع أكبر الأسباب لآلام الناس . وهى المسئولة عن كل هذه الدماء والدموع، والرواية بمثابة شهادة من كاتب من البوسنة آمن بالديمقراطية لكن ما يحدث شئ لا يوصف .

وبطل الرواية يوسف قد هرب من الحرب الأهلية إلى اثينا ، وهو يحاول أن يبعد أبنه قدر الإمكان عن بشائع الحرب ، وذلك بأن يجعله يختلط وسط اليونانيين ، وأن ينسى جذوره والغريب أن هذا الرجل يرفض أن يقرأ الرسائل التى تأتيه من البوسنة التى كتبتها ابنته ، وزوجته .

وكما نرى ، فإننا أمام رواية عن البوسنة ، ولكن أحداثها تدور بعيدا عن رحى الحرب الأهلية تماما . بل أن بطلها يحاول أن ينزع نفسه منها حيث أنه يعرف أنه فى الحرب تتعادل الخطيئة مع الفضيلة .

باريس

ولفرانسواز ساجان .. أعمالها الكاملة

فى العادة ، فإن دور النشر العالمية لا تقوم بطبع الأعمال الكاملة لكاتب ، إلا اذا استنفد هذا الكاتب ابداعه ، أو رحل عن عالمنا ، وغالبا لا يكون هناك استثناء مهما كانت الحالات ..



فرنسواز ساجان

ومجموعة الأعمال التى ظهرت أخيرا للكاتبة الفرنسية فرانسواز ساجان تحت عنوان «كتيبات» قد نشرت لعدة أسباب ، منها أن قيمة الكاتبة الحقيقية قد جاءت من رواياتها الأولى ، وأن اعمالها الأخيرة كانت دون المستوى ، وكأن حالة من الجدب قد أصابت الكاتبة رغم أنها لم تتوقف قط عن الابداع .

ويقول الكاتب الفرنسى فرانسوا فورسييه ، وهو أكبر سنا من ساجان بعشرين عاما على الأقل أن أبناء جيله

قد أحبوا الكاتبة فى شبابها ، وشبابهم ، وأن أعمالها هى كتلة من الحنين المجسد ظلت ماثلة فى الاذهان طوال أربعين عاما .

وساجان هى الكاتبة المدللة من الجميع ، سواء من القراء أو الكتاب الكبار ، فقد تبناها كل من فرانسوا مورياك وجان بول سارتر وأندريه مالرو

وتجئ أهمية أعمال ساجان المنشورة معا أنها تجسد كل سنوات الحنين فى كتاب واحد .

وخاصة أن رواياتها اتسمت بأنها صغيرة الحجم ، وأنه لا يمكن أن تفصل عمل لكاتب عن الآخر خاصة فرانسواز ساجان فإن وجود هذه الأعمال معا ، يمكن أن يجعل القراء يستجمعون كل حنينهم ، سواء قرأوا هذه الروايات جميعها من جديد ، أو اختاروا بعضا مما يحمل لهم ذكرى ، أو حتى أن يحتفظوا بالمجلد فى منزلهم ، كأنه البوم للذكرى ..

الأعمال الكاملة هنا ، أشبه بصندوق ذكريات يمكن للمرء أن يفتحه وقتما شاء ، وعليه أن يسترجع كل ذكرياته ، وهو يقرأ .. فكما أن البوم الصور يجعل المرء يهفو إلى أماكن الماضى ، فإن مثل هذه الأعمال تجعل المرء يحاول أن يعيش فى مشاعر الماضى ، وقت أن قرأ هذه الروايات لأول مرة . وكيف كان آنذاك ..

وبالفعل ، فإن أعمال ساجان المكتوبة فى منتصف الخمسينات تحمل للقراء ، سواء الفرنسيين أو غيرهم ، وخاصة لنا هنا الذين قرأناها كثيرا ، بمثابة حنين إلى سنوات العالم كله مصاب به بشكل يكاد يكون مرضى ..

بيروت

على درب أم كلثوم

«صوتها مصنوع من العسل والتمرد» ..

هذا هو ما وصفت به مجلة «الاكسبريس» الفرنسية الفنانة اللبنانية المعروفة ماجدة الرومى التى حققت حفلاتها الغنائية على مسرح الأوليمبيا فى باريس فى أواخر ابريل الماضى ، نجاحا ملحوظا .

وقد استقبلت الصحافة الفرنسية ماجدة الرومي بتحية واعجاب ملحوظين باعتبارها صوت الشرق الجديد ، وأنها مطربة تتمتع بنفس موهبة الفرنسية اديث بياف ، والأمريكية ويتنى هوستون وقالت «الاكسبريس» مثلا أن ماجدة قد تسلحت فى أغانيها بالأفكار البسيطة والتى تدخل إلى القلوب بسهولة ، وأنها

العالم في سطور



ماجدة الرومى

آمنت دوما أنها مطربة لبنان الحر ، لبنان الجميع ولذا فإن أغانيها التى شدت بها كانت من أجل تحية للبنان ، ورغم أنها غنت باللغة العربية ، إلا أنها أيضا غنت من أشعار ڤيكتور هوجو ، وهيرڤيه بازان .

وتقول مجلة «لوبوان» أن صوت ماجدة الرومى يمزج بين الايقاع العربى الشرقى ، والهارمونية الغربية ، وفضلا عن جمالها ، وحضورها فإن صوتها يعبر عن المضمونين ، وهى لا تجرى نحو الشهرة ، ولذا فإنها لا تميل إلى اجراء الاحاديث الصحفية فهى مطربة ، وليست متحدثة رسمية للطرب .

واشارت المجلة أن ماجدة الرومى لم تترك بلادها قط أثناء الحرب الأهلية ، وأنها حاولت أن تسير على خطى أم كلثوم ، حين غنت من أجل وطنها فقط خارج العواصم العربية ، مثلما غنت أم كلثوم بعد يونيه فى الاوليمبيا ، هاهى ماجدة الرومى تمشى على نفس الدرب ، وكان قد سبق لها أن غنت فى الهند ، أيضا من أجل لبنان ، ومن المعروف أنها قد غنت فى مصر فيما قبل إبان الحرب الأهلية .

نيبال

خلاص بوذا الصغير

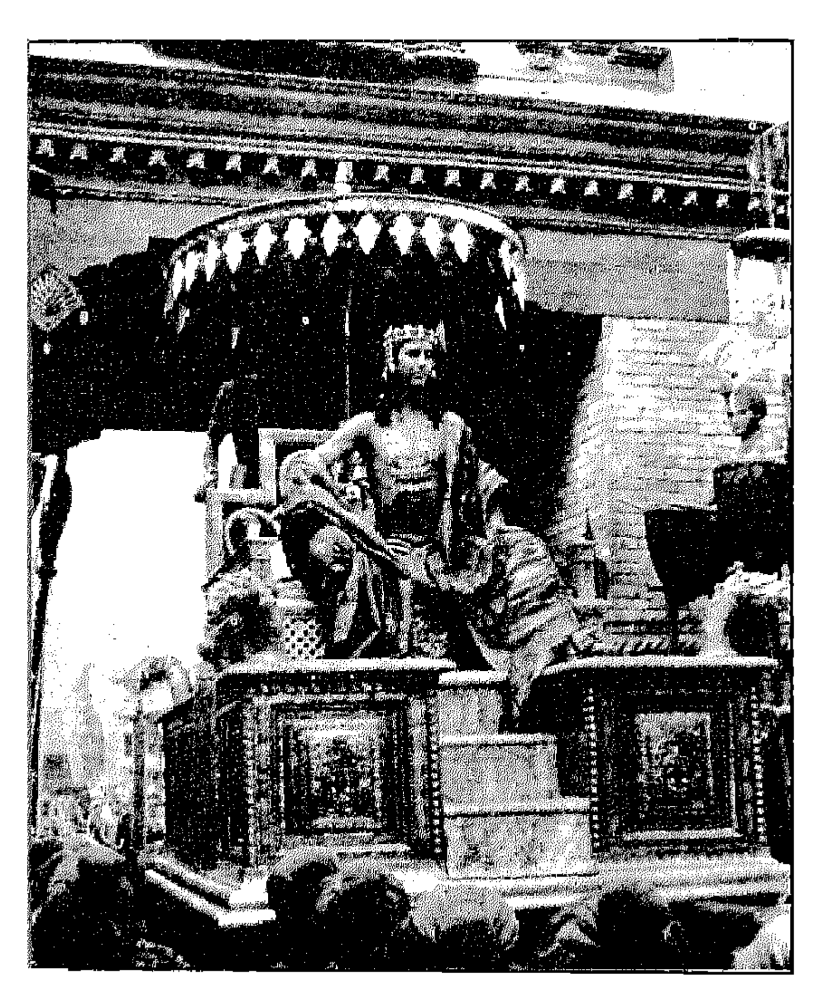
كثيرا ما تكون الأعمال الضخمة قيداً على الفنان ، خاصة أنه يود أن يظل دائما على نفس المستوى الابداعى

وينطبق هذا بشكل واضح على المخرج الايطالى برناردو برتولوتشى الذى أخرج قبل أعوام فيلمه الضخم الامبراطور الأخير .. وكان عليه أن يظل على نفس المستوى الانتاجى

والأدبى فانتظر سنوات أخرج خلالها فيلما دارت أحداثه فى المغرب .. ثم هاهو يسافر إلى نيبال من أجل الانتهاء من تصوير فيلم بالغ الضخامة عن بوذا تحت عنوان «بوذا الصغير» .

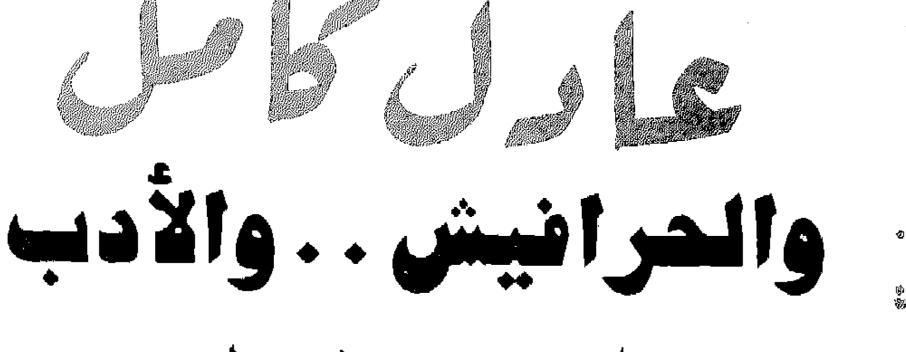
ويقول المخرج أن فكرة إخراج فيلم عن «بوذا» قد جاءته قبل أن يعمل مخرجا ، حين نبهته الأديبة الايطالية المعروفة السامورانته - زوجة البرتو مورافيا السابقة - إلى أهمية رواية عن حياة تلك الشخصية الهامة .

فمن المعروف أن بوذا كان أميراً مدللاً ، وقد صدم ذات يوم حين شاهد أحد الشحاذين فقرر أن يترك القصر ، وذهب إلى الغابة ، حيث عاش مع الطبيعة ، حياة مليئة بالزهد ، والحكمة وتوصل إلي خلاص الروح المسمى بالنرفانا ومن أجل اختيار ممثل يقوم بهذا الدور ،



بوذا

فإن عليه أن يستعين بشخص موهوب ، يتسم ببساطة خاصة فى ملامحه ، ويقف أمام الكاميرا لأول مرة ، وعندما إلتقى بالشاب كيانو ريفز أجري له العديد من الاختبارات ثم أسند له الدور ، والطريف أن ريفز قد رفض أن يقوم بدور «دراكيولا» فى فيلم كربولا الذى يعرض الآن بنجاح ضخم ، وكان عليه أن يفقد الكثير من وزنه حتى يتناسب وزنه الجديد مع شخصية رجل عرف التقشف والبؤس والمرض بعد أن عاش فى النعيم ولا يدرى شيئا عن الالم البشرى .



عادل كامل والحرافيش .. والأدب

نجيب محفوظ ورواية
جديدة لعادل كامل

بقلم : نجيب محفـــوظ

هذا الشهر تمكنت روايات الهلال من نفض الاتربة عن اعمال ادبية رائعة كادت أن تطمسها رياح النسيان .

فقد أكتشفت روايات الهلال نصين أدبيين بالغى الأهمية ضمن أوراق كاتب مخضرم من جيل العمالقة اعتزل الكتابة فجأة منذ نصف قرن ، وهو فى قمة عطائه.

هو عادل كامل الذى يقدمه أثنان من اصدقائه هما : نجيب محفوظ وأحمد مظهر

ثم الكاتب سليمان فياض من الجيل التالى الذى احب عادل كامل من خلال رواياته . وتعلم منه دروسا حول فن القص .



الحرافيش فى عام ١٩٦٤ . ويظهر في الصورة عادل كامل (واقفا بالنظارة) ومن الجالسين نجيب محفوظ ومحمد عفيفى وفى الصف الثانى أحمد مظهر ، وثروت أباظة .

إنه جيل واحد فى مكان واحد، وله نشأة متقاربة، ولابد أن الناقد والمؤرخ يجدان صفات مشتركة فى مواقفهم الفكرية وأساليبهم وتوجهاتهم.

على المستوى الشخصى، منذ أن تعارفنا أدبيا دعانى عادل كامل للانضمام للحرافيش، وكانوا مكونين فى ذلك الوقت منه، ومن زكى مخلوف، وأحمد مظهر، والمرحومين أمين الدهبى، وثابت أمين، ومحمود شبانة، وعاصم حلمى، وغيرهم والتى ضمت بعد ذلك كل من توفيق صالح، ومحمد عفيفى وصلاح جاهين، وكان يتردد عليها أحمد بهاء الدين، ولويس عوض وآخرون.

كان عادل كامل على المستوى الأدبى، قد سبقنا فى نشر أعماله، مثل «ويك عنتر» التى



أصدرها على حسابه الشخصى. وأصدر معنا فى لجنة النشر للجامعيين روايته «مليم الأكبر» ثم «ملك من شعاع» وبعد ذلك، وابتداء من عام ١٩٤٥، بدأ يتشكك فى دور الأدب، وجدوى الابداع. وأخذ كلامه كله يدور فى هذا المعنى بحيث أنه لو أن كلامه أثر فينا تأثيرا حاسما لكنا جميعا قد هجرنا الأدب مثله.

ثم فاجأنا انه قد توقف. وكنا دائما نناقشه فى هذا الموقف الغريب، وندعوه للاستمرار، حتى أذكر أنه ضاق بنا وطلب ألا نذكره بهذا الأمر. فاعتبرناها أزمة خاصة ولم ندر لها سببا، غير، وهذا مجرد اجتهاد، إنه قد تصور أن الأدب لم يحقق آماله الذاتية أكثر مما تحقق له. فخاف أن تضيع حياته فلجأ إلى المحاماة وكسب منها، ومن يومها وحتى الآن اعتقدنا أنه انتهى ككاتب. إلى أن اكشتفنا أن لديه أعمالا قديمة تم العثور عليها. ولم يكن يعرف تاريخ كتابتها. وظهر أن هناك واحدا منا، هو المخرج توفيق صالح، هو الذى يعرف تواريخها. حيث كان يزوره فى الستينات زيارات خاصة. وكان يراه يكتب. وبعد ذلك كف عن المحاولة وعمل بالصناعة.

عندما سألناه لماذا لم تنشرها رغم أنك قمت بتأليفها لم يكن نفسه يعرف الجواب. وذاكرته الآن لا تستوعب هذه الفترات. لدرجة أنه لم يعد يتذكر تلك التفصيلات.

ليست هناك تفسيرات محددة لأن يتوقف الكاتب فجأة وللأبد عن الابداع. وأذكر أن مثل هذه الحالة أصابتنى عام ١٩٥٢ حين أخبرت زملائى أننى قد انتهيت ككاتب لأننى سأتجه إلى العمل لكتابة السيناريو . ومرت سنوات. وعندما عدت إلى الكتابة الأدبية أخبرت زملائى أن الحركة قد رجعت مرة أخرى. هناك اذن أسباب غير معروفة لدى الكاتب نفسه تدفعه لهجر الأدب أو العودة اليه مرة أخرى.

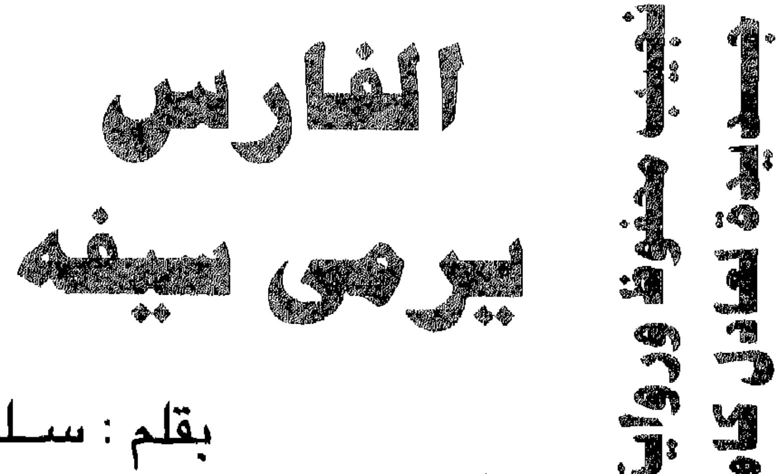
فمثلا، فى هذه الفترة، كانت عندى موضوعات ولكن، لم تكن لى الرغبة فى كتاباتها. ولا

● فاجأنا عادل كامل
أنه توقف مثلما فاجأنا
بعودته إلى الكتابة

أذكر أن أحدا قد أخبرني إنني أجدبت كما ان عادل كامل نفسه لم يخبرني أنه قد أجدب. لكنه أخبرني أن الأدب عملية غير مجدية.

وعادل كامل كزميل أديب فإنني أكن له كل الاحترام. أما كصديق فهو من أعز أصدقائي ومن يوم أن تعارفنا عام ١٩٤٣. والود متصل والصفاء متبادل. وعندما علمنا أن لديه أعمالا قديمة سوف تظهر، تمنيت أن يكون ذلك بشيرا أن يستأنف الكتابة من جديد. ولعلها تكون فاتحة خير.





بقلم : سليمان فياض

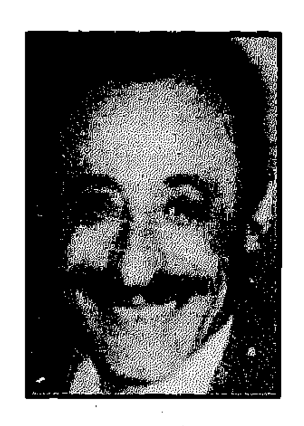
في حياتي ، عرفت فارسين من فرسان الأدب القلائل : «أنور المعداوي» في النقد ، و «عادل كامل» في القصة . وكلاهما في مجاله كان متعففا ، وأنوفا ، لا يمنعه ، في قوله الحق ، في مجاله أحد . وكلاهما على ثقافته العريضة ، هذا في النقد ، وذلك في القصة ، وفهمه العميق لواقع مجتمعه ، وتطلعه إلى حلم مثال ، شديد الخصوصية ، كبصمات الأصابع ، كان رومانسيا ، وربما أتت هذه الرومانسية ، من روح الفروسية عنده من جهة ، وشعوره بتفرده ، وخصوصية هذا التفرد من جهة أخرى .

وعند صديقي الروحي « عادل كامل » سأتوقف ، إسهاما في تكريمه من دار الهلال وثلاثيات الهلال الأدبية ، والفكرية : الهلال المجلة ، والهلال الرواية ، والهلال الكتاب ، أمدّ الله في عمرها لتؤدى رسالاتها ما بقيت العربية لغة حية .

في مكتبة «المنصورة» ، هذه المكتبة البائدة ، والمنارة الإقليمية ، بين منارات إقليمية أخرى أثمرتها « دار الكتب المصرية » ، حين كانت في « باب الخلق » بالقاهرة ، وحين كان مديروها أعلاما من الرواد ، تعرفت إلى « عادل كامل » ، عام ١٩٤٩ ، أو ١٩٥٠ ، في مجلة «المقتطف» وعلى ما أذكر ، في عدد من أعدادها عام ١٩٣٢ .

في هذه المجلة ، قرأت لعادل كامل قصته القصيرة الطويلة ، والرومانسية بالقطع : «ضباب ورماد» . قرأتها مرارا ، والعمر يدور حول العشرين سنة تقريبا ، وراعني فن « عادل كامل » في قصته تلك . فن مجنح ، صورة مبكرة عن صور الحداثة ، ولغة شديدة الألق الأسلوبي ، والخصوصية الفريدة . وكانت تلك القصة بداية تفتحي على القاصّ «عادل كامل» ، وأحد المنافذ على عالم القص الجيد ، الساحر .

وفي القاهرة ، ونحن أدباء الأرياف القادمين إلى العاصمة في سنوات الخمسينيات ،



صالح مرسى





توفيق صالح

نبحث عن قص نقرؤه ، قص يرضى حلمنا فى أن نقص بدورنا ، وأن نتعلم كيف نقصّ ، عبر المترجمات والمؤلفات ، التقيت بعادل كامل مرة أخرى ، فى روايته « مليم الأكبر » . وكانت قد بقيت منها نسخ قليلة ، تتبادلها الأيدى ، منذ أن طبعت فى منتصف الأربعينيات .

تجاوزت مقدمتها ، فلا تروقنى المقدمات فى الأعمال الإبداعية ، وأتجرع بصعوبة ، إلا فيما ندر ، هذه المقالات النقديةعن تلك الأعمال ، ودخلت فى عالم عادل كامل ، عالم مليم ، وعالم الرواية .. معا .

● سيمفونية « مليم الأكبر » ●

هتفت ، وأنا أصل إلى ختامها : يا إلهى . هذا كاتب صاحب رؤية ، وفن معا ، ولا يكونان معا ، إلا من كاتب وثيق الصلة بالواقع «أشيائه ، وهواجسه » ورفيع الثقافة ، ومرهف التذوق ، ولا أدرى لم أحسست فى مسار قصه بالرواية ، بأنه يحمل سيفا . فثمة شخوص متمردون ، وآخرون عدميون وفوضويون ، وكلمات خانعة وأخرى متحدية وساخطة وساخرة . وهؤلاء وأولئك يعزفون بمهارة داخل سيمفونية « مليم الأكبر » ، يقودهم باقتدار « المايسترو » « عادل كامل » .

عندئذ وإثر انتهائى من الرواية ، قرأت هذه المقدمة الضافية ، الرائدة ، المتألقة ، بين يدى « مليم الأكبر » ، مقدمة متمردة ، مثل الرواية نفسها كتبها كاتب متمرد ، مثل شخوصه ذاتها .

وبالرغم من حداثة سنى ، حزنت لعادل كامل ورثيت له ، فعلى ما تكشف عنه الرواية من ثقافة عميقة ، بكل الآداب والفنون ، ومن معرفة وثيقة بالواقع ، فقد وقع فى السذاجة التى يقع فيها كثيرون من العباقرة فى مجتمعهم ، حين يظنون أنه (وأبدا) لا يصح إلا الصحيح ، وهذه مقولة غير صحيحة دائماً فى حينها ، إلا إذا أضفنا إليها عنصر الزمن ، فعندئذ لا



يصح إلا الصحيح ، ولا يبقى إلا هذا الصحيح . والأمر إذن يحتاج إلى الحكمة ، وإلى حسن التقدير في التوجه ، لكن قد نقول هنا أيضا ، إن شيئا من حمق العبقرى واندفاعه ، مطلوب أحيانا ، لإحداث الصدمة . وتجاهل الحكمة أحيانا منشود لإحداث التغير ، وتسجيل الموقف بحد ذاته ، كنقطة بدء من نقاط التاريخ .

وفهمت أن أستاذى الروحى « عادل كامل » تقدم بروايته هذه ، الخارجة على السياق الأدبى والاجتماعى آنذاك ، إلى مجمع فؤاد الأول (مجمع اللغة العربية) ، لينال جائزته فى الرواية ، ولكن المجمع ، وهذا متوقع منه ، ولا توقع سواه (على الأقل آنذاك) منح جائزة الرواية، لقصة « لقيطة » للقاص « محمد عبدالحليم عبدالله » ، التى قدر لى أن أقرأها بمكتبة المنصورة . وكانت « لقيطة » ، رواية « لقيطة » حقا ، حتى فى سياق نمو القص المصرى ، والذى تحرر وإلى الأبد من الأسلوب المسجوع ، والأحداث الميلودرامية ، على أيدى طه حسين ، والمازنى ، ويحيى حقى ، ومحمود البدوى ، كانت « لقيطة » خارجة لتوها من معطف « المنفلوطى » فى تعريباته لروايتى : « ماجدولين » ، و«بول وفرچينى » .. وسواهما ، ومجددة إلى حد ما ، فى أسلوب المقامات الهمذانية ، والحريرية ، وأكثر من مائة مقامة أخرى .

لكن صدمة الرواية قد حدثت ، ورجّت المجمع بلاشك . وصدمة المقدمة قد وقعت وآذت المجمع بلاشك . وصدمة البيان الحداثى فى تلك المقدمة قد ظل نبراسا مضيئا للأجيال التالية لعادل كامل ، ومحمد عفيفى ، ونجيب محفوظ ، وبدءا من يوسف إدريس ، والشرقاوى ، وسعد مكاوى ، ومن تلاهم فى تلك الحقبة ، وعقدا بعد عقد من عقود القرن العشرين .

ولقد مر الآن ، على صدور « مليم الأكبر » ، ومقدمتها التى قدمت أول بيان حداثى (للفرد، وليس لجماعة) لجماعات الكتاب ، نصف قرن تقريبا . ولاتزال هذه الرواية نقطة مضيئة، وعلامة مميزة فى القص المصرى ، وجنبا إلى جنب ، مع علامات أخرى مميزة للقص المصرى، ومتفردة بين عطاء كل كاتب مصرى كبير . ولا تزال هذه المقدمة بيانا حداثيا باقيا ، يضىء ويؤكد وحدة الفنون والآداب ، وحرية الكاتب والفنان ، فى ارتياد أفق جديد ، مجهول فى الأدب والفن ، وأرض بكر لم يطرقها أحد ، لغةً ، وأداء ، ورؤية ، وعالما . وقبل أن ترتفع لمصطلح الحداثة راية .

وحين كنت أعمل محرر مكتب بالصحافة ، كلفنى « سعد الدين وهبة » بإدارة حوار مع «عادل كامل» لصحيفة الجمهورية ، حول انقطاعه عن الكتابة ، وتوقفه عن ممارسة دوره كأديب

• منح مجمع اللغة العربية الجائزة لفتاة قبطية ، ومنعها عن السراب وملك من شعاع •

قاص . ويهرني التكليف ، مع أنني كنت صاحب فكرته . وذهبت إلى « عادل كامل » ، (وقصة هذا اللقاء ، سبق نشرها بمجلة الهلال ، في هذا البورتريه الذي كتبته عنه تحت عنوان : «عادل كامل : فارس الدائرة المشئومة») ومن المحزن أنني قد انقطعت عن لقائه منذ أن نشر هذا الحوار بالجمهورية ، في خريف عام ١٩٥٩ على ما أذكر ، ثم نشرت هذا « البورتريه » الذي كتبته عنه في كتابي : « المثقفون : وجوه من الذاكرة » . فليرجع إليه من يودّ .

فرسان الحرافيش

أعرف ، عن بعد ، الصلة الوثيقة ، بين رفقة جماعة « الحرافيش » ، وأعرف أنها ضمت فرسانا للكلمة ، وللريشة ، وللصورة ، شعرا ، وقصا ، ولوحة ، وأفلاما : عادل كامل ، ونجيب محفوظ ، ومحمد عفيفي ، وأحمد مظهر ، وصلاح جاهين ، وتوفيق صالح ، وجميل شفيق . ينقصون واحدا بالفقد (أطال الله أعمار الأحياء ومتعهم بالصحة) ، أو يزيدون واحدا بالاستلطاف في عضوية هذه المجموعة ، ولقاءاتها الأسبوعية الحرة ، في بيت أو في لا بيت . لكن مايستوقفني في هذه المعرفة ، هي هذه العلاقة الأبدية الحميمة بين «عادل كامل» و «أحمد مظهر» . ولعل ذلك راجع إلى روح الفروسية المثقفة لدى كليهما ، فأحمد مظهر كان من فرسان القفز (إذا لم تخنى الذاكرة) ، و« عادل كامل » كان من فرسان الكلمة ، القادرين على قول :لا ، حتى للأدب نفسه .. وبين عادل كامل ونجيب محفوظ من جهة أخرى ، وهي علاقة تذكرني بهذه العلاقة الإنسانية والفكرية بين « انجلز » و« ماركس » ، ومع فارق التشبيه ، فعادل كامل مثل انجلز في رعايته لماركس ، ظل راعيا ، وهو الأصغر سنّا لنجيب محفوظ ، لقد تبنى أحدهما الآخر ، ووجد فيه استمراره وبقاءه ، وتحقيق ما أنشغل به ، أو شغل نفسه عنه . وكم أتمنى لو أن حرفوشا من هؤلاء الحرافيش العظام ، أرخ لحرفشتهم النبيلة ، ولجزيرة «الحرافيش» الوهمية التي أرزوا إليها ، وأنسوا لها ، في مجتمع أصم ، ومدينة شديدة الصمم.

فاجأني « جميل شفيق » ، وقد نهض بدور إعلامي مفاجيء لعادل كامل ، بقصص ثلاث قصيرة له ، حملها إليّ تباعا ، فهو يعلم أنني واحد من المحبين لعادل كامل ، والآسين لتوقفه عن الكتابة ، فسارعت بنشر إحداها في مجلة « إبداع » مع تقديم سريع (على ماتيسر) ، وأعطيت ثانيتها للصديق « مصطفى نبيل » فعجل بنشرها فرحا ، وثالثتهما « ويك تحتمس » ستنشر في « إبداع » هذا الشهر (يونيو) .



لم يكتب « عادل كامل » هذه القصص حديثا ، فمن الأوراق التى صفّرها الزمن ، والتى تحمل ظهورها نماذج بيانات محاكم ، ومحامين ، ومحضرين ، أدركت ، مع أنها لا تحمل تاريخ كتابتها ، أنها كتبت مبكرا ، وقبل أن يتوقف عادل كامل عن الكتابة ، وفى بداية عمله بالمحاماة، وربما قبل تخرجه من الجامعة ، وحتى لا أنسى هنا ، سأذكر أن « عادل كامل » وهو راعى نجيب محفوظ ، أصغر سنا من نجيب ، ولا أعرف تماما نتائج وأبعاد أمر آخر ، فماذا كان سيحدث لو أن « عادل كامل » لم يتوقف عن الكتابة ، أو لو أن نجيبا فقد صديقه الراعى، أو لو أن عادل كامل فقد أمنه المادى الخاص مع المحاماة ، وفقد كلاهما الصلة بالفنانين ، وبالسينما . وكل النتائج متوقعة ومحتملة .

وفاجأنى أيضا صديقى الفنان « جميل شفيق » رسام البقر ، والسمك ، والطير ، والجسم البشرى عاريا بلا رتوش ، غريزيا بلا عواطف . فاجأنى بروايتين لعادل كامل ، رواية بعد أخرى فآثرت عرضهما على الصديق « مصطفى نبيل » ، وأشهد أنه قد طار بهما فرحا . وأعتقد أنهما ، وفق معلوماتى من الصديق الرسول « محمود قاسم » ، ستصدران معا فى كتاب واحد ، بعدد « روايات الهلال » هذا الشهر .

.. ثم لم يدعنى « جميل شفيق » ، أعتقد أن رصيد « عادل كامل » من الإبداع قبل أن يتوقف عن الكتابة أيضا ، قد نفد ، وانتهى ، حتى حمل إلى « تباعا » ثلاث مسرحيات طويلة ، لعادل كامل ، تشهد مثل الروايتين ، والقصص الثلاث ، أن الحياة الثقافية والأدبية ، قد فقدت، بتوقف « عادل كامل » عن الكتابة ، كاتبا آخر صنوا لنجيب محفوظ ، مثلما فقدت هذه الحياة بتوقف « محمد عفيفى » عن القص ، وانشغاله ببابه الصحفى « ابتسم من فضلك » فى « آخر ساعة » فارسا من فرسان القص القصير.

والعزاء اليوم ، والفضل لرفقة « الحرافيش » ، ولتلك المصادفة التى جعلت « عادل كامل » ، يعيد ترتيب وفرز أوراقه القديمة ، والتى جعلت رسام الحرافيش ، مندوبا عن الجماعة، فى تقديم هذا الرصيد القديم ، لعادل كامل ، للنشر ، والتى جعلت هذه الأوراق تؤول فى النهاية إلىّ ، وإلى مصطفى نبيل ، وكلانا بذلك سعيد .

لقد تضاعفت بهذه الأعمال ، إبداعات « عادل كامل » الأولى ، فصارت تضم مع « مليم الأكبر » و« ملك من شعاع » و« ويك عنتر » ، و« ضباب ورماد » ، أعمالا جديدة ، روايتين

● ســـر الأوراق الصـــفراء الـتى أخـرجها عـادل كامل مـن أجـل الهـلال •

وثلاث مسرحيات أخرى ، ومجموعة قصص قصيرة ، إذا أضفنا إليها قصة « ضباب ورماد » ، أى أن إبداع عادل كامل ، قبل توقفه ، يضم الآن : أربع مسرحيات ، وأربع روايات ، ومجموعة قصص قصيرة واحدة ، اللهم إلا إذا كانت لدى « عادل كامل » ، بين أوراقه المهملة ، إبداعات أخرى ، لا نعلمها . وقد لا يذكرها هو .

ذكر لى « جميل شفيق » ، فيما ذكره حين يعود مبهورا ، إلى « اتيليه القاهرة » كل خميس ، قادما من لقاء « الحرافيش » ، أن « عادل كامل » يقول : إنه « لا يعرف الآن لماذا توقف عن الكتابة ، وأذكره هنا بما قاله هو لى فى حواره معى عام ١٩٥٩ ، وبما كرره فى هذا اللقاء الجميل الذى أجراه معه « فاروق شوشة » فى برنامج « مع النقاد » . قال : « توقفت عن الكتابة ، لأننى سألت نفسى : هل يمكن أن يعيش الكاتب من قلمه ، فى مصر ؟ فكانت إجابتى هى : لا . وسألت نفسى : هل يمكن أن تكون الكلمة فى يد الأديب ، فى مصر ، سيفا ، فكانت إجابتى هى : لا . عندئذ قررت التوقف عن الكتابة » .

وهكذا رمى الكاتب بسيفه ، عامدا ، متعمدا .

وما يستوقفنى هنا الآن ، هو : هل كان ذلك الرمى للسيف صوابا ؟ وكيف وجد هذا الكاتب المثقف ، الموهوب ، الصلب الإرادة ، والقادر على القرار ، والالتزام به ، القدرة على مثل هذا القرار ، وتنفيذه ، دون أن يضعف بعد أسابيع ، أو شهور ، أو سنين ، مخالفاً بذلك قوانين الطبيعة بأسرها ، فالشجرة إن توقفت عاما أو أعواما تظل تثمر ؟ وهل يغنى دعمه ورعايته لصديق عمره نجيب محفوظ . وإخلاصه لرفقة الحرافيش ، عن مسئوليته نحو أدبه ، وفنه ، وعقله المثقف الراجح ، المغامر ؟

لكن ما جدوى السؤال الآن والحياة الاجتماعية حافلة بالمواقف الشتى ، متنوعة الحالات، والأحداث .

وأن لنا أن نحتفل بعادل كامل ، بأول عودة لإبداعاته ، ولو كانت من زمن مضى .

وليته يكتب لنا مذكراته ، عن نفسه وعن الحرافيش ، والعصر الذى عاشه .

وليتنا نحتفل غدا ، فى أى غد قادم ، بذكرى ميلاده . فهو أبدا كاتب كبير ، يستحق منا أن ننظر إليه بحب ، وامتنان .

نجيب محفوظ ورواية
جديدة لعادل كامل

نحن والحرافيش ..
ورفاعة الطهطاوى

بقلم الفنان : أحمد مظهر



نجيب محفوظ يستقبل أحمد مظهر في مكتبه عام ١٩٦٦

في عام ١٩٣٦ ، وفوق «اشيا » التقينا لأول مرة .

كنت في طريقى إلى أوروبا من أجل السياحة ، أما هو فكان ضمن رحلة جامعية تقل السفينة إلى بعض المدن الأوربية . بدا الطقس بديعا . ولم تكن في الرحلة مشقة .. لذا قابلت عادل كامل لأول مرة ونحن فى أفضل حالاتنا ..

وسرعان ما صرنا أصدقاء . وخاصة بعد أن انضم الينا صديق ثالث يدعى أحمد سرور ، كان ضمن الرحلة . وكان طالباً فى كلية الهندسة . وفى الرحلة كان هناك تكتل من طلبة كلية الهندسة يسمى «هندجى أورطة » وتبعا لتلك التسمية كان علينا أن نطلق على أنفسنا تسمية مختلفة . لأننا كطلاب كان علينا أن نتميز بصورة أو بأخرى . خاصة عند إقامة المسابقات وليالى السمر . ولذا بدت المنافسة على أشدها ، وسط محبة جميلة صافية ، بين مجموعتنا ، وبين مجموعة «هندجى أورطة» .

وعندما عدنا إلى مصر ، اعتدنا عادل كامل وأنا على اللقاء يوميا . كنا قد تجولنا طوال شهرين بشوارع أوروبا ، وتأصرت علاقتنا . وأصبحنا ثالوثاً لا ينفصل مع أحمد سرور الذى اختصر خطه فى الحياة ورحل بعد ذلك فى سن مبكرة ..

فى القاهرة ، سألت عادل كامل أن يقدمنى لاصدقائه القدامى . والتقينا معهم فى مقهى اكسلسيور بشارع عماد الدين .. وكان من ابرز هؤلاء الاصدقاء الدكتور أحمد زكى مخلوف الاستاذ بجامعة الرياض فيما بعد، . وأمين الدهبى الذى كان يملك صوتاً ذهبيا ساخراً ، فلا تستطيع أن تقاوم ضحكته حتى لو راح يقرأ نشرة أخبار مليئة بالاحداث المأساوية .

ولذا كنا نستغله فى قراءة الكتب . كان على أحدنا أن يقرأ ، أما الباقون فعليهم أن يضحكوا على طريقته فى القراءة . فقد كان أسلوبه فى القراءة وحده سببا للضحك من الأعماق . ثم كان هناك ثابت أمين الذى عمل فى الصحافة . وكان أيضا يتمتع بخفة ظل إلى درجة غير معقولة . وهناك عاصم حلمى . وعادل مذكور الذى أصبح ضابطا فى القوات المسلحة . وصبرى شبانه .

أما أنا فكنت فى تلك الفترة طالبا فى الكلية الحربية الملكية .

فى تلك الأمسيات لم يكن يمكن للمرء أن يكف عن الضحك لما اتسم به اعضاء المجموعة من



خفة ظل . أما عادل كامل فقد كان بمثابة الأب الروحى للجميع ، والمحرك الاساسى للقاءاتها .

ذات ليلة راح ثابت امين يقرأ علينا فصلا من كتاب «تخليص الابريز فى تلخيص باريز» لرفاعة رافع الطهطاوى . وكان الفصل عن المقاهى التى يؤمها «الحرافيش» وقد نطق كلمة الحرافيش بطريقة ساخرة . جعلتنا جميعا ننطلق فى ضحك لم يتوقف . ومن هنا جاءت التسمية التى اطلقناها على انفسنا : «الحرافيش» .

لقد جاءت التسمية دون قصد ، ولا نعرف من ألفها ، ولا لماذا سميت ، ولقد اتخذناها فيما بعد لكى يميز كل منا اعضاءها ، عن بقية اصدقائه الذين يقابلهم فى مناسبات أخرى . أو فى اماكن مختلفة . فعندما نتحدث إلى اسرنا أننا سوف نسهر مع «الحرافيش» فهذا يعنى مجموعة معروفة من الاشخاص .

ولأن عادل كامل كان بمثابة المحرك لهذه المجموعة ، فقد كان يأتى لنا بالكتب . ونروح نقرؤها ، ومنها مثلا كتاب «لعبة النهاية» لصموئيل بيكيت . وكنت أقرأه بالإنجليزية فى فترة لم نكن نعرف أى شىء عن مسرح العبث . فكنا نضحك بلا حدود خاصة مع طبيعة النص . وقد حدث ذلك ايضا مع مسرحية «الكراسى» ليوجين اونيسكو .

كان عادل كامل فى هذه الفترة يكتب رواياته التى عرفت فيما بعد ، وهى روايات غريبة فى شكلها وموضوعاتها ، وتختلف عن الروايات التى كان يكتبها صديقى فى الجيش ، فى تلك الآونة ، يوسف السباعى . ومن هذه الروايات «مليم الاكبر» . و «ملك من شعاع» . وقصته القصيرة الرائعة « قدح ماء وليمونة » .

وبمرور الزمن أصبح نجيب محفوظ عضواً بارزاً فى الحرافيش . ثم انضم ايهاب الازهرى، وثروت اباظة وآخرون . وكان كل منهم يثبت حسن انضمامه إلى المجموعة .

أما عن نجيب محفوظ وعادل كامل ، فقد بديا كأنهما توأم أدبى ، حيث كان لهما اسلوب متشابه فى الكتابة . مما يوحد فيما بينهما ، وقد تعرفا ببعض ، حين ذهب كل منهما لتسلم

● المحامي يكسب والأديب يتقهقر إلى الوراء ..

جائزته الادبية . وفى اللقاء الأول دعاه عادل كامل إلى الانضمام للحرافيش . ثم التقينا ، فيما بعد ، بأصدقاء نجيب محفوظ في عوامة . ولكنه عندما جاء لينضم إلى الحرافيش كان وحده . وكان يوزع وقته على كل أصدقائه . فأفرد للحرافيش ليلتى الاثنين والخميس . وقد تولى رئاسة المجموعة لفترة ، عقب انتهاء فترة رئاستى .

أما عادل كامل فقد كتب فى تلك الفترة سيناريو لفيلم . حصل على جائزة الانتاج لكنه لم يأخذ مليماً . ولم يتم انتاج الفيلم .

وترجع أسباب اعتزاله الى سبب مهنى فى المقام الأول . حيث استعان به التنظيم الشيوعى للدفاع عنهم فى إحدى القضايا ، ولم يكن سوى محام مغمور يتدرب مع الوزير السابق فريد انطون ، وهو محام من الطراز الأول . وقد استطاع عادل كامل أن يأتى بالبراءة للتنظيم الشيوعى . فاصابته الشهرة كمحام ، وبدأ يكسب المال .. وفهم أن المحاماة هى وسيلة جيدة « لأ كل العيش » . وأن الأدب لا يمكن أن يوفر له ذلك .

ورغم مشاكل عادل كامل المهنية ، فإنه لم ينقطع قط عن الحضور للقاءات الحرافيش فى كل اسبوع .

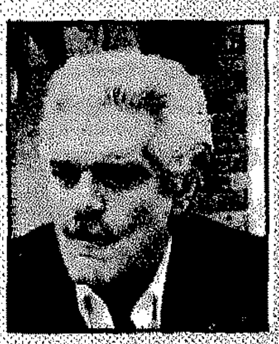
ومن الجدير بالاشارة أن مجموعة الحرافيش قد تركت اثراً ملحوظاً فى نشاطه كفنان ، وكاتب سيناريو . حيث كنا نلتقى فى كازينو أوبرا كل جمعة . وكان من رواد هذا الملتقى الكاتبان وداد سكاكينى و د . زكى المحاسنى ، والذى اطلق علىّ تسمية «مظهر رب السيف والقلم» . وكأننى بارودى عصرى . ولعلهما قد انخدعا فى لباقتى . فتعاملا معى كشاعر جيد . رغم اننى لم اكتب شعراً فى حياتى ..

من المهم الاشارة إلى شخص محمد عفيفى الذى علمنا الكثير ، وضحكنا حتى الاعماق من فصاحته القلمية . حيث كان القلم لديه بمثابة اداة لسخريته اللاذعة لم تعرف عند أى كاتب آخر فى عصرنا .

أقــــوال معاصــــرة


بيل كلينتون


ادونيس


عمر الشريف

● عندما تقول اليابان لنا نعم، فإنها غالبا ما تعنى بذلك لا.

الرئيس الأمريكى بيل كلينتون

● الفـــن والرقابـــة لا يجتمعـــان.

المنجى بو سنينة

وزيــر الثقافـة التونسى

● لا نكاد أن نكسر قيدا، حتى يطوقنا قيد آخر.

الشاعر السورى ادونيس

● ارجاع مبعد خير ألف مرة من إبعاد جديد.

الأديب الفلسطينى اميل حبيبى

● الحـلـــم صــورة مكملـــة للحيـــاة.

المخرج السورى محمد ملص

● حلم كل امرأة أن يخطفها عربى على جواده الأبيض.

الممثل عمر الشريف

● أنـــا مهرجـــة الملـــك، ولســـت الملكـــة.

شـــارون ستـــون

النجمة الأمريكية بطلة الغريزة الأساسية

● سلوفاكيا مثلها مثل قطار يهبط بخمسة ملايين راكب، جبلا بدون فرامل.

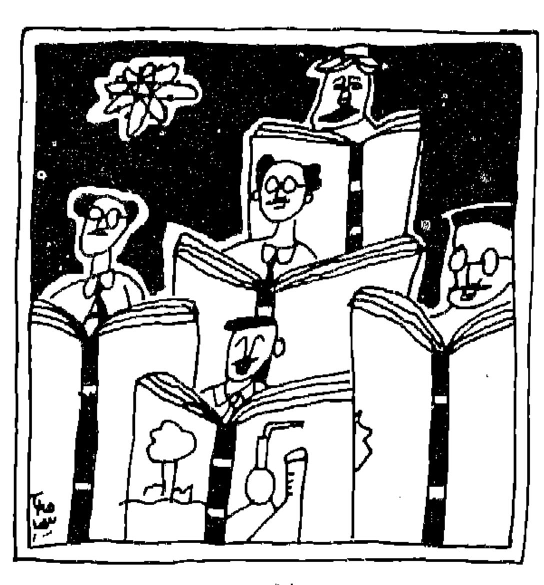
ڤلاديمير ميسير

رئيس وزراء سلوڤاكيا

● أعتقد بأن الرجل والمرأة متساويان فى القدرة على العطاء.

بنازير بوتو

رئيسة وزراء باكستان الأسبق



ثقافة العلوم
فى السياق الاجتماعى

بقلم : د . مصطفى سويف

ليست الثقافة ترفا يمكن الاستغناء عنه ، بل هى ضرورة نتزود بها كجزء من عُدَّتنا لمواجهة مقتضيات الحياة بصورتها الإنسانية . وما يميز هذه الحياة أساساً هو أنها تنتظم فى إطارٍ يمكن أن نسميه بالواقعية المتعالية ؛ فنحن من ناحية نحترم واقعية العالم المحيط بنا لأننا لا نملك غير ذلك ، ومن ناحية أخرى نعبر حدود الواقع المباشر لنُدخل فى حسابنا فى الوقت نفسه ما وراء هذا الواقع فى المكان والزمان والإمكان ؛ بمعنى أننا نتعامل مع هذا الواقع من حيث هو جزء من عالم أكبر ، ومن حيث هو حاضر ورد إلينا من ماضٍ بعينه ليحملنا إلى مستقبل بعينه ، ومن حيث هو إمكانات قابلة للتحقق على هيئة بديل واحد من بين بدائل متعددة .

ولأننا نتعامل مع أمور الحياة جميعا من خلال هذه الصيغة ، صيغة الواقعية المتعالية فإننا نحتاج إلى الثقافة لأنها هى التى تمنحنا قدرة التعالى هذه . على هذا النحو تبدو الثقافة بالغة الخطر فى حياتنا الإنسانية . ومن ثم فقد أصبح لزاما علينا أن نتناولها بعناية فائقة سواء قصدنا إلى مجرد النظر فى أمر من أمورها ، أو اتجهنا إلى أن نُتبع النظر بفعل يغيِّر من كيانها وفاعليتها .

وتتألف الثقافة العامة الشائعة بيننا (كما هو الحال عند أى شعب فى عالمنا هذا) من مكونات أربعة رئيسية ، يضم أحدها مجموعة العناصر ذات الطبيعة العلمية أو الشبيهة بالعلمية ، ويضم ثانيها مجموعة العناصر التى نسميها العناصر الأدبية والفنية وما إليها ، ويضم ثالثها مجموعة المكونات ذات الطبيعة العملية ، ويضم رابعها مجموعة المقومات ذات الطبيعة الدينية والميتافيزيقية . وتشير كثير من الدلائل إلى أن الثقافة العامة بصورتها المعروضة لدينا ، هنا فى مصر ، لا يتحقق فيها التوازن بين مكوّناتها الأربعة الرئيسية، كما تشير إلى أن هذا الخلل يبدو بصورة ملحوظة فى الضآلة الشديدة للوزن الذى تسهم به ثقافة العلوم فى الكيان الثقافى العام . وفى محاولة اجتهادية محدودة قمنا بها لتحديد الوزن النسبى لهذا المكون العلمى بصورة تقريبية تبين لنا أنه لا يزيد على ٤ ٪ من مجموع الكيان الثقافى . ونحن نرى أنه لابد من العمل على تعديل هذا الإسهام لتحقيق توازن مقبول ومعقول . والمهمة التى نحاول أن نتصدى لها فى هذا المقال هى بيان المبررات التى من أجلها ندعو إلى العمل على تعديل هذا الإسهام ، وماذا يمكن أن نجنى مع مسيرة هذا التعديل .

● مبررات الدعوة إلى مزيد من جرعة الثقافة العلمية :

تتلخص مبررات الدعوة التى نحن بصددها فى الحجة التالية : إذا نظرنا فى أى مشهد من مشاهد الحياة كما نحياها فعلا (لا كما نتأمل فى معناها أو نأمل فى مبناها) وجدنا أن هذه الحياة تعتمد على العلم ومنجزاته ، هذا صحيح فيما يتعلق بحياتنا الفردية والاجتماعية جميعا ، فإذا نظرنا فى الأمر نفسه بنظرة أعمق من سابقتها قليلا تبين لنا أن هذا الاعتماد على العلم يتم فى معظم الأحيان على غير وعى منا ، وفى القليل النادر تصحبه بعض مظاهر الوعى ومكوناته . وتبين لنا أيضا أن هذا الاعتماد يتفاوت من موقف إلى آخر من حيث حداثة العلم الذى نستعين به أو قدمه ، وكذلك من حيث حقيقته أو زيفه . فنحن نستعين أحيانا بالعلم كما هو فى أحدث إنجازاته ، وأحيانا أخرى نستعين بنظريات وتطبيقات علمية قديمة نسبيا ، وأحيانا ثالثا نعتمد على منجزات للعلم فات أوانها فهى بالية ، ونعتمد أحيانا رابعة على ما يمكن تسميته العلم بالشائعات أى على ما تروِّجه الشائعات المنتشرة بين المواطنين حول هذا العلم أو ذاك ونتائجه هذه أو تلك . **وأخيرا فإننا نعتمد أحيانا كثيرة على العلم ولكن بضمير مريض ، أى ونحن**

منقسمون على أنفسنا ، بمعنى أننا نعتمد عليه بالفعل دون الفكر، أو بعبارة أخرى نعتمد على نتائجه وتطبيقاته بدافع الاحتياج الشديد لأننا لا نملك غير ذلك ، على طريقة مكرهٌ أخاك لا بطل ، ولكننا نتحاشى مبادئه المنهجية ونظرياته ، بل ونتعدى التحاشى الصامت أحيانا إلى الرفض الصريح أحيانا أخرى . ومن المحقق أن مزيداً من النظر المدقق فى مشاهد الحياة اليومية من هذه الزاوية ، زاوية علاقتها بالعلم ومنجزاته تكشف عن توجهات أخرى كثيرة . ولكننا نكتفى بما ذكرناه ، وخلاصته : **أولا** : أننا نعتمد فى قضاء معظم متطلبات حياتنا على منجزات العلم . **وثانيا** : أن هذا الاعتماد يتم غالبا بصورة آلية عمياء ، وفى القليل النادر يتم مصحوبا بدرجة ما من الوعى المناسب . **وثالثاً** : أن هذا الاعتماد يجرى على أساس شذرات من العلم تتفاوت فيما بينها من حيث الصلاحية سواء لأسباب تتعلق بحداثتها أو قدمها أو بكونها علما حقيقيا خالصا ، أو علماً تشوبه الكثير من الأوهام والترهات . **ورابعا** : أن هذا الاعتماد يقع فى إطار من ضمير مريض يرحب بالنتائج ويرفض المقدمات .

بعبارة موجزة يمكن تشخيص علاقتنا بالعلم « بالنفعية الساذجة » ، وهذه تخفى وراءها حقائق نفسية متعددة ، أهم ما فيها « ضيق الأفق » ، و « الانتهازية » ، و « التخلف » . ومثل هذه الحال لا يجوز السكوت عليها ، لا بسبب ما فى جوهرها من قبح يشوّه وجه الأمة ، ولكن لما تنطوى عليه كذلك من ترسيخ لجذور العجز فى نفوس أبناء هذا الوطن عن الإسهام الجاد فى نمو العلم فى الحاضر والمستقبل رغم استمرار الحاجة إلى منجزاته ، والخطوة الأولى فى الطريق إلى تغيير هذه الحال إنما تتمثل فى تعديل المناخ الثقافى السائد بحيث ترتفع فيه تدريجيا جرعة المتاح من ثقافة العلوم .

● حاجتنا إلى العلم بالعلم :

لا غبار على النفعية ذاتها فى علاقتنا بالعلم ، ولكن الغبار كله على السذاجة المقترنة بهذه النفعية ، سواء فى صورتها العفوية التى تنبئ عن ضيق الأفق وتدعمه، أو فى صورتها المدبّرة التى تشى بالانتهازية وتكرّس التخلف .

أما النفعية نفسها (بمعناها الاجتماعى) فهى جذر تاريخى هام فى علاقة المجتمع بالعلم من حيث المنشأ ، واستمرار الدعم الاجتماعى للعلم ، وتزايد الشعور بالمسئولية الاجتماعية لدى العلماء. هذا بالإضافة إلى أنه يكون من الإغراق فى الأحلام غير الناضجة أن نأمل فى أن يشيع بين غالبية المواطنين طلب المعرفة العلمية لذاتها . لذلك لابد من التسليم بأن تظل النفعية أساساً هاما للعلاقة بين المجتمع والعلم ، شريطة أن تكون هذه النفعية مستنيرة ، وأن تظل حريصة على السعى إلى مزيد من الاستنارة ، مما ينفى عنها صفة السذاجة ويضفى عليها خاصية النضج . فكيف تكون هذه الاستنارة المطلوبة ؟ وكيف يكون السعى إليها ؟

الاستنارة المطلوبة تبدأ من وضوح

الرؤية . ووضوح الرؤية هنا يعنى أن نعرف أن العلم يتكون من شقين متكاملين ، هما النتائج والمناهج . والسعى إلى تحصيل هذه الاستنارة إنما يكون بتوزيع جهد الملاحقة والنشر على هذين الشقين معاً . ومع ذلك فالاستنارة وما تنطوى عليه من رؤية واضحة ليست سوى النقطة التى يجب أن تبدأ عندها مسيرة التثقيف العلمى فى المجتمع . لكن تحديد نقطة البدء هذه لا يغنى عن ضرورة تحديد التوجه ، فى أى اتجاه ينبغى للمسيرة أن تتجه ؟ ومانراه هو أن يكون الهدف الرئيسى البعيد هنا هو إشاعة العقل العلمى فى الأمة ، العقل الذى يجمع بين الإلمام بعيّنة صادقة من مكتشفات العلم وتطبيقاته الحديثة ، وبين التوجه إلى معين العلم باعتباره المرجع الذى يمكن استشارته لترشيد مسيرتنا الحياتية ، ولترشيد ما نتداوله من تشاور كلما تعثرت المسيرة . فإذا أمكن لنا أن نحدد علاقتنا بالعلم على هذا النحو ، وهو ما نسميه بالنفعية المستنيرة ، وتجلى ذلك فى التخطيط لمشروع النهوض بثقافة العلوم ، وفى تنفيذه فعلا ، فنحن نتعامل مع العلم حقا ، أى نتعامل معه ونحن على بينة من حقيقته .

● **تصور أولى لتنظيم علاقتنا الثقافية بالعلم :**

فيما تبقى من هذا المقال نرى واجبا علينا أن نقدم تصورا أوليا متكاملا لتنظيم علاقتنا الثقافية بالعلم ، أى كجزء من الثقافة العامة ، فلعل هذا التصور أن يكون أساساً للاسترشاد به فى صياغة تصورات أفضل إذا ما توفر الاقتناع بما ندعو إليه ، وانعقد العزم على البدء فى التنفيذ.

ينتظم هذا التصور أساسا فى إطار « النفعية المستنيرة » . وقد أوضحنا من قبل أن الاستنارة فى هذا السياق تعنى وضوح الرؤية ، وهذه تعنى أن يكون واضحا لدينا أن العلم نتائج ومناهج ، ومن ثم فأى سياسة رشيدة لنشر ثقافة العلوم يلزمها أن تعنى بأن يمتد النشر لكى يشمل النتائج والمناهج جميعا ؛ فليس العلم مكتشفات فحسب كما تقدمه بعض الكتابات محدودة الأفق ، ولا هو تطبيقات فقط كما توحى بقية الكتابات التى تدور فى فلك النفعية الساذجة ، بل ولا هو مكتشفات وتطبيقات وانتهى الأمر ، ولكنه هذه الإنجازات مضافا إليها المنهج . وربما اقتضى الأمر هنا تنبيها ضد ما يبديه بعض السادة القائمين على النشر من نفور من نشر مواد فى المنهج بدعوى أنها جافة ومعقدة بحيث ينتظر ألا تحظى بإقبال القارئ الساعى إلى تحصيل الثقافة العامة ، وهو رأى غير صحيح على إطلاقه ، والمسألة فى نهاية الأمر يحسمها قلم الكاتب ، فمن استطاع أن يقدم المكتشفات والتطبيقات بأسلوب يجمع بين الإحكام والبساطة والتشويق لن يعجز عن تقديم أمور المنهج بمثل هذا التمكن . لا يجوز حرمان القارئ العام من إطلالة على أسلوب التفكير كما يمارسه العلماء فهذا جزء لا يتجزأ من ثقافة العلوم كما ينبغى لها أن تذاع ، وإذا كان لنا أن نتوخى مزيدا من الدقة فى القول فجوهر العلم هو المنهج لأنه هو قناة الإبداع التى تصل بأصحابها إلى المكتشفات

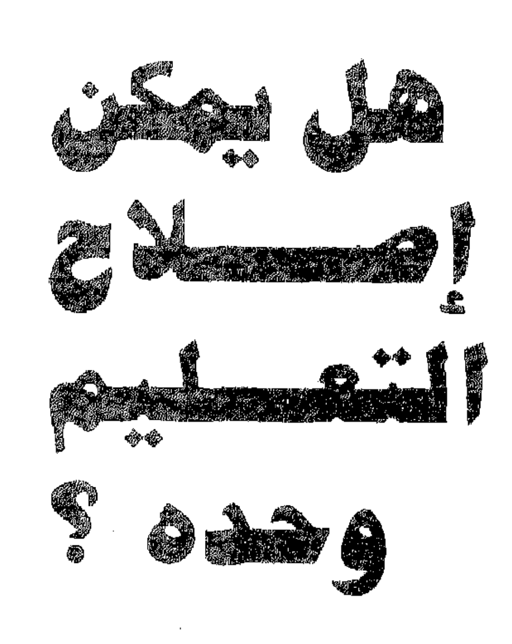
والتطبيقات . ومع ذلك فهذه قصة أخرى ، وكل ما يلزمنا الآن هو العناية بتقديم الثالوث متكاملا : المكتشفات والتطبيقات والمنهج .

ثم نعود بعد ذلك إلى تحديد توجّه المسيرة ؛ فكما قلنا من قبل لا يجوز فى مثل هذا الأمر الاكتفاء بتحديد نقطة البدء ، بل لابد من إكمال القصور بالإشارة إلى أهداف هذه المسيرة إذا قدّر لها أن تبدأ ، فليس المهم هو الحركة فى ذاتها ، ولكن المهم هو الحركة فى توجهها .

سوف تكون أهداف المسيرة متعددة ، تتفاوت قربا وبعدا فى علاقتها بنقطة الانطلاق ، وأقرب الأهداف هو شيوع المعرفة بالعلم الحديث حتى يكون المواطن المثقف على دراية بكنوز المعرفة وقدراتها المتاحة ، وذلك حتى يستطيع أن يزداد فهما وتقديرا لعالمه المعاصر بكل ما فيه من مواطن القوة والضعف وما ينطوى عليه من مستقبل إنسانى أشد أمنا أو أكثر تهديدا ، وحتى يستطيع إذا شاء أن يحسن توجيه خطاه العملية حيثما كانت الإفادة مطلوبة ، فإذا اقتربنا من بلوغ هذا الهدف وأصبحت هذه المعرفة شائعة على نطاق معقول كان ذلك نفسه إيذانا بمواصلة السير نحو هدف أبعد من سابقه ، ألا وهو توفر المناخ الصالح لنشوء جيل من الصغار يستنشق مزيدا من الفكر العلمى فتزداد احتمالات إقباله على هذا الفكر وتتولد لديه شيئا فشيئا دوافع إيجابية للإسهام الفعلى فى تنشيط هذا الفكر وإثرائه ، ويجد فى طبيعة المناخ المحيط به ما يشجعه ويعينه على الانسياق مع هذه الدوافع سعيا نحو إشباعها ، وبذلك يحقق لنفسه ولقومه دورا إيجابيا فى بناء المستقبل مهما يكن محدودا (فى بدايته) فهذا خير من أدوار السلبية والاعتماد وطلب الإعالة . ومرة أخرى إذا تمكنا من السير فى هذا الطريق وتمكنت منا آثاره فسوف تفضى بنا خطانا إلى هدف أبعد من ذلك وأعقد وأرفع شأنا فى حياة الأمم، خلاصته أن تتمكن منا روح العلم فإذا بنا نعيش بما يسمى التوجه العلمى فى الحياة، حيث نكتشف أننا نصوغ حياتنا كما لو كانت مشروعا علميا كبيرا ، فإذا بنا نرحب بالنقد والنقد الذاتى ، ونرحب بتبادل الرأى سعيا إلى الاقتناع أو الإقناع ، ونتبنى التفكير من خلال نموذج الاحتمالات بدلا من الآراء والأحكام والتنبؤات القطعية ، ... إلى آخر هذه العناصر التى هى المقومات الأساسية لتوجّه العلماء أثناء معالجتهم موضوعاتهم.

فى هذا السياق يحسن أن نذكر قول « إريك بلوك » مدير المؤسسة القومية للعلوم بالولايات المتحدة منذ سنة ١٩٨٤ :

يجرى على المجتمع الإنسانى فى الوقت الحاضر تغير جذرى فى بنيته ، وسوف تحسم نتيجة هذا التغير بقدر اعتماد كل بلد على المعرفة العلمية . فحتى وقت قريب كانت الدول تعتمد اعتمادا كبيرا على مصادرها الطبيعية ، أما الآن فإن التيار يتحول نحو مزيد من الاعتماد على المصادر البشرية ، أعنى على ثروة العقول .



هل يمكن إصلاح التعليم وحده ؟

بقلم :

د . عبد العظيم أنيس

أثارت تصريحات المسئولين فى المدة الأخيرة حول ضرورة الاهتمام بقطاع التعليم موجة من التفاؤل المشروع بأن قطاعا فى حيوية قطاع التعليم وأثره الحاسم والحاكم على مستقبل مصر قد بدأ أخيرا يلقى اهتمام المسئولين فى مصر بعدما طال اهمال حاجته الماسة إلى التجديد الكامل سواء على مستوى الدعم المادى والمالى أو الدعم المعنوى . وقد اعتبر تعيين الدكتور حسين كامل بهاء الدين - بخبرته الطويلة فى العمل السياسى بين الشباب فى الماضى - أحد المؤشرات على هذا التوجه الجديد ، كما جاءت الاعتمادات المالية الاضافية التى أعلن عنها دليلا آخر ، خصوصا بعد زلزال أكتوبر الماضى والذى ألقى الأضواء الساطعة على الحالة المزرية التى وصلت إليها مبانى المدارس ، فى الريف والاحياء الشعبية خصوصا .

ولقد قال الرئيس مبارك فى خطابه أمام الجلسة المشتركة لمجلسى الشعب والشورى بمناسبة افتتاح الدورة البرلمانية فى ١٤ نوفمبر ١٩٩١ عن التعليم ما يلى بالحرف : «لابد من أن نصارح أنفسنا بأن الأزمة التى يمر بها التعليم فى مصر أصبحت تنعكس على المدرسة والمعلم والطالب والمنهج .. ورغم أنها تنهك موارد الدولة وإمكانات الأسرة إلا أن المحصلة النهائية تأتى ضعيفة متواضعة» .

«لم يزل التعليم يعانى من غلبة الكم على الكيف ، ومن عجز فادح عن مواجهة متطلبات عصر جديد ، أخص خصائصه ثورة المعلومات التى غيرت أساليب الانتاج وأنماطه فضلا عن قصور فى إعداد أجيال جديدة أكثرة قدرة على مواجهة تحديات الحياة العملية تحسن استيعاب علوم المستقبل ، تعرف كيف تفرق باستخدام قدرات العقل البشرى بين دعاوى الزيف والحقيقة» .

واضح إذن من هذا الخطاب للرئيس مبارك ، ومن خطابات أخرى بعد ذلك مدى الأهمية البارزة التى تعلقها القيادة السياسية العليا فى مصر على موضوع إصلاح التعليم ، وذلك بصرف النظر عن التباين فى الرأى الذى يمكن أن ينجم عن الحوار مع بعض تفصيلات هذه التصريحات .



فموضوع «إنهاك موارد الدولة» الواردة فى تصريح الرئيس لا تدعمه حقيقة أن نسبة الانفاق على التعليم من إجمالى الناتج القومى تصل فى مصر إلى ٥.٢٪ بينما تصل فى الأردن إلى ٧.١٪ ، والمغرب ٧.٩٪ ، الجزائر ١٠.٨٪ ، وقيمة الانفاق الجارى على الطالب فى مرحلة التعليم الأساسى هى فى مصر ٨٨ دولارا بينما تصل فى تونس إلى ١٧٦ دولارا وفى الأردن إلى ٢٦٠ دولارا وفى اسرائيل ٨٧٧ دولارا ، ولن نتحدث عن هذا الانفاق فى فرنسا أو انجلترا أو الولايات المتحدة (انظر كتاب «مبارك والتعليم» الذى أصدره الدكتور حسين كامل بهاء الدين) .

الكم والكيف

أما موضوع «غلبة الكم على الكيف»

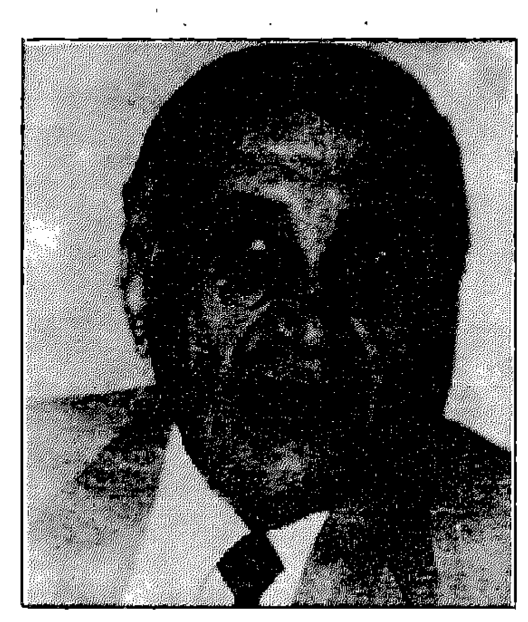
فأمر أيضا يحتاج إلى إعادة تقدير ، فواقع الحال أن الاتساع فى قاعدة التعليم الذى شهدته المرحلة الناصرية قد بدأ ينكمش مع سياسة الانفتاح الذى بدأ فى المرحلة الساداتية وما أدى إليه من خروج العديد من أطفال الريف إلى ميدان العمل بشكل مبكر دون إكمال مرحلة التعليم الابتدائى ، وهناك احصائيات كثيرة محلية ودولية تدعم هذا الاستنتاج ، ولولا أن المجال هنا لا يتسع للإسهاب فى هذا الجانب الاحصائى لأوردت بعض هذه الاحصائيات كما وردت فى مؤتمرات المركز القومى للبحوث الاجتماعية وفى بيانات الهيئات الدولية ، وإنما يكفى أن أشير إلى أن نسبة الاستيعاب فى التعليم الابتدائى (وهى النسبة بين عدد الأطفال فى مدارس المرحلة الابتدائية إلى عدد أطفال مصر الذين أعمارهم تتراوح بين ٦ ، ١٢ سنة) تصل إلى ما بين ٧٠٪ ، ٨٠٪ كما قال وزير التعليم فى كتابه «مبارك والتعليم» وأن هذه النسبة فى الاستيعاب لم تتحسن فى السنوات العشر الأخيرة فى رأى بعض الباحثين فى قضايا التعليم وأستطيع أن أقول بناء على دراسات سابقة للجنة مصرية أمريكية أن هناك أكثر من ثلاثة ملايين طفل أعمارهم ما بين ٦ – ١٥ سنة غير موجودين فى مدارس التعليم الأساسى ، بينما كان من المفروض أن يكونوا فيها لو أن نظامنا التعليمى كان على استعداد لاستيعاب كل أطفالنا فى مرحلة التعليم الأساسى كما هو معلن ، وتلك واقعة مفزعة فى حد ذاتها .

وعلى هذا فإننا فى حقيقة الأمر فى حاجة إلى العناية بالكم فى قطاع التعليم ، كما نحن فى حاجة إلى العناية بالكيف كما أشار الرئيس فى خطابه ، وليست العناية بالكم ، أى بتوسيع قاعدة التعليم ، مجرد مسألة عدالة اجتماعية ، وإنما هى كما أشارت تقارير عديدة للأمم المتحدة شرط ضرورى لاتساع قاعدة الثورة التكنولوجية والتصنيع فى أى بلد ، ففى دراسة لجامعة الأمم المتحدة فى طوكيو اشترك فيها ١١٤ باحثا حول قضية «دور العمالة فى نشر التكنولوجيا» ونشرت فى مجلة الجامعة (عدد يونيو ١٩٨٤) يبدو واضحا كما جاء فى نصها «أن المشاركة النشيطة لكل الشرائح الاجتماعية ذات أهمية قصوى فى تطوير تكنولوجيا الأمة» ، وبالطبع فإن هذه المشاركة النشيطة لكل الشرائح الاجتماعية يستحيل تحقيقها دون تعليم .

هناك إذن اهتمام واضح فى السنتين الاخيرتين لدى المسئولين بموضوع التعليم واستعداد واضح لمنحه الدعم المادى

والمعنوى الذى يحتاجه . وهذا شئ جيد لا شك فيه ، وإنما ما يطرحه موضوع وعنوان هذا المقال هو مدى الأثر السلبى الذى تعكسه القطاعات الأخرى المهملة على قطاع التعليم ، وبالتالى الحاجة إلى أن يتم التقدم والاصلاح فى قطاعات أخرى إلى جانب قطاع التعليم ، حتى لا يؤدى هذا الأثر السلبى الذى تعكسه القطاعات الأخرى على التعليم إلى تدمير أو إضعاف الأثر الايجابى لهذا الاهتمام الجديد بالتعليم .

ولكى يكون معنى هذا الكلام واضحا سوف أعطى بعض الأسئلة التى تشرح ما أسعى إلى توضيحه ، والمثل الأول يتعلق بقطاع الصحة فى الريف وحقيقة الوضع، ولن أستشهد بأقوال فى صحف المعارضة وإنما بمـا ورد فى صحيفـة الأهرام يـوم ١٩٩٣/٥/١٢ بعنوان «مناقشات ساخنة فى مجلس الشعب حول مشكلة تلوث مياه الشرب» ومنه يتضح أن مياه الشرب فى بعض المحافظات ملوثة بالمجارى وأن هذا هو السبب فى انتشار الحمى التيفودية والالتهاب الكبدى الوبائى وسائر الحميات والأمراض الأخرى فى ريف مصر ، وبالتأكيد فإن أطفال المدارس فى مقدمة المصابين من هذه الحميات ، ومدارسنا فى مقدمة المؤسسات المتأثرة بهذا الوضع



د . حسين كامل بهاء الدين وزير التعليم

السيئ والحديث فى مثل هذه الظروف عن حاجة مدارسنا إلى ادخال الكومبيوتر وعلوم المستقبل هو من قبيل ضياع الوقت لأن اطفالنا فى هذه الأماكن فى حاجة إلى توفير أول مبادئ الصحة وهو «الوقاية قبل العلاج» قبل أى شئ آخر .

الكاسيتات والارهاب

أما المثل الثانى فهو من قطاع الاعلام إن من المعلوم أن هناك عشرات الألوف من الكاسيتات التى تتحدث فى شئون دينية مطروحة فى الأسواق ، يروج لها البعض لأغراض سياسية والبعض الآخر لأغراض الكسب المادى ، وكثير من هذه الأشرطة

مجاز من بعض جهات الأزهر . والذى حدث فى مدرسة بنات فى محافظة القليوبية الشهر الماضى عندما قامت مدرسة بإذاعة شريط عن «عذاب القبر» فى أحد الفصول ومضاعفات هذا الحادث المعروفة مثال آخر يبين ماذا يمكن أن يحدث فى قطاعات أخرى غير التعليم (قطاع الاعلام) بالتحديد كان له أثره المدمر على قطاع التعليم، فهذه الكاسيتات تستخدم لإرهاب بنات فى عمر الزهور ، وبدلا من أن تنشغل بنات المدارس بتحديات المستقبل ومسئولياته إذ بهذه الأشرطة تريد أن تشغلهن بعذاب القبر ونهاية الأجل ! وعندما أراد الوزير أن يكون حازما فى مواجهة هذه الظاهرة وأن يأخذ البنات والمدرسة بالشدة خذله الحكم المحلى فى محافظة القليوبية بعد قيام المظاهرات هناك وحرق الكنيسة الانجيلية على نحو ما هو معروف وضمن هذا المثال أيضا يمكن أن نذكر بعض الأحاديث الدينية التى تذاع فى التليفزيون والتى لها الأثر السلبى على قضية الوحدة الوطنية الأمر الذى ينعكس على مدارسنا بطبيعة الحال .

أما المثال الثالث والأخير فيتعلق بقضية الدروس الخصوصية ، وما أسميه «القطاع غير الرسمى» للتعليم ، أو ما يسميه بعض الظرفاء «السوق الموازية» ! لقد تحول التعليم فى رأى البعض إلى «قطاع خاص» كما تشير ظاهرة الدروس الخصوصية ، ومع كثرة الأصوات التى بحت فى الحديث عن ضرورة إنصاف المدرس ماديا إذا أردنا حقا محاصرة هذه الظاهرة المدمرة لنظامنا التعليمى ، إلا أنه لم يجر الاعتراف بخطورة الظاهرة وضرورة إنصاف المدرس إلا مؤخرا وعلى يد الوزير الجديد الذى قال فى كتاب «مبارك والتعليم» : «لابد من الاعتراف بأن المعلم قد تم إهماله طويلا وتعايش المجتمع طويلا مع الأوضاع السيئة التى يعيش فيها المعلم . فهل يمكن للمعلم الذى يحصل على خمسين إلى سبعين جنيها ومطالب أن يفتح بيته ويعول أسرة وأن يركب مواصلات ويعالج أولاده ويلبس ملبسا لائقا حتى يكون قدوة لأبنائه .. هل هذا ممكن فى ظل هذا الدخل المحدود ؟ المشكلة إذن تم الاعتراف بها ، لكن لم يكف فى مواجهتها اعتماد بضعة ملايين من الجنيهات لزيادة المرتبات فمثل هذه الاعتمادات لن تؤد إلا لإضافة

بضعة جنيهات قليلة لمرتبات كل مدرس .

والمشكلة فى الحقيقة فى حاجة إلى مئات الملايين لإنصاف مئات الألوف من المدرسين فى المدارس والمعاهد والجامعات وبالطبع فإن توفير هذا يحتاج إلى تغيير أولويات الانفاق الحكومى فيما يسمى بسياسة «الاصلاح الاقتصادى» ، وحتى لو افترضنا إمكانية تدبير مثل هذه المبالغ ، فلا بد أن نواجه طبيعة ما سوف تطالب به قطاعات اجتماعية من ضرورة إنصافها هى الأخيرة أمام موجة الغلاء الفاحش وهبوط الأجور الحقيقية منذ سنوات طويلة

وأستطيع أن أعطى أمثلة كثيرة غير هذه الأمثلة الثلاثة لتوضيح أن قطاع التعليم الذى هو نسق جزئى ضمن النسق الاجتماعى الاقتصادى العام يتأثر بشدة وبشكل متصل بأنساق أخرى جزئية موجودة ضمن هذا النسق العام ، ومنها قطاع الصحة ، وقطاع الاعلام ، وقطاع الأجور .... الخ ، كما يتأثر بمناخ القيم السائدة فى المجتمع سلبا وإيجابا ، ومن أمثلة التأثيرات السلبية مثلا والمتعلقة بالقيم السائدة العودة إلى تدريس اللغة الانجليزية فى المدارس الابتدائية الخاصة والتجريبية، والأثر السلبى لهذه العودة على اللغة القومية للبلاد ، إن اللغة العربية ، ومع أنه ثابت فى كل دراسات الدنيا التربوية أن تدريس لغة أجنبية - كاتجاه عام - فى التعليم الابتدائى هو أمر ضار ، إلا أن طموح بعضنا لأن نكون أمة من مرشدى السياحة وموظفى البنوك الدولية أدى بوزرائنا إلى إهمال نصائح بحوث التربية بحجة أن «أولياء الأمور يريدون ذلك» ، والأغرب من هذا أن هناك دعوة ارتفعت فى مؤتمر التعليم الابتدائى الأخير تنادى بتدريس العلوم فى المدرسة التجريبية باللغة الانجليزية ، يحدث هذا بعد خروج دنلوب من مصر بأكثر من ثمانين عاما !

وما أريد أن أصل إليه من هذا المقال هو الاشارة إلى حاجتنا إلى التفكير فى إصلاح الأوضاع فى عدد من القطاعات الوطنية الأخرى بجانب قطاع التعليم إذا أردنا أن يكون الاصلاح فى التعليم مستمرا ومتصلا ، وغير قابل للانتكاس .

وإذا قبلنا هذا المنطق فلابد من تحديد لهذه القطاعات ذات الأثر المباشر فى قطاع التعليم وإعداد خطط موازية لإصلاح أوضاعها ، والتقدم فى كل هذه الجبهات معا إلا فى جبهة واحدة كما يبدو فى حديث المسئولين حالياً .

لماذا هذه الزوابع حول مسيرة التربية الإسلامية ؟!

بقلم: د . أحمد عمر هاشم

إن مادة التربية الاسلامية ، فى مراحل التعليم الإبتدائية والإعدادية والثانوية ، تشتمل على مناهج علمية وتربوية ، وجرعات مناسبة ومدروسة بخطة دقيقة أشرف عليها كبار علماء الإسلام وكبار رجال الفكر والتربية .

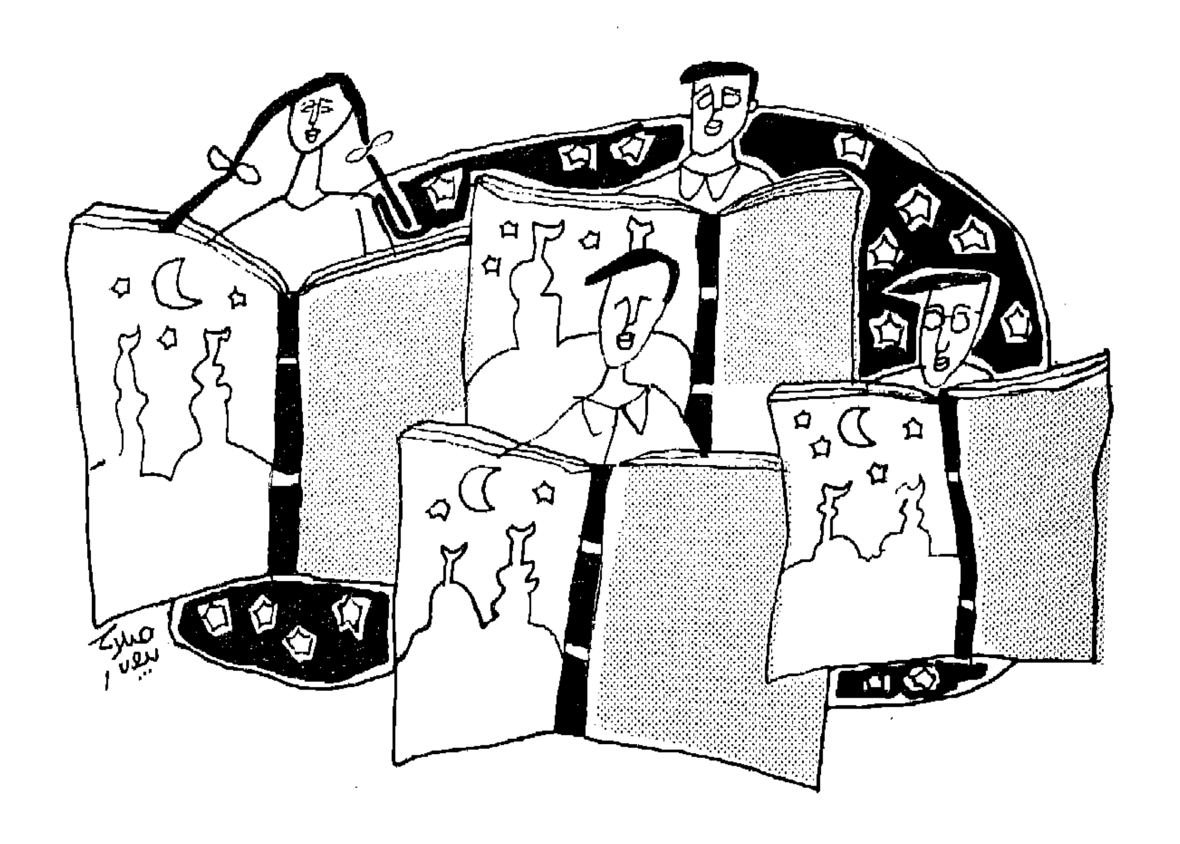
وليس من مصلحة أمتنا من قريب أو بعيد، أن تتنامى أساليب النقد الهدام، الذى يشكك فى مصداقية المسيرة التعليمية، ويثير البلبلة، ويلقى بالاتهامات جزافا دون وجه من الحق.

إن إثارة الزوابع حول مايدرس فى مدارس التربية والتعليم من تربية إسلامية، ليس وراءها إلا التشكيك والإثارة، ومحاولة تهميش الخطة البناءة والفاعلة التى يضطلع بها رجل مخلص، ووزير يخلص لأمته وعقيدته، وهو الاستاذ الدكتور حسين كامل بهاء الدين وزير التعليم، ليكمل المسيرة التى بدأها سلفه الاستاذ الدكتور احمد فتحى سرور حين شكل لجنة عليا من كبار العلماء والمفكرين لوضع مناهج التربية الاسلامية والاشراف عليها.

إن الاتهامات التى حاول البعض أن يهيلوا ترابها على هذا الإنجاز العلمى الدقيق، تقذف بالتهم الجزافية التى تقول بحذف آيات القرآن والأحاديث النبوية والغزوات وغير ذلك..!!!

مع أن الذى يتصفح كتب التربية الاسلامية، يرى أنها تشتمل على السور القرآنية الكاملة والكثيرة، وعلى المعلومات القيمة المتناسبة مع أعمار التلاميذ فى التوحيد والسيرة والتهذيب وقصص الأنبياء.

فى كتب المرحلة الابتدائية ترى سورا قرآنية كاملة معها تفسيراتها الميسرة والدروس المستفادة منها وترى سائر فروع



الثقافة الاسلامية بأسلوب شيق يرغب الطالب فيها.

وفى المرحلة الاعدادية، وعلى سبيل المثال، لا الحصر ترى فى كتاب الصف الأول الاعدادى سورة «النجم» وسورة «الواقعة» وتفسيرا مناسبا وملائما، وتوضيحا لأحكام تلاوة القرآن الكريم، وعلامات الوقف وما إلى ذلك.

وترى طائفة من الأحاديث النبوية المنتقاة من أصح كتب السنة المعتمدة والتى تعالج المشكلات، وتغرس الفضائل مشروحة شرحا علميا ميسرا، فيها المعانى والدروس المستفادة من الأحاديث وأسئلة عليها، إنها تعلم أبناءنا الاسلام فى سماحته، وتشرح لهم الآداب الاجتماعية، والأخلاق والفضائل، وتخير الأصدقاء والتواضع.

● وترى قسما عن التوحيد يشرح بالدليل العقلى والنقلى وبصورة مبسطة ومستوعبة فى آن واحد وجود الله ووحدانيته وقدرته، وعموم رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

● وترى قسما عن العبادات فيه شرح للطهارة والوضوء والتيمم والصلاة بجميع أنواعها.

● وفى السيرة النبوية، تناول الكتاب حياة رسول الله صلى عليه وسلم وبعثته ونشر الدعوة والحياة فى كل من مكة والمدينة.

● وفى التهذيب يتناول الكتاب الأمانة والصدق، ورعاية المرافق العامة، والقصد

فى الاتفاق ورعاية حقوق الجار وأدب الحديث الى غير ذلك من الشخصيات الاسلامية ودراستها بأسلوب مناسب.

ونرى فى كتب التربية الاسلامية سورا كاملة مفسرة من القرآن الكريم وأحاديث نبوية صحيحة مشروحة شرحا وافيا ومختارة في موضوعات متعددة بحيث تستوعب كل الجوانب، وفي الكتب شروح الغزوات، وبيان الدروس المستفادة منها، وشرح لقضايا العمل والمال والتنمية ومحاربة الاحتكار والعادات الضارة والانحراف.

وفى رأيى :

أن مناهج التربية الاسلامية، وكتبها الحالية هى أنسب المناهج، وكتبها أحسن ما وضع بحيث تتناسب مع أعمار المراحل المتعددة، وفيها الغناء لصياغة شخصية الطالب الذى يقرؤها ويستوعبها، وفي هذه المناهج فيها العقيدة، والعبادات والمعاملات والاخلاق والغزوات، والفضائل.

إن الذى يتصفح كتب التربية الاسلامية فى جميع مراحل التعليم الإبتدائية والإعدادية والثانوية، يرى أنها اشتملت على المعلومات المهمة التى ينبغى على أبنائنا أن يتعلموها وأن يعرفوها.

وإذا كان بعض الناقدين يريدون أن يجتمع العلم كله بسائر فروعه فهذا مستحيل، والكمال لله وحده.

والحق أن المنهج الموضوع منهج علمى مدروس اشتمل على سائر أنواع فروع الثقافة الإسلامية.

● تدعيم المناهج ●

وفيه الغناء والكفاية لأبنائنا، ومحاولة نقد هذا المنهج ظلم وتجنٍّ ولايليق بنا أن نشكك فى نوايا وضمائر الذين يقومون على هذه المناهج، بل علينا أن ندعم هذه المناهج وجهود المخلصين الذين بذلوا فى سبيل الخير أقصى مايمكن.

إن كل عمل بشرى قابل للتوجيه والنقد البناء، ومامن إنسان إلا يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب الروضة عليه أفضل الصلاة وأتم السلام، ولكن هناك فرق بين راغب فى التوجيه، وبين مجرِّح وهدام.

لقد عالجت المناهج الحالية، بكتبها ظواهر كثيرة، وعادات ضارة كانت فى حاجة لمعالجتها، وقدمت المعلومة الدينية فى صورتها السمحة الميسرة، وبأسلوب شيق، وعبارة جذابة تحبب أبناءنا فيها، واشتملت على عرض واضح لسماحة الدين الإسلامى ويسر تشريعه، دون إفراط أو تفريط ومن الظلم والتجنى أيضا أن يقال إن الغزوات قد حذفت وإن آيات القرآن حذفت، وبين يدى الآن كتب التربية الاسلامية وهى مليئة بالسور القرآنية وشرحها وبالغزوات.

إننا فى حاجة إلى دعم وتأييد كل عمل إسلامى، وكل برنامج دينى، وكل منهج مدروس، ولامانع أن يطالب الناس وأن يعرضوا أفكارهم للدرس إن كانت نافعة فلا مانع من الأخذ بها، وإن كان غيرها

يغنى عنها فلا داعي من التكرار .

أما أن تُجرّح كتب سهر عليها مؤلفوها الليالي، واستنبطوا كنوزها ولآلئها من بطون التراث العربى والاسلامى، فهذا لايخدم العملية التعليمية ولا الفكرة الإسلامية.

إننا لا نرى أتباع أي فكر أو دين يهدم بعضهم بعضاً !!

فهل هذا جزاء كل عمل ناجح ؟!

وهل يليق هذا بأتباع دين نشر السماحة واليسر وأدب الاختلاف والحوار؟!

وهل يليق بإنسان مسلم أن يتهم نوايا أخيه المسلم بهذه الصورة التى راح البعض يكيل فيها التهم ويوزع فيها قذائف البهتان على الناس دون سند من الحق أو الصواب؟!

لقد حضرت جميع اجتماعات اللجنة العليا الخاصة بمناهج التربية الاسلامية فما كان فيها أجانب كما يزعم البعض بل كل الحاضرين كانوا من كبار علماء الإسلام : فضيلة الشيخ محمد الغزالى وفضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوى وفضيلة الدكتور عبد المنعم النمر رحمه الله وفضيلة الدكتور ابو الوفا التفتازاني والاستاذ الدكتور شوقى ضيف، وكلهم لهم قدرهم ولم يكن من بينهم أحد أجنبى، وقد وضعت المناهج بصورة دقيقة.. وروعى فيها أن تشتمل على فروع المعرفة الاسلامية الكثيرة، وعدم إغفال شيء من غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا من القرآن والحديث. بل إن كتب التربية الاسلامية تشتمل على هذه الغزوات وعلى سور من القرآن وعلى الكثير من الأحاديث والتوحيد والعبادات والأخلاق، والسيرة النبوية، والتهذيب، وتراجم لبعض الشخصيات الاسلامية القديمة والحديثة، لتكون نماذج فى علمها وفى سلوكها وقدوة لأبنائنا.

وأؤكد مرة أخرى بأن مناهج التربية الاسلامية مناهج سليمة وليس فيها إغفال للغزوات ولا للسور القرآنية، ولا للأحاديث النبوية وإنما اشتملت على جرعات دينية تتناسب مع أعمار أبنائنا ومراحل تعليمهم، وكتبت بأسلوب ميسر، وعرض شيق.

فلا يصح إثارة الشكوك والشبهات والبلبلة حولها، بل علينا أن نقرأها كلها ثم نحكم عليها، ولانتبع من يتكلم بهوى، أو من يثير شبهة لحاجة فى نفسه، أو لمجرد الشائعات.

ومرة أخرى فإن القائمين على المناهج هم وطنيون ومخلصون لدينهم وأمتهم وينشدون الاصلاح لأبنائنا وشبابنا .

وأدعو الله تعالى أن يجمعنا جميعا على الحق، وأن يجمع قلوبنا على حبه وحب أمتنا، ومحبة الخير للجميع.

وأدعو الناقدين والمهاجمين أن يدعوا معنا أن يوحد الله أمتنا على الحق والهدى والسداد، وأن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه وأن يرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه، إنه سبحانه ولى الصالحين، وهو حسبنا ونعم الوكيل . وبالله التوفيق،

تطوير التعليم وتشكيل الهوية العربية لمصر

بقلم : د. كمال المنوفى

إن التعليم ، فى جوهره ، هو عملية بناء للبشر عقليا ووجدانيا من خلال إكسابهم المعارف والقيم والميول والمهارات والقدرات التى يصبحون بها ومعها مواطنين منتمين ، منتجين مشاركين ، مبدعين . وبقدر ما يكون التعليم السيئ منبعا لثقافة التخلف بقدر ما يكون التعليم الجيد مصدراً لثقافة النهضة ، ولما كان الإنسان هو صانع التقدم فى كل زمان ومكان ، ولما كان البشر هم ثروة مصر الحقيقية ، وحسن اعدادهم تعليميا وتربويا هو مفتاح النجاح فى شتى ميادين العمل الوطنى ؛ لا عجب أن يصبح تطوير التعليم فى صدارة اهتمامات القيادة السياسية بحسبانه قضية أمن قومى فى الحاضر والمستقبل .

وينصرف أحد جوانب التطوير - الذى يشهد جهوداً فائقة فى الآونة الحالية - إلى تغيير المناهج الدراسية شكلا ومضمونا لتصبح بحق رافداً للقيم النهضوية وعلى رأسها قيم الانتماء الذى يتضمن بالضرورة بعداً عربيا مناطه الارتباط بالأمة العربية والاعتزاز بحضارتها وأمجادها والوعى بما يجابهها من مشاكل وتحديات . وفى هذا السياق ، قد يكون من المفيد إلقاء الضوء على حيز واهتمامات الخطاب القومى فى المناهج الدراسية علما بأننا سوف نقتصر لأسباب عملية محضة على كتب الاجتماعيات لمرحلة التعليم الأساسى ، وهى تحديدا : «محافظتى» للصف الرابع الابتدائى ، الانسان والبيئة عبر التاريخ للصف الخامس الابتدائى ، وطنى مصر للصف الأول الاعدادى ، ثم جغرافية





الوطن العربى وتاريخه فى العصر الاسلامى للصف الثانى الاعدادى .

يفرد كتاب « محافظتى » نحو ٨٣٪ من مجموع صفحاته للحديث عن الأرض والتاريخ والاقتصاد والتقسيم الادارى فى المحافظة التى ينتمى إليها التلميذ ؛ بينما يخصص النسبة المتبقية لنماذج من الزعامات الوطنية والمواضع الأثرية التى يفترض أنها تحظى بأهمية خاصة فى تشكيل الذاكرة التاريخية والسياسية للمصريين : مينا ، صلاح الدين الأيوبى ، محمد على ، سعد زغلول ، جمال عبد الناصر ، أنور السادات فى جانب الشخصيات ؛ الأهرامات ، أبو الهول ، الأزهر الشريف فى جانب الآثار . واللافت للنظر هنا أن تغيب أية إشارة ذات هوى عربى لدى ذكر مآثر عبد الناصر برغم أنه منح الدائرة العربية جل فكره واهتمامه ؛ بينما ترد مثل هذه الإشارات فى سياق الحديث عن منجزات سعد زغلول ، وأنور السادات المعروفين بانحيازهما الشديد لفكرة «الوطنية المصرية» .

وفى كتاب «الانسان والبيئة عبر التاريخ» وردت كلمات وصور ذات مدلول قومى حوالى ١٨ مرة ، فى حين تكررت الإشارة لمصر نحو ٦٩ مرة بالكلمة والصورة . أما كتاب « مصر وطنى » فيقتصر على جغرافية مصر وتاريخها فى العصور القديمة . وجاء ذكرها لماما فى سياق عربى لا يخلو من نبرة الريادة أو المصلحة المصرية من ذلك القول بأن مصر سبقت العرب فى انتاج البترول وادخال السكك الحديدية ، وأن أحد سبل حل مشكلة الزيادة السكانية عندنا هو تشجيع الهجرة للعمل فى البلاد العربية .

نأتى أخيراً إلى مقرر «جغرافية الوطن العربى وتاريخه فى العصر الإسلامى» لنجد أن صفحاته تتوزع كما يلى : ٤٧,٧٪ للملامح الجغرافية للوطن العربى من حيث الموقع والأرض والبشر والثروات الطبيعية والأنشطة الاقتصادية ؛ ٣٥,٥٪ لتاريخ العرب فى ظل الاسلام وفضل الحضارة الإسلامية على النهضة الأوربية ؛ ١٣,٢٪ لتاريخ مصر الاسلامية ودورها فى مقاومة الصليبيين والمغول ، ٣,٦٪ عن مصر والعالم العربى والاسلامى فى التاريخ المعاصر مع ملاحظة أن ١,٣٪ من هذه النسبة تخص القضية الفلسطينية .

● وزن الخطاب القومى ●

هكذا وعلى أساس اتخاذ الصفحة وحدة للعد ، يتبين أن الخطاب القومى يشغل نحو ١٢,٧٪ من إجمالى مساحة كتب الاجتماعيات قيد الفحص ، وترتفع النسبة إلى ٢٢٪ إذا أضفنا ما يتعلق بتاريخ وحضارة العرب فى ظل الإسلام ،

وتحظى قضية فلسطين بحيز قد يجادل البعض فى مدى تناسبه مع كونها هم العرب الأكبر فى التاريخ المعاصر ؛ إذ يبلغ نصيبها ١,٣٪ من مجموع صفحات المنهاج ، ٥,٢٪ من رقعة الخطاب القومى.

بعد هذا البيان الكمى لوزن الخطاب القومى فى كتب الدراسات الاجتماعية ، نمضى إلى عرض ومناقشة أطروحاته وماقد تستبطنه من دلالات . تظهر القراءة المتأنية للنصوص ذات التوجه العربى أنها تنتظم حول أربعة موضوعات أو محاور كبرى تتدرج تنازليا بحسب حظوظها من اهتمام المنهاج على النحو التالى : أهمية الوطن العربى ؛ دور مصر العربى ، القضية الفلسطينية ، ثم التكامل العربى .

١ - أهمية الوطن العربى:

هنا ، تنشغل المقررات بإبراز المكانة المتميزة للوطن العربى جغرافيا واقتصاديا وحضاريا . فمن الناحية الجغرافية ، يذكر الخطاب أن الوطن العربى يتمتع بموقع متفرد ساعده على «الاستقرار وتكوين شخصيته العربية» ، وخلع عليه «قيمة استراتيجية كبرى» جعلته محط أطماع الدول الاستعمارية . كما ينوه المنهاج بفضل التضاريس فى الحفاظ على أصالة شخصية الوطن العربى ، وتيسير التواصل بين مختلف أرجائه . وإذا كان الهيكل الديمغرافى العربى يشهد اختلالاً كبيرا بين دول تعانى من الزيادة السكانية ، ودول تشكو من نقص السكان ، فإن الخطاب يطرح حلا قوميا لهذه المشكلة مفاده « السماح بانتقال الأيدى العاملة من البلاد التى يوجد بها فائض فى العمالة إلى الدول التى تحتاج إليها» . ومن الناحية الاقتصادية ، يتحدث المنهاج بزهو عما ينعم به الوطن العربى من ثروة هائلة ومتنوعة من الموارد الطبيعية وفى مقدمتها البترول الذى يعد أهم مصدر للطاقة فى الوقت الحاضر . ومن حسن الطالع أن تستأثر المنطقة العربية « بنحو نصف احتياطى البترول فى العالم ، وبنحو خمس الانتاج العالمى منه » ، ويرى المنهاج فى الصناعة أمل الأمة العربية فى « زيادة دخلها والارتفاع بمستوى معيشة أبنائها » سيما وأن العرب يملكون معظم مقومات التنمية الصناعية من مواد خام ومصادر طاقة ورءوس أموال وأيد عاملة وأسواق . ويأسف الخطاب لضعف التبادل التجارى بين الدول العربية ، ويضع بين سبل تنشيطه صيغة التجمعات الإقليمية مثل مجلس التعاون الخليجى ، ومجلس التعاون العربى والاتحاد المغاربى ، مع العلم بأن هذه التجمعات لم تحقق حتى الآن نجاحا يذكر لا فى مجال التعاون الاقتصادى ولا فى غيره .

● مشاعر الفخر والانتماء ●

ولدى الحديث عن الإنجاز الحضارى للعرب ، تتحول لغة الخطاب كلية عن

الحاضر إلى الماضى : حسب الوطن العربى أنه كان مهد أعظم الحضارات فى العالم القديم ، ومهبط الرسالات السماوية الثلاث ، وصاحب حضارة إسلامية زاهرة أفادت منها النهضة الأوربية إلى حد بعيد.

إن وطنا عربيا ذلك شأنه خليق بأن يثير فى نفوس أبنائه مشاعر الفخر بالانتماء إليه ، فمن حق العربى أن يزهو بوطن توافرت له من معطيات الجغرافيا ومصادر الثروة ما جعله محط أنظار العالم. ومن حق العربى أيضا أن يزهو بوطن يشهد ماضيه بشموخ الأجداد وعظمة ما صنعوه من حضارة فاض نورها على الإنسانية جمعاء ومهدت الطريق لانطلاقة أوربا فى العصر الحديث .

٢ – مكانة ودور مصر فى العالم العربى :

ينظر الخطاب القومى لمصر باعتبارها قلب الجسد العربى ؛ إذ يشير ، صراحة أو ضمنا ، إلى دورها الطليعى فى المحيط العربى ، وأهليتها وجدارتها بقيادة العرب ، فمصر مركز الوطن العربى وحلقة الوصل بين جناحيه الأسيوى والأفريقى ، وهى أكبر الدول العربية سكانا ، وكانت مركز الحضارة الإسلامية على عهد عمرو بن العاص والدول المستقلة : الطولونية والإخشيدية والفاطمية والأيوبية والمملوكية . وبعد سقوط الدولة العباسية فى بغداد ، انتقلت الخلافة إلى القاهرة ، وبات الأزهر قبلة طلاب العلم يفدون إليه من كافة أنحاء العالم الإسلامى . وكان للعلماء المصريين ، أمثال ابن يونس وابن النفيس والمقريزى ، بصمة واضحة على النهضة العلمية الاسلامية . وتحملت مصر مسئولية الدفاع عن العالم الاسلامى ضد الصليبيين والتتار . فقد جعل منها صلاح الدين الأيوبى مركز القوة الرئيسية فى مواجهة الخطر الصليبى ، وألحق بها الشام فى كيان واحد نجح بفضله فى كسر شوكة الصليبيين فى موقعة حطين واسترداد بيت المقدس . وبعد أن اجتاح المغول بلاد الشام ، تصدى لهم جيش مصر بقيادة بيبرس وأنزل بهم هزيمة نكراء فى عين جالوت ، وفى التاريخ الحديث والمعاصر ، ظل لمصر دور الطليعة والريادة فى الوطن العربى . فثورة ١٩١٩ كانت المفجر لثورات العرب ضد الاحتلال الأجنبى ، وتبنت مصر فكرة انشاء الجامعة العربية ، ولم تتوان عن مساندة حركات التحرر الوطنى العربية عسكريا ودبلوماسيا ، ووقفت بكل قوة وراء قضية الشعب الفلسطينى ، فقد كانت الطرف العربى الوحيد أو الرئيسى فى الحروب العربية – الاسرائيلية ، وحرصت فى معاهدة الصلح المبرمة بينها وبين اسرائيل على الربط بين تحرير سيناء واستعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى ، ثم هى « تبذل قصارى جهدها فى كل المحافل والمنظمات الدولية لإعادة الحق الفسطينى إلى أصحابه » .

وعلى هذا النحو ، تبغى كتب الاجتماعيات تربية الناشئة على الإيمان بأن مصر زعيمة للعرب بلا منازع ، وبأن

هذه الزعامة ليست مصطنعة ولا هى مفروضة بالقوة ، ولا تنهض على ادعاء أجوف ، ولكنها نتيجة طبيعية لحقائق الجغرافيا والإرث التاريخى والثقل البشرى والرصيد الحضارى والثقافى .

٣ - القضية الفلسطينية :

فى حوالى ثلاث صفحات ، تمر المناهج بسرعة على نشأة وتطور قضية فلسطين : وعد بلفور ، الانتداب البريطانى على فلسطين ، قيام دولة اسرائيل ، حروب ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ ، معاهدة السلام المصرية - الإسرائيلية ، الانتفاضة الفلسطينية . هذا التناول ، على إيجازه الشديد ، تتخلله معادن مهمة : فلسطين ضحية لمؤامرات الاستعمار والصهيونية ، قومية القضية الفلسطينية ، مشروعية حقوق الفلسطينيين وعلى رأسها حق تقرير المصير ؛ مشروعية الكفاح الفلسطينى المسلح ، جدارة القضية بتأييد المجتمع الدولى ، إسرائيل صنيعة وربيبة الاستعمار الغربى ، إسرائيل دولة عدوانية وتوسعية ولا تنشد السلام العادل ، وبينما تحاشت كتب الاجتماعيات الخوض فى صفات اليهود ، تكفلت بهذا الامر كتب التربية الاسلامية ، اذ رسمت صورة لليهودى من أظهر ملامحها : الغدر ، الخيانة ، الجشع، الدس ، العناد ، كراهية الاسلام والمسلمين وهكذا ، يغذى الخطاب المدرسى لدى الناشئة اتجاهات إيجابية نحو فلسطين تقابلها اتجاهات سلبية نحو إسرائيل .

٤ - التكامل العربى :

فى هذا الصدد ، تشير المناهج بطريق غير مباشر ، امكانية وضرورة التكامل الاقتصادى بين الدول العربية ، فالوحدة الاقتصادية العربية تجد أساسها فى كثرة وتنوع الموارد الطبيعية والبشرية التى يملكها العرب . والتكامل الاقتصادى هو السبيل إلى التنمية الصناعية والزراعية وتنشيط التبادل التجارى وتصحيح الاختلالات السكانية على الصعيد القومى العربى طالما أن مناط العملية الاندماجية هو «أن يسهم انتاج أو استهلاك أية منطقة عربية فى تطوير اقتصاديات غيرها من المناطق ، وأن تجد أية دولة ما تحتاجه من منتجات زراعية أو معدنية أو صناعية أو رأسمال ، أو عمالة أو أسواق لتوزيع منتجاتها» . كما أن التكامل الاقتصادى ، بما يحققه من تشابك هائل فى المصالح والعلاقات ، يرسى الأساس المتين للوحدة السياسية . وبالاندماج الاقتصادى والسياسى ، تتحقق الوحدة العربية الشاملة التى يعتبرها الخطاب سيرورة حتمية بحكم ما بين العرب من روابط اللغة والأصل والدين والتاريخ والعادات والتقاليد .

حاصل ما تقدم جميعه أن الخطاب القومى فى مناهج الدراسات الاجتماعية يحمل مجموعة أفكار يراد لها أن تترسب فى وعى الناشئة : الأهمية الفائقة للوطن العربى وما تنطوى عليه من خير وشر ، أهلية مصر لزعامة العرب ، عروبة قضية شعب فلسطين وعدالة مطالبه ، الحاجة

الماسة إلى التكامل الاقتصادى ، وحتمية الوحدة العربية .

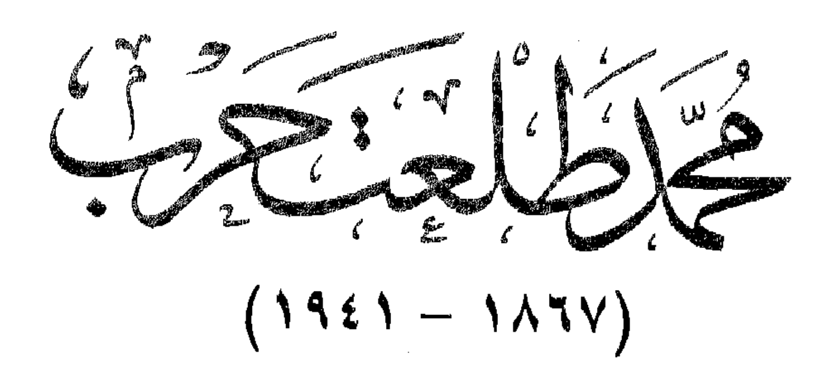
وبعد : فلعله من المفيد أن نختتم المقال بالملاحظات الآتية :

١ - جاء منهاج الاجتماعيات الحالى للتعليم الأساسى خلوا من موضوعات ذات أهمية كبيرة فى صياغة وإثراء الرؤية العربية ، وكان يغطيها المنهاج المناظر فى فترة سابقة (كتاب مصر والوطن العربى ، جـ ٢ ، ط ١٩٨٨/٨٧) : حركات التحرر الوطنى فى العالم العربى ، التجارب الوحدوية المعاصرة ، مؤتمرات القمة العربية بما فيها مؤتمر قمة بغداد عام ١٩٧٩ ؛ التنمية الاقتصادية فى الوطن العربى ، التكامل الاقتصادى بين الدول العربية . حقا إن كل أو معظم هذه الموضوعات رحِّل إلى كتب الاجتماعيات لمرحلة التعليم الثانوى العام . لكن المشكلة تظل قائمة بالنسبة إلى التلميذ الذى يتوقف مشواره التعليمى بانتهاء المرحلة الإعدادية وكذا التلميذ الذى يلتحق بالتعليم الثانوى الفنى .

٢ - يتناول المنهاج الحالى موضوع الخطر الصليبى والمغولى فى باب «تاريخ مصر الإسلامى» تحت عنوان «دور مصر فى مواجهة الصليبيين والمغول» ، بينما تناول المنهاج سابقا فى باب « كفاح العرب ضد الغزاة» تحت عنوان «الغزو الصليبى للوطن العربى» و«الغزو المغولى للوطن العربى» . والسؤال : أى المسلكين أوفق من منظور تشكيل الذاكرة العربية لدى أبنائنا ؟ كذلك يضع الحالى قضية فلسطين بين موضوعى الجامعة العربية والمؤتمر الإسلامى فى إطار فصل واحد عنوانه « مصر والعالم العربى والإسلامى»، فى حين كان المنهاج فى طبعة ١٩٨٨/٨٧ يفرد لها فصلاً مستقلا بعنوان «الأطماع الصهيونية فى فلسطين والوطن العربى» . ونكتفى هنا بإعادة طرح السؤال السابق . كذلك أغفل المنهاج الحالى فى سياق تناوله للجامعة العربية واقعة نقل مقرها إلى تونس علما بأن هذه الواقعة وملابساتها كانت مذكورة فى الطبعة سالفة الإشارة ، فما هى الحكمة من وراء ذلك ؟

٣ - فيما عدا قضية فلسطين ، يصادف المرء فى كتب الاجتماعيات قيد النظر غيابا شبه كامل للتحديات والمشاكل التى تواجه العرب فى الوقت الراهن . وأظن أن توعية التلميذ بأهم هذه المشكلات ، على الأقل ، مفيد للغاية فى تعميق الانتماء لأمته العربية . إذ كيف نطلب منه التفاعل مع هموم وقضايا الأمة دون أن يكون على بينة منها .

٤ - نعم ، يشهد الماضى والحاضر بزعامة مصر للعرب ، وعظيم فضلها عليهم . لكن الالحاح على هذا الأمر فى مناهج الاجتماعيات الحالية ، قد يغذى لدى المصرى شعوراً بالتفوق وربما الاستعلاء على أخيه العربى . ووجه الخطورة هنا أنه يكفى دغدغة هذه المشاعر لتأليب المصرى ضد العرب خصوصا فى لحظات الأزمة مثلما حدث عقب إبرام اتفاقية الصلح بين مصر وإسرائيل .



(١٨٦٧ - ١٩٤١)

وفتح أبواب مصر

بقلم : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى

إذا كان محمد على هو راعى النهضة الصناعية الأولى فى مصر الحديثة ، فإن طلعت حرب هو راعى هذه النهضة بعد أن أنهارت النهضة الأولى نتيجة لتدخل بريطانيا وإرغامها مصر على فتح ابوابها أمام الصناعات الأجنبية . فلقد طبق محمد على على أملاكه نظام الاحتكار الذى كان بمثابة رأسمالية الدولة وشكل سدا منيعاً أمام المنافسة والتدخل الأجنبيين، فى الوقت الذى استقرت فيه الثورة الصناعية فى بريطانيا وهى الصناعة التى سعت إلى غزو الأسواق الأجنبية لتصدير الفائض من منتجاتنا - وهذا هو السبب الرئيسى الذى جعل لورد پالمرستون يعادى محمد على ويرغمه على فتح أبواب مصر أمام منتجات بلاده، متعللاً بأن تطبيق نظام الاحتكار كان شديد الوطأة على المصريين .



محمد طلعت حرب

ولقد واجه طلعت حرب صعوبات مماثلة أمكنه أن يتغلب عليها بجلده ومثابرته إلى أن وقفت الصناعة المصرية على أقدامها برغم عدم توفر الكوادر المحلية المتمرسة فى الصناعات الحديثة ، وهو يختلف عن محمد على فى تبنيه النهضة الاقتصادية فى بلاده دون أن يكون له من مطمع سوى إنهاض بلاده وإعلاء شأنها فى حين أن محمد على كان يستهدف إقامة إمبراطورية مترامية الأطراف ترث الدولة العثمانية المتداعية وتشكل دولة عظمى يرثها أبناؤه وأحفاده .

ولد طلعت حرب فى ٢٥نوفمبر ١٨٦٧ بقصر الشوق فى الجمالية فى أسرة نزحت إلى القاهرة من مديرية الشرقية وبالتالى فإنه نشأ على عادات وأخلاق أهل الريف والأحياء الشعبية وتقاليدهم . وكان والده موظفاً بسيطاً فى مصلحة السكك الحديدية ومن ثم إنتماؤه إلى الطبقة الوسطى الدنيا ذات الجلد على العمل والتمسك بدينها وتقاليدها وعاداتها ، وفى بداية حياته عمل فى بقالة صغيرة فى العباسية وإن لم يوفق فى عمله فانتقل إلى تجارة الألبان ومستحضراتها ، وفيها لم يحالفه الحظ للمرة الثانية . ثم تلقى تعليمه فى مدرسة الألسن والإدارة والقانون ، ثم انتقل الى إدارة قضايا السكك الحديدية ثم إلى إدارة قضايا الدائرة السنية . وبعد ذلك عمل فى دائرة عائلة سلطان باشا حيث نظم إدارة أموال عمر بن محمد سلطان ، فبعد أن كانت تخسر جعلها تربح مما تسبب فى شهرته لدى أصحاب الدوائر الزراعية بسبب كفاءته وتنظيمه للحسابات . ثم ارتبط بشركة كوم أمبو ثم التحق بإدارة الشركة العقارية المصرية . وأتقن اللغة الفرنسية كلاماً وكتابة . وقد أفاد من رجال المال اليهود توسيع أفقه فى الوقت الذى كان له فيه أصدقاء من الأقباط – وفى المستقبل سيصبح الماليون اليهود أعضاء بمجلس إدارة بنك مصر .

حرب ومعارضة السفور

وقبل الحرب العالمية الأولى كان طلعت حرب أميل إلى اتجاه حزب الأمة الذى أنشأه بعض أعيان الريف ونشط فيه أبناؤهم الذين تلقوا ثقافة غربية ، ومن ثم كان موقفهم من الاحتلال أقل تطرفاً من رجال الحزب الوطنى ومن ثم لم يجدوا غضاضة فى عقد صلات مع الإنجليز والتعاون معهم والسعى إلى إقناعهم بالإصلاح بدل مخاصمتهم ، خاصة وأنهم كانوا من حيث الاتجاه الفكرى من تلامذة

محمد عبده الذين مالوا إلى الاقتباس عن الفكر الغربى وناوءوا السلطة الاستبدادية الخديوية وطالبوا بالدستور والليبرالية ولم يستنكفوا التأثر بالمثل الغربية والاتصال بالانجليز والارتكان إليهم فى مقاومة استبداد القصر . ومن تلامذة محمد عبده سعد زغلول وقاسم أمين وأحمد لطفى السيد . وقد دعا قاسم أمين إلى تحرير المرأة مما جلب عليه عداء المتزمتين والرجعيين ، ولكن طلعت حرب الذى تربى تربية دينية محافظة عارض دعوة قاسم أمين إلى السفور ورد على كتابى قاسم أمين «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» بكتابيه «تربية المرأة والحجاب» و«فصل الخطاب فى المرأة والحجاب» وفيهما ذهب إلى أن الاسلام كفل للمرأة من الحقوق ما لا تتمتع به المرأة الأوربية السافرة ونادى بوجوب تربية المرأة وتهذيبها قبل تربية الذكور وتهذيبهم . ورغم ذلك فإنه عدل رأيه فى المستقبل بعد أن زالت الملابسات التى أطاحت بدعوة قاسم أمين - فقد خرجت مدرسة الطيران التابعة لشركة مصر للطيران أكثر من طيارة، وقامت بعض النساء بالتمثيل فى مسرح حديقة الأزبكية الذى أنشأه هو كما اشتغلت كثير من الفتيات فى مصانع شركة مصر للغزل والنسيج .

وقبل الحرب العظمى ساهم طلعت حرب فى عام ١٩١٠ فى الحملة ضد مد امتياز قناة السويس وهو ما تبنته الدوائر الانجليزية وحاربه محمد فريد والحزب الوطنى . وفى عام ١٩١١ أصدر كتابا بعنوان «علاج مصر الاقتصادى ومشروع بنك مصر» . وفى أعقاب ثورة ١٩١٩ تبنى الدعوة إلى إنشاء بنك وطنى وقال فى اليوم الأول لإنشاء البنك أنه جاء ليستثمر الأموال الموجودة فى البلاد والتى لا ينتفع بها إما لأنها مودعة فى مصارف أجنبية لا تستثمر أموالها فى مصر بل فى بلادها الأم وإما لأنها مخبوءة فى الدور لا يعرف أصحابها طريقهم إلى المصرف . وهكذا نجده يتبنى أجتماعاً انعقد فى ٧مايو ١٩٢٠ أمكن فيه جمع ٨٠.٠٠٠ جنيه باعتبارها رأسمال بنك مصر الذى بلغ فى عام ١٩٢٧ مليوناً من الجنيهات - .وعلى حين أن البنوك الأجنبية كانت تستعمل اللغتين الإنجليزية والعربية فقد آثر طلعت حرب أن تكون اللغة العربية هى لغة بنك مصر الذى كان له فى البداية مركز واحد فى القاهرة ، إلا أنه ما لبث أن انتشرت فروعه ومكاتبه فى شتى أنحاء القطر وساهم مساهموه بمرور الزمن فى إنشاء شركات بنك مصر التى لعل أهمها شركة النقل والملاحة وشركة مصر للتمثيل والسينما وشركة مصر لنسج الحرير وشركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى وشركة مصر لمصايد الأسماك وشركة مصر للطيران وشركة بيع المصنوعات المصرية وشركة مصر للتأمين وشركة مصر للملاحة البحرية وشركة مصر للسياحة وشركة مصر لدباغة وصناعة الجلود وشركة مصر للمناجم والمحاجر وشركة مصر لصناعة

وتجارة الزيوت .

وفى الوقت الذى اتسعت فيه أعمال بنك مصر داخل القطر امتدت نشاطاته إلى الخارج ، فنشأ بنك مصر - سوريا - لبنان وامتدت أعمال بنك مصر إلى الحجاز بدءا بشراء الباخرتين «كوثر» و«زمزم» اللتين استعملتا فى نقل الحجاج ثم بتمهيد الطريق بين الصفا والمروة وتثبيت العملة السعودية حتى لا يتعرض الحجاج لتقلباتها . وكان طلعت حرب دائب التنقل داخل مصر وخارجها ، وقد أتاح له نشاطه فى البلاد العربية فرصة للتعرف على الملوك والزعماء العرب مما جعله يوسع أفقه الذى كان فى السابق منصباً على مصر شأن معظم المصريين حينئذ ، وبالتالى فإنه بدأ يتكلم عن العروبة والأمة العربية . وفى مصر أيده حزب الوفد ورحب به الأحرار الدستوريون الذين كانوا استمراراً لحزب الأمة الذى كان طلعت حرب قد انتسب إليه قبل الحرب العالمية الأولى . وعلى أى حال كان لطلعت حرب أصدقاء فى كل حزب نتيجة لبراعته وحسن معاملته وانفتاحه على الجميع - فقد ضم مجلس إدارة بنك مصر ، وهو ما سبق أن أشرنا إليه ، كبار المسلمين والمسيحيين واليهود وذلك فى الوقت الذى حرص فيه على تمثيل العائلات ذات النشاط التجارى وكسب فيه ثقة القصر .

إرساء دعائم بنك مصر

على أنه بعد النجاح الذى أحرزه بنك مصر وشركاته فى الداخل والخارج فقد أصابته آثار الأزمة الاقتصادية العالمية التى نشبت فى أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات خاصة وقد بدأت منسوجات اليابان الرخيصة تهدد منسوجات شركة المحلة ، مما جعل طلعت حرب يسعى إلى اقناع رئيس الوزراء إسماعيل صدقى بفرض الحماية الجمركية على الإنتاج المصرى ولو أن صدقى لم يستجب له فى البداية لأسباب أهمها خشيته أن تؤدى الحماية إلى رفع أثمان الأقمشة الشعبية ، هذا بالإضافة إلى ضغط المصالح الأجنبية التى كانت ضد الحماية وتخشى نجاح الصناعة المصرية الوليدة . وحينئذ واجهت شركات بنك مصر صعابا كثيرة بسبب ضغط المنافسة غير المتكافئة . ولكن طلعت حرب اضطر إلى الاستنجاد بالحكومة والسراى ونجح فى كسبهما لمساندة مؤسساته .

والأزمة الكبرى الثانية التى واجهته وأدت فى النهاية إلى اختفائه عن المسرح حتى وفاته كانت ناتجة عن الحرب العالمية الثانية التى أدت إلى الإسراع فى سحب الودائع من البنوك ومنها بنك مصر الذى لم يستطع مواجهة طلبات السحب مما أدى تدخل الحكومة لدعمه وتنحية طلعت حرب عن رئاسة مجلس إدارة بنك مصر . ثم بدأ الطعن فى شخصه وإدارته ، فقيل أنه حبس أموال البنك السائلة التى كان يجب أن تكون فى متناول عملاء البنك لكى يسحبوا منها فى الوقت الذى يشاءون . ورغم ذلك فإنه قبل تنحيته كان بجهوده ونشاطه وعلاقاته قد أرسى دعائم بنك مصر الذى لعب دوراً رئيسياً فى التطور الاقتصادى لمصر الحديثة .

القفز على الأشواك

بقلم : د. شكرى محمد عياد

نهاية الضياع «٣»



د. غالى شكرى

يتمتع غالي شكرى بقدرة فائقة على اختيار العنوان اللافت ولكن «أقواس الهزيمة» تتجاوز اللفت حتى توقع القارئ فى شئ من الحيرة : فالاشارة إلي النقيض « أقواس النصر » تشعر بنوع من السخرية المرة ، والرغبة المرضية فى إيذاء النفس ، فهل انزلق غالى إلى مثل ما أخذه على نزار قبانى من قبل : التباعد المتأفف ، والمتاجرة فى اليأس ؟ ولا يلبث غالى أن يصدمك ، بعد هذا العنوان الملتبس ، بعنوان إضافى يضاعف ريبتك: « وعى النخبة بين المعرفة والسلطة » . النخبة ، المعرفة ، السلطة - كل هذا ؟ نحن إذن مهددون بالدخول فى متاهات ثلاث : علم الاجتماع السياسى (النخبة) الإسترلوجيا والفلسفة اللغوية (المعرفة) ، علم السياسة (السلطة) وتشرع فى القراءة متهيبا، متأدبا .

إنه لا يخيب ظنك . فهو يقول لك إنه سيطبق علم اجتماع المعرفة لإخراج الفكر العربى المعاصر من حالة الفوضى الصارمة (برج بابل) التى ظل يعانيها منذ مدة طويلة ، مع أن الأذهان النيرة كانت تدرك أن هذه الفوضى هى السبب الرئيسى أو المباشر ، أو على الأقل أحد الأسباب المباشرة للهزائم المتلاحقة التى تقع فوق رءوسنا . وتوضيح الفكر يستلزم توضيح المصطلح . أى مصطلح ؟ المصطلح الاجتماعى بالطبع ، الذى تستخدمه النخبة المثقفة لترجمة الواقع إلى معرفة ، يمكن أن تستخدمها « السلطة » للتعامل مع هذا الواقع . ولكن أى وسيلة سوف يتخذها الكاتب (لنقل هذه المرة : الباحث) لتوضيح هذا المصطلح ؟ إنه يستعرض بعض الوسائل المستخدمة فى العلوم الاجتماعية : الاستبيان ، الإحصاء ، تحليل المحتوى . ولكن لا يكاد يذكر هذه الوسائل حتى يزيحها بازدراء ، غير باخل على « الأكاديمية » (وقد نسى أنه اقترب منها أكثر من مرة) ببعض كلماته الطيبة . وهو يقول لك إنه فضل منهجا آخر ، وهو اختيار بعض « العينات » التى سيتولى محاورتها (وهذا أيضا فى حدود ما نعلم – منهج أكاديمى) وسوف يتبين لك ، حين تنتهى من قراءة الفصل الأول الذى شغل قرابة نصف الكتاب ، وعنوانه (نحو مصطلح اجتماعى للمعرفة العربية)، أن بعض فقراته يتألف من مناقشة مفكرين معنيين بالحضارة العربية ، وبعضها الآخر يناقش قضايا اجتماعية مثل « الجنس » ، وموقف المثقف من مجتمعه ، دون أن يحيل على مؤلفين معينين ، وهذا شئ كان غالى يصيغه دائما فى كتبه ، دون أن يغرقنا فى مسائل عويصة مثل : قضية المصطلح ، والعقل الجمعى ، وعلم اجتماع المعرفة .

فيم إذن كان وجع الرأس ؟

● النخبة والفكر الفاشى ●

وربما كان أشد ما يزعجنا هو مصطلح « النخبة » الذى يبدو مقحماً على المعجم الماركسى الذى ألفناه عند غالى . ليس عند الماركسيين « نخبة » . النخبة أقرب إلى الفكر الفاشى ، الذى يقول إن الديمقراطية كذب مفضوح ، ويقسم البشر إلى سادة وعبيد ، ويسلم الأمر كله إلى القائد الملهم ، مع القلة الممتازة التى تحيط به وقد تلقف مفكرو الاستعمار الجديد هذا المفهوم وطوروه حتى يسهل على هذا الاستعمار الجديد حكم الشعوب المختلفة عن طريق «النخبة » التى تتحكم فى شتى وجوه نشاطها . وأظننا مازلنا بحاجة الى دراسة، بل دراسات حول مفهوم « النخبة » من هذه الزاوية . أما الماركسية فلا تتحدث عن النخبة ، لأن المهم عندها هو الوعى الطبقى ، والمطلوب هو أن يعم هذا الوعى

القفز على الأشواك

جميع أفراد الطبقة العاملة ،إن أمكن ذلك ، وإذا كان الأفراد متفاوتين فى درجة وعيهم الطبقى فإن ذلك لا يبرر - حسب رأى الماركسيين الأول مثل بليخانوف - المبالغة فى تقدير دور الأبطال . وقد نغير موقف الماركسيين من هذه القضية الشائكة، قضية التفاوت بين قدرات الأفراد، حين أصبحت مشكلة النظام الحزبى فى صدر أولويات العمل السياسى، فأخذ ستالين يؤكد أهمية «الديمقراطية المركزية» داخل الحزب ، والدور « الطليعى » للحزب داخل المجتمع . ومهما يكن اعتراضك على البلاغة الستالينية فقد نجحت في تجنب هذا المفهوم المزعج ، مفهوم « النخبة » ، أملاً فى أن يظل كل فرد من أفراد الطبقة العاملة مقتنعا بأنه لا دكتاتورية هناك سوى دكتاتورية البروليتاريا .

لماذا إذن عدل غالى ، فى العنوان نفسه ، إلى هذا المصطلح المشبوه ؟ هذا لغز قد نحاول حله بعد قليل . ولكننا سنشعر بشئ من الراحة حين نجده - أعنى المصطلح - يتوارى شيئا فشيئاً مخلياً مكانه لمصطلح آخر قديم قدم القيصرية ، كثير الدوران فى مناقشاتنا منذ حركة ٢٣ يوليه ، وهو مصطلح «المثقف» وجمعها « المثقفون » يتسلل بهدوء حتى يحتل مكانه الأصلى طارداً تلك «النخبة» الغريبة الوجه واليد واللسان .

وغالى يستعمل اصطلاح « المثقفين » للدلالة على ما أطلق عليه فى النظام الانتخابى المصرى بعد الثورة اسم «الفئات » ، مقابلاً لاصطلاح « العامل » و «الفلاح » (اللذين احتاج تعريفهما إلى بعض الوقت والجهد) . وكــلا « المثقفين » و « الفئات » يقابل ما سمى فى الكتابات السوفييتية «الإنتلجنسيا» وبروزها فى معجمنا السياسى الاجتماعى مظهر من مظاهر التأثر الواعى (لدى المفكرين الماركسيين) والمحاكاة الجزئية (من قبل الدولة) للنظام السوفييتى . فـ « المثقفون » هم أصحاب المهن الفكرية ، وهم طبقا للتحليل الماركسى للمجتمع لا يشكلون «طبقة» لأنهم ليسوا طرفاً أساسيا فى عملية الإنتاج مثل البورجوازية أو الإقطاع من ناحية والعمال والفلاحين من ناحية أخرى ، وإنما هم فئة أو فئات هامشية ، تضطرها طبيعة دورها فى النظام الاقتصادى الاجتماعى الى الالتحاق بأحد الأطراف الأساسية . ومع أن النظام السوفييتى تطور بسرعة حتى أفرز طبقة جديدة هى طبقة « المديرين » سيطرت - بدون ثورة معلنة - على النظام كله ، فقد

بقى الواقع فى ناحية والنظرية فى ناحية أخرى .

كان الدور الهامشى الذى أسندته الكتابات السوفييتية إلى « المثقفين » لا ينبئ عن احترام كثير . وكان وراءه ميراث من العهد القيصرى، حين كان « المثقف » عرضة للإتهام بأنه ذو ميول « ثورية » ففى مجتمع جامد متخلف لا يمكن أن يظل «المتعلمون » وأصحاب المهن الفكرية مجرد متعلمين يرتزقون من مهنة الطب أو الهندسة أو المحاماه أو التدريس أو حتى من الخدمة كضباط فى الجيش ، بل يجد فريق كبير منهم أنفسهم متورطين فى حالة « التفكير فى حاضر بلادهم ومستقبلها» . وهنا يصدق عليهم الوصف « مثقفون » . فليس كل متعلم أو صاحب مهنة عقلية « مثقفا »، وإنما يصبح هؤلاء مثقفين حين يدسون أنوفهم فيما لا يعنيهم من شغل الحكام .

وكما أفرز المجتمع السوفييتى « طبقة » جديدة حلت محل البرجوازية وهى طبقة «المديرين» فقد أفرز «فئة» جديدة حلت محل «المثقفين»، وهى الفئة التى سميت بـ «المنشقين » . بل إن هؤلاء « المنشقين » هم « المثقفون » دون اختلاف ، وإن تغير شكل الدولة وصفتهم الجوهرية التى تميزهم عن غيرهم هى أنها أراذل ، لا يعملون ويؤذيهم أن يعمل الحكام ، مغرورون يحسبون أنفسهم فوق غيرهم من الناس . بعبارة أخرى : هم مجرمون وجريمتهم هى أنهم يفكرون تفكيراً مستقلا.

● جنون العظمة ! ●

عندما وقف المثقف المصرى حائراً بين لا ونعم ، أو بين نعم ولا ، تحطم جوهره الصلب ، أصيب بالشيزوفرينيا . أما عندما انهار كل شئ فقد تطور مرضه الى جنون العظمة . ويرسم غالي شكرى صورة للمثقف بعد أن صار إلى هذه الحال فيقول:

« إن المثقف العربي المعاصر ... يبطن احتقاراً عميقاً لكل من العامل اليدوى والحاكم على السواء ، مهما (تكلم) عن العامل بصياغات ذهنية ، ومهما قام بتدبيج المدائح لكل حاكم . ولكن احتقار العامل اليدوى هو ثمة الشعور بالتفوق الذهنى أو المعرفى عليه ، أما احتقاره للحاكم فليس لأنه دكتاتور ، (بل) لأنه غير جدير بقمة السلطة بينما هو - أى المثقف - أكثر جدارة . هناك صراع خفى داخل المثقف بموجبه يرى أنه البديل الطبيعى للحاكم حتى ولو كان هذا الحاكم مثقفا . وبالمناسبة ، فليس هناك حاكم غير (مثقف) بالمعنى التقنى لهذا المصطلح ، ضابطاً كان أو محاميا أو مهندساً أو طبيبا . أميرا كان أو ملكا أو رئيسا فهم جميعا من (المثقفين). وليست القضية فى خاتمة المطاف هى عدد الكتب التى قرأها أو لم يقرأها ولا فى نوع الأيديولوجية التى

يعتنقها لأن الثقافة ليست مدحاً ولا حسابا. إنها (حالة) أو (وضع) أو (موقع) ذهنى ما داخل الحركة الاجتماعية .... وبالرغم من أن بلادنا إلى الآن لا تزال تعانى أهوال التخلف واحتقار الثقافة والمثقفين - خصوصاً الكتاب والأدباء والمفكرين منهم - إلا أن هؤلاء يشاطرون الآخرين مشاعرهم ويبادلونهم احتقاراً باحتقار ».

ثم بعدد الأوهام التى وقع فيها «المثقف» نتيجة لانعزاله عن « المواطنين العاديين »، وأولها - كما يقول - وقوعه فى وهم « النجومية » ثم فى وهم أنه « المثقف الوحيد » فاستبعد من الدائرة أقرب شركائه من قادة التنمية والتحديث ، من أصحاب الإنتاج الذهنى المغاير للكتابة الأدبية ، ولكن (إنتاج فكرى) لا شك فيه . وأخيرا وقع فى وهم السلطة « فعندما تصبح الثقافة لقباً إجتماعيا لا قيمة إبداعية ... تصبح (شهوة السلطة) بالتقرب منها أو ممارسته هى القيمة البديلة لقيمة الثقافة ... وينسى المثقف فى هذه الحال أن الثقافة ذاتها سلطة لا يجوز اختلاطها بأى سلطة أخرى» هذه الأوهام الثلاثة التى أوغلت فى نجوم الثقافة العربية المعاصرة تولدت عنها - كما يقول غالى - جرثومتان « الأولى هى التصور القائل بأن الكاتب أو الفنان (فوق المواطن العادى) ... والجرثومة الأخرى هى التصور القائل بأنه يستطيع أن يكون نجماً للشعب ونجماً للحاكم فى نفس الوقت»

● الدخول فى لعبة السلطة ●

هذه صورة سلبية جداً « للنخبة المثقفة» وعلاقتها بالسلطة من ناحية ، وبـ « الناس العاديين » أو « عامة الشعب » من ناحية أخرى . ومع ذلك فكم هى صادقة ! ولا ينبئك مثل خبير . لا تزال «النخبة المثقفة تحاول أن تدخل فى لعبة السلطة ، ولكنها لم تعد قادرة على القيام بمهمتها ، مهمة صياغة الوعى وتحويله الى معرفة يمكن أن تستخدمها السلطة للتعامل مع الواقع . بل إنها لم تعد تملك المهارة وهدوء الأعصاب اللازمين لتزييف الوعى . حتى تستمر عملية خداع الجماهير . ولكن غالى شكرى لا يقوم بعملية التطهير الواجبة لإنقاذ هذه النخبة (وهو ما يساوى إنقاذ وعى المجتمع بذاته) من المرض العضال الذى يمكن أن يفتك بها فتكاً نهائياً . إنما هما جملتان تقول إحداهما إن قادة التنمية والتحديث من أصحاب الإنتاج الذهنى المغاير للكتابة الأدبية هم شركاء للمثقف (الكاتب) ، وتقول الأخرى إن الثقافة ذاتها سلطة لا يجوز اختلاطها بأى سلطة أخرى . هل

يمكن أن تصبح هاتان الحقيقتان الذهنيتان واقعا اجتماعيا ؟ هل يمكن أن يصبح بعض الشعراء الاقتصاديين (مثل طلعت حرب) دون أن تخبو في نفوسهم جذوة المثل العليا ، التي يغذيها الشعر والفن ؟ هل يمكن – والوطن يحتضر – أن يختفي المثقفون الحواة ، ويظهر في مكانهم مثقفون أنبياء ؟

شر ما خلفته الماركسية اللينينية الستالينية في نفوس مثقفينا شئ اسمه الحتمية التاريخية . لا حتمية في التاريخ الذي نعيشه . التاريخ الذي نعيشه فهم نصنعه بعقولنا وفعل نصنعه بإرادتنا . التاريخ مغامرة في الفهم والفعل ، ويمكن لمن يجيئون بعدنا أن يقولوا إن ما حدث بالفعل كان حتمية تاريخية . يمكنهم أن يقيئوا في كشوف حساباتهم ما يشاءون ، أما نحن فنكون قد صنعنا حساباتنا وانتهينا .

ولكن غالي يريد – ونحن في قلب الحاضر – أن يكتب التاريخ . والنتيجة أننا نراه واقفا يبكي علي الأطلال . أننا مازلنا نعيش في حاضر ما بعد ٥٢ ، فقد كنا موجودين قبلها ، وما زلنا موجودين الآن . ومازال في استطاعتنا أن نغير هذا الحاضر . ولكننا نحكم على أنفسنا بالموت إن زعمنا أننا نؤرخه . لن أجادل غالي في أن مشروع عبد الناصر كان نهضة كبرى ، لولا أنه لم يقم على صخرة صلبة من جهوده هو (غالي) ورفاقه ، ولا في أن مشروع السادات كان نكسة كبرى ، رغم نصر أكتوبر ، الذي كان على كل حال نصراً جزئياً . لن أجادله في شئ من ذلك، فنحن مازلنا نعيشه ونملك تغييره . ولكنني سأجادله في شئ هو – حقاً – من التاريخ.

يقول غالي إن «مشروع النهضة» من عهد محمد على الكبير إلي ما قبل ٥٢ كان محكوماً عليه بالسقوط (ولا فائدة من المجازات المربكة التي يقدمها عن قوس المعادلة التي تضم السقوط بجانب النهضة، مثلاً متلازمين متعاصرين) لأنها كانت محاولة للتوفيق أو التلفيق بين ما أصبح يسمى المعاصرة (والمقصود – ثقافة الغرب) وما أصبح يسمى التراث (والمقصود به كل ما تلقيناه عن أسلافنا ، دون غربلة ودون انتخاب) .

ولست أجادل في أن تاريخ النهضة المصرية كان – ولا يزال – حافلاً بالعثرات والنكسات ، ولا أن أبالغ في تعليل هذه النكسات والعثرات بسلوك الأبعدين أو الأقربين . ولكنني أريد أن أقول شيئين :

أولهما وأبسطهما : أن سجل النهضة المصرية – وهو متميز عن كل ما كان يجرى في سائر الأقطار العربية ، وإن كان يصلح، بل لقد كان بالفعل ، نموذجاً لما جرى في تلك الأقطار – سجل لا يتساوى فيه السقوط مع النهضة ، مهما يكن المعيار المستخدم . وواقع ما يكتبه غالي الآن – على سبيل المثال – دليل كاف .

القفز على الأشواك

وثانيهما أن حكاية التوفيق والتلفيق لعبة قديمة يجب ألا ينخدع بها الصديق الغالي ، وان كان قد انخدع بها قبله زميلنا الدكتور محمد جابر الأنصاري في كتابه «تحولات الفكر والسياسة» فالمستشرقون الذين أرادوا أن ينكروا كل فضل للحضارة العربية - وغالي ممن يعرفون قيمة هذه الحضارة ، كما عرفها قبله ، وأنصفها كل الإنصاف ، أستاذه سلامة موسى - دأبوا على الزعم بأن العرب لم يفعلوا شيئا سوى أنهم نقلوا ثقافة اليونان الى الغربيين عن طريق أسبانيا وصقلية ، قبل أن يعرفها الغرب مباشرة بعد سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك وفرار علمائها الى الغرب. ويضيف هؤلاء العاتبون أن الثقافة العربية لم تكن الا « تلفيقا » من الفلسفة اليونانية والدين الاسلامي . وترديد هذا الكلام الآن خطير من وجهين :

الوجـــــه الأول أنه كذب ومغالطة - ولا ترادف هنا - أما أنه كذب فلأن الحضارة العربية الإسلامية في أوج ازدهارها أبدعت الشئ الكثير ، واذا زعم الغرب أن هذا الابداع اقتصر على الرياضة والطبيعة والطب ، فقد انكروا قيمة حضارتهم التكنولوچية . وأما المغالطة فلأنهم جعلوا « التوفيق » مساوياً للتلفيق ، أو هذا - على الأصح - ما تلاعب به مترجموهم المشغوفون بالجناس ، أما الكلمة الإفرنجية التي يستخدمونها في هذا السياق (eclecticism) فتحمل معنى التلفيق دائما ، بخلاف كلمات كثيرة أخرى في لغتهم تدل على التأليف المبدع بين عناصر مختلفة . وأود أن أسأل هؤلاء وهؤلاء : هل تنكرون أن الحضارة الغربية ، وهي عندكم قمة الحضارة ، التي تتوقعون لها الدوام الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ليست إلا تلفيقا (دون توفيق) من عناصر ثلاثة: الحضارة العبرانية ، المسيحية ، والحضارة اليونانية الرومانية ، والعادات القبلية لبرابرة شمال أوروبا (وقد كانت النازية آخر وأصرح إحياء لها) ؟

ووجه الخطر الثاني أن الزعم بكون الحضارة العربية الإسلامية تلفيق لا إبداع فيه ، ولدت كذلك ومازالت كذلك ، يثبت في نفوس العرب والمسلمين أن هذا واقع أبدي لا سبيل إلى تغييره ، أو « حتمية حضارية » لا خلاص منها إلا بالانخلاع من هذه الحضارة ، وهو نوع آخر من الانتحار. أي أنه نهاية الضياع للجيل الضائع .

لغويات

● في كتاب عنوانه «جارميات» للمرحوم علي الجارم أهداه إلينا نجله الأديب المفضال الدكتور أحمد الجارم فوائد لغوية كثيرة ، فقد كان علي الجارم من كبار اللغويين في مجمع اللغة العربية ، إلى كونه من أكابر شعراء عصره» ومن تلك الفوائد اللغوية» ما يلي :

● كلمة «عائلة» يخطئها بعض الأدباء الآن ويظنونها من الكلمات العامية لعصرنا ، والحقيقة أنها ظهرت منذ أكثر من ثمانمائة عام .. و «العائلة» فاعلة بمعنى مفعوله ، أي أن «العائلة» هي «المعولة» .. واستعمال اسم الفاعل في معنى اسم المفعول شائع فصيح .. وعائلة الرجل المفتقرة إليه هي زوجته وأولاده ..

● ويقول بعضهم إن كلمة «فنان» خطأ لأن معناها اللغوي «الحمار الوحشي» .. ولكن صيغة «فنان» من صيغ النسب الجارية على فَعَّال – بتشديد العين – مثل لبَّان وزجَّاج ، أي ذي لبن وذي زجاج ، فهي تطلق على كل صاحب فن ، إنسانا كان أو .. «حمارا» ..

● وجاءنا من «السيد الصديق الروندة» بشارع زرهون ، زقاق أولاد فرج – السويسي – بالرباط عاصمة المغرب أنه قرأ في إحدى المقالات كلمة «المتنفذين» وكلمة «تَطَالُ» وهو يرتاب في صحة هاتين الكلمتين .. وارتيابه في محله ، لأنهما من العامي الدخيل على اللغة في عصرنا ، وإن كان بعضهم يرى لكلمة «المتنفذ» وجها ، أما كلمة «تطال» – بفتح التاء – فلا وجه لها ..

● ومن الدخيل على اللغة في أيامنا كلمة «زخم» ولا يستعملها إلا بعض الصحفيين في الشام (سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) ..

ومثلها كلمة «يتواجد» بمعنى «يوجد» فلا صحة لها وإنما تدل على إظهار الوجد عند الحب أو الطرب ، ولم يكن لهذه الكلمة استعمال قبل جريانها على ألسنة العسكريين بعد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

مستقبل القومية العربية

خصوصية ضائعة فى سوق العالمية !!

يقلم : د . عاصم الدسوقى

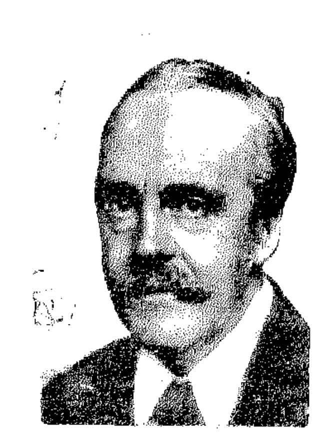
عندما ظهرت الدعوة للقومية العربية فى أواخر القرن التاسع عشر تقريبا (١٨٧٥) كانت تتلخص فى إقامة دولة عربية واحدة تضم الناطقين باللغة العربية فى مواجهة الدولة العثمانية التى لا يتكلم أهلها العربية . ثم أصبحت هذه الفكرة أكثر إلحاحا بعد صعود جماعة الاتحاد والترقى للحكم فى استانبول (١٩٠٨) وشروع هذه الجماعة فى سياسة التتريك أو سياسة مركزية الحكم بديلا عن السياسة اللامركزية التى اتصفت بها الدولة العثمانية وكانت أحد أسباب استمرارها فى حكم البلدان العربية طويلا .

كان العصر آنذاك فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر يعرف بعصر القوميات حيث تحققت الوحدتان الإيطالية والألمانية بعد صراع مرير مع النمسا وفرنسا . وبعد الدعوة للقومية العربية بقليل بدأت الدعوة للقومية اليهودية لإقامة دولة لليهود حدد معالمها هرتزل فى كتاب بذات العنوان فى ١٨٩٦ .

وعلى حين كانت الدعوة للقومية العربية تقوم على توحيد بلدان عربية قائمة فعلا على أرضها فى المشرق العربى ولكن متفرقة فى قبائل وإمارات وولايات اعتمادا على عامل اللغة العربية ، كانت الدعــــوة للقومية اليهودية تبحث عن أرض تضم اليهــود من مختلف بلدان العالم اعتمــادا على رابطــة الدين







بلفور

الشريف حسين

الواحد. وعلى حين تعرض أنصار العروبة لاضطهاد السلطات العثمانية وملاحقتهم حيثما كانوا ، نال أصحاب القومية اليهودية (الصهيونية) التأييد من جانب بريطانيا ، أكبر القوى الأوربية أو العالمية آنذاك.

كيان سياسى آخر

وفى المنعطف الذى بدأت تنهار عنده الإمبراطورية العثمانية فكرت بريطانيا فى كيفية ضمان الشرق الأوسط (الأدنى) منطقة نفوذ لها ، ورأى كامبل بنرمان (١٩٠٧) أن هذا يتحقق بالحيلولة دون توحيد الأجزاء العربية فى كيان سياسى قومى واحد بعد اختفاء الدولة العثمانية ، لأن وجود دولة عربية واحدة فى هذه المنطقة من العالم يعد بداية النهاية للوجود البريطانى بها . ولتحقيق ذلك نادى بإيجاد كيان سياسى من شعب آخر غير عربى فى المشرق العربى يكون وجوده عامل فصل مستمر بين الأجزاء العربية يحول دون توحدها .

وقبل تقرير كامبل بنرمان بعامين كان المؤتمر الصهيونى فى ١٩٠٥ قد استقر على إنشاء دولة اليهود فى فلسطين . فبدأ الأمر وكأن بنرمان يضع أمام السياسة البريطانية أولى خطوات بقاء النفوذ البريطانى فى المنطقة الذى يستمد استمراره من بقاء المنطقة العربية مفككة الأوصال والعمل على تقسيم الجزء الذى كان واحدا وهو سوريا الى أربعة مناطق : سوريا ولبنان وشرق الأردن وفلسطين ، ثم اقتطاع فلسطين لحساب المشروع الصهيونى . والحقيقة أن تداعى الحوادث منذ عام ١٩٠٧ أثبت أن مصالح القوى الاستعمارية التى كانت تمثلها بريطانيا

وفرنسا حتى الحرب العالمية الثانية ثم الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب فرضت دعم القومية اليهودية (الصهيونية) الى أن أقامت دولتها فى ١٩٤٨ ، وفى الوقت نفسه دعم التفكك العربى وتمزيق أوصال العروبة . ونذكر فى هذا الخصوص اتفاقية سايكس بيكو ١٩١٦ بين انجلترا وفرنسا ، ثم صدور وعد بلفور ١٩١٧ وتقرير انتداب بريطانيا على فلسطين ١٩٢٢ ودعمها للوكالة اليهودية . ونذكر أيضا قيام ثورة العرب بقيادة الشريف حسين ١٩١٦ بتأييد انجلترا لتحقيق الدولة العربية الواحدة وعدم تمكين العرب من إقامة هذه الدولة بعد نجاح الثورة فى إسقاط الحكم التركى فى الشام ، ونذكر أيضا عدم الاعتراف بحق تقرير المصير احد مبادىء الرئيس الأمريكى ولسن الأربعة عشر بالنسبة للشعب العربى الخاضع للحكم العثمانى وتقريره فقط فى البلقان لتشجيع القوميات البلقانية فى إقامة دول قومية لتكون حاجزا ضد سريان روح الثورة الاشتراكية التى قامت فى روسيا ١٩١٧ .. والمعروف ان مبادىء ولسن اعلنت فى يناير ١٩١٨ أى بعد قيام الثورة البلشفية بنحو ثلاثة شهور . ونذكر أيضا وقوف بريطانيا ساكنة أمام هجمات العصابات الصهيونية على عرب فلسطين وملاحقة عناصر الثورة الفلسطينية فى ١٩٣٦ .

مناورة بريطانية

وعندما أيدت بريطانيا فكرة الجامعة العربية فى ١٩٤١ ثم فى ١٩٤٣ لم يكن ذلك اعترافا بالقومية العربية وإن بدا ذلك ظاهرا ، لكن المعروف ان هذا التأييد جاء من باب المناورة السياسية حيث كانت قوات الحلفاء تتقهقر كما هو معروف أمام القوات النازية الفاشية فرأت بريطانيا العمل على ضمان مصالحها من خلال منظمة واحدة تضم عرب المنطقة . والدليل على ذلك أن الفكرة الانجليزية للعروبة كانت تقتصر على الدول العربية المستقلة ولم تكن تشمل العرب أو الشعوب العربية جميعا حتى لا تدخل فى المنظمة الجديدة أجزاء كثيرة كانت تخضع للنفوذ البريطانى الفرنسى المباشر وغير المباشر فى شمال إفريقية والسودان وإمارات الخليج العربية.

على كل حال .. تحققت الجامعة العربية فى ١٩٤٥ على أساس الحد الادنى من مستوى النظم الوحدوية الذى لا يمكن له أن يتطور الى تحقيق دولة واحدة أو حتى تحقيق سياسة واحدة .. فلا هى فيدرالية أو كونفدرالية أو حتى منظمة تخضع لأسلوب الأغلبية الديموقراطية .. ولكنها منظمة من نوع خاص تلزم من يوافق على قرار من قراراتها بالتنفيذ ، وتعفى الذى لم يوافق من التنفيذ وتعذره ولا تؤاخذه صيانة

للحقوق وتمسكا بعدم التدخل فى الشئون الداخلية للأعضاء . وبالتالى بقيت الجامعة العربية تعبيرا شكليا عن وجود عربى ما أكثر منها قوة عربية فاعلة أو كما وصفها أول أمين لها (عبد الرحمن عزام) أنها مرآة تعكس أحوال العرب .

وبقيام الثورة فى مصر فى يولية ١٩٥٢ أخذت القومية العربية دفعة قوية ، اذ وجد جمال عبد الناصر فى العروبة الأداة المثلى للتخلص من الاستعمار ولتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية عربيا .. ومن هنا جاءت شعارات : دولة عربية واحدة من الخليج الى المحيط .. على الاستعمار أن يحمل عصاه على كتفه ويرحل .. نفط العرب للعرب .. دعم الثورة التحررية فى الأراضى العربية ثم دعم الثورة الاجتماعية ، ومحاربة ارتباط المنطقة بالاحلاف الغربية . ومن الحقائق الثابتة أن المتغيرات السياسية والاجتماعية التى وقعت فى البلاد العربية بعد عام ١٩٥٢ كانت بفضل قيام الثورة الأم فى مصر بدورها التاريخى فى تحقيق الشعارات المعلنة ومد يد المساعدة والتأييد لكل من يمضى فى طريق التحرر السياسى والاجتماعى .

خطر ثورة يوليو

كانت ثورة يوليو إذن بمشروعها الوطنى والقومى خطرا يهدد سياسة التوازن فى الشرق الأوسط ، وهى سياسة مشتقة من سياسة التوازن الدولى التى بدأت تفرض معانيها منذ مؤتمر فيينا ١٨١٥ لتسوية آثار الثورة الفرنسية على الخريطة الاوربية . وكانت سياسة التوازن فى منتصف القرن العشرين فى الشرق الأوسط تعنى ما يلى :

★ الابقاء على تفكك العالم العربى والحيلولة دون قيام دولة عربية واحدة وعدم قيام قوة اقليمية عربية فى المنطقة .

★ ربط المنطقة بسياسة الاحلاف الغربية لمواجهة الخطر الشيوعى .

★ قبول اسرائيل كدولة من دول الشرق الأوسط .

★ الابقاء على البلاد العربية سوقا لتصريف المنتجات الرأسمالية ومصدرا للمواد الخام التى يتميز بها مناخها .

ما الذى حدث ؟ !

اكتشف الغرب أن ثورة يوليو بقيادة جمال عبد الناصر تقود المنطقة العربية للتخلص من السلبيات التى تحول دون قيام الدولة العربية ، وتجعل من أهداف سياسة التوازن الدولى اهدافا عدوانية على الأمة العربية . ونجحت الثورة فى حشد جماهير العرب حول هذا البرنامج .

وفى خلال سنوات قصيرة تحقق الكثير من الاهداف .. كسر احتكار السلاح

فاختل توازن القوة العسكرية فى المنطقة ، وسقط حلف بغداد وحدث ارتباط أكثر بالكتلة الشيوعية فاختل التوازن السياسى والعمل على تأكيد أن الخطر على المنطقة العربية يأتى من اسرائيل وليس من الشيوعية ، واقامة قاعدة الصناعة الثقيلة للاكتفاء الذاتى ، بل وتحقيق حلم الوحدة بإقامتها بين مصر وسوريا ١٩٥٨ . صحيح ان هذه الوحدة اخفقت بفعل المؤامرات الداخلية التى غذتها القوى الخارجية ، إلا أن فشلها أدى الى صك نهج جديد لتحقيق الوحدة لتكون على أساس اقتصادى واحد .. فكان شعار «حرية اشتراكية وحدة» . وكان هذا يعنى أن الوحدة السياسية لا يمكن أن تتم إلا على أرضية اقتصادية واحدة . ولما كانت الثورة المصرية قد اخذت بسياسة قيادة القطاع العام للتنمية فلم يكن من الممكن أن تقيم وحدة مع دول تأخذ بسياسة قيادة القطاع الخاص .

وبدأ عبد الناصر يعمل على تنمية المجتمع المصرى باعتبار أن مصر تمثل قلب العروبة ، والعامل الاساسى فى توحيد العرب ، وان تقوية مصر سوف يساعد على تحقيق الوحدة ، حتى لقد شبه القوميون العرب دور مصر بدور بيدمونت بالنسبة للوحدة الايطالية وبدور بروسيا بالنسبة للوحدة الالمانية . ولما كانت الجامعة العربية عاجزة عن تحقيق عمل عربى مشترك من خلال الجلسات الرسمية والمباحثات الدبلوماسية ، فقد تجاوز عبد الناصر هذه المنظمة التى لا يحضرها الا مندوبو الحكومات العربية ، وبدأ سياسة مؤتمرات القمة (١٩٦٤) التى وضعت الزعماء العرب أمام شعوبهم فى مسئولية تاريخية .

عبد الناصر .. نابليون جديد

لقد كان عبد الناصر بالنسبة للغرب الاوربى الرأسمالى الاستعمارى يمثل نابليون آخر من حيث كسر سياسة توازن القوى ، ومحمد على آخر من حيث سياسة الاحتكار وغلق السوق المحلى أمام المنتجات الاوربية ، واسماعيل آخر بما أراده من تحقيق مشروع حضارى فى مصر ينفلت من قيود معاهدة لندن ١٨٤٠ .

واذا كانت القوى الاوربية قد تخلصت من تلك الزوايا الحادة فى التاريخ التى كانت تعترض فلسفة التوازن .. نابليون بالهزيمة فى ووترلو ونفيه الى سانت هيلانه ، ومحمد على باشا بكسره فى معركة نوارين وفرض معاهدة لندن ١٨٤٠ ، والخديو اسماعيل بخلعه فى ١٨٧٩ ونفيه الى ايطاليا .. فقد كان من اليسير عليها التخلص من جمال عبد الناصر فى اطار المنهج نفسه . وهنا كانت حرب يونية ١٩٦٧

والهزيمة التى اودت بحياة عبد الناصر ونظامه بعد ذلك بثلاث سنوات (١٩٧٠) ومثلما حدث مع حكام مصر بعد محمد على وبعد اسماعيل حدث الشىء نفسه بعد جمال عبد الناصر .. اذ تم الاحتفاظ بالسوق المصرية من خلال سياسة الانفتاح (١٩٧٤) ودخول رأس المال الأجنبى مرة أخرى ، والتخلى عن سياسة القطاع العام ثم تخليص مصر من اطار العروبة بعقد اتفاقية ثنائية مع اسرائيل (١٩٧٩) لها أولوية على اتفاقيات مصر مع الدول العربية وفى ذلك الغاء حتى للجـــامعة العربية . وقبل ذلك بدأ الابتعاد عن التواصل مع الاتحاد السوفييتى ، وبدأ الحديث عن صعوبة الحياد الايجابى وعدم الانحياز ، بل ووصف المبدأ بالخرافة والانتهازية فى عالم يتجـه نحـــو الاستقطاب ، كما بدأ اعتبار الدعوة الى الوحدة العربية امرا مثاليا والاعتقاد بأن الوحدة يجب أن تتحقق بتأييد من الشعوب وليس بقرارات من الحكام دون أن يشرح لنا هؤلاء كيفية الحصول على رأى الجماهير العربية فى مشروع كهذا وبيان الوحدات القومية التى تمت فى العالم قديمه وحديثه باستمارات الاستفتاء الحر ، وتضخم الاتجاه نحو الإقليمية الذاتية لكل



مؤتمر القمة العربى الأول ١٩٦٤

بلد عربى ، وساد مفهوم السيادة على الحدود بحجة أن هذا هو الواقع . وقد أكد من هذا الاتجاه ودعمه انقسام العالم العربى على المستوى الاقتصادى الى مجموعة من الفقراء وهم الأغلبية ومجموعة من الأغنياء بفضل ثروة النفط وهم الأقلية، وبدأ الحديث حتى عن إقامة سوق عربية مشتركة يختفى وحل محله قيام الأغنياء بدعم الفقراء من خلال صناديق اقتصادية بشروط رأسمالية صرفة أشبه بصندوق النقد الدولى .

وهنا صار الحلم العربى فى مأزق حقيقى إذ ارتفعت الذات المحلية على الذات

القومية ، وبدأ الحديث يزداد عن فكرة الوحدة الاسلامية وهم يعلمون استحالتها عمليا فالتقوا بذلك مع اعداء العروبة وتم الخلط بين حدود الوطن وحدود القومية وحدود الدين . والحال كذلك اندلعت حرب الخليج الثانية (أغسطس ١٩٩٠) وانقسم العالم العربى ازاءها على اكثر من مستوى : مستوى قومى ومستوى دينى ومستوى المصالح الاقتصادية . والحرب فى دورها الأخير النهائى يحدث تفكيك للاتحاد السوفييتى والكتلة الاشتراكية وتنفرد الولايات المتحدة بقيادة العالم فى نظام جديد يدعو لشرعية دولية من خلال شرعية الحكومات القائمة والاحتفاظ بالحدود على طريق النظام الرأسمالى الذى يقوده القطاع الخاص . والسؤال الآن .. هل من جدوى للقومية العربية فى هذا الاطار العالمى الجديد ؟!

لقد اختفت الاشتراكية التى صاغها عبد الناصر كخطوة اساسية تسبق الوحدة السياسية وكانت تخيف النظم الرأسمالية الاقطاعية فى المنطقة .. وبقيت اسرائيل التى اعتبرها عبد الناصر رأس جسر للاستعمار واعترفت بها مصر والدول الأخرى فى طريق الاعتراف أو على الأقل توقفت عن معاداتها .. ولم يعد أحد ينادى بدولة فلسطين الا الفلسطينيون انفسهم .. وبدأت خصخصة الاقتصاد فى الدول التى تأخذ بالقطاع العام .. وبدأ الحديث عن العالمية الكونية .. واعتبر الحديث عن الخصوصية القومية كلاما كلاسيكيا ضد التقدم والتطور .

منع التقارب بين العرب

ورغم انّ تحول البلاد العربية الى الاقتصاد الحر كنظام عالمى من شأنه ان يساعد على جعل الدول العربية نسيجا واحدا الا أنه لن يؤدى الى قيام دولة عربية أو حتى سوق عربية واحدة ذلك ان سياسة التوازن الدولى التى صنعت حرب الخليج تعمل على تفكيك الوحدات السياسية الكبرى لا تشجيع تكوينها . صحيح ان القومية العربية وسيلة تحقيق هوية حضارية لابناء الضاد بحكم اللغة والتاريخ والمصالح لكن الوسيلة هى المأزق فى الوقت نفسه اذ أن تحقيق قوة اقليمية لا يرضى عنها النظام الكونى الجديد ، بل أن هذا النظام يمنع حتى مجرد التقارب الحقيقى بين دولتين عربيتين ، وأقصى ما يسمح به وجود أغنية عربية مشتركة ومسرح عربى ونشاط ثقـــافى عـــربى لا يقترب من السياسة .

ولكن .. اذا أراد العرب أن تكون لهم

خصوصية قومية فلا بديل عن العروبة .. واذا كانت الخصوصية القومية نوعا من الوهم عند البعض فان العالمية الكونية أشد وهما وإيلاما ولكنهم لا يعلمون . إن الركون للعالمية الجديدة التى نشأت بعد حرب الخليج وانهيار الكتلة الاشتراكية فرض خصخصة الاقتصاد ورفع يد الدولة عن النشاط الاقتصادى والتوجيه الاجتماعى . ولما كان هذا يحــــدث دون إحـــداث تراكمات اقتصادية واجتماعية تؤهل لسيادة نمط الاقتصاد الحر فقد انتهى الأمر الى ظـــاهرة البطالة وانهيـــار الطبقة الوسطى العمود الرئيسى للحكم فى مصر خـــلال الخمسينات والستينات ومن ثم ظاهرة الإرهاب والتطرف التى جذبت الى صفـــوفها فيما يبدو الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى التى تاثرت بسياسة الانفتاح . والنتيجة النهائية تفـــوق الســـلفية الدينية كـدليل عن حجـز المواجهة . ومن اللافت للنظر وليس غريبا فى الوقت نفسه ان فصائل العالمية الجديدة تشجع هـــذه السلفية بما تمثله من تيار ســـــياسى وترى فيها وسيلة لتدمير القـــوة الذاتية والاحتفـــاظ بالمنطقة ســـوقا اقتصادية فى حماية هـــؤلاء الغافلين عن أمور الدنيـــــا .. وساعتها سوف يشيع النظام الجديد شخوص الذاتية الاقليمية الى مثواها الأخير .

ليس هناك من بديل اذن الا القومية العربية كخصوصية تؤكد مصالح الذات العربية فى مواجهة العالمية . واحياء القومية العربية يتم بخطوتين اساسيتين وهما : ايجاد سوق عربية مشتركة تسمح بتـــداول رأس المـــال العربى واستثماره فى المحيـــط العربى لنصنع انتـــــاجا يؤدى الى الاســـتقلال الحقيقى ، والخطوة التالية تأتى بالتداعى وهى توحيد العملة العربية والاتفاق على الدينار العربى الذى سيصبح من أقوى العملات بما للعرب من رصيد .. وبعد هذا لن نتحدث عن ضرورة الوحـــــدة السياسية فالنسيج الاقتصـــــادى الواحـــد يصنع السياسات الواحدة دون تنسيق أو اتفاق مسبق وليحتفظ كل زعيم بزعامته وكل ملك بعرشه وكل أمير بإمارته .. وهذا هو الطريق لإحياء القومية العربية لتكون قوة المستقبل .

مؤتمر القمة الأفريقى

وتساؤلات حول أفريقيا

بقلم : عبد الرحمن شاكر

فى الوقت الذى يشهد فيه العالم تحولات خطيرة، من بينها الثورة التكنولوجية ، وثورة المعلومات فى الغرب ، وانهيار النظم الشيوعية وتحول معظم البلدان الاشتراكية إلى الأخذ بالديمقراطية السياسية والاتجاه إلى إدخال اقتصاد السوق ، والازدهار الاقتصادى الواضح فى دول جنوب شرق آسيا والارتفاع المطرد فى مستوى معيشة شعوبها .. فى هذا الوقت يبدو مصير القارة الأفريقية محاطا بالغموض ، ولا يتوقع المراقبون أن يرتفع مستوى المعيشة فيها خلال السنوات العشر المقبلة على الأقل .. ويكفى أنها القارة الوحيدة فى العالم الآن ، التى يموت الناس فيها جوعا بالمعنى الحرفى للكلمة .. وبها ينتشر مرض الايدز أكثر من أى مكان آخر فى العالم ويقال إن هذا المرض أصله أفريقى أيضا ! فلماذا إذا كل هذا الذى يحيط بتلك القارة المنكوبة ؟ القارة التى كان كل سنتيمتر مربع فيها فى يوم من الأيام خاضعا للاحتلال الأوروبى ، والتى استورد منها العالم أكثر من عشرة ملايين إنسان بيعوا عبيدا فى سوق الرقيق .. وعلى الوجه الآخر ، كانت هى القارة التى شهدت واحدة من مهاد الحضارة الانسانية فى هذه الدنيا وهى الحضارة المصرية القديمة ، وأكثر من ذلك ، يذهب بعض علماء التاريخ الطبيعى إلى أن الإنسان الأول وجد أول ما وجد منذ ملايين السنين فى هذه القارة ذاتها .. فى افريقيا !

ولعل مجموعة من التساؤلات مستمدة من واقع قارتنا الافريقية ، تحمل فى طياتها بصيصا ، ولو ضئيلا من أمل فى مستقبل أفضل لهذه القارة :

مصير العنصرية البيضاء :

بالرغم من استمرار العنف العنصرى فى جنوب افريقيا حيث يقع ضحايا من الطرفين ، الأقلية البيضاء والأغلبية السوداء ، إلا فإنه المعروف أن هناك اتفاقا مبدئيا ما بين المؤتمر الوطنى الافريقى ، بزعامة «نلسون منديلا» ، وحكومة «دى كليرك» البيضاء العنصرية ، على إنهاء التفرقة العنصرية ، ويدور ما بين الطرفين تفاوض من أجل الوصول إلى صيغة تكفل للأغلبية السوداء حقوقها السياسية من ناحية ، وتقبل بها الأقلية البيضاء من ناحية أخرى ، وهى التى تخشى أن تفقد دفعة واحدة كل ما تتمتع به من مزايا فى المجتمع الذى لا تزال تنفرد بحكمه حتى الآن ، وآخر الأنباء حول هذا الموضوع أن فريقا من البيض فى جنوب افريقيا لا يجد أى مستقبل فى العيش فى ظل حكم الأغلبية السوداء ، ويطالبون بمجتمع خاص للبيض فى تلك الدولة مما يعنى تقسيمها الى دولتين أو أكثر !

ولا ندرى ما اذا كان ذلك ممكنا من الناحية العملية أو يمكن أن تقبل به الأغلبية السوداء ، أو حتى كل أو معظم البيض الذى يعيشون فى تلك الدولة الواقعة فى الجنوب الاقصى للقارة الافريقية !

إن أفضل الحلول بالطبع من وجهة النظر الافريقية أن تبقى جنوب أفريقيا دولة موحدة ويؤول الحكم فيها للأغلبية السوداء من خلال نظام ديموقراطى حقيقى وانتخابات حرة ، ان ذلك من شأنه أن تصبح تلك الدولة المتقدمة ، إحدى الدول الافريقية بالمعنى الحقيقى للكلمة ، ونحن لا نصفها بالتقدم تطوعا من عند أنفسنا ، ولكن الأوروبيين هم الذين يصفونها بذلك ، لأنها كانت ولا تزال بالفعل دولة أوربية فى ذلك الركن من العالم ، وتحت أيديها ثروات هائلة واستثمارات ضخمة ، ويكفى أنه من المعروف كونها إحدى القوى النووية فى العالم...

هل تؤول هذه الدولة إلى حكم الأفارقة؟ وهل تصبح كل إمكاناتها الاقتصادية والعلمية فى خدمة القارة التى تنتمى إليها؟ وفوق ذلك : هل يؤدى قيام الديموقراطية فيها بشكل صحيح ، يكفل للأغلبية الكلمة العليا فى حكم البلاد ، إلى تدعيم روح الديموقراطية فى سائر أرجاء القارة الأفريقية ، ومعظم بلدانها التى تمزقها الصراعات الداخلية فى حاجة الى ذلك ، والى حل خلافاتها بالطرق الديموقراطية ، بدلا من الاحتكام إلى السلاح الذى يهدر مواردها من ناحية ، ويضيع مصالح

شعوبها من ناحية أخرى ، مثل ترك أبنائها يموتون جوعا كما حدث في الصومال قبل أن تتدخل الولايات المتحدة الأمريكية بقواتها ، ثم الأمم المتحدة حاليا بمجرد فرض وصول المعونات الغذائية إلى الجائعين ؟ !

هل يتحقق الحلم التاريخى للقارة الافريقية ، بأن تصبح دولة جنوب أفريقيا دولة ديمقراطية تحكمها الأغلبية السوداء أم لا تزال في جعبة العنصرية المستحكمة هناك ألاعيب تحول دون تحقيق هذا الحلم، مثل اقتراح التقسيم المشار إليه ، وتستمر العنصرية ، ويستمر معها العنف الدموى إلى غير ما نهاية !!

نظام الحزب الواحد :

إن معظم الدول الافريقية بعد حصولها على الاستقلال ، قد أخذت بنظام الحزب الواحد ، وغالبا ما كانت تتحول «جبهة التحرير الوطنى» فيها إلى ذلك الحزب ، ومعظم – إن لم يكن كل – هذه الأحزاب أعلنت عن برامج اجتماعية أو «اشتراكية» لها ، حتى أصبحت عبارة «الاشتراكية الافريقية» إحدى مصطلحات الفكر السياسى فى زماننا هذا ، كما كان الحال بالنسبة للاشتراكية العربية ، وبعضها وصل إلى حد إعلان الالتزام بالماركسية اللينينية نظرية ومذهبا سياسيا ، على غرار الاحزاب الشيوعية ! والواقع أن الجميع ، كانوا متأثرين بالتجربتين السوفيتية أو الصينية أو كليهما ، وكانت لهما علاقات تعاون وثيقة معها ، فى الوقت الذى كان فيه المعسكر الاشتراكى يمثل الحليف الدولى الضخم لحركات التحرير الوطنية ، ويقدم مساعدات اقتصادية وعسكرية للدول الحديثة الاستقلال بما فيها معظم الدول الافريقية ، الأمر الذى جعل كثيرا من البلدان الافريقية مسرحا للصراع العالمى ما بين المعسكرين ، وصل إلى حد وجود قوات أجنبية سوفييتية أو كوبية مثلا فى بلدان مثل أنجولا تنغمس فى معارك طاحنة ضد القوى الأخرى الموالية للغرب ، فضلا عن وجود قوات من الدول الاستعمارية القديمة مثل فرنسا وبلجيكا فى بلدان مثل تشاد والكونغو ، سواء بناء على طلب من حكوماتها أو لحماية جالياتها الأوربية هناك.

ولكن مع سقوط الأنظمة الشيوعية فى شرق أوربا ، بل انحلال الاتحاد السوفييتى ذاته ، فقدت كثيرا من نظم الحزب الواحد فى البلدان الافريقية كلا من سندها المادى والمعنوى ، كما حدث فى اثيوبيا وموزنبيق ، وبعضها حول ولاءه إلى

الغرب مثل نظام سياد برى فى الصومال ، قبل سقوطه . والواقع أن نظام الحزب الواحد فى معظم البلدان الافريقية كان مجرد ستار للحكم المطلق سواء لشخص الحاكم أو قبيلته أو لعصبته العسكرية المحيطة به ، وإذا كانت بلدان شرق أوربا ذاتها ، قد اشتكت من ظاهرة الطبقة الجديدة ، التى تمثلت فى البيروقراطية الحكومية ، والنخبة الحاكمة من أعضاء الأحزاب الشيوعية ، فقد كان الأمر أضعافا مضاعفة فى أفريقيا، وقد رويت فضائح كثيرة عن زعماء تلك البلدان الذين أفقروها لينفقوا هم وذووهم ، إلى درجة أن أرصدة بعضهم فى البنوك الأجنبية فى الخارج ، كانت تعادل بالضبط قيمة الديون الخارجية التى ترزح بلدانهم تحت عبئها وعبء فوائدها فى الوقت الذى تموت فيه شعوبهم جوعا ، كما حدث فى إثيوبيا ، حينما ضرب التصحر كثيرا من مناطقها الزراعية ، ولكن الحرب الأهلية التى نشبت فيها ، كانت تحول دون وصول المساعدات الغذائية الدولية إلي الجائعين من أبناء تلك المناطق، وكما حدث مؤخرا فى الصومال ، حينما كان ورثة نظام سياد برى المنهار يتنازعون فيما بينهم السيطرة على بلادهم الجائعة وينهب كل منهم ما يمكن أن يقع تحت يده من معونات غذائية قبل أن تصل إلى عدوه أو السكان المساكين الذى يعيشون تحت رحمة عدوه ، وكما هو حاصل الآن فى جنوب السودان بسبب الحرب الأهلية ، ما بين الشمال والجنوب من ناحية ، والفصائل المتناحرة من جيش التحرير الشعبى الجنوبى من ناحية أخرى!

إن كافة تلك التجارب المؤلمة تجعل من قيام ديموقراطية حقيقية فى البلدان الافريقية الأمل الوحيد فى استقرار أوضاعها وتجنيب شعوبها ما يحيق بها من كوارث ، ولكن الديموقراطية لكى تقوم وتستقر تحتاج إلى شعوب لديها حد أدنى من الوعي القومى والثقافى يجعلها قادرة على التمسك بحقوقها السياسية وممارستها بحق ، وهذا يقودنا إلى تساؤل آخر :

المسئولية العربية والاسلامية :

إن معظم العرب يعيشون فى افريقيا ولا أقصد معظم الدول العربية ، بل معظم السكان، حيث الدول العربية الافريقية مثل مصر والسودان والمغرب والجزائر تتمتع بكثافة سكانية عالية بالقياس إلى معظم دول المشرق العربى الأسيوية ، فأفريقيا تعتبر ، بحق من هذه الزاوية قارة العرب ، وليس الأمر مقصوراً على سكان الشمال الأفريقى وحدهم بما فى ذلك مصر، ولكن

القارة الافريقية يتوسطها حزام من جنس مختلط من العرب والزنوج يمتد من الصومال شرقا إلى السنغال غربا، ومعظم هؤلاء يدينون بالاسلام وافريقيا . من هذه الزاوية، هى قارة الاسلام ، كما يسميها كثير من الجغرافيين الأوربيين ، حيث نسبة المسلمين فيها أعلى منهم فى أية قارة أخرى ، بل أذكر أننى قرأت فى مجلة أمريكية منذ أكثر من عشرين عاما ، أن الاسلام يكسب كل عام حوالى عشرة ملايين من الأفارقة الوثنيين ، وذلك لجاذبيته الخاصة بالنسبة لهم ، إنه الدين الذى لا يعرف التفرقة العنصرية ولا يفرق ما بين أبيض وأسود إلا بالتقوى !

وقد حاولت إسرائيل أن تسبقنا إلى كثير من المواقع في الدول الافريقية الحديثة الاستقلال ، عارضة عليها المعونة الاقتصادية والفنية والعسكرية من ناحية ، ومن ناحية أخرى حاول دعاتها تصوير العرب بأنهم هم تجار الرقيق الذين كانوا يبيعون أبناء أفريقيا عبيدا ، وأن اليهود والزنوج كليهما كانا من الأجناس المضطهدة فى كثير من أرجاء العالم ، وهلم جرا ، ومع ذلك فقد كانت لافريقيا وقفة شجاعة معنا أيام حرب أكتوبر عام ١٩٧٣، حينما قطعت معظم الدول الافريقية علاقاتها مع اسرائيل تعاطفا معنا رغم أن كثيرا من الحكام الأفارقة الذين اتخذوا هذا القرار قد تعلموا فى اسرائيل ، وكانوا يتلقون منها المعونات السخية وقد عقد بعد انتهاء الحرب مؤتمر قمة عربى أفريقى ، تقرر فيه أن يساهم المال العربى والخبرة العربية فى إنعاش الاقتصاد الافريقى ، ولكن لا يبدو أن كثيرا من ذلك قد تحقق !

ويدور الحديث فى كل مكان الآن عن الصحوة الاسلامية . وكثير من الدول الافريقية غير العربية دول اسلامية تشاركنا عضوية المؤتمر الاسلامى ، فهلا سألنا أنفسنا عما فعلناه ونفعله من أجلها باسم تلك الصحوة ؟ إن كثيرا من تلك البلاد لا تزال ثقافتها الوطنية «مضروبة» ، واللغة السائدة فيها هى لغة البلد الأوربى الذى كان يستعمرها قبل ذلك ، سواء كان فرنسيا أو انجليزيا . وبأى من تلك اللغتين يتفاهمون معنا فى المؤتمر الاسلامى واجتماعاته ، فمتى يذهب دعاتنا فى حملات صادقة الى تلك البلدان ، لكى يعلموا مبادئ الدين الحنيف من ناحية ولينشروا لغته العربية التى نزل بها القرآن من ناحية أخرى ؟

ولقد أذكر فى هذا الصدد أن مواطنتنا

القبطى المصرى الدكتور بطرس غالى - الأمين العام الحالى للأمم المتحدة - كان له اقتراح عند إنشاء منظمة الوحدة الأفريقية فى عام ١٩٦٣ ، هو أن تكون اللغة العربية هى لغة القارة الأفريقية لأنها، على حد تعبيره ، هى لغة الكتاب والسنة!!

ويبدو أن المصالح الاستعمارية الراسخة قد أحبطت هذا الاقتراح فى حينه ، فهل نحاول ، عن طريق العمل الجاد الدءوب من أجله مرة أخرى ، بحيث يأتى من الجذور لا من فوق الرءوس ؟ لعل وعسى !

المسئولية الدولية :

إن العالم الغربى المتقدم الذى نهب أفريقيا قرونا طوالا مطالب الآن بأن يمد يده إليها بالمعونة بدءا من إعفاء شعوبها الجائعة من ديونها الخارجية الباهظة ، أى كانت فى معظمها نتيجة للمبادلات التجارية الظالمة ، حيث كان ولا يزال يستولى على موادها الخام بأبخس الأسعار ، ويصدر لها منتجاته الصناعية بأسعار فاحشة فى ارتفاعها .

ولعل كثيرا من عقلاء الغرب ، يرون أن من مصلحة البلدان الغربية معاونة القارة الأفريقية على إعادة بناء اقتصادياتها ، بما فى ذلك إنشاء الطرق المهدة التى تربط أجزاء القارة الشاسعة بعضها ببعض ، لأن ترك الأفارقة فى هذه الحالة من التردى الاقتصادى ، يجعل كثيرا من أبناء القارة السوداء يسعون إلى الهجرة إلى الغرب ، إلى ذات البلدان التى كانت تستعمر بلادهم فى الماضى ، ولا يكادون يتكلمون إلا لغتها، ويترتب على ذلك تفاقم مشاكل البطالة فى تلك البلدان الغربية ، فضلا عما يتوالد فيها كل يوم من احتكاكات عنصرية ، وبعض القانطين من الشباب الأفريقى ، لايجدون أمامهمَ سوى ممارسة الإرهاب ، سبيلا للثأر لما أصابهم وأصاب بلادهم من إحباط !

ولعلى ، كما ذكرت القرابة العربية والإسلامية ، أن أتساءل عن موقف اللوبى الزنجى فى أمريكا من مشاكل القارة الأفريقية ، إن كثيرا من أبناء الجالية الصينية فى أمريكا يعودون إلى بلادهم بما يحملونه من أموال طائلة ومن خبرات تكنولوجية ، فأين جهود الأمريكيين من أصل أفريقى فى هذا المضمار ، فهل استمرار انقسام القارة الأفريقية والمنازعات الضارية ما بين أبنائها هى التى تحول دون ظهور مثل هذه الجهود ، على عكس ما عليه الحال فى الصين الموحدة ، لعل ذلك من بين ما ينبغى أن يأخذه الأفارقة أنفسهم فى اعتبارهم !

دائرة حوار

المسافة بين التقدم والتكنولوجيا

بقلم : مصطفى الحسينى

فى هذا العصر الذى نعيشه، لا يستطيع أحد أن يكتب مرافعة ضد التكنولوچيا، وليس هذا مطلوبا على أى حال .

إنما المسألة، فيما يزعم هذا المقال، أنه لا أحد يستطيع أن يكتب مرافعة مطلوبة، ضد اللهاث وراء التكنولوچيا، ضد تصور أن التكنولوچيا تحل مشكلات الناس من الأفراد إلى الأمم والمجتمعات، وأنها الدرب المضئ الذى ينتقل عليه الإنسان من دار الفقر والتخلف والعوز إلى دار الثراء والتقدم والوفرة .

فاللهاث وراء التكنولوچيا يقطع الأنفاس، ولأن تطوراتها متلاحقة متسارعة متداخلة متراكبة، فإنها مزيفة للأبصار، ولأن قدراتها آخاذة بل ومبهرة، فإن الافتتان بها يشيع، بل ويصعب تجنبه، لذلك فإنه فى أحيان وحالات كثيرة يشتت البصائر ويجفف التروى .

وإنما المشكلة، فيما يزعم هذا المقال، أن أنصار الحل التكنولوچى لأوضاع المجتمع، لا يبدأون من تعريف لثلاثية يلزم الإنفاق على تعريفها، هى التخلف والتقدم والتكنولوچيا .

والمقصود بعبارة أوضاع المجتمع هنا، ليس فقط مشكلاته، انما أيضا اهدافه وطموحه .

الحل التكنولوجى لأوضاع المجتمع

والتعريف الذى يقترحه هذا المقال لكل من : أضلاع هذه الثلاثية يعتمد الحد الأدنى من المكونات.

فالتخلف يعنى قصور المجتمع عن إشباع حاجاته حسب إدراكه لها .

والتقدم يعنى نجاح المجتمع فى



اشباع هذه الحاجات، وأيضا حسن إدراكه لها، مضافا إلى ذلك تحقيق قدرة ذاتية كامنة فى عملية الاشباع ذاتها على تجديد الإشباع وتوسيعه تبعا لنمو الحاجات وتطور إدراكها .

والتكنولوجيا هى مجموعة الوسائل والأدوات التى يتخذها المجتمع لقطع المسافة بين القصور (التخلف) والنجاح (التقدم) .

والوسائل والأدوات ليستا كلمتين مترادفتين: الوسائل هى الأفكار والخطط والتصميمات والنظم وما اليها من غير الملموسات غير المحسوسات.

والأدوات هى الأجهزة، الآلات، المعدات التى من شأنها تسهيل تحقيق الوسائل .

وإنما المشكلة أيضا أن انصار الحل التكنولوچى لأوضاع المجتمع وقفوا بتعريف التكنولوجيا عند الأدوات، وأهملوا الوسائل، فإن تذكروها مال بهم تفكيرهم الى اخضاعها للأدوات، وهو ترتيب مقلوب، لأن الوسائل التى تحددها الأدوات تتعين وتتحدد بقدرة الأدوات وأكثر مما تتعين وتتحدد بمواصفات الأوضاع التى تتعامل معها .

التكنولوچيا احتياج اجتماعى

فالذى يريد أن يجتاز مجرى مائيا صغيرا أو متوسطا، ترعة أو نهر النيل مثلا، لن تفيده سفينة عابرة للمحيطات، ولا طائرة نفاثة ولا حتى طائرة مروحية، كما لن تفيده سيارة ولا حتى دراجة، ما يحتاجه هو قارب بمجدافين وكحد أقصى قارب بمحرك صغير، حسب سعة المجرى أو يفيد جملة العابرين جسر صغير من الخشب أو الحجر أو الحديد . وسوف يسرف على نفسه وعلى طاقة مجتمعه إن هو بنى جسرا حديثا على نسق ما يبنى على الأنهار العريضة من جسور .

هناك ثلاثية أخرى تسبق ثلاثية التخلف والتقدم والتنكولوجيا، هى ثلاثية الانسان والبيئة وحاجته الى معالجة البيئة على نحو يلبى احتياجاته كما يدركها ادراكا رشيدا .

هذه الثلاثية هي الأساس، هي التى انتجت التكنولوجيا وتطورت بها فالتكنولوجيا احتياج اجتماعى وليست شطحة ذهنية ولا نزوة نفسية .

واذا شئنا أن نضرب مثالا يوضح هذا المعنى ، فليس أقوى من مثال نستعيره من العالم التكنولوجى، نفسه، أى العالم الذى أبدع ويبدع معظم منتجات التكنولوجيا المتقدمة والمتفوقة ويستخدمها. هذا المثال هو «الروبوت» الذى درجنا على تسميته «الانسان الآلى» فاليابان تمتلك حوالى ٧٠٪ من الموجود والعامل من هذه الآلات فى العالم أجمع، بينما تستخدم الولايات المتحدة حوالى ٧٪ منها، كما أن اليابان تنتج ما تستخدمه من هذه الآلات، بينما لم تعد الولايات المتحدة تنتج منها شيئا مع أنها ـ نظريا وفعليا ـ قادرة على انتاجها وتطويرها واستخدامها (كانت تنتجها وتوقفت) وتفسير هذه المفارقة أن اليابان ـ واقتصادها أصغر كثيرا من الاقتصاد الأمريكى ـ تحتاج الى الروبوت ولأسباب اجتماعية واقتصادية على العكس من الحالة الأمريكية والأسباب من النوع نفسه، ففى التركيب العمرى لشعب اليابان أن أعداد المسنين ونسبتهم الى عدد السكان تتزايد، بينما تتناقص أعداد من هم فى سن العمل ونسبتهم، وفى الوقت نفسه فإن الثقافة اليابانية «مغلقة عنصريا» إن جاز التعبير، أى لا ترحب بدخول ابناء أجناس أخرى وثقافات مغايرة الى نسيجها الاجتماعي، فوجدت الحل فى تكنولوجيا الروبوت ـ بينما الاقتصاد الأمريكى مازال يتمتع بوفرة فى اعداد القادرين على العمل وفى نسبتهم الى السكان، كما أن التنوع القومى ـ العرقى ـ الثقافى للسكان يفتح باب عدد مستمر ومتجدد من المهاجرين (رغم ما يبذل من مقاومة) يجعل استخدام البشر أرخص من استخدام هذه الآلات المتقدمة .

فإذا رجعنا بتكنولوجيا الروبوت الى مراحل سابقة من تاريخ التكنولوجيا، وجدنا أن «العجلة التى تحركها طاقة البخار» كانت وليدة احتياج اجتماعى أكثر منها وليدة عبقرية مخترع. الاحتياج الاجتماعى هو الذى وضعها فى رأس المخترع .

الحل التكنولوجى لأوضاع المجتمع

ويذكرنا المؤرخ والمفكر بول كيندى فى كتابه الأخير «الاستعداد للقرن الواحد والعشرين» بأن اختراع هذه الآلة - التى

هى اساس الثورة الصناعية ـ تزامن مع مقالة مالتوس الشهيرة التى انذرت بأن الأوبئة والحروب ستكون هى الرد الملازم على تزايد السكان مع ثبات موارد الطبيعة، ويرى كيندى أن نذير مالتوس كان يمكن أن يتحقق وينطبق على بريطانيا ـ التى كانت اساس مقالته، لو أن العجلة التى تدور بالبخار ـ لم تحمل اعداداً كبيرة من سكانها عبر المحيطات الى أمريكا وأستراليا .

فإذا نظرنا الى الثلاثيتين السابقتين معا، أى ثلاثية التخلف والتقدم والتكنولوجيا، وثلاثية الانسان وبيئته وتفاعلهما لانتاج التكنولوجيا، فإن هذا يدعو إلى تأمل حجتين يتعمد عليهما من يسميهم هذا المقال أنصار الحل التكنولوجى لأوضاع المجتمع، الأولى هى حجة اللحاق بالعصر، والنهاية هى حجة اللحاق بالمتقدمين .

أما مسألة «اللحاق بالعصر»، فإنها تستدعى سؤالا ساذجا هو: أى عصر؟ وما يوجب السؤال هو أن المقولة تطرح وكأن هناك عصرا واحدا منسجما يعيشه العالم، مع أن العصر الذى تعيشه أفغانستان ـ مثلا ـ بالتاكيد ليس هو العصر الذى تعيشه جارتها السوفييتية السابقة أوزباكستان، فضلا عن العصر الذى تعيش جاراتها الى الشرق باكستان والهند والصين ناهيك عن العصر الذى تعيشه اليابان أو المانيا أو الولايات المتحدة.

كيفية اللحاق بالتقدم

وبالطبع، فان دعاة اللحاق بالعصر، يقصرون اللحاق بالعصر الذى تعيشه هذه البلدان الثلاثة الأخيرة ومثيلاتها وشبيهاتها .

أى أن اللحاق بالعصر، يتساوى مع اللحاق بالمتقدمين .

هل هذا واقعيا ممكنا؟ وفى أى اطار زمنى؟ وعلى أساس أى رصيد من الامكانات والموارد والامكانيات والطاقات ؟ وهل هذا كله أو أى منه تحققه حيازة التكنولوجيا ؟

قبل تناول هذه التساؤلات وسيتناولها هذا المقال فى حزمة واحدة، يجدر بنا أن نلتفت الى أن فى جوارنا ومنها مجتمعات نتيجة لتمتعها بموارد نقدية ضخمة، أصبحت مكتظة بأدوات التكنولوجيا وأدواتها، ومع ذلك بقيت مجتمعات متخلفة، تلك هى مجتمعات البلدان المنتجة للنفط، فهى لا تكاد تنتج شيئا ممّا تستهلك، سوى

النفط نفسه، مع أن ادوات التكنولوجيا واسعة الانتشار من الدكاكين إلى المصارف، ومن أجهزة التفتيش الالكترونى للأفراد الى أحدث الأسلحة .

أما اللحاق بالعصر واللحاق بالمتقدمين، فلا بأس إنما بشرط أن ندرك أن العالم يعيش عصورا متعددة ومتفاوتة، وأن الانسان ومجتمعه ينتقل من عصره الذى يعيشه الى العصر الذى يعقبه، معتمدا على امكانياته لإمكانيات غيره وعلى ابداعه لا على ابداع غيره .

واعتماد الانسان على ابداعه لا ابداع غيره، لا يعنى بالطبع أن على «المتخلف» أن يعيد اختراع ما سبقه «المتقدم» الى اختراعه، وانما الابداع هنا يعنى الوسائل أكثر مما يعنى الأدوات .

ثورة الاتصالات ودورها فى التقدم

ولا يجوز أن تخدعنا فى هذا المجال مقولات رائجة وشائعة، تهبط إلى حد الأكاذيب التى ان لم تكن صادرة عن الشر، تكون صادرة عن ضيق افق ينقص من إنسانية مبتكريها ومروجيها، ابرز هذه المقولات ، ما يتردد على اسماعنا كل يوم من أن «ثورة الاتصالات والمواصلات قد حولت العالم الى قرية صغيرة، وأن الإنسان اليوم أصبح يعرف ما يحدث على سطح الأرض من أقصاها الى أقصاها وفى اللحظة ذاتها» .

فإذا علمنا أن ٧٦٪ من مساكن هذه «القرية الصغيرة» المزعومة، لا يصلها التيارالكهربائى، ونسبة مماثلة لا تصلها المياه الجارية (والأرقام من الأمم المتحدة) فأى قرية صغيرة وأى معلومات ؟ الذين يروجون هذه الاقاويل والمفاهيم إما أشرارا وإما أغرارا، لا يرون الا أنفسهم ومن على مثالهم استمتاعا بمزايا ثورة الاتصالات والمواصلات .

فإذا اقتربنا أكثر إلى أحوالنا وشئوننا، وجدنا حياتنا حافلة بمفارقات قد تبدو طريفة ولكنها محزنة وقد تبدو صغيرة لكنها كبيرة الأهمية .

من هذه المفارقات مثلا: أننا وعلى اساس من الدعوة إلى إدخال التكنولوجيا لحاقا بالعصر فإن الهيئة القومية للاتصالات السلكية واللاسلكية (يعنى هيئة التليفونات) قد أدخلت الموزعات الالكترونية لخطوط الهاتف، كما أدخلت «الكمبيوتر»

في إحصاءاتها وحساباتها. لكن الذى حدث أنه بعد أن انتهى عقد الصيانة مع الشركة الموردة للمعدات الالكترونية بدأت أعطال التليفونات تنتشر وليست المسألة فى ضعف تدريب الأفراد المصريين على عمليات الصيانة، المسألة هى العادات الفضفاضة فى التفكير والممارسات، وأخذ الأمور على قواعد «التقريب» بدلا من الضبط، والذى يجعل هذا الأمر أكثر وضوحا، هو أن الهيئة التى تحاسب المتعاملين معها الكترونيا، لا تستطيع توصيل مطالباتها إلى هؤلاء المتعاملين، وتفرض عليهم عقوبات (وقف الخدمة) وغرامات اذا لم يسددوا ما عليهم فى المواعيد التى تحددها الهيئة . وهذه مجافاة صارخة للقانون المدنى، لأن المدين (أى المتعامل مع الهيئة) لايكون مدينا أمام القانون إلا إذا عرف - كفرد - قيمة الدين وموعد سداده .

التكنولوجيا منظومة واحدة

ومازالت الهيئة القومية للبريد - بعد أن أخذت بكثير من أدوات التكنولوجيا، لا تضمن لمن يستخدم خدماتها وصول رسائله فى موعد معقول ومقبول، بل وفى بعض الأحيان عدم وصولها أصلا .

هذه الأمثلة ليست مجرد مفارقات ناتجة عن فجوات فى «التعميم التكنولوجى»، فدلالتها الحقيقية هى أن التكنولوجيا منظومة واحدة، تمتد من القيم الاساسية: الدقة، الانضباط فى العمل، الانفاق، إلى التعليم، إلى احترام المواطن الذى لا تحترمه هيئة التليفونات فى المثال المذكور، فتعاقبه على التأخير فى الوفاء بدين لم تطالبه به مطالبة قانونية صحيحة.

المسافة الحقيقية بين التقدم والتخلف هى التنظيم الاجتماعى والتنمية البشرية، عندئذ يمكن أن تدخل التكنولوجيا مأمونة وآمنة، وبقدر ما يحتاج البشر وعلى قدر ما يطيقون .

فما أداوات التكنولوجيا إلا جماد فى جماد .

أما وسائل التقدم فهى تنمية طاقات الانسان بالعلم والمعرفة والفضائل ولئن كانت هناك مسافة بين التخلف والتقدم يجب قطعها . فهناك - مسافة فى العمق - بين أدوات التكنولوجيا والتقدم لايجوز تجاهلها وإلا تحولت إلى هوة سحيقة يسقط فى وهدتها من يسعى إلى التقدم معصوب العينين بضوء التكنولوجيا الباهر .

★★★

دائرة حوار

ثقوب فى نسيج الثقافة المصرية

بقلم : د. السيد نصر الدين السيد

فعل د . مصطفى سويف خيرا ، توقيتا وموضوعا ، بما أثاره من قضايا فى مقالته ثقافة العلوم والتى نشرت فى هلال مايو ١٩٩٣ . فمن ناحية التوقيت ، جاء ظهورها فى وقت حرج بات فيه نسيج الثقافة المصرية المعاصرة عرضة للمزيد من التمزقات الحادة والمزمنة نتيجة لما يتجاذبه من تيارات تتعدد اتجاهاتها وتتعارض توجهاتها . أما من ناحية الموضوع ، فلقد أبرزت المقالة ، وبطريقة شبه كمية ... !؟ واحدا من أهم وأخطر أوجه الخلل والقصور فى ثقافتنا المعاصرة وهو اللاتوازن المرضى بين العناصر المكونة لها الذى يتبدى فى الغيبة شبه الكاملة لـ ثقافة العلوم . وهى الثقافة التى عرفها بأنها : «مجموع المعارف التى يحصل عليها المواطن غير المتخصص فى فرع علمى بعينه ، والتى تتناول أى فرع من الفروع العلمية المختلفة والمقصود بهذه الفروع كل ما يصنف تحت أى من هذه البطاقات الأربع : العلوم الطبيعية ، والبيولوجية والسلوكية ، والرياضية، وهكذا

سنبدأ من حيث انتهى أستاذنا ، فنمضى قدما لمناقشة ثلاثة جوانب من جوانب قضية موقع ثقافة العلوم فى نسيج الثقافة المصرية المعاصرة . ويتعلق الجانب الأول بمفهوم الثقافة على وجه العموم وثقافة العلوم على وجه الخصوص . أما الجانب الثانى فيعنى بطبيعة موضوعات ثقافة العلوم فى عصر مجتمع حضارة مابعد الصناعة . وأخيرا يهتم الجانب الثالث بعلاقة تلك الثقافة ببقية العناصر الثقافية الأخرى ، أو بعبارة أخرى قضية العلاقة بين الثقافتين ، ثقافة العلوم (الطبيعيات) وثقافة الإنسانيات .

الثقافة ودورها الخطير فى المجتمع

فالثقافة هى التجسيد الرمزى لمعرفة وخبرة الإنسان المتناميتين بالكون الذى يعيش فيه (ثقافة الطبيعيات) وبذاته هو نفسه (ثقافة الإنسانيات) . وهو التجسيد الذى يتمثل فى المنتجات الثقافية بشتى صورها ، كقصيدة شعر أو لوحة مرسومة أو نظرية علمية أو قانون رياضى على

سبيل المثال ، وأيا كانت الرموز المستخدمة في التعبير عنها ، سواء كانت لغة طبيعية أو لونا أو صوتا أو رمزا رياضياً . ويتفق مفهوم الثقافة من هذا المنظور إلى حد كبير مع التعريف الذى جاء به الدكتور سويف . إلا أن الاقتصار على هذا الجانب الوصفى يحجب عن الأنظار الجانب الديناميكى والفاعل للثقافة كسلوك يتبع ومواقف تتخذ . أو بعبارة أخرى الثقافة كـ «معرفة فى حالة حركة وفعل» . من هنا تبرز أهمية المنظور الآخر والمكمل للثقافة وهو المنظور الوظيفى والذى يعنى بكيفية استخدام المنتجات الثقافية بمختلف صورها فى مواجهة الواقع وفى التواصل مع الآخر ، وفى الإنتاج المبدع لمنتجات ثقافية جديدة . نخلص من هذا إلى أن قضية ثقافة العلوم لا يجب أن تقتصر على مجرد العرض المبسط لمعارف علمية قائمة أو مستحدثة ولا على خبر ينشر هنا أو هناك عن اتجاه علمى أو إنجاز تكنولوجى حديث ، بل عليها أن تتجاوز هذا كله إلى ما هو أكثر عمقا وأبعد أثرا فدورها فى مجتمع ما ، كدور النقد فى الأدب والفن ، يرمى إلى تحليل منتجات ثقافة العلوم ، المادية والذهنية ، وإلى إلقاء الضوء على جوانبها المختلفة من فكرية واجتماعية وإنسانية ، فتتيح بذلك لإنسان هذا المجتمع أن يتذوقها ، وأن يدرك معانيها ودلالاتها ، وأن يستخدمها بكفاءة ، لتتحول فى النهاية إلى حس عام common sens وحالة شعورية جمعية للمجتمع ككل ، فينتقل من حالة الاستهلاك التابع إلى حالة الإنتاج المبدع لتلك المنتجات . إنها بالضرورة ثقافة تنوير بما تقدمه من أسس فكرية وأدوات منهجية للتعامل الإيجابى والمبدع مع واقع يزداد تعقده وتتسارع معدلات تغيره .

التنظير وأسسه الثقافية

ويتعلق الجانب الثانى من جوانب قضية ثقافة العلوم بطبيعة موضوعاتها فى عصر مجتمع حضارة ما بعد الصناعة الذى عاصرنا ميلاده فى خمسينات هذا القرن بظهور آلته الرئيسة الحاسب ويتبلور عقلانية جديدة للنظر فى الأمور ويتنا نشهد الآن قيامه الفعلى فى العديد من المجتمعات المتقدمة . وقد حدد د . سويف موضوعات ثقافة العلوم فى أربعة موضوعات رئيسية هى : العلوم الطبيعية ، والبيولوجية ، والسلوكية ، والرياضية . وهو تحديد سليم إذا اعتبرناه «حل تقريبى» لمسألة تحديد موضوعات ثقافة العلوم . إلا أنه تحديد يتأسس على المفهوم التقليدى للعلم الذى تطور عبر الثلاثة قرون الأخيرة وشكل القاعدة الفكرية لعصر مجتمع حضارة الصناعة . فالعلم التقليدى يقوم على مبدأ التجريب كوسيلة لإثبات صدق تصورات الإنسان ونظرياته حول الظواهر الطبيعية . وقد أدى هذا إلى انقسام العلم إلى نظم علمية disciplines متباينة يعنى كل منها بدراسة موضوع محدد يتعلق بجانب أو آخر من جوانب الظاهرة الطبيعية أو

الإنسانية وذلك طبقاً لما يتطلبه هذا الموضوع من طرق وأساليب تجريبية وبغض النظر عن العلاقة التى قد تربط هذا الموضوع بالموضوعات الأخرى . وهكذا ظهرت إلى الوجود نظما علمية كالفيزياء لتعنى بدراسة المادة غير الحية فى صورتها الأولية ، والكيمياء لتعنى بالتغيرات والتحولات التى تطرأ على هذه المادة فى صورتها المركبة ، والبيولوجيا لتعنى بدراسة المادة الحية بدءا من أبسط صورها كالخلية وانتهاءً بأعقدها متمثلا فى الإنسان وهكذا كان علم عصر مجتمع حضارة الصناعة ، الذى احتل مكان الصدارة من بداية القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن العشرين ، علما أحادى البعد يقوم فقط على التجريب كوسيلة لاشتقاق المعرفة المتعلقة بالظواهر الطبيعية والإنسانية وتتعدد نظمه بتعدد وتباين طرق التجريب وأساليبه . ومن هنا كان التصنيف الشيئى للنظم العلمية المختلفة Thing-oriented Classification المرتكز على التجريب . إلا أن التحولات التقنية والفكرية التى أحدثها ظهور الحاسب قد قادت إلى نظرة جديدة للعلم محورها الرئيسى هو الاهتمام ببنية الظاهرة الطبيعية أو الإنسانية كما تتبدى فى طبيعة العلاقات التى تربط بين الأشياء الداخلة فى تكوينها وذلك بغض النظر عن طبيعة هذه الأشياء نفسها . وتمنحنا هذه النظرة إطارا موحدا لدراسة ظواهر ومنظومات الواقع سواء كانت طبيعية ، كبلورة ثلج أو مركب كيميائى أو نسيج حى، أو كانت إنسانية ، كمجتمع بشرى أو حدث تاريخى ، إذ ينصب الاهتمام على دراسة الهيئة التى تنتظم عليها مكونات هذه المنظومة أو تلك وتركز على العلاقات التى تربط بينها فتؤدى إلى سلوك المنظومة ككل يختلف عن سلوك كل مكون على حدة وسواء كان هذا المكون ذرة أو خلية أو إنسان . وهكذا ظهر بعد جديد للتفكير العلمى هو التنظير وظهر العلم المرتكز على التنظير . وهو تنظير جديد يتجاوز تنظير العلم التقليدى ، الذى يسعى إلى تفسير نتائج التجريب المحدودة ويهتم بخصوصية الأشياء ذات الطبيعة المتشابهة ، يتجاوزه إلى محاولة فهم العام والمشترك بين ظواهر الواقع طبيعية كانت أو إنسانية . وهكذا ظهر تصنيف جديد للرؤى علمية للواقع هو التصنيف العلاقىRelation-oriented Classification المرتكز على التنظير . وظهرت إلى الوجود رؤى علمية جديدة مثل السيبرنيطيقا Cybernetics والنظرية العامة للمنظومة General System Theory والسنرجيات Synergetics . وتتميز هذه الرؤى بأن كل منها يستعين فى دراسته لأى ظاهرة بكل ما توصلت إليه النظم العلمية التقليدية المختلفة من نتائج وبشكل متسق ومتكامل ، لذا توصف هذه الرؤى عادة بأنها متداخلة النظم inter-disciplinary إن علم

عصر مجتمع حضارة ما بعد الصناعة هو علم ثنائي الأبعاد يقوم على التجريب والتنظير معا وموضوعات ثقافة العلوم لابد لها من أن تأخذ في الاعتبار كلا البعدين مع الاهتمام بالبعد الجديد ورؤاه المستجدة التي باتت تشكل القاعدة الفكرية لكل ما نشهده من إنجازات تكنولوجية .

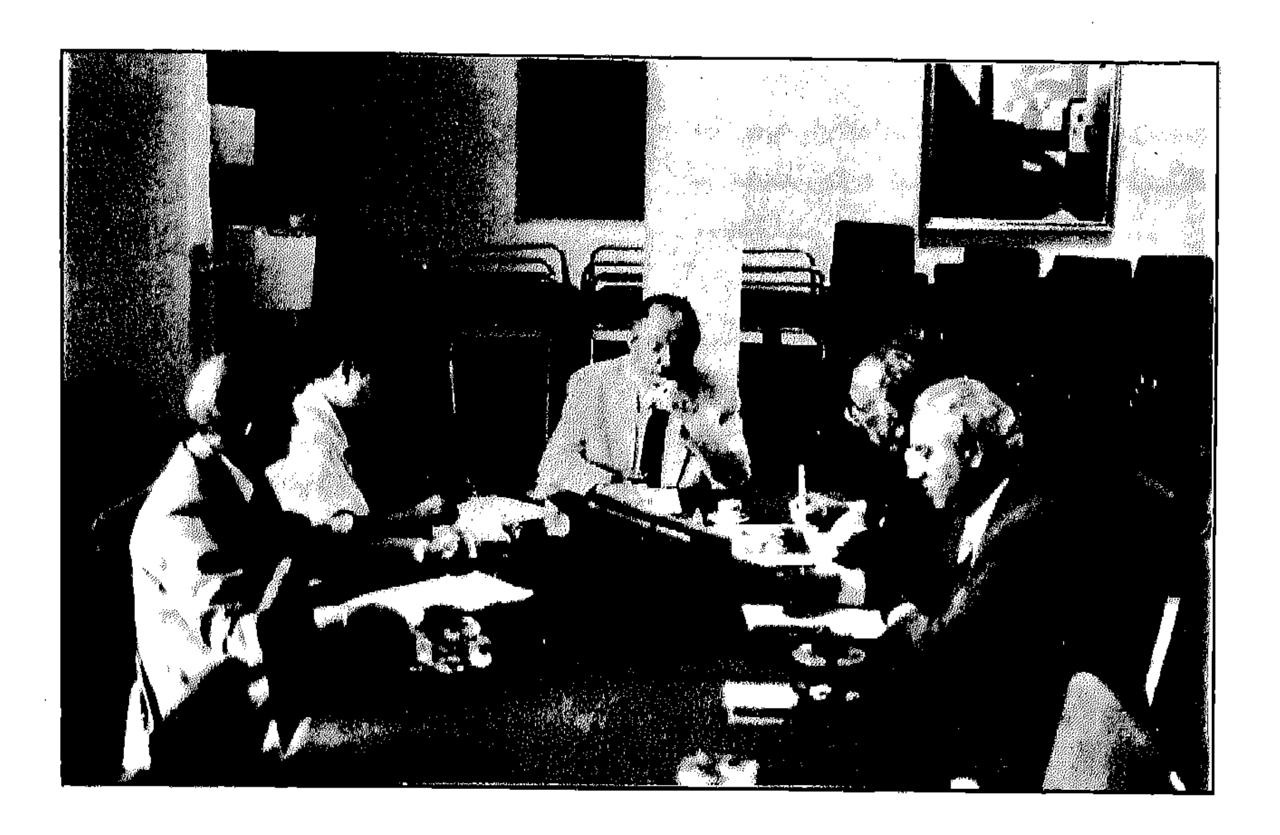
ثقافة العلوم والمنظومة الثقافية

وأخيرا نصل إلى الجانب الثالث من جوانب قضيتنا وهو عن علاقة ثقافة العلوم ببقية العناصر المكونة لمنظومة الثقافة ككل. أو بعبارة أخرى العلاقة بين ثقافة الطبيعيات (العلوم) التي تهتم بالظاهرة الطبيعية وتسعى لفهمها من خلال نظمها ورؤاها العلمية المختلفة ، وثقافة الإنسانيات بما تتضمنه من موضوعات تتعلق بالإنسان كالاجتماع وعلم النفس والتاريخ واللغويات، وبما تشمله من دراسة لإبداعاته الذاتية من أدب وفن . فحتى عهد قريب كانت هذه العلاقة تتميز بالتضاد والتعارض على كافة المستويات ، بدءا من طبيعة وخصائص موضوع كل منهما ، الظاهرة الطبيعية في مقابل الظاهرة الإنسانية ، وإنتهاء بالمنهجية المتبعة لدراسة كل منهما . إنه إذن الإستقطاب الحاد بين العناصر المكونة لمنظومة الثقافة والذي اشتهر بأسم قضية الثقافتين «بعد كتاب المفكر الأمريكي سنو C.P. Snow «الثقافتين ونظرة جديدة» The Two Cultures and a Second look والذي نشر سنة ١٩٦٤ . إلا أن السنوات الأخيرة قد شهدت تحولات جذرية أدت إلى سد الثغرة بين الثقافتين ومن ثم إلى تقاربهما . فمن ناحية أظهرت الاكتشافات الحديثة أن المنظومات الطبيعية بمكوناتها من ذرات أو جزيئات تسلك سلوكا مشابها لذلك الذي تسلكه المنظومات الإنسانية . ومن ناحية أخرى أسهمت الرؤى العلمية الجديدة ، التي تشكل البعد الثاني لعلم عصر مجتمع حضارة مابعد الصناعة ، بطبيعتها التداخلية ، أسهمت تلك الرؤى في إبراز أوجه الشبه والكشف عن أوجه التلاقي بين كل من الظواهر الطبيعية والظواهر الإنسانية . وقد كانت حصيلة هذا التقارب هائلة على كل من المستويين الذهني والمادي . فعلى سبيل المثال لم تكن منظومات الذكاء الاصطناعي وفهم لغة الإنسان والربوتات (الإنسان الآلي) إلا بعضا من ثمرات هذا التقارب والتلاقي بين الثقافتين .

هذه نظرة خاطفة ومحلقة على بعض جوانب قضية ثقافة العلوم (الطبيعيات) الغائبة غيبة شبه تامة عن نسيج الثقافة المصرية المعاصرة . وهي الجوانب التي علينا أن نراعيها إن أردنا لتلك الثقافة أن تحقق الهدف المنشود منها وهو نقل المجتمع المصري من حالة الاستهلاك غير الكفء لمنتجات ثقافة العلوم ، المعنوية والمادية ، إلى حالة الإنتاج المبدع لها .

ندوة الهلال

الإبحار فى ذاكرة القاهرة



أندرية ريمون شخصية فكرية معروفة ، فضلا عن أنه أحد المهتمين بالمدن العربية ، عمل فى كل من القاهرة ودمشق .

وقد زار القاهرة ، وكانت هذه الزيارة فرصة طيبة لعقد واحدة من ندوات الهلال ، وحضرها عدد من المهتمين بالعمارة وتخطيط المدن العربية .

تحدث د . ريمون عن المدن العربية وامتدادها ، وما تضمنه كتابه الأخير عن القاهرة .

حضر الندوة

● يمكن معرفة هوية المدينة من مبانيها ، فالمساجد لا يمكن بناؤها فى أماكن بعيدة عن المناطق السكنية .

- **د. أندريه ريمون** : الأستاذ بجامعة اكس آن بروفنس .
- **كامل زهيرى** : الكاتب ورئيس تحرير مجلة الهلال (سابقاً)
- **د. زبيدة عطا** : رئيس قسم التاريخ ، كلية آداب جامعة المنيا .
- **د. منى زكريا** : الأستاذة فى تاريخ المدن الإسلامية .
- **مصطفى درويش** : كاتب .
- **عاطف مصطفى** : مدير تحرير مجلة الهلال .

تابع الندوة : محمود قاسم

وقد بدأت الندوة من خلال التعريف الذى ألقاه كامل زهيرى حول ضيف القاهرة أندريه ريمون .

- يسعدنا أن نستقبل فى القاهرة الباحث والمؤرخ الدكتور أندريه ريمون صاحب المؤلفات العديدة الهامة عن القاهرة مثل كتابه «القاهرة العثمانية وتاريخها الاجتماعى» عام ١٩٧٠ ، والذى ترجمه زهير الشايب عام ١٩٧٤ . ثم «المدن العربية الكبرى فى العصر العثمانى» عام ١٩٨٥ . والذى ترجمه لطيف فرج منذ عامين . وهو من الدارسين البارزين للتاريخ الإسلامى . وقد عمل استاذاً للتاريخ العربى والإسلامى فى الجامعات الفرنسية . كما عمل مديراً للمعهد الفرنسى بدمشق . وأقام بين القاهرة ودمشق ، وتونس ، واهتم بالمعرفة الموسوعية لابن دقماق، والمقريزى . والجبرتي وعلى مبارك . وقد غاص فى دراسة الوثائق القديمة بمنظور جديد فى إعادة كتابة تاريخ المدن والمجتمعات العربية الإسلامية عن الأحياء والارستقراطية بالقاهرة فى القرن الثامن عشر فى عام ١٩٦٩ والذى ترجمه زهير الشايب ونشره أيضا يحيى حقى حين كان رئيسا لتحرير «المجلة» بمناسبة ألفية القاهرة .

وقد واصل اندريه ريمون عمله الصبور والمثابر لدراسة ومتابعة كتابات المؤرخين العرب والرحالة الأجانب ، والوثائق القديمة فى المحاكم الشرعية ، وخرائط علماء الحملة الفرنسية كى يعيد لنا كتابة صورة جديدة مليئة بالحياة فى بطون الكتب والآثار .

وراء اندريه ريمون تراث مستمر ومتصل فى كتابة تاريخ القاهرة بالذات ، ومن العلامات الهامة من الكتب فى هذا المجال ما كتبه مارسيل كلير جيه عن القاهرة عام ١٩٣٤ . والذى نبه إلى أهميته الدكتور جمال حمدان صاحب «شخصية مصر» فى مقدمته الطويل لكتاب ديز موند ستيوارت عن القاهرة . والذى نشر فى كتاب الهلال منذ أكثر من عشرين عاماً .

وكتاب «القاهرة» لاندريه ريمون ظهر فى باريس منذ شهرين .

والآن هل يمكن أن تحدثنا فى البداية عن اهتمامك بتاريخ مصر . وكيف قررت أخيراً أن تقدم كتابا عن القاهرة خلال أكثر من ألف عام ، بعد أن كنت تركز فى دراساتك القديمة على العصر العثماني والملوكى ؟

اندريه ريمون : أولاً أحب أن أشير أننى لست مستشرقا ، وإنما مؤرخ يهتم بالتاريخ العربى وقد بدأ ذلك عندما سافرت الى تونس وهناك بدأت فى الاهتمام وذلك من خلال البحث ، وقد اخترت أن أ كون رجل بحث ، قضيت بعض السنوات فى تونس أثناء الفترة الاستعمارية لتونس وقد اهتممت بدراسة التاريخ العربى قبل الاستعمار . وأردت أن أفهم كيف كانت صورة بلد عربى قبل الاستعمار . وحصلت على شهادة الدكتوراه عن تاريخ تونس فى القرن الثامن عشر قبل الاستعمار الفرنسى . ثم رحلت إلى بلدان عربية أخرى مثل سوريا ومصر التى جئت إليها عامى ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ كباحث فى معهد الآثار الشرقية . وكنت اتصلت بالمؤرخ المعروف جاستون فييت وكم كان رجلا كريما معى . حيث عملت معه عدة سنوات .

كان البحث هو الأساس من أجل الدراسة . ولذا رحنا نبحث فى كميات كبيرة من الوثائق ، كان هناك أمامنا مصدران لدراسة مصر . الأول من التاريخ والثانى من الوثائق . أصبح علىّ أن أعمل أبحاثا عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى القاهرة .

ما أردته فى المقام الأول هو معرفة كيف وظفت المؤسسة العربية التقليدية والحديثة منها فى القرون الماضية . وذلك فى مجالات عديدة كالحرف ، والتجارة .

وكتابى الأخير كان عن «القاهرة» ومحاولات لشرح جزء من تلك المصادر التقليدية ، والأسباب الاقتصادية لهذا المجتمع . وكان عملاً جديداً فى نوعه . وتضمن العديد من العناصر الجديدة . وقد اهتممت بفترة حديثة من هذا التاريخ . هى الفترة العثمانية . وهى فترة هامة للغاية . أثارتنى كثيراً مثلما أثارت الكثير من المصريين أنفسهم . وهى فترة قريبة كثيراً من الفترة الاستعمارية . وقد حاولت فى هذا الكتاب التأكيد على أهمية هذه الفترة .

لقد دفعتني ، مثلا ، إلى معرفة النخبة . والاهتمام بالمشاكل الحضرية ، ووجدت نفسى أمام مجموعة من المسائل المهمة . خاصة عندما درست المشاكل الحضرية فى المجتمع العربى. وهى مهمة للغاية بالنسبة لمصر . حيث المدينة متراكبة تماماً ، وأقل تنظيماً سواء فى مجاريها المائية ، أو شوارعها ، أو دوربها ، وفكرت فى كيف أمكن ادارة هذه المدن ادارياً ، وكان علىّ أن أتوصل إلى أن المدن الكبرى مثل دمشق وتونس وبغداد والقاهرة لا يمكن أن تكون فى حال من الفوضى وعدم التنظيم كما قيل أحياناً عن القاهرة خاصة .

وفى عام ١٩٧٥ قمت بدراسة جديدة عن المدن العربية . ضمت آرائى حول التنظيم العربى للمدينة . حيث زرت سوريا والمغرب .. وحاولت أن أفهم كيف تمت ادارة هذه المدن العربية من خلال نظم معقدة سميت بالطوائف . وقمت بتفسير هذه الأسباب فى كتاب آخر لى وهو «المدن العربية» كان هذا هو منهجى بأن أحاول أن أفهم كيف كانت تلك المدن الهامة تدار فى العصر العثمانى حتى العصر الحديث .

وقد جاءت فكرة كتابى عن «القاهرة» فى إطار فكرة الناشر «فايار» فى اصدار مجموعة كتب عن المدن الكبرى فى العالم . وطلب منى الناشر اعداد كتاب تجميعى عن القاهرة ليكون أول هذه الكتب عن التاريخ المصرى بشكل عام . ولانه من الصعب أن نلم فيه بكل شىء . لان التاريخ طويل للغاية ومعقد . لذا تضمن الكتاب عديداً من العلامات البسيطة والسهلة .

كان هناك كتاب آخر عن القاهرة اعده جاستون فييت فى الثلاثينات والأربعينات ويتناول قصة القاهرة منذ نشأتها . وحتى العصر الحديث . وقد سبق أن تعاونت مع فييت حيث قمت بترجمة فصل من كتاب «المقريزى» إلى الفرنسية . ووجدت نفسى فى تيار متدفق من المشاعر الفياضة والاعجاب .

د. زبيدة عطا :

لاحظت فى معالجتك لتاريخ القاهرة انك تحدثت عن الأحياء الارستقراطية فى القاهرة ، واعتماداً على المقريزى وصفت هذه الأحياء ، ووصفت نموها ، وانتقالاتها وسط القاهرة ، بين العصرين المملوكى والعثمانى ، ولكنى لا أظن أن هناك فارقاً بين تكوينات المجتمع فى العصرين المملوكى ثم العثمانى . إذ أنه كانت توجد فى كلا المجتمعين الطبقة المملوكية الارستقراطية وطبقة التجار ، والطبقات الشعبية ، وما استجد فى العصر العثمانى هو الجيش العثمانى . أو طبقة الكشاف التى اهتممت فى كتابك «القاهرة العثمانية» برصد بيوتها وتصورها وتوزيعها على أحياء القاهرة .

أندريه ريمون :

لا شك أن العصر المملوكي هو إحدى الفترات التاريخية الزاهرة فى الحضارة العربية . وأنا معجب بهذا العصر ، حيث كانت القاهرة مدينة تتسم بالاتساع . كما أن مصر قد اتسمت بأهميتها السياسية حيث سيطرت على فلسطين وسوريا ، وحتى آخر القرن الخامس عشر . ثم وقعت بعد ذلك للدولة العثمانية .

من ناحية أخرى ، حاولت أن أدخل فى العصر المملوكى من وجهة نظر نقدية ، وهناك وجهات نظر عديدة فى هذا الشأن . ومنها مشكلة التقسيم الزمنى للعصر المملوكى . على مرحلتين وهما عن المماليك البحرية ثم البرجية أى التقسيم بين الأتراك والشراكسة . وهذا فى رأيىّ تقسيم تعسفى ، لانه يستبعد شخصّيات ومراحل هامة فى العصر المملوكى . وقد حاولت انصاف هذه الفترة . ولذا لم استسلم لكتابات المؤرخين القدامى . ووضعت معياراً علمياً لتقدير اتساع المدينة وعدد سكانها ، حيث يوضع مقياس ، للمرة الأولى ، لعدد سكان المدينة لا يتحدد طبقاً لاقوال الرحالة الذى وقعوا فى المبالغات . ولا بالمؤلفين الفضولين الذين بالغوا بلون من الزهو ، بل حيث اعتمدت على مساحة المدينة وكثافتها السكانية .

د. منى زكريا :

أذكر بحثك عن السقائين الذين يمكن من خلالهم قياس تعداد السكان من خلال نشاط السقائين .

كامل زهيرى :

أعتقد أن هذه اضافة جديدة وهامة إلى الكتابات عن القاهرة .

اندريه ريمون : لقد حاولت فى هذا الكتاب أن أصف المدينة . وأن أعرف حدود التاريخ الحضرى ، وذلك من خلال الاستعانة بالخرائط . فهناك دائما شواهد لابد من أخذها فى الحسبان ، مثل مبانى المدينة ، كالمساجد مثلا ، لانه لا يمكن بناء المساجد فى الصحراء . ولكن عامة ما يتم هذا فى أماكن مسكونة . وكذلك الحمامات والأسبلة . ولكى نفهم المدينة ، علينا أن نفهم كيف تأسست المدينة . وأعتقد أيضاً أن دراسة «الأوقاف» بالغ الأهمية . ففى العصر العثمانى مثلا سمحت «الأوقاف» بالتعرف على الحياة الحضرية . بمعنى حركة التطور فى المدينة . مثل أعمال محمد أمين فيما يتعلق بالعصر المملوكى . نحن نحاول أن نفهم كيف أن هذه الوثائق قد استخدمت فى الأوقاف . فقد استخدمت بعض الوثائق فى العصر العثمانى على سبيل المثال . وهذا مهم لفهم الحركة الحضرية ، مثل وقف اسكندر باشا فى جنوب

القاهرة ، ووقف رضوان بك ، وابراهيم أغا وآخرين ، التى وجهت تاريخ المدينة . انها مجموعة من الوقائع الحضرية . وليس علينا الاستسلام فقط لما قاله المؤرخون بهذا الشأن ، والمقريزى على سبيل المثال ، يجب أن نقول إن السلطان محمد قد أنشأ مسجده ، ثم جاءت الحضرية . ويجب أن نهتم بأسباب الإنشاء ، والوثائق ، طبقا للظروف الاجتماعية وغيرها .

وأنا لا أدعى أننى قرأت كل ما كتب عن تاريخ القاهرة فى العصر المملوكى . ولكننى كمؤرخ للعصر المملوكى ، رجعت إلى مختارات .. وذكرت نصوصها . على سبيل المثال كتابات المقريزى . ووصف القاهرة ، وأغلب ما نشر عن القاهرة ، فهناك آلاف العناوين ولا أزعم أننى تتبعت كل ما صدر .

كامل زهيرى :

هذه هى أهمية ما جاء فى كتاب اندريه ريمون . حيث يرى أن المدينة بمثابة كائن حى يتطور وينمو وينعكس ويمرض . ومن الأهمية أن يتوقف عند مغزى بناء المسجد وعمارته ، وليس عند عملية البناء . كما أن دراسة الأوقاف هامة جدا . فنحن لا نأخذ فقط الجانب الدينى، بل نأخذ الأوقاف وعلاقتها بنمو المدينة لانها تتفق مع أغراض دينية وروحية .

د. منى زكريا :

اننى كباحثة درست على يدى اندريه ريمون أن أركز على مجموعة من النقاط الهامة : أولاً تاريخ أى مدينة ليس قطعاً من الفسيفساء المتناثرة فى كل مكان إنه يتكون من كافة مكونات المدينة ، وما يعمله الناس . لقد رأى اندريه ريمون أنه كى نفهم المدينة . يجب أن نفهم أغلب الأشياء عبر وثائق الوقف وهى متناثرة . ولذا تستلزم العمل الكثير بدأب .

كامل زهيرى :

من المهم أن أضيف أن أسلوب البحث عند اندريه ريمون قد تمثل بشكل واضح فى كتابه «المدن الكبرى» بصفحة ٦٥ .

يمكن تجسيد نمو المدن الكبرى عن طريق حساب كمية الزيادة فى مساحتها المبنية مما يسمح برسم خرائط دقيقة لشكل المدينة العام ، فمثلاً لم تزد مساحة القاهرة قبل الفتح العثمانى عن ٤٥٠ هكتارا . وبلغت المساحة فى عام ١٧٩٨ تبعاً لخرائط وصف مصر ٦٦٠ هكتارا . وهذا المعيار ينقذنا من مبالغات المؤرخين وشطحات الرحالة .

اندريه ريمون :

كانت هناك نقاشات مع زملاء متخصصين لى فى العصر المملوكى انه لا يمكن كتابة تاريخ

مدينة دون أن نتسلح بالمنهج الجغرافى والخرائط . ولذا فأنا اهتم بالعناصر الحضرية للمدينة ، مثل المساجد فى العصر العثمانى وبنائها فى منطقة بعينها . وأيضاً الاسبلة والبوابات .

إذن ، يجب أن نفسر المدينة من خلال اساليبها الاستاتيكية فى البناء . فعلى سبيل المثال اجريت دراسات عديدة على الفسطاط بواسطة بهجت على بين عامىّ ١٩١٠ ، ١٩١٤ فضلا عن بعثة آثار امريكية ، وباحثين فرنسيين . لقد اهتموا بامتداد الفسطاط عبر العصور .

د. زبيدة عطا :

وكان المتبع أيضاً لمعرفة تعداد السكان الرجوع إلى قوائم الضرائب لقد كتبت عن التاريخ الإسلامى فى مصر . وحصرت عدد السكان . وذلك بالرجوع إلى كافة ما وصلنى من مراجع وخرائط .

د. منى زكريا :

لدىّ افتراض حول أن المدينة تشهد فترات محددة . هذا المنظور قد انتهى بشكل واضح فالمدينة اتصال دائم ومترابط ومتشابك . ولا يجب أن نقع أسرى لتقسيم المدينة حسب الحكام أو العصور .

اندريه ريمون :

هناك مراحل متعددة فى القاهرة ، مراحل من المقاطعة . مثل إنشاء الفسطاط والأزهر ، ووسط المدينة . ولكن هناك استمرارية دائمة . هناك إذن المدينة المملوكية . والمدينة العثمانية ، ولكنهما معا تشكلان عناصر لاستمرارية المدينة . قد تكون الاستمرارية بطيئة فى مرحلة ونشطة فـى أخرى . وذلك تبعاً للمراحل السياسية . إنها مراحل معقدة . لكن استمرارية المدينة قوية للغاية .

كامل زهيرى :

اعتبر نفسى دائما قاهرى متعصب . ودائماً ما اتساءل عن تفسير كيف أن الشوارع الرئيسية فى القاهرة كانت دائما موازية للنيل وكيف أن القاهرة بدأت بالفسطاط على شاطئ النيل ثم اتجهت نحو الجبل ، وعلى سبيل المثال القاهرة العربية (الفسطاط) كانت فى بداية الأمر قريبة من نهر النيل ، ثم اتجهت ولأسباب عديدة نحو قلعة بنى يشكر فى العاصمة الطولونية ثم كانت فى القاهرة الفاطمية قريبة من الجبل ، والقاهرة الأيوبية ، لذلك كانت هى





د . اندريه ريمون

الجيل ، وفي العصر المملوكي نزلت المدينة نحو السيدة زينيب . لم تبتعد القاهرة عن النيل فى بعض العصور إلا لأسباب عسكرية ، وأيضاً تبعاً لقوانين داخلية ترجع إلى المجتمع ذاته .

الملاحظ أن الشوارع الرئيسية شوارع طولية من الشمال إلى الجنوب . ومن الجنوب إلى الشمال من باب النصر إلى باب زويلة . ثم إلى السيدة نفيسة موازية للنيل ربما لأسباب خاصة باتجاه الشمس . اكتشفت انها لم تبدأ اتجاه الشوارع من الغرب الى الشرق إلا فى المرحلة الحديثة ، فى عهد محمد على واسماعيل باشا ، مما يسمى بالسكة الجديدة ثم شارع فؤاد فى أيام نابليون : مشقة نابليون لأسباب عسكرية لتوصل بولاق الميناء بمقر القيادة فى قصر الألفى بالأزبكية . فبدءا من هذا العصر بدأت الشوارع من الشرق الى الغرب ، وذلك لأسباب عسكرية مثل شارع بولاق وحتى السكة الجديدة أيضاً فى الجهة الشرقية . هناك قوانين داخلية يمكن تسميتها بالقوانين السرية الكبرى . فكيف نفسر مثلا أن المساجد الكبرى كانت دائماً حول المدينة مثل جامع عمرو بن العاص . وجامع ابن طولون ، وجامع السلطان حسن ، والأزهر ، والحاكم والمؤيد .

علينا أن ننظر إلى المدينة كما قال اندريه ريمون نظرة شاملة لانني اعتقد أن المدينة كيان حي له اسرار نموه وتطوره .

مصطفى درويش :

وماذا عن الزيادة السكانية ، وما تشكله من تهديد للمدينة .

اندريه ريمون :

انها مرحلة أخرى . وهى تخضع لقانون تطور القاهرة ، تحت وقائع وظواهر سكانية . لقد تضخمت هذه الظاهرة فى الثلاثينات من هذا القرن . وخاصة منذ عام ١٩٣٦ . ولكنها كانت ملحوظة منذ بداية عصر اسماعيل . وقد أخذت هذه المشكلة بعين الاعتبار فى الكتاب . وذلك من خلال تطور القاهرة على المستوى الجغرافى ، مما خلق مشاكل يجب النظر إليها بعين الاعتبار . وهى مشكلة تفاقمت بسرعة . لان هذا يعنى أن مصر تتطور بإيقاع سريع . فى لحظة ما من التاريخ ، فيما بين عامى ١٩٤٠ و١٩٥٥ زادت نسبة السكان فى القاهرة ٤٪ بمعنى أن المدينة يتضاعف عدد سكانها كل ١٥ عاماً .

وهناك المشاكل بين موارد البلد وسكانها مما يخلق مشاكل أخرى . من هذه المشاكل البطالة ، وتعليم الشباب . ومشاكل الاسكان . اعتقد أن هناك مفتاحاً فى قضية تطور المشكلة السكانية . فهى مكدسة جداً بالسكان . مما يعنى أن الأمر يزداد جسامة . وعندما يمكن لمصر أن تستثمر مصادرها سيكون هناك تطور على المستوى الجديد لحياتها .

فاليابان أيضاً شعب مزدحم ولكنه يتطور بسرعة . وهناك قلق تبعاً لهذه التغيرات السريعة ويجب أن نأخذ هذه المشكلة بعين الاعتبار .

د . زبيدة عطا :

هناك أيضاً ملاحظة هامة عند الربط بين المكان والسكان هى أن «القطائع» .. و«العسكر» و«الفسطاط» لم تكن مدنا كاملة . والعسكر والقطائع فى بداياتهما لم تكونا مدينتين بالمعنى الكامل ولم يسكنها بعد فى فترة البدايات أغلبية من الشعب ، وظلتا مقراً للحاميات العسكرية .

اندريه ريمون :

لقد كانت القطائع والعسكر بمثابة حركات سياسية جاءت إلى المدينة . ولكنها اضيفت فيما بعد إلى المدينة . بل ان مدينة القاهرة الفاطمية نفسها قد تم بناؤها أيضاً لأسباب سياسية . ولكنها مع الوقت تحولت إلى مدينة كاملة وحقيقية .

د . منى زكريا :

عندما كنت أعمل فى «القطائع» لاحظت أن هناك حياً بأكمله للحرفيين . تم إنشاؤه لأول

مرة كمجتمع مدنى . انه نموذج لجذور المجتمع المدنى ، حيث يتم بناء مدينة للحرفيين .

اندريه ريمون :

حتى المناطق التى تقام لأسباب عسكرية تحتاج إلى خدمات معينة من وقت لآخر ، ولا يمنع ذلك من ظهور مثل تلك المدن الحرفية .

كامل زهيرى :

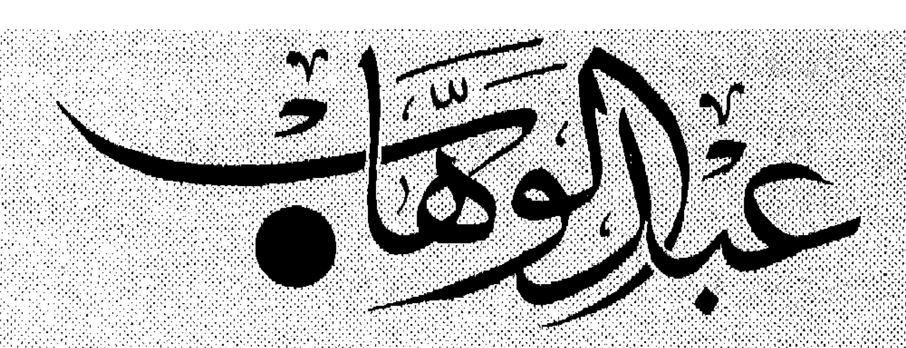
ونحن نعالج مشكلة «القطائع» وهى مشكلة هامة ، علينا أن نتكلم عن الحضرية فى عهد اسماعيل ، فهناك فصل عن المدينة والحضرية ، والاختلاف بين الحضرية القريبة ، والمساكن الشرقية ، وأعتقد أننا ونحن نعيش شبابنا بالقاهرة لاحظنا أن هناك مدينتين مثلما قال الجبرتى . القاهرة الرومية (المدينة الحديثة) ثم القاهرة الإسلامية . وعلى سبيل المثال ، فعند الأوبرا القديمة ، مثلما كتبت مرة هناك حدود بين المدينة القديمة والجديدة . فمن الخلف تطل على القاهرة الإسلامية وعلى يمينها الأزبكية وملاعب الفرنسيين التى أنشاها بونابرت وعلى اليسار كان «صندوق الدين» . ان مبنى الأوبرا القديمة كان وجهة للقاهرة الرومية وظهره للقاهرة الإسلامية ، وكان عصر اسماعيل نقلة بين عهدين .

اندريه ريمون :

اريد الحديث أيضاً عن عصر اسماعيل ، حيث أنه توجه نحو تطور المدينة . وفى تأسيس مدينة اسماعيل هناك أقسام لمدينة القاهرة . بين القاهرة التقليدية القديمة ثم المدينة الحديثة المشيدة على الطريقة الغربية . لم يحاول اسماعيل أن يحول المدينة القديمة . ولكنه أنشأ مدينة جديدة ، وبشكل سريع .. وقد بدأت بوادره فى عهد محمد على . وامتدت إلى على باشا مبارك وما بعد ذلك ويهمنا فى هذه الندوة أن ننادى المسئولين فى القاهرة على ضرورة الاهتمام بآثار القاهرة التى تتعرض لظروف عديدة تهدد بناءها ، وضرورة إنشاء متحف خاص بالقاهرة يضم كافة وثائقها القديمة والحديثة .

كامل زهيرى :

يسعدنا مجدداً أن نحيى الدكتور أندريه ريمون فى الفترة التى تحتفل فيها مجلة الهلال بالعيد المئوى لها ، وهو تقليد سبق للمجلة أن أقامته باستقبال المفكرين العالميين ، حيث استقبلنا فى العيد الماسى (٧٥ سنة) على الهلال ، المفكر الفرنسى المعروف جاك بيرل ..



مطرب الأجيال

شعر : عدنان النحاس - سوريا

أى صوتٍ صحا عليه الزمانُ ... ذاب فيه اللجينُ والعقيانُ ؟

أى فجرٍ ندٍ تفجّرَ أنغا ... ماً عذاباً لها القلوب مكانُ ؟

طُوِىَ فى دُجًى لفّهُ الحز ... نُ فلا العودُ عازفٌ والكمانُ

ياشجىّ اللحون والصوت ماذا ... فعلتْ بعد رَحْلكَ الألحانُ ؟

همد « الكرنك » الحزينُ وأغفتْ ... « كليوباترا » و« البلبلُ الحيرانُ »

و« الصبا والجمالُ » لم تبقَ إلا ... ذُكرةٌ يستعيدها الولهانُ

ماتهادى « الجندول » إلا بصوتٍ ... حمل الحُبَّ جَرْسُه الرنان

درّةَ الشرق يا اخضرار الروابى ... كم تغنت بكِ العُلى والحسانُ

حبذا المغتدى بواديكِ وادى الـ ... نيلِ تزهو بمائه الشطآنُ

والشفاهُ السمراءُ تلثمُ ترب الشا ... م حيث الريحان والاقحوانُ

حينما طاولت أوابد مصرٍ ... جبهة الشام وازدهى المهرجان

كم علت قمةَ الزمان أساطـ ... ينُ انحنت لابتداعها الأزمانُ

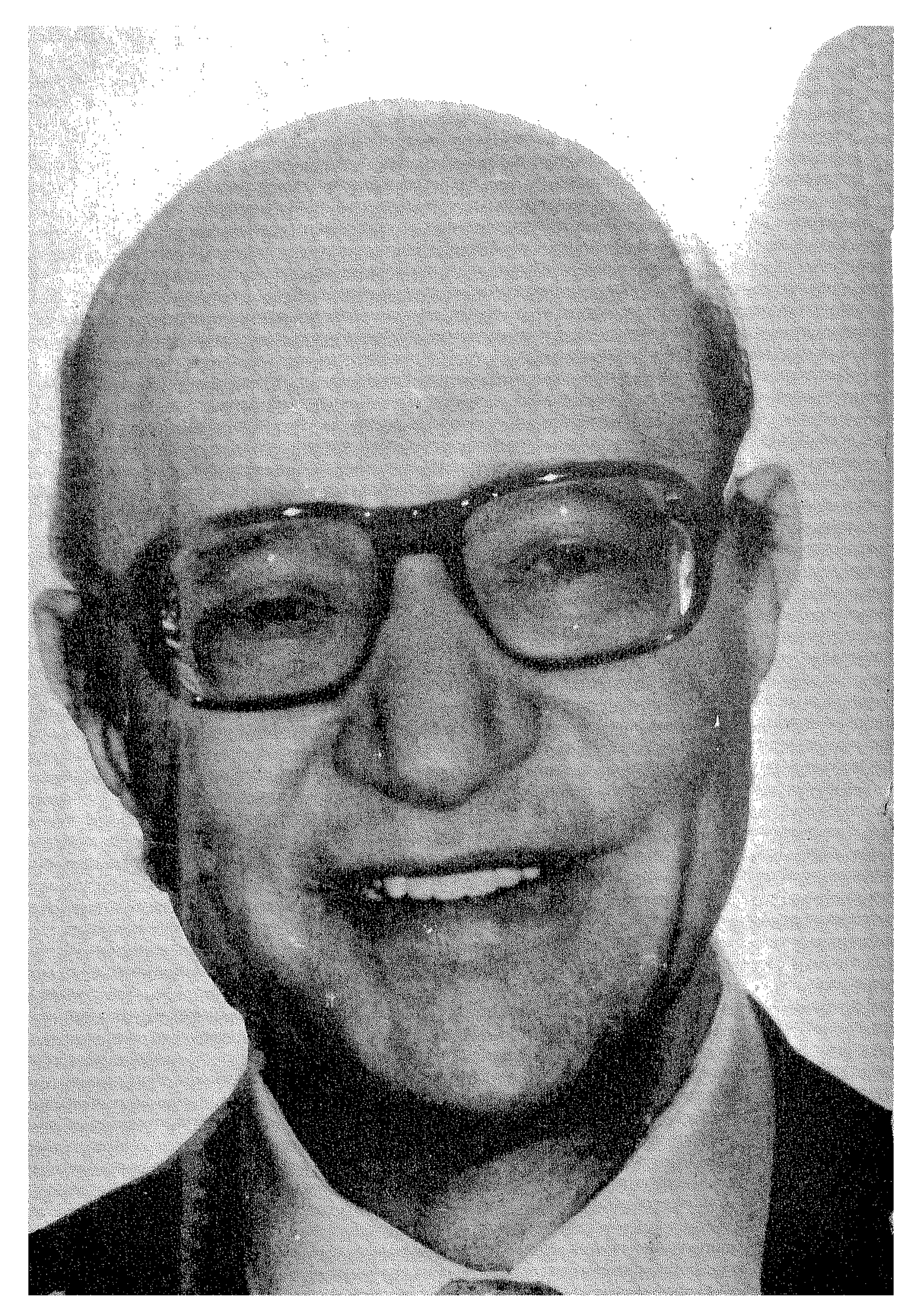
أى عبدَالوهابِ يافارسَ الفـ ... ن لأنتَ الانسانُ والفنانُ

لك فى هذه الحياة فراديـ ... سُ الأغانى وحسنها الفتانُ

ولكَ اللهُ بعدها أيها الغر ... يدُ تشدو بك السما والجنانُ

فلئنْ أطربَ الأنام هزارٌ ... فلقد أسكرَ الورى الكروانُ

ربما نامتِ العيون وتبقى ... مصغياتٍ لشدوهِ الآذانُ

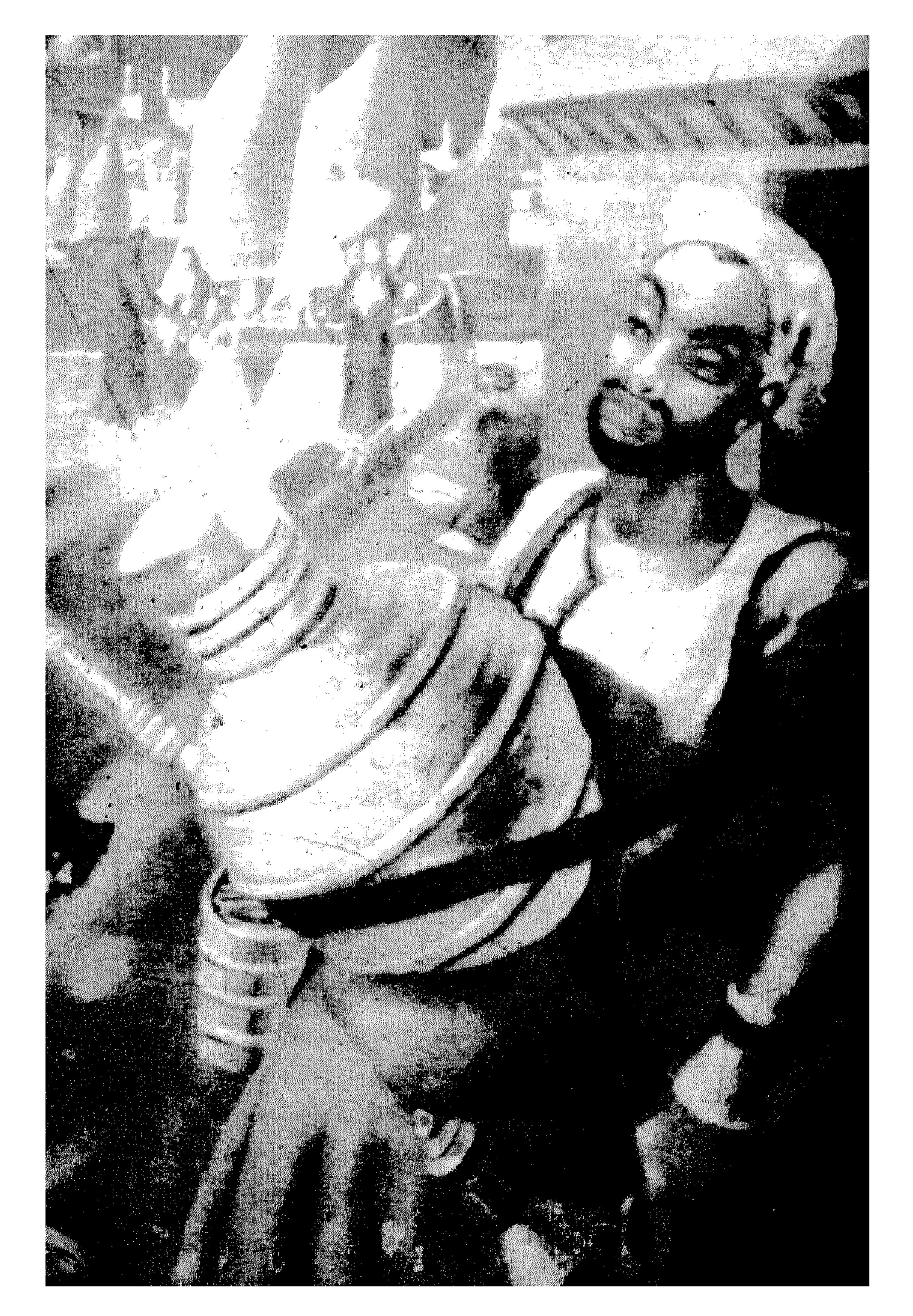


محمود سعيد

مدخل إلى عالمه الفنى

بقلم : محمود بقشيش

هناك ملابسات تحيط بالعمل الفنى ، وتشارك بشكل ما فى صنعه يساعد على كشفها الحديث الاعترافى للفنان ، بالإضافة إلى الدراسات المرجعية فى مجال علم النفس ، وعلم الاجتماع ؛ فقد يربط «الناقد» بعض المؤثرات بعمل فنى لا يكون الفنان نفسه قد تأثر بها ، وقد يتوقف الفنان فى مرحلة سياسية مرتبكة ، فيسرع الناقد إلى الربط الآلى بين الارتباك العام والتوقف الخاص ، وربما كان هذا التوقف عائداً لسبب فردى بحت لا علاقة له بذلك الاضطراب العام . ولأن معظم فنانينا ، إن لم يكن كلهم ، لا يمارسون الكتابة الاعترافية عن سيرهم الذاتية ، أو الكتابة الموضوعية عن تجاربهم فى الإبداع ، لذلك يتحمل الناقد الذى لا يجد أمامه إلا وثيقة العمل الفنى عبء التفسير الذى يظل ناقصاً على الدوام .



فى هذا الفضاء .. يكفى أن يطلق ناقد شهير حكماً على عمل فنى أو فنان معروف ليتردد رأيه على أقلام جيله ، وقد ينتقل الصدى عبر أجيال متعاقبة . ومع التراكم يصير الاحتمال يقيناً ، ومسلمة لا تقبل الجدل . عندما فكرت فى الكتابة عن الفنان الشهير «محمود سعيد» قرأت كل ما كتب عنه فى العربية والفرنسية ، فلم أجد فى كل ما قرأت إلا مقالة واحدة ، متعددة الطبعات والأسماء والأزمنة .. مع اختلاف طفيف فى درجة السماحة والتشدد !

كان «محمود سعيد» عزوفاً عن الكلام، والكتابة ، مستغرقاً فى فعل الرسم والتأمل، ويبدو أن أسرته ذات الوضع الاجتماعى الرفيع ، وأصدقاءه قد أسهموا بشكل مباشر أو غير مباشر فى مؤامرة الصمت . قالت عنه «مارى كاداڤيا» فى سياق مقالة نقدية تحمل عنوان :«الرجل وفنّه» ونشرت فى مجلة «الاسبوع المصرى» سنة ١٩٣٦ : «لم يكن والداه ، وأصدقاؤه ، يتحدثون عن فنّه إلا نادراً !» لهذا فوجئت، وسعدت ، بحديثه الاعترافى الذى تصدّر الملف التكريمى الذى نشر فى مجلة «الأسبوع المصرى» ، وهى مجلة ثقافية ، كانت تصدر بالفرنسية فى العشرينات والثلاثينات من هذا القرن ، نشر الملف بتاريخ ٣١ يناير سنة ١٩٣٦ ، وضم مقالات لعدد من المهتمين بالكتابة فى مجال الفنون الجميلة .. هم : أحمد راسم، چان نيكولايدس JEAN NIOLAIDES، مارى كاداڤيا MARIE CADAVIA، إتيين ميرييل ETIENNE MERIEL ، مارسيل أغيون MARCEL AGHION وإدجار فورتى EDGARD FORTI ، وإلوى ترڤير ELOY TRIUVER .

على الرغم من حديثه المقتضب .. فقد كانت كلماته كاشفة ، ومصوبة لبعض الأخطاء التى وقع فيها نقاد الأجيال التالية . أجرى الحوار المعمارى «چان نيكولايدس» .

الحوار .. أو بمعنى أدق الاعتراف

قال «محمود سعيد» : ولدت فى أبريل سنة ١٨٩٧ فى الاسكندرية حيث أعيش ، من أبوين مصريين ، من أصول تركية وشركسية . تلقيت تعليمى الأولى فى البيت على يد مدرسين خصوصيين . تنقلت بعد ذلك بين كلية ڤيكتوريا والآباء الجزويت ومدرسة السعيدية الثانوية ومدرسة العباسية وحصلت على البكالوريا سنة ١٩١٥ ، وليسانس القانون فى مدرسة الحقوق الفرنسية سنة ١٩١٩ . بعد ذلك انتقلت إلى عالم القضاء .. وأخيراً صرت قاضياً فى المحكمة المختلطة بالاسكندرية .

وعندما سأله «نيكولايدس» عن كيفية جمعه بين فن يحتاج إلى دراسات صعبة وأعباء وظيفته .. رد «سعيد» بقوله : إن التصوير كان نعمة ربانية في شبابي ! .. كانت السـيدة «كـازونـاتـو دافـورنو» 'CASONATO DAFORNO" هي أول أستاذ لي .. ثم في سنة ١٩١٦ تلقيت بعض الدروس في مرسم الفنان «أرتورو زانييري» "ARTURO ZANIERI" .. وكان كلا الاستاذين من خريجي أكاديمية الفنون بفلورنسا .. غير أنني عملت بمفردي بعض الصور الشخصية في السنوات التالية . أثناء صيف ١٩١٩ ، ٢٠ ، ٢١ كنت أسافر إلى «باريس» .. ودرست في «اللوفر» ، وفي أكاديمية الكوخ الصغير (قسم الدراسات الحرة وهو قسم بلا أساتذة) كما قضيت شهراً في أكاديمية جوليان . تزوجت سنة ١٩٢٢ ، وسافرت خلال أجازات السنوات التالية إلى هولندا وبلجيكا وسويسرا واسبانيا .. وبشكل خاص إلى إيطاليا .. منجذباً إلى المتاحف والكنائس . سأله «نيكولايدس» عن المؤثرات الفنية التي تأثر بها في الإبداع الأوروبي .. فأجاب «سعيد» بقوله : سأحاول أن أجيبك . حتى سنة ١٩٢٢ كنت مشحوناً بالحياة الصاخبة لروبنز ، ثم بالإضاءة السحرية لرمبرانت .. غير أن الفن في «فينيسيا» لم يترك في نفسي أثراً عميقاً .. باستثناء «چيوڤاني بيلليني» و «كارباسيو» . بعد «صياغات» فنية في بلاد الفلاندر تحمست بشدة للأشكال الفطرية .. سواء في التصوير أو العمارة . وتأثرت بشدة بـ «ڤان أيك» "VANEYCK" ومملنج 'MEMLING' و «ڤان دين ڤيدين» 'VAN DENVIDEN' بتكويناتهم المحكمة، وعمقهم ، وزهدهم في اللون ، وبسبب اهتمامهم الدقيق بالتفاصيل ، وبفهمهم العميق للأشكال .. وبشكل خاص لإنسانيتهم . اكتسبت من هؤلاء القدرة على الاحتفاظ بكل ما يحقق الوحدة العضوية للعمل الفني ، والتخلي عن الزيادات والتضحية بها . ومع ذلك أستطيع أن أقول إن حبي وتقديري يتجه إلى الأشكال الفطرية الفلمنكية ، والإيطالية ، والفرنسية، ولم يتوقف هذا الحب عند حد .. بل تزايد عبر السنين ، وبنفس القدر كان يتزايد مع «بيلليني» و «كاربا سيو» .. بالإضافة إلى «الجريكو» . كان «ليوناردو دافنشي» يغويني دائماً .. أمّا «مايكل انجلو» .. فقد كنت وسأظل ، منسحقاً تحت سلطانه وقوته إنه الفنان الوحيد الذي يتعين على المرء أن يتعلم على يديه كيف يصبح مبدعاً .

عندئذ .. فاجأه «نيكولايدس» بسؤاله : وماذا عن الفن المصري ؟





أجاب «محمود سعيد» باقتضاب وكأنه يعتذر عن انفلات عواطفه : لا أستطيع أن أتجاهل كل ما أستشعره تجاه النحت المصرى من عواطف وبهجة .

وانتقل «نيكولايدس» إلى السؤال عن أكثر الفنانين المحدثين اقتراباً من نفسه ، فأجاب «سعيد» : بالإضافة إلى تلك الأعمال العملاقة فى الماضى .. لا أستطيع أن أشير إلاّ إلى ثلاثة هم : «كورو» COROT «وسيزان» C'ezanne و«رينورا» . RENOIR

وربما أراد «نيكولايدس» أن ينهى حواره مع «محمود سعيد» فى شكل مجاملة .. فقال له : نحن نستخف عادة بالرسامين الذين يجهلون الأدب ، وأنا أعرف جيداً أنك بعيد عن دائرة الاتهام .

رد سعيد : إننى أقرأ الروايات التى أفضلها مثل روايات «ديستويفسكى» و«مارسيل بروست» ، ومن بين الشعراء أقرأ لـ «بودلير» . أضف إلى ذلك إننى عاشق لموسيقى «بيتهوفن» و «باخ» و «ڤاجنر» و«ستراڤنسكى» .

لكن .. ما أحبه أكثر من أى شئ فى العالم هو ابنتى «نادية» ، وهى الآن فى الثامنة من عمرها .

وكان «محمود سعيد» فى التاسعة والثلاثين .

ماهى المصرية ؟

اتفق نقاد الملف التكريمى على نقطتين أساسيتين هما : مصرية رسوم «محمود سعيد» واستحقاقه لأن يكون أميراً على الرسامين .. وقد بقيت صفة الإمارة على أقلام اللاحقين من نقاد الفن ، واختلفوا فى تفسير «المصرية» قال الشاعر والناقد «أحمد راسم» : إن مصرية رسوم «محمود سعيد» تتحقق فى لون السماء والنهر ، فى شفافية الدرجات الضوئية ، فى البشرة البرونزية الطازجة التى تتجلى فى وجوه سيداته ، وشعورهن ، وأجسادهن المشتهاه، ورأى «إدجار فورتى» تلك المصرية بعيدة عن اللون ، تتجلى فى البناء البسيط ، الصريح ، والصلب . أمّا «بدر الدين أبو غازى» فيقدم رأياً يختلف به مع «راسم» و «فورتى» وإن شاركهما فى التصور المطّاطى الذى يتسع للشئ ونقيضه . قال «أبو غازى» (ص ١٠٣ - كتاب جيل من الرواد) : تتمثل مصريته فى التقائه بالخصائص الأصيلة التى انبعثت من تقاليد مصر القديمة ، ففيه جلال الصمت ، وروعة التجويد ، والإحساس الكامل بالمرئيات ، وتأكيد الكتلة ، والبناء بأسلوب يكاد يستعير من النحت لغته وكان «أبو غازى» أكثر سخاءً من زميليه فمنح «محمود سعيد» جواز مرور إلى الفن الإسلامى . قال : «عند محمود سعيد

شغف باللون وحب للزخرفة هى ميراث الفنون الاسلامية» والواقع إن كل إنتاجه ، بالإضافة إلى حواره الاعترافى مع «نيكولايدس» يؤكدان عكس ما يذهب إليه «أبو غازى» .. وربما لو كان من الممكن أن يطلع «محمود سعيد» على رأى «أبو غازى» لما بالغ فى الإشادة بالمبدعين الأوروبيين .. خاصة «مايكل أنجلو» الذى توجه أميراً على الفنانين العالميين ، ولما أكد بالقول والفعل بأنه ما كان من الممكن أن يكون هو نفسه أميراً على الفنانين المصريين .. بدون دراسة وهضم النموذج الأوربى فى الفن !

بين النقد والاقتناء

بعد ثورة ١٩١٩ ، وظهور شكل من أشكال الديمقراطية ، انتقل الشعب بطبقاته الدنيا والوسطى إلى لوحات وتماثيل الجيل الأول من الفنانين المصريين؛ اختار كل منهم الموضوعات التى تتسق مع طبيعته ، ومع اسلوبه المختار : اختار «يوسف كامل» و «راغب عياد» الأسواق والأحياء الشعبية والعمل ، واختار «ناجى» الريف والحبشة والموضوعات التى تقترب من طابع الفن الدعائى ، واختار «أحمد صبرى» وجوه أصدقائه ليرسمها ، أمّا «محمود سعيد» فقد تعددت محاوره الأسلوبية والموضوعية .. بين الالتزام بالواقع الوصفى . التقريرى .. والاحتفال بالأشكال الفطرية ، خاصة فى المناظر الطبيعية .. وابتكار شكل جديد وجرئ يُعُد إضافة حقيقية إلى التصوير المصرى .. تناول به موضوع المرأة الشعبية . وإذا كنت أشارك عديداً من نقاد الفن فى الانحياز إلى أهمية المحور الثالث .. فإن للمقتنين رأياً آخر !

نشرت مجلة «الاسبوع المصرى» فى نفس الملف بياناً بعدد وأماكن اللوحات وأسماء مقتنيها ، وكلهم من علية القوم بالطبع . ضم البيان ٩٧ لوحة .. احتل فيها المنظر الطبيعى المركز الأول : ٥٣ لوحة ، يأتى «البورتريه» فى المركز الثانى : ٢٠ لوحة ، بينما لم يقتن متحف الفن الحديث غير خمس لوحات هى:

ذات الرداء الأزرق . ذات العينين الخضراوين . الرسول . زهور صناعية . منظر خريفى . واقتنت وزارة الصناعة لوحة ذات المنديل الأخضر . واقتنى المتحف «الإثنوجرافى» مجموعة من الرسوم بالقلم الرصاص ، واقتنت المكتبة الأهلية لوحة «طبيعة صامتة» ، أمّا مدرسة الفنون الجميلة فقد اقتنت لوحة «المقابر» .

وجه المرأة بين طبقتين

إن موقف «محمود سعيد» من الوجه الانسانى يدعو الى الدهشة والتساؤل ؛ فهو حين يتناول وجوه قريباته فإنه يخلع عليهن أقصى ما يستطيع من علامات الرقة ، والتحضر ، والتعفف ، والتفاؤل

بالحياة .. ولم يمنع هذا الالتزام من بعض التجاوزات ؛ مثل لوحة شقيقته حرم «حسين سرى باشا» التي رسمها سنة ١٩٣٢ جعلها تتكئ بذراعها الأيمن على وسادة ، وكان من نتيجة هذا الاتكاء بروز استدارات البطن والمقعدة فضلاً عن الصدر أما اليد اليسرى فقد كسرت بوضعتها الغريبة ، وحركة أصابعها كل تقاليد فن «البورتريه» .. فبدلاً من أن تكون فاعلة ، ومشاركة ، في وحدة عضوية تنتظم كل العناصر .. تنسحب خارج المسرح ، وتدعونا إلى الانسحاب خارج اللوحة .. وكأنه يستعجلنا لإنهاء لحظة اللقاء بها حتى لا نستزيد من التطلع إلى عطايا الجسد المحَرم !

ربما لاحظ «محمود سعيد» بنفسه ، أو بغيره ، إنه تجاوز الخط الأحمر لتقاليد الأسرة ، وأن عليه أن يقوم باعتذار فنى ، فغطى رداءها بزخارف عريضة لا شكل لها حتى يشتت التركيز على الجسد . إن المدقق فى هذه اللوحة يدرك أن الزخرفة لم يكن لها ضرورة فنية ، وأن تدخلها قد أفسد نقاء الكتلة . المدهش فى الأمر أن تجد من بين النقاد من يخرج بنتيجة عجيبة من هذه اللوحة : هى عشق «محمود سعيد» للزخرفة الاسلامية !

اذا كان «سعيد» - بشكل عام - يلتزم «سكة السلامة» مع أسرته وطبقته فإنه يتخفف من كل الضغوط عندما يكون النموذج المراد رسمه منتمياً إلى شرائح الخدم عندئذ يُعَرّى كل شئ ويرسم الجنس على الشفاه المكتنزة ، والعيون الوحشية ، والجسد النحاسى الفاجر . وهو إذ ينتقل من موضوع «الأسرة» إلى موضوع «الخدم» لا ينتقل انتقالاً آلياً من موضوع إلى موضوع ، بل ينتقل من أسلوب فنى الى اسلوب اخر ؛ فمع وجوه أسرته يلتزم الى حد كبير بالأسلوب الأكاديمى المدرسى، وبأسس التصميم فى عصر النهضة .. ومع وجوه «الخدم» فإنه يبتكر أسلوباً تعبيرياً خاصاً به ؛ ينتحل من النحت الفرعونى ميزة الصلابة والرسوخ ، وإن ضحّى بروحانية ونقاء كتله ، وانزلق بها إلى فظاظة فطرية لا تخلو من سحر ، ويأخذ من «رمبرانت» إضاءته السحرية ، وإن حررها من مصدرها الثابت، وهو لا يلقى بأضوائه المسرحية . الكاشفة . إلا على مناطق الإثارة ؛ الأثداء المكورة اللماعة . الأذرع البضة القوية . الأفخاذ النحاسية الثرية الخ .. لتفرض حضوراً قويا على العيون والغرائز . ففى لوحة «الأسرة» (١٩٣٥) يقوم هذا الضوء بدور فاعل ومثير فى ترابط العناصر البشرية فى اللوحة : «الأب - الأم الطفل» يشكلون معاً بناءً هرمياً متماسكاً .. قمته رأس الأب ، وقاعدته الأم الجالسة فى سعادة مستكينة، لا تخلو من سحابة حزن شفيف ، وتلقم طفلها ثدياً سخياً . ويحدثنا «الضوء» حديثاً بليغاً عن العلاقة الحميمة التى تربط الرجل بامرأته . ألقى «محمود سعيد» ومضات نحاسية على صدره المشعور الصلب ، وفخذه العاري ، وثدى الأم المكور . ناب الضوء عن الوجوه الصامتة الشبيهة بالدمى فى الكلام والإبلاغ - ولم يحمل



«محمود سعيد» الضوء كل مسئولية الإبلاغ .. فهناك وسائط رمزية أخرى فى لوحات كثيرة مثل: القلل التى تجمع بين الاستدارة الأنثوية والاستقامة الذكرية ، الجرار الممتلئة . بطون القلاع المنتفخة . الأساور . أعترف بأننى عندما أتأمل عارياته النحاسيات ، أو عارياته المرتديات، يداخلنى شعور ينحرف بى عن التذوق الصافى لجماليات العمل الفنى .. وذلك على النقيض من عاريات «محمود مختار» الرقيقات (يمكن للقارئ مطالعة منحوتات مختار فى العارى وعقد مقارنة بينهما) ، ورغم هذه الملاحظة العابرة فإننى أشارك نقاده فى اعتبار موضوع «شرائح الخدم» أو «سيدات بحرى» كما يصفهن «محمود سعيد» .. أهم محاور إبداعه الفنى ، لنجاحه فى تحقيق أسلوب شخصى ، يجمع بين «الكلاسيكى» و«الفطرى» ، البنائى والتعبيرى ، واستطاع بهذا الاختيار الأسلوبى المناسب أن يجسد موضوعات جريئة لم يجسر عليها غيره من الفنانين حتى الآن ، وأخشى أن أقول .. إن أحداً لن يخاطر بالتعبير عنها فى المستقبل القريب .. مع كل ما نراه من محاولات خطيرة من رجال الدين لاحتلال مقاعد نقاد الفن !

وجه الرجل بين طبقتين

يتكرر نفس الشئ مع وجوه الرجال (الأصدقاء من علية القوم ، وبسطاء الناس من فقراء الشعب المصرى) فللأصدقاء الأسلوب الأكاديمى الوصفى ، وللآخرين الأسلوب التعبيرى ؛ ففى الصورة الشخصية للدكتور «جواد حماده» والتى رسمها سنة ١٩٣٢ .. يجمع فى المشهد كل العناصر التى تؤكد وظيفة صاحبها الأدوية والأجهزة الطبية .. لم ينس رداء الطبيب . ظهر بطل اللوحة كما لو كان يستفسر عن حالة مريضه ، ويتكئ بيديه على جهاز ضغط الدم . ولا تخرج صورة «موريس دى وى» Maurice de wee (١٩٢٦) رغم الفارق الزمنى بينهما عن نفس الطابع التقريرى والذى يقترب فى ملامحه الخارجية من (فن البوب) أو الفن الدارج أو فن رجل الشارع الذى ظهر فى الولايات المتحدة فى الخمسينات ، ولم يتأثر به «محمود سعيد» بالطبع .. وربما لم يسمع به إطلاقاً !

وتتوازى وجوه الرجال الفقراء مع وجوه بنات بحرى من حيث الاتجاه إلى التحوير التعبيرى الذى يميزه – من تلك الوجوه : وجه الحاج «على» سنة ١٩٢٤ ، وشيخ من مريوط سنة ١٩٣٤ ، و «دعوة المتعطل» سنة ١٩٤٦ ، ورغم الفارق الزمنى الذى يفصل كلا منها عن الأخرى فإن قواسم تعبيرية وبنائية تجعل الناظر إليها يظن انتماء ها إلى مرحلة زمنية واحدة . يجمعها حزن دفين . شبهها بعض النقاد بالوجوه الاستبطانية للمنحوتات والرسوم المصرية القديمة ، وشبهها البعض الآخر بوجوه الفيوم ، وهى على الأرجح وجوه

واقعية توغل الفنان إلى أعماقها الحزنية وأراد أن نشاطرها هذا الحزن ، وربما كان «البورتريه» الوحيد المنتمى إلى علية القوم الذى انفلت من الواقعية التقريرية هو «بورتريه» يُظن إنه للشاعر والناقد «أحمد راسم» ، وقد أجاد «محمود سعيد» فى مبالغاته التعبيرية ، خاصة فى المبالغة فى طول أصابع اليد ، وتعقيد فواصلها ، وجعلها تبدو كياناً إخطابوطياً ، تشاركها نظرة ثابتة ومقتحمة ، وحاجبان شيطانيان. أما بقية العناصر فإنها تختفى أو تذوب فى مساحة ظلية تبتلع مجمل اللوحة . اللوحة بعنوان :«الرجل ذو الرداء الأسود» رسمها سنة ١٩٢١ . واللوحة تبدو غريبة نوعاً ما على عالمه .. ولم تتكرر فيما أعلم .. وإن كنت أتعاطف معها أكثر من كل الوجوه التى ذكرتها حتى الآن ، لما تتحلى به من بلاغة الإيجاز .

إن «محمود سعيد» بحكم عمله، وثقافته بشكل عام ، وثقافته الأدبية بشكل خاص ، قد جعله يرى فى «لوحة الحامل» عملاً يقبل الإحالة والتفسير الأدبى مع احتفاظه بكل مقومات المعمار المحكم . لا يستطيع الناقد أن يتأمل لوحة «دعوة المتعطل» مثلاً .. دون أن يجد فى عناصر اللوحة ما يغريه إلى تفسير أدبى ، واستخراج ما يقوله هذا البائس الساجد وحيداً ومايتمناه من أمنيات ، وبالنسبة للمشاهد العادى ، غير المتخصص ، فإنه يتجه نفس الاتجاه فيما أظن . أمّا عندما ينصرف عن العلاقة المباشرة مع «الموديل» إلى حالة يستغرق فيها فى التأليف الذهنى ، فإنه فى كثير من الحالات ينتقل من نثر الحياة اليومية إلى شئ أقرب إلى الشعر ، ولكنه شعر لا يتخلى عن حسيته ، وخشونته الفطرية ، ويبقى لحنه الأساسى : الجنس .. والخصوبة مهيمناً . ولقد كان من الانصاف لدى جماعة «الفن والحرية» أن تعترف بدور «محمود سعيد» وإن اختلفت معه ، وتختار لوحة «ذات الجدائل الذهبية» (١٩٣٣) غلافاً لأول معرض للجماعة .

الفطرية فى فن سعيد

مثلما حاول أن يقيم «محمود سعيد» توازناً بين منصبه ، وطبقته ، وفنّه .. فقد نجح فى خلق توازن بين أساليب متعددة ، ومتناقضة ، فى ذات الوقت . وعلى الرغم من غلبة الصمت والجمود على وجوهه ، فقد كانت تتسلل إلى عالمه بعض الابتسامات المحسوبة .. تمثلت فى شكل مفردات مرئية مثل : «الجحش» الصغير الأبيض فى لوحة «الشواديف» (١٩٣٤ – ١٩٣٥) والحمار «الكاريكاتيرى» فى لوحة «الجزيرة السعيدة» (١٩٢٧) أو الحمار ذو الوجه الانسانى فى لوحة «المدينة» ، واستعارة رسوم الأطفال فى رسم الأقواس المتداخلة لسعف النخيل .. فى لوحة «مشهد خريفى» ولوحة «الجزيرة السعيدة» ، وعلى الرغم من نجاحه فى إثارة إعجابنا وغرائزنا ، فى لوحات سيداته .. فإنه دعانا إلى الابتسام – ربما



على ترعة المحمودية

عن غير قصد - على لوحة المستحمات التى رسمها سنة ١٩٣٤ .. ففى نسبها «الكاريكاتيرية» ما يدعو إلى الابتسام . إن لوحة «الجزيرة السعيدة» تكاد تكون فى مجملها دعابة طريفة . تسودها الخطوط القوسية ، يبدأ الحمار رحلته من النخلة المكتنزة المثقلة بالثمار ، وبسبب كثرة الأقواس فى سعف النخيل والجزيرة يبدو الحمار ذاته كما لو كان يسير فى طريق دائرى ، ما أن يخرج من اللوحة حتى يرتد إليها من الجانب وهكذا ! .. غير أن «محمود سعيد» لا يستسلم إلى إغراء الفن الفطرى بالاسترسال فى عالم الخيال ، ولا يريد لذاكرته أن تقتلع منها المؤثرات الفنية الأخرى التى شكلت رؤيته ، لهذا نجد فى لوحاته المؤلفة تأليفاً ذهنياً .. تجمع بين خيال الفن الفطرى وأسس التصميم فى لوحة عصر النهضة .. مطعمة بين الحين والحين بإيحاءات من «الاسلوب التكعيبى» كما فى لوحة «الشواديف» . وهو تارة يؤلف بين أساليب عدة فى عمل فنى واحد ، وتارة يفرق بينها فى تزامن واحد . ولو اخترنا ، بصورة عشوائية ، عاماً بعينه وليكن عام ١٩٣٤ وجدنا تعدداً فى الأساليب وتبايناً فى الموضوعات ، ففى العام المشار إليه رسم (بورتريه) للرسام «أنجلو بولو» بأسلوب ينتمى إلى الواقعية



المقابر

التقريرية ، ورسم لوحة «الشواديف» ذات الطابع «الفنتازى» الفطرى ، ورسم لوحة «رجل من مريوط» بأسلوب تعبيرى مؤثر . وفى سنة ١٩٢٧ - على سبيل المثال - رسم موضوعات متناقضة ؛ رسم لوحة «جبانة المسلمين» (١٩٢٦) ، وفى نفس الوقت رسم لوحة «الجزيرة السعيدة» ولوحة «ذات الرداء الأزرق» ، ولوحة «لاعبى الدومينو» الخ .

الموت .. والحياة

يَعُدُّ بعض النقاد موضوع «الموت» أحد المحاور الرئيسية فى فنه ، خاصة فى مرحلة الشباب ، والحقيقة إنه لم يرسم فى كل حياته غير خمس لوحات تعبر عن الموت. منها ثلاث تعبر عن إجراء الدفن ، وزيارة المقابر ، والترحم على الموتى بقراءة القرآن، ولوحتان ظهرت فيهما المقابر كخلفية . واللوحات هى : «عشية الدفن» (١٩٢٧) ، «المقابر» (١٩٢٧) ، «جبانة المسلمين» (١٩٢٦) ، «الرسول» (١٩٢٤) ، «نعيمة» (١٩٢٤) ولا تمثل خمس لوحات محوراً ، ليس لكونها نسبة شديدة الضآلة بالقياس لأعماله التى تعد بالمئات ، بل لوجودها فى عالم «محمود سعيد» الصاخب بالحياة ..

رسالة تونس

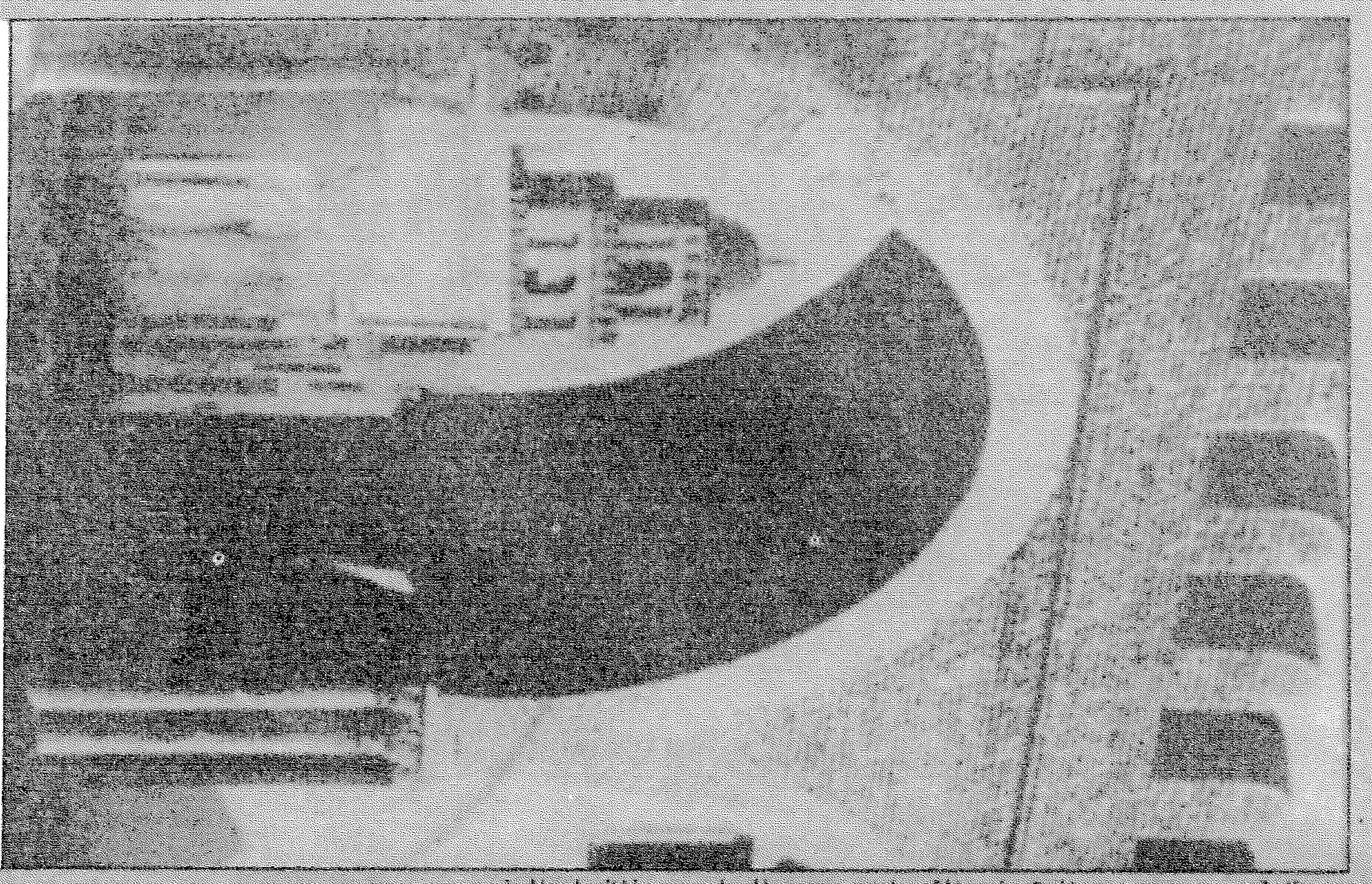
تونس رحلة فى المكان الزمان

- تونس والاحتفال بالعيد المئوى للهلال .
- القيروان والبحث عن الذات .
- التشابه والتشابك بين مصر وتونس .

بقلم : مصطفى نبيل

شهدت تونس احتفالاً جليلاً بالعيد المئوى لمجلة الهلال .. وتلقت الهلال دعوة كريمة للمشاركة فى هذا الاحتفال ، وهى لفتة جميلة ومؤثرة يقدرها أولئك الذين يعملون من وراء ستار من أسرة تحرير الهلال، فمشاركة العرب فى الاحتفاء بأحد المنابر الفكرية تقدير لأجيال متتابعة من الرواد والكتاب ، صناع التنوير والتحديث ، الذين قدموا للقارىء العربى عصارة أفكارهم .

وهذا الاحتفال - هو فى أحد جوانبه - تسليم بوحدة الفكر العربى ، واعتراف بفضله ومكانته فى التجربة العربية ، وإدراك للتأثير الفكرى المتبادل بين عواصم العرب ، وإحياء لمرحلة كان فيها الفكر والثقافة يتجاوزان الخلافات السياسية ، ويمثل الفكر نقطة اللقاء ، فإذا كانت السياسة تفرق العرب أحيانا فالفكر يوحدهم دائما .



قلعة وحصن ، سور ومنارة جامع القيروان - يحمي الديار ، ويحافظ على الجذور

احتفالات الهلال فى قصر طاهر حداد



الحياة الاجتماعية فى الداخل التونسى .. كتب التراث والسيرة الهلالية



«الصنعة مقياس من ذهب» وهو ما ينطبق على الصناعات اليدوية

رسالة تونس

وطوال المائة العام الماضية كانت صفحات مجلة الهلال نقطة لقاء للكتاب والأفكار بين الأقطار العربية ، تصل لكل من يتحدث العربية على اختلاف منازلهم مشرقا ومغربا .

وتجلت هذه المعانى أثناء الاحتفال بالعيد المئوى فى القاهرة فى سبتمبر الماضى، فاشتركت فيه البلدان العربية ممثلة بمفكريها وأدبائها، ولفتت رسالة التنوير التى حملتها أسماع وأبصار الجميع.

وإذا كان من الطبيعى أن تحتفل القاهرة بأحد منابرها ، فاليوم تحتفل تونس بهذا العيد ، والذى يعنى نجاح رسالة «الهلال» ودوره ، وأقيم فى تونس بهذه المناسبة معرض للإصدارات المختلفة لدار الهلال ، وآخر للصور التاريخية التى ميزت أرشيف دار الهلال ، والمأخوذة عن «سجل الهلال المصور» ، وكان الاحتفال محل اهتمام كبير من السيد المنجى بوسنينه وزير الثقافة التونسى ، ومن السفير المصرى السيد إبراهيم علام ، وقامت السيدة خديجة كمون مديرة مركز الطاهر حداد الثقافى بدور بارز فى الإعداد للاحتفال ، وأيضا الأستاذ حامد إسماعيل المستشار الثقافى المصرى فى تونس ، الذى لولا جهوده المخلصة ما تم هذا الاحتفال بهذه الصورة المشرفة .

ويعتبر هذا الاحتفال ، الاحتفال الثالث بالعيد المئوى ، فسبق وشهدت لبنان احتفالا مشابها فى إنطلياس فى مارس من العام الماضى ، وتعبر هذه الاحتفالات جميعا عن تقدير الجهود المتواصلة للهلال لكى ترفع نير القرون الوسطى وظلامها عن كاهل الفكر العربى .

وكما كانت مجلة الهلال هى المجلة الثقافية الوحيدة التى عاشت تؤدى رسالتها مائة عام متصلة ، فهى أيضا المجلة الوحيدة التى احتفل بها فى ثلاث دول عربية .

لقاءات فكرية حول الهلال

وعلاوة على الاستقبالات والمعارض التى أقيمت بهذه المناسبة ، فقد شهدت مناقشات ولقاءات تتناول سيرة الهلال ، والتى أظهرت الرصيد الكبير للهلال ، التى توجد مجموعاتها على رفوف العديد من المكتبات الخاصة ، يورثها الأب لأبنائه ، ولم يكن غريبا المتابعة الدقيقة لما ينشر فى الهلال ، مع اختلاف هذه المتابعة فى المراحل المختلفة ، التى لم تكن فيها المجلة تصل إلى تونس إما لأسباب تتعلق بالتوزيع أو لأسباب سياسية . لذلك لم يكن غريبا تحيز البعض لمراحل قديمة للهلال .

وأمدنا اللقاء مع عدد من الكتاب والأجيال الشابة بذخيرة هامة للأيام

المقبلة، فمن الضرورى أن تستطلع المجلة بين وقت وآخر أراء القراء واهتماماتهم ، و «الهلال» عند عدد من المتحدثين ليست مجرد مجلة تكمل المائة عام ، إنما هى هرم شامخ للثقافة العربية ، تخاطب القراء ووراءها إبداع مائة سنة من الفكر والفن .

وتأتى أهمية «الهلال» من التفاف الكتاب حولها ، وأنها كانت تعبيرا عن المدارس الفكرية الجديدة والمتنوعة ، فمثلا بالنسبة لتونس احتفت فى كثير من مقالاتها ، بالمصلح خير الدين التونسى وبالشاعر أبى القاسم الشابى والشيخ عبدالعزيز جاويش (الشخصية التونسية التى لعبت دوراً بارزا فى الحياة السياسية المصرية) ، وكتب على صفحاتها الكثير من الكتاب من القطر الشقيق ، مثل الشيخ عبد العزيز الثعالبى «العلم والدين ، هل يتناقضان» (يونيو ١٩٣١) ، وهل نقتدى بتركيا (يوليو ١٩٣٥) والكاتب حسن حسنى عبد الوهاب والشاعر الكبير بيرم التونسى الذى عبر عن الروح المصرية أصدق تعبير وغيرهم كثير .

ومما قيل فى هذا اللقاء ، أن الاحتفال الحقيقى بأى عمل فكرى ، هو أن نعيد قراءته قراءة نقدية ، فإذا كان «الهلال» هو ديوان الثقافة العربية المعاصرة ، والتى أصبحت صفحاته مصدراً بارزا لكل الدراسات الفكرية والاجتماعية ، فهل يمكن أن تمدنا إعادة القراءة بتصور عن أسباب النكوص الحضارى وتراجع مشروع النهضة . ولماذا بعد نضال الرواد الفكرى الطويل، نعود ويبرز من جديد ذات القضايا التى تصورنا جميعا أنها حسمت وانتهت؟!

وقلت : إن استمرار الصحافة الثقافية والأدبية لهو دليل على ثبات التقدم فى المجتمع ، وهو ذاته الأمل فى ثبات التقدم الاجتماعى والسياسى والفكرى للوطن العربى ، واتساع مداه فيما تستقبله الأمة العربية من أيام .

ومن الظلم الفادح أن تتحمل الحياة الثقافية وحدها بعض ظواهر التراجع فى حياتنا ، وفى ذلك تجاهل للظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، المحلية والاقليمية والعالمية ، فانتقال الفكرة والرأى السديد من عقل الكاتب إلى أرض الواقع يمر بأوضاع اجتماعية معقدة ، والتغيير الاجتماعى له قوانينه التى لا يمكن للكاتب أن يتجاوزها ، وهى عملية أكثر تعقيداً وأبطأ تنفيذا من التقدم المادى .

وكان السؤال الذى تردد على ألسنة عدد من المتحدثين هو : كيف فعلتها الهلال، ونجحت فى البقاء مع تغير الظروف والأحوال ومرور الأيام ؟

أجبت : فى تصورى أن ذلك يعود إلى أن «الهلال» ملكت القدرة على التجدد ، وجمعت بين الحداثة وطول العمر ، تبحث عن الأصالة فى أى عصر وكل عصر ، مما أدى إلى التواصل الدائم مع الأجيال



الزرابى والمنتجات الصوفية أهم منتجات القيروان

الجديدة ، وإدراكها للترابط الوثيق بين الماضى والحاضر من أجل استشراق المستقبل .

كما أنه لا يمكن أن نغفل أن سر بقاء الهلال أنها انتقلت من مشروع فردى إلى مؤسسة كبيرة راسخة ، لها نظمها وآلياتها، التى تقدر بها على مواجهة الأخطار وتجاوز العثرات .

الهلال .. والمنظور العربى

وأخذ البعض على الهلال نقص المساهمات العربية ، وقلت : منذ صدور الهلال والمنظور الأساسى له منظور عربى، يؤمن بوحدة الفكر العربى ، ويسعى إلى المعرفة العميقة بالتجارب العربية ، وبعض النقص الذى شهدته بعض مراحله ، كان أحد نتائج التدهور فى العلاقات السياسية بين الدول العربية ، عندما تعرضت المطبوعات المصرية للمقاطعة العربية ، وهو ما لم يحدث أيام خضوع البلاد العربية للاستعمار .

وقبل نصف قرن ، كان الهلال مصدر الإشعاع الثقافى يتلألأ من القاهرة ، ثم تعددت المصادر فى البلدان العربية عاما بعد عام ، وتنوعت أشكال ومضامين التوجهات الفكرية لهذه المصادر ، وأصبح



ليلة العرس .. الجمل يحمل العروس فى احتفال جميل

فى كل قطر عربى مجلة ثقافية أو أدبية ، وتحول العالم كله إلى تعدد مراكز الإشعاع فى الثقافة، ولم يعد تعدد مصادر الإشعاع الثقافي فى حالة خاصة ، مع استبشارنا بكل مصباح للفكر .

فكانت باريس قديماً مدينة النور ، ولكنها اليوم مركز ضمن مراكز عديدة ، وأصبح العالم صغيرا واختصرت ثورة المواصلات والمعلومات المسافات التى كانت تفصل بين الأقطار والأفكار ، وأخذ العالم يتقارب ويتلاقى .

وهذا يتطلب من العرب جهداً مضاعفا، فلدى الأمة العربية ، ماهو مشترك ، والذى لا تتحكم فيه إلا عوامل التاريخ العميقة . وعلينا أن نتحرك مع العالم من حولنا وأن نبذل جهوداً أكبر لكى نحافظ وننمى ما هو مشترك ، وحتى يستمر التفاعل بين المدارس الفكرية العربية ، وهو مجهود متعدد الأطراف . فمن جانبنا فى الهلال علينا أن نتخطى الصعوبات الإدارية والمتعلقة بالتوزيع ، ولدينا خطط للقرن الثانى من عمر «الهلال» ، تقضى بأن نطبع الهلال فى أكثر من قطر عربى مستخدمين التقنية الحديثة ، ونتغلب على الكثير من صعوبات النقل والتوزيع ، لقد أمدتنا هذه الإحتفالات واللقاءات بقوة

رسالة تونس

جديدة لبذل مزيد من الجهد لكى تستمر الهلال تؤدى رسالتها كمنبر عربى يسعى إلى شيوع المعرفة وبناء الإنسان .

تونس بين الجغرافيا والتاريخ

أدرك أنه لا يمكن لك أن تتعرف على طبيعة وشخصية بلد إذا اكتفيت بزيارة العاصمة ، إنه مثل الاكتفاء برؤية واجهة المحلات ، لذلك حرصت على رؤية تونس الخضراء الوادعة ، أنعم بجوها وأشعر بخضرتها ، وأطرب لسماع موسيقاها وأنغامها ، وزرت من قبل معظم المدن التونسية ، ولم تتح لى فرصة زيارة القيروان ، منبع العروبة الصافى التى تمثل قطعة حية من التاريخ ، وأحد حصون العروبة والإسلام ، وثانى مدينة فى أفريقيا بعد الفسطاط ، التى لم تكتف بدورها كأحد الحصون العسكرية ، وأصبحت أحد الحصون الثقافية ، وسلاحها المتجدد هو الكلمة والفكرة ، ومادتها المعرفة والتجربة المتراكمة فى وجدان المغرب العربى كله ، فهى القلب والمركز الخلفى لكوكبة من المدن الساحلية ..

الطريق إلى القيروان ، مثل شبكة الطرق فى تونس، تصحبك أشجار الزيتون فى الروابى والوديان ، تزدهر الأشجار فى الربيع وزخات المطر تغسل كل ما حولك ، ترى حياة البسطاء على طبيعتها ، ولا يستغرق الطريق إليها سوى ساعتين بالسيارة .

نقترب من القيروان ، تطالعك صومعة جامع عقبة الشامخة وسط المدينة العتيقة ، وتقوم القيروان مثل مكة فى واد غير ذى زرع ، فهى ليست ملتقى طرق ، مما جعل العلامة ابن خلدون يدهشه المدن العربية ويقول فى مقدمته «أنظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان ، كيف لم يراعوا إلا مراعى إبلهم وما يقرب – من القفر ومسالك الظعن ، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعى للمدن ، وكانت مواطنها غير طبيعية للقرار (الاستقرار)، فلأول وهلة من انحلال أمرهم أتى عليها الخراب والانحلال» .

وهو يشير إلى تعرض القيروان للتخريب من أحد موجات بنى هلال وبنى سليم فى القرن الحادى عشر الميلادى ، عندما ورثت دورها كلا من تونس والمهدية، ولكن سرعان ما عادت إليها وظيفتها لتكون «فاس تونس» ، أى الحافظة على التراث والمدافعة عنه .

فهل فات المؤرخ الكبير ، الطبيعة العسكرية للقيروان ، يذكر حسن الوزان أو ليون الأفريقى فى كتابه «وصف أفريقيا» قصة المدينة ، يقول «القيروان مدينة أسسها عقبة بن نافع قائد جيوش الجزيرة العربية ، التى أرسلها ثالث الخلفاء

الراشدين عثمان بن عفان ، أقامها على بعد ستة وثلاثين ميلا من البحر ، ونحو مائة ميل من تونس ، وهدفه ضمان الأمن لجيشه ، وسور المدينة بسور جميل بناه بالآجر ، وشيد بها جامعاً عظيما عجيبا ، يقوم على أعمدة بهيجة من المرمر كأنه رخام .. ومنها انطلق موسى بن نصير نحو الغرب واستولى على عدة مدن حتى وصل إلى البحر المحيط» فإذا كانت الجغرافيا لا تفسر قيامها ، تجد التفسير فى التاريخ ، فقد أنشأها العرب الفاتحون عام ٥٠ هـ بعيداً عن البحر الذى لا قبل لهم بأخطاره، لتكون مدينة معسكر ، فالقيروان تعنى باللغة الفارسية المعسكر ، وهى عندهم حصن ونقطة انطلاق .

وتحولت القيروان مع الأيام إلى مركز حضارى هام ، ويعتز أبناؤها بأن مدينتهم أخرجت الكثير من العلماء الذين أضافوا إلى العلوم الكثير ، فعلماء القيروان هم الذين جعلوا من مسجد القرويين فى فاس جامعة كبرى وأعطوه اسمه ، فإن القرويين هم القيروانيون ، وأنه من القرويين خرج أساتذة جامع الزيتونة ، ويصل اعتزازهم إلى القول أن علماء القرويين هم الذين صحبوا جوهر الصقلى إلى القاهرة وأسسوا الجامع الأزهر. !

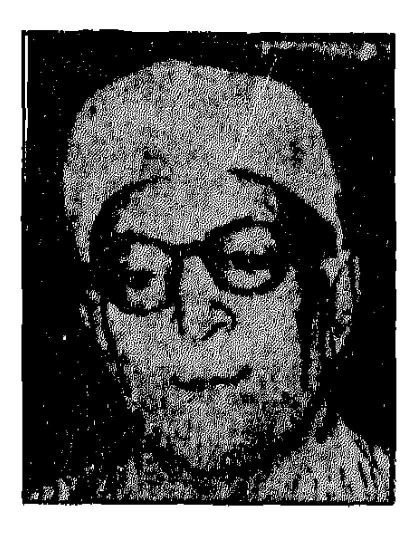
. تقود المنارة وقبة جامع عقبة كل من يقصد الجامع ، وترى أسوار القيروان فى شموخها ومتانة بنيانها ، وكأنك انتقلت فجأة إلى عصر آخر ، أصل إلى ساحة الجامع الذى يهيمن بجلاله على المكان الذى يزدحم بالسياح الأجانب ، وخاصة الشباب الذين قدموا إلى تونس فى عيد الفصح من إيطاليا القريبة .

تبهر عمارة الجامع السياح ، يتأملون الصومعة والقباب والأقواس والأعمدة والخطوط العربية والفسيفساء ، وتلحظ هنا كيف حققت العمارة الإسلامية المعادلة بين إقامة مسجد رائع والحفاظ على البساطة والوقار الصامت .

الجامع محور المدينة مثل كل المدن العربية ، وتعيش القيروان القديمة داخل الأسوار ، وتقوم حول الجامع الأحياء العتيقة ، الأزقة والأسواق والمكتبات والحمامات ، ويدور حوله كافة الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية .

وامتدت المدينة الحديثة خارج الأسوار وانتقل إليها مقر الوالى (المحافظ) ، تجد لمسة فن فى كل البيوت ، فحتى تلك البيوت المتواضعة لا تعدم لمسة فنية فى نافذة أو باب ، ومستوى النظافة والحفاظ على المدينة القديمة واضح .

أمضى فى جولتى أسمع وأرى وأتأمل، أدور فى دروب المدينة وأعود إلى الجامع ، ألاحظ بوابات المسجد المصنوعة من خشب الساج وذات الطابع العربى الخالص، وأول ما يواجهك داخل الجامع غابة الأعمدة والثريات على طول اتساعه ، فيخلق تشابه الأعمدة وتواليها شعورا عميقا بالتواصل والاستمرارية ، وأعطى الفراغ الفسيح الذى يتجلى فيه صفوف متراصة من الأعمدة جمالاً مميزا .



الخضر حسين ابن الزيتونة
الذى أصبح شيخاً للأزهر



خيـر الدين التـونسى
وحـركة الاصـلاح

المنارة أو الصومعة ، بناء مستقل شبيه بالبرج يقوم فى الجدار المواجهة لجدار القبلة ، وهذه الصومعة من أندر المآذن وأجملها فهى برج مربع من ثلاثة مستويات، والمسجد يكاد يكون حصنا فالجدران عالية سميكة مشدودة بدعامات .

وكما ذكرنا أقام عقبة بن نافع هذا الجامع عندما اختط القيروان بين سنتى ٥٠ - ٥٥ هـ ٦٧٠ - ٦٧٥ م ، ولم يكن المسجد أول الأمر سوى مساحة مسوره بسور سميك من اللبن على هيئة حصن ، جدده بعدها حسان بن النعمان ٨٠ هـ - ٦٩٤ م وجعل له أبراجاً على أركان سوره ، ثم جدد المسجد بعدها خمس مرات حتى وصل إلى صورته الحالية . وآخر من جدده إبراهيم بن أحمد ثامن أمراء بنى الأغلب سنة ٢٦١هـ / ٨٧٥ م .

وأبناء القيروان حريصون على مدينتهم، وهناك جمعية للحفاظ على الآثار وترميمها، وهى جمعية أهلية يرأسها السيد إبراهيم شبدح ، وحصلت الجمعية مؤخراً على جائزة أغاخان المعمارية لعملها المتصل على صيانة المدينة وآثارها منذ خمسة عشر عاماً .

والمدينة بحق متحف رائع رغم الغارات التى تشنها الحداثة على الأحياء العتيقة ، ومن يتجول فى دروبها يلاحظ استمرار القيام بوظائفها ، التى لا يمكن معرفتها إلا إذا عرفت طبيعة الحياة الاجتماعية التى كانت تقوم على نظام الأحباس (الأوقاف) ، والمحتسب ، ومعرفة الأفكار الأساسية التى أقيمت على أساسها ، فمثلا الطريق الواصل بين الجامع وبين باب أبى الربيع يشق وسط المدينة ، وأقرب الأسواق إلى الجامع هى الأسواق الأكثر نظافة والأقل تلوثا وجلبة مثل دكاكين



عبـــد العـــــزيز الثعـــالبى
رائد الحركة الوطنية



الامام محمد عبده فى زيارة إلى تونس

العطارة التى تبيع المسك والعنبر ، ومتاجر الملابس والأقمشة والزرابى ، ثم أخيراً أسواق النحاسين والنجارين .

وإحياء لعز القيروان ومجدها تم إقامة مركز علمى إسلامى ، جمعت فيه كافة المخطوطات الهامة ، ويقيم المركز ندوة إسلامية سنوية حول أحد القضايا الفكرية فى الإسلام .

وتشهد القيروان سنويا احتفالات كبيرة بذكرى المولد النبوى فى اليوم الثانى عشر من ربيع أول ، وتنتقل إليها تونس كلها ، رمزاً للعودة إلى المنابع .

وهنا يغلب التاريخ الجغرافيا .

فتسيطر تونس على وسط البحر المتوسط ، وبينها وبين أوروبا مرمى حجر ، وترى بالعين المجردة صقلية فى يوم صحو من الأراضى التونسية ، ولكن تاريخها يؤكد على العربية والعروبة والإسلام ، وتبقى القيروان هى التاريخ تستمد منها تونس جذورها وهويتها .

مصر وتونس

تلاحظ تشابها كبيرا فى مسيرة مصر وتونس ، فقديماً جاء الفتح العربى لشمال أفريقيا من مصر، وبعدها خرج الفاطميون من المهدية فى تونس ، وبدأت الخلافة الفاطمية فى القاهرة .

وبعدها ومع بداية الحروب الصليبية هاجم لويس التاسع بقواته مصر وتونس ، وأسرته القوات المصرية فى المنصورة ، وفى التاريخ القريب كانت كلا من مصر وتونس ولاية من ولايات الدولة العثمانية ، وكما استقل محمد على الكبير وأولاده بحكم مصر ، استقل باى تونس حسين بن على تركى وأولاده بحكم تونس .

رسالة تونس

وظهرت في وقت واحد دعوات الإصلاح في كلا البلدين في منتصف القرن التاسع عشر ، وهذا التشابه هو جزء من ظاهرة عامة تتناول التطور في الأقطار العربية جميعها .

شهدت تونس حركة إصلاح هامة بقيادة خير الدين التونسي (١٨٢٢ - ١٨٨٩) ، الذى أدرك ضرورة العمل على اللحاق بالعصر ، وهو السياسى الذى قام بجولات فى الكثير من البلدان العربية ، وسجل ملاحظاته في كتاب هام هو «أقوم المسالك فى أحوال الممالك» ، الذى كان صيحة تنبيه وبرنامج إصلاح ، تقوم فكرته على إدراك عميق أن المعرفة بلا جنسية ، وأن الحكمة ضالة المؤمن أنّا وجدها فهو أحق الناس بها ، وقامت دعوته على ضرورة التجديد والإصلاح حتى يكون الشرقي قادراً على الاستجابة لتحدى العصر ومواجهة التوسع الاستعمارى الأوروبى .

وكان مؤلفه صيحة لقومه يحفزهم خلالها على نبذ التخلف واللحاق بالعصر ، مقارنا الكثير من أوضاعهم بما تحقق فى البلاد الأوروبية ، وطالب بدلاً من الخوف العمل على أرضية الثقافة الوطنية ، حتى لا تصبح الشخصية الوطنية مسخ ، تقلد ولا تجدد ، تتبع ولا تبدع .

ويؤكد مشروعه أن تحديث المجتمع لا يمكن أن يتعارض مع الأصول الشرعية ، فالظروف تتغير وتتبدل وتأتينا بالجديد المفيد ، مما يقتضى إضافات شرعية وفقهية ، ولابد من تعاون أهل السياسة ورجال الشريعة فى تقنينها ، ولايمكن رفضها بحجة أنها مشروع جديد ، فليس كل جديد يتعارض مع الشريعة .. وثمة مصالح تمس الحاجة إليها ، بل تنزل منزلة الضرورة ، يحصل بها استقامة أمورهم وانتظام شئونهم لا يشهد لها من الشرع أصل خاص ، كما لا يشهد بردها ، بل أصول الشريعة تقتضيها إجمالاً وتلاحظها بعين الاعتبار ، فالجرى على مقتضيات مصالح الأمة ، والعمل بها حتى تحسن أحوال الرعية ، وتحرز قصب السبق فى مضمار التقدم..»

ويذكر فى موضع آخر من كتابه .. «لايمكن أن يكون متعارضا مع الشريعة كل ما يحتاج إليه اتفاق النخبة من حملة الشريعة ، ورجال عارفين بالسياسات ومصالح الأمة ، متبصرين فى الأحوال الداخلية والخارجية ومناشىء الضرر والنفع يتعاون مجمـــوع هؤلاء على نفع الأمة ..»

وهو يرى أنه لا تعارض بين الشريعة وما يستنبطه العقل البشرى من أحكام ، يقول : «إن المعرفة هى أساس التقدم ، وأن العلوم والمعرفة لايمكن تحقيقها إلا فى

مجتمع تسوده الحرية والعدالة ، وليس هناك ضمان لاستمرار حكم العدالة والحرية إلا بواسطة المؤسسات التمثيلية ..» ، واستطاع خير الدين وضع الكثير من أفكاره موضع التنفيذ ، وقام بتأسيس مجلس تونس كخطوة أولى نحو انشاء حكومه نيابية ، وعمل على نشر المعارف الحديثة ، فأقام المدرسة الحربية فى باردو، والمدرسة الصادقية لتدريس العلوم واللغات الأجنبية.

وليست هذه التجربة بعيدة عمّا جرى فى مصر، فالتشابه شديد والقضايا متقاربة ، وخير الدين فى تونس هو على باشا مبارك (١٨٢٣ - ١٨٩٣) فى مصر ، فأقام على باشا مبارك دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي ودار الكتب ، وقدم أفكاره فى كتاب «الخطط التوفيقية» وفى «المسامرات» و«قصة علم الدين» .

وجاءت حركة الإصلاح فى كل من مصر وتونس فى أوج المد الاستعمارى ، وانتهت بذات الطريق ، فكان الفرنسيون يتربصون بتونس ، والبريطانيون يتربصون بمصر .

ويأتى أسلوب السيطرة الفرنسية على تونس مشابها لأسلوب سيطرة بريطانيا على مصر ، واجهضت محاولة الإصلاح فى البلدين ، وكانت الذريعة واحدة وهى الديون الأجنبية ثم فرض الرقابة المالية التى أعقبها فرض السيطرة السياسية والعسكرية ، ففرضت فى تونس الضرائب الباهظة لسداد الدين الأجنبى ، وثار الشعب عندما شعر بفداحة العبء المالى ، واستغلت فرنسا الثورة لتعلن الحماية على تونس .

وهو ما وقع فى مصر وإن تغيرت الأسماء والأماكن ، فاحتلت فرنسا تونس عام ١٨٨١ ، واحتل البريطانيون مصر عام ١٨٨٢ .

وما أقدمه للقارئ ليس دراسة أو بحثا ، إنما مجرد ملاحظات تلفت انتباه من يستعرض مسيرة كل منهما ، ويعود ويبرز من جديد التشابه بعد الحرب العالمية الأولى، ويظهر حزب الوفد وزعيمه سعد زغلول ، ويظهر الحزب الدستورى بقيادة الشيخ عبدالعزيز الثعالبى ، الذى كانت تربطه علاقات وثيقة بالإمام الشيخ محمد عبده ، ويسافر الثعالبى إلى باريس فى أغسطس ١٩١٩ يقدم مطالب تونس إلى مؤتمر الصلح كما فعل سعد زغلول .

وترتفع صيحات فى تونس بعد تصريح ٤ فبراير تطالب بالاتحاد مع مصر.

كما يلفت الانتباه التشابه بين قاسم أمين والطاهر حداد الذى طالب كل منهما بحقوق المرأة .

ولا يفوت الملاحظ تلك الشخصيات التونسية التى لعبت دوراً هاما فى الحياة المصرية ، مثل عبدالعزيز جاويش والشيخ الخضر حسين الذى تولى مشيخة الأزهر عام ١٩٥٢ ، وأخيراً بيرم التونسى الذى تتنازعه البلدان ، فهو من أب تونسى وأم مصرية وعاش معظم حياته فى مصر .

وهذه الملاحظات لاتزيد على مقدمة للإمساك بأوجه التشابه بين مصر وتونس .

خبز طازة وساخن

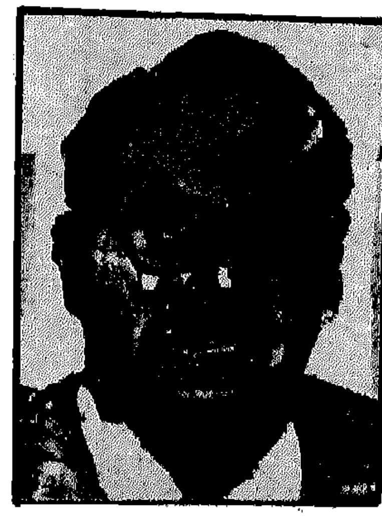
قصة قصيرة

بقلم:
محمد عبد الله الهادى

بريشة :
سميحة حسنين

طابور : ودفعه الرجل الذى خلفه ، بحركة لا إرادية ، أفاق الأستاذ صادق من شروده ، ارتمى بكل ثقله على الواقف أمامه ، لم يكن ثمة مجال للاعتذار لقد كان الطابور بحركته الدودية ما بين الانبساط والانكماش يبدو كيرقة أسطورية هائلة تغرس فكوكها فى ثقب «الكُشك»، تلتهم الزاد بنهم لم يشبع بعد .. وانفلت واحد من أمام الشباك يحتضن غنيمته من الخبز ملقيا نظرة أخيرة على الطابور بملامح تتشكل بعلامات الظفر، أخفى الأستاذ صادق - بعد التدافع والاصطدام - ارتباكه ، انشغل بتثبيت عويناته ، حملق للحظة فى زجاجة ساعته يستطلع الزمن وخاطب دواخلهُ : «هانت» .كان قد انسل من باب

قصيرة



المدرسة الخلفى منتهزا زمن «الحصة الاحتياطى» من جدوله فى بكور اليوم مؤملا الحصول على حاجته من الخبز قبل أن يمتد الطابوز أمام «الكشك» القريب من المدرسة ، لكن خاب رجاؤه لدى مطالعته الأجساد المنضغطة والمتحركة فى آن «كزنبرك» يتلوى ، وقف بالمؤخرة ، حملق فى زرقة السماء الصافية ، غيمات ربيعية ممزقة تعبر بهدوء لامبال ، تتشكل بوجوه خرافية وإنسانية غائمة ، طالع من بينها «ابن عروس» بوجه شاعر يغمز له ويلمز :

« ضربت الفرن بأيدى طارت غطايته .. هبت على ريحه الرغفان»

«مائة رغيف طويتهم بإيدى .. غير الملعبط وأبو حروف تخان»

امتزجت السخرية فى بسمة الأستاذ صادق وهو يهز رأسه بتؤدة ويخاطب نفسه :

« كل هذه الأرغفة ، غير الملعبط ، مرة واحدة يا رجل ! بالله عليكم أيها الأباء ، أى معدات تلك التى كانت تسكن بطونكم ؟! أين نحن منكم ؟ إننى لا أطلب من الله ولا يكثر سوى عشرة أرغفة لى وزوجتى وصفيرى حماده وذلك المجهول القابع فى رحمها .. »

فى الصباح لما رأته زوجته يتهيأ للخروج تحسست بكفها بطنها المتكور كبطيخة تذكره بشهور حملها وأنها لن تستطيع النزول والخروج ، اصطحب حماده للحضانة ولحق بطابور الصباح فى المدرسة متأخرا قليلا وحرجه الناظر بنظرة غضب تجاهلها .

انفلت رجل من الطابور ومرقت غيمة بيضاء واقتربت من قرص الشمس العالى ولامست حافته وزحفت فوقه ببطء فبدا فى عينيه كحبة قمح هائلة برة مشطورة طوليا وبانت أغلفتها القرنية والنشوية فعرف أن «التكنولوجيا» الحديثة أزاحت كثيرا من الأغلفة

لأغراض أخرى كى يصير الرغيف أبيض ناصعا منقوصا وانفلت رجل آخر ..

ذكرى : ثم إنفلتت إمرأة أخرى من الطابور ، كانت ريفية تتشح بالسواد السابغ وتلف رأسها بطرحة باهتة ، تذكر فى ملمحها أمه «زبيده» .. هناك فى قريتهم البعيدة ، اهتز قلبه فى مكمنه بهاجس الذكرى فحدث نفسه : «كم كانت طيبة القلب لحد السذاجة ، لا تعرف أغلفة للقمح ولا يحزنون عندما تقود دابتها التى تئن بوطأة الأجولة صوب المطحن» ، اهتزت فى بؤبؤ عينيه أعواد القمح تتماوج فى حقلهم والسنابل الذهبية تنوس برشاقة أخاذة للقلب الطفلى تحت الضوء الباهر ، كان يقفز فوق البتون الفاصلة للأحواض ، يتوقف عند سنبلة سوداء متفحمة ، يسحقها بأناملة ، يخط لنفسه شاربا تحت أنفه ويرسم ذقنا مهيبة ، يضحك ويقطع الجرن عدوا لاهثا ، يدرس بقدميه الحافيتين المتخلف من تبن المحصول الفائت، يدخل من باب الدار الواسع ، يفعمه عبق الدخان المتراكم المنفلت من حجرة الفرن ، تأخذه الفوضى البادية فى صحن الدار ، «عقادى» الحطب الجاف والقش المرمى ، الأم زبيدة والأخت الكبرى فاطمة والصغرى نجاة، الجارة العجوز «أم حميد» ، كلهن منهمكات ، مشغولات جدا تتناثر «ذرور» الدقيق من ثنايا وفضل ملبوساتهم الواسعة ، عاكفات على «لقان» العجين الفائر والذى يكاد ينسكب من حوافه ، يسمين باسم الله والنبى محمد ، يضرعن بحرارة الرجاء أن يطرح فيه البركة بعد عناء رحلة الطحن التى ضربت فيها زبيدة بطن «القادوس» بكفيها وهى تلقف الدقيق فى الجوال المعلق من فوهته ، رحلة النخل بالمناخل الحرير والسمعانى المعلقة فى مسمار « حدادى » بحجرة المعاش ، رحلة الرصد للسماء العالية عند مقدم الشهر العربى وعندما يبدو الهلال الوليد فى عينيها الكليلتين كمنجل لامع تهتف من نياط القلب «هل هلالك ، شهر مبارك» فتبدأ رحلة الخبز ، كانت «نجاة» تحمى الفرن وتلقم فتحته بالقش الملتوى فترعى النار ويهلل شيطانها تحت «العرصة» التى يتوهج وجهها



احمرارا فتمسح زبيدة غباره بالخرقة المبللة بينما تكون « أم حميدة » تفحص المطارح الخشبية وتختار أنسبها للخبز وتضع فاطمة طبق «السن» أمام أمها .

ألفى نفسه واقفا يتفرج كالناطور «لاشغلة ولا مشغلة» ، ثابت كالوتد أمام الحركة الدءوبة ما بين صحن الدار وأمام الفرن .. وعندما يتهيأن للخبز ينتبهن لوجوده .. تضحك زبيدة وتناديه ..

– «تعال .. أخبز لك «حنون» يا حبيبى » .

حنون : انفلت رجل آخر من الطابور وامرأة أخرى ووجد نفسه فجأة على بعد خطوة من الشباك فزفر زفرة حارة كعداء «المراثون» الذى انهكه طول السباق فلكزه الرجـــل الذى خلفـــه :

« هانت يا أستاذ » ..

انتبه لفراغ الكون المضبب والسحابة التى غطت وجه الشمس وحجبته فثبت عويناته بطرف أصبعه وفحص ساعته وأدرك أن «الحصة الاحتياطى» قدانتهت وأن عليه الآن الإسراع بأخذ الخبز «حراجة» التأخير فلن يشفع له سوى «عذر مقبول» كمرات سابقة مدموغا بستين قرشا ولن تنقـــــذه روح الدعابة الساخرة وهو يهز الأرغفة أمام طاولة الإشراف المدرسى عندما يقول مازحا : « أننى أفضل خبز القمح عن خبز الذرة لأن الأخير يسبب مرض البلاجرا » ، وأخيرا أطل من شباك الكشك على البائع الواقف فى الفراغ المعتم قليلا وناشده :

– « عشرة أرغفة وحياة والدك يا أخ » .

لكن البائع رفع السلة الأخيرة وهزها أمامه فبان قاعها وقال :

– « انتظر قليلا .. ستأتى عربة أخرى بالخبز حالا » .

إزدرد ترياقه ولم يرد وهرول صوب المدرسة تاركا الطابور .. جست زبيدة «العرصة» الحمراء المتوهجة ، خبطت المطرحة بكفها وغطت وجهها «بالسن» ومدتها

تحت قبضة أم حميد التي أفلتت كرة العجين فوق سرة المطرحة ، هزتها زبيدة ورفعتها وتلقفتها وضربت حافة المطرحة وبططتها وأدارتها ثم رمتها في الفم المستعر وهي تقول « باسم الله .. ثوان وسحبته «بالمصناع الحديد» والقته في حجر ثوبه وهو يتأفف من حرارته التي لسعت فخذيه فضحكت فاطمة ونجاة وابتسمت زبيدة :

– « الله ! .. الشارب الذي تحت أنفك .. ماذا يعني إذن ؟ شارب رجل أم أمرأة ؟ » .

فرد وهو يتأفف :

– « رجل » .

وأمسك بالحنون الساخن الذي يتصاعد بخاره .. الأرغفة تسحب وتتراص في بطن « المشنة» في طوابير طرية وملدنة .. كفاية شهر عربي كامل من هلال لهلال ، كان يقضم الحنون ويستشعر طعمه كالسكر .. وانفلت من باب المدرسة واخترق الفناء :

– « تأخير يا أستاذ صادق .. ليست أول مرة .. فصلك وزع إحتياطي على زميل .. أنا آسف عذرك غير مقبول».

تنبه لوجه المتكلم وللصوت المعادي الذي انتزع منه «الحنون» كان الناظر فخال وجهه كرغيف محروق بقاع سلةالكشك .. توقف أمام طاولة الاشراف ولم ينبس وهو يحدق في الناظر والمشرفين ثم قفل راجعا نحو باب المدرسة .

طابور : توقف أمام الكشك مرة أخرى ، كانت عربة الخبز تفرغ حمولتها كانت اليرقة الهائلة تتلوى أمامه « كزنبرك» وتغرس فكوكها في فتحة «الكشك» وقد استطالت مرة أخرى، وقف حائرا يسأل نفسه : هل من حقه الآن أن يكون في مقدمة الطابور التي تركها منذ لحظات أم يحتل المؤخرة بمنطق الطوابير ؟ ..

واتجه تلقائيا – دون أن يجيب نفسه – بخطوات آليه لمؤخرة الطابور ولسان حاله يعزيه : «الأمر سيان ، مادام العذر غير مقبول» .

وعندما انتظم في موقعه الجديد عاود النظر للسماء الزرقاء كعادته لعلها تلفه في أجوائها وتبحر به في فضاءات الذكرى الملونة ، لكنها خذلته فأحس بتبعة خيبته فلقد انقشعت السحابة التي كانت وقرص الشمس كان قد علا قليلا فأحس من موضعه بحموة الحر .

القصـــة القصـــيرة المصـــريـــة فى الستينيــــات

أحمد هاشم الشـــريف للمكـــان دور هـــام فى عـــدد من قصصـــه



بقلـــم :

د . سيد حامد النساج

أول قصة قصيرة نشرت لأحمد هاشم الشريف هى «الذباب لا يموت فى الطين» ؛ بالعدد الثالث من مجلة (القصة) مارس ١٩٦٤ . وأشارت المجلة إلى أن هذه القصة هى الفائزة بالجائزة الأولى لنادى القصة عن عام ١٩٦٣ . وأضافت المجلة أنه فاز بالجائزة الأولى عن عام ١٩٦٢ أيضاً . وفى العدد العاشر من هذه المجلة الصادر فى أكتوبر ١٩٦٤ نشرت له قصة «القمة» وهى الفائزة بالجائزة الأولى فى مسابقة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ١٩٦٤ – المجلس الأعلى للثقافة الآن – صفحة ١٤٢ .

ثم كانت أول مجموعة قصصية له بعنوان «وجه المدينة» ١٩٦٦ . كما شارك بأربع قصص قصار فى المجموعة القصصية التى صدرت عن دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بعنوان «الأحلام . الطيور . الكرنفال» مع كل من أحمد يونس وأحمد الخميسى . وهو الذى حرص على الاستمرار فى كتابة القصة القصيرة دون رفيقيه . أما مجموعته القصصية الثالثة فإنها صدرت فى فبراير ١٩٦٨ عن مؤسسة روز اليوسف بعنوان «قبل يوم القيامة» . وهى لون ساخر من الصور القصصية الخاطفة السريعة .

وتلتقط مجموعته الرابعة «بنت السنى» الصادرة فى يناير ١٩٨٩ ؛ نماذج لشخصيات ومواقف وأحداث تمثل - معاً - عصر الانفتاح الاقتصادى ، والمجموعتان الأخريان لا تتوفر فيهما خصائص القصة القصيرة الفنية . لذا فإن دوره الريادى ، وصوته الفنى ؛ ينطلقان من قصصه القصيرة المنشورة فى بداية الستينيات ؛ فى الصحف والمجلات ؛ ومن قصص المجموعتين اللتين أشرنا إليهما فى البداية. لقد أسهم إسهاماً ملحوظاً فى تطور فن القصة القصيرة فى بداية الستينيات . لكن الجيل القارئ - الآن - لا يعرف عن دوره شيئاً . لأن الذين تناولوا هذه الحقبة أغفلوا الإشارة إلى قصصه القصيرة ؛ وإلى آرائه التى كان يبديها فيما يتعلق بحركة الفكر والثقافة والفن والأدب .

جدير بالذكر أن أحمد هاشم الشريف لفت أنظار النقاد إليه ؛ إلى الحد الذى جعلنا نقرأ تعليق ثلاثة ممن كانوا مهتمين بتجارب المجددين من الشباب . وقد التقى ثلاثتهم حول قصة واحدة هى قصة «اللصوص».

وصفها ابراهيم فتحى فى مجلة «جاليرى ٦٨» بأنها «القصة الرائعة» . وقال عنها غالب هلسا فى نفس العدد : «ومن القصص الممتازة التى لا يتسع المجال هنا للحديث عنها كثيراً قصة احمد هاشم الشريف «اللصوص» . ويذهب الدكتور شكرى عياد إلى أنه «ليس فى وسعك أن تخطئ النسب بين قصة «اللصوص» وقصة «الزحام» ليوسف الشارونى ؛ وإن كان الشريف يبدأ من النقطة التى انتهى عندها يوسف الشارونى» . بينما تناول الدكتور محمد مندور قصة «حول الرقبة» فى مجلة «القصة» العدد ١٨ - يونيو ١٩٦٥ - صفحة رقم ٣٦ .

وهؤلاء جميعاً تعرضوا لقصة قصيرة واحدة ، دون ربطها بنتاج رفاقه من الشباب ، أو مقارنتها بما كتبه هو بعدئذ . فقصصه ومواقفه المعلنة الخاصة بالتجديد، والموقف من الأجيال السابقة ؛ وإنْ عبرت عن صوته ورؤيته الخاصة ؛ فإنما تدخل فى منظومة واحدة ، وتشكل تياراً جديداً ؛ أسهم فى تشكيل ملامحه ، وتحديد قسماته كل من محمد حافظ رجب وعز الدين نجيب وأحمد هاشم الشريف وضياء الشرقاوى وأحمد الشيخ ومحمد ابراهيم مبروك .

الشكل الملائم

وإذا كانت هنالك «أشكال» ما للتعبير ؛ فإن كلاً منها جاء محصلة ظروف عاشها الجيل الجديد بعامة ، كما خضع كل كاتب لظروفه الخاصة التى أفرزت «الشكل»

الملائم . وهى جميعاً تختلف عن «شكل» الكتابة القصصية الواقعية الاشتراكية ، الذى ساد فى الخمسينيات .

خطا أحمد هاشم الشريف أولى خطواته نحو التيار الجديد من خلال قصته الأولى المنشورة «الذباب لا يموت فى الطين» ؛ من حيث اختلاف ملامح البطل ، والإحساس بالملل ، والاختناق ، ورتابة الحياة ، ومحاولة الخلاص من الحصار والأزمة الفردية التى يعانى منها كل من الطبيب ، والبغى ، والذبابة . ومفردات الواقع العفن المرفوض من قِبَل كلٍ . وتكثيف اللحظة ، بواسطة وحدة الموقف النفسى ، ووحدة المكان ، ووحدة الهدف ، ووحدة الانطباع .

إن الكاتب يقتحم على الطبيب أعماقه الشعورية ، وكذلك البغى . ثم صراع الذبابة مع القوة الخارجية ، للانفلات ، من أسر الحصار الخانق . وقد كان داعياً حين لم يجعل الطبيب هو الشخصية المحورية ؛ إذ جمع بينه وبين البغى والذبابة فى وحدة موضوعية . لم يطغ عنصر على الآخر . وإحساس الطبيب بالغثيان ، والميل الدائم للقئ ، لا يقل عن أزمة الذبابة إبان حصارها وصراعها مع النافذة كى تخرج. وكما أنه جاء إلى المكان رغماً عنه ؛ فإن البغى قد أتت إليه طالبة الإذن بالترخيص لممارسة مهنتها القذرة وهى كارهة مريضة، غير قادرة على المقاومة ؛ ولا أمل فى الخلاص . كذلك كانت الذبابة .

ونظرة الطبيب إلى الذبابة على أنها ولدت فى الطين ؛ فلا ينبغى لها إلاّ أن تعيش وتموت فى الطين ؛ هى نفس النظرة للبغى ؛ إذ يعتبرها ذبابة ولدت فى البرك ، وعاشت على أكوام الزبالة ، لتزعج الناس بطنينها . وهما معاً يعكسان رؤيته للواقع الذى هو جزء منه . ثلاثتهم محاصر بمجموعة عوامل ضاغطة . كما أن ثلاثتهم مريض نفسياً ويقاوم القوى الخارجية التى تضغط وتكتم الأنفاس . ومن غير تعقيد أو التواء ، استطاع الكاتب بلورة الأزمة العامة ، متكئاً على الأزمة الخاصة بكلٍ ؛ ممَّا وحَّد بينهم فى الموقف الذى صوره ، حتى جاءت لحظة الانفراج بالنسبة للواحد متزامنة مع الآخر .

بعدئذ أخذت القصة القصيرة عنده تحمل دلالات موقف من الواقع ، ومن الناس ، ومن الأشياء . وتركز على علاقة الجماعة بالفرد ؛ وهى العلاقة التى ينجم عنها إحساسه بالعبث ، وشعوره بالوحدة والغربة ، والخوف ، والاختناق ؛ وغلبة الكوابيس والاحلام . ووعيه الدائم

بالمطاردة التى تلاحقه ، وهى دلالات تجسدها قصص : اللصوص - الوهم - حول الرقبة - الطيور - لعبة القش - عابر طريق - الغرق فى النهر - تحت المطر - القمة - الأمير والبحر . كذلك فإنها تتوافق مع ما اتجهت إليه قصص زملائه ، متناغمة معها فى لحن واحد . مما قد يدل على أن الظروف الموضوعية التى أحاطت بهم كانت واحدة ، وذات تأثير قوى .

فقصة «اللصوص» تكثيف لضغوط اجتماعية ، ولدت مشاعر الخوف ، وعدم الأمن ، والمطاردة ؛ من خلال عالم ملئ بالأحلام والكوابيس والرعب . حيث اللصوص فى كل مكان : فى الشارع ، وفى السيارة العامة ؛ لكن الكل يتعقب «البطل» ويرصد حركاته . الكل ضد الواحد الفرد ، ولا أحد يفعل شيئا ، عمال المخبز يتابعون اللص وهو يعتدى على التاجر دون أن يتحركوا ، و «الحلم» فى هذه القصة عنصر رئيسى يقابل الواقع بمنطق خاص لايقل صدقاً ومعقولية عن الواقع المادى المتحرك ، وكأنه ليس ثمة فارق بين الحقيقة الواقعية وبين الحلم الذى لم يعد مجرد وهم أو كابوس ، أو تابع لعالم الواقع ، أو صدى للرغبات المكبوتة ، ووفقاً لرؤية الكاتب فإن الواقع الخارجى هو «الوهم» وهو «الحلم» وهو «الكابوس» . والناس يؤدون أدوارهم فى الحياة الواقعية وهم فى حالة «حلم» و«كابوسية» .

وأحد شخصيات قصة «الوهم» - وانظر إلى اختيار العنوان - الذى يروى القصة يقول : (قررت أن أتخلى عن خوفى وارتيابى) ص ٩١ . فالشك والتوجس والخوف علامات بارزة لشخصيات قلقة ، لوجود الرقابة والمتابعة ، والحصار . تقول إحدى الشخصيات : (لقد نجحت الخطة أخيراً ، وتبددت أوهامى ومخاوفى عن ذلك الرقيب المجهول الذى كنت أخشاه وأعمل له ألف حساب ؛ ولم يبق أمامى إلاَّ أن أواجه الحقيقة الوحيدة التى جئت من أجلها مع صديقى إلى هذا المكان ، حقيقة المرأة التى تبعناها من شارع الجنزورى ، وأحطناها بالظن والتخمين ؛ أيمكن أن تكون هى الأخرى وهماً بالنسبة إلينا) ص٩٧ و«الخوف» هو الشعور الغالب على شخصيات قصة «القمة» : الزوج ، الزوجة ، الطفل المريض ، السيدة الأجنبية . لدرجة أنه أذهل الأم عن طفلها المريض . وأمام الإحساس بالخوف اختل العقل وشلت حركته تماماً . بعد أن كان يؤمن بأن العقل قوة هائلة لا يستهان بها ؛ حتى وإن

أحاطت بالإنسان ظروف قاسية كالتى مرت به . وعلى أساس «الخوف» تجرى قصة «الأمير والبحر» . حيث نقرأ بعض هذه النصوص : «وكلما هبت الريح أو استمر هطول المطر بضعة أيام ازددنا انكماشاً حول القصر وقد أحاط بنا الخوف» . ثم «وتحت تأثير الخوف وتلاصق بيوتنا حول القصر بدأنا نشعر بأننا نعيش فى جزيرة وليس فى مدينة وسط الصحراء» ص٥٠ . و«كان الأمير غاضباً علينا لأننا نخاف» ص٥١ . وبسبب الخوف يفقد الإنسان - الفرد قدرته على أداء عمل إيجابى ، واتخاذ موقف مؤثر .

فى مثل هذا العالم العبثى يموت الناس من الضجر والملل والضيق بالانتظار. وفيه أيضاً يفقد كل إنسان حيلته ووعيه . فلا عقل ولا قوة ولا فعل . هذا ما تصوره قصة «لعبة القش» . لحظة عبثية فى حياة مجموعة من الأفراد - داخل أحد البارات - فى أوضاع مقلوبة وغير معقولة .

لا استواء فيها ولا شفافية . رخام الترابيزة . مروحة السقف التى تعكس صورتها . اللوح الزجاجى إلى يسار البار يعكس الصورة مكسورة . النصف الأعلى للداخلين . صوت أم كلثوم وقد فقد معناه . هنا تبدو العلاقات مبتورة ، غير سوية ، لا تعاطف ، لا تواصل . وثمة شىء خفى غير مفهوم يتحكم فى مصائر الجميع .

وحدة موضوعية

ويلخص لنا الرجل - القش رؤيته للواقع الحياتى المجتمعى فى قوله : (لا شىء حقيقى فى حياتنا . نحن نعيش حياة الآخرين . نحن نقلدهم .. أنت تتحدث كالبغايا .. كل الكراسى بغايا) ص٥٧ . الرجال الجوف ، كالأشياء والكراسى ؛ حديثهم حديث البغى والإفك . لأنهم بلا قدرة على العطاء ، والإنجاب ، والإثمار الطبيعى . هنا يعيش الفرد حياة أشبه بحياة الطحالب التى لا جذور لها ولا فروع - مثل بطل البيركامى فى أسطورة سزيف - فلا زوجة ، ولا أهل ، ولا ولد . يعيش حياة بلا هدف . وموقفه من كل ما يمارسه من أفعال ظاهرة للناس هو موقف الحيوان الذى يعيش فى اللحظة ؛ ويستجيب لدوافعها مع إحساس عميق بعدم الجدوى - وبأن الحياة بكل ما فيها خالية من المعنى . عندئذ يصبح الغثيان من الوجود كله هو الإحساس السائد لدى الفرد . وهذا ما نلاحظه هنا . غثيان جسدى هو التعبير العضوى عن الاشمئزاز من عدم جدوى

الحياة ، ومن ضياع الإنسان فيها .

ها هو ذا بطل قصة «الغرق فى النهر» لم يستطع أن يكتم صرخة ألم وسط الزحام : (قلت للناس وعينى فى عينهم : أنتم جثث بلا أكفان . يا فرحة ديدان الأرض بكم - يا فرحتها) ص٦ مجموعة (وجه المدينة) .

وفى مجموعة «وجه المدينة» صور كثيرة مقلوبة . الإنسان المضغوط حتى بأقدام الخدم ووخز النمل . حالات تبدو غير مترابطة وهى تعبر عن مواقف فى حياة الشخصية المحورية ؛ لكنها تتجمع فى النهاية لتبلور موقفاً يعيشه الفرد المأزوم وحيداً غريباً فى غرفة مغلقة ؛ حيث الكآبة والهموم والضيق والاختناق . وغريباً فى الشارع حيث الجثث التى بلا أكفان ، والانهيار ، والتصدع ، والزفير المتصاعد من الأنوف الملوثة ؛ فكيف يتحقق فى هذا الواقع المشحون التى تزكم رائحته الأنوف، أى قدر من السعادة ؟ لا أمل .

ويزداد موقف الفرد تعقيداً ، وتحيط به الكوابيس ، منذ الفقرة الأولى فى قصة «حول الرقبة» ، حيث نواجه بالعجز ، والزحام ، والخنق ، من جانب الإنسان فى مواجهة أيد كثيرة قوية ضاربة تجذبه من كل ناحية ، وأكف تلطمه غاضبة ، مترعدة، وعيون شرسة تلتهمه من ثنايا الشرفات . ولا يجد خلاصاً حتى فى الحلم الذى يفرض عليه ما يروعه ، فيأتيه بمن ماتوا وكانوا قساة مزعجين وحوشاً . يحملونه إلى قاعة المحكمة ، ويضعونه وراء القضبان . ويتساءل عن معنى مطاردة الكابوس له ثلاث ليال .

ولا أثر للجماعة إلا من حيث إنها تشل الفرد عن الحركة . توئد محاولاته للانطلاق لممارسة حريته . تناصبه العداء بلا أية أسباب ظاهرة . تمتنع من أن تمد له يد العون . بل إنها تنسج حوله خيوط العنكبوت التى تحاصره فيها . تحرمه من الحركة ، والتفكير ، والتنفس . لقد تجمع الناس كى يلقوا بالكناس فى حوض النافورة . والأمير أغرق الآخرين فى البحر. والجميع فى قصة «الطيور» نهاشون كالطيور الجارحة . إذ إن الفرد يتمزق بأنياب الجماعة بمثل ما تفتك الطيور بصغيراتها تحت السرير . وفوق المائدة، وفى السماء .

وتلزم الإشارة إلى أن هذا الكاتب

يستخدم فى سبيل تقديم هذا العالم العبثى اللامعقول ، صوراً غير معقدة ؛ وإنْ بدت متناثرة ممّا يوحى بعدم انسجامها ؛ فإنها عند إعادة تركيبها فى ذهن القارئ تتجلى دقيقة منظمة . وتشكل وحدة فنية وموضوعية .

كما أفادته اللغة الملتحمة مع التجربة ، والأسلوب الدال على المواقف النفسية ، وحالة الضياع ، أو التوهان ، أو القلق والهياج والتوتر ، والكاتب لا يستعين بهذا التكنيك لمجرد الصنعة ؛ أو وسيلة لتزويق القصة ببعض الألعاب النارية التى تسطع ملونة فى الفضاء . ولكنه جعله أداةً خاصة به ، يملكها هو ، ليسبر بها أغوار المادة ، وقياس أبعادها ؛ تهيئة لاستكشاف قيمتها وتحديد معناها .

كما ينبغى التأكيد على دور المكان فى القصة القصيرة عند أحمد هاشم الشريف. إذ إن له أهمية بالغة فى بعض القصص مثل : الذباب لا يموت فى الطين - القمة - اللصوص - تحت المطر - حول الرقبة - الغرق فى النهر - لعبة القش - الطيور - عابر طريق . بالإضافة إلى أهمية الشارع وحدوده الفاصلة وما يجرى فيه . وكذلك ميدان التحرير ، وميدان العتبة. وممّا يلاحظه القارئ أيضاً ولع الكاتب بالرقم (٣) ؛ الذى يمثل الزمن المفضل فى تحديد الإطار الزمانى للفعل . أم إنه ذروة التشاؤم ؛ وهو الانطباع الغالب على جو معظم القصص . ومن اللافت تكرار شخصية البواب ، والزوجة المتوفاة ، بذكرياتها وصورها ؛ والخطيبة الجديدة .

حاول الكاتب تسخير كل قدراته الفنية، وإمكاناته الفكرية ، فى ضوء وعيه التام بواقع الحياة فى مجتمعه ، لكى يكون صادقاً مع ما يستشعره ، وأميناً فى نقل رؤياه للقارئ الذى يعيش نفس الواقع فى حركته الدائمة ، وصراعاته المستمرة ، وضغوطه الطاغية . ولأنه كاتب موهوب ، فإنه كان أفقاً جديداً يرى القارئ من خلاله الناس ، والأشياء ، والعلاقات . ولأنه ثائر على القديم والأساليب التقليدية ؛ فإنه راح يبحث عن الشكل الملائم - فنياً - للعالم المقلوب الذى يرفضه .

ولعلنا نلاحظ أن آخر جملة فى قصته «الطيور» هى : (لو أن الرحلة بدون منظم لكانت أجمل) ص٣٦ . إذ إنه يرفض القيود فى الحركة ، والرحلة ، والفن . ويدعو إلى حرية الفرد : إنساناً وكاتباً

وفناناً . دون أن تثقل كاهله تعليمات أو توجيهات قيادية تصدر عن منظم أو قائد أو رئيس أو ناقد أدبى . لأنه يريد – بالفن – أن يتحرك حركة واسعة تساعده على الإدراك والفهم والوعى بكل الطاقات والإمكانات المحدودة فى الحاضر ؛ من أجل تجاوزها إلى واقع أرحب وأكثر إنسانية وتقدماً .

وهو فى كل هذا يحرص على أن يكون صادقاً . فالصدق هو مضمون موهبة الكاتب ، وجزء لا يتجزأ منها . إما أن يكون موجوداً وإما ألاّ يكون !

لقد أجاد أحمد هاشم الشريف تصوير العلاقة بين الفرد المأزوم والجماعة القاتلة ؛ فى شكل غير مألوف ولا إنسانية فيه «كانوا يأكلون جثة منتفخة البطن بأمر من منظم الرحلة» ص٢٥ من مجموعة (الأحلام . الطيور . الكرنفال) . لا شىء يمكن الحرص عليه والتمسك به . ومن هنا تأتى أزمة الفرد . ويكون التفكير فى «الموت» هو الخلاص الوحيد . «إذا استمرت هذه المضايقات تلاحقنى فسوف أشنق نفسى ، بكل هدوء سوف أشنق نفسى» ص٣٣ . رائحة الموت ؛ وجثث الأفراد ، والديدان التى تحفر الثقوب عند انتفاخ البطن ، والأحلام الكابوسية ، والمفردات العبثية ، وعناصر الواقع اللامعقول ، خنقت أنفاس الكائن الفرد ، وزكمت أنفه ، وشنقت صوته ، وقتلت كل نبض فى قلبه ، فأسرع إلى الموت بكامل إرادته . وهذا هو الفعل الإرادى الوحيد الذى يصدر عنه . وبخاصة أنه إنسان عادى ، يتعامل مع البوابين ، والكناسين ، ورواد المقهى ، والمحصل ، وغيرهم من الناس الطيبين الذين يعيشون فى سعادة من فراغ عقولهم . ويخلفون وراءهم أجيالاً تحمل نفس الصفات .

رؤية للنهوض بالمسرح الحر

بقلم : مهدى الحسينى



فرقة السويس تقدم مسرحية «كارثة»

كانت العروض التى قدمت خلال هذه الدورة مختارة من بين ما يزيد على خمسين مشروعا (بروفة جنرال) بعد مشاهدة دقيقة باحثة عن التميز والموهبة وروح الاكتشاف والآفاق المتحررة ، فمنذ أول مارس وحتى ٢٦ منه ، واظبت لجنة المشاهدة على متابعة هذه المشروعات واحداً بعد الآخر وفحصها على الأسس التالية :

١ - حسن استخدام المفردات المسرحية .

على مدى ثلاثة أيام عقدت بمركز الهناجر للفنون الدورة الثالثة لمهرجان فرق الجماعات المسرحية الحرة ، قدمت خلالها عشر فرق ثلاثة عشر عرضا مسرحيا .. يقدم مهدى الحسينى رئيس هذه الدورة رؤيته لكل فعاليات هذه الدورة إيجابا وسلبا .



هبط الملاك فى بابل .. إخراج خالد جلال

ولتحقيق هذا المنهج وضعت لجنة المشاهدة خطة عملها على النحو التالى :

١ - المشاهدة على الأسس السابقة فى كل متجانس ، أى مراعاة وحدة الأثر العام للعرض ، ثم اختيار العروض التى

٢ - الجمال والاتساق الفنى .

٣ - الخبرة والابتكار فى شغل الفراغ المسرحى .

٤ - مدى جدية الجماعة فى الإحاطة بالجوانب المتعددة للموضوع الذى تقدمه .

رؤية للنهوض بالمسرح الحر

تزيد جودتها على ٧٠ ٪ فى نوعها الفنى ، وقياساً على المستوى العام .

٢ - عقد ندوة نقدية مع الفرقة لمناقشة جوانب العرض المختلفة مناقشة تفصيلية ، حيث يتم التأكيد على نواحى القوة ، ثم التنبيه إلى نواحى النقص، ولا مانع من أن يثار جدل موضوعى حول نقاط الخلاف أو التباين فى الرأى ، كما تُقترح بعض التعديلات أو الاختصارات التى تجاوز عيوب المشروع إن وجدت ، مع ترك الحرية المطلقة للمخرج ولأعضاء فرقته ، لاختيار مالا يخل بالرؤية الأصلية لعملهم . وكثيرا ما توسعت المناقشات مع هؤلاء الشباب حتى تناولت أموراً فنية عامة مثل : موضوع العرض ، مصادر الابداع ، مناهج الابداع ، الجمهور .. الخ .

٣ - مشاهدة بعض العروض مرة ثانية وأحيانا ثالثة ، بعد فترة مناسبة إذا ما رأت اللجنة أن العرض سوف يرتفع مستواه بعد إجراء التعديلات المقترحة .

لذا جاء اختيار اللجنة نهائيا لخمسة عروض هى :

١ - حكى شعبى .. لفرقة الورشة

٢ - اسكتشات حياتية .. لفرقة القافلة

٣ - بجد .. بجنون .. بعمق .. لفرقة القافلة .

٤ - هرمونيكا .. لفرقة سايكودراما

٥ - هذا هو أنفى .. لفرقة الحاوى

كما طالبت اللجنة إعادة عرضين فقط بغرض الاختصار هما :

١ - هبط الملاك فى بابل .. لفرقة لقاء

٢ - المخبأ فى الجراج.. لفرقة الجوقة

هذا وقد اعتذرت الأخيرة عن المشاركة بسبب عدم اقتناع المخرج / المؤلف بالاختصار الذى طلبته اللجنة !!

أما العروض التى طلبنا اعادتها بعد تعديلات فنية فكانت سبعة :

١ - دير جبل الطير .. لفرقة الشظية والاقتراب

٢ - عقد مع الشيطان .. لفرقة تجارة القاهرة

٣ - كارثة .. لفرقة السويس الحرة

٤ - مشاجرة رباعية .. لفرقة اللقاء

٥ - حفلة للمجانين .. لفرقة فنون جميلة .

٦ - الدراويش يبحثون عن الحقيقة .. لفرقة الحرية .

٧ - البيانو ... لفرقة الضوء

وقد رأت اللجنة اعطاء فرصة اعادة لعرض «فانتازيا شكسبيرية» لفرقة مختبر القناة بالاسماعيلية حرصا على توسيع دائرة الحوار الفنى بين الفرق ، غير أن الوقت لم يسعف هذه الفرقة كى تتمكن من التجويد والتعديل المطلوبين ، وهذا العرض مثله مثل عروض أخرى كان بإمكانها الحصول على فرص للعرض داخل

المهرجان أو على هامشه لو أن :

١ - بكرت هذه الفرق بعرض مشروعاتها ، وبادرت بالأخذ بمقترحات لجنة المشاهدة التي كان من مهامها متابعة تلك العروض حتى تصل إلى المستوى المطلوب ، خاصة أنه قد لوحظ أن بعضها قد صنع على عجل خصيصا للمشاركة في المهرجان .

٢ - لم يعلن مركز الهناجر عن قبوله لعشرة عروض فقط ولمدة خمسة أيام ، بينما كنا في حاجة إلى عشرة أيام ولعشرين عرضا على الأقل .

٣ - لم يمتنع المركز عن منحنا قاعة المعرض فلو كان لدينا فسحة من المكان - فضلا عن الوقت - لكنا وزعنا عروضنا في مرونة ولأقمنا برنامجا آخر على هامش المهرجان الأساسي .

إن حاجتنا إلى برنامج (الهامشى) كانت ماسة ، فكم من مواهب ، وكم من لمحات فنية وعناصر إبداعية قابلناها في ثنايا العروض المستبعدة ، تلك التي عابها فقدانها للبوصلة : «المعرفة والحرية» اللذان ينتجان : «الوعي والجمال» .. تلك العناصر في حاجة إلى فرص لتطوير ذاتها بالتعرف على عيوبها كي تتخطاها من خلال النقد الواعي والممارسة والاحتكاك بجمهور محدود ، وهم أبناؤنا في عطش إلى الرعاية والتنمية .. وإلى بصيص من الضوء .

بانوراما متنوعة

وحين عمدنا إلى تحييد ذوقنا الجمالي الخاص وحجبنا آراءنا الشخصية وتحيزاتنا ، فإننا نجحنا في اختيار أفضل ثلاثة عشر عرضا إذ اخترنا الأكثر نموذجية من كل صنف أو لون ، فمن شهد المهرجان ، إنما شهد بانوراما لتجارب متنوعة يربطها خيط واحد هو بعض هموم هذا الجيل واهتماماته ، وجانب من رؤاه وذوقه الجمالي ، أو بمعنى آخر يشكل المهرجان خريطة لعوالم الفن المسرحي كما يراها جانب من الجيل الجديد المسرحي .

لن نبحر في الحلم هنا ، فنتحدث عن جماليات مسرحية مصرية جديدة فهذا أمر لم يتبين لنا بعد إلا أن هناك ما يمكن أن نسميه لمحات أو عوالم أو إشارات أو أفكار أو مقترحات أو نوايا أو مطامح أو أنواق ، والأمر كله مرهون باستمرار هذه الحركة لسنوات لا نعرف عددها ، شريطة ألا يخضع استقلالها وحريتها لاستقطاب أو ضغط أو إغراء ، وألا تستجيب هي لنزعات الغرور أو التعالي والسرور الذاتي والاحساس المغالي بالتميز .

إن هذه الدورة الثالثة ليست إلا نهاية مرجوة للمرحلة الأولى من تاريخ هذا الكيان وهي مرحلة التجميع والحشد والدعاية واكتشاف الأفكار الرئيسية والاعلان عنها ، مجرد تلمس الصيغة المناسبة من أجل حركة مسرحية مستقلة ، ومتميزة فنيا وفكريا ، وذلك كرد جدلي على الوضع المسرحي المتردي القائم .

أما المرحلة القادمة ، ولا ندري كم من

رؤية للنهوض بالمسرح الحر

السنين تستغرقها ، فقد تكون أعواما قليلة حين تكون سنوات فى حياة الشعوب أياما وقد تكون دهراً حين يكون الأمر العكس ، إلا أننا نرتكز بصفة أساسية - لا وحيدة - على اقتراح تحدثت عنه د . هدى وصفى عن مسرحية تاريخ مصر فى فترة حرجة وغنية تبدأ من حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ وتنتهى فى ٢٣ يوليو من نفس العام وقد حركتنى الفكرة فوضعت لها برنامجا تنفيذيا يستغرق عاما كاملا .. عبارة عن :

أ - مطبوعات :

١ - ثبت باليوميات مصدره الأساسى الوقائع المصرية .

٢ - ثبت بالشخصيات الهامة والعامة

٣ - ثبت بالمصادر الكلاسيكية من كتب ووثائق .

٤ - ثبت بالصحف والمجلات

ب - حلقة بحث يحاضر فيها أساتذة التاريخ وتستغرق ثلاثة أشهر .. وتطبع وثائقها وتوزع .

ج - حلقة بحث يحاضر فيها أساتذة التأليف والنقد المسرحى مركزين على التاريخ كمصدر إبداعى وتستغرق ثلاثة أشهر وتطبع وثائقها وتوزع .

ء - حلقة بحث عن متعلقات فن التأليف والاعداد والصياغة المسرحية ويحاضر فيها كتاب ونقاد المسرح .. وتستغرق ثلاثة أشهر وتطبع وثائقها وتوزع

هـ - تترك الأشهر الثلاثة الأخيرة للفرق ومخرجيها ومؤليفها كى يقيموا مشروعات عروضهم .

وإننى لأنطلق - موسعا الاقتراح السابق - إلى مسرحة المكان والزمان ، فشبرا الخيمة على سبيل المثال (وقد ورد لنا منها ست فرق تضم ١٥٠ عضوا ولم يتم اختيار أى منها) فكان يمكن مسرحة تاريخه البعيد والقريب ، البعيد الوارد عند المقريزى وغيره ، والقريب الوارد عند د. رؤوف عباس وغيره أيضا ، وفى إطار هذا المشروع يستطيع أهل أى مكان أن ينظروا فى زمانهم أى تاريخهم .. ثم يمسرحون هذا التاريخ وفقاً لمأثورهم الثقافى والفنى ، مع الاستعانة بنفر من (المتعلمين) وبمعونة منشطين مسرحيين وهم منتشرون ضمن موظفى الثقافة الجماهيرية ووزارة الشباب والتربية والتعليم والشئون والجامعات وغير ذلك .

وتتيح التطورات (التسهيلات) التى يتسم بها المسرح الحديث ، فرصة واسعة ومرنة للفرقة المسرحية الحرة أن تقدم عروضها فى حجرات وفى فصول المدارس وفى عنابر المصانع وفى أجران وفى دور الضيافة وغير ذلك من الأماكن مع الاستعانة بحيل مبتكرة فى الاضاءة والصوت والتجهيزات المسرحية .

ولأنه ليس من أغراضنا فتح الباب



وهبسط المسلاك فسي بسابسل

لحركة فنية غوغائية هوجاء ، فإننا نضع أسساً ضرورية يجب أن تقوم على أعمدتها تلك الحركة الجديدة :

١ - تنمية مختلف الجوانب المهارية (الصوت - الجسد - الاتصال) من خلال الورش التدريبية الجماعية .

٢ - تعميق الجوانب المعرفية لدى كافة المشاركين فى انتاج العروض ، بواسطة المحاضرات والندوات والمناظرات وحلقات البحث ، والمسابقات ، والمطبوعات ، وتشجيعهم على التعامل مع المكتبة . مع التركيز على المصادر التى تخدم موضوع مسرحيتهم التى اختاروها .

٣ - الانتاج الفنى وفقا لخطوات موضوعية متمهلة ، خطوة بعد خطوة ، ابتداء من الاختيار الجماعى للفكرة ودراستها بدقة ووعى تمهيداً لتحويلها إلى نص وخطة عمل فنية إلى بروفات .. حتى يتكون العرض .

٤ - احاطة الفرقة بصفوة من الأصدقاء من ذوى العلم والرأى ، فليست الفرقة المسرحية كيانا ناشزا أو زائدة اجتماعية ، بل بؤرة فنية وثقافية ومركز تجمع وإشعاع .

٥ - أن تدرس الفرق مناهج التوجه إلي الآخر ، خاصة فى الأمور المختلف عليها ليس بقصد الانقسام وإنما بقصد الوحدة وكسب المزيد من المناصرين ، وأن تتعلم فن مخاطبة الجمهور خاصة ما اصطلح على تسميته بالأغلبية الصامتة .

تصوير شخصيات نجيب محفوظ فى السينما

بقلم: مصطفى درويش

إذا كان فى الإمكان تصور السينما المصرية بدون «طه حسين» أو «توفيق الحكيم» أو «يحيى حقى»، وذلك لقلة أعمالهم المترجمة إلى لغة السينما.

فإن هذا التصور مستحيل بالنسبة لنجيب محفظ.

فمنذ «بداية ونهاية» (١٩٦٠)، وعلى مدار ثلث قرن من عمر الزمان، تكاد لا تمر سنة دون فيلم أو أكثر مأخوذ عن أحد أعماله، أو له فى إبداعه دور، ولو صغير.

وعن هذه الظاهرة، وبالذات عن ترجمة رواياته إلى لغة السينما، تقدمت، قبل أيام، الباحثة أميرة اسماعيل الجوهرى من أجل الحصول على درجة الدكتوراه من المعهد العالى للنقد الفنى، برسالة تحت عنوان: «تصوير شخصيات نجيب محفوظ فى السينما».

التاريخ الملعون

وكما هو معروف، فعالم محفوظ الروائى ينقسم حسب رأى جمهرة النقاد إلى أربع مراحل رئيسية أولاها المرحلة التاريخية، وتضم ثلاث روايات لا تعرض إلا إلى قدماء المصريين فى عصور الفراعين، هى «عبث الأقدار» (١٩٣٩) ورادوبيس (١٩٤٣)«وكفاح طيبة»(١٩٤٥).

وأى منها لم يجر ترجمته إلى لغة السينما حتى يومنا هذا، وذلك رغم انقضاء



عمر الشريف .. انتهازى ، وصولى فى بداية ونهاية ..

ما يزيد على نصف قرن على ابداع «عبث الأقدار».

ولا يوجد فى الافق ما يبشر بأن ثمة جنوحا فى الوسط السينمائى إلى أخذ تلك الروايات بعين الاعتبار.

وعلى العكس من ذلك تماما المرحلة الثانية المسماة بالمرحلة الواقعية.

فجميع روايات «محفوظ» فى تلك المرحلة، بدءا «بالقاهرة الجديدة» (١٩٤٥)، وانتهاء بثلاثية «بين القصرين» (١٩٥٢)، قد جرى تحويلها إلى ثمانية أفلام، أربعة منها وهى «زقاق المدق» و«بين القصرين» و«قصر الشوق» و«السكرية» أخرجها «حسن الإمام».

وفيلمان هما «بداية ونهاية» «القاهرة ٣٠» أخرجهما صلاح أبو سيف.

أما الفيلمان المتبقيان، فأحدهما «خان الخليلي» أخرجه «عاطف سالم».

والآخر «السراب» أخرجه «أنور الشناوي».

وفاتحة المرحلة الثالثة المسماة بالرمزية «أولاد حارتنا» (١٩٥٩).

وشأنها بالنسبة للسينما شأن روايات المرحلة الأولى.

فحتى هذه الساعة، لا أحد داخل مصر أو خارجها، جنح . حتى بتفكيره، إلى عمل فيلم مأخوذ عنها، حتى ولو في مستقبل بعيد.

والمدهش بالنسبة لروايات تلك المرحلة أنها جميعا، فيما عدا فاتحتها «أولاد حارتنا» قد جرى تحويلها إلى أفلام.

عبث الرقباء

بل إن روايتين من بينها، وهما «اللص والكلاب» و«الطريق»، قد جرى ترجمتهما إلى لغة السينما لا مرة واحدة، وإنما مرتان

فمثلا الرواية الأخيرة أخرجها «حسام الدين مصطفى»، قبل تسع وعشرين سنة في فيلم أدى فيه «رشدي أباظة» دور «صابر» الباحث عن الذات، أمام كل من «شادية» و«سعاد حسني»، الأولى في دور «كريمة»، والثانية في دور «إلهام».

بعد ذلك بحوالي ربع قرن، وبالتحديد سنة ١٩٨٦، عادوا فعملوا فيلما ثانيا مستوحى من نفس الرواية، مع عدم ذكر اسم صاحبها في عناوين الفيلم، بقصد التحايل على قرار صادر من مكتب ما، يقال انه تابع للجامعة العربية، باعتبار أدب محفوظ من الممنوعات.

ومع تغيير اسم الرواية إلى «وصمة عار» وتغيير اسم البطل الحائر، الباحث عن الذات من «صابر» إلى «مختار» .

وبدلا من «رشدي أباظة» أسند دور صابر الذي غدا مختارا إلى «نور الشريف».

فإذا ما انتقلنا إلى المرحلة الرابعة المستمرة حتى كتابة هذه السطور، فسنجد أنفسنا أمام مرحلة حار النقاد في تسميتها.

حسن الاختيار

ومما يلاحظ على الأفلام المأخوذة عن أعمال محفوظ في تلك المرحلة إنها لم تحظ من قبل صاحبة الرسالة بأي اهتمام.

وفي مواجهة انتاج سينمائي غزير لأفلام مستوحاة من أعمال الأديب الكبير في المرحلتين الثانية والثالثة، لم يكن أمام صاحبة الرسالة سوى سبيل الاختيار، وان يكون اختيارها وليد إعمال الفكر، وإمعان

النظر والتقدير.

وعلى كل ، فهى فيما اختارت كانت موفقة إلى حد كبير.

فعلى أساس وجود ظاهرة فى أدب «محفوظ» حاصلها أنه فى عالم الشخصيات التى أبدعها خياله، يمكننا التعرف على سمة أو سمات مشتركة بين البعض منها فى مختلف الروايات، بحيث يمثل هذا البعض قيمة معينة أو فكرة واحدة تربط بينها، وبحيث يبدو كنموذج فى أكثر من عمل.

هذا مع تميز كل شخصية تنتمى إلى النموذج بسماتها المعينة، المحددة، التى تجعل منها كائنا، قائما بذاته، ينبض بالحياة . على هذا الأساس قامت صاحبة الرسالة باختيار خمسة نماذج، تضم تسع شخصيات هى موضوع الدراسة والتحليل فى الرسالة.

والنماذج الخمسة التى وقع عليها الاختيار، هى الانتهازى أو الوصولى المتمرد على فقره فى روايتى «القاهرة الجديدة» و«بداية ونهاية».

والمرأة الساقطة بدافع الفقر فى روايتى «زقاق المدق وبداية ونهاية».

والأب المسيطر فى ثلاثية بين القصرين والمحب الرمانسى فى روايتى «خان الخليلى» و«قصر الشوق».

والباحث عن الذات فى روايتى «الطريق» و«الشحاذ».

وكما كان لزاما على صاحبة الرسالة أن تختار، أرانى بدورى ملزما، لضيق المجال، باختيار نموذج واحد أقف عنده قليلا، وهو نموذج الانتهازى، والوصولى المتمرد على فقره، والسبب فى اختياره، هو ان خطره قد استشرى بين صفوف الطبقة المتوسطة، بمختلف فئاتها فى أيامنا هذه، أكثر من تلك الأيام البعيدة، الموغلة فى الماضى، وكأنها تاريخ قديم.

وأقصد بها أيام ابداع «محفوظ» لروايتيه «القاهرة الجديدة» و«بداية ونهاية» (١٩٤٩).

وأيام إخراج صلاح أبو سيف للفيلمين المأخوذين عنهما، فى أثناء عقد الستينات.

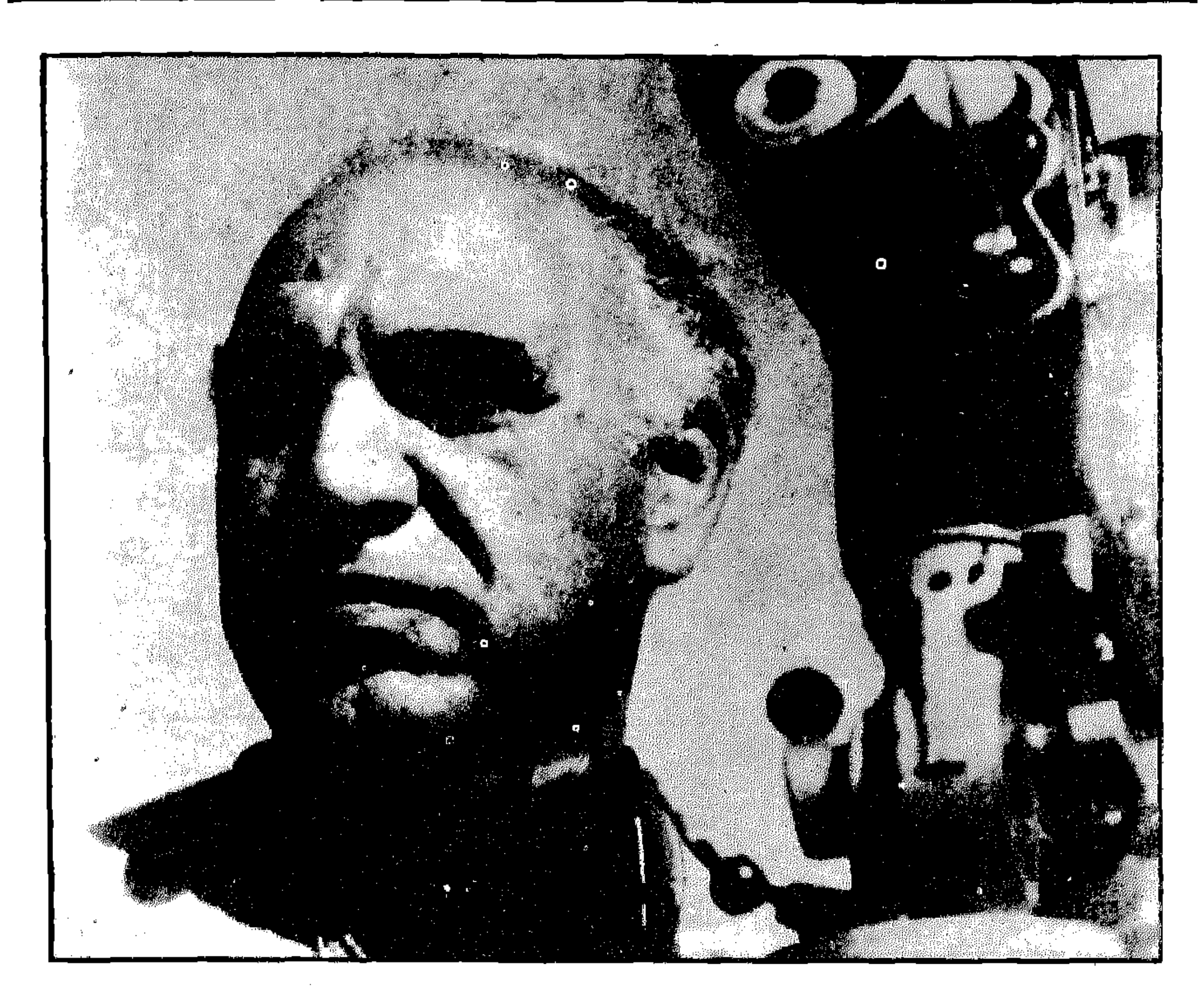
اليائسون

وسر سقوط الطبقة المتوسطة فى براثن الانتهازية والوصولية، هو الخوف مما تخبئه الأقدار.

فالخوف ما يتخوفه أفراد هذه الطبقة الوسط بين أقلية واسعة الثراء، وأكثرية معدمة، جماهيرها الخفية تعيش كالأغنام، بلا أمل فى صعود وارتقاء.

أن ينحدر بهم الحال الى حضيض المعدمين، وهو حضيض فى المعيشة يجعل الحياة أقرب إلى الجحيم، بل لعل الجحيم فى تصورهم أكثر منه رحمة.

وهذا الخوف، حسبما جاء فى بحث المفكر الامريكى «ريمون بيكر»، «مصر فى الأطياف»، هو الذى يدفع بأفراد الطبقة المتوسطة إلى ممارسة أكثر أنواع الانتهازية والوصولية سوقية وابتذالا.



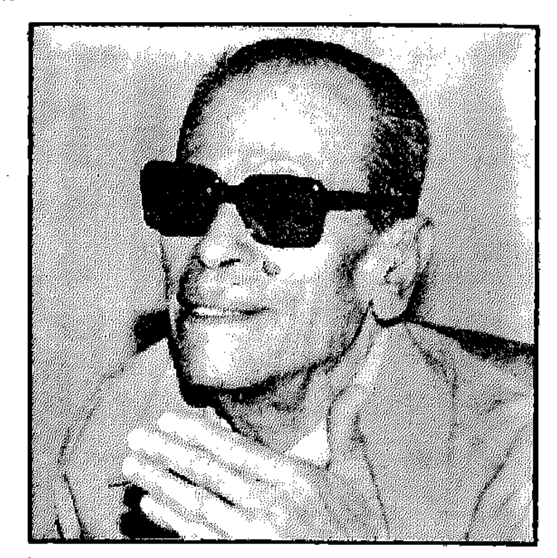
صلاح ابو سيف .. مكتشف محفوظ للسينما

ومحجوب عبدالدايم «حمدى أحمد» فى القاهرة الجديدة التى غدا اسمها فى السينما، لأسباب رقابية، «القاهرة ٣٠» (١٩٦٦).

وحسنين كامل على «عمر الشريف» فى «بداية ونهاية» كلاهما انتهازى، وصولى يسعى إلى الصعود جاهدا.

حتمية السقوط

وفى رسم شخصية الأول راعى «محفوظ» أن يكون سقوطه أمرا منطقيا، حتميا، فإلى جانب الظروف الاجتماعية المتمثلة فى الفقر المدقع، وانسياقه نتيجة لذلك وراء مغريات الصعود بالاهدار لجميع القيم . فانه بحكم نشأته الاولى، قد تبنى، منذ البداية، فلسفة خاصة قوامها التحرر من القيم الموروثة «أسرتى لن تورثنى شيئا أسعد به، فلا يجوز ان أرث عنها ما أشقى به».


نجيب محفوظ

وكان لابد لهذا التحرر أن ينتهى به إلى أن «يمنى النفس باليوم الذى يفرط فيه فى كرامته وعرضه، وكأنه ينفض ترابا عن حذائه».

وان يصبح كما وصفه محفوظ « نذلا وضيعا» «ساقطا ذا طبيعة حيوانية» «ليس كمثله شئ فى الانحطاط».

ومع ذلك ، فقد صوره الفيلم شخصا مغلوبا على أمره، سقوطه وكأنما قد جاء تحت ضغط ظروف الفقر المدقع، بحيث بدا لنا انسانا يستوجب الشفقة والرثاء، لا الرجم واللعنات.

استحالة اللقاء

والغريب أن فيلم «بداية ونهاية» قد انتهج بالنسبة لشخصية «حسنين» نهجا مخالفا تماما.

فمحفوظ قدم تلك الشخصية للقارئ باعتبارها نتاج ظروف اجتماعية ونفسية، جنحت بها إلى الأنانية، ثم التمرد على الأوضاع.

نحن اذن إزاء انسان ضائع، محروم، مأساته لا تنحصر فى الفقر، وإنما فى انقسام المجتمع إلى طبقات، بينها حواجز من حديد، ليس مرجعها فروق فى الثروة، بل فروق فى الثقافة والتربية.

ومحال أن يكون ثمة لقاء بين هذه الطبقات ولكن الفيلم قدمه للمشاهد، بدءا من اللقطات الأولى شخصا كريها، كارها لكل ما يرتبط بالفقر بصلة، مركزا على نقائصه دون أية محاولة للكشف عن دوافعه النفسية، مما أفقده الخلفية الإنسانية.

ومن كان هكذا مقيتا، عادة لا يقدم على الانتحار.

ولذلك فقد كان انتحاره فجاة فى لقطات الختام، أمرا مباغتا، متسما بالميلودرامية الزاعقة، غير المبررة، كما جاء فى الرسالة التى انتهت بقول صاحبتها إن السينما المصرية جنحت إلى التركيز على الأحداث الظاهرية فى روايات «محفوظ».

هذا إلى التضحية بسمات أساسية فى الشخصيات التى رسمها، مع التضخيم من سمات أخرى.

وختاما، فقد أوضحت الرسالة أن أدب «محفوظ» من الخصب والقوة بحيث ترك فى السينما المصرية آثارا بعيدة، عميقة، ليس إلى محوها من سبيل.



المواجهة - التنوير .

هيئة الكتاب

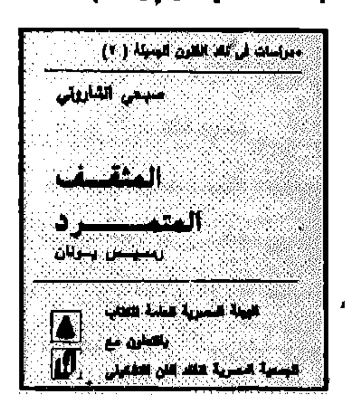
صدرت عن هيئة الكتاب ، سلسلة جديدة تحمل اسم «المواجهة» - التنوير ، أى مواجهة الإرهاب بالتنوير ، وقدمت كتبا مهمة لرواد النهضة العربية ورواد حركة التنوير فى الوطن العربى منها تخليص الإبريز فى تلخيص باريز - لرفاعة الطهطاوى ، طبائع الاستبداد - لعبد الرحمن الكواكبى ، الاسلام بين العلم والمدنية - للإمام محمد عبده ، فلسفة ابن رشد - لفرح انطون ، تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة - لقاسم أمين ، الإسلام وأصول الحكم - لعلى عبد الرازق ، مستقبل الثقافة فى مصر - لطه حسين، حرية الفكر - لسلامة موسى .

هذا إلى جانب كتب أخرى عن الوحدة الوطنية والارهاب - جذور الارهاب - المثقفون والارهاب ، لمجموعة من الكتاب والصحفيين، وكتب أخرى تناولت موضوعات بعينها :

محنة التنوير، التنوير يواجه الاظلام - للدكتور جابر عصفور ، الاسلام فى عالم متغير - للدكتور مصطفى الفقى ، فلسفة التصوير الاسلامى - للدكتور وفاء ابراهيم .

وقدمت الهيئة السلسلة بقولها « بلغت مؤامرات التطرف والإرهاب فى مصر معدلات غير مسبوقة، خلال السنة الأخيرة وأصبحت تهدد المجتمع المصرى كله ، سواء فى بنيته الداخلية أو فى اقتصاده أو أمنه الاجتماعى والسياسى ومكتسباته الثقافية والفكرية ، لذلك أصبح من الضرورى أن ينتفض المثقفون المصريون ومؤسسات مجتمعهم المدنى للوقوف فى وجه التطرف والإرهاب لمحاصرتهما واحتوائهما» ولتحقيق الهدف من هذه السلسلة ، جعلت الهيئة ثمن الكتاب قروشا زهيدة - ٢٥ قرشا - ونتمنى أن تستمر هذه السلسلة لتساهم فى تنشيط عملية القراءة وتعود الأجيال عليها ، ولتعيد لذاكرة القراء أعمال رواد النهضة العظام ، ليسود أسلوب الحوار بين أفراد

المجتمع، وتتعايش الأفكار بلا تعصب أو إرهاب .



المثقف المتمرد - رمسيس يونان - صبحى الشارونى سلسلة دراسات فى نقد الفنون الجميلة - هيئة الكتاب بالتعاون مع الجمعية المصرية لنقاد الفن التشكيلى .

كانت حياة الفنان والكاتب والناقد رمسيس يونان [١٩١٣ - ١٩٦٦] سلسلة من حركات التمرد المتتالية ، فتمرد على التعليم الأكاديمى ، وهجر الدراسة بمدرسة الفنون الجميلة ، وآمن بالثقافة الحرة ، ودعا إلى التعرف إلى الاتجاهات الحديثة فى الفن الأوروبى وممارستها ، واختار السيريالية ، ثم تركها للوجودية ، وأخيرا «العبثية».

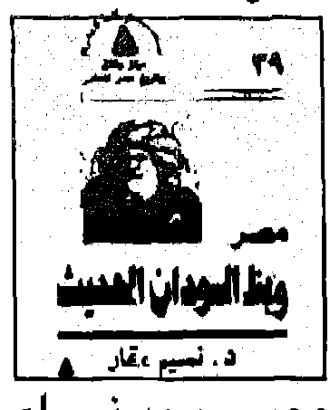
حياة حافلة بالتطلع إلى الجديد فى الفن والسياسة والثقافة ، قدمها الكاتب والناقد صبحى الشارونى ، وأرخ لمراحل وأعمال الفنان رمسيس يونان ، كما تابع حركته السياسية باختياره للتروكسية وارتباطه بجماعة «الفن والحرية» التى كانت تعبر عن جماعة «الخبز والحرية» السياسية السرية والتى كان يتزعمها أنور كامل ، حتى كان اعتقاله فى حملة اسماعيل صدقى - يوليو ١٩٤٦ - ثم هجرته إلى باريس وعمله بالاذاعة الفرنسية ، حتى كان طرده مع ثلاثة من زملائه المصريين ، لأن الأربعة رفضوا أن يذيعوا بيانات ضد مصر ، فى أعقاب تأميم قناة السويس - يوليو ١٩٥٦ . ويعود رمسيس يونان إلى مصر ، وكانت كتاباته فى مجلات : المجلة - الهلال - الفكر المعاصر - الكاتب ومنذ عام ١٩٦٠ حصل على منحة التفرغ والتى ظلت تتجدد له عاما بعد عام حتى وفاته فى ٢٤ ديسمبر ١٩٦٦ .



لكم نيلكم ولى نيل - شعر - عبد المنعم عواد يوسف - هيئة الكتاب

«لكم نيلكم ولى نيل» هو الديوان العاشر للشاعر الكبير عبد المنعم عواد يوسف ، أحد الذين ساهموا فى حركة الشعر الحديث فى الخمسينات ، يوم أن نشر قصائده الأولى فى مجلة الرسالة ومجلة الآداب البيروتية ، ثم كانت دواوينه التى صدرت منذ منتصف الستينات ، والتى منها : عناق الشمس - أغنيات طائر غريب - للحب أغنى - هكذا غنى سندباد .

وقد عبر الشاعر عن هموم الانسان وأحلامه ، وغنى للحب وللوطن وللإنسان ، بلغة سليمة بسيطة ، صور شعرية موحية ، لا غموض ولا تعقيد ولا تزويق ، بل صدق فى المشاعر والأحاسيس ، وتجارب إنسانية غنية ، يسعى للحب ، ويواجه الإحباط ، ويظل يحلم بنور الفجر ، ويكشف زيف بعض الشعراء وما بين الأقوال والأفعال ، وعبر عن ذلك بقصيدة «أنتم الناس أيها الشعراء» .



مصر وبناء السودان الحديث - الدكتور نسيم مقار - مصر النهضة - مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

اهتمت سلسلة «مصر النهضة» التى تصدر عن مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، والتى يشرف عليها الدكتور يونان لبيب رزق ، بتأصيل بعض القضايا الفكرية والتاريخية ، فى تاريخنا الحديث والمعاصر ، وكما تساهم برؤيتها فى حركة التنوير ، فهى تساهم أيضا فى حركة التجديد والتحديث لعلم التاريخ .

وقد اهتمت السلسلة بموضوعات وقضايا كانت بعيدة عن اهتمام الدارسين وأساتذة التاريخ والمهتمين بقضايا التاريخ وموضوعاته مثل : مجمع

اللغة العربية - دراسة تاريخية ، صياغة التعليم المصرى الحديث - دور القوى السياسية والاجتماعية والفكرية ، الأصول التاريخية لمسألة طابا - دراسة وثائقية ، المرأة المصرية والتغيرات الاجتماعية ١٩ - ١٩٤٥، الصحافة والحركة الوطنية ٤٥ - ١٩٥٢ من ملفات الخارجية البريطانية، قضية الفلاح فى البرلمان المصرى ٢٤ - ١٩٣٦ ، دور الأقاليم فى تاريخ مصر السياسى ، الطليعة الوفدية والحركة الوطنية ٤٥ - ١٩٥٢ ، أما عن العلاقات المصرية - السودانية فهى تشكل شاغلا من أهم شواغل «مصر النهضة» كما جاء فى تقديم الكتاب الذى نحن بصدده ، والذى حدد مهمة السلسلة ، بترجمتها بعض المقولات فى الحياة السياسية بالبحث فى جذورها التاريخية ، من بين هذه المقولات أو المسلمات القول بأزلية العلاقات المصرية والسودانية وهو قول كان يتطلب ترجمته العديد من الدراسات ، لهذا أصدرت مصر النهضة ثلاثة كتب سابقة على هذا الكتاب ، وهى : الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادى بين مصر والسودان، العلاقات المصرية - السودانية ١٩١٩ - ١٩٢٤، السودان فى البرلمان المصرى ١٩٢٤ - ١٩٣٦ .

وجاء هذا الكتاب ليتحدث عن دور مصر الحضارى فى السودان فى القرن التاسع عشر ، وفى مناطق أعالى النيل والبحيرات الاستوائية ، وكذلك دور مصر الانسانى فى السودان فى مكافحة الرق وتجارة الرقيق ، لقد امتدت النهضة الحديثة التى أخذت مصر بأسبابها فى عهد محمد على إلى السودان ، وأقام المصريون فى السودان مدنا بأكملها على الطراز الحديث مثل الخرطوم ، وكسلا ، وكانت المدن الجديدة تضم المستشفيات والمساجد والمدارس ومنشآت الحكومة الإدارية ، كما اهتمت مصر بتطوير الموانى السودانية .

وحين نرصد هذا الدور المصرى فى السودان فهذا لا يعنى سوى التأكيد على العلاقات التاريخية المستمرة وأن مصر والسودان شعب واحد ، نصفه فى الشمال والآخر فى الجنوب .





(لابن عربى)

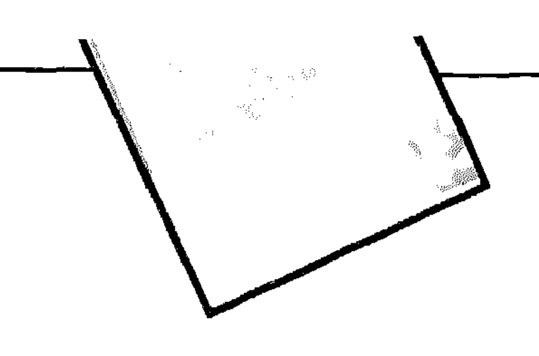
بقلم : د. يوسف زيدان

تدور السطور الآتية حول كتاب مثير، بل هو من أكثر الكتب إثارة .. سواءً فى عصر مؤلفه ، أو فى عصر طباعته . والكتاب هو أشهر مؤلفات الشيخ الأكبر محى الدين بن عربى ، الذى يعد - بدوره - أشهر شخصية فى تاريخ التصوف عند المسلمين .

نحن إذن ، أمام أشهر كتاب (الفتوحات المكية) لأشهر صوفى (ابن عربى) .. وحول الشهرتين ، قامت الدنيا ولم تقعد ! وتوالت الوقائع والحكايات العجيبة . لكننا سنرجىء الكلام عن الوقائع والحكايات ، لنتحدث أولاً عن المؤلف وعن الكتاب .

ابن عربى :

هو شيخ الصوفية الأكبر (محيى الدين أبو بكر محمد بن علىّ بن محمد بن أحمد ، الطائى الحاتمى المرسى ، المشهور بابن عربى) عاش فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى = الثانى عشر الميلادى ، وامتد عمره إلى النصف الأول من القرن السابع الهجرى = الثالث عشر الميلادى .. مما يعنى أنه شهد مرحلة مهمة من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، وعاش تحولات خطيرة فى مسيرة هذه الحضارة . وبالإضافة لذلك ، عاش هو وشهد عالماً فسيحاً من الحياة الروحية لكل ما فيها من معارج ومدارج وغايات .



كان مولد ابن عربى ببلدة تسمى «مرسية» بالأندلس ، يوم الاثنين الموافق ١٧ رمضان سنة ٥٦٠ هجرية .. وتوفى وهو فى الثامنة والسبعين من عمره ، ليلة الثانى والعشرين من ربيع الآخر سنة ٦٣٨ هجرية . وكانت وفاته بالشام ، حيث دفن بسفح جبل قاسيون بدمشق .

وهناك العشرات - بل المئات - من الكتب والتراجم التى تناولت حياة ابن عربى وحقيقة تصوفه ، ووضع العلماء والفقهاء ما يقرب من عشرين كتاباً فى مدحه وذمه ! إذ انقسم هؤلاء بين معجب شديد الإعجاب بابن عربى ، ومنكر شديد الإنكار عليه .. عموماً ، فسوف نقتصر فيما يلى على بعض اللمحات التى وضعها المؤرخون لابن عربى ، ونتجنب - قدر المستطاع - الوقوع فى شدة الإنكار أو الإعجاب .

النشأة والسلوك :

تقول المصادر الخاصة بابن عربى إنه نشأ فى بيت علم وفضل ، بين أسرة عربية ترجع أصولها إلى «حاتم الطائى» شهير الكرم العربى . ودرس ابن عربى علوم الدين فى بلاد الاندلس ، فتلقى العلم فى «لشبونة» و «أشبيلية» ثم زار «قرطبة» وغيرها من البلاد الأندلسية التى كانت أيامها بلاداً عربية إسلامية .

وبعد أن استكمل ابن عربى دراسة العلوم الدينية ، تاقت نفسه لنزول مصر وزيارة الشام وتأدية الحج بمكة .. فارتحل من المغرب العربى إلى المشرق ، وبينما هو فى الطريق ، التقى فى تونس بالشيخ «أبى مدين الغوث» أحد كبار مشايخ التصوف آنذاك .. وكان هذا اللقاء سنة ٥٩٠ هجرية .

وكان لقاء ابن عربى بأبى مدين ، لقاء المريد بالشيخ . وعلى كثرة المشايخ وأقطاب التصوف الذين لقيهم ابن عربى ، إلا أن أبا مدين ظلت له مكانة خاصة فى نفس ابن عربى ، حتى أنه فى (الفتوحات المكية) لايمل من ذكر عباراته وإشاراته ، ويجعلها دوماً مسبوقة بعبارة : كان شيخنا أبو مدين يقول ..

وبدأت شهرة ابن عربى فى الذيوع بعد نزوله الحجاز والشام ، فقد شهد له الكثيرون بالولاية ، وعكف على مجلسه مريدون يتلقون عنه دقائق العلوم الشرعية ودقائق المعارف الصوفية .. ومن أشهر تلاميذه المباشرين : إسماعيل بن سودكين، بدر الحبشى ، صدر الدين القونوى . وقد شرح الأخير بعض مؤلفات شيخه ، وأشهر

شروحه ما وضعه على كتاب ابن عربى (فصوص الحِكَم) وجعله بعنوان (الفكوك على الفصوص) .

مؤلفات ابن عربى :

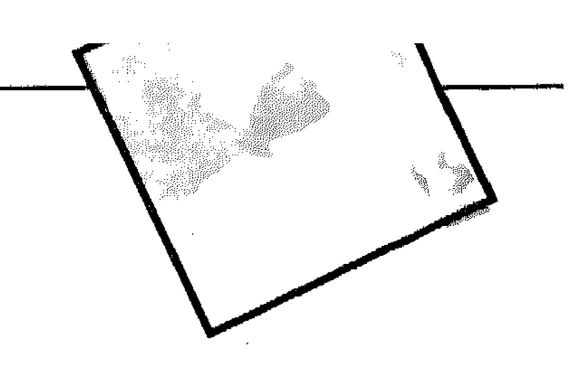
إن أكثر مؤلفات ابن عربى شهرة – كما أسلفنا – هو كتابه «الفتوحات المكية» يليه «فصوص الحِكَم» .. ثم وراء ذلك قائمة طويلة من الكتب والرسائل الصوفية التى وضع لها ابن عربى فهرساً ، قبل وفاته بست سنوات ، فكان عددها ٢٥١ كتاباً ورسالة . لكن المؤرخ الصوفى عبدالرحمن جامى يقول إن مؤلفات ابن عربى بلغت خمسمائة كتاب ورسالة .. على حين يجعلها الشعرانى أربعمائة . وأياما كانَ من مقدار مؤلفات ابن عربى ، فإن الباقى منها اليوم حوالى مائة وخمسين ، منشور منها قرابة الستين .

وفى مؤلفات ابن عربى ، نرى الثقافة الإسلامية فى القرن السابع الهجرى ، وهى تتجلى بكل نصوع . فالرجل يجمع بين المعارف المتنوعة على ما بينها من شسوع ، فينتقل من الفلسفة إلى الفقه، ومن التصوف إلى علم الكلام ، ومن اللغة إلى آداب الطريق .. وهو يصهر ذلك كله فى مسبوك معرفى له مذاقه الخاص ، مما يجعل الداخل إلى عالمه كأنه السابح فى كونٍ لا ساحل له .

الفتوحات المكية :

يفصح لنا ابن عربى عن سبب تسمية «الفتوحات المكية» بهذا الإسم ، فيقول : «كنت نويتُ الحجِ والعمرة ، فلما وصلتُ إلى أم القرى ، مكة ، أقام الله سبحانه وتعالى فى خاطرى ، أن أعرف الولى بفنونٍ من المعارف عند تطوافى فى بيته المكرّم ..» وهكذا كانت الفتوحات المكية استجابة لخاطر وإلهام ربانى ، حظى به ابن عربى بمكة .

واستغرقت كتابة الفتوحات ثمانى وثلاثين سنة ! فقد بدأ ابن عربى تدوينها سنة ٥٩٨ هجرية ، فكان يكتب ما يتجلى على قلبه من حقائق ، ثم ينتظر ما يفيض به الجناب الإلهى ، فيستكمل التدوين .. حتى انتهى من «الفتوحات» سنة ٦٣٦ هجرية . وهو كثيراً ما يؤكد أن «الفتوحات» نتاج لإلهام ربانى ، لاتقليد فيها ولا تفكير شخصى . ففى الباب رقم ٤٨ منها ، يقول ابن عربى : اعلم أن ترتيب أبواب الفتوحات لم يكن عن اختيار ، ولاعن نظر فكرى ، وإنما الحق تعالى يملى لنا على لسان ملك الإلهام جميع ما نسطره ، وقد نذكر كلاماً بين كلامين ، لاتعلق له بما قبله ، ولابما بعده ، وذلك شبيه بقوله سبحانه وتعالى – حافظوا على الصلوات



والصلاة الوسطى - بين آيات طلاق ونكاحٍ وعدةٍ ووفاء .

وفى البـاب ٣٦٥ من « الفتـوحات » يقول : واعلم أن جميع ما أتكلم به فى مجالسى وتصانيفى إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه ، فإننى أعطيت مفاتيح الفهم والإمداد منه ..

وفى الباب ٣٧٣ يقول : جميع ما كتبته وأكتبه فى هذا الكتاب ، إنما من إملاء إلهى وإلقاء ربانى ، أو نفث روحانى فى روح كيانى ، كل ذلك بحكم الإرث للأنبياء والتبعية لهم ، لابحكم الاستقلال ..

وتقع « الفتوحات المكية » فى ٣٧ سـفراً ، كل سـفر منهـا يتألف من عدة أبواب ، بحيث يبلغ مجموعها ٥٦٠ باباً . والباب الأخير شبه منفصل ، إذ هو مجموعة وصايا للمريدين يسترشدون بها في سـيرهم إلى الله . أما البـاب قبـل الأخير ، أعنى الباب ٥٥٩ ، فهو أهم أبواب الكتاب .. وهو يعرف باسم «باب الأسرار» لأن ابن عربى جمع فى هذا الباب أسرار وحقائق المقامات الصوفية ، وقد بدأه بقوله : إن هذا الباب من أشرف أبواب هذا الكتاب ، هو الباب الجامع لفنون الأنوار الساطعة ، والبروق اللامعة ، والأحوال الحاكمة ، والمقامات الراسخة ، والمعارف اللدنية ، والعلوم الإلهية ، والمنازل المشهودة ، والمعاملات الأقدسية ، والأذكار المنتجة ، والمخاطبات المبهجة ، والنفثات الروحية ، والقابلات الروعية ، وكل ما يعطيه الكشف ويشهد له الحق الصرف .. ضمنت هذا الباب ، جميع ما يتعلق بأبواب هذا الكتاب .

وهكذا يؤكد ابن عربى أن الباب ٥٥٩ ، هو خلاصـة الفتـوحات . ولـقد وضـع عبدالكريم الجبـلى شـرحاً على هـذا الباب ، بهدف «حل جميع مشـكلات الكتاب» وجعل شرحه هذا بعنوان : شرح مشكلات الفتـوحات المكية وفـتح الأبواب المغلقـات من العـلوم اللدنية .. وهو الكتاب الذى قمنا مؤخراً بنشره فى طبعة محققة .

طبعات الفتوحات :

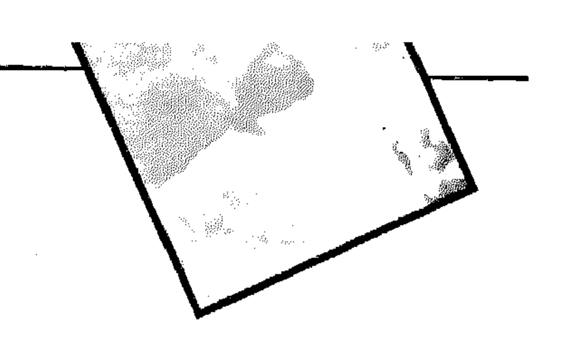
صدرت أول طبعة لكتاب «الفتوحات» بمصر سنة ١٢٩٣ هجرية ، وهى طبعة لم يكتب لهـا الذيوع . أما التى ذاع أمرها ، واشـتهرت ، وسـرقت فى بيروت ! فهى الطبعة التى أصدرتها دار الكتب العربية بالقاهرة ، وجاء فى آخرها :

«يقول راجى غفران المساوىء ، رئيس



لجنة التصحيح بمطبعة دار الكتب العربية الكبرى ، محمد الزهرى الغمراوى : الحمد لله الذى أفاض سجال العرفان .. والصلاة والسلام على سيدنا محمد إمام المقربين .. أما بعد ، فقد تم بحمده تعالى طبع كتاب الفتوحات المكية ، لمنبع الفيوضات الربانية، الإنسان الكامل والعلم الواصل ، شمس حقائق الكمالات .. الشيخ الأكبر محى الدين محمد بن عربى الحاتمى ، قدست أسراره ، وعمت أنواره ، وله رضى الله عنه من التآليف ، ماعد لكثرته من أبهر الكرامات .. لكن كتابه الفتوحات لم ينسج ناسج ، على منواله ، فلا غرو أن تعطشت نفوس الأصفياء إلى زلاله . وبالجملة ، فالرجل من نظر فى كلامه – وترك التعصب – علم أنه مفتوح عليه ، وأنه من نوادر الأزمان ، وأن من الأدب أن يسلم حاله إليه . وقد سبق تكرار طبع الكتاب فى المطبعة الأميرية (بولاق) واستدرك فى الطبعة الثانية ما أخلت به الأولى من الأسقام الغليظ ، ولكن فاتهما العثور على نسخة المؤلف التى يجب الرجوع إليها ، وأن لا يعول فى التصويب والترجيح إلا عليها . وكان من العناية الإلهية أن سيقت إلينا عند إعادة الطبع ، نسخة مقابلة على خط المؤلف ، اعتنى بمقابلتها لفيف ، من أكابر العلماء ، وكان هذا بهمة الأمير الحاج « عبد القادر الجزايرلى » فخر الأمراء . فصار تصحيح الكتاب على مقتضى ما فيها من التصويب ، فجاءت نسخة يجب عض النواجذ على كل ما فيها ، حتى التبويب ، إذ كان هو خطه المصون ونصه القويم المكنون ، وكان الفراغ من طبعه مع بذل الجهد فى تصحيحه .. فى شهر صفر الخير من شهور سنة ١٣٢٩ هجرية .

ومنذ قرابة عشرين سنة ، بدأت «الهيئة العامة للكتاب » فى إصدار أسفار « الفتوحات المكية » بتحقيق الدكتور / عثمان يحيى .. ولاتزال الأسفار تصدر إلى اليوم ، حيث صدر حتى الآن ١٤ سفراً ، ويقال إن هناك ثلاثة أسفار فى المطبعة !



أما بقية أسفار الفتوحات المحققة ، فالله – وحده – يعلم متى ستصدر . وعلى أية حال ، فإن نسخة الفتوحات التى أصدرتها دار الكتب العربية فى أربعة مجلدات ضخمة سنة ١٣٢٩ هجرية ، لاتزال هى أكمل وأفضل طبعات الكتاب .

خلافات العلماء :

اختلف العلماء فى أمر ابن عربى واختصموا .. ففريق منهم يرفعه إلى مصاف الأولياء الكمل ، ويرى فى كتاب «الفتوحات» أسمى آيات المعرفة الربانية . وعلى النقيض ، يحط الفريق الآخر من شأن الشيخ الأكبر ، ويعتقد أن «الفتوحات» سجل حافل بالبدع والأغاليط .

وقد بدأ هذا الخلاف مبكراً ، على يد الفقيه اليمنى جمال الدين بن الخياط ، إذ لجأ هذا الرجل إلى حيلة يدين بها ابن عربى ! فعمد إلى «الفتوحات» واجتزأ منها بعض المواضع التى تثير القلق ، وجمعها فى رسائل وجهها إلى العلماء فى سائر البلدان الإسلامية ، دون أن يذكر لهم مؤلفها .. فكتب العلماء ورجال الدين ردوداً عليها ، وشنعوا على من يعتقدها . فلما شنعوا ، صرح بأنها اعتقادات ابن عربى.

وظل ابن الخياط يهاجم ابن عربى ، فجاء الفيروز ابادى – صاحب القاموس ليرد عليه ، ووضع فى ذلك كتاباً بعنوان «الاغتباط بمعالجة ابن الخياط» وفيه يذكر الفيروز ابادى أن ابن الخياط ذكر فى رسائله تلك عقائد زائفة ومسائل خارقة لإجماع المسلمين ، وليست من آراء ابن عربى فى شىء .. مما يعنى أن ابن الخياط كان يدس ويختلق الروايات المكذوبة على ابن عربى كى يجلب عليه سخط الفقهاء .. ثم يقول الفيروز ابادى : وما أنكر على ابن عربى إلا بعض الفقهاء القحْ الذين لاحظّ لهم فى شرب المحققين ، وأما جمهور العلماء والصوفية فقد أقروا بأنه إمام أهل التحقيق والتوحيد .

ومن الحكايات الشهيرة حول «الفتوحات» ، ما ذكره الشعرانى عن تلك النسخ التى كان أعداء ابن عربى يدسون فيها العقائد الباطلة ليجلبوا بذلك غضب العامة والفقهاء عليه ، وليحدثوا بها البلبلة فى أذهان الصوفية .

الناقمون والمدافعون :

فى سنة ١٣٨٩ هجرية (١٩٦٩ ميلادية) أصدرت وزارة الثقافة المصرية الكتاب التذكارى لمحيى الدين ابن عربى فى الذكرى المئوية الثامنة لميلاده . وقد ضم الكتاب مجموعة من الدراسات الخاصة بابن عربى وتصوفه ، كتبها صفوة من المشتغلين بالتراث الصوفى فى

مصر وخارجها .. وضمن هذه الدراسات ، كتب الأستاذ / عباس عزاوى مقالة جمع فيها قائمة بالناقمين على ابن عربى والمدافعين عنه . وهى قائمة نذكرها هنا ، لما تظهره من قدر الاختلاف حول مكانة ابن عربى .. وهو اختلاف يتضمن علو هذه المكانة ! فلا يثور الخلاف إلا حول الشخصيات العظيمة ، أما الشخصية الخاملة ، فلم يحدث أن أثارت خلافاً .

ومن أشهر الناقمين على ابن عربى ، ممن عنوا بوضع المؤلفات فى تخطئته : أبو بكر البدرى الدمشقى صاحب (السيوف المشهورة فى ابن عربى وكلماته المحذورة) البقاعى صاحب (تنبيه الغبى بتكفير ابن عربى) ابن طولون صاحب (تحذير العباد من الحلول والاتحاد) .

وفى الدفاع عن ابن عربى كتب الشعرانى (اليواقيت والجواهر فى علوم الشيخ الأكبر) وكتب الشيخ عمر العطار (الفتح المبين فى اعتراض المعترض على محيى الدين) وكتب الشيخ محمد حلمى (البرهان الأزهر فى مناقب الشيخ الأكبر) .. وبالجملة ، فقد كان الصوفية على اختلاف مشاربهم ، ومن أكبر المدافعين عن ابن عربى .

ولم تفض السنون ذلك الاختلاف حول ابن عربى وكتابه الفتوحات . فلا يزال الرجل وكتابه يشغلان الأذهان إلى اليوم ، ولا يزال الباحثون يقصرون جهودهم على تراثه الزاخر .. فبالإضافة إلى الدكتور أبى العلا عفيفى والدكتور عثمان يحيى ، اللذين تخصصا فى ابن عربى . يقوم اليوم ، الباحث الصوفى الفرنسى الكبير «ميشيل شودكيفيتش» بدراسة البنية العامة لكتاب «الفتوحات» مقارنة ببنية القرآن الكريم . ويقوم الباحث المصرى «نصر أبو زيد» بقراءة المسكوت عنه فى خطاب ابن عربى.

مسرحية هزلية :

مع كل هذا الانشغال – العلمى – بابن عربى وكتابه الفتوحات ، ومع هذا القدر من أجلاء العلماء الذين أفنوا أعمارهم فى بحث «الفتوحات» والعكوف على إشاراتها الصوفية ورموزها الإشراقية فإذا بمجلس الشعب المصرى يطرح قضية «الفتوحات» للنقاش تحت قُبّته ! ويتبارى أعضاء المجلس – نصفهم من العمال والفلاحين – فى الحكم على ابن عربى الذى صار ، عندهم ، وكأنه قضية سياسية !

وامتلأت الصحف المصرية فى هذا الوقت بمقالات حول ابن عربى الذى صار حديث الساعة.. كان ذلك فى السنوات الأخيرة من السبعينيات . وبينما الأنظار معلقة بمجلس الشعب ، فى انتظار انتهاء ذلك المجلس الموقر من رأى حاسم حول ابن عربى وكتابه الفتوحات .. صدر قرار جمهورى بحل المجلس !

رسالة واشنطن

«الحياة فى بيت من الزجاج» !

المنظمات اليهودية تتجسس على الأمريكيين العرب

بقلم : محمود أحمد

كأنه لم يكن يكفى العرب الأمريكيين ما لاقوه من متاعب وعناء خلال حرب الخليج ، عندما تعرض العديد منهم دون سبب حقيقى ـ لمداهمات ومضايقات من الأجهزة الرسمية وفى مقدمتها مكتب التحقيقات الفيدرالى «إف . بى . أى» لأسباب ترجع ، فيما قيل ، لاعتبارات الأمن ..

وكأنه لايكفى أبناء الجاليات العربية فى الولايات المتحدة ، أيضا هموم الشبهات غير المبررة التى ظللتهم فى أعقاب وصول موجات «الإرهاب الأصولى» الذى يعزى إليه حادث تفجير مبنى التجارة العالمى فى نيويورك ، قبل أربعة أشهر «والهيستريا» الإعلامية التى أثارها والتى لفحت نيرانها الجاليات العربية المقيمة على الأرض الأمريكية ..

فها هو «همّ جديد» يضاف إلى هموم أولاد العرب ، الذين جاءوا إلى أرض الأحلام الأمريكية بحثا عن الأمن والأمان والحرية ، وربما سعة الرزق ، فإذا بهم يكتشفون أن كثيرين منهم ـ آلاف فى الواقع ـ كانوا ، ولفترة طويلة من الزمن ، ضحايا لعمليات تجسس منتظمة من جانب المنظمات اليهودية الأمريكية صاحبة النفوذ القوى فى الولايات المتحدة !

ولعل أكثر ما ينطوى عليه الأمر إثارة للانزعاج ، هو أن المنظمات اليهودية استطاعت أن تجند ضباط بوليس ومسئولين فى المباحث الفيدرالية للقيام بعمليات التجسس لحسابها ، بل و «سرقة» ملفات العديد من العرب الأمريكيين بما تتضمنه من معلومات عن حياتهم وأعمالهم وتحركاتهم ، والتى يفترض أنها تتحصن بالسرية التى يكفلها القانون الأمريكى .. واكتشف العرب الأمريكيون أن هذه الملفات والمعلومات تتسرب ، أيضا إلى المخابرات الاسرائيلية «الموساد» !

سرقة ملفات العرب

وكانت هذه العمليات تتم فى معظمها فى الخفاء ، الأمر الذى أبقاها خارج وعى وإدراك أبناء الأمريكيين العرب إلى حد بعيد. ولم تتكشف هذه العمليات على نطاق واسع ، حتى كانت فضيحة ضابط البوليس «توم جيرارد» فى مدينة سان فرانسسكو فى أواخر العام الماضى .. وهى الفضيحة التى تفجرت عندما تبين أنه كان يتقاضى أموالا من المنظمة اليهودية المعروفة باسم «جماعة منع التشهير-Anti-Defamathon league التى يشار إليها اختصارا بالحروف ADL وهى تابعة للمنظمة اليهودية المعروفة «بناى بريث» B`nai B`rith ويزودها بصورة منتظمة بمعلومات عن الأمريكيين المنحدرين من أصول عربية فى ولاية كاليفورنيا وقد عثر فى مكاتب «جماعة منع التشهير» على ملفات لبعض الشخصيات من العرب الأمريكيين ، وتبين أن جيرارد كان يسرق هذه الملفات ، عندما يطلب اليه ذلك ، وأن بعضا منها انتقل بهذه الطريقة إلى المخابرات الإسرائيلية . وقد انفجرت الفضيحة دفعة واحدة عندما انكشف أمر الضابط الجاسوس الذى اضطر إلى الهرب خارج الولايات المتحدة ، خوفا من المساءلة ، ولجأ إلى الفلبين .

وتبادر إلى الأذهان فى بداية الأمر ، فى أعقاب تفجر ما أصبح يعرف بـ «فضيحة سان فرانسسكو» أن عمليات التجسس تستهدف الشخصيات القيادية من أبناء الجاليات العربية لاسيما بعد أن بدأ العرب الأمريكيون ينشطون على الساحة الأمريكية ، منذ أوائل الثمانينات ، ويشكلون تنظيمات خاصة بهم ، ومعاهد أبحاث ودراسات ، بغية أن يكون لهم تأثيرهم فى الحياة الأمريكية كغيرهم من الجاليات الأخرى (من أشهر التنظيمات والمعاهد التى أنشأها العرب الأمريكيون : اللجنة الأمريكية العربية لمكافحة التمييز ADC والجمعية الوطنية للأمريكيين العرب N A A A والمعهد العربى الأمريكى (AAI) إلا أنه تبين أن عمليات التجسس شملت الآلاف ، وانها كانت تجرى منذ فترة طويلة ، الأمر الذى أثبته نشر خطابات متبادلة بين مسئولين فى منظمة «بناى بريث» اليهودية وعدد من شخصيات اليهود الأمريكيين .. ومن بينها خطاب مؤرخ فى

رسالة واشنطن

١٠ يوليو عام ١٩٦١ ، ويتضمن اعترافا صـريحا بالتجـسس على الأمريكيين العرب .

الحياة .. فى بيوت الزجاج

وبالطبع ، تحركت القيادات العربية فى الولايات المتحدة ، إثر تفجـر «فضيحة سان فرانسسكو» وحاولت إثارة القضية على مختلف المستويات ومطالبة المسئولين بإجراء التحقيقات اللازمة فى القضية وتأكيد الحماية التى يوفرها القانون الأمريكى ويكفلها لجميع المقيمين على الأرض الأمريكية : وهى «أرض الحرية الحلوة» كما يطلق عليها The Sweet Land of Liberty ويؤكد «وفا نصر» ، نائب رئيس «اللجنة العربية الأمريكية لمكافحة التمييز» وهى كبرى تنظيمات الأمريكيين العرب ، أن القضية كانت موضع اهتمام كبير فى المؤتمر السنوى للمنظمة هذا العام والذى انعقد فى أواخر شهر أبريل الماضى ، وتقرر أن تتم متابعة الوقائع والتحقيقات بصورة وثيقة وبلا هوادة .

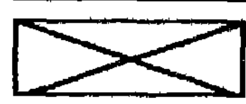
ولكن القضية ألقت بظلها الثقيل على المجتمعات العربية فى مختلف أنحاء الولايات المتحدة ، ليس فى ولاية كاليفورنيا وحدها ، وإنما أيضا فى كل مدينة تبين أنها كانت بصورة خاصة مسرحا لعمليات تجسس مماثلة لما جرى فى سان فرانسسكو ، وخاصة نيويورك ودترويت ودنفر وبورتلاند . وهذا مادفع أحد قادة الأمريكيين العرب إلى الدعوة للتصدى بصورة جماعية لهذا التهديد ، لأنه «لاينبغى أن تتراجع الجاليات العربية أمام هذا الهجوم غير المبرر من جانب بناى بريث والتنظيمات التابعة لها .. وإذا كان المهاجرون العرب قد جاءوا إلى هذه الأرض لكى يحققوا آمالهم فى العيش بحرية وأمان ، وقاسى بعضهم الكثير فى سبيل ذلك ، وإذا كان قد عرف عن الأمريكيين المنحدرين من أصول عربية أنهم من أكثر المهاجرين اجتهادا ودأبا وأقلهم إثارة للمتاعب فى المجتمعات التى استقروا فيها .. فإنه لايجب السماح لبعض المنظمات اليهودية بأن تفسد عليهم حياتهم ، لغير ماسبب مفهوم ، وأن تسلب عائلاتهم حقها فى أن تنعم كغيرها بالخصوصية .. وكأنهم يعيشون فى بيوت من زجاج » .

ويطرح «جيمس زغبى» السياسى البارز فى الحزب الديموقراطى ورئيس «المعهد العربى الأمريكى» ، الأمر من زاوية أخرى . ولكنه يمهد لذلك أولا ، فيقول إن البعض يسأل عما إذا كان الأمريكيون العرب يشعرون بالقلق من المعلومات التى أذيعت عن العثور على ملفات تتعلق بالنشاط السياسى لبعض العرب الأمريكيين ـ والتى كانت فى حوزة ضابط

بوليس فى سان فرانسسكو - فى مكاتب المنظمة اليهودية التابعة لـ «بناى بريث» والمسماة بجماعة منع التشهير . والجواب على ذلك هو أنهم قلقون بالتأكيد .. كما أنه مما يضاعف من هذا الشعور بالقلق ، هذه التصريحات التى صدرت عن مسئولى الجماعة اليهودية المذكورة ويشير «جيمس زغبى» ، بصورة خاصة إلى تصريح لشخص يدعى «ريتشارد هيرشوات» ، وهو مسئول فى منطقة وسط الباسيفيكى لجماعة منع التشهير اليهودية ، أعرب فيه عن دهشته للضجة التى أثيرت حول قضية الضابط «توم جيرارد» والعثور على ملفات للعرب الأمريكيين فى مكاتب الجماعة . وفى هذا التصريح ، الذى نقلته عنه «النشرة اليهودية» التى تصدر فى المنطقة ، قال هيرشوات إنه ليس فى القضية كلها شئ غير عادى .. «لأن العلاقة بين الجماعة اليهودية والضابط جيرارد هى ذاتها التى تربط الجماعة بآلاف من ضباط البوليس فى طول البلاد وعرضها» .. كما جاء على لسان المسئول اليهودى .

ويمضى «جيمس زغبى» قائلا : إن الجماعة اليهودية لمنع التشهير ، والتى تحظى باحترام واسع فى الولايات المتحدة بسبب نشاطها فى مجالات حقوق الإنسان والعلاقات الإنسانية ، تخفى لسوء الحظ جانبا مظلما .. وهو ذلك المتعلق بنظرتها وكيفية تعاملها مع الأمريكيين العرب . ويشير إلى أن الجماعة ذهبت إلى حد إصدار «قوائم سوداء» ضمنتها أسماء وأنشطة لقيادات الأمريكيين المنحدرين من أصل عربى ، مؤكدا ان هذه «الملاحقات» - التى بلغت ذروتها فيما تكشفت عنه «فضيحة سان فرانسسكو» .. كانت تجرى منذ وقت طويل وأنه فى إحدى الحالات على الأقل يمكن تقصى جذور تلك الملاحقات إلى عام ١٩٧٥ حيث أبلغ أحد المسئولين فى الجماعة اليهودية لمنع التشهير صحيفة «شيكاجو تريبيون» أنه كان يقوم برصد أنشطة العرب الأمريكيين وأنه يحتفظ بملفات لعدد ممن يقيمون منهم فى منطقة شيكاجو .. وهى ملفات كان يحصل عليها «بصورة روتينية» ، على حد تعبيره ، من مكتب التحقيقات الفيدرالى «إف . بى . آى» .

وقد قام زغبى فى شهر مارس الماضى ، فى إطار متابعته للقضية ومحاولة تقصى أبعادها ، بجولة فى منطقة سان فرانسسكو التى كانت مسرحا لآخر فضائح التجسس على الأمريكيين العرب ، واجتمع هناك بعدد من المسئولين المحليين لينقل اليهم مدى ما سببته هذه القضية لمجتمعات العرب الأمريكيين من قلق وانزعاج . وبالتعاون مع القيادات العربية فى المدينة ، بدأ تنظيم حملة مضادة تهدف إلى تشجيع أبناء الجاليات العربية على ممارسة حقوقهم السياسية ، بما فى ذلك دعوة الكثيرين منهم ممن أهملوا طويلا قيد اسمائهم فى سجلات الناخبين إلى المبادرة

رسالة واشنطن 

يسد هذا النقص حتى يكون لهم تأثير سياسى له وزن وقيمة .

وفى مقال نشره فى صحيفة «سان فرانسسكو إكزاميينر» المحلية ، كتب زغبى يحذر من أن المسئولين فى الجماعة اليهودية إنما يتصرفون تجاه أبناء الجاليات العربية انطلاقا من قناعة بأنهم ليسوا أبناء أقلية لها حقوقها السياسية واهتماماتها المشروعة كغيرهم من أبناء الجاليات والأقليات العرقية الأخرى فى الولايات المتحدة وإنما بإعتبارهم «جنود دعاية منظمة ضد اسرائيل» . ودعا زغبى أعضاء الجماعة اليهودية ، فى هذا المقال إلى محاولة الدخول فى حوار مع أبناء الجاليات العربية وتفهم اهتماماتهم بدلا من التجسس عليهم والتشهير بهم كما دعا الأمريكيين العرب إلى عدم الاستسلام أمام هذه الهجمات التى يتعرضون لها ، وعدم الركون الى الخوف والتوقع ، بل الخروج ورفع الصوت عاليا وتنظيم أنفسهم والمشاركة فى الحياة السياسية الأمريكية التى تريد التنظيمات اليهودية إقصاءهم عنها ومنعهم من التأثير فيها بأى صورة وبأى قدر .

ليس العرب وحدهم ..

على أننا يجب أن نسجل هنا ، ولو فى إشارة سريعة ، أن الأمريكيين العرب ليسوا وحدهم من يتخوف من النشاط الخفى الذى تمارسه المنظمات اليهودية فى الولايات المتحدة وما تقوم به من أعمال تجسس على مؤسسات وأفراد فى مختلف المدن والولايات ، وتجنيدها لموظفين رسميين فى أجهزة حساسة محلية وفيدرالية لهذا الغرض ..

ففى يوم ٢٩ أبريل الماضى ، وأمام مكتب المدعى العام بمدينة ريتشموند عاصمة ولاية فرجينيا ، قامت مجموعة من السياسيين الأمريكيين تتقدمهم سيدة معروفة فى مجتمع المدينة هى «نانسى سياناوس» التى كانت مرشحة عن الحزب الوطنى الديمقراطى لمنصب محافظ فرجينيا ، بتنظيم مظاهرة للتنبيه إلى «دور جماعة منع التشهير اليهودية فى العمل مع عناصر فاسدة فى مكتب المدعى العام » .. والمطالبة بتطبيق القانون بصرامة فى فضيحة سان فرانسيسكو التى وصفها البيان الصادر عن منظمى المظاهرة بأنها «أكبر عملية تجسس داخلية منذ قضية جوناثان بولارد» وهى إشارة إلى قضية الجاسوس الذى يقضى حاليا فترة عقوبة فى السجون الأمريكية بعد إدانته فى تهمة تسليم أسرار عسكرية أمريكية إلى اسرائيل .

وجاء فى البيان أيضا ، أنه بالإضافة إلى الأدلة التى تكشفت عنها فضيحة سان فرانسسكو ، فإن هناك وثائق تدل على

وجود عمليات تجسس أخرى فى نيويورك ، ونيواورليانز ، وأتلانتا ، ولوس أنجليس ، وبورتلاند ، وسان لويس .. فضلا عن العاصمة واشنطن .

وقبل مرور أسبوع واحد على هذه المظاهرة ، وبالتحديد يوم ٥ مايو الماضى ، شهد أحد فنادق العاصمة الأمريكية اجتماعا نظمه المسئولون عن نشرة «إنتجلنس ريفيو» كان هدفه الذى أعلن عنه مسبقا هو فضح عمليات التجسس التى تقوم بها جماعة منع التشهير اليهودية ضد المؤسسات والمواطنين فى مختلف الولايات المتحدة الامريكية ، وفى هذا الاجتماع أيضـــا ، مثلما جـــرى فى مظاهرة ريتشموند ، وزع بيان يؤكد أن فضيحة سان فرانسسكو قد ساعدت على إماطة اللثام عمّا وصفه البيان بأنه «جبل من الأدلة» على عمليات التجسس غير المشروعة فى الداخل وأعمال الجاسوسية فى الخارج ، فضلا عن التواطؤ مع «جماعات إرهابية محلية» لتنفيذ نشاطات مشبوهة ، وأكد البيان أن التحقيقات التى جرت على مدى ستة أشهر على الساحل الغربى للولايات المتحدة فى مدينة سان فرانسسكو وغيرها ، قد أخذت تتسع تدريجيا مما أثار مطالبات عديدة بإجراء تحقيقات مماثلة فى مدن أخرى مثل نيويورك ودنفر . وكان من الحقائق الغريبة التى تضمنها البيان ، أن ضحايا عمليات التجسس التى قامت بها جماعة منع التشهير اليهودية يقدر حتى الآن بنحو ٩٥٠ مؤسسة أمريكية وما يزيد على ٢٠ ألف فرد «يعتقد أن غالبيتهم من الأمريكيين العرب» اقتحمت الجماعة حياتهم بأساليبها وعملياتها غير المشروعة .

أخيرا فإن هذه القضية ـ بكل أبعادها وتفريعاتها ـ لابد وأن تثير أمامنا تساؤلا مهماً ، هو :

هل يقرر أبناء الجاليات العربية فى الولايات المتحدة التصدى لهذه الموجة من محاولات التخويف ، والتى تهدف إلى أرغامهم على البقاء داخل قوقعة السلبية واللامبالاة ومصادرة أى فرص أمامهم للتأثير وإثبات الوجود على الساحة الأمريكية .. ؟

.. هل سيقبلون التحدى ، فينطلقون من البدايات المبشرة والواعدة التى حققتها تنظيماتهم الجديدة لكى يؤكدوا وجودهم على الأرض التى اختاروها وطنا لهم ، ويتشبثوا بحقوقهم فيها ، رغم الانتشار الواسع والنفوذ القوى الذى حققته التنظيمات اليهودية من قبلهم على مدى حقب متتالية من الزمن .. وتحاول استعماله الآن لطردهم خارج الساحة ؟

وهو تساؤل لن يطول قبل ان تأتينا الإجابة عليه .

مسألة دوستويفسكى اليهودية

بقلم : د. عبد الوهاب المسيرى

نشرت إحدى المجلات المصرية مؤخرا رأى دوستويفسكى فى اليهود والمسألة اليهودية . وقد وصف النص (فى المقدمة القصيرة) بأنه «نص مجهول» وغير معروف نشر عام ١٨٩١ ، ثم حذف من الأعمال الكاملة المنشورة : ولا شك إن المجلة قد بذلت جهدا مشكورا فى نشر هذا النص ، خاصة وأنه ترجمة عن النص الروسى ، وإن كان لى بعض التحفظات :

أولا : النص غير مجهول بالمرة ، فقد حصلت عليه منذ مدة ليست بالقصيرة باللغة الانجليزية إذ ورد فى عدة كتب موجودة فى عدة مكتبات بالقاهرة .

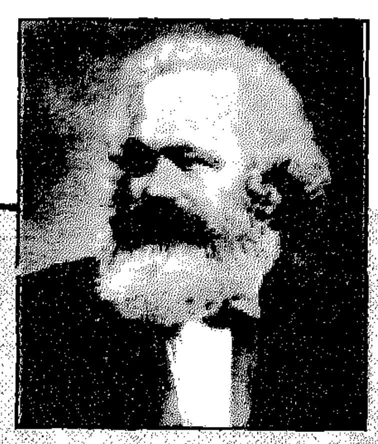
ثانيا : ليس هذا هو النص الوحيد بل هناك إشارات عديدة أخرى فى كتابات دوستويفسكى غير الروائية وإن كان هذا النص الذى ورد فى يومياته هو أهمها وأطولها ، كما أن هناك إشارات هنا وهناك فى أدب دوستويفسكى لليهود ، كما توجد شخصيات يهودية فى بعض رواياته، خاصة فى بيت الموتى (١٨٦١) وهى رواية عن تجربة سجين (غير سياسى) فى معتقل فى سيبريا، ورد فيها وصف لسجين يهودى يقيم كل شعائر دينه بحرص شديد ولا يختلف تناول دوستويفسكى الروائى لليهود عما جاء فى يومياته . وهذا يثير إشكالية كبرى وهى كيف يمكن لأديب صاحب رؤية إنسانية فى أدبه ، أن يتسم موقفه المباشر والمعلن من أقلية دينية أو عرقية بهذه العنصرية والاختزالية وضيق الأفق . وهذا ما سنحاول تفسيره (لا تبريره) فى هذه المقالة :

ثالثا : لابد وأن نثير قضية نشر هذا

دستوفيسكي



مـــاركـــس



النص (أو أى نص جديد على القارىء العربى) دون دراسة نقدية أو إطار تاريخى فكرى ولعل نشر النص دون مقدمات أو خلفيات يعد فى نظر البعض قمة الموضوعية والحيادية ، فالحقائق - كما يعتقد معظم الناس فى قرننا العشرين - تتحدث ، وإن راكمنا الحقائق ، فستظهر الحقيقة ، وهو وهم مع الأسف شائع . فالحقائق لا تتحدث ، وإنما تُستنطق ، فهى أشياء مادية رمادية صماء ، يجدها الإنسان جاهزة فى الواقع ، أما الحقيقة فهى أمر يكد المرء فى البحث عنها ، وهى نتيجة عمليات تجريد وانتقاء عقلية كثيرة ومركبة ، تتبعها عمليات تركيب أكثر تعقيدا ، الحقائق مادية ، أما الحقيقة فعقلية إنسانية ولذا فنشر النص هكذا دون مقدمات وخلفيات يفتح المجال أمام العنصريين أن يقوموا باستنطاق النص بما يريدون ، فيقتبسون منه ما شاء لهم الاقتباس ، ويعلنون أن هذه الاقتباسات / الحقائق هى الحقيقة العامة والشاملة ! ولذا لابد من المقدمات والخلفيات .

رؤية دوستويفسكى لليهود

ولنبدأ دراستنا بمحاولة استخلاص رؤية دوستويفسكى لليهود كما وردت فى النص . كان دوستويفسكى يشير إلى اليهود بكلمة «چيد Shid » الروسية التى كانت تحمل مضمونا قدحيا ، ويرفض استخدام كلمة «يفرى Yevrey » أى «عبرى» التى كانت تعد أكثر حيادية وقد كان يذهب إلى أن اليهود شعب واحد له تاريخ يمتد على مدار أربعة قرون ، وهو شعب حيوى طاقته لا تنتهى نجح فى الاحتفاظ ببقائه وتماسكه ولذا كان يشير إليهم على أنهم «القبيلة اليهودية» التى يعيش أفرادها فيما يسميه «حالة الجيتو» ، يربطهم «ميثاق الجيتو» ، وهو ميثاق يطالبهم بعدم إظهار الرحمة نحو الغير وبالتعالى عليهم وبالعيش فى عزلة عن كل الشعوب عبر آلاف السنين . ومن أهم عقائد هذا الشعب - حسب تصور دوستويفسكى - عقيدة الماشيح ذات

المضمون القومى ، وهى عقيدة تذهب إلى أن المسيح المخلص اليهودى سيعود وسيقود شعبه إلى القدس مرة أخرى ويمنحهم اياها ويرمى جميع الشعوب تحت أقدامهم . وهذا الشعب اليهودى تحركه القسوة والرغبة فى شرب الدماء ، ولذا فهم يعملون بالتجارة ، وخاصة تجارة الذهب ، يديرون البورصات ويستغلون الطبقات الفقيرة خاصة الأقنان . ويجأر اليهود بالشكوى من المعاناة التى يلقونها فى روسيا ، ويدّعون أنهم غير متساويين فى الحقوق مع الروس ، مع أن معاناة الأقنان الروس تفوق بمراحل معاناة اليهود .

واليهود -- حسب رأى دوستويفسكى -- يوجدون فى كل مكان ، فهم يوجدون داخل التشكيل الاستعمارى الغربى ويهيمنون على الرأسمالية الغربية ، وهم بطبيعة الحال موجودون فى كل الحركات الاشتراكية والثورية والفوضوية والعدمية . وقد جعل اليهود همهم إفساد الشعب العضوى الروسى (النارود) إذ يقومون ببيع الكحول لهم وبالشرب من عرقهم ودمهم . وحينما أعتق الأقنان ، انقض عليهم اليهود واستغلوهم واستفادوا من هفواتهم الإنسانية . وهم فى استغلالهم للناس لا يتسمون بالرحمة ، فاستغلالهم للأقنان لا يختلف كثيراً عن استغلالهم للزنوج فى الولايات المتحدة بعد إعتاقهم .

وحتى لو أعطيت لليهود حقوقهم كاملة، فإنهم لن يتنازلوا قط عن أن يكونوا دولة داخل دولة . وهم يفعلون ذلك لأن لهم مصالحهم المستقلة عن مصالح المجتمعات التى يعيشون فى كنفها . بل إنه يرى أن هناك مؤامرة يهودية عالمية عبر التاريخ لخدمة المصالح اليهودية المستقلة وللدفاع عنها . وقد كان دوستويفسكى يشير إلى دزرائيلى رئيس وزراء بريطانيا باعتبار أن دفاعه عن الدولة العثمانية ضد روسيا إن هو إلا تعبير آخر عن المؤامرة اليهودية الأزلية ضد روسيا وعن المصالح اليهودية المستقلة (وهذا يختلف تماماً عن موقف المدافعين عن فكرة المؤامرة عندنا إذ يرى هؤلاء أن اليهود هم المسئولون عن سقوط الدولة العثمانية دفاعاً عن المصالح اليهودية) . ويتجاهل دوستويفسكى حقيقة بسيطة واضحة وهى أن دزرائيلى كان يدافع عن الدولة العثمانية ضد روسيا لا حباً فيها وإنما نكاية فى روسيا وحتى تظل عنصر توازن معها ، وتمنعها من التوسع ، الأمر الذى قد يضر بالمصالح الإمبريالية البريطانية .

وفى الماضى كان استغلال اليهود للآخرين أمرا تدينه العقيدة المسيحية ، ولكن حدث تطور فى المجتمعات الغربية ، إذ أصبحت هذه المجتمعات تؤمن بمذهب المنفعة المادية ويميز دوستويفسكى بين

اليهود وروح اليهودية (وهو فى هذا لا يختلف عن ماركس وعن كثير من المفكرين الغربيين فى القرن التاسع عشر) فقد يوجد يهود طيبون ومع هذا تظل روح اليهودية هى المنفعة المادية . وقد انتشرت هذه الروح اليهودية النفعية المادية فى المجتمع المسيحى بحيث أصبح الاستغلال فضيلة (يتحدث ماركس عن تهويد المجتمع، بهذا المعنى) .

وإذا كانت الروح اليهودية هى الروح النفعية المادية فإن حلقات المؤامرة اليهودية قد أصبحت على وشك الاكتمال وأن حكم اليهود للعالم قد اقترب وهيمنتهم الكاملة أصبحت أمرا وشيكا . وقد لخص دوستويفسكى المسألة كلها بقوله أن ثمة تناقضا أساسيا بين الفكرة السلافية (الروحية المسيحية) والفكرة اليهودية (المادية العلمانية) ، وصعود الفكرة اليهودية يعنى تراجع الفكرة السلافية ، أى أن اليهودى هو الآخر الذى لابد من القضاء عليه !

رؤية دوستويفسكى للكون

ويمكننا الآن أن نطرح السؤال التالى : كيف يمكن لأديب إنسانى مثل دستويفسكى أن يعتنق مثل هذه الآراء التى لا تختلف كثيراً عما ورد فى بروتوكولات حكماء صهيون وكتاب هتلر كفاحى ؟ كمحاولة لتفسير هذه الظاهرة يمكننا أن نشير لبعض الأسباب ، بعضها خاص بدوستويفسكى ورؤيته للكون والآخر خاص بالمجتمع الروسى ككل ووضع اليهودية فيه وموقف الروس منهم ولنبدأ برؤية دوستويفسكى للكون .

١ – كان دوستويفسكى يرى أن روسيا قد تكون امتداداً لأوربا ولكنها فى ذات الوقت هى نقيضها . وعلى الرغم من إيمانه بأن روسيا مدينة لأوربا إلا أنه كان يرى أن «المرحلة الأوربية» فى تاريخ روسيا قد انتهت ، وأن أوربا تمثل الماضى ، بينما تمثل روسيا المستقبل .

٢ – والغرب – من منظور دستويفسكى – قد دمرته المادية والقيم الديمقراطية وضمور الحس الخلقى وظهور النفعية والتمركز حول الذات .

٣ – كان دوستويفسكى يؤمن برسالة روسيا الأزلية . فكل أمة ، حسب وجهة نظره ، لابد وأن ترى أن خلاص العالم يكمن فى خلاصها هى ، وأن هدفها لابد وأن يكون توحيد كل شعوب العالم تحت قيادتها (أى أنه كان يؤمن بحتمية المشيحانية السياسية) .

٤ – من أهم أفكار دوستويفسكى فكرة الشعب العضوى («النارود» بالروسية) . فالشعب الروسى – حسب رأيه – شعب مرتبط بأرض روسيا الأم يستمد منها الطهر والأصالة ، وهو لم تفسده الحضارة

الغربية بعد ولم يسقط فى القيم التى دمرت هذه الحضارة . وهذا لا يعنى أنه لا يوجد فساد فى روسيا وإنما يعنى أن الفلاح الروسى حينما يرتكب الخطيئة يعرف أنها خطيئة ، فهو لم يفقد بعد مقدرته على التمييز بين الخير والشر (أى لم يتم تحييد حسه الخلقى تماماً) .

٥ – وتشكل الكنيسة الأرثوذكسية ، أطهر أشكال المسيحية ، الإطار الدينى لهذه الرؤية الكونية ، كما تشكل الجامعة السلافية الإطار الحضارى أو العرقى لها . ولذا ، فإن مستقبل العالم منوط إذن بإرادة النارود الروسى تحت رعاية الكنيسة الأرثوذكسية وبقيادة القيصر .

النظام الجديد فى العالم الثالث

وفى مقابل هذه المنظومة الدائرية المتماسكة التى يتداخل فيها الدينى بالقومى ويحل فيها الإله فى الأرض الروسية والشعب الروسى ، ينظر دوستويفسكى إلى الآخر الذى يقع خارج دائرة القداسة ويرفضه : وقد عُرِّف الآخر بأنه أوربا الملحدة ، والكاثوليك ، والنظام الرأسمالى ، والثورات الاشتراكية ، ولكنه بالدرجة الأولى اليهود . فاليهود هنا ليسوا يهوداً وإنما هم النظام الجديد فى العالم الحديث الذى يستند إلى البيع والشراء والمساومة والقيم البرجماتية ولا يعرف المثاليات أو المطلقات الأخلاقية . ولعله قد يكون من المفيد أن نشير إلى أن علم الإجتماع الألمانى يميز بين الجمايتشافت (الجماعة المترابطة العضوية) والجيسيلشافت (المجتمع التعاقدى الحديث) . واليهودى هو رمز هذا المجتمع التعاقدى بشقيه الرأسمالى والاشتراكى .

اليهود فى روسيا

لا يمكن فهم موقف دوستويفسكى وحدوده إلى تفهم وضع اليهود فى روسيا والموقف الروسى منهم .

١ – كره اليهودى أمر متجذر ومتأصل فى الوجدان الروسى (والسلافى على وجه العموم) . فمسرح العرائس الشعبى كان يحوى شخصية اليهودى الجشع الجبان (على الرغم من أنه كان لا يوجد يهود فى روسيا) حتى أواخر القرن الثامن عشر . ولعل هذا الكره لليهود يعود إلى أيام إمبراطورية الخزر اليهودية (التركية) التى هددت الروس وأخضعتهم لهيمنتها . كما أن العداء التقليدى بين روسيا وتركيا (نظراً لأن صعود الواحد مرتبط تاريخياً بهبوط الآخر) لعب دوراً فى ذلك ، خصوصاً وأن الوجدان الغربى كثيراً ما يربط بين اليهود والمسلمين (ولذا ، ربط دوستويفسكى بين دزرائيلى اليهودى والعثمانيين) .

٢ – ومع ظهور الأدب الروسى الحديث، نجد أن هذا النمط الإدراكى يظل مسيطراً إلى حد بعيد . ومما زاده حدّة ، ضم

روسيا لبولندا ولملايين اليهود ، وقد ارتطمت مطامح الأرستقراطية الروسية في السيطرة على الريف والأحلام الرجعية الروسية بخصوص قضية الشعب (النارود) كشعب عضوي راضٍ بوضعه ، يتسم بالهدوء والاتزان ، ارتطم كل هذا بوجود اليهود كعنصر تجاري متحرك داخل الريف الروسي . وحيث أن كثيراً من الكتاب الروس الأوائل كانوا من الأرستقراطية ، نجد أن الأنماط المعادية لليهود كانت هي السائدة . ويتضح هذا في موقف أساطين الأدب الروسي مثل تورجنيف (١٨١٨ - ١٨٨٣) وجوجول (١٨٠٩ - ١٨٥٢) بل وتولستوي ، الذي كان يهاجم معاداة اليهود باعتبارها تتناقض مع ما ينادي به من ضرورة حب البشر ، ولكنه كان في أماكن أخرى من كتاباته يظهر موقفه الأرستقراطي الروسي المعادي لليهود . وقد ظهر العداء لليهود في كتابات الأدباء النارودنيك مثل نيقولاي بيكراسوف (١٨٤١ - ١٨٧٨) وفيودور ريشتنكوف (١٨٤١ - ١٨٧١) . وقد تم الهجوم على اليهودي باعتباره مستغلاً للجماهير المسحوقة .

ولعل تشيخوف (١٨٦٠ -١٩٠٤) من الكتاب الروس القلائل الذين تناولوا شخصية اليهودي تناولاً يتسم بشيء من التعاطف . أما في الأدب السوفييتي ، فقد كانت صورة اليهودي إيجابية على وجه العموم (بما يتفق مع الخط الرسمي للحزب) ولا يثير أي مشاكل خاصة . (ومع هذا كانت تصدر كتيبات سوفييتية ذات طابع عرقي واضح ، هي مجرد استمرار للموقف الروسي القديم . كما أن تصريحات بعض القادة السوفييت كانت تنحرف عن خط الحزب وتعبر عن الأنماط الادراكية العرقية القديمة بل إن بعض سياسات السوفييت لا يمكن تفسيرها إلا في باعتبار أنها سياسة معادية لليهود .

٣ - كان المستوى المعيشي لأعضاء الجماعات اليهودية أعلى على وجه العموم من مستوى كثير من الفلاحين الروس ، كما أن مستواهم التعليمي كان أعلى بكثير من مستوى الأغلبية (الروسية) . كما حقق بعض اليهود (مثل عائلة بولياكوف وجونز وبرج ثراء واضحا .

٤ - كان اليهود في روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر جماعة وظيفية فقدت وظيفتها وسبب بقائها . ولذا، فقد كانت في حالة تراجع أخلاقي وحضاري هائلة ، فتركزوا في مهن وحرف هامشية (عادة مشينة) مثل تقطير الخمور وإدارة الحانات وبيع الملابس القديمة ، كما كان عدد البغايا اليهود مرتفعاً إلى درجة كبيرة . وكان عدم تحدد ولاء أعضاء الجماعات اليهودية لروسيا أمراً مفهوماً ، فهم كانوا عبر تاريخهم تابعين لبولندا عدو روسيا الأكبر . كما كانوا يتحدثون اليديشية ، وهي لغة عدوهم الآخر - ألمانيا. ولذا، نجد أن صورة اليهودي كمراب وتاجر جشع وجاسوس صورة متواترة في الأدب

الروسى . وهى صورة لها أساس «مادى صلب» . وما لم يدركه دوستويفسكى وغيره أن هذه الحالة اليهودية لم تظهر إلى الوجود إلا فى منتصف القرن التاسع عشر، وأنها مرتبطة بعمليات التحديث فى الإمبراطورية القيصرية ، أى أنها مرتبطة بزمان ومكان محددين ، وعلى الرغم من أن يهود الإمبراطورية الروسية القيصرية كانوا يشكلون الغالبية الساحقة ليهود العالم ، إلا أنه لا يمكن التعميم من حالتهم الخاصة .

الاشمئزاز من اليهود

وقد كتب تورجنيف قصة قصيرة بعنوان اليهودى (١٨٤٧) تعبر بشكل مباشر عن هذا الاشمئزاز من اليهود، فبطل القصة سيتم إعدامه بعد اتهامه بالجاسوسية. وهذا الموقف لا يختلف كثيراً عن موقف جوجول(١٨٠٩ - ١٨٥٢) فى «تاراس بولبا» التى تقع أحداثها إبان حرب البولنديين والقوزاق . وتشتمل الرواية علي وصف ليهودى صاحب حانة يتسم سلوكه بأنه مرتزق خائن يشك فى أنه جاسوس للبولنديين (وقد ظهر نفس الموضوع، أى اليهودى كجاسوس، في إحدى قصص الكاتب اليهودى الروسى السوفيتى إيـــزاك بـــابـــل بعنوان «بريستشكو فى مجموعة الفرسان الحمر».

٥ - لم تكن عملية التحديث تتم بسرعة كافية فى روسيا، ولذا كانت تظهر الأمور كما لو كان اليهود يبذلون قصارى جهدهم للحفاظ على هويتهم والانسحاب من المجتمع الروسى .

٦ - كان اليهود متواجدين بالفعل فى صفوف الثوريين (تروتسكى) والرأسماليين (جونزبرج) والرجعيين(ستاهل) والمسيحيين (شستوف). كما أنه كان لهم وجود ملحوظ فى كل قطاعات المجتمع الجديد مما يعطى انطباعاً للمراقب السطحى بوجود اليهود فى كل مكان وتآمرهم على كل القيم .

٧ - كان دوستويفسكى وكل الإنتلجنسيا (بل والبيروقراطية الروسية) يعانون من جهل شديد بأحوال اليهود . ويعود هذا إلى أنه كان محرماً على اليهود دخول روسيا حتى نهاية القرن الثامن عشر، ولذا لم يكن يوجد فى روسيا أعداد تذكر من اليهود . ثم ضمت روسيا أوكراينا وبولندا في ذلك التاريخ وضمت مع الأراضي أكبر تجمع يهودي على وجه الأرض ، وهو تجمع كان يتحدث اليديشية وله وضع اقتصادى وحضارى متميز .

ورغم جهل دوستويفسكى الشديد بالحقائق التاريخية المتنوعة، قام بالتعميم استناداً إلى معرفته المقصورة على زمان ومكان محددين . وأصبح يهود روسيا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر هم اليهود ككل ، واليهود فى كل زمان ومكان . وهذه هى الطريقة التى تولد بها الأنماط الإدراكية العنصرية . ودوستويفسكى هو ابن عصره الغربى الذى هيمن عليه فكر عنصرى إمبريالى (بالمعنى المعرفى)، قسم العالم إلى عنصرين اثنين متصارعين(الأنا والآخر)، فيقدس الذات ويهدر حقوق الآخر،

ولا يدخل في علاقة مركبة مع التاريخ وإنما يختزله ويجتزئ منه ليدعم وجهة نظره العرقية. وهذا ما فعله دستويفسكي وهتلر، وكل العنصريين من قبلهما ومن بعدهما (وقد لاحظ أحد الدارسين بالفعل السمات المشتركة بين هتلر ودوستويفسكي) .

الجمال والأخلاق

ثم نأتي أخير للقضية التي طرحناها في بداية هذا المقال : التناقض بين رؤية دوستويفسكي الإنسانية العالمية والتي تتبدى أساساً في أعماله الأدبية، وموقفه العنصري الضيق تجاه اليهود . ودهشتنا لهذا التناقض مردها وهمان آخران :

١- يسيطر علينا تصور أن ثمة اتساقاً عضوياً وتكاملاً في حياة البشر، وأن كل إنسان يتبع منطقاً واحداً في حياته . وتبعاً لهذا التصور لا يمكن لفرد واحد أن يكون إنساناً عامر الإنسانية مع مجـمـوعته من البشر ، متوحشـاً بالغ الوحشية مع مجموعة أخرى . ورغم أن هذا التصور منطقي ، فإنه أبعد ما يكون عن الحقيقة المتعينة ، فالوجود الانساني يتسم بالتناقض والتركيب ويجتمع في داخل نفس الإنسان الخير والشر والنبل والخساسة .

٢- يسيطر علينا أيضاً تصور أن ثمة ارتباطا (يكاد يكون عضويا أيضاً) بين الحس الخلقي والحس الجمالي . ومرة أخرى هذا التصور المنطقي المجرد أبعد ما يكون عن الحقيقة المتعينة . أنظر مثلاً إلى أعمال الشاعر الأمريكي روبرت فروست. هنا نجد قصائد رائعة الجمال ترتبط فيها فكرة النظام بالمعنى الجمالي بفكرة النظام بالمعنى الأخلاقي، ولكن يقال إن حياة روبرت فروست الشخصية تتسم بكثير من القسوة والوحشية تجاه أقرب أقاربه، ويمكن أن يكتب أديب عمل فني في غاية الرقي الفني ولكنه يدعو إلى الانحطاط . إن الحق والجمال أمران مختلفان، وهو أمر لا شك محزن، ولكن هذه هي سنة الله، ولن تجد لسنة الله تغييرا . وعلينا أن نتأمل شئ من التفلسف حينما نعرف أن ضباط فرق الصاعقة النازية، كانوا يستمعون إلى موسيقى فاجنر الراقية ويناقشون الأعمال المعمارية الضخمة التي كان يشيدها النظام النازي وهم يشمون رائحة لحم ضحايا المحرقة النازية تشوى ضحاياهم . وأنظر إلى القاهرة ذاتها تجد أن بعض أجمل المباني شيدها الإنجليز، هؤلاء الذين جيشوا الجيوش وأرسلوا بها إلى بلادنا لتنهبها ولتحولها إلى مصدر لفائض القيمة الذي يصب في خزائن الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس ولا دماء الضحايا . إن القيم الجمالية لا علاقة لها بالقيم الأخلاقية، ومن الممكن لكاتب عظيم مثل دوستويفسكي أن يكتب أدباً رائعاً من الناحية الأسلوبية ولكنه عنصري من الناحية الفكرية .

التكوين

شوقى والرافعى



١

الدكتور يوسف خليف

فى البدء كانت الإسكندرية حيث ولدت وقضيت مرحلة الصبا والشباب المبكر ، ثم كانت القاهرة حيث قضيت السنة الأخيرة من الدراسة الثانوية ، وسنوات الدراسة الجامعية بمراحلها الثلاث : الليسانس والماچستير والدكتوراه. وفيها استقرت بى الحياة حتى اليوم .. هذه هى رحلة حياتى .

كانت البداية فى حى رأس التين فى الإسكندرية ، أو - كما يسميه أهلها - «بحرى» ، وهو الحى الذى أسس فيه الإسكندر الأكبر المدينة القديمة ، ففيه كان مولدى فى منطقة « ميدان المساجد » حيث مساجد أقطاب الصوفية الكبار الذين شهدتهم الإسكندرية فى عصر ازدهار التصوف : أبى العباس المرسى ،

كان لها أعمق الأثر في تكويني الأدبي

والبوصيرى ، ويافوت العرش ، وحيث كان معهد الإسكندرية الدينى التابع للأزهر الذى كان أبى – رحمه الله – يعمل مدرسا فيه ، وكان من بين تلاميذه اللامعين الإمام الداعية المجتهد الكبير الشيخ محمد الغزالى الذى يَعُدُّنى أخاه الأصغر ، والذى شاء القدر بعد سنين طويلة أن نحصل معا فى سنة واحدة على جائزة الملك فيصل العالمية : هو فى مجال الدعوة إلى الإسلام، وأنا فى مجال الأدب العربى .

وعلى امتداد رحلتى الدراسية منذ المرحلة الابتدائية حتى نهاية المرحلة الجامعية كان أبى يمثل المدرسة الأولى التى كان لها التأثير البعيد المدى فى تكوينى العلمى ، والأستاذ الأكبر الذى تابع خطواتى على امتداد الطريق الذى قطعته بين المرحلتين ، فمنه تلقيت توجيهاته المبكرة ، وعلى يديه كانت دراساتى الأولى ، وعلى مكتبته الخاصة كانت قراءاتى التى كانت تملأ علىَّ أوقاتى بعيدا عن القراءات التى كانت تفرضها حياتى المدرسية وحياتى الجامعية. ومازلت أذكر يوم انتهيت من دراستى الجامعية ، وبدأت رحلتى مع الدراسات العليا ، أن قَطَع علىَّ بدايتها ، واستوقفنى مع الخطوة الأولى منها ، لأقرأ عليه شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، انطلاقا من إيمانه بأهمية النحو لكل من يعمل فى اللغة العربية فى أى مجال من مجالاتها . ومعه أنفقت سنة كاملة فى قراءته ، مشغولاً به عن رسالتى التى كنت أعدها للماجستير فى الأدب الجاهلى .

بدأت مع المكتبة

وعلى مقربة من بيتنا على الطريق بينه وبين المدرستين الابتدائية والثانوية اللتين كنت طالبا بهما ، واللتين كانتا فى الحى الذى نعيش فيه ، كانت مكتبة صغيرة ، وكان اسم صاحبها غريبا علىَّ ، فاحتفظت به ذاكرتى حتى اليوم ، كان اسمه «النُّنْ »، وعلى امتداد السنوات التى قضيتها فى المدرستين كنت « زبونا » ملازما لها ، أتردد عليها ما أتيحت لى فرصة التردد عليها ، وأشترى منها ما أراه يشدنى إليه من كتبها العربية والإنجليزية ، وكانت الكتب فى ذلك الزمان زهيدة الثمن ، وكنا نبدأ تعلم اللغة الإنجليزية من السنة الأولى فى المدرسة الابتدائية ، وكان المدرسون الذين يقومون بتدريس هذه اللغة فى المرحلة الثانوية من الإنجليزية ، فكان مستوانا فيها طيبا . ومن كتب هذه المكتبة اشتريت كثيرا وقرأت كثيرا . وفى البداية ، فى المرحلة الابتدائية ، كانت كتب كامل الكيلانى التى كان يقدمها للناشئة من هذا الجيل تمثل أعلى نسبة فى قراءتى ، قرأت منها رحلات السندباد ، وجلفر فى بلاد الأقزام ، وجلفر فى بلاد العمالقة ، وقرأت غيرها كثيرا ، ثم ارتفعت النسبة فى المرحلة الثانوية فى مجالات أخرى ، وأخذت قراءاتى فى الإنجليزية تتسع



يوسف خليف في بداية المرحلة الثانوية

لتشمل مع القصص والروايات الشعر أيضا .

وككل ناشئة الأدب في ذلك الوقت شدتني بصورة قوية كتب المنفلوطي : النظرات والعبرات وتحت ظلال الزيزفون وغيرها ، وكتب الرافعي : أوراق الورد ورسائل الأحزان والسحاب الأحمر وحديث القمر ، وشدتني أيضا مسرحيات شوقي ، وبصفة خاصة «مجنون ليلى» و«مصرع كليوباترا» و« عنترة » و« قمبيز » ، وكذلك قصائد الجارم التي كانت لها الصفحة الأولى من «الأهرام» ، والمنزلة الأولى في الإذاعة ، وكان الجارم يتميز بأسلوب خلاب في إلقاء شعره يشد من يستمع إليه كأنه السحر . وشدني إليه أيضا زكي مبارك – كما شد كثيرا من شباب جيلنا – بمقالاته الأسبوعية التي كان ينشرها في «الرسالة» بعنوان « الحديث ذو شجون » . وكنت – مع بداية المرحلة الثانوية – بدأت تجاربي الأولى في نظم الشعر ، وأذكر أنني أرسلت بقصيدتين من شعري كنت نظمتهما في هذه المرحلة المبكرة من شبابي ، وقدمتهما إليه بأبيات من شعري تحية له . فهما قصيدتان لم أنشرهما في ديواني « نداء القمم » ، فقد كنت أراهما تجربتين صغيرتين لشاعر يبدأ خطواته الأولى على طريق الفن . وكانت الأولى بعنوان « عهود الصبا » ، وكان مطلعها :

ذِكْرُ أيامِيَ في ظلِّ التصابي
خَلَّفَ العاشقَ في حَرِّ العذابِ
آهِ ياقلبي مَضَى عهدُ الهوى
وانطوت أيامُه طَيَّ الكتاب
هل لعهد قد مضى من مَرْجِع ؟
أو لأيامٍ تولَّتْ مِن مآبِ ؟

وقدَّمتها إليه بهذين البيتين :

سيدى الدكتور هذى صفحة
من عهود الحُب في القلبِ الوَفِيّ
لطبيب الحبِّ أهديها عسى
أن أنال البُرْءَ للروحِ الشقيّ

وكانت الأخرى بعنوان « آهة ونجوى »، وفي مطلعها أقول :

أتعلمُ ربَّةُ السحرِ
ووحْيِ الفنِ والشعرِ
بما ألقاه من ألمٍ
وما ألقاه من درِ

وفي نهايتها أقول :

فياربِّي ، وإذا قدَّرْ
تَ أن يحظى بها غيرى

فمتّعْنـــى بهــا يــاربِّ
في جَنّـــاتكَ النُّضـــرِ
وقدمتها إليه بهذين البيتين :
صفحةٌ أخرى من الحبِّ الأمينْ
ياطبيبَ الحب أهديهـا إليكا
فتقبّلهـــا فــإن العـــاشقينْ
سَعـدوا بالطب منْ بينِ يَدَيكا

وكان الدكتور زكى مبارك رفيقا معى ، فقد ردَّ علىَّ برسالة يشجعنى فيها على المضى فى طريق الشعر ، وينصحنى فيها بقراءة البحترى وشوقى لترفع من المستوى الموسيقى فى شعرى ، ثم كتب عنى كلمة فى « الحديث ذو شجون » يتنبأ لى بأن سيكون لى مكان بين الشعراء ، وهى نبوءة حققتها الأيام فترة من الزمن ، ثم وقفت دونها حياتى الأكاديمية بعد أن عينت فى الجامعة ، فشغلتنى شواغلها عن التفرغ للشعر إلا فى ظروف كانت تمر بى من حين إلى حين ، فأعيش تجربة جديدة أعود معها إليه .

★ ★ ★

ومن بين هذا الحشد المتزاحم من القراءات وقفت طويلا مع قمتين شامختين من قمم أدبنا الحديث ، كان لهما أعمق الأثر فى تكوينى الأدبى :

أحمد شوقى القمة الشامخة التى شهدها شعرنا الحديث ، وكان المثل الأعلى لناشئة الشعراء فى جيلنا الذى كان يشهد نشاطا أدبيا وفنيا نابضا بالحياة ، زاخرا بالعطاء . وكانت مسرحياته البداية الرائدة للمسرح الشعرى العربى التى استطاعت - من خلال عبقرية صاحبها التى لم تكشف أسرارها حتى الآن - أن تكون بداية ناضجة على الرغم من تلك الحملات الظالمة التى آثارها حولها أولئك الذين خطف بريقها أبصارهم فلم يعودوا يبصرون ، وأولئك الذين قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مقتدون . وكنت فى تلك المرحلة المبكرة من حياتى قد بدأت رحلتى مع الشعر ، وأمامى المثل الأعلى أمير الشعراء فى تراثه الفنى الذى خلفه تراثا خالدا فى الشعر العربى . وبدأت صلتى بمسرحياته التى كانت أقرب إلينا - نحن ناشئة الشعراء - وأشد جذبا لنا ، وخاصة « مجنون ليلى » و« مصرع كليوباترا » ، ثم تابعت الطريق مع «الشوقيات» . وراعتنى من شوقى أربعة أشياء زادت من فتنتى به : ذلك النغم العذب الذى ينساب من ثنايا شعره ، ويتحول - بحق - إلى معزوفات موسيقية كأنها « سيمفونيات » من الموسيقا الكلاسيكية الخالدة ، ثم تلك الثروة اللغوية الضخمة ، أو ذلك الرصيد اللغوى الثرى الذى كان يمتلكه لينفق منه كيف يشاء فى براعة واقتدار ، وسيطرة على المادة اللغوية، وقدرة على تطويعها لما يريد أن يعبر عنه ، ثم ذلك الخيال المحلق فى أبعد الآفاق فوق أعلى القمم بأجنحة قوية كأنها أجنحة نسر لا يرتضى غير القمم العالية منزلا له ، ثم أخيرا تلك المعانى العميقة التى كان يغوص من أجلها فى أعماق عقله الذكى المتوقد كما يغوص صياد اللؤلؤ فى



في بداية المرحلة الجامعية

بحرٍ لُجّى بحثا عن حياته البكر العذراء .
واستمرت صلتى بشوقى على امتداد حياتى الجامعية التى أتاحت لى خيطا جديدا إلى جانب الخيوط التى كانت تشدنى إليه ، حين أعادتنى مرة أخرى إلى مسرحياته ، فقد شاهدت « مجنون ليلى » و« مصرع كليوباترا » تمثلان على مسرح دار الأوبرا ، لا مرة أو مرتين ، وإنما مرات ومرات ، وعشت معهما فى حلم طويل لا أريد أن أصحو منه فى صحراء نجد ، فى مضارب بنى عامر ، وعلى شواطىء الإسكندرية ، فى قصر كليوباترا . وتمر الأيام وإيمانى بعبقرية شوقى يزداد ، وإعجابى به يمتد إلى ما لا نهاية . وأنا اليوم بعد رحلتى الطويلة مع الأدب العربى أعتقد أن شوقى - ومعه المتنبى - هما أعظم شاعرين أنجبتهما العربية على إمتداد رحلتها مع الشعر العربى لأكثر من خمسة عشر قرنا من الزمان .

★ ★ ★

ومع شوقى يتراءى لى الرافعى قمة أخرى من قمم أدبنا الشامخة ، فهو الأديب الذى استطاع أن يعود بالأسلوب العربى إلى أصالته السليمة البعيدة عن أوشاب العجمة وأمشاج التغريب وإسفاف الذين يتراءى لهم التجديد نبتا شيطانيا لا أصول له ولا جذور تشده إلى أرضنا الطيبة ، ولا وشائج ولا أسباب تربطه بتراثنا العربى الخالد الذى تضرب جذوره فى هذه الأرض الطيبة أكثر من خمسة عشر قرنا من الزمان . وهو أقدم تراث أدبى بين الآداب العالمية كلها امتدت رحلته - وستمتد - طوال هذه القرون وما بعدها دون إنقطاع . وهو - فوق ذلك - وثيق الصلة بكتاب العربية المعجز الخالد ، القرآن الكريم . وكان الرافعى يتراءى لشباب جيلنا عملاقاً ضخما بين عمالقة الأدب الذين كانت تزخر بهم الساحة الأدبية فى هذه المرحلة الخصبة الخلاقة من تاريخنا الأدبى ، وكانت أصداء معركته الأدبية - بل معاركه - مع العقاد وطه حسين حول القديم والجديد لا تزال تدوى فى أسماعنا وأعماقنا ، ومازلت أذكر - بعد هذا الزمن الطويل - بيتيه اللاذعين اللذين أثبتهما على غلاف نقده للعقاد فى كتابه « على السّفود » ، ومعهما رسم لعملاق جبار يشوى قزما ضئيلا على سفود من حديد فوق نيران جمر متقد :

والسَّقَـود نـار لو تَلَقَّـتْ
بجاجمها حديدا ظُنَّ شحما
وتشوى الصخر تتركه رمادا
فكيف وقد رميتكَ فيه لحما

وكـان أول مـا قـرأته له « ثلاثيـتـه » الوجدانيـة الرائعـة : أوراق الورد ورسـائل الأحزان والسحاب الأحمر . ومعها قرأت «حـديث القـمـر» . وكـانت تتـرامى إلى أسماعنا – نحن شباب هذا الجيل – أنباء علاقة عاطفية بينه وبين الأديبة الرقيقة المرهفـة الهـامـسـة « مىّ » . وكـانت مىّ كالزهرة الناعمة العطرة الحلوة التى تحوم حولهـا أسراب النحل والفراش الهـائمـة الحالمة بأحلام الشـهد والضـيـاء ، وكنا نسمع عن صالونها الأدبى الذى لم يدركه شباب جيلنا ، وإنما أدركه رواده الأوائل ، وما كان يدور فيه من حوار أدبى بين هؤلاء الرواد أثرى الحياة الأدبية ثراء خصبا ، وترك بصماته على المجتمع الأدبى فى ذلك الوقت واضحة قوية . وكنا نعيش مبهورين على ما يتساقط إلينا من أنباء هذه الفترة الخصبة التى لم ندركها ونتمنى لو كنا أدركناها . وكنا نسمع أن هذه « الثلاثية » الوجدانية التى استطاع الرافعى بعبقريته الفذة أن يتحول فيها من أسلوب النثر إلى أسلوب الشعر ، وأن ينقلنا من دنيا الواقع والتقرير إلى دنيا الخيال والتصوير ، إنما كـانت من وحى « مىّ » ، وأنهـا تسـجـيل أدبى لقصة عاطفية هزت وجدان الأديب الكبير ، وكانت – فيما سمعناه – سببا من أسباب الخصومة العنيفة التى احتدمت بينه وبين عملاق عصره الكبير العقاد .

ومـضـيـت إلى هذه « الثـلاثيـة » أقـرؤها ، وشدنى إليـهـا أسلوبها العربى الأصيل ، وتلك القـدرة القـديرة على التـصـوير الفنى التى كان يمتاز بها صاحبها ، والتى طبعت أسلوبه بأهم سـمـة فـيـه ، ثم ذلك النهـر الدفـاق . من المشـاعـر العـاطـفـيـة التى تترقرق أحيانا هادئة ناعمة رقيقة كأنها « أوراق الورد » ، وتتـدفق أحـيـانا أخـرى غاضبة ثائرة كأنها «السحاب الأحمر» ، ثم تعود إلى هدوء حزين تتوالى موجاته يائسة مستسلمة كأنها تسجل فوق الشاطىء الصخرى الذى تتكسر فوقه صفحات من «رسـائل الأحـزان»، ومن وراء اللوحـة بألوانها الهادئة والصارخة يظهر « القمر » فى تلك النجوى الحالمة بينه وبين صاحبها الذى يقضى لياليه الساهرة فى « حديثه » معه ، وفى أعماقه البعيدة صورة ملهمته التى أوحت إليه بهذه اللوحة تختفى حينا وتطل علينا حينا آخر . وأشهد أننى لقيت فى قراءتها – فى هذه المرحلة المبكرة من حياتى الأدبية – عناءً شديداً ، وبذلت فى متابعتها جهدا مضنيا ، فقد كان أسلوب الرافعى العميق ، وجمله الطويلة المتشابكة، وصوره الفنية المركبة تركيبها معقدا ، تشكل أمامى مجموعة من المشكلات ، فقد كنت مازلت طالبا فى المرحلة الثانوية ، ولكن هذه المشكلات كانت تتهاوى مع إصرارى على مواصلة القراءة كما تتهاوى جبال الجليد تحت حرارة الشمس الصامدة ومع تهاوى الجبال واصلت الطريق مع



بعد التخرج من الجامعة

الرافعى حتى نهايته .

ولكن كان هناك كتاب شدنى إليه ، ووقفت طويلا معه ، وقرأته مرات ومرات ، ومازلت أتمنى أن أعاود قراءته مرات ومرات، فقد كان له دور كبير فى اتجاهى إلى دراسة الأدب العربى ، والأدب العربى القديم بالذات ، وبخاصة الأدب الجاهلى ، بعد أن كان اتجاهى إلى دراسة تاريخنا المصرى القديم لأتخصص للآثار الفرعونية، مما دفعنى - وأنا مازلت طالبا فى مرحلة الدراسة الثانوية - إلى قراءات كثيرة فى التاريخ الفرعونى ، وإلى تعلم الكتابة الهيروغليفية . وكان هذا الكتاب هو كتاب الرحالة المصرى أحمد حسنين باشا « فى صحراء ليبيا » ، وهو تسجيل لرحلة قام بها فى سنة ١٩٢٣ اخترق فيها هذه الصحراء الرهيبة العاتية المترامية الأطراف من مدينة « السلوم » على شاطىء البحر المتوسط إلى مدينة «الأبيض» عند منابع النيل فى كردفان ، قطعها على ظهور الإبل مع قافلة من بدو هذه الصحراء ، وكشف فيها لأول مرة فى التاريخ عن واحتين مجهولتين فى المثلث الجنوبى الشرقى الذى تلتقى عنده حدود مصر والسودان وليبيا ، وهما أركنو والعوينات ، وكانتا غير معروفتين للجغرافيين من قبل ، بعد رحلة امتدت ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر . واستمرت سبعة أشهر وثلاثة وعشرين يوما فى أعماق المجهول بعيدا عن أى اتصال بالعالم من حولها ، عاد بعدها بالقطار إلى القاهرة فى أول أغسطس من هذه السنة ، لتستقبله حفلة تكريم ألقيت فيها رائعة شوقى أمير الشعراء التى يخاطبه فى مطلعها بقوله :

أقدِم فليس على الإقدام مُمْتَنِعُ
واصنعْ به المجد فهو البارع الصنع

وفيها يرى الحياة كالصحراء ، ويمضى فى موازنة بينهما ، فكلتاهما شريعتها المفاجأة ، ووراء كل سبيل فيهما قدر مجهول ، والإنسان فيهما لا يعرف ما يخبئه القدر له ، وهو لا يملك فيهما إلا أن يمضى خلف دليل يقوده فيتبعه حتى لو أورده موارد الهلاك ، وينتهى من هذه الموازنة إلى أن الحياة ليست إلا سرابا يلمع فوق رمال الصحراء . ثم ينتقل إلى الحديث عن الرحالة المصرى البطل واصفا عجائب رحلته فى أعماق المجهول ، ليختمه بهذا البيت الرائع الذى يوجهه إليه ، والذى لا يصدر إلا عن خيال شوقى المحلق الوثاب :

ولو جَزْتَكَ الصحارى جئتنا مَلَكاً
من الملوكَ عليكَ الرّيشُ والوَدَعُ

والكتاب يقع فى مجلدين كبيرين فى

أكثر من أربعمائة صفحة ، منها حوالى مائة فى آخره تتضمن تحليلا علميا للنتائج الجغرافية والجيولوجية التى حققتها الرحلة، قدمه أستاذ إنجليزى من المتخصصين لدراسات الصحراء وانتهى فيه إلى أن هذه الرحلة فوز يكاد يكون فريدا فى تاريخ الكشوف الجغرافية .

ولكن هذا كله لم يكن هو الذى شدنى إلى هذا الكتاب ، فقد كنت مازلت طالبا فى المرحلة الثانوية ، ولم يكن هو الذى أغرانى على معاودة قراءته مرات لا أكاد أحصيها ، وإنما الذى شدنى إليه ، وأغرانى على ذلك، هو الأسلوب الأدبى المرهف الحساس الذى كتب به ، فالكتاب – إلى جانب قيمته العلمية الكبيرة التى سجلها العلماء له – قطعة أدبية رائعة ، سجل فيه صاحبه مشاعره وأحاسيسه وهواجسه ومخاوفه وآماله وأحلامه وانطباعته وتأملاته وهو يخترق هذا التيه المقفر الموحش نحو المجهول الذى لا يعرف عنه شيئاً ، وصور فيه ما تعرضت له قافلته من مخاطر وأهوال ، وما اهتز له قلبه وقلوب رفاقه من مشاعر الخوف والقلق والرهبة ، فى أسلوب أروع ما فيه أنه كان صدى صادقاً لكل ما أحسه وأحسوه وهم يخترقون المجهول نحو المجهول ، ورسم فيه صورا فنية رائعة تنطق بالحياة لمشاهد الصحراء ومناظرها فى هدوئها وثورتها ، فى رضاها وغضبها ، فى ابتسامها وتجهمها ، فى عنادها ودلالها، فالصحراء – كما رآها وكما خبرها فى رحلته الطويلة معها – امرأة !

شدنى إلى هذا الكتاب وصفه للصحراء، والصورة الجميلة الرائعة التى رسمها لها، وعشت معه الليالى ذوات العدد، أفكر فى الصحراء ، وأرى الحياة فيها من خلال صورتها التى رسمها لها ، وما كان خيالى يضفيه عليها من رؤى وهالات ، وكأنى فى حلم لذيذ لا أريد أن أفيق منه ، بل لا أملك أن أفيق منه ، فقد شدنى إليه بقوة سحرية خفية لم أستطع منها فكاكا ، سيطرت على مشاعرى ، فعشت تحت تأثيرها كأنى مسحور لا يملك من أمره شيئا . وفى أعماق هذا الحلم عشت فى الصحراء بدويا نسى حياته الحضرية ، وتوالت علىّ ذكريات نجد والحجاز التى عشتها مع أدبنا العربى الخالد تحمل إلىّ أنفاس الصحراء، ومعها أنغام شعرائها الخالدين . وخرجت من قراءته وفى أعماقى بدوى خارج من أعماق الصحراء، يرنّ فى أذنى قول شاعرنا العربى البدوى الكبير ، المتنبى :

ذرانى والفلاةَ بلا دليلٍ
ووجهى والهجيرَ بلا لثامِ
فإنى أستريح بذى وهذا
وأتعب بالإناخة والمقامِ

وفى ظنى أن هذا البدوى الذى عاش فى أعماقى منذ هذه المرحلة المبكرة من حياتى هو الذى حبّب إلىّ شعرنا العربى القديم ، وهو الذى وجهنى إلى دراسته والتخصص له فى مرحلة حياتى الجامعية بعد ذلك ، وهو أيضا الذى يسّر لى أن أعيش تجربته وأحياها ، فكانت قراءاتى له حياة أعيشها لا نصوصا أقرؤها .

يستكمل د . يوسف خليف «التكوين الثقافى» فى العدد القادم



• الصهيونية وتزييف التاريخ الفرعونى •

تناولنى بالنقد الدكتور سعيد محمد ثابت فى كلمته بهلال مايو ١٩٩٣ م .. رداً على مقالى «اخناتون والصهيونية الثقافية» الذى نشر فى مارس ١٩٩٣ .. ويدور حول المحاولات الصهيونية لتهويد الشخصيات المصرية العظيمة مثل اخناتون (١٣٨٠ ق . م) وأمه الملكة (تى) وغيرهما .. ومحاولات بعض مثقفينا مثل دكتور سعيد محمد ثابت الذى يزعم أن فرعون موسى هو الشخصية الاسطورية (ايزوريس) والذى يرمز فى قصة (ايزيس وازوريس) التى انتشرت قبل عهد الأسرات الفرعونية بحوالى ٤ آلاف سنة إلى إله الخير ! كما أنه يدعى فى كتاب له أن حقبة ايزوريس هى حقبة ما قبل الأسرات [٣٢٠٠ - ٣٠٠٠ ق . م] وأن هذا الفرعون الوهمى شخصية حقيقية . وأخطر ما جاء فى كلمة دكتور ثابت هو وصفه للحركة الصهيونية الثقافية بأنها مجرد وهم رغم أن كل الشواهد والممارسات الصهيونية تؤكد وجودها مثل ادعائهم بأن اليهود هم بناة الأهرام فى مصر ! وقد قالها مناحم بيجن للسادات بخبث «إن اجدادى هم الذين بنوا الاهرام» ! وفى آخر مؤتمرات «الإستا» السياحية وزعت الحركة الصهيونية منشورات دعائية فى أوروبا تقول : «تعالوا لزيارة الأهرامات وزيارة من بناها» !! هذا غير ما تحاول الصهيونية الحديثة ترسيخه فى العقل العالمى العام بأن لهم وجوداً تاريخيا عميقا فى مصر ، يخترق عصور ما قبل الميلاد ليصل إلى عصور ما قبل الأسرات الفرعونية ويستتبع ذلك بالطبع تزييف التاريخ الموثق والمؤكد واثبات أن سيدنا موسى وجد فى حقبة ما قبل الأسرات ! وأن فرعون موسى ليس رمسيس الثانى (فرعون الاضطهاد) وليس ابنه مرنبتاح (فرعون الخروج) بل هو الفرعون (ايزوريس) وهو شخصية اسطورية ! ولكن دكتور ثابت يزعم بأنه شخصية حقيقية وأنه الفرعون الذى اضطهد موسى وأخرجه وقومه من مصر ، وهو بذلك يخدم الصهاينة لأن اليهود يهمهم جدا أن يكون زمن موسى هو زمن ما قبل الأسرات الفرعونية من أجل

تأكيد هدف دينى خطير يمكن أن يهدم أسس الحضارة المصرية كلها ، فلو كان ذلك صحيحا لأصبحت (التوراة) عندئذ أسبق من كل التراث الفرعونى مثل كتاب الموتى ومتون الأهرام وحكم امينوبى الحكيم الفرعونى العظيم وأناشيد أخناتون الدينية !

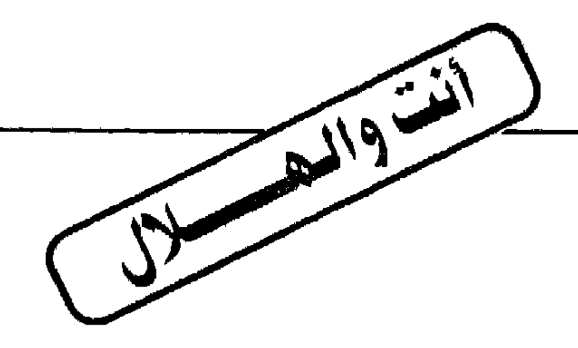
ومعنى ذلك أن إبداعات قدماء المصريين وحكمهم وترانيمهم التوحيدية .. كلها أو معظمها يكون مسروقاً مما جاء فى التراث التوراتى لأنه «الأسبق» ! مع أن ثقات المؤرخين قد اثبتوا بالنصوص المقارنة أن علماء اليهود قد سطوا على معظم ما جاء فى التراث الفرعونى وغيره أى أنهم يريدون باختراق الأزمنة التاريخية السحيقة لمصر ووضع موسى فى زمن ما قبل الأسرات واختلاق فرعون اسطورى له إثبات أن اليهود لم يسطوا على حكم امينوبى والأنشودة العالمية لاخناتون وغير ذلك ..

لذا لا بد من تباين خطأ اجتهادات دكتور ثابت حول حقبة موسى وفرعونه وسوف أعرض لأربع نقاط كافية لهدم اجتهاداته :

١ - **حقبة موسى من الناحية الچيولوچية** : إذا كان موسى وفرعونه قد ظهرا فيما قبل الأسرات فإن هذه الحقبة التاريخية هى : العصر الحجرى القديم من ١٨٠٠ إلى ١٠٠٠٠ ق . م وقبل ذلك بنحو أربعين ألفا من الأعوام حيث ظهر انسان «النياندرثال» وزال هذا الانسان ليحل محله انسان «الكرومانيون» Cro - Man-gion وبعده العصر الحجرى الحديث من عام ١٠٠٠٠ إلى عام ٦٠٠ ق . م .. ثم عصر ما قبل الأسرات .

٢ - **مقارنة زمن ابراهيم (جد موسى) والحفيد موسى** : القول بأن موسى وجد فى حقبة ما قبل الأسرات الفرعونية يعنى أن سيدنا موسى (الحفيد) ولد قبل جده الأكبر ابراهيم بمئات آلاف السنين ، وهو منطق تاريخى معكوس وباطل ! ولن نذهب بعيدا فسوف استشهد بما جاء فى التوراة ذاتها !! يقول سفر التكوين أن ميلاد سيدنا ابراهيم كان عام ١٩٤٨ قبل ميلاد آدم .. وهو يحدد بالسنوات من ١٨٠٠ إلى ١٨٦٠ ق . م كما جاء فى كتاب «موريس بوكاى» [التوراة والقرآن والانجيل والعلم] وهذا التاريخ يواكب عصر سنوسرت الثالث (١٨٨٢ - ١٨٤٥) ق . م تقريبا أى فى عهد الأسرة الفرعونية الوسطى الثانية عشر ١٧٩٥ - ١٧٩٠ ق . م !!

٣ - زمن كتابة التوراة : كتب موسى أسفاره الخمسة المعروفة باسم Penta-teuque وما كتبه علماء اليهود فى قضية الأسفار فى فترة زمنية تقدر بحوالى ٩٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح ، أى أنه لم يكتب قط فى زمن قبل الأسرات الفرعونية .



٤ - **التقويم العبرى الزائف** . الدكتور ثابت يدعونى إلى مشاركته فى محاربة الادعاءات الصهيونية ، لا مانع يا سيدى ! ولكن كيف ؟ وأنت تعتمد التقويم العبرى الذى يؤرخ لطرد اليهود من مصر (ولا أقول خروج) وقد وصل هذا التقويم حتى الآن إلى عام ٥٧٥١ فى تقدير اليهود الزائف .. وهو تاريخ يثبت من وجهة نظر اليهود أن موسى وجد فى حقبة ما قبل الأسرات الفرعونية أى منذ العصر الحجرى وخطورة هذا الزعم أنه يعطى حقوقا لليهود مثل حق العودة إلى موطن الأجداد وهو مصر .. ولا أتجنى على دكتور ثابت فقد نشرت له مجلة آخر ساعة بصورة تثير تساؤلات عديدة ملخصاً لاجتهاداته الضارة بمصر عن فرعون موسى وزمنه وقال دكتور ثابت بالنص : «إذا كان التقويم العبرى يشير إلى أننا الآن فى سنة ٥٧٥١ فمعنى ذلك أن (الخروج) قد مضى عليه ٥٧٥١ سنة أى أن الخروج كان فى حقبة ما قبل الأسرات ، لذا فإننى أسأل الدكتور : كيف أشاركك يا سيدى فى محاربة الادعاءات الصهيونية ؟ هل أعترف بالتقويم العبرى وأزعم أنه تاريخ صحيح ؟ هل أوافق على أن لليهود بعداً تاريخاً هائلاً وعميقاً فى بلادى ؟ لا .. لا بكل تأكيد !! ، ويقول الدكتور أن أخناتون ليس أول من توصل إلى ديانة التوحيد أقول لسيادته نعم أخناتون أول من توصل إلى ديانة التوحيد التى تعدت حدود مصر لأنه كان يمتلك تنظيرا دينيا راقيا يتمثل فى أناشيده الدينية وتراتيله التوحيدية (الأنشودة العالمية مثلا) ولكننا لا نعرف شيئا عن التراث الدينى للأنبياء القدماء ! وقد أطلق دكتور أحمد بدوى على (اخناتون) وصف (النبى الاجتماعى) ! وما يثير حقا هو اهتمام الدكتور بالوجود اليهودى فى مصر إذ أعلن بجريدة الجمهورية ٢١ / ٢ / ١٩٩٣ إنه اكتشف مومياوات يهودية .. وعلى ٢٤ كفنا لأسباط اليهود أخوة يوسف !! أما بخصوص المؤرخ (يوسف) اليهودى فهو عدو لمصر وولد عام ٣٧ ق . م وتحداه الكاتب المصرى (أبيئون) وقال عن قومه أنهم (أنجاس) !

حمدى خضرى وفا – من رجال التعليم بالشرقية

• قلبى •

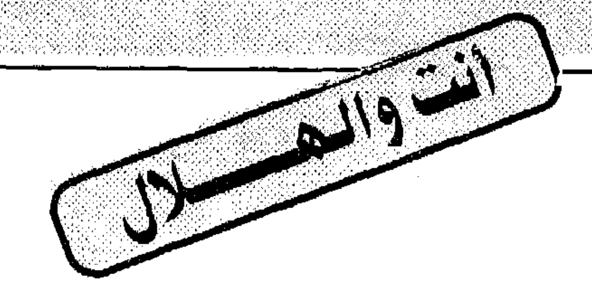
تحـمـل من صـنـوف الهـم مـا لـو
تـحـمـلـه المقـطـم صـار دكـا
ومـا لـت نـحـوه غـيـر الليـالى
بنـاب مـن نيـوب الـرقـط أنـكى
وكـم ذاق المـرارة مـن زمـان
تعـيـث خطـوبـه فـى النفس فتكا
ومـا رفـت بجنبيـه الأمـانـى !!
ولـو نـبـت الأسـى غطـاه شوكا
لـقـد رغـب الحـياة بغيـرهـم
فـكـان الحلـم أوهـامـا وإفـكـا

عزت فتحى سعد الدين
محاسب بشركة رامو مدينة نصر

• طه حسين وحقائق فى حياته •

جاء مقال الدكتور محمد الدسوقى (هلال أغسطس ١٩٩٢) ثم مقال الدكتور مصطفى عبد الغنى (هلال مارس ١٩٩٣) عن زوجة الدكتور طه حسين وأثرها فى حياته علامة صحية على انفراج الجوانب الغامضة فى حياة عميد الأدب العربى على النحو الذى بدأه عدد من الكتاب منذ عشرين عاما .

وكان الدكتور البهبيتى أكثر تلاميذ طه حسين تقربا منه وكانت الصحف تنشر بياناته لشباب الجامعة أيام أزمة طه حسين للالتقاء به - بوصفه قائد هذا الفريق (١٩٣٢ وما بعدها) - ولكن عندما عمل طه حسين وزيرا للمعارف اختلف مع تلميذه الاثير فى بعض الأمور اختلافا دفع البهبيتى إلى كتابة عدد من المقالات فى مهاجمته ونقد بعض تصرفاته على نحو أفضى إلى أن يترك البهبيتى مصر كلية ويلجأ إلى المغرب كما فعل الدكتور محمد محمد حسين الذى ظل الأستاذ العميد يطارده حتى ذهب إلى الرياض وكما فعل مع الدكتور الخضرى وتلك كانت طريقته مع تلاميذه



الذين اختلفوا معه فما بالك بخصومه ، وقد كشف الدكتور البهبيتى حقائق كثيرة عن طه حسين فى مقدمة كتابه : (مقدمة فى التاريخ والأدب العربيين) المطبوع فى المغرب ، وفيما يتعلق بزوجة العميد قال : إنها كانت تعمل فى محل حلاق أمام الجامعة فى باريس بصفة حاسبة (كيس) وكان لدى أمها غرفة تؤجرها للطلبة الغرباء وقد التحق بها طه حسين وظلت هذه الغرفة تؤجر لطلاب الجامعة حتى وقت قريب جدا عندما سكنها فى السنوات الأخيرة (١٩٦٠ وما بعدها) الدكتور محمد القصاص وقد ظلت أم سوزان تحدثه طيلة الليل عن ابنتها حتى خشى الدكتور القصاص أن يصل خبر ذلك إلى العميد فيحاسبه فخرج مبكرا ليبحث عن مسكن آخر .

وقد سجل الدكتور البهبيتى هذه القصة فى مقدمة كتابه ليؤكد أن سوزان لم تكن كما أدعى الدكتور طه طالبة فى الجامعة معه .

وتعجب عندما ترى الكاتبة سناء البيسى تكتب فى إحدى المجلات العربية تحت عنوان : «الحاج طه حسين» مدعية أنه حج إلى بيت الله الحرام عام ١٩٥٥ ، والحقيقة أنه لم يحج وإنما اعتمر ولم يزد على أن طاف بالكعبة وكان قد ذهب لعقد اللجنة الثقافية للجامعة العربية فى جدة وقد قوبلت هذه الزيارة بالوجوم من المثقفين السعوديين الذين كانوا قد قرأوا (فى الشعر الجاهلى) و(حديث الأربعاء) لولا أن مدرسا ذكيا هو المرحوم (كامل حتة) سارع فاتصل بالدكتور طه وشرح له الموقف وطلب منه أن يخطب فى تحية الدعوة الوهابية والاسلام وفضل الأراضى المقدسة وتاريخها حتى يخفف من وقع زيارته .

أنور الجندى



حياة تلك أم عمر يمر — يمر المر يتبعه الأمر

شبابى قد تولى فى عذاب — فكيف إذن بشيبى وهو شر ؟!

أضيق لأننى لا شئ غيرى — فحزنى غير حزن الناس مر

تحـارب هـــذه الأيـام قـلبى — ولـيس لـــهـــذه الأيام عـــذر

جبال الثلج تسكن فـوق صـدرى — وكيف يعيش تحت الثلج صـدر ؟!

تحملت الجليـد طـوال عـمـرى — وقلتُ : غـدا سيأتى ما يـسـر

وكـــل غـــد يحـــارب أمنياتى — فهـذا الـثـلـج باق مسـتـمـر

فيـا شـمسَ الحياة أنا المعنى — أنا المسـجون ليس لـه مـفـر

فهل تأتين هــل تـــأتين نحــوى — ليشـرق حيـن تبتسمين فجر ؟

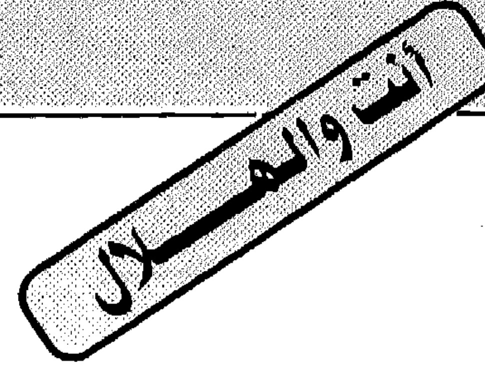
عبد العزيز محمد الشراكى - المنصورة

● تاريخ العتبة الخضراء ●

بمناسبة تجديد ميدان العتبة الخضراء بالقاهرة نذكر أن «العتبة الخضراء» تنسب إلى قصر بهذا الاسم بناه الوالى عباس باشا الأول لوالدته سنة ١٨٥٠ فى وسط ميدان العتبة الحالى ، وكان اسم ميدان العتبة الخضراء يطلق على الميدان الصغير الواقع شرق القصر أى أمام «لوكاندة البرلمان» حاليا .. وكان يوجد بالميدان القديم جامع أزبك وهو من قادة جيش السلطان قايتباى وقد هدم فى عهد الخديو اسماعيل باشا ، ويقع مكانه الآن لوكاندة البرلمان ..

وكان فى ميدان العتبة تمثال ابراهيم باشا ولبث هناك من سنة ١٨٧٥ إلى سنة ١٨٨٢ إذ نقل إلى مكانه الحالى فيما يسمى ميدان الأوبرا .

وفى ١٨٧٧ تحول قصر العتبة الخضراء إلى مقر للمحكمة المختلطة ، وفى ١٩٣٤ هدم مبناها ونقلت إلى دار القضاء العالى الحالى ، وصار ميدان العتبة بالاتساع الحالى ، وحتى ١٨٧٥ كان الميدان شبه مغلق حينما فتح فى ذلك العام شارع محمد على وشارع عبد العزيز ، نسبة إلى محمد على الكبير وإلى سلطان الدولة العثمانية حينذاك بمناسبة زيارته لمصر فى عهد الخديو اسماعيل فكانا أول شوارع واسعة ومستقيمة فى القاهرة .



وفى ١٩٣٠ فتح شارعان آخران من ميدان العتبة هما شارع الأزهر وشارع الأمير فاروق (الجيش حاليا) كي يسير فيهما الترام .

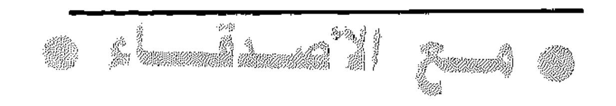
ولما تزوج الملك فاروق بالملكة فريدة فى ١٩٣٨ أطلق اسمها على ميدان العتبة حتى طلقها فى نوفمبر ١٩٤٨ فغير اسم الميدان إلى ميدان محمد على الكبير ، وفى ١٩٥٣ أعيد اسم العتبة الخضراء إلى الميدان .. ويوجد به الآن مبنى المطافئ ومبنى هيئة البريد ، وقد تم انشاؤهما فى أواخر القرن ١٩ ، وقد أدرجا ضمن الآثار الممنوع هدمها لأنهما يعبران عن طراز العمارة الأوربية فى القرن الماضى .. أما من الناحية الادارية فإن ميدان العتبة يتبع قسم الموسكى .

وتشتهر منطقة العتبة بالمتاجر المتنوعة إلا أنها تنفرد بتركز تجارة الساعات بها حيث تروج تجارتها عقب إعلان نتائج امتحانات المدارس .

وقد طرأ على ميدان العتبة تغييرات هامة على يد المحافظ عمر عبد الآخر وتمثل ذلك فى الغاء الترام وتفريعاته فى ١٩٩٢ .

ونظرا لأن ميدان العتبة يقع فى وسط القاهرة وعند ملتقى شوارع هامة فقد تكدس به باعة كانوا جائلين بطريقة سيئة أصبحت تمنع المرور ، فكان قرار محافظ القاهرة باخلاء منطقة العتبة منهم بمثابة عملية جراحية أعادت ضمن إجراءات عمرانية أخرى الوجه الحضارى لميدان العتبة العريق .

فتحى حافظ أحمد الحديدى



نصر سيف علام - كلية الدراسات العربية بالفيوم :

- نشكركم على اقترحاتكم وإن كان بعضها خارج نطاق المجلة ، أما «قصيدتكم» التى عنوانها : «آثام الليالى» ، فلا توجد شطرة واحدة موزونة فى أبياتها التسعة إلا الشطرة الأولى من البيت الأول التى تقول فيها : «عثرات المرء ميزان قوامه» .. ووراءها سبع عشرة شطرة غير موزونة ! ..

السيد التحفة – شبرا خيت :

– أشعاركم التى ترسلونها إلينا ، مفتقرة كلها إلى الوزن ، فضلا عما تحفل به من أخطاء لغوية ونحوية واملائية .. وأنت تقول : «فترشدونى على ذلتى» .. وتقصد أن تقول : «فلترشدونى إلى زلتى» .. فالزلة بالزاى لا بالذال المعجمة .. وها قد أرشدناك إلى زلتك أى إلى خطئك .

حسن رجب محمد ابراهيم – بلصفورة :

– أشعاركم التى تلقيناها تفتقر إلى الوزن ، أما إذا كنت تقصد كتابة الشعر المنثور أو القصيدة النثرية ، فهذا شئ آخر ..

د . ماهر منير كامل – المنصورة :

– ليست المسألة بالدور كما تقول ، فنحن ننشر ما نتوسم فيه الجودة ، ولعل هذا هو السبب فى أن قصصكم لم تجد طريقها إلى النشر حتى الآن ، ولعلها تجد طريقها فيما بعد ..

ونشكر لاصدقائنا السادة : أيمن سمير لاشين .. محمود عبد العزيز عبد المجيد .. أشرف الصاوى .. رشاد محمد يوسف .. أبو عبيدة عبد الجليل الحجازى .. باقى اسكندر عبد النور .. سعاد الصاوى .. نجوى قلمجى (مع العلم بأن قصيدتك التى عنوانها : ماذا ترتدى أيها العصفور ؟! .. هى نثر خالص لا أثر فيه للأوزان الشعرية) .. وصال غندور .. أحمد محمد أمين الصواف ..



الكلمة الأخيرة

السلام عليكم يا أهل الكتاب

بقلم : صافى ناز كاظم

- الحقيقة أنا لست طرفاً فى جدل الفتنة الطائفية ولا أحب أن أكون ولكنى تعرضت فى زيارة عزاء لأسرة من معارفى لشظايا طائشة تناثرت من فم واعظة جاءت لكى تلقى محاضرة فى جلسة النساء المعزيات وغالباً أن أهل المتوفى جاءوا بها لترتقى بمفهوم العزاء من مجرد بكاء إلى تذكرة بالموت تنفع المؤمنين . وإلى هذا الحد كان الأمر محموداً حتى تطرقت الواعظة إلى توصية الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام : « أفشوا السلام بينكم .. »

وإذا بها تقول أنها تحتار أحياناً هل تلقى السلام أم لا على النساء السافرات لأنها لا تعرف المسلمة من المسيحية ، وهى تخشى أن تقول «السلام عليكم» فتقع التحية على مسيحية وهذا ممنوع ! جُن جنونى فى صمت فالمناسبة لا تتحمل أن أقول للأخت الواعظة ما كان يجب أن أقوله وهو ألا تفترى على الله الكذب . فأين فى نصوص القرآن أو تعاليم وأحـاديث الرسول ﷺ الصحيحة والموثوق بها ما ينهانا عن إلقاء السلام على أهل الكتاب ؟ فى سورة المائدة وهى سورة مدنية آية صريحة رقم ٥ تقول : «بسم الله الرحمن الرحيم : اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حلٌ لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين» . صدق الله العظيم . يعنى طعام المسيحى واليهودى حلال لى وطعامى حلال لهم والمسلم يتزوج المسيحية واليهودية إذن فالأمر القرآنى تعدى من مجرد تمنى السلام على أهل الكتاب إلى واقع إعطاء السلام، فهل هناك مشاركة فى طعام واحد من دون سلام؟ وهل هناك زواج لا يكلف فيه الرجل المسلم أن يمنح زوجته السلام والمودة والأمن والطمأنينة؛ يمنح زوجته كل ذلك ويجلبه لها هى وأسرتها فى صلة الرحم؟ . إن ما ينهانا الله عنهم هم الذين ظلموا من أهل الكتاب، كما تقرر الآية الكريمة رقم ٤٦ من سورة العنكبوت: «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» . صدق الله العظيم .

هذا هو اسلامنا الناصع الوضىء . فاللهم إكفنا شر من يفترون عليك الكذب . آمين .

